السيرة النبوية

عرض وقائع وتحليل أحداث

تأليف

الدكتور علي محمد الصلابي

دار المعرفة
بيروت - لبنان

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية
محفوظة لدار المعرفة بيروت ـ لبنان

Copyright© All rights reserved
Exclusive rights by **Dar Al-Marefah**
Beirut - Lebanon

ISBN 9953-429-76-6

الطبعة السابعة
1429 هـ ـ 2008 م

دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع
DAR AL-MAREFAH
Printing & Publishing

جسر المطار شارع البرجاوي • هاتف: ٨٣٤٣٠١-٨٣٤٣٣٢
فاكس: ٨٣٥٦١٤ • ص.ب: ٧٨٧٦ ـ بيروت ـ لبنان
Airport Bridge Birjawi Str. • Tel: 834301-834332
Fax: 835614 • P.O.Box: 7876 Beirut - Lebanon
Email: info@marefah.com • www.marefah.com

السيرة النبوية

عرض وقائع وتحليل أحداث

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضللْ فلا هادي له وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النِّساء: الآية ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزَاب: الآيتان ٧٠، ٧١].

يا رب لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا.

أما بعد:

إن دراسة الهدْي النبوي أمر له أهميته لكل مسلم؛ فهو يحقق عدة أهداف، من أهمها: الاقتداء برسول الله ﷺ من خلال معرفة شخصيته ﷺ، وأعماله وأقواله وتقريراته، وتكسب المسلم محبة الرسول ﷺ، وتُنميها وتباركها، وتعرفه بحياة الصحابة الكرام، الذين جاهدوا مع رسول الله ﷺ، فتدعوه تلك الدراسة لمحبتهم، والسير على نهجهم، واتباع سبيلهم، كما أن السيرة النبوية توضح للمسلم حياة الرسول ﷺ بدقائقها، وتفاصيلها منذ ولادته، وحتى موته، مرورًا بطفولته وشبابه، ودعوته وجهاده وصبره، وانتصاره على عدوه، وتظهر بوضوح أنه كان زوجًا وأبًا وقائدًا ومحاربًا، وحاكمًا، وسياسيًا، وداعية وزاهدًا وقاضيًا، وعلى هذا فكل مسلم يجد بُغيته فيها[1]، فالداعية يجد له في سيرة رسول الله ﷺ أساليب الدعوة، ومراحلها المتسلسلة، ويتعرف على الوسائل المناسبة لكل مرحلة من مراحلها، فيستفيد منها في اتصاله بالناس، ودعوتهم للإسلام، ويستشعر الجهد العظيم الذي بذله رسول الله ﷺ من أجل إعلاء كلمة الله، وكيفية التصرف أمام العوائق والعقبات والصعوبات، وما هو الموقف الصحيح أمام

---

(١) انظر: السيرة النبوية دراسة تحليلية، د. محمد أبو فارس (ص ٥٠).

الشدائد والفتن. ويجد المربي في سيرته ﷺ دروساً نبوية في التربية، والتأثير على الناس بشكلٍ عام، وعلى أصحابه الذين رباهم على يده وكلأهم بعنايته، فأخرج منهم جيلاً قرآنيًا فريدًا، وكوّن منهم أمة هي خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله، وأقام بهم دولة نشرت العدل في مشارق الأرض ومغاربها، ويجد القائد المحارب في سيرته ﷺ نظاماً محكمًا، ومنهجًا دقيقًا في فنون قيادة الجيوش والقبائل، والشعوب والأمة، فيجد نماذج في التخطيط واضحة، ودقة في التنفيذ بينة، وحرصًا على تجسيد مبادىء العدل، وإقامة قواعد الشورى بين الجند والأمراء، والراعي والرعية. ويتعلم منها السياسي كيف كان ﷺ يتعامل مع أشد خصومه السياسيين المنحرفين، كرئيس المنافقين عبد الله بن أُبَيّ ابن سَلول الذي أظهر الإسلام، وأبطن الكفر والبغض لرسول الله ﷺ، وكيف كان يحيك المؤامرات وينشر الإشاعات التي تسيء إلى رسول الله ﷺ لإضعافه وتنفير الناس منه، وكيف عامله رسول الله ﷺ وصبر عليه، وعلى حقده، حتى ظهرت حقيقته للناس، فنبذوه جميعًا حتى أقرب الناس له، وكرهوه والتفوا حول قيادة النبي ﷺ.

ويجد العلماء فيها ما يعينهم على فهم كتاب الله تعالى، لأنها هي المفسرة للقرآن الكريم في الجانب العملي، ففيها أسباب النزول وتفسيرٌ لكثير من الآيات، فتعينهم على فهمها، والاستنباط منها، ومعايشة أحداثها، فيستخرجون أحكامها الشرعية، وأصول السياسة الشرعية، ويحصلون منها على المعارف الصحيحة في علوم الإِسلام المختلفة، وبها يدركون الناسخ والمنسوخ، وغيرها من العلوم، وبذلك يتذوقون روح الإِسلام ومقاصده السامية، ويجد فيها الزهاد معاني الزهد، وحقيقته ومقصده، ويستقي منها التجار مقاصد التجارة، وأنظمتها وطرقها، ويتعلم منها المبتَلَون أسمى درجات الصبر والثبات، فتقوى عزائمهم على السير في طريق دعوة الإِسلام، وتعظم ثقتهم بالله عز وجل، ويوقنون أن العاقبة للمتقين[1].

وتتعلم منها الأمة الآداب الرفيعة، والأخلاق الحميدة، والعقائد السليمة، والعبادة الصحيحة، وسمو الروح، وطهارة القلب، وحب الجهاد في سبيل الله، وطلب الشهادة في سبيله، ولهذا قال علي بن الحسين رحمه الله: «كنا نُعلَّم مغازيَ النبي ﷺ كما نُعلَّم السورة من القرآن» وقال الواقدي: سمعت محمد بن عبد الله يقول: سمعت عمي الزهري يقول: «في علم المغازي علم الآخرة والدنيا»[2].

وقال إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص: «كان أبي يعلمنا مغازي رسول الله ﷺ يعدها علينا، ويقول: هذه مآثر آبائكم فلا تضيعوا ذكرها»[3].

---

(١) انظر: مدخل لفهم السيرة، د. يحيى اليحيى (ص ١٤).
(٢) البداية والنهاية: لابن كثير (٣/ ٢٥٦، ٢٥٧) ط) / دار المعرفة، (٣/ ٢٤٢) ط / ١٩٧٨م مكتبة المعارف ـ لبنان، مكتبة النصر ـ الرياض.
(٣) انظر: البداية والنهاية (٢/ ٢٤٢).

إن دراسة الهدي النبوي في تربية الأمة وإقامة الدولة، يساعد العلماء والقادة، والفقهاء والحكام، على معرفة الطريق إلى عز الإسلام والمسلمين، من خلال معرفة عوامل النهوض، وأسباب السقوط، ويتعرفون على فقه النبي ﷺ في تربية الأفراد، وبناء الجماعة المسلمة، وإحياء المجتمع، وإقامة الدولة، فيرى المسلم حركة النبي ﷺ في الدعوة، والمراحل التي مر بها، وقدرته على مواجهة أساليب المشركين في محاربة الدعوة، وتخطيطه الدقيق في الهجرة إلى الحبشة، ومحاولته إقناع أهل الطائف بالدعوة، وعرضه لها على القبائل في المواسم، وتدرجه في دعوة الأنصار ثم هجرته المباركة إلى المدينة.

إن من تأمل حادثة الهجرة، ورأى دقة التخطيط ودقة التنفيذ من ابتدائها إلى انتهائها، ومن مقدماتها إلى ما جرى بعدها، يدرك أن التخطيط المسدد بالوحي في حياة الرسول ﷺ قائم، وأن التخطيط جزء من السنة، وهو جزء من التكليف الإلهي في كل ما طولب به المسلم.

إن المسلم يتعلم من المنهاج النبوي كل فنون إدارة الصراع، والبراعة في إدارة كل مرحلة، وفي الانتقال من مستوى إلى آخر، وكيف واجه القوى المضادة من اليهود والمنافقين، والكفار والنصارى، وكيف تغلب عليها كلها بسبب توفيق الله تعالى، والالتزام بشروط النصر وأسبابه، التي أرشد إليها المولى في كتابه الكريم.

إن قناعتي الراسخة في التمكين لهذه الأمة، وإعادة مجدها وعزتها، وتحكيم شرع ربها؛ منوط بمتابعة الهَدْي النبوي، قال تعالى:

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النُّور: الآية ٥٤].

فقد بينت الآية الكريمة أن طريق التمكين في متابعة النبي ﷺ، فقد جاءت الآيات التي بعدها تتحدث عن التمكين، وتوضح شروطه، قال تعالى:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النُّور: الآيتان ٥٥، ٥٦].

وقد قام رسول الله ﷺ وأصحابه بتحقيق شروط التمكين، فحققوا الإيمان بكل معانيه، وجميع أركانه، ومارسوا العمل الصالح بكل أنواعه، وحَرَصوا على كل أنواع الخير، وصنوف البر، وعبدوا الله عبودية شاملة في كل شؤون حياتهم، وحاربوا الشرك بكل أشكاله وأنواعه وخفاياه، وأخذوا بأسباب التمكين المادية والمعنوية، على مستوى الأفراد والجماعة، حتى أقاموا دولتهم في المدينة، ومن ثم نشروا دين الله بين الشعوب والأمم.

إن تأخر المسلمين اليوم عن القيادة العالمية لشعوب الأرض، نتيجة منطقية لقوم نسوا رسالتهم، وحطوا من مكانتها، وشابوا معدنها بركام هائل من الأوهام في مجال العلم والعمل على حد سواء، وأهملوا السنن الربانية، وظنوا أن التمكين قد يكون بالأماني والأحلام.

إن هذا الضعف الإيماني، والجفاف الروحي، والتخبط الفكري والقلق النفسي، والشتات الذهني، والانحطاط الخلقي الذي أصاب المسلمين، بسبب الفجوة الكبيرة التي حدثت بين الأمة والقرآن الكريم، والهَدْي النبوي الشريف، وعصرِ الخلفاء الراشدين والنقاط المشرقة المضيئة في تاريخنا المجيد.

أما ترى معي ظهور الكثير من المتحدثين باسم الإسلام، وهم بعيدون كل البعد عن القرآن الكريم، والهَدْي النبوي، وسيرة الخلفاء الراشدين، وأدخلوا في خطابهم مصطلحات جديدة، ومفاهيم مائعة؛ نتيجة الهزيمة النفسية أمام الحضارة الغربية، وأصبحوا يتلاعبون بالألفاظ ويَلْوُونها، ويتحدثون الساعات الطوال، ويدبجون المقالات، ويكتبون الكتب في فلسفة الحياة والكون والإنسان، ومناهج التغيير، ولا نكاد نلمس في حديثهم، أو نلاحظ في مقالاتهم عمقاً في فهم فقه التمكين، وسنن الله في تغيير الشعوب، وبناء الدول من خلال القرآن الكريم، والمنهاج النبوي الشريف، أو دعوة الأنبياء والمرسلين لشعوبهم، أو تقصّياً لتاريخنا المجيد، فيخرجوا لنا عوامل النهوض عند نور الدين محمود، أو صلاح الدين، أو يوسف بن تاشفين، أو محمود الغزنوي، أو محمد الفاتح، ممن ساروا على الهدى النبوي في تربية الأمة وإقامة الدولة، بل يستدلون ببعض الساسة أو المفكرين، والمثقفين من الشرق أو الغرب، ممن هم أبعد الناس عن الوحي السماوي، والمنهج الرباني، وأنا لست ممن يعارض الاستفادة من تجارب الشعوب والأمم؛ فالحكمة ضالة المؤمن فهو أحق بها أنّى وجدها، ولكنني ضد الذين يجهلون أو يتجاهلون المنهاج الرباني، وينسون ذاكرة الأمة التاريخية المملوءة بالدروس والعبر والعظات، ثم بعد ذلك يحرصون على أن يتصدروا قيادة المسلمين وبأهوائهم، وآرائهم البعيدة عن نور القرآن الكريم، والهَدْى النبوي الشريف.

وما أجمل ما قاله ابن القيم:

والله ما خوفي من الذنوب فإنها لعلى ... طريق العفو والغفران
لكنما أخشى انسلاخ القلب عن تحكيم ... هذا الوحي والقرآن
ورضا بآراء الرجال وخرصها ... لا كان ذاك بمنة الرحمٰن

إننا في أشد الحاجة لمعرفة المنهاج النبوي في تربية الأمة وإقامة الدولة، ومعرفة سنن الله في الشعوب والأمم والدول، وكيف تعامل معها النبي ﷺ، عندما انطلق بدعوة الله في دنيا الناس، حتى نلتمس من هديه ﷺ الطريق الصحيح في دعوتنا، والتمكين لديننا، ونقيم بنياننا على منهجية سليمة، مستمدة أصولها وفروعها من كتاب ربنا، وسنة نبينا ﷺ، قال تعالى:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: الآية ٢١] .

فقد كان فقه النبي ﷺ في تربية الأمة وإقامة الدولة شاملاً، ومتكاملاً ومتوازنًا، وخاضعًا لسنن الله في المجتمعات، وإحياءِ الشعوب وبناءِ الدول؛ فتعامل ﷺ مع هذه السنن بغاية الحكمة، وقمة الذكاء، كسنة التدرج، والتدافع، والابتلاء، والأخذ بالأسباب، وتغيير النفوس. وغرس ﷺ في نفوس أصحابه المنهج الرباني، وما يحمله من مفاهيم، وقيم وعقائد، وتصورات صحيحة عن الله والإنسان، والكون والحياة، والجنة والنار، والقضاء والقدر. وكان الصحابة رضي الله عنهم يتأثرون بمنهجه في التربية غاية التأثر، ويحرصون كل الحرص على الالتزام بتوجيهاته، فكان الغائب إذا حضر من غيبته، يسأل أصحابه عما رأوا من أحوال النبي ﷺ، وعن تعليمه وإرشاده، وعما نزل من الوحي حال غيبته، وكانوا يتبعون خطى الرسول ﷺ في كل صغيرة وكبيرة، ولم يكونوا يقصرون هذا الاستقصاء على أنفسهم، بل كانوا يلقنونه لأبنائهم ومن حولهم.

ففي هذا الكتاب تَقَصٍّ لأحداث السيرة، فيتحدث عن أحوال العالم قبل البعثة، والحضارات السائدة، والأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والخلقية في زمن البعثة، وعن الأحداث المهمة قبل المولد النبوي، وعن نزول الوحي، ومراحل الدعوة، والبناء التصوري والأخلاقي والتعبدي في العهد المكي، وعن أساليب المشركين في محاربة الدعوة، وعن الهجرة إلى الحبشة، ومحنة الطائف، ومنحة الإسراء والمعراج، والطواف على القبائل، ومواكب الخير، وطلائع النور من أهل يثرب، والهجرة النبوية، ويقف الكتاب بالقارىء على الأحداث مستخرجًا منها الدروس والعبر والفوائد، لكي يستفيد منها المسلمون في عالمنا المعاصر.

وتحدث الباحث عن حياة النبي ﷺ منذ دخوله المدينة إلى وفاته، وبين فقه النبي ﷺ في إرساء دعائم المجتمع، وتربيته، ووسائله في بناء الدولة، ومحاربة أعدائها في الداخل والخارج، فيقف الباحث على فقه النبي ﷺ في سياسة المجتمع، ومعاهداته مع أهل الكتاب، التي سجلت في الوثيقة، وحركته الجهادية، ومعالجته الاقتصادية، والارتقاء بالمسلم نحو مفاهيم هذا الدين، الذي جاء لإنقاذ البشرية من دياجير الظلام، وعبادة الأوثان، وانحرافها عن شريعة الحكيم المتعال. وقد حاول الباحث أن يعالج مشكلة اختزال السيرة النبوية في أذهان الكثير من أبناء الأمة. ففي العقود الماضية ظهرت دراسات رائعة في مجال السيرة النبوية، وكتب الله لها قبولاً وانتشاراً كالرحيق المختوم لصفي الدين المبار كفوري، وفقه السيرة للغزالي، وفقه السيرة النبوية للبوطي، والسيرة النبوية لأبي الحسن الندوي، وكانت هذه الدراسات مختصرة ولم تكن شاملة لأحداث السيرة، واعتمدت بعض الجامعات هذه الكتب، وظن بعض طلابها أن من استوعب هذه الكتب فقد أحاط بالسيرة النبوية، وهذا، في رأيي،

خطأ فادح وخطير في حق السيرة النبوية المشرفة، وقد تسرب هذا الأمر إلى بعض أئمة المساجد، وبعض قيادات الحركات الإسلامية، وانعكس ذلك على الأتباع، فأحدث تصورًا ناقصًا للسيرة عند كثير من الناس، وقد حذر الشيخ محمد الغزالي من خطورة هذا التصور في نهاية كتابه (فقه السيرة) فقال: قد تظن أنك درست حياة محمد ﷺ إذا تابعت تاريخه من المولد إلى الوفاة، وهذا خطأ بالغ.

إنك لن تفقه السيرة حقًّا إلا إذا درست القرآن الكريم، والسنة المطهرة، وبقدر ما تنال من ذلك، تكون صلتك بنبي الإسلام(١).

ففي هذه الدراسة يجد القارىء تسليط الأضواء على البعد القرآني، الذي له علاقة بالسيرة النبوية كغزوة بدر، وأحد، والأحزاب، وبني النضير، وصلح الحديبية، وغزوة تبوك، فيبين الباحث الدروس والعبر، وسنن الله في النصر والهزيمة، وكيف عالج القرآن الكريم أمراض النفوس من خلال الأحداث والوقائع. إن السيرة النبوية تعطي كل جيل ما يفيده في مسيرة الحياة، وهي صالحة لكل زمان ومكان، ومُصلحة كذلك.

لقد عشت سنين من عمري في البحث في القرآن الكريم، والسيرة النبوية، فكانت من أفضل أيام حياتي، فنسيت أثناء البحث غربتي وهجرتي، وتفاعلت مع الدرر والكنوز، والنفائس الموجودة في بطون المراجع والمصادر، فعملت على جمعها وترتيبها وتنسيقها وتنظيمها، حتى تكون في متناول أبناء أمتي العظيمة، وقد لاحظت التفاوت في ذكر الدروس والعبر، والفوائد والأحداث بين كتاب السيرة قديمًا وحديثًا، فأحيانًا يذكر الذهبي ما لم يذكره ابن هشام، ويذكر ابن كثير ما لم يذكره أصحاب السنن، هذا قديمًا، أما حديثًا فقد ذكر السباعي ما لم يذكره الغزالي، وذكر البوطي ما لم يذكره الغضبان، وهكذا وجدت في التفسير، وشروح الحديث، كفتح الباري، وشرح مسلم للنووي، وكتب الفقهاء ما لم يذكره كتاب السيرة قديمًا ولا حديثًا، فأكرمني الله تعالى بجمع تلك الدروس والعبر والفوائد، ونظمتها في عقد جميل يسهل الاطلاع عليه، ويساعد القارىء على تناول تلك الثمار اليانعة بكل سهولة.

إن في هذا الكتاب حصيلة علمية، وأفكارًا عملية، جمعت من مئات المراجع والمصادر، وقد أثرى هذا الجهدَ كثيرون بالحوار والنقاش والندوات، فأفاد بعضهم في الإشارة إلى بعض المراجع والمصادر النادرة، وعمل على توفيرها، والبعض الآخر أرشد إلى ضرورة التركيز على السنن والقوانين التي تعامل معها النبي ﷺ في حركته المباركة، كقانون الفرصة في فتح خيبر، وفتح مكة. وأشار البعض إلى أهمية ربط السيرة التاريخية بالسيرة السلوكية، والسيرة المعبر عنها بحديث شريف، أو فعل نبوي، والسيرة كما يقررها القرآن الكريم ـ ببعضها ومزجها في منهجية متناسقة ـ تمد أبناء الجيل بعلم غزير، وفقه عميق، وعاطفة جياشة، فهي غذاء للروح،

(١) انظر: فقه السيرة للغزالي (ص ٤٧٦).

وتثقيف للعقول وحياة للقلوب، وصفاء للنفوس.

إن السيرة النبوية غنية في كل جانب من الجوانب، التي تحتاجها مسيرة الدعوة الإسلامية، فالنبي ﷺ لم يلتحق بالرفيق الأعلى إلا بعد أن ترك سوابق كثيرة، لمن يريد أن يقتدي به في الدعوة، والتربية، والثقافة، والتعليم، والجهاد، وكل شؤون الحياة، كما أن التعمق في سيرة الرسول ﷺ يساعد القارىء على التعرف على الرصيد الخلقي الكبير، الذي تميز به رسول الله ﷺ عن كل البشر، ويتعرف على صفاته الحميدة، التي عاش بها في دنيا الناس، فيرى من خلال سيرته مصداق قول حسان بن ثابت رضي الله عنه عندما قال:

وأحسن منك لم ترَ قطُّ عيني ... وأجمل منك لم تلد النساءُ
خُلقت مُبرءًا مِن كل عيبٍ ... كأنك قد خُلِقتَ كما تشاءُ[1]

هذا ولا أدعي أني أتيت بما لم تستطعه الأوائل، فشأن رسول الله ﷺ كبير، وتوضيح بعض معالم سيرته يحتاج إلى نفس أرق، وفقه أدق، وذكاء أكبر، وإيمان أعمق، كما أنني لا أدعي لعملي هذا العصمة، أو الكمال، فهذا شأن الرسل والأنبياء، ومن ظن أنه قد أحاط بالعلم فقد جهل نفسه، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٨٥].

فالعلم بحر لا شاطىء له، وما أصدق الشاعر إذ يقول:

وقل لمن يدّعي في العلم فلسفة ... حفظت شيئًا وغابت عنك أشياء

يقول الثعالبي: لا يكتب أحد كتابًا فيبيت عنده ليلة، إلا أحب في غيرها أن يزيد فيه أو ينقص منه، هذا في ليلة فكيف في سنين معدودة؟

وقال العماد الأصبهاني: إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابًا في يومه؛ إلا قال في غده: لو غُيِّرَ هذا لكان أحسن، ولو زِيدَ كذا لكان يستحسن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو تُرك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر.

وأَخيرًا أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً لوجهه خالصًا، ولعباده نافعًا، وأن يثيبني على كل حرف كتبته، ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكل ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب، قال الشاعر:

أسيرُ خلف رِكَاب القوم ذا عَرَجٍ ... مؤمِّلاً جَبْرَ ما لا قَيْتُ من عوَجِ

(١) شرح ديوان حسان بن ثابت: ضبطه وصححه عبد الرحمٰن البرقوقي (ص ٦٦)، ب ـ ث، ديوان حسان بن ثابت (ص ١٠) تحت عنوان: (خلقت مبرءًا) طبعة دار صادر ـ بيروت، ب ـ ت، ديوان حسان بن ثابت (ص ١٢)، طبعة دار الشرق العربي ـ بيروت ـ ١٩٩١م.

فإن لحِقْتُ بهم من بعد ما سبقوا فكم لربِّ السماء في الناس من فَرَجِ
وإن ظَلَلْتُ بقفر الأرض منقطعا فما على أعرج في ذاك من حرج

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إِله إِلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

الفقير إِلى عفو ربه ومغفرته ورضوانه

علي محمد الصّلاَّبي

١٨ رجب ١٤٢١ هـ

١٦ أكتوبر ٢٠٠٠ م

الفصل الأول

أهم الأحداث التاريخية من قبل البعثة حتى نزول الوحي

المبحث الأول

الحضارات السائدة قبل البعثة ودياناتها

أولاً: الإمبراطورية الرومانية:

كانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية تعرف بالإمبراطورية البيزنطية، فكانت تحكم دول اليونان، والبلقان، وآسيا وسورية وفلسطين، وحوض البحر المتوسط بأسره، ومصر، وكل إفريقية الشمالية، وكانت عاصمتها القسطنطينية، وكانت دولة ظالمة، مارست الظلم والجور، والتعسف على الشعوب التي حكمتها، وضاعفت عليها الضرائب، وكثرت الاضطرابات والثورات، وكانت حياتهم العامة قائمة على كل أنواع اللهو واللعب، والطرب والترف.

أما مصر فكانت عرضة للاضطهاد الديني، والاستبداد السياسي، واتخذها البيزنطيون شاة حلوبًا يحسنون حلبها، ويسيئون علفها.

وأما سورية فقد كثرت فيها المظالم والرقيق، ولا يعتمدون في قيادة الشعب إلا على القوة، والقهر الشديد. وكان الحكم حكم الغرباء، الذي لا يشعر بأن عطف على الشعب المحكوم، وكثيرًا ما كان السوريون يبيعون أبناءهم، ليوفوا ما كان عليهم من ديون[1].

كان المجتمع الروماني مملوءًا بالتناقض والاضطراب، وقد جاء تصويره في كتاب «الحضارة ماضيها وحاضرها» كالآتي:

«كان هناك تناقض هائل في الحياة الاجتماعية للبيزنطيين، فقد رسخت النزعة الدينية في أذهانهم، وعمت الرهبانية، وشاعت في طول البلاد وعرضها، وأصبح الرجل العادي في البلاد يتدخل في الأبحاث الدينية العميقة، والجدل البيزنطي، ويتشاغل بها، كما طبعت الحياة العادية العامة بطابع المذهب الباطني، ولكن نرى هؤلاء ـ في جانب آخر ـ حريصين أشد الحرص على كل نوع من أنواع اللهو واللعب، والطرب والترف، فقد كانت هناك ميادين رياضية

---

(١) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ٣١، ٣٢) بتصرف.

واسعة، تتسع لجلوس ثمانين ألف شخص، يتفرجون فيها على مصارعات بين الرجال والرجال أحيانًا، وبين الرجال والسباع أحيانًا أخرى، وكانوا يقسمون الجماهير في لونين: لون أزرق، ولون أخضر، لقد كانوا يحبون الجمال، ويعشقون العنف والهمجية، وكانت ألعابهم دموية ضارية أكثر الأحيان، وكانت عقوبتهم فظيعة تقشعر منها الجلود، وكانت حياة سادتهم وكبرائهم عبارة عن المجون والترف، والمؤامرات والمجاملات الزائدة، والقبائح والعادات السيئة»(١).

ثانيًا: الإمبراطورية الفارسية:

كانت الإمبراطورية الفارسية تعرف بالدولة الفارسية أو الكسروية، وهي أكبر وأعظم من الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وقد كثرت فيها الديانات المنحرفة، كالزرادشتية، والمانيَّة التي أسسها مانِي في أوائل القرن الثالث الميلادي، ثم ظهرت المزْدَكِية، في أوائل القرن الخامس الميلادي التي دعت إلى الإباحية في كل شيء، مما أدى إلى انتشار ثورات الفلاحين، وازدياد النهابين للقصور، فكانوا يقبضون أو يأسرون النساء، ويستولون على الأملاك والعقارات، فأصبحت الأرض والمزارع والدور كأن لم تسكن من قبل.

وكان ملوكهم يحكمون بالوراثة، ويضعون أنفسهم فوق بني آدم؛ لأنهم يعتبرون أنفسهم من نسل الآلهة، وأصبحت موارد البلاد ملكًا لهؤلاء الملوك، يتصرفون فيها ببذخ لا يتصور، ويعيشون عيش البهائم، حتى ترك كثير من المزارعين أعمالهم، أو دخلوا الأديرة والمعابد فرارًا من الضرائب، والخدمة العسكرية، وكانوا وقودًا حقيرًا في حروب طاحنة مدمرة، قامت في فترات من التاريخ، دامت سنين طوالاً بين الفرس والروم، لا مصلحة للشعوب فيها إلا تنفيذ نزوات ورغبات الملوك(٢).

ثالثًا: الهند:

اتفقت كلمة المؤرخين على أن أحط أدوارها ديانة، وخلقًا واجتماعًا، وسياسة، ذلك العهد الذي يبتدىء من مستهل القرن السادس الميلادي، فانتشرت الخلاعة حتى في المعابد، لأن الدين أعطاها لونًا من القدس والتعبد، وكانت المرأة لا قيمة لها ولا عصمة، وانتشرت عادة إحراق المرأة المتوفَّى زوجها، وامتازت الهند عن أقطار العالم بالتفاوت الفاحش بين طبقات الشعب، وكان ذلك تابعًا لقانون مدني سياسي ديني، وضعه المشرعون الهنديون، الذين كانت لهم صفة دينية، وأصبح هو القانون العام في المجتمع، ودستور حياتهم، وكانت الهند في حالة فوضى وتمزق، انتشرت فيها الإمارات التي اندلعت بينها الحروب الطاحنة، وكانت بعيدة عن أحداث عالمها في عزلة واضحة يسيطر عليها التزمت، والتطرف في العادات والتقاليد، والتفاوت الطبقي، والتعصب الدموي والسلالي، وقد تحدث مؤرخ هندوكي ـ أستاذ

(١) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ٣١) بتصرف.

(٢) المصدر نفسه (ص ٣٢، ٣٣) بتصرف.

التاريخ في إِحدى جامعات الهند ـ عن عصر سابق لدخول الإِسلام في الهند فقال: «كان أهل الهند منقطعين عن الدنيا، منطوين على أنفسهم، لا خبرة عندهم بالأوضاع العالمية، وهذا الجهل أضعف موقفهم، فنشأ فيهم الجمود، وعمّت فيهم أمارات الانحطاط والتدهور. كان الأدب في هذه الفترة بلا روح، وهكذا كان الشأن في الفن المعماري، والتصوير، والفنون الجميلة الأخرى»(١).

و«كان المجتمع الهندي راكدًا جامدًا، كان هناك تفاوت عظيم بين الطبقات، وتمييز معيب بين أسرة وأسرة، وكانوا لا يسمحون بزواج الأيامى، ويشددون على أنفسهم في أمور الطعام والشراب، أما المنبوذون فكانوا يعيشون ـ مضطرين ـ خارج بلدهم ومدينتهم»(٢).

كان تقسيم سكان الهند إِلى أربع طبقات:

١ ـ طبقة الكهنة ورجال الدين، وهم «البراهمة».

٢ ـ ورجال الحرب والجندية، وهم «شترى».

٣ ـ ورجال الفلاحة والتجارة، وهم «ويش».

٤ ـ ورجال الخدمة وهم «شودر»، وهم أحط الطبقات، فقد خلقهم خالق الكون ـ في زعمهم الجاهلي ـ من أرجله، وليس لهم إِلا خدمة هذه الطبقات الثلاث وإِراحتها.

وقد منح هذا القانون البراهمة مركزًا ومكانة، لا يشاركهم فيها أحد، والبرهمي رجل مغفور له، ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه وأعماله، ولا يجوز فرض جباية عليه، ولا يعاقب بالقتل في حال من الأحوال. أما «شودر» فليس لهم أن يقتنوا مالاً، أو يدخروا كنزًا، أو يجالسوا برهميًا، أو يمسوه بيدهم، أو يتعلّموا الكتب المقدسة(٣).

رابعًا: أحوال العالم الدينية قبل البعثة المحمدية:

كانت الإِنسانية، قبل بزوغ فجر الإِسلام العظيم، تعيش مرحلة من أحط مراحل التاريخ البشري، في شؤونها الدينية، والاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، وتعاني من فوضى عامة في جميع شؤون حياتها؛ وهيمن المنهج الجاهلي على العقائد والأفكار، والتصورات والنفوس، وأصبح الجهل والهوى، والانحلال والفجور، والتجبر والتعسف، من أبرز ملامح المنهج الجاهلي المهيمن على دنيا الناس(٤).

---

(١) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ٣٨).

(٢) المصدر نفسه (ص ٣٩).

(٣) راجع القانون المدني الاجتماعي المسمى (منو شاسنز) الأبواب ١ ـ ٢ ـ ٨ ـ ٩ ـ ١٠. نقلاً عن السيرة النبوية للندوي (ص ٣٨).

(٤) انظر: الغرباء الأولون، سلمان العودة (ص ٥٧).

وضاع تأثير الديانات السماوية على الحياة ـ أو كاد ـ بسبب ما أصابها من التبديل والتحريف، والتغيير الذي جعلها تفقد أهميتها، باعتبارها رسالة الله إلى خلقه. وانشغل أهلها بالصراعات العقدية النظرية، التي كان سببها دخول الأفكار البشرية، والتصورات الفاسدة على هذه الأديان، حتى أدى إلى الحروب الطاحنة بينهم، ومن بقي منهم لم يحرف ولم يبدل قليل نادر، وآثر الابتعاد عن دنيا الناس، ودخل في حياة الخلوة والعزلة، طمعًا في النجاة بنفسه، يأسًا من الإصلاح. ووصل الفساد إلى جميع الأصناف والأجناس البشرية، ودخل في جميع المجالات بلا استثناء، ففي الجانب الديني تجد الناس إما أن ارتدوا عن الدين، أو خرجوا منه، أو لم يدخلوا فيه أصلاً، أو وقعوا في تحريف الديانات السماوية، وتبديلها. أما في الجانب التشريعي، فإن الناس نبذوا شريعة الله وراءهم ظِهريًا، واخترعوا من عند أنفسهم قوانين، وشرائع لم يأذن بها الله، تصطدم مع العقل وتختلف مع الفطرة.

وتَزَعَّم هذا الفساد زعماء الشعوب والأمم، من القادة، والرهبان، والقساوسة، والدَّهاقين، والملوك، وأصبح العالم في ظلام دامس، وليل بهيم، وانحراف عظيم عن منهج الله، سبحانه وتعالى.

فاليهودية: أصبحت مجموعة من الطقوس والتقاليد، لا روح فيها، ولا حياة. وتأثرت بعقائد الأمم التي جاورتها، واحتكت بها، والتي وقعت تحت سيطرتها، فأخذت كثيرًا من عاداتها، وتقاليدها الوثنية الجاهلية. وقد اعترف بذلك مؤرخو اليهود(١)، فقد جاء في دائرة المعارف اليهودية: «إن سخط الأنبياء وغضبهم على عبادة الأوثان يدل على أن عبادة الأوثان والآلهة، كانت قد تسربت إلى نفوس الإسرائيليين، ولم تستأصل شأفتها إلى أيام رجوعهم من الجلاء والنفي في بابل، وقد اعتقدوا معتقدات خرافية وشركية. إن التلمود أيضًا يشهد بأن الوثنية كانت فيها جاذبية خاصة لليهود»(٢).

إن المجتمع اليهودي قبل البعثة المحمدية قد وصل إلى الانحطاط العقلي، وفساد الذوق الديني، فإذا طالعت تلمود بابل، الذي يبالغ اليهود في تقديسه، والذي كان متداولاً بين اليهود في القرن السادس المسيحي، تجد فيه نماذج غريبة من خفة العقل، وسخف القول، والاجتراء على الله، والعبث بالحقائق، والتلاعب بالدين والعقل(٣).

أما المسيحية: فقد امتحنت بتحريف الغالين، وتأويل الجاهلين، واختفى نور التوحيد وإخلاص العبادة لله وراء السحب الكثيفة(٤)، واندلعت الحروب بين النصارى في الشام

---

(١) انظر السيرة النبوية ـ أبو الحسن الندوي (ص ٢٠).

(٢) المصدر نفسه (ص ٢٠).

(٣) المصدر نفسه (ص ٢١).

(٤) المصدر نفسه (ص ٢١).

والعراق، وبين نصارى مصر حول حقيقة المسيح وطبيعته، وتحولت البيوت والمدارس والكنائس إلى معسكرات متنافسة، وظهرت الوثنية في المجتمع المسيحي في مظاهر مختلفة، وألوان شتى، فقد جاء في تاريخ المسيحية في ضوء العلم المعاصر:

«لقد انتهت الوثنية، ولكنها لم تلق إبادة كاملة، بل إنها تغلغلت في النفوس واستمر كل شيء فيها باسم المسيحية، وفي ستارها؛ فالذين تجردوا عن آلهتهم وأبطالهم وتخلوا عنهم، أخذوا شهيدًا من شهدائهم، ولقبوه بأوصاف الآلهة، ثم صنعوا له تمثالاً، وهكذا انتقل هذا الشرك وعبادة الأصنام إلى هؤلاء الشهداء المحليين، ولم ينته هذا القرن حتى عمت فيه عبادة الشهداء والأولياء، وتكونت عقيدة جديدة، وهي أن الأولياء يحملون صفات الألوهية، وصار هؤلاء الأولياء والقديسون خلقًا وسيطًا بين الله والإنسان، يحمل صفة الألوهية على أساس عقائد الأريسيين، وأصبحوا رمزًا لقداسة القرون الوسطى، وورعها وطهرها، وغيرت أسماء الأعياد الوثنية بأسماء جديدة حتى تحول في عام ٤٠٠ ميلادي عيد الشمس القديم إلى عيد ميلاد المسيح»(١). وجاء في دائرة المعارف الكاثوليكية الجديدة: «تغلغل الاعتقاد بأن الإله الواحد مركب من ثلاثة أقانيم، في أحشاء حياة العالم المسيحي وفكره، منذ ربع القرن الرابع الأخير، ودامت كعقيدة رسمية مُسلمة، عليها الاعتماد في جميع أنحاء العالم المسيحي، ولم يرفع الستار عن تطور عقيدة التثليث وسرها إلا في المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر الميلادي»(٢).

لقد اندلعت الحروب بين النصارى، وكفر بعضهم بعضاً، وقتل بعضهم بعضاً، وانشغل النصارى ببعضهم عن محاربة الفساد وإصلاح الحال، ودعوة الأمم إلى ما فيه صلاح البشرية(٣).

أما المجوس: فقد عرفوا من قديم الزمان بعبادة العناصر الطبيعية، أعظمها النار، وانتشرت بيوت النار في طول البلاد وعرضها، وعكفوا على عبادتها، وبنوا لها معابد وهياكل، وكانت لها آداب وشرائع دقيقة داخل المعابد، أما خارجها فكان أتباعها أحرارًا، يسيرون على هواهم لا فرق بينهم وبين من لا دين له.

ويصف المؤرخ الدنماركي طبقة رؤساء الدين، ووظائفهم عند المجوس في كتابه (إيران في عهد الساسانيين) فيقول: «كان واجبًا على هؤلاء الموظفين أن يعبدوا الشمس أربع مرات في اليوم، ويضاف إلى ذلك عبادة القمر والنار والماء، وكانوا مكلفين بأدعية خاصة، عند النوم والانتباه، والاغتسال ولبس الزنار، والأكل والعطس، وحلق الشعر، وتقليم الأظفار،

---

(١) المصدر نفسه (ص ٢٣).

(٢) دائرة المعارف الكاثوليكية الجديدة، مقال التثليث (١٤/ ٣٩٥).

(٣) انظر: فتح العرب لمصر، تعريب محمد أبو حديد (ص ٣٧، ٣٨، ٤٨).

وقضاء الحاجة وإيقاد السرج، وكانوا مأمورين بألا يَدَعوا النار تنطفىء، وألا تمس النار والماء بعضها بعضًا، وألا يَدعوا المعدن يصدأ لأن المعادن عندهم مقدسة»[١].

وكان أهل إيران يستقبلون في صلاتهم النار، وقد حلف (يزدجرد) ـ آخر ملوك الساسانيين ـ بالشمس مرة، وقال: «أحلف بالشمس التي هي الإله الأكبر». وقد دان المجوس بالثنوية في كل عصر، وأصبح ذلك شعارًا لهم، فآمنوا بإلٰهين اثنين، أحدهما النور أو إلٰه الخير، والثاني الظلام أو إلٰه الشر[٢].

أما البوذية: في الهند وآسيا الوسطى فقد تحولت وثنية، تحمل معها الأصنام حيث سارت، وتبني الهياكل وتنصب تماثيل بوذا حيث حلت ونزلت[٣].

أما البَرْهَمِية: دين الهند الأصلي فقد امتازت بكثرة المعبودات والآلهة، وقد بلغت أوجها في القرن السادس الميلادي، ولا شك أن الديانة الهندوكية والبوذية وثنيتان سواء بسواء، لقد كانت الدنيا المعمورة من البحر الأطلسي إلى المحيط الهادي غارقة في الوثنية، وكأنما كانت المسيحية واليهودية والبوذية والبرهمية تتسابق في تعظيم الأوثان وتقديسها، وكانت كخيل رهان تجري في حلبة واحدة.

وقد أشار النبي ﷺ إلى عموم هذا الفساد لجميع الأجناس، وجميع المجالات بلا استثناء، فقد قال ﷺ ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أُعَلِّمَكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا؛ كلُّ مال نحلته[٤] عبدًا حلالٌ، وإني خلقت عبادي حنفاء[٥] كلَّهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم[٦]، وحرمتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتْهم أن يشركوا بي ما لم أُنْزِل به سلطانًا، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمَقَتَهم: عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب»[٧].

والحديث يشير إلى انحراف البشرية في جوانب متعددة كالشرك بالله، ونبذ شريعته، وفساد المصلحين من حملة الأديان السماوية، وممالأتهم للقوم على ضلالهم[٨].

---

(١) إيران في عهد الساسانيين (ص ١٥٥)، نقلاً عن السيرة النبوية للندوي (ص ٢٧).

(٢) المصدر نفسه (ص ٢٧).

(٣) انظر: السيرة النبوية، للندوي (ص ٢٨).

(٤) نَحلْتُه: أعطيته.

(٥) حنفاء: مائلين عن الشرك إلى التوحيد.

(٦) اجتالتهم: ذهبت بهم.

(٧) مسلم، كتاب الجنة، باب الصفات؛ ٤/٢١٩٧، رقم ٢٨٦٥).

(٨) انظر: الغرباء الأولون (ص ٥٩).

المبحث الثاني

أصول العرب وحضارتهم

أولاً: أصول العرب:

قسم المؤرخون أصول العرب إلى ثلاثة أقسام، بحسب السلالات التي انحدروا[١] منها:

١ ـ العرب البائدة:

وهي قبائل عاد، وثمود، والعمالقة، وطَسْم، وجَديس، وأمَيْم، وجُرهم وحضرموت، ومن يتصل بهم، وهذه درست معالمها، واضمحلت من الوجود قبل الإسلام، وكان لهم ملوك امتد ملكهم إلى الشام ومصر[٢].

٢ ـ العرب العاربة:

وهم العرب المنحدرة من صلب يَعْرُب بن يَشْجُب بن قُحطان، وتسمى بالعرب القحطانية[٣]، ويعرفون بعرب الجنوب[٤]، ومنهم ملوك اليمن، ومملكة مَعين، وسبأ حِمْيَر[٥].

٣ ـ العرب العدنانية:

نسبة إلى عدنان الذي ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وهم المعروفون بالعرب المستعربة، أي الذين دخل عليهم دم ليس عربيًّا، ثم تم اندماج بين هذا الدم وبين العرب، وأصبحت اللغة العربية لسان المزيج الجديد.

وهؤلاء هم عرب الشمال، موطنهم الأصلي مكة، وهم إسماعيل عليه السلام وأبناؤه، والجراهمة الذين تعلم منهم إسماعيل عليه السلام العربية، وصاهرهم، ونشأ أولاده عربًا مثلهم، ومن أهم ذرية إسماعيل (عدنان) جد النبي ﷺ الأعلى، ومن عدنان كانت قبائل العرب وبطونها، فقد جاء بعد عدنان ابنه مَعَدّ، ثم نزار، ثم جاء بعده والداه مُضَر وربيعة.

أما ربيعة بن نزار فقد نزل من انحدر من صلبه شرقًا، فقامت عبد القيس في البحرين، وحنيفة في اليمامة، وبنو بكر بن وائل ما بين البحرين واليمامة، وعبرت تَغْلب الفرات، فأقامت في أرض الجزيرة بين دجلة والفرات، وسكنت تميم في بادية البصرة[٦].

---

(١) انظر: فقه السيرة النبوية، للغضبان (ص ٤٥).

(٢) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/٤٦).

(٣) فقه السيرة، للغضبان (ص ٤٥).

(٤) مدخل لفهم السيرة (ص ٩٨).

(٥) السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/٤٧).

(٦) مدخل لفهم السيرة (ص ٩٨، ٩٩).

أما فرع مضر: فقد نزلت سليم بالقرب من المدينة، وأقامت ثقيف في الطائف، واستوطنت سائر هوازِن شرقي مكة، وسكنت أسد شرقي تيماء إِلى غربي الكوفة، وسكنت ذُبيان وعَبس من تيماء إِلى حوران[١]. وتقسيم العرب إِلى عدنانية وقحطانية هو ما عليه جمهرة علماء الأنساب، وغيرهم من العلماء. ومن العلماء من يرى أن العرب: عدنانية، وقحطانية ينتسبون إِلى إِسماعيل عليه السلام[٢].

وقد ترجم البخاري في صحيحه لذلك فقال: باب نسبة اليمن إِلى إِسماعيل عليه السلام، وذكر في ذلك حديثاً عن سلمة قال: خرج رسول الله ﷺ على قوم من أسلم يتناضلون بالسوق، فقال: «ارموا بني إِسماعيل، فإِن أباكم كان رامياً، وأنا مع بني فلان» ـ لأحد الفريقين ـ، فأمسكوا بأيديهم، فقال «ما لهم»؟ قالوا: وكيف نرمي وأنت مع بني فلان؟ فقال: «ارموا وأنا معكم كلكم»[٣].

قال البخاري: وأسلم بن أفْصَى بن حارثة بن عمرو بن عامر من خزاعة، يعني: أن خزاعة فرقة ممن كان تمزق من قبائل سبأ، حين أرسل الله عليهم سيل العرم[٤].

وَوُلد الرسول ﷺ من مُضر، وقد أخرج البخاري عن كليب بن وائل قال: حدثتني ربيبة النبي ﷺ زينب بنت أبي سلمة قال: «قلت لها: أرأيت النبي ﷺ أكان من مضر؟ فقالت: فممن كان إِلا من مضر؟ من بني النضر بن كنانة»[٥].

وكانت قريش قد انحدرت من كنانة، وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة. وانقسمت قريش إِلى قبائل شتى؛ من أشهرها: جمح، وسهم، وعدي، ومخزوم، وتيم، وزُهرة. وبطون قُصي بن كلاب، وهي: عبد الدار بن قصي، وأسد بن عبد العزى بن قصي، وعبد مناف بن قصي، وكان من عبد مناف أربع فصائل: عبد شمس، ونوفل، والمطلب، وهاشم. وبيت هاشم هو الذي اصطفى الله منه سيدنا محمد ﷺ ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم[٦]:

قال ﷺ: «إِن الله اصطفى كنانةَ من ولد إِسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[٧].

---

(١) انظر: الطريق إِلى المدائن، عادل كمال (ص ٤٠).

(٢) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ٤٨).

(٣) البخاري، كتاب المناقب (٣٥٠٧).

(٤) انظر السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ٤٨).

(٥) البخاري، كتاب المناقب (٣٤٩١).

(٦) انظر: فقه السيرة النبوية، للغضبان (ص ٤٧).

(٧) رواه مسلم، باب فضل نسب النبي ﷺ (٤/ ١٧٨٢ رقم ٢٢٧٦).

ثانيًا: حضارات الجزيرة العربية:

نشأت من قديم الزمان ببلاد العرب حضارات أصيلة، ومدنيات عريقة من أشهرها:

١ ـ حضارة سبأ باليمن:

وقد أشار القرآن الكريم إليها، ففي اليمن استفادوا من مياه الأمطار، والسيول التي كانت تضيع في الرمال، وتنحدر إلى البحار، فأقاموا الخزانات والسدود بطرق هندسية متطورة، وأشهر هذ السدود (سد مأرب)، واستفادوا بمياهها في الزروع المتنوعة، والحدائق ذات الأشجار الزكية، والثمار الشهية، قال عز شأنه:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبإ: الآيات ١٥ ـ ١٧].

ودل القرآن الكريم على وجود قرى متصلة في الزمن الماضي ما بين اليمن، إلى بلاد الحجاز، إلى بلاد الشام، وأن قوافل التجارة والمسافرين كانوا يخرجون من اليمن إلى بلاد الشام، فلا يعدمون ظلا، ولا ماء، ولا طعاماً. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبإ: الآيتان ١٨، ١٩].

٢ ـ حضارة عاد بالأحقاف:

وكانوا في شمال حضرموت، وهم الذين أرسل الله إليهم نبي الله هودًا عليه السلام، وكانوا أصحاب بيوت مشيدة، ومصانع متعددة، وجنات، وزروع وعيون[1]، قال تعالى:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: الآيات ١٢٣ ـ ١٣٤].

حضارة ثمود بالحجاز:

دل القرآن الكريم على وجود حضارة في بلاد الحِجْر، وأشار إلى ما كانوا يتمتعون به

(١) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ٥٠).

من القدرة على نحت البيوت في الجبال، وعلى ما كان يوجد في بلادهم من عيون وبساتين وزروع[(١)]، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: الآيات ١٤١ ـ ١٥٠].

وقال فيهم أيضًا:

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٧٤].

لقد زال كل ذلك من زمن طويل، ولم يبق إلا آثار، ورسوم وأطلال، فقد اضمحلت القرى والمدن، وخربت الدور والقصور، ونضبت العيون، وجفت الأشجار، وأصبحت البساتين والزروع أرضًا جُرُزًا[(٢)].

المبحث الثالث

الأحوال الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية عند العرب

أولاً: الحالة الدينية:

ابتليت الأمة العربية بتخلف ديني شديد، ووثنية سخيفة لا مثيل لها، وانحرافات خلقية، واجتماعية، وفوضى سياسية، وتشريعية، ومن ثم قل شأنهم، وصاروا يعيشون على هامش التاريخ، ولا يتعدون في أحسن الأحوال أن يكونوا تابعين للدولة الفارسية، أو الرومانية. وقد امتلأت قلوبهم بتعظيم تراث الآباء والأجداد، واتباع ما كانوا عليه، مهما يكن فيه من الزيغ والانحراف والضلال، ومن ثم عبدوا الأصنام، فكان لكل قبيلة صنم، فكان لهُذَيل بن مُدْرِكة: سواع، ولكلب: وَدّ، وَلِمَذْحِج: يغوث، ولخَيْوان: يعوق، وَلِحِمْيَر: نَسر، وكانت خزاعة وقريش تعبد إسافًا ونائلة، وكانت مناة على ساحل البحر، تعظمها العرب كافة، والأوس والخزرج خاصة، وكانت اللات في ثقيف، وكانت العزى فوق ذات عرق، وكانت أعظم الأصنام عند قريش[(٣)].

وإلى جانب هذه الأصنام الرئيسية يوجد عدد لا يحصى كثرةً من الأصنام الصغيرة، والتي يسهل نقلها في أسفارهم ووضعها في بيوتهم.

---

(١) السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ٥١).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) انظر: الغرباء الأولون (ص ٦٠).

روى البخاري في صحيحه عن أبي رجاء العُطارِدي، قال: «كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرًا هو أخيرُ منه، ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرًا جمعنا جُثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه ثم طفنا به!!»(١).

وقد حالت هذه الوثنية السخيفة بين العرب، وبين معرفة الله وتعظيمه وتوقيره، والإيمان به وباليوم الآخر، وإن زعموا أنها لا تعدو أن تكون وسائط بينهم وبين الله. وقد هيمنت هذه الآلهة المزعومة على قلوبهم، وأعمالهم وتصرفاتهم، وجميع جوانب حياتهم، وضعف توقير الله في نفوسهم، قال تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٣٦].

أما البقية الباقية من دين إبراهيم عليه السلام، فقد أصابها التحريف، والتغيير والتبديل، فصار الحج موسمًا للمفاخرة والمنافرة، والمباهاة، وانحرفت بقايا المعتقدات الحنيفية عن حقيقتها، وألصق بها من الخرافات والأساطير الشيء الكثير.

وكان يوجد بعض الأفراد من الحنفاء الذين يرفضون عبادة الأصنام، وما يتعلق بها من الأحكام والنحائر وغيرها، ومن هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل، وكان لا يذبح للأنصاب، ولا يأكل الميتة والدم، وكان يقول:

أربًّا واحدًا أم ألفَ رب؟؟ ... أدين إذَا تُقُسِّمَت الأمورُ؟
عزلتُ اللات والعزى جميعًا ... كذلك يفعل الجَلْد الصبورُ
فلا العزى أدينُ ولا ابنتيها ... ولا صَنَمَيْ بني عمرو أزورُ
ولا غنمًا(٢) أدينُ وكان ربًّا ... لنا في الدهر، إذْ حِلْمِي يسيرُ

إلى أن قال:

ولكنْ أعبدُ الرحمٰن ربي ... ليغفر ذنبي الربُّ الغفور(٣).

وممن كان يدين بشريعة إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام قُسّ بن ساعدة الإيادي، فقد كان خطيبًا، حكيمًا، عاقلاً، له نباهة، وفضل، وكان يدعو إلى توحيد الله، وعبادته، وترك عبادة الأوثان، كما كان يؤمن بالبعث بعد الموت، وقد بَشَّر بالنبي ﷺ، فقد روى أبو نُعيم في دلائل النبوة عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «إن قُسْ بن ساعدة كان يخطب قومه في سوق (عكاظ) فقال في خطبته: سيعلم حق من هذا الوجه - وأشار بيده إلى مكة - قالوا: وما هذا الحق؟ قال: رجل من ولد لؤي بن غالب يدعوكم إلى كلمة الإخلاص، وعيش الأبد، ونعيم لا ينفد، فإن دعاكم فأجيبوه، ولو علمت أني أعيش إلى مبعثه لكنت أول

---

(١) البخاري، كتاب المغازي - وفد بني حنيفة (٥/ ١١٩ ورقمه ٤٣٧٧).
(٢) وفي كتاب الأصنام لابن الكلبي: «هُبَلاً»، انظر: السيرة النبوية لابن هشام (ق ١/ ٢٢٦هـ ٤).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (١/ ١٦٣).

من يسعى إليه» وقد أدرك النبيَّ ﷺ ومات قبل البعثة[١].

ومما كان ينشده من شعره:

فــي الــذاهــبــيــن الأولــيــ ... ـن من الـقـرون لـنـا بـصـائـرْ
لــمــا رأيــت مَــوَارِدًا ... لـلـمـوت لـيـس لـهـا مـصـادرْ
ورأيــت قــومــي نــحــوهــا ... يـمـضـي الأكـابـر والأصـاغـرْ
لا يــرجــع الــمــاضــي إلــيَّ ... ولا مـن الـبـاقـيـن غـابـرْ
أيــقــنــت أنــي لا مــحــا ... لـة حـيـث صـار الـقـوم صـائـرْ[٢]

كان بعض العرب قد تنصر، وبعضهم دخل في اليهودية، أما الأغلبية فكانت تعبد الأوثان والأصنام.

ثانيًا: الحالة السياسية:

كان سكان الجزيرة العربية ينقسمون إلى بدو وحضر، وكان النظام السائد بينهم هو النظام القبلي، حتى في الممالك المتحضرة التي نشأت بالجزيرة، كمملكة اليمن في الجنوب ومملكة الحيرة في الشمال الشرقي، ومملكة الغساسنة في الشمال الغربي، فلم تنصهر الجماعة فيها في شعب واحد، وإنما ظلت القبائل وحدات متماسكة.

والقبيلة العربية مجموعة من الناس، تربط بينها وحدة الدم (النسب)، ووحدة الجماعة، وفي ظل هذه الرابطة نشأ قانون عرفي، ينظم العلاقات بين الفرد والجماعة، على أساس من التضامن بينهما في الحقوق والواجبات، وهذا القانون العرفي كانت تتمسك به القبيلة في نظامها السياسي والاجتماعي[٣].

وزعيم القبيلة ترشحه للقيادة منزلته القبلية، وصفاته، وخصائصه من شجاعة ومروءة، وكرم ونحوها، ولرئيس القبيلة حقوق أدبية ومادية، فالأدبية أهمها احترامه وتبجيله، والاستجابة لأمره، والنزول على حكمه وقضائه، وأما المادية فقد كان له في كل غنيمة تغنمها (المرباع) وهو ربع الغنيمة، و(الصفايا) وهو ما يصطفيه لنفسه من الغنيمة قبل القسمة، و(النشيطة) وهي ما أصيب من مال العدو قبل اللقاء، و(الفضول) وهو ما لا يقبل القسمة من مال الغنيمة، وقد أجمل الشاعر العربي ذلك بقوله:

لـك الـمـربـاع فـيـنـا، والـصـفـايـا ... وحكمك، والنشيطة، والفضول[٤]

ومقابل هذه الحقوق واجبات ومسئوليات، فهو في السلم جواد كريم، وفي الحرب يتقدم

---

(١) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة (١/ ٨٠).

(٢) السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ٨١). دلائل النبوة للبيهقي - تحقيق د. عبد المعطي قلعجي (٢/ ١٠٢، ١٠٣).

(٣) السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ٦٠).

(٤) انظر: مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول (ص ١٣).

الصفوف، ويعقد الصلح، والمعاهدات.

والنظام القبلي تسود فيه الحرية، فقد نشأ العربي في جو طليق، وفي بيئة طليقة، ومن ثم كانت الحرية من أخص خصائص العرب، ويعشقونها ويأبون الضيم والذل، وكل فرد في القبيلة ينتصر لها، ويشيد بمفاخرها، وأيامها، وينتصر لكل أفرادها، محقًّا أو مبطلاً، حتى صار من مبادئهم:

(انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا)

وكان شعارهم:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

والفرد في القبيلة تبع للجماعة، وقد بلغ من اعتزازهم برأي الجماعة أنه قد تذوب شخصيته في شخصيتها، قال دريد بن الصِمّة:

وهل أنا إلا من غزيَّة إن غوَتْ غويتُ، وإن ترشد غزية أرشد[1]

وكانت كل قبيلة من القبائل العربية لها شخصيتها السياسية، وهي بهذه الشخصية كانت تعقد الأحلاف مع القبائل الأخرى، وبهذه الشخصية أيضًا كانت تشن الحرب عليها، ولعل من أشهر الأحلاف التي عقدت بين القبائل العربية: حلف الفضول، (حلف المطيبين)[2].

وكانت الحروب بين القبائل على قدم وساق، ومن أشهر هذه الحروب حرب الفِجار[3]، وكان ـ عدا هذه الحروب الكبرى ـ تقع إغارات فردية بين القبائل، تكون أسبابها شخصية أحيانًا، أو طلبَ العيش أحيانًا أخرى، إذ كان رزق بعض القبائل في كثير من الأحيان في حدِّ سيوفها، ولذلك ما كانت القبيلة تأمن أن تنقض عليها قبيلة أخرى، في ساعة من ليلٍ أو نهار، لتسلب أنعامها ومؤنها، وتدع ديارها خاوية كأن لم تسكن بالأمس[4].

ثالثًا: الحالة الاقتصادية:

تغلب على الجزيرة العربية الصحارى الواسعة الممتدة، وهذا ما جعلها تخلو من الزراعة، إلا في أطرافها، وخاصة في اليمن والشام، وبعض الواحات المنتشرة في الجزيرة، وكان يغلب على البادية رعي الإبل والغنم، وكانت تنتقل القبائل بحثًا عن مواقع الكلأ، وكانوا لا يعرفون الاستقرار إلا في مضارب خيامهم.

وأما الصناعة فكانوا أبعد الأمم عنها، وكانوا يأنفون منها، ويتركون العمل فيها للأعاجم والموالي، حتى عندما أرادوا بنيان الكعبة استعانوا برجل قبطي نجا من السفينة التي غرقت

(١) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ٦١).

(٢) انظر: دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ، د. محمد قلعجي (ص ٣١).

(٣) المصدر نفسه، ص (٣٣ـ ٣٥).

(٤) المصدر السابق (ص ٣٥).

بِجُدَّة، ثم أصبح مقيمًا في مكة[١].

وإذا كانت الجزيرة العربية قد حُرمت من نعمتي الزراعة والصناعة، فإن موقعها الاستراتيجي بين إفريقية وشرق آسيا؛ جعلها مؤهلة لأن تحتل مركزًا متقدمًا في التجارة الدولية آنذاك.

وكان الذين يمارسون التجارة من سكان الجزيرة العربية هم أهل المدن، ولا سيما أهل مكة، فقد كان لهم مركز ممتاز في التجارة، وكان لهم بحكم كونهم أهل الحرم منزلة في نفوس العرب، فلا يعرضون لهم ولا لتجارتهم بسوء، وقد امتن الله عليهم بذلك في القرآن الكريم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: الآية ٦٧]. وكانت لقريش رحلتان عظيمتان شهيرتان: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، يذهبون فيها آمنين، بينما الناس يتخطفون من حولهم، هذا عدا الرحلات الأخرى التي يقومون بها طوال العام، قال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ① إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ② فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ③ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [سورة قريش].

وكانت القوافل تحمل الطيب والبخور، والصمغ، واللبان، والتوابل، والتمور، والروائح العطرية، والأخشاب الزكية، والعاج، والأبنوس، والخرز، والجلود، والبرود اليمنية، والأنسجة الحريرية، والأسلحة وغيرها مما يوجد في شبه الجزيرة، أو يكون مستوردًا من خارجها، ثم تذهب به إلى الشام وغيرها، ثم تعود محملة بالقمح، والحبوب، والزبيب، والزيتون، والمنسوجات الشامية وغيرها.

واشتهر اليمنيون بالتجارة، وكان نشاطهم في البر، وفي البحار، فسافروا إلى سواحل إفريقية وإلى الهند، وإندونيسيا، وسومطرة، وغيرها من بلاد آسيا وجزر المحيط الهندي، أو البحر العربي كما يُسمَّى، وقد كان لهم فضل كبير بعد اعتناقهم الإسلام في نشره في هذه الأقطار.

وكان التعامل بالربا منتشرًا في الجزيرة العربية، ولعل هذا الداء الوبيل سرى إلى العرب من اليهود[٢]، وكان يتعامل به الأشراف وغيرهم، وكانت نسبة الربا في بعض الأحيان أكثر من مائة في المائة[٣].

وكان للعرب أسواق مشهورة: عكاظ، ومجنّة، وذو المجاز، ويذكر بعض المؤلفين في أخبار مكة أن العرب كانوا يقيمون بعكاظ هلال ذي القعدة، ثم يذهبون منه إلى مجنّة بعد

---

(١) انظر: فقه السيرة النبوية، منير الغضبان (ص ٦٠).

(٢) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ٩٨-١٠١).

(٣) انظر: دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ (ص ١٩).

مضي عشرين يومًا من ذي القعدة، فإذا رأوا هلال ذي الحجة ذهبوا إلى ذي المجاز، فلبثوا فيها ثمانيَ ليال، ثم يذهبون إلى عرفة، وكانوا لا يتبايعون في عرفة، ولا أيام منى، حتى جاء الإسلام فأباح لهم ذلك، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩٨].

وقد استمرت هذه الأسواق في الإسلام إلى حين من الدهر ثم دَرَست، ولم تكن هذه الأسواق للتجارة فحسب، بل كانت أسواقًا للأدب، والشعر والخطابة، يجتمع فيها فحول الشعراء، ومصاقع الخطباء، ويتبارون فيها في ذكر أنسابهم ومفاخرهم، ومآثرهم، وبذلك كانت ثروة كبرى للغة، والأدب، إلى جانب كونها ثروة تجارية(١).

رابعًا: الحالة الاجتماعية:

هيمنت التقاليد والأعراف على حياة العرب، وأصبحت لهم قوانين عرفية فيما يتعلق بالأحساب والأنساب، وعلاقة القبائل ببعضها، والأفراد كذلك، ويمكن إجمال الحالة الاجتماعية فيما يأتي:

١ ـ الاعتزاز الذي لا حد له بالأنساب، والأحساب، والتفاخر بهما:

فقد حرصوا على المحافظة على أنسابهم، فلم يصاهروا غيرهم من الأجناس الأخرى، ولما جاء الإسلام قضى على ذلك، وبين لهم أن التفاضل إنما هو بالتقوى، والعمل الصالح.

٢ ـ الاعتزاز بالكلمة، وسلطانها، لا سيما الشعر:

كانت تستهويهم الكلمة الفصيحة، والأسلوب البليغ، وكان شعرهم سجل مفاخرهم، وأحسابهم، وأنسابهم، وديوان معارفهم، وعواطفهم، فلا تعجب إذا كان نَجَمَ فيهم الخطباء المصاقع، والشعراء الفطاحل، وكان البيت من الشعر يرفع القبيلة، والبيت يخفضها، ولذلك ما كانوا يفرحون بشيء فرحهم بشاعر ينبغ في القبيلة.

٣ ـ المرأة في المجتمع العربي:

كانت المرأة عند كثير من القبائل كسقط المتاع، فقد كانت تورث، وكان الابن الأكبر للزوج من غيرها، من حقه أن يتزوجها بعد وفاة أبيه، أو يَعْضلها عن النكاح، حتى حَرَّم الإسلام ذلك. وكان الابن يتزوج امرأة أبيه(٢)، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النِّساء: الآية ٢٢].

---

(١) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/١٠٢).

(٢) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/٨٧).

وكانت العرب تحرم نكاح الأصول كالأمهات، والفروع كالبنات، وفروع الأب كالأخوات، والطبقة الأولى من فروع الجد، كالخالات والعمات[١].

وكانوا لا يورثون البنات، ولا النساء، ولا الصبيان، ولا يورثون إلا من حاز الغنيمة، وقاتل على ظهور الخيل، وبقي حرمان النساء والصغار من الميراث عرفًا معمولاً به عندهم، إلى أن توفي أوس بن ثابت ـ في عهد رسول الله ﷺ ـ وترك بنتين، كانت بهما دمامة، وابنًا صغيرًا، فجاء ابنا عمه ـ وهما عصبته ـ فأخذا ميراثه كله، فقالت امرأته لهما: تزوجا البنتين، فأبيا ذلك لدمامتهما، فأتت رسول الله فقالت: يا رسول الله توفي أوس، وترك ابنًا صغيرًا وابنتين، فجاء ابنا عمه، سويد وعرفطة، فأخذا ميراثه، فقلت لهما: تزوجا ابنتيه، فأبيا. فقال ﷺ: «لا تحركا من الميراث شيئاً»[٢] ونزل قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النِّساء: الآية ٧].

وكان العرب يعيرون بالبنات، لأن البنت لا تخرج في الغزو، ولا تحمي البيضة من المعتدين عليها، ولا تعمل فتأتي بالمال شأن الرجال، وإذا ما سُبيت اتخذت للوطء تتداولها الأيدي لذلك، بل ربما أكرهت على احتراف البغاء، ليضم سيدها ما يصير إليها من المال بالبغاء إلى ماله ـ وقد كانت العرب تبيح ذلك ـ وقد كان هذا يورث الهمَّ والحزن، والخجل للأب، عندما تولد له بنت. وقد حدثنا القرآن الكريم عن حالة من تولد له بنت، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

وكثيرًا ما كانوا يختارون دسها في التراب، ووأدها حية، ولا ذنب لها إلا أنها أنثى[٣]، ولذلك أنكر القرآن الكريم عليهم هذه الفعلة الشنيعة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨،٩].

وكان بعض العرب يقتل أولاده من الفقر، أو خشية الفقر، فجاء الإسلام وحرّم ذلك، قال تعالى: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٥١].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١].

---

(١) دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ (ص ٢٢ـ ٢٤).

(٢) تفسير القرطبي (٥/ ٤٥).

(٣) انظر: دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ، ص (٢٥، ٢٦).

وكانت بعض القبائل لا تئد البنات، كما كان فيهم من يستقبحون هذه الفعلة الشنعاء كزيد بن عمرو بن نفيل[١].

وكانت بعض القبائل تحترم المرأة وتأخذ رأيها في الزواج، وكانت المرأة العربية الحرة تأنف أن تفترش لغير زوجها وحليلها، وكانت تتسم بالشجاعة، وتتبع المحاربين وتشجعهم، وقد تشارك في القتال إذا دعت الضرورة، وكانت المرأة البدوية العربية تشارك زوجها في رعي الماشية، وسقيها، وتغزل الوبر والصوف، وتنسج الثياب، والبرود، والأكسية، مع التصون والتعفف[٢].

٤ ـ النكاح:

تعارف العرب على أنواع من النكاح، لا يعيب بعضهم على بعض إتيانها، وقد ذكرت لنا السيدة عائشة رضي الله عنها فقالت: «إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح الناس اليوم: يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته، فَيُصدِقُها، ثم يَنكحها. ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طَهُرت من طمثها[٣]: أرسلي إلى فلان فاستبضعي[٤] منه، ويعتزلها زوجها، ولا يمسها أبداً، حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع. ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت، ومرَّ عليها ليال بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع، حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبت باسمه، فيَلحَق به ولدُها لا يستطيع أن يمتنع به الرجل. ونكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا، كن يَنصبن على أبوابهن رايات تكون عَلَمًا، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن، ووضعت حملها، جُمِعوا لها، ودعوا لهم القَافَة[٥]، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاط[٦] به، ودُعي ابنَه، لا يمتنع من ذلك. فلما بعث محمد ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كلَّه إلا نكاح الناس اليوم»[٧].

---

(١) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ٩٢).

(٢) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ٨٨).

(٣) الطمث: الحيض.

(٤) استبضعي: الاستبضاع، طلب الجماع حتى تحمل منه.

(٥) القافة: جمع القائف وهو الذي يعرف شبه الولد بالوالد.

(٦) التاط به: استلحقه.

(٧) البخاري، كتاب النكاح، باب من قال: لا نكاح إلا بولي (رقم ٥١٢٧).

وذكر بعض العلماء أنحاء أخرى، لم تذكرها عائشة ـ رضي الله عنها ـ كنكاح الخدن، وهو في قوله تعالى: ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥]. كانوا يقولون: ما استتر فلا بأس به، وما ظهر فهو لوم، وهو إلى الزنا أقرب منه إلى النكاح، وكنكاح المتعة، وهو النكاح المعين بوقت، ونكاح البدل: «كان البدل في الجاهلية أن يقول للرجل: انزل لي عن امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي، وأزيدك»[١].

ومن الأنكحة الباطلة نكاح الشغار، وهو أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته، ليس بينهما صداق[٢].

وكانوا يحلون الجمع بين الأختين في النكاح، وكانوا يبيحون للرجل أن يجمع في عصمته من الزوجات ما شاء دون التقيد بعدد، وكان الذين جمعوا بين أكثر من أربع زوجات أكثر من أن ينالهم العد[٣]، وجاء الإسلام ومنهم من له العشرة من النساء والأكثر، والأقل، فقصر ذلك على أربع إن علم أنه يستطيع الإنفاق عليهن، والعدل بينهن، فإن خاف عدم العدل فليكتف بواحدة، وما كانوا في الجاهلية يلتزمون العدل بين الزوجات، وكانوا يسيئون عشرتهن، ويهضمون حقوقهن، حتى جاء الإسلام فأنصفهن، وأوصى بالإحسان إليهن في العشرة، وقرر لهن حقوقًا ما كن يحلمن بها[٤].

٥ ـ الطلاق:

كانوا يمارسون الطلاق، ولم يكن للطلاق عندهم عدد محدد، فكان الرجل يطلق امرأته ثم يراجعها، ثم يطلقها ثم يراجعها هكذا أبدًا، وبقي هذا الأمر معمولاً به في صدر الإسلام[٥] إلى أن أنزل الله تبارك وتعالى قوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٍۗ﴾ [البقرة: الآية ٢٢٩].

فقيد الإسلام عدد الطلقات، وأعطى للزوج فرصة ليتدارك أمره، ومراجعة زوجته مرتين، فإن طلق الثالثة فقد انقطعت عروة النكاح، ولا تحل له إلا بعد زوج آخر، ففي الكتاب الكريم: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: الآية ٢٣٠].

ومما كان يلحق بالطلاق في التحريم الظهار، وهو أن يقول الزوج لزوجته: أنتِ عليّ كظهر أمي، وكان تحريمًا مؤبدًا حتى جاء الإسلام، فوسمه بأنه منكر من القول وزورٌ، وجعل

(١) فتح الباري (٩/ ١٥٠) ذكره ابن حجر عن الدارقطني عن أبي هريرة فانظره.
(٢) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ٩٠).
(٣) انظر: دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ (ص ٢٤، ٢٥).
(٤) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ٨٨).
(٥) دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ (ص ٢٥).

للزوج مخرجًا منه، وذلك بالكفارة[1] قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ③ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ④﴾ [المجادلة: الآيتان: ٣، ٤].

٦ ـ الحروب، والسطو، والإغارة:

كانت الحروب تقوم بينهم لأتفه الأسباب، فهم لا يبالون بشن الحروب، وإزهاق الأرواح في سبيل الدفاع عن المثل الاجتماعية، التي تعارفوا عليها، وإن كانت لا تستحق التقدير، وقد روى لنا التاريخ سلسلة من أيام العرب في الجاهلية، مما يدل على تمكن الروح الحربية من نفوس العرب، وغلبتها على التعقل والتفكير، فمن تلك الأيام مثلاً يوم البَسوس. وقد قامت الحرب فيه بين بكر وتغلب، بسبب ناقة للجَرْمي وهو جار للبسوس بنت منقذ، خالة جَسّاس بن مُرَّة، وقد كان كليب سيد تَغْلب قد حَمَى لإبله مكانًا خاصًا به، فرأى فيه هذه الناقة فرماها فجزع الجرمي، وجزعت البسوس، فلما رأى ذلك جَسّاس تحين الفرصة لقتل كُلَيب فقتله، فقامت الحروب الطاحنة بين القبيلتين لمدة أربعين سنة[2].

وكذلك يوم داحس والغبراء، وقد كان سببه سباقًا أقيم بين داحس، وهو فرس لقيس بن زهير، والغبراء وهي لحذيفة بن بدر، فأوعز هذا إلى رجل ليقف في الوادي فإن رأى داحسًا قد سبق يرده، وقد فعل ذلك فلطم الفرس حتى أوقعها في الماء فسبقت الغبراء، وحصل بعد ذلك القتل، والأخذ بالثأر، وقامت الحرب بين قبيلتي عبس وذُبيان[3].

وكذلك الحروب التي قامت بين الأوس والخزرج في الجاهلية، وهم أبناء عم حيث إن الأوس والخزرج أبناء حارثة بن ثعلبة الأزدي، واستمرت الحروب بينهم، وكان آخر أيامهم (بُعاث)، وذلك أن حلفاء الأوس من اليهود جددوا عهودهم معهم على النصرة، وهكذا كان كثير من حروب الأوس والخزرج يذكيها اليهود، حتى يضعفوا القبيلتين فتكون لهم السيادة الدائمة، واستعان كل فريق منهم بحلفائه من القبائل المجاورة، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، وكانت نهايته لمصلحة الأوس[4].

وكانت بعض القبائل تسطو وتغير، بغية نهب الأموال، وسبى الأحرار وبيعهم، كزيد بن حارثة، فقد كان عربيًا حرًا، وكسلمان الفارسي فقد كان فارسيًا حرًا، وقد قضي الإسلام على ذلك، حتى كانت تسير المرأة والرجل من صنعاء إلى حضرموت لا يخافان إلا الله والذئب

(١) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/١/٩١).
(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير (١/ ٣١٢).
(٣) المصدر نفسه (١/ ٣٤٣).
(٤) التاريخ الإسلامي، د. عبد العزيز الحميدي (١/ ٥٥).

على أغنامها[١].

٧ ـ العلم والقراءة والكتابة:

لم يكن العرب أهل كتاب وعلم، كاليهود والنصارى، بل كان يغلب عليهم الجهل والأمية، والتقليد والجمود على القديم، وإن كان باطلاً، وكانت أمة العرب لا تكتب ولا تحسب، وهذه هي الصفة التي كانت غالبة عليها، وكان فيهم قليل ممن يكتب ويقرأ، ومع أميتهم وعدم اتساع معارفهم، فقد كانوا يشتهرون بالذكاء، والفطنة، والألمعية، ولطف المشاعر، وإرهاف الحس، وحسن الاستعداد، والتهيؤ لقبول العلم والمعرفة، والتوجيه الرشيد، ولذلك لما جاء الإسلام صاروا علماء، حكماء، فقهاء، وزالت عنهم الأمية، وأصبح العلم والمعرفة من أخص خصائصهم، وكان فيهم من مهر في علم قص الأثر، وهو القيافة وكان فيهم أطباء، كالحارث بن كَلَدة، وكان طبهم مبنيًا على التجارب التي اكتسبوها من الحياة والبيئة[٢].

خامسًا: الحالة الأخلاقية:

كانت أخلاق العرب قد ساءت، وأولعوا بالخمر، والقمار، وشاعت فيهم الغارات، وقطع الطريق على القوافل، والعصبية والظلم، وسفك الدماء، والأخذ بالثأر، واغتصاب الأموال، وأكل مال اليتامى، والتعامل بالربا، والسرقة والزنا، ومما ينبغي أن يعلم أن الزنا إنما كان في الإماء وأصحاب الرايات من البغايا، ويندر أن يكون في الحرائر، وليس أدل على هذا من أن النبي ﷺ لما أخذ البيعة على النساء بعد الفتح: «على أن لا يشركن بالله شيئًا، ولا يسرقن، ولا يزنين» قالت السيدة هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان: «أَوَتزني الحرة»[٣]؟!!

وليس معنى هذا أنهم كانوا كلهم على هذا؛ لا، لقد كان فيهم كثيرون لا يزنون، ولا يشربون الخمر، ولا يسفكون الدماء، ولا يظلمون، ويتحرجون من أكل أموال اليتامى، ويتنزهون عن التعامل بالربا[٤]، وكانت فيهم سمات وخصال من الخير كثيرة، أهلتهم لحمل راية الإسلام، ومن تلك الخصال والسمات:

١ ـ الذكاء والفطنة:

فقد كانت قلوبهم صافية، لم تدخلها تلك الفلسفات والأساطير، والخرافات التي يصعب إزالتها، كما في الشعوب الهندية والرومانية، واليونانية والفارسية، فكأن قلوبهم كانت تعد لحمل أعظم رسالة في الوجود، وهي دعوة الإسلام الخالدة، ولهذا كانوا أحفظ شعب عرف في ذلك الزمن، وقد وجه الإسلام قريحة الحفظ والذكاء إلى حفظ الدين وحمايته، فكانت

---

(١) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ٩٣).
(٢) المصدر نفسه (١/ ٩٣).
(٣) المصدر نفسه (١/ ٩٤).
(٤) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ٩٤).

قواهم الفكرية، ومواهبهم الفطرية مذخورة فيهم، لم تستهلك في فلسفات خيالية، وجدال بيزنطي عقيم، ومذاهب كلامية معقدة(١).

واتساع لغتهم دليل على قوة حفظهم وذاكرتهم، فإذا كان للعسل ثمانون اسمًا، وللثعلب مائتان، وللأسد خمسمائة، فإن للجمل ألفًا، وكذا السيف، وللداهية نحو أربعة آلاف اسم، ولا شك أن استيعاب هذه الأسماء يحتاج إلى ذاكرة قوية حاضرة وقادة(٢).

وقد بلغ بهم الذكاء والفطنة إلى الفهم بالإشارة فضلاً عن العبارة، والأمثلة على ذلك كثيرة(٣).

٢ ـ أهل كرم وسخاء:

كان هذا الخلق متأصلاً في العرب، وكان الواحد منهم لا يكون عنده إلا فرسه، أو ناقته، فيأتيه الضيف، فيسارع إلى ذبحها، أو نحرها له، وكان بعضهم لا يكتفي بإطعام الإنسان، بل كان يطعم الوحش، والطير. وكرم حاتم الطائي سارت به الركبان، وضربت به الأمثال(٤).

٣ ـ أهل شجاعة ومروءة ونجدة:

كانوا يتمادحون بالموت قتلاً، ويتهاجون بالموت على الفراش، قال أحدهم لما بلغه قتل أخيه: إن يقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه، إنا والله لا نموت حتفًا، ولكن قطعًا بأطراف الرماح، وموتًا تحت ظلال السيوف.

وما مات منا سيد حتف أنفه ... ولا طُلّ(٥) منا حيث كان قتيل
تسيل على حد الظُّباة نفوسنا ... وليست على غير الظباة تسيل

وكان العرب لا يقدمون شيئًا على العز، وصيانة العرض، وحماية الحريم، واسترخصوا في سبيل ذلك نفوسهم، قال عنترة:

بَكَرَت تخوفني الحُتوف كأنني ... أصبحت عن غَرض الحتوف بِمَعْزِلِ
فأجبتها إن المنية مَنهلٌ ... لا بد أن أُسقَى بكأس المنهل
فأَقْنِي حياءَك لا أبا لك واعلمي ... أني امرؤ سأموت إن لم أُقتلِ(٦)

وقال عنترة:

لا تسقني ماء الحياة بذلةٍ ... بل فاسقني بالعز كأس الحنظلِ

---

(١) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ١٢).
(٢) بلوغ الأرب (١/ ٣٩ ـ ٤٠).
(٣) انظر: مدخل لفقه السيرة (ص٧٩، ٨٠).
(٤) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ٩٥).
(٥) الطَّلُّ: هدر الدم، وقيل: هو أن لا يثأر به أو تُقبَل دِيَتهُ.
(٦) ديوان عنترة، د. فاروق الطباع (ص٢٥٢).

مـاءُ الـحـيـاة بـذلـة كـجـهـنـم وجـهـنـمٌ بـالـعـز أطـيـب مـنـزلِ[١]

وكان العرب بفطرتهم أصحاب شهامة ومروءة؛ فكانوا يأبون أن ينتهز القوي الضعيف، أو العاجز، أو المرأة، أو الشيخ، وكانوا إِذا استنجد بهم أحد أنجدوه، ويرون من النذالة التخلي عمن لجأ إِليهم.

٤ ـ عشقهم للحرية، وإباؤهم للضيم والذل:

كان العربي بفطرته يعشق الحرية، يحيا لها، ويموت من أجلها، فقد نشأ طليقًا لا سلطان لأحد عليه، ويأبى أن يعيش ذليلاً، أو يمس في شرفه وعرضه، ولو كلفه ذلك حياته[٢]، فقد كانوا يأنفون من الذل، ويأبون الضيم، والاستصغار والاحتقار. وإليك مثال على ذلك:

جلس عمرو بن هند ملك الحيرة لندمائه وسألهم: هل تعلمون أحدًا من العرب تأنف أمه خدمة أمي؟ قالوا: نعم، أم عمرو بن كلثوم الشاعر الصعلوك.

فدعا الملك عمرو بن كلثوم لزيارته ودعا أمه لتزور أمه، وقد اتفق الملك مع أمه أن تقول لأم عمرو بن كلثوم بعد الطعام: ناوليني الطبق الذي يجانبك، فلما جاءت، قالت لها ذلك، فقالت: لتقم صاحبة الحاجة إِلى حاجتها، فأعادت عليها الكرة وألحت، فصاحت ليلى أم عمرو بن كلثوم: واذُلاَّه يا لتَغْلِب... فسمعها ابنها فاشتد به الغضب، فرأى سيفًا للملك معلقًا بالرواق، فتناوله وضرب به رأس الملك عمرو بن هند، ونادى في بني تغلب، وانتهبوا مافي الرواق، ونظم قصيدة يخاطب بها الملك قائلاً:

بـأي مـشـيـئـة عـمـرو بـن هـنـد نـكـون لِقَـيْـلِكـم[٣] فـيـهـا قـطـيـنـا[٤]
بـأي مـشـيـئـة عـمـرو بـن هـنـد تـطـيـع بـنـا الـوشـاة وتـزدريـنـا
تـهـددنـا وتـوْعِـدنـا رويـدًا مـتـى كـنـا لأمـك مَـقْـتَـويـنـا[٥]
إذا مـا الـمـلـك سـام الـنـاس خـسـفـا أبـيـنـا أن نـقـر الـذل فـيـنـا[٦]

٥ ـ الوفاء بالعهد وحبهم للصراحة والوضوح والصدق:

كانوا يأنفون من الكذب ويعيبونه، وكانوا أهل وفاء، ولهذا كانت الشهادة باللسان كافية للدخول في الإِسلام.

---

(١) المصدر السابق (ص ٨٢).
(٢) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ٩٥).
(٣) القَيْل: هو الملك دون الملك الأعظم.
(٤) القطين: هم الخدم والمماليك.
(٥) مَقْتَوينا: المقْتَوُون: الخُدَّام.
(٦) انظر: شرح المعلقات للحسين الزوزني (ص ١٩٦، ٢٠٤).

ويدل على أنفتهم من الكذب، قصة أبي سفيان مع هرقل لما سأله عن رسول الله ﷺ وكانت الحروب بينهم قائمة قال: «لولا الحياءُ من أن يأثروا عليّ كذبًا لكذبت عنه»[١].

أما وفاؤهم فقد قال النعمان بن المنذر لكسرى في وفاء العرب: «فإن أحدهم يلحظ اللحظة، ويومىء الإيماء فهي وَلْثٌ[٢] وعقدة، لا يحلها إلا خروج نفسه، وإن أحدهم يرفع عودًا من الأرض فيكون رهنًا بدينه، فلا يُغْلَق رهنه ولا تخفر ذمته، وإن أحدهم ليبلغه أن رجلاً استجار به، وعسى أن يكون نائيًا عن داره، فيصاب، فلا يرضى حتى يفني تلك القبيلة التي أصابته، أو تفنى قبيلته، لما أخفر من جواره، وأنه ليلجأ إليهم المجرم المحدث من غير معرفة، ولا قرابة فتكون أنفسهم دون نفسه وأموالهم دون ماله»[٣].

والوفاء خلق متأصل بالعرب، فجاء الإسلام ووجهه الوجهة السليمة فغلظ على من آوى محدثًا، مهما كانت منزلته وقرابته. قال ﷺ «ولعن الله من آوى محدثًا»[٤]. ومن القصص الدالة على وفائهم[٥]: «أن الحارث بن عباد قاد قبائل بكر لقتال تغلب، وقائدهم المهلهل الذي قتل ولد الحارث، وقال: «بؤ بشسع نعل كليب» في حرب البسوس، فأسر الحارث مهلهلاً وهو لا يعرفه، فقال: دلني على مهلهل بن ربيعة وأخلي عنك، فقال له: عليك العهد بذلك، إن دللتك عليه، قال: نعم. قال: فأنا هو، فجز ناصيته وتركه»، وهذا وفاء نادر، ورجولة تستحق الإكبار[٦]. ومن وفائهم: أن النعمان بن المنذر خاف على نفسه من كسرى، لما منعه من تزويج ابنته، فأودع أسلحته وحرمه إلى هانىء بن مسعود الشيباني، ورحل إلى كسرى فبطش به، ثم أرسل إلى هانىء يطلب منه ودائع النعمان، فأبى، فسير إليه كسرى جيشًا لقتاله فجمع هانىء قومه آل بكر، وخطب فيهم فقال: «يا معشر بكر، هالك معذور، خير من ناج فرور، إن الحذر لا ينجي من قدر، وإن الصبْر من أسباب الظفر، المنية ولا الدنية، استقبال الموت خير من استدباره، الطعن في ثغر النحور، أكرم منه في الأعجاز والظهور، يا آل بكر قاتلوا فما للمنايا من بد»[٧]، واستطاع بنو بكر أن يهزموا الفرس في موقعة ذي قار، بسبب هذا الرجل الذي احتقر حياة الصغار والمهانة، ولم يبال بالموت في سبيل الوفاء بالعهود.

(١) البخاري، كتاب بدء الوحي (ح رقم ٧).

(٢) الوَلْث: الوعد الضعيف

(٣) بلوغ الأرَب (١/١٤٩، ١٥٠).

(٤) رواه مسلم، كتاب الأضاحي (رقم ١٩٧٨).

(٥) انظر: مدخل لفهم السيرة ص (٩٠).

(٦) المصدر نفسه (ص ٩١).

(٧) تاريخ الطبري عن يوم ذي قار (٢/٢٠٧).

٦ ـ الصبر على المكاره وقوة الاحتمال، والرضا باليسير:

كانوا يقومون من الأكل ويقولون: البِطنَة تُذْهِب الفطْنَة، ويَعيبون الرجل الأكول الجشع، قال شاعرهم:

إذا مُدت الأيدي إلى الزاد لم أكن ... بأَعجلهم إذ أجشَعُ القوم أَعْجَلُ[1].

وكانت لهم قدرة عجيبة على تحمل المكاره، والصبر في الشدائد. وربما اكتسبوا ذلك من طبيعة بلادهم الصحراوية الجافة، قليلة الزرع والماء، فألفوا اقتحام الجبال الوعرة، والسير في حر الظهيرة، ولم يتأثروا بالحر ولا بالبرد، ولا وعورة الطريق، ولا بعد المسافة، ولا الجوع، ولا الظمأ. ولما دخلوا الإسلام ضربوا أمثلة رائعة في الصبر، والتحمل، وكانوا يرضون باليسير، فكان الواحد منهم يسير الأيام مكتفيًا بتمرات يقيم بها صلبه، وقطرات من ماء يرطب بها كبده[2].

٧ ـ قوة البدن وعظمة النفس والعفو عند المقدرة وحماية الجار:

واشتهروا بقوة أجسادهم مع عظمة النفس، وقوة الروح، وإذا اجتمعت البطولة النفسية إلى البطولة الجسمانية صنعتا العجائب، وهذا ما حدث بعد دخولهم في الإسلام. كما كانوا ينازلون أقرانهم وخصومهم، حتى إذا تمكنوا منهم عفوا عنهم، وتركوهم، ويأبون أن يجهزوا على الجرحى، وكانوا يرعون حقوق الجيرة، ولا سيما رعاية النساء، والمحافظة على العرض قال شاعرهم:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي ... حتى يواري جارتي مأواها

وكانوا إذا استجار أحد الناس بهم أجاروه، وربما ضحوا بالنفس والولد والمال في سبيل ذلك.

كانت هذه الفضائل، والأخلاق الحميدة رصيدًا ضخمًا في نفوس العرب، فجاء الإسلام فنماها وقواها، ووجهها وجهة الخير والحق، فلا عجب إذا كانوا انطلقوا من الصحارى كما تنطلق الملائكة الأطهار، فتحوا الأرض، وملأوها إيمانًا بعد أن ملئت كفرًا، وعدلاً بعد أن ملئت جَوْرًا، وفضائل بعد أن عمتها الرذائل، وخيرًا بعد أن طفحت شرًا[3].

هذه بعض أخلاق المجتمع الذي نشأ فيه الإنسان العربي، فهو أفضل المجتمعات، لهذا اختير رسول الله ﷺ، واختير له هذا المجتمع العربي، وهذه البيئة النادرة، وهذا الوسط الرفيع، مقارنة بالفرس والروم والهنود واليونان، فلم يختر من الفرس على سعة علومهم

---

(١) بلوغ الإرب (١/ ٣٧٧).

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٩٦، ٩٧).

(٣) المصدر السابق (١/ ٩٧).

ومعارفهم، ولا من الهنود على عمق فلسفاتهم، ولا من الرومان على تفننهم، ولا من اليونان على عبقرية شاعريتهم وخيالهم، وإنما اختير من هذه البيئة البكر، لأن هؤلاء الأقوام وإن كانوا على ما هم عليه، وماهم فيه من علوم ومعارف، إلا أنهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه العرب من سلامة الفطرة، وحرية الضمير، وسمو الروح[١].

المبحث الرابع

أهم الأحداث قبل مولد الحبيب المصطفى ﷺ

أراد الله سبحانه وتعالى أن يرحم البشرية، ويكرم الإنسانية، فحان وقت الخلاص، بمبعث الحبيب ﷺ، وقبل أن نشرع في بيان ميلاده الكريم، ونشأته العزيزة، ورعاية الله له قبل نزول الوحي عليه، وسيرته العطرة قبل البعثة، نريد أن نتحدث عن الآيات العظيمة، والأحداث الجليلة التي سبقت ميلاده عليه الصلاة والسلام، فقد سبق مولده الكريم أمور عظيمة، دلت على اقتراب تباشير الصباح.

إن من سنن الله في الكون أن الانفراج يكون بعد الشدة، والضياء يكون بعد الظلام، واليسر بعد العسر[٢].

ومن أهم هذه الأحداث:

أولاً: قصة حفر عبد المطلب جد النبي ﷺ لزمزم:

ذكر الشيخ إبراهيم العلى في كتابه القيم (صحيح السيرة النبوية) رواية صحيحة في قصة حفر عبد المطلب لزمزم، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «قال عبد المطلب: إني لنائم في الحجر، إذ أتاني آت فقال لي: احفر طيبة[٣]، قلت: وما طيبة؟ قال: ثم ذهب عني.

قال: فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي، فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر برّة[٤]، قال: قلت: وما برة؟، قال: ثم ذهب عني.

فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر المضنونة[٥]. قال: قلت: وما المضنونة؟ قال: ثم ذهب.

فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي، فنمت فيه فجاءني فقال: احفر زمزم. قال: قلت:

---

(١) انظر: نظرات في السيرة للإمام حسن البنا (ص ١٤).

(٢) انظر: هذا الحبيب يا محب، للجزائري (ص ٥١).

(٣) طيبة: مشتقة من الطيب، وبه سميت المدينة.

(٤) برة: مشتقة من البر، والبر: هو الخير والطهارة.

(٥) المضنونة: الغالية النفيسة التي يضن بمثلها، أي يُبخل.

وما زمزم؟ قال: لا تَنْزِف[١] أبدًا ولا تُذَم، تسقي الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم، عند نُقرة الغراب الأعصم[٢]، عند قرية النمل[٣].

قال ابن إسحاق: فلما بُيِّن له شأنها، ودُلّ على موضعها، وعرف أنه صُدِق، غدا بمعوله ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب، وليس معه يومئذٍ ولد غيره، فحفر فيها، فلما بدا لعبد المطلب الطَّيُّ[٤] كبَّر، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته، فقاموا إليه فقالوا: يا عبد المطلب إنها بئر أبينا إسماعيل، وإن لنا فيها حقًا، فأشركنا معك فيها. قال: ما أنا بفاعل، إن هذا الأمر قد خُصصت به دونكم، وأُعطيته من بينكم.

قالوا له: فأنصفنا، فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها، قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه. قالوا: كاهنة بني سعد من هُذَيم، قال: نعم، وكانت بأشراف[٥] الشام.

فركب عبد المطلب ومعه نفر من بني أبيه من بني عبد مناف، وركب من كل قبيلة من قريش نفر، فخرجوا والأرض إذ ذاك مفاوز، حتى إذا كانوا ببعضها، نفد ماء عبد المطلب وأصحابه، فعطشوا حتى استيقنوا بالهلكة، فاستسقوا من كانوا معهم فأبوا عليهم، وقالوا: إنا بمفازة[٦] وإنا نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم. فقال عبد المطلب: إني أرى أن يحفر كلُّ رجل منكم حفرته لنفسه، بما لكم الآن من القوة، فكلما مات رجل دفعه أصحابه في حفرته ثم واروه، حتى يكون آخرهم رجلاً واحدًا، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعه. فقالوا: نِعمَ ما أمرت به.

فحفر كل رجل لنفسه حفرة، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشًا. ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه: والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب في الأرض، ولا نبتغي لأنفسنا لعجز، فعسى الله أن يرزقنا ماء ببعض البلاد، ارتحلوا. فارتحلوا حتى إذا بعث[٧] عبد المطلب راحلته انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب، فكبّر عبد المطلب، وكبر أصحابه، ثم نزل فشرب وشرب أصحابه، واستسقوا حتى ملأوا أسقيتهم، ثم دعا قبائل قريش ـ وهم ينظرون إليهم في جميع هذه الأحوال ـ فقال: هَلُّموا إلى الماء فقد سقانا الله، فجاءوا فشربوا، واستقوا كلهم، ثم قالوا: قد والله قضى لك علينا، والله ما نخاصمك في زمزم أبدًا، إن الذي سقاك

---

(١) لا تنزف: أي لا يفرغ ماؤها ولا يلحق قعرها، ولا تُذَمّ: أي لا توجد قليلة الماء.

(٢) الغراب الأعصم: الذي في ساقيه بياض.

(٣) قرية النمل: المكان الذي يجتمع فيه النمل.

(٤) الطَّيُّ: حافة البئر.

(٥) أشراف الشام: ما ارتفع من أرضه.

(٦) المفازة: جمعها مفاوز: القفار.

(٧) بعث راحلته: أقامها من بروكها.

هذا الماء بهذه الفلاة هو الذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشدًا فرجع ورجعوا معه، ولم يصلوا إلى الكاهنة، وخَلَّوا بينه وبين زمزم.

قال ابن إسحاق: فهذا ما بلغني عن علي بن أبي طالب في زمزم[١]، وقد ورد في فضل ماء زمزم أحاديث كثيرة؛ فمنها ما رواه مسلم في صحيحه في قصة إسلام أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنها مباركةٌ، إنها طعامُ طُعْم»[٢].

وروى الدارقطني والحاكم وصححه عن ابن عباس عن النبي ﷺ: «ماء زمزم لما شرب له؛ إن شربته لتستشفي شفاك الله، وإن شربته لشبعك أشبعك الله، وإن شربته لقطع ظمئك قطعه الله، وهي هزمة[٣] جبريل، وسقيا الله إسماعيل» قال الشيخ محمد أبو شهبة رحمه الله[٤]: ومهما يكن من شيء فقد صحح الحافظ الدمياطي ـ وهو من الحفاظ المتأخرين المتقنين ـ حديث: «ماء زمزم لما شرب له» وأقره الحافظ العراقي[٥].

ثانيًا: قصة أصحاب الفيل:

هذه الحادثة ثابتة بالقرآن الكريم والسنّة النبوية، وأتت تفاصيلها في كتب السير والتاريخ، وذكرها المفسرون في كتبهم:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴿٥﴾﴾ [سورة الفيل].

أما إشارات الرسول ﷺ إلى الحادث فمنها:

- أن الرسول ﷺ لما خرج زمن الحديبية سار حتى إذا كان بالثَّنِيَّة التي يهبط عليهم منها، بركت بها راحلته فقال الناس: حَلْ حَلْ[٦]، فألحت[٧]، فقالوا: خلأت القصواء! فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»[٨].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: (١/ ١٤٢ـ ١٤٥)، السير والمغازي لابن إسحاق (٢٤، ٢٥) تحقيق سهيل زكار، البيهقي في الدلائل (١/ ٩٣ـ ٩٥) وصرح ابن إسحاق بالتحديث فسنده صحيح، وله شاهد من مرسل الزهري، فالحديث صحيح من طريق البيهقي وابن هشام.

(٢) مسلم، فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي ذر، ورقمه [١٣٢ـ (٢٤٧٣)، (طعام طعم): أي تُشبع شاربها كما يُشبعه الطعام.

(٣) هزمة أو همزة: أثر ضربته في الأرض بعقبه، أو جناحه.

(٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٥٨).

(٥) مقدمة ابن الصلاح وشرحها للحافظ العراقي (ص ١٣).

(٦) كلمة تقال للناقة إذا تركت السير (فتح الباري: ٥/ ٣٣٥).

(٧) ألحت: أي تمادت على عدم القيام وهو من الإلحاح، فتح الباري (٥/ ٣٣٥).

وجاء في السيرة النبوية لأبي حاتم، مايلي: «كان من شأن الفيل أن ملكًا كان باليمن غلب عليها، وكان أصله من الحبشة، يقال له أبرهة، بنى كنيسة بصنعاء فسماها القُلَّيْس وزعم أنه يصرف إليها حَج العرب، وحَلف أن يسير إلى الكعبة فيهدمها، فخرج ملك من ملوك حِمْيَر فيمن أطاعه من قومه، يُقال له ذو نفر فقاتله؛ فهزمه أبرهة وأخذه، فلما أُتي به، قال له ذو نَفَر: أيها الملك لا تقتلني فإن استبقائي خير لك من قتلي، فاستبقاه، وأوثقه، ثم خرج سائرًا يريد الكعبة، حتى إذا دنا من بلاد خَثْعَم، خرج إليه النُفيل بن حبيب الخثعمي ومن اجتمع إليه من قبائل اليمن، فقاتلوه فهزمهم وأخذ النفيل، فقال النفيل: أيها الملك، إني عالم بأرض العرب فلا تقتلني، وهاتان يداي على قومي بالسمع والطاعة، فاستبقاه وخرج معه يَدله، حتى إذا بلغ الطائف خرج إليه مسعود بن مُعَتَّب في رجال ثقيف، فقال: أيها الملك نحن عبيد لك، ليس لك عندنا خلاف، وليس بيننا وبينك الذي تريد ـ يعنون اللات ـ إنما تريد البيت الذي بمكة، نحن نبعث معك من يدلك عليه، فبعثوا معه مَولى لهم يُقال له: أبو رغال، فخرج معهم حتى إذا كان بالمُغَمَّس(١) مات أبو رغال، وهو الذي رجم قبره، وبعث أبرهة من المغمس رجلاً، يقال له الأسود بن مقصود على مقدمة خيله، فجمع إليه أهل الحرم وصاب لعبد المطلب مائتي بعير بالأراك، ثم بعث أبرهة حُناطة الحِمْيَري إلى أهل مكة فقال: سل عن شريفها ثم أبلغه أني لم آت لقتال، إنما جئت لأهدم هذا البيت، فانطلق حناطة، حتى دخل مكة، فلقي عبد المطلب بن هاشم، فقال: إن الملك أرسلني إليك ليخبرك أنه لم يأت لقتال إلا أن تقاتلوه، إنما جاء لهدم هذا البيت، ثم الانصراف عنكم، فقال عبد المطلب: ما عندنا له قتال، فقال: سنخلي بينه وبين البيت، فإن خلى الله بينه وبينه فوالله مالنا به قوة، قال: فانطلق معي إليه، قال: فخرج معه حتى ـ قدم العسكر، وكان «ذو نفر» صديقًا لعبد المطلب، فأتاه فقال: يا ذا نفر هل عندكم من غناء فيما نزل بنا؟ فقال: ما غناء رجل أسير لا يأمن من أن يقتل بُكرة أو عشية، ولكن سأبعث لك إلى أُنَيس سائس الفيل فآمره أن يصنع لك عند الملك ما استطاع من خير، ويُعظم خطرك ومنزلتك عنده، قال: فأرسل إلى أنيس فأتاه، فقال: إن هذا سيد قريش، صاحب عير مكة، الذي يُطعم الناس في السهل، والوحوش في الجبال، وقد أصاب له الملك مائتي بعير، فإن استطعت أن تنفعه فانفعه، فإنه صديق لي. فدخل أنيس على أبرهة فقال: أيها الملك، هذا سيد قريش، وصاحب عير مكة، الذي يُطعم الناس في السهل، والوحوش في الجبال يستأذن عليك، وأنه أحب أن تأذن له، فقد جاءك غير ناصب لك ولا مخالف عليك، فأذن له، وكان عبد المطلب رجلاً عظيمًا جسيمًا وسيمًا،

---

(١) البخاري، كتاب الشروط (٥/ ٣٨٨ ورقمه ٢٧٣١).

(٢) المغمس: مكان قرب مكة في طريق الطائف مات فيه أبو رغال.

فلما رآه أبرهة عظمه وأكرمه، وكره أن يجلس معه على سريره، وأن يجلس تحته، فهبط إلى البساط فجلس عليه معه، فقال له عبد المطلب: أيها الملك إنك قد أصبت فيّ مالاً عظيمًا فاردده عليّ، فقال له: لقد أعجبتني حين رأيتك، ولقد زهدت فيك، قال: ولمَ؟ قال: جئت إلى بيت هو دينك ودين آبائك، وعصمتكم ومنعتكم لأهدمه، فلم تُكلمني فيه، وتكلمني في مائتي بعير لك! قال: أنا رب هذه الإبل، ولهذا البيت رب سيمنعه، قال: ما كان ليمنعه مني، قال: فأنت وذاك، قال: فأمر بإبله فرُدت عليه، ثم خرج عبد المطلب وأخبر قريشًا الخبر، وأمرهم أن يتفرقوا في الشعاب، وأصبح أبرهة بالمغمس قد تهيأ للدخول، وعبأ جيشه، وقرب فيله، وحمل عليه ما أراد أن يحمل، وهو قائم، فلما حركه وقف، وكاد أن يرزم إلى الأرض فيبرك، فضربوه بالمعول في رأسه فأبى فأدخلوا محاجن لهم تحت مَراقِّه ومرافقه فأبى، فوجهوه إلى اليمن فهرول، فصرفوه إلى الحرم فوقف، ولحق الفيل بجبل من تلك الجبال فأرسل الله الطير من البحر كالبَلَسان[1] مع كل طير ثلاثة أحجار: حَجران في رجليه وحَجر في منقاره، ويحملن أمثال الحمص والعدس من الحجارة، فإذا غشين القوم أرسلنها عليهم، فلم تُصب تلك الحجارة أحدًا إلا هلك، وليس كل القوم أصيب، ذلك قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ [سورة الفيل] وبعث الله على أبرهة داءً في جسده، ورجعوا سراعًا يتساقطون في كل بلد، وجعل أبرهة تتساقط أنامله، كلما سقطت أُنملة اتبعتها مدّة من قيح ودم، فانتهى إلى اليمن، وهو مثل فرخ الطير، فيمن بقي من أصحابه، ثم مات»[2].

وذكر ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ في سيرته، كما نقله ابن هشام عنه في السير، أن عبد المطلب أخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلْقَة باب الكعبة:

لا هُمَّ إن العبد يمـ ـنع رحله فامنع حِلالك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم غَدْوًا محالك
إن كنت تاركهم وقبلـ ـتنا فأمرٌ ما بَدَا لك

ثم أرسل عبد المطلب حَلْقَة باب الكعبة، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال، فتحرزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها، وذكر بعد ذلك ما حدث من هلاك لأبرهة وجيشه[3].

---

(١) البَلَسان: الزرازير.

(٢) السيرة النبوية لأبي حاتم البستي (ص ٣٤ـ ٣٩)، وانظر: السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٣٠ـ ٣٧).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام مع شرح أبي ذر الخُشَني (١/ ٨٤ـ ٩١).

● **دروس وعبر وفوائد من حادثة الفيل:**

١ - **بيان شرف الكعبة، أول بيت وضع للناس**، وكيف أن مشركي العرب كانت تعظمه، وتقدسه، ولا يقدمون عليه شيئًا، وتعود هذه المنزلة إلى بقايا ديانة إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام.

٢ - **حسد النصارى وحقدهم على مكة وعلى العرب** الذين يعظمون هذا البيت، ولذلك أراد أبرهة أن يصرف العرب عن تعظيم بيت الله، ببناء كنيسة القُلَّيس. وعلى الرغم من استعماله أساليب الترغيب والترهيب، إلا أن العرب امتنعوا، ووصل الأمر إلى مداه بأن أحدث في كنيسة القُلَّيس أحد الأعراب، قال الرازي - رحمه الله - تعالى - في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ [الفِيل: الآية ٢] : اعلم أن الكيد هو إرادة مضرة بالغير على الخفية. (إن قيل) لِمَ سماه كيدًا وأمره كان ظاهرًا، فإنه كان يصرح أن يهدم البيت؟ (قلنا) نعم، لكن الذي كان في قلبه شرًّا مما أظهر، لأنه كان يضمر الحسد للعرب، وكان يريد صرف الشرف الحاصل لهم، بسبب الكعبة، منهم ومن بلدهم إلى نفسه وإلى بلدته[1].

٣ - **التضحية في سبيل المقدسات**: قام ملك من ملوك حِمْيَر في وجه جيش إبرهة، ووقع الملك أسيرًا، وقام النفيل بن حبيب الخثعمي، ومن اجتمع معه من قبائل اليمن، فقاتلوا أبرهة، إلا أنهم انهزموا أمام الجيش العرمرم، وبذلوا دماءهم دفاعًا عن مقدساتهم.

إن الدفاع عن المقدسات والتضحية في سبيلها شيء غريزي في فطرة الإنسان.

٤ - **خونة الأمة مخذولون**: فهؤلاء العملاء الذين تعاونوا مع أبرهة، وصاروا عيونًا له وجواسيس، وأرشدوه إلى بيت الله العتيق ليهدمه، لعنوا في الدنيا والآخرة، لعنهم الناس، ولعنهم الله ﷻ، وأصبح قبر أبي رغال رمزًا للخيانة والعمالة، وصار ذاك الرجل مبغوضًا في قلوب الناس، وكلما مر أحد على قبره رجمه.

٥ - **حقيقة المعركة بين الله وأعدائه**: في قولة عبد المطلب زعيم مكة: «سنخلي بينه وبين البيت، فإن خلى الله بينه وبينه، فوالله ما لنا به قوة» هذا تقرير دقيق لحقيقة المعركة بين الله وأعدائه، فمهما كانت قوة العدو وحشوده، فإنها لا تستطيع الوقوف لحظة واحدة أمام قدرة الله، وبطشه ونقمته، فهو سبحانه واهب الحياة، وسالبها في أي وقت شاء[2].

قال القاسمي - رحمه الله - قال القاشاني - رحمه الله -: قصة أصحاب الفيل مشهورة، وواقعتهم قريبة من عهد الرسول ﷺ، وهي إحدى آيات قدرة الله، وأثر من سخطه على من اجترأ عليه بهتك حرمه.

---

(١) انظر: تفسير الرازي (٣٢/ ٩٤).

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (١١٢).

٦ - **تعظيم الناس للبيت وأهله:** ازداد تعظيم العرب لبيت الله الحرام، الذي تكفل بحفظه وحمايته من عبث المفسدين، وكيد الكائدين[١]، وأعظمت العرب قريشًا، وقالوا: هم أهل الله، قاتل الله عنهم وكفاهم العدو، وكان ذلك آية من الله، ومقدمة لبعثة نبي يبعث من مكة، ويطهر الكعبة من الأوثان، ويعيد لها ما كان لها من رفعة وشأن[٢].

٧ - **قصة الفيل من دلائل النبوة:** قال بعض العلماء إن حادثة الفيل من شواهد النبوة، ودلالاتها، ومن هؤلاء: الماوردي - رحمه الله -: آيات الملك باهرة، وشواهد النبوة ظاهرة، تشهد مبادئها بالعواقب، فلا يلتبس فيها كذب بصدق، ولا منتحل بحق، وبحسب قوتها وانتشارها يكون بشائرها وإنذارها. ولما دنا مولد رسول الله ﷺ تعاطرت آيات نبوته، وظهرت آيات بركته، فكان من أعظمها شأنًا، وأشهرها عيانًا وبيانًا: أصحاب الفيل.. إلى أن قال: وآية الرسول في قصة الفيل، أنه كان في زمانه حملاً في بطن أمه بمكة، لأنه ولد بعد خمسين يومًا من الفيل، وبعد موت أبيه في يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول، فكانت آية في ذلك من وجهين:

أحدهما: أنهم لو ظفروا لسبوا واسترقوا، فأهلكهم الله تعالى لصيانة رسوله أن يجري عليه السبي حملًا ووليدًا.

والثاني: أنه لم يكن لقريش من التأله ما يستحقونه به رفع أصحاب الفيل عنهم، وما هم أهل كتاب، لأنهم كانوا بين عابد صنم، أو متدين وثن، أو قائل بالزندقة، أو مانع من الرجعة. ولكن لما أراد الله تعالى من ظهور الإسلام، تأسيسًا للنبوة، وتعظيمًا للكعبة.. ولما انتشر في العرب ما صنع الله تعالى في جيش الفيل؛ تهيبوا الحرم وأعظموه، وزادت حرمته في النفوس، ودانت لقريش بالطاعة، وقالوا: أهل الله قاتل عنهم، وكفاهم كيد عدوهم، فزادوهم تشريفًا وتعظيمًا، وقامت قريش لهم بالرفادة والسدانة، والسقاية. والرفادة مال تخرجه قريش في كل عام من أموالهم، يصنعون به طعامًا للناس، أيام منى، فصاروا أئمة دَيّانين، وقادة متبوعين، وصار أصحاب الفيل مثلًا في الغابرين[٣].

وقال ابن تيمية - رحمه الله -: «وكان ذلك عام مولد النبي ﷺ، وكان جيران البيت مشركين، يعبدون الأوثان، ودين النصارى خير منهم، فعلم بذلك أن هذه الآية لم تكن لأجل جيران البيت حينئذٍ، بل كان لأجل البيت، أو لأجل النبي ﷺ، الذي ولد في ذلك العام عند البيت، أو لمجموعهما، وأي ذلك كان فهو من دلائل نبوته»[٤].

---

(١) انظر: محاسن التأويل للقاسمي (١٧/ ٢٦٢).

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (١١٢).

(٣) انظر: السيرة النبوية للندوي (٩٢).

(٤) انظر: أعلام النبوة للماوردي، (ص ٨٥-١٨٩).

وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ عندما تحدث عن حادثة الفيل: «.. كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ، فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال، ولسان حال القدرة يقول: لم ينصركم يا معشر قريش على الحبشة لخيرتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق، الذي سنشرفه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمد صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء»[١].

٨ ـ **حفظ الله للبيت العتيق**: وهي أن الله لم يقدر لأهل الكتاب (أبرهة وجنوده) أن يدمروا البيت الحرام، أو يسيطروا على الأرض المقدسة، حتى والشرك يُدنسه، والمشركون هم سدنته ليبقى هذا البيت عتيقًا من سلطان المتسلطين، مصونًا من كيد الكائدين، وليحفظ لهذه الأرض حريتها، حتى تنبت فيها العقيدة الجديدة حُرة طليقة، لا يهيمن عليها سلطان، ولا يطغى فيها طاغية، ولا يُهيمن على هذا الدين الذي جاء ليهيمن على الأديان، وعلى العباد، ويقود البشرية ولا يقاد، وكان هذا من تدبير الله لبيته ولدينه، قبل أن يَعلم أحد أن نبي هذا الدين قد ولد في هذا العام[٢].

ونحن نستبشر بإيحاء هذه الدلالة اليوم ونطمئن، إزاء ما نعلمه من أطماع فاجرة ماكرة، ترف حول الأماكن المقدسة من قبل الصليبية العالمية، والصهيونية العالمية، ولا تني أو تَهدأ في التمهيد الخفي اللئيم لهذه الأطماع الفاجرة الماكرة، فالله الذي حمى بيته من أهل الكتاب، وسدنتُه مشركون، سيحفظه إن شاء الله ويحفظ مدينة رسوله من كيد الكائدين، ومكر الماكرين[٣].

٩ ـ **جعل الحادثة تاريخًا للعرب**: استعظم العرب ما حدث لأصحاب الفيل، فأرخوا به، وقالوا: وقع هذا عام الفيل، وولد فلان عام الفيل، ووقع هذا بعد عام الفيل بكذا من السنين، وعام الفيل صادف عام ٥٧٠م[٤].

المبحث الخامس

من المولد النبوي الكريم إلى حلف الفضول

أولاً: نسب النبي ﷺ:

إن النبي ﷺ أشرف الناس نسبًا، وأكملهم خَلقًا وخُلقًا، وقد ورد في شرف نسبه أحاديث صحاح، منها ما رواه مسلم: أن النبي ﷺ قال: «إن الله عز وجل ـ اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[٥].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/٥٤٨، ٥٤٩).

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ١١٣).

(٣) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٨٠).

(٤) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ٨٢).

(٥) مسلم كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ (٤/ ١٧٨٢ رقم ٢٢٧٦).

وقد ذكر الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ نسب النبي ﷺ، فقال: «محمد بن عبد الله، بن عبد المطلب، بن هشام، بن عبد مناف، بن قُصَيّ، بن كلاب، بن مُرة، بن كعب، بن لؤي، ابن غالب، بن فهر، بن مالك، بن النضر، بن كنانة، بن خُزيمة، بن مُدرِكة، بن إِلياس، بن مُضَر، بن نِزار، بن مَعَدّ، بن عدنان»[1].

وقال البغوي في شرح السنة بعد ذكر النسب إِلى عدنان: «ولا يصح حفظ النسب فوق عدنان»[2].

وقال ابن القيم: بعد ذكر النسب إِلى عدنان أيضًا: «إِلى هنا معلوم الصحة، متفق عليه بين النسابين، ولا خلاف البتة، وما فوق عدنان مختلف فيه، ولا خلاف بينهم أن عدنان من ولد إِسماعيل عليه السلام»[3].

وقد جاء عن ابن سعد في طبقاته: «الأمر عندنا الإِمساك عما وراء عدنان إِلى إِسماعيل»[4].

وعن عروة بن الزبير أنه قال: ما وجدنا من يعرف وراء عدنان ولا قحطان إِلا تخرصًا»[5].

قال الذهبي رحمه الله: «وعدنان من ولد إِسماعيل بن إِبراهيم عليهما السلام بإِجماع الناس، لكن اختلفوا فيما بين عدنان وإِسماعيل من الآباء»[6].

«لقد كان ـ وما زال ـ شرف النسب له المكانة في النفوس، لأن ذا النسب الرفيع لا تُنْكر عليه الصدارة، نبوةً كانت أو مُلكًا، وينكر ذلك على وضيع النسب، فيأنف الكثير من الانضواء تحت لوائه، ولما كان محمد ﷺ يُعَدُّ للنبوة، هيأ الله تعالى له شرف النسب؛ ليكون مساعدًا له على التفاف الناس حوله»[7].

إِن معدن النبي ﷺ طيب ونفيس، فهو من نسل إِسماعيل الذبيح، وإِبراهيم خليل الله، واستجابة لدعوة إِبراهيم عليه السلام، وبشارة أخيه عيسى عليه السلام، كما حدّث هو عن نفسه، فقال: «دعوة أبي إِبراهيم وبشرى عيسى»[8].

---

(١) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب مبعث النبي ﷺ (٤/ ٢٨٨ عقب ترجمة الباب).
(٢) شرح السنّة (١٣/ ١٩٣).
(٣) زاد المعاد (١/ ٧١).
(٤) ابن سعد (١/ ٥٨).
(٥) المصدر السابق.
(٦) السيرة النبوية للذهبي (ص ١).
(٧) انظر دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ (ص ٩٦).
(٨) انظر: الحاكم (٢/ ٦٠٠) وصححه الحاكم والذهبي.

وطيب المعدن والنسب الرفيع يرفع صاحبه عن سفساف الأمور، ويجعله يهتم بمعاليها وفضائلها، والرسل والدعاة يحرصون على تزكية أنسابهم، وظهر أصلابهم، ويعرفون عند الناس بذلك، فيحمدونهم ويثقون بهم(١).

ومما تبين يتضح لنا من نسبه الشريف دلالة واضحة على أن الله ﷻ ميّز العرب على سائر الناس، وفضل قريشًا على سائر القبائل الأخرى، ومقتضى محبة رسول الله ﷺ، محبة القوم الذين ظهر فيهم، والقبيلة التي ولد فيها، لا من حيث الأفراد والجنس، بل من حيث الحقيقة المجردة؛ ذلك لأن الحقيقة العربية القرشية، قد شرف كل منها - ولا ريب - بانتساب رسول الله ﷺ إليها، ولا ينافي ذلك ما يلحق من سوء بكل من قد انحرف من العرب أو القرشيين عن صراط الله ﷻ، وانحط عن مستوى الكرامة الإسلامية، التي اختارها الله لعباده، لأن هذا الانحراف أو الانحطاط؛ من شأنه أن يُودِيَ بما كان من نسبة بينه وبين الرسول ﷺ ويلغيها من الاعتبار(٢).

ثانيًا: زواج عبد الله بن عبد المطلب من آمنة بنت وهب، ورؤيا آمنة أم النبي ﷺ:

كان عبد الله بن عبد المطلب من أحب ولد أبيه إليه، ولما نجا من الذبح، وفداه عبد المطلب بمائة من الإبل، زوّجه من أشرف نساء مكة نسبًا، وهي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب(٣).

ولم يلبث أبوه أن توفي بعد أن حملت به ﷺ آمنة، ودفن أبوه بالمدينة عند أخواله بني (عدي بن النجار)، فإنه كان قد ذهب بتجارة إلى الشام، فأدركته منيته بالمدينة، وهو راجع، وترك هذه النَسَمَة المباركة، وكأن القدر يقول له: قد انتهت مهمتك في الحياة. وهذا الجنين الطاهر يتولى الله ﷻ بحكمته ورحمته تربيته وتأديبه، وإعداده لإخراج البشرية من الظلمات إلى النور.

ولم يكن زواج عبد الله من آمنة هو بداية أمر النبي ﷺ، قيل للنبي ﷺ: ما كان أول بدء أمرك(٤): فقال رسول الله ﷺ: «دعوةَ أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت منه قصور الشام»(٥).

ودعوة إبراهيم عليه السلام هي قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ١٠٢).

(٢) انظر: فقه السيرة للبوطي (ص٤٥).

(٣) انظر: وقفات تربوية مع السيرة، أحمد فريد (ص ٤٦).

(٤) المصدر نفسه (ص ٤٦).

(٥) رواه أحمد (٥/ ٢٦٢ ورقمه ٢٢٢٦١)، وقال محققو طبعة مؤسسة الرسالة: صحيح لغيره)؛ الحاكم (٢/ ٦٠٠)، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، مجمع الزوائد (٨/ ٢٢٢) وقال: إسناد أحمد حسن، وله شواهد تقويه.

﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: الآية ١٢٩].

وبشرى عيسى: كما أشار إليه قوله ﷻ حاكيًا عن المسيح ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصَّف: الآية ٦].

وقوله: «ورأت أمي كأنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام» قال ابن رجب: «وخروج هذا النور عند وضعه، إشارة إلى ما يجيء به من النور الذي اهتدى به أهل الأرض، وزالت به ظلمة الشرك منها، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: الآيتان ١٥، ١٦].

وقال ابن كثير: «وتخصيص الشام بظهور نوره، إشارة إلى استقرار دينه وثبوته ببلاد الشام، ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله، وبها ينزل عيسى ابن مريم بدمشق، بالمنارة الشرقية البيضاء منها، ولهذا جاء في الصحيحين: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك» وفي صحيح البخاري: «وهم بالشام»[(١)].

ثالثًا: ميلاد الحبيب المصطفى ﷺ:

ولد الحبيب المصطفى ﷺ يوم الاثنين بلا خلاف، والأكثرون على أنه لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول[(٢)].

والمجمع عليه أنه عليه الصلاة والسلام ولد عام الفيل[(٣)]، وكانت ولادته في دار أبي طالب، بشعب بني هاشم[(٤)].

قال أحمد شوقي رحمه الله في مولد الحبيب المصطفى ﷺ:

ولد الهدى فالكائنات ضياءُ ... وفم الزمان تبسُّم وثناء
الروح، والملأ، الملائك حوله ... للدين والدنيا به بشراء
والعرش يزهو، والحظيرة تزدهي ... والمنتهى والسّدرة العصماء

* * *

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٨٤)، رواه البخاري، كتاب المناقب ـ باب ٢٨ ـ رقم (٣٦٤١).

(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي (ص٤٧).

(٣) انظر: السيرة النبوية، لابن كثير (١/٢٠٣).

(٤) انظر: وقفات تربوية مع السيرة النبوية (ص ٤٧).

بك بشَّر الله السماء فَزُيِّنَتْ ... وتضوَّعت مِسْكًا بك الغبراء

* * *

يوم يتيه على الزمان صباحه ... ومساؤه بمحمد وضاء

* * *

ذُعِرتْ عروش الظالمين فزلزلت ... وعلت على تيجانهم أصداء
والنار خاوية الجوانب حولهم ... خَمَدَت ذوائبها وغاض الماء
والآي تترى، والخوارق جمة ... جبريل روّاح بها غدّاء(١).

وقد قال الشاعر الأديب الليبي الأستاذ محمد بشير المغيربي في ذكرى مولد الرسول ﷺ عام ١٩٤٧م في جريدة الوطن الصادرة في بنغازي:

بلغ الزمان من الحياة عتيا ... لكنَّ يومًا لا يزال فتيا
يمشي على الأحقاب مشي فاتح ... في موكب جعل السنين مطيا
تحدت له الأعوام في أيامها ... عرشاً فأصبح تاجها الأبديا
ومضت به الأجيال خطوات من ... بلغ الرشاد وكان قبل صبيا
أعظم بيوم جاء يحمل (رحمة ... للعالمين) وعزة ورقيا
ولدت به للكائنات حقيقة ... أضحى بها سر الحياة جليا
وأنار في الأولى الطريق إلى الورى ... ليسير للأخرى الأنام تقيا
كادت به الدنيا تقول لشمسها ... عني فقد رجع الضياء إليا

وقال أيضًا في نادي طرابلس الغرب الثقافي في القاهرة في عام ١٩٤٩م.

ما لي وما بي من شمول ... أشدو على رغم العذولْ
إني أطالع في السماء ... كأنها سفر جليل
وأرى النجوم تمثلت ... لي كالملائك في مثول
والبدر خلت شعاعه ... وحي الرسالة في نزول
وإذا بصوت من ضمير ... الكون مبتهجًا يقول
في مثل هذي الليلة ... الغراء قد ولد الرسول
وأشع نور محمد ... فوق الروابي والسهول
ملأ الزمان وكان قبل ... يهيم في ليل طويل

رابعًا: مرضعاته عليه الصلاة والسلام:

* كانت حاضنته ﷺ أم أيمن بركة الحبشية أَمَة أبيه، وأول من أرضعته ثويبةُ أمةُ عمه

(١) انظر: ديوان شوقي (١/ ٣٤، ٣٥).

أبي لهب[١]. فمن حديث زينب ابنة أبي سلمة أنّ أمّ حبيبة ـ رضي الله عنها ـ أخبرتها أنها قالت: يا رسول الله، انْكِحْ أختي بنتَ أبي سفيان، فقال: «أو تحبين ذلك»؟ فقلت: نعم، لست لك بمخلية، وأحب من شاركني في خير أختي. فقال النبي ﷺ: «إنّ ذلك لا يحل لي». قلت: فإنا نُحَدَّثُ أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة، قال: «بنت أم سلمة»؟ قلت: نعم، فقال: «لو أنها لم تكن ربيبتي في حجري ما حلَّت لي، إنها لابنةُ أخي من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثويبة، فلا تَعْرِضنَ عليَّ بناتكن ولا أخواتكن»[٢].

وكان من شأن أم أيمن، أم أسامة بن زيد، أنها كانت وصيفة لعبد الله بن عبد المطلب، وكانت من الحبشة، فلما ولدت آمنة رسول الله ﷺ، بعد ما تُوفي أبوه، كانت أم أيمن تحضنه، حتى كَبِرَ رسول الله ﷺ، فأعتقها، ثم أنكحها زيد بن حارثة، ثم توفيت بعدما توفي رسول الله ﷺ بخمسة أشهر[٣].

* حليمة السعديّة مرضعته في بني سعد: وهذه حليمة السعدية تقص علينا خبرًا فريدًا عن بركات الحبيب المصطفى ﷺ التي لمستها في نفسها وولدها، ورعيها وبنتها.

عن عبد الله بن جعفر ـ رضي الله عنهما ـ قال: «لما وُلد رسول الله ﷺ قدمت حليمة بنت الحارث، في نسوة من بني سعد بن بكر، يلتمسون الرضعاء بمكة، قالتِ حليمة: فخرجت في أوائل النسوة على أَتان لي، قمراء[٤] ومعي زوجي الحارث بن عبد العزى، أحد بني سعد بن بكر، ثم أحد بني ناضرة، قد أدمت[٥] أتاننا، ومعي بالركب شارف[٦] والله ما تَبِضُّ[٧] بقطرة لبن، في سنة شهباء[٨]، قد جاع الناس حتى خلص إليهم الجهد، ومعي ابن لي، والله ما ينام ليلنا، وما أجد في يدي شيئًا أعلله به، إلا أنا نرجو الغيث وكانت لنا غنم، فنحن نرجوها.

فلما قدمنا مكة فما بقي منا أحد إلا عرض عليها رسول الله ﷺ فكرهته، فقلنا: إنه يتيم، وإنما يكرم الظئر، ويحسن إليها الوالد، فقلنا: ما عسى أن تصنع بنا أمه أو عمه أو جده، فكلُّ صواحبي أخذت رضيعًا، فلما لم أجد غيره، رجعت إليه، وأخذته، والله ما أخذته إلا أَني لم أجد غيره، فقلت لصاحبي: والله لآخذن هذا اليتيم من بني عبد المطلب، فعسى

(١) انظر: وقفات تربوية مع السيرة النبوية (ص ٤٨).
(٢) البخاري، كتاب النكاح، باب ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ رقم (٥١٠١).
(٣) مسلم، كتاب الجهاد، باب رد المهاجرين إلى الأنصار، رقم (١٧٧١).
(٤) قمراء: القُمرة لون إلى الخضرة، أو بياض فيه كدرة.
(٥) أدمت: حدثت في ركبها جروح دامية لاصطكاكها.
(٦) الشارف: الناقة المسنة.
(٧) تبض: لا ترشح قطرة لبن.
(٨) شهباء: سنة مجدبة لا خضرة فيها ولا مطر.

الله أن ينفعنا به، ولا أرجع من بين صواحبي ولا آخذ شيئًا، فقال: قد أصبت.

قالت: فأخذته، فأتيت به الرَّحْلَ، فوالله ما هو إلا أن أتيت به الرَّحْلَ، فأمسيت أقبل ثدياي باللبن، حتى أرويته، وأرويت أخاه، قام أبوه إلى شارفنا تلك يلمسها، فإذا هي حافل[١]، فحلبها، فأرواني ورَوِي، فقال: يا حليمة، تعلمين والله لقد أصبنا نَسَمَة مباركة[٢]، ولقد أعطى الله عليها ما لم نتمنَّ، قالت: فبتنا بخير ليلة، شباعًا، وكنا لا ننام ليلنا مع صبينا.

ثم اغتدينا راجعين إلى بلادنا أنا وصواحبي، فركبت أتاني القمراء فحملته معي، فوالذي نفس حليمة بيده لقطعَتْ الركب[٣] حتى إن النسوة ليقلن: أمسكي علينا، أهذه أتانك التي خرجت عليها؟ فقلت: نعم، فقالوا: إنها كانت أدمت حين أقبلنا فما شأنها؟ قالت، فقلت: والله حملت عليها غلامًا مباركًا.

قالت: فخرجنا، فما زال يزيدنا الله في كل يوم خيرًا، حتى قدمنا والبلاد سَنة، ولقد كان رعاتنا يسرحون ثم يروحون، فتروح أغنام بني سعد جياعًا، وتروح غنمي بطانًا[٤]، حُفَّلاً[٥]، فنحلب، ونشرب، فيقولون: ما شأن غنم الحارث بن عبد العزى، وغنم حليمة تروح شباعًا حُفَّلاً، وتروح غنمكم جياعًا. ويلكم اسرحوا حيث تسرح غنم رعائهم، فيسرحون معهم، فما تروح إلا جياعًا كما كانت، وترجع غنمي كما كانت.

قالت: وكان يشب شبابًا ما يَشبُّه أحدٌ من الغلمان، يشب في اليوم شباب السنة، فلما استكمل سنتين أقدمناه مكة، أنا وأبوه، فقلنا: والله لا نفارقه أبدًا ونحن نستطيع، فلما أتينا أمه، قلنا: والله ما رأينا صبيًّا قطُّ أعظم بركة منه، وإنا نتخوف عليه وباء[٦] مكة وأسقامها، فدعيه نرع به حتى تبرئي من دائك، فلم نزل بها حتى أذنت، فرجعنا به، فأقمنا أشهرًا ثلاثة أو أربعة، فبينما هو يلعب خلف البيوت هو وأخوه في بَهْم لنا[٧]، إذ أتى أخوه يشتدُّ، . . . فقال لي ولأبيه: إن أخي القرشي، أتاه رجلان عليهما ثياب بيض، فأخذاه وأضجعاه، فشقّا بطنه، فخرجت أنا وأبوه يشتدُّ، فوجدناه قائمًا، قد انتقع لونه[٨]، فلما رآنا أجهش إلينا، وبكى، قالت: فالتزمته أنا وأبوه، فضممناه إلينا: ما لك بأبي وأمي؟ فقال: «أتاني رجلان

---

(١) حافل: كثير اللبن.
(٢) نسمة: نفس.
(٣) قطعت الركب: سبقت الركب.
(٤) بطاناً: الممتلئة البطون.
(٥) حُفَّلاً: كثيرات اللبن.
(٦) الوباء: المرض.
(٧) البَهم: صغار الضأن والماعز.
(٨) انتقع لونه: تغير.

وأضجعاني، فشقا بطني، ووضعا به شيئًا، ثم رداه كما هو»، فقال أبوه: والله ما أرى ابني إلا وقد أصيب، الحقي بأهله، فرديه إليك قبل أن يظهر له ما نتخوف منه. قالت: فاحتملناه فقدمنا به على أمه، فلما رأتنا أنكرت شأننا، وقالت: ما رجعكما به قبل أن أسلمكاه، وقد كنتما حريصين على حبسه؟ فقلنا: لا شيء إلا أن قضى الله الرضاعة وسَرَّنا ما نرى، وقلنا: نؤويه كما تحبون أحبّ إلينا، قال: فقالت: إن لكما شأناً فأخبراني ماهو، فلم تدعنا حتى أخبرناها، فقالت: كلا والله، لا يصنع الله ذلك به، إن لابني شأناً، أفلا أخبركما خبره، إني حملت به، فوالله ما حملت حملاً قط كان أخف عليّ منه، ولا أيسر منه، ثم أُريت حين حملته خرج مني نور أضاء منه أعناق الإبل بِبُصْرى ـ أو قالت: قصور بُصرى ـ ثم وضعته حين وضعته، فوالله ما وقع كما يقع الصبيان، لقد وقع معتمدًا بيديه على الأرض رافعًا رأسه إلى السماء، فدعاه عنكما، فقبضته، وانطلقنا»[١].

١ ـ دروس وعبر:

أ ـ **بركة النبي ﷺ على السيدة حليمة**: فقد ظهرت هذه البركة على حليمة السعدية في كل شيء، ظهرت في إدرار ثدييها، وغزارة حليبها، وقد كان لا يكفي ولدها، وظهرت بركته في سكون الطفل ولدها، وقد كان كثير البكاء مزعجًا لأمه، يؤرقها ويمنعها من النوم، فإذا هو شبعان ساكن جعل أمه تنام وتستريح، وظهرت بركته في شياههم العجفاوات التي لا تدر شيئًا، وإذا بها تفيض من اللبن الكثير الذي لم يُعهد.

ب ـ **كانت هذه البركات** من أبرز مظاهر إكرام الله له، وليس فقط أن أكرم بسببه بيت حليمة السعدية التي تشرفت بإرضاعه. وليس من ذلك غرابة ولا عجب[٢]، فخلف ذلك حكمة أن يُحب أهل هذا البيت هذا الطفل ويحنوا عليه، ويحسنوا في معاملته ورعايته وحضانته، وهكذا كان فقد كانوا أحرص عليه، وأرحم به من أولادهم[٣].

جـ ـ **خيار الله للعبد أبرك وأفضل**: اختار الله لحليمة هذا الطفل اليتيم، وأخذته على مضض؛ لأنها لم تجد غيره، فكان الخير كل الخير فيما اختاره الله، وبانت نتائج هذا الاختيار مع بداية أخذه، وهذا درس لكل مسلم بأن يطمئن قلبه إلى قدر الله واختياره، والرضا به، ولا يندم على ما مضى، وما لم يقدره الله تعالى.

---

(١) مسند أبي يعلى (١٣/ ٩٣ ورقمه ٧١٦٣)، الطبراني في الكبير (٢٤/ ٢١٢ ورقمه ٥٤٥) وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٢١) وقال: رواه أبو يعلى والطبراني بنحوه ورجالهما ثقات، وأورده الذهبي (ص ٢١) في السيرة النبوية له، وقال: هذا حديث جيد الإسناد. وانظر السيرة النبوية بشرح الخشني: (١/ ٢١٤) من طريق ابن إسحاق وقد صرح ابن إسحاق بالسماع في رواية السيرة.

(٢) فقه السيرة النبوية للبوطي (ص ٤٤).

(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ١٠٥).

د - **أثر البادية في صحة الأبدان وصفاء النفوس، وذكاء العقول**: قال الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله -: وتنشئة الأولاد في البادية، ليمرحوا في كنف الطبيعة، ويستمتعوا بجوها الطلق وشعاعها المرسل، أدّى إلى تزكية الفطرة، وإنماء الأعضاء والمشاعر، وإطلاق الأفكار والعواطف.

إنها لتعاسة أن يعيش أولادنا في شقق ضيقة، من بيوت متلاصقة، كأنها علب أغلقت على من فيها، وحرمتهم لذة التنفس العميق، والهواء المنعش.

ولا شك أن اضطراب الأعصاب الذي قارن الحضارة الحديثة يعود - فيما يعود - إلى البعد عن الطبيعة، والإغراق في التصنع، ونحن نقدر لأهل مكة اتجاههم إلى البادية لتكون عرصاتها الفساح مدارج طفولتهم. وكثير من علماء التربية يود لو تكون الطبيعة هي المعهد الأول للطفل حتى تتسق مداركه مع حقائق الكون الذي وجد فيه، ويبدو أن هذا حلم عسر التحقيق[١].

وتعلم رسول الله ﷺ في بادية بني سعد اللسان العربي الفصيح، وأصبح فيما بعد أفصح الخلق، فعندما قال له أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله ما رأيت أفصح منك. فقال ﷺ: «وما يمنعني وأنا من قريش، وأُرضعت في بني سعد»[٢].

٢ - ما يستفاد من حادثة شق الصدر:

تعد حادثة شق الصدر التي حصلت له عليه الصلاة والسلام، أثناء وجوده في مضارب بني سعد من إرهاصات النبوة، ودلائل اختيار الله إياه لأمر جليل[٣].

وقد روى الإمام مسلم في صحيحه حادثة شق الصدر في صغره، فعن أنس بن مالك: «أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طسْت من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه[٤]، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعَون إلى أمه - يعني ظِئْرَهُ - فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر المخيط في صدره»[٥]. ولا شك أن التطهير من حظ الشيطان هو إرهاص مبكر للنبوة، وإعداد للعصمة من الشر، وعبادة غير الله، فلا يحل في قلبه إلا التوحيد الخالص، وقد دلت أحداث

---

(١) انظر: فقه السيرة (ص ٦٠، ٦١).

(٢) الروض الأنف للسهيلي (١/١٨٨).

(٣) انظر: فقه السيرة للبوطي (ص ٤٧).

(٤) لأمه: جمعه وضم بعضه إلى بعض (شرح النووي على مسلم ٢/٢١٦).

(٥) مسلم، كتاب الإيمان، [١/٤٥ رقم ٢٦١ (١٦٢)].

صباه على تحقق ذلك، فلم يرتكب إثمًا ولم يسجد لصنم(١)، رغم انتشار ذلك في قريش(٢).

وتحدث الدكتور البوطي عن الحكمة في ذلك فقال: يبدو أن الحكمة في ذلك إعلان أمر الرسول ﷺ وتهييؤه للعصمة والوحي، منذ صغره بوسائل مادية، ليكون ذلك أقرب إلى إيمان الناس به، وتصديقهم برسالته. إنها إذن عملية تطهير معنوي، ولكنها اتخذت هذا الشكل المادي الحسي، ليكون فيه ذلك الإعلان الإلهي بين أسماع الناس وأبصارهم(٣)، إن إخراج العلقة منه تطهير للرسول ﷺ من حالات الصبا اللاهية العابثة، المستهترة، واتصافه بصفات الجد والحزم والاتزان، وغيرها من صفات الرجولة الصادقة، كما تدلنا على عناية الله به، وحفظه له، وأنه ليس للشيطان عليه سبيل(٤).

خامسًا: وفاة أمه وكفالة جده ثم عمه:

توفيت أم النبي ﷺ وهو ابن ست سنين، بالأبواء بين مكة والمدينة، وكانت قد قدمت به على أخواله من بني عدي بن النجار، تزيره إياهم، فماتت وهي راجعة به إلى مكة(٥) ودفنت بالأبواء، وبعد وفاة أمه كفله جده عبد المطلب، فعاش في كفالته، وكان يؤثره على أبنائه أي أعمام النبي ﷺ ـ فقد كان جده مهيبًا، لا يجلس على فراشه أحد من أبنائه مهابة له، وكان أعمامه يتهيبون الجلوس على فراش أبيهم، وكان ﷺ يجلس على الفراش، ويحاول أعمامه أن يبعدوه عن فراش أبيهم، فيقف الأب الجد بجانبه، ويرضى أن يبقى جالسًا على فراشه، متوسمًا فيه الخير، وأنه يكون له شأن عظيم(٦)، وكان جده يحبه حبًا عظيمًا، وكان إذا أرسله في حاجة جاء بها، وذات يوم أرسله في طلب إبل فاحتبس عليه(٧) فطاف بالبيت وهو يرتجل يقول:

رب رد راكبي محمدا ... رده لي واصنع عندي يدا

فلما رجع النبي ﷺ وجاء بالإبل فقال له: يا بني، لقد حزنت عليك كالمرأة حزنًا لا يفارقني أبدًا(٨).

---

(١) زعم المستشرق نيكلسون أن حديث شق الصدر أسطورة نشأت عن تفسير الآية ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾، وأنه لو كان لها أصل، فعلينا أن نخمن أنها تشير إلى نوع من الصرع، وهذا الذي تَخَبَّط فيه نيكلسون سبقه إليه المشركون حين اتهموا رسول الله ﷺ بالجنون فنفى الله عنه ذلك ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢﴾ [التكوير: ٢٢].

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ١٠٤).

(٣) انظر: فقه السيرة للبوطي (ص ٤٧).

(٤) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ١٠٦، ١٠٧).

(٥) ابن هشام في السيرة (١/ ٦٨) وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث.

(٦) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ١٠١).

(٧) (٨) صحيح السيرة النبوية للعلي (ص ٥٦) وقال: أخرجه الحاكم: (٢/ ٦٠٣، ٦٠٤) وصححه ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٢٤): رواه أبو يعلى والطبراني وإسناده حسن.

ثم توفي عبد المطلب والنبي ﷺ في الثامنة من عمره[١]، فأوصى جده به عمه أبا طالب فكفله عمه وحنّ عليه ورعاه[٢].

أرادت حكمة الله أن ينشأ رسوله يتيمًا، تتولاه عناية الله وحدها، بعيدًا عن الذراع التي تمعن في تدليله، والمال الذي يزيد في تنعيمه، حتى لا تميل به نفسه إلى مجد المال والجاه، وحتى لا يتأثر بما حوله من معنى الصدارة والزعامة، فيلتبس على الناس قداسة النبوة بجاه الدنيا، وحتى لا يحسبوه يصطنع الأول ابتغاء الوصول إلى الثاني[٣]، وكانت المصائب التي أصابت النبي ﷺ منذ طفولته كموت أمه، ثم جده بعد أن حرم عطف الأب، وذاق كأس الحزن مرة بعد مرة، كانت تلك المحن قد جعلته رقيق القلب، مرهف الشعور، فالأحزان تصهر النفوس وتخلصها من أدران القسوة والكِبْر والغرور، وتجعلها أكثر رقة وتواضعًا.

سادسًا: عمله ﷺ في الرعي:

كان أبو طالب مُقِلاً في الرزق، فعمل النبي ﷺ برعي الغنم مساعدة منه لعمه، فلقد أخبر ﷺ عن نفسه الكريمة، وعن إخوانه من الأنبياء أنهم رعوا الغنم، أما هو فقد رعاها لأهل مكة، وهو غلام، وأخذ حقه عن رعيه، ففي الحديث الصحيح قال رسول الله ﷺ: «ما بعث الله نبيًا إلا رَعى الغنم» فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة»[٤] إن رعي الغنم كان يتيح للنبي ﷺ الهدوء الذي تتطلبه نفسه الكريمة، ويتيح له المتعة بجمال الصحراء، ويتيح له التطلع إلى مظاهر جلال الله في عظمة الخلق، ويتيح له مناجاة الوجود في هدأة الليل، وظلال القمر، ونسمات الأسحار، يتيح له لونًا من التربية النفسية، من الصبر والحلم، والأناة والرأفة، والرحمة والعناية بالضعيف، حتى يقوى، وزم قوى القوى[٥] حتى يستمسك للضعيف ويسير بسيره، وارتياد مشارع الخصب والري، وتجنب الهلكة ومواقع الخوف من كل ما لا تتيحه حياة أخرى بعيدة عن جو الصحراء وهدوئها، وسياسة هذا الحيوان الأليف الضعيف[٦].

وتذكرنا رعايته للغنم بأحاديثه ﷺ التي توجه المسلمين للإحسان للحيوانات[٧]، فكان

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ١٠١).

(٢) انظر: مدخل لفهم السيرة، د. اليحيى (ص ١١٩).

(٣) انظر: فقه السيرة للبوطي (ص ٤٦).

(٤) البخاري، كتاب الإجارة، باب ـ رعي الغنم على قراريط (رقم ٢٢٦٢). والقيراط جزء من الدينار أو الدرهم.

(٥) كذا جاءت هذه الكلمات، ولم أتبين معناها ـ «المراجع».

(٦) انظر: محمد رسول الله، محمد الصادق عرجون (١/١٧٧).

(٧) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/١٠٦).

رعي الغنم للنبي ﷺ دربة ومرانًا له على سياسة الأمم.

ورعي الغنم يتيح لصاحبه عدة خصال تربوية منها:

١ ـ **الصبر**: على الرعي من طلوع الشمس إلى غروبها، نظرًا لبطءِ الغنم في الأكل، فيحتاج راعيها إلى الصبر والتحمل، وكذا تربية البشر(١).

إن الراعي لا يعيش في قصر منيف، ولا في ترف وسرف، وإنما يعيش في جو حار شديد الحرارة، وبخاصة في الجزيرة العربية، ويحتاج إلى الماء الغزير ليذهب ظمأه، وهو لا يجد إلا الخشونة في الطعام وشظف العيش، فينبغي أن يحمل نفسه على تحمل هذه الظروف القاسية، ويألفها ويصبر عليها(٢).

٢ ـ **التواضع**: إذ طبيعة عمل الراعي خدمة الغنم، والإشراف على ولادتها، والقيام بحراستها، والنوم بالقرب منها، وربما أصابه ما أصابه من رذاذ بولها، أو شيء من روثها، فلم يتضجر من هذا، ومع المداومة والاستمرار يبعد عن نفسه الكبر والكبرياء، ويرتكز في نفسه خلق التواضع(٣). وقد ورد في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة، قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بَطَر الحق وغَمْط الناس»(٤).

٣ ـ **الشجاعة**: فطبيعة عمل الراعي الاصطدام بالوحوش المفترسة، فلا بد أن يكون على جانب كبير من الشجاعة، تؤهله للقضاء على الوحوش ومنعها من افتراس أغنامه(٥).

٤ ـ **الرحمة والعطف**: إن الراعي يقوم بمقتضى عمله في مساعدة الغنم إن هي مرضت، أو كُسرت أو أصيبت، وتدعو حالة مرضها وألمها إلى العطف عليها، وعلاجها والتخفيف من آلامها، فمن يرحم الحيوان يكون أشد رحمة بالإنسان، وبخاصة إذا كان رسولًا أرسله الله تبارك وتعالى لتعليم الإنسان، وإرشاده وإنقاذه من النار، وإسعاده في الدارين(٦).

٥ ـ **حب الكسب من عرق الجبين**: إن الله قادر على أن يغني محمدًا ﷺ عن رعي الغنم، ولكن هذه تربية له ولأمته للأكل من كسب اليد، وعرق الجبين، ورعي الغنم نوع من أنواع الكسب باليد.

---

(١) انظر: مدخل لفهم السيرة، د. اليحيى (ص ١٢٤).

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ١١٤، ١١٥).

(٣) المصدر السابق (ص١١٤).

(٤) مسلم [رقم ١٤٧ ـ (٩١)].

(٥) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ١١٤).

(٦) انظر: مدخل لفهم السيرة (ص ١٢٧).

روى البخاري عن المقدام رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ما أكل أحدٌ طعامًا قطُّ خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»(١).

ولا شك أن الاعتماد على الكسب الحلال يكسب الإنسان الحرية التامة، والقدرة على قول كلمة الحق والصدع بها(٢)، وكم من الناس يطأطئون رؤوسهم للطغاة، ويسكتون على باطلهم، ويجارونهم في أهوائهم خوفًا على وظائفهم عندهم(٣).

إن إقبال النبي ﷺ على رعي الأغنام لقصد كسب القوت والرزق، يشير إلى دلائل هامة في شخصيته المباركة، منها الذوق الرفيع والإحساس الدقيق اللذان جمّل الله تعالى بهما نبيه ﷺ. لقد كان عمّه يحوطه بالعناية التامة، وكان له في الحنّو والشفقة كالأب الشفوق، ولكنه ﷺ ما إن آنس في نفسه القدرة على الكسب حتى أقبل يكتسب، ويتعب نفسه لمساعدة عمه في مؤونة الإنفاق، وهذا يدل على شهامة في الطبع، وبرّ في المعاملة، وبذل للوسع(٤). والدلالة الثانية تتعلق ببيان نوع الحياة التي يرتضيها الله تعالى لعباده الصالحين في دار الدنيا، لقد كان سهلاً على الله أن يهيىء للنبي ﷺ وهو في صدر حياته من أسباب الرفاهية، ووسائل العيش ما يغنيه عن الكدح، ورعاية الأغنام سعيًا وراء الرزق.

ولكن الحكمة الربانية تقتضي منا أن نعلم أن خير مال الإنسان ما اكتسبه بكدّ يمينه، ولقاء ما يقدمه من الخدمة لمجتمعه وبني جنسه(٥).

سابعًا: حفظ الله تعالى لنبيه قبل البعثة:

إن الله تعالى صان نبيه ﷺ عن شرك الجاهلية، وعبادة الأصنام، روى الإمام أحمد في مسنده عن هشام بن عروة عن أبيه قال: حدثني جارٌ لخديجة أنه سمع النبي ﷺ وهو يقول لخديجة: «أيْ خديجة والله لا أعبد اللات، والله لا أعبد العُزَّى أبداً»(٦)، وكان لا يأكل ما ذبح على النصب، ووافقه في ذلك زيد بن عمرو بن نفيل(٧).

«وقد حفظه الله تعالى في شبابه من نزعات الشباب ودواعيه البريئة، التي تنزع إليها الشبوبية بطبعها، ولكنها لا تلائم وقار الهداة وجلال المرشدين»(٨)، فعن علي بن أبي

(١) البخاري، كتاب البيوع (رقم ٢٠٧٢).

(٢) انظر: مدخل لفهم السيرة (ص ١٢٨).

(٣) انظر: فقه السيرة للغضبان (ص ٩٣).

(٤) انظر: فقه السيرة للبوطي (ص ٥٠).

(٥) المصدر نفسه.

(٦) المسند ورقمه (١٧٩٤٧) وقال محققو طبعة مؤسسة الرسالة: إسناده صحيح، وانظر: وقفات تربوية، أحمد فريد (ص ٥١).

(٧) انظر: وقفات تربوية، أحمد فريد (ص ٥١).

(٨) انظر: محمد رسول الله، محمد عرجون (١/ ١٩٣).

طالب ﷺ ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما هممت بقبيح مما كان أهل الجاهلية يَهِمُّون به، إلا مرتين من الدهر، كلتيهما يعصمني الله منهما، قلت ليلة لفتى كان معي من قريش بأعلى مكة في أغنام لأهله يرعاها: أبصر إلى غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة، كما يسمر الفتيان، قال: نعم، فخرجت، فجئت أدنى دار من دور مكة، سمعت غناء، وضرب دفوف، ومزامير، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: فلان تزوج فلانة، لرجل من قريش تزوج امرأة من قريش، فلهوت بذلك الغناء وبذلك الصوت حتى غلبتني عيني، فما أيقظني إلا حر الشمس، فرجعت، فقال: مافعلت؟ فأخبرته ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك، ففعل، فخرجت فسمعت مثل ذلك، فقيل لي مثل ما قيل لي، فلهوت بما سمعت حتى غلبتني عيني، فما أيقظني إلا مس الشمس، ثم رجعت إلى صاحبي فقال: فما فعلت؟ قلت: ما فعلت شيئا» قال رسول الله ﷺ: «فوالله ما هممت بعدها بسوء مما يعمل أهل الجاهلية حتى أكرمني الله بنبوته»(١).

وهذا الحديث يوضح لنا حقيقتين، كل منهما على جانب كبير من الأهمية:

١ - إن النبي ﷺ كان متمتعًا بخصائص البشرية كلها، وكان يجد في نفسه ما يجده كل شاب من مختلف الميول الفطرية، التي اقتضت حكم الله أن يجبل الناس عليها، فكان يحس بمعنى السمر، واللهو، ويشعر بما في ذلك من متعة، وتحدثه نفسه لو تمتع بشيء من ذلك كما يتمتع الآخرون.

٢ - أن الله ﷻ قد عصمه مع ذلك من جميع مظاهر الانحراف، ومن كل ما لا يتفق مع مقتضيات الدعوة التي هيأه الله لها(٢).

ثامنًا: لقاء الراهب بَحِيرا بالرسول وهو غلام:

«خرج أبو طالب إلى الشام، وخرج معه النبي ﷺ في أشياخ من قريش، فلما أشرفوا(٣) على الراهب(٤)، هبطوا فحلوا رحالهم(٥)، فخرج إليهم الراهب، وكانوا قبل ذلك يسيرون، فلا يخرج إليهم، ولا يلتفت.

قال: فهم يحلون رحالهم فجعل يتخللهم الراهب(٦) حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ، قال: هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، يبعثه الله رحمة للعالمين، فقال له أشياخ من

(١) صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي (ص ٥٧).

(٢) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي (ص ٥٠، ٥١).

(٣) أشرفوا: اطلعوا.

(٤) الراهب: زاهد النصارى.

(٥) حلوا رحالهم: أي أنزلوها وفتحوها.

(٦) يتخللهم: يمشي بينهم.

قريش: ما علمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خرَّ[١] ساجدًا، ولا يسجدان إلا لنبيّ، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف[٢] كتفه مثل التفاحة.

ثم رجع فصنع لهم طعامًا، فلما أتاهم به، وكان هو في رعية الإبل[٣]، قال: أرسلوا إليه، فأقبل وعليه غمامة[٤] تظله، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة، فلما جلس مال فيء الشجرة[٥] عليه، فقال: انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه.

قال: فبينما هو قائم عليهم، وهو يناشدهم[٦] أن لا يذهبوا به إلى الروم؛ فإن الروم إذا عرفوه بالصفة فيقتلونه، فالتفت فإذا سبعة قد أقبلوا من الروم، فاستقبلهم، فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جاءنا أن هذا النبي خارج في هذا الشهر، فلم يبق طريق إلا بعث إليه بأناس، وإنا قد أخبرنا خبره، بعثنا إلى طريقك هذا، فقال: هل خلفكم أحد هو خير منكم؟

قالوا: إنما اخترنا خيره لك لطريقك هذا، قال: أفرأيتم أمرًا أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده؟ قالوا: لا، قال: فبايعوه وأقاموا معه.

قال: أنشدكم الله أيكم وليه[٧]؟ قالوا: أبو طالب، فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب»[٨].

ومما يستفاد من قصة بحيرا عدة أمور منها:

١ - إن الصادقين من رهبان أهل الكتاب يعلمون أن محمدًا ـ ﷺ ـ هو الرسول للبشرية، وعرفوا ذلك لما وجدوه من أمارات وأوصاف عنه في كتبهم.

٢ - إثبات سجود الشجر والحجر للنبي ﷺ وتظليل الغمام له، وميل فيء الشجرة عليه.

٣ - إن النبي ﷺ استفاد من سفره وتجواله مع عمه، وبخاصة من أشياخ قريش، حيث اطلع على تجارب الآخرين وخبرتهم والاستفادة من آرائهم، فهم أصحاب خبرة، ودراية، وتجربة لم يمر بها النبي ﷺ في سنه تلك.

٤ - حذر بَحِيرا من النصارى، وناشد عمه وأشياخ مكة ألا يذهبوا به إلى الروم؛ فإن الروم إذا عرفوه بالصفة يقتلونه، لقد كان الرومان على علم بأن مجيء هذا الرسول سيقضي على نفوذهم الاستعماري في المنطقة، ومن ثم فهو العدو الذي سيقضي على مصالح دولة روما، ويعيد هذه المصالح إلى أربابها، وهذا ما يخشاه الرومان.

---

(١) خر: سقط.
(٢) الغضروف: رأس لوح الكتف.
(٣) رعية الإبل: رعايتها.
(٤) غمامة: السحابة.
(٥) مال فيء الشجرة عليه: مال ظلها.
(٦) يناشدهم: يقسم عليهم.
(٧) أَيكم وليه: قريبه.
(٨) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٥٨، ٥٩) وما جاء في هامشها عنه.

تاسعًا: حرب الفِجار:

اندلعت هذه الحرب بين قريش ومن معهم من كنانة، وبين هوازن، وسببها أن عروة الرحّال بن عتبة بن هوازن أجار لطيمة[١] للنعمان بن المنذر إلى سوق عكاظ، فقال البرّاض بن قيس بن كنانة: أتجيرها على كنانة؟ قال: نعم وعلى الخلق، فخرج بها عروة، وخرج البراض يطلب غفلته حتى قتله، وعلمت بذلك كنانة، فارتحلوا وهوازن لا تشعر بهم، ثم بلغهم الخبر، فاتبعوهم، فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم، فاقتتلوا حتى جاء الليل، ودخلوا الحرم، فأمسكت عنهم هوازن، ثم التقوا بعد هذا اليوم أيامًا، وعاونت قريش كنانة[٢]، وشهد محمد ﷺ بعض أيامهم، أخرجه أعمامه معهم.

وسميت يوم الفِجار بسبب ما استحل فيه من حرمات مكة، التي كانت مقدسة عند العرب[٣].

وقد قال ﷺ عن تلك الحرب: «كنت أُنبِّل على أعمامي» أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها»[٤].

وكان ﷺ حينئذٍ ابن أربع عشرة أو خمس عشرة سنة، وقيل ابن عشرين، ويرجح الأول أنه كان يجمع النبال، ويناولها لأعمامه، مما يدل على حداثة سنه.

وبذلك اكتسب الجرأة والشجاعة، والإقدام، وتمرن على القتال منذ ريعان شبابه، وهكذا انتهت هذه الحرب التي كثيرًا ما تشبه حروب العرب...، حتى ألف الله بين قلوبهم، وأزاح عنهم هذه الضلالات بانتشار نور الإسلام بينهم[٥].

عاشرًا: حلف الفُضُول:

كان حلف الفضول بعد رجوع قريش من حرب الفجار، وسببه أن رجلاً من زَبيد[٦] قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل، ومنعه حقه فاستعدى عليه الزبيدي أشراف قريش، فلم يعينوه لمكانة العاص فيهم، فوقف عند الكعبة واستغاث بآل فهر وأهل المروءة ونادى بأعلى صوته:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائي الدار والنفر

---

(١) اللطيمة: الجمال التي تحمل الطيب والبز والتجارة.

(٢) قريش فرع من كنانة.

(٣) وقفات تربوية مع السيرة النبوية (ص ٥٣).

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٢١ـ ٢٢٤) السيرة الحلبية (١/ ١٢٧ـ ١٢٩).

(٥) انظر: وقفات تربوية (ص ٥٣).

(٦) زبيد: بلد باليمن.

ومحرم أشعث لم يقض عمرته ... يا للرجال وبين الحجر والحَجَر
إِن الحرام لم تمت كرامته ... ولا حرام لثوب الفاجر الغُدَر[(١)]

فقام الزبير بن عبد المطلب فقال: ما لهذا مترك، فاجتمعت بنو هاشم، وزهرة، وبنو تَيْم بن مرة في دار عبد الله بن جُدْعان فصنع لهم طعامًا، وتحالفوا في شهر حرام، وهو ذو القعدة، فتعاقدوا وتحالفوا بالله، ليكونُنّ يدًا واحدة مع المظلوم على الظالم، حتى يُرد إِليه حقه ما بلّ بحرٌ صوفةً، ومابقي جَبَلا ثبير وحراء مكانهما[(٢)].

ثم مشوا إِلى العاص بن وائل، فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها إِليه.

وسمَّت قريش هذا الحلف حلف الفضول، وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر.

وفي هذا الحلف قال الزبير بن عبد المطلب:

إِن الفضول تعاقدوا وتحالفوا ... ألا يقيم ببطن مكة ظالم
أمر عليه تعاقدوا وتواثقوا ... فالجار والمُعْتَرّ[(٣)] فيهم سالم

وقد حضر النبي ﷺ هذا الحلف الذي هدموا به صرح الظلم، ورفعوا به منار الحق، وهو يعتبر من مفاخر العرب، وعرفانهم لحقوق الإِنسان[(٤)]. وقد قال ﷺ: «شهدت حلف المطيبين مع عمومتي وأنا غلام، فما أحب أن لي حُمْر النَّعم، وأني أنكثه»[(٥)].

وقال ﷺ: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جُدعان حلفًا ما أحب أن لي به حُمْر النَّعم، ولو دعيت به في الإِسلام لأجبت»[(٦)].

*** دروس وعبر وفوائد:**

١ - إِن العدل قيمة مطلقة وليست نسبية، وأن الرسول ﷺ يظهر اعتزازه بالمشاركة في تعزيز مبدأ العدل، قبل بعثته بعقدين، فالقيم الإِيجابية تستحق الإِشادة بها حتى لو صدرت من أهل الجاهلية[(٧)].

٢ - كان حلف الفضول واحة في ظلال الجاهلية، وفيه دلالة بينة على أن شيوع الفساد في نظام

---

(١) انظر: الروض الأنف للسهيلي (١/ ١٥٥، ١٥٦).

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٢١٣)، مابلَّ بَحْرٌ صُوفَةً، ومابقي جَبَلا ثبير وحراء مكانهما: كناية عن التأييد والاستمرار.

(٣) المعترّ: الزائر من غير البلاد.

(٤) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٢١٤).

(٥) صحيح السيرة النبوية، إِبراهيم العلي، (ص٥٩) وذكر تصحيح الهيثمي له في المجمع، وتصحيح الساعاتي له في الفتح الرباني.

(٦) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٣٤) فقه السيرة للغضبان، (ص ١٠٢).

(٧) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ١١٢).

أو مجتمع، لا يعني خلوه من أي فضيلة، فمكة مجتمع جاهلي هيمنت عليه عبادة الأوثان، والمظالم والأخلاق الذميمة، كالظلم والزنا والربا، ومع هذا كان فيه رجال أصحاب نخوة ومروءة، يكرهون الظلم ولا يقرونه، وفي هذا درس عظيم للدعاة في مجتمعاتهم التي لا تحكم الإسلام، أو تحارب الإسلام[١].

٣ - إن الظلم مرفوض بأي صورة؛ ولو وقع الظلم على أقل الناس[٢]. إن الإسلام يحارب الظلم، ويقف بجانب المظلوم، دون النظر إلى لونه ودينه، ووطنه وجنسه[٣].

٤ - جواز التحالف والتعاهد على فعل الخير، وهو من قبيل التعاون المأمور به في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢﴾ [المائدة: ٢]، ويجوز للمسلمين أن يتعاقدوا في مثل هذا الحال، لأنه تأكيد لشيء مطلوب شرعًا، على ألا يكون ذلك شبيهًا بمسجد الضرار، بحيث يتحول التعاقد إلى نوع من الحزبية الموجهة ضد مسلمين آخرين، ظلماً وبغياً، وأما تعاقد المسلمين مع غيرهم على دفع ظلم أو في مواجهة ظالم، فذلك جائز لهم، على أن تلحظ في ذلك مصلحة الإسلام والمسلمين، في الحاضر والمستقبل، وفي هذا الحديث دليل[٤]، والدليل فيه قوله ﷺ: «ما أحب أن لي به حُمْر النَّعم»[٥] لما يحقق من عدل، ويمنع من ظلم، أو النكث به مقابل حمر النعم، وقوله ﷺ: «ولو دعيت به في الإسلام لأجبت»[٦] طالما أنه يردع الظالم عن ظلمه، وقد بيَّن ﷺ استعداده للإجابة بعد الإسلام لمن ناداه بهذا الحلف[٧].

٥ - وعلى المسلم أن يكون في مجتمعه إيجابيًا فاعلاً، لا أن يكون رقمًا من الأرقام، على هامش الأحداث في بيئته ومجتمعه، فقد كان النبي ﷺ محط أنظار مجتمعه، وصار مضرب المثل فيهم، حتى لقبوه بالأمين، وتهفو إليه قلوب الناس، الموافق والمخالف على السواء، بسبب الخلق الكريم الذين حبا الله تعالى به نبيه ﷺ، ومازال يزكو وينمو حتى تعلقت به قلوب قومه، وهذا يعطينا صورة حية عن قيمة الأخلاق في المجتمع، وعن احترام صاحب الخلق، ولو في المجتمع المنحرف[٨].

---

(١) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان (ص ١١٠).
(٢) المصدر نفسه.
(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ١٢١).
(٤) انظر: الأساس في السنة وفقهها ـ السيرة النبوية (١/ ١٧١، ١٧٢).
(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٣٤).
(٦) المصدر نفسه.
(٧) انظر: الأساس في السنة (١/ ١٧٢).
(٨) انظر: فقه السيرة للغضبان (ص ١١٠، ١١١).

المبحث السادس

تجارته لخديجة وزواجه منها، وأهم الأحداث إلى البعثة

أولاً: تجارته لخديجة رضي الله عنها وزواجه منها:

كانت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها أرملة[١] ذات شرف ومال، تستأجر الرجال ليتجروا بمالها، فلما بلغها عن محمد ﷺ صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، عرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشام تاجرًا، وتعطيه أفضل ما تعطي غيره من التجار، فقبل وسافر معه غلامها ميسرة، وقدما الشام، وباع محمد ﷺ سلعته التي خرج بها، واشترى ما أراد من السلع، فلما رجع إلى مكة وباعت خديجة ما أحضره لها تضاعف مالها.

وقد حصل محمد ﷺ في هذ الرحلة على فوائد عظيمة، بالإضافة إلى الأجر الذي ناله، إذ مر بالمدينة التي هاجر إليها من بعد، وجعلها مركزًا لدعوته، وبالبلاد التي فتحها، ونشر فيها دينه، كما كانت رحلته سببًا لزواجه من خديجة بعد أن حدثها ميسرة عن سماحته، وصدقه وكريم أخلاقه[٢]، ورأت خديجة في مالها من البركة ما لم تر قبل هذا، وأُخبرت بشمائله الكريمة، ووجدت ضالتها المنشودة، فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منبه، وهذه ذهبت إليه تفاتحه أن يتزوج خديجة[٣]، فرضي بذلك وعرض ذلك على أعمامه، فوافقوا كذلك، وخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب فخطبها إليه، وتزوجها رسول الله ﷺ وأصدقها عشرين بَكرة، وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ، ولم يتزوج غيرها حتى ماتت رضي الله عنها[٤]، وقد ولدت لرسول الله ﷺ غلامين وأربع بنات. وابناه هما:

- القاسم، وبه كان ﷺ يكنى.
- وعبد الله، ويلقب الطاهر والطيب.

وقد مات القاسم بعد أن بلغ سنًا تمكنه من ركوب الدابة، ومات عبد الله وهو طفل، وذلك قبل البعثة، أما بناته فهن: زينب، ورقية، وأم كُلثوم، وفاطمة. وقد أسلمن وهاجرن إلى المدينة وتزوجن[٥]. هذا وقد كان عمر الرسول ﷺ حين تزوج خديجة رضي الله عنها خمسًا وعشرين سنة، وكان عمرها أربعين سنة[٦].

---

(١) تزوجها عتيق بن عائذ ثم مات عنها، فتزوجها أبو هالة ومات عنها أيضًا.
(٢) انظر: رسالة الأنبياء، عمر أحمد عمر (٣/٢٧).
(٣) انظر: مواقف تربوية (ص ٥٦).
(٤) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ١٢٢).
(٥) انظر: رسالة الأنبياء (٣/٢٨).
(٦) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ١٢٢).

*** دروس وعبر وفوائد:**

١ - إن الأمانة والصدق صفات التاجر الناجح، وصفة الأمانة والصدق في التجارة في شخصية النبي ﷺ، هي التي رغبت السيدة خديجة في أن تعطيه مالها ليتاجر به، ويسافر به إلى الشام، فبارك الله لها في تجارتها، وفتح الله لها من أبواب الخير ما يليق بكرم الكريم.

٢ - إن التجارة مورد من موارد الرزق التي سخرها الله لرسوله ﷺ، قبل البعثة، وقد تدرب النبي ﷺ على فنونها، وقد بين النبي ﷺ: أن التاجر الصدوق الأمين في هذا الدين يُحشر مع الصديقين والشهداء والنبيين، وهذه المهنة مهمة للمسلمين، ولا يقع صاحبها تحت إرادة الآخرين، واستعبادهم، وقهرهم، وإذلالهم فهو ليس بحاجة إليهم، بل هم في حاجة إليه وبحاجة إلى خبرته وأمانته وعفته.

٣ - كان زواج الحبيب المصطفى من السيدة خديجة بتقدير الله تعالى، ولقد اختار الله سبحانه وتعالى لنبيه زوجة تناسبه، وتؤازره، وتُخفف عنه ما يصيبه، وتعينه على حمل تكاليف الرسالة وتعيش همومه(١).

قال الشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ: وخديجة مثل طيب للمرأة التي تكمل حياة الرجل العظيم، إن أصحاب الرسالات يحملون قلوبًا شديدة الحساسية، ويلقون غبنًا بالغًا من الواقع الذي يريدون تغييره، ويقاسون جهادًا كبيرًا في سبيل الخير الذي يريدون فرضه، وهم أحوج ما يكونون إلى من يتعهد حياتهم الخاصة بالإيناس والترفيه، وكانت خديجة سباقة إلى هذه الخصال، وكان لها في حياة محمد ﷺ أثر كريم(٢).

٤ - نرى أن النبي ﷺ ذاق مرارة فقد الأبناء، كما ذاق من قبل مرارة فقد الأبوين، وقد شاء الله ـ وله الحكمة البالغة ـ أن لا يعيش له ﷺ أحد من الذكور، حتى لا يكون مدعاة لافتتان بعض الناس بهم، وادّعائهم لهم النبوة، فأعطاه الذكور تكميلاً لفطرته البشرية، وقضاء لحاجات النفس الإنسانية، ولئلا يتنقَّص النبي في كمال رجولته شانىء، أو يتقوّل عليه متقول، ثم أخذهم في الصغر، وأيضًا ليكون ذلك عزاء وسلوى للذين لا يُرزقون البنين، أو يُرزقون ثم يموتون، كما أنه لون من ألوان الابتلاء، وأشد الناس بلاءً الأنبياء(٣)، وكأن الله أراد للنبي ﷺ أن يجعل الرقة الحزينة جزءًا من كيانه؛ فإن الرجال الذين يسوسون الشعوب لا يجنحون إلى الجبروت، إلا إذا كانت نفوسهم قد طبعت على القسوة والأثرة، وعاشت في أفراح لا يخامرها كدر، أما الرجل الذي خبر الآلام، فهو أسرع الناس إلى مواساة المحزونين، ومداواة المجروحين(٤).

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ١٢٢، ١٢٣).

(٢) انظر: فقه السيرة للغزالي (ص ٧٥).

(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٢٢٣، ٢٢٤).

(٤) انظر: فقه السيرة، للغزالي (ص ٧٨).

٥ - يتضح للمسلم من خلال قصة زواج النبي ﷺ من السيدة خديجة، عدم اهتمام النبي ﷺ بأسباب المتعة الجسدية ومكملاتها، فلو كان مهتمًا بذلك كبقية الشباب، لطمع بمن هي أقل منه سنًّا، أو بمن لا تفوقه في العمر، وإنما رغب النبي ﷺ لشرفها ومكانتها في قومها، فقد كانت تلقب في الجاهلية بالعفيفة الطاهرة.

٦ - وفي زواج النبي ﷺ من السيدة خديجة ما يلجم ألسنة وأقلام الحاقدين على الإسلام وقوة سلطانه، من المستشرقين وعبيدهم العَلمانيين، الذين ظنوا أنهم وجدوا في موضوع زواج النبي ﷺ مقتلاً يصاب منه الإسلام، وصوّروا النبي ﷺ في صورة الرجل الشهواني الغارق في ذاته وشهواته، فنجد أن النبي ﷺ عاش إلى الخامسة والعشرين من عمره في بيئة جاهلية، عفيف النفس، دون أن ينساق في شيء من التيارات الفاسدة التي تموج حوله، كما أنه تزوج من امرأة لها ما يقارب ضعف عمره، وعاش معها دون أن تمتد عينه إلى شيء مما حوله، وإن من حوله الكثير، وله إلى ذلك أكثر من سبيل، إلى أن يتجاوز مرحلة الشباب، ثم الكهولة، ويدخل في سن الشيوخ، وقد ظل هذا الزواج قائمًا حتى توفيت خديجة عن خمسة وستين عامًا، وقد ناهز النبي عليه الصلاة والسلام الخمسين من العمر، دون أن يفكر خلالها في الزواج بأي امرأة أخرى، وما بين العشرين والخمسين من عمر الإنسان هو الزمن الذي تتحرك فيه رغبة الاستزادة من النساء، والميل إلى تعدد الزوجات للدوافع الشهوانية.

ولكن النبي ﷺ لم يفكر في هذه الفترة في أن يضم إلى خديجة مثلها من النساء: زوجة أو أمة، ولو أراد لكان الكثير من النساء والإماء طوع بنانه.

أما زواجه بعد ذلك من السيدة عائشة وغيرها من أمهات المؤمنين، فإن لكل منهن قصة، ولكل زواج حكمة، وسبباً، يزيدان في إيمان المسلم بعظمة محمد ﷺ ورفعة شأنه وكمال أخلاقه[١].

ثانيًا: اشتراكه في بناء الكعبة الشريفة:

لما بلغ محمد ﷺ خمسًا وثلاثين سنة، اجتمعت قريش لتجديد بناء الكعبة، لما أصابها من حريق وسيل جارف صدع جدرانها. وكانت لا تزال كما بناها إبراهيم عليه السلام رضماً[٢] فوق القامة، فأرادوا هدمها ليرفعوها ويسقفوها، ولكنهم هابوا هدمها، وخافوا منه، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم في هدمها، فأخذ المعول، ثم قام عليها وهو يقول: اللّهم لم نزغ، ما نريد إلا الخير.

وهدم من ناحية الركنين: فتربص الناس تلك الليلة، وقالوا: ننظر، فإن أصيب لم نهدم

(١) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي (ص ٥٣، ٥٤).

(٢) الرضم: حجارة منضودة بعضها على بعض من غير طين.

منها شيئًا، ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء فقد رضي الله ما صنعنا، فأصبح الوليد غاديًا يهدم، وهدم الناس معه حتى انتهوا إلى حجارة خُضْر كالأسنمة[١] آخذ بعضها ببعض.

وكانوا قد جزؤوا العمل، وخصوا كل قبيلة بناحية، واشترك سادة قريش وشيوخها في نقل الحجارة ورفعها، وقد شارك النبي ﷺ، وعمه العباس في بناء الكعبة، وكانا ينقلان الحجارة. فقال العباس للنبي ﷺ: اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة، فخر إلى الأرض[٢]، وطمحت عيناه إلى السماء، ثم أفاق فقال: «إزاري إزاري»، فشد عليه إزاره[٣]، فلما بلغوا موضع الحجر الأسود اختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، وكادوا يقتتلون فيما بينهم، لولا أن أبا أمية بن المغيرة قال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب المسجد. فلما توافقوا على ذلك، دخل محمد ﷺ فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، قد رضينا، فلما أخبروه الخبر؛ قال: «هلموا ثوبًا». فأتوه به. فوضع الركن فيه بيديه ثم قال: «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوا جميعًا». فرفعوه، حتى إذا بلغوا موضعه وضعه بيده ثم بنى عليه.

وأصبح ارتفاع الكعبة ثماني عشرة ذراعًا، ورفع بابها عن الأرض بحيث يصعد إليه بدرج، لئلا يدخل إليها كل أحد، فيدخلوا من شاؤوا، وليمنعوا الماء من التسرب إلى جوفها، وأسند سقفها إلى ستة أعمدة من الخشب، إلا أن قريشًا قصرت بها النفقة الطيبة عن إتمام البناء على قواعد إسماعيل، فأخرجوا منها الحِجْر، وبنوا عليه جدارًا قصيرًا دلالة على أنه منها، لأنهم شرطوا على أنفسهم أن لا يدخل في بنائها إلا نفقة طيبة، ولا يدخلها مهر بَغِيٍّ، ولا بيع ربا، ولا مظلمة لأحد[٤].

*** دروس وعبر وفوائد:**

١ - بنيت الكعبة خلال الدهر كله أربع مرات على يقين:

فأما المرة الأولى منها: فهي التي قام بأمر البناء فيها إبراهيم عليه الصلاة والسلام، يعينه ابنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام.

والثانية: فهي تلك التي بنتها قريش قبل البعثة واشترك في بنائها النبي ﷺ.

والثالثة: عندما احترق البيت من رميه بالمنجنيق في زمن يزيد بن معاوية بفعل الحصار، الذي ضربه الحصين السكوني، على ابن الزبير حتى يستسلم، فأعاد ابن الزبير بناءها.

---

(١) جمع سنام وهو أعلى ظهر البعير.

(٢) ففعل ذلك فوقع.

(٣) رواه البخاري، كتاب الحج (رقم ١٥٨٢).

(٤) انظر: وقفات تربوية (ص ٥٧)، وانظر: رسالة الأنبياء، عمر أحمد عمر (٣/ ٢٩، ٣٠).

وأما المرة الرابعة: في زمن عبد الملك بن مروان بعدما قتل ابن الزبير، حيث أعاده على ما كان عليه زمن النبي ﷺ[(١)]؛ لأن ابن الزبير باشر في رفع بناء البيت وزاد فيه الأذرع الست التي أخرجت منه، وزاد في طوله إلى السماء عشر أذرع، وجعل له بابين، أحدهما يدخل منه، والآخر يخرج منه، وإنّما جرّأه على إدخال هذه الزيادة حديث عائشة عن رسول الله ﷺ: «يا عائشة، لولا أن قومك حديثُ عهد بجاهلية لأمرت بالبيت، فَهدِم فأدخلتُ فيه ما أُخرج منه، وألزقته بالأرض، وجعلت له بابين، بابًا شرقيًا، وبابًا غربيًا فبلغت به أساس إبراهيم»[(٢)].

٢ ـ **أمانة رسول الله ﷺ هي الخلق الذي جَنّب قريشاً كارثة القتال في الحرم، فقد ارتضاه الجميع، وارتضوا ما فعله إذ هو الأمين الذي لا يظلم، وهو الأمين الذي لا يحابي، ولا يفسد، وهو الأمين على البيت والأرواح والدماء**[(٣)].

٣ ـ إن حادثة تجديد بناء الكعبة قد كشفت عن مكانة النبي ﷺ الأدبية في الوسط القرشي[(٤)]، وحصل لرسول الله ﷺ في هذه الحادثة شرفان، شرف فصل الخصومة ووقف القتال المتوقع بين قبائل قريش، وشرف تنافس عليه القوم وادّخره الله لنبيه ﷺ، ألا وهو وضع الحجر الأسود بيديه الشريفتين، وأخذه من البساط بعد رفعه ووضعه في مكانه من البيت[(٥)].

٤ ـ إن المسلم يجد في حادثة تجديد بناء الكعبة كمال الحفظ الإلهي، وكمال التوفيق الرباني في سيرة رسول الله ﷺ، كما يلاحظ كيف أن الله أكرم رسوله بهذه القدرة الهائلة على حل المشكلات، بأقرب طريق وأسهله، وذلك ما تراه في حياته كلها ﷺ، وذلك مَعلم من معالم رسالته، فرسالته إيصال للحقائق بأقرب طريق، وحل للمشكلات بأسهل أسلوب وأكمله[(٦)].

ثالثًا: تهيئة الناس لاستقبال نبوّة محمد ﷺ:

١ ـ بشارات الأنبياء بمحمد ﷺ

شاءت حكمة الله تعالى أن يعد الناس لاستقبال نبوة محمد ﷺ بأمور منها:

دعا إبراهيم عليه السلام ربه أن يبعث في العرب رسولاً منهم، فأرسل محمدًا إجابة لدعوته، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٩] وذكر القرآن الكريم أن الله تعالى أنزل البشارة بمبعث

---

(١) السيرة النبوية للبوطي (ص ٥٧، ٥٨)، وصحيح مسلم [٤٠٢ (١٣٣٣)].
(٢) البخاري، كتاب الحج (رقم ١٥٨٦).
(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ١٢٥).
(٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ١١٦).
(٥) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ١٢٥، ١٢٦).
(٦) انظر: الأساس في السنة وفقهها ـ السيرة النبوية (١/ ١٧٥).

محمد ﷺ في الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء السابقين، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٧].

وبشر به عيسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصَّف: الآية ٦].

وأعلم الله تعالى جميعَ الأنبياء ببعثته، وأمرهم بتبليغ أتباعهم بوجوب الإيمان به، واتّباعه إن هم أدركوه[١]، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٨١].

وقد وقع التحريف في نسخ التوراة والإنجيل، وحذف منهما التصريح باسم محمد ﷺ إلا توراة السامرة، وإنجيل (برنابا)، الذي كان موجودًا قبل الإسلام، وحرّمت الكنيسة تداوله في آخر القرن الخامس الميلادي، وقد أيدته المخطوطات التي عثر عليها في منطقة البحر الميت حديثًا، فقد جاء في إنجيل (برنابا) العبارات المصرحة باسم النبي محمد ﷺ مثل ما جاء في الإصحاح الحادي والأربعين منه، ونص العبارة: «٢٩ فاحتجب الله وطردهما الملاك ميخائيل من الفردوس ٣٠ فلما التفت آدم رأى مكتوبًا فوق الباب: لا إله إلا الله محمد رسول الله»[٢].

قال ابن تيمية: «والأخبار بمعرفة أهل الكتاب بصفة محمد ﷺ عندهم في الكتب المتقدمة متواترة عنهم» ثم قال: «ثم العلم بأن الأنبياء قبله بشّروا به يعلم من وجوه.

أحدها: ما في الكتب الموجودة اليوم بأيدي أهل الكتاب.

الثاني: إخبار من وقف على تلك الكتب، ممن أسلم وممن لم يسلم، بما وجدوه من ذكره بها. وهذا مثل ما تواتر عن الأنصار، أن جيرانهم من أهل الكتاب كانوا يخبرون بمبعثه، وأنه رسول الله، وأنه موجود عندهم، وكانوا ينتظرونه، وكان هذا من أعظم ما دعا الأنصار إلى الإيمان به لما دعاهم إلى الإسلام حتى آمن الأنصار به وبايعوه[٣].

فمن حديث سَلَمة بن سلامة بن وقش رضي الله عنه، وكان من أصحاب بدر، قال: «كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل، قال: فخرج علينا يومًا من بيته قبل مبعث النبي ﷺ بيسير،

(١) انظر: دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ (ص ١٠١، ١٠٢).
(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ١١٨).
(٣) انظر: الجواب الصحيح لابن تيمية (١/ ٣٤٠).

فوقف على مجلس عبد الأشهل، قال سلمة: وأنا يومئذٍ من أحدث مَنْ فيه سنًّا، عليَّ بردة مضطجعًا فيها بفناء أهلي، فذكر البعث والقيامة والحساب والميزان والجنة والنار، فقال ذلك لقومٍ وكانوا أهل شرك وأصحاب أوثان، لا يرون أن بعثًا كائن بعد الموت.

فقالوا له: ويحك يافلان، ترى هذا كائنًا أن الناس يُبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار، ويُجزون فيها بأعمالهم؟ قال: نعم، والذي يُحلف به، وَلَوَدَّ أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور(١) في الدنيا يحمونه، ثم يدخلونه إياه، فيطبق به عليه(٢)، وأن ينجو من تلك النار غدًا.

قالوا له: ويحك، وما آية ذلك؟ قال: نبي يبعث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده نحو مكة واليمن.

قالوا: ومتى نراه؟ قال: فنظر إليّ ـ وأنا من أحدثهم سنًا ـ فقال: إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه.

قال سلمة: «فوالله ماذهب الليل والنهار، حتى بعث الله تعالى رسوله ﷺ، وهو حيٌّ بين أظهرنا، فآمنا به، وكَفَر به بغيًا وحسدًا، فقلنا: ويلك يافلان، ألست بالذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلى، وليس به»(٣).

وقد ذكر ابن تيمية رحمه الله: «قد رأيت أنا من نسخ الزبور مافيه تصريح بنبوة محمد ﷺ باسمه، ورأيت نسخة أخرى من الزبور فلم أر ذلك فيها، وحينئذٍ فلا يمتنع أن يكون في بعض النسخ من صفات النبي ﷺ ماليس في أخرى»(٤).

وقد ذكر عبد الله بن عمرو رضي الله عنه صفة رسول الله ﷺ في التوراة فقال: «... والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا) وحرزًا للأميين(٥)، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ، ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق(٦)، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء(٧) بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويَفْتَح بها أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا)»(٨).

---

(١) التنور: الفرن.
(٢) يطبق عليه: يغلق عليه.
(٣) صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي (ص ٣١).
(٤) الجواب الصحيح (١/ ٣٤٠).
(٥) حرزًا للأميين: حفاظًا لهم.
(٦) السخاب: رافع الصوت بالخصام.
(٧) العوجاء: ملة إبراهيم التي غيرتها العرب عن استقامتها.
(٨) البخاري، كتاب البيوع (رقم ٢١٢٥) وهذا لفظ كتاب البيوع، وأخرجه أيضًا في كتاب التفسير ـ برقم (٤٨٣٨).

ومن حديث كعب الأحبار، قال: «إني أجد في التوراة مكتوبًا: محمد رسول الله، لا فظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يجزي السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، أمته الحمادون، يحمدون الله في كل منزلة، ويكبّرونه على كل نجد، يأتزرون إلى أنصافهم، ويوضئون أطرافهم، صَفُّهم في الصلاة، وصفُّهم في القتال سواء، مناديهم ينادي في جو السماء، لهم في جوف الليل دوي كدوي النحل، مولده بمكة، ومهجره بطابة، وملكه بالشام»(١).

٢ ـ بشارات علماء أهل الكتاب بنبوته:

أخبر سلمان الفارسي رضي الله عنه في قصة إسلامه المشهورة، عن راهب عمورية حين حضرته المنية، قال لسلمان: «إنه قد أظل زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب، مهاجره إلى أرض بين حَرَّتين بينهما نخل، به علامات لا تخفى، يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل»(٢).

ثم قصّ سلمان خبر قدومه إلى المدينة واسترقاقه، ولقائه برسول الله ﷺ حين الهجرة، وإهدائه له طعامًا على أنه صدقة، فلم يأكل منه الرسول، ثم إهدائه له طعامًا على أنه هدية، وأكله منه، ثم رؤيته خاتم النبوة بين كتفيه، وإسلامه على أثر ذلك(٣).

ومن ذلك إخبار أحبار اليهود ورجالاتها بقرب مبعثه عليه الصلاة والسلام، ومن ذلك قصة أبي التيهان الذي خرج من بلاد الشام، ونزل في بني قريظة ثم توفي قبل البعثة النبوية بسنتين، فإنه لما حضرته الوفاة قال لبني قريظة: يا معشر يهود، ما ترونه أخرجني من أرض الخَمْر والخَمير ـ الشام ـ إلى أرض البؤس والجوع ـ يعني: الحجاز ـ؟ قالوا: أنت أعلم، قال: إني قدمت هذه البلدة أتوكَّفُ ـ أنتظر ـ خروج نبي قد أظلَّ زمانه، وكنت أرجو أن يبعث فأتبعه.

وقد شاع حديث ذلك، وانتشر بين اليهود وغيرهم، حتى بلغ درجة القطع عندهم، وبناء عليه كان اليهود يقولون لأهل المدينة المنورة: إنه قد تقارب زمان نبي يُبْعث الآن، نقتلكم معه قتل عادٍ وإرم(٤)، وكان ذلك الحديث سببًا في إسلام رجال من الأنصار، وقد قالوا: «إن مما دعانا إلى الإسلام، مع رحمة الله تعالى وهداه، لما كنا نسمع من رجال اليهود، كنا أهل شرك، أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب، عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه تقارب زمان نبي يبعث الآن، نقتلكم معه قتل عادٍ وإرَم»(٥).

---

(١) صحيح السيرة النبوية (ص ٣٠).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٣٠٠).

(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ١٢٢).

(٤) انظر: دراسة تحليلية، د. محمد قلعجي (ص ١٠٧).

(٥) ابن هشام بإسناد حسن (١/ ٢٣١).

وقد قال هرقل ملك الروم عندما استلم رسالة النبي ﷺ: «وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم»(١).

٣ ـ الحالة العامة التي وصل إليها الناس:

لخص الأستاذ الندوي الحال التي كان عليها العرب وغيرهم وقتذاك بقوله: «كانت الأوضاع الفاسدة، والدرجة التي وصل إليها الإنسان في منتصف القرن السادس المسيحي أكبر من أن يقوم لإصلاحها مصلحون ومعلمون من أفراد الناس، فلم تكن القضية قضية إصلاح عقيدة من العقائد، أو إزالة عادة من العادات، أو قبول عبادة من العبادات، أو إصلاح مجتمع من المجتمعات، فقد كان يكفي له المصلحون، والمعلمون الذين لم يَخْلُ منهم عصر ولا مصر.

«ولكن القضية كانت قضية إزالة أنقاض الجاهلية، ووثنية تخريبية، تراكمت عبر القرون والأجيال، ودفنت تحتها تعاليم الأنبياء والمرسلين، وجهود المصلحين والمعلمين، وإقامة بناء شامخ مشيد البنيان، واسع الأرجاء، يسع العالم كله، ويؤوي الأمم كلها، قضية إنشاء إنسان جديد، يختلف عن الإنسان القديم في كل شيء، كأنه ولد من جديد، أو عاش من جديد، قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٢].

«قضية اقتلاع جرثومة الفساد، واستئصال شأفة الوثنية، واجتثاثها من جذورها، بحيث لا يبقى لها عين ولا أثر، وترسيخ عقيدة التوحيد في أعماق النفس الإنسانية، ترسيخًا لا يتصور فوقه، وغرس ميل إلى إرضاء الله وعبادته، وخدمة الإنسانية، والانتصار للحق، يتغلب على كل رغبة، ويقهر كل شهوة، ويجرف كل مقاومة، وبالجملة الأخذ بحجز الإنسانية المنتحرة، التي استجمعت قواها للوثوب في جحيم الدنيا والآخرة، والسلوك بها على طريق أولها سعادة، يحظى بها العارفون المؤمنون، وآخرها جنة الخلد، التي وعد المتقون، ولا تصوير أبلغ وأصدق من قوله تعالى في معرض المنّ ببعثة محمد ﷺ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: الآية ١٠٣]»(٢).

٤ ـ إرهاصات نبوته ﷺ:

ومن إرهاصات نبوته ﷺ تسليم الحجر عليه قبل النبوة، فعن جابر بن سَمُرة رضي الله عنه قال:

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ١٤٦).

(٢) السيرة النبوية، للندوي (ص ٥٨، ٥٩)، ونقلها عنه صاحب الأساس في السنة (١/ ١٨٠، ١٨١).

رسول الله ﷺ: «إِني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، إِني لأعرفه الآن»[١]، ومنها الرؤيا الصادقة، وهي أول ما بدىء به من الوحي، فكان لا يرى رؤيا إِلا جاءت مثل فلق الصبح[٢]، وحبب إِليه ﷺ العزلة والتحنث (التعبد)، فكان يخلو في غار حراء - وهو جبل يقع في الجانب الشمالي الغربي من مكة - ويتعبد فيه الليالي ذوات العدد، فتارة عشرة، وتارة أكثر من ذلك إِلى شهر، ثم يعود إِلى بيته فلا يكاد يمكث فيه قليلاً، حتى يتزود من جديد لخلوة أخرى، ويعود الكرة إِلى غار حراء، وهكذا إِلى أن جاءه الوحي وهو في إِحدى خلواته تلك[٣].

---

(١) مسلم في الصحيح، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي، وتسليم الحجر عليه قبل النبوة (رقم ٢٢٧٧).

(٢) البخاري، كتاب بدء الوحي (رقم ٣).

(٣) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي (ص ٦٠).

الفصل الثاني

نزول الوحي والدعوة السرية

المبحث الأول

نزول الوحي على سيد الخلق أجمعين ﷺ

كان النبي ﷺ قد بلغ الأربعين من عمره، وكان يخلو في غار حراء بنفسه، ويتفكر في هذا الكون وخالقه، وكان تعبده في الغار يستغرق ليالي عديدة حتى إذا نفذ الزاد عاد إلى بيته فتزود لليالٍ أخرى[1]، وفي نهار يوم الاثنين من شهر رمضان جاءه جبريل بغتة لأول مرة، داخل غار حراء [2]، وقد نقل البخاري في صحيحه حديث عائشة رضي الله عنها، والبخاري (أبو الصحاح وكتب السنن والمسانيد وكتب التاريخ)، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فَيَتحنَّثُ فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد، قبل أن يَنْزِع إلى أهله ويتزودُ لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزودُ لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه المَلَكُ فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارىء»، قال: «فأخذني فَغَطَّني حتى بلغ مني الجَهدَ، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فَغَطَّني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ② ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ③﴾ [العلق: الآيات ١ ـ ٣]، فرجع بها رسول الله ﷺ يَرجُف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: «زملوني! زملوني»، فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «لقد خَشِيت على نفسي»، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ[3]، وتَكْسِب المعدومَ[4]، وتَقْري الضيفَ، وتعين على نوائب الحق[5]، فانطلقت به خديجة، حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، ابنَ عم خديجة، وكان امرأً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العِبرانيَّ، فيكتبُ

---

(١) انظر: صحيح السيرة للعلي (ص ٦٧).

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ١٢٥).

(٣) تحمل الكل: تنفق على الضعيف، واليتيم والعيال، والكل أصله: الثقل والإعياء.

(٤) وتكسب المعدوم: تعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك من نفائس الفوائد ومكارم الأخلاق.

(٥) نوائب الحق: الكوارث والحوادث.

من الإِنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عَمِيَ، فقالت له خديجة: يا ابنَ عَمِّ، اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى: فقال له ورقة: هذا الناموس[(١)] الذي نزّل الله على موسى، ياليتني فيها جَذَعًا[(٢)]، ليتني أكون حيًّا إِذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «أَوَ مُخْرِجِي هم؟» قال نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إِلا عوديَ، وإِن يدركْني يومُك أنصرْك نصرًا مؤزرًا[(٣)]، ثم لم يَنشَب ورقةُ أن توفي، وفتر الوحى[(٤)]»[(٥)].

عندما نتأمل في حديث السيدة عائشة يمكن للباحث أن يستنتج قضايا مهمة تتعلق بسيرة الحبيب المصطفى ﷺ ومن أهمها:

أولاً: الرؤيا الصالحة:

ففي حديث عائشة رضي الله عنها أن أول ما بُدىء به محمد ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة، وتسمى أحيانًا بالرؤيا الصادقة، والمراد بها هنا رؤى طيبة ينشرح لها الصدر، وتزكو بها الروح[(٦)]، ولعل الحكمة من ابتداء الله تعالى رسوله ﷺ بالوحي بالمنام، أنه لو لم يبتدئه بالرؤيا، وأتاه الملك فجأة، لم يسبق له أن رأى مَلَكًا من قبل فقد يصيبه شيء من الفزع، فلا يستطيع أن يتلقى منه شيئًا، لذلك اقتضت حكمة الله تعالى أن يأتيه الوحي أولاً في المنام؛ ليتدرب عليه ويعتاده[(٧)]. والرؤيا الصادقة الصالحة جزءٌ من ستة وأربعين جزءًا من النبوة، كما ورد في الحديث الشريف[(٨)]، وقد قال العلماء: وكانت مدة الرؤيا الصالحة ستة أشهر، ذكره البيهقي، ولم ينزل عليه شيء من القرآن في النوم بل نزل كله يقظة.

والرؤيا الصالحة من البشرى في الحياة الدنيا، فقد ورد عن النبي ﷺ قوله: «أيها الناسُ، إِنه لم يَبْقَ من مُبَشِّرات النبوة إِلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرَى له»[(٩)].

فكان ﷺ قبل نزول جبريل عليه السلام بالوحي في غار حراء، يرى الرؤى الجميلة، فيصحو منشرح الصدر، متفتح النفس لكل ما في الحياة من جمال[(١٠)]، لقد أجمعت الروايات من

---

(١) الناموس: هو جبريل عليه السلام، صاحب سر الخير.

(٢) جذعًا: شابًا قويًا.

(٣) مؤزرًا: قويًا بالغًا.

(٤) فتر الوحي: تأخر نزوله.

(٥) البخاري، كتاب بَدء الوحي (رقم ٣).

(٦) انظر: طريق النبوة والرسالة، د. حسين مؤنس (ص ٢١).

(٧) انظر: منامات الرسول ﷺ، عبد القادر الشيخ إِبراهيم (ص ٥٧).

(٨) انظر: الرؤيا ضوابطها وتفسيرها، هشام الحمصي (ص ٧).

(٩) ابن ماجه، كتاب تعبير الرؤيا (رقم ٣٨٩٩) حسن الإِسناد، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٣١٦١/٣٩٦٨).

(١٠) انظر: طريق النبوة والرسالة (ص ٢٢).

حديث بدء الوحي أن أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة الصالحة، يراها في النوم فتجيء في اليقظة كاملة، واضحة كما رآها في النوم، لا يغيب عليه منها شيء، كأنما نقشت في قلبه وعقله، وقد شبَّهت السيدة عائشة رضي الله عنها - وهي من أفصح العرب - ظهور رؤيا رسول الله ﷺ، إذا استيقظ بها، من كمال وضوحها بظهور ضوء الصبح ينفلق عنه غبش الظلام، وهوتصوير بياني لا تنفلق دنيا العرب في ذرى فصاحتهم عن أبلغ منه(١).

ثانيًا: ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه:

وقبيل النبوة حُبب إلى نفس النبي ﷺ الخلوة، ليتفرغ قلبه، وعقله، وروحه إلى ما سيلقى إليه من أعلام النبوة، فاتخذ من غار حراء مُتَعَبَّدًا، لينقطع عن مشاغل الحياة ومخالطة الخلقَ، استجماعًا لقواه الفكرية، ومشاعره الروحية، وإحساساته النفسية، ومداركه العقلية، تفرغًا لمناجاة مبدع الكون وخالق الوجود(٢)، والغار الذي كان يتردد عليه الحبيب المصطفى ﷺ يبعث على التأمل والتفكر، تنظر إلى منتهى الطرف فلا ترى إلا جبالاً كأنها ساجدة متطامنة لعظمة الله، وإلا سماءً صافية الأديم، وقد يرى من يكون فيه، مكة إذا كان حاد البصر(٣).

كانت هذه الخلوة التي حُببت إلى نفس النبيِّ ﷺ لونًا من الإعداد الخاص، وتصفية النفس من علائق المادية البشرية، إلى جانب تعهده الخاص بالتربية الإلهية، والتأديب الرباني في جميع أحواله، وكان تعبده ﷺ قبل النبوة بالتفكر في بديع ملكوت السماوات، والنظر في آياته الكونية الدالة على بديع صنعه، وعظيم قدرته، ومحكم تدبيره، وعظيم إبداعه(٤).

وقد أخذ بعض أهل السلوك إلى الله من ذلك فكرة الخلوة مع الذكر، والعبادة، في مرحلة من مراحل السلوك؛ لتنوير قلبه، وإزالة ظلمته، وإخراجه من غفلته، وشهوته وهفوته، ومن سنن النبي ﷺ سنة الاعتكاف في رمضان(٥)، وهي مهمة لكل مسلم سواء كان حاكمًا أو عالمًا أو قائدًا، أو تاجرًا؛ لتنقية الشوائب التي تعلق بالنفوس والقلوب، ونصحح واقعنا على ضوء الكتاب والسنّة، ونُحاسب أنفسنا قبل أن نُحاسب(٦).

ويمكن لأهل فقه الدعوة أن يعطوا لأنفسهم فترة من الوقت للمراجعة الشاملة والتوبة، والتأمل في واقع الدعوة، وماهي عليه من قوة أو ضعف، واكتشاف عوامل الخلل، ومعرفة الواقع بتفاصيله، خيره وشره.

---

(١) انظر: محمد رسول الله، محمد صادق عرجون (١/ ٢٥٤).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٢٥٤).

(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٢٥٦).

(٤) انظر: محمد رسول الله، محمد الصادق عرجون (١/ ٤٦٩).

(٥) انظر: الأساس في السنة وفقهها ـ السيرة النبوية، سعيد حوى (١/ ١٩٥).

(٦) انظر: فقه السيرة للغضبان.

وفي قول السيدة عائشة: «فيتحنث الليالي ذوات العدد» يقول الشيخ محمد عبد الله دراز: «هذا كناية عن كون هذه الليالي لم تصل إلى نهاية القلة ولا إلى نهاية الكثرة، وما زال هذا الهدي الذي كان عليه النبي ﷺ قبل البعثة من التوسط والاقتصاد في الأعمال، شعارًا للملة الإسلامية، ورمزًا للهَدْي النبوي الكريم، بعد أن أرسله الله رحمة للعالمين»(١).

ثالثًا: حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاء الملك فقال اقرأ:

قال: «قلت: ما أنا بقارىء. فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني، فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ② ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ③﴾ [العَلَق: الآيات ١ ـ ٣].

لقد كانت هذه الآيات الكريمات المباركات أول شيء نزل من القرآن الكريم، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة، وإن من كرم الله تعالى أن علّم الإنسان مالم يعلم، فشرّفه وكرّمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به آدم عليه السلام على الملائكة، والعلم، تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون بالكتابة بالبنان(٢)، وبهذه الآيات كانت بداية نبوة محمد ﷺ، لقد كان هذا الحادث ضخمًا. لقد عبر عنه الشهيد سيد قطب ـ رحمه الله ـ في ظلاله فقال: «إنه حادث ضخم، ضخم جدًّا. ضخم إلى غير حد، ومهما حاولنا اليوم أن نحيط بضخامته، فإن جوانب كثيرة منه ستظل خارج تصورنا!

إنه حادث ضخم بحقيقته، وضخم بدلالته، وضخم بآثاره في حياة البشرية جميعًا.. وهذه اللحظة التي تم فيها هذا الحادث تعد ـ بغير مبالغة ـ هي أعظم لحظة مرت بهذه الأرض في تاريخها الطويل.

ما حقيقة هذا الحادث الذي تم في هذه اللحظة؟

حقيقته أن الله جل جلاله، العظيم الجبار القهار المتكبر، مالك الملك كله، قد تكرم ـ في عليائه ـ فأراد أن يرحم هذه الخليقة المسماة بالإنسان، القابعة في ركن من أركان الكون، لا يكاد يُرى، اسمه الأرض. وكرّم هذه الخليقة باختيار واحد منها ليكون ملتقى نوره الإلٰهي، ومستودع حكمته، ومهبط كلماته، وممثل قدره الذي يريده ـ سبحانه ـ بهذه الخليقة..»(٣).

كانت بداية الوحي الإلهي فيها إشادة بالقلم وخطره، والعلم ومنزلته في بناء الشعوب والأمم، وفيها إشارة واضحة بأن من أخص خصائص الإنسان العلم والمعرفة(٤).

وفي هذا الحادث العظيم تظهر مكانة ومنزلة العلم في الإسلام، فأول كلمة في النبوة تصل إلى رسول الله هي الأمر بالقراءة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العَلَق: الآية ١].

---

(١) المختار من كنوز السنة (ص ١٩) ط ١٩٧٨/٢ دار الأنصار، القاهرة.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٥٢٨/٤).

(٣) في ظلال القرآن (٣٩٣٦/٦، ٣٩٣٧).

(٤) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢٦٠/١).

وما زال الإسلام يحث على العلم ويأمر به، ويرفع درجة أهله، ويميزهم على غيرهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: الآية ١١]، وقال سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: ٩].

إن مصدر العلم النافع من الله ﷻ، فهو الذي علّم بالقلم، وعلّم الإنسان مالم يعلم، ومتى حادت البشرية عن هذا المنهج، وانفصل علمها عن التقيد بمنهج الله تعالى؛ رجع علمها وبالاً عليها وسببًا في إبادتها[(١)].

رابعًا: الشدة التي تعرّض لها النبي ﷺ ووصف ظاهرة الوحي:

لقد قام جبريل عليه السلام بضغط النبي ﷺ مرارًا حتى أجهده وأتعبه، وبقي رسول الله ﷺ يلقى من الوحي شدة وتعبًا وثقلاً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمّل: الآية ٥]. كان في ذلك حكمة عظيمة لعل منها: بيان أهمية هذا الدين وعظمته وشدة الاهتمام به، وبيان للأمة أن دينها الذي تتنعم به ماجاءها إلا بعد شدة وكرب[(٢)].

إن ظاهرة الوحي معجزة خارقة للسنن، والقوانين الطبيعية، حيث تلقّى النبي ﷺ كلام الله (القرآن) بواسطة المَلَك جبريل عليه السلام، وبالتالي فلا صلة لظاهرة الوحي بالإلهام[(٣)] أو التأمل الباطني أو الاستشعار الداخلي، بل إن الوحي يتم من خارج ذات النبي ﷺ، وتنحصر وظيفته بحفظ الموحى وتبليغه، وأما بيانه وتفسيره، فيتم بأسلوب النبي كما يظهر في أحاديثه وأقواله ﷺ[(٤)].

إن حقيقة الوحي هي الأساس الذي تترتب عليه جميع حقائق الدين، بعقائده وتشريعاته، وأخلاقه، ولذلك اهتم المستشرقون، والملاحدة من قبلهم، بالطعن والتشكيك في حقيقة الوحي، وحاولوا أن يأولوا ظاهرة الوحي ويحرفوها عن حقيقتها، عما جاءنا في صحاح السنة الشريفة، وحدثنا به المؤرخون الثقات، فقائل يقول: إن محمدًا ﷺ تعلم القرآن ومبادىء الإسلام من بَحِيرا الراهب، وبعضهم قال بأن محمدًا كان رجلاً عصبيًا أو مصابًا بداء الصرع[(٥)].

---

(١) انظر: الوحي وتبليغ الرسالة، د. يحيى اليحيى (ص ٣٤).

(٢) المصدر نفسه (ص ٣٠، ٣١).

(٣) أي حديث النفس المجرد.

(٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ١٢٩).

(٥) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي (ص ٦٤).

والحقيقة تقول: إن محمدًا عليه الصلاة والسلام وهو في غار حراء فوجىء بجبريل أمامه يراه بعينه، وهو يقول له: اقرأ، حتى يتبين أن ظاهرة الوحي ليست أمرًا ذاتيًا داخليًا مرده إلى حديث النفس المجرد، وإنما هو استقبال وتلقٍّ لحقيقة خارجية لا علاقة لها بالنفس، وداخل الذات. وضم الملك إياه ثم إرساله ثلاث مرات قائلاً في كل مرة: اقرأ، يعتبر تأكيدًا لهذا التلقي الخارجي، ومبالغة في نفي ماقد يتصور، من أن الأمر لا يعدو كونه خيالاً داخليًا فقط.

ولقد أصيب النبي ﷺ بالرعب والخوف مما سمع، ورأى، وأسرع إلى بيته يرجف فؤاده، وهذا يدل على أن النبي ﷺ لم يكن متشوقًا للرسالة التي سيكلف بثقلها وتبليغها للناس(١)، وقد قال تعالى تأكيدًا لهذا المعنى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: الآيتان ٥٢، ٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: الآيتان ١٥، ١٦].

لقد تساقطت آراء المشككين في حقيقة الوحي، أمام الحديث الصحيح الذي حدثتنا به السيدة عائشة رضي الله عنها، وقد استمر الوحي بعد ذلك يحمل الدلالة نفسها على حقيقة الوحي، وأنه ليس كما أراد المشككون. وقد أجمل الدكتور البوطي هذه الدلالة فيما يلي:

١ - التمييز الواضح بين القرآن والحديث، إذ كان يأمر بتسجيل الأول فورًا، على حين يكتفي بأن يستودع الثاني ذاكرة أصحابه، لا لأن الحديث كلام من عنده لا علاقة للنبوة به، بل لأن القرآن موحى به إليه باللفظ نفسه والحروف نفسها بواسطة جبريل عليه السلام، أما الحديث فمعناه وحي من الله عز وجل، ولكن لفظه وتركيبه من عنده عليه الصلاة والسلام، فكان يحاذر أن يختلط كلام الله عزّ وجلّ الذي يتلقاه من جبريل بكلامه هو.

٢ - كان النبي ﷺ يُسأل عن بعض الأمور، فلا يُجيب عنها، وربما مرّ على سكوته زمن طويل، حتى تنزل آية من القرآن في شأن سؤاله. وربما تصرف الرسول في بعض الأمور على وجه معين، فتنزل آيات من القرآن تصرفه عن ذلك الوجه، وربما انطوت على عتب أو لوم له.

٣ - كان رسول الله ﷺ أميًا.. وليس من الممكن أن يعلم إنسان بواسطة المكاشفة النفسية حقائق تاريخية، كقصة يوسف عليه السلام، وأم موسى، حينما ألقت وليدها في اليم.. وقصة

(١) المصدر نفسه (ص ٦٤).

فرعون، ولقد كان هذا من جملة الحكم في كونه ﷺ أميًا: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: الآية ٤٨].

٤ ـ إن صدق النبي ﷺ أربعين سنة مع قومه، واشتهاره فيهم بذلك، يستدعي أن يكون ﷺ من قبل ذلك صادقًا مع نفسه، ولذا فلا بد أن يكون قد قضى في دراسته لظاهرة الوحي على أي شك يخايل لعينيه أو فكره، وكأن هذه الآية جاءت ردًا لدراسته الأولى لشأن نفسه مع الوحي: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: الآية ٩٤].

ولهذا روي أن النبي ﷺ قال بعد نزول هذه الآية: «لا أشك ولا أسأل»(١).

خامسًا: أنواع الوحي:

تحدث العلماء عن أنواع الوحي فذكروا منها:

١ ـ الرؤيا الصادقة:

وكانت مبدأ وحيه ﷺ، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وقد جاء في الحديث: «رؤيا الأنبياء وحيٌ»، قال تعالى في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الصَّافات: الآية ١٠٢].

٢ ـ الإلهام:

وهو أن ينفث الملك في روعه ـ أي قلبه من غير أن يراه ـ كما قال عليه الصلاة والسلام «إن روح القدس نَفَثَ في رُوعي»(٢) أي: إن جبريل نفخ في قلبي «أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب...»(٣).

٣ ـ **أن يأتيه مثل صلصلة الجرس**: أي مثل صوته في القوة، وهو أشدُّه، كما في حديث عائشة: أن الحارث رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال ﷺ: «أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجَرَس وهو أشده علي، فَيُفصَم عني وقد وَعَيْتُ ماقال، وأحيانًا يتمثل لي المَلَك رجلاً فيكلمني، فأعي ما يقول»(٤).

---

(١) أخرجه الطبري (١٥/ ٢٠٢ـ ١٧٨٩٤) بسنده عن قتادة، تفسير القرطبي (٨/ ٣٤٠)، ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره عن ابن عباس، قال: «لم يشك رسول الله ولم يسأل» ورقمه (١٠٥٨٣) جـ ٦/ ١٩٨٦، وقال الشيخ أحمد شاكر في مختصر ابن كثير له: إن قول ابن عباس هذا أقوى وأثبت من قول قتادة (جـ ٥/ ٨٨)..

(٢) حديث صحيح بشواهده (زاد المعاد: ١/ ٧٨) مؤسسة الرسالة.

(٣) المصدر نفسه (زاد المعاد: ١/ ٧٩).

(٤) البخاري، كتاب بدء الوحي (رقم ٢).

٤ ـ **ما أوحاه الله تعالى إليه، بلا وساطة ملك**، كما كلم الله موسى بن عمران عليه السلام، وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى قطعًا بنص القرآن. وثبوتها لنبينا ﷺ في حديث الإسراء[١].

٥ ـ **أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها**، فيوحي إليه ما شاء الله تعالى أن يوحيه.

٦ ـ **أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلًا**، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانًا[٢].

هذا ما قاله ابن القيم عن مراتب الوحي.

لقد كان نزول الوحي على رسول الله ﷺ بداية عهد جديد في حياة الإنسانية، بعدما انقطع، وتاهت البشرية في دياجير الظلام.

وكان وقع نزول الوحي شديدًا على رسول الله ﷺ كما هو واضح من النص، بالرغم من أنه كان أشجع الناس، وأقواهم قلبًا، كما دلت على ذلك الأحداث خلال ثلاث وعشرين سنة، وذلك لأن الأمر ليس مخاطبة بشر لبشر، ولكنه كان مخاطبة عظيم الملائكة، وهو يحمل كلام الله تعالى، ليستقبله من اصطفاه الله جل وعلا لحمل هذا الكلام، وإبلاغه لعامة البشر.

ولقد كان موقفًا رهيبًا ومسئولية عظمى، لا يقوى عليها إلا من اختاره الله تبارك وتعالى لحمل هذه الرسالة وتبليغها[٣].

ومما يصور رهبة هذا الموقف ماجاء في هذه الرواية من قول رسول الله ﷺ: «لقد خشيت على نفسي» وقول عائشة رضي الله عنها في هذا الحديث: فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها قال: «زملوني زملوني»، فزملوه حتى ذهب عنه الروع.

ومما يبين شدة نزول الوحي على رسول الله ﷺ ما أخرجه الإمام البخاري ومسلم رحمهما الله، من حديث عائشة رضي الله عنها: قالت: «ولقد رأيته ـ تعني رسول الله ﷺ ـ ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا»[٤] وحديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «كان نبي الله ﷺ إذا أُنزِل عليه الوحي كُرِبَ لذلك وترَبَّد وجهه»[٥].

سادسًا: أثر المرأة الصالحة في خدمة الدعوة:

(فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: «زملوني زملوني»! فزملوه حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «لقد خشيت

---

(١) انظر: الرؤى والأحلام في النصوص الشرعية، أسامة عبد القادر (ص ١٠٨).

(٢) انظر: زاد المعاد (١/ ٣٣، ٣٤).

(٣) انظر: التاريخ الإسلامي مواقف وعبر للحميدي (١/ ٦٠).

(٤) البخاري، كتاب بدء الوحي (رقم ٢)؛ مسلم، كتاب الفضائل (رقم ٢٣٣٣).

(٥) مسلم، كتاب الفضائل (رقم ٢٣٣٤).

على نفسي». فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق).

كان موقف خديجة ﵂ يدل على قوة قلبها، حيث لم تفزع من سماع هذا الخبر، واستقبلت الأمر بهدوء وسكينة، ولا أدل على ذلك من ذهابها فور سماعها الخبر إلى ورقة بن نوفل، وعرضت الأمر عليه[١].

كان موقف خديجة ﵂ من خبر الوحي يدل على سعة إدراكها حيث قارنت بين ما سمعت، وواقع النبي ﷺ، فأدركت أن من جُبِلَ على مكارم الأخلاق، لا يخزيه الله أبدًا، فقد وصفته بأنه يصل الرحم، وكون الإنسان يصل أقاربه دليل على استعداده النفسي لبذل الخير، والإحسان إلى الناس، فإن أقارب الإنسان هم المرآة الأولى لكشف أخلاقه، فإن نجح في احتواء أقاربه، وكسبهم بما له عليهم من معروف، كان طبيعيًا أن ينجح في كسب غيرهم من الناس»[٢].

كانت أم المؤمنين السيد خديجة ﵂ قد سارعت إلى إيمانها الفطري، وإلى معرفتها بسنن الله تعالى في خلقه، وإلى يقينها بما يملك محمد ﷺ من رصيد الأخلاق، وفضائل الشمائل، ليس لأحد من البشر رصيد مثله في حياته الطبيعية التي يعيش بها مع الناس، وإلى ما ألهمت بسوابق العناية الربانية التي شهدت آياتها من حفاوة الله تعالى بمحمد ﷺ في مواقف، لم تكن من مواقف النبوة والرسالة، ولا من إرهاصاتها المعجزة، وأعاجيبها الخارقة، ولكنها كانت من مواقف الفضائل الإنسانية السارية في حياة ذوي المكارم، من أصحاب المروءات في خاصة البشر[٣].

كانت موقنة بأن زوجها فيه من خصال الجبلة الكمالية، ومحاسن الأخلاق الرصينة، وفضائل الشيم المرضية، وأشرف الشمائل العلية، وأكمل النحائز الإنسانية ما يضمن له الفوز، ويحقق له النجاح والفلاح، فقد استدلت بكلماتها العميقة على الكمال المحمدي[٤]، فقد استنبطت خديجة ﵂ من اتصاف محمد ﷺ بتلك الصفات، أنه لن يتعرض في حياته للخزى قط، لأن الله تعالى فطره على مكارم الأخلاق، وضربت المثل بما ذكرته من أصولها الجامعة لكمالاتها.

ولم تعرف الحياة في سنن الكون الاجتماعية أن الله تعالى جمَل أحدًا من عباده بفطرة الأخلاق الكريمة، ثم أذاقه الخزي في حياته، ومحمد ﷺ بلغ من المكارم ذروتها، فطرة فطره

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (١/ ٦١).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٦٤).

(٣) انظر: محمد رسول الله، محمد الصادق عرجون (١/ ٣٠٧).

(٤) المصدر نفسه (١/ ٣٠٧، ٣٠٨).

الله عليها، لا تطاول ولا تسامي[١].

ولم تكتف خديجة رضي الله عنها بمكارم أخلاق النبي ﷺ على نبوته، بل ذهبت إلى ابن عمها العالم الجليل ورقة بن نوفل، رحمه الله، الذي كان ينتظر ظهور نبي آخر الزمان، لما عرفه من علماء أهل الكتاب عن دنو زمانه، واقتراب مبعثه، وكان لحديث ورقة أثر طيب في تثبت النبي ﷺ وتقوية قلبه، وقد أخبر النبي ﷺ بأن الذي خاطبه هو صاحب السر الأعظم، الذي يكون سفيرًا بين الله تعالى وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام، ومن أشعار ورقة التي تدل على انتظاره لمبعث النبي ﷺ قوله:

لِجِجْتُ وكنتُ في الذكرى لجوجًا ... لِهَمٍّ طالما بَعَثَ النَّشِيجا
ووصفٍ من خديجةَ بَعدَ وصفٍ ... فقد طال انتظاري يا خديجا
ببطن المكَّتين[٢] علىَ رجائي ... حديثك أَن أَرى منه خُروجَا
بما خَبَّرْتنا من قول قَسٍّ ... مِنَ الرهبان أكرهُ أن يَعُوجا
بأن محمدًا سيسود فينا ... ويَخْصِم من يكونَ له حَجيجا[٣]

لقد صدَّق ورقة بن نوفل برسالة النبي ﷺ وشهد له النبي ﷺ بجنة، فقد جاء في رواية أخرجها الحاكم بإسناده عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «لا تسبوا ورقة فإني رأيت له جنة أو جنتين»[٤].

وعن عائشة رضي الله عنها أن خديجة رضي الله عنها سألت رسول الله عن ورقة، فقال: «قد رأيته فرأيت عليه ثيابًا بيضًا، فأحسبه لو كان من أهل النار لم يكن عليه ثياب بيض» قال الهيثمي: وروى أبو يعلى بسند حسن عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن ورقة بن نوفل فقال: «أبصرته في بُطنان[٥] الجنة وعليه السندس»[٦].

لقد قامت خديجة رضي الله عنها بدور مهم في حياة النبي ﷺ، لما لها من شخصية في مجتمع قومها، ولما جبلت عليه من الكفاءة في المجالات النفسية، التي تقوم على الأخلاق العالية، من الرحمة، والحلم، والحكمة، والحزم، وغير ذلك من مكارم الأخلاق. والرسول ﷺ قد وفقه الله تعالى إلى هذه الزوجة المثالية، لأنه قدوة للعالمين، وخاصة للدعاة إلى الله، فقيام

---

(١) انظر: محمد رسول الله، محمد عرجون (١/ ٢٣٢).
(٢) المكتين: جانبًا مكة، أو بطاحها وظواهرها.
(٣) سيرة ابن هشام (١/ ١٩١، ١٩٢).
(٤) المستدرك (٢/ ٦٠٩) وقال: صحيح على شرط الشيخين وأقره الذهبي.
(٥) بُطنان: البُطنان من الشيء: وسطه.
(٦) رواه أبو يعلى برقم (٢٠٤٧) جـ ٤/ ٤١، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٤١٦) وقال: فيه مجالد ـ وهذا مما مُدِح من حديث مجالد ـ وبقية رجاله رجال الصحيح، وأورده عن جابر أيضًا، وقال رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير مجالد وقد وثق. . . إلخ.

خديجة بذلك الدور الكبير، إعلام من الله تعالى لجميع حملة الدعوة الإسلامية، بما يشرع لهم أن يسلكوه في هذا المجال من التأسي برسول الله حتى يتحقق لهم بلوغ المقاصد العالية، التي يسعون لتحقيقها(١).

إن السيدة خديجة رضي الله عنها مثال حسن، وقدوة رفيعة، لزوجات الدعاة، فالداعية إلى الله ليس كباقي الرجال الذين هم بعيدون عن أعباء الدعوة. ومن الصعب أن يكون مثلهم في كل شيء، إنه صاحب هم ورسالة، هَمّ على ضياع أمته، وانتشار الفساد، وزيادة شوكة أهله، وهَمّ لما يصيب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، من مؤامرات وظلم وجوع، وإذلال، وما يصيب الدعاة منهم من تشريد وتضييق وتنكيل، وبعد ذلك هو صاحب رسالة؛ واجب عليه تبليغها للآخرين، وهذا الواجب يتطلب وقتًا طويلاً يأخذ عليه أوقات نومه وراحته، وأوقات زوجته وأبنائه، ويتطلب تضحية بالمال والوقت، والدنيا بأسرها، ما دام ذلك في سبيل الله ومرضاته، وإن أوتيت الزوجة من الأخلاق والتقوى والجمال والحسب ما أوتيت، إنه يحتاج إلى زوجة تدرك واجب الدعوة وأهميته، وتدرك تمامًا مايقوم به الزوج، وما يتحمله من أعباء، وما يعانيه من مشاق، فتقف إلى جانبه تيسر له مهمته، وتعينه عليها، لا أن تقف عائقًا وشوكة في طريقه(٢).

إن المرأة الصالحة لها أثر في نجاح الدعوة، وقد اتضح ذلك في موقف خديجة، رضي الله عنها، وما قامت به من الوقوف بجانب النبي ﷺ، وهو يواجه الوحي لأول مرة، ولا شك أن الزوجة الصالحة المؤهلة لحمل مثل هذه الرسالة، لها دور عظيم في نجاح زوجها في مهمته في هذه الحياة، وبخاصة الأمور التي يعامل بها الناس، وإن الدعوة إلى الله تعالى هي أعظم أمر يتحمله البشر، فإذا وفق الداعية لزوجة صالحة، ذات كفاءة، فإن ذلك من أهم نجاحه مع الآخرين(٣)، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة»(٤).

سابعًا: وفاء النبي ﷺ للسيدة خديجة رضي الله عنها:

كان رسول الله ﷺ مثالاً عاليًا للوفاء، ورد الجميل لأهله، فقد كان في غاية الوفاء مع زوجته المخلصة، في حياتها، وبعد مماتها، وقد بشرها ﷺ ببيت في الجنة في حياتها، وأبلغها سلام الله جل وعلا، وسلام جبريل عليه السلام، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى جبريل النبي ﷺ فقال: يارسول الله، هذه خديجة قد أتتك، معها إناء فيه إدام ـ أو طعام أو شراب ـ فإذا هي أتتك فاقرأ

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (١/٦٩).

(٢) انظر: وقفات تربوية من السيرة النبوية، البلالي (ص ٤٠).

(٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (١/٦٨).

(٤) رواه مسلم ـ كتاب الرضاع (رقم ١٤٦٧، ص ١٠٩٠).

عليها السلام من ربهاﷻ ومني، وبشّرها ببيت في الجنة من قَصَب[١] لا صَخَبَ فيه ولا نَصَب»[٢].

وتذكر عائشة رضي الله عنها وفاء النبي ﷺ لخديجة بعد وفاتها بقولها: ماغرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي ﷺ يُكثر ذكرها، وربما ذَبَحَ الشاة ثم يُقطّعُها أعضاءً ثم يبعثها في صدائقِ خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجةُ؟ فيقول: «إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد»[٣].

وأظهر ﷺ البشاشة والسرور لأخت خديجة، لما استأذنت عليه لتذكُّره خديجة، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «استأذنت هالةُ بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة[٤]، فارتاح لذلك، فقال: «اللهم هالةُ بنت خويلد»، فغِرْت، فقلت: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراءِ الشدقين[٥]، هلكت في الدهر فأبدلك الله خيرًا منها[٦]، وأظهر ﷺ الحفاوة بامرأة كانت تأتيهم زمن خديجة وبين أن حفظ العهد من الإيمان[٧].

ثامنًا: سنة تكذيب المرسلين:

(يا ليتني فيها جذَعًا، ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أَوَ مُخرجي هم»؟ قال: نعم؛ لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا)[٨]، فقد بيّن الحديث سنة من سنن الأمم مع من يدعوهم إلى الله عز وجل، وهي التكذيب والإخراج، كما قال تعالى عن قوم لوط: ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: الآية ٥٦].

وكما قال قوم شعيب: ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٨٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: الآية ١٣].

---

(١) يعني من لؤلؤ أو ذهب.

(٢) مسلم، كتاب فضائل الصحابة (ص ١٨٨٧ رقم ٢٤٣٢).

(٣) البخاري، كتاب مناقب الأنصار (٧/ ١٣٢ ـ ح ٣٨١٨).

(٤) يعني لتشابه صوتيهما.

(٥) يعني لا أسنان لها من الكبر.

(٦) مسلم، كتاب فضائل الصحابة (ص ١٨٨٩ رقم ٢٤٣٧).

(٧) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (١/ ٧١).

(٨) البخاري، كتاب بدء الوحي (ح ٣) واللفظ له؛ مسلم ـ كتاب الإيمان (٢/ ١٩٧ـ ٢٠٤) ح [٢٥٢ـ (١٦٠)].

تاسعًا: قوله (وفتر الوحي):

تحدث علماء السيرة قديمًا وحديثًا عن فتور الوحي، فقال الحافظ ابن حجر: وفتور الوحي عبارة عن تأخيره مدة من الزمان، وكان ذلك ليذهب ما كان ﷺ وجده من الروح، وليحصل له التشوق إلى العود(١).

فعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال وهو يحدث ـ أي بحديث النبي ﷺ ـ عن فترة الوحي: «بينا أنا أمشي، إذ سمعت صوتًا من السماء فرفعت بصري، فإذا المَلَك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فَرُعِبت منه، فرجعت فقلت: زملوني. فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ②﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدَّثر: ١ ـ ٥] فحَمِي الوحى وتتابع»(٢).

وقال صفي الرحمٰن المباركفوري: «أما مدة فترة الوحي فاختلفوا فيها على عدة أقوال، والصحيح أنها كانت أيامًا، وقد روى ابن سعد عن ابن عباس ما يفيد ذلك، وأما ما اشتهر من أنها دامت ثلاث سنين أو سنتين ونصفًا فليس بصحيح(٣).

وأما ما جاء بلاغًا أنه ﷺ حَزِن حزنًا جعله يغدو ليتردى من شواهق الجبال، وأن جبريل عليه السلام كان يظهر له في كل مرة، ويبشره بأنه رسول الله، فمرسل ضعيف، كما أنه يتنافى مع عصمة النبي ﷺ(٤) (٥).

المبحث الثاني

الدعوة السرية

أولاً: الأمر الرباني بتبليغ الرسالة:

عرف النبي ﷺ معرفة اليقين أنه أصبح نبيًا لله الرحيم الكريم، وجاءه جبريل عليه السلام للمرة الثانية، وأنزل الله على نبيه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ④﴾ [المدَّثر: ١ ـ ٤].

---

(١) فتح الباري: (١/ ٣٦).

(٢) البخاري، بدء الوحي (رقم ٤).

(٣) انظر: الرحيق المختوم (ص ٧٩، ٨٠).

(٤) انظر: الروض الأنف للسهيلي (٢/ ٤٣٣، ٤٣٤).

(٥) تعليق: ما ورد حول روايات هَمِّ رسول الله ﷺ بالتردي من شواهق الجبال في مدة فترة الوحي، يُرجع فيه إلى فتح الباري ـ على سبيل المثال ـ (جـ ١/ ٢٧، جـ ١٢/ ٣٥٢، ٣٥٩ـ ٣٦١) وإلى معالجة الشيخ العلامة محمد الصادق عرجون في كتابه (محمد رسول الله ﷺ) جـ ١/ ٣٨٥ـ ٤٥٨ـ على سبيل المثال أيضًا ـ ليقف على الاجتهادات والفهوم النبيلة، التي لا تقصد إلا الوصول إلى ما يتفق مع جلال هذا الدين، ومستيقنات أركانه الركينة، رَحِمَ الله ورَضِيَ عن أئمة هذا الدين وعلمائه المكرمين (المراجع).

كانت هذه الآيات المتابعة إيذانًا للرسول ﷺ بأن الماضي قد انتهى بمنامه وهدوئه، وأنه أمامه عمل عظيم، يستدعي اليقظة والتشمير، الإنذار والإعذار، فليحمل الرسالة، وليوجه الناس، وليأنس بالوحي، وليقوَ على عنائه فإنه مصدر رسالته ومدد دعوته[(١)].

وتعد هذه الآيات أول أمر بتبليغ الدعوة، والقيام بالتبعة. وقد أشارت هذه الآيات إلى أمور، هي خلاصة الدعوة المحمدية، والحقائق الإسلامية، التي بني عليها الإسلام كله، وهي الوحدانية، والإيمان باليوم الآخر، وتطهير النفوس، ودفع الفساد عن الجماعة، وجلب النفع[(٢)].

كانت هذه الآيات تهييجًا لعزيمة رسول الله ﷺ؛ لينهض بعبء ما كُلِّفه من تبليغ رسالات ربه، فيمضي قُدُمًا بدعوته، لا يبالي العقبات والحواجز، كان هذا النداء المتلطِّف ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدَّثِّر: الآية ١] إيذانًا بشحذ العزائم، وتوديعًا لأوقات النوم والراحة، وجاء عقب هذا النداء الأمر الجازم بالنهوض: ﴿قُمْ﴾ في عزيمة ناهضة، وقوة حازمة، تتحرك في اتجاه تحقيق واجب التبليغ، وفي مجيء الأمر بالإنذار منفردًا عن التبشير، في أول خطاب وجِّه إلى النبي ﷺ بعد فترة الوحي، إيذان بأن رسالته تعتمد على الكفاح الصبور، والجهاد المرير، ثم زادت الآيات في تقوية عزيمة النبي ﷺ، وشدِّ أزره، وحضِّه على المضي قُدمًا إلى غاية ما أُمر به، غير عابىء بما يعترض طريقه من عقبات، مهما يكن شأنها، فقيل له: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي لا تعظم شيئًا من أُمور الخلق، ولا يتعاظمك منهم شيء، فلا تتهيب فعلاً من أفعالهم، ولا تخشى أحدًا منهم، ولا تعظِّم إلا ربك، الذي تعهدك وأنت في أصلاب الآباء، وأرحام الأمهات، فربّاك على موائد فضله، ورعاك بإحسانه وجوده، حتى أخرجك للناس نبيًّا ورسولاً، بعد أن أعدّك خَلْقًا وخُلُقًا لتحمل أمانة أعظم رسالاته، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ فكل تعظيم وتكبير، وإجلال، حقٌّ لله تعالى وحده، لا يشاركه فيه أحد، أو شيء من مخلوقاته[(٣)].

وفي قوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾، فكأنه قيل له ﷺ: فأنت على طهرك، وتطهُّرك بفطرتك، في كمال إنسانيتك، بما جبلك الله عليه من أكرم مكارم الأخلاق، وبما حباك به من نبوته ليعدَّك بها ليومك هذا، أحوج إلى أن تزداد في تطهرك النفسي، فتزداد من المكارم في حياتك مع الناس والأشياء، فأنت اليوم رسول الله إلى العالمين، وكمال الرسالة في كمال الخُلق الاجتماعي، صبرًا، وحلمًا، وعفوًا، وإحسانًا، ودُؤوبًا على الجد، في تبليغ الدعوة إلى الله تعالى، ولا يثنيك إيذاء، ولا يقعدك عن المضي إلى غايتك فادح البلاء[(٤)].

---

(١) انظر: فقه السيرة للغزالي (ص ٩٠).

(٢) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين، د. كامل سلامة (ص ١٨١).

(٣) انظر: محمد رسول الله، محمد الصادق عرجون (١/ ٥٨٩، ٥٩٠، ٥٩١) بتصرف كبير.

(٤) المصدر نفسه (١/ ٥٩٢، ٥٩٣) بتصرف كبير.

وفي قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾؛ فكأنه قيل لهﷺ: ليكن قصدك ونيتك في تركك ما تركت فطرةً وطبعًا هَجْرَه تكليفًا وتعبُّدًا، لتكون قدوة أمتك، وعنوان تطهرها بهداية رسالتك(١).

ثانيًا: بدء الدعوة السرية:

بعد نزول آيات المدثر قام رسول الله ﷺ يدعو إِلى الله، وإِلى الإِسلام سرًّا، وكان طبيعيًّا أن يبدأ بأهل بيته، وأصدقائه، وأقرب الناس إِليه.

١ ـ إِسلام السيدة خديجة رضي الله عنها:

كان أول من آمن بالنبي ﷺ من النساء، بل أول من آمن به على الإِطلاق السيدة خديجة رضي الله عنها، فكانت أول من استمع إِلى الوحي الإِلٰهي، من فم الرسول الكريم، وكانت أول من تلا القرآن بعد أن سمعته من صوت الرسول العظيم، وكانت كذلك أول من تعلّم الصلاة عن رسول الله ﷺ، فبيتها هو أول مكان تُلي فيه أول وحي، نزل به جبريل على قلب المصطفى الكريم بعد غار حراء(٢).

كان أول شيء فرضه الله من الشرائع بعد الإِقرار بالتوحيد، إِقامة الصلاة. وقد جاء في الأخبار حديث تعليم الرسول ﷺ زوجه خديجة الوضوء، والصلاة، حين افتُرضت على رسول الله؛ أتاه جبريل وهو بأعلى مكة فهَمز له بِعَقبه في ناحية الوادي فانفجرت منه عين، فتوضأ جبريل عليه السلام، ورسول الله ﷺ ينظر ليُريه كيف الطهور للصلاة، ثم توضأ رسول الله ﷺ كما رأى جبريل توضأ، ثم قام جبريل عليه السلام فصلى به، وصلى النبي ﷺ بصلاته، ثم انصرف جبريل عليه السلام، فجاء رسول الله خديجة فتوضأ لها، يريها كيف الطهور للصلاة، كما أراه جبريل عليه السلام، فتوضأت كما توضأ رسول الله ﷺ، ثم صلّى بها رسول الله ﷺ كما صلّى به جبريل عليه السلام(٣).

٢ ـ إِسلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

وبعد إِيمان السيدة خديجة دخل علي بن أبي طالب في الإِسلام، وكان أول من آمن من الصبيان، وكانت سنه إِذ ذاك عشر سنين، على أرجح الأقوال، وهو قول الطبري وابن إِسحاق(٤)، وقد أنعم الله عليه بأن جعله يتربى في حجر رسوله ﷺ قبل الإِسلام، حيث أخذه من عمه أبي طالب وضمه إِليه(٥)، وكان علي رضي الله عنه ثالث من أقام الصلاة بعد رسول الله، وبعد

---

(١) المصدر نفسه (١/ ٥٩٢، ٥٩٣) بتصرف كبير.
(٢) انظر: المرأة في العهد النبوي، د. عصمة الدين كركر (ص ٣٦).
(٣) انظر: ابن هشام (١/ ٢٤٤)؛ من معين السيرة، صالح الشامي (ص ٤١).
(٤) السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٢٨٤).
(٥) ابن هشام (١/ ٢٤٦).

خديجة رضي الله عنها (١).

وقد ذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفيًا من أبيه، ومن جميع أعمامه، وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا، ليضمّهما ذلك البيت الطاهر، التقي بالإيمان، المفعم بصدق الوفاء وكرم المَنْبِت(٢).

٣ ـ إسلام زيد بن حارثة رضي الله عنه:

هو أول من آمن بالدعوة من الموالي(٣)، حِبّ النبي ﷺ، ومولاه، ومُتَبَنّاه: زيد بن حارثة الكلبي، الذي آثر رسول الله على والده وأهله؛ عندما جاءوا إلى مكة لشرائه من رسول الله ﷺ، فترك رسول الله الأمر لزيد فقال زيد لرسول الله: ما أنا بالذي أختار عليك أحدًا، وأنت مني بمنزلة الأب والعمِّ، فقال له والده وعمه: ويحك تختار العبودية على الحرية، وعلى أبيك وعمك، وأهل بيتك؟ قال: نعم، وإني رأيت من هذا الرجل شيئًا ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبدًا(٤).

٤ ـ إسلام بنات النبي ﷺ:

وكذلك سارع إلى الإسلام بنات النبي ﷺ، كل من زينب، وأم كلثوم، وفاطمة ورقية، فقد تأثرنَ قبل البعثة بوالدهن ﷺ في الاستقامة وحسن السيرة، والتنزه عما كان يفعله أهل الجاهلية، من عبادة الأصنام، والوقوع في الآثام. وقد تأثرن بوالدتهن، فأسرعن إلى الإيمان(٥)، وبذلك أصبح بيت النبي ﷺ أول أسرة مؤمنة بالله تعالى، منقادة لشرعه في الإسلام، ولهذا البيت النبوي الأول مكانة عظمى في تاريخ الدعوة الإسلامية، لما حباه الله به من مزايا، وخصه بشرف الأسبقية في الإيمان، وتلاوة القرآن وإقام الصلاة فهو:

- أول مكان تُلي فيه وحي السماء بعد غار حراء.
- وهو أول بيت ضم المؤمنة الأولى سابقة السبق إلى الإسلام.
- وهو أول بيت أقيمت فيه الصلاة.
- وهو أول بيت اجتمع فيه المؤمنون الثلاثة السابقون إلى الإسلام، خديجة وعلي وزيد ابن حارثة.

---

(١) عيون الأثر، ابن سيد الناس (١/ ١١٥).

(٢) انظر: المرأة في العهد النبوي، د. عصمة الدين (ص ٤٢).

(٣) يطلق المولى على السيد، وعلى المملوك الذي أُعتق وهو المراد هنا.

(٤) انظر: دراسة تحليلية لشخصية الرسول ﷺ، د. محمد قلعجي (ص ١٩١).

(٥) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٢٨٤).

● وهو أول بيت تعهد بالنصرة ولم يتقاعس فيه فرد من أفراده ـ كبارًا أو صغارًا ـ عن مساندة الدعوة[(١)].

يحق لهذا البيت أن يكون قدوة، ويحق لربته أن تكون مثالاً ونموذجًا حيًّا لبيوت المسلمين، ولنسائهم، ورجال المؤمنين كافة، فالزوجة فيه طاهرة مؤمنة، مخلصة، وزيرة الصدق والأمان. وابن العم المحضون والمكفول، مستجيب ومعضّد، ورفيق، والمُتَبَنَّى مؤمن صادق مساعد ومعين. والبنات مصدّقات مستجيبات مؤمنات ممتثلات[(٢)].

وهكذا كان للبيت النبوي مكانته الأولى، والواجب يدعو إلى أن يكون قدوتنا والأنموذج الذي نسير على هديه في المعاشرة، ومثالية السلوك بالصدق والتصديق، في الاستجابة والعمل لكل من آمن بالله ربًّا وبمحمد نبيًّا ورسولا[(٣)].

إن الحقيقة البارزة في المنهج الرباني تشير إلى أهمية بناء الفرد الصالح، والأسرة الصالحة، كأول حلقة من حلقات الإصلاح، والبناء، ثم المجتمع الصالح، ولقد تجلت عناية الإسلام بالفرد المسلم وتكوينه، ووجوب أن يسبق أي عمل آخر، فالفرد المسلم هو حجر الزاوية في أي بناء اجتماعي، ولهذا كانت الأسرة التي تستقبل الفرد منذ ولادته، وتستمر معه مدة طويلة من حياته، بل هي التي تحيط به طوال حياته، هي المحضن المتقدم الذي تتحدد به معالم الشخصية، وخصائصها وصفاتها، كما أنها الوسيط بين الفرد والمجتمع، فإذا كان هذا الوسط سليمًا قويًّا أمد طرفيه ـ الفرد والمجتمع ـ بالسلامة والقوة[(٤)].

ولهذا اهتم الإسلام بالأسرة واتجه إليها، يضع لها الأسس التي تكفل قيامها، ونموها نموًّا سليمًا، ويوجهها الوجهة الربانية، لتكون حلقة قوية في بناء المجتمع الإسلامي، والدولة الإسلامية التي تسعى لصناعة الحضارة الربانية في دنيا الناس[(٥)].

٥ ـ إسلام أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أول من آمن بالنبي ﷺ من الرجال الأحرار، والأشراف، فهو من أخص أصحاب رسول الله ﷺ قبل البعثة، وفيه قال رسول الله ﷺ: «ما دعوت أحدًا إلى الإسلام، إلا كانت عنده كبوة، وتردد ونظر، إلا أبا بكر، ما عَكَم[(٦)] حين دعوته، ولا تردد

---

(١) انظر: المرأة في العهد النبوي، د. عصمة الدين (ص ٤٣).
(٢) انظر: المرأة في العهد النبوي، د. عصمة الدين (ص ٤٥).
(٣) المصدر السابق (ص ٤٦).
(٤) انظر: دولة الرسول من التكوين حتى التمكين، د. كامل سلامة (ص ٢٠٨).
(٥) المصدر نفسه (ص ٢٠٨).
(٦) ما تلبث بل سارع.

فيه»[١]، فأبو بكر صاحب رسول الله ﷺ، وهو حسنة من حسناته عليه الصلاة والسلام، لم يكن إِسلامه إِسلام رجل، بل كان إِسلامه إِسلام أمة، فهو في قريش كما ذكر ابن إسحاق في موقع العين منها:

- كان رجلاً مألفًا لقومه محببًا سهلاً.
- وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر.
- وكان رجلاً تاجرًا.
- ذا خلق ومعروف.
- وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه، لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته، وحسن مجالسته[٢].

لقد كان أبو بكر كنزًا من الكنوز، ادخره الله تعالى لنبيه، وكان من أحب قريش لقريش، فذلك الخلق السمح الذي وهبه الله تعالى إياه جعله من الموطئين أكنافًا، من الذين يألفون ويؤلفون، والخلق السمح وحده عنصر كاف لألفة القوم، وهو الذي قال فيه عليه الصلاة والسلام: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر»[٣]. وعلم الأنساب عند العرب، وعلم التاريخ هما أهم العلوم عندهم، ولدى أبي بكر الصديق رضي الله عنه النصيب الأوفر منهما، وقريش تعترف للصديق بأنه أعلمها بأنسابها، وأعلمها بتاريخها، وما فيه من خير وشر، فالطبقة المثقفة ترتاد مجلس أبي بكر لتنهل منه علمًا لا تجده عند غيره غزارة ووفرة وسعة، ومن أجل هذا كان الشباب النابهون، والفتيان الأذكياء يرتادون مجلسه دائمًا، إِنهم الصفوة الفكرية المثقفة التي تود أن تلقى عنده هذه العلوم، وهذا جانب آخر من جوانب عظمته. وطبقة رجال الأعمال، ورجال المال في مكة، هي كذلك من رواد مجلس الصديق، فهو إِن لم يكن التاجر الأول في مكة، فو من أشهر تجارها، فأرباب المصالح هم كذلك قصاده، ولطيبته وحسن خلقه، تلقى عوام الناس يرتادون بيته، فهو المضياف الدمث الخلق، الذي يفرح بضيوفه، ويأنس بهم، فكل طبقات المجتمع المكي تجد حظها عند الصديق رضوان الله عليه[٤]، كان رصيده الأدبي والعلمي والاجتماعي في المجتمع المكي عظيمًا، ولذلك عندما تحرك في دعوته للإِسلام استجاب له صفوة من خيرة الخلق وهم:

- عثمان بن عفان، رضي الله عنه، في الرابعة والثلاثين من عمره.

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٢٨٤).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٧١).

(٣) أورده الألباني في صحيح الجامع الصغير (جـ ١/ ٣٠٨ ورقمه ٩٠٨).

(٤) انظر: التربية القيادية للغضبان (١/ ١١٥).

- عبد الرحمن بن عوف، ﷺ، في الثلاثين من عمره.
- سعد بن أبي وقاص، ﷺ، وكان في السابعة عشرة من عمره.
- والزبير بن العوام، ﷺ، وكان في الثانية عشرة من عمره.
- وطلحة بن عبيد الله، ﷺ، وكان في الثالثة عشرة من عمره[١].

«كان هؤلاء الأبطال الخمسة أول ثمرة من ثمار الصديق أبي بكر، ﷺ، دعاهم إلى الإسلام فاستجابوا، وجاء بهم إلى رسول الله ﷺ فرادى، فأسلموا بين يديه، فكانوا الدعامات الأولى، التي قام عليها صرح الدعوة، وكانوا العدة الأولى في تقوية جانب رسول الله ﷺ، وبهم أعزه الله، وأيّده، وتتابع الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، رجالاً ونساءً، وكان كل من هؤلاء الطلائع داعية إلى الإسلام، وأقبل معهم رعيل السابقين، الواحد، والاثنين، والجماعة القليلة، فكانوا على قلة عددهم كتيبة الدعوة، وحصن الرسالة، لم يسبقهم سابق، ولا يلحق بهم لاحق، في تاريخ الإسلام»[٢].

إن تحرك أبي بكر ﷺ في الدعوة إلى الله تعالى يوضح صورة من صورة الإيمان بهذا الدين، والاستجابة لله ورسوله ﷺ، صورة المؤمن الذي لا يقر له قرار، ولا يهدأ له بال، حتى يحقق في دنيا الناس ما آمن به، دون أن تكون انطلاقته دفعة عاطفية مؤقتة، سرعان ما تخمد، وتذبل وتزول، وقد بقي نشاط أبي بكر وحماسته إلى أن توفاه الله جل وعلا، لم يفتر، أو يضعف، أو يملّ، أو يعجز.

ونلاحظ أن أصحاب الجاه لهم أثر كبير في كسب أنصار للدعوة؛ ولهذا كان أثر أبي بكر ﷺ، في الإسلام أكثر من غيره[٣].

بعد أن كانت صحبة الصديق لرسول الله تعالى، مبنية على مجرد الاستئناس النفسي والخلقي، صارت الأنسة بالإيمان بالله وحده، وبالمؤازرة في الشدائد، واتخذ رسول الله عليه الصلاة والسلام من مكانة أبي بكر، وأُنس الناس به، ومكانته عندهم، قوة لدعوة الحق، فوق ما كان له عليه الصلاة والسلام من قوة نفس، ومكانة عند الله وعند الناس[٤].

ومضت الدعوة سرية وفردية تقوم على الاصطفاء، والاختيار للعناصر التي تصلح أن تكون منها الجماعة المؤمنة، التي ستسعى لإقامة دولة الإسلام، ودعوة الخلق إلى دين رب العباد، والتي ستقيم حضارة ربانية ليس لها مثيل.

---

(١) انظر: التربية القيادية (١/ ١١٦).

(٢) انظر: محمد رسول الله، عرجون (١/ ٥٣٣).

(٣) انظر: الوحي وتبليغ الرسالة، د. يحيى اليحيى (ص ٦٢).

(٤) انظر: خاتم النبيين لأبي زهرة (ص ٣٩٨).

٦ ـ الدُّفعة الثانية:

جاء دور الدفعة الثانية، بعد إسلام الدفعة الأولى، فأول من أسلم من هذه الدفعة: أبو عبيدة بن الجراح، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن مخزوم بن مرة ابن عمة رسول الله ﷺ «برة بنت عبد المطلب»، وأخوه من الرضاع، والأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، وعثمان بن مظعون الجمحي، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وقدامة وعبد الله ابنا مظعون، وفاطمة بنت الخطاب بن نفيل، أخت عمر بن الخطاب، وزوجة سعيد بن زيد، وأسماء بنت أبي بكر الصديق، وعائشة بنت أبي بكر وخباب بن الأرت حليف بني زهرة[1].

٧ ـ الدُّفعة الثالثة:

أسلم عمير بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود بن الحارث، ابن شَمْخ بن مخزوم... بن هُذَيل، ومسعود بن القاري، وهو مسعود بن ربيعة بن عمرو بن سعيد بن عبد العزى بن حَمالة من القارَة.

وسليط بن عمرو، وأخوه حاطب بن عمرو، وعياش بن أبي ربيعة، وامرأته أسماء بنت سلامة، وخُنيس بن حذافة السهمي، وعامر بن ربيعة حليف آل الخطاب، وعبد الله بن جحش وأخوه أبو أحمد، وجعفر بن أبي طالب، وامرأته أسماء بنت عُميس، وحاطب بن الحارث، وامرأته فاطمة بنت المجلَّل، وأخوه حطاب بن الحارث، وامرأته فُكَيهة بنت يسار، وأخوهما مَعْمَر بن الحارث، والسائب بن عثمان بن مظعون، والمطلب بن أزهر، وامرأته رملة بنت أبي عوف، والنَّحَّام بن عبد الله بن أسيد، وعامر بن فُهَيرة مولى أبي بكر، وفهيرة وأمه، وكان عبدًا للطفيل بن الحارث بن سخبرة، فاشتراه الصديق وأعتقه، وخالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، وامرأته أُمَينة بنت خلف، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وواقد بن عبد الله بن عبد مناف، وخالد، وعامر وعاقل، وإياس بنو البُكَير بن عبد ياليل، وعمار بن ياسر حليف بني مخزوم بن يقظة، وقال ابن هشام: عَنسى من مَذْحج.

وصُهيب بن سنان، هو (سابق الروم).

ومن السابقين إلى الإسلام: أبو ذر الغفاري، وأخوه أنيس، وأمه[2].

ومنهم بلال بن رباح الحبشي.

وهؤلاء السابقون من جميع بطون قريش، عدهم ابن هشام أكثر من أربعين نفرًا[3].

---

(١) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين (ص ٢١٢).

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٢٨٧).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢٤٥ إلى ٢٦٢).

وقال ابن إسحاق: ثم دخل الناس في الإِسلام أرسالاً من الرجال والنساء، حتى فشا ذكر الإِسلام في مكة، وتُحدِّثَ بِهِ[١].

ويتضح من عرض الأسماء السابقة، أن السابقين الأولين إِلى الإِسلام كانوا خيرة أقوامهم، ولم يكونوا كما يقول بعض الباحثين في السيرة: إِنهم من حثالة الناس، أو من الأرقاء الذين أرادوا استعادة حريتهم أو ما شابه ذلك ـ وجانب الصواب بعض كُتَّاب السيرة لدى حديثهم عن السابقين الأولين إِلى الإِسلام، عندما وصفوهم بأنه «كان معظمهم خليطًا من الفقراء والضعفاء والأرقاء فما الحكمة في ذلك؟».

وبقولهم: «كان رصيد هذه الدعوة بعد سنوات ثلاث من بدايتها، أربعين رجلاً وامرأة، عامتهم من الفقراء والمستضعفين، والموالي والأرقاء، وفي مقدمتهم أخلاط من مختلف الأعاجم: صهيب الرومي وبلال الحبشي».

إِن البحث الدقيق يثبت أن مجموع من أشير إِليهم بالفقراء والمستضعفين، والموالي والأرقاء، والأخلاط من مختلف الأعاجم هو ثلاثة عشر. ونسبة هذا العدد من العدد الكلي من الداخلين في الإِسلام لا يقال «أكثرهم» ولا «معظمهم» ولا «عامتهم».

إِن الذين أسلموا يومئذٍ لم يكن يدفعهم دافع دنيوي، وإِنما هو إِيمانهم، بالحق الذي شرح الله صدورهم له، ونصرة نبيه ﷺ، يشترك في ذلك الشريف والرقيق، والغني والفقير، ويتساوى في هذا أبو بكر وبلال وعثمان وصهيب[٢] ﷺ.

يقول الأستاذ صالح الشامي: نحن لا نريد أن ننفي وجود الضعفاء والأرقاء، ولكن نريد أن ننفي أن يكونوا هم الغالبية ـ لأن هذا مخالف للحقائق الثابتة ـ ولو كانوا كذلك لكانت دعوة طبقية، يقوم فيها الضعفاء والأرقاء ضد الأقوياء، وأصحاب السلطة والنفوذ، ككل الحركات التي تقاد من خلال البطون. إِن هذا لم يدر بخلد أي من المسلمين وهو يعلن إِسلامه، إِنهم يدخلون في هذا الدين على اعتبارهم أخوة في ظل هذه العقيدة. عبادًا لله، وإِنه لمن القوة لهذه الدعوة أن يكون غالبية أتباعها في المرحلة الأولى بالذات من كرام أقوامهم، وقد آثروا في سبيل العقيدة أن يتحملوا أصنافًا من الهوان، ما سبق لهم أن عانوها، أو فكروا بها[٣].

لقد كان الإِسلام ينساب إِلى النفوس الطيبة، والعقول النيرة، والقلوب الطاهرة، التي هيأها الله لهذا الأمر، ولقد كان في الأوائل، خديجة، وأبو بكر، وعلي، وعثمان، والزبير،

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (١/ ٢٦٢).

(٢) انظر: من معين السيرة، صالح الشامي (ص ٤٠).

(٣) انظر: من معين السيرة، صالح الشامي (ص ٤٠).

وعبد الرحمٰن، وطلحة، وأبو عبيدة، وأبو سَلَمة، والأرقم، وعثمان بن مظعون، وسعيد بن زيد، وعبد الله بن جحش، وجعفر، وسعد بن أبي وقاص، وفاطمة بنت الخطاب، وخالد بن سعيد، وأبو حذيفة بن عتبة، وغيرهم، ﷺ، وهم من سادة القوم وأشرافهم(١).

هؤلاء هم السابقون الأولون الذين سارعوا إِلى الإِيمان والتصديق بدعوة النبي ﷺ.

ثالثًا: استمرار النبي ﷺ في الدعوة:

استمر النبي ﷺ في دعوته السرية يدعو عددًا من الأتباع والأنصار من أقاربه وأصدقائه، وخاصة الذين يتمكن من ضمهم في سرية تامة، بعد إِقناعهم بالإِسلام، وهؤلاء كانوا نعم العون والسند للرسول ﷺ لتوسيع دائرة الدعوة في نطاق السرية، وهذه المرحلة العصيبة من حياة دعوة الرسول ﷺ، ظهرت فيها الصعوبة والمشقة في تحرك الرسول ﷺ ومن آمن معه بالدعوة، فهم لا يخاطبون إِلا من يأمنون من شره، ويثقون به، وهذا يعني أن الدعوة خطواتها بطيئة وحذرة، كما تقتضي صعوبة المواظبة على تلقي مطالب الدعوة من مصدرها، وصعوبة تنفيذها، إِذ كان الداخل في هذا الدين ملزمًا منذ البداية بالصلاة، ودراسة ما تيسر من القرآن ـ مثلاً ـ ولم يكن يستطيع أن يصلي بين ظَهْرَانَي قومه، ولا أن يقرأ القرآن، فكان المسلمون يتخفون في الشعاب والأودية إذا أرادوا الصلاة(٢).

١ ـ الحس الأمني:

إِن من معالم هذه المرحلة، الكتمان والسرية، حتى عن أقرب الناس، وكانت الأوامر النبوية على وجوب المحافظة على السرية واضحة وصارمة، وكان ﷺ يكوّن من بعض المسلمين أسرًا، وكانت هذه الأسر تختفي اختفاء استعداد وتدريب، لا اختفاء جبن وهروب، حسبما ما تقتضيه التدبيرات، فبدأ الرسول عليه الصلاة والسلام ينظم أصحابه من أسر صغيرة، فكان الرجل يجمع الرجل والرجلين إِذا أسلما، عند الرجل به قوة وسعة من المال، فيكونان معه، ويصيبان منه فضل طعامه، ويجعل منهم حلقات، فمن حفظ شيئًا من القرآن عَلّمَ من لم يحفظ، فيكون من هذه الجماعات أسر أخوة، وحلقات تعليم.

إِن المنهج الذي سار عليه رسول الله ﷺ في تربية أتباعه هو: القرآن الكريم، وكان النبي ﷺ يربي أصحابه تربية شاملة، في العقائد، والعبادات، والأخلاق، والحس الأمني، وغيرها؛ ولذلك نجد في القرآن الكريم آيات كريمة تحدثت عن الأخذ بالحس الأمني؛ لأن من أهم عوامل نهوض الأمة أن ينشأ الحس الأمني في جميع أفرادها، وخصوصًا في الصف المنظم الذي يدافع عن الإِسلام، ويسعى لتمكينه في دنيا الناس، ولذلك نجد النواة الأولى

---

(١) المصدر السابق (ص ٤٠).

(٢) انظر: الغرباء الأولون، سلمان العودة.

للتربية الأمنية كانت في مكة، وتوسعت مع توسع الدعوة ووصولها إلى دولة.

ولا شك أن الصحابة كانوا يجمعون المعلومات عمن يريدون دعوته للإسلام، وكانت القيادة تشرف على ذلك، ولذلك قام النبي ﷺ بترتيب جهاز أمني رفيع، يشرف على الاتصال المنظم بين القيادة والقواعد، ليضمن تحقيق مبدأ السرية.

إن السيرة النبوية غنية في أبعادها الأمنية، منذ تربية الأفراد، وحتى بعد قيام الدولة، وتظهر الحاجة للحركات الإسلامية، والدول المسلمة لإيجاد أجهزة أمنية متطورة (في زمننا المعاصر)؛ تحمي الإسلام والمسلمين، من أعدائها اليهود والصليبيين والملاحدة، وتعمل على حماية الصف المسلم في الداخل من اختراقات الأعداء فيه، وتجتهد لرصد أعمال المعارضين والمحاربين للإسلام، حتى تستفيد القيادة من المعلومات التي تقدمها لها أجهزتها المؤمنة الأمنية، ولا بد أن تؤسس هذه الأجهزة على قواعد منبعها القرآن الكريم، والسنّة النبوية، وتكون أخلاق رجالها قمة رفيعة تمثل صفات رجال الأمن المسلمين.

إن اهتمام المسلمين بهذا الأمر يجنبهم المفاجآت العدوانية «إذا عرفت العدو وعرفت نفسك، فليس هناك ما يدعوك إلى أن تخاف نتائج مئة معركة، وإذا عرفت نفسك، ولم تعرف العدو، فإنك ستواجه الهزيمة في كل معركة»(١).

كان النبي ﷺ يشرف بنفسه على تربية أصحابه في شتى الجوانب، ووزعهم في أسر، فمثلاً كانت فاطمة بنت الخطاب، وزوجها سعيد بن زيد، وهو ابن عم عمر بن الخطاب رضي الله عنهم، كانوا في أسرة واحدة، مع نعيم بن عبد الله النحام بن عدي، وكان معلمهم خَبّاب بن الأرتّ، وكان اشتغالهم بالقرآن لا يقتصرون منه على تجويد تلاوته، وضبط مخارج حروفه، ولا على الاستكثار من سرده، والإسراع في قراءته، بل كان همهم دراسته وفهمه، ومعرفة أمره ونهيه، والعمل به(٢).

كان النبي ﷺ يهتم بالتخطيط الدقيق المنظم، ويحسب لكل خطوة حسابها، وكان مدركًا تمامًا أنه سيأتي اليوم الذي يؤمر فيه بالدعوة علنًا وجهرًا، وأن هذه المرحلة سيكون لها شدتها وقوتها، فحاجة الجماعة المؤمنة المنظمة تقتضي أن يلتقي الرسول المربي مع أصحابه، فكان لا بد من مقر لهذا الاجتماع، فقد أصبح بيت خديجة رضي الله عنها لا يتسع لكثرة الأتباع، فوقع اختيار النبي وصحبه على دار الأرقم بن أبي الأرقم؛ إذ أدرك الرسول عليه الصلاة والسلام أن الأمر يحتاج إلى الدقة المتناهية في السرية والتنظيم، ووجوب التقاء القائد المربي بأتباعه في مكان آمن بعيد عن الأنظار، ذلك أن استمرار اللقاءات الدورية المنظمة بين القائد وجنوده، هو

(١) انظر: الاستخبارات العسكرية في الإسلام (ص ١١١، ١١٢).

(٢) انظر: الدعوة الإسلامية، د. عبد الغفار محمد عزيز (ص ٩٦).

خير وسيلة للتربية العملية والنظرية، وبناء الشخصية القيادية الدعوية.

ومما يدل على أن الرسول ﷺ كان يعد أتباعه ليكونوا بناة الدولة وحملة الدعوة، وقادة الأمم، هو حرصه الشديد على هذا التنظيم السري الدقيق، فلو كان مجرد داعية لما احتاج الأمر إلى كل هذا.

ولو كان يريد مجرد إبلاغ الدعوة للناس، لكان خير مكان في الكعبة حيث منتدى قريش كلها، ولكن الأمر ـ غير ذلك ـ فلا بد من السرية التامة في التنظيم، وفي المكان الذي يلتقي فيه مع أصحابه، وفي الطريقة التي يحضرون بها إلى مكان اللقاء(١).

٢ ـ دار الأرقم بن أبي الأرقم (مقر القيادة):

تذكر كتب السيرة أن اتخاذ دار الأرقم مقرًّا لقيادة الرسول ﷺ، كان بعد المواجهة الأولى، التي برز فيها سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال ابن إسحاق: «كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا ذهبوا في الشعاب، فاستخفوا بصلاتهم من قومهم. فبينما سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ، في شعب من شعاب مكة، إذا ظهر عليه نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم، وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذٍ رجلاً من المشركين بِلَحْي بعير فشجه، فكان أول دم أهريق في الإسلام»(٢).

أصبحت دار الأرقم السرية مركزًا جديدًا للدعوة، يتجمع فيه المسلمون، ويتلقون عن رسول الله ﷺ كل جديد من الوحي، ويستمعون له ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو يذكرهم بالله، ويتلو عليهم القرآن، ويضعون بين يديه كل مافي نفوسهم وواقعهم فيربيهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ على عينه كما تربى هو على عين الله عز وجل، وأصبح هذا الجمع هو قرة عين النبي ﷺ(٣).

رابعًا: أهم خصائص الجماعة الأولى التي تربت على يدي رسول الله ﷺ:

كانت الجماعة الأولى، التي تربت على يدي رسول الله ﷺ، قد برزت فيها خصائص مهمة، جعلتها تتقدم بخطوات رصينة نحو صياغة الشخصية المسلمة، التي تقيم الدولة المؤمنة، وتصنع الحضارة الرائعة، فمن أبرز هذه الخصائص:

١ ـ الاستجابة الكاملة للوحي، وعدم التقديم بين يديه:

إن العلم والفقه الصحيح الكامل في العقائد والشرائع والآداب وغيرها لا يكون إلا عن طريق الوحي المنزل ـ قرآنًا وسنّة ـ والتزام الدليل الشرعي هو منهج الذين أنعم الله عليهم بالإيمان

---

(١) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين (ص ٢١٨).

(٢) انظر: ابن هشام (١/ ٢٣٦).

(٣) انظر: التربية القيادية (١/ ١٩٨).

الصحيح[(١)]، قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٨١].

لقد كان الصحابة ـ أعظم من غيرهم انتفاعًا بالدليل والوحي، وتسليمًا له؛ لأسباب عديدة؛ منها:

أ ـ نزاهة قلوبهم، وخلوها من كل ميل أو هوى، غير ما جاءت به النصوص، واستعدادها التام لقبول ما جاء عن الله ورسوله والإذعان والانقياد له انقيادًا مطلقًا؛ دون حرج، ولا تردد، ولا إحجام.

ب ـ معاصرتهم لوقت التشريع ونزول الوحي، ومصاحبتهم للرسول ﷺ، ولذلك كانوا أعلم الناس بملابسات الأحوال التي نزلت النصوص فيها. والعلم بملابسات الواقعة أو النص من أعظم أسباب فقهه وفهمه وإدراك مغزاه.

جـ ـ وكانت النصوص ـ قرآنًا وسنّة ـ تأتي في كثير من الأحيان لأسباب تتعلق بهم ـ بصورة فردية، أو جماعية ـ فتخاطبهم خطابًا مباشرًا، وتؤثر فيهم أعظم التأثير، لأنها تعالج أحداثًا واقعية، وتعقب في حينها، حيث تكون النفوس مشحونة بأسباب التأثر، متهيئة لتلقي الأمر والاستجابة له.

فكانوا إذا سمعوا أحدًا يقول: قال رسول الله ﷺ؛ ابتدرته أبصارهم؛ كما يقول ابن عباس رضي الله عنهما[(٢)].

٢ ـ التأثر الوجداني العميق بالوحي والإيمان:

كان الصحابة يتعاملون مع العلم الصحيح ليس كحقائق علمية مجردة يتعامل معها العقل فحسب، دون أن يكون لها علاقة بالقلب والجوارح؛ فقد أورثهم العلم بالله، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله: محبته والتأله إليه، والشوق إلى لقائه، والتمتع بالنظر إلى وجهه الكريم في جنة عدن، وأورثهم تعظيمه، والخوف منه، والحذر من بأسه وعقابه، وبطشه ونقمته، وأورثهم رجاء ماعنده، والطمع في جنته ورضوانه، وحسن الظن به، فاكتملت لديهم ـ بذلك ـ آثار العلم بالله والإيمان به، وهذه المعاني الوجدانية هي المقصود الأعظم من تحصيل العلم، وإذا فقدت؛ فلا ينفع مع فقدها علم، بل هو ضررٌ في العاجل والآجل[(٣)].

وكان الصحابة فرسانًا بالنهار، ورهبانًا بالليل، لا يمنعهم علمهم وإيمانهم الحق، وخشوعهم لله من القيام بشؤونهم الدنيوية، من بيع، وشراء، وحرث، ونكاح، وقيام على الأهل والأولاد وغيرهم فيما يحتاجون.

---

(١) انظر: صفة الغرباء، سلمان العودة (ص ٨٣).

(٢) المصدر نفسه (ص ٩٤).

(٣) المصدر نفسه (ص ٩٧).

خامسًا: شخصية النبي ﷺ وأثرها في صناعة القادة:

كانت دار الأرقم بن أبي الأرقم أعظم مدرسة للتربية والتعليم عرفتها البشرية، كيف لا، وأستاذها هو رسول الله ﷺ أستاذ البشرية كلها، وتلاميذها هم الدعاة والهداة، والقادة الربانيون، الذين حرروا البشرية من رق العبودية، وأخرجوهم من الظلمات إلى النور، بعد أن رباهم الله تعالى على عينه تربية غير مسبوقة، ولا ملحوقة(١).

في دار الأرقم وفق الله تعالى رسوله إلى تكوين الجماعة الأولى من الصحابة، حيث قاموا بأعظم دعوة عرفتها بالبشرية.

لقد استطاع الرسول المربي الأعظم ﷺ أن يربي في تلك المرحلة السرية، وفي دار الأرقم أفذاذ الرجال الذين حملوا راية التوحيد والجهاد والدعوة، فدانت لهم الجزيرة، وقاموا بالفتوحات العظيمة في نصف قرن.

كانت قدرة النبي ﷺ فائقة في اختيار العناصر الأولى للدعوة، في خلال السنوات الثلاث الأولى من عمر الدعوة، وتربيتهم وإعدادهم إعدادًا خاصًا ليؤهلهم لاستلام القيادة، وحمل الرسالة. فالرسالات الكبرى، والأهداف الإنسانية العظمى لا يحملها إلا أفذاذ الرجال، وكبار القادة، وعمالقة الدعاة.

كانت دار الأرقم مدرسة من أعظم مدارس الدنيا، وجامعات العالم، التقى فيها الرسول المربي بالصفوة المختار من الرعيل الأول (السابقين الأولين)، فكان ذلك اللقاء الدائم تدريبًا عمليًا لجنود المدرسة على مفهوم الجندية والسمع والطاعة، والقيادة وآدابها وأصولها، ويشحذ فيه القائد الأعلى جنده وأتباعه بالثقة بالله والعزيمة والإصرار، ويأخذهم بالتزكية والتهذيب، والتربية والتعليم، كان هذا اللقاء المنظم يشحذ العزائم، ويقوي الهمم، ويدفع إلى البذل والتضحية والإيثار(٢).

كانت نقطة البدء في حركة التربية الربانية الأولى لقاء المدعو بالنبي ﷺ، فيحدث للمدعو تحول غريب، واهتداء مفاجىء بمجرد اتصاله بالنبي ﷺ، فيخرج المدعو من دائرة الظلام إلى دائرة النور، ويكتسب الإيمان ويطرح الكفر، ويقوى على تحمل الشدائد والمصائب في سبيل دينه الجديد وعقيدته السمحة.

كانت شخصية رسول الله ﷺ المحرك الأول للإسلام، وشخصيته ﷺ تملك قوى الجذب، والتأثير على الآخرين، فقد صنعه الله على عينه، وجعله أكمل صورة لبشر في تاريخ الأرض. والعظمة دائمًا تُحَبُّ، وتحاط من الناس بالإعجاب، ويلتف حولها المعجبون،

(١) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين (ص ٢١٩).

(٢) المصدر نفسه (ص ٢٢٠).

يلتصقون بها التصاقًا بدافع الإِعجاب والحب، ولكن رسول الله ﷺ يضيف إِلى عظمته تلك، أنه رسول الله، ملتقى الوحي من الله، ومبلغه إِلى الناس، وذلك بُعدٌ آخر له أثره في تكييف مشاعر ذلك المؤمن تجاهه، فهو لا يحبه لذاته فقط، كما يُحب العظماء من الناس، ولكن أيضًا لتلك النفحة الربانية التي تشمله من عبد الله، فهو معه في حضرة الوحي الإِلٰهي المكرم؛ ومن ثمَّ يلتقى في شخص الرسول ﷺ البشر العظيم والرسول العظيم، ثم يصبحان شيئًا واحدًا في النهاية، غير متميز البداية ولا النهاية. . حب عميق شامل للرسول البشر، أو للبشر الرسول، ويرتبط حب الله بحب رسوله، ويمتزجان في نفسه، فيصبحان في مشاعره هما نقطة ارتكاز المشاعر كلها، ومحور الحركة الشعورية والسلوكية كلها كذلك.

كان هذا الحب ـ الذي حرك الرعيل الأول من الصحابة ـ هو مفتاح التربية الإِسلامية ونقطة ارتكازها ومنطلقها الذي تنطلق منه(١).

سادسًا: المادة الدراسية في دار الأرقم:

كانت المادة الدراسية التي قام بتدريسها النبي ﷺ في دار الأرقم القرآن الكريم، فهو مصدر التلقي الوحيد، فقد حَرَص الحبيب المصطفى على توحيد مصدر التلقي وتفرده، وأن يكون القرآن الكريم وحده هو المنهج، والفكرة المركزية التي يتربى عليها الفرد المسلم، والأسرة المسلمة، والجماعة المسلمة، وكان روح القدس ينزل بالآيات غضة طرية على رسول الله ﷺ، فيسمعها الصحابة من فم رسول الله ﷺ مباشرة، فَتُسْكَب في قلوبهم، وتتسرب في أرواحهم، وتجري في عروقهم مجرى الدم، وكانت قلوبهم وأرواحهم تتفاعل مع القرآن وتنفعل به، فيتحول الواحد منهم إِلى إِنسان جديد، بقيمه ومشاعره، وأهدافه، وسلوكه وتطلعاته. لقد حرص الرسول ﷺ حرصًا شديدًا على أن يكون القرآن الكريم وحده هو المادة الدراسية، والمنهج الذي تتربى عليه نفوس أصحابه، وألا يختلط تعليمهم بشيء من غير القرآن(٢).

في دار الأرقم تعلموا أن القرآن وحده وتوجيهات الحبيب المصطفى هما الدستور الأعلى للدعوة، والحياة، والدولة، والحضارة. كان القرآن الكريم المادة الدراسية الوحيدة التي تلقاها تلاميذ مدرسة الأرقم على يد المربي الأعظم محمد ﷺ، فهو المصدر الوحيد للتلقي، وعليه تربى الجيل الفريد من هذه الأمة العظيمة، فهو كتاب هذه الأمة الحي، ورائدها الناصح، وهو مدرستها التي تتلقى فيها دروس حياتها.

لقد تلقى الرعيل الأول القـرآن الكريم بجـدية، ووعي، وحرص شديد على فهم توجيهاته، والعمل بها بدقة تامة، فكانوا يلتمسون من آياته ما يوجههم في كل شأن من شؤون

---

(١) انظر: منهج التربية الإِسلامية، محمد قطب (ص ٣٤، ٣٥).

(٢) انظر: دولة الرسول من التكوين إِلى التمكين (ص ٢٢٥).

حياتهم الواقعية، والمستقبلية.

فنشأ الرعيل الأول على توجيهات القرآن الكريم، وجاءوا صورة عملية لهذه التوجيهات الربانية، فالقرآن كان هو المدرسة الإلهية، التي تخرج فيها الدعاة والقادة الربانيون، ذلك الجيل الذي لم تعرف له البشرية مثيلاً، من قبل ومن بعد، لقد أنزل الله القرآن الكريم على قلب رسوله، لينشىء به أمة ويقيم به دولة، وينظم به مجتمعًا، وليربي به ضمائر، وأخلاقًا، وعقولاً، ويبني به عقيدة وتصورًا وأخلاقًا، ومشاعر، فخرّج الجماعة المسلمة الأولى التي تفوقت على سائر المجتمعات في جميع المجالات؛ العقدية، والروحية والخلقية، والاجتماعية، والسياسية، والحربية[(١)].

سابعًا: الأسباب في اختيار دار الأرقم:

كان اختيار دار الأرقم لعدة أسباب منها:

١ - أن الأرقم لم يكن معروفًا بإسلامه، فما كان يخطر ببال أحد أن يتم لقاء محمد ﷺ وأصحابه بداره.

٢ - أن الأرقم بن أبي الأرقم، رضي الله عنه، من بني مخزوم، وقبيلة بني مخزوم هي التي تحمل لواء التنافس والحرب ضد بني هاشم. فلو كان الأرقم معروفًا بإسلامه فلا يخطر في البال أن يكون اللقاء في داره؛ لأن هذا يعني أنه يتم في قلب صفوف العدو.

٣ - أن الأرقم بن أبي الأرقم كان فتى عند إسلامه؛ فلقد كان في حدود السادسة عشرة من عمره، ويوم تفكر قريش في البحث عن مركز التجمع الإسلامي، فلن يخطر في بالها أن تبحث في بيوت الفتيان الصغار من أصحاب محمد ﷺ؛ بل يتجه نظرها وبحثها إلى بيوت كبار أصحابه، أو بيته هو نفسه عليه الصلاة والسلام.

فقد يخطر على ذهنهم أن يكون مكان التجمع على الأغلب في أحد دور بني هاشم، أو في بيت أبي بكر رضي الله عنه أو غيره، ومن أجل هذا نجد أن اختيار هذا البيت كان في غاية الحكمة من الناحية الأمنية، ولم نسمع أبدًا أن قريشًا داهمت ذات يوم هذا المركز وكشفت مكان اللقاء[(٢)].

ثامنًا: من صفات الرعيل الأول:

الكل يعرف دوره المنوط به، والكل يدرك طبيعة الدعوة والمرحلة التي تمر بها، والكل ملتزم جانب الحيطة والحذر والسرية والانضباط التام[(٣)].

---

(١) انظر: دورة الرسول في التكوين إلى التمكين (ص ٣٣٥).

(٢) انظر: المنهاج الحركي للغضبان (١/ ٤٩).

(٣) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين (ص ٢٣٧).

كان بناء الجماعة المؤمنة في الفترة المكية يتم بكل هدوء وتدرج وسرية، وكان شعار هذه المرحلة هو توجيه المولى عز وجل المتمثل في قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

فالآية الكريمة تأمر النبي ﷺ بأن يصبر على تقصير وأخطاء المستجيبين لدعوته، وأن يصبر على كثرة تساؤلاتهم، خاصة إن كانت خاطئة، وأن يصبر على ترددهم في قبول التوجيهات، وأن يجتهد في تصبيرهم على فتنة أعداء الدعوة، وأن يوضح لهم طبيعة طريق الدعوة، وأنها شاقة، وأن لا يغرر به مغرر ليبعده عنهم، وأن لا يسمع فيهم منتقصًا، ولا يطيع فيهم متكبرًا، أغفل الله قلبه عن حقيقة الأمور وجوهرها[(١)].

إن الآيات الكريمة السابقة من سورة الكهف تصف لنا بعض صفات الجماعة المسلمة الأولى والتي من أهمها:

(أ) الصبر في قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾:

إن كلمة الصبر تتردد في القرآن الكريم وفي أحاديث النبي ﷺ، ويوصي الناس بها بعضهم بعضًا، وتبلغ أهميتها أن تصبح صفة من أربع، للفئة الناجية من الخسران.

قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ① إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ② إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [سورة العَصر] فحكم المولى ﷻ على جميع الناس بالخسران إلا من أتى بهذه الأمور الأربعة:

١ ـ الإيمان بالله.

٢ ـ العمل الصالح.

٣ ـ التواصي بالحق.

٤ ـ التواصي بالصبر.

لأن نجاة الإنسان لا تكون إلا إذا أكمل الإنسان نفسه بالإيمان، والعمل الصالح، وأكمل غيره بالنصح والإرشاد، فيكون قد جمع بين حق الله، وحق العباد، «والتواصي بالصبر، كذلك ضرورة، فالقيام على الإيمان والعمل الصالح، وحراسة الحق والعدل من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة، ولابد من الصبر. لا بد من الصبر على جهاد النفس، وجهاد الغير، والصبر على الأذى والمشقة، والصبر على تبجح الباطل، وتنفج الشر، والصبر على طول الطريق وبطء المراحل، وانطماس المعالم، وبعد النهاية»[(٢)].

---

(١) انظر: الطريق إلى جماعة المسلمين، حسين بن محسن (ص ١٧٠).

(٢) انظر: الظلال (٦/ ٣٩٦٨).

(ب) كثرة الدعاء والإلحاح على الله:

وهذا يظهر في قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾؛ فالدعاء باب عظيم، فإذا فتح للعبد تتابعت عليه الخيرات، وانهالت عليه البركات، فلا بد من تربية الأفراد الذين يعدون لحمل الرسالة، وأداء الأمانة، على حسن الصلة بالله، وكثرة الدعاء، لأن ذلك من أعظم وأقوى عوامل النصر(١).

(جـ) الإخلاص:

ويظهر في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ ولا بد عند إعداد الأفراد إعدادًا ربانيًا أن يتربى المسلم على أن تكون أقواله، وأعماله، وجهاده كله لوجه الله وابتغاء مرضاته، وحسن مثوبته من غير نظر إلى مغنم، أو جاه، أو لقب، أو تقدم، أو تأخر، وحتى يصبح جنديًا من أجل العقيدة، والمنهج الرباني، ولسان حاله قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: الآية ١٦٢] ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

إن الإخلاص ركن من أركان قبول العمل، ومعلوم أن العمل عند الله لا يقبل إلا بالإخلاص وتصحيح النية، وبموافقة السنّة والشرع.

(د) الثبات:

ويظهر في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: الآية ٢٨].

وهذا الثبات المذكور فرع عن ثبات أعم، ينبغي أن يتسم به الداعية الرباني، قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: الآية ٢٣].

ففي الآيات الكريمة ثلاث صفات، إيمان، ورجولة، وصدق. وهذه العناصر مهمة للثبات على المنهج الحق، لأن الإيمان يبعث على التمسك بالقيم الرفيعة والتشبث بها، ويبعث على التضحية بالنفس ليبقى المبدأ الرفيع. والرجولة محركة للنفس نحو هذا الهدف، غير مهتمة بالصغائر والصغار، وإنما دائمًا دافعة نحو الهدف الأسمى، والمبدأ الرفيع. والصدق يحول دون التحول أو التغيير أو التبديل، ومن ثم يورث هذا كله الثبات الذي لا يتلون معه الإنسان، وإن رأى شعاع السيف على رقبته، أو رأى حبل المشنقة ينتظره، أو رأى الدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها.

ولا شك أن اللبنات التي تعد لحمل الدعوة، وإقامة الدولة، وصناعة الحضارة تحتاج إلى

(١) انظر: فقه التمكين من القرآن الكريم (ص ٢٢١).

الثبات الذي يعين على تحقيق الأهداف السامية، والغايات الجميلة، والقيم الرفيعة[1].

هذه من أهم الصفات التي اتصفت بها الجماعة المؤمنة الأولى.

تاسعاً: انتشار الدعوة في بطون قريش، وعالميتها:

كان انتشار الإسلام في المرحلة السرية، في سائر فروع قريش بصورة متوازنة، دون أن يكون ثقل كبير لأي قبيلة، وهذه الظاهرة مخالفة لطبيعة الحياة القبلية آنذاك. وهي إذا أفقدت الإسلام الاستفادة الكاملة من التكوين القبلي، والعصبية لحماية الدعوة الجديدة، ونشرها، فإنها في الوقت نفسه لم تؤلب عليه العشائر الأخرى، بحجة أن الدعوة تحقق مصالح العشيرة التي انتمت إليها، وتعلي من قدرها على حساب العشائر الأخرى، ولعل هذا الانفتاح المتوازن على الجميع أعان في انتشار الإسلام في العشائر القرشية العديدة، دون تحفظات متصلة بالعصبية؛ فأبو بكر الصديق من «تَيْم»، وعثمان بن عفان من «بني أمية»، والزبير بن العوام من «بني أسد»، ومصعب بن عمير من «بني عبد الدار»، وعلي بن أبي طالب من «بني هاشم»، وعبد الرحمٰن بن عوف من «بني زُهرة»، وسعيد بن زيد من «بني عَدِيّ»، وعثمان بن مظعون من «بني جُمَح»؛ بل إن عددًا من المسلمين في هذه المرحلة لم يكونوا من قريش، فعبد الله بن مسعود من هُذَيل، وعتبة بن غزوان من مازن، وعبد الله بن قيس من الأشعريين، وعمار بن ياسر من عنس من مَذْحِج، وزيد بن حارثة والطفيل بن عمرو من دوس، وعمرو بن عبسة من سليم، وصهيب النمري من «بني النَّمر بن قاسط». لقد كان واضحًا أن الإسلام لم يكن خاصًّا بمكة[2].

لقد شق النبي ﷺ طريقه بكل تخطيط ودقة، وأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى، فاهتم بالتربية العميقة، والتكوين الدقيق، والتعليم الواسع، والاحتياط الأمني، والانسياب الطبيعي في المجتمع، والإعداد الشامل للمرحلة التي بعد السرية؛ لأنه عليه الصلاة والسلام يعلم أن الدعوة إلى الله لم تنزل لتكون دعوة سرية، يخاطب بها الفرد بعد الفرد، بل نزلت لإقامة الحجة على العالمين، وإنقاذ من شاء الله إنقاذه من الناس، من ظلمات الشرك والجاهلية، إلى نور الإسلام والتوحيد، ولذلك كشف الله تعالى عن حقيقة هذه الدعوة وميدانها، منذ خطواتها الأولى، حيث إن القرآن المكي بيّن شمول الدعوة وعالميتها:

قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [القَلَم: الآية ٥٢].

---

(١) انظر: دعوة الله بين التكوين والتمكين، د. علي جريشة (ص ٩١، ٩٢).

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ١٣٣).

إن الدعوة جاءت لتخاطب البشر، كل البشر، ولتنقذ منهم من سبقت له من الله الحسنى. وهذا يعني أن الدعوة جاءت ومن خصائصها: الإعلان والصدع، والبلاغ، والبيان والإنذار، وتَحَمُّل ما يترتب على هذا من التكذيب، والإيذاء والقتل.

إن استسرار النبي ﷺ في دعوته أول الأمر، إنما هو حال استثنائي لظروف وملابسات خاصة، وهي ظروف بداية الدعوة، وضعفها، وغربتها، وينبغي أن يفهم هذا ضمن هذا الإطار.

وإن كان الكتمان والاستسرار، سياسة مصلحية في كثير من أمور الإسلام، في الحرب والسلام، فهو كذلك في موضوع الدعوة، فالاستسرار بها كان لضرورة فرضها الواقع، وإلا فالأصل هو بيان دين الله وشرعه، وحكمه لكل الناس، أما الاستسرار بما سوى ذلك من الوسائل، والخطط، والتفصيلات فهو أمر مصلحي، خاضع للنظر والاجتهاد البشري؛ إذ لا يترتب عليه كتمان للدين، ولا سكوت عن حق، ولا يتعلق به بيان، ولا بلاغ، ومن ذلك - مثلاً - معرفة عدد الأتباع المؤمنين بالدعوة، فهذا أمر مصلحي لا يخل بقضية البلاغ والنذارة، التي نزلت الكتب وبعثت الرسل من أجلها، فيمكن أن يظل سرًّا متى كانت المصلحة في ذلك، مع القيام بأمر الدعوة والتبليغ، ولهذا فإن النبي ﷺ حتى بعد أن صدع بدعوته، وأنذر الناس، وأعلن النبوة، ظل يخفي أشياء كثيرة، لا تؤثر على مهمة البلاغ والبيان، كعدد أتباعه، وأين يجتمع بهم، وماهي الخطط التي يتخذونها إزاء الكيد الجاهلي[(١)].

المبحث الثالث

البناء العقدي في العهد المكي

أولاً: فقه النبي ﷺ في التعامل مع السنن:

إن بناء الدول وتربية الأمم، والنهوض بها، يخضع لقوانين وسنن ونواميس، تتحكم في مسيرة الأفراد والشعوب، والأمم والدول، وعند التأمل في سيرة الحبيب المصطفى ﷺ، نراه قد تعامل مع السنن والقوانين، بحكمة وقدرة فائقة.

إن السنن الربانية هي أحكام الله تعالى الثابتة في الكون، وعلى الإنسان، في كل زمان ومكان، وهي كثيرة جدًّا، والذي يهمنا منها في هذا الكتاب ما يتعلق بحركة النهوض تعلقًا وثيقًا.

إن المتدبر لآيات القرآن الكريم يجدها حافلة بالحديث من سنن الله تعالى، التي لا تتبدل ولا تتغير، ويجد عناية ملحوظة بإبراز تلك السنن، وتوجيه النظر إليها، واستخراج العبرة منها،

---

(١) انظر: الغرباء الأولون (ص ١٢٤ـ ١٢٦).

والعمل بمقتضياتها، لتكوين المجتمع المسلم، المستقيم على أمر الله. والقرآن الكريم حينما يوجه أنظار المسلمين إلى سنن الله تعالى في الأرض، فهو بذلك يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها، فهم ليسوا بدعًا في الحياة؛ فالنواميس التي تحكم الكون والشعوب، والأمم والدول، والأفراد، جارية لا تتخلف، والأمور لا تمضي جزافًا، والحياة لا تجري في الأرض عبثًا؛ وإنما تتبع هذه النواميس؛ فإذا درس المسلمون هذه السنن، وأدركوا مغازيها؛ تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، أو إلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام، واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين، لينالوا النصر والتمكين، بدون الأخذ بالأسباب المؤدية إليه[(١)].

والسنن التي تحكم الحياة واحدة؛ فما وقع منها من زمان مضى، سيقع في كل زمان[(٢)].

والمسلمون أولى أن يدركوا سنن ربهم المبرزة لهم في كتاب الله، وفي سنة رسوله ﷺ، حتى يصلوا إلى ما يرجون من عزة وتمكين، «فإن التمكين لا يأتي عفوًا ولا ينزل اعتباطًا، ولا يخبط عشواء، بل إنه له قوانينه التي سجلها الله تعالى في كتابه الكريم؛ ليعرفها عباده المؤمنون، ويتعاملوا معها على بصيرة»[(٣)].

«إن أول شروط التعامل المنهجي السليم مع السنن الإلهية، والقوانين الكونية في الأفراد، والمجتمعات، والأمم، هو أن نفهم، بل نفقه فقهًا شاملاً رشيدًا هذه السنن، وكيف تعمل ضمن الناموس الإلهي، أو ما نعبر عنه بـ «فقه السنن»، ونستنبط منها على ضوء فقهنا لها القوانين الاجتماعية، والمعادلات الحضارية[(٤)].

يقول الأستاذ البنا في منهجية التعامل مع السنن:

«ولا تصادموا نواميس الكون فإنها غلابة، ولكن غالبوها، واستخدموها، وحوّلوا تيارها، واستعينوا ببعضها على بعض، وترقبوا ساعة النصر وماهي منكم ببعيد»[(٥)].

ونلاحظ عدة أمور مهمة:

١ ـ عدم المصادمة.

٢ ـ المغالبة.

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (١/ ٤٧٨).

(٢) انظر: في ظلال القرآن (١/ ٤٧٨).

(٣) انظر: جيل النصر المنشود للقرضاوي (ص ١٥).

(٤) انظر: المشروع الإسلامي لنهضة الأمة ـ قراءة في فكر الإمام البنا (ص ٥٨).

(٥) انظر: رسالة المؤتمر الخامس (ص ١٢٧).

٣ ـ الاستخدام.

٤ ـ التحويل.

٥ ـ الاستعانة ببعضها على بعض.

٦ ـ ترقب ساعة النصر[(١)].

إن ما وصل إليه الأستاذ البنا يدل على دراسته العميقة للسيرة النبوية، والتاريخ الإسلامي، وتجارب الشعوب، والأمم، ومعرفة صحيحة للواقع الذي يعيشه، وتوصيف سليم للداء والدواء.

إن حركة الإسلام الأولى التي قادها النبي ﷺ، في تنظيم جهود الدعوة، وإقامة الدولة، وصناعة الإنسان النموذجي الرباني الحضاري، خضعت لسنن وقوانين قد ذكرت بعضها بنوع من الإيجاز، كأهمية القيادة في صناعة الحضارات، وأهمية الجماعة المؤمنة المنظمة في مقاومة الباطل، وأهمية المنهج الذي تستمد منه العقائد، والأخلاق، والعبادات، والقيم والتصورات. ومن سنن الله الواضحة فيما ذكر سنة التدرج، وهي من سنن الله تعالى في خلقه وكونه، وهي من السنن الهامة التي يجب على الأمة أن تراعيها، وهي تعمل للنهوض والتمكين لدين الله.

ومنطلق هذه السنة أن الطريق طويل، لا سيما في هذا العصر الذي سيطرت فيه الجاهلية، وأخذت أهبتها واستعدادها، كما أن الشر والفساد قد تَجَذَّر في الشعوب، واستئصاله يحتاج إلى تدرج.

فقد بدأت الدعوة الإسلامية الأولى متدرجة، تسير بالناس سيرًا دقيقًا، حيث بدأت بمرحلة الاصطفاء والتأسيس، ثم مرحلة المواجهة والمقاومة، ثم مرحلة النصر والتمكين، وما كان يمكن أن تبدأ هذه جميعها في وقت واحد، وإلا كانت المشقة والعجز، وما كان يمكن كذلك أن يقدم واحد منها على الأخرى، وإلا كان الخلل والإرباك[(٢)].

واعتبار هذه السنة في غاية الأهمية «ذلك أن بعض العاملين في حقل الدعوة الإسلامية، يحسون أن التمكين يمكن أن يتحقق بين عشية وضحاها، ويريدون أن يغيروا الواقع الذي تحياه الأمة الإسلامية في طرفة عين، دون النظر في العواقب، ودون فهم للظروف، والملابسات المحيطة بهذا الواقع، ودون إعداد جيد للمقدمات، أو للأساليب والوسائل»[(٣)].

«إننا إذا درسنا القرآن الكريم والسنة المطهرة دراسة عميقة علمنا كيف، وبأي تدرج

---

(١) انظر: المشروع الإسلامي لنهضة الأمة (ص ٥٨).

(٢) انظر: التمكين للأمة الإسلامية (ص ٢٢٧).

(٣) انظر: آفات على الطريق (١/ ٥٧) وما بعدها.

وانسجام، تم التغيير الإسلامي في بلاد العرب، ومنها إلى العالم كله على يد النبي ﷺ... فلقد كانت الأمور تسير رويدًا رويدًا، حسب مجراها الطبيعي حتى تستقر في مستقرها الذي أراده الله رب العالمين...»[(١)].

«وهذه السنة الربانية في رعاية التدرج، ينبغي أن تتبع في سياسة الناس، وعندما يراد تطبيق الإسلام في الحياة، واستئناف حياة إسلامية متكاملة، يكون التمكين ثمرتها، فإذا أردنا أن نقيم مجتمعًا إسلاميًا حقيقيًا، فلا نتوهم أن ذلك يمكن أن يتحقق بقرار يصدر من رئيس، أو ملك، أو من مجلس قيادي، أو برلماني.. إنما يتحقق ذلك بطريق التدرج، أي بالإعداد، والتهيئة الفكرية، والنفسية، والاجتماعية.

وهو المنهج نفسه الذي سلكه النبي ﷺ لتغيير الحياة الجاهلية إلى الحياة الإسلامية، فقد ظل ثلاثة عشر عامًا في مكة، كانت مهمته الأساسية فيها تنحصر في تربية الجيل المؤمن، الذي يستطيع أن يحمل عبء الدعوة، وتكاليف الجهاد لحمايتها، ونشرها في الآفاق.. ولهذا لم تكن المرحلة المكية مرحلة تشريع بقدر ما كانت مرحلة تربية وتكوين»[(٢)].

ثانيًا: سنة التغيير وعلاقتها بالبناء العقدي:

من السنن الهامة على طريق النهوض: السنة التي يقررها قول الله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: الآية ١١] وارتباط هذه السنة الربانية بالتمكين للأمة الإسلامية واضح غاية الوضح، ذلك أن التمكين لا يمكن أن يتأتى في ظل الوضع الحالي للأمة الإسلامية، فلا بد من التغيير، كما أن التمكين لن يتحقق لأمة ارتضت لنفسها حياة المذلة، والتخلف، ولم تحاول أن تغير ما حل بها من واقع، وأن تتحرر من أسره[(٣)].

إن التغيير الذي قاده النبي ﷺ بمنهج الله تعالى بدأ بالنفس البشرية، وصنع منها الرجال العظماء، ثم انطلق بهم ليحدث أعظم تغيير في شكل المجتمع، حيث نقل الناس من الظلمات إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، ومن التخلف إلى التقدم، وأنشأ بهم أروع حضارة عرفتها الحياة[(٤)].

لقد قام النبي ﷺ ـ بمنهجه القرآني ـ بتغيير في العقائد والأفكار والتصور، وعالم المشاعر والأخلاق في نفوس أصحابه، فتغير ماحوله في دنيا الناس، فتغيرت المدينة، ثم مكة، ثم

---

(١) انظر: التمكين للأمة الإسلامية ـ نقلاً عن المودودي (ص ٢٢٩).

(٢) انظر: الخصائص العامة للإسلام (ص ١٦٨) بتصرف يسير.

(٣) انظر: التمكين للأمة الإسلامية (ص ٢١٠).

(٤) انظر: نفوس ودروس في إطار التصوير القرآني، لتوفيق محمد سبع (ص ٣٦٧).

الجزيرة، ثم بلاد فارس والروم، في حركة عالمية، تسبح وتذكر خالقها بالغدو والآصال.

كان اهتمام المنهج القرآني في العهد المكي بجانب العقيدة، فكان يعرضها بشتى الأساليب، فغمرت قلوبهم معاني الإيمان، وحدث لهم تحول عظيم، قال تعالى موضحًا ذلك الارتقاء العظيم: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٢].

ثالثًا: تصحيح الجانب العقدي لدى الصحابة:

كان تصور الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لله قبل البعثة تصورًا فيه قصور ونقص، فهم ينحرفون عن الحق في أسمائه وصفاته: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٨٠]، فجاء القرآن الكريم لترسيخ العقيدة الصحيحة، وتثبيتها في قلوب المؤمنين، وإيضاحها للناس أجمعين، وذلك ببيان توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، والإيمان بكل ما أخبر الله به من الملائكة، والكتاب، والنبيين، والقدر، خيره وشره، واليوم الآخر، وإثبات الرسالة للرسلت، والإيمان بكل ما أخبروا به(١).

وتربى الرعيل الأول رضوان الله عليهم، على فهم صفات الله وأسمائه الحسنى، وعبدوه بمقتضاها، فَعَظُمَ الله في نفوسهم، وأصبح رضاه سبحانه غاية مقصدهم وسعيهم، واستشعروا مراقبته لهم في كل الأوقات(٢).

إن التربية النبوية الرشيدة للأفراد على التوحيد، هي الأساس الذي قام عليه البناء الإسلامي، وهي المنهجية الصحيحة التي سار عليها الأنبياء والمرسلون من قبل.

وقد آتت تربية الرسول ﷺ لأصحابه ثمارها المباركة، فتطهر الصحابة في الجملة مما يضاد توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، فلم يحتكموا إلا إلى الله وحده، ولم يطيعوا غير الله، ولم يتبعوا أحدًا على غير مرضاة الله، ولم يحبوا غير الله كحب الله، ولم يخشوا إلا الله، ولم يتوكلوا إلا على الله، ولم يلتجئوا إلا إلى الله، ولم يدعوا دعاء المسألة والمغفرة إلا الله وحده، ولم يذبحوا إلا الله، ولم ينذروا إلا الله، ولم يستغيثوا إلا بالله، ولم يستعينوا ـ فيما لا يقدر عليه إلا الله ـ إلا بالله وحده، ولم يركعوا أو يسجدوا، أو يحجوا أو يطوفوا أو يتعبدوا إلا لله وحده، ولم يشبهوا الله لا بالمخلوقات ولا بالمعدومات بل نزهوه غاية التنزيه(٣).

وكما رسَّخ القرآن المكي في قلوب الصحابة رضي الله عنهم العقيدة الصحيحة، حول التوحيد

---

(١) انظر: أهمية الجهاد في نشر الدعوة، علي العلياني (ص ٤٧).

(٢) المصدر نفسه (ص ٥٣).

(٣) انظر: أهمية الجهاد في نشر الدعوة (ص ٥٤، ٥٥).

بأنواعه، وحول الرسول ﷺ والرسالة، صحح عقيدتهم حول سائر أركان الإيمان الأخرى.

رابعًا: وصف الجنة في القرآن الكريم وأثره على الصحابة:

ركز القرآن المكي على اليوم الآخر، غاية التركيز، فَقَلَّ أن توجد سورة مكية لم يذكر فيها بعض أحوال يوم القيامة، وأحوال المنعَّمين، وأحوال المعذَّبين، وكيفية حشر الناس ومحاسبتهم، حتى لكأن الإنسان يرى يوم القيامة رأي العين.

١ ـ الجنة لا مثيل لها:

وقد جاءت الآيات الكريمة مبينة وواصفة للجنة، بما لا يمكن أن يكون له مثيل في الكون، فأثر ذلك في نفوس الصحابة أيما تأثير.

إن نعيم الجنة شيء أعده الله لعباده المتقين، نابع من كرم الله وجوده وفضله، ووصف لنا المولى ﷻ شيئًا من نعيمها، إلا أن ما أخفاه الله عنا من نعيم شيء عظيم لا تدركه العقول، ولا تصل إلى كنهه الأفكار، قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦ ـ ١٧].

٢ ـ أفضل ما يعطاه أهل الجنة:

قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنةَ، يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدُكم؟ فيقولون: ألم تُبيِّض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتُنْجنا من النار؟ قال: «فيُرْفَع الحجاب، فينظرون إلى وجه الله، فما أُعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى»، وجاء في رواية أخرى: ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: الآية ٢٦] (١).

إن التصور البديع للجنان، والاعتقاد الجازم بها، مهم في نهضة أمتنا، فعندما تحيا صورة الجنان في نفوس أفراد الأمة، يندفعون لمرضاة الله تعالى، ويقدمون الغالي والنفيس ويتخلصون من الوهن وكراهة الموت، وتتفجر في نفوسهم طاقات هائلة تمدهم بعزيمة وإصرار، ومثابرة على إعزاز دين الله.

خامسًا: وصف النار في القرآن الكريم وأثره في نفوس الصحابة:

كان الصحابة يخافون الله تعالى، ويخشونه ويرجونه، وكان لتربية الرسول ﷺ أثر في نفوسهم عظيم، وكان المنهج القرآني الذي سار عليه رسول الله ﷺ يفعل الأفاعيل في نفوس الصحابة، لأن القرآن الكريم وصف أهوال يوم القيامة ومعالمها، من قبض الأرض ودكها،

---

(١) مشكاة المصابيح للبغوي (٣/ ٨٨ ورقمه ٥٦٥٦)، رواه مسلم.

وطي السماء، ونسف الجبال، وتفجير البحار وتسجيرها، وموران السماء وانفطارها، وتكوير الشمس، وخسوف القمر، وتناثر النجوم. وصَوَّر القرآن الكريم حال الكفار، وذلتهم وهوانهم، وحسرتهم ويأسهم، وإحباط أعمالهم، وتحدث القرآن الكريم عن حشر الكفار إلى النار، ومرور المؤمنين على الصراط، وخلاص المؤمنين من المنافقين[1]، وكان لهذا الحديث أثره العظيم في نفوس الصحابة، وَصَوَّر القرآن الكريم ألوان العذاب في النار، فأصبح الرعيل الأول يراها رأي العين.

سادسًا: مفهوم القضاء والقدر، وأثره في تربية الصحابة ﵃:

اهتم القرآن الكريم في الفترة المكية بقضية القضاء والقدر، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القَمَر: الآية ٤٩].

وكان ﷺ يغرس في نفوس الصحابة مفهوم القضاء والقدر.

فكان للفهم الصحيح والاعتقاد الراسخ في قلوب الصحابة لحقيقة القضاء والقدر ثمار نافعة ومفيدة، عادت عليهم بخيرات الدنيا والآخرة، فمن تلك الثمرات:

١ - أداء عبادة الله ﷻ.

٢ - الإيمان بالقدر طريق الخلاص من الشرك، لأن المؤمن يعتقد أن النافع والضار، والمعز والمذل، والرافع والخافض هو الله وحده سبحانه وتعالى.

٣ - الشجاعة والإقدام: فإيمانهم بالقضاء والقدر جعلهم يوقنون أن الآجال بيد الله تعالى، وأن لكل نفس كتاباً.

٤ - الصبر والاحتساب ومواجهة الصعاب.

٥ - سكون القلب وطمأنينة النفس وراحة البال.

٦ - عزة النفس والقناعة والتحرر من رق المخلوقين.

إن ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر كثيرة وهذه من باب الإشارة.

ولم تقتصر تربية الرسول ﷺ لأصحابه على تعليمهم أركان الإيمان الستة المتقدمة، بل صحح عندهم كثيرًا من المفاهيم والتصورات، والاعتقادات من الإنسان والحياة والكون، والعلاقة بينهما، ليسير المسلم على نور من الله، يدرك هدف وجوده في الحياة، ويحقق ما أراد الله منه غاية التحقيق، ويتحرر من الوهم والخرافات[2].

---

(١) انظر: الوسطية في القرآن الكريم (ص ٤٠٢).

(٢) انظر: أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية (ص ٥٩).

سابعًا: معرفة الصحابة لحقيقة الإنسان:

إن القرآن الكريم عرّف الإنسان بنفسه، بعد أن عرفه بربه، وباليوم الآخر، ويجيب عن تساؤلات الفطرة: من أين؟ وإلى أين؟ وهي تساؤلات تفرض نفسها على كل إنسان سَويّ، وتلح في طلب الجواب(١).

وبيّن القرآن الكريم للصحابة الكرام حقيقة نشأة الإنسانية، وأصولهم التي يرجعون إليها، وماهو المطلوب منهم في هذه الحياة؟ وماهو مصيرهم بعد الموت؟

ثامنًا: تصور الصحابة لقصة الشيطان مع آدم عليه السلام:

كان رسول الله ﷺ من خلال المنهج القرآني، يحدثهم عن قصة الشيطان مع آدم، ويشرح لهم حقيقة الصراع بين الإنسان مع عدوه اللدود، الذي حاول إغواء أبيهم آدم عليه السلام، من خلال الآيات الكريمة، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٧].

كانت الآيات الكريمة التي تحدثت عن قصة آدم وصراعه مع الشيطان قد علّمت الرعيل الأول قضايا مهمة في مجال التصور والاعتقاد والأخلاق منها:

١ ـ أن آدم هو أصل البشر.
٢ ـ جوهر الإسلام الطاعة المطلقة لله.
٣ ـ قابلية الإنسان للوقوع في الخطيئة.
٤ ـ خطيئة آدم تعلم المسلم ضرورة التوكل على ربه.
٥ ـ ضرورة التوبة والاستغفار.
٦ ـ الاحتراز من الحسد والكبر.
٧ ـ إبليس هو العدو لآدم وزوجه وذريتهما.
٨ ـ التخاطب بأحسن الكلام بين الصحابة الكرام.

من الوسائل التي استخدمها الصحابة الكرام لمحاربة الشيطان امتثالهم قول الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾ [الإسراء: ٥٣].

هذه صورة موجزة عن حقيقة إبليس وتصور الصحابة رضي الله عنهم لهذا العدو اللعين.

تاسعًا: نظرة الصحابة إلى الكون والحياة وبعض المخلوقات:

ظل رسول الله ﷺ يعلم الصحابة كتاب الله تعالى، ويربيهم على التصور الصحيح في

(١) انظر: منهج التربية الإسلامية، محمد قطب (٢/ ٥٤).

قضايا العقائد، والنظر السليم للكون والحياة، من خلال الآيات القرآنية الكريمة، فبيّن لهم بدء الكون ومصيره.

وقرر القرآن الكريم حقائق عن الحيوان، لا تقل في الأهمية والدقة عن الحقائق التي قررها في كل جوانب الكون والحياة.

وهكذا نَظَّم القرآن الكريم أفكار وتصورات الرعيل الأول عن الكون، ومافيه من مخلوقات وعجائب، وعن حقيقة هذه الحياة الفانية، واستمر النبي ﷺ في غرس حقيقة المصير، وسبيل النجاة في نفوس أصحابه، موقنًا أن من عرف منهم عاقبته وسبيل النجاة والفوز، سيسعى بكل ما أوتي من قوة ووسيلة لسلوك السبيل حتى يظفر غدًا بهذه النجاة وذلك الفوز، وركز ﷺ في هذا البيان على جانب مهم هو:

أن هذه الحياة الدنيا مهما طالت فهي إلى زوال، وأن متاعها مهما عظم، فإنه قليل حقير.

إن كثيرًا من العاملين في مجال الدعوة؛ بهتت في نفوسهم حقيقة أن الدنيا لهو ولعب وغرور، لأنهم انغمسوا في هذه الحياة الدنيا ومتاعها، وشغفتهم حبًّا، فهم يلهثون وراءها، وكلما حصل على شيء من متاعها طلب المزيد، فهو لا يشبع ولا يقنع، بسبب التصاقه بالدنيا، وإنها لكارثة عظيمة على الدعوة والنهوض بالأمة، أما التمتع بهذه الحياة في حدود ما رسمه الشرع، واتخاذها مطية للآخرة، فذلك فعل محمود.

المبحث الرابع

البناء التعبدي والأخلاقي في العهد المكي

أولاً: تزكية أرواح الرعيل الأول بأنواع العبادات:

رَبَّى رسول الله ﷺ أصحابه على تزكية أرواحهم، وأرشدهم إلى الطريق التي تساعدهم على تحقيق ذلك المطلب، من خلال القرآن الكريم، ومن أهمها:

١ ـ التدبر في كون الله ومخلوقاته، وفي كتاب الله تعالى.

٢ ـ التأمل في علم الله الشامل، وإحاطته الكاملة بكل مافي الكون، بل ما في عالم الغيب والشهادة.

٣ ـ عبادة الله ﷻ، من أعظم الوسائل لتربية الروح وأجلها قدرًا، إذ العبادة غاية التذلل لله سبحانه، ولا يستحقها إلا الله وحده.

والعبادات التي تسمو بالروح وتطهر النفس نوعان:

أ ـ **النوع الأول**: العبادات المفروضة كالطهارة، والصلاة، والصيام، والزكاة، والحج وغيرها.

ب ـ **النوع الثاني**: العبادات بمعناها الواسع، ويشمل كل شيء يُنْتَوى به التقرب إلى الله سبحانه وتعالى فهو عبادة يثاب صاحبها، وتربي روحه تربية حسنة[١].

إن تزكية الروح بالصلاة، وتلاوة القرآن، وذكر الله تعالى، والتسبيح له سبحانه أمر مهم في الإسلام، فإن النفس البشرية إذا لم تتطهر من أدرانها وتتصل بخالقها لا تقوم بالتكاليف الشرعية الملقاة عليها، والعبادة والمداومة عليها تعطي الروح وقودًا وزادًا ودفعًا قويًّا إلى القيام بما تؤمر به.

إن الصلاة تأتي في مقدمة العبادات التي لها أثر عظيم في تزكية روح المسلم، ولعل من أبرز آثارها التي أصابت الرعيل الأول:

١ ـ **الاستجابة لأمر الله تعالى وإظهار العبودية له سبحانه**: وقد أثنى الله تعالى على عباده المؤمنين الذين استجابوا لأمره، فقالﷻ: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: الآية ٣٨].

وكان الرعيل الأول يرى أن لكل عمل من أعمال الصلاة عبودية خاصة، وتأثيرًا في النفس وتزكية للروح.

٢ ـ **مناجاة العبد لربه**: وقد بيّن رسول الله ﷺ مشهدًا من مشاهد هذه المناجاة، قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: حَمِدني عبدي.

وإذا قال: الرحمٰن الرحيم، قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي.

وإذا قال: مالك يوم الدين: قال مجّدني عبدي.

فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل.

فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»[٢].

٣ ـ **طمأنينة النفس وراحتها**: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى[٣]، وقد جُعلت قرة عينه في الصلاة[٤]، وقد علّم الرسول ﷺ الصحابة كيف تصبح الصلاة سلاحًا مهمًّا لحلّ همومهم ومشاكلهم.

---

(١) فقه الدعوة، د. علي عبد الحليم محمود (١/ ٤٧١، ٤٧٢).

(٢) مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (رقم ٣٩٥).

(٣) أبو داود في الصلاة (رقم ١٣١٩).

(٤) الحاكم (٢/ ١٦٠) وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

٤ ـ **الصلاة حاجز عن المعاصي**: قال تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العَنكبوت: الآية ٤٥].

كان الصحابة رضي الله عنهم عندما يؤدون صلاتهم تستريح بها نفوسهم، وتمدهم بقوة دافعة لفعل الخيرات، والابتعاد عن المنكرات، فكانت لهم سياجًا منيعًا حماهم من الوقوع في المعاصي(١).

ثانيًا: التربية العقلية:

كانت تربية النبي ﷺ لأصحابه شاملة، لأنها مستمدة من القرآن الكريم، الذي خاطب الإنسان، ككل يتكون من الروح، والجسد، والعقل. فقد اهتمت التربية النبوية بتربية الصحابي على تنمية قدرته في النظر، والتأمل والتفكر والتدبر، لأن ذلك هو الذي يؤهله لحمل أعباء الدعوة إلى الله، وهذا مطلب قرآني.

ولذلك وضع القرآن الكريم منهجًا، لتربية العقل، سار عليه رسول الله ﷺ لتربية أصحابه ومن أهم نقاط هذا المنهج.

١ ـ تجريد العقل من المسلّمات المبنية على الظن والتخمين، أو التبعية والتقليد.

٢ ـ إلزام العقل بالتحري والتثبت.

٣ ـ دعوة العقل إلى التدبر والتأمل في نواميس الكون.

٤ ـ دعوة العقل إلى التأمل في حكمة ما شرع الله.

٥ ـ دعوة العقل إلى النظر إلى سنة الله في الناس عبر التاريخ البشري، ليتعظ الناظر في تاريخ الآباء، والأجداد والأسلاف، ويتأمل في سنن الله في الأمم والشعوب والدول.

ثالثًا: التربية الجسدية:

حَرَص النبي ﷺ على تربية أصحابه جسديًا، واستمد أصول تلك التربية من القرآن الكريم، بحيث يؤدي الجسم وظيفته التي خلق لها، من دون إسراف أو تقتير، ودون محاباة لطاقة من طاقاته على حساب طاقة أخرى.

ولذلك ضبط القرآن الكريم حاجات الجسم البشري على النحو التالي:

١ ـ ضبط حاجته إلى الطعام والشراب.

٢ ـ وضبط حاجته إلى الملبس، بأن أوجب من اللباس ما يستر العورة، ويحفظ الجسم من

---

(١) انظر: منهج الإسلام في تزكية النفس (١/ ٢٢٧).

عاديات الحر والبرد، وندب إِلى ما يكون زينة عند الذهاب إِلى المسجد.

٣ - وضبط الحاجة إِلى المأوى.

٤ - وضبط حاجته إِلى الزواج والأسرة بإِباحة النكاح، بل إِيجابه في بعض الأحيان، وتحريم الزنا، والمخادنة، واللواط.

٥ - وضبط حاجته إِلى التملك والسيادة، وأباح التملك للمال والعقار، وَفْق ضوابط شرعية.

٦ - وضبط الإِسلام السيادة بتحريم الظلم، والعدوان والبغي.

٧ - وضبط حاجته إِلى العمل والنجاح؛ بأن جعل من اللازم أن يكون العمل مشروعًا، وغير ضار بأحد من الناس، ونادى على المسلمين أن يعملوا في هذه الدنيا ما يكفل لهم القيام بعبء الدعوة والدين، وما يدخرون عند الله سبحانه.

٨ - وحذر سبحانه من الدعة والبطر، والاغترار بالنعمة.

هذه بعض الأسس التي قامت عليها التربية النبوية للأجسام، حتى تستطيع أن تتحمل أثقال الجهاد، وهموم الدعوة، وصعوبة الحياة.

رابعًا: تربية الصحابة على مكارم الأخلاق، وتنقيتهم من الرذائل:

إِن الأخلاق الرفيعة جزء مهم من العقيدة، فالعقيدة الصحيحة لا تكون بغير خلق، وقد ربى رسول الله ﷺ صحابته على مكارم الأخلاق، بأساليب متنوعة.

فعن النبي ﷺ قال: «ما شيءٌ أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن وإِن الله تعالى ليُبْغِض الفاحش البذيء»(١).

وسئل رسول الله عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: «تقوى الله، وحسن الخلق» وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: «الفم والفرج»(٢).

إِن الأخلاق ليست شيئًا ثانويًا في هذا الدين، وليست محصورة في نطاق معين من نطاقات السلوك البشري، إِنما هي الترجمة العملية للاعتقاد والإِيمان الصحيح، لأن الإِيمان ليس مشاعر مكنونة في داخل الضمير فحسب؛ إِنما هو عمل سلوكي ظاهر كذلك، بحيث يحق لنا حين لا نرى ذلك السلوك العملي، أو حين نرى عكسه، أن نتساءل أين الإِيمان إِذن؟ وما قيمته إِذا لم يتحول إِلى سلوك(٣)؟

---

(١) الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق (رقم ٢٠٠٢)، «حسن صحيح».

(٢) الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق (رقم ٢٠٠٤)، «صحيح غريب».

(٣) انظر: دراسات قرآنية، لمحمد قطب (ص ١٣٠).

ولذلك نجد القرآن الكريم يربط الأخلاق بالعقيدة ربطًا قويًا، والأمثلة على ذلك كثيرة[١].

لقد تربى الصحابة ﷺ على أن العبادة نوع من الأخلاق؛ لأنها من باب الوفاء لله، والشكر للنعمة، والاعتراف بالجميل، والتوقير لمن هو أهل التوقير والتعظيم، وكلها من مكارم الأخلاق[٢]، فكانت أخلاق الصحابة ربانية، باعثها الإيمان بالله، وحاديها الرجاء في الآخرة، وغرضها رضوان الله ومثوبته.

إن الأخلاق في التربية النبوية شيء شامل، يعم كل تصرفات الإنسان، وكل أحاسيسه ومشاعره وتفكيره، فالصلاة لها أخلاق هي الخشوع، والكلام له أخلاق هي الإعراض عن اللغو، والجنس له أخلاق، هي الالتزام بحدود الله وحرماته، والتعامل مع الآخرين له أخلاق، هي التوسط بين التقتير والإسراف، والحياة الجماعية لها أخلاق، هي أن يكون الأمر شورى بين الناس، والغضب له أخلاق هي العفو والصفح، ووقوع العدوان من الأعداء تستتبعه أخلاق، هي الانتصار، أي رد العدوان، وهكذا لا يوجد شيء واحد في حياة المسلم ليست له أخلاق تُكَيِّفه، ولا شيء واحد ليست له دلالة أخلاقية مصاحبة.

إن الله سبحانه وتعالى، قد جعل التوحيد ـ أي: إفراد الله بالعبادة ـ على رأس هذا المنهج الخُلقي الذي رسمته آيات سورة (الإسراء: ٢٣ ـ ٣٨) مدحًا وذمًّا، لأن التوحيد له في الحقيقة جانب أخلاقي أصيل، إذ الاستجابة إلى ذلك ترجع إلى خلق العدل والإنصاف، والصدق مع النفس، كما أن الإعراض عن ذلك يرجع في الحقيقة إلى بؤرة سوء الأخلاق في المقام الأول، مثل الكبر عن قبول الحق، والاستكبار عن اتباع الرسل غرورًا وأنفة، أو الولوع بالمراء، والجدل بالباطل مغالبة وتطلعًا للظهور، أو تقليدًا وجمودًا على الإلف والعرف، مع ضلالة وبهتانه، وكلها ـ وأمثالها ـ أخلاق سوء تهلك أصحابها، وتصدهم عن الحق بعدما تبين، وعن سعادة الدارين مع استيقان أنفسهم بأن طريق الرسل هو السبيل إليها.

خامسًا: تربية الصحابة على مكارم الأخلاق من خلال القصص القرآني:

إن القصص القرآني غني بالمواعظ والحكم، والأصول العقدية، والتوجيهات الأخلاقية، والأساليب التربوية، والاعتبار بالأمم والشعوب، والقصص القرآني ليس أمورًا تاريخية، لا تفيد إلا المؤرخين، وإنما هي أعلى وأشرف وأفضل من ذلك، فالقصص القرآني مملوء بالتوحيد، والعلم، ومكارم الأخلاق، والحجج العقلية، والتبصرة والتذكرة، والمحاورات العجيبة.

وأضرب لك مثلاً من قصة يوسف عليه السلام، متأملاً في جانب الأخلاق التي عرضت في

---

(١) انظر: آيات سورة (المؤمنون ـ الآيات: ١ ـ ١١)، وسورة (الأنعام ـ الآيات: ١٥١ ـ ١٥٣)، وسورة (الرعد، الآيات: ١٩ ـ ٢٢) وسورة (الإسراء الآيات: ٢٣ ـ ٣٨) وغيرها.

(٢) انظر: الوسطية في القرآن الكريم (ص ٥٩١).

مشاهدها الرائعة، قال علماء الأخلاق والحكماء: «لا ينتظم أمر الأمة إلا بمصلحين، ورجال أعمال قائمين، وفضلاء مرشدين هادين، لهم شروط معلومة، وأخلاق معهودة؛ فإن كان القائم بالأعمال نبيًا فله أربعون خصلة ذكروها، كلها آداب وفضائل بها يسوس أمته. وإن كان رئيسًا فاضلاً، اكتفوا من الشروط الأربعين ببعضها، وسيدنا يوسف عليه السلام، حاز من كمال المرسلين، وجمال النبيين، ولقد جاء في سيرته هذه ما يتخذه عقلاء الأمم هديًا لاختيار الأكفاء في مهام الأعمال، إذ قد حاز الملك والنبوة! ونحن لا قبل لنا بالنبوة لانقطاعها، وإنما نذكر مايليق بمقام رئاسة المدينة الفاضلة، ولنذكر منها اثنتي عشرة خصلة هي أهم خصال رئيس المدينة الفاضلة، لتكون ذكرى لمن يتفكر في القرآن، وتنبيهًا للمتعلمين الساعين للفضائل»(١).

أهم ما شرطه الحكماء في رئيس المدينة الفاضلة:

١ ـ العفة عن الشهوات، ليضبط نفسه وتتوافر قوته النفسية: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٢٤].

٢ ـ الحلم عند الغضب، ليضبط نفسه: ﴿۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ٧٧].

٣ ـ وضع اللين في موضعه، والشدة في موضعها: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠﴾ [يُوسُف: ٥٩ ـ ٦٠] فبداية الآية لين، ونهايتها للشدة.

٤ ـ ثقته بنفسه بالاعتماد على ربه: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يُوسُف: الآية ٥٥].

٥ ـ قوة الذاكرة ليمكنه تذكر ما غاب ومضى له سنون، ليضبط السياسات، ويعرف للناس أعمالهم: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ٥٨].

٦ ـ جودة المصوِّرَة، والقوة المخيلة، حتى تأتي بالأشياء تامة الوضوح: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَـٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

٧ ـ استعداده للعلم، وحبه له، وتمكنه منه: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨]. ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

---

(١) انظر: تفسير القاسمي (٩/ ٣١٠).

٨ ـ شفقته على الضعفاء، وتواضعه، مع جلال قدره وعلو منصبه، فخاطب الفتيين المسجونين بالتواضع فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يُوسُف: الآية ٣٩] . وحادثهما في أمور دينهما ودنياهما بقوله: ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ [يُوسُف: الآية ٣٧] . والثاني بقوله: ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ٣٧] . وشهدا له بقولهما: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٣٦] .

٩ ـ العفو مع المقدرة: ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٢] .

١٠ ـ إكرام العشيرة: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٣] .

١١ ـ قوة البيان والفصاحة بتعبير رؤيا الملك، واقتداره على الأخذ بأفئدة الراعي والرعية والسوقة، ما كان هذا إلا بالفصاحة المبنية على الحكمة والعلم: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ [يُوسُف: الآية ٥٤] .

١٢ ـ حسن التدبير: ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ٤٧] تالله، ما أجمل القرآن، وما أبهج العلم.

لا شك أن العلاقة بين القصص القرآني والأخلاق متينة، لأن من أهداف القصص القرآني التذكير بالأخلاق الرفيعة، التي تفيد الفرد، والأسرة، والجماعة، والدولة، والأمة، والحضارة. كما أن من أهداف القصص القرآني التنفير من الأخلاق الذميمة التي تكون سببًا في هلاك الأمم والشعوب.

لقد استخدم المنهاج النبوي أساليب التأثير والاستجابة، والالتزام في تربيته للصحابة، لكي يحول الخلق من دائرة النظريات إلى صميم الواقع التنفيذي، والعمل التطبيقي سواء كانت اعتقادية، كمراقبة الله تعالى، ورجاء الآخرة، أو عبادية، كالشعائر التي تعمل على تربية الضمائر، وصقل الإرادات، وتزكية النفس. ومع تطور الدعوة الإسلامية، ووصولها إلى الدولة أصبحت هناك حوافز إلزامية تأتي من خارج النفس متمثلة في:

أ ـ التشريع:

الذي وضع لحماية القيم الخلقية، كشرائع الحدود، والقصاص، التي تحمي الفرد والمجتمع من رذائل البغي على الغير: (بالقتل أو السرقة) وانتهاك الأعراض: (بالزنى، والقذف) أو البغي على النفس، وإهدار العقل: (بالخمر، والمسكرات المختلفة).

ب ـ سلطة المجتمع:

التي تقوم على أساس ما أوجبه الله تعالى من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتناصح بين المؤمنين، ومسؤولية بعضهم على بعض، وقد جعل الله تعالى هذه المسؤولية قرينة الزكاة، والصلاة، وطاعة الله ورسوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: الآية ٧١].

بل جعلها المقوم الأصلي لخيرية هذه الأمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١١٠].

وقد ظهرت هذه السلطة وأثرها في الفترة المدنية.

جـ ـ سلطة الدولة:

التي وجب قيامها، وأقيمت على أسس أخلاقية وطيدة، ولزمها أن تقوم على رعاية هذه الأخلاق، وبثها في سائر أفرادها، ومؤسساتها، وتجعلها من مهام وجودها ومبرراته[1]. وبذلك اجتمع للخلق الإسلامي أطراف الكمال كلها، وأصبح للمجتمع النبوي نظام واقعي مثالي، بسبب الالتزام بالمنهج الرباني.

هذه بعض الخطوط في البناء العقائدي والروحي والأخلاقي في الفترة المكية، ولقد آتت هذه التربية أُكلها، فقد كان ما ينوف على العشرين من الصحابة الكرام الخمسين الأوائل السابقين إلى الإسلام مارسوا مسؤوليات قيادية، بعد توسع الدعوة وانطلاقها، في عهد النبي ﷺ، وبعد وفاته، وأصبحوا القادة الكبار للأمة، وعشرون آخرون منهم معظمهم استشهدوا أو ماتوا على عهد رسول الله ﷺ؛ فكان في الرعيل الأول أعظم شخصيات الأمة على الإطلاق، كان فيهم تسعة من العشرة المبشرين بالجنة، وهم أفضل الأمة بعد رسول الله ﷺ، ومنهم نماذج ساهمت في صناعة الحضارة العظيمة بتضحياتهم الجسيمة، كعمار بن ياسر، وعبد الله بن مسعود، وأبي ذر، وجعفر بن أبي طالب، وغيرهم. وكان من هذا الرعيل أعظم نساء الأمة خديجة رضي الله عنها، ونماذج عالية أخرى؛ مثل أم الفضل بنت الحارث، وأسماء ذات النطاقين، وأسماء بنت عميس، وغيرهن.

لقد أتيح للرعيل الأول أكبر قدر من التربية العقدية، والروحية، والعقلية، والأخلاقية.. على يد مربي البشرية الأعظم محمد ﷺ، فكانوا هم حداة الركب، وهداة الأمة[2]، فقد كان

---

(١) المنهاج القرآني في التشريع (ص ٤٣٣).
(٢) انظر: التربية القيادية للغضبان (١/٢٠١).

رسول الله ﷺ يزكيهم ويربيهم، وينقيهم من أوضار الجاهلية، فإِذا كان السعيد الذي فاز بفضل الصحبة من رأى رسول الله ﷺ ولو مرة واحدة في حياته وآمن به، فكيف بمن كان الرفيق اليومي له، ويتلقى منه، ويتعبق من نوره، ويتغذى من كلامه، ويتربى على عينه(١).

(١) المصدر نفسه (١/ ٢٠٢، ٢٠٣).

الفصل الثالث

الجهر بالدعوة وأساليب المشركين في محاربتها

المبحث الأول

الجهر بالدعوة

بعد الإعداد العظيم الذي قام به النبي ﷺ لتربية أصحابه، وبناء الجماعة المسلمة المنظمة الأولى على أسس عقدية، وتعبدية، وخلقية رفيعة المستوى، حان موعد إعلان الدعوة، بنزول قول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٤، ٢١٥].

فجمع قبيلته ﷺ وعشيرته، ودعاهم علانية إلى الإيمان بإله واحد، وخوَّفهم من العذاب الشديد إن عصوه، وأمرهم بإنقاذ أنفسهم من النار، وبيَّن لهم مسؤولية كل إنسان عن نفسه[1].

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ صَعِد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي» - لبطون قريش - حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب، وقريش، فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي»؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا. قال: «فإنني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم! ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾ [2] وفي رواية - ناداهم بطنًا بطنًا، ويقول لكل بطن: «أنقذوا أنفسكم من النار. . .»، ثم قال: «يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئًا، غير أن لكم رحمًا سأبُلها ببلالها»[3].

كان القرشيون واقعيين عمليين، فلما رأوا محمدًا ﷺ وهو الصادق الأمين، قد وقف على جبل يرى ما أمامه، وينظر إلى ما وراءه، وهم ما يرون إلا ما هو أمامهم، فهداهم إنصافهم

---

(١) رسالة الأنبياء، عمر أحمد عمر (٣/٤٦).

(٢) البخاري - كتاب التفسير - سورة الشعراء ورقمه (٤٧٧٠) والآيتان من سورة المسد (١، ٢).

(٣) مسلم، كتاب الإيمان [٣٤٨- ٢٠٤)].

وذكاؤهم إلى تصديقه، فقالوا: نعم.

ولما تمت هذه المرحلية الطبيعية البدائية، وتحققت شهادة المستمعين، قال رسول الله ﷺ: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» وكان ذلك تعريفًا بمقام النبوة، وما ينفرد به من علم بالحقائق الغيبية والعلوم الوهبية، وموعظة وإنذارًا، في حكمة وبلاغة، لا نظير لهما في تاريخ الديانات والنبوات، فلم تكن طريق أقصر من هذا الطريق، ولا أسلوب أوضح من هذا الأسلوب، فسكت القوم[١]، ولكن أبا لهب قال: «تبًا لك سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا»؟.. وبهذا كان النبي ﷺ قد وضع للأمة أسس الإعلام، فقد اختار مكانًا عاليًا وهو الجبل ليقف عليه، وينادي على جميع الناس، فيصل صوته إلى الجميع، وهذا ما تفعله محطات الإرسال في عصرنا الحديث، لتزيد من عملية الانتشار الإذاعي، ثم اختار لدعوته الأساس المتين ليبني عليه كلامه وهو الصدق، وبهذا يكون ﷺ قد علم رجال الإعلام والدعوة أن الاتصال بالناس بهدف إعلامهم أو دعوتهم، يجب أن يعتمد ـ وبصفة أساسية ـ على الثقة التامة بين المرسل والمستقبل، أو بين مصدر الرسالة والجمهور الذي يتلقى الرسالة، كما أن المضمون أو المحتوى يجب أن يكون صادقًا لا كذب فيه[٢].

«ومن الطبيعي أن يبدأ الرسول ﷺ دعوته العلنية بإنذار عشيرته الأقربين، إذ أن مكة بلد توغلت فيه الروح القبلية، فبدء الدعوة بالعشيرة، قد يعين على نصرته وتأييده، وحمايته، كما أن القيام بالدعوة في مكة لا بد أن يكون له أثر خاص، لما لهذا البلد من مركز ديني خطير، فجلبها إلى حظيرة الإسلام، لا بد وأن يكون له وقع كبير على بقية القبائل، لأن الإسلام ـ كما يتجلى من القرآن الكريم ـ اتخذ الدعوة في قريش خطوة أولى لتحقيق رسالته العالمية»[٣]، فقد جاءت الآيات المكية تبين عالمية الدعوة، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: الآية ١].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٧] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

ثم جاءت مرحلة أخرى بعدها، فأصبح يدعو فيها كل من يلتقي به من الناس، على اختلاف قبائلهم وبلدانهم، ويتبع الناس في أنديتهم، ومجامعهم ومحافلهم، وفي المواسم ومواقف الحج، ويدعو من لقيه من حر وعبد، وقوي وضعيف، وغني وفقير[٤]، حين نزول قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي (ص ١٣٨).
(٢) انظر: الحرب النفسية ضد الإسلام، د. عبد الوهاب كحيل (ص ١٢١).
(٣) انظر: دراسات في السيرة، عماد الدين خليل (ص ٦٦).
(٤) انظر: رسالة الأنبياء (٣/٤٨، ٤٩).

يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحِجر: الآيات ٩٤ ـ ٩٧].

كانت النتيجة لهذا الصدع هي الصد والإعراض والسخرية والإيذاء والتكذيب، والكيد المدبر المدروس، وقد اشتد الصراع بين النبي ﷺ وصحبه، وبين شيوخ الوثنية وزعمائها، وأصبح الناس في مكة يتناقلون أخبار ذلك الصراع في كل مكان، وكان هذا في حد ذاته مكسبًا عظيمًا للدعوة، ساهم فيه أشد وألد أعدائها، ممن كان يشيعون في القبائل قالة السوء عنها، فليس كل الناس يسلمون بدعاوى زعماء الكفر والشرك.

كان الوسيلة الإعلامية في ذلك العصر تناقل الناس للأخبار مشافهة، وسمع القاصي والداني بنبوة الرسول ﷺ، وصار هذا الحدث العظيم حديث الناس في المجالس ونوادي القبائل، وفي بيوت الناس(١).

* **أهم اعتراضات المشركين:**

كان أهم اعتراضات زعماء الشرك موجهة نحو وحدانية الله تعالى، والإيمان باليوم الآخر، ورسالة النبي ﷺ، والقرآن الكريم الذي أنزل عليه من رب العالمين.

وفيما يلي تفصيل لهذه الاعتراضات والرد عليها:

أولًا: اعتراضهم على الوحدانية:

لم يكن كفار مكة ينكرون أن الله خلقهم وخلق كل شيء.

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [لقمان: الآية ٢٥]. لكنهم كانوا يعبدون الأصنام، ويزعمون أنها تقربهم إلى الله، قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ(٢) إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ [الزمر: ٣].

وقد انتقلت عبادة الأصنام إليهم من الأمم المجاورة لهم، ولهذا قابلوا الدعوة إلى التوحيد بأعظم إنكار، وأشد استغراب(٣)، قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾(٤) [صَ: الآيات ٤ ـ ٧] ولم يكن تصورهم لله تعالى ولعلاقته بخلقه صحيحًا، إذ كانوا يزعمون أن لله تعالى صاحبة من الجن، وأنها

---

(١) انظر: الغرباء الأولون (ص ١٦٧).

(٢) زلفى: قربى.

(٣) انظر: رسالة الأنبياء (٣/ ٥٢).

(٤) احتجوا بما عليه النصارى من الشرك والتثليث.

ولدت الملائكة، وأن الملائكة بنات الله ـ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً!

فكانت الآيات تنزل مُبَيِّنَةً أن الله ﷻ خلق الجن، والملائكة، كما خلق الإنس، وأنه لم يتخذ ولدًا، ولم تكن له صاحبة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا (١) لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام: ١٠٠، ١٠١] . ومُبيِّنة أن الجن يقرون لله بالعبودية، وينكرون أن يكون بينهم وبينه علاقة نسب:

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصَّافات: الآية ١٥٨] .

ومطالبةً المشركين باتباع الحق، وعدم القول بالظنون والأوهام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾﴾ [النَّجم: ٢٧، ٢٨] . وموضحة أنه لا يعقل أن يمنح الله المشركين البنين، ويكون له بنات، وهن أدنى قيمة في رأيهم من البنين: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: الآية ٤٠] .

ومُحمِّلة المشركين مسئولية أقوالهم التي لا تقوم على دليل: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: الآية ١٩] .

ثانيًا: كفرهم بالآخرة:

أما دعوة الرسول ﷺ إلى الإيمان باليوم الآخر، فقد قابلها المشركون بالسخرية والتكذيب: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سبأ: الآيتان ٧، ٨] فقد كانوا ينكرون بعث الموتى: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٢٩] .

ويقسمون على ذلك بالأيمان المغلظة:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ [النحل: الآيتان ٣٨، ٣٩] وكانوا يظنون أنه لا توجد حياة في غير الدنيا، ويطلبون إحياء آبائهم ليصدقوا بالآخرة، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ

---

(١) اختلقوا.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الجاثية: الآيات ٢٤ ـ ٢٧].

وفاتهم أن الذي خلقهم أول مرة قادر على أن يحييهم يوم القيامة، قال مجاهد وغيره: جاء أُبي بن خلف[(١)] إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم، وهو يفتته ويذروه في الهواء، وهو يقول: يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟ قال ﷺ: «نعم يميتك الله تعالى، ثم يبعثك، ثم يحشرك إلى النار» ونزلت هذه الآيات[(٢)] ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: الآيات ٧٧ ـ ٧٩].

كانت أساليب القرآن الكريم في إقناع الناس بالبعث اعتمدت على خطاب العقل، والانسجام مع الفطرة، والتجاوب مع القلوب، فقد ذكَّر الله عباده أن حكمته تقتضي بعث العباد للجزاء والحساب، فإن الله خلق الخلق لعبادته، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، لبيان الطريق الذي به يعبدونه ويطيعونه، ويتبعون أمره، ويجتنبون نهيه، فمن العباد من رفض الاستقامة على طاعة الله، وطغى وبغى. أفليس بعد أن يموت الطالح والصالح، لا بد أن يجزي الله المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ [القلم: الآيات ٣٥ ـ ٣٨]. إن الملاحدة الذين ظلموا أنفسهم هم الذين يظنون الكون خلق عبثًا وباطلاً لا لحكمة، وأنه لا فرق بين مصير المؤمن المصلح، والكافر المفسد، ولا بين التقي والفاجر[(٣)] قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: الآيتان ٢٧، ٢٨].

وضرب القرآن الكريم للناس الأمثلة في إحياء الأرض بالنبات، وإن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إعادة الحياة إلى الجثث الهامدة، والعظام البالية: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: الآية ٥٠].

وذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه إحياء بعض الأموات في هذه الحياة الدنيا، فأخبر الناس في كتابه عن أصحاب الكهف، بأنه ضرب على آذانهم في الكهف ثلاثمائة وتسع سنين، ثم قاموا من رقدتهم بعد تلك الأزمان المتطاولة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا أَمَدًا﴾ [الكهف: الآية ١٢]. ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:

(١) وفي رواية عن ابن عباس أنه العاص بن وائل.
(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٨١).
(٣) انظر: الوسطية في القرآن الكريم (ص ٤٠٢).

الآية ١٩] . ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: الآية ٢٥] وغير ذلك من الأدلة والبراهين التي استخدمها رسول الله ﷺ في مناظراته مع زعماء الكفر والشرك.

ثالثًا: اعتراضهم على رسول الله ﷺ:

اعترضوا على شخص الرسول ﷺ، فقد كانوا يتصورون أن الرسول لا يكون بشرًا مثلهم، وأنه ينبغي أن يكون مَلَكًا، أو مصحوبًا بالملائكة: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ٩٤] .

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٨] .

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٩] .

أي لو بعثنا إلى البشر رسولاً من الملائكة لكان على هيئة الرجل، يمكنهم مخاطبته والأخذ عنه، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشر(١)، وكانوا يريدون رسولاً لا يحتاج إلى طعام وسعي في الأسواق: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ⑦ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ⑧﴾ [الفرقان: ٧ ـ ٨] . وكأنهم لم يسمعوا بأن الرسل جميعًا كانوا يأكلون ويسعون ويعملون: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ⑳﴾(٢) [الفرقان: الآية ٢٠] .

ويريدون أن يكون الرسول كثير المال، كبيرًا في أعينهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: الآية ٣١] . ويريدون الوليد بن المغيرة بمكة، وعروة بن مسعود الثقفي بالطائف(٣).

ونسبوا الرسول ﷺ إلى الجنون:

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ⑥ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ⑦﴾ [الحجر: ٦ ـ ٧] .

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ⑬ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ⑭﴾ [الدخان: ١٣ ـ ١٤] .

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٢٤).

(٢) اختبرنا بعضكم ببعض.

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ١٢٦، ١٢٧).

وردّ الله عليهم بقوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ [القَلَم: الآية ٢] .

كما نسبوه إلى الكهانة والشعر:

﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ٢٩ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ٣٠﴾ [الطُّور: ٢٩ ـ ٣٠] .

كما أنهم كانوا يعلمون أنه لا ينظم الشعر، وأنه راجح العقل، وأن ما يقوله بعيد عن سجع الكهان، وقول السحرة[1] .

ونسبوه ﷺ إلى السحر والكذب: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ [صٓ: الآية ٤] .

﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ٤٧ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: الآيتان ٤٧، ٤٨] وكانت الآيات تتنزل على رسول الله ﷺ تفند مزاعم المشركين، وتبين له أن الرسل السابقين استهزىء بهم، وأن العذاب عاقبة المستهزئين: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٠] وتعلمه أن المشركين لا يكذبون شخصه، ولكنهم يكذبون رسالته، ويدفعون آيات الله بتلك الأقاويل[2]: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٣٣] .

رابعًا: موقفهم من القرآن الكريم:

كذلك لم يصدقوا أن القرآن الكريم منزل من الله، واعتبروه ضربًا من الشعر، الذي كان ينظمه الشعراء، مع أن كل من قارن بين القرآن وبين أشعار العرب يعلم أنه مختلف عنها: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [يسٓ: الآيتان ٦٩، ٧٠] وكيف يكون القرآن شعرًا، وقد نزل فيه ذم للشعراء الذين يضلون الناس، ويقولون خلاف الحقيقة[3] .

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ[4] ٢٢٤ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ٢٢٥ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآيات ٢٢٤ ـ ٢٢٦] فهو كلام الله المنزل على رسوله، وليس شبيهًا بقول الشعراء، ولا بقول الكهان: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٣﴾ [الواقِعَة: ٤٠ ـ ٤٣] .

---

(١) انظر: رسالة الأنبياء (٣/ ٥٧).

(٢) المصدر نفسه (٣/ ٥٨).

(٣) المصدر نفسه (٣/ ٥٩).

(٤) يعني: الضالون.

وقد أدرك الشعراء قبل غيرهم، أن القرآن الكريم ليس شعرًا[١]، ومن فرط تكذيبهم وعنادهم قالوا: إن محمدًا يتعلم القرآن من رجل أعجمي[٢]، كان غلامًا لبعض بطون قريش، وكان بياعًا، يبيع عند الصفا، وربما كان الرسول ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء. وذاك كان أعجمي اللسان، لا يعرف من العربية إلا اليسير، بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: الآية ١٠٣].

أي فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن من فصاحته وبلاغته، ومعانيه التامة الشاملة، من رجل أعجمي؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل[٣].

واعترضوا على طريقة نزول القرآن، فطلبوا أن ينزل جملة واحدة، مع أن نزوله مُفَرَّقًا أدعى لتثبيت قلوب المؤمنين به، وتيسير فهمه وحفظه وامتثاله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: الآية ٣٢].

فلما اعترض المشركون على القرآن، وعلى ما أنزل عليه بهذه الاعتراضات، تحداهم الله بأن يأتوا بمثله، وأعلن عن عجز الإنسان والجن مجتمعين عن ذلك: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: الآية ٨٨].

بل هم عاجزون عن أن يأتوا بعشر سور مثله:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: الآيتان ١٣، ١٤].

وحتى السورة الواحدة هم عاجزون عنها: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: الآيتان ٣٧، ٣٨].

فعجزهم، مع أن الفصاحة كانت من سجاياهم، وكانت أشعارهم ومعلقاتهم في قمة البيان، دليل على أن القرآن كلام الله الذي لا يشبهه شيء في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وأقواله، وكلامه لا يشبه كلام المخلوقين[٤].

---

(١) انظر: رسالة الأنبياء (٣/ ٥٩).

(٢) انظر: تهذيب السيرة (١/ ٧٤، ٩٠)، وانظر سيرة ابن هشام (ق ١/ ٣٩٣).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٥٨٦).

(٤) انظر: رسالة الأنبياء (٣/ ٦٦).

المبحث الثاني
سنة الابتلاء

الابتلاء ـ بصفة عامة ـ سنة الله في خلقه، وهذا واضح في تقريرات القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [الأنعام: الآية ١٦٥] . وقال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: الآية ٧] . وقال جل شأنه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: الآية ٢] .

الابتلاء مرتبط بالتمكين ارتباطًا وثيقًا؛ فلقد جرت سنة الله تعالى ألا يُمكَّن لأمة إلا بعد أن تمر بمراحل الاختبار المختلفة، وإلا بعد أن ينصهر معدنها في بوتقة الأحداث، فيميز الله الخبيث من الطيب، وهي سنّة جارية على الأمة الإسلامية لا تتخلف، فقد شاء الله ـ تعالى ـ أن يبتلي المؤمنين، ويختبرهم، ليمحص إيمانهم، ثم يكون لهم التمكين في الأرض بعد ذلك، ولذلك جاء هذا المعنى على لسان الإمام الشافعي رحمه الله حين سأله رجل: أيهما أفضل للمرء، أن يُمكن أو يبتلى؟ فقال الإمام الشافعي: لا يُمكن حتى يبتلى، فإن الله ـ تعالى ـ ابتلى نوحًا وإبراهيم، وموسى وعيسى، ومحمدًا ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ فلما صبروا مكنهم فلا يظن أحد أن يخلص من الألم ألبتة(١) .

حكمة الابتلاء وفوائده:

للابتلاء حكم كثيرة من أهمها:

١ ـ تصفية الصفوف:

جعل الله الابتلاء وسيلة لتصفية نفوس الناس، ومعرفة المحق منهم والمبطل، وذلك لأن المرء قد لا يُكشف في الرخاء، لكنه تكشفه الشدة، قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: الآية ٢] .

٢ ـ تربية الجماعة المسلمة:

وفي هذا يقول سيد قطب رحمه الله: «ثم إنه الطريق الذي لا طريق غيره لإنشاء الجماعة، التي تحمل هذه الدعوة وتنهض بتكاليفها، طريق التربية لهذه الجماعة، وإخراج مكنوناتها من الخير والقوة والاحتمال، وهو طريق المزاولة العملية للتكاليف، والمعرفة الواقعية لحقيقة الناس، وحقيقة الحياة، ذلك ليثبت على هذه الدعوة أصلب أصحابها عودًا، فهؤلاء هم الذين يصلحون لحملها؛ إذن بالصبر عليها، فهم عليها مؤتمنون»(٢) .

---

(١) الفوائد لابن القيم (ص ٢٨٣)..

(٢) في ظلال القرآن (٢/ ١٨٠).

٣ ـ الكشف عن خبايا النفوس:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال: «والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء، ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع ماهو مكشوف لعلم الله، مغيب عن علم البشر، فيحاسب الناس إذن على ما يقع من عملهم لا على مجرد ما يعلمه سبحانه من أمرهم، وهو فضل من الله من جانب، وعدل من جانب، وتربية للناس من جانب، فلا يأخذوا أحدًا إلا بما استعلن من أمره وبما حققه فعله، فليسوا بأعلم من الله بحقيقة قلبه»(١).

٤ ـ الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال: «وما بالله ـ حاشا لله ـ أن يعذب المؤمنين بالابتلاء، وأن يؤذيهم بالفتنة، ولكنه الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة، فهي في حاجة إلى إعداد خاص، لا يتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق، وإلا بالاستعلاء الحقيقي على الشهوات، وإلا بالصبر الحقيقي على الآلام. وإلا بالثقة الحقيقية في نصر الله وثوابه، على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء. والنفس تصهرها الشدائد، فتنفي عنها الخبيث، وتستجيش كامن قواها المذخورة، فتستيقظ وتتجمع، وتطرقها بعنف وشدة، فيشتد عودها، ويصلب ويصقل، وكذلك تفعل الشدائد بالجماعات، فلا يبقى صامدًا إلا أصلبها عودًا، وأقواها طبيعة، وأشدها اتصالاً بالله، وثقة فيما عنده من الحسنيين النصر أو الأجر، وهؤلاء هم الذين يسلمون الراية في النهاية مؤتمنين عليها بعد الاستعداد والاختبار»(٢).

٥ ـ معرفة حقيقة النفس:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال: «وذلك لكي يعرف أصحاب الدعوة حقيقتهم هم أنفسهم، وهم يزاولون الحياة والجهاد مزاولة عملية واقعية، ويعرفوا حقيقة النفس البشرية وخباياها، حقيقة الجماعات والمجتمعات، وهم يرون كيف تصطرع مبادىء دعوتهم مع الشهوات في أنفسهم، وفي أنفس الناس، ويعرفون مداخل الشيطان إلى هذه النفوس، ومزالق الطريق، ومسارب الضلال»(٣).

٦ ـ معرفة قدر الدعوة:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال: «وذلك لكي تعز هذه الدعوة عليهم، وتغلو بقدر ما يصيبهم في سبيلها من غث وبلاء، وبقدر ما يضحون في سبيلها من عزيز وغال، فلا يفرطوا فيها بعد ذلك مهما كانت الأحوال»(٤).

٧ ـ الدعاية لها:

فصبر المؤمنين على الابتلاء دعوة صامتة لهذا الدين، وهي التي تدخل الناس في دين

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٨٧) أو (٥/ ٢٧٢٠).

(٢) المصدر نفسه (٦/ ٣٨٩) أو (٥/ ٢٧٢١).

(٣) المصدر نفسه (٢/ ١٨١).

(٤) المصدر نفسه (٢/ ١٨٠).

الله، ولو وهنوا أو استكانوا لما استجاب لهم أحد، لقد كان الفرد الواحد يأتي إلى النبي ﷺ ثم يأتيه أمر النبي ﷺ أن يمضي إلى قومه، يدعوهم، ويصبر على تكذيبهم وأذاهم، ويتابع طريقه حتى يعود بقومه إلى رسول الله ﷺ(١)، وسنرى ذلك في الصفحات القادمة إن شاء الله.

٨ ـ جذب بعض العناصر القوية إليها:

وأمام صمود المسلمين وتضحياتهم، تتوق النفوس القوية إلى هذه العقيدة، ومن خلال الصلابة الإيمانية، تكبر عند هذه الشخصيات الدعوة وحاملوها، فيسارعون إلى الإسلام دون تردد، وأعظم الشخصيات التي يعتز بها الإسلام دخلت إلى هذا الدين من خلال هذا الطريق(٢).

٩ ـ رفع المنزلة والدرجة عند الله، وتكفير السيئات:

قال رسول الله ﷺ: «ما يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة، أو حطَّ عنه بها خطيئة»(٣)، فقد يكون للعبد درجة عند الله تعالى لا يبلغها بعلمه فيبتليه الله تعالى حتى يرفعه إليها، كما أن الابتلاء طريق لتكفير سيئات المسلم(٤).

كما أن للابتلاء فوائد عظيمة منها: معرفة عز الربوبية وقهرها، معرفة ذل العبودية وكسرها، الإخلاص، الإنابة إلى الله والإقبال عليه، التضرع والدعاء، الحلم عمن صدرت عنه المصيبة، العفو عن صاحبها، الصبر عليها، الفرح بها لأجل فوائدها، الشكر عليها، رحمة أهل البلاد، ومساعدتهم على بلواهم، معرفة قدر نعمة العافية، والشكر عليها؛ ما أعده الله تعالى على هذه الفوائد من ثواب الآخرة على اختلاف مراتبها، وغير ذلك من الفوائد. ومن أراد التوسع فليراجع كتاب فقه الابتلاء(٥).

المبحث الثالث

أساليب المشركين في محاربة الدعوة

أجمع المشركون على محاربة الدعوة التي عرَّت واقعهم الجاهلي، وعابت آلهتهم، وسفهت أحلامهم ـ أي آراءهم وأفكارهم ـ وتصوراتهم عن الله والحياة، والإنسان والكون، فاتخذوا العديد من الوسائل والمحاولات لإيقاف الدعوة، وإسكات صوتها، أو تحجيمها، وتحديد مجال انتشارها.

---

(١) انظر: فقه السيرة النبوية (ص ١٩٢، ١٩٣).

(٢) انظر: فقه السيرة النبوية (ص ١٩٣، ١٩٤).

(٣) مسلم بشرح النووي (٦/ ١٢٧، ١٢٨)، كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن، ورقمه (٢٥٧٢).

(٤) انظر: التمكين للأمة الإسلامية (ص ٢٤٤)، وانظر: فقه الابتلاء، محمد أبو صعيليك (ص ٨ ـ ١١).

(٥) انظر: فقه الابتلاء، محمد أبو صعيليك (ص ١٥ ـ ٢٨).

أولاً: محاولة قريش لإبعاد أبي طالب عن مناصرة وحماية رسول الله ﷺ:

«جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا: إن ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا، فانهه عنا،... فقال أبو طالب لرسول الله ﷺ: «إن بني عمك هؤلاء زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم، فانته عن أذاهم، فحلق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فقال: «ترون هذه الشمس؟». قالوا: نعم، قال: «فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشعلوا منها بشعلة» وفي رواية: «والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحد من هذه الشمس شعلة من نار» فقال أبو طالب: «والله ما كذب ابن أخي قط، فارجعوا راشدين»[(١)] وحاولت قريش مرات عديدة الضغط على رسول الله ﷺ بواسطة عائلته ولكنها فشلت.

ذاع أمر حماية أبي طالب لابن أخيه، وتصميمه على مناصرته، وعدم خذلانه، فاشتد ذلك على قريش غمًّا وحسدًا ومكرًا، فمشوا إليه بعُمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له: «يا أبا طالب هذا عُمارة بن الوليد، أنهد فتى في قريش، وأجمله، فلك عقله[(٢)] ونصره، واتخذه ولدًا فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك، هذا الذي خالف دينك، ودين آبائك، وفرّق جماعة قومك، وسفَّه أحلامنا، فنقتله فإنما هو رجل برجل» قال: «والله لبئس ما تسومونني، أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني فتقتلونه، هذا والله ما لا يكون أبدًا»[(٣)].

وإن المرء ليسمع عجبًا، ويقف مذهولاً أمام مروءة أبي طالب مع رسول الله ﷺ، فقد ربط أبو طالب مصيره بمصير ابن أخيه محمد ﷺ، بل واستفاد من كونه زعيم بني هاشم أن ضم بني هاشم، وبني المطلب إليه في حلف واحد، على الحياة والموت، تأييدًا لرسول الله ﷺ، مسلمهم ومشركهم على السواء[(٤)]، وأجار ابن أخيه محمدًا إجارة مفتوحة، لا تقبل التردد أو الإحجام، كانت هذه الأعراف الجاهلية والتقاليد العربية، تسخر من قبل النبي ﷺ لخدمة الإسلام، وقد قام أبو طالب حين رأى قريشًا تصنع ما تصنع في بني هاشم وبني المطلب، فدعاهم إلى ماهو عليه، من منع رسول الله ﷺ، والقيام دونه؛ فاجتمعوا إليه وقاموا معه، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه، إلا ما كان من أبي لهب عدو الله اللعين.

فلما رأى أبو طالب من قومه ما سرّه من جهدهم معه، وحدبهم عليه، جعل يمدحهم، ويذكر قديمهم، ويذكر فضل رسول الله ﷺ فيهم، ومكانه منهم ليشد لهم رأيهم، ليحدَبوا معه على أمره فقال:

إذا اجتمعَتْ يومًا قريشٌ لمفخر ... فعبدُ مناف سرها وصميمُها
وإن حُصّلت أشرافُ عبدِ منافها ... ففي هاشم أشرافُها وقديمها
وإن فَخَرَتْ يومًا فإنَّ محمدًا ... هو المصطفى من سرّها وكريمُها

---

(١) صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي (ص ٧٨).

(٢) فلك عقله: أي ديته إذا قتل.

(٣) البداية والنهاية (٣/ ٤٨).

(٤) انظر: فقه السيرة النبوية (ص ١٨٤).

تداعتْ قريشٌ غَثُّها وسمينُها ... علينا فلم تظفَر وطاشتْ حُلُومها
وكنا قديمًا لا نُقِرُّ ظُلامةً ... إذا ما ثنَوا صُعْر الخدود نُقيمها[١]

وحين حاول أبو جهل أن يخفر جوار أبي طالب، تَصدى له حمزة، فشجه بقوسه وقال له: تشتم محمدًا وأنا على دينه، فرد ذلك إن استطعت.

إنها ظاهرة فذة، أن تقوم الجاهلية بحماية من يسب آلهتها، ويعيب دينها، ويسفه أحلامها، وباسم هذه القيم يقدمون المهج والأرواح، ويخوضون المعارك والحروب، ولا يمس محمد بسوء.

ولما خشي أبو طالب دَهماءَ العرب أن يركبوه مع قومه، قال قصيدته التي تعوَّذ فيها بحرمة مكة، وبمكانه منها، وتودد فيها أشراف قومه، وهو على ذلك يخبرهم في ذلك من شعره، أنه غير مسلِّم رسول الله ﷺ، ولا تاركه لشيء أبدًا حتى يهلك دونه فقال:

ولمَّا رأيتُ القوم لا وُدّ فيهمُ ... وقد قطعوا كل العُرَى والوسائل
وقد صارَحونا بالعداوة والأذى ... وقد طاوعوا أمرَ العَدُوّ المُزايل
وقد حالفوا قومًا علينا أَظنَّةً ... يَعُضُّون غيظًا خَلْفنا بالأنامل
صبرتُ لهم نفسي بسَمْراء[٢] سَمحةٍ ... وأبيضَ[٣] عَضْب من تُراث المَقاول
وأحضرتُ عند البيتِ رَهطي وإخوتي ... وأمسكت من أثوابِه بالوصائل[٤]

وتعوذ بالبيت وبكل المقدسات التي فيه، وأقسم بالبيت، بأنه لم يسلِّم محمدًا ولو سالت الدماء أنهارًا، واشتدت المعارك مع بطون قريش:

كذبتم وبيت الله نُبْزَى[٥] محمدًا ... وَلمَّا نطاعن دونه ونناضل
ونُسلمه[٦] حتى نصرَّع حوله ... ونَذْهَل عن أبنائنا والحلائل[٧]
وينهض قوم في الحديد إليكمُ ... نهوض الرَّوايا[٨] تحت ذات الصَّلاصل[٩]

وقَرّع زعماء بني عبد مناف، بأسمائهم لخذلانهم إياه، فلعتبة بن ربيعة يقول:

فعُتبة لا تَسمع بنا قولَ كاشِح ... حَسود كذوب مُبْغض ذي دَغاوِلِ[١٠]

ولأبي سفيان بن حرب يقول:

ومَرَّ أبو سفيان عنّي مُعْرِضًا ... كما مَرَّ قَيْل[١١] من عِظام المقاول

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٦٩).
(٢) سمراء: كناية عن الرمح.
(٣) أبيض عضب: كناية عن السيف.
(٤) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٧٣).
(٥) نُبزَى: أي نُسلَبه ونُغلب عليه.
(٦) ونسلمه حتى نصرع حوله، أي كذبتم أن نسلمه قبل أن نصرع حوله.
(٧) الحلائل: الزوجات.
(٨) الروايا: الإبل التي تحمل الماء والأسقية.
(٩) الصلاصل: المزادات لها صلصلة بالماء.
(١٠) الدغاول: الدواهي.
(١١) قَيْل: الرئيس الكبير في اليمن.

يَـفِـرُّ إِلـى نَـجْـدٍ وَبَـرْدِ مـيـاهـه ... ويزعـمُ أني لـسـتُ عـنكـم بغـافِلِ[١]

وللمطعم بن عدي سيد بني نوفل يقول:

أَمُـطعِـمُ لـم أخـذُلْك في يـومِ نـجدةٍ ... ولا مُـعْـظِـم عـنـد الأمـورِ الـجلائـل

أَمُـطـعِـمُ إِنِ الـقـومَ سـامـوكَ خُـطَّـة ... وإنـي مـتـى أُوكَـلْ فـلسـت بـوائـل[٢]

جزى الله عـنَّا عـبد شـمـس ونَـوفـلاً ... عُـقـوبـة شـرٍ عـاجـلاً غـيـرَ آجـل[٣]

لقد كان كسب النبي ﷺ عمه في صفِّ الدفاع عنه، نصرًا عظيمًا، وقد استفاد ﷺ من العرف القبلي فتمتع بحماية العشيرة، ومُنع من أي اعتداء يقع عليه، وأعطي حرية التحرك، والتفكير، وهذا يدل على فهم النبي ﷺ للواقع الذي يتحرك فيه، وفي ذلك درس بالغ للدعاة إلى الله تعالى، للتعامل مع بيئتهم ومجتمعاتهم، والاستفادة من القوانين والأعراف والتقاليد لخدمة دين الله.

ثانيًا: محاولة تشويه دعوة الرسول ﷺ:

قام مشركو مكة بتشويه دعوة الرسول ﷺ، ولذلك نظمت قريش حربًا إعلامية ضده، لتشويهه، قادها الوليد بن المغيرة، حيث اجتمع مع نفر من قومه، وكان ذا سن فيهم، وقد حضر موسم الحج، فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيًا واحدًا، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا، ويرد قولكم بعضُه بعضًا.

- فقالوا: فأنت يا أبا عبد شمس، فقل وأقم لنا رأيًا نقول به.

- قال: بل أنتم قولوا أسمع.

- فقالوا: نقول كاهن.

- فقال: ما هو بكاهن، لقد رأيت الكهان فما هو بزمزمة[٤] الكاهن وسجعه.

- فقالوا: نقول مجنون.

- فقال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو تخنقه، ولا تخالجه ولا وسوسته.

- فقالوا: نقول شاعر.

- فقال: ما هو بشاعر، قد عرفنا الشعر برجزه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر.

---

(١) انظر: فقه السيرة النبوية، ص ٢١٢.

(٢) لست بوائل: لست بناجٍ.

(٣) انظر: فقه السيرة النبوية (ص ٢١٢).

(٤) الزمزمة: كلام خفي لا يسمع.

ـ قالوا: فنقول ساحر.

ـ قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحّار وسحرهم، فما هو بنفثه ولا عقده.

ـ قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟

قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق[١]، وإن فرعه لجناة[٢]، وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عرف أنه باطل. وإن أقرب القول لأن تقولوا: ساحر، فقولوا: ساحر يفرق بين المرء وبين أبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته[٣].

فأنزل الله تعالى في الوليد: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا[٤] ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا[٥] ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ[٦] ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ[٧] ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ[٨] ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدَّثِّر: الآيات ١١ ـ ٢٦].

ويتضح من هذه القصة، أن الحرب النفسية المضادة للرسول ﷺ لم تكن توجه اعتباطًا، وإنما كانت تعد بإحكام ودقة بين زعماء الكفار، وحسب قواعد معينة، هي أساس القواعد المعمول بها في تخطيط الحرب النفسية في العصر الحديث، كاختيار الوقت المناسب، فهم يختارون وقت تجمع الناس في موسم الحج، والاتفاق وعدم التناقض، وغير ذلك من هذه الأسس حتى تكون حملتهم منظمة، وبالتالي لها تأثير على وفود الحجيج، فتؤتى ثمارها المرجوة منها. ومع اختيارهم للزمان المناسب، فقد اختاروا أيضًا مكانًا مناسبًا حتى تصل جميع الوفود القادمة إلى مكة[٩]، ويتضح من هذا الخبر، عظمة النبي ﷺ وقوته في التأثير بالقرآن على سامعيه، فالوليد بن المغيرة كبير قريش، ومن أكبر ساداتهم، ومع ما يحصل عادة للكبراء من التكبر والتعاظم، فإنه قد تأثر بالقرآن ورق له، واعترف بعظمته، ووصفه بذلك

---

(١) العذق: النخلة.

(٢) الجناة: ما يجنى من الثمر.

(٣) السير والمغازي لابن إسحاق (ص ١٥٠، ١٥١)، تهذيب السيرة (١/ ٦٤، ٦٥)، سيرة ابن هشام (ق ١/ ٢٧٠، ٢٧١).

(٤) واسعًا.

(٥) أي: عذابًا شديدًا.

(٦) أي: تروى ماذا يقول في القرآن.

(٧) أي: قبض بين عينيه وكلح وقطب.

(٨) أي: هذا سحر ينقله محمد عن غيره ممن قبله ويحكيه عنهم.

(٩) انظر: الحرب النفسية ضد الإسلام، د. عبد الوهاب كحيل (ص ١٠٣).

الوصف البليغ[(١)]، وهو في حالة استجابة لنداء العقل، ولم تستطع تلك الحرب الإعلامية المنظمة أن تحاصر دعوة رسول الله ﷺ، بل استطاع محمد ﷺ أن يخترق حصار الأعداء، الذين لم يكتفوا بتنفير ساكني مكة من رسول الله ﷺ، وتشويه سمعته عندهم، بل صاروا يتلقون الوافدين إليهم؛ ليسمّموا أفكارهم، وليحولوا بينهم وبين سماع كلامه، والتأثر بدعوته، فقد كان رسول الله ﷺ عظيم النجاح في دعوته، بليغًا في التأثير فيمن خاطبه حيث يؤثر فيمن جالسه بهيئته، وسمته ووقاره، قبل أن يتكلم، ثم إذا تحدث أَسَرَ سامعيه بمنطقه البليغ، المتمثل في العقل السليم، والعاطفة الجياشة بالحب والصفاء، والنية الخالصة في هداية الأمة، بوحي الله تعالى[(٢)]، ومن أبرز الأمثلة على قوته في التأثير بالكلمة المعبرة، والأخلاق الكريمة، وقدرته على اختراق الجدار الحديدي، الذي حاول زعماء مكة ضربه عليه، ماكان من موقفه مع ضماد الأزدي، وعمرو بن الطفيل الدوسي، وأبي ذر، وعمرو بن عبسة رضي الله عنهم.

١ ـ إسلام ضماد الأزدي رضي الله عنه :

وفد ضِماد الأزدي إلى مكة وتأثر بدعاوى المشركين عن رسول الله ﷺ، حتى استقر في نفسه أنه مصاب بالجنون، كما يتهمه بذلك زعماء مكة؛ وكان ضماد من أزد شنوءه، وكان يعالج من الجنون، فلما سمع سفهاء مكة يقولون إن محمدًا ﷺ مجنون، فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي.

قال: فلقيه. فقال: يا محمد، إني أرقي من هذه الريح[(٣)]، وإن الله يشفى على يدي من شاء. فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد».

قال: فقال: أعد علي كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات، قال: فقال: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس البحر[(٤)]، قال: فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام. قال: فبايعه، فقال رسول الله ﷺ: «وعلى قومك» قال: وعلى قومي.

وعندما قامت دولة الإسلام في المدينة، وكانت سرايا رسول الله تبعث، فمروا على قوم ضماد، فقال صاحب السرية للجيش: هل أصبتم من هؤلاء شيئًا؟ فقال رجل من القوم:

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (١/ ١٢٣).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (١/ ١٢٧، ١٣٧).

(٣) الريح هنا: المراد بها الجنون ومس الجن.

(٤) ناعوس البحر (وفي نسخ أخرى قاموس): معناه وسطه، أو لجته أو قعره الأقصى.

أصبت منهم مِطْهرة، فقال: ردوها. فإن هؤلاء قوم ضِماد[١].

● **دروس وفوائد:**

أ - دعاية قريش، وتشويه شخص الرسول ﷺ، واتهامه بالجنون حمل ضِمادًا على السير للرسول ﷺ من أجل رقيته، فكانت الحرب الإعلامية المكية ضد الرسول ﷺ سببًا في إسلامه، وإسلام قومه.

ب - تتضح صفتا الصبر والحلم في شخص النبي ﷺ، فقد عرض ضِماد على رسول الله ﷺ معالجته، من مرض الجنون، وهذا موقف يثير الغضب، ولكن رسول الله ﷺ استقبل الأمر بحلم وهدوء، مما أثار إعجاب ضِماد، واحترامه لرسول الله ﷺ.

جـ - أهمية هذه المقدمة التي يستفتح بها رسول الله ﷺ بعض خطبه، فقد اشتملت على تعظيم الله وتمجيده، وصرف العبادة له سبحانه؛ ولذلك كان رسول الله ﷺ كثيرًا ما يجعلها بين يدي خطبه ومواعظه.

د - تأثر ضِماد بفصاحة رسول الله ﷺ وقوة بيانه، لأن حديث الرسول ﷺ انبعث من قلب مُلِيءَ إيمانًا ويقينًا وحكمة، فأصبح حديثه يصل إلى القلوب ويجذبها إلى الإيمان.

هـ - في سرعة إسلام ضِماد دليل على أن الإسلام دين الفطرة، وأن النفوس إذا تجردت من الضغوط الداخلية والخارجية، فإنها غالبًا تتأثر وتستجيب، إما بسماع قول مؤثر، أو الإعجاب بسلوك قديم.

و - حرص الرسول ﷺ على انتشار دعوته، حيث رأى في ضِماد صدق إيمانه، وحماسته للإسلام، وقوة اقتناعه به، فدفعه ذلك إلى أخذ البيعة منه لقومه.

ز - وفي هذا بيان واضح لأهمية الدعوة إلى الله تعالى، حيث جعلها النبي ﷺ قرينة الالتزام الشخصي، فقد بايع رسول الله ﷺ على الالتزام بالدين، فلم يكتف رسول الله بذلك، بل أخذ منه البيعة على دعوة قومه إلى الإسلام.

ح - حفظ المعروف، والود لأهل السابقة والفضل «ردوها فإن هؤلاء من قوم ضماد»[٢].

ط - في الحديث بعض الوسائل التربوية التي استعملها النبي ﷺ مع ضماد، كالتأني في الحديث، وأسلوب الحوار، والتوجيه المباشر، وتظهر بعض الصفات في شخصية رسول الله ﷺ كمربٍّ، كالحلم والصبر، والتشجيع على الإكثار من الخيرات.

---

(١) مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (رقم ٨٦٨).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (١/ ١٣٢، ١٣٣)، وانظر: الوحي وتبليغ الرسالة، د. يحيى اليحيى (ص ١١١-١١٣).

٢ ـ إسلام عمرو بن عَبَسة رضي الله عنه :

قال: عمرو بن عبسة السُّلَمي: كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء، وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخبارًا، فقعدت على راحلتي، فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفيًا، جرَاء عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة، فقلت له: ما أنت؟ قال: «أنا نبي» فقلت: وما نبي؟ قال: «أرسلني الله» فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: «أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء» قلت له: فمن معك على هذا؟ قال: «حر وعبد» قال: ومعه يومئذٍ أبو بكر وبلال ممن آمن به، فقلت: إني متبعك. قال: «إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس؟ ولكن ارجع إلى أهلك، فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني».

قال: فذهبت إلى أهلي، وقدم رسول الله ﷺ المدينة، وكنت في أهلي، فجعلت أتخَبَّر الأخبار، وأسأل الناس حين قدم المدينة، حتى قدم عليَّ نفر من أهل يثرب من أهل المدينة، فقلت: ما فعل هذا الرجل الذي قدم المدينة؟ فقالوا: الناس إليه سراع. وقد أراد قومه قتله، فلم يستطيعوا ذلك. فقدمت المدينة، فدخلت عليه، فقلت: يا رسول الله أتعرفني؟ قال: «نعم. أنت الذي لقيتني بمكة؟».

وذكر بقية الحديث وفيه أنه سأله عن الصلاة والوضوء[1].

دروس وعبر:

أ ـ عمرو بن عبسة كان من الحنفاء المنكرين لعبادة غير الله تعالى في الجاهلية.

ب ـ كانت الحروب الإعلامية الضروس التي شنتها قريش على رسول الله ﷺ سببًا في تتبع عمرو بن عبسة لأخبار الرسول ﷺ.

جـ ـ جرأة وشدة قريش على رسول الله ﷺ، فقد وجده عمرو بن عبسة مستخفيًا وقومه جراء عليه.

د ـ الأدب في الدخول على أهل الفضل والمنزلة، قال عمرو بن عبسة: «فتلطفت حتى دخلت عليه».

هـ ـ الرسالة المحمدية تقوم على ركيزتين: حق الله، وحق الخلق، قال ﷺ: «أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان» وفي هذا دليل على أهمية صلة الأرحام، حيث كان هذا الخلق العظيم ألصق ما يكون بدعوة الإسلام، مع اقترانه بالدعوة إلى التوحيد، وقد ظهر في هذا البيان الهجوم على الأوثان بقوة، مع أنها كانت أقدس شيء عند العرب، وفي هذا دلالة

---

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين (رقم ٨٣٢).

على أهمية إِزالة معالم الجاهلية، وأن دعوة التوحيد لا تستقر ولا تنتشر، إِلا بزوال هذه المعالم.

و - وفي اهتمام النبي ﷺ المبكر بإِزالة الأوثان، مع عدم قدرته على تنفيذ ذلك في ذلك الوقت، دلالة على أن أمور الدين لا يجوز تأخير بيانها للناس، بحجة عدم القدرة على تطبيقها، فالذين يبينون للناس من أمور الدين ما يستطيعون تطبيقه بسهولة وأمن، ويحجمون عن بيان أمور الدين التي يحتاج تطبيقها إِلى شيء من المواجهة، والجهاد، هؤلاء دعوتهم ناقصة، ولم يقتدوا برسول الله ﷺ الذي واجه الجاهلية وطغاتها، وهو في قلة من أنصاره، والسيادة في بلده لأعدائه[١].

ز - حرص الرسول ﷺ على أمان صحابته، وتوفير الجو الآمن، والسير بهم إِلى بر الأمان وإبعادهم عن التعرض للمضايقات، قال لعمرو بن عبسة: «إِنك لا تستطيع يومك هذا...».

ح - تذكر رسول الله ﷺ لأحوال أصحابه وعدم نسيان مواقفهم، قال: «أنت الذي لقيتني بمكة».

ط - لم يكن رسول الله ﷺ ليعطي كل من أسلم قائمة بأسماء أتباعه، فهذا ليس للسائل منه مصلحة، ولا يتعلق به بلاغ، ولذلك لما سأل عمرو بن عبسة عمن تبعه قال: «حر وعبد» وهذه تورية، كما قال ابن كثير، بأن هذا اسم جنس، فَهِمَ منه عمرو أنه اسم عين[٢].

ي - في قوله ﷺ «ارجع إِلى أهلك فإِذا سمعت بي ظهرت فأتني»، نأخذ منه درسًا في الدعوة؛ أن تكديس المريدين والأعضاء حيث المحنة والإِيذاء، ليس هو الأصل، فهذا رسول الله ﷺ يوجه نحو الرجوع إِلى الأقوام، وأمر كما نرى بالهجرتين إِلى الحبشة، فذلك تخفيف عن المسلمين، وإِبعاد عن مواطن الخطر، وستر لقوة المسلمين، وإِعطاء فرصة للقائد حتى لا ينشغل، وضمان للسرية، وإِفادة للمكان المرسل إِليه، وإِعداد للمستقبل، وملاحظة لضمان الاستمرار، وتجنب الاستئصال[٣].

وممن أسلم بسبب الحرب الإِعلامية ضد الرسول ﷺ الطفيل بن عمرو الدوسي، وجاءت قصته مفصلة في كتب السيرة، ويرى الدكتور أكرم ضياء العمري، أنه لم يثبت منها إِلا أنه دعا رسول الله ﷺ للالتجاء إِلى حصن دوس المنيع، فأبى رسول الله ذلك[٤]، وأشارت رواية

---

(١) انظر: التاريخ الإِسلامي للحميدي (١/ ١٠٩).

(٢) انظر: الوحي وتبليغ الرسالة (ص ١٠٦، ١٠٩).

(٣) انظر: الأساس في السنّة، سعيد حوى (١/ ١٢٦).

(٤) صحيح مسلم (١/ ١٠٩).

صحيحة إلى أن الطفيل دعا قومه إلى الإسلام ولقي منهم صدودًا، حتى طلب الطفيل من رسول الله ﷺ أن يدعو عليهم، لكن رسول الله ﷺ دعا لهم بالهداية[١]. وكان الرسول آنئذٍ بالمدينة المنورة[٢].

٣ ـ إسلام الحصين والد عمران رضي الله عنه :

جاءت قريش إلى الحصين ـ وكانت تعظمه ـ فقالوا له: كلم لنا هذا الرجل فإنه يذكر آلهتنا، ويسبهم، فجاءوا معه حتى جلسوا قريبًا من باب النبي ﷺ فقال: «أوسعوا للشيخ». وعمران وأصحابه متوافرون، فقال حصين: ما هذا الذي بلغنا عنك، أنك تشتم آلهتنا، وتذكرهم، وقد كان أبوك حصينة[٣] وخيرًا؟ فقال: «يا حصين، إن أبي وأباك في النار، يا حصين، كم تعبد من إله»؟ قال: سبعًا في الأرض، وواحدًا في السماء. فقال: «فإذا أصابك الضر من تدعو»؟ قال: الذي في السماء. قال: «فإذا هلك المال من تدعو؟» قال: الذي في السماء. قال: «فيستجيب لك وحده، وتشركهم معه، أرضيته في الشكر أم تخاف أن يغلب عليك؟» قال: ولا واحدة من هاتين. قال: وعلمت أني لم أكلم مثله. قال: «ياحصين، أسلم تسلم». قال: إن لي قومًا وعشيرة، فماذا أقول؟ قال: «قل: اللهم أستهديك لأرشد أمري، وزدني علمًا ينفعني». فقالها حصين فلم يقم حتى أسلم. فقام إليه عمران فقبل رأسه، ويديه، ورجليه، فلما رأى ذلك النبي ﷺ بكى، وقال: «بكيت من صنيع عمران، دخل حصين وهو كافر، فلم يقم إليه عمران، ولم يلتفت ناحيته، فلما أسلم قضى حقه، فدخلني من ذلك الرقة». فلما أراد حصين أن يخرج قال لأصحابه: «قوموا فشيعوه إلى منزله» فلما خرج من سدة الباب رأته قريش، فقالوا: صبأ وتفرقوا عنه»[٤].

ولعل الذي حدا بالحصين والد عمران أن يسلم بهذه السرعة، سلامة فطرته وحسن استعداده من ناحية، وقوة حجة الرسول ﷺ وسلامة منطقه من ناحية أخرى[٥].

ونلاحظ أن رسول الله ﷺ استخدم أسلوب الحوار مع الحصين رضي الله عنه ، لغرس معاني التوحيد في نفسه، ونسف العقائد الباطلة التي كان يعتقدها.

٤ ـ إسلام أبي ذر رضي الله عنه :

كان أبو ذر رضي الله عنه منكرًا لحال الجاهلية، ويأبى عبادة الأصنام، وينكر على من يشرك بالله،

---

(١) صحيح البخاري، فتح الباري (٦/ ١٠٧).

(٢) السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٧٦)، انظر: السيرة النبوية الصحيحة، د. العمري (١/ ١٤٦).

(٣) حصينة: يعني عاقلاً متحصنًا بدين آبائه وأجداده ومعتقداتهم. انظر: النهاية لابن الأثير (١/ ٢٣٤).

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (١/ ٣٣٧) وعنه نقل الشيخ محمد يوسف في: حياة الصحابة (١/ ٧٥، ٧٦).

(٥) انظر: فقه الدعوة الفردية، د. السيد محمد نوح (ص ١٠٤).

وكان يصلي لله قبل إسلامه بثلاث سنوات، دون أن يخص قبلة بعينها بالتوجه، ويظهر أنه كان على نهج الأحناف، ولما سمع بالنبي ﷺ قدم إلى مكة، وكره أن يسأل عنه، حتى أدركه الليل، فاضطجع فرآه علي رضي الله عنه، فعرف أنه غريب، فاستضافه ولم يسأله عن شيء، ثم غادره صباحًا إلى المسجد الحرام، فمكث حتى أمسى، فرآه علي فاستضافه لليلة ثانية، وحدث مثل ذلك الليلة الثالثة، ثم سأله عن سبب قدومه، فلما استوثق منه أبو ذر أخبره بأنه يريد مقابلة الرسول ﷺ، فقال له علي: فإنه حق، وهو رسول الله، فإذا أصبحت فاتّبعني، فإني إن رأيتُ شيئًا أخاف عليك قمت كأني أريق الماء، فإن مضيت فاتبعني، فتبعه وقابل الرسول ﷺ واستمع إلى قوله، فأسلم، فقال له النبي ﷺ: «ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري». فقال: والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانَيْهم، فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وثار القوم حتى أضجعوه، فأتى العباس بن عبد المطلب، فحذرهم من انتقام غفار والتعرض لتجارتهم، التي تمر بديارهم إلى الشام، فأنقذه منهم[(١)]، وكان أبو ذر قبل مجيئه قد أرسل أخاه، ليعلم له علم النبي ﷺ، ويسمع من قوله ثم يأتيه، فانطلق الأخ حتى قدمه، وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر، فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلامًا ما هو بالشعر. فقال: ما شفيتني[(٢)] مما أردت[(٣)]، وعزم على الذهاب بنفسه لرسول الله ﷺ، فقال أخوه له: «وكن على حذر من أهل مكة فإنهم قد شَنِفُوا له وتجهموا»[(٤)].

• دروس وعبر وفوائد:

أ - شيوع ذكر رسول الله ﷺ بين القبائل، وأكثر من ساهم في ذلك مشركو قريش، بما اتخذوه من منهج التحذير والتشويه لرسول الله ﷺ، ولما جاء به، حتى وصل ذكره قبيلة غفار.

ب - تميز أبي ذر بأنه رجل مستقل في رأيه، لا تؤثر عليه الإشاعات، ولا تستفزه الدعايات، فيقبل كل ما تنشره قريش، ولذلك أرسل أخاه يستوثق له من خبر رسول الله ﷺ بعيدًا عن التأثيرات الإعلامية.

جـ - شدة اهتمام أبي ذر بأمر الرسول ﷺ: فلم يكتف بالمعلومات العامة التي جاء بها أخوه أنيس، بل أراد أن يقف على الحقيقة بعينها؛ حيث إن مجال البحث ليس عن رجل يأمر بالخير فحسب، وإنما عن رجل يذكر أنه نبي، ولذلك تحمل المشاق، والمتاعب وشظف العيش، والغربة عن الأهل والوطن في سبيل الحق، فأبو ذر ترك أهله واكتفى من الزاد

---

(١) صحيح البخاري (فتح الباري) (٧/ ١٧٣).

(٢) ما شفيتني مما أردت: ما بلغتني غرضي وأزلت عني همي.

(٣) صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي (ص ٨٣).

(٤) صحيح مسلم [٤/ ١٩٢٣ـ ورقمه (٢٤٧٣)] وشنفوا له: أي أبغضوه. وانظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ١٤٥).

بجراب، وارتحل إلى مكة، لمعرفة أمر النبوة[١].

د ـ التأني والتريث في الحصول على المعلومة: حيث تأنى أبو ذر ﷺ، لما يعرفه من كراهية قريش لكل من يخاطب الرسول ﷺ، وهذا التأني تصرف أمني، تقتضيه حساسية الموقف، فلو سأل عنه، لعلمت به قريش، وبالتالي قد يتعرض للأذى والطرد، ويخسر الوصول إلى هدفه، الذي من أجله ترك مضارب قومه، وتحمل في سبيله مصاعب ومشاق السفر.

هـ ـ الاحتياط والحذر قبل النطق بالمعلومة: حين سأل علي ﷺ أبا ذر ﷺ عن أمره وسبب مجيئه إلى مكة، لم يخبره بالرغم من أنه استضافه ثلاثة أيام إمعانًا في الحذر، فاشترط عليه قبل أن يخبره أن يكتم عنه، وفي الوقت ذاته أن يرشده، فهذا غاية في الاحتياط، وتم ما أراده.

و ـ التغطية الأمنية للتحرك: تم الاتفاق بين علي وأبي ذر ﷺ على إشارة، أو حركة معينة، كأنه يصلح نعله، أو كأنه يريق الماء، وذلك عندما يرى علي ﷺ من يترصدهما، أو يراقبهما، فهذه تغطية أمنية لتحركهم تجاه المقر (دار الأرقم)، هذا إلى جانب أن أبا ذر كان يسير على مسافة من علي، فيُعد هذا الموقف احتياطًا وتحسبًا لكل طارىء، قد يحدث أثناء التحرك.

ز ـ هذه الإشارات الأمنية العابرة تدل على تفوق الصحابة ﷺ في الجوانب الأمنية، وعلى مدى توافر الحس الأمني لديهم، وتغلغله في نفوسهم، حتى أصبح سمة مميزة لكل تصرف من تصرفاتهم الخاصة والعامة، فأتت تحركاتهم منظمة، ومدروسة، فما أحوجنا لمثل هذا الحس، الذي كان عند الصحابة، بعد أن أصبح للأمن في عصرنا أهمية بالغة في زوال واستمرار الحضارات[٢]، وأصبحت له مدارسه الخاصة، وتقنياته المتقدمة، وأساليبه ووسائله المتطورة، وأجهزته المستقلة، وميزانياته ذات الأرقام الكبيرة، وأضحت المعلومات عامة، والمعلومات الأمنية خاصة، تباع بأغلى الأثمان، ويضحى في سبيل الحصول عليها بالنفس إذا لزم الأمر. وما دام الأمر كذلك، فعلى المسلمين الاهتمام بالناحية الأمنية، حتى لا تصبح قضايانا مستباحة للأعداء، وأسرارنا في متناول أيديهم[٣].

ح ـ صدق أبي ذر في البحث عن الحق، ورجاحة عقله وقوة فهمه: فقد أسلم بعد عرض الإسلام عليه.

ط ـ حرص رسول الله ﷺ، واهتمامه بأمن أصحابه وسلامتهم: حيث أمر أبا ذر بالرجوع إلى أهله، وكتمان أمره حتى يظهره الله.

(١) انظر: الوحي وتبليغ الرسالة، د. يحيى اليحيى (ص ٩١ـ ٩٣).
(٢) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية، د. إبراهيم العلي (ص ٥٨، ٥٩).
(٣) انظر: دروس في الكتمان، محمود شيت خطاب (ص ٩).

ي - شجاعة أبي ذر وقوته في الحق: فقد جهر بإسلامه في نوادي قريش، ومجتمعاتهم تحديًا لهم وإظهارًا للحق[١]، وكأنه فهم أن أمر النبي ﷺ بالكتمان ليس على الإيجاب، بل على سبيل الشفقة عليه، فأعلمه بأنه به قوة على ذلك، ولهذا أقره النبي ﷺ على ذلك، ويؤخذ منه جواز قول الحق عند من يخشى منه الأذية لمن قاله، وإن كان السكوت جائزًا، والتحقيق أن ذلك مختلف باختلاف الأحوال والمقاصد، وبحسب ذلك يترتب وجود الأجر وعدمه[٢].

ك - كان موقف أبي ذر مفيدًا للدعوة، وساهم في مقاومة الحرب النفسية التي شنتها قريش ضد الرسول ﷺ، وكانت ضربة معنوية أصابت كفار مكة في الصميم، بسبب شجاعة ورجولة أبي ذر، وقدرته على التحمل، فقد سالت الدماء من جسده ثم عاد مرة أخرى للصدع بالشهادة.

ل - مدافعة العباس عن المسلمين، وسعيه لتخليص أبي ذر من أذى قريش، دليل على تعاطفه مع المسلمين، وكان أسلوبه في رد الاعتداء يدل على خبرته بنفوس كفار مكة، حيث حذرهم من الأخطار التي ستواجهها تجارتهم، عندما تمر بديار غِفار[٣].

م - امتثل أبو ذر للترتيبات الأمنية، التي اتخذها رسول الله ﷺ في مكة، فمع تعلق أبي ذر بالرسول ﷺ، وحبه له وحرصه على لقائه، إلا أنه امتثل أمر رسول الله ﷺ في مغادرة مكة إلى قومه، واهتم بصلاح وهداية الأهل، ودعوتهم للإسلام، فبدأ بأخيه، وأمه وقومه.

ن - أثر أبي ذر الدعوي على قومه وقدرته على هدايتهم وإقناعهم بالإسلام، ومع ذلك فلا يصلح للإمارة، روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله ألا تستعملني؟، قال: فضرب بيده على مَنْكِبي ثم قال: «يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها»[٤]، فكل شخص مجاله الذي سخره الله فيه، وميدانه الذي يقوم بواجبه فيه، فلا يعني أنه نجح في الدعوة وإقناع الناس أنه يصلح لكل شيء.

س - تفويض أبي ذر الإمامة إلى سيد غفار (أيماء بن رَحَضة)، ومع تقدم أبي ذر عليه في الإسلام وعلو منزلته، يدل على مهارة إدارية، وهي عدم جمع كل الأعمال في يده، وتقدير الناس وإنزالهم منازلهم[٥].

---

(١) انظر: الوحي وتبليغ الرسالة (ص ٩٥).

(٢) انظر: فتح الباري (٧/ ١٣٤).

(٣) انظر: الوحي وتبليغ الرسالة (ص ٩٤، ٩٥).

(٤) مسلم، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة (٣/ ١٤٥٧ رقم ١٨٢٥).

(٥) انظر: الوحي وتبليغ الرسالة (ص ١٠٠).

ع - نجاح أبي ذر الباهر في الدعوة: حيث أسلمت نصف غفار، وأسلم نصفها الثاني بعد الهجرة[(١)].

لقد فشلت محاولات التشويه والحرب الإعلامية، والحجر الفكري الذي كان الكفار يمارسونه على الدعوة الإسلامية في بداية عهدها، لأن صوت رسول الله ﷺ كان أقوى من أصواتهم، ووسائله في التبليغ، كانت أبلغ من وسائلهم، وثباته على مبدئه السامي، كان أعلى بكثير مما كان يتوقعه أعداؤه، فالرسول ﷺ لم يجلس في بيته، ولم ينزو في زاوية من زوايا المسجد الحرام، ليستخفي بدعوته، وليقي نفسه من سهام أعدائه المسمومة، بل إنه غامر بنفسه، فكان يخرج في مضارب العرب، قبل أن يفدوا إلى مكة، وكان يجهر بتلاوة القرآن في المسجد الحرام؛ ليسمع من كان في قلبه بقية من حياة، وأثارة من حرية وإباء، فيتسرب نور الهدى إلى مجامع لبه، وسويداء قلبه[(٢)]، وكان من هؤلاء ضماد الأزدي، وعمرو بن عَبَسة، وأبو ذر الغفاري، والطفيل بن عمرو الدوسي، وحصين والد عمران بن الحصين ، وهذا دليل قاطع، وبرهان ساطع على فشل حملات التشويه التي شنتها قريش ضد رسول الله ﷺ، فعلينا أن نعتبر ونستفيد من الدروس والعبر.

ثالثًا: ما تعرض له رسول الله ﷺ من الأذى والتعذيب:

لم يفتر المشركون عن أذى رسول الله ﷺ، منذ أن صدع بدعوته إلى أن خرج من بين أظهرهم، وأظهره الله عليهم، ويدل على ما مبلغ هذا الأذى تلك الآيات الكثيرة التي كانت تتنزل عليه في هذه الفترة تأمره بالصبر، وتدله على وسائله، وتنهاه عن الحزن، وتضرب له أمثلة من واقع إخوانه المرسلين، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المُزمّل: الآية ١٠].

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسَان: الآية ٢٤].

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النَّمل: الآية ٧٠].

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فُصّلَت: الآية ٤٣].

وهذه أمثلة تدل على ما تعرض له ﷺ من الإيذاء:

١ - **قال أبو جهل**: هل يعفر محمد وجهه[(٣)] بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم. فقال: واللات والعزى، لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرنَّ وجهه في التراب. قال:

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ٤٥).

(٢) التاريخ الإسلامي للحميدي (١/ ١٤٤).

(٣) يعفر وجهه: أي يسجد ويلصق وجه بالعَفَر وهو التراب.

فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فَجِئَهم[١] منه إلا وهو يَنْكُص على عقبيه[٢]، ويتقي بيديه. قال: فقيل له: مالك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار، وهولًا وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا»[٣].

وفي حديث ابن عباس قال: «كان النبي يصلي فجاء أبو جهل: فقال: ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ فانصرف النبي ﷺ فزبره[٤]، فقال أبو جهل: إنك لتعلم ما بها ناد أكثرُ مني، فأنزل الله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ [العَلق: ١٧ ـ ١٨] فقال ابن عباس: فوالله لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله»[٥].

٢ ـ **وعن ابن مسعود**: بينما رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، وجمع من قريش في مجالسهم إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائي؟ أيكم يقوم إلى جَزُور آل فلان، فَيعْمد إلى فرثها ودمها وسَلاها، فيجيء به ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه؟ فانبعث أشقاهم، فلما سجد رسول الله ﷺ وضعه بين كتفيه، وثبت النبي ﷺ ساجدًا، فضحكوا حتى مال بعضهم إلى بعض من الضحك، فانطلق منطلق إلى فاطمةب ـ وهي جويرية ـ فأقبلت تسعى، وثبت النبي ﷺ ساجدًا حتى ألقته عنه، وأقبلت عليهم تسبهم، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة، قال: «اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش». ثم سمَّى: «اللّهم عليك بعمرو بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعُمارة بن الوليد»، قال ابن مسعود: فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر، ثم سُحبوا إلى القليب[٦] ـ قليب بدر ـ ثم قال رسول الله ﷺ: «وأُتبع أصحاب القليب لعنةً»[٧].

وقد بينت الروايات الصحيحة الأخرى، أن الذي رمى الرفث عليه هو عقبة بن أبي معيط، وأن الذي حرضه هو أبو جهل[٨]، وأن المشركين تأثروا لدعوة الرسول، وشق عليهم الأمر، لأنهم يرون أن الدعوة بمكة مستجابة[٩].

---

(١) فَجِئَهم بكسر الجيم، ويقال أيضًا فَجَأَهم: بفتحهم.

(٢) عقبيه: رجع يمشي إلى الوراء.

(٣) مسلم، كتاب صفات المنافقين، باب قوله: «إن الإنسان ليطغى» (رقم ٢٧٩٧).

(٤) زبره: نهره.

(٥) الترمذي (رقم ٣٣٤٩)، حسن صحيح غريب.

(٦) القليب: البئر المفتوحة.

(٧) البخاري واللفظ له (برقم ٥٢٠)، (فتح الباري ١/ ٥٩٤)، مسلم (٣/ ١٤١٨ـ ١٤٢٠) ورقمه (١٠٧ـ ١٧٩٤).

(٨) صحيح مسلم (٣/ ١٤٢٠).

(٩) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ١٤٩).

٣ ـ اجتماع الملأ من قريش وضربهم الرسول ﷺ: اجتمع أشراف قريش يومًا في الحجر، فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قطُّ، سفَّه أحلامنا، وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم! فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسول الله ﷺ فوثبوا وثبة رجل واحد، وأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا ـ لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم ـ فيقول: «نعم، أنا الذي أقول ذلك»، ثم أخذ رجل منهم بمجمع ردائه، فقام أبو بكر رضي الله عنه دونه، وهو يبكي، ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله[١].

٤ ـ كان أبو لهب عم النبي ﷺ من أشد الناس عداوة له، وكذلك كانت امرأته أم جميل، من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ، وكانت تسعى بالإفساد بينه وبين الناس بالنميمة، وتضع الشوك في طريقه، والقذر على بابه، فلا عجب أن نزل فيهم قول الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ④ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ [سورة المَسَد: ١ ـ ٥]، فحين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصديق، وفي يدها فهر من حجارة، فلما وقفت عليهما قالت: يا أبا بكر، أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه! ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله أما تراها رأتك؟ فقال: «لقد أخذ الله ببصرها عني»، وكانت تنشد: مذ مم أبينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا، وكان رسول الله ﷺ يفرح لأن المشركين يسبون مذممًا يقول: «ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم، يشتمون مُذَمَّمًا، ويلعنون مُذَمَّمًا وأنا محمد»[٢].

وقد بلغ من أمر أبي لهب أنه كان يتبع رسول الله ﷺ في الأسواق والمجامع، ومواسم الحج ويكذبه[٣].

هذا بعض ما لاقاه رسول الله ﷺ من أذية المشركين، وقد ختم المشركون أذاهم لرسول الله ﷺ بمحاولة قتله في أواخر المرحلة المكية[٤]، وكان رسول الله ﷺ يذكر ما لاقاه من أذى قريش قبل أن ينال الأذى أحدًا من أتباعه، يقول: «لقد أُخفت في الله عز وجل وما يُخاف أحد، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، ولقد أتت عليّ ثلاثون من بين يوم وليلة ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال»[٥].

---

(١) صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي من طرق أخرى (ص ٩٦).

(٢) البخاري (ورقمه ٣٥٣٣)، (فتح الباري ٦/ ٥٥٤ـ ٥٥٥).

(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٢٩٣).

(٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٥٣).

(٥) سنن الترمذي (٤/ ٦٤٥) ورقمه (٢٤٧٢)، صححه الألباني ـ صحيح الجامع (٥٠٠١).

ومع ما له ﷺ من عظيم القدر، ومنتهى الشرف، إلا أنه قد حظي من البلاء بالحمل الثقيل، والعناء الطويل، منذ أول يوم صدع فيه بالدعوة، ولقد لقي النبي ﷺ من سفهاء قريش أذى كثيرًا، فكان إذا مر على مجالسهم بمكة استهزأوا به، وقالوا ساخرين: هذا ابن أبي كبشة[١]، يُكلم من السماء، وكان أحدهم يمر على الرسول ﷺ، فيقول له ساخرًا: أما كُلِّمت اليوم من السماء[٢].

ولم يقتصر الأمر على مجرد السخرية والاستهزاء، والإيذاء النفسي، بل تعداه إلى الإيذاء البدني، بل قد وصل الأمر إلى أن يبصق عدو الله أمية بن خلف في وجه النبي ﷺ[٣]، وحتى بعد هجرته عليه السلام إلى المدينة لم تتوقف حدة الابتلاء والأذى، أخذت خطًا جديدًا، بظهور أعداء جدد، فبعد أن كانت العداوة تكاد تكون مقصورة على قريش بمكة، صار له ﷺ أعداء من المنافقين المجاورين بالمدينة، ومن اليهود والفرس والروم، وأحلافهم، وبعد أن كان الأذى بمكة شتمًا وسخرية، وحصارًا، وضربًا، صار مواجهة عسكرية مسلحة، حامية الوطيس، فيها كر وفر، وضرب وطعن؛ فكان ذلك بلاء في الأموال والأنفس على السواء[٤]، وهكذا كانت فترة رسالته ﷺ وحياته سلسلة متصلة من المحن والابتلاء، فما وهن لما أصابه في سبيل الله، بل صبر، واحتسب حتى لقي ربه[٥].

لقد واجه الرسول ﷺ من الفتن والأذى والمحن ما لا يخطر على بال، في مواقف متعددة، وكان ذلك على قدر الرسالة التي حُملها، ولذلك استحق المقام المحمود، والمنزلة الرفيعة عند ربه، وقد صبر على ما أصابه، إشفاقًا على قومه أن يصيبهم مثل ما أصاب الأمم الماضية من العذاب، وليكون قدوة للدعاة والمصلحين[٦]. فإذا كان الاعتداء الأثيم، قد نال رسول الله ﷺ، فلم يعد هناك أحد ـ لكرامته ـ أكبر من الابتلاء والمحنة، وتلك سنة الله في الدعوات، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل، فالأمثل، يُبتلى الرجل على حَسَب دينه، فإن كان في دينه صُلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»[٧].

---

(١) والد الرسول ﷺ من الرضاعة.

(٢) الروض الأنف (٢/ ٣٣) وما بعدها.

(٣) المصدر السابق نفسه (٢/ ٤٨).

(٤) زاد اليقين لأبي شنب (ص ١٣٧).

(٥) التمكين للأمة الإسلامية (ص ٢٤٣).

(٦) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي، د. سليمان السويكت (ص ١٩٧).

(٧) ابن ماجه، باب الصبر على البلاء (رقم ٤٠٢٣). وقال الألباني: حسن صحيح (برقم ٤٠٩٥) في صحيح سنن ابن ماجه.

رابعًا: ما تعرض له أصحاب رسول الله ﷺ من الأذى والتعذيب:

١ ـ ما لاقاه أبو بكر الصديق رضي الله عنه :

تحمل الصحابة رضوان الله عليهم من البلاء العظيم ما تنوء به الرواسي الشامخات، وبذلوا أموالهم ودماءهم في سبيل الله، وبلغ بهم الجهد ما شاء الله أن يبلغ، ولم يسلم أشراف المسلمين من هذا الابتلاء، فلقد أوذي أبو بكر رضي الله عنه، وحُثي على رأسه التراب، وضُرب في المسجد الحرام بالنعال، حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وحُمل إلى بيته في ثوبه، وهو ما بين الحياة والموت[1]، فقد روت عائشة رضي الله عنها ـ أنه لَمَّا اجتمع أصحاب النبي ﷺ، وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً، ألحّ أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ في الظهور، فقال: «يا أبا بكر إنا قليل» فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ وتفرق المسلمون في نواحي المسجد، كل رجل في عشيرته، وقام أبو بكر في الناس خطيبًا ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلى الله تعالى، وإلى رسوله ﷺ، وثار المشركون على أبي بكر، وعلى المسلمين، فضربوهم في نواحي المسجد ضربًا شديدًا، وَوُطِىء أبو بكر، وضرب ضربًا شديدًا، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة، فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويُحرِّفهما لوجهه، ونزا على بطن أبي بكر رضي الله عنه، حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وجاءت بنو تيم يتعادون فأجلت المشركين عن أبي بكر، وحَمَلَتْ بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله، ولا يشكون في موته، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد، وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة، فرجعوا إلى أبي بكر فجعل أبو قحافة (والده) وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب، فتكلم آخر النهار، فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فمسُّوا منه بألسنتهم وعذلوه، وقالوا لأمه، أم الخير: انظري أن تطعميه شيئًا، أو تسقيه إياه، فلما خلت به ألحت عليه، وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: والله مالي علم بصاحبك فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب، فاسأليها عنه؛ فخرجت حتى جاءت أم جميل، فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله، فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك، قالت: نعم، فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعًا دَنفًا، فدنت أم جميل، وأعلنت بالصياح، وقالت: والله إن قومًا نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، إنني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم، قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: هذه أمك تسمع، قال: فلا شيء عليك منها. قالت: سالم صالح. قال: أين هو؟. قالت: في دار الأرقم، قال: فإن لله عليَّ أن لا أذوق طعامًا ولا أشرب شرابًا أو آتي رسول الله ﷺ، فأمهلتا حتى إذا هدأت الرِّجل وسكن الناس، خرجتا به يتكىء عليهما، حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ فقال: فأكب عليه رسول الله ﷺ فقبله، وأكب عليه المسلمون، ورقّ له رسول الله ﷺ رقة شديدة، فقال أبو بكر: بأبي وأمي يا رسول الله، ليس

---

(١) التمكين للأمة الإسلامية (ص ٢٤٣).

بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمي برة بولدها، وأنت مبارك، فادعها إلى الله، وادع الله لها، عسى الله أن يستنقذها بك من النار، قال: فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله فأسلمت(١).

دروس وعبر وفوائد:

أ - حِرْصُ أبي بكر رضي الله عنه على إعلان الإسلام، وإظهاره أمام الكفار، وهذا يدل على قوة إيمانه وشجاعته، وقد تَحَمَّل الأذى العظيم، حتى إن قومه كانوا لا يشكون في موته.

ب - مدى الحب الذي كان يكنه أبو بكر لرسول الله ﷺ، حيث إنه - وهو في تلك الحال الحرجة - يسأل عنه، ويُلِحُّ إلحاحًا عجيبًا في السؤال، ثم يحلف أن لا يأكل، ولا يشرب، حتى يراه، كيف يتم ذلك، وهو لا يستطيع المشي بل النهوض؟ ولكنه الحب الذي في الله، والعزائم التي تقهر الصعاب، وكل مصاب في سبيل الله، ومن أجل رسوله ﷺ هين ويسير.

جـ - إن العصبية القبلية، كان لها في ذلك الحين دور في توجيه الأحداث، والتعامل مع الأفراد، حتى مع اختلاف العقيدة، فهذه قبيلة أبي بكر تهدد بقتل عتبة إن مات أبو بكر(٢).

د - الحس الأمني لأم جميل - رضي الله عنها - فقد برز في عدة تصرفات لعل من أهمها:

*** إخفاء الشخصية والمعلومة عن طريق الإنكار:**

عندما سألت أُمُّ الخير أمَّ جميل عن مكان الرسول ﷺ، أنكرت أنها تعرف أبا بكر، ومحمد بن عبد الله، فهذا تصرف حذر سليم، إذ لم تكن أم الخير ساعتئذٍ مسلمة، وأم جميل كانت تخفي إسلامها، ولا تود أن تعلم به أم الخير، وفي الوقت ذاته أخفت عنها مكان الرسول ﷺ مخافة أن تكون عينًا لقريش(٣).

*** استغلال الموقف لإيصال المعلومة:**

فأم جميل أرادت أن تقوم بإيصال المعلومة بنفسها لأبي بكر رضي الله عنه، وفي الوقت ذاته لم تظهر ذلك لأم الخير، إمعانًا في السرية والكتمان، فاستغلت الموقف لمصلحتها قائلة: «إن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك فعلت» وقد عرضت عليها هذا الطلب بطريقة تنم عن الذكاء، وحسن التصرف، فقولها: «إن كنت تحبين» - وهي أمه - وقولها: «إلى ابنك» ولم تقل لها إلى أبي بكر، كل ذلك يحرك في أم الخير عاطفة الأمومة، فغالبًا ما تخضع لهذا

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٤٣٩ـ ٤٤١)، البداية والنهاية (٣/ ٣٠).

(٢) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي (ص ٧٩).

(٣) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية (ص ٥٠).

الطلب، وهذا ما تم بالفعل، حيث أجابتها بقولها: «نعم» وبالتالي نجحت أم جميل في إيصال المعلومة بنفسها.

* استغلال الموقف في كسب عطف أم أبي بكر:

يبدو أن أم جميل حاولت أن تكسب عطف أم الخير، فاستغلت وضع أبي بكر ﷺ، الذي يظهر فيه صريعًا دَنِفًا، فأعلنت بالصياح، وسَبَّتْ من قام بهذا الفعل بقولها: «إن قومًا نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر» فلا شك أن هذا الموقف من أم جميل يشفي بعض غليل أم الخير، من الذين فعلوا ذلك بابنها، فقد تُكِنّ شيئًا من الحب لأم جميل، وبهذا تكون أم جميل كسبت عطف أم الخير، وثقتها، الأمر الذي يسهل مهمة أم جميل في إيصال المعلومة إلى أبي بكر ﷺ [١].

* الاحتياط والتأني قبل النطق بالمعلومة:

لقد كانت أم جميل في غاية الحيطة والحذر، من أن تتسرب هذه المعلومة الخطيرة، عن مكان قائد الدعوة، فهي لم تطمئن بعد إلى أم الخير، لأنها ما زالت مشركة آنذاك، لم تأمن جانبها، لذا ترددت عندما سألها أبو بكر ﷺ، عن حال رسول الله ﷺ فقالت له: هذه أمك تسمع؟ فقال لها: لا شيء عليك منها، فأخبرته ساعتها بأن الرسول ﷺ سالم صالح[٢]، وزيادة في الحيطة والحذر والتكتم، لم تخبره بمكانه إلا بعد أن سألها عنه قائلاً: أين هو؟ فأجابته: في دار الأرقم.

* تخير الوقت المناسب لتنفيذ المهمة:

حين طلب أبو بكر ﷺ الذهاب إلى دار الأرقم، لم تستجب له أم جميل على الفور، بل تأخرت عن الاستجابة، حتى إذا هدأت الرِّجل وسكن الناس، خرجت به ومعها أمه يتكىء عليهما، فهذا هو أنسب وقت للتحرك وتنفيذ هذه المهمة، حيث تنعدم الرقابة من قبل أعداء الدعوة، مما يقلل من فرض كشفها، وقد نفذت المهمة بالفعل دون أن يشعر بها الأعداء، حتى دخلت أم جميل وأم الخير بصحبة أبي بكر إلى دار الأرقم، وهذا يؤكد أن الوقت المختار كان أنسب الأوقات[٣].

د ـ قانون المنحة بعد المحنة، حيث أسلمت أُمُّ الخير أم أبي بكر، بسبب رغبة الصديق في إدخال أمه إلى حظيرة الإسلام، وطلبه من الرسول ﷺ الدعاء لها، لما رأى من برّها به،

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية (ص ٥١).

(٣) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجواب الحذر والحماية (ص ٥٠ـ ٥٢)، وقد استفدت من هذا الكتاب في هذه الدروس الأمنية.

وقد كان ﷺ حريصًا على هداية الناس الآخرين، فكيف بأقرب الناس إليه[١].

هـ - إن من أكثر الصحابة الذين تعرضوا لمحنة الأذى والفتنة بعد رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق ﷺ، نظرًا لصحبته الخاصة له، والتصاقه به في المواطن التي كان يتعرض فيها للأذى من قومه، فينبري الصديق مدافعًا عنه وفاديًا إياه بنفسه، فيصيبه من أذى القوم وسفههم، هذا مع أن الصديق يعتبر من كبار رجال قريش المعروفين بالعقل والإحسان[٢].

٢ - بلال ﷺ :

تضاعف أذى المشركين لرسول الله ﷺ ولأصحابه، حتى وصل إلى ذروة العنف، وخاصة في معاملة المستضعفين من المسلمين، فنكلت بهم لتفتنهم عن عقيدتهم وإسلامهم، ولتجعلهم عبرة لغيرهم، ولتنفس عن حقدها، وغضبها بما تصبه عليهم من العذاب.

قال عبد الله بن مسعود ﷺ : «أول من أظهر الإسلام سبعة، رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد، فأما رسول الله ﷺ، فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدراع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم إنسان إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلال، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأعطوه الولدان، وأخذوا يطوفون به شعاب مكة وهو يقول: أحد أحد»[٣] لم يكن لبلال ﷺ ظهر يسنده، ولا عشيرة تحميه، ولا سيوف تذود عنه، ومثل هذا الإنسان في المجتمع الجاهلي المكي، يعادل رقمًا من الأرقام، فليس له دور في الحياة إلا أن يخدم ويطيع، ويباع ويشترى كالسائمة، أما أن يكون له رأي، أو يكون صاحب فكر، أو صاحب دعوة، أو صاحب قضية، فهذه جريمة شنعاء في المجتمع الجاهلي المكي، تهز أركانه وتزلزل أقدامه، ولكن الدعوة الجديدة التي سارع لها الفتيان، وهم يتحدون تقاليد وأعراف آبائهم الكبار، لامست قلب هذا العبد المرمي المنسي، فأخرجته إنساناً جديدًا على الوجود[٤]، فقد تفجرت معاني الإيمان في أعماقه بعد أن آمن بهذا الدين، وانضم إلى محمد ﷺ وإخوانه في موكب الإيمان العظيم، وهاهو الآن يتعرض للتعذيب من أجل عقيدته ودينه، فصد وزير رسول الله ﷺ الصديق، موقعَ التعذيب، وفاوض أُمية بن خلف، وقال له: «ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ حتى متى! قال: أنت الذي أفسدته فأنقذه مما ترى؛ فقال أبو بكر: أفعل، عندي غلام أسود أجلد منه، وأقوى. على دينك أعطيكه به؛ قال: قد قبلت؛ فقال: هو لك، فأعطاه أبو بكر الصديق ﷺ غلامه ذلك، وأخذه فأعتقه»[٥] وفي رواية:

(١) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي (ص ٧٩).

(٢) المصدر نفسه (ص ٧٥).

(٣) انظر: أحمد (١/ ٤٠٤ ورقمه ٣٨٣٢) بإسناد حسن.

(٤) انظر: التربية القيادية (١/ ١٣٦).

(٥) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٩٤).

اشتراه بسبع أواق، أو بأربعين أوقية ذهبًا[1]. ما أصبر بلالاً، وما أصلبه رضي الله عنه، فقد كان صادق الإسلام، طاهر القلب، ولذلك صَلُب، ولم تَلِنْ قناته أمام التحديات، وأمام صنوف العذاب، وكان صبره، وثباته مما يغيظهم ويزيد حنقهم، خاصة أنه كان الرجل الوحيد من ضعفاء المسلمين، الذي ثبت على الإسلام، فلم يوات الكفار فيما يريدون، مرددًا كلمة التوحيد بتحدٍ صارخ، وهانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه[2].

وبعد كل محنة منحة، فقد تخلص بلال من العذاب والنكال، وتخلص من أسر العبودية، وعاش مع رسول الله ﷺ بقية حياته ملازمًا له، ومات راضيًا عنه، مبشرًا إياه بالجنة، فقد قال ﷺ لبلال: «... فإني سمعت خَشْفَ نعليك بين يدي في الجنة»[3].

وأما مقامه عند الصحابة، فقد كان عمر رضي الله عنه يقول: «أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا» يعني بلالاً[4].

وأصبح منهج الصديق في فك رقاب المستضعفين، ضمن الخطة التي تبنتها القيادة الإسلامية لمقاومة التعذيب، الذي نزل بالمستضعفين، فمضى يضع ماله في تحرير رقاب المؤمنين، المنضمين إلى هذا الدين الجديد من الرق:

«... ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب، بلال سابعهم؛ عامر بن فُهيرة شهد بدرًا وأحدًا، وقُتل يوم بئر معونة شهيدًا، وأم عُبيس، وزِنِّيرة وأصيب بصرها حين أعتقها، فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى، فقالت: كذبوا وبيت الله ما تضر اللات والعزى، وما تنفعان، فرَدَّ الله بصرها» وأعتق النَّهْدِية وبنتها، وكانتا لامرأة من بني عبد الدار، فمرَّ بهما، وقد بعثتهما سيدتهما بطحين لها وهي تقول: والله لا أعتقكما أبدًا، فقال أبو بكر رضي الله عنه: حِلّ[5] يا أم فلان فقالت: حِلّ، أنت أفسدتهما فأعتقهما، قال: فبكم هما؟ قالت: بكذا وكذا، قال: قد أخذتهما، وهما حرتان، أَرْجِعا إليها طحينها، قالتا: أَوَ نَفْرُغ منه يا أبا بكر ثم نرده إليها؟ قال: وذلك إن شئتما»[6].

وهنا وقفة تأمل ترينا كيف سوَّى الإسلام بين الصديق، والجاريتين حتى خاطبتاه، خطاب الند للند، لا خطاب المسود للسيد، وتقبل الصديق على شرفه وجلالته في الجاهلية والإسلام منهما ذلك، مع أن له يدًا عليهما بالعتق، وكيف صقل الإسلام الجاريتين حتى تخلقتا بهذا

---

(١) التربية القيادية (١/ ١٤٠).
(٢) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي، (ص ٩٢).
(٣) صحيح مسلم (٢/ ١٩١٠) رقم الحديث (٢٤٥٨).
(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ٢٣٢) ورجاله ثقات.
(٥) حل: تحللي من يمينك.
(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٩٣).

الخلق الكريم، وكان يمكنهما وقد أعتقتا وتحررتا من الظلم، أن تدعا لها طحينها، يذهب أدراج الرياح، أو يأكله الحيوان والطير، ولكنهما أبتا ـ تفضلاً ـ إلا أن تفرغا منه، وترداه إليها[(١)].

ومرَ الصديق بجارية بني مؤمل، حي من بني عدي بن كعب، وكانت مسلمة، وعمر بن الخطاب يعذبها، لتترك الإسلام، وهو يومئذ مشرك، وهو يضربها، حتى إذا ملَّ قال: إني أعتذر إليك، إني لم أتركك إلا عن ملالة فتقول: كذلك فعل الله بك، فابتاعها أبو بكر فأعتقها[(٢)].

هكذا كان واهب الحريات، ومحرر العبيد، شيخ الإسلام الوقور، الذي عرف بين قومه بأنه يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نواب الحق، لم ينغمس في إثم في جاهليته، أليف مألوف، يسيل قلبه رقة ورحمة على الضعفاء، والأرقاء، أنفق جزءًا كبيرًا من ماله، في شراء العبيد، وأعتقهم لله، وفي الله، قبل أن تنزل التشريعات الإسلامية المحببة في العتق، والواعدة عليه أجزل الثواب[(٣)].

كان المجتمع المكي يتندر بأبي بكر رضي الله عنه الذي يبذل هذا المال كله لهؤلاء المستضعفين، أما في نظر الصديق، فهؤلاء إخوانه في الدين الجديد، فكل واحد من هؤلاء لا يساوي عنده مشركي الأرض وطغاتها، وبهذه العناصر وغيرها تُبنى دولة التوحيد، وتصنع حضارة الإسلام، الرائدة والرائعة[(٤)]، ولم يكن الصديق يقصد بعمله هذا محمدة، ولا جاهًا، ولا دنيا، وإنما كان يريد وجه الله ذا الجلال والإكرام، لقد قال له أبوه ذات يوم: «يا بُنَي إني أراك تعتق رقابًا ضعافًا، فلو أنك إذ فعلت أعتقت رجالاً جُلْدًا يمنعونك، ويقومون دونك؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا أبت إني إنما أريد ما أريد لله عز وجل» فلا عجب إذا كان الله سبحانه أنزل في شأن الصديق قرآناً يتلى إلى يوم الدين، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝١٥ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝١٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝١٩ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾[(٥)] [الليل: الآيات ٥ ـ ٢١].

كان هذا التكافل بين أفراد الجماعة الإسلامية الأولى قمة من قمم الخير والعطاء، وأصبح

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٣٤٦).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٩٣).

(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٣٤٥).

(٤) انظر: التربية القيادية (١/ ٣٤٢).

(٥) سيرة ابن هشام (١/ ٣١٩)، تفسير الآلوسي (٣٠/ ١٥٢).

هؤلاء العبيد بالإسلام أصحاب عقيدة وفكرة، يناقشون بها وينافحون عنها، ويجاهدون في سبيلها، وكان إقدام أبي بكر رضي الله عنه على شرائهم ثم إعتاقهم دليلاً على عظمة هذا الدين، ومدى تغلغله في نفسية الصديق رضي الله عنه، وما أحوج المسلمين اليوم أن يُحْيُوا هذا المثل الرفيع، والمشاعر السامية، ليتم التلاحم والتعايش، والتعاضد بين أبناء الأمة، التي يتعرض أبناؤها للإبادة الشاملة من قبل أعداء العقيدة والدين.

٣ ـ عمار بن ياسر وأبوه وأمه رضي الله عنهم :

كان والد عمار ياسر من بني عنس من قبائل اليمن، قدم مكة وأخواه الحارث ومالك يطلبون أخًا لهم، فرجع الحارث ومالك إلى اليمن، وأقام ياسر بمكة، وحالف أبا حذيفة بن المغيرة المخزومي[١]، فزوجه أبو حذيفة أمةً له يقال لها سُمَيَّة بنت خياط، فولدت له عمارًا، فأعتقه أبو حذيفة الذي لم يلبث أن مات، وجاء الإسلام، فأسلم ياسر وسمية وعمار، وأخوه عبد الله بن ياسر، فغضب عليهم مواليهم بنو مخزوم غضبًا شديدًا، صبّوا عليهم العذاب صبًّا، كانوا يخرجونهم إذا حميت الظهيرة فيعذبونهم برمضاء مكة[٢]، ويقلبونهم ظهرًا لبطن[٣]، فيمر عليهم الرسول ﷺ وهم يعذبون، فيقول: «صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة»[٤]، وجاء أبو جهل إلى سمية فقال لها: ما آمنت بمحمد إلا لأنك عشقته لجماله، فأغلظت له القول، فطعنها بالحرية في ملمس العفة فقتلها، فهي أول شهيدة في الإسلام، (رضي الله عنها[٥])، وبذلك سطرت بهذا الموقف الشجاع أعلى وأغلى ما تقدمه امرأة في سبيل الله، لتبقى كل امرأة مسلمة، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ترنو إليها، ويهفو قلبها إلى الاقتداء بها، فلا تبخل بشيء في سبيل الله، بعد أن جادت سمية بنت خياط بدمها في سبيل الله[٦].

وقد جاء في حديث عثمان رضي الله عنه قال: «أقبلت مع رسول الله ﷺ آخذًا بيدي نتمشى بالبطحاء، حتى أتى على آل عمار بن ياسر، فقال أبو عمار: يا رسول الله الدهر هكذا؟ فقال له النبي ﷺ: اصبر، ثم قال: اللهم اغفر لآل ياسر، وقد فعلت»[٧]، ثم لم يلبث ياسر أن مات تحت العذاب.

---

(١) انظر: أنساب الأشراف للبلاذُرِي (١/ ١٠٠، ١٥٧).

(٢) ابن هشام السيرة النبوية (٢/ ٦٨).

(٣) بهجة المحافل للعامري (١/ ٩٢).

(٤) صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي (ص ٩٧، ٩٨).

(٥) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي (ص ٩٩).

(٦) التربية القيادية (١/ ٢١٧).

(٧) صحيح السيرة النبوية (ص ٩٨)، أورده الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٩٣) وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

لم يكن في وسع النبي ﷺ أن يقدم شيئًا لآل ياسر، رموز الفداء والتضحية، فليسوا بأرقاء حتى يشتريهم ويعتقهم، وليست لديه القوة ليستخلصهم من الأذى والعذاب، فكل ما يستطيعه ﷺ أن يزف لهم البشرى بالمغفرة والجنة، ويحثهم على الصبر؛ لتصبح هذه الأسرة المباركة قدوة للأجيال المتلاحقة، ويشهد الموكب المستمر على مدار التاريخ هذه الظاهرة «صبرًا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة»(١).

أما عمار رضي الله عنه فقد عاش بعد أهله زمنًا يكابد من صنوف العذاب ألوانًا، فهو يُصنَّف في طائفة المستضعفين، الذين لا عشائر لهم بمكة تحميهم، وليست لهم منعة ولا قوة، فكانت قريش تعذبهم في الرمضاء بمكة، أنصاف النهار ليرجعوا عن دينهم، وكان عمار يعذب حتى لا يدري ما يقول(٢)، ولما أخذه المشركون ليعذبوه لم يتركوه حتى سبَّ النبي ﷺ، وذكر آلهتهم بخير، فلما أتى النبي ﷺ قال: «ما وراءك؟» قال: شر، والله ما تركني المشركون حتى نلت منك، وذكرت آلهتهم بخير، قال: «كيف تجد قلبك»؟ قال: مطمئنًا بالإيمان، قال: «فإن عادوا فعُد»(٣)، ونزل الوحي بشهادة الله تعالى على صدق إيمان عمار، قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النحل: الآية ١٠٦] وقد حضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ(٤).

وفي حادثتي بلال وعمار فقه عظيم يتراوح بين العزيمة والرخصة، يحتاج من الدعاة أن يستوعبوه، ويضعوه في إطاره الصحيح، وفي معاييره الدقيقة دون إفراط وتفريط.

٤ ـ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه:

تعرض للفتنة من قبل والدته الكافرة، فامتنعت عن الطعام والشراب، حتى يعود إلى دينها. قال ابن كثير: «قال الطبراني في كتاب العشرة أن سعدًا، قال: أنزلت فيّ هذه الآية: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ﴾ [لقمان: الآية ١٥].

وقال: كنت رجلاً بَرًّا بأمي، فلما أسلمتُ، قالت: يا سعد، ما هذا الذي أراك قد أحدثت، لتدعنَّ دينك هذا، أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فتُعيَّر بي، فيقال: يا قاتل أمه، فقلت: لا تفعلي يا أُمَّه فإني لا أدع ديني هذا لشيء، فمكثت يومًا وليلة لم تأكل، فأصبحت قد جهدت، فمكثت يومًا آخر وليلة أخرى لم تأكل، فأصبحت قد جهدت، فمكثت يومًا وليلة أخرى لا تأكل، فأصبحت قد اشتد جهدها، فلما رأيتُ ذلك، قلت: يا أُمَّه،

---

(١) التربية القيادية (١/ ٢١٧، ٢١٨).

(٢) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي (ص ١٠٠).

(٣) انظر: فقه السيرة، الغزالي (ص ١٠٣).

(٤) المصدر نفسه.

تعلمين، والله، لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسًا نفسًا، ما تركت ديني هذا لشيء، فإن شئت فكلي وإن شئت لا تأكلي، فأكلت»[١].

وروى مسلم: أن أم سعد حلفت أن لا تكلمه أبدًا حتى يكفر بدينه، ولا تأكل ولا تشرب، قالت: زعمتَ أن الله وصَّاك بوالديك، وأنا أمك، وأنا آمرك بهذا، قال: مكثت ثلاثًا حتى غُشي عليها من الجهد، فقام ابن لها يقال له عُمارة، فسقاها، فجعلت تدعو على سعد، فأنزل الله ﷻ في القرآن الكريم هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى﴾ [العنكبوت: ٨] [٢] وفيها ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ﴾ [لقمان: الآية ١٥].

قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها بعصًا ثم أَوْجَرُوها[٣]، فمحنة سعد محنة عظيمة، وموقفه موقف فذ يدل على مدى تغلغل الإيمان في قلبه، وأنه لا يقبل فيه مساومة مهما كانت النتيجة[٤].

ومن خلال تتبع القرآن المكي، نجد أنه رغم قطع الولاء، سواء في الحب أو النصرة بين المسلم وأقاربه الكفار، فإن القرآن أمر بعدم قطع صلتهم وبرهم والإحسان إليهم، ومع ذلك فلا ولاء بينهم، لأن الولاء لله ورسوله ودينه والمؤمنين[٥].

٥ ـ مصعب بن عمير رضي الله عنه:

كان مصعب بن عمير رضي الله عنه أنعم غلام بمكة، وأجوده حلة، وكان أبواه يحبانه، وكانت أمه مليئة كثيرة المال، تكسوه أحسن ما يكون من الثياب وأرقه، وكان أعطر أهل مكة، يلبس الحضرمي من النعال[٦]، وبلغ من شدة كلف أمه به أنه يبيت وقَعْبُ الحَيْس[٧] عند رأسه،

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/٤٤٦) عند الآية (١٥) من سورة لقمان، مع ملاحظة وجود حذف وإضافة في بعض ألفاظ الرواية في بعض الطبعات.

(٢) تعقيب: هكذا وردت ألفاظ الآية في صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاص، وفي شرح النووي على مسلم، ولم يتكلم عليها الإمام النووي؛ والصواب الموجود في القرآن هو أن نص الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآۚ﴾ [وهي الآية ٨ من العنكبوت] وكذلك نص الآية (١٤) من لقمان هو: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ والآية (١٥) التالية لها نصها: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ﴾ فلا أدري كيف جاء هذا في رواية مسلم المذكورة. (المراجع).

(٣) صحيح مسلم (٢/١٨٧٧، ١٨٧٨) ورقم الحديث [٤٣، ٤٤ ـ (١٧٤٨)]. وشجروا فاها، وأوجروها، يعني: فتحوا فمها وصبُّوا فيه الطعام.

(٤) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي (ص ١٠٦).

(٥) انظر: الولاء والبراء، محمد القحطاني (ص ١٧٤، ١٧٥).

(٦) الطبقات الكبرى (٣/١١٦).

(٧) القَعْب: القَدَح الغليظ، والحَيْس: تمر وأَقِط وسمن تخلط وتعجن.

فإذا استيقظ من نومه أكل[١]، ولما علم أن رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام في دار الأرقم بن أبي الأرقم دخل عليه فأسلم، وصدّق به، وخرج فكتم إسلامه خوفًا من أمه وقومه، فكان يختلف إلى رسول الله ﷺ سرًّا، فبصر به عثمان بن طلحة[٢] يصلي فأخبر أمه وقومه، فأخذوه وحبسوه، فلم يزل محبوسًا حتى خرج إلى أرض الحبشة في الهجرة الأولى[٣].

قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: لقد رأيته جهد في الإسلام جهدًا شديدًا حتى لقد رأيت جلده يتحشَّف ـ أي يتطاير ـ تحشُّف جلد الحية عنها، حتى إن كنا لنعرضه على قتبنا فنحمله مما به من الجهد[٤]، وكان رسول الله ﷺ كلما ذكره، قال: «ما رأيت بمكة أحدًا أحسن لمة ولا أرق حلة ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير»[٥]، ومع كل ما أصابه رضي الله عنه من بلاء ومحنة، ووهن في الجسم والقوة، وجفاء من أقرب الناس إليه، لم يقصر عن شيء مما بلغه أصحاب رسول الله ﷺ من الخير، والفضل، والجهاد في سبيل الله تعالى، حتى أكرمه الله تعالى بالشهادة يوم أحد[٦].

يعتبر مصعب رضي الله عنه نموذجًا من تربية الإسلام للمترفين الشباب، للمنعمين من أبناء الطبقات الغنية المرفهة، لأبناء القصور والمال والجاه، للمعجبين بأشخاصهم، المبالغين في تأنقهم، الساعين وراء مظاهر الحياة، كيف تغيرت؟ ووقف بعد إسلامه قويًّا لا يضعف، ولا يتكاسل، ولا يتخاذل، ولا تقهره نفسه وشهواته، فيسقط في جحيم النعيم الخادع[٧].

لقد ودع ماضيه بكل مافيه من راحة ولذة، وهناءة، يوم دخل هذا الدين، وبايع تلك البيعة، وكان لا بد له من المرور في درب المحنة، لكي يصقل إيمانه، ويتعمق يقينه، وكان مصعب مطمئنًا راضيًا، رغم ما حوله من جبروت ومخاوف، ورغم ما نزل به من البؤس والفقر والعذاب، ورغم ما فقده من مظاهر النعم والراحة[٨]، فقد تعرض لمحنة الفقر، ومحنة فقد الوجاهة، والمكانة عند أهله، ومحنة الأهل والأقارب والعشيرة، ومحنة الجوع والتعذيب، ومحنة الغربة والابتعاد عن الوطن، فخرج من كل تلك المحن منتصرًا بدينه وإيمانه، مطمئنًا أعمق الاطمئنان، ثابتًا أقوى الثبات[٩]، ولنا معه وقفات في المدينة بإذن الله تعالى.

---

(١) الروض الأنف (٢/ ١٩٥).
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ١٠ـ ١٢).
(٣) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي (ص ١٠٧).
(٤) السير والمغازي لابن إسحاق (ص ١٩٣).
(٥) الطبقات الكبرى (٣/١١٦).
(٦) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي (ص ١٠٨).
(٧) انظر: مصعب بن عمير الداعية المجاهد، محمد بريغش (ص ١٠٥).
(٨) انظر: مصعب بن عمير الداعية المجاهد، محمد بريغش (ص١٠٥، ١٠٧).
(٩) المصدر السابق (ص ١٢٦).

٦ـ خبّاب بن الأرت رضي الله عنه:

كان خباب رضي الله عنه قَيْنًا[١] بمكة، وأراد الله له الهداية مبكرًا، فدخل في الإسلام قبل دخول دار الأرقم بن أبي الأرقم[٢]، فكان من المستضعفين الذين عذبوا بمكة لكي يرتد عن دينه، وصل به العذاب بأن ألصق المشركون ظهره بالأرض على الحجارة المحماة حتى ذهب ماء مَتْنه[٣].

وكان الرسول ﷺ يألف خبابًا، ويتردد عليه بعد أن أسلم، فلما علمت مولاته بذلك، وهي أم أنمار الخزاعية، أخذت حديدة قد أحمتها، فوضعتها على رأسه، فشكا خبابًا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: «اللهم انصر خبابًا» فاشتكت مولاته رأسها، فكانت تعوي مع الكلاب، فقيل لها: اكتوي، فجاءت إلى خباب ليكويها فكان يأخذ الحديدة قد أحماها فيكوي بها رأسها، وإن في ذلك لعبرة لمن أراد أن يعتبر، ما أقرب فرج الله ونصره من عباده المؤمنين الصابرين، فانظر كيف جاءت إليه بنفسها تطلب منه أن يكويها على رأسها[٤]، ولما زاد ضغط المشركين على ضعفاء المسلمين ولقوا منهم شدة، جاء خباب إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقال له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا، فقعد الرسول ﷺ وهو محمرّ وجهه، فقال: «كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيُشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه، ويُمْشَط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليُتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون[٥]».

وللشيخ سلمان العودة حفظه الله تعليق لطيف على هذا الحديث: يا سبحان الله، ماذا جرى حتى احمر وجه المصطفى ﷺ، وقعد من ضجعته؟ وخاطب أصحابه بهذا الأسلوب القوي المؤثر، ثم عاتبهم على الاستعجال؟

لأنهم طلبوا الدعاء منه ﷺ.

كلا: حاشاه من ذلك، وهو الرَّءوف الرحيم بأمته.

إن أسلوب الطلب: ألا تدعو لنا؟ ألا تستنصر لنا؟ يوحي بما وراءه، وأنه صادر من قلوب أمضها العذاب، وأنهكها الجهد، وهدتها البلوى، فهي تلتمس الفرج العاجل، وتستبطىء النصر، فتستدعيه.

---

(١) قينًا: حدادًا.

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/٤٧٩).

(٣) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي (ص ٩٥).

(٤) المصدر السابق نفسه (ص ٩٦).

(٥) البخاري، ك ـ المناقب، ب ـ علامات النبوة في الإسلام، ورقمه (٣٦١٢). ومواضع أخرى.

وهو ﷺ يعلم أن الأمور مرهونة بأوقاتها، وأسبابها، وأن قبل النصر البلاء، فالرسل تبتلى ثم تكون لها العاقبة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ١١٠].

ويلمس عليه السلام من واقع أصحابه، وملابسات أحوالهم، بَرَمَهم بالعذاب الذي يلاقون، حتى يفتنوا عن دينهم، ويستعلي عليهم الكفرة، ويموت منهم من يموت تحت التعذيب.

وقد لا يكون من الميسور أن يدرك المرء ـ بمجرد قراءة النص ـ حقيقة الحال التي كانوا عليها حين طلبوا منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ الدعاء والاستنصار، ولا أن يعرف المشاعر والإِحساسات التي كانت تثور في نفوسهم إِلا أن يعيش حالاً قريبًا من حالهم ويعاني ـ في سبيل الله ـ بعض ما عانوا.

لقد كان ﷺ يربيهم على:

أ ـ التأسي بالسابقين من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم، في تحمل الأذى في سبيل الله ويضرب لهم الأمثلة في ذلك.

ب ـ التعلق بما أعده الله في الجنة للمؤمنين الصابرين من النعيم، وعدم الاغترار بما في أيدي الكافرين من زهرة الحياة الدنيا.

ج ـ التطلع للمستقبل الذي ينصر الله فيه الإِسلام في هذه الحياة الدنيا، ويذل فيه أهل الذل والعصيان.

وثَمَّةَ أمرٌ آخر كبير، ألا وهو: أنه ﷺ مع هذه الأشياء كلها كان يخطط ويستفيد من الأسباب المادية المتعددة، لرفع الأذى والظلم عن أتباعه، وكف المشركين عن فتنتهم، وإِقامة الدولة التي تجاهد في سبيل الدين، وتتيح فرصة لكل مسلم أن يعبد ربه حيث شاء، وتزيل الحواجز والعقبات، التي تعترض طريق الدعوة إِلى الله(١).

وقد تحدث خباب رضي الله عنه عن بعض ما كان يلقون من المشركين من عنت وسوء معاملة، ومساومة على الحقوق، حتى يعودوا إِلى الكفر، قال: كنت رَجُلاً قَيْنًا وكان لي على العاص بن وائل دَيْن، فأتيته أتقاضاه، فقال لي: لا، والله، لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث، قال: فإِني إِن متُّ ثم بُعثت جئتني، ولي ثَمّ مالٌ وولد فأعطيتك، فأنزل الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧] إِلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٠](٢).

---

(١) انظر: الغرباء الأولون (ص ١٤٥، ١٤٦).

(٢) مسند أحمد (٥/١١١) ورقمه ٢١٠٧٥) وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

وذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته سأل خبابًا عما لقي في ذات الله تعالى، فكشف خباب عن ظهره، فإذا هو قد برص، فقال عمر: ما رأيت كاليوم، فقال خباب: يا أمير المؤمنين لقد أوقدوا لي نارًا، ثم سلقوني فيها، ثم وضع رَجُلٌ رِجْلَه على صدري فما اتقيت الأرض ـ أو قال: برد الأرض ـ إلا بظهري، وما أطفأ تلك النار إلا شحمي[١].

عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

كان منهج رسول الله ﷺ في معاملته للناس حكيمًا، وكان يعامل الأكابر وزعماء القبائل بلطف وترفق، وكذلك الصبيان الصغار، فهذا ابن مسعود رضي الله عنه يحدثنا عن لقائه اللطيف برسول الله ﷺ: كنت غلامًا أرعى غنمًا لعقبة بن أبي مُعَيْط، فمر بي رسول الله ﷺ وأبو بكر فقال: «يا غلام هل من لبن؟» قلت: نعم، ولكني مؤتمن، قال: «فهل من شاة لم يَنْزُ عليها فحل؟» فأتيته بشاة، فمسح ضرعها فنزل لبن فحله في إناء فشرب وسقى أبا بكر، ثم قال للضرع: «اقلص» فقلص، قال: ثم أتيته بعد هذا فقلت: يا رسول الله، علمني من هذا القول، قال: فمسح رأسي وقال: «يرحمك الله فإنك غُلَيم مُعَلَّم»[٢].

وهكذا كان مفتاح إسلامه كلمتين عظيمتين: الأولى: قالها عن نفسه «إني مؤتمن»، والثانية: كانت من المصدوق، حيث قال له: «إنك غُلَيم معلَّم» ولقد كان لهاتين الكلمتين دور عظيم في حياته، وأصبح فيما بعد من أعيان علماء الصحابة رضوان الله عليهم، ودخل عبد الله في ركب الإيمان، وهويمخر بحار الشرك في قلعة الأصنام، فكان واحدًا من أولئك السابقين، الذين مدحهم الله في قرآنه العظيم[٣]، قال عنه ابن حجر: «أحد السابقين الأولين، أسلم قديمًا، وهاجر الهجرتين، وشهد بدرًا والمشاهد بعدها، ولازم النبي ﷺ وكان صاحب نعليه»[٤].

* أول من جهر بالقرآن الكريم:

بالرغم من أنّ ابن مسعود رضي الله عنه كان حليفًا وليس له عشيرة تحميه، ومع أنه كان ضئيل الجسم دقيق السَّاقين، فإن ذلك لم يَحُلْ دون ظهور شجاعته وقوة نفسه، رضي الله عنه، وله مواقف رائعة في ذلك، منها ذلك المشهد المثير في مكة، وإبان الدعوة وشدة وطأة قريش عليها، فلقد وقف على مَلَئِهم وجهر بالقرآن، فقرع به أسماعهم المقفلة وقلوبهم المغلَّفة[٥]، فكان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة. اجتمع يومًا أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا

---

(١) الروض الأنف (٢/ ٩٨).

(٢) البداية والنهاية (٣/ ٣٢)، سير أعلام النبلاء (١/ ٤٦٥).

(٣) انظر: عبد الله بن مسعود، عبد الستار الشيخ (ص ٤٣).

(٤) الإصابة (٦/ ٢١٤).

(٥) انظر: عبد الله بن مسعود (ص ٤٥).

القرآن يُجهر لها به قط، فمن رجل يسمعهموه؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا! قالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة، يمنعونه من القوم إن أرادوه! قال: دعوني فإن الله سيمنعني! قال: فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أنديتها، حتى قام عند المقام ثم قرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ - رافعًا بها صوته - ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢﴾ [الرحمٰن: ١ - ٢]، قال: ثم استقبلها يقرؤها، قال: فتأملوه فجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أمّ عبد؟ قال: ثم قالوا: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد! فقاموا إليه فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثّروا في وجهه، فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك! فقال: ما كان أعداء الله أهون عليَّ منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدًا! قالوا: لا، حسبك، قد أسمعتهم ما يكرهون[(١)].

وبهذا كان عبد الله بن مسعود أول من جهر بالقرآن بمكة بعد رسول الله ﷺ، ولا غرو أن هذا العمل الذي قام به عبد الله يعتبر تحديًا عمليًا لقريش التي ما كانت لتتحمل مثل هذا الموقف، ويلاحظ جرأة عبد الله عليهم بعد هذه التجربة على الرغم مما أصابه من أذى[(٢)].

٨ - خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه:

كان إسلام خالد قديمًا، لرؤيا رآها عند أول ظهور النبي ﷺ، إذ رأى كأنه وقف على شفير النار، وهناك من يدفعه فيها، والرسول يلتزمه لئلا يقع، ففزع من نومه، معتقدًا أن هذه الرؤيا حق، فقصها على أبي بكر الصديق، فقال له: أُرِيدَ بك خير، هذا رسول الله ﷺ فاتبعه، فذهب إليه فأسلم، وأخفى إسلامه خوفًا من أبيه، لكن أباه علم لمَّا رأى كثرة تغيبه عنه، فبعث إخوته الذين لم يكونوا قد أسلموا بعد في طلبه، فجيء به، فأنّبه، وضربه بمقرعة، أو عصًا كانت في يده، حتى كسرها على رأسه، ثم حبسه بمكة، ومنع إخوته من الكلام معه، وحذرهم من عمله، ثم ضيق عليه الخناق فأجاعه، وقطع عنه الماء ثلاثة أيام، وهو صابر محتسب، ثم قال له أبوه: والله لأمنعنك القوت، فقال خالد: إن منعتني فإن الله يرزقني ما أعيش به، وانصرف إلى رسول الله ﷺ. فكان يكرمه، ويكون معه، ثم رأى أن يهاجر إلى الحبشة مع من هاجر إليها من المسلمين في المرة الثانية[(٣)].

٩ - عثمان بن مظعون رضي الله عنه:

لما أسلم عدا عليه قومه، بنو جمح، فآذوه، وكان أشدهم عليه، وأكثرهم إيذاءً له أمية بن خلف، ولذلك قال بعد أن خرج إلى الحبشة يعاتبه[(٤)]:

---

(١) انظر: ابن هشام (١/ ٣١٤، ٣١٥)، أسد الغابة (٣/ ٣٨٥- ٣٨٦).

(٢) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي (ص ٨٨).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٢٦٠).

(٤) السيرة النبوية للذهبي (ص ١١٢).

أأخرجتني من بطن مكة آمنا وأسكنتني في صرح بيضاء تقذع
تريش نبالاً لا يواتيك ريشها وتبرى نبالاً ريشها لك أجمع
وحاربت أقوامًا كرامًا أعزة وأهلكت أقوامًا بهم كنت تفزع
ستعلم إن نابتك يوما مَلِمَّة وأسلمك الأوباش ما كنت تصنع

وبقي عثمان بن مظعون فترة في الحبشة، لكنه لم يلبث أن عاد منها ضمن من عاد من المسلمين في المرة الأولى، ولم يستطع أن يدخل مكة إلا بجوار من الوليد بن المغيرة، حيث ظل يغدو في جواره آمنًا مطمئنًا، فلما رأى ما يصيب أصحاب النبي ﷺ من البلاء، وماهو فيه من العافية أنكر ذلك على نفسه، وقال: والله إن غدوي ورواحي آمناً بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله مالا يصيبني، لنقص كبير في نفسي[(١)]، فذهب إلى الوليد بن المغيرة وقال له: يا أبا عبد شمس وفت ذمتك، وقد رددت إليك جوارك، فقال: لمَ يا ابن أخي؟ فلعلك أوذيت، أو انتهكت، قال: لا، ولكني أرضى بجوار الله تعالى، ولا أريد أن أستجير بغيره، قال: فانطلق إلى المسجد فاردد عليَّ جواري علانية، كما أجرتك علانية، فانطلقا إلى المسجد فرد عليه جواره أمام الناس، ثم انصرف عثمان إلى مجلس من مجالس قريش، فجلس معهم، وفيهم لبيد بن ربيعة[(٢)]، الشاعر ينشدهم، فقال لبيد: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل»، قال عثمان: صدقت، واستمر لبيد في إنشاده فقال: «وكل نعيم لا محالة زائل»، فقال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لا يزول، قال لبيد: يا معشر قريش، والله ما كان يؤذى جليسكم فمتى حدث هذا فيكم؟ فقال رجل من القوم: إن هذا سفيه في سفهاء معه، قد فارقوا ديننا، فلا تجدن في نفسك من قوله، فرد عليه عثمان حتى شرى أمرهما، فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فاخضرت، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان، فقال: أما والله يا ابن أخي إن عينك لغنية عما أصابها، ولقد كنت في ذمة منيعة، فقال عثمان: والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس، ثم عرض عليه الوليد الجوار مرة أخرى فرفض[(٣)].

وهذا يدل على مدى قوة إيمانه ﷺ، ورغبته في الأجر، والمثوبة عند الله، ولذلك لما مات رأت أم العلاء الأنصارية في المنام أن له عينًا تجري، فجاءت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: «ذلك عمله»[(٤)].

وغير ذلك من الصحابة الكرام تعرض للتعذيب، وهكذا نرى أولئك الرهط من الشباب القرشي، قد أقبلوا على دعوة الرسول ﷺ، واستجابوا لها، والتفوا حول صاحبها، على الرغم

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٢٠).
(٢) انظر: طبقات الشعراء لابن سلاّم (ص ٤٨، ٤٩).
(٣) السير والمغازي لابن إسحاق (ص ١٧٨- ١٨٠).
(٤) البخاري (٤/ ٢٦٥) ورقمه (٧٠٠٤).

من مواقف آبائهم وذويهم، وأقربائهم المتشددة تجاهم، فضحُّوا بكل ماكانوا يتمتعون به من امتيازات، قبل دخولهم في الإِسلام، وتعرضوا للفتنة، رغبة فيما عند الله تعالى من الأجر والثواب، وتحملوا أذى كثيرًا، وهذا فعل الإِيمان في النفوس، عندما يخالطها فتستهين بكل ما يصيبها من عنت، وحرمان، إِذا كان ذلك يؤدي إِلى الفوز برضا الله تعالى وجنته.

هذا، ولم يكن التعذيب والأذى مقصورًا على رجال المسلمين دون نسائهم، وإِنما طال النساء أيضًا قسط كبير من الأذى والعنت، بسبب إسلامهنّ كسميّة بنت خياط، وفاطمة بنت الخطاب، ولبيبة جارية بني المؤمل، وزنيرة الرومية، والنَّهْدِية وابنتها، وأم عُبيس، وحَمامة أم بلال وغيرهنّ[١].

خامسًا: حكمة الكف عن القتال في مكة، واهتمام النبي ﷺ بالبناء الداخلي:

كان المسلمون يرغبون في الدفاع عن أنفسهم، ويبدو أن الموقف السلمي أغاظ بعضهم، وخاصة الشباب منهم، وقد أتى عبد الرحمٰن بن عوف وأصحابه إِلى النبي ﷺ بمكة فقالوا: يا نبي الله كنا في عزة ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة، قال: «إِني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم»[٢] وتعرض بعض الباحثين للحكمة الربانية في عدم فرضية القتال في مكة، ومن هؤلاء الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى فقد قال: لا نجزم بما نتوصل إِليه، لأننا حينئذٍ نتألى على الله ما لم يبين لنا من حكمة، ونفرض أسبابًا وعللاً قد لا تكون هي الأسباب والعلل الحقيقية، أو قد تكون.

ذلك أن شأن المؤمن أمام أي تكليف، أو أي حكم من أحكام الشريعة هو التسليم المطلق، لأن الله سبحانه هو العليم الخبير، وإِنما نقول هذه الحكمة والأسباب من باب الاجتهاد، وعلى أنه مجرد احتمال، لأنه لا يعلم الحقيقة إِلا الله، ولم يحددها هو لنا ويطلعنا عليها بنص صريح[٣] ومن هذه الأسباب والحكم والعلل بإِيجاز:

١ ـ أن الكف عن القتال في مكة، ربما لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإِعداد، في بيئة معينة، لقوم معينين، وسط ظروف معينة، ومن أهداف التربية في مثل هذه البيئة: تربية الفرد العربي على الصبر، على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم حين يقع عليه، أو على من يلوذون به: ليخلص من شخصه، ويتجرد من ذاته، فلا يندفع لأول مؤثر، ولا يهتاج لأول مهيج، ومن ثم يتم الاعتدال في طبيعته وحركته، ثم تربيته على أن يتبع نظام المجتمع الجديد، بأوامر القيادة الجديدة، حيث لا يتصرف إِلا وفق ما تأمره ـ مهما يكن مخالفًا

---

(١) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي (ص ١١٦، ١١٧).

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٥٨).

(٣) الظلال (٢/ ٧١٤).

لمألوفه وعادته ـ وقد كان هذا هو حجر الأساس في إعداد شخصية العربي المسلم لإنشاء (المجتمع المسلم).

٢ ـ وربما كان ذلك أيضًا، لأن الدعوة السلمية أشد أثرًا وأنفذ في مثل بيئة قريش، ذات العنجهية والشرف، والتي قد يدفعها القتل معها ـ في مثل هذه الفترة ـ إلى زيادة العناد، ونشأة ثارات دموية جديدة، كثارات العرب المعروفة أمثال داحس والغبراء وحرب البسوس، وحينئذٍ يتحول الإسلام من دعوة إلى ثارات، تنسى معها فكرته الأساسية.

٣ ـ وربما كان ذلك أيضًا اجتنابًا لإنشاء معركة ومقتلة، داخل كل بيت، فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة، هي التي تعذب المؤمنين، وإنما كان ذلك موكولاً إلى أولياء كل فرد، ومعنى الإذن بالقتال ـ في مثل هذه البيئة ـ أن تقع معركة ومقتلة في كل بيت، ثم يقال: هذا هو الإسلام!! ولقد قيلت حتى والإسلام يأمر بالكف عن القتال! فقد كانت دعاية قريش في المواسم، إن محمدًا يفرق بين الوالد وولده فوق تفريقه لقومه وعشيرته؛ فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد، والمولى بقتل الولي؟

٤ ـ وربما كان ذلك أيضًا، لما يعلمه الله، من أن كثيرًا من المعاندين الذين يفتنون المسلمين عن دينهم، ويعذبونهم هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص، بل من قادته ألم يكن عمر بن الخطاب من بين هؤلاء؟

٥ ـ وربما كان ذلك أيضًا؛ لأن النخوة العربية في بيئة قبلية، من عادتها أن تثور للمظلوم الذي يحتمل الأذى، ولا يتراجع، وبخاصة إذا كان الأذى واقعًا على كرام الناس فيهم، وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة في هذه البيئة؛ فابن الدُّغُنَّة[1] لم يرض أن يترك أبا بكر ـ وهو رجل كريم ـ يهاجر ويخرج من مكة، ورأى في ذلك عارًا على العرب! وعرض عليه جواره وحمايته، وآخر هذه الظواهر نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في شعب أبي طالب.

٦ ـ وربما كان ذلك أيضًا لقلة عدد المسلمين حينئذٍ، وانحصارهم في مكة، حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة، أو بلغت، ولكن بصورة متناثرة، حيث كانت القبائل تقف على الحياد، من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها، لترى ماذا يكون مصير الموقف، ففي مثل هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة ـ حتى ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم ـ ويبقى الشرك، ولا يقوم للإسلام في الأرض نظام، ولا يوجد له كيان واقعي، وهو دين جاء ليكون منهج حياة، ونظام دنيا وآخرة.

٧ ـ إنه لم تكن هناك ضرورة قاهرة ملحة، لتجاوز هذه الاعتبارات كلها، والأمر بالقتال، ودفع

(١) ابن الدغنة: رجل جاهلي أجار أبا بكر عندما أخرجه قومه وأراد الهجرة إلى الحبشة، انظر: الإصابة (٢/ ٣٤٤).

الأذى، لأن الأمر الأساسي في هذ الدعوة كان قائمًا ومحققًا وهو (وجود الدعوة)، ووجودها في شخص الداعية محمد ﷺ، وشخصه في حماية سيوف بني هاشم، فلا تمتد إليه يد إلا وهي مهددة بالقطع، ولذلك لا يجرؤ أحد على منعه من إبلاغ الدعوة، وإعلانها في ندوات قريش حول الكعبة، ومن فوق جبل الصفا، وفي الاجتماعات العامة، ولا يجرؤ أحد على سجنه أو قتله، أو أن يفرض عليه كلامًا بعينه يقوله.

إن هذه الاعتبارات كلها ـ فيما نحسب ـ كانت بعض ما اقتضت حكمة الله ـ معه ـ أن يأمر المسلمين بكف أيديهم، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، لتتم تربيتهم، وإعدادهم، وليقف المسلمون في انتظار أمر القيادة، في الوقت المناسب، وليخرجوا أنفسهم من المسألة كلها، فلا يكون لذواتهم فيها حظ، لتكون خالصة وفي سبيل الله[١].

وقد تعلّم الصحابة من القرآن الكريم، فقه المصالح والمفاسد، وكيفية التعامل مع هذا الفقه من خلال الواقع، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٠٨].

وهكذا تعلم الصحابة ، أن المصلحة إن أدت إلى مفسدة أعظم تترك[٢]، وفي هذا تهذيب أخلاقي، وسمو إيماني، وترفُّع عن مجاراة السفهاء الذين يجهلون الحقائق، وتخلو أفئدتهم من معرفة الله وتقديسه، وقد ذكر العلماء أن الحكم باقٍ في الأمة على كل حال، فمتى كان الكافر في منعة، وغير خاضع لسلطان الإسلام والمسلمين، وخيف أن يسب الإسلام أو النبي ﷺ أو الله، فلا يحل لمسلم أن يسب صلبانهم، ولا دينهم ولا كنائسهم، ولا يتعرض إلى ما يؤدي إلى ذلك، لأنه فعل بمنزلة التحريض على المعصية، وهذا نوع من الموادعة، ودليل على وجوب الحكم بسد الذرائع[٣].

والناظر في الفترة المكية، والتي كانت ثلاثة عشر عامًا كلها في تربية وإعداد، وغرس لمفاهيم لا إله إلا الله، يدرك ما لأهمية هذه العقيدة من شأن في عدم الاستعجال، واستباق الزمن، فالعقيدة بحاجة إلى غرس يتعهد بالرعاية والعناية والمداومة، بحيث لا يكون للعجلة والفوضى فيها نصيب، وما أجدر الدعاة إلى الله أن يقفوا أمام تربية المصطفى ﷺ لأصحابه على هذه العقيدة، وقفة طويلة، فيأخذوا منها العبرة والأسوة، لأنه لا يقف في وجه الجاهلية أيًا كانت قديمة أو حديثة أم مستقبلية، إلا رجال اختلطت قلوبهم ببشاشة العقيدة الربانية،

(١) الولاء والبراء، محمد القحطاني، لخص نقاطاً من الظلال (ص ١٦٩ـ ١٧١) وفي ظلال القرآن (٢/ ٧١٤ـ ٧١٥)، وفي معالم في الطريق (ص ٦٩ـ ٧١).

(٢) انظر: التفسير المنير للزُّحَيلي (٧/ ٣٢٥).

(٣) المصدر السابق نفسه (٧/ ٣٢٦).

وتعمقت جذور شجرة التوحيد في نفوسهم[١].

كان رسول الله ﷺ قد أمر أصحابه بضبط النفس، والتحلي بالصبر، وكان يربي أصحابه على عينه، ويوجههم نحو توثيق الصلة بالله، والتقرب إليه بالعبادة، وقد نزلت الآيات في المرحلة المكية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ [المُزمّل: : ١ ـ ٤]، فقد أرشدت سورة المزمل الصحابة إلى حاجة الدعاة إلى قيام الليل، والدوام على الذكر، والتوكل على الله، في جميع الأمور، وضرورة الصبر، ومع الصبر الهجر الجميل، والاستغفار بعد الأعمال الصالحة.

كانت الآيات الأولى من سورة المزمل تأمر النبي ﷺ أن يخصص شطرًا من الليل للصلاة، وقد خيّره الله تعالى أن يقوم للصلاة نصف الليل، أو يزيد عليه، أو ينقص منه، فقام النبي ﷺ، وأصحابه معه قريبًا من عام، حتى ورمت أقدامهم، فنزل التخفيف عنهم، بعد أن علم الله منهم اجتهادهم في طلب رضاه، وتشميرهم لتنفيذ أمره ومبتغاه، فرحمهم ربهم، فخفف عنهم، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ [المزمل: ٢٠].

كان امتحانهم في الفرش، ومقاومة النوم، ومألوفات النفس، لتربيتهم على المجاهدة، وتحريرهم من الخضوع لأهواء النفس، تمهيدًا لحمل زمام القيادة والتوجيه في عالمهم، إذ لا بد من إعداد روحي عال لهم، وقد اختارهم الله لحمل رسالته، وائتمنهم على دعوته، واتخذ منهم شهداء على الناس، فالعشرات من المؤمنين في هذه المرحلة التاريخية كانت أمامهم المهمات العظيمة في دعوة الناس إلى التوحيد، وتخليصهم من الشرك، وهي مهمة عظيمة يقدر على تنفيذها أولئك الذين: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ [السَّجدَة: الآية ١٦] وقد وصف الله قيام الليل، والصلاة فيه، وقراءة القرآن ترتيلاً ـ أي مع البيان والتؤدة ـ بقوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المُزمّل: الآية ٦] فهو أثبت أثرًا في النفس، مع سكون الليل، وهدأة الخلق، حيث تخلو من شواغلها وتفرغ للذكر والمناجاة، بعيدًا عن علائق الدنيا، وشواغل النهار، وبذلك يتحقق الاستعداد اللازم لتلقى الوحي الإلهي: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ [المُزمّل: الآية ٥] والقول الثقيل هو القرآن الكريم، وقد ظهر أثر هذا الإعداد الدقيق للمسلمين الأوائل في قدرتهم على تحمل أعباء الجهاد، وإنشاء الدولة بالمدينة، وفي إخلاصهم العميق للإسلام، وتضحيتهم من أجل إقامته في دنيا الناس، ونشره بين العالمين[٢].

---

(١) انظر: الولاء والبراء (ص ١٧١).

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٦٠).

لقد كان النبي ﷺ مهتمًا بجبهته الداخلية، وحريصًا على تعبئة أصحابه بالعقيدة القوية، التي لا تتزعزع ولا تلين، وكان هذا مبعثًا لروح معنوية مرتفعة وقوية، للدفاع وتحمل العذاب والأذى في سبيل الدعوة، وأصبحت الجماعة الأولى وحدة متماسكة، لا تؤثر فيها حملات العدو النفسية، ولا تجد لها مكانًا في هذه الجماعة، عن طريق المؤاخاة بين المسلمين، فقد أصبحت رابطة الأخوة في الله تزيد على رابطة الدم والنسب، وتفضلها في الدين الإسلامي، وتعايش الرعيل الأول بمعاني الأخوة الرفيعة، القائمة على الحب والمودة والإيثار، وكانت أحاديث رسول الله ﷺ تفعل فعلها في نفوس الصحابة، فكان ﷺ يحث المسلمين على الأخوة والترابط، والتعاون، وتفريج الكرب، لا لشيء إلا لرضا الله سبحانه، لا نظير خدمة مقابلة أو نحو ذلك، وإنما يفعل المسلم ذلك ابتغاء وجه الله وحده، وهذه المبادىء هي سر استمرار الأخوة الإسلامية، وتماسك المجتمع الإسلامي[١]، وبيَّن لهم الرسول ﷺ في الحديث القدسي الذي يرويه عن ربه سبحانه وتعالى: «المتحابون في جلالي، لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء»[٢].

وهكذا أصبحت الأخوة الصادقة من مقاييس الأعمال، وأصبحت المحبة في الله من أفضل الأعمال، ولها أفضل الدرجات عند الله، وحذر الرسول ﷺ المسلمين من أن تهون علهيم هذه الرابطة، ووضع لهم أساس الحفاظ عليها، فقال لهم: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً»[٣].

واستعان النبي ﷺ في ربط المجتمع الداخلي، وتوحيد جبهته لتكون قوية في مواجهة الحرب النفسية الموجهة ضدها، بالمساواة بين أفراد هذه الجبهة وإعطائهم الحرية، فهم لا يدخلون إلى هذا المجتمع إلا بالحرية، ثم كانت لهم في داخله حرية الرأي، وحرية التعبير، والمشورة، أتى محمد ﷺ بمبدإ المساواة بين جميع الناس، الحاكم والمحكوم، والغني والفقير، وبين جميع الطبقات، وقد كان لهذا المبدإ العظيم، أكبر الأثر في نفوس أتباع النبي ﷺ وجعلهم يتحابون ويتماسكون ويفتدون بأرواحهم، ويدافعون عنه بكل ما أوتوا من قوة وعزيمة، فهو ﷺ لم يقر تفاوتًا بين البشر، بسبب مولد أو أصل، أو حسب أو نسب، أو وراثة، أو لون. والاختلاف في الأنساب والأجناس والألوان، لا يؤدي إلى اختلاف في الحقوق والواجبات، أو العبادات، فالكل أمام الله سواسية، وعندما طلب أشراف مكة من رسول الله ﷺ أن يجعل لهم مجلسًا غير مجلس العبيد والضعفاء، حتى لا يضمهم وإياهم مجلس واحد، بيَّن الرسول ﷺ أن جميع الناس متساوون في تلقي الوحي والهداية، ورفض

---

(١) انظر: الحرب النفسية ضد الإسلام، د. عبد الوهاب كحيل (ص ١٢٨).

(٢) أخرجه الترمذي وصححه، كتاب الزهد (٤/ ٥١٥) رقم (٢٣٩٠).

(٣) البخاري، كتاب الأدب (٧/ ١٩٩ـ رقم ٦٠٧٦).

كفار مكة وساداتها في ذلك الوقت أن يجلسوا مع العبيد، ومن يعتبرونهم ضعفاء، أذلاء من أتباع محمد ﷺ، فنزل القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ۝٢٨ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٨، ٢٩]، بل إن النبي ﷺ لما أعرض عن ابن أم مكتوم الأعمى، منشغلاً بمحاورة بعض الأشراف، عاتبه الله أشد العتاب.

وكان من أكبر أساليب النبي ﷺ في ربطه المجتمع الإسلامي وتوحيده، وتقويته للجبهة الداخلية وجعلها قوية البنيان متماسكة، ما دعا إليه ﷺ من التكافل المادي والمعنوي بين المسلمين، ليعين منهم القوي الضعيف، وليعطف الغني على الفقير، ولم يترك ﷺ ثغرة واحدة، تنفذ منها الحرب النفسية إلى هذا الصف الإسلامي الأول، وأصبحت الجماعة الأولى صخرة عظيمة تحطمت عليها كل الجهود والخطط التي بذلها زعماء مكة للقضاء على الدعوة[١].

سادسًا: أثر القرآن الكريم في رفع معنويات الصحابة:

كان للقرآن الكريم أثر عظيم في شد أزر المؤمنين، من جانب، وتوعده الكفار بالعذاب من جانب آخر، مما كان له وقع القنابل على نفوسهم، وقد كان دفاع القرآن الكريم عن الصحابة يتمثل في نقطتين:

الأولى: حث الرسول ﷺ على رعايتهم، وحسن مجالستهم، واستقبالهم، ومعاتبته على بعض المواقف، التي ترك فيها بعض الصحابة، لانشغاله بأمر الدعوة أيضًا.

الثانية: التخفيف عن الصحابة بضرب الأمثلة والقصص لهم، من الأمم السابقة، وأنبيائها، وكيف لاقوا من قومهم الأذى والعذاب، ليصبروا ويستخفوا بما يلاقون، وأيضاً بمدح بعض تصرفاتهم، ثم بوعدهم بالثواب والنعيم المقيم في الجنة، وكذلك بالتنديد بأعدائهم الذين كانوا يذيقونهم الألم والأذى[٢].

أما النقطة الأولى: حينما كان النبي ﷺ يجلس في المسجد مع المستضعفين من أصحابه: خباب وعمار، وابن فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية، وصهيب وأشباههم، فكانت قريش تهزأ بهم، وقال الكفار بعضهم لبعض: هؤلاء أصحابه كما ترون، ثم يقولون: أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا بالهدى والحق، لو كان ما جاء به محمد خيرًا ما سبقنا هؤلاء إليه، وما خصهم الله به دوننا[٣].

---

(١) انظر: الحرب النفسية ضد الإسلام (ص ١٢٥ـ ١٤٠).

(٢) الحرب النفسية ضد الإسلام (ص ٢٦٩).

(٣) المصدر نفسه (ص ٢٧٠، ٢٧١).

ورد الله سبحانه وتعالى على استهزاء هؤلاء الكفار مبينًا لهم أن رضا الله لبعض عباده، لا يتوقف على منزلته، ولا مكانته بين الناس في الدنيا، كما يؤكد لرسوله ﷺ هذا المفهوم، حتى لا يتأثر بما يقوله الكفار، من محاولات الانتقاص من شأن هؤلاء الصحابة، ومبينًا له أيضًا مكانتهم، فيقول: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: الآيات ٥٢ ـ ٥٤].

وهكذا بيّن الله لرسوله شأن هؤلاء الصحابة، وقيمتهم ومنزلتهم التي يجهلها، أو يتجاهلها الكفار، ويحاولون أن ينالوا منها، بل ويزيد الله على ذلك أن ينهى الرسولَ عن طردهم، كما يأمره بحسن تحيتهم، ويأمره أيضًا أن يبشرهم بأن الله سبحانه قد وعد بمغفرة ذنوبهم بعد توبتهم.

كيف تكون الروح المعنوية لهؤلاء، كيف يجدون الأذى من الكفار بعد ذلك، إنهم يفرحون بهذا الأذى الذي وصلوا بسببه إلى هذه المنازل العظيمة(١).

ثم نرى عتاب الله لرسوله ﷺ في آيات تتلى إلى يوم القيامة، وكان هذا العتاب في شأن رجل فقير أعمى من الصحابة، أعرض عنه الرسول ﷺ مرة واحدة ولم يجبه على سؤاله، لانشغاله بدعوة بعض أشراف مكة(٢).

فنزل قول الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس: الآيات ١ ـ ١٠].

إنه لا مجال للامتيازات في دعوة الحق، بسبب الحسب والنسب، أو المال والجاه، فهي إنما جاءت لتأصيل النظرة إلى الإنسان، وبيان وحدة الأصل، وما تقتضيه من المساواة والتكافؤ. من هنا يمكن تعليل شدة أسلوب العتاب الذي وجهه الله تعالى لرسوله للاهتمام الكبير الذي أظهره لأُبي بن خلف، على حساب استقباله لابن أم مكتوم الضعيف رضي الله عنه، فابن أم مكتوم يرجح في ميزان الحق على البلايين من أمثال أُبي بن خلف(٣) لعنه الله.

وكانت لهذه القصة دروس وعبر، استفاد منها الرعيل الأول، ومن جاء بعدهم من المسلمين، ومن أهم هذه الدروس الإقبال على المؤمنين؛ فعلى الدعاة البلاغ، وليس عليهم

(١) انظر: الحرب النفسية ضد الإسلام (ص ٢٧٠، ٢٧١).

(٢) المصدر نفسه (ص ٢٧١).

(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/١٦٧) مع تصرف في العدد بدل مئة بلايين.

الهداية، في قصة الأعمى دليل على نبوة محمد ﷺ، فلو لم يكن نبينا محمد ﷺ رسولَ الله، لكتم هذه الحادثة، ولم يخبر الناس بها، لما فيها من عتاب له ﷺ، ولو كان كاتمًا شيئًا من الوحي لكتم هذه الآيات، وآيات قصة زيد، وزينب بنت جحش[١] فعلى الدعاة تقديم أهل الخير والإيمان[٢].

أما النقطة الثانية في دفاع القرآن الكريم عن الصحابة، فقد كانت بالتخفيف عنهم، وكانت أهم وسائل التخفيف بإظهار أن هذا الأذى الذي يلقونه لم يكن فريدًا من نوعه، وإنما حدث قبل ذلك مثله وأشد منه، كانت القصص التي تتحدث عن حياة الرسل في القرآن الكريم، من لدن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، تثبيتًا للمسلمين، ولروح التضحية، والصبر فيهم من أجل الدين، وبينت لهم القدوة الحسنة، التي كانت في العصور القديمة من أنجح الوسائل في ميادين الإعلام والتربية والتعليم، والعلاقات العامة، فالقصص القرآني يحوي الكثير من العبر والحكم والأمثال.

كان أيضًا من أساليب القرآن في تخفيفه عن الصحابة، والدفاع عنهم أسلوبه في مدحهم، ومدح أعمالهم في القرآن الكريم، يقرأها الناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، كما حدث مع الصديق لما أعتق سبع رقاب من الصحابة لينقذهم من الأذى والتعذيب، في الوقت نفسه الذي يندد فيه بأمية بن خلف الذي كان يعذب بلال بن رباح، فالقرآن بدستوره الأخلاقي، قد قدم قواعد الثواب والعقاب، وشجع المؤمنين وحذر المخالفين، وحمل هذا التنديد مغزى عميقًا، فقد أنار الطريق للصحابة، وكان غمّة وكربًا على نفوس الكفار المترددين، إذ جاء قول الله تعالى:

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: الآيات ١٤ ـ ٢١].

وكذلك خلّد القرآن ثبات وفد نصارى نجران على الإسلام، رغم استهزاء الكفار ومحاولاتهم لصدهم عن الإسلام، لذا نزلت فيهم بعض الآيات كما يذكر بعض المؤرخين[٣]، قال تعالى:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٢ ـ ٥٤].

---

(١) تفسير ابن عطية (١٥/ ٣١٦)، القاسمي (١٧/ ٥٤).

(٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن، د. عبد الكريم زيدان (٢/ ٨٩).

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٤).

وكانت الآيات بعد ذلك تبشر الصحابة بالثواب العظيم، وبالنعيم المقيم في الجنة، جزاء بما صبروا، وما تحملوا من الأذى، وتشجيعًا لهم على الاستمرار في طريق الدعوة، غير مبالين بما يسمعونه وما يلاقونه، فالنصر والغلبة لهم في النهاية؛ كما بين لهم النبي ﷺ في أحاديثه، وكما بيّن لهم القرآن. كما بيَّن القرآن الكريم في الوقت نفسه مصير أعدائهم كفار مكة، قال تعالى:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥١، ٥٢].

وبيَّن فضل تمسكهم بالقرآن، وإيمانهم به قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [فَاطِر: ٢٩، ٣٠].

وبيَّن سبحانه فضل التمسك بعبادته، رغم الأذى والتعذيب، وبيَّن جزاء الصبر على ذلك، قال تعالى:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ الَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ الْأَخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَـٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَـٰعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَـٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزُّمَر: ٩، ١٠].

وهكذا كان القرآن الكريم يخفف عن الصحابة، ويدافع عنهم، ويحصنهم ضد الحرب النفسية، وبذلك لم تؤثر تلك الحملات ووسائل التعذيب في قلوب الصحابة؛ بفضل المنهج القرآني، والأساليب النبوية الحكيمة. لقد تحطمت كل أساليب المشركين في محاربة الرسول ﷺ وأصحابه أمام العقيدة الصحيحة، والمنهج السليم، الذي تَشَرَّبَهُ الرعيل الأول.

سابعًا: أسلوب المفاوضات:

اجتمع المشركون يومًا فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر، والكهانة، والشعر، فليأت هذا الرجل الذي فرَق جماعتنا، وشتت أمرنا، وعاب ديننا، فليكلمه، ولينظر ماذا يرد عليه؟ فقالوا: ما نعلم أحدًا غير عتبة بن ربيعة، فقالوا: أنت يا أبا الوليد، فأتاه عتبة فقال: يا محمد أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ. قال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنتم تزعم أنك خير منهم، فتكلم حتى نسمع قولك، إنا والله ما رأينا سَخْلَة قط أشأم على قومك منك، فرقت جماعتنا، وشتت أمرنا وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب حتى لقد طار فيهم: أن في قريش ساحرًا، وأن في قريش كاهنًا، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى.

أيها الرجل، إن كان إنما بك الحاجة؛ جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أغنى قريش رجلاً، وإن كان إنما بك ـ الباه ـ فاختر أي نساء قريش شئت، فلنزوجك عشرًا، فقال رسول الله ﷺ: «فرغت؟» قال: نعم! فقال رسول الله: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾ [فُصِّلَت: ١ ـ ٣] إلى أن بلغ: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ [فُصِّلَت: ١٣] فقال عتبة: حسبك! ما عندك غير هذا؟ قال: «لا» فرجع إلى قريش فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئًا أرى أنكم تكلمونه إلا كلمته، قالوا: فهل أجابك؟ فقال: نعم»(١). وفي رواية ابن إسحاق: فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة.. يا معشر قريش أطيعوني، واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلكه ملككم وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم(٢).

دروس وعبر وفوائد:

أ ـ لم يدخل رسول الله في معركة جانبية، حول أفضليته على أبيه وجده، أو أفضليتهما عليه، ولو فعل ذلك لقضي الأمر دون أن يسمع عتبة شيئًا.

ب ـ لم يخض ﷺ معركة جانبية حول العروض المغرية، وغضبه الشخصي لهذا الاتهام، إنما ترك ذلك كله لهدف أبعد، وترك عتبة يعرض كل ما عنده، وبلغ من أدبه ﷺ أن قال: «أفرغت يا أبا الوليد»؟ فقال: نعم(٣).

جـ ـ كان جواب رسول الله ﷺ حاسمًا، إن اختياره لهذه الآيات لدليل على حكمته، وقد تناولت الآيات الكريمة قضايا رئيسية كان منها: إن هذا القرآن تنزيل من الله، بيان موقف الكافرين وإعراضهم، بيان مهمة الرسول، وأنه بشر، بيان أن الخالق واحد هو الله، وأنه خالق السماوات والأرض، بيان تكذيب الأمم السابقة وما أصابها، وإنذار قريش صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود(٤).

د ـ خطورة المال، والجاه، والنساء على الدعاة، فكم من الدعاة سقط على الطريق تحت بريق المال، وكم عرضت الآلاف من الأموال على الدعاة ليكفوا عن دعوتهم، والذين ثبتوا أمام إغراء المال هم المقتدون بالنبي ﷺ، وخطورة الجاه واضحة، لأن الشيطان في هذا المجال يزين ويغوي بطرق أكبر، وأمكر، وأفجر. والداعية الرباني هو الذي يتأسى برسول الله ﷺ

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ٦٨، ٦٩).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٩٤).

(٣) انظر: التحالف السياسي في الإسلام، منير الغضبان (ص ٣٣).

(٤) انظر: معين السيرة للشامي (ص ٧٥).

في حركته وأقواله وأفعاله، ولا ينسى الهدف الذي عاش له ويموت من أجله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

وأما النساء فقد قال ﷺ: «ماتركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء»[(١)] سواء كانت زوجة تثبط الهمة عن الدعوة والجهاد، أو تسليط بعض الفاجرات عليه ليسقطنه في شباكهن، أو في تهيئة أجواء البغي والإثم والمجون، ليرتادها بعد خطوة، أيًا كانت فإنها فتنة عظيمة في الدين، فها هي قريش تعرض على رسول الله ﷺ نساءها يختار عشرًا منها، أجملهن وأحسنهن، يكن زوجات له إن كان عاجزًا عن الزواج من أكثر من واحدة، إن خطر المرأة حين لا تستقيم على منهج الله أشد من خطر السيف المصلت على الرقاب[(٢)]، فعلى الدعاة أن يقتدوا بسيد الخلق، ويتذكروا دائمًا قول يوسف عليه السلام. ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف: ٣٣ ـ ٣٤].

هـ ـ تأثر عتبة من موقف النبي ﷺ، وكان هذا التأثير واضحًا لدرجة أن أصحابه أقسموا على ذلك التأثير قبل أن يخبرهم، فبعد أن كان العدو ينوي القضاء على الدعوة، إذا به يدعو لعكس ذلك، فيطلب من قريش أن تخلي بين محمد ﷺ وما يريد[(٣)].

و ـ استمع الصحابة لما حدث بين النبي ﷺ وبين عتبة، وكيف رفض حبيبهم ﷺ كل عروضه المغرية، فكان ذلك درسًا تربويًا خالط أحشاءهم، تعلموا منه الثبات على المبدأ، والتمسك بالعقيدة، ووضع المغريات تحت أقدام الدعاة.

ز ـ تعلم الصحابة من الرسول الكريم ﷺ الحلم ورحابة الصدر، فقد استمع ﷺ إلى ترهات عتبة بن ربيعة، ونيله منه، وقوله عنه: «إن في قريش ساحرًا» و«إن في قريش كاهنًا»، «ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك» و«إن كان بك رَئِيٌّ من الجن» فقد أعرض عنه ﷺ، وأغض عن هذا السباب، بحيث لا يصرفه ذلك عن دعوته وتبليغه إياها، لسيد بني عبد شمس، فقد كانت كل كلمة تصدر من سيد الخلق ﷺ مبدأ يحتذى، وكل تصرف دينًا يتبع، وكل إغضاء خلقًا يتأسى به[(٤)].

وذكرت بعض كتب السيرة أن قيادات مكة دخلوا في مفاوضات بعد ذلك مع رسول الله ﷺ، وعرضوا عليه إغراءات تلين أمامها القلوب البشرية، ممن أراد الدنيا، وطمع

---

(١) صحيح الجامع الصغير (٥/ ١٣٨ ورقمه ٥٤٧٣).

(٢) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان (ص ١٦٩).

(٣) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية (ص ٨٧).

(٤) انظر: التربية القيادية (١/ ٣٠٤).

في مغانمها، إلا أن رسول الله ﷺ اتخذ موقفًا حاسمًا في وجه الباطل، دون مراوغة أو مداهنة، أو دخول في دهاء سياسي، أو محاولة وجود رابطة استعطاف، أو استلطاف مع زعماء قريش[(١)]، لأن قضية العقيدة تقوم على الوضوح والصراحة والبيان، بعيدة عن المداهنة والتنازل، ولذلك رد رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكنَّ الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتابًا، وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبرْ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» أو كما قال ﷺ[(٢)].

بهذا الموقف الإيماني الثابت رجع كيدهم في نحورهم، وثبتت قضية من أخطر قضايا العقيدة الإسلامية، وهي خلوص العقيدة من أي شائبة غريبة عنها، سواء في جوهرها، أو في الوسيلة الموصلة إليها[(٣)].

لكم دينكم ولي دين

ولما رأى المشركون صلابة المسلمين، واستعلاءهم بدينهم، ورفعة نفوسهم فوق كل باطل، ولما بدأت خطوط اليأس في نفوسهم، من أن المسلمين يستحيل رجوعهم عن دينهم؛ سلكوا مهزلة أخرى من مهازلهم الدالة على طيش أحلامهم، ورعونتهم الحمقاء، فأرسلوا إلى النبي ﷺ الأسود بن عبد المطلب، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، فقالوا: «يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد مانعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيرًا مما نعبد، كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيرًا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه»[(٤)] فأنزل الله فيهم:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [سورة الكافرون] .

ومثل هذه السورة آيات أخرى تشابهها، في إعلان البراء من الكفر وأهله، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يُونس: الآية ٤١] .

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ

(١) انظر: الوفود في العهد المكي، لعلي الأسطل (ص ٣٧).
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٩٥، ٢٩٦)، التربية القيادية (١/ ٣٠٥).
(٣) تاريخ صدر الإسلام، عبد الرحمٰن الشجاع (ص ٣٩).
(٤) ابن هشام (١/ ٣٦٢).

إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: الآيتان ٥٦، ٥٧].

ولقد بيّنت سورة الكافرون أن طريق الحق واحد، لا عوج فيه، ولافجاج له، إنه العبادة الخالصة لله وحده رب العالمين، فنزلت هذه السورة على الرسول ﷺ للمفاصلة الحاسمة بين عبادة وعبادة، ومنهج ومنهج، وتصور وتصور، وطريق وطريق، نعم نزلت نفيًا بعد نفي وجزمًا بعد جزم، وتوكيدًا بعد توكيد، بأنه لا لقاء بين الحق والباطل، ولا اجتماع بين النور والظلام، فالاختلاف جوهري كامل، يستحيل معه اللقاء على شيء في منتصف الطريق، والأمر لا يحتاج إلى مداهنة، أو مراوغة. نعم فالأمر هنا ليس مصلحة ذاتية، ولا رغبة عابرة، ولا سمًّا في عسل، وليس الدين لله والوطن للجميع كما تزعم الجاهلية المعاصرة، ويدعي المنافقون، والمستغربون الذين يتبعون الضالين والمغضوب عليهم، والملحدين أعداء الله سبحانه في كل مكان، كان الرد حاسمًا على زعماء قريش المشركين، ولا مساومة، ولا مشابهة، ولا حلول وسطاً، ولا ترضيات شخصية؛ فإن الجاهلية جاهلية والإسلام إسلام، في كل زمان ومكان، والفارق بينهم بعيد كالفرق بين التبر والتراب، والسبيل الوحيد هو الخروج عن الجاهلية بجملتها إلى الإسلام بجملته عبادة وحكمًا، وإلا فهي البراءة التامة والمفاصلة الكاملة والحسم الصريح بين الحق والباطل في كل زمان ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾[1].

وجاء وفد آخر بعد فشل الوفد السابق، يتكون من: عبد الله بن أبي أمية، والوليد بن المغيرة، ومُكْرَز بن حفص، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس، والعاص بن عامر[2]، جاء ليقدم عرضًا آخر للتنازل عن بعض مافي القرآن، فطلبوا من النبي ﷺ أن ينزع من القرآن ما يغيظهم من ذم آلهتهم فأنزل الله جوابًا حاسمًا، قال تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: الآية ١٥].

وهذه الوفود والمفاوضات تبين مدى الفشل الذي أصاب زعماء قريش، في عدم حصولها على التنازل الكلي عن الإسلام، الأمر الذي جعلها تلجأ إلى طلب الحصول على شيء من التنازل، ويلاحظ أن التنازل الذي طلبوه في المرة الأولى، أكبر مما طلبوه في المرة الثانية، وهذا يدل على تدرجهم في التنازل من الأكبر إلى الأصغر علهم يجدون آذانًا صاغية لدى قائد الدعوة، كما أنهم كانوا يغيرون الأشخاص المتفاوضين، فالذين تفاوضوا مع الرسول ﷺ في المرّة الأولى، غير الذين تفاوضوا معه في المرة الثانية ما خلا الوليد بن المغيرة، وذلك حتى

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٩١) بتصرف كبير.

(٢) أسباب النزول للواحدي (ص ٢٠٠)، ونور اليقين للخضري (ص ٦١) بتصرف.

لا تتكرر الوجوه، وفي الوقت ذاته تنويع الكفاءات، والعقول المفاوضة، فربما أثر ذلك في نظرهم بعض الشيء، وفي هذا درس للدعاة إلى يوم القيامة أن لا تنازل عن الإسلام، ولو كان هذا التنازل شيئًا يسيرًا، فالإسلام دعوة ربانية، ولا مجال فيها للمساومة إطلاقًا، مهما كانت الأسباب، والدوافع، والمبررات، وعلى الدعاة اليوم الحذر من مثل هذه العروض، والإغراءات المادية، التي قد لا تعرض بطريق مباشر، فقد تأخذ شكلاً غير مباشر، في شكل وظائف عليا أو عقود عمل مجزية، أوصفقات تجارية مربحة، وهذا ما تخطط له المؤسسات العالمية المشبوهة، لصرف الدعاة عن دعوتهم وبخاصة القياديون منهم، وهناك تعاون تام في تبادل المعلومات، بين هذه المؤسسات التي تعمل من مواقع متعددة لتدمير العالم الإسلامي»(١) ولقد جاء في التقرير الذي قدمه «ريتشارد ب. ميشيل» أحد كبار العاملين في مجال الشرق الأوسط، لرصد الصحوة الإسلامية، وتقديم النصح بكيفية ضربها، جاء في هذا التقرير، وضع تصور لخطة جديدة يمكن من خلالها تصفية الحركات الإسلامية، فكان من بين فقرات هذا التقرير فقرة خاصة بإغراء قيادات الدعوة، فاقترح لتحقيق ذلك الإغراء، مايلي:

أ - تعيين من يمكن إغراؤهم بالوظائف العليا، حيث يتم شغلهم بالمشروعات الإسلامية فارغة المضمون، وغيرها من الأعمال التي تستنفد جهدهم، وذلك مع الإغداق عليهم أدبيًا وماديًا، وتقديم تسهيلات كبيرة لذويهم، وبذلك يتم استهلاكهم محليًا، وفصلهم عن قواعدهم الجماهيرية.

ب - العمل على جذب ذوي الميول التجارية والاقتصادية، إلى المساهمة في المشروعات ذات الأهداف المشبوهة، التي تقام في المنطقة العربية لمصالح أعدائها.

جـ - العمل على إيجاد فرص عمل، وعقود مجزية في البلاد العربية الغنية، الأمر الذي يؤدي إلى بُعدهم عن النشاط الإسلامي(٢).

فالمتدبر في النقاط الثلاث السابقة يلاحظ أنها إغراءات مادية غير مباشرة، وبنظرة فاحصة للعالم الإسلامي اليوم نلاحظ أن هذه النقاط تنفذ بكل هدوء، فقد أشغلت المناصب العليا بعض الدعاة، واستهلكت بعض الدول العربية الغنية جمًّا غفيرًا من الدعاة، وألهت التجارة بعضهم(٣).

ثامنًا: أسلوب المجادلة ومحاولة التعجيز:

كان النبي ﷺ قد أقام الحجج والبراهين والأدلة على صحة دعوته، وكان ﷺ يتقن اختيار الأوقات، وانتهاز الفرص والمناسبات، ويقوى على الرد على الشبهات، مهما كان نوعها، وقد

---

(١) في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية (ص ٨٩).

(٢) مجلة المجتمع الكويتية، عدد رقم ٤٢٨، ١٧ صفر ١٣٩٩هـ. نقلاً عن: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية.

(٣) انظر: في السيرة النبوية لجوانب الحذر والحماية (ص ٩١).

استخدم في مجادلته مع الكفار أساليب كثيرة، استنبطها من كتاب الله تعالى في إقامة الحجة العقلية، واستخدام الأقيسة المنطقية، واستحضار التفكير والتأمل، ومن الأساليب التي استخدمها ﷺ مع كفار مكة:

١ ـ أسلوب المقارنة:

وذلك يعرض أمرين: أحدهما هو الخير المطلوب الترغيب فيه، والآخر هو الشر المطلوب الترهيب منه، وذلك باستثارة العقل، للتفكر في كلا الأمرين، وعاقبتهما للوصول ـ بعد المقارنة ـ إلى تفضيل الخير واتِّباعه:

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٢].

قال ابن كثير في تفسيره: «هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتًا أي في الضلالة هالكًا حائرًا، فأحياه الله، أي أحيا قلبه بالإيمان وهداه له ووفقه لاتباع رسله»[١].

٢ ـ أسلوب التقرير:

وهو أسلوب يؤول بالمرء بعد المحاكمة العقلية، إلى الإقرار بالمطلوب، الذي هو مضمون الدعوة، قال تعالى:

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطُّور: الآيات ٣٥ ـ ٤٥].

قال ابن كثير في تفسيره: «هذا المقام في إثبات الربوبية، وتوحيد الألوهية، فقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطُّور: الآية ٣٥] أي أُوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أي لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم، وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا»[٢].

وهذه الآية في غاية القوة من حيث الحجة العقلية؛ لأن «وجودهم هكذا من غير شيء أمر ينكره منطق الفطرة ابتداء، ولا يحتاج إلى جدل كثير أو قليل. أما أن يكونوا هم الخالقين

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٧٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٤٤).

لأنفسهم، فأمر لم يدعوه، ولا يدعيه مخلوق، وإذا كان هذان الفرضان لا يقومان بحكم منطق الفطرة، فإنه لا يبقى سوى الحقيقة التي يقولها القرآن. وهي أنهم جميعًا من خلق الله الواحد الذي لا يشاركه أحد»[١]، والتعبير بالفطرة مضمون الأمر المقرر بداهة في العقل.

٣ ـ أسلوب الإمرار والإبطال:

وهو أسلوب قوي في إفحام المعاندين، أصحاب الغرور والصلف، بإمرار أقوالهم، وعدم الاعتراض على بعض حججهم الباطلة، منعًا للجدل والنزاع، خلوصًا إلى الحجة القاطعة تدمغهم، وتبطل بها حجتهم تلك، فتبطل الأولى بالتبع، وفي قصة موسى عليه السلام مع فرعون، نموذج مطول لهذا الأسلوب، حيث أعرض موسى عن كل اعتراض وشبهة أوردها فرعون، ومضى إلى إبطال دعوى الإلهية لفرعون، من خلال إقامة الحجة العقلية الظاهرة، على ربوبية الله وألوهية الله[٢]، وذلك في الآيات من سورة الشعراء، قال تعالى:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآيات ٢٣ ـ ٢٩].

وهكذا كانت الأساليب القرآنية الكريمة، هي الركيزة في مجادلة رسول الله ﷺ للمشركين، ولما احتار المشركون في أمر الرسول ﷺ، ولم يكونوا على استعداد في تصديقه أنه رسول من عند الله، ليس لأنهم يكذبونه، وإنما عنادًا وكفرًا، كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٣٣].

لذلك هداهم تفكيرهم المعوج، أن يطلبوا من الرسول عليه السلام مطالب، ليس الغرض منها التأكد من صدق النبي ﷺ، ولكن غرضهم منها التعنت والتعجيز، وهذا ما طلبوه من الرسول عليه الصلاة والسلام:

أ ـ أن يفجر لهم من الأرض ينبوعًا: أي يجري لهم الماء عيونًا جارية.

ب ـ أو تكون له جنة من نخيل وأعناب، يُفجّر الأنهار خلالها تفجيرًا، أي تكون له حديقة فيها النخل والعنب، والأنهار يُفَجر بداخلها.

ج ـ أو يسقط السماء كسفًا: أي يسقط السماء قطعًا كما سيكون يوم القيامة.

د ـ أو يأتي بالله والملائكة قبيلاً.

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٣٩٩).

(٢) انظر: مقومات الداعية الناجح، د. علي بادحدح (ص ٥٩ ـ ٦٨) الأساليب السابقة من هذا الكتاب.

هـ - أو يكون له بيت من زخرف: أي ذهب.

و - أو يرقى في السماء: أي يتخذ سلمًا يرتقي عليه ويصعد إلى السماء.

ز - إنزال كتاب من السماء يقرؤونه: يقول مجاهد: أي مكتوب فيه إلى كل واحد صحيفة، هذا كتاب من الله لفلان ابن فلان، تصبح موضوعة عند رأسه[١].

ح - طلبوا من رسول الله ﷺ أن يدعو لهم فيسير لهم الجبال، ويقطع الأرض ويبعث من مضى من آبائهم من الموتى[٢].

إن عملية طلب الخوارق والمعجزات، هي خطة متبعة على مدى تاريخ البشرية الطويل، ورغم حرص النبي ﷺ على إيمان قومه، وتفانيه في ذلك لكن التربية الربانية التي تلقاها من ربه، والأدب النبوي الذي تأدب عليه جعله يرفض طلب المعجزة[٣]، وإنما كانت إجابته ﷺ:

«ما بهذا بعثت إليكم، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم»[٤].

وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينًا أسفًا لما فاته، مما طمع فيه من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه[٥]، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذه التعنتات، والرد عليها في قوله سبحانه:

﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: الآيات ٩٠ - ٩٦]

ونزل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا

---

(١) انظر: المعوقون للدعوة الإسلامية، د. سميرة محمد (ص ١٧١، ١٧٢).

(٢) انظر: التربية القيادية (١/ ٣١١).

(٣) انظر: التربية القيادية (١/ ٣١١).

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤٥٩).

(٥) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٣١٧).

تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد: الآية ٣١][1].

إن الحكمة في أنهم لم يجابوا لما طالبوا لأنهم لم يسألوا مسترشدين وجادين، وإنما سألوا متعنتين ومستهزئين، وقد علم الحق سبحانه أنهم لو عاينوا وشاهدوا ما طلبوا لما آمنوا، وللجُّوا في طغيانهم يعمهون، ولظلوا في غيهم وضلالهم يترددون. قال سبحانه:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: الآيات ١٠٩ ـ ١١١].

ولهذا اقتضت الحكمة الإلهية، والرحمة الربانية، ألا يجابوا إلى ما سألوا، لأن سنته سبحانه، أنه إذا طلب قوم آيات فأجيبوا، ثم لم يؤمنوا عذبهم عذاب الاستئصال، كما فعل بعاد وثمود، وقوم فرعون.

وليس أدل على أن القوم كانوا متعنتين وساخرين، ومعوقين لا جادين من أن عندهم القرآن، وهو آية الآيات، وبينة البينات، ولذلك لما سألوا ما اقترحوا من هذه الآيات وغيرها ردّ عليهم سبحانه[2] بقوله:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [العنكبوت: الآيات ٥٠ ـ ٥٢].

قال عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنه ـ قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا، ونؤمن بك، قال: وتفعلون؟ قالوا: نعم. قال: فدعا، فأتاه جبريل فقال: إن ربك ـ عز وجل ـ يقرأ عليك السلام، ويقول: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبًا، فمن كفر بعد ذلك منهم عذبته عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة. فقال: بل باب التوبة والرحمة؛ فأنزل الله تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: الآية ٥٩][3].

---

(١) يعني لو أن هناك قرآناً بهذه الصفات أو هذه الشروط؛ لكان هذا القرآن الكريم، فهو ليس له مثيل، لا من قبل ولا من بعد، جواب (لو) محذوف دل عليه المقام.

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٣٢٠، ٣٢١).

(٣) صحيح السيرة النبوية (ص ٩٠).

لقد كان هدف زعماء قريش من تلك المطالب، هو شن حرب إعلامية ضد الدعوة والداعية، وتآمرًا على الحق، كي تبتعد القبائل العربية عنه ﷺ؛ لأنهم يطالبون بأمور يدركون أنها ليست طبيعة هذه الدعوة، ولهذا أصروا عليها، بل لقد صرحوا بأن لو تحقق شيء من ذلك، فلن يؤمنوا أيضًا بهذه الدعوة، وهذا كله محاولة منهم لإِظهار عجز الرسول ﷺ، واتخاذ ذلك ذريعة لمنع الناس عن اتباعه(١).

تاسعاً: دور اليهود في العهد المكي، واستعانة مشركي مكة بهم:

تحدث القرآن الكريم عن بني إسرائيل طويلاً في سور كثيرة، بلغت خمسين سورة في المرحلة المكية، وفي المرحلة المدنية كان دور اليهود كبيرًا في محاولة إطفاء نور الله، والقضاء على دعوة الإِسلام، وعلى حياة رسول الله ﷺ، ولم تحظ ملة من الملل؛ ولا قوم من الأقوام، بالحديث عنهم بمثل هذا الشمول، وهذه التفصيلات، ما حظي به اليهود، وحديث القرآن عنهم يتسم بمنهج دقيق، يتناسب مع المراحل الدعوية، التي مرت بها دعوة الإِسلام، فقد جاءت الآيات الكريمة تشير إِلى أن غفلة المشركين عن الحق، الذي جاء به رسول الله ﷺ، وعدم اكتراثهم به وبدعوته له نماذج بشرية تقدمتهم مثل عاد وثمود وفرعون وبني إسرائيل وقوم تبع، وأصحاب الرس(٢).

عندما وجدت قريش نفسها عاجزة أمام دعوة الحق، وكان المعبر عن هذا العجز، النضر بن الحارث الذي صرح قائلاً: «يا معشر قريش، إِنه والله قد نزل بكم أمر ما أوتيتم له بحيلة بعد.. فانظروا في شأنكم، فإِنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم» فقرروا بعد ذلك إرسال النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إِلى أحبار اليهود بالمدينة، لمعرفة حقيقة هذه الدعوة، لا لكي يتبعوها، ولكن لإِدراكهم أن اليهود قد يمدونهم بأشياء تظهر عجز الرسول ﷺ، ولمعرفة زعماء مكة بحقد اليهود المنصب على الأنبياء جميعًا، وأصحاب الحق أينما كانوا؛ كانت بعثة المصطفى ﷺ صدمة قوية لليهود؛ وذلك لأنهم عاشوا في جزيرة العرب على حلم توارثوه طوال السنين الماضية، وهو أنه سيبعث نبي مخلص في ذلك الزمان والمكان، فرجوا أن يكون منهم؛ آملين أن يخلصهم من الفقرة والشتات الذي كانوا فيه(٣).

كان التقارب بين معسكر الكفر والشرك مع اليهود، ينسجم مع أهدافهم المشتركة للقضاء على دعوة الإِسلام، ولذلك زودوا الوفد المكي ببعض الأسئلة محاولة لتعجيز النبي ﷺ.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: بعثت قريش النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إِلى

(١) انظر: الوفود في العهد المكي (ص ٤٠ ـ ٥١).

(٢) معالم قرآنية في الصراع مع اليهود، مصطفى مسلم (ص ٣٠، ٣١).

(٣) انظر: اليهود في السنة المطهرة، د، عبد الله الشقاري (١/١٨٨).

أحبار اليهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفا لهم أمره، وبعض قوله، وقالا: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، قال: فقالت لهم أخبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل مثقول، فقرروا فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ماكان نبؤه؟ وسلوه عن الروح، ماهو؟ فإن أخبركم بذلك فإنه نبي فاتبعوه، وإن هو لم يخبركم فهو رجل متقول، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم، فأقبل النضر وعقبة حتى قدما مكة على قريش، فقالا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أخبار يهود أن نسأله عن أمور فأخبروهم بها، فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، أخبرنا، فسألوه عما أمروهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ: أخبركم غدًا عما سألتم عنه، ولم يستثن[1]، فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحيًا، ولا يأتيه جبريل عليه السلام، حتى أرجف أهل مكة، وقالوا: وعدنا محمد غدًا، واليوم خمس عشرة، قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مُكْثُ الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطوّاف، وقول الله ﷻ:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٨٥].

كانت سورة الكهف قد احتوت على الإجابة لأسئلتهم، وإشارة إلى أن كهفًا من عناية الله سوف يُؤوي هؤلاء المستضعفين من أصحاب محمد ﷺ، كما آوى الكهف الجبلي الفتية المؤمنين الفارين بدينهم من الفتنة.

وأن نفوسًا ستبش في وجوه هذه العصبة من أنصار دين الله في يثرب، بالقرب من الذين عاضدوا قريشًا في شكهم، وحاولوا معهم طمس نور الحق، بتلقينهم المنهج التعجيزي في التثبت في أمر النبوة، وهو منهج غير سليم، فمتى كانت الأسئلة التعجيزية وسيلة التحقق من صدق الرسالة وصاحبها؟! فهذا نبي الله موسى عليه السلام، وهو أعظم أنبياء بني إسرائيل، لم يعلم تأويل الأحداث الثلاثة التي جرت أمامه، وأنكر على الخضر تصرفاته، على الرغم من كل ذلك، لم تؤثر الأحداث وما دار حولها في نبوة موسى عليه السلام شيئًا، ولم يشكك بنو إسرائيل في نبوته، فلم يجعلوا مثل هذه الأسئلة أسلوبًا للتحقق من صدق الرسالة[2].

---

(١) أي لم يقل: «إن شاء الله».

(٢) انظر: مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم (ص ١٨٩).

جعل الله هذه المناسبة وسيلة للإشارة إلى قرب الفرج للعصبة المؤمنة، ليجدوا مأوى كما وجد الفتية المأوى، وليبش في وجوههم أهل المدينة، كما بش أهل المدينة في وجه أحد الفتية، ثم ذهبوا إليهم ليكرموهم وليخلدوا ذكراهم(١).

عاشرًا: الحصار الاقتصادي والاجتماعي في آخر السابع من البعثة:

ازداد إيذاء المشركين من قريش، أمام صبر الرسول ﷺ، والمسلمين على الأذى، وإصرارهم على الدعوة إلى الله، وإزاء فشو الإسلام في القبائل، وبلوغ الأذى قمته في الحصار المادي والمعنوي، الذي ضربته قريش ظلمًا وعدوانًا على النبي ﷺ وأصحابه، ومن عطف عليهم من قرابتهم(٢).

قال الزهري: «ثم إن المشركين اشتدوا على المسلمين كأشد ما كانوا حتى بلغ المسلمين الجهد، واشتد عليهم البلاء، وأجمعت قريش في مكرها، أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية؛ فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بني عبد المطلب، وأمرهم أن يدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم، ويمنعوه ممن أراد قتله، فاجتمعوا على ذلك مسلمهم وكافرهم، فمنهم من فعله حمية، ومنهم من فعله إيمانًا ويقينًا، فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله ﷺ، فأجمعوا أمرهم أن لا يجالسوهم، ولا يبايعوهم ولايدخلوا بيوتهم، حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل، وكتبوا في مكرهم صحيفة وعهودًا ومواثيق؛ أن لا يتقبلوا من بني هاشم أبدًا صلحًا، ولا تأخذهم بهم رأفة، حتى يسلموه للقتل»(٣).

وفي رواية: «. . . على ألا ينكحوا إليهم، ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئًا، ولا يبتاعوا منهم، ولايدعوا سببًا من أسباب الرزق يصل إليهم، ولا يقبلوا منهم صلحًا، ولا تأخذهم بهم رأفة، ولا يخالطوهم، ولا يجالسوهم، ولا يكلموهم، ولا يدخلوا بيوتهم، حتى يسلموا إليهم رسول الله للقتل، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدًا على أنفسهم»(٤).

فلبث بنو هاشم في شعبهم ثلاث سنين، واشتد عليهم البلاء والجهد، وقطعوا عنهم الأسواق فلا يتركون طعامًا يقدم من مكة ولا بيعًا إلا بادروهم إليه فاشتروه، يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله ﷺ(٥).

---

(١) انظر: تأملات في سورة الكهف للشيخ أبي الحسن الندوي (ص ٤٦)، وانظر: معالم قرآنية في الصراع مع اليهود (ص ٦١).

(٢) انظر: ظاهرة الإرجاء، د. سفر الحوالي (١/ ٥٠).

(٣) تفاصيل قصة الشعب وماتخللها من أحداث، دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٨٠ـ ٨٥) السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٤٣ـ ٧٢) الروض الأنف (٢/ ١٠١ـ ١٢٩).

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٥٠)، زاد المعاد (٢/ ٤٦)، الكامل في التاريخ (٢/ ٨٧).

(٥) انظر: ظاهر الإرجاء (١/ ٥١).

وكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول الله ﷺ فأتى فراشه، حتى يراه من أراد به مكرًا أو غائلة، فإذا نام الناس، أخذ أحد بنيه أو إخوته، أو بني عمه، فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ، وأمر رسول الله أن يأتي بعض فرشهم فيرقد عليها(١).

واشتد الحصار على الصحابة، وبني هاشم، وبني المطلب حتى اضطروا إلى أكل ورق الشجر، وحتى أصيبوا بظلف العيش وشدته، إلى حد أن أحدهم يخرج ليبول فيسمع بقعقعة شيء تحته، فإذا هي قطعة من جلد بعير، فيأخذها فيغسلها، ثم يحرقها ثم يسحقها، ثم يستفها ويشرب عليها الماء فيتقوى بها ثلاثة أيام(٢)، وحتى لتسمع قريش صوت الصبية يتضاغون من وراء الشعب من الجوع(٣)!

فلما كان رأس ثلاث سنين، قيض الله سبحانه وتعالى لنقض الصحيفة أناسًا من أشراف قريش، وكان الذين تولى الانقلاب الداخلي لنقض الصحيفة، هشام بن عمرو الهاشمي، فقصد زهير بن أبي أمية المخزومي، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب، فقال له: يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت؟ لا يبتاعون، ولا يبتاع منهم، ولا يَنْكَحون ولا ينكح إليهم، أما إني أحلف بالله، لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام، ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم، ما أجابك إليه أبدًا، قال: ويحك يا هشام، فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها؛ فقال له: قد وجدت رجلاً، قال: من هو؟ قال: أنا، فقال له زهير: ابْغِنا ثالثًا.

فذهب إلى المطعم بن عدي، فقال له: أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف، وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيهم؟ أما والله لو أمكنتموهم من هذه لتَجدُنَّهم إليها منكم سراعًا، قال: ويحك فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، قال: قد وجدت لك ثانيًا، قال من؟ قال: أنا، قال: ابغنا ثالثًا، قال: قد فعلت، قال: من؟ قال: زهير بن أبي أمية، فقال: ابغنا رابعًا، فذهب إلى أبي البختري بن هشام، فقال له نحو ما قال للمطعم بن عدي، فقال له: ويحك وهل نجد أحدًا يعين على ذلك؛ قال: نعم، زهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وأنا، فقال: ابغنا خامساً، فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فكلمه وذكر له قرابته وحقهم، فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد، قال: نعم، ثم سمى له القوم؛ فاتعدوا خَطْم الحَجون ليلاً بأعلى مكة، فاجتمعوا هناك، وأجمعوا أمرهم، وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها، وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حلة، فطاف بالبيت

---

(١) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان (ص ١٨٠).

(٢) انظر: الغرباء الأولون (ص ١٤٨) نقلاً عن حلية الأولياء، ترجمة رقم (٧).

(٣) المصدر السابق نفسه (ص ١٤٨).

سبعًا، ثم أقبل على الناس فقال: أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون، ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة، فقال أبو جهل، وكان في ناحية المسجد: كذبت والله لا تشق، فقال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حين كُتبت، فقال أبو البختري: صدق زمعة، لا نرضى ما كُتب فيها، ولا نُقر به فقال المطعم بن عدي: صدقتما، وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها، وقال هشام بن عمرو نحوًا من ذلك؟ فقال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل، تُشوورَ فيه في غير هذا المكان، وأبو طالب جالس في ناحية المسجد لا يتكلم.

وقام المطعم بن عدي إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا «باسمك اللهم»[(١)]. وروى ابن إسحاق أن الله ﷻ أرسل على الصحيفة الأرضة فلم تدع فيها اسمًا لله ﷻ إلا أكلته، وبقي فيها الظلم والقطيعة والبهتان، وأخبر رسول الله ﷺ بذلك عمه، فذهب أبو طالب إلى قومه، وأخبرهم بذلك وقال لهم: فإن كان كاذبًا فلكم عليَّ أن أدفعه إليكم تقتلونه، وإن كان صادقًا فهل ذلك ناهيكم عن تظاهركم علينا؟ فأخذ عليهم المواثيق وأخذوا عليه، فلما نشروها فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ. فقال المطعم بن عدي، وهشام بن عمرو: نحن براء من هذه الصحيفة القاطعة، العادية الظالمة، ولن نمالي أحدًا في فساد أنفسنا وأشرافنا، وتتابع على ذلك ناس من أشراف قريش فخرجوا من الشعب[(٢)].

*** دروس وعبر وفوائد:**

١ - إن مشركي بني هاشم وبني المطلب تضامنوا مع رسول الله ﷺ، وحموه كأثر من أعراف الجاهلية، ومن هنا ومن غيره، نأخذ أنه يسع المسلم أن يستفيد من قوانين الكفر فيما يخدم الدعوة، على أن يكون ذلك مبنيًا على فتوى صحيحة من أهلها[(٣)].

٢ - إن حقوق الإنسان في عصرنا ضمان للمسلم، والحرية الدينية في كثير من البلدان يستفاد منها، وقوانين كثيرة في أقطار العالم تعطي للمسلمين فرصًا، وعلى المسلمين أن يستفيدوا من ذلك وغيره من خلال موازنات دقيقة[(٤)].

٣ - من المهم أن تعلم أن حماية أقارب رسول الله ﷺ له، لم تكن حماية للرسالة التي بعث بها، وإنما كانت لشخصه من الغريب، وإذا أمكن أن تستغل هذه الحماية من قبل المسلمين كوسيلة من وسائل الجهاد، والتغلب على الكافرين، والرد لمكائدهم وعدوانهم، فأنعم

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٤٣ـ ٥/ ٦٧ـ ٦٩).

(٢) السير والمغازي لابن إسحاق (ص ١٥٦ـ ١٦٢).

(٣) انظر: الأساس في السنة وفقهها ـ السيرة النبوية، سعيد حوى (١/ ٢٦٤).

(٤) المصدر السابق نفسه.

بذلك من جهد مشكور وسبيل يتنبهون إليها[١].

٤ - انتصر أبو طالب في غزو المجتمع القرشي بقصائده الضخمة، التي هزت كيانه هزًّا، وتحرك لنقض الصحيفة من ذكرنا من قبل، أولئك الخمسة الذين يمتون بصلة قرابة أو رحم لبني هاشم وبني المطلب، واستطاعوا أن يرفعوا هذه الظلامة وهذا الحيف عن المسلمين وأنصارهم، وحلفائهم، وخططوا له، ونجحوا فيه. وفي هذا الموقف إشارة إِلى أن كثيرًا من النفوس، والتي تبدو في ظاهر الأمر من أعمدة الحكم الجاهلي، قد تملك في أعماقها رفضًا لهذا الظلم والبغي، وتستغل الفرصة المناسبة لإِزاحته، وعلى أبناء المسلمين أن يهتموا بهذه الشرائح، وينفذوا إِلى أعماقها، وتُوَضِّح لهم حقيقة القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وتبين لها طبيعة العداء بين الإِسلام واليهود، والصليبيين والعَلْمانية، فقد يستفاد منهم في خدمة الإِسلام[٢].

٥ - وظاهرة أبي لهب تستحق الدراسة والعناية، لأنها تتكرر في التاريخ الإِسلامي، فقد يجد الدعاة من أقرب حلفائهم من يقلب لهم ظهر المجن، ويبالغ في إِيذاء الدعاة، وحربهم، أكثر بكثير ممن يلقونه من خصومهم الألداء الأشداء[٣].

٦ - كانت تعليمات الرسول ﷺ، لأفراد المسلمين ألا يواجهوا العدو، وأن يضبطوا أعصابهم، فلا يشعلوا فتيل المعركة، أو يكونوا وقودها؛ وإِن أعظم تربية في هذه المرحلة، هي صبر أبطال الأرض على هذا الأذى، دون مقاومة. حمزة وعمر، وأبو بكر وعثمان، وغيرهم ﷺ، سمعوا وأطاعوا، فلقوا كل هذا الأذى، وهذا الحقد، وهذا الظلم، فكفوا أيديهم، وصبروا ليس على حادثة واحدة فقط، أو يومًا واحدًا فقط بل ثلاث سنين عجاف، تحترق أعصابهم، ولا يسمح لهم برمية سهم أو شجة رأس[٤].

٧ - أثبتت الأحداث عظمة الصف المؤمن، في التزامه بأوامر قائده، وبعده عن التصرفات الطائشة؛ فلم يكن شيء أسهل من اغتيال أبي جهل، وإِشعال معركة غير مدروسة لا يعلم إِلا الله مداها، وغير متكافئة.

٨ - كانت الدعوة الإِسلامية تحقق انتصارات رائعة في الحبشة، وفي نجران، وفي أزْد شَنوءة، وفي دَوْس، وفي غفار، وكانت تتم في خط واضح، سيكون سندًا للإِسلام والمسلمين، ومراكز قوى يمكن أن تتحرك في اللحظة الحاسمة، وامتدادات للدعوة، تتجاوز حدود مكة الصلدة المستعصية.

(١) انظر: فقه السيرة النبوية، للبوطي (ص ٨٨).
(٢) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان، (ص ١٨٥).
(٣) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان (ص ١٨٦).
(٤) انظر: التربية القيادية (١/ ٣٧١).

٩ - كانت هذه السنوات الثلاث للجيل الرائد، زادًا عظيمًا في البناء والتربية، حيث ساهم بعضه في تحمل آلام الجوع والخوف، والصبر على الابتلاء، وضبط الأعصاب، والضغط على النفوس والقلوب، ولجم العواطف عن الانفجار.

١٠ - كانت بعض الشخصيات في الصف المشرك، تبنى في داخلها بالتربية النبوية، وتتأثر بعظمة شخصية النبي ﷺ، وتتفاعل في أعماقها مع المبادىء التي يقدمها الدين الجديد، لكن سيطرة الملأ وسطوة الكبراء، كانت تحول دون إبراز هذا التفاعل، وهذا الحب، وهذه التربية، وختام قصة الصحيفة تقدم لنا أجلى بيان عن ذلك(١).

١١ - قيام الحجج الدامغة، والبراهين الساطعة، والمعجزات الخارقة لا يؤثر في أصحاب الهوى، وعبدة المصالح والمنافع، لأنهم يلغون عقولهم عن التدبر، ويصمون آذانهم عن سماع الحق، ويغمضون أعينهم عن النظر والتأمل والاهتداء إلى الحق، بعد قيام الأدلة عليه، فلقد أخبرهم أبو طالب بما أخبر به الرسول ﷺ بما حدث للصحيفة من أكل الأرضة لها، وبقاء اسم الله فقط (باسمك اللهم) ورأوا ذلك بأم أعينهم، فما آمن منهم أحد، إنه الهوى الذي يغشي عن الحق، ويصم الآذان عن سماعه(٢).

١٢ - كانت حادثة المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية سببًا في خدمة الدعوة والدعاية لها بين قبائل العرب، فقد ذاع الخبر في كل القبائل العربية من خلال موسم الحج، ولفت أنظار جميع الجزيرة العربية إلى هذه الدعوة، التي يتحمل صاحبها وأصحابه الجوع والعطش، والعزلة لكل هذا الوقت، أثار ذلك في نفوسهم أن هذه الدعوة حق، ولولا ذلك لما تحمل صاحب الرسالة وأصحابه كل هذا الأذى والعذاب.

١٣ - أثار هذا الحصار سخط العرب على كفار مكة، لقسوتهم على بني هاشم وبني المطلب، كما أثار عطفهم على النبي ﷺ وأصحابه، فما أن انفك الحصار حتى أقبل الناس على الإسلام، وحتى ذاع أمر هذه الدعوة، وتردد صداها في كل بلاد العرب، وهكذا ارتد سلاح الحصار الاقتصادي على أصحابه، وكان عاملاً قويًا من عوامل انتشار الدعوة الإسلامية، عكس ما أراد زعماء الشرك تمامًا(٣).

١٤ - كان لوقوف بني هاشم وبني المطلب مع رسول الله، وتحملهم معه الحصار الاقتصادي والاجتماعي أثر في الفقه الإسلامي، حيث إن سهم ذوي القربى من الخمس يعطى لبني هاشم، وبني المطلب، ويوضح ابن كثير هذا الحكم لدى تفسيره قوله تعالى:

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ

---

(١) المصدر السابق (/ ٣٨٤، ٣٨٥).

(٢) السيرة النبوية لأبي فارس (ص ١٦٧).

(٣) انظر: الحرب النفسية ضد الإسلام، د. عبد الوهاب كحيل (ص ١٠١).

﴿ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: الآية ٤١].

فيقول: «وأما سهم ذوي القربى، فإنه يصرف إلى بني هاشم، وبني المطلب، لأن بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية، وفي أول الإسلام، ودخلوا معهم في الشعب غضبًا لرسول الله ﷺ، وحماية لهم، مسلمهم طاعة لله ورسوله، وكافرهم حمية للعشيرة، وأنفة وطاعة لأبي طالب؛ وأما بنو عبد شمس، وبنو نوفل، وإن كانوا بني عمهم، فلم يوافقوهم على ذلك، بل حاربوهم ونابذوهم ومالؤوا بطون قريش على حرب الرسول ﷺ؛ ولهذا كان ذم أبي طالب لهم في قصيدته اللامية أشد من غيرهم لشدة قربهم.. وفي بعض الروايات هذا الحديث: «إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام، وهذا قول جمهور العلماء إنهم بنو هاشم وبنو المطلب»[١].

١٥ ـ لما أذن الله بنصر دينه، وإعزاز رسوله، وفتح مكة ثم حجة الوداع، كان النبي ﷺ يؤثر أن ينزل في خَيْف بني كنانة، ليتذكر ماكانوا فيه من الضيق والاضطهاد، فيشكر الله على ما أنعم عليه من الفتح العظيم، ودخولهم مكة ـ التي أُخرجوا منها ـ وليؤكد قضية انتصار الحق واستعلائه، وتمكين الله لأهله الصابرين[٢]، فعن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ قال: قلت يا رسول الله! أين تنزل غدًا؟ في حَجته ـ قال: «وهل ترك لنا عَقيل منزلاً»؟ ثم قال: «نحن نازلون غدًا بخَيف بني كنانة، المُحَصَّبِ، حيث قاسمتْ قريش على الكفر، وذلك أن بني كنانة حالفت قريشا على بني هاشم، أن لا يبايعوهم، ولا يُؤْوُوهم». قال الزهري: والخيف: الوادي[٣].

١٦ ـ على كل شعب في أي وقت، يسعى لتطبيق شرع الله عليه، أن يضع في حسبانه احتمالات الحصار والمقاطعة من أهل الباطل، فالكفر ملة واحدة. فعلى قادة الأمة الإسلامية، تهيئة أنفسهم، وأتباعهم، لمثل هذه الظروف، وعليهم وضع الحلول المناسبة لها إذا حصلت، وأن تفكر في مقاومة الحصار بالبدائل المناسبة، كي تتمكن الأمة من الصمود في وجه أي نوع من أنواع الحصار[٤].

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣١٢).

(٢) انظر: الغرباء الأولون (ص ١٤٩).

(٣) البخاري: كتاب الجهاد ١٨٠، باب إذا أسلم قوم في دار الحرب (٤/ ٣٣ ورقمه ٣٠٥٨).

(٤) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية (٩٨).

الفصل الرابع

هجرة الحبشة، ومحنة الطائف، ومنحة الإسراء

المبحث الأول

تعامل النبي ﷺ مع سنّة الأخذ بالأسباب

من السنن الربانية التي تعامل معها النبي ﷺ، سنّة الأخذ بالأسباب، والأسباب جمع سبب، وهو كل شيء يتوصل به إلى غيره، وسنّة الأخذ بالأسباب مقررة في كون الله تعالى، بصورة واضحة، فلقد خلق الله هذا الكون بقدرته، وأودعه من القوانين والسنن، ما يضمن استقراره واستمراره، وجعل المسببات مرتبطة بالأسباب بعد إرادته تعالى؛ فأرسى الأرض بالجبال، وأنبت الزرع بالماء.. وغير ذلك.

ولو شاء الله رب العالمين، لجعل كل هذه الأشياء وغيرها ـ بقدرته المطلقة ـ غير محتاجة إلى سبب، ولكن هكذا اقتضت مشيئة الله تعالى وحكمته، الذي يريد أن يوجه خلقه إلى ضرورة مراعاة هذه السنّة، ليستقيم سير الحياة على النحو الذي يريده سبحانه، وإذا كانت سنة الأخذ بالأسباب مبرزة في كون الله تعالى، بصورة واضحة، فإنها كذلك مقررة في كتاب الله تعالى، ولقد وجه الله عباده المؤمنين إلى وجوب مراعاة هذه السنّة، في كل شؤونهم، الدنيوية، والأخروية سواء قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: الآية ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [المُلك: الآية ١٥].

ولقد أخبرنا القرآن الكريم أن الله تعالى طلب من السيدة مريم أن تباشر الأسباب وهي في أشد حالات ضعفها، قال تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: الآية ٢٥].

وهكذا يؤكد الله تعالى على ضرورة مباشرة الأسباب في كل الأمور والأحوال.

ورسول الله ﷺ كان أوعى الناس بهذه السنّة الربانية، فكان ـ وهو يؤسس لبناء الدولة الإسلامية ـ يأخذ بكل مافي وسعه من أسباب، ولا يترك شيئًا يسير جزافًا، وقد لمسنا ذلك

في مامضى وسنلمس ذلك فيما بقي بإذن الله تعالى.

وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يوجه أصحابه دائمًا إلى مراعاة هذه السنّة الربانية في أمورهم الدنيوية والأخروية على السواء(١).

● **التوكل على الله والأخذ بالأسباب:**

التوكل على الله ـ تعالى ـ لا يمنع من الأخذ بالأسباب، فالمؤمن يتخذ الأسباب من باب الإيمان بالله، وطاعته فيما يأمر به من اتخاذها، ولكنه لا يجعل الأسباب هي التي تنشىء النتائج فيتوكل عليها.

إن الذي ينشىء النتائج ـ كما ينشىء الأسباب ـ هو قدر الله، ولا علاقة بين السبب والنتيجة في شعور المؤمن.. اتخاذ السبب عبادة بالطاعة، وتحقق النتيجة قدر من الله مستقل عن السبب، لا يقدر عليه إلا الله، وبذلك يتحرر شعور المؤمن من التعبد للأسباب، والتعلق بها، وفي الوقت ذاته هو يستوفيها بقدر طاقته، لينال ثواب طاعة الله في استيفائها(٢).

ولقد قرر النبي ﷺ في أحاديث كثيرة، ضرورة الأخذ بالأسباب، مع التوكل على الله تعالى، كما نبّه ـ عليه السلام ـ على عدم تعارضهما.

يروي أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رجلاً قال: يا رسول الله! أَعْقِلُها وأتوكلُ، أو أُطلِقُها وأتوكلُ ـ وكأنه كان يفهم أن الأخذ بالأسباب ينافي التوكل على الله تعالى ـ فوجهه النبي ﷺ إلى أن مباشرة الأسباب أمر مطلوب، ولا ينافي ـ بحال من الأحوال ـ التوكل على الله تعالى، ما صدقت النية في الأخذ بالأسباب ـ فقال له ﷺ: «اعقلها وتوكل»(٣).

وهذا الحديث من الأحاديث التي تبين أنه لا تعارض بين التوكل والأخذ بالأسباب، بشرط عدم الاعتقاد في الأسباب، والاعتماد عليها ونسيان التوكل على الله، وروى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِماصًا وتروح بِطانًا»(٤).

وفي هذا الحديث الشريف حث على التوكل، مع الإشارة إلى أهمية الأخذ بالأسباب، حيث أثبت الغدو والرواح للطير مع ضمان الله تعالى الرزق لها.

ولا بد للأمة الإسلامية أن تدرك أن الأخذ بالأسباب للوصول إلى التمكين أمر لا محيص عنه، وذلك بتقرير الله تعالى حسب سنته التي لا تتخلف، ومن رحمة الله ـ تعالى ـ أنه لم يطلب من المسلمين فوق ما يستطيعونه من الأسباب، ولم يطلب منهم أن يُعدوا العدة التي تكافىء

(١) انظر: التمكين للأمة الإسلامية (ص ٢٤٨ـ ٢٥٠).

(٢) في ظلال القرآن (٣/ ١٤٧٦).

(٣) رواه الترمذي (٤/ ٥٧٦) كتاب صفة القيامة، باب (٦٠) ورقمه (٢٥١٧) وحسنه الألباني.

(٤) رواه أحمد في مسنده (١/ ٥٢) ورقمه (٣٧٠) قال الشيخ أحمد شاكر إسناده صحيح.

تجهيز الخصم، ولكنه سبحانه قال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠] .

فكأنه تعالى يقول لهم: افعلوا أقصى ما تستطيعون، احشدوا أقصى إمكاناتكم، ولو كانت دون إمكانات الخصوم، فالاستطاعة هي الحد الأقصى المطلوب، وما يزيد على ذلك يتكفل الله تعالى به، بقدرته التي لا حدود لها، وذلك لأن فعل أقصى المستطاع هو برهان الإخلاص، وهو الشرط المطلوب لينزل عون الله ونصره(١).

إن النداء اليوم موجه لجماهير الأمة الإسلامية بأن يتجاوزوا مرحلة الوهن والغثاء، إلى مرحلة القوة والبناء، وأن يودّعوا الأحلام والأمنيات، وينهضوا للأخذ بكل الأسباب، التي تعينهم على إقامة دولة الإسلام، وصناعة حضارة الإنسان الموصول برب العالمين.

المبحث الثاني

الهجرة إلى الحبشة

أولاً: الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة:

١ ـ أسباب الهجرة إلى الحبشة:

اشتد البلاء على أصحاب رسول الله ﷺ، وجعل الكفار يحبسونهم ويعذبونهم، بالضرب والجوع والعطش، ورمضاء مكة والنار؛ ليفتنوهم عن دينهم، فمنهم من يفتتن من شدة البلاء وقلبه مطمئن بالإيمان، ومنهم من تصلب في دينه، وعصمه الله منهم؛ فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، لمكانه من الله، ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها مَلِكًا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه» فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفرارًا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة كانت في الإسلام(٢).

وقد ذكر الباحثون أسبابًا عديدة في سبب هجرة المسلمين إلى الحبشة، منها ما ذكرت، ومنها:

● **ظهور الإيمان:**

حيث كثر الداخلون في الإسلام، وظهر الإيمان، وتحدث الناس به، قال الزهري في

---

(١) الإسلام في خندق، مصطفى محمود (ص ٦٤).

(٢) الهجرة في القرآن الكريم، أحزمي سامعون (ص ٢٩٠).

حديثه عن عروة في هجرة الحبشة: فلما كثر المسلمون، وظهر الإِيمان، فتُحدث به، ثار المشركون من كفار قريش بمن آمن من قبائلهم، يعذبونهم ويسجنونهم، وأرادوا فتنتهم عن دينهم، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال للذين آمنوا به: «تفرقوا في الأرض»، قالوا: فأين نذهب يا رسول الله؟ قال: «هاهنا»، وأشار إِلى أرض الحبشة[١].

● ومنها؛ الفرار بالدين:

كان الفرار بالدين خشية الافتتان فيه سببًا مهمًا من أسباب هجرتهم للحبشة؛ قال ابن إِسحاق: «فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إِلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفرارًا إِلى الله بدينهم»[٢].

● ومنها؛ نشر الدعوة خارج مكة:

قال الأستاذ سيد قطب: «ومن ثَمَّ كان يبحث الرسول ﷺ عن قاعدة أخرى غير مكة، قاعدة تحمي هذه العقيدة، وتكفل لها الحرية، ويتاح فيها أن تتخلص من هذا التجميد الذي انتهت إِليه في مكة، حيث تظفر بحرية الدعوة، وحماية المعتنقين لها من الاضطهاد والفتنة، وهذا في تقديري كان هو السبب الأول والأهم للهجرة، ولقد سبق الاتجاه إِلى الحبشة، حيث هاجر إِليها كثير من المؤمنين الأوائل، والقول بأنهم هاجروا إِليها لمجرد النجاة بأنفسهم، لا يستند إِلى قرائن قوية، فلو كان الأمر كذلك لهاجر إِذن أقل الناس وجاهة وقوة ومنعة من المسلمين، غير أن الأمر كان على الضد من هذا، فالموالي المستضعفون الذين كان ينصب عليهم معظم الاضطهاد والتعذيب والفتنة لم يهاجروا، إِنما هاجر رجال ذوو عصبيات، لهم من عصبيتهم - في بيئة قبلية - ما يعصمهم من الأذى، ويحميهم من الفتنة، وكان عدد القرشيين يؤلف غالبية المهاجرين...»[٣].

ووافق الأستاذ الغضبان الأستاذ سيد فيما ذهب إِليه: «وهذه اللفتة العظيمة من «سيد» رحمه الله لها في السيرة ما يعضدها ويساندها، وأهم ما يؤكدها في رأيي هو الوضع العام الذي انتهى إِليه أمر مهاجرة الحبشة، فلم نعلم أن رسول الله ﷺ قد بعث في طلب مهاجرة الحبشة حتى مضتْ هجرةُ يثرب، وبدرٌ وأحد والخندق والحديبية، لقد بقيت يثرب معرضة لاجتياح كاسح من قريش خمس سنوات، وكان آخر هذا الهجوم والاجتياح في الخندق، وحين اطمأن رسول الله ﷺ إِلى أن المدينة قد أصبحت قاعدة أمينة للمسلمين، وانتهى خطر اجتياحها من المشركين، عندئذٍ بعث في طلب المهاجرين من الحبشة، ولم يعد ثمة ضرورة لهذه القاعدة الاحتياطية، التي كان من الممكن

---

(١) المغازي النبوية، للزُّهْري، تحقيق: سهيل زكار (ص ٩٦).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٩٨).

(٣) في ظلال القرآن (١/ ٢٩).

أن يلجأ إليها رسول الله ﷺ لو سقطت يثرب في يد العدو[١].

ويميل الأستاذ دروزة إلى أن فتح مجال للدعوة في الحبشة سبب من أسباب هجرة الحبشة، حيث يقول: «بل إنه ليخطر بالبال أن يكون من أسباب اختيار الحبشة النصرانية أمل وجود مجال للدعوة فيها، وأن يكون هدف انتداب جعفر متصلاً بهذا الأمل»[٢] وذهب إلى هذا القول الدكتور سليمان بن حمد العودة: ومما يدعم الرأي القائل بكون الدعوة للدين الجديد في أرض الحبشة سببًا وهدفًا من أسباب الهجرة؛ إسلامُ النجاشي، وإسلامُ آخرين من أهل الحبشة، وأمر آخر، فإذا كان ذهاب المهاجرين للحبشة بمشورة النبي ﷺ، وتوجيهه فبقاؤهم في الحبشة إلى فتح خيبر بأمر النبي ﷺ وتوجيهه، وفي صحيح البخاري: فقال جعفر للأشعريين ـ حين وافقوه بالحبشة: «إن رسول الله ﷺ بعثنا هنا، وأمرنا بالإقامة فأقيموا معنا»[٣].

وهذا يعني أنهم ذهبوا لمهمة معينة ـ ولا أشرف من مهمة الدعوة لدين الله ـ وأن هذه المهمة قد انتهت حين طلب المهاجرون[٤].

● **ومنها، البحث عن مكان آمن للمسلمين:**

كان الخطة الأمنية للرسول ﷺ تستهدف الحفاظ على الصفوة المؤمنة، ولذلك رأى الرسول ﷺ أن الحبشة تعتبر مكانًا آمنًا للمسلمين، ريثما يشتد عود الإسلام وتهدأ العاصفة، وقد وجد المهاجرون في أرض الحبشة ما أمنهم وطمأنهم، وفي ذلك تقول أم سلمة ﵂: «لما نزلنا أرض الحبشة جاوَرْنا بها خيرَ جار النجاشي، أمِنَّا على ديننا وعبدنا الله تعالى لا نُؤْذَى...»[٥].

٢ ـ لماذا اختار النبي ﷺ الحبشة؟

هناك عدة أسباب تساعد الباحث للإجابة عن: لماذا اختار النبي ﷺ الحبشة؟ منها:

أ ـ النجاشي العادل.

ب ـ النجاشي الصالح.

فقد ورد عن النبي ﷺ ثناؤه على ملك الحبشة بقوله: «وكان بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشي، لا يُظلم أحد بأرضه» وكان يُثْنَى عليه مع ذلك صلاح[٦]. ويظهر هذا الصلاح في

---

(١) المنهج الحركي للسيرة (١/ ٦٧، ٦٨).

(٢) سيرة الرسول ﷺ (١/ ٢٦٥) عن الشامي (ص ١١١).

(٣) الصحيح مع الفتح (٦/ ٢٣٧).

(٤) انظر: الهجرة الأولى في الإسلام، د. سلمان العودة (ص ٣٤).

(٥) السيرة النبوية لابن هشام تحقيق همام أبو صعيليك (١/ ٤١٣).

(٦) انظر: تاريخ الأمم والملوك للطبري (٢/ ٣٢٨)، يُثْنَى عليه: أي يشيع عنه.

حمايته للمسلمين، وتأثره بالقرآن الكريم عندما سمعه من جعفر ﵁، وكان معتقده في عيسى ﵇ صحيحًا.

جـ ـ الحبشة متجر قريش:

والحبشة تعتبر من مراكز التجارة في الجزيرة، فربما عرفها بعض المسلمين عندما ذهبوا إليها في التجارة، أو ذكرها لهم من ذهب إليها قبلهم، وقد ذكر الطبري في معرض ذكره لأسباب الهجرة للحبشة: «وكانت أرض الحبشة متجرًا لقريش، يتجرون فيها، يجدون فيها رَفاغًا[١] من الرزق وأمنًا، ومتجرًا حسنًا»[٢].

د ـ الحبشة البلد الآمن:

فلم يكن في خارج الجزيرة بلد أكثر أمنًا من بلاد الحبشة، ومن المعلوم بُعْدُ الحبشة عن سطوة قريش من جانب، وهي لا تدين لقريش بالاتباع كغيرها[٣]، وفي حديث ابن إسحاق عن أسباب اتخاذ الحبشة مكانًا للهجرة أنها: أرض صدق، وأن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد[٤]، فهي أرض صدق، وملكها عادل، وتلك من أهم سمات البلد الآمن[٥].

هـ ـ محبة الرسول ﷺ للحبشة ومعرفته بها:

ففي حديث الزهري أن الحبشة كانت أحب الأرض إلى رسول الله ﷺ أن يهاجر إليها[٦]، ولعل تلك المحبة لها أسباب منها:

- حكم النجاشي العادل.
- التزام الأحباش بالنصرانية، وهي أقرب إلى الإسلام من الوثنية.
- معرفة الرسول بأخبار الحبشة من خلال حاضنته أم أيمن ﵂، وأم أيمن هذه ثبت في صحيح مسلم وغيره، أنها كانت حبشية[٧]، كما أن النبي ﷺ كان خبيرًا بطبائع وأحوال الدول التي في زمانه.

٣ ـ وقت خروج المهاجرين، وسرية الخروج والوصول إلى الحبشة:

غادر أصحاب رسول الله ﷺ مكة، في رجب من السنة الخامسة للبعثة، وكانوا عشرة

---

(١) رَفاغًا: الرَّفْغُ والرَّفاغة: سَعة العيش والخصب. (لسان العرب ـ رفغ).
(٢) مغازي رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير (ص ١٠٤).
(٣) انظر: هجرة الرسول وأصحابه في القرآن والسنة، أحمد الجمل (ص ٩٧).
(٤) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٩٧).
(٥) الهجرة الأولى في الإسلام (ص ٤٦).
(٦) مغازي الزهري (ص ٩٦).
(٧) صحيح مسلم (٣/ ١٣٩٢)، تهذيب الأسماء واللغات للنووي (٣/ ٣٥٧).

رجال، وأربع نسوة، وقيل: خمس نسوة، وحاولت قريش أن تدركهم لتردهم إلى مكة، وخرجوا في أثرهم حتى وصلوا البحر، ولكن المسلمين كانوا قد أبحروا متوجهين إلى الحبشة[(١)].

وعند التأمل في فقه المرويات يتبين لنا سرية المهاجرين، ففي رواية الواقدي: «فخرجوا متسللين سرًّا»[(٢)] وعنه الطبري[(٣)]، وممن ذكر السرية في الهجرة، ابن سيد الناس[(٤)]، وابن القيم[(٥)]، والزرقاني[(٦)]، ولما وصل المسلمون إلى أرض الحبشة أكرم النجاشي مثواهم، وأحسن لقاءهم. ووجدوا عنده من الطمأنينة بالأمن مالم يجدوه في وطنهم وأهليهم.

إن المتأمل في أسماء الصحابة الذين هاجروا[(٧)] لا يجد فيهم أحدًا من الموالي الذين نالهم من أذى قريش وتعذيبها أشد من غيرهم، كبلال، وخباب، وعمار، بل نجد غالبيتهم من ذوي النسب والمكانة في قريش، ويمثلون عددًا من القبائل، صحيح أن الأذى شمل ذوي النسب والمكانة، كما طال غيرهم، ولكنه كان على الموالي أشد في بيئة تقيم وزنًا للقبيلة، وترعى النسب، وبالتالي فلو كان الفرار من الأذى وحده، هو السبب في الهجرة، لكان هؤلاء الموالي المعذبون أحق بالهجرة من غيرهم، ويؤيد هذا أن ابن إسحاق وغيره، ذكر عدوان المشركين على المستضعفين، ولم يذكر هجرتهم للحبشة[(٨)].

ويصل الباحث إلى حقيقة مهمة ألا وهي ثَمَّة أسبابًا أخرى، تدفع للهجرة غير الأذى؛ اختار لها النبي ﷺ نوعية من أصحابه، تمثل عددًا من القبائل، وقد يكون لذلك أثر في حمايتهم، لو وصلت قريش إلى إقناع أهل الحبشة بإرجاعهم من جانب، وتهز هجرتهم قبائل قريش كلها أو معظمهم من جانب آخر، فمكة ضاقت بأبنائها، ولم يجدوا بدًّا من الخروج عنها، بحثًا عن الأمن في بلد آخر، ومن جانب ثالث، يرحل هؤلاء المهاجرون بدين الله لينشروه في الآفاق، وقد تكون محلاً أصوب وأبرك للدعوة إلى الله، فتتفتح عقول وقلوب حين يستغلق سواها[(٩)].

عاش المسلمون ثلاثة أشهر من بدء الهجرة، وحدث تغير كبير على حياة المسلمين في

---

(١) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، أحزمي سامعون (ص ٢٩٠، ٢٩١).
(٢) طبقات ابن سعد (١/ ٢٠٤).
(٣) تاريخ الطبري (٢/ ٣٢٩).
(٤) عيون الأثر (١/ ١١٦).
(٥) زاد المعاد (٣/ ٢٣).
(٦) شرح المواهب (١/ ٢٧١).
(٧) ارجع إليهم في: البداية والنهاية (٣/ ٩٦ـ ٩٧)، سيرة ابن هشام (١/ ٣٤٤ـ ٣٥٢).
(٨) الأنساب للبلاذُرِي (١/ ١٥٦ـ ١٩٨)، ابن هشام (١/ ٣٩٢ـ ٣٩٦).
(٩) انظر: الهجرة الأولى في الإسلام (ص ٣٧).

مكة، وظروفٌ نشأت لم تكن موجودة من قبل، بعثت في المسلمين الأمل في إمكان نشر الدعوة في مكة، حيث أسلم في تلك الفترة حمزة بن عبد المطلب، عم رسول الله ﷺ عصبية لابن أخيه، ثم شرح الله صدره للإسلام، فثبت عليه، وكان حمزة أعز فتيان قريش، وأشدهم شكيمة، فلما دخل في الإسلام عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع، وأن عمه سيمنعه ويحميه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه[١].

وبعد إسلام حمزة ـ رضي الله عنه ـ أسلم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وكان عمر ذا شكيمة لا يرام، فلما أسلم امتنع به أصحاب رسول الله ﷺ وبحمزة حتى عازُّوا قريشًا[٢].

كان إسلام الرجلين العظيمين بعد خروج المسلمين إلى الحبشة، فكان إسلامُهما عزةً للمسلمين، وقهرًا للمشركين وتشجيعًا لأصحاب رسول الله ﷺ على المجاهرة بعقيدتهم.

قال ابن مسعود: «إن إسلام عمر كان فتحًا، وإن هجرته كانت نصرًا، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشًا حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه»[٣].

وعن ابن عمر قال: «لما أسلم عمر قال: أيُّ قريش أنقل للحديث؟ قيل له: جميل بن معْمر الجُمَحي، قال: فغدا عليه، قال عبد الله: وغدوت معه أتبع أثره، وأنظر ماذا يفعل؟ حتى جاءه فقال له: أعلمت يا جميل أني أسلمت ودخلت في دين محمد؟ قال: فوالله ماراجعه حتى قام يجر رداءه وتبعه عمر، واتبعت أبي حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش وهم في أنديتهم حول الكعبة ـ ألا إن ابن الخطاب قد صبأ[٤]، قال: يقول عمر من خلفه: كذب ولكني أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله. وثاروا إليه فما برح يقاتلهم ويقاتلونه، حتى قامت الشمس على رؤوسهم، وطَلِح[٥] فقعد، وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمائة لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا[٦]، «لقد أصبح المسلمون إذًا في وضع غير الذي كانوا فيه قبل الهجرة إلى الحبشة، فقد امتنعوا بحمزة وعمر ـ رضي الله عنهما ـ واستطاعوا أن يصلّوا عند الكعبة بعد أن كانوا لا يقدرون على ذلك، وخرجوا من بيت الأرقم بن أبي الأرقم مجاهرين، حتى دخلوا المسجد، وكَفَّت قريش عن إيذائهم بالصورة الوحشية التي كانت تعذبهم بها قبل ذلك، فالوضع قد تغير بالنسبة للمسلمين، والظروف التي كانوا يعيشون فيها قبل

---

(١) مختصر سيرة الرسول ﷺ، محمد بن عبد الوهاب (ص ٩٠).
(٢) السيرة النبوية (١/ ٢٩٤) وعازُّوا قريشًا: أي غلبوهم.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٦٥).
(٤) صبأ: خرج من دين إلى آخر: القاموس المحيط، باب الهمزة (١/ ٢٠).
(٥) طَلِح: أعيا.
(٦) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٢/ ٤٩٨ـ ٤٩٩).

الهجرة، قد تحولت إلى أحسن، فهل ترى هذا يخفى على أحد؟ وهل تظن أن هذه التغييرات التي جرت على حياة المسلمين في مكة، لم تصل إلى أرض الحبشة، ولو عن طريق البحارة الذين كانوا يمرون بجدة؟

لا بد أن كل ذلك قد وصلهم، ولا شك أن هؤلاء الغرباء قد فرحوا بذلك كثيرًا، ولا يستغرب أحد بعد ذلك أن يكون الحنين إلى الوطن ـ وهو فطرة فطر الله عليها جميع المخلوقات ـ قد عاودهم، ورغبت نفوسهم في العودة إلى حيث الوطن العزيز، مكة أم القرى، وإلى حيث يوجد الأهل والعشيرة، فعادوا إلى مكة في ظل الظروف الجديدة والمشجعة، وتحت إلحاح النفس وحنينها إلى حرم الله وبيته العتيق»[١].

لقد رجع المهاجرون إلى مكة، بسبب ما علموا من إسلام حمزة وعمر، واعتقادهم أن إسلام هذين الصحابيين الجليلين سيعتز به المسلمون، وتقوى شوكتهم.

ولكن قريشًا واجهت إسلام حمزة وعمر ـ ﵄ ـ بتدبيرات جديدة يتجلى فيها المكر والدهاء من ناحية، والقسوة والعنف من ناحية أخرى، فزادت في أسلحة الإرهاب، التي تستعملها ضد النبي ﷺ، وأصحابه ـ ﵃ ـ سلاحًا قاطعًا، وهو سلاح المقاطعة الاقتصادية ـ وقد تحدثت عنه ـ وكان من جراء ذلك الموقف العنيف، أن رجع المسلمون إلى الحبشة مرة ثانية، وانضم إليهم عدد كبير ممن لم يهاجروا قبل ذلك[٢].

ثانيًا: هجرة المسلمين الثانية إلى الحبشة:

قال ابن سعد: قالوا: لما قدم أصحاب النبي ﷺ مكة من الهجرة الأولى، اشتد عليهم قومهم، وسطت بهم عشائرهم، ولقوا منهم أذى شديدًا، فأذن لهم رسول الله ﷺ في الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية، فكانت خرجتهم الثانية أعظمها مشقة، ولقوا من قريش تعنيفًا شديدًا، ونالوهم بالأذى واشتد عليهم ما بلغهم عن النجاشي من حسن جواره لهم، فقال عثمان بن عفان: يا رسول الله فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة، ولست معنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أنتم مهاجرون إلى الله تعالى وإليَّ لكم هاتان الهجرتان جميعًا» قال عثمان: فحسبنا يا رسول الله[٣].

وهاجر معهم كثيرون غيرهم أكثر منهم، وعدتهم ـ كما قال ابن إسحاق وغيره ـ ثلاثة وثمانون رجلاً، إن كان عمار بن ياسر فيهم، واثنان وثمانون رجلاً إن لم يكن فيهم، قال

---

(١) تأملات في سيرة الرسول ﷺ، لمحمد سيد الوكيل (ص ٥٩)، الهجرة في القرآن الكريم (ص ٣٠٢).

(٢) انظر: القول المبين في سيرة سيد المرسلين، د. محمد النجار (ص ١١١)، الهجرة في القرآن الكريم (ص ٣٠٢).

(٣) طبقات ابن سعد (١/ ٢٠٧) (ط. بيروت). الهجرة في القرآن الكريم (ص ٣٠٣).

السهيلي: وهو الأصح عند أهل السير كالواقدي، وابن عقبة وغيرهما[١]، وثماني عشرة امرأة: إحدى عشرة قرشيات، وسبع غير قرشيات، وذلك عدا أبنائهم الذين خرجوا معهم صغارًا، ثم الذين ولدوا لهم فيها[٢].

١ ـ سعي قريش لدى النجاشي في رد المهاجرين:

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد أمنوا، واطمأنوا بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا بها دارًا واستقرارًا، وحسن جوار من النجاشي، وعبدوا الله لا يؤذيهم أحد، ائتمروا فيما بينهم، أن يبعثوا وفدًا للنجاشي لإحضار من عنده من المسلمين إلى مكة، بعد أن يوقعوا بينهم وبين ملك الحبشة، إلا أن هذا الوفد خدم الإسلام والمسلمين من حيث لا يدري، فقد أسفرت مكيدته عند النجاشي عن حوار هادف دار بين أحد المهاجرين ـ وهو جعفر بن أبي طالب ـ وبين ملك الحبشة، أسفر هذا الحوار عن إسلام النجاشي، وتأمين المهاجرين المسلمين عنده[٣]، فعن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج النبي ﷺ قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاوَرْنا بها خيرَ جار (النجاشي)، أَمِنَّا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نُؤذَى، ولا نسمع شيئًا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشًا، ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدين[٤]، وأن يُهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب مايأتيه منها إليه الأدم[٥]، فجمعوا له أدَمًا كثيرًا، ولم يتركوا من بَطارِقته[٦] بطريقًا إلا أهدَوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي، وعمرو بن العاص بن وائل السهمي، وأمروهما أمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته، قبل أن تكلموا النجاشي فيهم، ثم قدموا للنجاشي هداياه، ثم سلوه أن يُسْلِمَهم إليكم قبل أن يكلمهم، قالت: فخرجا فقدما على النجاشي، ونحن عنده بخير دار وخير جار. فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته، قبل أن يكلما النجاشي، ثم قالا لكل بطريق منهم: إنه صَبَا[٧] إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارَقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدَع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بَعَثَنا إلى الملك فيهم أشرافُ قومهم، لنردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يُسْلِمَهم إلينا، ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عيناً[٨]، وأعلم بما عابوا

---

(١) انظر: الروض الأنف للسهيلي (٣/٢٢٨).
(٢) انظر: الهجرة في القرآن الكريم (ص ٣٠٣).
(٣) انظر: الهجرة في القرآن الكريم (ص ٤٠٤).
(٤) الجلد: القوة والشدة.
(٥) الأدم: جمع أديم وهو الجلد المدبوغ.
(٦) جمع بطريق: وهو الحاذق بالحرب وأمورها بلغة الروم.
(٧) صَبَا: لعل المعنى حَنَّ ومال.
(٨) أعلى بهم عينًا: قال السهيلي: أي أبصر بهم، أي أعينهم وأبصارهم فوق عين غيرهم في أمرهم: الروض الأنف (٢/٩٢).

عليهم، فقالوا لهما: نعم. ثم إنهما قرَّبا هداياهم إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له: أيها الملك إنه قد صَبَا إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بَعَثنا إليك فيهم أشرافُ قومهم من آبائهم وأعمامهم، لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه.

قالت: ولم يكن شيء أبغضَ إلى عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشيُّ كلامهم، فقالت بطارقته حوله: صدقوا أيها الملك، قومُهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما فليردَّاهم إلى بلادهم وقومهم.

قالت: فغضب النجاشيُّ، ثم قال: لا هَيْمُ(١) الله إذًا لا أسلمهم إليهما ولا أُكادُ(٢)، قومًا جاوروني ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، حتى أَدْعُوهم فأسألهم ما يقول هذان في أمرهم؟ فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منها، وأحسنت جوارهم، ماجاوروني(٣).

٢ ـ حوار بين جعفر والنجاشي:

ثم أرسل (النجاشي) إلى أصحاب رسول الله ﷺ، فدعاهم، فلما جاءهم رسولُه اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض، ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول، والله ما علمنا وما أَمَرنا نبيُّنا ﷺ، كائنًا في ذلك ماهو كائن؛ فلما جاءوه، وقد دعا النجاشيُّ أساقفته(٤)، فنشروا مصاحفهم(٥) حوله، سألهم فقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا ديني، ولا دين أحد من هذه الأمم؟

قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب ﷺ فقال له: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنَّا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

(١) والمعنى: لا والله.
(٢) لا أُكادُ: أي: ولا أخشى أن يلحقني فيه كيد. وفي (سيرة ابن هشام): ولا يُكاد قومٌ جاوروني.
(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٩٠، ٢٩١ ورقمه ٢٢٤٩٨) إسناده صحيح أوْ حَسن.
(٤) أساقفته: جمع الأسقف وهو العالم والرئيس من علماء النصارى.
(٥) أي أناجيلهم وكانوا يسمونها مصاحف.

قالت: فعدد عليه أمور الإسلام، فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به. فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حَرَّم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومُنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليَرُدُّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا، وشقُّوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك.

قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه عليَّ؟

فقرأ عليه صدرًا من ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريَم: الآية ١]، قالت: فبكى والله النجاشي، حتى أَخْضَلَ[١] لحيته، وبكت أساقفته، حتى أَخضَلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم.

ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى، ليخرج من مشكاة واحدة، انطَلِقا فوالله لا أُسلِمُهم إليكم أبدًا ولا أُكادُ.

٣ ـ محاولة أخرى للدس بين المهاجرين والنجاشي:

قالت أم سلمة: فلما خرجا (عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة) من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لأنبئنَّه غدًا عيبهم عنده، ثم أستأصل به خضراءهم[٢]، قالت: فقال له عبد الله بن أبي ربيعة ـ وكان أتقى الرجلين فينا ـ لا تفعل، فإن لهم أرحامًا، وإن كانوا قد خالفونا.

قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبدٌ، قالت: ثم غدا عليه الغدَ، فقال له: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيمًا، فأرسل إليهم فاسألهم عما يقولون فيه، قالت: فأرسل إليهم يسألهم عنه، قالت: ولم ينزل بنا مثلها، فاجتمع القوم، فقال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول، والله فيه، ماقال الله، وماجاء به نبينا كائنًا في ذلك ماهو كائن، فلما دخلوا عليه، قال لهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟

فقال له جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاء به نبينا: هو عبد الله ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء[٣] البَتُول[٤].

قالت: فضرب النجاشي يده إلى الأرض، فأخذ منها عودًا، ثم قال: ما عدا عيسى ابن

---

(١) ابتلت بالدموع: يقال خضل وأخضل إذا ندى، النهاية (٣/٤٣).

(٢) أستأصل به خضراءهم: أي أقضي به على دهائهم وسوادهم؛ الهجرة في القرآن الكريم (ص ٣٠٧).

(٣) العذراء: الجارية التي لم يمسها رجل وهي البكر.

(٤) يقال امرأة بتول: منقطعة عن الرجال لاشهوة لها فيهم.

مريم ما قلت ـ هذا العود، فتناخرت[١] بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم سُيُوم بأرضي (والسُيوم الآمنون) من سبكم غُرِّم، ثم من سبكم غُرِّم، فما أُحبُّ أن لي دَبرًا ذهبًا، وإني آذيت رجلاً منكم ـ والدبر بلسان الحبشة الجبل ـ ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لنا بها، فوالله ما أخذ الله مني الرَّشوة حين رد عليَّ مُلكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فِيَّ فأطيعهم فيه. قالت: فخرجا من عنده مقبوحين مردودًا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار[٢].

٤ ـ إسلام النجاشي:

وقد أسلم النجاشي، وصدق بنبوة النبي ﷺ، وإن كان قد أخفى إيمانه عن قومه، لما علمه فيهم من الثبات على الباطل، وحرصهم على الضلال، وجمودهم على العقائد المنحرفة، وإن صادمت العقل والنقل[٣]، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلى، فصف بهم، وكبر عليه أربع تكبيرات»[٤]، وعن جابر رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ حين مات النجاشي: «مات اليوم رجل صالح فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة»[٥] رضي الله عنه وأرضاه، وكانت وفاته ـ رحمه الله ـ سنة تسع عند الأكثر وقيل: سنة ثمان قبل فتح مكة[٦].

● دروس وعبر وفوائد:

١ ـ إن ثبات المؤمنين على عقيدتهم، بعد أن يُنْزِلَ بهم الأشرار والضالون أنواع العذاب والاضطهاد، دليل على صدق إيمانهم، وإخلاصهم في معتقداتهم، وسمو نفوسهم وأرواحهم، بحيث يرون ماهم عليه من راحة الضمير، واطمئنان النفس والعقل، وما يأملونه من رضا الله جل شأنه، أعظم بكثير مما ينال أجسادهم من تعذيب وحرمان واضطهاد، لأن السيطرة في المؤمنين الصادقين، والدعاة المخلصين، تكون دائمًا وأبدًا لأرواحهم، لا لأجسادهم، وهم يسرعون إلى تلبية مطالب أرواحهم، من حيث لا يبالون بما تتطلبه أجسامهم من راحة وشبع ولذة، بهذا تنتصر الدعوات، وبهذا تتحرّر الجماهير من الظلمات والجهالات[٧].

---

(١) فتناخرت: أي تكلمت، وكأنه كلام مع غضب ونفور.

(٢) مسند الإمام أحمد (١/ ٢٠٢، ٢٠٣) ورجاله رجال الصحيح، وحسَّن إسناده محققًا طبعة مؤسسة الرسالة، ورقمه (١٧٤٠).

(٣) انظر: الهجرة في القرآن الكريم (ص ٣٠٩).

(٤) البخاري، كتاب الجنائز، باب التكبير على الجنازة [٥/ ٦٤ ورقمه (١٣٣٣)].

(٥) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب موت النجاشي، حديث رقم (٣٨٧٧).

(٦) أسد الغابة (١/ ٩٩)، الإصابة (١/ ١٠٩).

(٧) السيرة النبوية للدكتور مصطفى السباعي (ص ٥٧).

٢ - مما يتبادر إِلى الذهن من هذه الهجرة العظيمة، هو شفقة هذا الرسول الكريم ﷺ على أصحابه، ورحمته بهم، وحرصه الشديد للبحث عما فيه أمنهم وراحتهم، ولذلك أشار عليهم بالذهاب إِلى الملك العادل، الذي لا يظلم أحد عنده، فكان الأمر كما قال، صلوات الله وسلامه عليه، فأمنوا في دينهم، ونزلوا عنده في خير منزل(١)، فالرسول ﷺ هو الذي وجَّه الأنظار إِلى الحبشة، وهو الذي اختار المكان الآمن لجماعته ودعوته؛ كي يحميها من الإِبادة، وهذه تربية نبوية لقيادات المسلمين، في كل عصر، أن تخطط بحكمة، وبعد نظر لحماية الدعوة والدعاة، وتبحث عن الأرض الآمنة التي تكون عاصمة احتياطية للدعوة، ومركزًا من مراكز انطلاقها، فيما لو تعرض المركز الرئيسي للخطر، أو وقع احتمال اجتياحه، فجنود الدعوة هم الثروة الحقيقية، وهم الذين تنصب الجهود كلها لحفظهم وحمايتهم، دون أن يتم أي تفريط بأرواحهم وأمنهم، ومسلم واحد يعادل ما على الأرض من بشر خارجين عن دين الله وتوحيده(٢).

٣ - كانت الأهداف من هجرة الحبشة متعددة، ولذلك حرص النبي ﷺ على اختيار نوعيات معينة، لتحقيق هذه الأهداف، كشرح قضية الإِسلام، وموقف قريش منه، وإِقناع الرأي العام بعدالة قضية المسلمين، على نحو ما تفعله الدول الحديثة من تحرك سياسي، يشرح قضاياها، وكسب الرأي العام إِلى جوارها(٣)، وفتح أرض جديدة للدعوة، فلذلك هاجر سادات الصحابة في بداية الأمر، ثم لحق بهم أكثر الصحب، وأوكل الأمر إِلى جعفر رضي الله عنه(٤).

٤ - إِن وجود ابن عم رسول الله ﷺ جعفر، وصهره عثمان، وابنته رقية رضي الله عنهم جميعًا في مقدمة المهاجرين، له دلالة عميقة، تشير إِلى أن الأخطار لا بد أن يتجشمها المقربون إِلى القائد، وأهله، ورحمه، أما أن يكون خواص القائد في منأى عن الخطر، ويُدْفَع إِليه الأبعدون غير ذوي المكانة، فهو منهج بعيد عن نهج النبي ﷺ(٥).

٥ - مشروعية الخروج عن الوطن، وإِن كان الوطن مكة، على فضلها، إِذ كان الخروج فرارًا بالدين، وإِن لم يكن إِلى إِسلام، فإِن الحبشة كانوا نصارى، يعبدون المسيح، ولا يقولون: هو عبد الله، وقد تبين ذلك في هذا الحديث ـ يعني حديث أم سلمة المتقدم ـ وسموا بهذه مهاجرين، وهم أصحاب الهجرتين الذين أثنى عليهم بالسبق فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾

(١) انظر: الهجرة في القرآن الكريم (ص ٣١٢).
(٢) انظر: التربية القيادية للغضبان (١/ ٣٣٣).
(٣) أضواء على الهجرة، توفيق محمد سبع (ص ٤٢٧).
(٤) انظر: التربية القيادية (١/ ٣٣٣).
(٥) المصدر نفسه (١/ ٣٣٣).

[التّوبَة: الآية ١٠٠] ، وجاء في التفسير: إنهم هم الذين شهدوا بيعة الرضوان[١]، فانظر كيف أثنى الله عليهم بهذه الهجرة، وهم قد خرجوا من بيت الله الحرام، إلى دار الكفر، لما كان فعلهم ذلك احتياطًا على دينهم، ورجاء أن يخلى بينهم وبين عبادة ربهم، يذكرونه آمنين مطمئنين، وهذا حكم مستمر متى غلب المنكر في بلد، وأوذي على الحق مؤمن، ورأى الباطل قاهرًا للحق، ورجا أن يكون في بلد آخر ـ أي بلد كان ـ خلي بينه وبين دينه، ويظهر فيه عبادة ربه، فإن الخروج على هذا الوجه حق على المؤمن، هذه الهجرة التي لا تنقطع إلى القيامة، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٢] [البَقَرَة: الآية ١١٥] .

٦ ـ يجوز للمسلمين أن يدخلوا في حماية غير المسلمين، إذا دعت الحاجة إلى ذلك، سواء كان المجير من أهل الكتاب، كالنجاشي إذ كان نصرانيًا عندئذٍ، ولكنه أسلم بعد ذلك، أوكان مشركًا كأولئك الذين عاد المسلمون إلى مكة في حمايتهم عندما رجعوا من الحبشة، وكأبي طالب عم رسول الله ﷺ، وكالمطعم بن عدي الذي دخل الرسول ﷺ مكة في حمايته عندما رجع من الطائف[٣].

وهذا مشروط ـ بحكم البداهة ـ بأن لا تستلزم مثل هذه الحماية إضرارًا بالدعوة الإسلامية، أو تغييرا لبعض أحكام الدين، أو سكوتًا على اقتراف بعض المحرمات، وإلا لم يجز للمسلم الدخول فيها؛ ودليل ذلك ما كان من موقفه حينما طلب منه أبو طالب أن يبقي على نفسه، ولا يحمله ما لا يطيق فلا يتحدث عن آلهة المشركين بسوء، فقد وطن نفسه إذ ذاك على الخروج من حماية عمه، وأبى أن يسكت عن شيء مما يجب عليه بيانه وإيضاحه[٤].

٧ ـ إن اختيار الرسول ﷺ الهجرة إلى الحبشة، يشير إلى نقطة استراتيجية هامة، تمثلت في معرفة الرسول ﷺ بما حوله من الدول والممالك، فكان يعلم طيبها من خبيثها، وعادلها من ظالمها، الأمر الذي ساعد على اختيار دار آمنة لهجرة أصحابه، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه حال قائد الدعوة، الذي لابد أن يكون ملمًا بما يجري حوله، مطلعًا على أحوال وأوضاع الأمم والحكومات[٥].

٨ ـ يظهر الحس الأمني عند الرعيل الأول، في هجرتهم الأولى، وكيفية الخروج، فيتمثل في كونه تم تسللاً وخفية، حتى لا تفطن له قريش فتحبطه، كما أنه تم على نطاق ضيق، لم

---

(١) تفسير الطبري (٦/١١)، تفسير ابن كثير (٢/ ٣٣١).

(٢) الروض الأنف للسهيلي (٢/ ٩٢)، الهجرة في القرآن الكريم (ص ٣١٢).

(٣) الهجرة في القرآن الكريم (ص ١٣١٦).

(٤) فقه السيرة للبوطي (ص ٢٦)، الهجرة في القرآن الكريم (ص ٣١٧).

(٥) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية (ص ١٠١).

يزد على ستة عشر فردًا، فهذا العدد لا يلفت النظر في حالة تسللهم، فردًا أو فردين، وفي الوقت ذاته يساعد على السير بسرعة، وهذا ما يتطلبه الموقف؛ فالركب يتوقع المطاردة، والملاحقة في أي لحظة، ولعل السرية المضروبة على هذه الهجرة، فوتت على قريش العلم بها، في حينها، فلم تعلم بها إلا مؤخرًا، فقامت في إثرهم لتلحق بهم، لكنها أخفقت في ذلك، فعندما وصلت البحر لم تجد أحدًا، وهذا مما يؤكد على أن الحذر هو مما يجب أن يلتزمه المؤمن، في تحركاته الدعوية، فلا تكون التحركات كلها مكشوفة، ومعلومة للعدو، بحيث يترتب عليها الإضرار به وبالدعوة(١).

٩ - لم ترض قريش بخروج المسلمين إلى الحبشة، وشعرت بالخطر الذي يهدد مصالحها في المستقبل، فربما تكبر الجالية هناك، وتصبح قوة خطرة، ولذلك جد المشركون وشرعوا في الأخذ بالأسباب لإعادة المهاجرين، وبدأت قريش تلاحق المهاجرين؛ لكي تنزع هذا الموقع الجديد منهم، في تخطيط محكم ذكي؛ فالهدايا إلى النجاشي، والهدايا إلى بطارقته، ووضعت الخطة داخل مكة، وكيف توزع الهدايا، وما نوعية الكلام الذي يرافق الهدايا، وصفات السفراء، فعمرو من أصدقاء النجاشي ومعروف بالدهاء.. وما أحوجنا إلى ألا نستصغر عدونا، وألا ننام عن مخططاته، وأن نعطيه حجمه الحقيقي، وندرس تحركاته، لنستعد لمواجهة مخططاته الماكرة(٢).

١٠ - نفذت خطة قريش بحذافيرها كاملة، ولكنها فشلت، لأن شخصية النجاشي - التي تم جوارها - رفضت أن تسلم المسلمين قبل السماع منهم؛ وبذلك أتاحت الفرصة للمسلمين إلى أن يعرضوا قضيتهم العادلة ودينهم القويم.

١١ - اجتمع الصحابة حين جاءهم رسول النجاشي، وطلب منهم الحضور، وتدارسوا الموقف، وهكذا كان أمر المسلمين شورى بينهم، وكل أمر يتم عن طريق الشورى هو أدعى إلى نجاحه، لأنه يضم خلاصة عقول كثيرة، وتبدو مظاهر السمو التربوي في كون الصحابة لم يختلفوا، بل أجمعوا على رأي واحد، ألا وهو أن يعرض الإسلام كما جاء به رسول الله ﷺ، كائنًا في ذلك ما هو كائن، وعزموا على عرض الإسلام بعزة، وإن كان في ذلك هلاكهم(٣).

١٢ - كان وعي القيادة النبوية على مستوى الأحداث، ولذلك وضع جعفر بن أبي طالب على إمارة المسلمين في الهجرة، وتم اختياره من قبل المسلمين المهاجرين ليتحدث باسمهم بين يدي الملك، وليتمكن من مواجهة داهية العرب عمرو بن العاص، وقد امتازت شخصية

(١) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية (ص ١٠١).

(٢) انظر: التربية القيادية (١/ ٣١٧).

(٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٢/ ٩٢).

جعفر بعدة أمور، جعلتها تتقدم لسد هذه الثغرة العظيمة منها:

* جعفر بن أبي طالب من ألصق الناس برسول الله ﷺ، فقد عاش معه في بيت واحد، فهو أخبر الناس بقائد الدعوة، وسيد الأمة من بين كل المهاجرين إلى الحبشة.

* وهذا الموقف بين يدي النجاشي يحتاج إلى بلاغة وفصاحة، وبنو هاشم قمة قريش نسبًا وفضلاً، وجعفر في الذؤابة من بني هاشم، والله تعالى قد اختار هاشمًا من كنانة، واختار نبيه من بني هاشم؛ فهم أفصح الناس لسانًا وأوسطهم نسبًا.

* وهو ابن عم رسول الله ﷺ، وهذا يجعل النجاشي أكثر اطمئنانًا، وثقة بما يعرض عن ابن عمه(١).

* خلق جعفر المقتبس من مشكاة النبوة، وجمال خلقه المنحدر من أصلاب بني هاشم، فقد قال رسول الله ﷺ لجعفر: «أشبهت خلقي وخلقي»(٢)، فالسفير بين يدي النجاشي، كان قدوة لسفراء المسلمين على مر الزمان، وكر العصور، فقد اتصف بسمات السفراء المسلمين، كالإسلام والانتماء إليه، الفصاحة، العلم، حسن الخلق، الصبر، الشجاعة، الحكمة، سعة الحيلة، المظهر الجذاب(٣).

١٣ - كان عمرو بن العاص رضي الله عنه، وهو يمثل في تلك المرحلة عداوة الله ورسوله ﷺ، على مستوى كبير من الذكاء، والدهاء، والمكر، وكان قبل دخول جعفر وحديثه قد شحن كل ما لديه من حجة، وألقى بها بين يدي النجاشي من خلال النقاط الآتية:

* تحدث عن بلبلة جو مكة، وفساد ذات بينها من خلال دعوة محمد ﷺ، وهو سفير مكة، وممثلها بين يدي النجاشي، فكلامه مصدق لا يعتريه الشك، وهو عند النجاشي موضع ثقة.

* تحدث عن خطورة أتْبَاع محمد ﷺ، وربما سيزلزلون الأرض تحت قدمي النجاشي، كما أفسدوا جو مكة، ولولا حب قريش للنجاشي وصداقتها معه، ما تعنوا هذا العناء لنصحه، «وأنت لنا عَيْبَة صدق، تأتي إلى عشيرتنا بالمعروف، ويأمن تاجرنا عندك» فلا أقل من رد المعروف بمثله، ولا أقل من وفاء حسن الجوار والعلاقة بين مكة والحبشة من تحذيره من هذه الفتنة المخيفة.

* وأخطر مافي أمرهم، هو خروجهم على عقيدة النجاشي، وكفرهم بها «فهم لا يشهدون أن عيسى ابن مريم إله، فليسوا على دين قومهم، وليسوا على دينك» فهم مبتدعة دعاة فتنة.

* ودليل استصغارهم لشأن الملك، واستخفافهم به، أن كل الناس يسجدون للملك، لكنهم لا يفعلون ذلك، فكيف يتم إيواؤهم عندك، وهو عودة إلى إثارة الرعب في نفسه، من عدم

(١) انظر: التربية القيادية (١/ ٣٣٥).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٣٣٦).

(٣) انظر: سفراء النبي ﷺ، لمحمود شيت خطاب (٢/ ٢٥٢- ٣١٧).

احترام الدعاة له، حتى يستخفون بملكه، ولا يسجدون له، فكان على جعفر أن يفند كل الاتهامات الباطلة، التي ألصقها سفير قريش بالمهاجرين(١).

١٤ ـ كان رد جعفر على أسئلة النجاشي في غاية الذكاء، وقمة المهارة السياسية، والإعلامية، والدعوية، والعقدية؛ فقام بالتالي:

* عدَّد عيوب الجاهلية، وعرضها بصورة تنفر السامع، وقصد بذلك تشويه صورة قريش في عين الملك، وركز على الصفات الذميمة، التي لا تنتزع إلا بنبوة.

*عرض شخصية الرسول ﷺ، في هذا المجتمع الآسن المملوءة بالرذائل، وكيف كان بعيدًا عن النقائص كلها، ومعروفًا بنسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فهو المؤهل للرسالة.

* أبرز جعفر محاسن الإسلام، وأخلاقه، التي تتفق مع أخلاقيات دعوات الأنبياء كنبذ عبادة الأوثان وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة؛ وكون النجاشي وبطارقته موغلين في النصرانية، فهم يدركون أن هذه رسالات الأنبياء، التي بعثوا بها من لدن موسى، وعيسى عليهما الصلاة والسلام.

* فضح مافعلته قريش بهم؛ لأنهم رفضوا عبادة الأوثان، وآمنوا بما نزل على محمد ﷺ، وتخلقوا بخلقه.

* أحسن الثناء على النجاشي بما هو أهله، بأنه لا يظلم عنده أحد، وأنه يقيم العدل في قومه.

* وأوضح أنهم اختاروه كهفاً من دون الناس، فرارًا من ظلم هؤلاء الذين يريدون تعذيبهم.
وبهذه الخطوات البينة الواضحة، دحر بها بلاغة عمرو وفصاحته، واستأثر بلب النجاشي وعقله، وكذلك استأثر بلب وعقل البطارقة، والقسيسين الحاضرين.

* وعندما طلب الملك النجاشي شيئًا مما نزل على محمد ﷺ، جاء صدر سورة مريم في غاية الإحكام والروعة والتأثير، حتى بكى النجاشي وأساقفته، وبللوا لحاهم ومصاحفهم من الدموع، واختيار جعفر لسورة مريم، يظهر بوضوح حكمة وذكاء مندوب المهاجرين، فسورة مريم تتحدث عن مريم وعيسى عليه السلام(٢).

* إن عبقرية جعفر رضي الله عنه في حسن اختيار الموضوع، والزمن المناسب، والقلب المتفتح، والشحنة العاطفية، أدت إلى أن يربح الملك إلى جانبه(٣).

* كان رده في قضية عيسى عليه السلام، دليلاً على الحكمة والذكاء النادر، فرد بأنهم لا يألهون

---

(١) انظر: التربية القيادية (١/ ٣١٩، ٣٤٠).

(٢) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية (ص ١٠٦).

(٣) انظر: التربية القيادية (١/ ٣٣٧).

عيسى ابن مريم، ولكنهم كذلك لا يخوضون في عرض مريم ـ عليها السلام ـ كما يخوض الكاذبون ـ بل عيسى ابن مريم كلمة الله وروحه ألقاها إلى مريم البتول العذراء، الطاهرة، وليس عند النجاشي زيادة عما قال جعفر، ولا مقدار هذا العود[(١)].

* هم لا يسجدون للنجاشي، فهم معاذ الله أن يعدلوه بالله، ولا ينبغي السجود إلا لله، لكنهم لايستخفون بالملك، بل يوقرونه، ويسلمون عليه، كما يسلمون على نبيهم، ويحيونه بما يُحيي أهل الجنة أنفسهم به في الجنة[(١)].

* انتهى الأمر بأن أعلن النجاشي صدق القوم، وأيقن بأن هؤلاء صديقون، وعزم على أن يكون في خدمة رسول الله ﷺ، الذي يأتيه الناموس كناموس موسى، وأن يتقرب إلى الله بحماية أصحابه، وأكد لعمرو أنه لا يضيره تجارة قريش، ولا مال قريش، ولاجاهها، ولو قطعت علاقتها معه[(١)].

١٥ ـ وبذلك انهزمت قريش في هذه الجبهة سياسيًا ومعنويًا وإعلاميًا، أمام مقاومة المسلمين الموفقة وخطواتهم، وأساليبهم الرصينة.

١٦ ـ كان موقف جعفر وإخوانه مثالاً تطبيقياً لقول رسول الله ﷺ: «من التمس رضا الله بسخط الناس، كفاه الله مُؤْنَة الناس، ومن التمس رضا الناس بِسَخَط الله، وَكَلَه الله إلى الناس»[(٢)] فهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم، قد التمسوا رضا الله عز وجل، مع أن الظاهر في الأمر أنه يترتب عليه في هذه القضية سخط أولئك النصارى، وهم الذين لهم الهيمنة عليهم، فكانت النتيجة أن الله عز وجل سخر لهم قلب ملك الحبشة، حتى نطق بالحق الموافق لدعوة النبي ﷺ، مع مخالفته الصريحة لمعتقدهم المنحرف، الذي قام عليه مُلْكُهم، وما يغلب على الظن من ثورة النصارى المتعصبين عليه[(٣)].

١٧ ـ كان عند بعض النصارى إيمان صحيح بدينهم، ولكنهم يكتمون ذلك، لكون الغلبة والسيادة في الأرض لأصحاب الدين المحرف، ومن الذين كانوا على الاعتقاد الصحيح ملك الحبشة وكان يخفي إيمانه، إرضاءً لربه وإراحة لضميره، وانتصاراً لحزب الله المؤمنين، مهما ترتب على ذلك من نتائج؛ فكان بهذا الموقف من عظماء التاريخ[(٤)].

١٨ ـ ومن دروس هجرة الحبشة، أن الجهل ببعض أحكام الإسلام لمصلحة راجحة لا يضر، قال ابن تيمية رحمه الله وهو يقرر العذر بالجهل: «ولما زيد في صلاة الحضر حين هاجر ﷺ إلى المدينة كان مَنْ بعيدًا عنه مثل من كان بمكة، وبأرض الحبشة يصلون ركعتين، ولم

---

(١) المصدر السابق (١/ ٣٤٢).

(٢) سنن الترمذي، كتاب الزهد، تحفة الأحوذي (٧/ ٩٧) ورقمه (٢٤١٤) وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٢/ ١٠٥).

(٤) المصدر نفسه (٢/ ١٠٦)

يأمرهم النبي ﷺ بإعادة الصلاة»[١].

وقال الذهبي: «فلا يأثم أحد إلا بعد العلم، وبعد قيام الحجة.. وقد كان سادة الصحابة بالحبشة، ينزل الواجب والتحريم على النبي ﷺ، فلا يبلغهم إلا بعد أشهر، فهم في تلك الأمور معذورون بالجهل، حتى يبلغهم النص..»[٢].

١٩ - ومن دروس هجرة الحبشة؛ تفاضل الجهاد حسب الحاجة، فإذا كانت الهجرة للمدينة جهادًا، ميز الله أصحابها، وخصهم بالذكر والفضيلة، فقد نال هذا الفضل أصحاب هجرة الحبشة، وإن تأخر لحوقهم بالنبي ﷺ، حتى فتح خيبر، وذلك للحاجة لبقائهم في الحبشة، وهذا ما أكده النبي ﷺ لأصحاب السفينتين[٣]. عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: ودخلت أسماء بنت عميس - وهي ممن قدم معنا - على حفصة زوج النبي ﷺ زائرة، وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر، فدخل عمر على حفصة، وأسماء عندها، فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس، قال عمر: الحبشيةُ هذه، البحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم، قال: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم، فغضبت، وقالت: كلا والله كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنا في دار - أو في أرض - البُعَداء البُغَضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسوله ﷺ، وايْمُ الله لا أطعم طعامًا، ولا أشرب شرابًا، حتى أذكر ما قلتَ لرسول الله ﷺ، ونحن كنا نُؤذَى ونُخاف، وسأذكر ذلك للنبي ﷺ وأسأله، والله لا أكذب، ولا أزيغ، ولا أزيد عليه. فلما جاء النبي ﷺ قالت: يا نبي الله إن عمر قال كذا وكذا، قال: «فما قلت له»؟ قالت: قلت له: كذا وكذا، قال: «ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان»، قالت: فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتون أرسالا، يسألوني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم به أفرحُ ولا أعظمُ في أنفسهم مما قال لهم النبي ﷺ[٤].

٢٠ - كانت بداية إسلام عمرو بن العاص رضي الله عنه، بأرض الحبشة، وهذا بلا شك أثر من آثار الهجرة للحبشة، وبرهان على ما حققه المهاجرون من مكاسب للدعوة، من خلال مكوثهم بأرض الحبشة، وإن كانت كثير من المرويات تتجه إلى أن بداية إسلام عمرو بن العاص، كانت على يد النجاشي، وهو المشهور كما يقول ابن حجر[٥]، وهي لطيفة لا مثل لها، إذ

(١) الفتاوى (٢٢/٤٣).
(٢) الكبائر (ص ١٢).
(٣) انظر: الهجرة الأولى في الإسلام (ص ٢٠٥).
(٤) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٥/٨) ورقمه (٤٢٣٠، ٤٢٣١).
(٥) انظر: الهجرة الأولى في الإسلام (ص ١٦٧).

أسلم صحابي على يد تابعي، كما يقول الزرقاني[١]، وهناك ما يفيد إسلام عمرو على يد جعفر رضي الله عنه.

٢١ - يرتبط زواج الرسول ﷺ بأم حبيبة، بهجرة الحبشة ارتباطًا وثيقًا، ويحمل هذا الزواج منه ﷺ، لإحدى المهاجرات الثابتات، معنى كبيرًا، وكان عقد الزواج على أم حبيبة رضي الله عنها، وهي في أرض الحبشة، وجاء تأكيده في كتب السنة، فقد روى أبو داود في سننه بسند صحيح، «عن أم حبيبة رضي الله عنها، أنها كانت تحت عبيد الله بن جحش، فمات بأرض الحبشة، فزوجها النجاشيُّ النبيَّ ﷺ، وأمهرها عنه أربعة آلاف، وبعث بها إلى رسول الله ﷺ مع شُرحبيل ابن حسنة»[٢].

ويستنتج الباحث من دلالات هذا الحديث المهم، متابعة الرسول ﷺ لأحوال المهاجرين، ومشاركتهم في مصابهم، وتطييبَ أنفس الصابرين، وتقديرَ ثبات الثابتين، وبالتتبع لأحوال المهاجرات الثابتات، معنى كبيرًا، [فلم تكن] (أم حبيبة) رضي الله عنها هي الوحيدة التي يعنى الرسول الكريم ﷺ بأمرها، ويواسيها في مصابها، بل سبق ذلك صنيعه مع (سودة) رضي الله عنها[٣]، فلما رجعت مع زوجها إلى مكة من الحبشة توفي زوجها السكران بن عمرو، فلما حلت، أرسل إليها ﷺ وخطبها، فقالت: أمري إليك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «مري رجلاً من قومك يزوجك» فأمرت حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود، فزوجها، فكانت أول أمرأة تزوجها رسول الله ﷺ بعد خديجة[٤].

وهذان الحدثان مؤشران من مؤشرات حكمة تعدده ﷺ في الزواج بشكل عام، ولهما دلالتهما وحكمتهما بالاهتمام بالنساء المجاهدات، بشكل خاص، هذا فضلاً عما يمكن أن يقال، أن الرسول ﷺ كان يهدف أيضًا من وراء الزواج بأم حبيبة تخفيف عداوة (بني أمية) بشكل عام، وتخفيف عداوة زعيمهم أبي سفيان (والدها) بشكل أخص، للإسلام ونبيه والمسلمين[٥].

فالتأليف للإسلام وارد في السيرة، والرسول ﷺ كان حريصًا على قومه بكل وسيلة، لا تتنافى مع قيم الإسلام[٦].

٢٢ - يرى بعض الباحثين أن النبي ﷺ لم يكن يحب أن يهاجر إلى الحبشة، لأسباب كثيرة؛ منها:

---

(١) انظر: شرح المواهب (١/ ٢٧١).

(٢) صحيح سنن أبي داود للألباني (٢/ ٣٩٦) ورقمه (٢١٠٧).

(٣) انظر: الهجرة الأولى في الإسلام (ص ١٨٨).

(٤) الطبقات (٨/ ٣).

(٥) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، د. مهدي رزق الله (ص ٧٠٦، ٧٠٧).

(٦) انظر: الهجرة الأولى (ص ٨٨).

- أنه ثبت ـ كما سيجيء ـ رؤية النبي ﷺ دار الهجرة أرضًا ذات نخل، بين حَرَّتين وأنه ظنها هَجَر[١].
- طبيعة الوضع الجغرافي للحبشة، الذي يعوق انتشار الدعوة وبسط سلطانها على العالم.
- أن اختيار الجزيرة العربية ـ ومكة بالذات، ثم المدينة ـ لنزول الوحي، وانطلاق الدين لم يكن اتفاقيًا، بل كان لمميزات كثيرة[٢].
- أن هذه البيئة الحبشية لم تكن لتسمح لهذا الدين اللاجىء أن ينمو إلى جوار المسيحية، ولم تكن الرومان ـ وهي المهيمنة على المسيحية في العالم ـ لتسمح للحبشة بذلك[٣].

٢٣ ـ كان للهجرة إلى الحبشة، أثر في الحط من مكانة القرشيين عند سائر العرب، وإدانة موقفهم من الدعوة وحملتها، إذ كانت البيئة العربية تفتخر بإيواء الغريب، وإكرام الجار، وتتنافس في ذلك، وتحاذر السبة والعار في خلافه، فها هم الأحباش يسبقون قريشًا، ويؤوون من طردتهم، وأساءت إليهم من أشراف الناس، ومن ضعفائهم، ومن غربائهم[٤].

المبحث الثالث

عام الحزن ومحنة الطائف

أولاً: عام الحزن:

١ ـ وفاة أبي طالب:

كانت وفاة أبي طالب بعد مغادرة بني هاشم شِعبه، وذلك في آخر السنة العاشرة من المبعث[٥]. وقد كان أبو طالب «يحوط النبي ﷺ ويغضب له»[٦] و«ينصره»[٧]، وكانت قريش تحترمه، وعندما حضرته الوفاة، جاء زعماء الشرك وحرضوه على الاستمساك بدينه، وعدم الدخول في الإسلام، قائلين: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ وعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام قائلاً: «قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة»، فقال أبو طالب: لولا تعيرني بها

---

(١) هَجَر: هي الأحساء.
(٢) انظر: الغرباء الأولون (ص ١٦٩، ١٧٠).
(٣) انظر: أضواء على الهجرة (ص ١٥٦ ـ ١٦١)، الهجرة في القرآن الكريم (ص ٣٢٠).
(٤) انظر: الغرباء الأولون (ص ١٧٠، ١٧١).
(٥) فتح الباري (٧/ ١٩٤).
(٦) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/ ١٩٣) ورقمه ٣٨٨٣).
(٧) صحيح مسلم (١/ ١٩٥ ورقمه [٣٥٨ ـ ٢٠٩]).

قريش، يقولون: إنما حمله عليها الجزع، لأقررت بها عينك، فأنزل الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القَصَص: الآية ٥٦] كانت أفكار الجاهلية راسخة في عقل أبي طالب، ولم يتمكن من تغييرها، فهو شيخ كبير يصعب عليه تغيير فكره وما ألفه عن آبائه، وكان أقرانه حاضرين وقت احتضاره، فأثروا عليه خوفًا من شيوع خبر إسلامه، وتأثير ذلك على قومه(١).

٢ ـ وفاة خديجة رضي الله عنها:

أما السيدة خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، فقد توفيت قبل الهجرة إلى المدينة بثلاث سنين(٢) في العام نفسه لوفاة أبي طالب(٣).

وبموت أبي طالب، الذي أعقبه موت خديجة رضي الله تعالى عنها، تضاعف الأسى والحزن على رسول الله ﷺ بفقد هذين الحبيبين، اللذين كانا دعامتين من دعائم سير الدعوة في أزماتها، كان أبو طالب السند الخارجي، الذي يدفع عنه القوم، وكانت خديجة السند الداخلي، الذي يخفف عنه الأزمات والمحن، فتجرأ كفار قريش على رسول الله ﷺ، ونالوا منه ما لم يكونوا يطمعون فيه في حياة أبي طالب(٤)، وابتدأت مرحلة عصيبة في حياة الرسول ﷺ، واجه فيها كثيرًا من المشكلات والمصاعب، والمحن والفتن، حينما أصبح في الساحة وحيدًا لا ناصر له إلا الله سبحانه وتعالى، ومع هذا، فقد مضى في تبليغ رسالة ربه إلى الناس كافة، على مايلقى من الخلاف، والأذى الشديد، الذي أفاضت كتب الحديث وكتب السير، بأسانيدها الصحيحة الثابتة في الحديث عنه، وتحمل ﷺ من ذلك ما تنوء الجبال بحمله، ولما تكالبت الفتن، والمحن على رسول الله ﷺ، في بلده الذي نبت فيه، وبين قومه الذين يعرفون عنه كل صغيرة وكبيرة، عزم ﷺ على أن ينتقل إلى بلد غير بلده، وقوم غير قومه، يعرض عليهم دعوته، ويلتمس منهم نصرتهم، رجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله ﷻ، فخرج إلى الطائف، وهي من أقرب البلاد إلى مكة(٥).

ثانيًا: رحلة الرسول ﷺ إلى الطائف:

كان النبي ﷺ يقتدي بالأنبياء والمرسلين، الذين سبقوه في الدعوة إلى الله، فهذا نوح لبث في قومه داعياً: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العَنكبوت: الآية ١٤]، فكانت هذه الأعوام الطويلة عملاً دائباً، وتنويعاً متكرراً: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ٨٤).
(٢) المصدر نفسه(١/ ١٨٥).
(٣) المصدر السابق (١/ ١٨٥).
(٤) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي (ص ٣٤).
(٥) انظر: المصدر السابق (ص ٣٦ـ ٤٥).

أَلِيمٌ ① قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ② أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ③ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ④ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ⑤ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ⑥ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ⑦ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ⑧ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: الآيات ١ ـ ٩].

ـ ومع امتداد الزمن الطويل، ما توقف عن الدعوة، ولا ضعفت همته في تبليغها، ولا ضعفت بصيرته، وحيلته في تنويع أوقاتها وأساليبها، قال الآلوسي في تفسيره ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي إلى الإيمان والطاعة، أي دائمًا من غير فتور ولا توان، ثم وصف إعراضهم الشديد، وإصرارهم العنيد، ثم علق على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ فقال: أي دعوتهم مرة بعد مرة، وكرة غبَّ كرة، على وجوه مختلفة وأساليب متفاوتة، وهو تعميم لوجوه الدعوة، بعد تعميم الأوقات، وقوله: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ يشعر بمسبوقية الجهر بالسر، وهو الأليق بمن همه الإجابة لأنه أقرب إليها لما فيه من اللطف بالمدعو[١].

فكان النبي ﷺ ينوع ويبتكر في أساليب الدعوة، ودعا سرًّا وجهرًا، وسلمًا وحربًا، وجمعًا وفردًا، وسفرًا وحضرًا، كما أنه ﷺ قص القصص، وضرب الأمثال، واستخدم وسائل الإيضاح، بالخط على الأرض، وغيره، كما رغَّب وبشر، ورهَّب وأنذر، ودعا في كل آن، وعلى كل حال، وبكل أسلوب مؤثر فعال[٢]، فها هو ﷺ ينتقل إلى الطائف، ثم يتردد على القبائل، ثم يهاجر، ويستمر في دعوة الخلق إلى الله تعالى.

كان رسول الله ﷺ يسعى لإيجاد مركز جديد للدعوة، وطلب النصرة من ثقيف، لكنها لم تستجب له، وأغرت به صبيانها فرشقوه بالحجارة، وفي طريق عودته من الطائف التقى بعدَّاس، الذي كان نصرانيًّا فأسلم، وأرخ الواقدي الرحلة في شوال سنة عشر من المبعث، بعد موت أبي طالب وخديجة، وذكر أن مدة إقامته بالطائف كانت عشرة أيام[٣].

١ ـ لماذا اختار الرسول ﷺ الطائف؟

كانت الطائف تمثل العمق الاستراتيجي لملأ قريش، بل كانت لقريش أطماع في الطائف، ولقد حاولت في الماضي أن تضم الطائف إليها، ووثبت على وادي وَجّ، وذلك لما فيه من الشجر والزرع، حتى خافتهم ثقيف، وحالفتهم، وأدخلت معهم بني دوس[٤]، وقد كان كثير

(١) انظر: تفسير الآلوسي (١٠/ ٨٩).

(٢) انظر: مقومات الدعوة والداعية، بادحدح (ص ١٢٣).

(٣) طبقات ابن سعد (١/ ٢٢١) نقلاً عن السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٨٥).

(٤) انظر: فتح الباري، كتاب الكفالة (٤/ ٣٧٣ شرح ـ ح ـ رقم ٢٢٩٤).

من أغنياء مكة يملكون الأملاك في الطائف، ويقضون فيها فصل الصيف، وكانت قبيلة بني هاشم، وعبد شمس على اتصال مستمر مع الطائف، كما كانت تربط مخزوم مصالح مالية مشتركة بثقيف[١]، فإذا اتجه الرسول ﷺ إلى الطائف، فذلك توجه مدروس، وإذا استطاع أن يجد له فيها موضع قدم، وعصبة تناصره، فإن ذلك سيفزع قريشًا، ويهدد أمنها، ومصالحها الاقتصادية تهديدًا مباشرًا، بل قد يؤدي لتطويقها وعزلها عن الخارج. وهذا التحرك الدعوي السياسي الاستراتيجي، الذي يقوم به الرسول ﷺ يدل على حرصه في الأخذ بالأسباب؛ لإيجاد دولة مسلمة أو قوة جديدة، تطرح نفسها داخل حلبة الصراع، لأن الدولة أو إيجاد القوة التي لها وجودها، من الوسائل المهمة في تبليغ دعوة الله إلى الناس.

عندما وصل النبي ﷺ إلى الطائف اتجه مباشرة إلى مركز السلطة وموضع القرار السياسي في الطائف[٢].

٢ ـ أين كان موضع السلطة في الطائف؟

كان بنو مالك، والأحلاف ـ بحكم أسبقيتهم الزمنية للاستيطان ـ هما المسيطرين عليها، وتنتهي إليهما قيادتها، فكانت لهما الرسائل الدينية المتمثلة في رعاية المسجد، بالإضافة إلى الزعامة السياسية العامة، والعلاقة الخارجية، والنفوذ الاقتصادي، إلا أنهما مع ذلك لم يكونا في وضع يمكنهما من الدفاع عن منطقة الطائف، التي كانت من أخصب بلاد العرب، وأكثرها جذبًا للأنظار والأطماع، فكانا يخافان قبيلة هوازن، ويخافان قريشًا ويخافان بني عامر، وكلها قبائل قوية، وقادرة على الانقضاض والاستلاب، ولذلك فقد اعتمد زعماء الطائف على سياسة المهادنة، وحفظ الاستقرار السياسي عن طريق المعاهدات والموازنات، وهي الطريقة عينها التي كانت تسير عليها قريش، فصار بنو مالك يوثقون علاقاتهم مع هوازن، ليأمنوا شرها، وصار الأحلاف يرتبطون بقريش لتأمين جانبها[٣].

هذا ولم يكن الرسول ﷺ غافلاً عن هذه الشبكة من العلاقات والمعاهدات، وهو يتجه إلى الطائف، بل كان يعرف أن الطائف لم تكن توجد بها سلطة مركزية واحدة، وإنما يقتسم السلطة فيها بطنان من بطون العرب، بموجب اتفاقية داخلية، وأن أيًّا منهما كان يدور في فلك قبيلة خارجية أقوى، فإذا استطاع أن يستميل إليه أيًّا منهما فسوف يكون لذلك أثر كبير في ميزان القوى السياسية، هذا على وجه العموم، أما إذا استطاع، على وجه الخصوص، أن يستميل إليه الأحلاف، وهو المعسكر المتحالف مع قريش، فإن خطته تكون قد بلغت تمامها، وهو أمر غير مستحيل، فهو يعلم أن موادة هذا المعسكر لقريش لا تقوم على القناعة

(١) انظر: أصول الفكر السياسي (ص ١٧٣).

(٢) انظر: أصول الفكر السياسي في القرآن المكي (ص ١٧٤).

(٣) المصدر السابق نفسه (ص ١٧٤).

المذهبية، أو الولاء الديني، بقدر ماتقوم على أساس التخوف من قريش. وعلى هذا التقدير للوضع السياسي اتجه الرسول ﷺ مباشرة ـ حينما دخل الطائف ـ إلى بني عمرو بن عمير، الذين يترأسون الأحلاف، ويرتبطون بقريش، ولم يذهب إلى بني مالك الذين يتحالفون مع هوازن[(١)]، قال ابن هشام في السيرة: (لما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف، عمد إلى نفر من ثقيف، هم يومئذٍ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم أخوة ثلاثة، عبد ياليل بن عمرو، ومسعود بن عمرو، حبيب بن عمرو، وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جُمح[(٢)]، غير أن بني عمرو كانوا شديدي الحذر، وكثيري التخوف، فلم يستجيبوا لدعوة الرسول ﷺ، بل بالغوا في السفه، وسوء الأدب معه، فقام رسول الله ﷺ من عندهم، وقد يئس من خير ثقيف، وقال لهم: «إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني»[(٣)] وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه فيؤزرهم ذلك عليه، فقد كان رسول الله ﷺ يود أن تتم اتصالاته تلك في جو من السرية، وألا تنكشف تحركاته لقريش[(٤)]، فقد كان النبي ﷺ يهتم كثيرًا بجوانب الحيطة والحذر، فقد:

أ ـ كان خروجه من مكة على الأقدام، حتى لا تظن قريش أنه ينوي الخروج من مكة، لأنه لو خرج راكبًا فذلك مما يثير الشبهة والشكوك، وأنه ينوي الخروج والسفر إلى جهة ما، مما قد يعرضه للمنع من الخروج من مكة، دون اعتراض من أحد.

ب ـ واختيار الرسول ﷺ زيدًا يرافقه في رحلته، فيه جوانب أمنية، فزيد هو ابن رسول الله ﷺ بالتبني، فإذا رآه معه أحد، لا يثير ذلك أي نوع من الشك، لقوة الصلة بينهما، كما أنه ﷺ عرف زيدًا عن قرب، فعلم فيه الإخلاص والأمانة والصدق، فهو إذن مأمون الجانب، فلا يفشي سرًّا، ويعتمد عليه في الصيحة، وهذا ما ظهر عندما كان يقي النبيَّ ﷺ الحجارة بنفسه، حتى أصيب بشجاج في رأسه.

ج ـ وعندما كان رد زعماء الطائف ردًا قبيحًا مشوبًا بالاستهزاء والسخرية، تحمله الرسول ﷺ، ولم يغضب أو يَثُر، بل طلب منهم أن يكتموا عنه، فهذا تصرف غاية في الحيطة، فإذا علمت قريش بهذا الاتصال، فإنها لا تسخر منه فحسب، بل ربما شددت عليه في العذاب والاضطهاد، وحاولت رصد تحركاته داخل وخارج مكة[(٥)].

٣ ـ تضرع ودعاء:

كان بنو عمرو لئامًا، فلم يكتموا خبر الرسول ﷺ، بل أغروا به سفهاءهم، وعبيدهم،

---

(١) انظر: أصول الفكر السياسي في القرآن المكي (ص ١٧٥).

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٧٨).

(٣) سيرة ابن هشام (٢/ ٧٨).

(٤) انظر: أصول الفكر السياسي في القرآن المكي.

(٥) في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية (ص ١٠٩، ١١٠).

يسبونه ويرمون عراقيبه بالحجارة، حتى دميت عقباه، وتلطخت نعلاه، وسال دمه الزكي على أرض الطائف، وما زالوا به وبزيد بن حارثة، حتى ألجأوهما إلى حائط ـ بستان ـ لعتبة وشيبة ابني ربيعة، وهما فيه، فكره مكانهما لعداوتهما لله ورسوله، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل شجرة من عنب، فجلس فيه هو وصاحبه زيد، ريثما يستريحا من عنائهما، وما أصابهما، وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف، ولم يحركا ساكنًا، وفي هذه الغمرة من الأسى والحزن، والآلام النفسية والجسمانية توجه الرسول ﷺ إلى ربه بهذا الدعاء، الذي يفيض إيمانًا ويقيناً، ورضا بما ناله في الله، واسترضاء لله.

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي.

أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تُنزل بي غضبك، أو يحل عليَّ سخطك، لك العُتْبَى[1] حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[2].

٤ ـ الرحمة والشفقة النبوية:

كانت رحمته وشفقته العظيمة، هي التي تغلب في المواقف العصيبة، التي تبلغ فيها المعاناة أشد مراحلها، وتضغط بعنف على النفس لتشتد وتقسو، وعلى الصدر ليضيق ويتبرم، ومع ذلك تبقى نفسه الكبيرة، ورحمته العظيمة هي الغالبة[3].

فعن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ، أنها سألت رسول الله ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العَقَبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يَالِيْل بن عبد كُلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب[4]، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل. فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا

---

(١) العُتْبَى: الاسترضاء.

(٢) ذهب الدكتور العمري إلى تضعيف الحديث في كتابه السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٨٦)، وذهب إبراهيم العلي إلى صحته، وبين أن للحديث شاهدًا يقويه، ولذلك اعتبره صحيحًا وذكره في كتابه، صحيح السيرة النبوية (ص ١٣٦)، وذهب الدكتور عبد الرحمٰن عبد الحميد البر مدرس الحديث وعلومه في جامعة الأزهر إلى أن الحديث بطريقيه قوي مقبول، فانظر ما أورده عنه في كتابه، الهجرة النبوية المباركة (ص ٣٨).

(٣) انظر: مقومات الداعية الناجح (ص ٧٦).

(٤) هو قرن المنازل، ميقات أهل نجد، ويسمى الآن السيل الكبير.

عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم علي ثم قال: يا محمد فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أُطبق عليهم الأخشبين».

فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشركُ به شيئًا»(١).

كانت إصابته ﷺ يوم أحد أبلغ من الناحية الجسمية، أما من الناحية النفسية، فإن إصابته يوم الطائف أبلغ وأشد، لأن فيها إرهاقاً كبيرًا لنفسه، ومعاناة فكرية شديدة، جعلته يستغرق في التفكير من الطائف إلى قرن الثعالب(٢).

وإنا لنلمح في هذا الدعاء عمق توحيد النبي ﷺ، ومبلغ تجرده لله جل وعلا، فرضوان الله تعالى إذن هو الهدف الأعلى عند رسول الله ﷺ، وهو المطلب الأعظم الذي تسخر له كل المطالب، وإذا كان البلاء من الله تعالى، من أجل أن يحل رضاه وينجلي سخطه، فحيهلا بالبلاء، وهو ساعتئذٍ نعمة ورخاء.

ثم يختم رسول الله ﷺ دعاءه بالكلمة العظيمة التي يقولها، وعلم أصحابه أن يقولوها عند حلول المكاره، «ولا حول ولا قوة إلا بك» فلا تحول للمؤمن من حال الشدة إلى حال الرخاء، ولا من الخوف إلى الأمن إلا بالله تعالى، ولا قوة على مواجهة الشدائد، وتحمل المكاره إلا بالله جل وعلا(٣).

إن الدعاء من أعظم العبادات، وهو سلاح فعال في مجال الحماية للإنسان، وتحقيق أمنه، فمهما بلغ العقل البشري من الذكاء والدهاء، فهو عرضة للزلل والإخفاق، وقد تمر على المسلم مواقف يعجز فيها عن التفكير والتدبير تمامًا، فليس له مخرج منها، سوى أن يجأر إلى الله بالدعاء، فما أن انتهى من الدعاء حتى جاءت الإجابة من رب العالمين، مع جبريل وملك الجبال(٤).

٥ ـ من مناهج التغيير:

كان مقترح ملك الجبال أن يطبق عليهم الأخشبين، وهو يدخل تحت أسلوب الاستئصال، وقد نفذ في قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: الآية ٤٠].

---

(١) صحيح البخاري (رقم ٣٢٣١).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٣/ ٢٦، ٢٧).

(٣) المصدر السابق (٣/ ٢٠).

(٤) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية (ص ١١٢، ١١٣).

وكان هناك اقتراح آخر، وهو أن يستمر في هجرته، والابتعاد عن مكة والطائف الكافرتين؛ فالأولى أخرجته، والثانية خذلته، وعرض ذلك الأمر زيد بن حارثة على رسول الله ﷺ، قال ابن القيم: [إن رسول الله ﷺ بعد أن لم يجد ناصرًا في الطائف، انصرف إلى مكة، ومعه مولاه زيد بن حارثة محزونًا، وهو يدعو بدعاء الطائف المشهور، فأرسل ربه تبارك وتعالى ملك الجبال إليه يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة، وهما جبلاها اللذان هي بينهما، فقال: «لا بل أستأني بهم، لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده، ولا يشرك به شيئًا»، . . . وأقام بنخلة أيامًا، فقال له زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك ـ يعني قريشًا ـ فقال: «يا زيد: إن الله جاعل لما ترى فرجًا ومخرجًا، وإن الله ناصرٌ دينَه ومظهر نبيه»[١].

إن النبي ﷺ رفض منهج الاستئصال، وامتنع عن فكرة الاعتزال، أو الهجرة المستمرة، ونظر إلى المستقبل بنور الإيمان، وقرر الدخول إلى مكة الكافرة، ليواصل جهاده الميمون، ويستثمر كل ما يستطيعه من أجل دعوة التوحيد، لم يَخْتَر النبي ﷺ أحد المنهجين السابقين، بل تقدم نحو المنهج البديل، الذي عزم عليه، وهو منهج يقوم على فكرة دخول مكة الكافرة، وليس الانسحاب منها، ويقوم على ضرورة الوجود على الأرض ذاتها التي يقف عليها الكافرون، واعتصار مؤسساتها واستثمار علاقاتها، وتحوير غاياتها ليتغذى بكل ذلك مجتمع المؤمنين، الذي سيولد من أحشائها؛ أي أنه كان ﷺ يريد أن يتخذ من أصلاب الكافرين مصانع بشرية تخرج أجيالاً من المسلمين المقاتلين في سبيل الله، فالنظر النبوي هنا مصوب نحو المستقبل، بصورة جلية، ولم يكن ذلك يعني الانسحاب من الحاضر[٢]، كان النبي ﷺ قد عزم على دخول مكة مرة ثانية؛ غير أن ظاهر الأحوال تدل على أن دخول مكة لم يكن أمرًا هينًا، ولا آمنًا، وهنالك احتمال كبير للغدر به، ولاغتياله من قبل قريش، التي لا يمكن أن تصبر أكثر؛ وهو قد أعلن الخروج عليها، وذهب يستنصر بالقبائل الأخرى، ويوقع بينها وبين حلفائها؛ ثم إنه حتى لو لم تكن هناك خطورة على شخصه، فإن دخوله إلى مكة بصورة (عادية) وقد طردته الطائف، سيجعل أهل مكة يصورون الأمر كهزيمة كبيرة، أصابت المسلمين، ويجترئون عليهم ويزدادون سفهًا؛ ولذلك فقد اتجه نظر الرسول ﷺ هذه المرة إلى تفجير مكة من الداخل، بدلاً من تطويقها من الخارج؛ أي أراد أن يتغلغل في داخل بطون قريش ذاتها، ويوجد له حلفاء من بينهم، ويُكَوِّن له وجودًا في قلبها[٣].

وذكر ابن هشام في السيرة في معرض الحديث عن إجارة المطعم بن عدي: إنه ﷺ لما انصرف عن أهل الطائف، ولم يجيبوه إلى ما دعاهم إليه، من تصديقه ونصرته، صار إلى

(١) انظر: زاد المعاد (٢/٤٦، ٤٧)، وانظر تخريج القصة في طبعة مؤسسة الرسالة رقم (١٥) (جـ ٣/ ٣١ـ ٣٤).

(٢) انظر: أصول الفكر السياسي في القرآن المكي (ص ١٧٦).

(٣) المصدر نفسه (ص ١٧٧، ١٧٨).

حِراء، ثم بعث إِلى الأخنس بن شَريق؛ ليجيره فقال: أنا حليف والحليف لا يجير؛ فبعث إلى سُهيل بن عمرو، فقال له: إِن بني عامر لا تجير على بني كعب؛ فبعث إِلى المطعم بن عدي ـ سيد قبيلة بني نوفل بن عبد مناف ـ بعث إِليه رجلاً من خُزاعة، «أَدْخُلُ في جوارك»؟ فقال: نعم، ودعا بنيه وقومه، فقال: البسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت فإِني قد أجرت محمدًا، فدخل رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة، حتى انتهى إِلى المسجد الحرام؛ فقام المطعم بن عدي على راحلته، فنادى: يا معشر قريش إِني قد أجرت محمدًا فلا يَهِجْه أحد منكم، فانتهى رسول الله ﷺ إِلى الركن فاستلمه وصلى ركعتين وانصرف إِلى بيته، والمطعِم بن عدي وولده، مُحدقون به بالسلاح حتى دخل بيته[١].

لقد تغير الوضع كثيرًا بسبب منهجية الرسول ﷺ الجديدة، فبدلاً من أن يدخل مكة منهزمًا مختفيًا، دخلها ويحرسه بالسلاح سيد من سادات قريش، على مسمع منهم ومرأى، هذا ونلاحظ أن الرسول ﷺ قد اختار رجلاً من خزاعة، فبعثه رسولاً، وفي هذين الاختيارين حنكة سياسية مدهشة، ووعي تاريخي ودبلوماسي عميق، لأن نوفلاً، وهو الأب الأكبر لقبيلة بني نوفل التي يتزعمها المطعم بن عدي آنئذٍ، كان خصيمًا لعبد المطلب جد رسول الله ﷺ في الجاهلية، فقد وثب على أفنية وساحات كانت لعبد المطلب، واغتصبها؛ فاضطرب عبد المطلب لذلك، واستنهض قومه، فلم ينهض كبير أحد منهم؛ فكتب إِلى أخواله، من بني النجار من الخزرج، قصيدة يستنصرهم؛ قالوا: فقدم عليه منهم جمع كثيف فأناخوا بفناء الكعبة، وتنكبوا القسي، وعلقوا التراس؛ فلما رآهم نوفل، قال: لِشَرٍّ ماقدم هؤلاء؟ فكلموه، فخافهم، ورد أركاح عبد المطلب إِليه؛ فلما نصر بنو الخزرج عبد المطلب، قالت خزاعة، وهم قد قووا وعزوا: والله ما رأينا بهذا الوادي أحدًا حسن وجهًا، ولا أتم خلقًا، ولا أعظم حلمًا من هذا الإِنسان، يعنون عبد المطلب، وقد نصره أخواله من الخزرج، وقد ولدناه كما ولدوه، وإِن جده عبد مناف، لابن حبي بنت حليل بن حبشية سيد خزاعة، ولو بذلنا له نصرنا وحالفنا، انتفعنا به، وبقومه، وانتفع بنا، فأتاه وجوههم، فقالوا: يا أبا الحارث، إِنا قد ولدناك كما ولدك قوم من بني النجار، ونحن بعد متجاورون في الدار، وقد أماتت الأيام ما يكون في قلوب بعضنا على قريش من الأحقاد، فهلم فنحالفك، فأعجب ذلك عبد المطلب، وقبله وسارع إِليه، ولم يحضر أحد من بني نوفل، ولا عبد شمس[٢].

هذا النص يشير إِلى جذور الصراع التاريخي القديم، بين خزاعة وقريش حينما جمع قصي بن كلاب قريشًا، من متفرقات المواقع، وقاتل بهم خزاعة التي كانت لديها رئاسة البيت، وسيادة العرب، فأخرج خزاعة من البيت، وقسم مكة أرباعًا على قريش، فما زالت

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٣٨١) ثم زاد المعاد (٢/ ٤٧).

(٢) انظر: أنساب الأشراف للبلاذري، تحقيق محمد حميد الله (١/ ٧١).

خزاعة مبغضة لقريش، كارهين لها؛ ولما اضطرب الأمر بين قريش وعبد المطلب، تحالفت خزاعة مع عبد المطلب، نكاية بقريش، وإضعافًا لها؛ وليس صحيحًا أن الأيام قد أماتت ما كان في قلوب بعضهم على قريش من الأحقاد، كما ذكر وفدهم، بل الصحيح أن الأحقاد لم تزل حية، والصراع لم يزل مستمرًا، ومما يدل على ذلك، أن بني نوفل، وبني عبد شمس لم يدخلا ولم يحضرا هذا الحلف؛ إذ أنه حلف مضاد لهما.

فإذا بعث الرسول ﷺ رجلاً من خزاعة إلى سيد قبيلة بني نوفل فإن هذا الفعل إشارة ظاهرة إلى تلك الوقائع التاريخية، التي ذكرناها، كما فيها تذكير بالحلف القديم بين عبد المطلب وخزاعة، ضد بني نوفل، وعبد شمس، ليفهم من ذلك أن الرسول ﷺ لا يقف معزولاً في مكة، وأنه قد يفعل ما فعله جده عبد المطلب، فيتحالف مع خزاعة، أو يستنصر بالخزرج؛ فالرسول ﷺ لم يكن في الواقع (يستعطف) المطعم بن عدي سيد بني نوفل، ليدخل في جواره، بقدر ماكان يهدده ويثير مخاوفه، وحماية المطعم بن عديّ لرسول الله ﷺ لم تكن مجرد (أريحيَّة) ونبل، بقدر ما كانت رعاية لمصلحته وحماية لوضعه، وصَمْتُ قريش وهي ترى محمدًا ﷺ يدخل في جوار بني نوفل، ويحرسونه بالسلاح، لم يكن خوفًا من سلاح، وإنما خوفًا من سلاح خزاعة، وقسي الخزرج[(١)].

كما لا ننسى أن المطعم ممن قام ينقض الصحيفة الظالمة، مع من ذكرنا فيما مضى، وممن تحسن موقفه بعد تقريع أبي طالب له، عندما قال:

أمطعم لم أخذلك في يوم نجدة ... ولا مُعظِم عند الأمور الجلائل
جزى الله عنا عبد شمس ونوفلاً ... عقوبة شر عاجلاً غير آجل[(٢)]

وقد حفظ رسول الله ﷺ صنيع مطعم بن عدي، وعرف مدى الخطورة التي عرض نفسه وولده وقومه لها من أجله، فقال عن أسارى بدر السبعين يوم أسرهم:

«لو كان المطعم بن عدي حيًا ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له»[(٣)].

فمع العداء العقدي، فرسول الله ﷺ يفرق بين من يعادي هذه العقيدة ويحاربها، ومن يناصرها ويسالمها، إنهم وإن كانوا كفارًا فليس من سمة النبوة أن تتنكر للجميل[(٤)].

وهكذا ﷺ كان يوظف الأعراف والتقاليد التي في مجتمعه لمصلحة الإسلام، فكان ينظر للبناء الاجتماعي القائم، باعتباره حقيقة موضوعية تاريخية، وينظر للإنسان الكافر ليس

(١) انظر: أصول الفكر السياسي في القرآن المكي (ص ١٨٠).

(٢) انظر: التحالف السياسي في الإسلام (ص ٣٦).

(٣) البخاري، كتاب (٦٤) باب (١٢) ورقمه (٤٠٢٤).

(٤) انظر: التحالف السياسي (ص ٤٤).

باعتباره رقمًا حسابيًا فرديًا منقطعًا، وإنما ينظر إليه كفرد في شبكة اجتماعية متداخلة العلاقات، ومتنوعة الدوافع، وإن الإنسان يملك الفرصة والإمكان، لأن يتحول هو نفسه وطوع إرادته إلى قوة اجتماعية مؤثرة، وله وزن في اتخاذ القرار ونقضه، وَفقًا للقيم التي يختارها، والمطعم بن عدي لم يكن فردًا، وإنما كان مؤسسة، وهي مؤسسة لم تولد بميلاده، وإنما يرجع وجودها إلى تاريخ قديم، تصارعت فيها قيم التوحيد والإشراك، فإن صارت مؤسسة خالصة للكافرين الآن، فلا يعني ذلك استحالة الانتفاع بها وتسخيرها للعودة للإيمان والتوحيد(١).

٦ ـ قصة عدَّاس النصراني، وإسلام الجن:

لقد حققت رحلة النبي ﷺ انتصارات دعوية رفيعة المستوى، فقد تأثر بالدعوة الغلام النصراني عداس، الذي أسلم(٢)، كما وصلت الدعوة إلى الجن السبعة، الذين أسلموا ثم انطلقوا إلى قومهم منذرين.

أ ـ قصة عداس:

لما تعرض رسول الله ﷺ للأذى من أهل الطائف، وخرج من عندهم، وألجأوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وهما فيه، فلما رآه عتبة وشيبة رَقَّا له، ودعوا غلامًا لهما نصرانياً، يقال له عدَّاس، فقالا له: خذ قطفاً من هذا العنب، فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه، ففعل عدَّاس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، ثم قال له: كل.

فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده، قال: «بسم الله»، ثم أكل، فنظر عدَّاس في وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام، مايقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ: «ومن أهل أي البلاد أنت يا عدَّاس؟ وما دينك؟» قال: نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى.

فقال رسول الله ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متى»، فقال له عدَّاس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ: «ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبي»، فأكب عدَّاس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه. قال: يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك؛ فلما جاءهما عدَّاس قالا له: ويلك يا عدَّاس! مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي مافي الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر مايعلمه إلا نبي، قالا له: ويحك يا عدَّاس، لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه(٣).

* إن تسمية النبي ﷺ قبل الأكل، تطبيق لسنة من سنن الإسلام الظاهرة، وقد كان من

(١) انظر: أصول الفكر السياسي (ص ١٨١).

(٢) انظر: الرسول المبلغ، لصلاح الخالدي (ص ٣٩، ٤٠).

(٣) صحيح السيرة النبوية (ص ١٣٦، ١٣٧).

بركة ذلك، انجذاب الرجل النصراني إلى الإسلام، فما أن ذكر رسول الله ﷺ اسم الله تعالى قبل الأكل، حتى اهتز كيان ذلك المولى النصراني وجاشت مشاعره، فأخبر النبي ﷺ بعجبه من ذلك، حيث لا يعرف أهل تلك البلاد ذكر اسم الله تعالى.

* إن التسمية قبل الأكل كسائر السنن الظاهرة، من أسباب تميز المسلمين على من حولهم من الوثنيين، وهذا التميز يلفت أنظار الكفار، ويدفعهم إلى السؤال عن سبب ذلك، ثم يقودهم ذلك إلى فهم الدين الإسلامي والانجذاب إليه(١).

* كان يقين عداس بنبوة رسول الله ﷺ قويًا، يدل على ذلك موقفه من سيديه عتبة، وشيبة ابني ربيعة، لما أرادا الخروج إلى بدر، وأمراه بالخروج معهما، حيث قال لهما: قتال ذلك الرجل الذي رأيت في حائطكما تريدان؟ فوالله لا تقوم له الجبال، فقالا: ويحك يا عداس قد سحرك بلسانه(٢).

* في قول عداس، والله ما على الأرض خير من هذا، مواساة عظيمة، فلئن آذاه قومه، فهذا وافد من العراق، من نينوى، يكب على يديه ورجليه، ويقبلهما، ويشهد له بالرسالة، وإن هذا لقدر رباني، يسوق من نينوى من يؤمن بالله ورسوله حيث كان الصد من أقرب الناس إليه(٣).

ب - إسلام الجن:

لما انصرف النبي ﷺ من الطائف، راجعًا إلى مكة، حين يئس من خبر ثقيف، حتى إذا كان بنخلة، قام من جوف الليل يصلي، فمر به النفر من الجن، الذين ذكرهم الله تعالى، وكانوا سبعة نفر من جن أهل نصيبين، فاستمعوا لتلاوة الرسول ﷺ، فلما فرغ من صلاته، ولّوا إلى قومهم منذرين؛ قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا، فقص الله تعالى خبرهم على النبي ﷺ، فقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: الآيتان ٢٩، ٣٠].

هبط هؤلاء الجن على النبي ﷺ، وهو يقرأ ببطن نخلة، فلما سمعوه؛ قالوا: ﴿أَنصِتُوا۟ۖ﴾.

هذ الدعوة التي رفضها المشركون بالطائف، تنتقل إلى عالم آخر، هو عالم الجن، فتلقوا دعوة النبي ﷺ، ومضوا بها إلى قومهم، كما مضى بها أبو ذر الغفاري إلى قومه، والطفيل بن عمرو إلى قومه، وضماد الأزدي إلى قومه، فأصبح في عالم الجن دعاة يبلغون دعوة الله

(١) انظر: التاريخ الإسلامي (٣/ ٢٢).

(٢) انظر: سبل الهدى والرشاد (٢/ ٥٧٨).

(٣) انظر: التربية القيادية (١/ ٤٣٧).

تعالى: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: الآية ٣١].

وأصبح اسم محمد ﷺ تهفو إليه قلوب الجن، وليس قلوب المؤمنين من الإنس فقط، وأصبح من الجن حواريون، حملوا راية التوحيد، ووطنوا أنفسهم دعاة إلى الله. ونزل في حقهم قرآناً يتلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ① يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ② وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ③ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ④ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ⑤ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ⑥ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ⑦ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ⑧ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ⑨ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ⑩ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ⑪ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ⑫ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: ١ ـ ١٣].

كان هذا الفتح الرباني في مجال الدعوة، ورسول الله ﷺ ببطن نخلة عاجز عن دخول مكة، فهل يستطيع عتاة مكة وثقيف أن يأسروا هؤلاء المؤمنين من الجن، وينزلوا بهم ألوان التعذيب[1]؟ وعندما دخل النبي ﷺ مكة في جوار المطعم بن عدي، كان يتلو على صحابته سورة الجن، فتتجاوب أفئدتهم خشوعًا وتأثرًا، من روعة الفتح العظيم في عالم الدعوة، وارتفاع راياتها، فليسوا هم وحدهم في المعركة، هناك إخوانهم من الجن يخوضون معركة التوحيد مع الشرك.

وبعد عدة أشهر من لقاء الوفد الأول من الجن برسول الله ﷺ جاء الوفد الثاني متشوقًا لرؤية الحبيب المصطفى ﷺ، والاستماع إلى كلام رب العالمين[2]. فعن علقمة، قال: سألت ابن مسعود فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ليلة الجن؟ قال: لا، ولكنّا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشِّعاب، فقلنا: استُطِير أو اغتِيل، قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء، فقلنا: يا رسول الله، فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا شر ليلة بات بها قوم، فقال: «أتاني داعي الجن، فذهبت معه، فقرأت عليهم القرآن»، قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم، وآثار نيرانهم. وسألوه الزاد فقال: «لكم كل عَظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحمًا، وكل بَعْرة علف لدوابكم» فقال رسول الله ﷺ: «فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم»)[3].

(١) انظر: التربية القيادية (١/ ٤٤٣).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٤٤٥).

(٣) مسلم، كتاب الصلاة (١/ ٣٣٢ رقم ١٥٠ ـ ٤٥٠).

كان هذا الفتح العظيم، والنصر المبين في عالم الجن إرهاصًا وتمهيدًا لفتوحات وانتصارات عظيمة في عالم الإنس، فقد كان اللقاء مع وفد الأنصار بعد عدة أشهر(١).

المبحث الرابع

الإسراء والمعراج.. ذروة التكريم

نرى أن لهذه المعجزة الجليلة أهدافًا تتمثل في أمور أهمها:

أن الله ﷻ أراد أن يتيح لرسوله فرصة الاطلاع على المظاهر الكبرى لقدرته، حتى يملأ قلبه ثقة فيه، واستنادًا إليه، حتى يزداد قوة في مهاجمة سلطان الكفار القائم في الأرض، كما حدث لموسى عليه السلام، فقد شاء الله أن يريه عجائب قدرته، فلما ملأ قلبه بمشاهدة هذه الآيات الكبرى، قال له بعد ذلك: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [طه: الآية ١٩ ـ ٢٣].

في رحلة الإسراء والمعراج أطلع الله نبيه على هذه الآيات الكبرى، توطئة للهجرة، ولأعظم مواجهة ـ على مدى التاريخ ـ للكفر والضلال والفسوق، والآيات التي رآها رسول الله ﷺ كثيرة: الذهاب إلى بيت المقدس، العروج إلى السماء، رؤية الغيب الذي دعا إليه الأنبياء والمرسلون، الملائكة، السموات، الجنة والنار، نماذج من النعيم والعذاب.

كان حديث القرآن الكريم عن الإسراء، في سورة الإسراء، وعن المعراج في سورة النجم، وذكر حكمة الإسراء في سورة الإسراء بقوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: الآية ١]. وفي سورة النجم بقوله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النّجم: الآية ١٨]. وفي الإسراء والمعراج علوم وأسرار ودقائق ودروس وعبر(٢).

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي: «لم يكن الإسراء مجرد حادث فردي بسيط، رأى فيه رسول الله ﷺ الآيات الكبرى، وتجلى له ملكوت السماوات والأرض، مشاهدةً وعيانًا ـ بل زيادة إلى ذلك ـ اشتملت هذه الرحلة النبوية الغيبية على معان دقيقة كثيرة، وشارات حكيمة، بعيدة المدى: فقد ضمت قصة الإسراء، وأعلنت السورتان الكريمتان اللتان نزلتا في شأنه (الإسراء)، (النجم) أن محمدًا ﷺ هو نبي القبلتين، وإمام المشرقين والمغربين، ووارث الأنبياء قبله، وإمام الأجيال بعده، فقد التقت في شخصه وفي إسرائه مكة بالقدس، والبيت الحرام بالمسجد الأقصى، وصلى بالأنبياء خلفه، فكان هذا إيذانًا بعموم رسالته وخلود إمامته وإنسانية تعاليمه، وصلاحيتها لاختلاف المكان والزمان، وأفادت هذه السورة الكريمة تعيين

---

(١) انظر: التربية القيادية (١/ ٤٤٥).

(٢) انظر: الأساس في السنة، سعيد حوى (١/ ٢٩١، ٢٩٢).

شخصية النبي ﷺ، ووصف إمامته، وقيادته، وتحديد مكانة الأمة التي بعث فيها، وآمنت به، وبيان رسالته، ودورها الذي ستمثله في العالم، ومن بين الشعوب والأمم»[١].

أولاً: قصة الإسراء والمعراج كما جاءت في بعض الأحاديث:

عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أُتِيتُ بالبراق ـ وهو دابةٌ أبيضُ طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه ـ قال: فركبته حتى أَتيت بيت المقدس، قال: فربطته بالحلقة[٢] التي يَرْبِطُ الأنبياء. قال: ثم دخلت المسجد، فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة»[٣] فذكر الحديث[٤].

وفي حديث مالك بن صعصعة: أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به، قال: «بينما أنا في الحطيم»[٥] ـ وربما قال: «في الحجر ـ مضطجعًا إذ أتاني آت[٦] فقدَّ» قال: وسمعته يقول: «فشقَّ ما بين هذه إلى هذه» فقلت للجارود ـ وهو إلى جانبي: ما يعني به؟ قال: من ثُغْرة نَحره[٧] إلى شعرته[٨]، وسمعته يقول: من قَصِّه[٩] إلى شعرته، «فاستخرج قلبي، ثم أُتيت بطَست من ذهب مملوءة إيمانًا فغسل قلبي، ثم حُشِي ثم أُعيد ثم أُتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيضَ» فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟ قال أنس: نعم، «يضع خَطْوَهُ عند أقصى طَرْفه[١٠]، فحُمِلت عليه، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح[١١]، فقيل: من هذا؟

قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟

قال: نعم. قيل: مرحبًا به[١٢] فنعم المجيء جاء، فَفَتَحَ، فلما خَلَصتُ فإذا فيها آدم، فقال: هذا أبوك آدم، فسلِّم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحبًا بالابن الصالح،

---

(١) انظر: الأساس في السنة (١/ ٢٩٢).
(٢) الحلقة: المراد حلقة باب مسجد بيت المقدس.
(٣) الفطرة: الإسلام، والاستقامة.
(٤) مسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ (رقم ٢٥٩ـ ١٦٢).
(٥) الحطيم: هو مابين الركن والمقام.
(٦) آت: هو جبريل عليه السلام.
(٧) ثغرة النحر: الموضع المنخفض في أدنى الرقبة من الأمام.
(٨) شعرته: شعر عانته وهو ما ينبت حول العانة.
(٩) القص: رأس عظام الصدر.
(١٠) يضع خَطوه عند أقصى طرفه: يضع رجله عند منتهى بصره.
(١١) استفتح: طلب فتح باب السماء الدنيا.
(١٢) مرحبًا به: أصاب رحبًا وسعة.

والنبي الصالح، ثم صَعِدَ بي حتى أتى السماء الثانية فاستفتح. قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء، فَفَتَحَ، فلما خَلَصْتُ، إذا يحيى وعيسى، وهما ابنا الخالة، قال: هذا يحيى وعيسى، فَسَلِّمْ عليهما فسلمت، فردّا، ثم قالا: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صَعِد بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح. قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به فنعم المجيء جاء، فَفُتِح، فلما خلصت، إذا يوسف، قال: هذا يوسف فسلِّم عليه فسلمت عليه، فردَّ ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح، والنبي الصالح.

ثم صَعِدَ بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح. قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به فنعم المجيء جاء، فَفُتِح، فلما خلصت، فإذا إدريس، قال: هذا إدريس، فسلِّم عليه، فسلمت عليه فردَّ، ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح، والنبي الصالح.

ثم صَعِدَ بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح. قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به فنعم المجيء جاء، فَفُتِح، فلما خلصت، فإذا هارون، قال: هذا هارون، فسلِّم عليه، فسلمت عليه فردَّ، ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح، والنبي الصالح.

ثم صَعِدَ بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح. قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قال: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء. فلما خلصت، فإذا موسى، قال: هذا موسى فسلِّم عليه، فسلمتُ عليه فردَّ ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح، والنبي الصالح؛ فلما تجاوزت بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلامًا[1] بُعِث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي.

ثم صعِدَ بي إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل. قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك، قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قال: مرحبًا به ونعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك فسلِّم عليه، قال: فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح ثم رُفعتْ لي[2] سدرة المنتهى، فإذا نَبْقُها مثل[3]

---

(١) أبكي لأن غلامًا: ليس هذا على سبيل النقص بل على سبيل التنويه بقدرة الله وعظيم كرمه، (فتح الباري عند الحدث).

(٢) رُفِعتْ لي: قربت لي.

(٣) النبق: هو ثمر السدر.

قِلال هَجَر(١)، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، قال: هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار، نهران باطنان، ونهران ظاهران، فقلت: ما هذان يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران، فالنيل والفرات، ثم رفع لي البيت المعمور.

ثم أُتِيتُ بإناء من خمر، وإناء من لبن، وإناء من عسل، فأخذت اللبن، فقال: هي الفطرة(٢) التي أنت عليها وأُمتُك.

ثم فرضت عليَّ الصلاة خمسين صلاةً كل يوم، فرجعت فمررت على موسى فقال: بما أُمرت؟ قال: أمرت بخمسين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة(٣)، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فرجعت فوضع عني عشرًا، فرجعت إلى موسى، فقال: مثله، فرجعت، فَوَضَع عني عَشْرًا، فرجعتُ إلى موسى، فقال مثله... فرَجَعتُ فأمرت بعَشْرِ صلوات كل يوم، فرجعت فقال مثله، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بما أمرت؟ قلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: سألت ربي حتى استحييت، ولكن أرضى وأُسَلِّم، قال: فلما جاوزتُ نادى مناد: أمضيتُ فريضتي، وخففت عن عبادي»(٤).

كانت حادثة الإسراء والمعراج قبل هجرته ﷺ بسنة، هكذا قال القاضي عياض في الشفا(٥).

فلما رجع رسول الله ﷺ من رحلته الميمونة أخبر قومه بذلك، فقال لهم في مجلس حضره المطعم بن عدي، وعمرو بن هشام والوليد بن المغيرة، فقال: «إني صليت الليلة العشاء في هذا المسجد، وصليت به الغداة، وأتيت فيما دون ذلك بيت المقدس، فنشر لي رهط من الأنبياء منهم إبراهيم، وموسى وعيسى، وصليت بهم وكلمتهم» فقال عمرو بن هشام كالمستهزىء به: صفهم لي، فقال: «أما عيسى، ففوق الربعة، ودون الطول، عريض الصدر، ظاهر الدم، جعد أشعر تعلوه صُهْبَة(٦)، كأنه عروة بن مسعود الثقفي. وأما موسى فضخم آدم

---

(١) قلال هجر: يضرب بها المثل لكبرها، وهجر قرية في البحرين، والقلة: الجرة الكبيرة.

(٢) الفطرة: دين الإسلام.

(٣) عالجتهم أشد المعالجة: مارست بني إسرائيل أشد الممارسة.

(٤) البخاري، في مناقب الأنصار، باب في المعراج (رقم ٣٨٨٧).

(٥) انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١/١٠٨).

(٦) صُهْبَة: بياض بحمرة.

طوال، كأنه من رجال شنوءة، متراكب الأسنان، مقلص الشفة، خارج اللثة، عابس، وأما إبراهيم فوالله إنه لأشبه الناس بي، خَلقاً وخُلقاً»[١].

فقالوا: يا محمد! فصف لنا بيت المقدس، قال: «دخلت ليلاً وخرجت منه ليلاً» فأتاه جبريل بصورته في جناحه، فجعل يقول: «باب منه كذا، في موضع كذا، وباب منه كذا، في موضع كذا».

ثم سألوه عن غيرهم، فقال لهم: «أتيت على عير بني فلان بالروحاء، قد أضلوا ناقة لهم، فانطلقوا في طلبها، فانتهيت إلى رحالهم ليس بها منهم أحد، وإذا قدح ماء فشربت منه، فاسألوهم عن ذلك» قالوا: هذه والإله آية: «ثم انتهيت إلى عير بني فلان، فنفرت مني الإبل، وبرك منها جمل أحمر، عليه جُوالِق[٢] مخطط ببياض، لا أدري أكسر البعير، أم لا، فاسألوهم عن ذلك» ـ قالوا: هذه والإله آية ـ «ثم انتهيت إلى عير بني فلان في التنعيم، يقدمها جمل أورق[٣]، وهاهي تطلع عليكم من الثَّنِيَّة[٤]»، فقال الوليد بن المغيرة: ساحر، فانطلقوا فنظروا، فوجدوا الأمر كما قال، فرموه بالسحر، وقالوا: صدق الوليد بن المغيرة فيما قال[٥].

كانت هذه الحادثة فتنة لبعض الناس، فارتد ناس ممن كان آمنوا به وصدقوه وسعوا بذلك إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فقالوا: هل لك إلى صاحبك، يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس.

قال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟

قال: نعم إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة، فلذلك سُمي أبو بكر الصديق[٦].

ثانياً: فوائد ودروس وعبر:

١ ـ بعد كل محنة منحة، وقد تعرض رسول الله ﷺ لمحن عظيمة، فهذه قريش قد سدت الطريق في وجه الدعوة في مكة، وفي ثقيف، وفي قبائل العرب، وأحكمت الحصار ضد الدعوة ورجالاتها، من كل جانب، وأصبح النبي ﷺ في خطر بعد وفاة عمه أبي طالب أكبر حُماته، ورسول الله ﷺ ماض في طريقه، صابر لأمر ربه، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا حرب محارب، ولا كيد مستهزىء، فقد حان الوقت للمنحة العظيمة، فجاءته حادثة

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٣/٣٨، ٣٩).

(٢) الجُوالِق: هو العدْل الذي يوضع فيه المتاع.

(٣) أورق: أي لونه أبيض وفيه سواد.

(٤) الثنية: أي الطريق الجبلي.

(٥) المطالب العالية للحافظ ابن حجر (٤/ ٢٠١ـ ٢٠٤) وعيون الأثر (١/ ١٤٠ـ ١٤٢)، وابن هشام بالغًا عن أم هانىء رضي الله عنها (٢/ ١١).

(٦) المستدرك (٣/ ٦٢) قال الحاكم: هذا الحديث صحيح الإسناد، وأقره الذهبي.

الإِسراء والمعراج، على قدر من رب العالمين، فيعرج به من دون الخلائق جميعًا، ويكرمه على صبره وجهاده، ويلتقي به مباشرة دون رسول ولاحجاب، ويطلعه على عوالم الغيب دون الخلق كافة، ويجمعه مع إِخوانه من الرسل في صعيد واحد، فيكون الإِمام والقدوة لهم، وهو خاتمهم وآخرهم(١).

٢ - إِن الرسول ﷺ كان مُقدمًا على مرحلة جديدة، مرحلة الهجرة، والانطلاق لبناء الدولة، يريد الله تعالى لِلَّبِنَات الأولى في البناء، أن تكون سليمة قوية متراصة متماسكة، فجعل الله هذا الاختبار والتمحيص، ليخلص الصف من الضعاف المترددين، والذين في قلوبهم مرض، ويثبت المؤمنين الأقوياء الخلص، الذين لمسوا عيانًا صدق نبيهم بعد أن لمسوه تصديقًا، وشهدوا مدى كرامته على ربه، فأي حظ يحوطهم وأي سعد يغمرهم، وهم حول هذا النبي المصطفى، وقد آمنوا به، وقدموا حياتهم فداء له ولدينهم، كم يترسخ الإِيمان في قلوبهم أمام هذا الحدث الذي تم بعد وعثاء الطائف، وبعد دخول مكة بجوار، وبعد أذى الصبيان والسفهاء(٢).

٣ - إِن شجاعة النبي ﷺ العالية، تتجسد في مواجهته للمشركين بأمر تنكره عقولهم، ولا تدركه في أول الأمر تصوراتهم، ولم يمنعه من الجهر به الخوف من مواجهتهم، وتلقي نكيرهم واستهزائهم، فضرب بذلك ﷺ لأمته أروع الأمثلة في الجهر بالحق أمام أهل الباطل، وإِن تحزبوا ضد الحق، وجندوا لحربه كل مافي وسعهم، وكانت من حكمة النبي ﷺ في إِقامة الحجة على المشركين، بأن حدثهم عن إِسرائه إِلى بيت المقدس، وأظهر الله له علامات تلزم الكفار التصديق، وهذه العلامات هي:

* وصف النبي ﷺ بيت المقدس، وقد أقروا بصدق الوصف، ومطابقته للواقع الذي يعرفونه.

* إِخباره عن العير التي بالروحاء.

* إِخباره عن العير الثانية.

* إِخباره عن العير الثالثة التي بالأبواء، وقد تأكد المشركون؛ فوجدوا أن ما أخبرهم به الرسول ﷺ كان صحيحًا، فهذه الأدلة الظاهرة كانت مفحمة لهم ولا يستطيعون معها أن يتهموه بالكذب، كانت هذه الرحلة العظيمة، تربية ربانية رفيعة المستوى، وأصبح ﷺ يرى الأرض كلها، بما فيها من مخلوقات، نقطة صغيرة في ذلك الكون الفسيح، ثم ما مقام كفار مكة في هذه النقطة؟ إِنهم لا يمثلون إِلا جزءًا يسيرًا جدًا من هذا الكون، فما الذي سيفعلونه تجاه من اصطفاه الله تعالى من خلقه، وخصه بتلك الرحلة العلية الميمونة،

---

(١) انظر: التربية القيادية (١/٤٤٧).

(٢) انظر: التربية القيادية (١/٤٥١).

وجمعه الملائكة، والأنبياءات، وأراه السموات السبع، وسدرة المنتهى، والبيت المعمور، وكلّمه جل وعلا[١].

٤ - يظهر إيمان الصديق، رضي الله عنه، القوي في هذا الحدث الجلل، فعندما أخبره الكفار، قال بلسان الواثق: لئن كان قال ذلك لقد صدق، ثم قال: إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة، وبهذا استحق لقب الصديق، وهذا منتهى الفقه واليقين، حيث وازن بين هذا الخبر، ونزول الوحي من السماء، فبيَّن لهم أنه إذا كان غريبًا على الإنسان العادي، فإنه في غاية الإمكان بالنسبة للنبي ﷺ[٢].

٥ - إن شرب رسول الله ﷺ اللبن حين خُيِّر بينه وبين الخمر، وبشارة جبريل - عليه الصلاة والسلام - هديت للفطرة، تؤكد أن هذا الإسلام دين الفطرة البشرية، التي ينسجم معها، فالذي خلق الفطرة البشرية، خلق لها هذا الدين، الذي يلبي نوازعها واحتياجاتها، ويحقق طموحاتها، ويكبح جماحها: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرُّوم: الآية ٣٠].

٦ - إن صلاة النبي ﷺ بالأنبياء دليل على أنهم سلموا له بالقيادة، والريادة، وأن شريعة الإسلام نسخت الشرائع السابقة، وأنه وَسعَ أتباعَ هؤلاء الأنبياء ما وسع أنبياءَهم؛ أن يسلموا بالقيادة لهذا الرسول ولرسالته، التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

إن على الذين يعقدون مؤتمرات التقارب بين الأديان أن يُدركوا هذه الحقيقة، ويدعوا إليها، وهي ضرورة الانخلاع من الديانات المنحرفة، والإيمان بهذا الرسول ﷺ ورسالته، وعليهم أن يدركوا حقيقة هذه الدعوات المشبوهة، التي تخدم وضعًا من الأوضاع، أو نظامًا من الأنظمة الجاهلية.

٧ - إن الربط بين المسجد الأقصى، والمسجد الحرام وراءه حكم، ودلالات، وفوائد منها:

* أهمية المسجد الأقصى بالنسبة للمسلمين، إذ أصبح مسرى رسولهم ﷺ، ومعراجه إلى السماوات العلى، وكان لا يزال قبلتهم الأولى طيلة الفترة المكية، وهذا توجيه وإرشاد للمسلمين بأن يحبوا المسجد الأقصى، وفلسطين لأنها مباركة ومقدسة.

* الربط يشعر المسلمين بمسئوليتهم نحو المسجد الأقصى، بمسؤولية تحرير المسجد الأقصى من أوضار الشرك، وعقيدة التثليث، كما هي أيضًا مسئوليتهم تحرير المسجد الحرام من أوضار الشرك وعبادة الأصنام.

* الربط يشعر بأن التهديد للمسجد الأقصى، هو تهديد للمسجد الحرام وأهله، وأن النَّيل

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٣/ ٤١، ٤٢).

(٢) المصدر نفسه (٣/ ٤٣).

من المسجد الأقصى، توطئة للنَّيل من المسجد الحرام، فالمسجد الأقصى بوابة الطريق إلى المسجد الحرام، وزوال المسجد الأقصى من أيدي المسلمين، ووقوعه في أيدي اليهود، يعني أن المسجد الحرام، والحجاز قد تهدد الأمن فيهما، واتجهت أنظار الأعداء إليهما لاحتلالهما.

والتاريخ قديمًا وحديثًا يؤكد هذا، فإن تاريخ الحروب الصليبية، يخبرنا أن (أرناط) الصليبي صاحب مملكة الكرك، أرسل بعثة للحجاز للاعتداء على قبر الرسول ﷺ، وعلى جُثمانه في المسجد النبوي، وحاول البرتغاليون (النصارى الكاثوليك) في بداية العصور الحديثة، الوصول إلى الحرمين الشريفين، لتنفيذ ماعجز عنه أسلافهم الصليبيون، ولكن المقاومة الشديدة التي أبداها المماليك، وكذا العثمانيون، حالت دون إتمام مشروعهم الجهنمي، وبعد حرب (١٩٦٧م) التي احتل اليهود فيها بيت المقدس، صرخ زعماؤهم بأن الهدف بعد ذلك، احتلال الحجاز، وفي مقدمة ذلك مدينة رسول الله ﷺ وخيبر.

لقد وقف دافيد بن غوريون زعيم اليهود، بعد دخول الجيش اليهودي القدس، يستعرض جنودًا وشبانًا من اليهود، بالقرب من المسجد الأقصى، ويلقى فيهم خطابًا ناريًّا، يختتمه بقوله: «لقد استولينا على القدس ونحن في طريقنا إلى يثرب»(١).

ووقفت غولدا مائير، رئيسة وزراء اليهود، بعد احتلال بيت المقدس، وعلى خليج إيلات العقبة، تقول: «إنني أشم رائحة أجدادي في المدينة والحجاز، وهي بلادنا التي سوف نسترجعها»(٢).

وبعد ذلك نشر اليهود خريطة لدولتهم المنتظرة التي شملت المنطقة من الفرات إلى النيل، بما في ذلك الجزيرة العربية، والأردن، وسورية، والعراق، ومصر، واليمن، والكويت، والخليج العربي كله. ووزعوا خريطة دولتهم هذه بُعيد انتصارهم في حرب ١٩٦٧م في أوروبا(٣).

٨ - أهمية الصلاة وعظيم منزلتها: وقد ثبت في السنة النبوية أن الصلاة فرضت على الأمة الإسلامية في ليلة عروجه ﷺ إلى السمٰوات، وفي هذا كما قال ابن كثير: «اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها»(٤)، فعلى الدعاة أن يؤكدوا أهمية الصلاة، والمحافظة عليها، وأن يذكروا فيما يذكرون، من أهميتها، ومنزلتها، كونها فرضت في ليلة المعراج، وأنها من آخر ما أوصى به رسول الله ﷺ قبل موته(٥).

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ٢١٤).
(٢) جريدة الدستور الأردنية العدد (٤٦١٣) بقلم: أميل الغوري. نقلاً عن السيرة النبوية لأبي فارس (ص ٢١٤).
(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ٢١٥).
(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٣).
(٥) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة (٢/ ٩٣).

٩ - تحدث الرسول ﷺ عن مخاطر الأمراض الاجتماعية، وبيَّن عقوبتها، كما شاهد ذلك في ليلة الإِسراء والمعراج، ومن هذه الأمراض وعقوبتها:

* عقوبة جريمة الغيبة والمغتابين، فقد رأى رسول الله ﷺ أناسًا يأكلون الجيف، فأخبره جبريل «هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس»(١).

* عقوبة أكلة أموال اليتامى، فقد رأى رسول الله ﷺ رجالاً لهم مشافر شفاه كبيرة، كشفاه البعير، في أيديهم قطع من نار كالأفهار (أي الحجارة) يقذفونها في أفواههم فتخرج من أدبارهم، فأخبره جبريل: هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلمًا(٢).

* أكلة الرِّبا، فقد أتى النبي ﷺ على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات، ترى من خارج بطونهم، فأخبره جبريل: هؤلاء أكلة الربا(٣).

* وذكرت الروايات عقوبة الزناة، ومانعي الزكاة، وخطباء الفتنة، والتهاون في الأمانة(٤).

* ثواب المجاهدين، ففي ليلة الإِسراء والمعراج مرّ رسول الله ﷺ على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم، كلما حصدوا عادوا كما كان، فأخبر جبريل: «هؤلاء المجاهدون في سبيل الله، تضاعف لهم الحسنات بسبعمائة ضعف وما أنفقوا من شيء فهو يُخْلَف»(٥).

١٠ - إدراك الصحابة لأهمية المسجد الأقصى: أدرك الصحابة ﷺ، مسؤوليتهم نحو المسجد الأقصى، وهو يقع أسيرًا تحت حكم الرومان، فحرروه في عهد عمر بن الخطاب ﷺ، وظل ينعم بالأمن والأمان، حتى عاث الصليبيون فسادًا فيه بعد خمسة قرون، من هجرة المصطفى، ومكثوا ما يعادل قرنًا يعيثون فسادًا، فحرره المسلمون بقيادة صلاح الدين الأيوبي، وهاهو ذا يقع تحت الاحتلال اليهودي، فما الطريق إِلى تخليصه ؟(٦).

الطريق إِلى تخليصه الجهاد في سبيل الله، على المنهج الذي سار عليه الصحابة الكرام ﷺ.

---

(١) الفتح الرباني للساعاتي (٢٠/ ٢٥٥) وقال: صحح إِسناده الحافظ ابن كثير.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٨/ ٢٠٠).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٤).

(٤) تفسير الطبري (١٥/ ٧) والفتح الرباني (٢٠/ ٢٥٧).

(٥) انظر: الخصائص الكبرى (١/ ١٧١) والسيرة النبوية لأبي فارس (ص ٢٢٠).

(٦) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ٢٢٠).

الفصل الخامس

الطواف على القبائل، وهجرة الصحابة إلى المدينة

المبحث الأول

الطواف على القبائل طلبًا للنصرة

بعد رجوعه ﷺ من الطائف، بدأ يعرض نفسه على القبائل في المواسم، يشرح لهم الإسلام، ويطلب منهم الإيواء والنصرة، حتى يُبَلِّغ كلام الله ﷻ. وكان رسول الله ﷺ يتحرك في المواسم التجارية، ومواسم الحج التي تجتمع فيها القبائل، وفق خطة سياسية دعوية واضحة المعالم، ومحددة الأهداف، وكان يصاحبه أبو بكر الصديق، الرجل الذي تخصص في معرفة أنساب العرب وتاريخها، وكانا يقصدان «غرر الناس ووجوه القبائل، وكان أبو بكر رضي الله عنه، يسأل وجوه القبائل، ويقول لهم: كيف العدد فيكم؟ وكيف المنعة فيكم؟ وكيف الحرب فيكم؟ وذلك قبل أن يتحدث رسول الله ﷺ ويعرض دعوته»[١].

يقول المقريزي: «ثم عرض ﷺ نفسه على القبائل أيام الموسم، ودعاهم إلى الإسلام، وهم بنو عامر، وغسان، وبنو فزارة، وبنو مرة، وبنو حنيفة، وبنو سليم، وبنو عبس، وبنو نصر، وثعلبة بن عكابة، وكندة، وكلب، وبنو الحارث بن كعب، وبنو عذرة، وقيس بن الخطيم، وأبو اليسر أنس بن أبي رافع» وقد استقصى الواقدي أخبار هذه القبائل قبيلة، قبيلة، ويقال إنه ﷺ بدأ بكندة فدعاهم إلى الإسلام، ثم أتى كلبًا ثم بني حنيفة، ثم بنى عامر، وجعل يقول: من رجل يحملني إلى قومه فيمنعني، حتى أبلغ رسالة ربي فإن قريشًا قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي؟ هذا وأبو لهب وراءه يقول للناس: لا تسمعوا منه فإنه كذاب[٢].

ولم يقتصر الأذى على ذلك، بل واجه الرسول ﷺ ماهو أشد وأقسى، فقد روى البخاري في تاريخه، والطبراني في الكبير، عن مدرك بن منيب أيضًا عن أبيه عن جده رضي الله تعالى عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في الجاهلية، وهو يقول: «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» فمنهم من تفل في وجهه، ومنهم من حثا عليه التراب، ومنهم من سبّه، حتى

---

(١) انظر: الأنساب للسمعاني (١/ ٣٦).

(٢) انظر: إمتاع الأسماع للمقريزي (١/ ٣٠، ٣١).

انتصف النهار، فأقبلت جارية بِعُسّ من ماء فغسل وجهه ويديه، وقال: يا بنية لا تخشي على أبيك غلبة ولا ذلة، فقلت: من هذه؟ قالوا: زينب بنت رسول الله ﷺ، وهي جارية وضيئة(١).

وقد كان أبو جهل، وأبو لهب، لعنهما الله، يتناوبان على أذية رسول الله ﷺ عندما يدعو في الأسواق والمواسم، وكان يجد منهما عنتًا كبيرًا، إضافة إلى ما يلحقه من المدعوين أنفسهم(٢).

أولاً: من أساليب النبي ﷺ في الرد على مكائد أبي جهل والمشركين أثناء الطواف على القبائل:

١ ـ **مقابلة القبائل في الليل**: فكان ﷺ من حكمته العالية يخرج لمقابلة القبائل في ظلام الليل، حتى لا يحول بينه وبينهم أحد من المشركين(٣)، وقد نجح هذا العمل في إبطال مفعول الدعاية المضادة، التي كانت تَتَبِعها قريش، كلما اتصل الرسول ﷺ بقبيلة من القبائل، والدليل على نجاح هذا الأسلوب المضاد، اتصال الرسول ﷺ بالأوس والخزرج ليلًا، ومن ثم كانت العقبة الأولى، والثانية ليلًا(٤).

٢ ـ **ذهاب الرسول ﷺ إلى القبائل في منازلهم**: فقد أتى كلبًا وبني حنيفة، وبنى عامر في منازلهم(٥).. وبذلك يحاول أن يبتعد عن مطاردة قريش، فيستطيع أن يتفاوض مع القبائل بالطريقة المناسبة، دونما تشويش أو تشويه من قريش.

٣ ـ **اصطحاب الأعوان**: كان أبو بكر، وعلي رضي الله عنهما، يرافقان الرسول ﷺ في بعض مفاوضاته مع بعض القبائل، وربما كانت هذه الرفقة لأجل ألا يظن المدعوون أنه وحيد، ولا أعوان له من أشراف قومه وأقاربه، هذا إلى جانب معرفة أبي بكر رضي الله عنه بأنساب العرب(٦)، الأمر الذي يساعد الرسول ﷺ في التعرف على معادن القبائل، فيقع الاختيار على أفضلها، لتحمل تبعات الدعوة.

٤ ـ **التأكد من حماية القبيلة**: ومن الجوانب الأمنية المهمة، سؤاله ﷺ عن المنعة والقوة لدى القبائل، قبل أن يوجه إليهم الدعوة، ويطلب منهم الحماية، فقوة ومنعة القبيلة التي تحمي الدعوة، شيء ضروري، ومهم، لابد منه، لأن هذه القبيلة ستواجه كل قوى الشر والباطل،

---

(١) انظر: المحنة في العهد المكي، (ص ٥٣).

(٢) المصدر نفسه (ص ٥٣).

(٣) انظر: تاريخ إسلام للنجيب أبادي (١/ ١٢٩) نقلاً عن الرحيق المختوم.

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٤٤، ٥٢)، في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية (ص ١١٦).

(٥) انظر: البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ١٤٠).

(٦) في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية (ص ١١٦).

فلا بد أن تكون أهلًا لهذا الدور، من حيث الاستعداد المعنوي، والمادي، الذي يرهب الأعداء، ويحمي حمى الدعوة، ويتحمل تبعات نشرها، مزيلًا لكل العقبات التي تقف في طريقها[١].

ثانيًا: المفاوضات مع بني عامر:

اختار الرسول ﷺ أن يجري مفاوضات مع بني عامر، فقامت تلك المفاوضات على دراسة وتخطيط، فالرسول، وصاحبه أبو بكر، كانا يعلمان أن بني عامر قبيلة مقاتلة كبيرة العدد، وعزيزة الجانب، بل هي من القبائل الخمس التي لم يمسها سبَاء، ولم تتبع لملك، ولم تؤد إتاوة[٢]، مثلها مثل قريش وخزاعة[٣]، كما أن الرسول ﷺ كان يعلم أن هنالك تضادًا قديمًا بين بني عامر وثقيف، فإذا كانت ثقيف امتنعت عليه من الداخل، فلماذا لا يحاول أيضًا تطويقها من الخارج، والاستفادة في ذلك من بني عامر بن صعصعة، فإذا استطاع النبي ﷺ أن يبرم حلفًا مع بني عامر؛ فإن موقف ثقيف سيكون على حافة الخطر[٤]. يذكر أصحاب السيرة أن الرسول ﷺ لما أتى بني عامر بن صعصعة، فدعا إلى الله، وعرض عليهم نفسه، قال له رجل منهم يقال له بَيْحَرة بن فراس: والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثم قال له: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: «الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء»، قال: فقال له: أَفَتُهْدَفُ نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك فأبوا عليه[٥].

ثالثًا: المفاوضات مع بني شيبان:

ففي رواية علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: لما أمر الله ﷻ نبيه ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب، خرج، وأنا معه... إلى أن قال: ثم دفعنا إلى مجلس آخر، عليه السكينة والوقار، فتقدم أبو بكر فسلم فقال: من القوم؟ قالوا: شيبان بن ثعلبة، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله ﷺ، وقال: بأبي وأمي، هؤلاء غُرَر الناس، وفيهم مفروق قد غلبهم لسانًا وجمالاً، وكانت له غديرتان تسقطان على تَرِيبَتَيه، وكان أدنى القوم مجلسًا من أبي بكر، فقال أبو بكر: كيف العدد فيكم؟ فقال مفروق: إنا لنزيد على الألف، ولن تُغلب ألف من قلة، فقال أبو بكر: وكيف المنعة فيكم؟ فقال مفروق: إنا لأشد ما نكون غضبًا حين نلقى، وأشد ما نكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلاح على اللقاح، والنصر من عند الله، يديلنا مرة، ويديل علينا أخرى، لعلك أخو قريش؟ فقال أبو بكر: إن كان بلغكم أنه

---

(١) المصدر السابق نفسه (ص ١١٦، ١١٧).

(٢) انظر: أصول الفكر السياسي (ص ١٨٢). سِبَاء: لم تُسْبَ نساؤها في الحروب.

(٣) المصدر نفسه(ص ١٨٢).

(٤) المصدر نفسه (١٨٢).

(٥) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٣٨).

رسول الله ﷺ فها هو ذا. فقال مفروق: إلام تدعونا يا أخا قريش. فقال رسول الله ﷺ: «أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأني عبد الله ورسوله، وإلى أن تؤووني وتنصروني، فإن قريشًا قد تظاهرت على الله، وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد»، فقال مفروق: وإلام تدعو أيضًا يا أخا قريش؟ فوالله ما سمعت كلامًا أحسن من هذا، فتلا رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٥١].

فقال مفروق: دعوت والله إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك، وظاهروا عليك، ثم رد الأمر إلى هانىء بن قبيصة فقال: وهذا هانىء شيخنا، وصاحب ديننا، فقال هانىء: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، وإني أرى تركنا ديننا، واتباعنا دينك لمجلس جلست إلينا، لا أول له، ولا آخر لذل في الرأي، وقلة نظر في العاقبة. إن الزلة مع العجلة، وأنا نكره أن نعقد على من وراءنا عقدًا ولكن نرجع وترجع، وننظر، ثم كأنه أحب أن يشركه المثنى بن حارثة، فقال: وهذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا، فقال المثنى ـ وأسلم بعد ذلك ـ: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، والجواب فيه جواب هانىء بن قبيصة، في تركنا ديننا، ومتابعتنا دينك، وإنا إنما نزلنا بين صَرَيَيْن، أحدهما اليمامة، والآخر السَّمامَة، فقال له رسول الله ﷺ: «ما هذان الصريان»، قال: أنهار كسرى، ومياه العرب، فأما ما كان ـ من أنهار كسرى، فذنب صاحبه غير مغفور، وعذره غير مقبول، وإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى، أن لا نحدث حدثًا، ولا نؤوي محدثًا، وإني أرى هذا الأمر الذي تدعونا إليه يا أخا قريش مما تكره الملوك، فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب، فعلنا، فقال رسول الله ﷺ: «ما أسأتم في الرد، إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين الله ﷻ لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً، حتى يورثكم الله تعالى أرضهم وديارهم، ويفرشكم نساءهم، أتسبحون الله وتقدسونه»، فقال النعمان (بن شريك): اللهم فلك ذاك[1].

رابعًا: فوائد ودروس وعبر:

كانت النصرة التي طلبها النبي ﷺ ذات صفة مخصوصة، وذلك على النحو التالي:

١ ـ كان طلب الرسول ﷺ للنصرة من خارج مكة، إنما بدأ ينشط بشكل ملحوظ بعد أن اشتد الأذى عليه، عقب وفاة عمه أبي طالب، الذي كان يحميه من قريش، وذلك لأن من يحمل

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٣/١٤٢، ١٤٣، ١٤٥) وفيها زيادات ليست عند الصالحي في سُبُل الرشاد (٢/٥٩٦ ـ ٥٩٧).

الدعوة لن يستطيع أن يتحرك التحرك الفعَّال لأجلها وتوفير الاستجابة لها، في جوّ من العنف، والضغط والإرهاب.

٢ ـ كان عرض الرسول ﷺ نفسه على القبائل يطلب منهم النصرة، إنما هو بأمر من الله ـ ﷻ ـ له في ذلك، وليس مجرد اجتهاد من قبل نفسه، اقتضته الظروف التي وصلت إليها الدعوة.

٣ ـ حصر رسول الله ﷺ طلب النصرة في زعماء القبائل، وذوي الشرف والمكانة ممن لهم أتباع يسمعون لهم، ويطيعون، لأن هؤلاء هم القادرون على توفير الحماية للدعوة وصاحبها.

٤ ـ رفض النبي ﷺ أن يعطي القوى المستعدة لتقديم نصرتها، أية ضمانات بأن يكون لأشخاصهم شيء من الحكم والسلطان، على سبيل الثمن، أو المكافأة لما يقدمونه من نصرة وتأييد للدعوة الإسلامية، وذلك لأن الدعوة الإسلامية إنما هي دعوة إلى الله، فالشرط الأساسي فيمن يؤمن بها، ويستعد لنصرتها أن يكون الإخلاص لله، ونشدان رضاه، هما الغاية التي يسعى إليها من النصرة والتضحية، وليس طمعًا في نفوذ أو رغبة في سلطان، وذلك لأن الغاية التي يضعها الإنسان للشيء، هي التي تكيف نشاط الإنسان في السعي إليه، فلا بد إذن من أن تتجرد الغاية المستهدفة من وراء نصرة الدعوة، عن أي مصلحة مادية، لضمان دوام التأييد لها، وضمان المحافظة عليها من أي انحراف، وضمان أقصى ما يمكن من بذل الدعم لها، وتقديم التضحيات في سبيلها[1]، فيجب على كل من يريد أن يلتزم بالجماعة التي تدعو إلى الله، ألا يشترط عليها منصبًا، أو عرضًا من أعراض الدنيا، لأن هذه الدعوة لله، والأمر لله يضعه حيث يشاء، والداخل في أمر الدعوة إنما يريد ابتداءً وجه الله، والعمل من أجل رفع رايته، أما إذا كان المنصب هو همه الشاغل، فهذ علامة خطيرة، تنبىء عن دخن في نية صاحبها[2]، لذا قال يحيى بن معاذ الرازي: «لا يفلح من شممت منه رائحة الرياسة»[3].

٥ ـ ومن صفة النصرة التي كان رسول الله ﷺ يطلبها لدعوته من زعماء القبائل، أن يكون أهل النصرة غير مرتبطين بمعاهدات دولية، تتناقض مع الدعوة، ولا يستطيعون التحرر منها، وذلك لأن احتضانهم للدعوة والحالة هذه، يُعرّضُها لخطر القضاء عليها من قبل الدول التي بينهم وبينها تلك المعاهدات، والتي تجد في الدعوة الإسلامية خطرًا عليها، وتهديدًا لمصالحها[4].

---

(١) انظر: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، لمحمد خير (١/ ٤١١).
(٢) انظر: وقفات تربوية في السيرة النبوية، عبد الحميد البلالي (ص ٧٢).
(٣) انظر: صفة الصفوة (٤/ ٩٤).
(٤) انظر: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية (١/ ٤٢١).

إن الحماية المشروطة أو الجزئية لا تحقق الهدف المقصود، فلن يخوض بنو شيبان حربًا ضد كسرى، لو أراد القبض على رسول الله ﷺ وتسليمه، ولن يخوضوا حربًا ضد كسرى، لو أراد مهاجمة محمد رسول الله ﷺ وأتباعه، وبذلك فشلت المباحثات(١).

٦ - «إن دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه»، كان هذا الرد من النبي ﷺ على المثنى بن حارثة، حين عرض على النبي ﷺ حمايته على مياه العرب، دون مياه الفرس، فمن يسبر أغوار السياسة البعيدة، يَرَ بعد النظر الإسلامي النبوي الذي لا يسامي(٢).

٧ - كان موقف بني شيبان يتسم بالأَرْيَحِيَّة والخلق والرجولة، وينم عن تعظيم هذا النبي، وعن وضوح في العرض، وتحديد مدى قدرة الحماية التي يملكونها، وقد بينوا أن أمر الدعوة مما تكرهه الملوك، وقدّر الله لشيبان بعد عشر سنين أو تزيد، أن تحمل هي ابتداء عبء مواجهة الملوك، بعد أن أشرق قلبها بنور الإسلام، وكان المثنى بن حارثة الشيباني، صاحب حربهم، وبطلهم المغوار، الذي قاد الفتوح في أرض العراق، في خلافة الصديق رضي الله عنه، (٣) فكان وقومه من أجراء المسلمين بعد إسلامهم على قتال الفرس، بينما كانوا في جاهليتهم يرهبون الفرس ولا يفكرون في قتالهم، بل إنهم ردوا دعوة النبي ﷺ بعد اقتناعهم بها لاحتمال أن تلجئهم إلى قتال الفرس، الأمر الذي لم يكونوا يفكرون فيه أبدًا، وبهذا نعلم عظمة هذا الدين، الذي رفع الله به المسلمين في الدنيا، حيث جعلهم سادة الأرض، مع ما ينتظرون في أخراهم من النعيم الدائم في جنات النعيم(٤).

المبحث الثاني

مواكب الخير وطلائع النور

قال جابر بن عبد الله الأنصاري:

مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين، يَتَّبِعُ الناس في منازلهم، بُعكاظ ومَجَنَّة، وفي المواسم بمنى، يقول: «من يؤويني؟ من ينصرني، حتى أبلّغ رسالة ربي، وله الجنة؟» حتى إن الرجل لَيخرجَ من اليمن أو مصر، - كذا قال - فيأتيه قومه فيقولون: احذر غلام قريش لا يَفْتِنْكَ، ويمشي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع، حتى بَعَثَنا الله إليه من يثرب، فآويناه وصدقناه، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم يَبْقَ دار من الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام(٥).

---

(١) انظر: التحالف السياسي في الإسلام، منير الغضبان (ص ٥٣).

(٢) المصدر نفسه (ص ٦٤).

(٣) انظر: التربية القيادية (٢/ ٢٠).

(٤) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٣/ ٦٩).

(٥) مسند أحمد (٣/ ٣٢٢، ٣٣٢) «إسناده صحيح على شرط مسلم»، قاله محققو طبعة مؤسسة الرسالة.

أولاً: الاتصالات الأولى بالأنصار في مواسم الحج والعمرة:

١ ـ **إسلام سويد بن الصامت**: كان رسول الله ﷺ لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب، له اسم وشرف إلا تصدّى له، ودعاه إلى الله، وعرض عليه ما جاء به من الهدى والحق، فقدم سويد بن الصامت ـ أخو بني عمرو بن عوف ـ مكة حاجًا أو معتمرًا، وكان سويد يسميه قومه فيهم الكامل، لجَلَده، وشِعْره، وشرفه، ونسبه، فتصدى له رسول الله ﷺ حين سمع به، فدعاه إلى الله والإسلام، فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي؟ فقال له رسول الله ﷺ: «وما الذي معك؟» قال: مجلة(١) لقمان، فقال له رسول الله: «اعرضها علي» فعرضها عليه فقال: «إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا: قرآن أنزله الله عليَّ، هو هدى ونور»، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فلم يُبعد منه، وقال: إن هذا القول حسن، ثم انصرف عنه، فقدم المدينة على قومه، فلم يلبث أن قتله الخزرج، وقد كان رجال من قومه يقولون: إنا لنراه قتل وهو مسلم، وكان قتله يوم بُعاث(٢). وعلى أية حال لا توجد دلائل على قيام سويد بن الصامت بالدعوة إلى الإسلام وسط قومه(٣).

٢ ـ **إسلام إياس بن معاذ**: لما قدم أبو الحَيْسَر بن رافع، مكة، ومعه فتيان من بني عبد الأشهل، فيهم إياس بن معاذ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله ﷺ، فأتاهم فجلس إليهم، فقال: «هل لكم في خير مما جئتم له»؟ قالوا: وما ذاك؟ قال: «أنا رسول الله إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله، ولا يشركوا به شيئًا، وأنزل عليّ الكتاب»، ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن فقال إياس بن معاذ ـ وكان غلامًا حدثًا ـ: هذا والله خير مما جئتم له، فيأخذ أبو الحيسر حَفْنَةً من تراب، فضرب بها وجه إياس بن معاذ، وقال: دعنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس، وقام رسول الله ﷺ عنهم، وانصرفوا إلى المدينة، وكانت وقعة بُعاث بين الأوس والخزرج، ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك. وقد روى من حضره من قومه أنه ما زال يهلل الله ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكّون أنه مات مسلمًا، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس، حين سمع من رسول الله ﷺ ماسمع(٤).

ثانيًا: بدء إسلام الأنصار:

كانت البداية المثمرة مع وفد من الخزرج في موسم الحج، عند عقبة منى، قال لهم رسول الله ﷺ: «من أنتم؟».

---

(١) المجلة الصحيفة، وتطلق على الحكمة أي حكمة لقمان.

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٠) بإسناد حسن.

(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٩٥).

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٤١) بإسناد حسن.

قالوا: نفر من الخزرج.

قال: «أمن موالي يهود؟».

قالوا: نعم:

قال: «أفلا تجلسون أكلمكم؟».

قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن(١).

فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم: تَعَلَّموا والله إنه للنبي الذي توعَّدكم به يهود، فلا تسبقُنَّكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك، فلا رجل أعز منك. ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدَّقوا(٢)، وكانوا ستة نفر: وهم: أبو أمامة أسعد بن زُرارة، وعوف بن الحارث، من بني النجار، ورافع بن مالك وقُطْبة بن عامر، وعُقْبة بن عامر، وجابر بن عبد الله بن رئاب(٣)، فلما قدموا المدينة إلى قومهم، ذكروا لهم رسول الله ﷺ، ودعوهم إلى الإسلام، حتى فشا بينهم، فلم تبقَ دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر لرسول الله ﷺ(٤).

فهذا أول موكب من مواكب الخير، لم يكتف بالإيمان وإنما أخذ العهد على نفسه، أن يدعوَ إليه قومه، وقد وفى كل منهم لدينه ورسوله، فإنهم حين رجعوا نشطوا في الدعوة إلى الله، وعرضوا كلمة الهدى على أهلهم وذويهم، فلم تبقَ دار من دور المدينة إلا وفيها ذكر لمحمد ﷺ، وهكذا عندما يأذن الله تأتي ساعة الحسم الفاصلة، فقد كان لقاء هؤلاء مع الرسول على غير موعد، لكنه لقاء هيأه الله ليكون نبع الخير المتجدد الموصول، ونقطة التحول الحاسم في التاريخ.. وساعة الخلاص المحقق من عبادة الأحجار، بل إنها على التحقيق، ساعة الحسم في مصير العالم كله، ونقل الحياة من الظلمات إلى النور. أكان معقولاً في لحظة يسيرة أن يتحول هؤلاء من وثنيين متعصبين، إلى أنصار للدعوة متفتحين، وجنود للحق مخلصين، ودعاة إلى الله متجردين، يذهبون إلى أقوامهم، وبين جوانحهم نور، وعلى وجوههم نور، وإنهم لعلى نور؟ تلك مشيئة القدر العالي، هيأت للدعوة مجالها الخصب، وحماها الأمين.

---

(١) المصدر السابق نفسه (٢/ ٤١، ٤٢).

(٢) البداية والنهاية (٣/ ١٤٨، ١٤٩).

(٣) انظر: شرح المواهب للزرقاني (١/ ٣٦٢).

(٤) انظر: البداية والنهاية (٣/ ١٤٧).

والسنوات العجاف التي قضاها الرسول نضالاً مستمرًّا، وكفاحًا دائمًا، وتطوافًا على القبائل، والتماسًا للحليف.. قد ولت إلى غير رجعة.. سيكون بعد اليوم للإسلام قوته الرادعة وجيشه الباسل، وسيلتقي الحق بالباطل، ليصفي معه حساب الأيام الخوالي، والعاقبة للمتقين، وستتوالى على مكة منذ اليوم مواكب الخير، وطلائع النور، التي هيأها الله للخير، لتتصل بالهداية، وتسبح في النور، وتغترف من الخير، وترجع إلى يثرب، بما وعت من خير، وبما حملت من نور(١).

ومن الجدير بالتنبيه أن هذه المقابلة التي حدثت عند العقبة، وتلاقى فيها فريق من الخزرج بالنبي ﷺ، وأسلموا على يديه، لم تكن فيها بيعة(٢)، لأنها كانت من نفر صغير لم يروا لأنفسهم الحق في أن يلتزموا بمعاهدة دون الرجوع إلى قبائلهم في المدينة، ولكنهم أخلصوا في تبليغ رسالة الإسلام(٣).

ثالثًا: بيعة العقبة الأولى:

بعد عام من المقابلة الأولى التي تمت بين الرسول ﷺ، وأهل يثرب، عند العقبة، وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً فلقوه ﷺ بالعقبة، وبايعوه العقبة الأولى، (عشرة من الخزرج، واثنان من الأوس)، مما يشير إلى أن نشاط وفد الخزرج الذين أسلموا في العام الماضي تركز على وسطهم القبلي بالدرجة الأولى، لكنهم تمكنوا في الوقت نفسه من اجتذاب رجال الأوس، وكان ذلك بداية ائتلاف القبيلتين تحت راية الإسلام(٤).

وقد تحدث عبادة بن الصامت الخزرجي عن البيعة في العقبة الأولى، فقال: «كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عَشَر رجلاً، فبايَعْنا رسولَ الله ﷺ على بيعة النساء ـ وذلك قبل أن تُفترض علينا الحرب: على أن لا نشرك بالله، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفَيتم فلكم الجنة، وإن غَشِيتم من ذلك شيئًا فأمركم إلى الله، ﷻ، إن شاء عذبكم، وإن شاء غفر لكم»(٥).

وبنود هذه البيعة هي التي بايع الرسول ﷺ عليها النساء فيما بعد، ولذلك عرفت باسم بيعة النساء(٦)، وقد بعث الرسول ﷺ مع المبايعين مصعب بن عمير، يعلمهم الدين، ويُقرِئُهم

---

(١) انظر: أضواء على الهجرة لتوفيق محمد سبع (ص ٢٧٣، ٢٧٤).
(٢) انظر: هجرة الرسول وصحابته للجمل (ص ١٤٣).
(٣) المصدر نفسه (ص ١٤٣).
(٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/١٩٧).
(٥) مسند الإمام أحمد (٢٢٧٥٤) ط. م. الرسالة، وقال محققوه: حديث صحيح وهذا إسناد حسن. وانظر صحيح مسلم [(٤١ـ (١٧٠٩))].
(٦) انظر: الغرباء الأولون (ص ١٨٥).

القرآن، فكان يسمى بالمدينة (المقرىء) وكان يؤمهم في الصلاة، وقد اختاره رسول الله ﷺ عن علم بشخصيته من جهة، وعلم بالوضع القائم في المدينة من جهة أخرى، حيث كان - رضي الله عنه - بجانب حفظه لما نزل من القرآن، يملك من اللباقة والهدوء، وحسن الخلق والحكمة قدرًا كبيرًا، فضلاً عن قوة إيمانه، وشدة حماسه للدين، ولذلك تمكن خلال أشهر أن ينشر الإسلام في سائر بيوتات المدينة، وأن يكسب للإسلام أنصارًا من كبار زعمائها، كسعد بن معاذ، وأسيد بن الحضير، وقد أسلم بإسلامهما خلق كثير من قومهم[1].

لقد نجحت سفارة مصعب بن عمير، رضي الله عنه، في شرح تعاليم الدين الجديد، وتعليم القرآن الكريم، وتفسيره، وتقوية الروابط الأخوية بين أفراد القبائل المؤمنة من ناحية، وبين النبي ﷺ وصحبه بمكة المكرمة، لإيجاد القاعدة الأمينة لانطلاق الدعوة.

وقد نزل مصعب بن عمير - رضي الله عنه - في يثرب على أسعد بن زرارة رضي الله عنه[2]، ونشط المسلمون في الدعوة إلى الله، يقود تلك الحركة الدعوية الرائدة مصعب رضي الله عنه وقد انتهج منهج القرآن الكريم، في دعوته، وهذا الذي تعلمه من إمامه ﷺ، وقد شرح لنا بعض الآيات القرآنية المكية، بصورة عملية حية مثل قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النّحل: الآية ١٢٥].

رابعًا: قصة إسلام أُسيد بن حُضير، وسعد بن معاذ رضي الله عنهما:

كان سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير سيِّدَيْ قومهما، من بني عبد الأشهل، وكانا مشركين على دين قومهما، فلما سمعا بمصعب بن عمير، ونشاطه في الدعوة إلى الإسلام، قال سعد لأسيد: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين، اللذين أتيا ليُسَفِّها ضعفاءنا، فازجرهما، وانههما أن يأتيا دارَينا، فإنه لولا أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت، كفيتك ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدمًا، فأخذ أسيد حربته ثم أقبل عليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال: هذا سيد قومه، وقد جاءك، فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلسْ أكلمه، فوقف عليهما متشتمًا فقال: ما جاء بكما تسفِّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب بلسان المؤمن الهادي، الواثق من سماحة دعوته: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته نَكُفّ عنك ماتكره؟

قال أسيد: أنصفتَ، ثم ركز حربته، وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام - قبل أن يتكلم - في إشراقه وتسهُّله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام، وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا

---

(١) انظر: الغرباء الأولون (ص ١٨٦، ١٨٧).

(٢) انظر: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة (١/ ٤٤١).

الدين؟ قالا له: تغتسل فتطَّهر، وتطهِّر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلِّي، فقام فاغتسل، وطهّر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً، إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكم الآن: سعد بن معاذ.

ثم أخذ حربته، وانصرف إلى سعد وقومه، وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بن حضير بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم!!

فما وقف على النادي، قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأسًا، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حُدِّثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة، ليقتلوه، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليحقروك[1].

فقام سعد مغضبًا مبادرًا مخوفًا، للذي ذكر له من أمر بني حارثة، وأخذ الحربة في يده ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئًا، ثم خرج إليهما سعد فوجدهما مطمئنين، فعرف أن أسيدًا إنما أراد أن يسمع منهما، فوقف متشتمًا، ثم قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة مارُمْتَ هذا مني، أتغشانا في دارنا بما نكره، وكان أسعد قد قال لمصعب: لقد جاء - والله - سيد مَنْ وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف منهم اثنان، فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع؟ فإن رضيت أمرًا، ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره، فقال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة، وجلس فعرض عليه الإسلام، وقرأ القرآن، وذكر موسى بن عقبة أنه قرأ عليه أول سورة الزخرف، قالا: فعرفنا - والله - في وجهه الإسلام - قبل أن يتكلم - في إشراقه وتسهله.

ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم، ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل، فتطهَّر، وتطهِّر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين، فقام فاغتسل، وطهّر ثوبيه، ثم تشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته، فأقبل عائدًا إلى نادي قومه، ومعه أسيد بن حضير، فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام، حتى تؤمنوا بالله ورسوله، قال: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلمًا أو مسلمة.

ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم يبق دار من دور الأنصار، إلا وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات، إلا ما كان من الأُصَيْرِم، وهو عمرو بن ثابت بن وقيش، فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد فأسلم، واستشهد

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٤٤٢).

بأحد، ولم يصلِّ لله سجدة قط، وأخبر رسول الله ﷺ أنه من أهل الجنة.

وقد روى ابن إسحاق بإسناد حسن عن أبي هريرة أنه كان يقول: «حدّثوني عن رجل دخل الجنة لم يصلِّ صلاة قط، فإذا لم يعرفه الناس؛ قال: هو أُصَيْرِمُ بني عبد الأشهل»(١).

خامسًا: فوائد ودروس وعبر:

١ ـ اتجه التخطيط النبوي للتركيز على يثرب بالذات، وكان للنفر الستة الذين أسلموا دور كبير في بث الدعوة إلى الإسلام، خلال ذلك العام.

٢ ـ كانت هناك عدة عوامل ساعدت على انتشار الإسلام في المدينة منها:

- ما طبع الله عليه قبائل الخزرج والأوس من الرقة واللين، وعدم المغالاة في الكبرياء وجحود الحق، وذلك يرجع إلى الخصائص الدموية والسلالية التي أشار إليها رسول الله ﷺ حين وفد وفد من اليمن، بقوله: «أتاكم أهل اليمن، هم أرق أفئدة، وألين قلوبًا»(٢) وهما ترجعان في أصليهما إلى اليمن، نزح أجداهم منها في الزمن القديم(٣)، فيقول القرآن الكريم مادحًا لهم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: الآية ٩].

- ومنها التشاحن والتطاحن الموجود بين قبيلتي المدينة، الأوس والخزرج، وقد قامت بينهما الحروب الطاحنة كيوم بُعاث، وغيره، وقد أفنت هذه الحرب كبار زعمائهم، ممن كان نظراؤهم في مكة والطائف وغيرها، حجر عثرة في سبيل الدعوة، ولم يبقَ إلا القيادات الشابة الجديدة المستعدة لقبول الحق، إضافة إلى عدم وجود قيادة بارزة معروفة، يتواضع الجميع على التسليم لها، وكانوا بحاجة إلى من يأتلفون عليه، ويلتئم شملهم تحت ظله، قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: «كان يوم بُعاث يومًا قدمه الله تعالى لرسوله ﷺ، فَقَدِمَ رسول الله ﷺ وقد افترق ملؤهم، وقُتِلت سَرَوَاتهم(٤) وجُرِّحوا، فقدمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام»(٥).

- ومنها مجاورتهم لليهود مما جعلهم على علم ـ ولو يسير ـ بأمر الرسالات السماوية، وخبر المرسلين السابقين، وهم ـ في مجتمعهم ـ يعايشون هذه القضية في حياتهم اليومية، وليسوا مثل قريش التي لا يساكنها أهل كتاب، وإنما غاية أمرها أن تسمع أخبارًا متفرقة عن

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٤٤٤)، صحيح السيرة النبوية (ص ٢٩١).

(٢) البخاري، كتاب المغازي، باب قدوم الأشعريين (رقم ٤٣٨٨).

(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي (ص ١٥٤).

(٤) السَرَوات: الأشراف.

(٥) البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب الأنصار (٤/ ٢٦٧ رقم ٣٧٧٧).

الرسالات، والوحي الإلٰهي، دون أن تلح عليها هذه المسألة أو تشغل تفكيرها باستمرار، وكان اليهود يهددون الأوس والخزرج بنبي قد أظل زمانه، ويزعمون أنهم سيتبعونه، ويقتلونهم به قتل عاد وإرم!، مع أن الأوس والخزرج كانوا أكثر من اليهود(١)، وقد حكى الله عنهم ذلك في كتابه العزيز، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٨٩].

وكان الأوس والخزرج قد علوا اليهود دهرًا في الجاهلية، وهم أهل شرك، وهؤلاء أهل الكتاب، فكانوا يقولون: إن نبيًّا قد أظل زمانه، نقتلكم به قتل عاد وإرم(٢).

فلما أراد الله إتمام أمره بنصر دينه، قيض ستة نفر من أهل المدينة، للنبي ﷺ فالتقى بهم عند العقبة ـ عقبة منى ـ فعرض عليهم الإسلام، فاستبشروا وأسلموا، وعرفوا أنه النبي الذي توعدهم به اليهود، ورجعوا إلى المدينة، فأفشوا ذكر النبي ﷺ في بيوتها(٣)، وكان هذا هو (بدء إسلام الأنصار) كما يسميه أهل السير(٤).

٣ ـ حضر بيعة العقبة الأولى اثنان من الأوس، وهذا تطور مهم لمصلحة الإسلام، فبعد الحرب العنيفة في بُعاث، استطاع النفر الستة من الخزرج أن يتجاوزوا قصة الصراعات الداخلية، ويحضروا معهم سبعة جددًا، فيهم اثنان من الأوس، وهذا يعني أنهم وفوا بالتزاماتهم التي قطعوها على أنفسهم في محاولة رأب الصدع، وتوجيه التيار لدخول الإسلام في المدينة، أوسها وخزرجها، وتجاوز الصراعات القبلية القائمة.

٤ ـ بذل الرسول ﷺ كل ما يملك من جهد، لتعبئة الطاقات الإسلامية في المدينة، ولم يكن هناك أدنى تقصير للجهد البشري الممكن، في بناء القاعدة الصلبة التي تقوم على أكتافها الدولة الجديدة، واحتل هذا الجهد سنتين كاملتين من الدعوة والتنظيم(٥).

٥ ـ نجحت التعبئة الإيمانية في نفوس من أسلم من الأنصار، وشعرت الأنصار بأنه قد آن الوقت لقيام الدولة الجديدة، وكما يقول جابر، ؓ، وهو يمثل هذه الصورة الرفيعة الرائعة: «حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف؟»(٦).

٦ ـ وصل مصعب ؓ إلى مكة، قبيل الموسم من العام الثالث عشر للبعثة، ونقل الصورة

---

(١) انظر: الغرباء الأولون (ص ١٨٣).
(٢) الدر المنثور للسيوطي (١/٢١٦).
(٣) انظر: ابن هشام (١/٤٤).
(٤) المصدر نفسه (١/٣٩، ٤٤).
(٥) انظر: التحالف السياسي (ص ٧١).
(٦) المصدر السابق نفسه.

الكاملة التي انتهت إليها أوضاع المسلمين هناك، والقدرات والإمكانات المتاحة، وكيف تغلغل الإسلام في جميع قطاعات الأوس والخزرج، وأن القوم جاهزون لبيعة جديدة، قادرة على حماية رسول الله ﷺ ومنعته[١].

٧ ـ كان اللقاء الذي غيَّر مجرى التاريخ، في موسم الحج في السنة الثالثة عشرة من البعثة، حيث حضر لأداء مناسك الحج بضع وسبعون نفسًا من المسلمين، من أهل يثرب، فلما قدموا مكة، جرت بينهم وبين النبي ﷺ، اتصالات سرية، أدت إلى اتفاق الفريقين على أن يجتمعوا في أوسط أيام التشريق، في الشِعْب الذي عند العقبة، حيث الجمرة الأولى من مِنىً، وأن يتم هذا الاجتماع في سرية تامة في ظلام الليل[٢].

المبحث الثالث

بيعة العقبة الثانية

قال جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: [... فقلنا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ، يطرد في جبال مكة ويُخاف، فرحل إليه منا سبعون رجلاً، حتى قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شعب العقبة، فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين، حتى توافينا فقلنا: يا رسول الله علام نبايعُك؟

قال: «تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله، لا تخافون في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني، إذا قدمت عليكم، مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة».

قال: فقمنا إليه فبايعناه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة ـ وهو من أصغرهم ـ فقال: رويدًا يا أهل يثرب، فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ﷺ، وأنَّ إخراجه اليوم مفارقةُ العرب كافة، وقتلُ خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك، وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جُبَيْنة، فبينوا ذلك، فهو أعذرُ لكم عند الله، قالوا: أمط عنا يا أسعد، فوالله لا ندع هذه البيعة أبدًا، ولا نَسْلِيها[٣] أبدًا، قال: فقمنا إليه فبايعناه، فأخذ علينا وشرط، ويعطينا على ذلك الجنة][٤].

وهكذا بايع الأنصار رسول الله ﷺ على الطاعة، والنصرة، والحرب، لذلك سماها عبادة بن الصامت بيعة الحرب[٥]، أما رواية الصحابي كعب بن مالك الأنصاري ـ وهو أحد

---

(١) المصدر نفسه (ص ٧٢).

(٢) المصدر نفسه (ص ٧٣).

(٣) نَسْلِيها: أي نتركها، وفي رواية لأحمد: «ولا نَسْتَقِيلُها».

(٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/١٩٩)، وأخرجه الإمام أحمد، وهذا لفظه، ورقمه (١٤٤٥٦) ط. م. الرسالة، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٥) مسند الإمام أحمد (٥/٣١٦) ورقمه (٢٢٧٠٠)، بإسناد صحيح لغيره.

المبايعين في العقبة الثانية ـ ففيها تفاصيل مهمة، قال: «خرجنا في حجاج قومنا من المشركين، وقد صلينا وفقهنا... ثم خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ، العقبة من أوسط أيام التشريق... وكنا نكتم من معنا من المشركين أمرنا، فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله، نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشِّعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا، نُسيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو، فاجتمعنا في الشِّعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا، ومعه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذٍ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب؛ فبين أن الرسول في منعة، من قومه بني هاشم، ولكنه يريد الهجرة إلى المدينة، ولذلك فإن العباس يريد التأكد من حماية الأنصار له، وإلا فليدعوه، فطلب الأنصار أن يتكلم رسول الله، فيأخذ لنفسه ولربه ما يحب من الشروط.

قال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم» فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق، لنمنعنّك مما نمنع منه أُزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحرب، وأهل الحلقة، ورثناها كابرًا عن كابر، فقاطعه أبو الهيثم بن التَّيِّهان متسائلاً: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها (يعني اليهود)، فهل عسيتم إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدَعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم، وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم».

ثم قال: «أَخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيبًا ليكونوا على قومهم بما فيهم»، فأَخرَجوا منهم اثني عشر نقيبًا، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس.

وقد طلب الرسول الله منهم الانصراف إلى رحالهم، وقد سمعوا الشيطان يصرخ منذرًا قريشًا، فقال العباس بن عبادة بن نضلة: والله الذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلنَّ على أهل منى غدًا بأسيافنا.

فقال رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم»، فرجعوا إلى رحالهم، وفي الصباح جاءهم جمع من كبار قريش، يسألونهم عما بلغهم من بيعتهم للنبي، ودعوتهم له للهجرة، فحلف المشركون من الخزرج والأوس، بأنهم لم يفعلوا، والمسلمون ينظرون إلى بعضهم[1]، قال: ثم قام القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي، وعليه نعلان جديدان قال: فقلت له كلمة ـ كأني أريد أن أشرِكَ القوم ـ فيما قالوا بها: يا أبا جابر أما تستطيع أن تتخذ، وأنت سيد من ساداتنا، مثل نَعْلَي هذا الفتى من قريش؟ قال: فسمعهما

(١) انظر: ابن هشام (٢/ ٦١)، بإسناد حسن، وانظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ٢٠١).

الحارث فخلعهما من رجليه، ثم رمى بها إليَّ، وقال: والله لَتَنْتَعلَنَّهما، قال: يقول أبو جابر: مه أحفظت والله الفتى، فاردد إليه نعليه. قال: قلت: لا والله، لا أردهما، فأل والله صالح، لئن صدق الفأل لأسْلُبَنَّه(١).

● دروس وعبر وفوائد:

١ - «كانت هذه البيعة العظمى بملابساتها، وبواعثها، وآثارها، وواقعها التاريخي (فتح الفتوح)، لأنها كانت الحلقة الأولى في سلسلة الفتوحات الإسلامية التي تتابعت حلقاتها في صور متدرجة، مشدودة بهذ البيعة، منذ اكتمل عقدها، بما أخذ فيها رسول الله ﷺ من عهود ومواثيق، على أقوى طليعة من طلائع أنصار الله، الذين كانوا أعرف الناس بقدر مواثيقهم وعهودهم، وكانوا أسمح الناس بالوفاء بما عاهدوا الله ورسوله عليه، من التضحية، مهما بلغت متطلباتها من الأرواح، والدماء والأموال، فهذه البيعة في بواعثها؛ هي بيعة الإيمان بالحق ونصرته، وهي في ملابساتها قوة تناضل قوى هائلة، تقف متألبة عليها، ولم يغب عن أنصار الله قدرها، ووزنها في ميادين الحروب والقتال، وهي في آثارها تشمير ناهض بكل ما يملك أصحابها من وسائل الجهاد القتالي، في سبيل إعلاء كلمة الله، على كل عالٍ مستكبر في الأرض، حتى يكون الدين كله لله، وهي في واقعها التاريخي صدق وعدل، ونصر واستشهاد، وتبليغ لرسالة الإسلام»(٢).

٢ - إن حقيقة الإيمان وأثره في تربية النفوس، تظهر آثارها في استعداد هذه القيادات الكبرى، لأن تبذل أرواحها ودماءها في سبيل الله ورسوله، ولا يكون لها الجزاء في هذه الأرض، كسبًا ولا منصبًا، ولا قيادة ولا زعامة، وهم الذين أفنوا عشرات السنين من أعمارهم، يتصارعون على الزعامة والقيادة، إنه أثر الإيمان بالله وبحقيقة هذا الدين عندما يتغلغل في النفوس(٣).

٣ - يظهر التخطيط العظيم في بيعة العقبة، حيث تمت في ظروف غاية في الصعوبة، وكانت تمثل تحديًا خطيرًا وجريئًا لقوى الشرك، في ذلك الوقت، ولذلك كان التخطيط النبوي لنجاحها في غاية الإحكام والدقة، على النحو التالي(٤):

أ - سرية الحركة، والانتقال لجماعة المبايعين، حتى لا ينكشف الأمر، فقد كان وفد المبايعة المسلم، سبعين رجلاً وامرأتين، من بين وفد يثربي، قوامه نحو

---

(١) انظر: مجمع الزوائد (٦/ ٤٢-٤٦) وقال الألباني في تحقيق فقه السيرة للغزالي: وهذا سند صحيح. وصححه ابن حبان، كما في الفتح (٧/ ٤٧٥).

(٢) انظر: محمد رسول الله، محمد الصادق عرجون (٢/ ٤٠٠).

(٣) انظر: التربية القيادية (٢/ ١٠٣).

(٤) انظر: الهجرة النبوية المباركة، د. عبد الرحمٰن البر (ص ٦١).

خمسمائة، مما يجعل حركة هؤلاء السبعين صعبة، وانتقالهم أمرًا غير ميسور، وقد تحدد موعد اللقاء في ثاني أيام التشريق، بعد ثلث الليل، حيث النوم قد ضرب أعين القوم، وحيث قد هدأت الرِّجْل، كما تم تحديد المكان في الشعب الأيمن، بعيدًا عن عين من يستيقظ من النوم لحاجة(١).

ب ـ الخروج المنظم لجماعة المبايعين، إلى موعد ومكان الاجتماع، فخرجوا يتسللون مستخفين، رجلاً رجلاً، أو رجلين رجلين.

جـ ـ ضرب السرية التامة على موعد ومكان الاجتماع، بحيث لم يعلم به سوى العباس بن عبد المطلب، الذي جاء مع النبي ﷺ ليتوثق له(٢)، وعلي بن أبي طالب، الذي كان عينًا للمسلمين على فم الشعب، وأبو بكر الذي كان على فم الطريق، وهو الآخر عَيْنٌ للمسلمين(٣)، أما من عداهم من المسلمين، وغيرهم فلم يكن يعلم عن الأمر شيئًا، وقد أمر جماعة المبايعين أن لا يرفعوا الصوت، وأن لا يطيلوا في الكلام، حذرًا من وجود عين يسمع صوتهم، أو يجس حركتهم(٤).

د ـ متابعة الإخفاء والسرية، حين كشف الشيطان أمر البيعة، فأمرهم النبي ﷺ أن يرجعوا إلى رحالهم، ولا يحدثوا شيئًا، رافضًا الاستعجال في المواجهة المسلحة، التي لم تتهيأ لها الظروف بعد، وعندما جاءت قريش تستبرىء الخبر، موّه المسلمون عليهم بالسكوت، أو المشاركة بالكلام، الذي يشغل عن الموضوع(٥).

هـ ـ اختيار الليلة الأخيرة من ليالي الحج، وهي ليلة الثالث عشر من ذي الحجة، حيث سينفر الحجاج إلى بلادهم، ظهر اليوم التالي، وهو يوم الثالث عشر، ومن ثم تضيق الفرصة أمام قريش، في اعتراضهم، أو تعويقهم، إذا انكشف أمر البيعة، وهو أمر متوقع وهذا ما حدث(٦).

٤ ـ كانت البنود الخمسة للبيعة من الوضوح والقوة بحيث لا تقبل التمييع والتراخي، إنه السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في اليسر والعسر، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والقيام في الله، لا تأخذهم فيه لومة لائم.. ونصر رسول الله وحمايته إذا قدم المدينة(٧).

---

(١) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ٦١).
(٢) المصدر نفسه (ص ٦٢).
(٣) انظر: التربية القيادية (٢/ ١٠٩).
(٤) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ٦٢).
(٥) المصدر نفسه (ص ٦٥).
(٦) المصدر نفسه (ص ٦٧).
(٧) انظر: التحالف السياسي (ص ٨٢).

٥ ـ سرعان ما استجاب قائد الأنصار دون تردد، البراء بن معرور قائلاً: والذي بعثك بالحق، لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحرب، وأهل الحلقة، ورثناها كابرًا عن كابر، فهذا زعيم الوفد يعرض إمكانات قومه على رسول الله ﷺ، فقومه أبناء الحرب والسلاح[١]. ومما يجدر الإشارة إليه في أمر البراء، أنه عندما جاء مع قومه من يثرب قال لهم: إني قد رأيت رأيًا فوالله ما أرى أتوافقوني عليه أم لا؟

فقالوا: وما ذاك؟ قال: قد رأيت أن لا أدع هذه البَنِيَّة ـ يعني الكعبة ـ مني بظهر، وأن أصلي إليها، فقالوا له: والله ما بلغنا أن النبي ﷺ يصلِّي إلا إلى الشام ـ ببيت المقدس ـ وما نريد أن نخالفه، فكانوا إذا حضرت الصلاة صلوا إلى بيت المقدس، وصلَّى هو إلى الكعبة، واستمروا كذلك حتى قدموا مكة، وتعرفوا إلى رسول الله ﷺ، وهو جالس مع عمه العباس بالمسجد الحرام، فسأل النبي ﷺ العباسَ: «هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل»؟ قال: نعم، هذا البراء بن معرور سيد قومه، وهذا كعب بن مالك، فقال النبي ﷺ: «الشاعر؟» قال: نعم، فقصَّ عليه البراء ما صنع في سفره، من صلاته إلى الكعبة. قال: فماذا ترى يا رسول الله؟ قال: «قد كنت على قبلة لو صبرت عليها»[٢] قال كعب: فرجع البراء إلى قبلة رسول الله ﷺ، وصلَّى معنا إلى الشام، فلما حضرته الوفاة أمر أهله أن يوجهوه قبل الكعبة، ومات في صفر قبل قدومه ﷺ بشهر، وأوصى بثلث ماله إلى النبي، فقبله وردَه على ولده، وهو أول من أوصى بثلث ماله[٣] ويستوقفنا في هذا الخبر:

أ ـ الانضباط والالتزام من المسلمين بسلوك رسولهم وأوامره، وإن أي اقتراح مهما كان مصدره، يتعارض مع ذلك، يعتبر مرفوضًا، وهذه من أولويات الفقه في دين الله، تأخذ حيزها من حياتهم، وهم بعد ما زالوا في بداية الطريق.

ب ـ إن السيادة لم تعد لأحد غير رسول الله ﷺ، وإن توقير أي إنسان واحترامه، إنما هو انعكاس لسلوكه والتزامه بأوامر الرسول ﷺ، وهكذا بدأت تنزاح تقاليد جاهلية، لتحل محلها قيم إيمانية، فهي المقاييس الحقة التي بها يمكن الحكم على الناس تصنيفًا وترتيبًا[٤].

٦ ـ كان أبو الهيثم بن التَّيِّهان صريحًا عندما قال للرسول ﷺ: إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها ـ يعني اليهود ـ فهل عسيتم إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم»، وهذا الاعتراض يدلنا على الحرية

---

(١) انظر: التحالف السياسي (ص ٨٢).
(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٤٤٤).
(٣) المصدر نفسه (١/ ٤٤٥).
(٤) انظر: معين السيرة النبوية للشامي (ص ١٣٥).

العالية، التي رفع الله تعالى المسلمين إليها بالإسلام، حيث عبر عما في نفسه بكامل حريته[١]، وكان جواب سيد الخلق ﷺ عظيمًا، فقد جعل نفسه جزءًا من الأنصار، والأنصار جزءًا منه[٢].

٧ - يؤخذ من اختيار النقباء دروس مهمة منها:

أ - أن الرسول ﷺ لم يعين النقباء، إنما ترك طريق اختيارهم إلى الذين بايعوا، فإنهم سيكونون عليهم مسؤولين وكفلاء، والأولى أن يختار الإنسان من يكفله ويقوم بأمره، وهذا أمر شورى، وأراد الرسول ﷺ أن يمارسوا الشورى عمليًّا من خلال اختيار نقبائهم.

ب - التمثيل النسبي في الاختيار، من المعلوم أن الذين حضروا البيعة من الخزرج أكثر من الذين حضروا البيعة من الأوس، ثلاثة أضعاف من الأوس، بل يزيدون، ولذلك كان النقباء ثلاثة من الأوس، وتسعة من الخزرج[٣].

جـ - جعل رسول الله ﷺ النقباء مشرفين على سير الدعوة في يثرب، حيث استقام عود الإسلام هناك، وكثر معتنقوه، وأراد الرسول ﷺ أن يشعرهم أنهم لم يعودوا غرباء، لكي يبعث إليهم أحدًا من غيرهم، وأنهم غدوا أهل الإسلام وحماته وأنصاره[٤].

٨ - تأكد زعماء مكة من حقيقة الصفقة، التي تمت بين رسول الله ﷺ والأنصار، فخرجوا في طلب القوم، فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر، والمنذر بن عمرو، وكلاهما كان نقيبًا، فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد فأخذوه، فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة، يضربونه ويجذبونه بجمته ـ وكان ذا شعر كثير[٥] ـ واستطاع أن يتخلص من قريش بواسطة الحارث بن حرب بن أمية، وجبير بن مطعم، لأنه كان يجير تجارتهم ببلده؛ فقد أنقذته أعراف الجاهلية، ولم تنقذه سيوف المسلمين، ولم يجد في نفسه غضاضة من ذلك، فهو يعرف أن المسلمين مطاردون في مكة، وعاجزون عن حماية أنفسهم[٦].

٩ - قول العباس بن عبادة بن نضلة: والله الذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلنَّ على أهل منى

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٣/ ٩٧).
(٢) انظر: التربية القيادية (٢/ ٦٧).
(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ٢٠٩).
(٤) انظر: دراسات في السيرة النبوية، د. عماد الدين خليل (ص ١٣٢).
(٥) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٣/ ١٠٧).
(٦) انظر: التربية القيادية (٢/ ١١٦).

غدًا بأسيافنا، وقول رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم»، درس تربوي بليغ، وهو أن الدفاع عن الإسلام، والتعامل مع أعداء هذا الدين ليس متروكًا لاجتهاد أتباعه، وإنما هو خضوع لأوامر الله تعالى، وتشريعاته الحكيمة، فإذا شرع الجهاد، فإن أمر الإقدام أو الإحجام، متروك لنظر المجتهدين بعد التشاور، ودراسة الأمر من جميع جوانبه[١]، وكلما كانت عبقرية التخطيط السياسي أقوى أدّت إلى نجاح المهمات أكثر، وإخفاء المخططات وتنفيذها عن العدو، هو الكفيل بإذن الله بنجاحها «ولكن ارجعوا إلى رحالكم»[٢].

١٠ - كانت البيعة بالنسبة للرجال ببسط رسول الله ﷺ يده، وقالوا له: ابسط يدك، فبسط يده، فبايعوه، وأما بيعة المرأتين اللتين شهدتا الوقعة فكانت قولاً، ما صافح رسول الله ﷺ امرأة أجنبية قط، فلم يتخلف أحد في بيعته ﷺ حتى المرأتان بايعتا بيعة الحرب، وصدقتا عهدهما، فأما نُسيبة بنت كعب (أم عمارة)، فقد سقطت في أُحد، وقد أصابها اثنا عشر جرحًا، وقد خرجت يوم أحد مع زوجها، زيد بن عاصم بن كعب، ومعها سقاء تسقي به المسلمين، فلما انهزم المسلمون، انحازت إلى رسول الله ﷺ، فكانت تباشر القتال، وتذب عنه بالسيف، وقد أصيبت بجراح عميقة وشهدت بيعة الرضوان[٣]، وقطع مسيلمة الكذاب ابنها، إربًا إربًا، فما وهنت، وما استكانت[٤]، وشهدت معركة اليمامة، في حروب الردة، مع خالد بن الوليد، فقاتلت حتى قطعت يدها، وجُرحت اثْنَيْ عشر جُرحًا[٥]. وأما الثانية فهي أسماء ابنة عمرو من بني سلمة، قيل هي والدة معاذ بن جبل، وقيل ابنة عمة معاذ بن جبل رضي الله عنهم جميعًا[٦].

١١ - عندما نراجع تراجم أصحاب العقبة الثانية من الأنصار، في كتب السير والتراجم، نجد أن هؤلاء الثلاثة والسبعين قد استشهد قرابة ثلثهم على عهد النبي ﷺ وبعده، ونلاحظ أنه قد حضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ قرابة النصف، فثلاثة وثلاثون منهم كانوا بجوار الرسول ﷺ في جميع غزواته، وأما الذين حضروا غزوة بدر فكانوا قرابة السبعين.

لقد صدق هؤلاء الأنصار عهدهم مع الله ورسوله، فمنهم من قضى نحبه، ولقي ربه شهيدًا، ومنهم من بقي حتى ساهم في قيادة الدولة المسلمة، وشارك في أحداثها الجسام، بعد

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٣/ ١٠٤).

(٢) انظر: التحالف السياسي في الإسلام (ص ٩٦).

(٣) انظر: المرأة في العهد النبوي، د. عصمة الدين كركر (ص ١٠٨).

(٤) انظر: التحالف السياسي (ص ٨٧).

(٥) ابن هشام (٢/ ٨٠)، أسد الغابة (٥/ ٣٩٥)، البداية والنهاية (٣/ ١٥٨ـ ١٦٦)، الإصابة (٨/ ٨ـ رقم ٤٨، ٤٩) نقلاً عن المرأة في العهد النبوي (ص ١٠٨).

(٦) انظر: المرأة في العهد النبوي (ص ١٠٨).

وفاة رسول الله ﷺ، وبمثل هذه النماذج قامت دولة الإسلام، النماذج التي تعطي ولا تأخذ، والتي تقدم كل شيء، ولا تطلب شيئًا إلا الجنة، ويتصاغر التاريخ في جميع عصوره ودهوره، أن يحوي في صفحاته أمثال هؤلاء الرجال(١).

المبحث الرابع

الهجرة إلى المدينة

أولاً: التمهيد والإعداد لها:

إن الهجرة إلى المدينة سبقها تمهيد وإعداد، وتخطيط من النبي ﷺ، وكان ذلك بتقدير الله تعالى وتدبيره، وكان هذا الإعداد في اتجاهين، إعداد في شخصية المهاجرين، وإعداد في المكان المهاجر إليه.

١ ـ إعداد المهاجرين:

لم تكن الهجرة نزهة أو رحلة، يروح فيها الإنسان عن نفسه، ولكنها مغادرة الأرض والأهل، ووشائج القربى، وصلات الصداقة والمودة، وأسباب الرزق، والتخلي عن كل ذلك، من أجل العقيدة، ولهذا احتاجت إلى جهد كبير، حتى وصل المهاجرون إلى قناعة كاملة، بهذه الهجرة، ومن تلك الوسائل:

ـ التربية الإيمانية العميقة التي تحدثنا عنها في الصفحات الماضية.

ـ الاضطهاد الذي أصاب المؤمنين، حتى وصلوا إلى قناعة كاملة بعدم إمكانية المعايشة مع الكفر.

ـ تناول القرآن المكي التنويه بالهجرة، ولفت النظر إلى أن أرض الله واسعة، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر: الآية ١٠].

ثم تلا ذلك نزول سورة الكهف، وتحدثت عن الفتية الذين آمنوا بربهم، وعن هجرتهم من بلدهم إلى الكهف، وهكذا استقرت صورة من صور الإيمان في نفوس الصحابة، وهي ترك أهلها ووطنها من أجل عقيدتها.

ثم تلا ذلك آيات صريحة تتحدث عن الهجرة في سورة النحل، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [النحل: ٤١ ـ ٤٢].

---

(١) انظر: التربية القيادية (٢/ ١٤٠).

وفي أواخر السورة، يؤكد المعنى مرة أخرى بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَٰهَدُوا وَصَبَرُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: الآية ١١٠].

وكانت الهجرة إلى الحبشة تدريبًا عمليًا على ترك الأهل والوطن[١].

٢ ـ الإعداد في يثرب:

نلاحظ أن الرسول ﷺ لم يسارع بالانتقال إلى الأنصار، من الأيام الأولى، وإنما أخر ذلك لأكثر من عامين، حتى تأكد من وجود القاعدة الواسعة نسبيًا، كما كان في الوقت نفسه يتم إعدادها في أجواء القرآن الكريم، وخاصة بعد انتقال مصعب إلى المدينة.

وقد تأكد أن الاستعداد لدى الأنصار قد بلغ كماله، وذلك بطلبهم هجرة الرسول الكريم إليهم، كما كانت المناقشات التي جرت في بيعة العقبة الثانية، تؤكد الحرص الشديد من الأنصار على تأكيد البيعة، والاستيثاق للنبي ﷺ بأقوى المواثيق على أنفسهم، وكان في رغبتهم أن يميلوا على أهل منًى، ممن آذى رسول الله ﷺ، بأسيافهم لو أذن الرسول الكريم بذلك، ولكنه قال لهم: «لم أؤمر بذلك».

وهكذا تم الإعداد لأهل يثرب، ليكونوا قادرين على استقبال المهاجرين وما يترتب على ذلك من تبعات[٢].

ثانيًا: طلائع المهاجرين:

لما بايعتْ طلائعُ الخير، ومواكب النور من أهل يثرب، النبيَّ ﷺ على الإسلام، والدفاع عنه، ثارت ثائرة المشركين، فازدادوا إيذاءً للمسلمين، فأذن النبي ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى المدينة، وكان المقصود من الهجرة إلى المدينة إقامة الدولة الإسلامية، التي تحمل الدعوة، وتجاهد في سبيلها، حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله[٣]، وكان التوجه إلى المدينة من الله تعالى، عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما صدر السبعون من عند رسول الله ﷺ طابت نفسه، وقد جعل الله له منعة، وقومًا أهل حرب، وعدة، ونجدة، وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين، لما يعلمون من الخروج، فضيقوا على أصحابه وتعبثوا[٤] بهم، ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى، فشكا ذلك أصحابُ رسول الله ﷺ واستأذنوه في الهجرة، فقال: «قد أُريت دار هجرتكم، أريت سبخة ذات نخل بين لابتين، وهما الحرتان،

(١) انظر: السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة، صالح الشامي (ص ١١٨).

(٢) انظر: المصدر نفسه (ص ١٢٠، ١٢١).

(٣) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ٣٣، ٣٤).

(٤) انظر: عَبِث: عبثًا: لعب فهو عابث لاعب بما لا يعنيه. انظر: لسان العرب (٢/١٦٦).

ولو كانت السراة أرض نخل وسباخ لقلت هي هي» ثم مكث أيامًا، ثم خرج إلى أصحابه مسرورًا فقال: «قد أخبرت بدار هجرتكم، وهي يثرب، فمن أراد الخروج فيخرج إليها» فجعل القوم يتجهون، ويتوافقون ويتواسون ويخرجون، ويخفون ذلك، فكان أوَّل من قدم المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ أبو سلمة بن عبد الأسد، ثم قدم بعده عامر بن ربيعة، معه امرأته ليلى بنت أبي حَثْمة، فهي أول ظعينة قدمت المدينة، ثم قدم أصحاب رسول الله ﷺ أرسالاً، فنزلوا على الأنصار، في دورهم، فآووهم، ونصروهم، وآسوهم، وكان سالم مولى أبي حذيفة يؤم المهاجرين بقباء، قبل أن يقدم النبي ﷺ، فلما خرج المسلمون في هجرتهم إلى المدينة، كَلِبَت[1] قريش عليهم، وحربوا واغتاظوا على من خرج من فتيانهم، وكان نفر من الأنصار بايعوا رسول الله ﷺ في البيعة الآخرة، ثم رجعوا إلى المدينة، فلما قدم أول من هاجر إلى قباء، خرجوا إلى رسول الله ﷺ بمكة، حتى قدموا مع أصحابه، في الهجرة، فهم مهاجرون أنصاريون، وهم ذكوان بن عبد قيس، وعقبة بن وهب بن كلدة، والعباس بن عبادة بن نضلة، وزياد بن لبيد، وخرج المسلمون جميعًا إلى المدينة، فلم يبق بمكة فيهم إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر، وعلي، أو مفتون أو مريض أو ضعيف عن الخروج[2].

ثالثًا: من أساليب قريش في محاربة المهاجرين، ومن مشاهد العظمة في الهجرة:

عملت قيادة قريش مافي وسعها للحيلولة دون خروج من بقي من المسلمين إلى المدينة، واتبعت في ذلك عدة أساليب منها:

١ ـ أسلوب التفريق بين الرجل وزوجه وولده:

ونترك أم المؤمنين أم سلمة، هند بنت أبي أمية، تحدثنا عن روائع الإيمان وقوة اليقين في هجرتها، وهجرة زوجها أبي سلمة. قالت ﵂: «لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة، رحل لي بعيره، ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج بي يقود بي بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه، علام نتركك تسير بها إلى البلاد؟

قالت: فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه.

قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد، رهط أبي سلمة.

فقالوا: لا والله لا نترك ابننا عندها، إذ نزعتموها من صاحبنا.

قالت: فتجاذبوا بُنَيَّ سلمةَ بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة.

---

(١) كَلِبَت قريش عليهم: أي غضبت عليهم.

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (١/ ٣٢٥).

قالت: ففُرق بيني، وبين زوجي، وبين ابني.

قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي حتى أمسي، سنة أو قريبًا منها، حتى مرّ بي رجل من بني عمي - أحد بني المغيرة - فرأى مابي، فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة، فرَّقتم بينها وبين زوجها، وبين ولدها؟

قال: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت.

قالت: وردّ بنو عبد الأسد إلي عند ذلك ابني.

قالت: فارتحلتُ ببعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، وما معي أحد من خلق الله.

قالت: فقلت: أتبلغ بمن لقيت، حتى أقدَم على زوجي، حتى إِذا كنت بالتنعيم لقيتُ عثمانَ بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار.

فقال لي: إِلى أين يا بنت أبي أمية؟

قالت: فقلت: أريد زوجي بالمدينة.

قال: أو ما معك أحد؟

قالت: فقلت: لا والله إِلا الله، وبُنَيَّ هذا.

قال: والله ما لكِ مِن مَترك.

فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يَهوِي بي، فوالله ماصحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إِذا بلغ المنزل، أناخ بي، ثم استأخر عني حتى إِذا نزلت، استأخر ببعيري فحط عنه، ثم قيَّده في الشجرة، ثم تنحى عني إِلى الشجرة فاضطجع تحتها، فإِذا دنا الرواح قام إِلى بعيري فقدمه فرحله، ثم استأخر عني، فقال: اركبي، فإِذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه، فقاده حتى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي، حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إِلى قرية بني عمرو بن عوف، بقباء، قال: زوجك في هذه القرية، وكان أبو سلمة بها نازلاً، فادخليها على بركة الله. ثم انصرف راجعًا إِلى مكة.

قال فكانت تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإِسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحبًا قط أكرم من عثمان بن طلحة»[1].

فهذا مثل على الطرق القاسية، التي سلكتها قريش، لتحول بين أبي سلمة والهجرة،

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٠٢، ٢٠٣).

فرجل يفرق بيه وبين زوجه عنوة، وبينه وبين فلذة كبده، على مرأى منه، كل ذلك من أجل أن يثنوه عن الهجرة، ولكن متى تمكن الإِيمان من القلب، استحال أن يقدم صاحبه على الإِسلام والإِيمان شيئًا، حتى لو كان ذلك الشيء فلذة كبده، أو شريكة حياته، لذا انطلق أبو سلمة رضي الله عنه إلى المدينة، لا يلوي على أحد، وفشل معه هذا الأسلوب، وللدعاة إلى الله فيه أسوة[١].

وهكذا أثَرُ الإِيمان حين يخالط بشاشة القلوب، فهذه أسرة فرق شملها، وامرأة تبكي شدة مصابها، وطفل خلعت يده، وحُرِم من أبويه، وزوج وأب يسجل أروع صور التضحية والتجرد، ليكون أول مهاجر يصل أرض الهجرة، محتسبين في سبيل الله ما يلقون، مصممين على المضي في طريق الإِيمان، والانحياز إلى كتيبة الهدى، فماذا عسى أن ينال الكفر وصناديده من أمثال هؤلاء؟

وأما صنيع عثمان بن طلحة رضي الله عنه ، فقد كان يومئذٍ كافرًا (وأسلم قبل الفتح)، ومع ذلك تشهد له أم سلمة رضي الله عنها بكرم الصحبة، وذلك شاهد صدق على نفاسة هذا المعدن، وكمال مروءته، وحمايته للضعيف[٢]، فقد أبت عليه مروءته وخلقه العربي الأصيل، أن يَدَع امرأة شريفة، تسير وحدها في هذه الصحراء الموحشة، وإن كانت على غير دينه، وهو يعلم أنها بهجرتها تراغمه وأمثاله من كفار قريش!

فأين من هذه الأخلاق - يا قومي المسلمين - أخلاق الحضارة في القرن العشرين، من سطو على الحريات، واغتصاب للأعراض، بل وعلى قارعة الطريق، وما تطالعنا به الصحافة كل يوم من أحداث يندى لها جبين الإِنسانية، من تفنن في وسائل الاغتصاب، وانتهاك الأعراض، والسطو على الأموال.

إن هذه القصة - ولها مُثُلٌ ونظائر - لتشهد أن ما كان للعرب من رصيد من الفضائل، كان أكثر من مثالبهم ورذائلهم، فمن ثم اختار الله منهم خاتم أنبيائه ورسله، وكانوا أهلاً لحمل الرسالة، وتبليغها للناس كافة[٣].

وتظهر عناية الله تعالى بأوليائه، وتسخيره لهم، فهو جل وعلا الذي سخر قلب عثمان بن طلحة للعناية بأم سلمة، ولذلك بذل الجهد والوقت من أجلها[٤]، كما تظهر سلامة فطرة عثمان بن طلحة، التي قادته أخيرًا إلى الإِسلام، بعد صلح الحديبية، ولعل إضاءة قلبه بدأت

(١) انظر: في السيرة النبوية، د. إبراهيم علي محمد (ص ١٣٠، ١٣١)، تقسيم الأساليب أُخذ من هذا الكتاب، ومشاهد العظمة من الهجرة النبوية المباركة.

(٢) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ١٢٤).

(٣) انظر: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد أبو شهبة (١/ ٤٦١).

(٤) انظر: التاريخ الإِسلامي للحميدي (٣/ ١٢٨).

منذ تلك الرحلة، في مصاحبته لأم سلمة رضي الله عنها[١].

٢ ـ أسلوب الاختطاف:

لم تكتف قيادة قريش بالمسلمين داخل مكة، لمنعهم من الهجرة، بل تعدت ذلك إلى محاولة إرجاع من دخل المدينة مهاجرًا، فقامت بتنفيذ عملية اختطاف أحد المهاجرين، ولقد نجحت هذه المحاولة، وتم اختطاف أحد المهاجرين من المدينة، وأعيد إلى مكة[٢]، وهذه الصورة التاريخية للاختطاف يحدثنا بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال: «اتعدت لما أردنا الهجرة إلى المدينة، أنا وعيَّاش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص بن وائل السهمي، التَّناضب[٣]، من أضَاة[٤] بني غفار، فوق سَرِف[٥]، وقلنا: أينا لم يُصْبِحْ عندها فقد حُبس، فليمض صاحباه.

قال: فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة عند التَّناضب، وحُبس عنا هشام، وفُتن فافتتن[٦].

فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء، وخرج أبو جهل بن هشام، والحارث بن هشام إلى عيَّاش بن أبي ربيعة، وكان ابن عمهما، وأخاهما لأمهما، حتى قدما علينا المدينة، ورسول الله ﷺ بمكة، فكلَّماه، وقالا: إن أمك قد نذرت أن لا تمسَّ رأسها حتى تراك، ولا تستظلَّ من شمس حتى تراك، فرقَّ لها، فقلت له: عيَّاش، إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك، فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت.

قال: أبرُّ قسم أمي، ولي هناك مال فآخذه.

قال: فقلت: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما. قال: فأبى عليَّ إلا أن يخرج معهما، فلما أبى إلا ذلك، قال: قلت له: أما إذ قد فعلت مافعلت، فخذ ناقتي هذه، فإنها ناقة نجيبة ذلول[٧]، فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها، فخرج عليها معهما، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال له أبو جهل:

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٠٤).
(٢) انظر: في السيرة النبوية (ص ١٣٢).
(٣) التناضب: جمع تنضيب وهو شجر.
(٤) الأضاة: على عشرة أميال من مكة.
(٥) سرف: وادٍ متوسط الطول من أودية مكة.
(٦) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ١٢٩).
(٧) الذلول: أذلها العمل، فصارت سهلة الركوب والانقياد.

يا أخي، والله لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تُعْقِبني[١] على ناقتك هذه؟ قال: بلى. قال: فأناخ، وأناخ، ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عدوا عليه، فأوثقاه، ثم دخلا به مكة، وفتناه فافتتن[٢].

قال: فكنا نقول: ما الله بقابل ممن افتتن صرفًا، ولا عدلاً ولا توبة، قوم عرفوا الله، ثم رجعوا إلى الكفر، لبلاء أصابهم، قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل الله تعالى فيهم، وفي قولنا، وقولهم لأنفسهم: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزُّمَر: الآيات ٥٣ ـ ٥٥].

قال عمر بن الخطاب: فكتبتها بيدي في صحيفة، وبعثت بها إلى هشام بن العاص، قال: فقال هشام: فلمّا أتتني، جعلت أقرؤها بذي طوى[٣] أُصَعِّد بها فيه، وأصوِّبُ، ولا أفهمها، حتى قلت: اللهمَّ فهِّمنيها، قال: فألقى الله تعالى في قلبي أنها إنما أنزلت فينا، وفيما كنا نقول في أنفسنا، ويقال فينا. قال: فرجعت إلى بعيري فجلست عليه، فلحقت برسول الله ﷺ، وهو بالمدينة[٤].

هذه الحادثة تظهر لنا كيف أعد عمر رضي الله عنه خطة الهجرة له، ولصاحبيه عياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص بن وائل السهمي، وكان ثلاثتهم كل واحد من قبيلة، وكان مكان اللقاء الذي اتعدوا فيه بعيدًا عن مكة، وخارج الحرم، على طريق المدينة، ولقد تحدد الزمان والمكان بالضبط، بحيث إنه إذا تخلف أحدهم فليمض صاحباه، ولا ينتظرانه، لأنه قد حبس، وكما توقعوا، فقد حبس هشام بن العاص رضي الله عنه، بينما مضى عمر وعيّاش بهجرتهما، ونجحت الخطة كاملة ووصلا المدينة سالمين[٥].

إلا أن قريشًا صممت على متابعة المهاجرين، ولذلك أعدت خطة محكمة قام بتنفيذها أبو جهل، والحارث وهما أَخَوَا عياش من أمه، الأمر الذي جعل عياشًا يطمئن لهما، وبخاصة إذا كان الأمر يتعلق بأمه، فاختلق أبو جهل هذه الحيلة، لعلمه بمدى شفقة ورحمة عياش بأمه، والذي ظهر جليًّا عندما أظهر موافقته على العدوة معهما. كما تظهر الحادثة الحس الأمني الرفيع، الذي كان يتمتع به عمر رضي الله عنه، حيث صدقت فراسته في أمر الاختطاف[٦].

---

(١) تُعقبني: تجعلني أعقبك عليها لركوبها.

(٢) انظر السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٠٥).

(٣) ذو طوى: وادٍ من أودية مكة.

(٤) انظر: المجمع للهيثمي (٦/ ٦١) وقال: رواه البزار ورجاله ثقات، الهجرة النبوية المباركة (ص ١٣١).

(٥) انظر: التربية القيادية (٢/ ١٥٩).

(٦) انظر: في السيرة النبوية (ص ١٣٤).

كما يظهر المستوى العظيم من الأخوة التي بناها الإسلام في هذه النفوس، فعمر يضحي بنصف ماله، حرصًا على سلامة أخيه، وخوفًا عليه من أن يفتنه المشركون بعد عودته، ولكن غلبت عياشاً عاطفته نحو أمه، وبره بها، ولذلك قرر أن يمضي لمكة فيبر قسم أمه، ويأتي بماله هناك، وتأبى عليه عفته أن يأخذ نصف مال أخيه عمر ﵁، وماله قائم في مكة لم يمس، غير أن أفق عمر ﵁ كان أبعد، فكأنه يرى رأى العين المصير المشؤوم، الذي سينزل بعياش لو عاد إلى مكة، وحين عجز عن إقناعه أعطاه ناقته الذلول النجيبة، وحدث لعياش ما توقعه عمر من غدر المشركين به[1].

وساد في الصف المسلم أن الله تعالى لا يقبل صرفًا ولا عدلاً من هؤلاء الذين فتنوا فافتتنوا، وتعايشوا مع المجتمع الجاهلي، فنزل قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر: الآية ٥٣] وما إن نزلت هذه الآيات حتى سارع الفاروق ﵁، فبعث بهذه الآية إلى أخَوَيه الحميمين عياش وهشام ليجدوا محاولاتهما في مغادرة معسكر الكفرة؛ أي سمو عظيم عند ابن الخطاب ﵁؟ لقد حاول مع أخيه عياش، أعطاه نصف ماله على ألا يغادر المدينة، وأعطاه ناقته ليفر عليها، ومع هذا كله، فلم يشمت بأخيه، ولم يَتَشَفَّ منه لأنه خالفه، ورفض نصيحته، وألقى برأيه خلف ظهره، إنما كان شعور الحب والوفاء لأخيه، هو الذي يسيطر عليه، فما أن نزلت الآية حتى سارع ببعثها إلى أخويه في مكة، ولكل المستضعفين هناك ليقوموا بمحاولات جديدة للانضمام إلى المعسكر الإسلامي[2].

٣ ـ أسلوب الحبس:

لجأت قريش إلى الحبس، كأسلوب لمنع الهجرة، فكل من تقبض عليه، وهو يحاول الهجرة، كانت تقوم بحبسه داخل أحد البيوت، مع وضع يديه ورجليه في القيد، وتفرض عليه رقابة وحراسة مشددة، حتى لا يتمكن من الهرب، وأحيانًا يكون الحبس داخل حائط بدون سقف، كما فعل مع عياش وهشام بن العاص ﵄، حيث كان محبوسين في بيت لا سقف له[3]. وذلك زيادة في التعذيب، إذ يضاف إلى وحشة الحبس حرارة الشمس وسط بيئة جبلية شديدة الحرارة مثل مكة.

فقيادة قريش تريد بذلك تحقيق هدفين: أولهما منع المحبوسين من الهجرة، والآخر أن يكون هذا الحبس درسًا وعظة، لكل من يحاول الهجرة، من أولئك الذين يفكرون فيها ممن بقي من المسلمين بمكة، ولكن لم يمنع هذا الأسلوب المسلمين من الخروج إلى المدينة المنورة، فقد كان بعض المسلمين محبوسين في مكة مثل عياش، وهشام ﵄، ولكنهم تمكنوا من الخروج واستقروا بالمدينة[4].

---

(١) انظر: التربية القيادية (٢/ ١٦٠).
(٢) انظر: التربية القيادية (٢/ ١٦٠).
(٣) انظر: في السيرة النبوية (ص ١٣٢).
(٤) المصدر نفسه (ص ١٣٢).

كان النبي ﷺ بعد هجرته يقنت ويدعو للمستضعفين في مكة عامة، ولبعضم بأسمائهم خاصة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الأخيرة يقول: «اللهم أنج عيّاش بن أبي ربيعة، اللهم أنج سَلَمَة بن هشام، اللهم أنج الوليد بن الوليد، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مُضَر، اللهم اجعلها سنين كَسِنِي يوسف»(١).

ولم يترك المسلمون أمر اختطاف عياش، فقد ندب الرسول ﷺ أحد أصحابه وفعلاً استعد للمهمة، ورتب لها مايحقق نجاحها، وجاء إلى مكة، واستطاع بكل اقتدار وذكاء أن يصل إلى البيت الذي حُبسا فيه، وأطلق سراحهما، ورجع بهما إلى المدينة المنورة(٢).

٤ ـ أسلوب التجريد من المال:

كان صهيب بن سنان النَّمري من النَّمِرِ بن قاسط، أغارت عليهم الروم، فسُبي وهو صغير، وأخذ لسان أولئك الذين سَبَوه، ثم تقلَّب في الرِّق، حتى ابتاعه عبد الله بن جُدعان ثم أعتقه، ودخل الإسلام هو وعمار بن ياسر رضي الله عنهما في يوم واحد(٣).

وكانت هجرة صهيب رضي الله عنه عملاً تتجلى فيه روعة الإيمان، وعظمة التجرد لله، حيث ضحّى بكل ما يملك في سبيل الله ورسوله، واللحوق بكتيبة التوحيد والإيمان(٤)، فعن أبي عثمان النَّهْدِي رحمه الله قال: بلغني أن صهيبًا حين أراد الهجرة إلى المدينة، قال له أهل مكة أتيتنا هاهنا صُعْلُوكًا(٥)، حقيرًا، فكثر مالك عندنا، وبلغت ما بلغت، ثم تنطلق بنفسك ومالك؟ والله لا يكون ذلك. فقال: أرأيتم إن تركت مالي تخلون أنتم سبيلي؟ قالوا: نعم فجعل لهم ماله أجمع، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «ربح صهيب، ربح صهيب»(٦)، وعن عكرمة رحمه الله قال: لما خرج صهيب مهاجرًا، تبعه أهل مكة، فنثل(٧) كنانته، فأخرج منها أربعين سهمًا، فقال: لا تصلون إليَّ حتى أضع في كل رجل منكم سهمًا، ثم أصيرُ بعد إلى السيف فتعلمون أني رجل، وقد خلَّفت بمكة قينتين، فهما لكم(٨)، وقال عكرمة: ونزلت على النبي ﷺ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٠٧] . فلما رآه النبي ﷺ قال: «أبا يحيى، ربح البيع» قال: وتلا عليه(٩) الآية.

---

(١) البخاري، كتاب الاستسقاء (٢/ ٣٣ رقم ١٠٠٦).
(٢) انظر: في السيرة النبوية (ص ١٣٥).
(٣) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ١١٩).
(٤) المصدر نفسه (ص ١٢٠).
(٥) الصعلوك: الفقير.
(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤٧٧).
(٧) نثل: استخرج مافيها من النبل والسهام.
(٨) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٩٨) وقال: صحيح على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي.
(٩) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٩٨) وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، وسكت عنه الذهبي.

لكأني[١] بصهيب ﷺ يقدم الدليل القاطع على فساد عقل أولئك الماديين، الذين يَزِنُونَ حركات التاريخ وأحداثه كلها، بميزان المادة، فأين هي المادة التي سوف يكسبها صهيب في هجرته، والتي ضحى من أجلها بكل ما يملك؟

هل تراه ينتظر أن يعطيه محمد ﷺ منصبًا يعوّضه عما فقده؟ أم هل ترى محمدًا ﷺ يُمنِّيه بالعيش الفاخر في جوار أهل يثرب؟

إن صهيبًا ما فعل ذلك، وما انحاز إلى الفئة المؤمنة إلا ابتغاء مرضاة الله، بالغًا ما بلغ الثمن، ليضرب لشباب الإسلام مثلاً في التضحية عزيزة المنال، عساهم يسيرون على الدرب، ويقتفون الأثر[٢].

إن هذه المواقف الرائعة لم تكن هي كلَّ مواقف العظمة والشموخ في الهجرة المباركة، بل امتلأ هذا الحدث العظيم بكثير من مشاهد العظمة، والتجرد والتضحية، التي تعطي الأمة دروسًا بليغة، في بناء المجد، وتحصيل العزة[٣].

رابعًا: البيوتات الحاضنة وأثرها في النفوس:

لقد كان من نتائج إيمان الأنصار ومبايعتهم وتعهدهم بالنصرة، أن دعا رسول الله ﷺ المسلمين إلى الهجرة إلى المدينة، كما كان من نتائج ذلك أن ظهرت ظاهرة عظيمة من التكافل بين المسلمين، ففتحت بيوت الأنصار أبوابها وقلوب أصحابها لوفود المهاجرين، واستعدت لاحتضانهم ـ رجالاً ونساءً ـ إذ أصبح المسكن الواحد يضمّ المهاجري والأنصاري، والمهاجرة والأنصارية، يتقاسمون المال والمكان، والطعام والمسؤولية الإسلامية، فمن هذه البيوتات الحاضنة:

١ ـ دار مبشّر بن عبد المنذر بن زَنْبَر بقباء: ونزل بها مجموعة من المهاجرين نساءً ورجالاً، وقد ضمت هذه الدور عمر بن الخطاب، ومن لحق به من أهله، وقومه وابنته حفصة وزوجها، وعيّاش بن أبي ربيعة.

٢ ـ دار خُبيب بن إساف أخي بني الحارث بن الخزرج بالسُّنح[٤] نزل بها طلحة بن عبيد الله بن عثمان، وأمه، وصهيب بن سنان.

٣ ـ دار أسعد بن زرارة من بني النّجار، قيل: نزل بها حمزة بن عبد المطلب.

---

(١) انظر: الهجرة النبوية المباركة، د. عبد الرحمٰن البر (ص ١٢١).

(٢) المصدر نفسه (ص ١٢١).

(٣) المصدر نفسه (ص ١١٩).

(٤) انظر: المرأة في العهد النبوي (ص ١١٦).

٤ - دار سعد بن خيثمة أخي بني النجار، وكان يسمّى بيت العزاب ونزل بها الأعزاب من المهاجرين.

٥ - دار عبد الله بن سلمة أخي بَلْعجلان بقباء: نزل بها عبيدة بن الحارث وأمّه سخيلة، ومِسْطح بن أثاثة بن عبَّاد بن المطلب، والطفيل بن الحارث، وطُليب بن عُمير، والحُصين بن الحارث. نزلوا جميعًا على عبد الله بن سلمة بقباء.

٦ - دار بني جَحْجَبَى، والمُحتَضِن هو منذر بن محمد بن عقبة، نزل عنده الزبير بن العوام، وزوجه أسماء بنت أبي بكر، وأبو سَبْرة بن أبي رُهْم وزوجته أم كلثوم بنت سهيل(١).

٧ - دار بني عبد الأشهل، والمحتضن هو سعد بن معاذ بن النعمان من بني عبد الأشهل، نزل بها مصعب بن عمير، وزوجته حَمنة بنت جحش.

٨ - دار بني النجار، والمحتضن هو أوس بن ثابت بن المنذر، نزل بها عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ(٢).

فهذه المقاسمة، وهذا التكافل الاجتماعي، كان من أهم العناصر التي مهدت لإِقامة رسول الله ﷺ، وصحابته المهاجرين معه، وبعده، إِقامة طيبة، تنبض بالإِيثار على النفس، وبِوُدّ الأخوة الصادقة المؤمنة(٣).

بهذه الروح العالية، والإِيمان الوثيق، والصدق في المعاملة، تمت المؤاخاة، وتم الوفاق بين المهاجرين والأنصار. وقد يحدث تساؤلٌ فيقال: لماذا لم نسمع ولم تسجل المصادر، ولم تكتب المراجع أن خلافات وقعت في هذه البيوت؟

وأين النساء وما اشتهرن به من مشاكسات؟.

إِنه الدين الحق الذي جعل تقوى الله أساسًا لتصرف كل نفس، والأخلاق السامية التي فرضت الأخوة بين المسلمين، ونصرة الدعوة، إِنها المبايعة وأثرها في النفوس، إِنه الصدق، والعمل من أجل الجماعة، خوفًا من العقاب، ورهبة من اليوم الآخر، ورغبة في الثواب، وطمعًا في الجنة، إِنه دفء حضانة الإِيمان، واستقامة النفس والسلوك، وصدق الطوية.. فكل من أسلم، وكل من بايع، وكل من أسلمت وبايعت، يعملون جميعهم بما يؤمرون به، ويخلصون فيما يقولون، يخافون الله في السر والعلن، آمنت نفوسهم فاحتضنت الأنصاريةُ المهاجرة، فالكل يعمل من أجل مصلحة الكل، فهذا هو التكافل الاجتماعي في أجلى صورة، وأقدس واقعة، رغب الكل في الثواب، حتى أن الواحد منهم يخاف ذهاب

(١) المصدر السابق نفسه (ص ١١٧).

(٢) انظر: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنّة لأبي شهبة (١/ ٤٦٨، ٤٦٩).

(٣) انظر: المرأة في العهد النبوي (ص ١١٨).

الأنصاريّ بالأجر كله[1].

إن جانب البذل والعطاء ظاهرة؛ نحن بحاجة إلى الإشارة إليها في كل وقت. إننا في عالمنا المعاصر، وفي الصف الإسلامي، وفي رحلة لبضعة أيام تتكشف النفوس، والعيوب، والحزازات، والظنون، وهذا مجتمع يبنى ولَمَّا يصل رسول الله بعد، ومع ذلك تفتح البيوت للوافدين الجدد، ليس على مستوى فرد فقط، بل على مستوى جماعي كذلك، ويقيم المهاجرون في بيوت الأنصار أشهرًا عدة، والمعايشة اليومية مستمرة، والأنصار يبذلون المال والحب، والخدمات لإخوانهم القادمين إليهم. نحن أمام مجتمع إسلامي، بلغ الذروة في لحمته وانصهاره، ولم يكن المهاجرون إلا القدوة للأنصار بالبذل والعطاء، فلم يكونوا أصلاً فقراء، بل كانوا يملكون المال، ويملكون الدار، وتركوا ذلك كله ابتغاء مرضات الله، وبذلوه كله لطاعته جل وعلا، فكانوا كما وصفهم القرآن الكريم: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ [الحشر: الآية ٨].

كان هذا المجتمع المدني الجديد، يتربى على معاني الإيمان والتقوى، ولم يصل النبي ﷺ بعد، ولكن تحت إشراف النقباء الاثنَيْ عشر، الذين كانوا في كفالتهم لقومهم، ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وبإشراف قيادات المهاجرين الكبرى، التي وصلت المدينة، والذين استقوا جميعًا من النبع النبوي الثر، واقتبسوا من هديه[2].

ومن معالم هذا المجتمع الجديد ذوبان العصبية، فقد كان إمام المسلمين سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه، لأنه كان أكثرهم قرآنًا، فهذا المجتمع الذي يوجد فيه علية أصحاب محمد ﷺ، من المهاجرين، والأنصار، وسادة العرب من قريش، والأوس والخزرج، يقوده ويؤمه حامل القرآن، فالكرامة العليا فيه لقارىء كتاب الله وحامله، وحامل القرآن في المجتمع الإسلامي هو نفسه حامل اللواء في الحرب، فليس بينهما ذلك الانفصام الذي نشهده اليوم، بين حملة القرآن من الحفاظ، وبين المجاهدين في سبيل الله، فقد كان حامل لواء المهاجرين في معركة اليمامة سالم مولى أبي حذيفة، فقيل له في ذلك، فكان شعاره بئس حامل القرآن ـ يعني إن فررت ـ فقطعت يمينه، فأخذ اللواء بيساره، فقطعت، فاعتنقه إلى أن صرع واستشهد في سبيل الله[3].

ومن معالم المجتمع الإسلامي الجديد: حرية الدعوة إلى الله علانية، فقد أصبح واضحًا عند الجميع أن معظم قيادات يثرب دخلت في هذا الدين، ونشط الشباب والنساء والرجال في الدعوة إلى الله، والتبشير بقدوم رسول الله ﷺ على قدم وساق.

(١) انظر: المرأة في العهد النبوي (ص ١٣٢).

(٢) انظر: التربية القيادية (٢/ ١٧١، ١٧٢).

(٣) المصدر نفسه (٢/ ١٧٤، ١٧٥).

ولا بد من المقارنة بين المجتمع الذي قام بالحبشة من المسلمين، وبين المجتمع الإِسلامي في يثرب. لقد كانت الحبشة تحمل طابع اللجوء السياسي، والجالية الأجنبية، أكثر مما كانت تحمل طابع المجتمع الإِسلامي الكامل، صحيح أن المسلمين ملكوا حرية العبادة هناك، لكنهم معزولون عن المجتمع النصراني، لم يستطيعوا أن يؤثروا فيه التأثير المنشود، وإن كانت هجرة الحبشة خطوة متقدمة على جو مكة، حيث لا تتوافر حرية الدعوة، وحرية العبادة، ولكنه دون المجتمع الإِسلامي في المدينة بكثير، ولذلك شرع مهاجرو الحبشة بمجرد سماع خبر هجرة المدينة بالتوجه نحوها مباشرة، أو عن طريق مكة، إلا من طلبت منه القيادة العليا البقاء هناك، لقد أصبحت المدينة مسلمة، بعد أن عاشت قرونًا وثنية مشركة.

لقد أصبح المجتمع المدني مسلمًا، وبدأ نموه وتكوينه الفعلي بعد عودة الاثْنَيْ عشر صحابيًا من البيعة الأولى، والتي كان على رأسها الصحابي الجليل أسعد بن زرارة، والتي حملت المسؤولية الدعوية فقط، دون الوجود السياسي، وبلغ أوج توسعه وبنائه بعد عودة السبعين، الذين ملكوا الشارع السياسي والاجتماعي، وقرروا أن تكون بلدهم عاصمة المسلمين الأولى في الأرض، وهم على استعداد أن يواجهوا كل عدو خارجي، يمكن أن ينال من هذه السيادة، حتى قبل قدوم رسول الله ﷺ إليهم في المدينة.

إن القاعدة الصلبة التي بذل رسول الله ﷺ وقتًا وجهدًا في تربيتها، بدأت تعطي ثمارها أكثر بعد أن التحمت بالمجتمع المدني الجديد، وانصهر كلاهما في معاني العقيدة وإخوة الدين.

لقد أعد رسول الله ﷺ الأفراد وصقلهم في بوتقة الجماعة، وكوّن بهم القاعدة الصلبة، ولم يقم المجتمع الإِسلامي الذي تقوم عليه الدولة إلا بعد بيعة الحرب، وبذلك نقول بأن المجتمع الإِسلامي قام بعد ما تهيأت القوة المناسبة لحمايته في الأرض(١).

وهكذا انتقلت الجماعة المسلمة، المنظمة القوية إلى المدينة، والتحمت مع إخوانها الأنصار، وتشكل المجتمع المسلم الذي أصبح ينتظر قائده الأعلى عليه الصلاة والسلام، ليعلن ولادة دولة الإِسلام، التي صنعت فيما بعد حضارة لم يعرف التاريخ مثلها حتى يومنا هذا.

خامسًا: لماذا اختيرت المدينة كعاصمة للدولة الإِسلامية؟

كان من حكمة الله تعالى في اختيار المدينة، دارًا للهجرة، ومركزًا للدعوة ـ هذا عدا ما أراده الله من إكرام أهلها ـ أسرارٌ لا يعلمها إلا الله، إنها امتازت بتحصن طبيعي حربي، لا تزاحمها في ذلك مدينة قريبة في الجزيرة، فكانت حَرَّة الوَبْرَة، مُطْبِقة على المدينة من الناحية

---

(١) انظر: التربية القيادية (٢/١٤٦، ١٤٧).

الغربية، وحَرَّة واقِم، مطبقة على المدينة من الناحية الشرقية، وكانت المنطقة الشمالية من المدينة، هي الناحية الوحيدة المكشوفة (وهي التي حصنها رسول الله ﷺ بالخندق سنة خمس في غزوة الأحزاب) وكانت الجهة الأخرى من أطراف المدينة محاطة بأشجار النخيل والزروع الكثيفة، لا يمر منها الجيش إلا في طرق ضيقة، لا يتفق فيها النظام العسكري، وترتيب الصفوف.

وكانت خفارات عسكرية صغيرة، كافية بإفساد النظام العسكري، ومنعه من التقدم، يقول ابن إسحاق: «كان أحد جانبي المدينة عورة، وسائر جوانبها مشككة بالبنيان والنخيل، لا يتمكن العدو منها»(١).

ولعل النبي ﷺ قد أشار إلى هذه الحكمة الإلهية في اختيار المدينة بقوله لأصحابه قبل الهجرة: «إني رأيت دار هجرتكم، ذات نخيل بين لابتين وهما الحرتان»(٢)، فهاجر من هاجر قبل المدينة.

وكان أهل المدينة من الأوس والخزرج أصحاب نخوة وإباء، وفروسية، وقوة وشكيمة، ألفوا الحرية، ولم يخضعوا لأحد، ولم يدفعوا إلى قبيلة أو حكومة إتاوة، أو جباية، يقول ابن خلدون: ولم يزل هذان الحيان قد غلبوا على يثرب، وكان الاعتزاز والمنعة تعرف لهم في ذلك، ويدخل في ملتهم من جاورهم من قبائل مضر.

وكان بنو عدي بن النجار أخواله ﷺ، فأم عبد المطلب بن هاشم إحدى نسائهم، فقد تزوج هاشم بسلمى بنت عمرو أحد بني عدي بن النجار، وولدت لهاشم عبد المطلب، وتركه هاشم عندها، حتى صار غلامًا دون المراهقة، ثم احتمله عمه المطلب، فجاء به إلى مكة، وكانت الأرحام يحسب لها حساب كبير في حياة العرب الاجتماعية، ومنهم أبو أيوب الأنصاري الذي نزل رسول الله ﷺ في داره في المدينة.

وكان الأوس والخزرج من قحطان، والمهاجرون ومن سبق إلى الإسلام في مكة وما حولها من عدنان، ولما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقام الأنصار بنصره، اجتمعت بذلك عدنان وقحطان تحت لواء الإسلام، وكانوا كجسد واحد، وكانت بينهما مفاضلة ومسابقة في الجاهلية، وبذلك لم يجد الشيطان سبيلاً إلى قلوبهم لإثارة الفتنة والتعزي بعزاء الجاهلية، باسم الحمية القحطانية أو العدنانية، فكانت لكل ذلك مدينة يثرب أصلح مكان لهجرة الرسول ﷺ وأصحابه، واتخاذهم لها دارًا وقرارًا، حتى يقوى الإسلام ويشق طريقه إلى الأمام، ويفتح الجزيرة ثم يفتح العالم المتمدن(٣).

---

(١) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ١٥٧).
(٢) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ٥٢).
(٣) انظر: الأساس في السنة (١/ ٣٣٣).

١ ـ محبته ﷺ ودعاؤه لها:

دعا النبي ﷺ ربه قائلاً: «اللهم حبِّب إلينا المدينة كحبِّنا مكة أو أشد»[(١)]، وعن أنس ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ كان إذا قَدِمَ من سفر، فأبصر إلى درجات المدينة[(٢)]، أوضع ناقته[(٣)]، وإن كانت دابة حرَّكها»، قال أبو عبد الله: زاد الحارث بن عمير عن حميد «حرَّكها من حُبِّها»[(٤)].

٢ ـ دعاء النبي ﷺ لها بضعفي ما في مكة من البركة:

عن أبي هريرة ﷺ قال: «كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إلى النبي ﷺ، فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال: «اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك لنا في مدينتنا وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مُدِّنا، ـ اللهم إن إبراهيم عبدُك وخليلُك ونبيّك وإني عبدك ونبيك، وإنه دعاك لمكة، وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه» قال: ثم يدعو أصغر وليد له فيعطيه ذلك الثمر[(٥)].

٣ ـ عصمتها من الدّجال والطاعون ببركته ﷺ:

إن الله تعالى قيَّض لها ملائكة يحرسونها، فلا يستطيع الدجال إليها سبيلاً، بل يلقى إليه بإخوانه من الكفار والمنافقين، كما أن من لوازم دعاء النبي ﷺ بالصحة ورفع الوباء أن لا يتزل بها الطاعون، كما أخبر بذلك المعصوم[(٦)] ﷺ.

٤ ـ فضيلة الصبر على شدّتها:

فقد وعد النبي ﷺ من صبر على شدة المدينة وضيق عيشها بالشفاعة يوم القيامة[(٧)]، فعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، لا يدعها أحد رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه، ولا يثبت أحد على لأوائها[(٨)] وجَهْدها إلا كنت له شفيعًا أو شهيدًا يوم القيامة»[(٩)].

---

(١) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ١٥٧).

(٢) وفي رواية: «جدارات»: جمع جدار وهو الحائط ودرجات: أي الطرق المرتفعة.

(٣) أوضع ناقته: حثها على السرعة.

(٤) البخاري، كتاب العمرة، باب من أسرع ناقته (٣/ ٦٣٠ رقم ١٨٠٢).

(٥) مسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة (٢/ ١٠٠٠ ورقمه ٤٧٢ـ ١٣٧٣).

(٦) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ١٥٨).

(٧) انظر: المصدر نفسه (ص ١٦٠).

(٨) اللأواء: الشدة وضيق العيش.

(٩) مسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة (٢/ ٩٩٢ رقم ١٣٦٣).

٥ ـ فضيلة الموت فيها:

فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من استطاع أن يموت بالمدينة فليَمت، فإني أشفع لمن يموت بها»[١]، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يدعو بهذا الدعاء: «اللهم ارزقني شهادة في سبيلك، واجعل موتي في بلد رسولك ﷺ»[٢].

وقد استجاب الله للفاروق رضي الله عنه فاستشهد في محراب رسول الله ﷺ وهو يؤم المسلمين في صلاة الفجر.

٦ ـ هي كهف الإيمان وتنفي الخبث عنها:

فالإيمان يلجأ إليها مهما ضاقت به البلاد، والأخباث والأشرار لا مقام لهم فيها ولا استقرار، ولا يخرج منها أحد رغبة عنها إلا أبدلها الله خيرًا منه من المؤمنين الصادقين[٣]، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الإيمان ليأرز[٤] إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جُحرها»[٥]، وقال ﷺ: «... والذي نفسي بيده لا يخرج منهم أحد رغبة عنها، إلا أخلف الله فيها خيرًا منه، ألا إن المدينة كالكير، تُخرج الخبث، لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شرارها كما ينفي الكيرُ خَبَثَ الحديد»[٦].

٧ ـ تنفي الذنوب والأوزار:

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنها[٧] طَيْبَةُ تنفي الذنوب[٨]، كما تنفى النار خبث الفضة»[٩].

٨ ـ حفظ الله إياها ممن يريدها بسوء:

فقد تكفل الله بحفظها من كل قاصد إياها بسوء، وتوعد النبي ﷺ من أحدث فيها حدثًا، أو آوى فيها مُحدِثًا، أو أخاف أهلها، بلعنة الله وعذابه، وبالهلاك العاجل[١٠]، فعن سعد بن

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٧٤، ١٠٤ ولفظه برقم ٥٨١٨) بإسناد صحيح، وصححه ابن حبان (رقم ٣٧٤١).

(٢) البخاري، كتاب فضائل المدينة، (٤/ ١٠٠ رقم ١٨٩٠).

(٣) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ١٦١).

(٤) يأرز: ينضم ويجتمع. انظر: فتح الباري (٤/ ٩٣).

(٥) البخاري، كتاب فضائل المدينة (٤/ ٩٣ رقم ١٨٧٦).

(٦) مسلم، كتاب الحج، باب المدينة تنفي شرارها (٢/ ١٠٠٥ رقم ١٣٨١).

(٧) إنها: يعني المدينة المنورة.

(٨) في رواية (تنفي الخبث) وفي رواية (تنفي الرجال).

(٩) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة أحد (٧/ ٣٥٦ رقم ٤٠٥٠).

(١٠) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ١٦٢).

أبي وقاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع[١] كما ينماع الملح في الماء»[٢]، وقال ﷺ: «المدينة حرم، فمن أحدث فيها حدثًا[٣] أو آوى محدثًا[٤]، فعليه لعنة الله، والملائكة، والناس أجمعين، لا يُقْبَلُ منه يوم القيامة عَدْلٌ، ولا صَرْفٌ»[٥].

٩ ـ تحريمها:

فقد حرّمها النبي ﷺ بوحي من الله، فلا يُراق فيها دم، ولا يُحمَل فيها سلاح، ولا يروع فيها أحد، ولا يقطع فيها شجر، ولا تَحِلُّ لُقَطَتُها إلا لمنشد، وغير ذلك مما يدخل في تحريمها، قال ﷺ: «إن إبراهيم حرّم مكة ودعا لها، وحرَّمت المدينة كما حرّم إبراهيم مكة، ودعوت لها في مُدِّها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم عليه السلام لمكة»[٦].

وقال ﷺ: «... اللّهم إن إبراهيم حرّم مكة، وإني حرمت مابين لابتيها»[٧] يعني المدينة، وقال ﷺ: «لا يُختلى خَلاها، ولا ينفَّر صيدُها[٨]، ولا تُلتقط لُقَطتُها إلا لمن أشار بها[٩]، ولا تُقطع منها شجرة إلا أن يعلف رجل بعيره ولا يُحمل فيها السلاح لقتال»[١٠].

إن هذه الفضائل العظيمة، جعلت الصحابة يتعلقون بها، ويحرصون على الهجرة إليها، والمقام فيها، وبذلك تجمعت طاقات الأمة فيها، ثم توجهت نحو القضاء على الشرك بأنواعه، والكفر بأشكاله، وفتحوا مشارق الأرض ومغاربها.

---

(١) انماع: ذاب وسال.

(٢) البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب إثم من كاد أهل المدينة (٤/ ٩٤ رقم ١٨٧٧).

(٣) الحدث: الإثم أو الأمر المنكر الذي ليس بمعروف في السنّة.

(٤) المحدث: أي من أتى الحدث.

(٥) مسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة (٢/ ٩٩٩ رقم ١٣٧١).

(٦) البخاري، كتاب البيوع، باب بركة صاع النبي ومده (٤/ ٣٤٦ رقم ٢١٢٩).

(٧) البخاري، كتاب المغازي، باب أحد يحبنا ونحبه (٧/ ٣٧٧ رقم ٤٠٨٤).

(٨) لا يُخْتَلى خَلاَها: لا يُجزّ، ولايقطع الحشيش الرطب فيها. لا يُنَفَّر صيدُها: لا يُزجر ويمنع من الرعي.

(٩) المراد تعريف اللقطة.

(١٠) أخرجه أحمد (١/ ١١٩ ورقمه ٩٥٩، قال محققوه: صحيح لغيره).

الفصل السادس

هجرة النبي ﷺ وصاحبه الصديق رضي الله عنه

المبحث الأول

فشل خطة المشركين، والترتيب النبوي الرفيع للهجرة

أولاً: فشل خطة المشركين لاغتيال النبي ﷺ:

بعد أن مُنيت قريش بالفشل في منع الصحابة، رضي الله عنهم، من الهجرة إلى المدينة، على الرغم من أساليبهم الشنيعة والقبيحة، فقد أدركت قريش خطورة الموقف، وخافوا على مصالحهم الاقتصادية، وكيانهم الاجتماعي القائم بين قبائل العرب، لذلك اجتمعت قيادة قريش في دار الندوة، للتشاور في أمر القضاء على قائد الدعوة، وقد تحدث ابن عباس في تفسيره لقول الله تعالى:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٠].

فقال: فتشاورت قريش بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثائق، يريدون النبي ﷺ، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: أن أخرجوه، فأطلع الله نبيَّه على ذلك، فبات عليٌّ على فراش النبي ﷺ تلك الليلة(١)، وخرج النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رؤوا عليًا رد الله مكرهم، فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري، فاقتفوا أثره، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم الأمر، فصعدوا الجبل، فمروا بالغار فرأوا على بابه نسيج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هاهنا لم يكن ينسج العنكبوت على باب، فمكث فيه ثلاثًا(٢).

قال الأستاذ سيد قطب في تفسيره للآيات التي تتحدث عن مكر المشركين بالنبي ﷺ: «إنه التذكير بما كان في مكة، قبل تغير الحال، وتبدل الموقف، وإنه ليوحي بالثقة واليقين في المستقبل، كما ينبه إلى تدبير قدر الله وحكمته، فيما يقضي به ويأمر.. ولقد كان المسلمون الذي يخاطَبون بهذا القرآن أول مرة، يعرفون الحالين معرفة الذي عاش ورأى، ذاق. وكان

---

(١) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية (ص ١٣٥).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٣/ ١٨١)، وابن حجر في الفتح، وحسن إسناده، فتح الباري (٧/ ٢٣٦).

يكفي أن يذكروا بهذا الماضي القريب، وماكان فيه من خوف وقلق، في مواجهة الحاضر الواقع، ومافيه من أمن وطمأنينة، وما كان من تدبير المشركين ومكرهم برسول الله ﷺ في مواجهة ما صار إليه من غلبة عليهم، لا مجرد النجاة منهم.

لقد كانوا يمكرون ليوثقوا رسول الله ﷺ، ويحبسوه حتى يموت، أو ليقتلوه ويتخلصوا منه، أو ليخرجوه من مكة منفيًا مطرودًا.. ولقد ائتمروا بهذا كله، ثم اختاروا قتله، على أن يتولى ذلك المنكر فتية من القبائل جميعًا، ليتفرق دمه في القبائل، ويعجز بنو هاشم عن قتال العرب كلها، فيرضوا بالدية وينتهي الأمر.

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٠].

إنها صورة ساخرة، وهي في الوقت ذاته صورة مفزعة.. فأين هؤلاء البشر الضعاف المهازيل من تلك القدرة القادرة.. قدرة الله الجبار، القاهر فوق عباده، الغالب على أمره، وهو بكل شيء محيط[١].

ثانيًا: الترتيب النبوي للهجرة:

عن عائشة أم المؤمنين قالت: كان لا يخطىء رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار، إما بكرة، وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه لرسول الله ﷺ في الهجرة، والخروج من مكة من بين ظهري قومه، أتانا رسول الله بالهاجرة[٢] في ساعة كان لا يأتي فيها. قالت: فلما رآه أبو بكر، قال: ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حدث.

قالت: فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله ﷺ، وليس عند أبي بكر إلا أنا، وأختي أسماء بنت أبي بكر، فقال رسول الله ﷺ: «أخرج عني من عندك»؛ فقال: يا رسول الله، إنما هما ابنتاي، وما ذاك، فداك أبي وأمي! فقال: «إنه قد أذن لي في الخروج والهجرة». قالت: فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله؟ قال: «الصحبة». قالت: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أحدًا يبكي من الفرح، حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذٍ، ثم قال: يا نبي الله إن هاتين راحلتان، قد كنت أعددتهما لهذا، فاستأجرا عبد الله بن أريقط رجلاً من بني الديل بن بكر، وكانت أمه امرأة من بني سهم بن عمرو، وكان مشركًا ـ يدلهما على الطريق ـ فدفعا إليه راحلتيهما فكانتا عنده يرعاها لميعادهما[٣].

قالت عائشة: «فجهزناهما أحث الجهاز، وصنعنا لهم سُفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاقين، ثم

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٥٠١).

(٢) الهاجرة: نصف النهار، عند زوال الشمس مع الظهر، أو إلى العصر.

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٢٣٣ـ ٢٣٤).

لحق رسول الله ﷺ، وأبو بكر، بغار في جبل ثور، فكَمَنا[(١)] فيه ثلاث ليال، يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر، وهو غلام، شاب، ثَقِف[(٢)]، لَقِن[(٣)]، فيُدلِج[(٤)] من عندهما بسَحَر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمرًا يُكتادان[(٥)] به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك، حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فُهَيرة مولى أبي بكر مِنْحَةً من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعةٌ من العشاء، فيبيتان في رِسْل - وهو لبن مِنحَتهما ورَضِيفهما[(٦)] - حتى يَنعِق[(٧)] بها عامر بن فهيرة بِغَلس[(٨)] فعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، واستأجر رسول الله ﷺ أبو بكر رجلاً من بني الدِّيل وهو من بني عبد بن عدي - هاديًا خِرِّيتًا - والخريت الماهر بالهداية - قد غَمَسُ حلفاً[(٩)] في آل العاص بن وائل السهمي، وهو على دين كفار قريش، فأمناه فدفعا إليها راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبحَ ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة، والدليل، فأخذ بهم طريق السواحل»[(١٠)].

ثالثًا: خروج الرسول ﷺ ووصوله إلى الغار:

لم يعلم بخروج رسول الله ﷺ أحد حين خرج إلا علي بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق، وآل أبي بكر.

أما علي، فإن رسول الله ﷺ أمره أن يتخلف، حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع، التي كانت عنده للناس، كان رسول الله ﷺ، وليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته[(١١)]، وكان الميعاد بين الرسول ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه، فخرجا من خوخة[(١٢)] لأبي بكر في ظهر بيته، وذلك للإمعان في الاستخفاء، حتى لا تتبعهما قريش، وتمنعهما من تلك الرحلة المباركة، وقد اتعدا مع الليل على أن يلقاهما عبد الله بن أريقط في غار ثور بعد ثلاث ليال[(١٣)].

---

(١) كمنا فيه: أي استترا واستخفيا ومنه الكمين في الحرب، النهاية (٤/ ٢٠١).
(٢) ثَقِف: ذو فطنة وذكاء، والمراد ثابت المعرفة بما يحتاج إليه، النهاية (١/ ٢١٦).
(٣) لَقِن: فَهِم حَسَن التلقي لما يسمعه، النهاية (٤/ ٢٦٦).
(٤) يدلج: أدلج إذا سار أول الليل، وادّلج بالتشديد إذا سار آخره.
(٥) يُكتادان: أي يطلب لهما فيه المكروه وهو من الكيد.
(٦) الرضيف: اللبن المرضوف، وهو الذي طرح فيه الحجارة المُحماة ليذهب وَخَمُه.
(٧) ينعق: نعق بغنمه، أي صاح بها وزجرها، القاموس المحيط (٣/ ٢٩٥).
(٨) الغلس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح، النهاية (٣/ ٣٣٧).
(٩) غمس حلفًا: أي أخذ بنصيب من عقدهم وحلفهم يأمن به.
(١٠) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي (رقم ٣٩٠٥).
(١١) السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٢٣٤).
(١٢) الهجرة في القرآن الكريم (ص ٣٣٤).
(١٣) خاتم النبيين لأبي زهرة (١/ ٦٥٩)، السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٢٣٤).

رابعًا: رِقَّةُ النبي ﷺ عند خروجه من مكة:

وقف الرسول ﷺ عند خروجه بالحَزْوَرَة في سوق مكة وقال: «والله إِنكِ لخيرُ أرض الله وأحبُّ أرض الله إِلى الله، ولولا أني أُخرِجت منك ما خرجت»[(١)].

ثم انطلق رسول الله ﷺ، وصاحبه وقد حفظهما الله من بطش المشركين، وصرفهم عنهما.

روى الإِمام أحمد عن ابن عباس: أن المشركين اقتصوا أثر رسول الله ﷺ، فلما بلغوا الجبل ـ جبل ثور ـ خُلِطَ عليهم، فصَعِدوا في الجبل فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسيج العنكبوت. فقالوا: لو دخل هاهنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه[(٢)] وهذه من جنود الله ـ ﷻ ـ التي يخذل بها الباطل وينصر بها الحق، لأن جنود الله ـ جلت قدرته ـ أعم من أن تكون مادية أو معنوية، وإِذا كانت مادية فإِن خطرها لا يتمثل في ضخامتها، فقد تفتك جرثومة لا تراها العين بجيش ذي لجَب، قال تعالى:

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدَّثر: الآية ٣١].

أي وما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إِلا هو، فجنود الله غير متناهية، لأن مقدوراته غير متناهية[(٣)]، كما أنه لا سبيل لأحد إِلى حصر الممكنات، والوقوف على حقائقها وصفاتها، ولو إِجمالاً فضلاً عن الاطلاع على تفاصيل أحوالها من كم وكيف ونسبة[(٤)].

خامسًا: عناية الله سبحانه وتعالى ورعايته لرسوله ﷺ:

بالرغم من كل الأسباب التي اتخذها رسول الله ﷺ، فإِنه لم يرتكن إِليها مطلقًا، وإِنما كان كامل الثقة في الله، عظيم الرجاء في نصره وتأييده، دائم الدعاء بالصيغة التي علمه الله إِياها[(٥)] قال تعالى:

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإِسرَاء: الآية ٨٠].

---

(١) الترمذي: كتاب المناقب، باب فضل مكة (٥/ ٧٢٢) وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ورقمه ٣٩٢٥).

(٢) مسند الإِمام أحمد (١/ ٣٤٨، ورقمه ٣٢٥١)، وقال محققوه: [إِسناده ضعيف. . .، وقالوا: وقال ابن كثير في «تاريخه» (٢/ ٢٣٩): «وهذا إِسناد حسن! وهو من أجود ما روي في قصة نسج العنكبوت على فم الغار، وذلك من حماية الله لرسوله ﷺ»] ونص كلام ابن كثير في البداية والنهاية: باب هجرة رسول الله ﷺ بنفسه الكريمة.

(٣) انظر: تفسير الرازي (٣٠/ ٢٠٨).

(٤) انظر: تفسير أبي السعود (٩/ ٦٠).

(٥) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ٧٢).

وفي هذه الآية الكريمة «دعاء، يعلمه الله لنبيه ليدعوه به، ولتتعلم أمته كيف تدعو الله، وكيف تتجه إليه؟ دعاء بصدق المُدْخَل وصدق المُخْرَج، كناية عن صدق الرحلة كلها، بدئها وختامها، أولها وآخرها، ومابين الأول والآخر، وللصدق هنا قيمته، بمناسبة ما حاوله المشركون من فتنته عما أنزله الله عليه، ليفتري على الله غيره. وللصدق كذلك ظلاله: ظلال الثبات، والاطمئنان، والنظافة، والإخلاص: ﴿وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ قوة وَهَيْبَة استعلى بهما على سلطان الأرض، وقوة المشركين، وكلمة ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ تصور القرب والاتصال بالله، والاستمداد من عونه مباشرة، واللجوء إلى حماه.

وصاحب الدعوة لا يمكن أن يستمد السلطان إلا من الله، ولا يمكن أن يُهاب إلا بسلطان الله، لا يمكن أن يستظل بحاكم أو ذي جاه، فينصره ويمنعه، مالم يكن اتجاهه قبل ذلك إلى الله. والدعوة قد تغزو قلوب ذوي السلطان والجاه، فيصبحون لها جندًا وخدمًا فيفلحون، ولكنها هي لا تفلح إن كانت من جند السلطان وخدمه، فهي من أمر الله، وهي أعلى من ذوي السلطان والجاه»(١).

وعندما أحاط المشركون بالغار، وأصبح منهم رأي العين طمأن الرسول ﷺ الصديق بمعية الله لهما؛ فعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قلت للنبي ﷺ وأنا في الغار: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا. فقال: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما؟»(٢).

وفي رواية: «اسكت يا أبا بكر، اثنان الله ثالثهما».

وسجل الحق عز وجل ذلك في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: الآية ٤٠].

سادسًا: خيمة أم مَعْبَد في طريق الهجرة:

وبعد ثلاث ليال من دخول النبي ﷺ في الغار، خرج رسول الله ﷺ وصاحبه من الغار، وقد هدأ الطلب، ويئس المشركون من الوصول إلى رسول الله، وقد قلنا إن رسول الله ﷺ، وأبا بكر، قد استأجرا رجلاً من بني الدِّيْل يسمى عبد الله بن أريقط، وكان مشركًا، وقد أمناه فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما، وقد جاءهما فعلاً في الموعد المحدد، وسلك بهما طريقًا غير معهودة، ليخفى أمرهما عمن يلحق بهم من كفار

(١) انظر: في ظلال القرآن (٤/٢٢٤٧).

(٢) البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين (رقم ٣٦٥٣).

قريش[١]، وفي الطريق إلى المدينة مر النبي ﷺ بأم مَعْبَد[٢]، في قُدَيْد[٣]، حيث مساكن خزاعة، وهي أخت خُنَيس بن خالد الخزاعي، الذي روى قصتها، وهي قصة تناقلها الرواة وأصحاب السير، وقال عنها ابن كثير: «وقصتها مشهورة مروية من طرق يشد بعضها بعضًا»[٤]، فعن خالد بن خُنَيْس الخزاعي - رضي الله عنه - صاحب رسول الله ﷺ: «أن رسول الله ﷺ حين خرج من مكة، وخرج منها مهاجرًا إلى المدينة، هو وأبو بكر - رضي الله عنه - ومولى أبي بكر عامر بن فهيرة - رضي الله عنه - ودليلهما الليثي عبد الله بن أريقط مرُّوا على خيمتي أم معبد الخزاعية، وكانت بَرْزَة[٥] جَلْدَة[٦] تحتبي[٧] بفناء القبة، ثم تسقى وتطعم، فسألوها لحمًا وتمرًا؛ ليشتروه منها، فلم يصيبوا عندها شيئًا من ذلك، وكان القوم مُرْملين[٨] مُسْنِتِين[٩]، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كَسر الخيمة[١٠] فقال: «ماهذه الشاة يا أم معبد؟» قالت: خلَّفها الجَهْد عن الغنم، قال: «فهل بها من لبن؟» قالت: هي أجهد من ذلك. قال: «أتأذنين أن أحلبها؟» قالت: بلى بأبي أنت وأمي، نعم إن رأيت بها حلبًا فاحلبها.

فدعا بها رسول الله ﷺ فمسح بيده ضرعها، وسمى الله ﷻ، ودعا لها في شاتها، فتفاجَّت[١١] عليه، ودرَّت[١٢]، واجترَّت[١٣] ودعا بإناء يُرْبِض[١٤] الرهط، فحلب فيها ثَجًّا[١٥]، حتى علاه البهاء[١٦]، ثم سقاها حتى رَوِيت، وسقى أصحابه حتى رَوَوا، وشرب آخرهم ﷺ، ثم أراضوا[١٧]، ثم حلب فيها ثانيًا بعد بدء حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها، ثم بايعها، وارتحلوا عنها.

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٠١).
(٢) هي عاتكة بنت كعب الخزاعية.
(٣) وادي قُدَيْد: موضع قرب مكة يبعد عن الطريق المعبدة حوالي ثمانية كيلومترات.
(٤) البداية والنهاية (٣/ ١٨٨).
(٥) برزة: كهلة كبيرة السن، لا تحتجب احتجاب الشباب.
(٦) جلدة: قوية صلبة، وقيل: عاقلة.
(٧) تحتبي: أي تجلس وتضم يديها إحداهما إلى الأخرى، على ركبتيها وتلك جلسة الأعراب.
(٨) مرملين: نفد زادهم.
(٩) مستين: أي داخلين في سَنَة وهي الجدب والمجاعة والقحط.
(١٠) كسر الخيمة: بفتح الكاف وكسرها، وسكون المهملة: أي جانبها.
(١١) تفاجَّت: فتحت مابين رجليها للحلب.
(١٢) دَرَّت: أرسلت اللبن.
(١٣) واجترت: من الجرة وهي ما تخرجها البهيمة من كرشها تمضغها.
(١٤) يربض: يرويهم حتى يثقلوا فيربضوا، أي يقعوا على الأرض للنوم والراحة.
(١٥) ثجًا: الثج: السيلان ومعنى ثجًا: لبنًا كثيرًا سائلاً.
(١٦) علاه البهاء: أي علا الإناء بهاء اللبن.
(١٧) أراضوا: أي رَووا، فنقعوا بالري، يريد شربوا مرة بعد مرة حتى رَوَوا.

فقلما لبثت حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزًا عجافاً[١]، يتساوَكْنَ هُزلاً[٢] ضحى، مخّهن قليل، فلما رأى أبو معبد اللبن عجب، وقال: من أين لك هذا اللبن يا أم معبد، والشاة عازب حيال[٣]، ولا حَلُوبة في البيت؟ قالت: لا والله، إلا أنه مرّ بنا رجل مبارك، من حاله كذا وكذا. قال: صفيه لي يا أم معبد. قالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة[٤]، أبْلَج الوجه[٥]، حسن الخلق، لم تَعِبْه نُحْلة[٦]، ولم تُزْرِ به صَعْلة[٧]، وسيم[٨]، في عينيه دَعَج[٩]، وفي أشفاره وَطفٌ[١٠]، وفي صوته صَهَلٌ[١١]، وفي عنقه سَطَع[١٢]، وفي لحيته كثاثة، أزجُّ[١٣]، أقرن[١٤]، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سما[١٥] وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاه من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، حلو المنطق، فصل لا هذر ولا نزر[١٦]، كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن، رَبْع[١٧] لا يأس من طول[١٨]، ولا تقتحمه العين من قصر[١٩]، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظرًا، وأحسنهم قدرًا، له رُفقاء يحفون به، إن قال استمعوا لقوله، وإن أمر تبادروا إلى أمره، مَحفُود[٢٠]، محشود[٢١]، لا عابسٌ ولا مُفَنَّد[٢٢].

قال أبو معبد: هو والله صاحب قريش، الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكة، ولقد

---

(١) عجافاً: ضد السِّمن، وهو جمع عجفاء وهي المهزولة.
(٢) يتساوكن هُزلاً: يتمايلن من الضعف.
(٣) عازب: بعيدة المرعى لا تأوي إلى البيت إلا في الليل، حيال: لم تحمل.
(٤) ظاهر الوضاءة: ظاهر الجمال والحسن.
(٥) أبلج الوجه: مشرق الوجه مضيئه.
(٦) نُحلة: من النحول والدقة والضمور، أي أنه ليس نحيلاً.
(٧) صَعْلة: صغر الرأس وهي تعني الدقة والنحول في البدن.
(٨) وسيم: الوسيم المشهور بالحسن كأنه صار الحسن له سمة.
(٩) دعج: شدة سواد العين في شدة بياضها.
(١٠) في أشفاره وطف: في الشعر النابت على الجفن طول.
(١١) صَهل: كالبُحة وهو ألا يكون حاد الصوت.
(١٢) سطع: طول العنق.
(١٣) أزج: دقيق شعر الحاجبين مع طولهما.
(١٤) أقرن: متصل مابين الحاجبين من الشعر، أو مقرون الحاجبين.
(١٥) سما: علا برأسه، أو بيده وارتفع.
(١٦) لا هذر ولا نزر: الهذر من الكلام ما لا فائدة فيه، والنزر: القليل.
(١٧) رَبْع: ليس بالقصير ولا بالطويل.
(١٨) لا يأس من طول: وقيل «لا بائن من طول» أي: لا يجاوز الناس طولاً.
(١٩) لا تقتحمه العين من قصر: لا تزدريه، ولاتحتقره.
(٢٠) محفود: مخدوم.
(٢١) محشود: يجتمع الناس حواليه.
(٢٢) لا عابس ولا مفند: ليس عابس الوجه، ولا مفند: ليس منسوبًا إلى الجهل وقلة العقل.

هممت أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً[(١)].

سابعًا: سراقة بن مالك يلاحق رسول الله ﷺ:

أعلنت قريش في نوادي مكة أنه من يأت بالنبي ﷺ حيًّا أو ميتًا، فله مائة ناقة. وانتشر هذا الخبر عند قبائل الأعراب الذين في ضواحي مكة، وطمع سُرَاقَة بن مالك بن جُعْشُم في نيل الكسب الذي أعدته قريش لمن يأتي برسول الله ﷺ، فأجهد نفسه لينال ذلك، ولكن الله بقدرته التي لا يغلبها غالب، جعله يرجع مدافعًا عن رسول الله ﷺ بعدما كان جاهدًا عليه.

قال ابن شهاب: وأخبرني عبد الرحمٰن بن مالك المُدْلجي، وهو ابن أخي سراقة بن مالك بن جُعْشُم، أن أباه أخبره، أنه سمع سراقة بن واحد جعشم يقول: جاءنا رُسُلُ كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ، وأبي بكر، دِيَة كُلِّ واحد منهما مَنْ قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مُدْلج، أقبل رجل منهم حتى قام علينا، ونحن جلوس، فقال: يا سراقة إني رأيت آنفًا أَسْوِدَة[(٢)] بالساحل أُراها محمدًا وأصحابه، قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلانًا وفلانًا، انطلَقوا بأعيننا، ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تَخْرُجَ بفرسي، وهي من وراء أكمة[(٣)]، فَتَحْبِسَها عليَّ، وأخذت رمحي، فخرجت به من ظهر البيت، فخططت بِزُجِّه[(٤)] الأرض، وخفضت عاليه حتى أتيت فرسي فركبتها، فرفعتُها تُقَرِّب بي حتى دنوت منهم، فَعَثَرَت بي فرسي فخررتُ عنها، فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي، فاستخرجت منها الأزلام[(٥)]، فاستقسمت بها، أَضُرُّهم أم لا، فخرج الذي أكره، فركبتُ فرسي، وعصيت الأزلام، تُقرِّب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت[(٦)] يدا فرسي في الأرض، حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها، ثم زجرتها، فنهضتْ فلم تكد تُخرج يديها فلما استوت قائمة، إذا لأثر يديها عُثان[(٧)] ساطع في السماء، مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان، فوقفوا فركبت فرسي حتى جئتُهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم، أن سَيَظْهَرُ أمرُ رسول الله ﷺ، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدِّيَة، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم

---

(١) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ١٠٤ـ ١٠٦) والهوامش منه ببعض تصرف.

(٢) أَسْوِدة: جمع قلة لسواد وهو الشخص يرى من بعيد أسود، الهجرة في القرآن (ص ٣٤٤).

(٣) الأكمة: هي الرابية.

(٤) الزج: الحديدة في أسفل الرمح.

(٥) الأزلام: الأقداح التي كانت في الجاهلية مكتوب عليها الأمر، والنهي: افعل ولا تفعل.

(٦) ساخت يدا فرسي: أي غاصت في الأرض.

(٧) عُثان: أي دخان، وجمعه عواثن على غير قياس، النهاية (٣/ ١٨٣).

الزاد والمتاع، فلم يرزآني[١] ولم يسألاني، إلا أن قال: «أخْفِ عنا»، فسألته أن يكتب لي فيّ كتابَ أمنٍ، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أديم[٢]، ثم مضى رسول الله ﷺ[٣].

وكان مما اشتهر عند الناس، من أمر سراقة، ما ذكره ابن عبد البر، وابن حجر، وغيرهما. قال ابن عبد البر: روي سفيان بن عيينة عن أبي موسى عن الحسن أن رسول الله ﷺ قال لسراقة بن مالك: «كيف بك إذا لبست سواري كسرى؟» قال: فلما أُتِيَ عمر بسواري كسرى، ومِنْطَقَته وتاجه، دعا سراقة بن مالك فألبسه إياها، وكان سراقة رجلاً أَزَبّ[٤] كثير شعر الساعدين، وقال له: ارفع يديك، فقال: الله أكبر، الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز، الذي كان يقول: أنا رب الناس، وألبسهما سراقة بن مالك بن جُعْشُم أعرابي من بني مُدْلِج، ورفع بها عمر صوته[٥]، ثم أركب سراقة، وطيف به المدينة، والناس حوله، وهو يرفع عقيرته مرددًا قول الفاروق: الله أكبر، الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز، وألبسهما سراقة بن جعشم أعرابيًا من بني مُدلِج[٦].

ثامنًا: سبحان مقلب القلوب:

كان سراقة في بداية أمره يريد القبض على رسول الله ﷺ، ويسلمه لزعماء مكة، لينال مائة ناقة، وإذا بالأمور تنقلب رأسًا على عقب، ويصبح يرد الطلب عن رسول الله ﷺ، فجعل لا يلقى أحدًا من الطلب إلا رده، قائلاً: كفيتم هذا الوجه، فلما اطمأنَّ إلى أن النبي ﷺ وصل إلى المدينة المنورة، جعل سراقة يقص ما كان من قصته، وقصة فرسه، واشتهر هذا عنه، وتناقلته الألسنة حتى امتلأت به نوادي مكة فخاف رؤساء قريش أن يكون ذلك سببًا لإسلام بعض أهل مكة، وكان سراقة أمير بني مُدْلِج، ورئيسهم فكتب أبو جهل إليهم:

بني مدلج إني أخاف سفيهكم ... سراقة مستغوٍ لنصر محمد
عليكم به ألا يفرّق جمعكم ... فيصبح شتى بعد عز وسؤدد

فقال سراقة يرد على أبي جهل:

أبا حكم - والله - لو كنت شاهدًا ... لأمر جوادي إذ تسوخ قوائمه
علمت ولم تَشْكُكْ بأن محمدًا ... رسول وبرهان فمن ذا يقاومه

---

(١) فلم يرزآني: أي لم يأخذا مني شيئًا.

(٢) أديم: قطعة من جلد.

(٣) البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي ﷺ (رقم ٣٩٠٦).

(٤) التزبب في الإنسان: كثرة الشعر وطوله.

(٥) انظر: الروض الأنف (٤/ ٢١٨)، الهجرة في القرآن (ص ٣٤٦).

(٦) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٤٩٥).

عليك فكُفَّ القوم عنه فإنني ... أرى أمره يومًا ستبدو معالمه
بأمر تود الناس فيه بأسرهم ... بأن جميع الناس طُرًّا مسالمه[١]

تاسعاً: استقبال الأنصار لرسول الله ﷺ:

لما سمع «المسلمون بالمدينة مَخْرجَ رسول الله ﷺ من مكة، كانوا يغدون كل غداة إِلى الحَرَّة، فينتظرونه حتى يردَّهم حر الظهيرة، فانقلبوا يومًا بعد ما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إِلى بيوتهم، أوفى رجل من يهودَ على أُطُم[٢] من آطامهم، لأمر ينظر إليه، فَبَصُرَ برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين[٣]، يزول بهم السراب[٤]، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معاشر العرب، هذا جَدُّكم[٥] الذي تنتظرون، فثار المسلمون إِلى السلاح، فتلقَّوا رسول الله ﷺ بظهر الحَرّة فعدل بهم ذات اليمين، حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين[٦] من شهر ربيع الأول[٧]، فقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامتًا، فطفق من جاء من الأنصار، ممن لم ير رسول الله ﷺ يُحَيِّي أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك، فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضعَ عشرة ليلة[٨]، وأُسس المسجد الذي أُسس على التقوى، وصلى فيه رسول الله ﷺ، ثم ركب راحلته»[٩]..

وبعد أن أقام رسول الله ﷺ المدة التي مكثها بقباء، وأراد أن يدخل المدينة «بعث إِلى الأنصار، فجاءوا إِلى نبي الله ﷺ وأبي بكر فسلموا عليهما، وقالوا: اركبا آمنين مطاعَين فركب نبي الله ﷺ وأبو بكر وحفوا دونهما بالسلاح»[١٠].

وعند وصوله ﷺ إِلى المدينة، قيل في المدينة: «جاء نبي الله، جاء نبي الله ﷺ، فأشرفوا ينظرون ويقولون: جاء نبي الله، جاء نبي الله»[١١].

فكان يوم فرح وابتهاج، لم تر المدينة يومًا مثله، ولبس الناس أحسن ملابسهم كأنهم في

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٤٩٤).
(٢) أطم: كالحصن.
(٣) مبيضين: عليهم ثياب بيض.
(٤) يزول السراب: أي يزول السراب عن النظر بسبب عروضهم له.
(٥) جدكم: حظكم وصاحب دولتكم، الذي تتوقعونه.
(٦) قال الحافظ ابن حجر: هذا هو المعتمد، وشذ من قال يوم الجمعة، الفتح (٧/ ٥٤٤).
(٧) انظر: الهجرة في القرآن الكريم (ص ٣٥١).
(٨) المصدر نفسه (ص ٣٥٢).
(٩) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي (٥/ ٧٧، ٧٨ ورقمه ٣٩٠٦).
(١٠) المصدر نفسه (رقم ٣٩١١).
(١١) المصدر نفسه (رقم ٣٩١١).

يوم عيد، ولقد كان حقًّا يوم عيد، لأنه اليوم الذي انتقل فيه الإِسلام من ذلك الحيز الضيق في مكة، إِلى رحابة الانطلاق، والانتشار بهذه البقعة المباركة المدينة، ومنها إِلى سائر بقاع الأرض. لقد أحس أهل المدينة بالفضل الذي حباهم الله به، وبالشرف الذي اختصهم به أيضًا، فقد صارت بلدتهم موطنًا لإِيواء رسول الله ﷺ، وصحابته المهاجرين، ثم لنصرة الإِسلام، كما أصبحت موطنًا للنظام الإِسلامي العام والتفصيلي بكل مقوماته، ولذلك خرج أهل المدينة يهللون في فرح وابتهاج، ويقولون: يا رسول الله يا محمد يا رسول الله[1].

روى الإِمام مسلم بسنده قال: «عندما دخل رسول الله ﷺ المدينة، صعد الرجال والنساء فوق البيوت، وتفرق الغلمان والخدم في الطرق ينادون: «يا محمدُ، يا رسولَ الله، يا محمد، يا رسول الله!!»[2].

وبعد هذا الاستقبال الجماهيري العظيم، الذي لم يرد مثله في تاريخ الإِنسانية، سار رسول الله ﷺ، حتى نزل في دار أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، فعن أنس رضي الله عنه في حديث الهجرة الطويل: فأقبل يسير حتى نزل جانب دار أبي أيوب فإِنه ليُحَدِّث أهله[3] إِذ سمع به عبد الله بن سَلاَم وهو في نخل لأهله يَخْتَرِف[4] لهم، فَعَجِل أن يضع الذي يَخْتَرِف لهم فيها، فجاء وهي معه فسمع من نبي الله ﷺ، ثم رجع إِلى أهله، فقال نبيُّ الله ﷺ: «أي بيوت أهلنا[5] أقربُ»، فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله، هذه داري، وهذا بابي، قال: «فانطلق فهيىء لنا مقيلاً[6]...»[7]، ثم نزل رسول الله ﷺ على أبي أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه.

وبهذا قد تمت هجرته ﷺ، وهجرة أصحابه رضي الله عنهم؛ ولم تنته الهجرة بأهدافها وغاياتها، بل بدأت بعد وصول رسول الله ﷺ سالمًا إِلى المدينة، وبدأت معها رحلة المتاعب، والمصاعب والتحديات، فتغلب عليها رسول الله ﷺ، للوصول للمستقبل الباهر للأمة، والدولة الإِسلامية، التي استطاعت أن تصنع حضارة إِنسانية رائعة، على أسس من الإِيمان والتقوى، والإِحسان والعدل، بعد أن تغلبت على أقوى دولتين كانتا تحكمان في العالم، وهما: دولة الفرس، ودولة الروم[8].

---

(١) انظر: الهجرة في القرآن (ص ٣٥٣).

(٢) مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب حديث الهجرة (رقم ٧٥ ـ ٢٠٠٩).

(٣) الضمير هنا للنبي ﷺ، فتح الباري (٧/ ٢٥١).

(٤) يخترف: أي يجتبي من ثمارها. انظر: النهاية (٢/ ٢٤).

(٥) انظر: الهجرة في القرآن الكريم (ص ٣٥٤).

(٦) مقيلاً: أي مكانًا تقع فيه القيلولة.

(٧) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي إِلى المدينة (٥/ ٧٩ ورقمه ٣٩١١).

(٨) انظر: الهجرة في القرآن الكريم (ص ٣٥٥).

عاشرًا: فوائد ودروس وعبر:

١ ـ **الصراع بين الحق والباطل**: صراع قديم وممتد، وهو سنّة إلٰهية نافذة، قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحجّ: الآية ٤٠].

ولكن هذا الصراع معلوم العاقبة: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجَادلة: الآية ٢١].

٢ ـ **مكر خصوم الدعوة بالداعية**: أمر مستمر متكرر، سواء عن طريق الحبس أو القتل، أو النفي والإخراج من الأرض، وعلى الداعية أن يلجأ إلى ربه وأن يثق به، ويتوكل عليه، ويعلم أن المكر السيء لا يحيق إلا بأهله(١)، كما قالﷻ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [الأنفَال: الآية ٣٠].

ومن مكر أهل الباطل وخصوم الدعوة، استخدام سلاح المال لإغراء النفوس الضعيفة، للقضاء على الدعوة والدعاة، ولذلك رصدوا مائة ناقة لمن يأتي بأحد المهاجرين حيًّا أو ميتًا، فتحرك الطامعون ومنهم سراقة، الذي عاد بعد هذه المغامرة الخاسرة ماديًّا بأوفر ربح وأطيب رزق، وهو رزق الإيمان، وأخذ يعمّي الطريق على الطامعين الآخرين، الذين اجتهدوا في الطلب، وهكذا يرد الله عن أوليائه والدعاة(٢)، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفَال: الآية ٣٦].

٣ ـ إن من تأمل حادثة الهجرة ورأى دقة التخطيط فيها، ودقة الأخذ بالأسباب من ابتدائها إلى انتهائها، ومن مقدماتها إلى ما جرى بعدها؛ يدرك أن التخطيط المسدد بالوحي في حياة رسول الله ﷺ، كان قائمًا، وأن التخطيط جزء من السنّة النبوية، وهو جزء من التكليف الإلهي في كل ما طولب به المسلم، وأن الذين يميلون إلى العفوية، بحجة أن التخطيط وإحكام الأمور ليسا من السنّة، أمثال هؤلاء مخطئون، ويجنون على أنفسهم وعلى المسلمين(٣)،

فعندما حان وقت الهجرة للنبي ﷺ، وشرع النبي ﷺ في التنفيذ نلاحظ الآتي:

* وجود التنظيم الدقيق للهجرة حتى نجحت، رغم ما كان يكتنفها من صعاب وعقبات؛ وذلك أن كل أمر من أمور الهجرة كان مدروسًا دراسة وافية؛ فمثلاً:

---

(١) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ١٩٩).

(٢) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ٢٠٠).

(٣) انظر: الأساس في السنّة، سعيد حوى (١/ ٣٥٧).

أ - جاء ﷺ إلى بيت أبي بكر في وقت شدة الحر - الوقت الذي لا يخرج فيه أحد، بل من عادته لم يكن يأتي فيه، لماذا؟ حتى لا يراه أحد.

ب - إخفاء شخصيته ﷺ أثناء مجيئه للصديق، وجاء إلى بيت الصديق متلثمًا، لأن التلثم يقلل من إمكانية التعرف على معالم الوجه المتلثم(١).

جـ - أمر ﷺ أبا بكر أن يخرج من عنده، ولما تكلم لم يبين إلا الأمر بالهجرة دون تحديد الاتجاه.

د - وكان الخروج ليلاً، ومن باب خلفي في بيت أبي بكر(٢).

هـ - بلغ الاحتياط مداه، باتخاذ طرق غير مألوفة للقوم، والاستعانة بذلك بخبير يعرف مسالك البادية، ومسارب الصحراء، ولو كان ذلك الخبير مشركًا ما دام على خلق ورزانة، وفيه دليل على أن الرسول ﷺ كان لا يحجم عن الاستعانة بالخبرات مهما يكن مصدرها(٣).

* انتقاء شخصيات عاقلة لتقوم بالمعاونة في شؤون الهجرة، ويلاحظ أن هذه الشخصيات كلها تترابط برباط القرابة، أو برباط العمل الواحد، مما يجعل من هؤلاء الأفراد وحدة متعاونة على تحقيق الهدف الكبير.

* وضع كل فرد من أفراد هذه الأسرة في عمله المناسب، الذي يجيد القيام به على أحسن وجه، ليكون أقدر على أدائه والنهوض بتبعاته.

* فكرة نوم علي بن أبي طالب مكان الرسول، فكرة ناجحة، قد ضللت القوم وخدعتهم، وصرفتهم عن الرسول ﷺ، حتى خرج في جنح الليل، تحرسه عناية الله وهم نائمون، ولقد ظلت أبصارهم معلقة بعد اليقظة بمضجع الرسول ﷺ، فما كانوا يشكون في أنه ما يزال نائمًا، مسجى في بردته، في حين أن النائم هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ونرى احتياجات الرحلة قد دبرت تدبيرًا محكمًا:

أ - علي رضي الله عنه: ينام في فراش رسول الله ﷺ ليخدع القوم، ويُسَلِّمَ الودائع ويلحق بالرسول.

ب - وعبد الله بن أبي بكر: صاحب المخابرات الصادق، وكاشف تحركات العدو.

جـ - وأسماء ذات النطاقين: حاملة التموين من مكة إلى الغار، وسط جنون المشركين بحثًا عن محمد ﷺ ليقتلوه.

---

(١) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية (ص ١٤١).

(٢) انظر: معين السيرة (ص ١٤٧).

(٣) انظر: الهجرة في القرآن الكريم (ص ٣٦١).

د ـ وعامر بن فهيرة: الراعي البسيط الذي قدم اللحم واللبن إلى صاحبي الغار، وبدد آثار أقدام المسيرة التاريخية بأغنامه، كيلا يتفرسها القوم!! لقد كان هذا الراعي يقوم بدور الإمداد والتموين.

هـ ـ وعبد الله بن أريقط: دليل الهجرة الأمين، وخبير الصحراء البصير، ينتظر في يقظة إشارة البدء من الرسول، ليأخذ الركب طريقه من الغار إلى يثرب.

فهذا تدبير للأمور على نحو رائع دقيق، واحتياط للظروف بأسلوب حكيم، ووضع لكل شخص من أشخاص الهجرة في مكانه المناسب، وسد لجميع الثغرات، وتغطية بديعة لكل مطالب الرحلة، واقتصار على العدد اللازم من الأشخاص من غير زيادة، ولا إسراف.

لقد أخذ الرسول ﷺ بالأسباب المعقولة، أخذًا قويًّا، حسب استطاعته وقدرته.. ومن ثم باتت عناية الله متوقعة[(١)].

٤ ـ الأخذ بالأسباب أمر ضروري:

إن اتخاذ الأسباب أمر ضروري وواجب، ولكن لايعني ذلك دائمًا حصول النتيجة، ذلك لأن هذا أمر يتعلق بأمر الله، ومشيئته، ومن هنا كان التوكل أمرًا ضروريًّا، وهو من باب استكمال اتخاذ الأسباب.

إن رسول الله ﷺ أعد كل الأسباب، واتخذ كل الوسائل، ولكنه في الوقت نفسه مع الله، يدعوه ويستنصره أن يكلل سعيه بالنجاح، وهنا يستجاب الدعاء، وينصرف القوم بعد أن وقفوا على باب الغار، وتسيخ فرس سراقة في الأرض ويكلل العمل بالنجاح[(٢)].

٥ ـ الإيمان بالمعجزات الحسية:

وفي هجرة النبي ﷺ وقعت معجزات حسية، وهي دلائل ملموسة على حفظ الله ورعايته لرسول الله ﷺ، ومن ذلك ـ على ما روي ـ نسيج العنكبوت على فم الغار، ومنها ما جرى لرسول الله ﷺ مع أم معبد، وما جرى له مع سراقة، ووعده إياه بأن يلبس سواري كسرى، فعلى الدعاة أن لا يتنصلوا من هذه الخوارق، بل يذكرونها ما دامت ثابتة بالسنة النبوية، على أن ينبهوا الناس على أن هذه الخوارق هي من جملة دلائل نبوته ورسالته عليه السلام[(٣)].

٦ ـ جواز الاستعانة بالكافر المأمون:

ويجوز للدعاة أن يستعينوا بمن لا يؤمن بدعوتهم، ما داموا يثقون بهم ويأتمنونهم على

(١) انظر: أضواء على الهجرة، لتوفيق محمد (ص ٣٩٣ـ ٣٩٧).

(٢) انظر: من معين السيرة (ص ١٤٨).

(٣) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/١٠٨).

ما يستعينون به معهم، فقد رأينا أن النبي ﷺ وأبا بكر استأجرا مشركًا ليدلهما على طريق الهجرة، ودفعا إليه راحلتيهما وواعداه عند غار ثور، وهذه أمور خطيرة أطلعاه عليها، ولا شك أن النبي ﷺ وأبا بكر وثقا به وأمناه، مما يدل على أن الكافر أو العاصي، أو غير المنتسب إلى الدعاة، قد يوجد عند هؤلاء ما يستدعي وثوق الدعاة بهم، كأن تربطهم رابطة القرابة، أو المعرفة القديمة، أو الجوار، أو عمل معروف، كأن قد قدمه الداعية لهم، أو لأن هؤلاء عندهم نوع جيد من الأخلاق الأساسية، مثل الأمانة، وحب عمل الخير، إلى غير ذلك من الأسباب، والمسألة تقديرية، يترك تقديرها إلى فطنة الداعي، ومعرفته بالشخص(١).

٧ ـ دور المرأة في الهجرة:

وقد لمعت في سماء الهجرة أسماء كثيرة، كان لها فضل كبير، ونصيب وافر من الجهاد: منها عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها التي حفظت لنا القصة، ووعتها وبلَّغتها للأمة، وأم سلمة المهاجرة الصبور، وأسماء ذات النطاقين(٢)، التي ساهمت في تموين الرسول ﷺ وصاحبه في الغار، بالماء والغذاء، وكيف تحملت الأذى في سبيل الله؟ فقد حدثتنا عن ذلك، فقالت: «لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه، أتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم، فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي! قالت: فرفع أبو جهل يده ـ وكان فاحشًا خبيثًا ـ فلطم خَدِّي لطمة طرح منها قُرْطي، قالت: ثم انصرفوا...»(٣).

فهذا درس من أسماء رضي الله عنها تعلمه لنساء المسلمين، جيلاً بعد جيل؛ كيف تخفي أسرار المسلمين عن الأعداء، وكيف تقف صامدة شامخة أمام قوى البغي والظلم! وأما درسها الثاني البليغ، فعندما دخل عليها جدها أبو قحافة، وقد ذهب بصره، فقال: «والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه»، قالت: «كلا يا أبت، ضع يدك على هذا المال». قالت: «فوضع يده عليه»، فقال: «لا بأس، إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن وفي هذا بلاغ لكم». قالت: «ولا والله ما ترك لنا شيئًا، ولكني أردت أن أسكِّن الشيخ بذلك»(٤).

وبهذه الفطنة والحكمة سترت أسماء أباها، وسكّنت قلب جدها الضرير، من غير أن تكذب، فإن أباها قد ترك لهم حقًا هذه الأحجار التي كومتها، لتطمئن لها نفس الشيخ! إلا أنه قد ترك لهم معها إيمانًا بالله لا تزلزله الجبال، ولا تحركه العواصف الهوج، ولا يتأثر بقلة أو كثرة من المال، وَوَرَّثهم يقينًا وثقة به لا حدَّ لها، وغرس فيهم همة تتعلق بمعالي الأمور،

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/١٠٨).

(٢) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ٢٠٦).

(٣) المصدر نفسه (ص ١٢٦).

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/١٠٢) إسناده صحيح.

ولا تلتفت إلى سفسافها، فضرب بهم للبيت المسلم مثالاً عزّ أن يتكرر، وقلّ أن يوجد نظيره.

لقد ضربت أسماء، رضي الله عنها، بهذه المواقف لنساء المسلمين مثلاً، هُنّ في أمس الحاجة إلى الاقتداء به، والنسج على منواله.

وظلت أسماء مع أخواتها في مكة، لا تشكو ضيقًا، ولا تظهر حاجة، حتى بعث النبي ﷺ زيد بن حارثة، وأبا رافع مولاه، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم إلى مكة، فقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتيه، وسودة بنت زمعة زوجه، وأسامة بن زيد، وأُمه بَرَكة، المكناة بأم أيمن، وخرج معهما عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر، فيهم عائشة وأسماء، فقدموا المدينة، فأنزلهم في بيت حارثة بن النعمان(١).

٨ ـ أمانات المشركين عند رسول الله ﷺ:

في إيداع المشركين ودائعهم عند رسول الله ﷺ، مع محاربتهم له، وتصميمهم على قتله، دليل باهر على تناقضهم العجيب، الذي كانوا واقعين فيه، ففي الوقت الذي كانوا يكذبونه، ويزعمون أن ساحر، أو مجنون، أو كذاب، لم يكونوا يجدون فيمن حولهم من هو خير منه أمانة وصدقًا، فكانوا لا يضعون حوائجهم، ولا أموالهم التي يخافون عليها إلا عنده! وهذا يدل على أن كفرانهم لم يكن بسبب الشك لديهم في صدقه، وإنما بسبب تكبرهم واستعلائهم على الحق، الذي جاء به، وخوفًا على زعامتهم وطغيانهم(٢)، وصدق الله العظيم: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٣٣].

وفي أمر الرسول ﷺ لعلي ـ رضي الله عنه ـ بتأدية هذه الأمانات لأصحابها في مكة، على الرغم من هذه الظروف الشديدة، التي كان من المفروض أن يكتنفها الاضطراب، بحيث لا يتجه التفكير إلا إلى إنجاح خطة هجرته فقط، على الرغم من ذلك فإن الرسول ﷺ ما كان لينسى أو ينشغل عن رد الأمانات إلى أهلها، حتى ولو كان في أصعب الظروف التي تنسي الإنسان نفسه فضلاً عن غيره(٣).

٩ ـ الراحلة بالثمن:

لم يقبل رسول الله ﷺ أن يركب الراحلة، حتى أخذها بثمنها من أبي بكر رضي الله عنه، واستقر الثمن دينًا بذمته، وهذا درس واضح، بأن حملة الدعوة ما ينبغي أن يكونوا عالة على أحد، في وقت من الأوقات، فهم مصدر العطاء في كل شيء.

إن يدهم إن لم تكن العليا فلن تكون السفلى، وهكذا يصر ـ عليه السلام ـ أن يأخذها

(١) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ١٢٨).

(٢) انظر: فقه السيرة د. البوطي (ص ١٩٣).

(٣) انظر: الهجرة في القرآن الكريم (ص ٣٦٤).

بالثمن، وسلوكه ذلك هو الترجمة الحقة لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٠٩].

إن الذين يحملون العقيدة والإيمان، ويبشرون بهما، ما ينبغي أن تمتد أيديهم إلى أحد ـ إلا الله ـ لأن هذا يناقض ما يدعون إليه، وقد تعود الناس أن يعوا لغة الحال لأنها أبلغ من لغة المقال، وما تأخر المسلمون، وأصابهم ما أصابهم من الهوان، إلا يوم أصبحت وسائل الدعوة والعاملين بها خاضعة للغة المادة، إذ ينتظر الواحد منهم مرتبه، ويومها تحول العمل إلى عمل مادي، فقد الروح والحيوية والوضاءة، وأصبح للأمر بالمعروف موظفون، وأصبح الخطباء موظفين، وأصبح الأئمة موظفين.

إن الصوت الذي ينبعث من حنجرة وراءها الخوف من الله، والأمل في رضاه، غير الصوت الذي ينبعث ليتلقى دراهم معدودة، فإذا توقفت توقف الصوت، وقديمًا قالوا: ليست النائحة كالثكلى، ولهذا قَلَّ التأثير، وبعد الناس عن جادة الصواب(١).

١٠ ـ الداعية يعفُّ عن أموال الناس:

لما عفا النبي ﷺ عن سراقة، عرض عليه سراقة المساعدة، فقال: وهذه كنانتي فخذ منها سهمًا، فإنك ستمر بإبلي وغنمي في موضع كذا وكذا، فخذ منها حاجتك، فقال رسول الله ﷺ: «لا حاجة لي فيها»(٢).

فحين يزهد الدعاة فيها عند الناس، يحبهم الناس، وحين يطمعون في أموال الناس، ينفر الناس منهم، وهذا درس بليغ للدعاة إلى الله تعالى(٣).

١١ ـ الجندية الرفيعة والبكاء من الفرح:

تظهر أثر التربية النبوية في جندية أبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما فأبو بكر رضي الله عنه عندما أراد أن يهاجر إلى المدينة، وقال له رسول الله ﷺ: «لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبًا» فقد بدأ في الإعداد والتخطيط للهجرة «فابتاع راحلتين واحتبسهما في داره يعلفهما إعدادًا لذلك» وفي رواية البخاري، «وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر ـ وهو الخبط ـ أربعة أشهر». لقد كان يدرك بثاقب بصره رضي الله عنه، وهو الذي تربى ليكون قائدًا، أن لحظة الهجرة صعبة، قد تأتي فجأة، ولذلك هيأ وسيلة الهجرة، ورتب تموينها، وسخر أسرته لخدمة النبي ﷺ، وعندما جاء رسول الله ﷺ، وأخبره أن الله قد أذن له في الخروج والهجرة، بكى

---

(١) انظر: معين السيرة (ص ١٤٨، ١٤٩).

(٢) المسند (١/ ٣ ورقمه ٣) تحقيق أحمد محمد شاكر، وقال محققو طبعة الرسالة. إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٣) انظر: في ظلال الهجرة النبوية (ص ٥٨).

من شدة الفرح. وتقول عائشة رضي الله عنها في هذا الشأن: «فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدًا يبكي من الفرح، حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذٍ»، إنها قمة الفرح البشرى؛ أن يتحول الفرح إلى بكاء.

فالصديق رضي الله عنه، يعلم أن معنى هذه الصحبة، أنه سيكون وحده برفقة رسول رب العالمين، بضعة عشر يومًا على الأقل، وهو الذي سيقدم حياته لسيده وقائده وحبيبه المصطفى ﷺ، فأي فوز في هذا الوجود؛ يفوق هذا الفوز: أن يتفرد الصديق وحده من دون أهل الأرض، ومن دون الصحب جميعًا برفقة سيد الخلق وصحبته - ﷺ - كل هذه المدة[1]، وتظهر معاني الحب في الله في خوف أبي بكر، وهو في الغار من أن يراهما المشركون، ليكون الصديق مثلاً لما ينبغي أن يكون عليه جندي الدعوة الصادق، مع قائده الأمين، حيث يحدق به الخطر، من خوف وإشفاق على حياته؛ فما كان أبو بكر ساعتئذٍ بالذي يخشى على نفسه الموت، ولو كان كذلك لما رافق رسول الله ﷺ في هذه الهجرة الخطيرة، وهو يعلم أن أقل جزائه القتل إن أمسكه المشركون مع رسول الله ﷺ، ولكنه كان يخشى على حياة الرسول الكريم ﷺ، وعلى مستقبل الإسلام إن وقع الرسول ﷺ في قبضة المشركين[2]، ويظهر الحس الأمني الرفيع للصديق في هجرته مع النبي ﷺ، في مواقف كثير منها؛ حين أجاب السائل: من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فقال: هذا هاد يهديني السبيل، فظن السائل أن الصديق يقصد الطريق، وإنما كان يقصد سبيل الخير، وهذا يدل على حسن استخدام أبي بكر للمعاريض، فرارًا من الحرج أو الكذب[3]، لأن الهجرة كانت سرًّا. وقد أقره الرسول ﷺ على ذلك[4]، وفي موقف علي بن أبي طالب مثال للجندي الصادق، المخلص لدعوة الإسلام، حيث فدى قائده بحياته، ففي سلامة القائد سلامة للدعوة، وفي هلاكه خذلانها ووهنها، فما فعله عليٌّ رضي الله عنه، ليلة الهجرة، من بياته على فراش الرسول ﷺ، إذ كان من المحتمل أن تهوي سيوف فتيان قريش على رأس علي رضي الله عنه، ولكن عليًا رضي الله عنه لم يبال بذلك، فحسبه أن يسلم رسول الله ﷺ، نبي الأمة، وقائد الدعوة[5].

١٢ - فن قيادة الأرواح، وفن التعامل مع النفوس:

يظهر الحب العميق الذي سيطر على قلب أبي بكر لرسول الله ﷺ، في الهجرة، كما يظهر حب سائر الصاحبة أجمعين، في سيرة الحبيب المصطفى ﷺ. وهذا الحب الرباني كان

(١) انظر: التربية القيادية (٢/ ١٩١، ١٩٢).
(٢) السيرة النبوية دروس وعبر للسباعي (ص ٧١).
(٣) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ٢٠٤).
(٤) انظر: الهجرة النبوية لأبي فارس (ص ٢٥٤).
(٥) انظر: السيرة النبوية للسباعي (ص ٦٨).

نابعًا من القلب، وبإخلاص، لم يكن حب نفاق، أو نابعًا من مصلحة دنيوية، أو رغبة في منفعة، أو رهبة لمكروه قد يقع، ومن أسباب هذا الحب لرسول الله ﷺ، صفاته القيادية الرشيدة، فهو يسهر ليناموا، ويتعب ليستريحوا، ويجوع ليشبعوا، كان يفرح لفرحهم، ويحزن لحزنهم، فمن سلك سنن الرسول ﷺ مع صحابته، في حياته الخاصة والعامة، وشارك الناس في أفراحهم وأتراحهم، وكان عمله لوجه الله، أصابه شيء من هذا الحب، إن كان من الزعماء، أو القادة، أو المسؤولين في أمة الإسلام[١].

إن القيادة الصحيحة؛ هي التي تستطيع أن تقود الأرواح قبل كل شيء، وتستطيع أن تتعامل مع النفوس قبل غيرها، وعلى قدر إحسان القيادة، يكون إحسان الجنود، وعلى قدر البذل من القيادة، يكون الحب من الجنود، فقد كان ﷺ رحيمًا وشفيقًا بجنوده، وأتباعه، فهو لم يهاجر إلا بعد أن هاجر معظم أصحابه، ولم يبق إلا المستضعفون والمفتونون، ومن كانت له مهمات خاصة بالهجرة[٢].

١٣ ـ وفي الطريق أسلم بريدة الأسلمي رضي الله عنه في ركب من قومه:

إن المسلم الذي تغلغلت الدعوة في شغاف قلبه، لا يفتر لحظة واحدة عن دعوة الناس إلى دين الله تعالى، مهما كانت الظروف قاسية، والأحوال مضطربة، والأمن مفقودًا، بل ينتهز كل فرصة مناسبة، لتبليغ دعوة الله تعالى، هذا نبي الله تعالى يوسف عليه السلام، حينما زج به في السجن ظلماً، واجتمع بالسجناء في السجن، فلم يندب حظه، ولم تشغله هذه الحياة المظلمة، عن دعوة التوحيد، وتبليغها للناس، ومحاربة الشرك، وعبادة غير الله، والخضوع لأي مخلوق، قال تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: الآيات ٣٧ ـ ٤٠].

وسورة يوسف عليه السلام مكية، وقد أمر الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ أن يقتدي بالأنبياء والمرسلين في دعوته إلى الله، ولذلك نجده ﷺ في هجرته من مكة إلى المدينة، وقد كان مطاردًا من المشركين، قد أهدروا دمه، وأغروا المجرمين منهم بالأموال الوفيرة، ليأتوا برأسه حيًا أوميتًا، ومع هذا فلم ينس مهمته ورسالته، فقد لقي ﷺ في طريقه رجلاً يقال له بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه، في ركب من قومه، فدعاهم إلى الإسلام فآمنوا وأسلموا[٣].

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ٥٤).

(٢) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ٢٠٥).

(٣) انظر: الهجرة النبوية لأبي فارس (ص ٥٩)، شرح المواهب (١/ ٤٠٥).

وذكر ابن حجر العسقلاني ـ رحمه الله ـ «أن النبي ﷺ في طريق هجرته إِلى المدينة، لقي بُريدة بن الحُصَيْب بن عبد الله بن الحارث الأسلمي، فدعاه إِلى الإِسلام، وقد غزا مع الرسول ﷺ ست عشرة[1] غزوة، وأصبح بريدة بعد ذلك من الدعاة إِلى الإِسلام، وفتح الله لقومه «أسلم» على يديه أبواب الهداية، واندفعوا إِلى الإِسلام، وفازوا بالوسام النبوي الذي نتعلم منه منهجًا فريدًا في فقه النفوس، قال ﷺ: «أسلم سالمها الله، وغفار غفر الله لها، أما إني لم أَقُلْها، ولكن قالها الله عز وجل»[2].

١٤ ـ وفي طريق الهجرة أسلم لصّان على يدي رسول الله ﷺ:

كان في طريقه ﷺ بالقرب من المدينة لصَّان من أسلم، يقال لهما المهانان، فقصدهما، ﷺ، وعرض عليهما الإِسلام فأسلما، ثم سألهما عن أسمائهما فقالا: نحن المهانان، فقال: «بل أنتما المكرمان»، وأمرهما أن يقدما عليه المدينة[3]، وفي هذا الخبر يظهر اهتمامه ﷺ بالدعوة إِلى الله، حيث اغتنم فرصة في طريقه، ودعا اللصين إِلى الإِسلام، فأسلما، وفي إِسلام هذين اللصين مع ما ألفاه من حياة البطش، والسلب والنهب، دليل على سرعة إِقبال النفوس على اتباع الحق، إِذا وجد من يمثله بصدق وإِخلاص، وتجردت نفس السامع من الهوى المنحرف، وفي إِهمام الرسول ﷺ بتغيير سمَي هذين اللصين من المهانين، إِلى المكْرمَين دليل على اهتمامه ﷺ بسمعة المسلمين، ومراعاته مشاعرهم إِكرامًا لهم، ورفعًا لمعنوياتهم.

وإِن في رفع معنوية الإِنسان تقوية لشخصيته، ودفعًا له إِلى الأمام ليبذل كل طاقته في سبيل الخير والفلاح[4].

١٥ ـ الزبير وطلحة رضي الله عنهما، ولقاؤهما برسول الله ﷺ في طريق الهجرة:

ومما وقع في الطريق إِلى المدينة، إِنه ﷺ، لقي الزبير بن العوام، في ركب من المسلمين كانوا تِجَارًا قافلين من الشام، فكسى الزبيرُ رسول الله ﷺ وأبا بكر ثيابًا بيضاء، رواه البخاري[5]، وكذا روى أصحاب السِّيَر أن طلحة بن عبيد الله لقيهما أيضًا، وهو عائد من الشام وكساهما بعض الثياب[6].

---

(١) انظر: الإِصالة (١/١٤٦).

(٢) صحيح الجامع الصغير (١/٣٢٨، رقم ٩٨٦)، مسلم، واللفظ له، ورقمه [١٨٥ـ ٢٥١٦].

(٣) الفتح الرباني للساعاتي (٢٠/٢٨٩) ورقمه في المسند ـ ط/الرسالة ـ (١٦٦٩١)، وأورده الهيثمي في المجمع (٦/٥٨، ٥٩) وقال: وابن سعد اسمه عبد الله ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

(٤) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٣/١٧٨).

(٥) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٤٩٥)، وهو في البخاري (ورقمه ٣٩٠٦).

(٦) السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٤٩٥)، صحيح السيرة النبوية (ص ١٨١).

١٦ ـ أهمية العقيدة والدين في إزالة العداوة والضغائن:

إن العقيدة الصحيحة السليمة، والدين الإسلامي العظيم، لهما أهمية كبرى في إزالة العداوات والضغائن، وفي التأليف بين القلوب والأرواح، وهو دور لا يمكن لغير العقيدة الصحيحة أن تقوم به، وها قد رأينا كيف جمعت العقيدة الإسلامية بين الأوس والخزرج، وأزالت آثار معارك استمرت عقودًا من الزمن، وأغلقت ملف ثارات كثيرة، في مدة قصيرة، بمجرد التمسك بها والمبايعة عليها، وقد رأينا ما فعلته العقيدة في نفوس الأنصار، فاستقبلوا المهاجرين بصدور مفتوحة، وتآخوا معهم في مثالية نادرة، لا تزال مثار الدهشة، ومضرب المثل، ولا توجد في الدنيا فكرة أو شعار آخر، فعل مثلما فعلت عقيدة الإسلام الصافية في النفوس.

ومن هنا ندرك السر في سعي الأعداء الدائب إلى إضعاف هذه العقيدة، وتقليل تأثيرها في نفوس المسلمين، واندفاعهم المستمر نحو تزكية النعرات العصبية والوطنية والقومية وغيرها، وتقديمها كبديل للعقيدة الصحيحة(١).

١٧ ـ فرحة المهاجرين والأنصار بوصول النبي ﷺ:

كان فرحة المؤمنين من سكان يثرب من أنصار ومهاجرين، بقدوم رسول الله ﷺ، ووصوله إليهم سالمًا، فرحة أخرجت النساء من بيوتهن والولائد، وحملت الرجال على ترك أعمالهم، وكان موقف يهود المدينة موقف المشارك لسكانها في الفرحة ظاهرًا، والمتألم من منافسة الزعامة الجديدة باطنًا، أما فرحة المؤمنين بلقاء رسولهم، فلا عجب فيها، وهو الذي أنقذهم من الظلمات إلى النور، بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، وأما موقف اليهود فلا غرابة فيه، وهم الذين عرفوا بالملق والنفاق للمجتمع الذي فقدوا السيطرة عليه، وبالغيظ والحقد الأسود ممن يسلبهم زعامتهم على الشعوب، ويحول بينهم وبين سلب أموالهم باسم القروض، وسفك دمائها باسم النصح والمشورة، وما زال اليهود يحقدون على كل من يخلص الشعوب من سيطرتهم، وينتهون من الحقد إلى الدس والمؤامرات، ثم إلى الاغتيال إن استطاعوا، ذلك دينهم، وتلك جبلتهم(٢).

ويستفاد من استقبال المهاجرين والأنصار لرسول الله ﷺ، مشروعية استقبال الأمراء والعلماء، عند مقدمهم بالحفاوة والإكرام، فقد حدث ذلك لرسول الله ﷺ، وكان هذا الإكرام وهذه الحفاوة نابعين من حب للرسول، بخلاف ما نراه من استقبال الزعماء والحكام في عالمنا المعاصر، ويستفاد كذلك التنافس في الخير، وإكرام ذوي العلم والشرف، فقد كانت كل قبيلة

---

(١) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ٤٠٥).

(٢) انظر: السيرة النبوية للسباعي (ص ٤٣)، الهجرة في القرآن الكريم (ص ٣٦٧).

تحرص أن تستضيف رسول الله ﷺ، وتعرض أن يكون رجالها حُراسًا له، ويؤخذ من هذا إِكرام العلماء والصالحين، واحترامهم وخدمتهم[١].

١٨ ـ وضوح سنة التدرج:

حيث نلاحظ أن رسول الله ﷺ عندما تقابل مع طلائع الأنصار الأولى، لم يفعل سوى ترغيبهم في الإِسلام، وتلاوة القرآن عليهم، فلما جاءوا في العام التالي بايعهم بيعة النساء، على العبادات والأخلاق والفضائل، فلما جاءوا في العام التالي كانت بيعة العقبة الثانية على الجهاد والنصر والإِيواء[٢].

وجدير بالملاحظة أن بيعة الحرب لم تتم إِلا بعد عامين كاملين، أي بعد تأهيل وإِعداد، استمر عامين كاملين، وهكذا تم الأمر على تدرج، ينسجم مع المنهج التربوي الذي نهجت عليه الدعوة من أول يوم[٣].

إِنه المنهج الذي هدى الله نبيه إِلى التزامه، ففي البيعة الأولى بايعه هؤلاء الأنصار الجدد على الإِسلام عقيدة ومنهاجًا وتربية، وفي البيعة الثانية بايعه الأنصار على حماية الدعوة، واحتضان المجتمع الإِسلامي الذي نضجت ثماره، واشتدت قواعده قوة وصلابة.

إِن هاتين البيعتين أمران متكاملان، ضمن المنهج التربوي للدعوة الإِسلامية، وإِن الأمر الأول هو المضمون، والأمر الثاني وهو بيعة الحرب، هو السياج الذي يحمي ذلك الضمون، نعم كانت بيعة الحرب بعد عامين من إِعلان القوم الإِسلام وليس فور إِعلانهم.

بعد عامين إِذ تم إعدادهم، حتى غدوا موضع ثقة، وأهلاً لهذه البيعة، ويلاحظ أن بيعة الحرب لم يسبق أن تمّت قبل اليوم مع أي مسلم، إِنما حصلت عندما وجدت الدعوة في هؤلاء الأنصار، وفي الأرض التي يقيمون فيها، المعقل الملائم الذي ينطلق منه المحاربون، لأن مكة لوضعها عندئذٍ لم تكن تصلح للحرب[٤].

وقد اقتضت رحمة الله بعباده «أن لا يحملهم واجب القتال، إِلى أن توجد لهم دار إسلام، تكون لهم بمثابة معقل يأوون إِليه، ويلوذون به، وقد كانت المدينة المنورة أول دار إسلام»[٥].

لقد كانت البيعة الأولى قائمة على الإِيمان بالله ورسوله ﷺ، والبيعة الثانية على الهجرة والجهاد، وبهذه العناصر الثلاثة: الإِيمان بالله، والهجرة، والجهاد، يتحقق وجود الإِسلام في

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ٣٥٨، ٣٥٩).

(٢) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ٢٠٢).

(٣) انظر: بناء المجتمع الإِسلامي في عصر النبوة، محمد توفيق (ص ١١٩).

(٤) المصدر نفسه (ص ١٢٢، ١٢٣).

(٥) انظر: فقه السيرة للبوطي (ص ١٧٢).

واقع جماعي ممكن، والهجرة لم تكن لتتم لولا وجود الفئة المستعدة للإيواء، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: الآية ٧٢] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [الأنفال: الآية ٧٥].

وقد كانت بيعة الحرب هي التمهيد الأخير لهجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، وبذلك وجد الإسلام موطنه الذي ينطلق منه دعاة الحق بالحكمة والموعظة، وتنطلق منه جحافل الحق المجاهدة أول مرة، وقامت الدولة الإسلامية المحكمة لشرع الله(١).

١٩ ـ الهجرة تضحية عظيمة في سبيل الله:

كانت هجرة النبي ﷺ وأصحابه، عن البلد الأمين، تضحية عظيمة، عبّر عنها النبي ﷺ بقوله: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت»(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قدمها وهي أوبأ أرض الله من الحمى، وكان واديها يجري نجلاً ـ يعني ماءً آجنًا ـ فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم، وصرف الله ذلك عن نبيه. قالت: فكان أبو بكر، وعامر بن فهيرة، وبلال في بيت واحد، فأصابتهم الحمى، فاستأذنت رسول الله ﷺ في عيادتهم فأذن، فدخلت إليهم أعودهم، وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب، وبهم ما لا يعلمه إلا الله، من شدة الوعك(٣)، فدنوت من أبي بكر فقلت: يا أبت كيف تجدُك؟ فقال:

كل امرىء مُصبَّح في أهله ... والموتُ أدنى من شِراك نعله

قالت: فقلت: والله ما يدري أبي ما يقول. ثم دنوت من عامر بن فهيرة فقلت: كيف تجدُك يا عامر؟ فقال:

لقد وجدت الموت قبل ذَوقه ... إن الجبان حتفُه من فَوقه
كل امرىءٍ مجاهد بطَوقه(٤) ... كالثور يحمي جلده بِرَوْقه(٥)

---

(١) انظر: الغرباء الأولون (ص ١٩٨، ١٩٩).

(٢) الترمذي، كتاب المناقب، باب فضل مكة (٥/ ٧٢٢ رقم ٣٩٢٥)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب صحيح» وقال الألباني: «صحيح».

(٣) الوعك: الحُمى.

(٤) بطوقه: بطاقته.

(٥) بروقه: بقرنه.

قالت: فقلت: والله ما يدري عامر ما يقول. قالت: وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى اضطجع بفناء البيت، ثم يرفع عقيرته[١] ويقول:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلة بواد وحولي إذْخر[٢] وَجَليل
وهل أَرِدَنْ يومًا مياه مَجَنَّة وهل يَبْدُوَنْ لي شامَةٌ وطَفيل[٣]

قالت: فأخبرت رسول الله ﷺ بذلك فقال: «اللهمَّ حبِّب إلينا المدينة، كما حَبَّبْتَ إلينا مكة، أو أشدَّ، وانقل حُمَّاها إلى الجُحْفَة، اللهم بارك لنا في مُدِّنا وصاعنا»[٤].

وقد استجاب الله دعاء نبيه ﷺ، وعوفي المسلمون بعدها من هذه الحمى، وغدت المدينة موطنًا ممتازًا لكل الوافدين والمهاجرين إليها، من المسلمين على تنوع بيئاتهم ومواطنهم[٥].

٢٠ ـ مكافأة النبي ﷺ لأم معبد:

وقد روي أنها كثرت غنمها، ونمت حتى جلبت منها جَلَبًا إلى المدينة، فمر أبو بكر، فرآه ابنها فعرفه، فقال: يا أُمَّه هذا الرجل الذي كان مع المبارك، فقامت إليه فقالت: يا عبد الله من الرجل الذي كان معك؟ قال: أو ماتدرين من هو؟ قالت: لا، قال: هو نبي الله، فأدخلها عليه، فأطعمها رسول الله ﷺ وأعطاها ـ وفي رواية: فانطلقت معي، وأهدت لرسول الله ﷺ شيئًا من أقط ومتاع الأعراب، فكساها وأعطاها، قال: ولا أعلمه إلا قال: وأسلمت، وذكر صاحب (الوفاء) أنها هاجرت هي وزوجها، وأسلم أخوها خنيس، واستشهد يوم الفتح[٦].

٢١ ـ أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه ومواقف خالدة:

قال أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه: ولما نزل عليّ رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السُّفْل، وأنا وأم أيوب في العُلْو، فقلت له: يا نبي الله ـ بأبي أنت وأمي ـ إني لأكره وأُعْظِم أن أكون فوقك، وتكون تحتي، فاظْهَر أنت فكن في العلو، ونتزل نحن فنكون في السفل. فقال: «يا أبا أيوب: إنّ أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سُفْل البيت»، قال: فلقد انكسر حُبٌّ[٧] لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا، مالنا لحاف غيرها، ننشف بها الماء تخوفًا أن يقطر على

---

(١) عقيرته: صوته، قال الأصمعي: إن رجلاً عُقرت رجله فرفعها على الأخرى، وجعل يصيح، فصار كل من رفع صوته، يقال له: رفع عقيرته وإن لم يرفع رجله.

(٢) الإذخر: نبات طيب الرائحة.

(٣) شَامة وطَفيل: جبلان مشرفان على مجنة على بريد مكة.

(٤) البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء برفع الوباء والوجع (رقم ٦٣٧٢) وفي مواضع أخرى، منها: رقم (١٨٨٩).

(٥) انظر: التربية القيادية (٢/ ٣١٠).

(٦) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٤٨٩، ٤٩٠).

(٧) الحُبُّ: بضم الحاء المهملة، وتشديد الباء الموحدة التحتية: الجرَّةُ الضخمة، (لسان العرب ـ مادة حبب).

رسول الله ﷺ منه شيء يؤذيه(١).

٢٢ ـ هجرة علي رضي الله عنه وأمره بالمعروف، ونهيه عن المنكر في المجتمع الجديد:

بعد أن أدى عن رسول الله ﷺ الأمانات التي كانت عنده للناس، لحق برسول الله ﷺ، وأدركه بقباء بعد وصوله بليلتين أو ثلاث، فكانت إقامته بقباء ليلتين، ثم خرج مع النبي ﷺ، إلى المدينة يوم الجمعة(٢)، وقد لاحظ سيدنا علي مدة إقامته بقباء امرأة مسلمة لازوج لها، ورأى إنسانًا يأتيها من جوف الليل، فيضرب عليها بابها، فتخرج إليه، فيعطيها شيئًا معه، فتأخذه، قال: «فاستربت بشأنه، فقلت لها: يا أمة الله، من هذا الذي يضرب عليك بابك كل ليلة فتخرجين إليه، فيعطيك شيئًا لا أدري ماهو؟ وأنت امرأة مسلمة، لازوج لك؟ قالت: هذا سهل بن حنيف بن وهب، قد عرف أني امرأة لا أحد لي، فإذا أمسى عدا على أوثان قومه فكسرها، ثم جاءني بها، فقال: احتطبي بهذا، فكان علي رضي الله عنه يأثر ذلك من أمر سهل بن حنيف حتى هلك عنده بالعراق»(٣).

٢٣ ـ الهجرة النبوية نقطة تحول في تاريخ الحياة:

«كانت الهجرة النبوية من مكة المشرفة إلى المدينة المنورة؛ أعظم حدث حوّل مجرى التاريخ، وغير مسيرة الحياة ومناهجها التي كانت تحيا بها، وتعيش محكومة بها في صورة قوانين ونظم وأعراف، وعادات وأخلاق وسلوك للأفراد والجماعات، وعقائد وتعبدات، وعلم ومعرفة، وجهالة وسفه، وضلال وهدى، وعدل وظلم»(٤).

٢٤ ـ الهجرة من سنن الرسل الكرام:

إن الهجرة في سبيل الله سنة قديمة، ولم تكن هجرة نبينا محمد ﷺ بدعًا في حياة الرسل لنصرة عقائدهم، فلئن كان قد هاجر من وطنه ومسقط رأسه، من أجل الدعوة حفاظًا عليها، وإيجاد بيئة خصبة تتقبلها، وتستجيب لها، وتذود عنها، فقد هاجر عدد من إخوانه من الأنبياء قبله من أوطانهم؛ للأسباب نفسها التي دعت نبينا للهجرة.

وذلك أن بقاء الدعوة في أرض قاحلة، لا يخدمها، بل يعوق مسارها ويشل حركتها، وقد يعرضها للانكماش داخل أضيق الدوائر، وقد قص علينا القرآن الكريم نماذج من هجرات الرسل وأتباعهم من الأمم الماضية لتبدو لنا في وضوح سنة من سنن الله في شأن الدعوات، يأخذ بها كل مؤمن من بعدهم، إذا حيل بينه وبين إيمانه وعزته، واستخف بكيانه ووجوده،

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ٢٢٠).

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٤٩٧).

(٣) انظر: محمد رسول الله، محمد الصادق عرجون (٢/ ٤٢١) ويأثر ذلك: أي يُحَدِّث به.

(٤) المصدر نفسه (٢/ ٤٢٣).

واعتدى على مروءته وكرامته[١].

هذه بعض الفوائد والعبر والدروس، وأترك للقارىء الكريم أن يستخرج غيرها، ويستنبط سواها من الدروس والعبر، والفوائد الكثيرة النافعة من هذا الحدث العظيم.

المبحث الثاني

الثناء على المهاجرين بأوصاف حميدة، والوعد لمن هاجر منهم، والوعيد لمن تخلف

تعتبر الهجرة النبوية المباركة، من مكة إلى المدينة، أهم حدث في تاريخ الدعوة الإسلامية، إذ كانت نقطة تحول في تاريخ المسلمين، كان المسلمون قبل الهجرة أمة دعوة، يبلغون دعوة الله للناس، دون أن يكون لهم كيان سياسي، يحمي الدعاة، أو يدفع عنهم الأذى من أعدائهم.

وبعد الهجرة تكونت دولة الدعوة، هذه الدولة التي أخذت على عاتقها نشر الإسلام، في داخل الجزيرة العربية وخارجها، ترسل الدعاة إلى الأمصار، وتتكفل بالدفاع عنهم وحمايتهم من أي اعتداء قد يقع عليهم، ولو أدى ذلك إلى قيام حرب أو حروب[٢].

وبجانب هذا، فإن الهجرة النبوية لها مكانتها في فهم القرآن وعلومه، حيث فرق العلماء بين المكي والمدني، فالمكي: مانزل قبل الهجرة، وإن كان بغير مكة، والمدني: ما نزل بعد الهجرة وإن كان بغير المدينة، وترتب على ذلك فوائد من أهمها:

١ ـ تذوق أساليب القرآن الكريم، والاستفادة منها في أسلوب الدعوة إلى الله.

٢ ـ الوقوف على السيرة النبوية من خلال الآيات القرآنية[٣]: ولأهمية الهجرة النبوية نرى أن القرآن الكريم حث المؤمنين على الهجرة في سبيل الله، بأساليب متنوعة، مرة بالثناء على المهاجرين بأوصاف حميدة، وأخرى بالوعد للمهاجرين، وتارة بالوعيد للمتخلفين عن الهجرة[٤].

أولاً: الثناء على المهاجرين بأوصاف حميدة:

فمن أهم الصفات المميزة للمهاجرين[٥]:

---

(١) انظر: الهجرة في القرآن الكريم (ص ١٧٥).

(٢) انظر: الهجرة النبوية، د. محمد أبو فارس (ص ١٣).

(٣) انظر: مباحث في علوم القرآن للقطان (ص ٥٩).

(٤) انظر: الهجرة في القرآن الكريم (ص ٨٤).

(٥) انظر: الهجرة في القرآن الكريم (ص ٨٥) هذا المبحث أخذته من هذا الكتاب مع التصرف اليسير.

١ ـ الإخلاص:

قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: الآية ٨] فقوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ يدل على أنهم لم يخرجوا من ديارهم وأموالهم إلا أن يكونوا مخلصين لله، مبتغين مرضاته ورضوانه(١).

٢ ـ الصبر:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [النحل: ٤١ ـ ٤٢].

٣ ـ الصدق:

قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: الآية ٨].

قال البغوي في تفسيره: قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي في إيمانهم(٢).

٤ ـ الجهاد والتضحية:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: الآية ٢٠].

ولعل الملاحظة الجديرة بالتأمل في هذا المجال، أن التضحية ملازمة للجهاد في سبيل الله، إذ لا جهاد دون تضحية(٣).

٥ ـ نصرهم لله ورسوله:

قال تعالى عن المهاجرين: ﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: الآية ٨].

٦ ـ التوكل على الله ﷻ:

قال تعالى عن المهاجرين: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: الآية ٤٢].

٧ ـ الرجاء:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ٢١٨].

---

(١) المصدر السابق (ص ٨٦).

(٢) انظر: تفسير البغوي (٤/ ٣١٨).

(٣) انظر: الهجرة في القرآن الكريم (ص١٠٦).

وإنما قال: ﴿يَرْجُونَ﴾ وقد مدحهم، لأنه لا يعلم أحد في هذه الدنيا أنه صائر إلى الجنة ولو بلغ في طاعة الله كل مبلغ لأمرين؛ أحدهما: لا يدري بما يختم له، والثاني: لئلا يتكل على عمله، فهؤلاء قد غفر الله لهم، ومع ذلك يرجون رحمة الله، وذلك زيادة إيمان منهم[(١)].

٨ ـ اتباع الرسول ﷺ في العسرة:

قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: الآية ١١٧].

وقد نزلت هذه الآية في غزوة تبوك.

قال قتادة: خرجوا إلى الشام عام تبوك، في لهبان الحر، على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جهد شديد، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم، يمصها هذا ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم وأقفلهم[(٢)] من غزوتهم[(٣)].

٩ ـ حق السبق في الإيمان والعمل يورث حيازة القدوة والسيادة:

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: الآية ١٠٠].

قال الرازي: والسبق موجب للفضيلة، فإقدامهم على هذه الأفعال يوجب اقتداء غيرهم بهم، وثبت بهذا أن المهاجرين هم رؤساء المسلمين وسادتهم[(٤)].

١٠ ـ الفوز:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [التوبة: الآية ٢٠].

قال أبو السعود في تفسيره: قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ أي المختصون بالفوز العظيم أو بالفوز المطلق، كأن فوز من عداهم ليس بفوز بالنسبة إلى فوزهم[(٥)].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٥٠)، تفسير أبي السعود (١/ ٢١٨).

(٢) أقفلهم: بمعنى أرجعهم سالمين.

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٩٧).

(٤) انظر: تفسير الرازي (١٥/ ٢٠٨).

(٥) تفسير أبي السعود (٤/ ٥٣).

١١ ـ الإيمان:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٧٤] .

ثانياً: الوعد للمهاجرين:

ذكر الله تعالى بعض النعم التي وعدها الله ـ ﷻ ـ للمهاجرين في الدنيا والآخرة ومن هذه النعم:

١ ـ سعة رزق الله لهم في الدنيا:

قال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النِّساء: الآية ١٠٠] .

ومن سعة رزق الله لهم في الدنيا تخصيصهم بمال الفيء والغنائم، فالمال لهؤلاء لأنهم أخرجوا من ديارهم فهم أحق الناس به[١] .

٢ ـ تكفير سيئاتهم ومغفرة ذنوبهم:

قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: الآية ١٩٥].

وقد ورد عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة في بيان أن الهجرة من أعظم الوسائل المكفرة للسيئات، وأنها سبب لمغفرة ذنوب أهلها.

٣ ـ ارتفاع منزلتهم وعظمة درجتهم عند ربهم:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: الآية ٢٠] .

فالذين نالوا فضل الهجرة والجهاد بنوعيه؛ النفسي والمالي أعلى مرتبة، وأعظم كرامة ممن لم يتصف بهما كائنًا من كان، ويدخل في ذلك أهل السقاية والعمارة[٢] .

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٩٥)، وتفسير أبي السعود (٨/ ٢٢٨)، وتفسير فتح القدير (٥/ ٢٠٠)، والهجرة في القرآن الكريم (ص ١٣٢).

(٢) تفسير المراغي (١٠/ ٧٨)، تفسير الرازي (١٦/ ١٣، ١٤).

٤ ـ تبشيرهم بالجنة والخلود فيها:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٠ ـ ٢٢].

هذا بعض ما وعد الله به المهاجرين من الجزاء والثواب بسبب جهادهم المرير.

إن المهاجرين بإيمانهم الراسخ، ويقينهم الخالص لم يمكنوا الجاهلية في مكة من وأد الدعوة، وهي في مستهل حياتها، لقد استمسكوا بما أُوحي إلى نبيهم، ولم تزدهم حماقة قريش إلا اعتصامًا بما اهتدوا إليه وآمنوا به، فلما أسرفت الجاهلية في ذلك؛ صاروا أهلاً لما أسبغه الله عليهم من فضل في الدنيا، وما أعده لهم يوم القيامة من ثواب عظيم(١).

ثالثًا: الوعيد للمتخلفين عن الهجرة:

من العقوبات التي تَوَعَّد الله ـ عز وجل ـ بها المتخلفين عن الهجرة، سوء المصير والعياذ بالله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: الآية ٩٧].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾ الآية، قال: فكتب إلى من بقي بمكة من المسلمين بهذه الآية، لا عذر لهم، قال: فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة، فنزلت فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: الآية ١٠].

فكتب المسلمون إليهم بذلك، فخرجوا وأيسوا من كل خير، ثم نزلت فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: الآية ١١٠](٢).

لقد وصف الله ـ سبحانه ـ المتخلفين عن الهجرة بأنهم ظالمو أنفسهم، والمراد بالظلم في هذه الآية، أن الذين أسلموا في دار الكفر وبقوا هناك، ولم يهاجروا إلى المدينة، ظلموا أنفسهم بتركهم الهجرة(٣).

---

(١) انظر: هجرة الرسول وصحابته في القرآن والسنة للجمل (ص ٣٣٢، ٣٣٣).

(٢) زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٩٧)، تفسير القاسمي (٣/ ٣٩٩).

(٣) انظر: الهجرة في القرآن الكريم (ص ١٦١).

وفي هذه الآية الكريمة، وعيد للمتخلفين عن الهجرة بهذا المصير السيء، وبالتالي التزم الصحابة بأمر الله، وانضموا إلى المجتمع الإسلامي في المدينة تنفيذًا لأمر الله، وخوفًا من عقابه، وكان لهذا الوعيد أثره في نفوس الصحابة ﷺ، فهذا ضَمْرة بن جُنْدُب، لما بلغه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النّساء: الآية ٩٧] وهو بمكة قال لبنيه: احملوني فإني لست من المستضعفين، وإني لأهتدي الطريق، وإني لا أبيت الليلة بمكة، فحملوه على سرير، متوجهًا إلى المدينة، وكان شيخًا كبيرًا، فمات بالتنعيم، ولما أدركه الموت، أخذ يصفق بيمينه على شماله، ويقول: اللهم هذه لك، وهذه لرسولك ﷺ، أبايعك على ما بايع عليه رسولك، ولما بلغ خبر موته الصحابة - ﷺ - قالوا: ليته مات بالمدينة، فنزل[1] قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النّساء: ٩٨، ٩٩].

وهذا الموقف يرينا ماكان عليه جيل الصحابة من سرعة في امتثال الأمر، وتنفيذه في النشاط والشدة، كائنة ما كانت ظروفهم، فلا يلتمسون لأنفسهم المعاذير، ولا يطلبون الرخص[2].

فهذا الصحابي تفيد بعض الروايات أنه كان مريضًا[3]، إلا أنه رأى أنه ما دام له مال يستعين به، ويحمل به إلى المدينة، فقد انتفى عذره، وهذا فقه أملاه الإيمان، وزكّاه الإخلاص واليقين[4].

وبعد أن ذكر الله - ﷻ - وعيده للمتخلفين عن الهجرة بسوء مصيرهم، استثنى في ذلك من لا حيلة لهم في البقاء في دار الكفر، والتعرض للفتنة في الدين، والحرمان من الحياة في دار الإسلام من الشيوخ والضعاف والنساء والأطفال، فيعلقهم بالرجاء في عفو الله ومغفرته ورحمته، بسبب عذرهم البين، وعجزهم عن الفرار[5]، قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النّساء: ٩٨، ٩٩].

---

(١) روح المعاني (٥/١٢٨، ١٢٩) للألوسي، أسباب النزول للواحدي (ص ١٨١).
(٢) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ١٢٤).
(٣) المصدر نفسه (ص ١٢٥).
(٤) المصدر السابق (ص ١٢٦).
(٥) انظر: الهجرة في القرآن الكريم (ص ١٦٧).

الفصل السابع

دعائم دولة الإِسلام في المدينة

شرع رسول الله ﷺ منذ دخوله المدينة، يسعى لتثبيت دعائم الدولة الجديدة، على قواعد متينة، وأسس راسخة، فكانت أولى خطواته المباركة الاهتمام ببناء دعائم الأمة، كبناء المسجد الأعظم بالمدينة، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار على الحب في الله، وإصدار الوثيقة أو الدستور الإِسلامي في المدينة، الذي ينظم العلاقات بين المسلمين واليهود ومشركي المدينة، وإعداد جيش لحماية الدولة، والسعي لتحقيق أهدافها والعمل على حل مشاكل المجتمع الجديد، وتربيته على المنهج الرباني في شؤون الحياة كافة، فقد استمر البناء التربوي والتعليمي، واستمر القرآن الكريم يتحدث في المدينة عن عظمة الله، وحقيقة الكون، والترغيب في الجنة، والترهيب من النار، ويشرع الأحكام لتربية الأمة، ودعم مقومات الدولة التي ستحمل نشر دعوة الله بين الناس قاطبة، وتجاهد في سبيل الله.

وكانت مسيرة الأمة العلمية والتربوية تتطور مع تطور مراحل الدعوة، وبناء المجتمع، وتأسيس الدولة.

وعالج رسول الله ﷺ الأزمة الاقتصادية بالمدينة من خلال المنهج الرباني. واستمر البناء التربوي، ففُرض الصيام وفُرضت الزكاة، وأخذ المجتمع يزدهر والدولة تتقوى على أسس ثابتة وقوية.

المبحث الأول

الدعامة الأولى

بناء المسجد الأعظم بالمدينة

«كان أول ماقام به الرسول ﷺ بالمدينة بناء المسجد، وذلك لتظهر فيه شعائر الإِسلام التي طالما حوربت، ولتقام فيه الصلوات التي تربط المرء برب العالمين، وتنقي القلب من أدران الأرض وأدناس الحياة الدنيا»(١).

---

(١) انظر: فقه السيرة للغزالي (ص ١٩١) وفقه السيرة للبوطي (ص ٥١) بتصرف.

روى البخاري بسنده أن رسول الله ﷺ دخل المدينة راكبًا راحلته، فسار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة وهو يصلي فيه يومئذٍ رجال من المسلمين، وكان مرْبدًا[١] للتمر لسهل وسهيل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته: «هذا إن شاء الله المنزل» ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمِرْبد ليتخذه مسجدًا، فقالا: لا، بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبةً حتى ابتاعه منهما[٢].

وفي رواية أنس بن مالك: فكان فيه ما أقول: كان فيه نخل وقبور المشركين وخَرِب، فأمر رسول الله ﷺ بالنخل فقطع، وبقبور المشركين فنُبشت، وبالخَرِب فسُوّيت، قال: فصفوا النخل قبلةً، وجعلوا عِضَادتيه حجارة، قال: فكانوا يرتجزون، ورسول الله ﷺ معهم وهم يقولون:

اللهم! إنه لا خير إلا خيرُ الآخره فانصر الأنصار والمهاجره[٣]

شرع الرسول ﷺ في العمل مع أصحابه، وضرب أول معول في حفر الأساس الذي كان عمقه ثلاث أذرع، ثم اندفع المسلمون في بناء هذا الأساس بالحجارة، والجدران ـ التي لم تزد على قامة الرجل إلا قليلاً ـ باللبن الذي يعجن بالتراب، ويسوّى على شكل أحجار صالحة للبناء[٤]. وفي الناحية الشمالية منه أقيمت ظلة من الجريد على قوائم من جذوع النخل، كانت تسمى «الصُّفة». أما باقي أجزاء المسجد فقد تركت مكشوفة بلا غطاء[٥].

أما أبواب المسجد فكانت ثلاثة: باب في مؤخرته من الجهة الجنوبية، وباب في الجهة الشرقية، كان يدخل منه رسول الله ﷺ بإِزاء باب بيت عائشة، وباب من الجهة الغربية، يقال له باب الرحمة أو باب عاتكة[٦].

أولاً: بيوتات النبي ﷺ التابعة للمسجد:

وبُني لرسول الله ﷺ حُجَر حول مسجده الشريف، لتكون مساكن له ولأهله، ولم تكن الحجر كبيوت الملوك والأكاسرة والقياصرة، بل كانت بيوتَ من تَرَفَّع عن الدنيا وزخارفها، وابتغى الدار الآخرة. فقد كانت كمسجده مبنية من اللبن والطين، وبعض الحجارة. وكانت سقوفها من جذوع النخل والجريد، وكانت صغيرة الفناء قصيرة البناء، ينالها الغلام الفارع بيده. قال الحسن البصري ـ وكان غلامًا مع أمه خَيرة مولاة أم سلمة ـ: «قد كنت أنال أول

(١) مربد: الموضع الذي يجفف فيه التمر. القاموس المحيط (١/ ٣٠٤).
(٢) البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ورقمه (٣٩٠٦).
(٣) مسلم، كتاب المساجد، باب ابتناء مسجد النبي ﷺ، ورقمه (٥٢٤).
(٤) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٣٣)، التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة، د. علي معطي (ص ١٥٦).
(٥) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٣٠٣)، محمد رسول الله ﷺ، لمحمد رضا (ص ١٤٣).
(٦) انظر: التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة، د. علي معطي (ص ١٥٧).

سقف في حجر النبي ﷺ بيدي»[١]. وهكذا كانت بيوت النبي ﷺ في غاية البساطة، بينما كانت المدينة تشتهر بالحصون العالية التي كان يتخذها عِلْيَةُ القوم، تباهياً بها في السِّلْم، واتقاءً بها في الحرب، وكانوا مِنْ تفاخرهم بها يضعون لها أسماء، كما كان حصن عبد الله بن أُبي ابن سلول اسمه مزاحماً، وكما كان حصن حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ اسمه فارعاً.

ولكن النبي ﷺ بنى بيوته بذلك الشكل المتواضع، وكان باستطاعته أن يبني لنفسه قصورًا شاهقة، ولو أنه أشار إلى رغبته بذلك ـ مجرد إشارة ـ لسارع الأنصار في بنائها له، كما كان بإمكانه أن يشيدها من أموال الدولة العامة كالفيء ونحوه، ولكنه ﷺ لم يفعل ذلك ليضرب لأمته مثلاً رفيعاً، وقدوة عالية في التواضع والزهد في الدنيا، وجمع الهمة والعزيمة للعمل لما بعد الموت[٢].

ثانيًا: الأذان في المدينة:

تشاور رسول الله ﷺ مع أصحابه لإيجاد عمل ينبه النائم ويدرك الساهي، ويُعْلِم الناس بدخول الوقت لأداء الصلاة، فقال بعضهم: ترفع راية إذا حان وقت الصلاة ليراها الناس، فاعترضوا على هذا الرأي لأنها لا تفيد النائم، ولا الغافل. وقال آخرون: نُشعل نارًا على مرتفع من الهضاب، فلم يقبل هذا الرأي أيضًا. وأشار آخرون ببوق، وهو (ما كانت اليهود تستعمله لصلواتهم) فكرهه الرسول ﷺ لأنه يحب مخالفة أهل الكتاب في أعمالهم. وأشار بعض الصحابة باستعمال الناقوس وهو (مايستعمله النصارى) فكرهه الرسول ﷺ أيضًا. وأشار فريق بالنداء فيقوم بعض الناس إذا حانت الصلاة وينادي بها فقُبل هذا الرأي. وكان أحد المنادين عبد الله بن زيد الأنصاري فبينما هو بين النائم واليقظان، إذ عرض له شخص وقال: ألا أعلمك كلمات تقولها عند النداء بالصلاة؟ قال: بلى، فقال له: قل: الله أكبر مرتين، وتشهد مرتين، ثم قل: حي على الصلاة مرتين، ثم قل: حي على الفلاح مرتين، ثم كبر ربك مرتين، ثم قل: لا إلٰه إلا الله. فلما استيقظ توجه إلى الرسول ﷺ وأخبره خبر رؤياه فقال: «إنها لرؤيا حق» ثم قال له: «القن بلالا فإنه أندى صوتاً منك»، وبينما بلال يؤذن للصلاة بهذا الأذان جاء عمر بن الخطاب يجر رداءه، فقال: والله لقد رأيت مثله يا رسول الله، وكان بلال بن رباح أحد مؤذنيه بالمدينة، والآخر عبد الله بن أم مكتوم، وكان بلال يقول في أذان الصبح بعد حي على الفلاح: «الصلاة خير من النوم مرتين»، وأقرّه الرسول ﷺ على ذلك[٣]، وكان يؤذن في البداءة من مكان مرتفع ثم استُحدثت المنارة (المئذنة).

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/٣٦).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/١٣).

(٣) انظر: نور اليقين للخضري، تحقيق أحمد عبد اللطيف، (ص ٩٥)، وتاريخ خليفة بن خياط، (ص ٥٦) نقلاً عن تاريخ دولة الإسلام الأولى، د. فايد حماد عاشور، سليمان أبو عزب، (ص ١٠٨).

ثالثًا: أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة:

كانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة أنه قام فيهم، فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال:

«أما بعد: أيها الناس فقدموا لأنفسكم. تَعْلَمُنَّ والله لَيُصعقَنَّ أحدكم، ثم لَيَدَعَنَّ غنمه ليس لها راعٍ، ثم ليقولن له ربه، وليس له تَرجُمان، ولا حاجبٌ يحجبه دونه: ألم يأتك رسولي فبلغَّك، وآتيتك مالاً، وأفضلت عليك، فما قدمت لنفسك؟ فَلَيَنْظُرَنَّ يمينًا وشمالاً فلا يرى شيئًا، ثم لينظرن قُدّامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق من تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تُجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

ثم خطب رسول الله ﷺ مرة أخرى فقال:

«إن الحمد لله أحمده وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. إنَّ أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى، قد أفلح من زينه الله في قلبه، وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس. إنه أحسن الحديث وأبلغه. أحبوا من أحبَّ الله، أحبوا الله من كل قلوبكم، ولا تملُّوا كلام الله وذكرَه، ولا تَقْسُ عنه قلوبكم، فإنه من كل ما يخلق الله؛ يختار ويصطفي، قد سمَّاه الله خِيرتَه من الأعمال، ومصطفاه من العباد، والصالح من الحديث، ومن كل ما أوتي الناس الحلالُ والحرام، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، واتقوه حق تقاته، واصدُقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم، وتحابُّوا بروح الله، إن الله يغضب أن يُنكَث عهدهُ، والسلام عليكم»[١].

رابعًا: الصُفَّة التابعة للمسجد النبوي:

لما تمّ تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة بأمر الله تعالى، وذلك بعد ستة عشر شهرًا من هجرته ﷺ إلى المدينة[٢]، بقي حائط القبلة الأولى في مؤخرة المسجد النبوي، فأمر النبي ﷺ به فظلل أو سقف، وأطلق عليه اسم «الصُفَّة» أو «الظُّلة»[٣] ولم يكن له مايستر جوانبه[٤].

---

(١) كذا وردت ألفاظ هاتين الخطبتين عن الإمام ابن إسحاق بالطبعة المحققة المضبوطة التي بين أيدينا وهي: السيرة النبوية لابن هشام: (ق ١/ ٥٠١، ٥٠٢) [انظر فهرس المراجع]، وانظر شرح الإمام السهيلي لبعض الضمائر والحروف الواردة بالخطبة الثانية؛ لتقف على المعاني المناسبة (الروض الأنف ٢/ ٢٥٠) «المراجع».

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري، (١/ ٢٥٧).

(٣) انظر: وفاء الوفاء للسمهودي، (١/ ٣٢١).

(٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٥٨).

قال القاضي عياض: الصفة ظُلة في مؤخر مسجد رسول الله ﷺ يأوي إليها المساكين وإليها يُنسب أهل الصفة[١].

وقال ابن تيمية: الصفة كانت في مؤخرة مسجد النبي ﷺ في شمالي المسجد بالمدينة المنورة[٢].

وقال ابن حجر: الصفة مكان في مؤخر المسجد النبوي مظلل أعد لنزول الغرباء فيه ممن لا مأوى له ولا أهل[٣].

١ ـ أهل الصُّفَّة:

قال أبو هريرة: «وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد»[٤].

إن المهاجرين الأوائل الذين هاجروا قبل النبي ﷺ، أو معه، أو بعده حتى نهاية الفترة الأولى قبل غزوة بدر، استطاع الأنصار أن يستضيفوهم في بيوتهم، وأن يشاركوهم النفقة، ولكن فيما بعد كبر حجم المهاجرين مما لم يعد هناك قدرة للأنصار على استيعابهم[٥].

فقد «صار المهاجرون يكثرون بعد ذلك شيئًا بعد شيء، فإن الإسلام صار ينتشر والناس يدخلون فيه.. ويكثر المهاجرون إلى المدينة من الفقراء والأغنياء، والآهلين والعُزَّاب، فكان من لم يتيسر له مكان يأوي إليه، يأوي إلى تلك الصُّفة في المسجد»[٦].

والذي يظهر للباحث أن المهاجر الذي يقدم إلى المدينة كان يلتقي بالرسول ﷺ ثم يوجهه بعد ذلك إلى من يكفله، فإن لم يجد فإنه يستقر في الصفة مؤقتًا، ريثما يجد السبيل[٧]. فقد جاء في المسند عن عبادة بن الصامت قال: «كان رسول الله ﷺ يُشغل فإذا قدم رجل مهاجر على رسول الله ﷺ دفعه إلى رجل منا يعلمه القرآن، فدفع إليَّ رسول الله ﷺ رجلاً، وكان معي في البيت أُعشِّيه عشاءَ أهل البيت، فكنت أُقرئه القرآن»[٨]. وقد كان أول من نزل الصُّفة المهاجرون[٩]، لذلك نسبت إليهم فقيل صفة المهاجرين[١٠]، وكذلك كان ينزل

---

(١) انظر: نظام الحكومة النبوية المسمى: التراتيب الإدارية، لعبد الحي الكتاني (١/ ٤٧٤).
(٢) الفتاوى: (١١/ ٣٨).
(٣) انظر: فتح الباري (١/ ٥٣٥، ٦/ ٥٩٥).
(٤) البخاري، رقم (٦٤٥٢).
(٥) انظر: السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة للشامي (ص ١٧٥).
(٦) الفتاوى: (١١/ ٤٠، ٤١).
(٧) انظر: السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة (ص ١٧٥).
(٨) المسند: (٥/ ٣٢٤).
(٩) انظر: وفاء الوفاء للسمهودي (١/ ٣٢٣).
(١٠) سنن أبي داود (٢/ ٣٦١).

بها الغرباء من الوفود التي كانت تقدم على النبي ﷺ معلنة إسلامها وطاعتها[1]، وكان الرجل إذا قدم على النبي ﷺ وكان له عريف نزل عليه، وإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصفة[2]، وكان أبو هريرة - رضي الله عنه - عَرِيفَ من سكن الصُّفة من القاطنين، ومن نزلها من الطارقين، فكان النبي ﷺ إذا أراد دعوتهم عهد إلى أبي هريرة فدعاهم لمعرفته بهم، وبمنازلهم ومراتبهم في العبادة والمجاهدة[3]. ونزل بعض الأنصار في الصُّفة حبًّا لحياة الزهد والمجاهدة والفقر على الرغم من استغنائهم عن ذلك. ووجود دار لهم في المدينة، ككعب بن مالك الأنصاري، وحنظلة بن أبي عامر الأنصاري (غَسيل الملائكة)، وحارثة بن النعمان الأنصاري، وغيرهم[4].

٢ ـ نفقة أهل الصُّفَّة ورعاية النبي ﷺ والصحابة لهم:

كان النبي ﷺ يتعهد أهل الصفة بنفسه، فيزورهم ويتفقد أحوالهم ويعود مرضاهم، كما كان يكثر مجالستهم، ويرشدهم ويواسيهم ويذكرهم ويعلمهم يوجههم إلى قراءة القرآن الكريم ومدارسته، وذكر الله والتطلع إلى الآخرة[5]، وكان ﷺ يؤمِّن نفقتهم بوسائل متعددة ومتنوعة منها:

أ ـ إذا أتته ﷺ صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئًا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها.

ب ـ كثيرًا ما كان يدعوهم إلى تناول الطعام في إحدى حجرات أمهات المؤمنين ـ رضي الله عنهن ـ ولم يكن يغفل عنهم مطلقًا، بل كانت حالتهم ماثلة أمامه، فعن عبد الرحمٰن بن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ قال: إن أصحاب الصُّفة كانوا أناسًا فقراء، وإن النبي ﷺ قال مرّة: «من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس ـ أو كما قال ـ وأن أبا بكر جاء بثلاثة، وانطلق النبي ﷺ بعشرة...»[6].

جـ ـ كما كان ﷺ يقدم حاجتهم على غيرها مما يطلب منه، فقد أُتي بسبي مرة فأتته فاطمة ـ رضي الله عنها ـ تسأله خادمًا، فكان جوابه ـ كما في المسند عند الإمام أحمد ـ: «والله لا أُعطيكما وأَدَعُ أهل الصُّفة تَطْوَى بطونُهم لا أجد ما أنفق عليهم، ولكني أبيعُهم وأنفق عليهم أثمانَهم»[7].

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/٢٥٨).
(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/٢٥٩).
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) المصدر السابق (١/٢٦٦).
(٦) البخاري برقم (٣٥٨١)، واللفظ له، ومسلم برقم (٢٠٥٧).
(٧) أصل الحديث في البخاري برقم (٣١١٣)، وهذا لفظ المسند (١/١٠٦، برقم ٨٣٨).

٣ ـ انقطاعهم للعمل والعبادة والجهاد:

كان أهل الصفة يعتكفون في المسجد للعبادة، ويألفون الفقر والزهد، فكانوا في خلواتهم يصلون ويقرأون القرآن ويتدارسون آياته، ويذكرون الله تعالى، ويتعلم بعضهم الكتابة حتى أهدى أحدهم قوسه لعبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ لأنه كان يعلمهم القرآن والكتابة[١].

وكان أهل الصفة يشاركون في الجهاد، بل كان منهم الشهداء، كما كانوا رهبانًا بالليل فرسانًا في النهار[٢]، وكان بعض الصحابة قد اختاروا المكوث في الصفة رغبة منهم لا اضطرارًا، كأبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ فقد أحب أن يلازم رسول الله ﷺ ويعوض مافاته من العلم والخير، وهذا لا يتوافر له إلا إذا كان قريبًا من بيت النبي ﷺ. قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: «إنكم تقولون إن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ﷺ، وتقولون: ما بال المهاجرين والأنصار لا يحدثون عن رسول الله ﷺ، بمثل حديث أبي هريرة، وإن إخوتي من المهاجرين كان يشغلهم صَفَقٌ بالأسواق، وكنت ألزم رسول الله ﷺ على ملء بطني، فأشهد إذا غابوا، وأحفظ إذا نسوا، وكان يشغل إخوتي من الأنصار عمل أموالهم، وكنت امرءًا مسكينًا من مساكين الصُّفة، أعي حين يَنسَون»[٣]. وهكذا يوضح ـ رضي الله عنه ـ أنه فعل ذلك رغبة منه في ملازمة النبي ﷺ ثم إن أبا هريرة كان له سكن في المدينة، وهو المكان الذي تسكنه أمه، والتي طلب من النبي ﷺ أن يدعو لها بالهداية[٤]، ثم إن أبا هريرة لم يكن فقيرًا معدمًا، ففي أول يوم قدم فيه على النبي ﷺ في خيبر، أسهم له ﷺ من الغنيمة كما أنه لما قدم كان معه عبد يخدمه كما ورد في الصحيح[٥]. إذن فالذي أفقره هو إيثاره ملازمة النبي ﷺ، واستماع أحاديثه، وكان يستطيع الاستغناء عن الصُّفة لو أراد[٦].

كان أهل الصُّفة يكثرون ويقلّون بحسب تبدل الأحوال التي تحيط بأهل الصُّفة من عودة الأهل، أو زوج، أو يسر بعد عُسر، أو شهادة في سبيل الله.

ولم يكن فقرهم لقعودهم عن العمل وكسب الرزق، فقد ذكر الزمخشري أنهم كانوا يرضخون النوى بالنهار، ويظهر أنهم كانوا يرضخون النوى ـ يكسرونه ـ لعلف الماشية، وهم ليسوا أهل ماشية، فهم إذن يعملون لكسب الرزق[٧].

---

(١) سنن أبي داود: ٢/ ٢٣٧، وابن ماجه: (٢/ ٧٣٠).

(٢) السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٦٤).

(٣) البخاري رقم (٢٠٤٧) واللفظ له، مسلم رقم (٢٤٩٢).

(٤) مسلم برقم (٢٤٩١).

(٥) انظر: السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة (ص ١٨٤).

(٦) المصدر نفسه (ص ١٨٤).

(٧) انظر: المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدي، لشُرَّاب (١/ ٢٢٢).

٤ ـ عددهم وأسماؤهم:

كان عددهم يختلف باختلاف الأوقات، فهم يزيدون إذا قدمت الوفود إلى المدينة ويقلُّون إذا قل الطارقون من الغرباء، على أن عدد المقيمين منهم في الظروف العادية كان في حدود السبعين رجلاً[(١)]، وقد يزيد عددهم كثيرًا حتى أن سعد بن عبادة كان يستضيف وحده ثمانين منهم فضلاً عن الآخرين الذين يتوزعهم الصحابة[(٢)]، ومن أراد الوقوف على بعض أسمائهم فليرجع إلى كتب السيرة[(٣)].

وقد وقع بعض الباحثين في خطأ فادح حيث استدل على مشروعية مسلك بعض المنحرفين من المتصوفة، من حيث ترك العمل والإخلاد إلى الراحة والكسل، والمكوث في الزوايا والتكايا، بحجة الاقتداء بحال أهل الصُّفة[(٤)]. إن أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ وهو أكثر ارتباطًا بالصُّفة من غيره لم يستمر فيها، وخرج إلى الحياة بل أصبح أميرًا في بعض أيامه على البحرين في عهد عمر بن الخطاب، ولم يكن مخشوشنًا في حياته[(٥)]، بل إن أهل الصُّفة كانوا من المجاهدين في سبيل الله في ساحات القتال، وقد استشهد بعضهم كما ذكرت.

خامسًا: فوائد ودروس وعبر:

١ ـ المسجد من أهم الركائز في بناء المجتمع:

إن إقامة المساجد من أهم الركائز في بناء المجتمع الإسلامي، ذلك أن المجتمع المسلم إنما يكتسب صفة الرسوخ والتماسك، بالتزام نظام الإسلام وعقيدته وآدابه، وإنما ينبع ذلك من روح المسجد ووحيه[(٦)].

قال تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: الآية ١٠٨].

قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ٣٧ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النُّور: الآيات ٣٦ ـ ٣٨].

---

(١) انظر: الحلية. أبو نُعيم (١/ ٣٣٩، ٣٤١).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٣٤١).

(٣) على سبيل المثال: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٦٢، ٢٦٣).

(٤) انظر: السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة (ص ١٨٦).

(٥) المصدر نفسه (ص ١٨٨).

(٦) انظر: فقه السيرة للبوطي (ص ٢٠٣ أو ١٤٣ط/ أخرى) بتصرف.

٢ ـ المسجد رمز لشمولية الإسلام:

أ ـ حيث «أُنشىء ليكون متعبدًا لصلاة المؤمنين، وذكرهم لله تعالى وتسبيحهم له، وتقديسهم إياه بحمده وشكره على نعمه عليهم، يدخله كل مسلم، ويقيم فيه صلاته وعبادته، ولا يضاره أحد ما دام حافظًا لقداسته، ومؤديًا حق حرمته»[١].

ب ـ كما «أُنشىء المسجد ليكون ملتقى رسول الله ﷺ بأصحابه، والوافدين عليه، طلبًا للهداية، ورغبة في الإيمان بدعوته وتصديق رسالته»[١].

ج ـ «وهو قد أنشىء ليكون جامعة للعلوم والمعارف الكونية، والعقلية، والتنزلية التي حث القرآن الكريم على النظر فيها، وليكون مدرسة يتدارس فيها المؤمنون أفكارهم، وثمرات عقولهم ومعهدًا يَؤُمُّه طلاب العلم من كل صوب، ليتفقهوا في الدين ويرجعوا إلى قومهم مبشرين ومنذرين، داعين إلى الله هادين، يتوارثونها جيلاً بعد جيل»[١].

د ـ وهو «قد أنشىء ليجد فيه الغريب مأوى، وابن السبيل مستقرًا، لا تكدره منّة أحد عليه، فينهل من رفده، ويعب من هدايته ما أطاق استعداده النفسي والعقلي، لا يصده أحد عن علم أو معرفة، أو لون من ألوان الهداية، فكم من قائد تخرج فيه، وبرزت بطولته من بين جدرانه، وكم من عالم استبحر علمه في رحابه، ثم خرج به على الناس يروي ظمأهم للمعرفة، وكم من داع إلى الله تلقى في ساحاته دروس الدعوة إلى الله، فكان أسوة الدعاة، وقدوة الهداة، وريحانةً جَذَبَ القلوبَ شذاها فانجفلت إليها تأخذ عنها الهداية لتستضيء بأنوارها؟»[٢].

وكم من أعرابي جلْف لا يفرق بين الأحمر والأصفر، وفد عليه فدخله ورأى أصحاب رسول الله ﷺ حوله هالةً تحف به، يسمعون منه وكأن على رؤوسهم الطير، فسمع معهم، وكانت عنده نعمة العقل مخبأة تحت ستار الجهالة، فانكشف له غطاء عقله، فعقل وفقه، واهتدى واستضاء، ثم عاد إلى قومه إمامًا يدعوهم إلى الله، ويربيهم بعلمه الذي علم، وسلوكه الذي سلك، فآمنوا بدعوته، واهتدوا بهديه، فكانوا سطرًا منيرًا في كتاب التاريخ الإسلامي»[٣].

هـ ـ وهو «قد أُنشىء ليكون قلعة لاجتماع المجاهدين إذا استنفروا، تعقد فيه ألوية الجهاد، والدعوة إلى الله، وتخفق فيه فوق رؤوس القادة الرايات للتوجه إلى مواقع الأحداث، وفي

---

(١) انظر: محمد رسول الله، محمد عرجون (٣/ ٣٣).

(٢) المصدر نفسه (٣/ ٣٤).

(٣) انظر: محمد رسول الله، محمد عرجون (٣/ ٣٤، ٣٥).

ظلها يقف جند الله في نشوة ترقب النصر أو الشهادة»[١].

و - وهو «قد أُنشىء ليجد فيه المجتمع المسلم الجديد ركنًا في زواياه، ليكون مشفى يستشفى فيه جرحى كتائب الجهاد، ليتمكن نبي الله ﷺ من عيادتهم والنظر في أحوالهم، والاستطباب لهم ومداواتهم في غير مشقة ولا نصب، تقديرًا لفضلهم»[١].

ز - «وهو قد أُنشىء ليكون مبردًا لبريد الإِسلام، منه تصدر الأخبار، ويبرد البريد، وتصدر الرسائل، وفيه تُتلقى الأنباء السياسية سلمًا أو حربًا، وفيه تُتلقى وتُقرأ رسائل البشائر بالنصر، ورسائل طلب المدد، وفيه ينعي المستشهدون في معارك الجهاد، ليتأسى بهم المتأسون وليتنافس في الاقتداء بهم المتنافسون»[١].

ح - «وهو قد أُنشىء ليكون مرقبًا للمجتمع المسلم، يتعرف منه على حركات العدو المريبة ويرقبها، ولا سيما الأعداء الذين معه يساكنونه ويخالطونه في بلده من شراذم اليهود، وزمر المنافقين، ونفايات الوثنية الذين عَسَوا[٢] في الشرك فلم يتركوه، ليعذر المجتمع المسلم عاقبة كيدهم وسوء مكرهم وتدبيرهم، ويأمن مغبة غدرهم وخياناتهم»[٣].

فالمسجد النبوي «بدأ بتأسيسه وبنائه رسول الله ﷺ أول ما بدأ من عمل في مستقره، ودار هجرته في مطلع مقدمه ليكون نموذجًا يُحتذى في بساطة المظهر، وعمق وعموم المخبر ليحقق به أعظم الأهداف، وأعمها بأقل النفقات وأيسر المشقات»[٤].

* ومن الفوائد والدروس والعبر:

٣ ـ التربية بالقدوة العملية:

من الحقائق الثابتة أن النبي ﷺ شارك أصحابه العمل والبناء، فكان يحمل الحجارة، وينقل اللَّبِن على صدره وكتفيه، ويحفر الأرض بيده كأي واحد منهم، فكان مثال الحاكم العادل الذي لا يفرّق بين رئيس ومرؤوس، أو بين قائد ومقود، أو بين سيد ومسود، أو بين غني وفقير، فالكل سواسية أمام الله، لافرق بين عربي ولا أعجمي إِلا بالتقوى، ذلك هو الإِسلام. عدالة ومساواة في كل شيء، والفضل فيه يكون لصاحب العطاء في العمل الجماعي للمصلحة العامة، وبهذا الفضل ثواب من الله، والرسول ﷺ كغيره من المسلمين لا يطلب إِلا ثواب الله[٥]. فقد كانت مشاركة

---

(١) انظر: المصدر السابق (٣/ ٣٥).

(٢) عَسَوا: أَسَنُّوا وكَبِروا.

(٣) محمد رسول الله: محمد عرجون (٣/ ٣٦).

(٤) المصدر السابق (٣/ ٣٣).

(٥) انظر: التاريخ السياسي والعسكري، د. علي معطي (ص ١٥٨).

النبي ﷺ في عملية البناء ككل العمال الذين شاركوا فيه، وليس بقطع الشريط الحريري فقط، وليس بالضربة الأولى بالفأس فقط، بل غاص بعملية البناء كاملة، فقد دهش المسلمون من النبي ﷺ وقد علته غَبرة، فتقدم أسيد بن حضير ـ رضي الله عنه ـ ليحمل عن رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أعطنيه؟ فقال: «اذهب فاحتمل غيره، فإنك لست بأفقر إلى الله مني»[١]، فقد سمع المسلمون ما يقول النبي ﷺ فازدادوا نشاطًا واندفاعًا في العمل[٢].

إنه مشهد فريد من نوعه، ولا مثيل له في دنيا الناس، وإذا كان الزعماء والحكام قد يقدمون على المشاركة أحيانًا بالعمل لتكون شاشات التلفاز جاهزة لنقل أعمالهم، وتملأ الدنيا في الصحف ووسائل الإعلام كلها بالحديث عن أخلاقهم، وتواضعهم، فالنبي ﷺ ينازع الحجر أحد أفراد المسلمين، ويبين له أنه أفقر إلى الله تعالى، وأحرص على ثوابه منه.

وقد تفاعل الصحابة الكرام تفاعلاً عظيمًا في البناء، وأنشدوا هذا البيت:

لئن قعدنا والنبيُّ يعملُ ... لَذَاك منا العملُ المضلَّلُ[٣]

إن هذه التربية العملية لاتتم من خلال الموعظة، ولا من خلال الكلام المنمق، إنما تتم من خلال العمل الحي الدَّءُوب، والقدوة المصطفاة من رب العالمين، والتي ما كان يمكن أن تتم في أجواء مكة، والملاحقة والاضطهاد والمطاردة فيها، إنما تتم في هذا المجتمع الجديد، والدولة التي تبنى، وكأنما غدا هذا الجمع من الصحابة الكرام كله صوتًا واحدًا، وقلبًا واحدًا فمضى يهتف:

لا عيش إلا عيش الآخرة ... اللَّهم ارحم الأنصار والمهاجرة

ويهتفون بلحن واحد:

لئن قعدنا والنبي يعملُ ... لذاك منا العمل المضلَّلُ

وكان الهتاف الثالث:

هذي الحِمال لا حمال خيبر ... هذا أبر لربنا وأطهر[٤]

فأحمال التمر والزبيب من خيبر إلى المدينة كانت لها مكانتها في المجتمع اليثربي، أصبحت لا تذكر أمام حمل الطوب لبناء المسجد النبوي العظيم، فقد أيقنوا: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا

(١) انظر: صور من حياة الرسول، أمين دويدار (ص ٢٦١).

(٢) انظر: التاريخ السياسي والعسكري، د. علي معطي (ص ١٥٨).

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤٩٦).

(٤) انظر: التربية القيادية، منير الغضبان (٢/ ٢٤٩).

عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ﴾ [النّحل: الآية ٩٦].

وأما الهتاف الرابع:

لا يستوي من يَعْمُرُ المساجدا يدأب فيه قائماً وقاعدا
ومن يُرَى عن الغبار حائدًا[1]

*** كذلك أيضًا من الفوائد والدروس والعبر:**

٤ ـ الاهتمام بالخبرة والاختصاص:

ورد في بعض الروايات اسم الصحابي (طَلْق بن علي اليمامي الحنفي) رضي الله عنه، أنه كان يحسن خلط الطين عند بناء المسجد النبوي الشريف، ومن أَمْثَل هذه الروايات ما جاء في (جامع الأصول) لابن الأثير بعد أن أورد حديث البخاري في كتاب الصلاة ـ باب التعاون في بناء المسجد، برقم (٤٤٧)، وفي كتاب الجهاد باب ـ مسح الغبار عن الرأس.. برقم (٢٨١٢)، قال ابن الأثير: قال رَزِين: وجاء رجل كان يحسن عجن الطين، وكان من حضرموت، فقال رسول الله ﷺ: «رحم الله امرءًا أحسن صنعته» وقال له: «الزم أنت هذا الشغل فإني أراك تحسنه»[2].

فقد اهتم النبي ﷺ بهذا الوافد الجديد على المدينة، والذي لم يكن من المسلمين الأوائل، ووظف خبرته في خلط الطين، وفي قوة العمل، وهو درس للمسلمين في الثناء على الكفاءات، والاستفادة منها، وإرشاد نبوي كريم في كيفية التعامل معها وما أحوجنا إلى هذا الفهم العميق[3].

٥ ـ شعار الدولة المسلمة:

إن أذان الصلاة شعار لأول دولة إسلامية عالمية: (الله أكبر.. الله أكبر) إنها تعني أن الله

---

(١) المصدر السابق نفسه: (٢/ ٢٤٩).

(٢) انظر: جامع الأصول لابن الأثير، تحقيق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط (جـ ١١/ ١٨٤، ح رقم ٨٧١٦) أما عن الروايات الأخرى التي ورد فيها ذكر عجَن الطين وإحسانه له؛ ففي أسانيدها كلام للعلماء، يمكن الرجوع إليها في: الرواية الأولى من مجمع الزوائد (٢/ ٩) مع ملاحظة أن الإمام الهيثمي عزاه للإمام أحمد، وللطبراني في الكبير، ووثق رجاله، ولم أجده في مسند الإمام أحمد في مسند سيدنا طلق كله، وأيضًا لم أجده في الطبراني في الكبير في مسند سيدنا طلق بهذا اللفظ، وإنما بألفاظ أخرى وأرقام الطبراني هي (٨٢٣٣ـ ٨٢٦٣) (جـ ٨/ ٣٩٦ـ ٤٠٦). وارجع أيضًا إلى: سنن الدارقطني ـ تعليق أبي الطيب العظيم أبادي (جـ ١/ ١٤٨، ١٤٩ ح رقم ١٤)، الإصابة لابن حجر عند ترجمة سيدنا طلق برقم (٤٣٠٢)، المغازي للذهبي ـ تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (ص ٣٧)، طبقات ابن سعد (٥/ ٥٥٢) ـ «المراجع».

(٣) انظر: التربية القيادية، منير الغضبان (٢/ ٢٥٢) بتصرف.

أكبر من أولئك، وأكبر من صانعي العقبات، وهو الغالب على أمره.

* **(أشهد أن لا إله إلا الله)** أي لا حاكمية، ولا سيادة، ولا سلطة إلا لله رب العالمين. «إِنْ الحكم إِلا لله» فمعنى لا إله إلا الله: لا حاكم ولا آمر ولا مُشرِّع مطلقًا إِلا الله.

* **(أشهد أن محمدًا رسولُ الله)** أسلمه الله تعالى القيادة، فليس لأحد أن ينزعها منه، فهو ماضٍ بها إِلى أن يُكمل الله دينه بما ينزله على رسوله من قرآن، وبما يلهمه إِياه من سُنّة[١]، ويعني الاعتراف لرسول الله بالرسالة، والزعامة الدينية والدنيوية والسمع والطاعة له[٢].

* **(حي على الصلاة.. حي على الفلاح)** أقبل يا أيها الإنسان للانضواء تحت لواء هذه الدولة التي أخلصت لله، وجعلت من أهدافها تمتين العلاقة بين المسلم وخالقه، وتمتين العلاقة بين المؤمنين على أساس من القيم السامية.

* **(قد قامت الصلاة)** وقد اختيرت الصلاة من بين سائر العبادات لأنها عماد الدين كله، ولأنها بما فيها من الشعائر كالركوع والسجود والقيام أعظم مظهر لمظاهر العبادة بمعناها الواسع التي تعني: الخضوع والتذلل والاستكانة فهي خضوع ليس بعده خضوع، فكل طاعة لله على وجه الخضوع والتذلل فهي عبادة وهي طاعة العبد لسيده، فيقف بين يديه قد أسلم نفسه طاعة وتذللًا. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: الآية ٦٦].

وهذا الارتباط بين شعار الدولة الرسمي بحاكمية الله وسيادة الشرع، وسقوط الطواغيت وقوانينهم وأنظمتهم وشرائعهم بـ (حي على الفلاح.. قد قامت الصلاة) يشير إِلى أنه لا قيام للصلاة، ولا إِقامة لها كما ينبغي إِلا في ظل دولة تقوم عليها، وتقوم بها ولها، فقد كان المسلمون يُصلُّون خُفيةً في شعاب مكة قبل قيام دولتهم، أمّا وقد قامت تحت حماية سيوف الأنصار فليجهروا بالأذان والإِقامة، وليركعوا وليسجدوا لله رب العالمين.

إِن الواقع التاريخي خير شاهد على أن الله لا يعبد في الأرض حق عبادته إِلا في ظل دولة قوية، تحمي رعاياها من أعداء الدين.

ثم تتكرر كلمات الأذان (الله أكبر.. الله أكبر) للتأكيد على المعاني السابقة[٣].

إِننا بحاجة ماسة لفهم الأذان، وإِدراك معانيه والعمل على ترجمته ترجمة عملية لنجاهد في الله حق جهاده، حتى نُدمِّر شعارات الكفر، ونرفع شعارات الإِيمان ونقيم دولة التوحيد التي تحكم بشرع الله ومنهجه القويم.

---

(١) انظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية، د. محمد قلعجي (ص ١١٤).

(٢) انظر: دولة الرسول ﷺ من التكوين إِلى التمكين، د. كامل سلامة الدقس (ص ٤٣٨).

(٣) انظر: دولة الرسول ﷺ من التكوين إِلى التمكين (ص ٤٣٩).

فضائل المسجد النبوي:

تحدث النبي ﷺ عن فضائل المسجد النبوي العظيمة؛ ولذلك تعلق الصحابة به. ويمكننا الرجوع إلى صحيحي البخاري ومسلم وغيرهما؛ للوقوف على هذه الفضائل الميمونة. وسنذكر هنا حديثًا واحدًا لمعناه العميق الذي نحتاجه ونستمسك به وهو عن:

٧ ـ فضل التعلم والتعليم في المسجد النبوي:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من دخل مسجدنا هذا ليتعلم خيرًا أو يُعَلمه كان كالمجاهد في سبيل الله، ومن دخله لغير ذلك كان كالناظر إلى ما ليس له»(١).

المبحث الثاني

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

كان من أولى الدعائم التي اعتمدها الرسول ﷺ في برنامجه الإصلاحي والتنظيمي للأمة وللدولة والحكم: الاستمرار في الدعوة إلى التوحيد، والمنهج القرآني، وبناء المسجد، وتقرير المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وهي خطوة لا تقل أهمية عن الخطوة الأولى في بناء المسجد، لكي يتلاحم المجتمع المسلم ويتآلف وتتضح معالم تكوينه(٢) الجديد.

كان مبدأ التآخي العام بين المسلمين قائمًا منذ بداية الدعوة، في عهدها المكي، ونهى الرسول ﷺ عن كل ما يؤدي إلى التباغض بين المسلمين، فقال ﷺ: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تَدَابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام»(٣).

وقال ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه(٤)، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرَّج عن مسلم كربة(٥) فرّج الله ـ عز وجل ـ عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة»(٦).

وقد أكد القرآن الكريم الأُخوة العامة بين أبناء الأمة في قوله تعالى:

---

(١) انظر: المصنف لابن أبي شيبة (٢/ ٣٧١، ١٢/ ٢٠٩ ـ رقم ١٢٥٦٧)، وأخرجه الحاكم (١/ ٩١) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، فقد احتجا بجميع رواته ثم لم يخرجاه، ولا أعلم له علة» وأورد الحاكم شاهدًا له عَقِبَه، وقال عنه الذهبي: على شرط (خ).

(٢) انظر: الإدارة الإسلامية في عصر عمر بن الخطاب، د. مجدلاوي (ص ٥٢، ٥٣).

(٣) البخاري رقم (٦٠٦٥)، واللفظ له، ومسلم رقم (٢٥٥٩).

(٤) أي لا يتركه مع من يؤذيه ولا فيما يؤذيه، بل ينصره ويدفع عنه.

(٥) كربة: أي غُمة.

(٦) البخاري، رقم (٢٤٤٢) واللفظ له، والمسند: (٢/ ٩١ ورقمه ٥٦٤٦).

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: الآية ١٠٣].

وقوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٦٣].

أما موضوع هذا البحث، فهو المؤاخاة الخاصة التي شرعت وترتبت عليها حقوق وواجبات أخص من الحقوق والواجبات العامة بين المؤمنين كافة[١].

وقد تحدث بعض العلماء عن وجود مؤاخاة كانت في مكة بين المهاجرين، فقد أشار البلاذُرِيّ إلى أن النبي ﷺ آخى بين المسلمين في مكة، قبل الهجرة على الحق والمواساة، فآخى بين حمزة وزيد بن حارثة، وبين أبي بكر وعمر، وبين عثمان بن عفان وعبد الرحمٰن بن عوف، وبين الزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود، وبين عبيدة بن الحارث وبلال الحبشي، وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبي وقاص، وبين أبي عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبي حذيفة، وبين سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وطلحة بن عُبيد الله، وبينه وبين علي بن أبي طالب[٢]. ويُعتبر البَلاذُرِي (ت ٢٧٦هـ) أقدم من أشار إلى المؤاخاة المكية، وقد تابعه في ذلك ابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ) دون أن يصرح بالنقل عنه، كما تابعهما ابن سيد الناس دون التصريح بالنقل عن أحدهما[٣]، وقد أخرج الحاكم في المستدرك من طريق جميع بن عمير عن ابن عمر: «آخى رسول الله ﷺ بين أبي بكر وعمر، وبين طلحة والزبير، وبين عبد الرحمٰن بن عوف وعثمان»[٤]، وعن ابن عباس: «آخى النبي ﷺ بين الزبير وابن مسعود»[٥].

وذهب كل من ابن القيم وابن كثير إلى عدم وقوع المؤاخاة بمكة، فقال ابن القيم: «وقد قيل إنه - أي النبي ﷺ - آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض، مؤاخاة ثانية، واتخذ فيها عليًا أخًا لنفسه، والثبت الأول[٦]، والمهاجرون كانوا مستغنين بأخوة الإسلام وأخوة الدار وقرابة النسب عن عقد مؤاخاة بخلاف المهاجرين مع الأنصار»[٧]، أما ابن كثير فقد ذكر أن

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ٢٤٠).
(٢) أنساب الأشراف للبلاذري (١/ ٢٧٠).
(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٤٠).
(٤) المصدر نفسه، (١/ ٢٤٠).
(٥) فتح الباري، (٧/ ٣٠٤)، ط/ دار المنار.
(٦) يعني المؤاخاة في المدينة.
(٧) زاد المعاد (٢/ ٧٩).

من العلماء من ينكر هذه المؤاخاة للعلة نفسها التي ذكرها ابن القيم[١].

لم تشر كتب السيرة الأولى المختصة إلى وقوع المؤاخاة بمكة، والبلاذري ساق الخبر بلفظ «قالوا» دون إسناد مما يضعف الرواية، كما أن البلاذري نفسه ضعفه النقاد، وعلى فرض صحة هذه المؤاخاة بمكة فإنها تقتصر على المؤازرة والنصيحة بين المتآخيين دون أن تترتب عليها حقوق التوارث[٢].

أولاً: المؤاخاة في المدينة:

ساهم نظام المؤاخاة في ربط الأمة بعضها ببعض، فقد أقام الرسول ﷺ هذه الصلة على أساس الإخاء الكامل بينهم، هذا الإخاء الذي تذوب فيه عصبيات الجاهلية، فلا حمية إلا للإسلام، وتسقط به فوارق النسب واللون والوطن، فلا يتأخر أحد أو يتقدم إلا بمروءته وتقواه.

وقد جعل الرسول ﷺ هذه الأخوة عقدًا نافذًا لا لفظًا فارغًا، وعملاً يرتبط بالدماء والأموال، لا تحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر.

وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج في هذه الأخوة وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال[٣].

والسبب الذي أدى إلى تقوية هذه الأخوة بين المهاجرين والأنصار، هو أن أهل هذا المجتمع ممن التقوا على دين الله وحده، نَشَّأهم دينهم الذي اعتنقوه على أن يقولوا ويفعلوا، وعلَّمهم الإيمان والعمل جميعًا، فهم أبعد ما يكونون عن الشعارات التي لا تتجاوز أطراف الألسنة. وكانوا على النحو الذي حكاه الله عنهم في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النُّور: الآية ٥١].

وبذلك الذي درج عليه المسلمون كفل البقاء والاستمرار لهذه الأخوة، التي شد الله بها أزر دينه ورسوله، حتى آتت ثمارها في كل أطوار الدعوة طوال حياته ﷺ، وامتد أثرها حتى وفاته ﷺ، وبقيت هذه المؤاخاة عند مبايعة الصديق ـ رضي الله عنه ـ ولم يُحدث الأنصار صدعًا في شمل الأمة مستجيبين في ذلك لشهوات السلطة، وغريزة السيطرة؛ لذلك فإن سياسة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار نوع من السبق السياسي الذي اتبعه رسول الله ﷺ في تأصيل المودة، وتمكينها في مشاعر المهاجرين والأنصار الذين سهروا جميعًا على رعاية هذه المودة،

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن كثير.

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٤١).

(٣) انظر: فقه السيرة للغزالي (ص ١٩٣، ١٩٤).

وذلك الإخاء، بل كانوا يتسابقون في تنفيذ بنوده[١]، ولا سيما الأنصار الذين لا يجد الكُتّاب والباحثون مهما تساموا إلى ذروة البيان خيرًا من حديث الله عنهم[٢] قال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: الآية ٩].

* بعض أسماء المهاجرين والأنصار ممن تآخوا في الله:

أبو بكر الصديق ـ ﷺ ـ وخارجة بن زهير، عمر بن الخطاب وعِتْبان بن مالك، أبو عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ، عبد الرحمٰن بن عوف وسعد بن الربيع، الزبير بن العوام وسلامة بن سلامة بن وَقْش، طلحة بن عُبيد الله وكعب بن مالك، سعيد بن زيد وأُبيّ بن كعب، مصعب بن عمير وأبو أيوب خالد بن زيد، أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وعبَّاد بن بشر بن وَقْش، عمار بن ياسر وحذيفة بن اليَمان، أبو ذر الغفاري والمنذر بن عمرو، حاطب بن أبي بلتعة وعُوَيم بن ساعدة، سَلْمان الفارسي وأبو الدرداء، بلال مؤذن رسول الله ﷺ وأبو رُوَيحة عبد الله بن عبد الرحمٰن الخَثْعمي ﷺ»[٣].

ثانيًا: الدروس والعبر والفوائد:

١ ـ آصرة العقيدة هي أساس الارتباط:

إن المجتمع المدني الذي أقامه الإسلام كان مجتمعًا عقديًا يرتبط بالإسلام، ولا يعرف الموالاة إلا لله ولرسوله وللمؤمنين، وهو أعلى أنواع الارتباط وأرقاه، إذ يتصل بوحدة العقيدة والفكر والروح[٤].

إن الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين من أهم الآثار والنتائج المترتبة على الهجرة، وكان القرآن الكريم يربي المسلمين على هذه المعاني الرفيعة، فقد بيَّن الحق سبحانه وتعالى أن ابن نوح وإن كان من أهله باعتبار القرابة، لكنه لم يعد من أهله لَمَّا فارق الحق وكفر بالله، ولم يتبع نبي الله. قال تعالى:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ

---

(١) انظر: فصول في السيرة النبوية د. عبد المنعم السيد (ص ٢٠٠).

(٢) انظر: هجرة الرسول وصحابته في القرآن والسنة، للجمل (ص ٢٤٥).

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (ق ١/٥٠٥، ٥٠٦)، ط/ دار ابن كثير، السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٣٢٤).

(٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٥٢).

ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هُود: ٤٥ ـ ٤٦].

وقد حصر الإسلام الأخوة والموالاة بين المؤمنين فقط، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحُجرَات: ١٠].

وقطع الولاية بين المؤمنين والكافرين من المشركين واليهود والنصارى، حتى لو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو أبناءهم، ووصف من يفعل ذلك من المؤمنين بالظلم، مما يدل على أن موالاة المؤمنين للكافرين من أعظم الذنوب، قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبَة: ٢٣].

فإذا كان الله سبحانه يحذر المؤمنين من موالاة الكفار عامة، فهناك آيات كثيرة، وردت في تحذير المؤمنين ونهيهم عن طاعة أهل الكتاب خاصة أو اتخاذهم أولياء أو الركون إليهم[(١)].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المَائدة: ٥١].

وحدد المولى ﷻ للذين آمنوا جهة الولاء الوحيدة التي تتفق مع صفة الإيمان، وبيّن لهم من يتولون، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المَائدة: ٥٥، ٥٦].

فقد فهم الصحابة أن ولاءهم لا يكون إلا لقيادتهم، وإخلاصهم لا يكون إلا لعقيدتهم، وجهادهم لا يكون إلا لإعلاء كلمة الله، فحققوا ذلك كله في أنفسهم وطبقوه على حياتهم، فمحضوا ولاءهم وجعلوه لله ورسوله والمؤمنين، وأصبح تاريخهم حافلاً بالمواقف الرائعة التي تدل على فهمهم العميق لمعنى الولاء الذي منحوه لخالقهم ولدينهم وعقيدتهم وإخوانهم.

إن التآخي الذي تم بين المهاجرين والأنصار كان مسبوقًا بعقيدة تم اللقاء عليها، والإيمان بها، فالتآخي بين شخصين يؤمن كل منهما بفكرة أو عقيدة مخالفة للأخرى خرافة ووهم، خصوصًا إذا كانت تلك الفكرة أو العقيدة مما يحمل صاحبها على سلوك معين في الحياة العملية، ولذلك كانت العقيدة الإسلامية التي جاء بها رسول الله ﷺ من عند الله تعالى هي

(١) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، أحزمي جزولي (ص ٤١٧).

العمود الفقري للمؤاخاة، التي حدثت، لأن تلك العقيدة تضع الناس كلهم في مصاف العبودية الخالصة لله دون الاعتبار لأي فارق إلا فارق التقوى والعمل الصالح، إذ ليس من المتوقع أن يسود الإخاء والتعاون والإيثار بين أناس فرقتهم العقائد والأفكار المختلفة، فأصبح كل منهم ملكًا لأنانيته وأثرته وأهوائه(١).

٢ ـ الحب في الله أساس بنية المجتمع المدني:

إن المؤاخاة على الحب في الله من أقوى الدعائم في بناء الأمة المسلمة، فإذا وهت يتآكل كل بنيانها(٢)، ولذلك حرص النبي ﷺ على تعميق معاني الحب في الله في المجتمع المسلم الجديد، فقد قال ﷺ: «إن الله ـ تعالى ـ يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم في ظلّي يوم لا ظل إلا ظلي»(٣).

وكان للحب في الله أثره في المجتمع المدني الجديد، فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: (كان أبو طلحة أكثرَ أنصاريٍّ بالمدينة نخلاً، وكان أحب أمواله إليه بَيْرُحَاءَ، وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب. فلما نزلت: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢] قام أبو طلحة فقال: يا رسول الله، إن الله يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إليَّ (بيرحاء)، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، قال رسول الله ﷺ: «ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعتُ ما قلتَ وإني أرى أن تجعلها في الأقربين» فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه)(٤).

وهذا عبد الرحمٰن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ يحدثنا عن هذه المعاني الرفيعة حيث قال: لَمَّا قدمنا المدينة آخى رسول الله ﷺ بيني وبين سعد بن الرَّبيع، فقال سعد بن الربيع: إني أكثر الأنصار مالاً فأقسم لك نصف مالي، وانظر أيَّ زوجتَيَّ هَوِيتَ نزلت لك عنها، فإذا حلّت(٥) تزوجتَها، قال: فقال عبد الرحمٰن: لا حاجة لي في ذلك، هل من سوق فيه تجارة؟ قال: سوق قَيْنُقاع(٦)، قال: فغدا إليه عبد الرحمٰن... إلى آخر الحديث(٧).

---

(١) انظر: فقه السيرة للبوطي، (ص ١٤٨)، ط/ دار السلام.

(٢) انظر: محمد رسول الله، عرجون (٣/ ١٢٩).

(٣) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الحب في الله، ورقمه (٢٥٦٦).

(٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ٢٥٤) وانظر: البخاري، أرقام (٤٥٥٤، ١٤٦١، ٥٦١١)، ومواضع أخرى.

(٥) نزلت لك عنها: أي طلقتها لأجلك، فإذا حلت: أي انقضت عدتها.

(٦) قينقاع: قبيلة من اليهود نسب السوق إليهم.

(٧) البخاري: كتاب البيوع، رقم (٢٠٤٨).

* **ومن الدروس والعبر والفوائد:**

٣ ـ النصيحة بين المتآخين في الله:

فقد كان للمؤاخاة أثر في المناصحة بين المسلمين، فقد آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء مُتَبَذِّلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعامًا، فقال: كُلْ، قال: فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم، فنام. ثم ذهب يقوم فقال: نم، فلما كان من آخر الليل، قال سلمان: قم الآن، فَصَليا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقًّا، ولنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، فأعط كل ذي حق حقه، فأتى النبيَّ ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: «صَدَقَ سلمان»[(١)].

٤ ـ لا، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم:

كان الأنصار قد واسوا إخوانهم المهاجرين بأنفسهم وزادوا على ذلك بأن آثروهم على أنفسهم بخير الدنيا، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قالت الأنصار للنبي ﷺ: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: «لا»، فقالوا: تكفونا المؤونة وَنَشْرَكْكُم في الثمرة، فقالوا: سمعنا وأطعنا[(٢)].

فهذا الحديث يفيد أن الأنصار عرضوا على النبي ﷺ أن يتولى قسمة أموالهم بينهم وبين إخوانهم المهاجرين، وقد كانت أموالهم هي النخيل فأبى عليهم النبي ﷺ، وأراد أمرًا تكون فيه المواساة من غير إجحاف بالأنصار، بزوال ملكية أموالهم منهم، فقال الأنصار للمهاجرين: تكفونا المؤونة ـ أي العمل في النخيل من سقيها وإصلاحها ـ ونشرككم في الثمرة، فلما قالوا ذلك رأى رسول الله ﷺ أن هذا الرأي ضمن سد حاجة المهاجرين، مع الإرفاق بالأنصار فأقرهم على ذلك فقالوا جميعًا: سمعنا وأطعنا[(٣)].

وقد شكر المهاجرون للأنصار فعلهم ومواقفهم الرفيعة في الإيثار والكرم، وقالوا: يارسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلاً في كثير، ولقد كفونا المؤنة وأشركونا في المهْنأ[(٤)] حتى لقد حسبنا أن يذهبوا بالأجر كله، قال: «لا، ما أثنيتم عليهم ودَعَوتم الله لهم»[(٥)].

---

(١) البخاري: كتاب الصوم، باب الوصال إلى السحر، ورقمه (١٩٦٨).

(٢) البخاري: المزارعة، رقم (٢٣٢٥) وموضعين آخرين.

(٣) انظر: التاريخ الإسلامي (٤/ ٢٩).

(٤) يعني كفونا العمل، وأشركونا في الثمرة.

(٥) مسند أحمد: (٣/ ٢٠١)، وبرقم (١٣٠٧٥) ط/ الرسالة، وقال الشيخ شعيب، والشيخ عادل مرشد: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وانظر: ابن أبي شيبة (٩/ ٦٨، رقم ٦٥٦١).

وفي إشارة المهاجرين إلى الأجر الأخروي بيان لعمق تصورهم للحياة الآخرة، وهيمنة هذا التصور على تفكيرهم[١].

وقد أراد النبي ﷺ أن يكافىء الأنصار على تلك المكارم العظيمة التي قدموها لإخوانهم المهاجرين، فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: دعا النبي ﷺ الأنصار إلى أن يُقْطِع لهم البحرين، فقالوا: لا، إلا أن تُقْطِع لإخواننا من المهاجرين مثلها، قال: «إمَّا لا، فاصبروا حتى تلقَوني فإنه سيصيبكم بعدي أَثَرَة»[٢].

لقد حققت هذه المؤاخاة أهدافها، فمنها إذهاب وحشة الغربة للمهاجرين، ومؤانستهم عن مفارقة الأهل والعشيرة، وشد أزر بعضهم بعضاً، ومنها نهوض الدولة الجديدة، لأن أي دولة لا يمكن أن تنهض وتقوم إلا على أساس من وحدة الأمة وتساندها، ولا يمكن لكل من الوحدة والتساند أن يتم بغير عامل التآخي والمحبة المتبادلة، فكل جماعة لا تؤلف بينها آصرة المودة والتآخي الحقيقية، لا يمكن أن تتحد حول مبدأ ما، وما لم يكن الاتحاد حقيقة قائمة في الأمة أو الجماعة فلا يمكن أن تتألف منها دولة[٣].

٥ ـ الإرث بالمؤاخاة:

لم يعرف تاريخ البشر كله حادثًا جماعيًا كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين بهذا الحب الكريم وبهذا البذل السخي، وبهذه المشاركة الفعالة وبهذا التسابق إلى الإيواء واحتمال الأعباء. فقد جعل النبي ﷺ من هذه الأخوة مسؤولية حقيقية تشيع بين هؤلاء الإخوة، و«جعل الله سبحانه وتعالى حق الميراث منوطًا بهذا التآخي دون حقوق القرابة والرحم، فقد كان من حكمة هذا التشريع أن تتجلى الأخوة الإسلامية حقيقة محسوسة في أذهان المسلمين وأن يعلموا أن مابين المسلمين من التآخي والتحابب ليس شعارًا وكلامًا مجردين»[٤].

والفترة الأولى من الهجرة وضعت كلاً من الأنصار والمهاجرين أمام مسؤولية خاصة من التعاون والتناصر والمؤانسة؛ بسبب مفارقة المهاجرين لأهلهم وتركهم ديارهم وأموالهم في مكة، ونزولهم ضيوفًا على إخوانهم الأنصار في المدينة، فكان من إقامة الرسول ﷺ من التآخي بين أفراد المهاجرين والأنصار ضمانة لتحقيق هذه المسؤولية، ولقد كان من مقتضى هذه المسؤولية أن يكون هذا التآخي أقوى في حقيقته وأثره من أُخوة الرحم المجردة، فلما استقر أمر المهاجرين في المدينة وتمكن الإسلام فيها غدت الروح الإسلامية هي وحدها العصب الطبيعي للمجتمع الجديد في المدينة.

فلما ألف المهاجرون جو المدينة وعرفوا مسالك الرزق فيها، وأصابوا من غنائم بدر

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/٢٩).

(٢) البخاري: مناقب الأنصار، رقم (٣٧٩٤).

(٣) في ظلال القرآن: (٦/٣٥٢٦).

(٤) انظر: فقه السيرة للبوطي (ص ١٤٩).

الكبرى ما كفاهم، رجع التوارث إلى وضعه الطبيعي المنسجم مع الفطرة البشرية على أساس صلة الرحم، وأبطل التوارث بين المتآخين، وذلك بنص القرآن الكريم فقال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥].

فهذه نسخت التوارث بموجب نظام المؤاخاة[١]، وبقيت النصرة والرفادة والنصيحة بين المتآخين[٢]، فقد بيَّن حبر الأمة ابن عباس ذلك عند قوله تعالى:

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَٰلِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٣٣] إنه قال: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ﴾ قال: ورثةً (والذين عاقدت[٣] أيمانكم) كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجرُ الأنصاريَّ دون ذوي رَحِمه؛ للأخوَّة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ﴾ نُسِخَت، ثم قال: ﴿والذين عاقدت أيمانكم﴾ من النصر والرِّفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراثُ ويوصِي له[٤].

٦ ـ قيم إنسانية ومبادىء مثالية:

من خلال الروابط الوثيقة التي ألفت بين المهاجرين والأنصار أُرْسِيَت قيم إنسانية واجتماعية ومبادىء مثالية لا عهد للمجتمع القبلي بها، وإنما هي من شأن المجتمعات المتحضرة الفاضلة.

٧ ـ تذويب الفوارق الإقليمية والقبلية:

إن القضاء على الفوارق الإقليمية والقبلية ليست بالأمر الهين في المجتمعات الجاهلية، حيث العصبية هي الدين عندهم، وعملية المؤاخاة تهدف إلى إذابة هذه الفوارق بصورة واقعية منطلقة من قلب البيئة الجاهلية.

إن من الأمراض في بعض جوانب الصف الإسلامي المعاصر سيطرة الروح الإقليمية والعصبية في نفوس بعض الدعاة، وهذه الأمراض تحول بينهم وبين التمكين، وتضعف الصفوف بل تُشتتها، وينشغل الصف بنفسه عن أهدافه الكبار.

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/٢٤٦).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي (٤/٢٥).

(٣) قال أبو حيان في البحر المحيط (٣/٢٣٨): «وقرأ الكوفيون: «عقَدت» بتخفيف القاف من غير ألف، وشدد القاف حمزة من رواية علي بن كبشة، والباقون «عاقدت» بألف. نقلاً عن تفسير القرآن العظيم لابن كثير، (٢/٢٥٢)، ط/ دار الشعب.

(٤) البخاري، كتاب التفسير ـ رقم (٤٥٨٠).

وقد تولد هذا عن أمراض في نفوس بعض الأفراد بسبب بعدهم عن القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين، فلم يتربوا عليها ولذلك كثر التناحر والتباغض.

إن المسلمين اليوم بأشد الحاجة إلى مثل هذه المؤاخاة التي حدثت بين المهاجرين والأنصار، لأنه يستحيل أن تُستأنف حياة إسلامية عزيزة قوية إذا لم تتخلق المجتمعات الإسلامية بهذه الأخلاق الكريمة، وترتقي إلى هذا المستوى الإيماني الرفيع وإلى هذه التضحيات الكبيرة.

٨ ـ المؤاخاة بين المسلمين من أسباب التمكين المعنوية:

إن من أسباب التمكين المعنوية، العمل على تربية الأفراد تربية ربانية، وإعداد القيادة الربانية، ومحاربة أسباب الفُرقة، والأخذ بأصول الوحدة والاتحاد[1].

وأهم أصول الوحدة والاتحاد: وحدة العقيدة، وصدق الانتماء إلى الإسلام، وطلب الحق والتحري في ذلك، وتحقيق الأخوة بين أفراد المسلمين:

قال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٣﴾ [الأنفال: ٦٢ ـ ٦٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الحُجرَات: ١٠].

ولا يذوق حلاوة الإيمان إلا من أُشرب هذه الأخوة، قال ﷺ: «ثلاث مَن كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[2].

إن الأخوة في الله من أهم الأسباب التي تعمل على الصمود في وجه أعتى المحن التي تنزل بالمسلمين، كما أن الفهم المتبادل والكامل للأخوة في الله، من أسباب تماسك صفوف المسلمين وقوتهم، ومن أسباب شموخهم والتمكين لهم[3].

٩ ـ من فضائل الأنصار:

أ ـ **تسمية الله لهم «الأنصار»**: سماهم الله ورسوله بهذا الاسم حين بايعوا على الإسلام، وقاموا

---

(١) انظر: فقه التمكين في القرآن للصَّلابي، (ص ٢٥٣).

(٢) انظر: البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، ورقمه (١٦).

(٣) انظر: نظرات في رسالة التعاليم، محمد عبد الله الخطيب، محمد عبد الحليم حامد، (ص ٢٦٢) بتصرف.

بإيواء المؤمنين ونُصرة دين الله ورسول الله ﷺ، ولم يكونوا معروفين بذلك من قبل[(١)]، فعن غيلان بن جرير رحمه الله قال: قلت لأنس ـ رضي الله عنه ـ: أرأيت اسم (الأنصار) كنتم تُسَمَّوْنَ به أم سماكم الله؟ قال: بل سمّانا الله عز وجل[(٢)]. أما مناقبهم وفضائلهم فكثيرة لا تحصى.

ومما ورد في القرآن الكريم فانظر:

(سورة الأنفال آية: ٧٤)، (سورة التوبة آية: ١٠٠)، (سورة الحشر آية: ٩).

وأما الأحاديث التي تحدثت عن مآثر الأنصار فمنها:

ب ـ **حب النبي ﷺ للأنصار**: عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: رأى النبي ﷺ النساء والصبيان مقبلين ـ قال: حَسبت أنه قال: من عُرُس ـ فقام النبي ﷺ مُمْثِلاً[(٣)]، فقال: «اللهم أنتم من أحب الناس إِلَيَّ» قالها ثلاث مرار[(٤)].

جـ ـ **حب الأنصار علامة الإيمان وبغضهم علامة النفاق، ومن أحبهم فاز بحب الله، ومن أبغضهم شقي ببغض الله**: عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «الأنصار لا يحبهم إِلا مؤمن، ولا يُبْغِضُهم إِلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله»[(٥)].

د ـ **الشهادة لهم بالعفاف**: فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما يضر امرأةً نزلت بين بيتين من الأنصار أو نزلت بين أبويها»[(٦)].

هـ ـ **رغبة النبي ﷺ في الانتساب إليهم لولا الهجرة**: عن النبي ﷺ قال: «لو أن الأنصار سلكوا واديًا أو شِعْبًا لسلكت في وادي الأنصار، ولولا الهجرةُ لكنت امرءًا من الأنصار»[(٧)].

و ـ **دعاء النبي ﷺ بالمغفرة لهم ولأبنائهم وأزواجهم ولذرياتهم**:

روى البخاري عن عبد الله بن الفضل أنه سمع أنس بن مالك يقول: «حَزِنتُ على من أصيب

---

(١) انظر: الهجرة النبوية المباركة، د. عبد الرحمٰن البر (ص ١٣١ـ ١٣٥).

(٢) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب الأنصار رقم (٣٧٧٦).

(٣) مُمْثلاً: بضم أوله وسكون ثانيه وكسر المثلثة، يَعني: انتصب قائمًا، يقال: مَثَلَ الرجل مثولاً إِذا انتصب قائمًا.

(٤) البخاري: كتاب مناقب الأنصار، رقم (٣٧٨٥).

(٥) البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب حب الأنصار من الإيمان، رقم (٣٧٨٣).

(٦) رواه أحمد (٦/ ٢٥٧)، ورقمه (٢٦٢٠٧) ط/الرسالة، وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، وسكت عنه الذهبي (٤/ ٨٣)، وأورده الهيثمي (المجمع ١٠/ ٤) وقال: رواه أحمد والبزار ورجالهما رجال الصحيح.

(٧) البخاري: مناقب الأنصار، رقم (٣٧٧٩).

بالحَرَّة، فكتب إليّ زيدُ بن أرقم ـ وبلغه شدة حزني ـ يَذْكُرُ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار». وشك ابنُ الفضل في: (أبناء أبناء الأنصار) فسأل أنسًا بعضُ من كان عنده، فقال: هو الذي يقول رسولُ الله ﷺ: «هذا الذي أوفى الله له بأُذُنِهِ»(١).

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «الأنصار كَرِشِي وعَيْبَتي(٢)، والناس سيكثرون، ويقِلُّون(٣) فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم»(٤).

وعن أبي قتادة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر للأنصار:

«... فمن ولى الأنصار فليحسن إلى محسنهم، وليتجاوز عن مسيئهم، ومن أفزعهم فقد أفزع هذا الذي بين هاتين ـ وأشار إلى نفسه»(٥).

المبحث الثالث

الوثيقة أو الصحيفة

نظم النبي ﷺ العلاقات بين سكان المدينة، وكَتَب في ذلك كتابًا أوردته المصادر التاريخية، واستهدف هذا الكتاب ـ أو الصحيفة ـ توضيح التزامات جميع الأطراف داخل المدينة، وتحديد الحقوق والواجبات، وقد سميت في المصادر القديمة بالكتاب والصحيفة، وأطلقت الأبحاث الحديثة عليها: لفظة (الدستور).

ولقد عرض الدكتور أكرم ضياء العمري في كتابه «السيرة النبوية الصحيحة» لدراسة طرق ورود الوثيقة، وقال: «ترقى بمجموعها إلى مرتبة الأحاديث الصحيحة»(٦)، وبيَّن أن أسلوب الوثيقة ينم عن أصالتها. فنصوصها مكونة من كلمات وتعابير كانت مألوفة في عصر الرسول ﷺ

---

(١) البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾، رقم (٤٩٠٦).

(٢) الكرش: كالكتف، والعَيْبة: بفتح المهملة وسكون المثناة بعدها موحدة، معناها ما يحرز الرجل فيها ويحفظ نفيس ما عنده من المتاع، والعَيبة من الرجل: موضع سره وأمانته. انظر: الهجرة النبوية المباركة، (ص ١٥٠)، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني (٧/ ١٥٢).

(٣) قال ابن حجر: «أي أن الأنصار يقلُّون، وفيه إشارة إلى دخول قبائل العرب والعجم في الإسلام، وهم أضعاف أضعاف قبيلة الأنصار، فمهما فرض من الأنصار من الكثرة كالتناسل فرض في كل طائفة من أولئك، فهم أبدًا بالنسبة إلى غيرهم قليل. ويحتمل أن يكون ﷺ اطلع على أنهم يقلون مطلقًا فأخبر بذلك، فكان كما أخبر لأن الموجودين الآن من ذرية علي بن أبي طالب ممن يتحقق نسبه إليه أضعاف من يوجد من قبيلتي الأوس والخزرج ممن يتحقق نسبه، وقس على ذلك، ولا التفات إلى كثرة من يدعي أنه منهم بغير برهان» فتح الباري: (٧/ ١٢٢).

(٤) البخاري: كتاب مناقب الأنصار، رقم (٣٨٠١).

(٥) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ١٥١).

(٦) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ٢٧٥).

ثم قلَّ استعمالها فيما بعد حتى أصبحت مغلقة على غير المتعمقين في دراسة تلك الفترة. وليس في هذه الوثيقة نصوص تمدح أو تقدح فردًا أو جماعة، أو تخص أحدًا بالإطراء أو الذم، لذلك يمكن القول بأنها وثيقة أصلية وغير مزورة[١]. ثم إن التشابه الكبير بين أسلوب الوثيقة وأساليب كتب النبي ﷺ يعطيها توثيقًا آخر.

أولاً: كتابه ﷺ بين المهاجرين والأنصار واليهود:

نص الوثيقة[٢]:

١ - هذا كتاب من محمد النبي ﷺ (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش (وأهل يثرب)، ومن تبعهم فلَحق بهم وجاهد معهم.

٢ - إنهم أمة واحدة من دون الناس.

٣ - المهاجرون من قريش على رِبْعتهم[٣] يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانِيَهم[٤] بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٤ - وبنو عوف على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم[٥] الأولى، وكل طائفة تَفدي عانِيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٥ - وبنو الحارث (بن الخزرج) على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانِيَها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.

٦ - وبنو ساعدة على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانِيَها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.

٧ - وبنو جُشَم على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانِيَها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.

٨ - وبنوالنجار على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانِيَها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.

٩ - وبنو عمرو بن عوف على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانِيَها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.

---

(١) تنظيمات الرسول الإدارية في المدينة لصالح العلى، (ص ٤، ٥).

(٢) مجموعة الوثائق السياسية لمحمد حميد الله (ص ٤١ ـ ٤٧).

(٣) الربعة: الحال التي جاء الإسلام وهم عليها.

(٤) العاني: الأسير.

(٥) المعاقل: جمع معقلة وهي الدِّيَات.

١٠ ـ وبنو النَّبيت على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانِيَها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.

١١ ـ وبنو الأوس على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانِيَها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.

١٢ ـ وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحًا[١] بينهم أن يُعطوه بالمعروف، من فِداء أو عَقْل وأن لا يحالف مؤمنٌ مولى مؤمنٍ دونه.

١٣ ـ وإن المؤمنين المتقين (أيديهم) على (كل) من بغى منهم أو ابتغى دَسِيعَةَ[٢] ظُلم، أو إثمًا أو عدوانًا أو فسادًا بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعًا ولو كان وَلَد أحدهم.

١٤ ـ ولا يقتل مؤمنٌ مؤمنًا في كافر، ولا ينصر كافرًا على مؤمن.

١٥ ـ وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

١٦ ـ وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

١٧ ـ وإن سِلْم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم.

١٨ ـ وإن كل غازية غزت معنا يُعقب بعضها بعضًا.

١٩ ـ وإن المؤمنين يُبِيء[٣] بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.

٢٠ ـ وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدي وأقومه. وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش، ولا نفسًا ولا يحول دونه على مؤمن.

٢١ ـ وإنه من اعتبط[٤] مؤمنًا قتلاً عن بينة فإنه قَوَدٌ به إلا أن يرضى ولي المقتول (بالعقل). وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيامٌ عليه.

٢٢ ـ وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحْدثًا أو يُؤويه، وإن مَن نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صَرف ولا عدل.

٢٣ ـ وإنه مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد ﷺ.

٢٤ ـ وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.

---

(١) المفرح: المثقل بالدّين والكثير العيال.

(٢) ابتغى دَسِيعَة ظُلْم: أي طلب دفعاً على سبيل الظلم. انظر: لسان العرب ـ مادة: «دَسَعَ».

(٣) يُبيء: مِنَ «البَوَاء»، وهو المساواة.

(٤) أي قتله دون جناية أو سبب يوجب قتله.

٢٥ - وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إِلا من ظلم نفسه وأثِم فإنه لا يُوتِغُ[١] إِلا نَفْسَه وأهلَ بيته.

٢٦ - وإِن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.

٢٧ - وإِن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.

٢٨ - وإِن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.

٢٩ - وإِن ليهود بني جُشَم مثل ما ليهود بني عوف.

٣٠ - وإِن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.

٣١ - وإِن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف إِلا من ظَلَم وأَثِم، فإِنه لا يُوتِغ إِلا نفسَه وأهلَ بيته.

٣٢ - وإِن جَفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم.

٣٣ - وإِن لبني الشُّطَيبة مثل ما ليهود بني عوف وإِن البر دون الإِثم.

٣٤ - وإِن موالي ثعلبة كأنفسهم.

٣٥ - وإِن بطانة يهود كأنفسهم.

٣٦ - وإِنه لا يخرج منهم أحد إِلا بإِذن محمد ﷺ.

[وإِنه لا ينحجز على ثار جُرْح؛ وإِنه من فَتَك فبنفسه فتك، وأهلِ بيته، إِلا من ظَلَم؛ وإِن الله على أَبَرِّ هذا][٢].

٣٧ - وإِن على اليهود نفقَتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإِن بينهم النصرَ على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإِن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإِثم.

٣٨ - وإِنه لا يأثم امرؤٌ بحليفه وإِن النصر للمظلوم.

[وإِن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين][٣].

٣٩ - وإِن يثرب حرام جَوفها لأهل هذه الصحيفة.

٤٠ - وإِن الجار كالنفس غير مُضارّ ولا آثم.

---

(١) يُوتغ: يُهْلك.

(٢) ما بين المعقوفين من سيرة ابن هشام ومعنى «على أبر هذا» أي: على الرضا به.

(٣) ما بين المعقوفين من سيرة ابن هشام، وقد سبقت برقم (٢٤)، فهل تكررت للتأكيد، أم لغير ذلك؟ ـ الله أعلم.

٤١ ـ وإنه لا تُجار حرمة إلا بإذن أهلها.

٤٢ ـ وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فسادُه فإن مَردَّه إلى الله، وإلى محمد رسول الله ﷺ، وإن الله على أتقى مافي هذه الصحيفة وأَبَرِّه[١].

٤٣ ـ وإن بينهم النصر من دَهم يثرب.

[وإنه لا تُجار قريش ولا من نصرها][٢].

٤٤ ـ (أ) وإذا دُعوا إلى صلح يصالحونه ويَلْبَسونه فإنهم يصالحون ويلبسونه، وإنهم إذا دُعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين.

(ب) على كل أناس حقهم[٣] من جانبهم الذي قِبَلهم.

٤٥ ـ وإن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسبٌ إلا على نفسه، وإن الله على ما أصدق مافي هذه الصحيفة وأبره.

٤٦ ـ وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة؛ إلا من ظلم وأَثِم، وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ[٤].

ثانيًا: دروس وعبر وفوائد من الوثيقة:

١ ـ تحديد مفهوم الأمة:

تضمنت الصحيفة مبادىء عامة درجت دساتير الدول الحديثة على وضعها فيها، وفي طليعة هذه المبادىء، تحديد مفهوم الأمة، فالأمة في الصحيفة تضم المسلمين جميعًا مهاجريهم، وأنصارهم، ومن تبعهم ممن لحق بهم وجاهد معهم، أمّة واحدة من دون الناس[٥]، وهذا شيء جديد كل الجدّة في تاريخ الحياة السياسية في جزيرة العرب، إذ نقل الرسول ﷺ قومه من شعار القبلية والتبعية لها، إلى شعار الأمة التي تضم كل من اعتنق الدين الجديد، فلقد قالت الصحيفة عنهم: إنهم «أمة واحدة» المادة (٢١) وقد جاء به القرآن الكريم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

---

(١) أي أن الله وحزبه المؤمنين على الرضا به.

(٢) هذه من ابن هشام.

(٣) في ابن هشام: «حِصَّتُهم».

(٤) انظر: مجموعة الوثائق السياسية (ص ٤١ـ ٤٧)، وانظر ابن هشام (ق ١/ ٥٠١ـ ٥٠٤).

(٥) انظر: التاريخ السياسي والعسكري، د. علي معطي (ص ١٦٩).

وبيّن سبحانه وتعالى وسطية هذه الأمة في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ووضح سبحانه وتعالى أنها بكونها أمة إيجابية فهي لا تقف موقف المتفرج من قضايا عصرها، بل تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتدعو إلى الفضائل، وتحذر من الرذائل[١]. قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١١٠].

وبهذاالاسم الذي أطلق على جماعة من المسلمين والمؤمنين، ومن تبعهم من أهل يثرب اندمج المسلمون على اختلاف قبائلهم في هذه الجماعة، التي ترتبط بينها برابطة الإسلام فهم يتكافلون فيما بينهم، وهم ينصرون المظلوم على الظالم، وهم يرعون حقوق القرابة، والمحبة، والجوار[٢]، لقد انصهرت طائفتا الأوس والخزرج في جماعة الأنصار، ثم انصهر الأنصار والمهاجرون في جماعة المسلمين وأصبحوا أمة واحدة[٣] تربط أفرادها رابطة العقيدة، وليس الدم، فيتحد شعورهم وتتحد أفكارهم وتتحد قبلتهم ووجهتهم، وولاؤهم لله وليس للقبيلة، واحتكامهم للشرع، وليس للعرف، وهم يتمايزون بذلك كله على بقية الناس «من دون الناس» فهذه الروابط تقتصر على المسلمين، ولا تشمل غيرهم من اليهود والحلفاء.

ولا شك أن تمييز الجماعة الدينية كان أمرًا مقصودًا، يستهدف زيادة تماسكها واعتزازها بذاتها[٤]، يتضح ذلك في تمييزها بالقبلة، واتجاهها إلى الكعبة بعد أن اتجهت ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا إلى بيت المقدس[٥].

وقد مضى النبي ﷺ يميز أتباعه عمن سواهم في أمور كثيرة، ويوضح لهم أنه يقصد بذلك مخالفة اليهود، من ذلك: أن اليهود لا يصلون بالخفاف، فأذن النبي ﷺ لأصحابه أن يصلوا بالخف، واليهود لا تصبغ الشيب فصبغ المسلمون شيب رؤوسهم بالحناء والكَتَم، واليهود تصوم عاشوراء، والنبي ﷺ يصومه أيضًا ثم اعتزم أواخر حياته أن يصوم تاسوعاء معه مخالفة لهم[٦]. ثم إن النبي ﷺ وضع للمسلمين مبدأ مخالفة غيرهم، والتميز عليهم فقال:

---

(١) انظر: دستور للأمة، د. عبد الناصر العطار (ص ٩).
(٢) انظر: التاريخ السياسي والحضاري، د. السيد عبد العزيز سالم (ص ١٠٠).
(٣) انظر: قيادة الرسول السياسية والعسكرية، أحمد راتب (ص ٩٣).
(٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٩٣).
(٥) تاريخ خليفة بن خياط (ص ٢٣، ٢٤)، وسيرة ابن هشام (١/ ٥٥٠).
(٦) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٩٣).
(٧) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٩٣).

«من تشبه بقوم فهو منهم»[١]، وقال: «لا تشبهوا باليهود»[١]، والأحاديث في ذلك كثيرة، وهي تفيد معنى تميز المسلمين واستعلائهم على غيرهم، ولا شك أن التشبه والمحاكاة للآخرين يتنافى مع الاعتزاز بالذات والاستعلاء على الكفار، ولكن هذا التميز والاستعلاء لا يشكل حاجزًا بين المسلمين وغيرهم فكيان الجماعة الإسلامية مفتوح، وقابل للتوسع ويستطيع الانضمام إليه من يؤمن بعقيدته[٢].

واعتبرت الصحيفة اليهود جزءًا من مواطني الدولة الإسلامية، وعنصرًا من عناصرها؛ ولذلك قيل في الصحيفة: «وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين، ولا متناصر عليهم» المادة (١٦) ثم زاد هذا الحكم إيضاحًا في المادة (٢٥) ومايليها حيث نص فيها صراحة بقوله: «وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين...».

وبهذا نرى أن الإسلام قد اعتبر أهل الكتاب الذين يعيشون في أرجائه مواطنين، وأنهم أمة مع المؤمنين، ماداموا قائمين بالواجبات المترتبة عليهم، فاختلاف الدين ليس ـ بمقتضى أحكام الصحيفة ـ سببًا للحرمان من مبدأ (المواطنة)[٣].

٢ ـ المرجعية العليا لله ورسوله:

جعلت الصحيفة الفصل في كل الأمور بالمدينة، يعود إلى الله ورسوله ﷺ، فقد نصت على مرجع فض الخلاف في المادة (٢٣)، وقد جاء فيها: «وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مردّه إلى الله وإلى محمد ﷺ». والمغزى من ذلك واضح وهو تأكيد سلطة عليا دينية، تهيمن على المدينة، وتفصل في الخلافات منعًا لقيام اضطرابات في الداخل من جراء تعدد السلطات، وفي الوقت نفسه تأكيد ضمني برئاسة الرسول ﷺ على الدولة[٤]. فقد حددت الصحيفة مصدر السلطات الثلاث التشريعية، والقضائية، والتنفيذية، فكان رسول الله ﷺ حريصًا على تنفيذ أوامر الله من خلال دولته الجديدة، لأن تحقيق الحاكمية لله على الأمة هو محض العبودية لله تعالى، لأنه بذلك يتحقق التوحيد، ويقوم الدين قال تعالى:

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يُوسُف: ٤٠].

يعني: «ما الحكم الحق في الربوبية والعقائد والعبادات، والمعاملات إلا لله وحده، يوحيه لمن اصطفاه من رسله لا يمكن لبشر أن يحكم فيه برأيه وهواه، ولا بعقله واستدلاله،

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٩٣).

(٢) انظر: نظام الحكم، ظافر القاسمي (١/ ٣٧).

(٣) انظر: التاريخ السياسي والحضاري، د. السيد عبد العزيز (ص ١٠٢).

(٤) انظر: تفسير المنار (١٢/ ٣٠٩).

ولا باجتهاده واستحسانه، فهذه القاعدة هي أساس دين الله تعالى على ألسنة جميع رسله لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة»(١).

لقد نزل القرآن الكريم من أجل تحقيق العبودية والحاكمية لله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزُّمر: ٢ ـ ٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النّساء: ١٠٥].

فكما أن تحقيق العبودية غاية من إنزال الكتاب؛ فكذلك تطبيق الحاكمية غاية من إنزاله، وكما أن العبادة لا تكون إلا عن وحي منزل؛ فكذلك لا ينبغي أن يحكم إلا بشرع منزل أو بما له أصل في شرع منزل(٢).

إن تحقيق الحاكمية تمكين للعبودية، وقيام بالغاية التي من أجلها خلق الإنسان والجان، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذّاريات: ٥٦].

وقد اعترف اليهود في هذه الصحيفة بوجود سلطة قضائية عليا، يرجع إليها سكان المدينة بمن فيهم اليهود بموجب المادة (٤٢)، لكن اليهود لم يُلزموا بالرجوع إلى القضاء الإسلامي دائمًا بل فقط عندما يكون الحدث أو الاشتجار بينهم وبين المسلمين، أما في قضاياهم الخاصة وأحوالهم الشخصية فهم يحتكمون إلى التوراة، ويقضي بينهم أحبارهم، ولكن إذا شاؤوا فبوسعهم الاحتكام إلى النبي ﷺ، وقد خيّر القرآن الكريم النبي ﷺ بين قبول الحكم فيهم أو ردّهم إلى أحبارهم، قال تعالى:

﴿سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

ومن القضايا التي أراد اليهود تحكيم الرسول ﷺ فيها، اختلاف بني النضير وبني قريظة في دِيَة القتلى بينهما، فقد كانت بنو النضير أعزّ من بني قريظة، فكانت تفرض عليهم دية مضاعفة لقتلاها، فلما ظهر الإسلام في المدينة امتنعت بنو قريظة عن دفع الضعف، وطالبت بالمساواة في الدِّيَة(٣)، فنزلت الآية: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ

---

(١) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/ ٤٣٣).

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٩١).

(٣) انظر: دولة الرسول ﷺ من التكوين إلى التمكين (ص ٤١٨).

يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المَائدة: الآية ٤٥].

وبهذه الصحيفة التي أقرت المادة (٤٢): «على أنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أواشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسوله ﷺ» أصبح للرسول ﷺ سلطة قضائية مركزية عليا، يرجع إليها الجميع، وجعلها ترجع إلى الله وإلى الرسول ﷺ، ولها قوة تنفيذية لأن أوامر الله واجبة الطاعة، وملزمة التنفيذ، كما أن أوامر الرسول ﷺ هي من الله، وطاعتها واجبة(١).

وبذلك أصبح رسول الله ﷺ رئيس الدولة، وفي الوقت نفسه رئيس السلطة القضائية والتنفيذية، والتشريعية، فقد تولى رسول الله ﷺ السلطات الثلاث بصفته رسول الله المكلف بتبليغ شرع الله، والمفسر لكلام الله، والسلطة التنفيذية بصفته الرسول الحاكم، ورئيس الدولة، فقد تولى رئاسة الدولة وَفْقَ نصوص الصحيفة، وباتفاق الطوائف المختلفة الموجودة في المدينة ممن شملتهم نصوص الصحيفة في المادة (٣٦) التي تقرر أنه: «لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد» ﷺ، ولهذا تأثير كبير في عدم السماح لهم بمحالفة قريش، أو غيرها من القبائل المعادية، وهناك المادة (التي بعد رقم ٤٣) التي ذهبت إلى ما هو أبعد وأصرح من ذلك، إذ قررت أنه: «لا تجار قريش ولا من نصرها» ولم يرد في الصحيفة اسم لأي شخص ماعدا رسول الله ﷺ(٢).

٣ ـ إقليم الدولة:

وجاء في الصحيفة: «وإن يثرب حرام جَوفها لأهل هذه الصحيفة» مادة (٣٩) وأصل التحريم أن لا يقطع شجرها، ولا يقتل طيرها، فإذا كان هذا هو الحكم في الشجر والطير، فما بالك في الأموال والأنفس؟(٣) فهذه الصحيفة حددت معالم الدولة: أمة واحدة، وإقليم هو المدينة، وسلطة حاكمة يرجع إليها وتحكم بما أنزل الله.

إن المدينة كانت بداية إقليم الدولة الإسلامية ونقطة الانطلاق، ومركز الدائرة التي كان الإقليم يتسع منها حتى يضع حدًا للقلاقل والاضطرابات، ويسوده السلم والأمن العام.

وقد أرسل النبي ﷺ أصحابه ليثبتوا أعلامًا على حدود حرم المدينة من جميع الجهات، وحدود المدينة بين لابتيها شرقًا وغربًا، وبين جبل ثور في الشمال، وجبل عَيْر في الجنوب.

ثم اتسع (الإقليم) باتساع الفتح، ودخول شعوب البلاد المفتوحة في الإسلام، حتى عمّ مساحة واسعة في الأرض والبحر ومايعلوهما من فضاء، فمن المحيط الأطلسي غربًا ومناطق

(١) المصدر نفسه (ص ٤٢٠).

(٢) انظر: نظام الحكم، ظافر القاسمي (١/ ٣٨).

(٣) انظر: دولة الرسول ﷺ من التكوين إلى التمكين (ص ٤١١).

واسعة من غرب أوروبا وجنوبها، ومناطق فسيحة من غرب آسيا وجنوبها، إلى أكثر أهل الصين وروسيا شرقًا، وكل شمال إفريقية وأواسطها[١]، إن إقليم الدولة مفتوح وغير محدود بحدود جغرافية أو سياسة، فهو يبدأ من عاصمة الدولة (المدينة) ويتسع حتى يشمل الكرة الأرضية بأسرها، قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] كما أن مفهوم الأمة مفتوح وغير منغلق على فئة دون فئة، بل هي ممتدة لتشمل الإنسانية كلها، إذا ما استجابت لدين الله تعالى الذي ارتضاه لخلقه ولبني آدم أينما كانوا.

فالدولة الإسلامية دولة الرسالة العالمية، لكل فرد من أبناء المعمورة نصيب فيها، وهي تتوسع بوسيلة الجهاد[٢].

٤ ـ الحريات وحقوق الإنسان:

إن الصحيفة تدل بوضوح وجلاء على عبقرية الرسول ﷺ في صياغة موادها وتحديد علاقات الأطراف بعضها ببعض، فقد كانت موادها مترابطة وشاملة، وتصلح لعلاج الأوضاع في المدينة آنذاك، وفيها من القواعد والمبادىء ما يحقق العدالة المطلقة، والمساواة التامة بين البشر، وأن يتمتع بنو الإنسان على اختلاف ألوانهم ولغاتهم وأديانهم بالحقوق والحريات بأنواعها[٣]. يقول الأستاذ الدكتور محمد سليم العوا: «ولا تزال المبادىء التي تضمنها الدستور ـ في جملتها ـ معمولاً بها، والأغلب أنها ستظل كذلك في مختلف نظم الحكم المعروفة إلى يوم... وصل إليها الناس بعد قرون من تقريرها في أول وثيقة سياسية دوَّنها الرسول ﷺ»[٤].

فقد أعلنت الصحيفة أن الحريات مصونة، كحرية العقيدة والعبادة، وحق الأمن... إلخ. فحرية الدين مكفولة: «للمسلمين دينهم ولليهود دينهم» قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦] وقد أنذرت الصحيفة بإنزال الوعيد، وإهلاك من يخالف هذا المبدأ أو يكسر هذه القاعدة، وقد نصت الوثيقة على تحقيق العدالة بين الناس، وعلى تحقيق مبدأ المساواة.

إن الدولة الإسلامية واجب عليها أن تقيم العدل بين الناس، وتفسح المجال وتيسر السبل أمام كل إنسان يطلب حقه أن يصل إلى حقه بأيسر السبل وأسرعها، دون أن يكلفه ذلك جهدًا

(١) المصدر نفسه (ص ٤٢١).
(٢) المصدر نفسه (ص ٤٢٠).
(٣) انظر: النظام السياسي في الإسلام (ص ٦٥).
(٤) المصدر نفسه (ص ٥٨).

أو مالاً[١]، وعليها أن تمنع أي وسيلة من الوسائل من شأنها أن تعيق صاحب الحق من الوصول إلى حقه.

لقد أوجب الإسلام على الحكام أن يقيموا العدل بين الناس، دون النظر إلى لغاتهم أو أوطانهم، أو أحوالهم الاجتماعية، فهو يعدل بين المتخاصمين ويحكم بالحق، ولا يهمه أن يكون المحكوم لهم أصدقاء أو أعداء، أغنياء أو فقراء، عمالاً أو أصحاب عمل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

والمعنى لا يحملنكم بغض قوم على ظلمهم، ومقتضى هذا أنه لا يحملنكم حب قوم على محاباتهم والميل معهم[٢].

أما مبدأ المساواة، فقد جاءت نصوص صريحة في الصحيفة حولها، منها: «أن ذمَّة الله واحدة» وأن المسلمين «يجير عليهم أدناهم» وأن «بعضهم موالي بعض دون الناس» ومعنى المادة الأخيرة: أنهم يتناصرون في السّراء والضرّاء، المادة (١٥). وتضمنت المادة (١٩) أن «المؤمنين يُبيء بعضهم على بعض، بما نال دماءهم في سبيل الله». قال السهيلي شارح السيرة في كتابه [الروض الأنف]: «ومعنى قوله يُبيء هو من البواء، أي: المساواة»[٣].

يعد مبدأ المساواة أحد المبادىء العامة التي أقرها الإسلام، وهو من المبادىء التي تساهم في بناء المجتمع المسلم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحُجرَات: ١٣].

وقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، أبلَّغتُ»[٤].

إن هذا المبدأ كان من أهم المبادىء التي جذبت الكثير من الشعوب قديمًا نحو الإسلام، فكان هذا المبدأ مصدرًا من مصادر القوة للمسلمين الأولين[٥].

وليس المقصود بالمساواة هنا (المساواة العامة) بين الناس جميعًا في كافة أمور الحياة كما

(١) المصدر السابق نفسه (ص ٥٢).

(٢) انظر: الروض الأنف (٢/١٧)، نقلاً عن نظام الحكم للقاسمي (١/٣٨).

(٣) انظر: مسند الإمام أحمد (٥/٤١١)، وبرقم (٢٣٤٨٩) من ط/ الرسالة، وقال محققوه: إسناده صحيح.

(٤) انظر: مبادىء نظام الحكم في الإسلام، عبد الحميد متولي (ص ٣٨٥).

ينادي بعض المخدوعين ويرون ذلك عدلاً[١]، فالاختلاف في المواهب والقدرات، والتفاوت في الدرجات غاية من غايات الخلق[٢]، ولكن المقصود المساواة التي دعت إليها الشريعة الإسلامية، مساواة مقيدة بأحوال، وليست مطلقة في جميع الأحوال[٣]. فالمساواة تأتي في معاملة الناس أمام الشرع، والقضاء، وكافة الأحكام الإسلامية والحقوق العامة دون تفريق بسبب الأصل، أو الجنس، أو اللون، أو الثروة، أو الجاه، أو غيرها[٤].

كانت الوثيقة قد اشتملت على أتمّ ما قد تحتاجه الدولة من مقوماتها الدستورية والإدارية، وعلاقة الأفراد بالدولة، وكان القرآن يتنزل في المدينة عشر سنين يرسم للمسلمين خلالها مناهج الحياة، ويرسي مبادىء الحكم، وأصول السياسة، وشئون المجتمع، وأحكام الحرام والحلال، وأسس التقاضي، وقواعد العدل، وقوانين الدولة المسلمة في الداخل والخارج، والسنة الشريفة تدعم هذا وتشيده، وتفصله في تنوير وتبصرة. فالوثيقة خطت خطوطًا عريضة في الترتيبات الدستورية، وتعتبر في القمة من المعاهدات التي تحدد صلة المسلمين بـ (الأجانب) الكفار المقيمين معهم، في شيء كثير من التسامح والعدل والمساواة، وعلى التخصيص إذا لوحظ أنها أول وثيقة إسلامية، تسجل وتنفذ في أقوام كانوا منذ قريب وقبل الإسلام أسرى العصبية القبلية، ولا يشعرون بوجودهم إلا من وراء الغلبة، والتسلط وبالتخوض في حقوق الآخرين وأشيائهم[٥]. كانت هذه الوثيقة فيها من المعاني الحضارية الشيء الكثير، وما توافق الناس على تسميته اليوم بحقوق الإنسان، وإنه لابد على الجانبين المتعاقدين أن يلتزموا ببنودها، فهل حدث هذا الالتزام؟[٦].

ثالثًا: موقف اليهود في المدينة:

لقد قامت الحجج القاطعة والبراهين الساطعة لليهود على صدق رسالة الرسول ﷺ، ولكن ذلك لم يزدهم إلا عنادًا، وعداوة، واستكبارًا، وحقدًا وحسدًا على الرسول والذين آمنوا معه، فعن صفية بنت حُيَي بن أخطب ـ أم المؤمنين ﵂ ـ أنها قالت: «كنت أحب ولد أبي إليه، وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قَطُّ مع ولد لهما إلا أخذاني دونه، قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل قباء في بني عمرو بني عوف، غدا عليه أبي حُيَي بن أخطب، وعمي أبو ياسر بن أخطب مُغَلِّسَيْن. قالت: فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس، قالت: فأتيا كالَّيْن كسلانين ساقطين يمشيان الهُوَيْنَى، قالت: فهَشِشْتُ إليهما، كما كنت أصنع، فوالله

(١) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها. للميداني (١/ ٦٢٤).
(٢) انظر: فلسفة التربية الإسلامية، ماجد الكيلاني (ص ١٧٩).
(٣) انظر: مبادىء علم الإدارة، محمد نور الدين (ص ١١٦).
(٤) انظر: فقه التمكين، د. علي الصَّلابي (ص ٤٦٣).
(٥) انظر: صورة وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، د. محمد فيض الله (ص ٢٩، ٣٠).
(٦) انظر: هجرة الرسول وصحابته للجمل (ص ٢٦١).

ما التفت إليّ واحد منهما، مع ما بهما من الغم، قالت: وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حيي بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفه وتُثْبته؟ قال: نعم. قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيتُ»[١].

وقد شن اليهود على رسول الله ﷺ والذين آمنوا معه حملات إعلامية لتشويه صورة الرسول ﷺ، وتنفير الناس منه، ونزع ثقتهم فيه منهم، لقد شعر اليهود بخطورة هذا الدين على مصالحهم، وعلى عقيدتهم المنحرفة المزيفة القائمة على الاستعلاء، واحتقار الناس، عدا الجنس اليهودي، لقد جاء ينادي بعقيدة التوحيد وهم يقولون: عزير ابن الله، وجاء ينادي بالمساواة بين أفراد الجنس البشري، وأنه لايعلو شعب على شعب، ولا جماعة على جماعة، وهم يرون أنهم شعب الله المختار، يترفعون عن بقية الأجناس، وينظرون إليهم على أنهم دونهم، وأقل منهم[٢]؛ ولذلك لم يلتزموا ببنود الوثيقة، وشرعوا في التشكيك في نبوة الرسول ﷺ ورسالته، وأكثروا من الأسئلة لإحراج رسول الله ﷺ، وخدعوا المؤمنين ودلسوا عليهم[٣]، وغير ذلك من الأعمال الخبيثة.

١ ـ محاولة اليهود لتصديع الجبهة الداخلية:

ومن وسائلهم الخبيثة في حرب الإسلام محاولاتهم المستمرة لتمزيق الصف المسلم وتخريبه بتقطيع أواصر المحبة بين المسلمين، وذلك بإثارة الفتن الداخلية، والشعارات الجاهلية، والنعرات الإقليمية، والدعوات القومية والقَبلية، والسعي بالدسيسة والوقيعة بين الإخوة المتآلفين المتوادين المتحابين، فهم في توادّهم وتعاطفهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر[٤].

فقد تفتق ذهن أحد شيوخهم الكبار في السن عن حيلة هدف بها إلى تفريق وحدة الأنصار، وذلك بإثارة العصبية القبلية بينهم ليعودوا إلى جاهليتهم، فتعود الحروب بينهم كما كانت، ويخسر النبي ﷺ بذلك أقوى أنصاره[٥]، وفي بيان هذا الخبر يقول محمد بن إسحاق ـ رحمه الله تعالى ـ: ومَرّ شأس بن قيس وكان شيخًا قد عَسَا[٦]، عظيمَ الكفر، شديدَ الضِّغْن على المسلمين، شديد الحسد لهم، على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه مارأى من ألفتهم وجماعتهم، وصلاح ذات بينهم

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥١٨، ٥١٩).
(٢) انظر: الصراع مع اليهود، د. محمد أبو فارس (١/ ٣١).
(٣) انظر: الصراع مع اليهود، د. محمد أبو فارس (١/ ٣١ـ ٤٦).
(٤) المصدر نفسه (١/ ٤٤).
(٥) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ٣٧).
(٦) عَسَا: كَبِرَت سِنُّه.

على الإسلام بعد الذي كان بينهم في الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ بني قَيْلَة[1] بهذه البلاد، لا والله مالنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شاباً مِنْ يهودَ كان معهم، فقال: اعْمِد إليهم فاجلس معهم ثم اذكر يوم بُعاث وما كان قَبلَه، وأنشدهم بعض ماكانوا تقاولوا فيه من الأشعار.

وكان يوم بُعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظَّفَر فيه يومئذٍ للأوس على الخزرج، وكان على الأوس يومئذٍ حُضير بن سماك الأشهلي، أبو أُسيد بن حُضَير، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البَيَاضي فقُتلا جميعًا.

قال ابن إسحاق: ففعل، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحَيَّيْن على الرُّكب: أوس بن قَيْظي، أحد بني حارثة بن الحارث، من الأوس، وجبَّار بن صخر، أحد بني سَلِمة من الخزرج، فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جَذَعة[2]، فغضب الفريقان جميعًا، وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرة ـ والظاهرة: الحرّة ـ السلاحَ السلاح، فخرجوا إليها.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم، فقال: «يا معشر المسلمين، الله الله، أَبِدَعوى الجاهلية، وأنا بين أظهُركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر وألف به بين قلوبكم؟».

فعرف القوم أنها نزغةٌ من الشيطان، وكيدٌ من عدوهم، فبَكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شأس بن قيس، فأنزل الله تعالى في شأس بن قيس، وما صنع: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عِمرَان: ٩٨، ٩٩].

وأنزل الله في أوس بن قَيْظي، وجَبَّار بن صخر، ومن كان معهما من قومها الذين صنعوا ما صنعوا عمّا أدخل عليهم شأسُ من أمر الجاهلية[3]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ

---

(١) قَيْلَة: أمّ الأوس والخزرج.

(٢) جَذَعَة: أي رددنا الحرب فتية قوية، أو رددنا الآخر إلى أوله.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (ق١/ ٥٥٥ ـ ٥٥٧).

لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٠٠ ـ ١٠٥].

ونرى من خلال القصة قدرة القيادة النبوية على إحباط مخطط اليهود الهادف لتفتيت وحدة الصف، واهتمام النبي ﷺ بأمور المسلمين وإشفاقه عليهم، وفزعه مما يصيبهم من الفتن والمصائب، فقد أسرع إلى الأنصار وذكرهم بالله، وبيّن لهم أن ما أقدموا عليه من أمر الجاهلية، وذكرهم بالإسلام وما أكرمهم الله به من القضاء على الحروب، والفتن وتطهير النفوس من الضغائن، وتأليف القلوب بالإيمان، وكان لكلمات النبي ﷺ أثر في نفوسهم وسرت في كيانهم روح جديدة مسحت كل أثر لأمر الجاهلية بفضل الله تعالى، ثم بكلمات نبيه ﷺ المعبرة، وروحه القوية المؤثرة، وهيئته الوثابة المنذرة، وأدركوا أن ما وقعوا فيه كان من وساوس الشيطان، وكيد عدوهم من اليهود، فبكوا ندمًا على ما وقعوا فيه من الذنوب، وتعانق رجال الإسلام تعبيرًا على محبتهم الإيمانية لبعضهم[1].

٢ ـ التهجم على الذات الإلهية:

ذكر غير واحد من كتاب السير، والمفسرين أن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ قد دخل بيت المِدْراس[2] على يهود، فوجد منهم ناسًا كثيرًا قد اجتمعوا إلى رجل منهم، يقال له: (فِنْحاص)، وكان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حبر من أحبارهم يقال له: (أشيع)، فقال أبو بكر لفنحاص: ويحك! اتق الله، وأسلم، فوالله إنك تعلم أن محمدًا لرسول الله قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص لأبي بكر: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، وماهو عنا بغني، ولو كان عنا غنيًا ما استقرضنا أموالنا، كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان عنا غنيًا ما أعطانا الربا، فغضب أبو بكر فضرب وجه فنحاص ضربًا شديدًا، وقال: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت رأسك أي عدو الله، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، انظر ماصنع بي صاحبك، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «ما حملك على ما صنعت؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن عدو الله قال قولاً عظيمًا إنه يزعم أن الله فقير، وأنهم أغنياء، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال، وضربت وجهه فجحد ذلك فنحاص، وقال: ماقلت ذلك، فأنزل الله تعالى فيما قال فنحاص ردًا عليه، وتصديقًا لأبي بكر: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عِمرَان: ١٨١].

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي (٤/ ٤١، ٤٢).

(٢) مكان يتلى فيه التوراة.

ونزل في أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وما بلغه في ذلك من الغضب[١]: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦][٢].

وذكر القرآن الكريم في أكثر من موضع سوء أدبهم مع الله سبحانه وتعالى، وعدم تنزيهه عن النقائص، ووصْفَه بما لا يليق به سبحانه، وهذا عين الوقاحة، وانعدام الأدب، ومن هذه الآيات، قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

ويبدو من مضمون أن هذا الموقف الذي وقفوه كان منبعثًا مما كان يملأ صدورهم من الغيظ والسخط من رسوخ في قدم النبي ﷺ، وانتشار دعوته، ولعل مما يصح أن يضاف إلى هذا الاحتمال كون المسلمين قد انصرفوا عنهم، أو قاطعوهم بسبب مواقف الكيد والجحود التي مافتئوا يقفونها، واستجابة لأمر القرآن ونهيه وتحذيره، فأثر ذلك في حالتهم الاقتصادية تأثيرًا سيئًا، زاد سخطهم وغيظهم وتبرمهم، ودفعهم إلى ما كان منهم من سوء الأدب في حق الله، ومن رد غير جميل لرسول الله ﷺ[٣].

٣ ـ سوء أدبهم مع رسول الله ﷺ والنيل من الرسل الكرام والقرآن الكريم:

وكان اليهود يسيئون الأدب مع رسول الله ﷺ، في حضرته وأثناء خطابه، إذ يلمزونه، ويحيونه بتحية فيها من الأذى والتهجم ما يدل على سوء أخلاقهم، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: جاء ناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: السام[٤] عليك يا أبا القاسم، فقلتُ: السام عليكم، وفعل الله بكم، فقال رسول الله ﷺ: «مه يا عائشة فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش»، فقلت: يا رسول الله ترى مايقولون؟ فقال: «ألست تريني أرد عليهم ما يقولون؟ وأقول: وعليكم» قالت: فنزلت هذه في ذلك[٥] وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٤/ ٢٩٥).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (ق١/ ٥٥٨، ٥٥٩)، وسبل الهدى والرشاد (٣/ ٥٨٣ـ ٥٨٥)، وتفسير مجاهد (ص ١٤٠).

(٣) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ٥١).

(٤) السَّام: الموت. انظر: زاد المسير (٨/ ١٨٩).

(٥) زاد المسير في علم التفسير (٨/ ١٨٩)، رواه ابن أبي حاتم من حديث الأعمش عن مسروق عن عائشة وإسناده صحيح. وفي صحيح مسلم (٤/ ١٧٠٧) رقمه (٢١٦٥).

نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: الآية ٨] .

وهذه الآية تظهر الحقد الذي هيمن على نفوس اليهود، ودفعهم إلى استخدام كل الوسائل والطرق لهدم الإسلام، والتخلص من صاحب الرسالة، والسيطرة على المسلمين، ولكن يظهر من دعاء بعض اليهود على الرسول ﷺ بالموت مع التظاهر بالسلام عليه، الضعفُ الذي كانوا عليه عند التجائهم إلى هذا النوع من السلام، فالممارس لمثل ما قام به اليهودي الذي سلم على الرسول ﷺ بقوله: السام عليك، يعيش أزمة نفسية متولدة عن فقدان عز كان يظن أنه ينعم فيه، لقد تغلبت قوى جديدة على ماضيه وحاضره، ولم يستطع أن يتفاعل مع من تغلب عليه. ومنعهم الحسد والغيرة من الانقياد للدين الجديد، ومما زاد في تأزم اليهود أنهم جربوا محاربة الإسلام بوسائلهم التي كانوا يظنون أنها لا تقهر، فكان الفشل حليفهم، لذلك لجأوا إلى الطرق السلبية، والوسائل الملتوية، فالدعاء على الخصم مع التظاهر بالسلام هو سلاح العاجزين، ووسيلة الخائبين، وترياق الحاقدين(١).

ولما سمع رسول الله ﷺ ما صدر عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ دعاها إلى الرفق واللين، وبيّن لها أن المسلم لا يجوز له أن يترك الغضب يتحكم فيه، فالرفق في الإسلام ثمرة لا يثمرها إلا حسن الخلق، فالله رفيق يحب الرفق ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف(٢).

وأما نيلهم من المرسلين فقد أتى رسول الله ﷺ نفر من يهود فيهم أبو ياسر بن أخطب، ونافع بن أبي نافع، وعازر بن أبي عازر، وغيرهم، وسألوا رسول الله ﷺ عمن يؤمن به من الرسل، فقال ﷺ: «نؤمن بالله، وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى وما أُوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون» فلما ذكر عيسى ـ عليه السلام ـ قالوا: لا نؤمن بعيسى ابن مريم، ولا نؤمن بمن آمن به(٣)، فأنزل الله فيهم:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩] .

وأما في محاولاتهم للنيل من القرآن الكريم في أسئلتهم، ونقاشهم الذي لا ينتهي، فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قالت أحبار اليهود: يا محمد، أرأيت قولك: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:

---

(١) انظر: حوار الرسول مع اليهود، د. محسن الناظر (ص ١٠١).

(٢) المصدر نفسه (ص ٨٧).

(٣) انظر: ابن هشام في السيرة (١/ ٥٦٧)، تفسير ابن جرير (١/ ٤٤٢)، وانظر: اليهود في السنة المطهرة ـ عبد الله الشقاري (١/ ٢٤٢، ٢٤٣).

٨٥] إيّانا تريد أم قومك؟ قال: «كُلاًّ» قالوا: فإنك تتلو فيما جاءك: أنا قد أوتينا التوراة فيها بيان كل شيء، فقال رسول الله ﷺ: «إنها في علم الله قليلٌ، وعندكم في ذلك ما يكفيكم لو أقمتموه»[1] قال: فأنزل الله تعالى عليه فيما سألوه عنه من ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

٤ ـ دعم حزب المنافقين وتآمرهم معهم:

حدثنا القرآن الكريم عن قيادة اليهود الفكرية لحزب المنافقين، فهم شياطين المنافقين يخططون لهم، ويوجهونهم، ويدرسونهم أساليب الكيد والمكر والخداع والدهاء، وإثارة الفتن، قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

قال النسفي في تفسيره: «وشياطينهم الذين ماثلوا الشياطين في تمردهم، وهم اليهود»[2].

وكان اليهود في المدينة يتآمرون مع المنافقين ضد المسلمين، وفي هذا التآمر قال تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء: ١٣٨ ـ ١٣٩].

قال الأستاذ محمد دَرْوَزَة: «وجمهور المفسرين على أن الكافرين هنا هم اليهود، وفي الآية قرينة على صحة ذلك، كما أن فيما بعدها قرينة ثانية أيضًا وواضح أن اتخاذ المنافقين اليهود أولياء، وتواثقهم معهم، إنما هما أثران من آثار التآمر الموطد بين اليهود والمنافقين تجاه الدعوة والقوة الإسلامية»[3].

وقد دفعوا المنافقين لإشعال حرب ضد رسول الله ﷺ، فعن عروة بن الزبير أن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ أخبره: أن رسول الله ﷺ ركب على حمارٍ على قطيفة فَدَكِيَّة، وأردف أسامة بن زيد وراءه، يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر، قال: حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أُبي ابن سَلول، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أُبي، فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين، عبدة الأوثان، واليهود والمسلمين، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غَشِيَت المجلس عَجَاجةُ الدابة، خمّر عبد الله بن أُبي أنفه بردائه، ثم قال: لا تُغبّروا علينا، فسلم رسول الله ﷺ عليهم ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أُبي ابن سلول: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول، إن كان حقًّا فلا تؤذنا به في مجلسنا، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه، فقال عبد الله بن رواحة:

---

(١) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٢٤١)، وانظر تفسير ابن كثير: سورة الإسراء، آية (٨٥).

(٢) انظر: تفسير النسفي (١/ ٢١).

(٣) انظر: سيرة الرسول ﷺ لدَرْوَزَة (٢/ ١٧٩، ١٨٠).

بلى يا رسول الله فاغْشَنَا به في مجالسنا، فإنا نحب ذلك فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون[١]، فلم يزل النبي ﷺ يُخَفِّضُهم حتى سكنوا، ثم ركب النبي ﷺ دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة فقال له النبي ﷺ: «يا سعد، ألم تسمع ما قال أبو حُبَاب ـ يريد عبد الله بن أُبي ـ قال كذا وكذا»، قال سعد بن عبادة: يا رسول الله اعف عنه واصفح عنه فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أَنزل عليك، ولقد اصطلح أهل هذه البُحَيْرَة[٢] على أن يُتَوِّجوه فَيُعَصِّبُوه بالعصابة، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شَرِقَ بذلك، فذلك فعل به مارأيتَ، فعفا عنه رسول الله ﷺ...[٣].

٥ ـ طعن اليهود فيمن آمن من الأحبار (عبد الله بن سَلَام) رضي الله عنه :

عندما بلغَ عبدَ الله بن سلام مَقْدَمُ رسول الله ﷺ المدينة، فأتاه فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي. قال: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ ومن أي شيء يَنْزِعُ الولد إلى أبيه؟ ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟ فقال رسول الله ﷺ: «خبَّرني بهن آنفًا جبريل»، قال: فقال عبد الله: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقال رسول الله ﷺ: «أما أول أشراط الساعة: فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة: فزيادة كبد حوتٍ، وأما الشَّبَهُ في الولد، فإن الرجل إذا غَشِيَ المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له، وإذا سبق ماؤها كان الشَّبَهُ لها» قال: أشهد أنك رسول الله، ثم قال: يا رسول الله إن اليهود قومٌ بُهْتٌ إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بَهَتُوني عندك، فجاءت اليهود ودخل عبد الله البيت، فقال رسول الله ﷺ: «أي رجل فيكم عبدُ الله بن سلام؟» قالوا: أعلمُنا وابن أعلمنا، وأخيرنا وابن أخيرنا، فقال رسول الله ﷺ: «أفرأيتم إن أسلم عبد الله؟» قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبد الله إليهم، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، فقالوا: شرُّنا وابن شرِّنا، ووقعوا فيه[٤].

فكانوا يؤذون من آمن من أحبارهم، ويثيرون حولهم الشكوك، ويقذفونهم بتهم باطلة قبيحة، وقد حدثنا القرآن الكريم عن هذه الوسيلة، ودافع عن هؤلاء المؤمنين الذين وجه اليهود ضدهم تلك الحملات الظالمة[٥]، قال تعالى: ﴿۞ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ

(١) يتثاورون: أي يتواثبون والمعنى: كادوا أن يثب بعضهم على بعض فيقتتلوا، ويقال: ثار، إذا قام بسرعة وانزعاج.

(٢) البحيرة: لفظ يطلق على القرية والبلد، والمراد به هنا المدينة.

(٣) البخاري، كتاب التفسير ـ باب (١٥)، رقم (٤٥٦٦).

(٤) البخاري، كتاب الأنبياء ـ باب خلق آدم، رقم (٣٣٢٩).

(٥) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ٥٩).

بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١١٣ ـ ١١٥].

قال الواحدي في أسباب النزول: «قال ابن عباس ومقاتل: لما أسلم عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية[(١)]، وأسد بن عُبيد، ومن أسلم من اليهود، قالت أحبار اليهود: ما آمن لمحمد إلا شرارنا، ولو كانوا من خيارنا لما تركوا دين آبائهم، وقالوا لهم: لقد خنتم حين استبدلتم بدينكم دينًا غيره، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾[(٢)] [آل عِمرَان: ١١٣] الآية.

٦ ـ بث الإشاعات والشماتة بالنبي ﷺ والمسلمين:

كان اليهود يتحينون الفرص للنيل من المسلمين والبحث عما يفرق كلمتهم، ومن ذلك استغلالهم ـ في الأشهر الأولى من الشهر ـ لوفاة أحد النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة العقبة، وهو أبو أُمامة أسعد بن زُرارة الأنصاري الخزرجي ـ رضي الله عنه ـ فعندما أخذته الشوكة[(٣)] فجاءه رسول الله ﷺ يعوده، فقال: «بئس الميت ليهود» ـ مرتين ـ «سيقولون: لولا دفع عن صاحبه، ولا أملك له ضرًّا ولا نفعًا، ولأتمحَّلَنَّ[(٤)] له» فأمر به فكُوي بخطين فوق رأسه فمات وفي رواية: «فكواه حَوْران»[(٥)]، على عنقه فمات، فقال النبي ﷺ: «بئس الميت لليهود؛ يقولون: قد داواه صاحبه أفلا نفعه»[(٦)]. ولم تكن حادثة أبي أمامة هي الحدث الوحيد الذي أبان الحقد اليهودي على المسلمين، فقد أشاعوا في أول الهجرة أنهم سحروا المسلمين فلا يولد لهم ولد، أشاعوا ذلك ليضيقوا على المسلمين الخناق، ويفسدوا عليهم حياتهم الجديدة التي عاشوها في مدينة رسول الله ﷺ، وليعكروا ذلك الجو الصافي الذي يملؤه الحب والتآلف بين المسلمين، ومما يدل على مقدار ما فعلته تلك الإشاعة بين المسلمين شدة الفرحة التي اعترتهم حيث ولد بينهم أول مولود ذكر من المهاجرين وهو عبد الله بن الزبير ـ رضي الله عنه ـ[(٧)].

فعن أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنها ـ أنها حملت بعبد الله بن الزبير في مكة قالت:

---

(١) قال ابن حجر: قيل سَعْنة ـ بالنون، وقيل بالياء التحتانية (الإصابة ـ ترجمة أسيد بن سَعْيَة)، وذكر ابن حجر اسمه «أَسَد» بغير ياء في ترجمة: أسد بن سعية القرظي.

(٢) انظر: أسباب النزول للواحدي، سورة آل عمران، (ص ٦٦)، ط/ دار الفكر.

(٣) الشَّوْكَة: حُمرة تعلو الوجه والجسد.

(٤) أَتَمَحَّلَنَّ: أي لأحاولن له في حيلة يشفى بواسطتها. انظر: النهاية (٤/ ٣٠٣).

(٥) حَوْران: هي كية مُدوَّرة من حار يحور إذا رجع، وحوّره إذا كواه هذه الكية وتسمى حوراء أيضًا. انظر: النهاية (١/ ٤٥٩).

(٦) انظر: مصنف عبد الرزاق (١٠/ ٤٠٧، رقم ١٩٥١٥). ومستدرك الحاكم، كتاب «الطب» (٤/ ٢١٤)، صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٧) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٢٦٥).

فخرجت وأنا مُتِمٌّ، فأتيت المدينة، فنزلت قُباءَ، فولدت بقباء ثم أتيت به رسول الله ﷺ فوضعته في حَجْره، ثم دعا بتمرة فمضغها، ثم تفل في فيه فكان أول شيء دخل جوفه ريقُ رسول الله ﷺ، ثم حنّكه بالتمرة، ثم دعا له فبرَّكَ عليه، وكان أولَ مولود ولد في الإسلام، ففرحوا به فرحًا شديدًا لأنهم قيل لهم: إن اليهود قد سحرتكم فلا يولدُ لكم[١]، وفي رواية: «وسماه عبد الله، ثم جاء بعدُ وهو ابن سبع أو ابن ثمان سنين ليبايع النبيَّ ﷺ، أمره الزبير بذلك، فتبسم النبي ﷺ حين رآه مقبلاً إليه وبايعه، وكان أول من ولد في الإسلام بالمدينة مقدم رسول الله ﷺ، وكانت اليهود تقول: قد أخذناهم فلا يولد لهم بالمدينة ولد ذكر، فكَبَّر أصحاب رسول الله ﷺ حين ولد عبد الله»[٢].

٧ ـ موقفهم من تحويل القبلة:

تكاد تكون حادثة تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة هي الفاصل بين الحرب الكلامية وحرب المناوشات والتدخل الفعلي من جانب اليهود، لزعزعة الدولة الإسلامية الناشئة[٣]، فعن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ كان أولَ ما قدم المدينة نزل على أجداده ـ أو قال: أخواله ـ من الأنصار وأنه ﷺ صلى قبلَ بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، وكان يعجبه أن تكون قبلتُه قِبَلَ البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم فخرج رجل ممن صلى معه فمر على أهل مسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قِبَلَ مكة، فداروا كما هم قِبَلَ البيت، وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يُصلي قِبَلَ بيت المقدس، وأهلُ الكتاب، فلما ولى وجهه قِبَلَ البيت أنكروا ذلك[٤]، وقد نزلت في هذه الحادثة آيات عظيمة فيها عبر وحكم ودروس للصف المسلم، قال تعالى:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البَقَرَة: ١٤٩ ـ ١٥٢].

---

(١) البخاري، كتاب العقيقة ـ باب تسمية المولود، ورقمه (٥٤٦٩) واللفظ له، ومسلم كتاب الآداب ـ باب استحباب تحنيك المولود، ورقمه (٢٥ ـ ٢١٤٦).

(٢) انظر: المستدرك، للحاكم: كتاب معرفة الصحابة (٣/٥٤٨)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٣) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/٢٥٨).

(٤) البخاري: كتاب الإيمان، باب الصلاة من الإيمان، ورقمه (٤٠).

● أخبر الله تبارك وتعالى بما سيقول اليهود عند تحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، من إثارة الشكوك والتساؤلات قبل وقوع الأمر ولهذا دلالته، فهو يدل على نبوة محمد ﷺ إذ هو أمر غيبي، فأخبر عنه قبل وقوعه ثم وقع، فدل ذلك على أن محمدًا ﷺ رسول ونبي يخبره الوحي بما سيقع، إذ من الأدلة على صدق رسالة الرسول أن يخبر بأمور غيبية ثم تقع بعد.

وهو يدل أيضًا على علاج للمشاكل قبل حدوثها حتى يستعد المسلمون ويهيئوا أنفسهم لهذه المشاكل للتغلب عليها، والرد عليها ودفعها؛ لأن الأمر حين يكون مفاجئًا لهم يكون وقعه على النفس أشد، ويربك المفاجأ به، أما حين يُحدَّثون عنه قبل وقوعه فالحديث يطمئنهم ويوطن نفوسهم ويعدها لمواجهة الشدائد[1]، قال أبو السعود في تفسيره: «وأخبر بالأمر قبل وقوعه لتوطين النفوس وإعدادها لما يبكتهم، فإن مفاجأة المكروه على النفس أشق وأشد، والجواب العتيد لشغب الخصم الألد أرد»[2]، وقد وصف الله تعالى اليهود بالسفه لاعتراضهم على تحويل القبلة وللكيد ضد رسول الله ﷺ، قال أبو السعود: «والسفهاء الذين خفت أحلامهم واستمهنوها بالتقليد والإعراض عن التدبر والنظر. وقولهم: ثوب سفيه إذا كان خفيف النسيج، وقيل: السفيه البهات الكذاب المتعمد خلاف ما يعلم، وقيل: الظلوم الجهول، والسفهاء هم اليهود»[3].

● ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فالآية تذكر أن الصلاة نحو بيت المقدس كانت فتنة، أي اختبار، والتحول من بيت المقدس إلى الكعبة كان أيضًا اختبارًا وامتحانًا، قال البيضاوي في تفسيره: «وما جعلنا قبلتك بيت المقدس إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه إلا لنمتحن به الناس، ونعلم من يتبعك في الصلاة إليها ممن يرتد عن دينك إلفًا لقبلة آبائه، أو لنعلم من يتبع الرسول ممن لا يتبعه، وما كان لعارض يزول بزواله، وعلى الأول معناه: ما رددناك إلى التي كنت عليها إلا لنعلم الثابت على الإسلام ممن ينكص على عقبيه لقلقه وضعف إيمانه»[4].

فالصلاة إلى الكعبة في بداية الأمر، ثم الصلاة إلى بيت المقدس، ثم العودة إلى الكعبة واستمرار ذلك لا شيء فيه مادام الباري سبحانه أمر بذلك، ومن ثم فالتوجه في كل حالة هو

(١) انظر: الصراع مع اليهود، د. محمد أبو فارس (١/ ١٠٢).
(٢) انظر: تفسير أبي السعود (١/ ١٧١).
(٣) المصدر نفسه (١/ ١٧٠).
(٤) انظر: تفسير البيضاوي نقلاً عن الصراع مع اليهود (١/ ١٠١).

عبادة، وما على الناس إلا أن ينقادوا لأمر الله تبارك وتعالى، ويلتزموا بأمره، فالذي يتبع الرسول وينقاد لأوامره في القبلة يعد فائزًا في الاختبار والامتحان، والذي يجد في نفسه على حكم من الأحكام الشرعية كان ساقطًا وهالكًا، والإيمان الحق هو الذي يلزم صاحبه بالاتباع ومخالفة الهوى(١)، ولهذا ثبت الصحابة الكرام واستجابوا لأوامر الله تعالى، فعن ابن عمر - ﵄ - قال: بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آتٍ فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أُمر أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة(٢).

وتبين الآية الكريمة كذلك حرص المؤمنين على إخوانهم وحب الخير لهم، حينما نزلت الآيات التي تأمر المؤمنين بتحويل القبلة إلى الكعبة، تساءل المؤمنون مشفقين عن مصير عبادة إخوانهم الذين ماتوا وقد صلوا نحو بيت المقدس، فأخبر الله عز وجل أن صلاتهم مقبولة، فعن ابن عباس - ﵄ - قال: لما وُجِّه النبي ﷺ إلى الكعبة، قالوا: يا رسول الله، كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾(٣) [البَقَرَة: ١٤٣] ، وبين لهم أنه رءوف رحيم «وبهذا يسكب في قلوب المسلمين الطمأنينة، ويذهب عنها القلق، ويفيض عليها الرضا والثقة واليقين»(٤).

● ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البَقَرَة: ١٤٤-١٤٨] .

كان رسول الله ﷺ حريصًا على أن يتوجه في صلاته إلى كعبة أبيه إبراهيم - ﵇ - فهو أولى الناس به، لأنه من ثمرة دعوة أبيه إبراهيم - ﵇ - وحامل لواء التوحيد بحق كما حملها إبراهيم - ﵇ - وهو ﷺ كان يحرص على أن يكون مستقلاً ومتميزًا عن أهل الديانات السابقة، الذين حرفوا وبدلوا وغيروا كاليهود والنصارى، ولهذا كان ينهى عن تقليدهم والتشبه بهم، بل يأمر بمخالفتهم، ويحذر من الوقوع فيما وقعوا فيه من الزلل والخطإ

(١) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ١٠١).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٧٥)، ط/ دار الشعب.

(٣) انظر: سنن الترمذي (٥/ ٢٠٨)، ورقمه (٢٩٦٤) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) في ظلال القرآن (١/ ١٣٣).

والانحراف، ومقتضى هذا الحرص أن يتوجه في صلاته بشكل دائم إلى قبلة أبي الأنبياء، وهو أول بيت وضع للناس(١).

إن لحادثة تحويل القبلة أبعادًا كثيرةً: منها السياسي، ومنها العسكري، ومنها الديني البحت، ومنها التاريخي؛ فبُعدها السياسي أنها جعلت الجزيرة العربية محور الأحداث، وبُعدها التاريخي أنها ربطت هذا العالم بالإرث العربي لإبراهيم - عليه السلام - وبُعدها العسكري أنها مهدت لفتح مكة وإنهاء الوضع الشاذ في المسجد الحرام حيث أصبح مركز التوحيد مركزًا لعبادة الأصنام، وبُعدها الديني أنّها ربطت القلب بالحنيفية، وميزت الأمّة الإسلامية عن غيرها، والعبادة في الإسلام عن العبادة في بقية الأديان(٢).

● ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٤٩ـ١٥٢].

كأن الله تعالى يقول للمؤمنين: إن نعمة توجيهكم إلى قبلتكم، وتمييزكم بشخصيتكم من نعائم الله عليكم، وقد سبقتها الآلاء من الله كثيرة ومنها:

- ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا﴾: فوجود شخص رسول الله ﷺ إمام المربين والدعاة، هو من خصيصة هذه النخبة القيادية التي شرفها الله تعالى بأن يكون هو المسئول عن تربيتها، فقيه النفوس، وطبيب القلوب، ونور الأفئدة، فهو النور والبرهان والحجة.

- ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾: فالمادة الأساسية للبناء والتربية: كلام الله تعالى، وكان يرافقه شحنة عظيمة لنزوله أول الأمر غضًا طريًا، فكان جيلاً متميزًا في تاريخ الإنسانية.

- ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ فالمعلم المربي رسول الله ﷺ فهو المسئول عن عملية التربية، وهو الذي بلغ من الخلق والتطبيق لأحكام القرآن الكريم ما وصفه الله - تعالى - به من هذا الوصف الجامع المانع الذي تفرد به من دون البشرية كافة: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: الآية ٤]، وهو الذي وصفته عائشة - رضي الله عنها - بأعظم ما يملك بشر أن يصف به نبي فقالت: «كان خلقه القرآن»، فكان الصحابة يسمعون القرآن الذي يتلى من فم رسول الله ﷺ ويرون القرآن الذي يمشي على الأرض متجسدًا في خلقه الكريم.

- ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾: فهذه المهمة الثالثة تعليم الصحابة الكرام الكتاب والحكمة،

---

(١) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ١٠٠).

(٢) انظر: الأساس في السنة (١/ ٤٤٠).

فالقرآن الكريم لكي يكون مؤثرًا في الأمة لا بد من المربي الرباني الذي يزكي النفوس ويطهر القلوب، ويعلمها شرع الله تعالى من خلال القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين ﷺ، فيشرح للمسلمين غامضه ويبين مُحكمه ويفصل مجمله، ويسأل عن تطبيقه، ويصحح خطأ الفهم لهم إن وجد، كان الرسول ﷺ يعلم ويربي أصحابه لكي يُعلِّموا ويربوا الناس على المنهج الرباني، فتعلم الصحابة من رسول الله ﷺ منهج التعليم، ومنهج التربية، ومنهج الدعوة، ومنهج القيادة للأمة من خلال ما تسمع وما تبصر، ومن خلال ما تعاني وتجاهد، فاستطاع ﷺ أن يعد الجيل إعدادًا كاملاً، ومؤهلاً لقيادة البشرية، وانطلق أصحابه من بعده يحملون التربية القرآنية، والتربية النبوية إلى كل صُقْع، وأصبحوا شهداء على الناس.

- ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ : ماذا كانوا قبل الوحي، والرسالة، وماذا أصبحوا بعد ذلك؟ كانوا في حروب وصراع وجاهلية عمياء، وأصبحوا بفضل الله ومنِّه وكرمه أمة عظيمة، لها رسالة وهدف في الحياة، لا همّ لها إلا العمل ابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى، وحققوا العبودية لله وحده، والطاعة لله، ولرسوله ﷺ، وانتقلوا من نزعة الفردية والأنانية والهوى إلى البناء الجماعي، بناء الأمة، وبناء الدولة وصناعة الحضارة، واستحقت بفضل الله ومنِّه أعظم وسامين في الوجود(١).

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: الآية ١١٠].

ووسام: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

- ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ : فهذه المنن، وهذه العطايا، وهذه الخيرات تحتاج لذكر الله في الغدو والآصال وشكره عليها، وحثهم المولى عز وجل على ذكره، ويكرمه يذكرون في الملإ الأعلى بعدما كانوا تائهين في الصحارى ضائعين في الفيافي.

- ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ : وحقَّ لهذه النعم جميعًا أن تشكر(٢).

وهكذا، الآيات الكريمة تربي الصحابة من خلال الأحداث العظيمة، وتصوغ الشخصية المسلمة القوية التي لا ترضى إلا بالإسلام دينًا، والتي تعرفت على طبيعة اليهود من خلال

(١) انظر: التربية القيادية، منير الغضبان (٢/ ٤٣٨-٤٤٢) بتصرف.

(٢) انظر: التربية القيادية (٢/ ٤٤٢).

القرآن الكريم وبدأت تتعمق في ثناياها طبيعتهم الحقيقية، وانتهت إلى الصورة الكلية النهائية التي تربوا عليها من خلال القرآن الكريم والتربية النبوية قال تعالى:

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

٨ ـ من صفات اليهود في القرآن الكريم:

إن المتتبع لتاريخ اليهود ومواقفهم مع المصطفى ﷺ يشاهد تلك الأفعال القبيحة والأخلاق الرذيلة التي يتصف بها هؤلاء البشر، ولا غرابة في ذلك فهي طبيعة كل آدمي ينسلخ عن دينه الصحيح، وعقيدته السليمة.

كانت معاناة رسول الله ﷺ والمسلمين من اليهود شديدة وأليمة، فالقرآن الكريم تحدث عن بعضها، وكتب السنة، والسيرة والتاريخ حافلة بالأحداث الجسيمة مع اليهود، وقد تحدث القرآن الكريم، وبينت السنة النبوية صفاتهم القبيحة كالنفاق، وسوء الأدب مع الله ورسوله، والمكر والخداع، والمداهنة، وعدم الانتفاع بالعلم، والحقد والكراهية، والحسد، والجشع، والبخل، ونكران الجميل، وعدم الحياء، والغرور، والتكبر، وحب الظهور، والإشراك في العبادة، ومحاربة الأنبياء والصالحين، والتقليد الأعمى، وكتمان العلم، وتحريف المعلومات، والتحايل على المحرمات، والتفرق، والطبقية في تنفيذ الأحكام، والرشوة، والكذب، والقذارة[١]، وسوف نشير إلى بعض هذه الصفات الذميمة التي جاءت في القرآن الكريم.

● **الإشراك في العبادة:**

فعبادة اليهود شركية باطلة، حيث يعتقدون أن الله ولدًا، ويشركون معه في عبادته غيره، وقد سجل الله عز وجل عليهم بعض مظاهر الإشراك، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣٠، ٣١].

فهم لم يكتفوا في الإشراك بالقول المتقدم؛ بل عبدوا أنبياءهم وصالحيهم، واتخذوا قبورهم مساجد وأوثاناً يعبدونها من دون الله[٢]، قال ﷺ: «قاتل الله اليهود، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[٣].

---

(١) راجع الرسالة القيمة «اليهود في السنة المطهرة» د. عبد الله الشقاري.

(٢) انظر: اليهود في السنة المطهرة (٢/٥٠٧).

(٣) البخاري: كتاب الصلاة ـ باب (٥٥)... رقم (٤٣٧).

● **محاربة الأنبياء والصالحين:**

في الوقت الذي يقدسون فيه أحبارهم ورهبانهم إلى درجة العبادة نجد اليهود في المقابل لا يتورعون في محاربة أنبيائهم وصالحيهم، ويشنون عليهم الحملات المغرضة بشتى الطرق، وكافة الوسائل، ولا يمتنعون حتى عن قتلهم كما فعلوا بزكريا ويحيى - عليهما السلام -(١)، وقد أخبرنا الله عز وجل عنهم بذلك فبعد أن بيّن عز وجل ألوانًا من العذاب أوقعه عليهم قال: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

● **كتمانهم العلم وتحريفهم للحقائق:**

إن كتمان العلم وتحريف الحقائق صفة ملازمة لليهود من قديم الزمن، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «قيل لبني إسرائيل: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾(٢) فبدلوا، فدخلوا يزحفون على أَسْتَاهِهِم، وقالوا: حَبَّةٌ في شعرة»(٣).

ومن أعظم العلوم التي كتمها أحبار اليهود، وحاولوا إخفاء حقيقتها، علم نبوة محمد ﷺ، فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: جاء رسول الله ﷺ رافعُ بن حارثة، وسلاَّم بن مِشْكم، ومالك بن الصَّيف، ورافع بن حُريملة، فقالوا: يا محمد ألست تزعُم أنك على ملة إبراهيم ودينه، وتؤمن بما عندنا من التوراة، وتشهد أنها من الله حق؟ فقال رسول الله ﷺ: «بلى، ولكنكم أحدثتم وجحدتم مافيها مما أخذ الله عليكم من الميثاق فيها، وكتمتم منها ما أُمرتم أن تبينوه للناس، فَبَرِئْتُ من إحداثكم»، قالوا: فإنا نأخذ بما في أيدينا، فإنا على الهدى والحق، ولا نؤمن بك ولا نتبعك؛ فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨](٤).

---

(١) انظر: اليهود في السنة المطهرة (٢/ ٥٠٩).

(٢) كذا ورد اللفظ في صحيح البخاري «ادخلوا» بغير «واو»، ولفظ الكلمة في القرآن الكريم. ﴿وَٱدْخُلُوا۟﴾ [البقرة: ٥٨]، وليس في ورود اللفظة في صحيح البخاري بغير «واو» غلط البتة، إذ المراد والله أعلم: تبيين أن بني إسرائيل أمروا بكذا - «المراجع».

(٣) البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء (٦/ ٤٣٦- رقم ٣٤٠٣). وفي موضعين آخرين.

(٤) سيرة ابن هشام (ق ١/ ٥٦٧، ٥٦٨) واللفظ لفظها، تفسير الطبري، الأثر رقم (١٢٢٨٤) وهو أقرب الألفاظ لألفاظ سيرة ابن هشام، والأثر رقم (١٢٢١٩) عند تفسير الآية (٦٨)، والآية (٥٩) من سورة المائدة، والأثر (٢١٠١) عن تفسير الآية (١٣٦) من البقرة. وقال الإمام ابن حجر عن الآية (٦٨) من المائدة: وقد روى ابن أبي حاتم أن الآية نزلت في سبب خاص، فأخرج بإسناد حسن من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال... ثم ساق الأثر (فتح الباري ٨/ ٢٦٩).

● **التفرق:**

إن اليهود دائمًا وأبدًا مختلفون في الأفكار، مفترقون في الأحكام، تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى، تمامًا كما وصفهم الباري ﷻ في قوله تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحَشر: ١٤].

● **الرشوة:**

إن من سمات اليهود في معالم مجتمعاتهم بحثهم عن تحقيق الغاية التي ينشدونها بشتى السبل والوسائل، ولو كانت مخالفة لشرعهم كدفع الرشوة والمال الحرام، فأكل السحت من رشوة ومال حرام من طباعهم، وقد وصفهم الحق سبحانه وتعالى بذلك: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المَائدة: ٤٢].

● **النفاق:**

وقد أظهر بعض زعماء اليهود الإسلام حين قويت شوكة المسلمين بالمدينة وتستروا بالنفاق، وقد سجل الله عليهم ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝١٤ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٥﴾ [البَقَرَة: ١٤ ـ ١٥].

● **المداهنة:**

فكانوا يسايرون الواقع والمجتمع، ولا ينكرون المنكر، ولذلك لعنهم الله ﷻ وسجل لعنته عليهم في كتابه العزيز: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٧٩﴾ [المَائدة: ٧٨ ـ ٧٩].

● **عدم الانتفاع بالعلم:**

وقد أخبرنا الله تعالى بذلك وصور هذه الصفة تصويرًا دقيقًا[١] قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

● **الحقد والكراهية:**

من صفات اليهود المستقرة في أعماق نفوسهم الحقد على كل شيء ليس منهم،

(١) انظر: اليهود في السنة المطهرة (٢/ ٤٦٣ ـ ٤٨٢).

والكراهية لكل ماهو غير يهودي، مهما كان نوعه ومصدره، وخاصة إذا كان يمت إلى رسول الله ﷺ بصلة، كما حصل في أمر القبلة، وما حصل في تحريم الخمر، فعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: لما نزلت تحريم الخمر، قالت اليهود: أليس إخوانكم الذين ماتوا كانوا يشربونها، فأنزل الله ﷻ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ [المَائدة: ٩٣] فقال النبي ﷺ: «قيل لي: أنت منهم»(١).

● **الحسد:**

فقد حسد اليهود النبي ﷺ على الرِسالة، إذ كانوا يظنون أن الرسول الذي سيبعث سيكون منهم يتجمعون حوله ويقاتلون به أعداءهم، فلما بُعث الرسول ﷺ من غيرهم جنّ جنونهم، وطار صوابهم، ووقفوا يعادونه عداوة شديدة، ولقد حسدوا أصحابه على الإيمان ونعمة الهدى التي شرح الله صدورهم لها(٢).

قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البَقَرة: ١٠٩] .

● **الغرور والتكبر:**

اتصف اليهود بالغرور والتكبر على الخلق من قديم الزمان، فهم يرون أنهم أرقى من الناس، وأفضل من الناس، ويزعمون أنهم شعب الله المختار، ويعتقدون أن الجنة لليهودي وأن طريق اليهودية هي طريق الهداية وسواها ضلال، وقد أخبر المولى ﷻ في كتابه عن هذه الخصلة الذميمة(٣) فيهم قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البَقَرة: ١١١] .

وقد مارسوا ذلك الغرور والتعالي على رسول الله ﷺ بشتى الوسائل والصور، ومن ذلك هذه الصورة(٤)، فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: أتى رسول الله ﷺ نُعمانُ بن أضاء وبَحْريّ بن عمرو، وشأس بن عدي فكلموه، فكلمهم رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته، فقالوا: ما تُخوّفنا يا محمد، نحن والله أبناء الله وأحباؤه ـ كقول النصارى ـ فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ . . . . . .﴾ إلى آخر الآية(٥) [المَائدة: ١٨] .

---

(١) انظر: المستدرك للحاكم: كتاب الأشربة (٤/ ١٤٣، ١٤٤)، صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

(٢) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ٧٠).

(٣) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ٧١).

(٤) انظر: اليهود في السنة المطهرة (٢/ ٤٩٥، ٤٩٦).

(٥) انظر: تفسير الطبري، واللفظ له بالأثر رقم (١١٦١٣) عند تفسير الآية (١٨) من المائدة، سيرة ابن =

● **البخل:**

من صفات اليهود القديمة بخلهم بالمال، وعدم إنفاقه في سبيل الخير، فكانوا يأتون رجالاً من الأنصار ويقولون لهم: لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر في ذهابها، ولا تسارعوا في النفقة، فإنكم لا تدرون علام يكون[١] فأنزل الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [النساء: الآية ٣٧] أي من التوراة التي فيها تصديق ما جاء به محمد ﷺ: ﴿وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٩].

● **العناد:**

رغم قيام الأدلة والبراهين على صدق نبوة ورسالة محمد ﷺ إلا أن اليهود بسبب عنادهم امتنعوا عن الإيمان، وانغمسوا في الكفر والتكذيب، لأن العناد يقفل العقول بأقفال الهوى وقد بيّن المولى عز وجل هذه الصفة في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

نعم لو قدمت لهم يا محمد ألف دليل ودليل؛ ما اقتنعوا، وما غيروا وبدلوا، ويصدق[٢] فيهم قول الله تعالى: ﴿. . . وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

هذه بعض الصفات التي تجسدت في الشخصيات اليهودية، والتي أشار القرآن الكريم إليها لنعرف اليهود على حقيقتهم، حتى لا يغتر المسلمون بهم في أي وقت أو أي زمان أو أي مكان.

رابعًا: (إن الله لا يصلح عمل المفسدين):

إن هذه الوثيقة وضحت مدى العدالة التي تميزت بها معاملة النبي ﷺ لليهود، وأعطت لمواطني الدولة مفهوم الحرية الدينية وضربت عرض الحائط بمبدإ التعصب ومصادرة الأفكار والمعتقدات، ولم تكن المسألة مسألة تكتيك مرحلي ريثما يتسنى للرسول ﷺ تصفية أعدائه في الخارج لكي يبدأ تصفية أخرى إزاء أولئك الذين عاهدهم.. وحاشاه وإنما صدر هذا الموقف وَفْقَ سياسة إسلامية منبثقة من شريعة ربانية[٣].

لقد عقد الرسول ﷺ مع اليهود المعاهدات التي تؤمن لهم الحياة الكريمة، في ظل

= هشام (ق ١/ ٥٦٣).

(١) انظر: اليهود في السنة المطهرة (٢/ ٤٨٧، ٤٨٨).

(٢) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ٧٢).

(٣) انظر: دراسات في السيرة (ص ١٥١).

الدولة الإسلامية بحكم أنهم أهل كتاب (أهل الذمة) ولكن طبيعة اليهود الغدر والخيانة وعدم الوفاء، ولم يستطيعوا ـ ولن يستطيعوا لؤماً وخسة ـ أن يتخلوا عن تلك الصفات الذميمة، فنقضوا عهودهم مع رسول الله ﷺ، وكانت نهايتهم بما يتلاءم مع تلك الأفعال حيث أجلى رسول الله ﷺ بني قينقاع وبني النضير، وقتل رجال بني قريظة[1]، وهذا ما سوف نراه بإذن الله تعالى في هذا الكتاب، ولقد أشار القرآن الكريم إلى طبيعة اليهود مع العهود، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٥٦].

والعهد هنا ما عقده رسول الله ﷺ مع اليهود من عهود ومواثيق بألا يحاربوه ولا يعاونوا عليه، كما بين ذلك المفسرون[2].

لقد سلك اليهود وسائل عدة، ومتغايرة ومتنوعة للكيد لرسول الله ﷺ والذين آمنوا معه ومقاومتهم، إلا أن هذه الوسائل لم تفلح ولم تؤت ثمارها المرجوة منها، وهي القضاء على جماعة المسلمين ودولتهم وكيانهم السياسي، فما أسباب ذلك؟

بسبب تلك التربية النبوية الرشيدة التي غرست معاني الإيمان في القلوب، وحققت العبودية الخالصة لله وحاربت الشرك بجميع أشكاله، وعلمت الصحابة الأخذ بأسباب النهوض والتمكين المعنوية والمادية، فقد ربى النبي ﷺ أصحابه على العزة، والنخوة، والرجولة، والشجاعة، ورفض الذل، ومقاومة الظلم، وعدم الاستسلام لمؤامرات اليهود وغيرهم، بل مقاومتها والقضاء عليها وعلى أهلها، فثابروا وصابروا حتى انتصروا على أعدائهم[3].

كان مكر اليهود في غاية الدهاء تكاد تزول منه الجبال، ولكنه لم يفلح مع الرعيل الأول بسبب القيادة النبوية والمنهج الرباني الذي سار عليه رسول الله ﷺ[4].

إن المسلمين اليوم يتساقطون أمام المخططات اليهودية ومؤامراتها، لبعدهم عن المنهاج النبوي في تربية الأمة وكيفية التعامل مع اليهود، فالأمة في أشد الحاجة للقيادة الربانية الحكيمة الواعية الموفقة من عند الله، الخبيرة بأخلاق اليهود وصفاتهم، فتتعامل معهم معاملة واعية مستمدة أصولها من السياسة النبوية الراشدة في التعامل مع هذا الصنف المنحرف من البشر.

إن في عصرنا هذا تغلغلت الأصابع اليهودية القذرة في مجالات عديدة من حياة الشعوب والدول، تلك الأصابع التي تهدف إلى غاية محدودة هي (الفساد في الأرض) وهذا هو التعبير القرآني: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: ٣٣].

---

(١) انظر: العهد والميثاق في القرآن الكريم، د. ناصر العمر (ص ١٢١).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٣٠)، والتحرير والتنوير (١٠/ ٤٨).

(٣) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ٨٠).

(٤) انظر: (١/ ٧٩).

إن استعمال الفعل المضارع في الجملة يدل على التجدد والاستمرار، فليس سعيهم للفساد مرحلة تاريخية انتهت، لكنه قدرهم الكوني إلى يوم يبعثون، وقد استطاع اليهود أن يهيمنوا على كثير من مقدرات الأمم من خلال كيدهم المدروس، وفي غيبة الوجود الإسلامي القادر على إحباط مؤامراتهم وفضح ألاعيبهم.

إن العبقرية اليهودية في الهدم والتخريب ليست موضع جدل، تلك العبقرية التي (تستغل) الأحداث وتستثمرها لمصلحتها، وإن لليهود وجودًا مؤثرًا في الدول الكبرى، اقتصاديًا وسياسيًا، وإعلاميًا، ولم يكونوا غائبين في النظامين العالميين، الرأسمالية والشيوعية ولا عن الثورات الكبرى في العالم، وهناك عدد من المنظمات العالمية تبذل جهدًا ضخمًا في تحقيق أهداف اليهود، أبرزها الماسونية.. (الليونز) و(الروتاري) و(شهود يهوه)... إلخ.

ألا يحس الباحث الواعي أن في الأمر نوعًا من المبالغة المقصودة أو غير المقصودة؟

هذه الصورة الجاثمة في عقول الكثيرين أن اليهود هم الذين يحركون العالم، وهم زعماؤه السياسيون ومفكروه ومبدعوه و... و... وأن الشخصيات المهمة من غير اليهود ماهي إلا (أحجار على رقعة الشطرنج) على حد تعبير وليام غاي كار(١).

إن هذا الكم الهائل من الكتب التي تتحدث عن اليهود ودورهم العالمي الخطير، تساهم في تهيئة الجو للتسليم بالأمر الواقع، وتمنح تفسيرًا جاهزًا لجميع الهزائم التي منيت بها الأمة، الهزائم الحضارية والعسكرية على حد سواء.

إن إحساس الناس بأن (كل شيء) مدبر ومبيت ومدروس من قبل اليهود أو محافلهم، يقعد بهم عن المقاومة والمواجهة والجهاد، وما يقال عن اليهود يمكن أن يقال عن أي عدو آخر ينتهج سياسة الإرهاب الفكري والعسكري، فمثلاً الجماعات الباطنية في العالم الإسلامي التي أصبحت ذات وجود قوي في عدد من المواقع والدول، بل وأصبح لهم وجود قائم بذاته في أكثر من بلد إسلامي.

هذه الجماعات تجد أحيانًا من يهول من شأنها ويعطيها أكبر من حجمها، فكل من يتحدث ـ مثلاً ـ عن هذه الفئة الغالية المنحرفة أو يكتب أو يحاضر فهو مهدد في رزقه وحياته، إذن فيسكت الجميع حفاظًا على أرزاقهم وأرواحهم(٢)، إن هذا التضخيم الرهيب لأعدائنا اليهود ليس له حقيقة، لأن أولياء الشيطان كيدهم مهما عظم وكبر فهو ضعيف.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

(١) انظر: قضايا في المنهج، سلمان العودة (ص ٨٤، ٨٥).

(٢) انظر: قضايا في المنهج (ص ٨٦).

إن قوتهم بسبب ضعف إيماننا وبعدنا عن منهج ربنا، لأن الإيمان الصحيح تنهار أمامه جميع المؤامرات، وتفشل جميع الخطط، لكن لا بد من نزع عنصر الخوف الذي قتل كثيراً من الهمم، وأحبط كثيراً من الأعمال. والأحداث تؤكد أن (الوهم) قد يقتل.

وحين توجد الفئة المؤمنة الصابرة يتحطم الكيد كله ـ يهوديًا ـ كان أم غير يهودي ـ أمام عوامل التصدي والنهوض.

قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٠].

وهذا لا يعني ـ بحال من الأحوال ـ تجاهل قوة العدو أو التقليل من شأنه، حتى لو كان عدوًا حقيرًا فضلاً عن عدو ومدجج وقديم.

والمطلوب أن نسلك طريق الاعتدال في تقدير حجم العدو، فلا نبالغ في تهويل قوته بما يوهن قوانا ويفتت عزيمتنا ويسوغ لنا الهزيمة، وفي المقابل لا نستهين به أو نتجاهل وجوده(١).

وستمضي في اليهود وغيرهم سنةُ الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يُونس: ٨١].

المبحث الرابع

سنة التدافع وحركة السرايا

أولاً: سنة التدافع:

إن من السنن التي تعامل معها النبي ﷺ: سنة التدافع، وتظهر جليًا في الفترة المدنية مع حركة السرايا والبعوث والغزوات التي خاضها النبي ﷺ ضد المشركين. وهذه السُّنة متعلقة تعلقًا وطيدًا بالتمكين لهذا الدين، وقد أشار الله تعالى إليها في كتابه العزيز وجاء التنصيص عليها في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٥١].

وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحَجّ: ٤٠].

ونلاحظ في آية البقرة أنها جاءت بعد ذكر نموذج من نماذج الصراع بين الحق والباطل

---

(١) انظر: قضايا في المنهج، (ص ٨٦، ٨٧).

المتمثل هنا في طالوت وجنوده المؤمنين، وجالوت وأتباعه، ويذيِّل الله الحق الآية بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥١] (مما يفيد أن دفع الفساد بهذا الطريق إنعام يعم الناس كلهم)(١).

وتأتي آية الحج بعد إعلان الله تعالى أنه يدافع عن أوليائه المؤمنين، وبعد إذنه لهم ـ سبحانه ـ بقتال عدوهم ويختتم الآية بتقرير الله تعالى لقاعدة أساسية: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

فكان تشريع القتال على مراحل:

المرحلة الأولى: الحظر، وذلك عندما كان المسلمون في مكة، وكانوا يطالبون النبي ﷺ بالإذن لهم في القتال فيجيبهم: «اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال»(٢).

المرحلة الثانية: الإذن به من غير إيجاب، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ [الحَجّ: ٣٩].

المرحلة الثالثة: وجوب قتال من قاتل المسلمين، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البَقَرَة: ١٩٠].

المرحلة الرابعة: فرض قتال عموم الكفار على المسلمين قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةًۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التَّوبَة: ٣٦].

إن هذا التدرُّج في حكم القتال كان يقتضيه وضع الدولة الإسلامية الناشئة، وحالة الجيش الإسلامي الذي كان يأخذ في التكوين من حيث العَددُ والعُدد والتدريب، وما إلى ذلك فكان لا بُدَّ من مضي فترة من الوقت يكون التعرُّضُ فيها لأعداء الدعوة الإسلامية من كفار قريش الذين آذوا المسلمين، واضطروهم إلى الخروج من ديارهم.. يكون فيها ذلك التعرُّض لأعداء الدعوة، إنما هو على سبيل الاختيار لا على سبيل الإجبار، وذلك إلى أن يَصْلُبَ عودُ الدولة الإسلامية ويشتد بأسها بحيث تستطيع الصمود أمام قوى الكفر في الجزيرة العربية، حتى لو عملت قريش على تأليبها ضد المسلمين، كما وقع فيما بعد! وحينئذٍ يأتي وجوب القتال في حالة تكون فيها أوضاع الدولة الإسلامية والجيش الإسلامي على أهبة الاستعداد لمواجهة كافة الاحتمالات، هذا فيما يتصل بالقتال الذي يتعرض فيه المسلمون لكفار قريش، جاء النص بالإذن، أي بالإباحة لا بالوجوب، أما في حالة ما لو تعرض فيه المسلمون ـ وهم في دولتهم في المدينة ـ لهجوم الأعداء عليهم فالقتال هنا فرض، لا مجال فيه للخيار، وليس مجرد أمر مأذون فيه، وذلك تطبيقًا لبيعة الحرب، بيعة العقبة الثانية التي أوجبت على الأنصار حرب

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الفخر الرازي (٣/ ٥١٤).

(٢) انظر: تفسير الألوسي (٦/ ١٠٨).

الأحمر والأسود من الناس في سبيل الذود عن الدعوة الإسلامية، وصاحبها وأتباعها[١].

ومع نزول الإذن بالقتال شرع رسول الله ﷺ في تدريب أصحابه على فنون القتال والحروب، واشترك معهم في التمارين والمناورات والمعارك، وعدّ السعي في هذه الميادين من أجلّ القربات وأقدس العبادات التي يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى، وقد قام النبي ﷺ بتطبيق قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠] وكان منهجه ﷺ في تكوين المجاهد المسلم يعتمد على نهجين متوازنين: التوجيه المعنوي، والتدريب العملي.

١ ـ التوجيه المعنوي:

فكان ﷺ يسعى إلى رفع معنويات المجاهدين يمنحهم أملاً يقينيًا بالنصر أو الجنة، ومنذ تلك اللحظات وفيما بعد ظلَّ هذا (الأمل) يحدو الجندي المسلم في ساحات القتال، ويدفعه إلى بذل كل طاقاته النفسية والجسدية والفنية من أجل كسب المعارك أو الموت تحت ظلال السيوف[٢]، فمن أقواله ﷺ في حث أصحابه على الجهاد: «والذي نفسي بيده لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني، ولا أجد ما أحملهم عليه، ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله، والذي نفسي بيده لوددْت أني أقتلُ في سبيل الله، ثم أحيا، ثم أُقتل، ثم أُحيا، ثم أُقتل، ثم أُحيا، ثم أُقتل»[٣].

وقوله ﷺ: «ما أحدٌ يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيدُ، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عَشْرَ مرات، لما يَرَى من الكرامة»[٤].

٢ ـ الأسلوب العملي:

فقد سعى النبي ﷺ إلى اعتماد كل طاقات الأمة القادرة على البذل والعطاء، رجالاً ونساءً وصبيانًا وشبابًا وشيوخًا، وإلى التمرس على كل مهارة في القتال طعنًا بالرمح وضربًا بالسيف، ورميًا بالنَّبل، ومناورة على ظهور الخيل، وكان ﷺ يمزج خَطّيْ التربية العسكرية المتوازنين: التوجه والتدريب والأمل في النصر أو الجنة وتقديم الجهد في ساحات القتال، ويحض المسلمين على إتقان ما تعلموا من فنون الرماية، قال رسول الله ﷺ: «من عَلِم الرمي ثم تركه، فليس منا، أو قد عصى»[٥]، فهي دعوة إلى عموم الأمة وحتى من دخلوا في سن

---

(١) انظر: القتال والجهاد، محمد خير هيكل (١/ ٤٦٣، ٤٦٤).

(٢) انظر: دراسة في السيرة (ص ١٦١).

(٣) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب تمني الشهادة، رقم (٢٧٩٧).

(٤) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب تمني المجاهد أن يرجع إلى الدنيا، رقم (٢٨١٧).

(٥) مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، رقم (١٩١٩).

الشيخوخة للتدريب على إصابة الهدف ومهارة اليد، ونشاط الحركة، إن الإسلام يهتم بطاقات الأمة جميعها ويوجهها نحو المعالي وعلو الهمة.

وكان النبي ﷺ يهتم بالإعداد على حسب كل ظرف وحال ويحث على كل وسيلة يستطيعها المسلمون، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرّميُ، ألا إن القوة الرّمي، ألا إن القوة الرّمي»[١].

ثانيًا: من أهداف الجهاد في سبيل الله تعالى:

١ ـ حماية حرية العقيدة:

قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا فَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٣٩، ٤٠].

٢ ـ حماية الشعائر والعبادات:

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٨ ـ ٤١].

٣ ـ دفع الفساد عن الأرض:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠ ـ ٢٥٢].

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: الآية ٢٥١] «أي: لولاه يدفع عن قوم بآخرين كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود لهلكوا»[٢].

---

(١) مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه رقم (١٩١٧).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٢٦٢)، أو ص (٤٤٧) من ط/دار الشعب.

٤ ـ الابتلاء والتربية والإصلاح:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ ۖ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾ [محمد: ٤ ـ ٦].

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ﴾ [محمد: ٤] أي: ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليختبركم ويبلو أخباركم(١)، كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٤٢].

٥ ـ إرهاب الكفار وإخزاؤهم وإذلالهم وتوهين كيدهم:

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التوبة: ١٥]

وقال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ١٧، ١٨].

٦ ـ كشف المنافقين:

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

قال ابن كثير: «أي لا بد أن يعقد سببًا من المحنة، يظهر فيه وليه، ويفتضح فيه عدوه، يُعْرَف به المؤمن الصابر والمنافق الفاجر، يعني بذلك يوم أحد الذي امتحَن به المؤمنين، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وطاعتهم لله ورسوله ﷺ، وهتك به ستر المنافقين، فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ولرسوله ﷺ»(٢).

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١٥٤).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٧١) أو (٢/ ١٥٠) من ط/ دار الشعب.

٧ ـ إقامة حكم الله ونظام الإسلام في الأرض:

إنِ إقامة حكم الله في الأرض هدف من أهداف الجهاد، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]

٨ ـ دفع عدوان الكافرين:

إن من أهداف الجهاد في الإسلام دفع عدوان الكافرين، وهذا الجهاد أنواع منها:

* **أن يعتدي الكفار على فئة مؤمنة مستضعفة في أرض الكفار**: لا سيما إذا لم تستطع أن تنتقل إلى بلاد تأمن فيها على دينها، فإن الواجب على الدولة الإسلامية أن تعد العدة لمجاهدة الكفار الذين اعتدوا على تلك الطائفة حتى يخلصوها من الظلم والاعتداء الواقع عليها[١].

قال تعالى: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٤، ٧٥].

* **أن يعتدي الكفار على ديار المسلمين**: قال تعالى:

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٠ ـ ١٩٢].

فقد نص الفقهاء على أنه إذا اعتدى الكفار على ديار المسلمين يتعين الجهاد للدفاع عن الديار، لأن العدو إذا احتلها سام المسلمين عذابًا، ونفذ فيها أحكام الكفر، وأجبر أهلها على الخضوع له فتصبح دار كفر بعد أن كانت دار إسلام.

قال بعض علماء الحنفية: «وحاصله أن كل موضع خيف هجوم العدو منه فُرض على الإمام أو على أهل ذلك الموضع حفظه، وإن لم يقدروا فرض على الأقرب إليهم إعانتهم إلى حصول الكفاية بمقاومة العدو»[٢].

* **أن ينشر العدو الظلم بين رعاياه ـ ولو كانوا كفارًا**: لأن الله سبحانه حرم على عباده الظلم. والعدلُ في الأرض واجب لكل الناس، وإذا لم يدفع المسلمون الظلم عن المظلومين

---

(١) انظر: الجهاد في سبيل الله، د. عبد الله القادري (٢/ ١٦٢).

(٢) انظر: حاشية ابن عابدين (٤/ ١٢٤).

أثموا لأنهم مأمورون بالجهاد في الأرض لإحقاق الحق وإبطال الباطل ونشر العدل والقضاء على الظلم، ولافلاح لهم إلا بذلك.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[المائدة: ٨].

* **الوقوف ضد الدعاة إلى الله ومنعهم من تبليغ دعوة الله**: إن المسلمين مفروض عليهم من قبل المولى ﷻ أن يبلغوا رسالات الله للناس كافة، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٠٤].

وأعداء الله يصدون أولياءه عن تبليغ عباده دعوته ولا يتركون لهم سبيلاً إلى الناس، كما لا يأذنون للدعاة أن يُسمعوا دعوة الله للناس، ويضعون العراقيل، والعوائق، والحواجز بين الدعوة ودعاتها وبين الناس، ولذلك أوجب الله ﷻ على عباده المؤمنين قتال كل من يصد عن سبيل الله تعالى[1].

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ① وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ② ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَـٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَـٰلَهُمْ ③ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ ۛ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [محمَّد: ١ ـ ٤].

ثالثًا: أهم السرايا والبعوث التي سبقت غزوة بدر الكبرى:

بمجرد الاستقرار الذي حصل للمسلمين بقيادة الرسول ﷺ في المدينة، وقيام الجماعة المؤمنة في المجتمع الجديد كان لابد أن يتنبه المسلمون وقيادتهم إلى الوضع حولهم وما ينتظرهم من جهة أعدائهم أعداء الدعوة، وكان لابد أن تنطلق الدعوة الإسلامية إلى غايتها التي أرسل الله محمدًا ﷺ بها، وتحمل هو وأصحابه في سبيلها المشاق الكثيرة.

إن موقف قريش في مكة من أولى الأمور التي يجب أن تعالجها قيادة المدينة، لأن أهل مكة لن يرضوا بأن يقوم للإسلام كيان ولو كان في المدينة، لأن ذلك يهدد كيانهم، ويقوض بنيانهم، فهم يعلمون أن قيام الإسلام معناه انتهاء الجاهلية وعادات الآباء والأجداد، فلا بد من الوقوف في وجهه.

وقد بذلت مكة وأهلها المحاولات لعدم وصول النبي ﷺ إلى المدينة، واتخذت مواقف عدائية لضرب الإسلام والقضاء على المسلمين[2]، واستمر هذا العداء بعد هجرة النبي ﷺ،

(١) انظر: فقه التمكين في القرآن الكريم للصَّلاَّبي (ص ٤٨٨).

(٢) انظر: مرويات غزوة بدر، أحمد باوزير (ص ٧٩).

فمن أهم المواقف الدالة على ذلك ما رواه البخاري عن عبد الله بن مسعود ـ ﷺ ـ حدَّث، عن سعد بن معاذ أنه قال: كان صديقًا لأمية بن خلف، وكان أُمية إذا مرَّ بالمدينة نزل على سعد، وكان سعد إذا مرّ بمكة نزل على أمية فلما قَدِم رسول الله ﷺ المدينة انطلق سعد معتمرًا فنزل على أمية بمكة، فقال لأُمَية: انظر لي ساعة خلوة لعلي أن أطوف بالبيت فخرج به قريبًا من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل فقال: يا أبا صفوان، من هذا معك؟ فقال: هذا سعد، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمنًا، وقد أويتم الصُّبَاة[1]. وزعمتم أنكم تنصرونهم، وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجَعْتَ إِلى أهلك سالمًا، فقال له سعد، ورفع صوته عليه: أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنَّك ما هو أشدُّ عليك منه، طريقَك على المدينة...[2]، وفي رواية عند البيهقي: «والله لئن منعتني أن أطوف بالبيت لأقطعن عليك متجرك إِلى الشام»[3]. تدل هذه الواقعة على أن أبا جهل يعتبر سعد بن معاذ من أهل الحرب بالنسبة إِلى قريش، ولولا أنه دخل مكة في أمان زعيم من زعمائها لأهدر دمه، وهذا تصرف جديد من رؤساء مكة حيال أهل المدينة، لم يكن قبل الدولة الإِسلامية فيها، فلم يكن أحد من أهل المدينة يحتاج إِلى عقد أمان لكي يسمح له بالدخول إِلى مكة! بل إن قريشًا كانت تكره أن تفكر في حدوث حالة حرب بينها وبين أهل المدينة قبل هذا الوضع الجديد، وقالوا في هذا الصدد، يخاطبون أهل المدينة ما نصه: «والله ما من حي من العرب أبغض إِلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم»[4]، كما تدل هذه القصة على أن قوافل تجارة قريش في طريقها إِلى الشام كانت في أمان إِلى حدوث هذه الواقعة، لا تتعرض لها الدولة الإِسلامية بمكروه. أي: كانت الدولة الإِسلامية إِلى هذا الوقت لم تعامل أهل مكة معاملة أهل الحرب، فلم تضرب عليهم الحصار الاقتصادي، ولم تصادر لهم أية قافلة، أو تقصدها بسوء! ومعنى هذا أن الأيدي الممسكة بزمام الأمور في مكة هي التي بادرت وأعلنت الحرب على الدولة الإِسلامية في المدينة، واعتبرت المسلمين أهل حرب لا يسمح لهم بدخول مكة إِلا بصفة مستأمنين[5].

ودليل آخر على مبادرة رؤساء مكة في إِعلان الحرب على الدولة الإِسلامية في المدينة ما جاء في سنن أبي داود: عن عبد الرحمٰن بن كعب بن مالك، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن كفار قريش كتبوا إِلى ابن أُبيٍّ، ومن كان يعبد معه الأوثان من الأوس والخزرج، ورسولُ الله ﷺ يومئذٍ بالمدينة، قبل وقعة بدر: إِنكم آويتم صاحبنا، وإِنا نقسم بالله لتُقاتلُنَّه أو لتُخرجُنَّه أو لَنَسيرن إِليكم بأجمعنا، حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح نساءكم، فلما بلغ عبد الله بن

---

(١) جمع صابىء: أي الخارج عن دينه. وكان المشركون يسمون من أسلم صابئًا.

(٢) البخاري: كتاب المغازي، باب ذكر النبي ﷺ من يُقتل ببدر، رقم (٣٩٥٠).

(٣) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٢٥).

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (الروض الأنف ٢/ ١٩٢).

(٥) انظر: الجهاد والقتال (١/ ٤٧٦).

أبي، ومن كان معه من عبدة الأوثان، اجتمعوا لقتال النبي ﷺ، فلما بلغ ذلك النبيَّ ﷺ لَقِيَهم، فقال: «لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم».

فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا(١).

وهنا تظهر عظمة النبوة وعظمة القائد المربي ﷺ، حيث قضى على هذه الفتنة في مهدها، وضرب على وتر العزة القبلية، فقد كان ﷺ يدرك أغوار النفس البشرية التي يتعامل معها، ولذلك كان خطابه مؤثرًا في نفوس مشركي يثرب، ونحن بحاجة إلى هذا الفقه العظيم في تفتيت محاولات المشركين للقضاء على الصف الإسلامي وزعزعة بنيانه الداخلي، بعد أن بدأت قريش بإعلان حالة الحرب بينها وبين دولة الإسلام بالمدينة، ونزل الإذن من الله تعالى بالقتال صار من الطبيعي أن تتعامل دولة المدينة مع قريش حسب ما تقتضيه حالة الحرب هذه، فقد اتجه نشاط الرسول ﷺ من أجل توطيد مكانة هذه الدولة، والرد على قريش في إعلانها حالة الحرب على المدينة، فاتجه نشاطه نحو إرسال السرايا، والخروج في الغزوات(٢)، فكانت تلك السرايا والغزوات التي سبقت بدر الكبرى ومن أهمها:

١ ـ غزوة الأبواء:

أولى الغزوات التي غزاها النبي ﷺ غزوة الأبواء(٣)، وتعرف بغزوة وَدّان(٤) أيضًا، وهما موقعان متجاوران بينهما ستة أميال أو ثمانية ولم يقع قتال في هذه الغزوة بل تمت موادعة بني ضَمرة (من كنانة) وكانت هذه الغزوة في (صفر سنة اثنتين من الهجرة)، وكان عدد المسلمين مائتين بين راكب وراجل(٥).

٢ ـ سرية عُبَيدة بن الحارث:

وهي أول راية عقدها رسول الله ﷺ(٦) وكان عدد السرية ستين من المهاجرين، وكانت قوة الأعداء من قريش أكثر من مائتي راكب وراجل، وكان قائد المشركين أبا سفيان بن حرب، وحصلت مناوشات بين الطرفين على ماء بوادي رابغ، رَمى فيها سعد بن أبي وقاص بسهم، فكان أول سهم رُمي به في الإسلام، وكانت بعد رجوعه من الأبواء(٧).

(١) سنن أبي داود (٣/ ٢١٣)، ورقمه (٣٠٠٤)، صحيح سنن أبي داود للألباني، وقال: صحيح الإسناد.
(٢) انظر: الجهاد والقتال (١/ ٤٧٧).
(٣) قيل: سميت بذلك لما فيها من الوباء.
(٤) وَدَّان: قرية جامعة قريبة من الأبواء.
(٥) انظر: جيش النبي ﷺ، لمحمود شيت خطاب (ص ٥٤).
(٦) انظر: طبقات ابن سعد (٢/ ٧).
(٧) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول، د. محمد بكر آل عباد (١/ ٤٠).

٣ ـ سرية حمزة بن عبد المطلب:

قال ابن إِسحاق: وبعث النبي ﷺ في مُقامه ذلك ـ أي لما وصل إِلى المدينة بعد غزوة الأبواء ـ حمزة بن عبد المطلب إِلى سيف البحر(١) من ناحية العيص في ثلاثين راكبًا من المهاجرين، فلقي أبا جهل بن هشام بذلك الساحل في ثلاثمائة راكب من أهل مكة، فحجز بين الفريقين مَجْدِيُّ بن عمر الجُهَني، وكان موادعًا للفريقين جميعًا، فانصرف القوم عن بعض، ولم يكن بينهم قتال(٢).

٤ ـ غزوة بُوَاط(٣):

وكانت غزوة رسول الله ﷺ بُواط في شهر ربيع الأول في السنة الثانية من مهاجره، وخرج في مائتين من أصحابه، وكان مقصده أن يعترض عيرًا لقريش كان فيها أمية بن خلف في مائة رجل، وألفين وخمسمائة بعير، فلم يلق النبي ﷺ كيدًا فرجع إِلى المدينة.

٥ ـ غزوة العُشَيْرَة(٤):

وفيها غزا ﷺ قريشًا، واستعمل على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد، وسميت هذه الغزوة بغزوة العُشَيْرَة، فأقام بها جُمادَى الأولى وليالي من جمادى الآخرة، وادع فيها بني مُدْلِج وحلفاءهم من بني ضمرة، ثم رجع إِلى المدينة، ولم يلق كيدًا، وذلك أن العير التي خرجت لها قد مضت قبل ذلك بأيام ذاهبة إِلى الشام(٥)، فساحلت على البحر، وبلغ قريشًا خبرُها فخرجوا يمنعونها فلقوا رسول الله ﷺ ووقعت غزوة بدر الكبرى(٦).

٦ ـ سرية سعد بن أبي وقاص:

وبعد غزوة العُشَيْرَة بعث النبي ﷺ سعد بن أبي وقاص في سرية قوامها ثمانية رَهْط من المهاجرين، فخرج حتى بلغ الخَرَّار(٧) من أرض الحجاز ثم رجع ولم يلق كيدًا(٨).

---

(١) سيف البحر: ساحله.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (ق ١/ ٥٩٥).

(٣) بواط: هو جبل من جبال جهينة بناحية رضوى بقرب ينبع.

(٤) العُشيرة: موضع بين مكة والمدينة من ناحية ينبع على ساحل البحر الأحمر (مراصد الاطلاع ٢/ ٩٤٣)، ووردت لها هذه الأسماء بصحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ الباب الأول: (العُشَيْرَة، العُسَيْرَة، العُشَيْر)، وسماها ابن الجوزي: (ذات العشير، وذات العشيرة).

(٥) انظر: طبقات ابن سعد (٢/ ١٠).

(٦) المصدر نفسه (٢/ ١١).

(٧) علم لموضع بالحجاز قرب الجحفة (مراصد الاطلاع ١/ ٤٥٥).

(٨) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٦٠٠).

٧ ـ غزوة بدر الأولى:

سببها: أن كُرْز بن جابر الفهري، قد أغار على سَرْح[(١)] المدينة ونهب بعض الإبل والمواشي، فخرج رسول الله ﷺ في طلبه، حتى بلغ واديًا يُقال له «سَفْوان» من ناحية بدر، وفاته كرز بن جابر، فلم يدركه فرجع رسول الله ﷺ إلى المدينة[(٢)].

٨ ـ سرية عبد الله بن جحش الأسدي إلى نخلة[(٣)]:

وأرسل النبي ﷺ عبد الله بن جحش في ثمانية رَهْط من المهاجرين إلى نَخْلة جنوب مكة في آخر يوم من رجب، للاستطلاع والتعرف على أخبار قريش، لكنهم تعرضوا لقافلة تجارية لقريش فظفروا بها، وقتلوا قائدها عمرو بن الحضرمي وأسروا اثنين من رجالها وهم: عثمان بن عبد الله والحكم بن كَيْسان، وعادوا بهما إلى المدينة، وقد توقف النبي ﷺ في هذه الغنائم حتى نزل عليه قوله تعالى:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢١٧].

فلما نزل القرآن الكريم قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين، وفي سرية عبد الله هذه غنم المسلمون أول غنيمة، وعمرو بن الحضرمي أول قتيل قتله المسلمون، وعثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان أول من أسر المسلمون[(٤)].

رابعًا: فوائد ودروس وعبر:

١ ـ متى شرع الجهاد؟

ذهب الشيخ الدكتور محمد أبو شهبة إلى أن تشريع الجهاد كان في أوائل السنة الثانية للهجرة، وعلل ذلك بسبب انشغال المسلمين في السنة الأولى بتنظيم أحوالهم الدينية والدنيوية، كبنائهم المسجد النبوي، وأمور معايشهم، وطرق اكتسابهم، وتنظيم أحوالهم السياسية، كعقد التآخي بينهم، وموادعتهم اليهود المساكنين لهم في المدينة، كي يأمنوا شرورهم[(٥)]، وذهب

---

(١) السرح: الإبل والمواشي التي تسرح للرعي بالغداة.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢/٦٠١).

(٣) نخلة اليمانية: واد عسكرت به هوازن يوم حنين.

(٤) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/٤٣).

(٥) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/٧٥، ٧٦).

الأستاذ صالح الشامي إلى أن الإذن بالجهاد كان في أواخر السنة الأولى للهجرة[١].

٢ ـ الفرق بين السرية والغزوة:

يطلق كُتّاب السير في الغالب على كل مجموعة من المسلمين خرج بها النبي ﷺ ليلقى عدوه (غزوة)، سواء حدث فيها قتال أو لم يحدث، وسواء كان عددها كبيرًا أو صغيرًا، ويطلق على كل مجموعة من المسلمين يرسلها النبي ﷺ لاعتراض عدو كلمة: (سرية) أو (بعث)، وقد يحدث فيها قتال وقد لا يحدث، وقد تكون لرصد أخبار عدوه أو غيره، وغالبًا ما يكون عدد الذين يخرجون في السرايا قليلاً، لأن مهمتهم محددة في مناوشة العدو وإخافته وإرباكه، وقد قاد رسول الله ﷺ سبعًا وعشرين غزوة، وأرسل ما يقدر بثمان وثلاثين سرية وبعثًا، وقد خطط لها في فترة وجيزة في عمر الأمم بلغت عشر سنوات من الزمن[٢].

٣ ـ تعداد سكان المدينة وعلاقته بالسرايا:

أمر النبي ﷺ بإجراء تعداد سكاني في السنة الأولى من الهجرة، وبعد المؤاخاة مباشرة، وكان الإحصاد للمسلمين فقط أو حسب نص أمر رسول الله ﷺ حينما قال: «اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام من الناس» فبلغ تعداد المحاربين منهم فقط (١٥٠٠) ألفًا وخمسمائة رجل[٣]، فأطلق المسلمون بعد إجراء هذا الإحصاء تساؤل تعجب واستغراب: «نخاف ونحن ألف وخمسمائة!» لأنهم كانوا قبل لا ينامون إلا ومعهم السلاح خوفًا على أنفسهم، وكان رسول الله ﷺ يمنع خروجهم ليلاً فرادى حماية لهم من الغدر[٤]، وبعد هذا التعداد مباشرة بدأت السرايا والغزوات وهذا الإجراء الإحصائي يدخل ضمن الإجراءات التنظيمية في تطوير الدولة الناشئة[٥].

٤ ـ حراسة الصحابة للنبي ﷺ الشخصية:

كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يحرسون النبي ﷺ حراسة شخصية، فعن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: أرق النبي ﷺ ذاتَ ليلة، فقال: «ليت رجلاً صالحًا من أصحابي، يحرسُني الليلة» إذ سمعنا صوت السلاح، قال: «من هذا؟» قال: سعدٌ يا رسول الله، جئت أَحْرُسُك فنام النبي ﷺ فنام حتى سمعنا غَطِيطَه[٦].

---

(١) انظر: معين السيرة (ص ١٧٥).

(٢) في ظلال السيرة، غزوة بدر، لأبي فارس (ص ١٢).

(٣) انظر: الوثائق السياسية، حميد الله (ص ٦٥).

(٤) انظر: الروض الأنف (٥/٤٣).

(٥) انظر: دراسات في عهد النبوة للشجاع (ص ١٦٣).

(٦) البخاري: كتاب التمني: باب قوله ﷺ: «ليت كذا وكذا» (٧٢٣١).

وكان ذلك قبل غزوة بدر الكبرى[١]، وفي حديث عائشة مشروعية الاحتراس من العدو، والأخذ بالحزم، وترك الإِهمال في موضع الحاجة إِلى الاحتياط، وأن على الناس أن يحرسوا سلطانهم خشية القتل، وفيه الثناء على من تبرع بالخير وتسميته، وإِنما عانى النبي ﷺ ذلك مع قوة توكله للاستنان به في ذلك[٢].

٥ ـ نص وثيقة المعاهدة مع بني ضمرة والتعليق عليها:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضَمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وأنَّ لهم النصر على من رامهم، إِلا أن يُحاربوا في دين الله ما بَلَّ بحرٌ صوفةً[٣]، وأن النبي ﷺ إِذا دعاهم لنُصرةٍ أجابوه، عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله، ولهم النصر على من برَّ منهم واتقى»[٤].

انتهز النبي ﷺ في غزوة الأبواء فرصة ذهبية، فعقد حلفًا عسكريًا مع شيخ بني ضمرة، فقد كان موقع بلاده ذا قيمة عسكرية لا تقدر بثمن في الصراع بين الدولة الإِسلامية الناشئة وقريش، ولذلك عمل رسول الله ﷺ على ضمان حيدتهم، في حالة وقوع صدام مسلح بين المدينة وأهل مكة، وكانت خطته ﷺ حتى وقعة بدر أن يزعج قوافل قريش بإِرسال مجموعات صغيرة من المهاجرين، وخاصة أن هذه القوافل كانت غير مصحوبة بجيش يحميها، وهو أمر لم تفكر فيه قريش حتى تلك اللحظة[٥].

كان قرب بني ضمرة وحلفائهم من المدينة التي كانت سوقهم ومصدر رزقهم، قد وضعهم في موقف لا يسمح لهم بأي مسلك غير موادعة الدولة الإِسلامية الناشئة، وهو حلف عدم اعتداء وَفْق المصطلح الحديث[٦].

وقد دلت هذه الموادعة على أن مقتضيات السياسة الشرعية قد تدفع المسلمين إِلى التحالف العسكري، أو الاقتصادي، أو التجاري، مع أي من الكتل القائمة، وأن التحالف السياسي له أصل في الشريعة وضرورة يوجبها استهداف رفع الضرر الحاصل أو المرتقب[٧]، وأن التحالف مبني على قاعدة رفع الضرر والمصلحة المشتركة، وأن تكون لأصل الحلف غاية شرعية معلومة، وأن يكون للمسلمين في الحلف قرار ورأي، أما إِذا كانوا أتباعًا ومنفذين كما

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٦/ ٢٣٠).
(٢) انظر: ولاية الشرطة في الإِسلام، د. عمر محمد الحميداني (ص ٦٣).
(٣) كناية عن التأييد والاستمرار.
(٤) الوثائق السياسية، محمد حميد الله (ص ٢٢٠، رقم ١٥٩).
(٥) انظر: نشأة الدولة الإِسلامية، د. عون الشريف (ص ٤٣).
(٦) انظر: الفقه السياسي، خالد سليمان الفهداوي (ص ١١٩).
(٧) المصدر نفسه (ص ١٢٤).

في الأحلاف الحديثة، فهذا لا ينطبق عليه الأصل الشرعي. وعلى قيادة الأمة أن تستوعب هدي النبي ﷺ في حركته السياسية، وأن تفهم القاعدة الشرعية التي تقول: «لا ضرر ولا ضرار»[(١)].

يقول الشيخ مصطفى الزرقا في معرض الحديث عن هذه القاعدة ما نصه: «وهذه القاعدة من أركان الشريعة وتشهد لها نصوص من الكتاب والسنة، ويشمل الضرر المنهيُّ عنه ما كان ضررًا عامًا أو خاصًا، ويشمل ذلك دفعه قبل الوقوع بطرق الوقاية الممكنة، ودفعه بعد الوقوع بما يمكن من التدابير التي تزيل آثاره وتمنع تكراره، كما يدل على وجوب اختيار أهون الشرَّين لدفع أعظمها، لأن في ذلك تخفيفًا للضرر عندما لا يمكن منعه بتاتًا[(٢)].

إن هذه الموادعة توضح جواز عقد الدولة الإسلامية معاهدة دفاعية بينها وبين دولة أخرى، إذا اقتضت ذلك مصلحة المسلمين، ولم يترتب أي ضرر على مثل هذه المعاهدة، ويجب على الدولة الإسلامية في هذه الحال نصرة الدولة الحليفة إذا دعيت إلى هذه النصرة ضد الكفار المعتدين، كما يجوز للدولة الإسلامية أن تطلب من الدولة الحليفة إمدادها بالسلاح، والرجال، ليقاتلوا تحت راية الدولة الإسلامية، ضد الأعداء من الكفار[(٣)].

وقد شرط النبي ﷺ على بني ضَمْرة ألا يحاربوا في دين الله، حتى يكون لهم النصر على من اعتدى عليهم، أو حاول الاعتداء. وفي هذا إبعاد للعقبات التي يمكن أن تقف في طريق الدعوة، فقد أوجبت هذه المعاهدة على بني ضمرة ألا يحاربوا هذا الدين أو يقفوا في طريقه[(٤)].

وتعتبر هذه المعاهدة كسبًا سياسيًا وعسكريًا للمسلمين لا يستهان به[(٥)].

٦ ـ (وإني لأول رجل رمى بسهم في سبيل الله)[(٦)]:

كانت سرية عُبَيدة بن الحارث ـ رضي الله عنه ـ أول سرية في تاريخ السرايا يلتقي فيه المسلمون مع المشركين في مواجهة عسكرية، وقد اتخذ القتال بين الطرفين طابع المناوشة بالسهام، وكان سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ أول العرب رمى بسهم في سبيل الله[(٧)]، في تلك المعركة التي

---

(١) هذه القاعدة أصلها حديث نبوي رواه ابن ماجه (٢/ ٣٩، رقم ١٨٩٦)، وهو صحيح، وذكره الألباني في صحيح سنن ابن ماجه له، وقال: صحيح برقمي [١٩١٠ (٢٣٧٠)، ١٩١١ (٢٣٧١)].

(٢) انظر: المدخل الفقهي، الشيخ الزرقا (ص ٩٧٢).

(٣) انظر: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، د. محمد خير هيكل (١/ ٤٧٩).

(٤) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين (ص ٥٣٠).

(٥) انظر: الدعوة الإسلامية، د. عبد الغفار عزيز (ص ٢٩٦).

(٦) انظر: سنن الترمذي (٢/ ٢٧٧).

(٧) انظر: السرايا والبعوث النبوية، د. بريكك العمري (ص ٩١).

لم تستمر طويلاً، إذ قرر الفريقان الانسحاب من أرضها، وقد كان انسحاب المسلمين قويًّا ومنظمًا، وكان بطل هذا الانسحاب سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ فقد كان له الدور الأكبر في تثبيط وإحباط استعدادات العدو، لشن أي هجوم مضاد، وذلك بوابل من السهام المزعجة التي قذفها نحوه، والتي كونت ساترًا دفاعيًا، مهد لانسحاب سليم منظم بالنسبة للمسلمين، وقد فر عتبة بن غَزْوان، والمقداد بن الأسود[١] ـ رضي الله عنهما ـ يومئذٍ إلى المسلمين وكانا قد أسلما قبل ذلك، وفي هذه السرية حقق سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ سبقًا عسكريًا إسلاميًا يسجل في سجله الحافل بالأعمال العظيمة لنصرة دين الله تعالى، كما أكدت هذه السرية استمرار سياسة رسول الله ﷺ التعبوية الخاصة بحشد المهاجرين فقط في الغزوات والسرايا الأولى حتى بدر تنفيذًا لاتفاقية العقبة الثانية[٢].

٧ ـ نص وثيقة الموادعة مع جهينة والتعليق عليها:

«إنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم، وإن لهم النصر على من ظلمهم أو حاربهم إلا في الدين والأهل. ولأهل باديتهم من برَّ منهم واتقى ما لحاضرتهم»[٣].

ويظهر أثر هذه المواعدة عندما تدخل مَجْدِيُّ بن عمرو الجُهَنِيّ في التوسط بين سرية حمزة بن عبد المطلب والقافلة القرشية التي كان يقودها أبو جهل بن هشام، ويحرسها ثلثمائة راكب من فرسان قريش[٤]، فقد التقوا ناحية العيص في منطقة نفوذ جهينة واصطفوا للقتال[٥]، وقبل أن يندلع القتال بين الفريقين تدخل مجدي بن عمرو زعيم من زعماء جهينة في وساطة سلام بينهم، واستطاع أن ينجح في مساعيه السلمية بين الطرفين، فقد كان مجدي وقومه حلفاء للفريقين جميعًا، فلم يعصوه، فرجع الفريقان إلى بلادهما فلم يكن بينهما قتال[٦].

يظهر من هذه المعاهدة أن عقد المعاهدات بين الدولة الإسلامية والقبائل المجاورة كان سابقًا على الأعمال العسكرية التي قامت بها، بدليل أن حركة السرايا الأولى الموجهة ضد قريش كان قد سبقها معاهدة سلام بين دولة الإسلام، وقبيلة جهينة المقيمة على ساحل البحر الأحمر، وقد توسطت لمنع القتال بين المسلمين وكفار مكة.

ومن فقه هذه المعاهدة جواز عقد معاهدة سلام بين دولة الإسلام ودولة أخرى، هي

---

(١) هو سيدنا المقداد بن عمرو البَهْرَاني الكندي، وقيل الحضرمي، وغلبت عليه الشهرة باسم المقداد بن الأسود (الإصابة: لابن حجر ٦/ ١٦٠ عند ترجمته برقم ٨٢٠١).

(٢) انظر: السرايا والبعوث النبوية، د. بريكك العمري (ص ٩٢).

(٣) انظر: مجموعة الوثائق السياسية، محمد حميد الله (ص ٦٢).

(٤) انظر: المواهب اللدنية (١/ ٧٥).

(٥) انظر: طبقات ابن سعد (٢/٦)، وانظر: السرايا والبعوث، (ص ٨٥).

(٦) انظر: السرايا والبعوث النبوية (ص ٨٦).

بدورها مرتبطة بمعاهدة سلام مع أعداء الدولة الإسلامية، بشرط أن لا تتجاوز تلك المعاهدة إلى الاتفاق على أن تنصر الدولة المعاهدة للمسلمين، تلك الدولة العدُو إذا ما اشتبكت مع المسلمين في قتال، ويجوز للدولة الإسلامية أن تترك قتال أعدائها بعد أن تستعد لذلك، استجابة لوساطة دولة أخرى إذا لم يترتب على ذلك ضرر للمسلمين[(١)].

كانت نتائج سرية حمزة ـ رضي الله عنه ـ على المعسكر الوثني سيئة للغاية، حيث هزت كيان قريش، وبث الرعب في نفوس رجالها، وفتحت أعينهم على الخطر المحدق بهم، والذي أصبح يهدد طريق تجارتهم، وقوتهم الاقتصادية[(٢)]، فقد قال أبو جهل حين قدم مكة وقد انصرف عن حمزة: يا معشر قريش، إن محمدًا قد نزل يثرب وأرسل طلائعه، وإنما يريد أن يصيب منكم شيئًا، فاحذروا أن تمروا طريقه، وأن تقاربوه فإنه كالأسد الضاري، إنه حنق[(٣)] عليكم نفيتموه نفي القردان[(٤)] على المناسم[(٥)]، والله إن له لسحرة، مارأيته قط ولا أحد من أصحابه إلا رأيت معهم الشياطين، وإنكم عرفتم عداوة ابني قيلة[(٦)] فهو عدو استعان بعدو[(٧)].

٨ ـ سرية عبد الله بن جحش وما فيها من دروس وعبر:

حققت سرية عبد الله بن جحش نتائج مهمة وفيها دروس وعبر وفوائد عظيمة منها:

أ ـ جاء في خبر هذه السرية أن النبي ﷺ كتب لأمير السرية كتابًا وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين: وهذا مثل لتطبيق مبدأ مهم من مبادىء الحرب، وهو إخفاء الخطط الحربية، ومنها خط السير حتى يكون الجيش في أمان من كيد الأعداء، فالمدينة كانت آنذاك تضم اليهود والوثنيين، ومن المتوقع أن يسارع هؤلاء إلى إخبار أهل مكة بخط سير تلك السرية الموجهة ضدهم، فلما سار أفراد السرية، وهم بأنفسهم لا يعلمون اتجاههم، أصبح النبي ﷺ آمنًا من انكشاف الهدف المقصود[(٨)].

وإن الباحث ليرى أثر التربية النبوية في هذه السرية المباركة، حيث سمعوا وأطاعوا جميعًا، وساروا إلى منطقة أعدائهم، وتجاوزوها حتى أصبحوا من ورائهم، وهذا شاهد على قوة إيمان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ واستهانتهم بأنفسهم في سبيل الله تعالى[(٩)].

---

(١) انظر: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية (١/ ٤٧٨، ٤٧٩).

(٢) انظر: السرايا والبعوث النبوية (ص ٨٦).

(٣) الحَنَق، مُحركة: الغيظ أو شدته.

(٤) القردان: جمع قراد، وهي دويبة تعض الإبل.

(٥) المناسم: بكسر السين طرف خف البعير والنعامة، والفيل والحافر، وقيل: هو للناقة كالظفر للإنسان.

(٦) كناية عن الأوس والخزرج، فقيلة أمهم وكانوا ينسبون إليها.

(٧) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢١٨، ٢١٩).

(٨) انظر: التاريخ الإسلامي، مواقف وعبر (٤/ ٧١).

(٩) المصدر نفسه (٤/ ٧١).

ب ـ حاولت قريش أن تستغل ما وقع من قتل في الشهر الحرام:

من قِبَل أفراد السرية فشنُّوا حربًا إعلامية وهجومية مركزة، تتخللها دعايات مغرضة ضد المسلمين، استغلت فيها التعاليم الإبراهيمية، التي لا زالت بعض آثارها باقية في المجتمع الجاهلي، حتى ذلك الوقت من تحريم القتال في الأشهر الحرم، وغير ذلك فقد انتهزت قريش هذه الفرصة للتشهير بمحمد ﷺ وبالمسلمين وإظهارهم بمظهر المعتدي الذي لا يراعي الحرمات[١]، قالت قريش: «قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال»[٢].

ونجحت قريش في خطتها تلك باديء الأمر حيث «كان لدعايتها صدى كبير، وأثر ملموس حتى في المدينة نفسها، فقد كثر الجدل والنقاش بين المسلمين أنفسهم، وأنكروا على رجال السرية، محاربتهم في الشهر الحرام، واشتد الموقف ودخلت اليهود تريد إشعال الفتنة»[٣] وقالوا: إن الحرب واقعة لا محالة بين المسلمين وقريش، بل بينهم وبين العرب جميعًا جزاء ما انتهكوا من حرمة الشهر الحرام، وأخذوا يردّدون[٤]: «عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله، عمرو: عمرت الحرب، والحضرمي: حضرت الحرب، واقد: وقدت الحرب»[٥] وهذا الكلام من اليهود يعبر عن حقد دفين في نفوسهم على الإسلام والمسلمين[٦].

وعندما ظن أهل السرية أنهم قد هلكوا وسُقط في أيديهم جاء الرد الرباني المفحم قطعًا لألسنة المشركين الذين يتترسون بالحرمات، ويتخذونها ستارًا لجرائمهم، ففضح القرآن هؤلاء المجرمين، وأبطل احتجاجهم وأجاب على استنكارهم القتال في الشهر الحرام، فالصد عن سبيل الله، والكفر به أكبر من القتال في الشهر الحرام، والمسجد الحرام، وإخراج أهله منه أكبر من القتال في الشهر الحرام، وفتنة الرجل في دينه أكبر من القتل في الشهر الحرام. لقد فعلت قريش كل هذه الجرائم، وارتكبت هذه الكبائر، ولكنها تناستها أو استهانت بها، ولم تذكر إلا حرمة الشهر، واتخذتها وسيلة لإثارة حرب شعواء على الإسلام ودولته، لتأليب القبائل الوثنية عليها وتنفير الناس من الدخول في هذا الدين الذي يستحل الحرمات، ويستبيح المقدسات حتى أن رسول الله ﷺ قد لحقه الغم، ولام قائد السرية وأصحابه على ما فعلوا[٧]، فنزلت الآيات

---

(١) انظر: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، الشريف أحمد (ص ٤٤٥).

(٢) انظر: سنن البيهقي (٩/٥٩) نقلاً عن السرايا والبعوث النبوية (ص ١٠٠).

(٣) انظر: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول (ص ٤٤٥).

(٤) أي يرددون على سبيل التفاؤل ـ عليهم لعائن الله.

(٥) انظر: سيرة ابن هشام (ق ١/٦٠٣، ٦٠٤).

(٦) انظر: التاريخ الإسلامي (٤/٧٢).

(٧) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين (ص ٥٣٣).

البينات ترد وبقوة على دعايات قريش المغرضة موضحة أنه وإن كان الشهر الحرام لا يحل فيه القتال، ولكن لاحرمة عند الله لمن هتك الحرمات وصد عن سبيله(١).

جـ - حرص القائد على سلامة الجنود:

عندما تخلف سعد بن أبي وقاص، وعُتبة بن غَزْوان بسبب بحثهما عن بعير لهما قد أَضَلاَّه، وجاءت قريش تريد أن تفدي الأسيرين، فأبى رسول الله ﷺ وقال: «أخاف أن تكونوا قد أصبتم سعد بن مالك، وعتبة بن غزوان» فلم يُفْدِهِمَا حتى قدم سعد وعتبة، ففوديا، فأسلم الحكم بن كيسان(١)، وأقام عند رسول الله ﷺ، ورجع عثمان بن عبد الله بن المغيرة كافرًا(٢).

ونفهم من المنهاج النبوي ضرورة أن يهتم القائد بسلامة جنده، لأنهم هم الذين يقدمون أنفسهم في سبيل نصرة دين الله، وإقامة دولة الإسلام.

إن المدارس العسكرية الحديثة تقول: إن الجندي حين يُحس باهتمام القيادة به وسلامته وبأمنه، لا يتردد في أن يبذل غاية البذل، ويعطي أقصى العطاء(٢).

د - ظهور التربية الأمنية في الميدان:

كانت سرية عبد الله بن جحش قد حققت أهدافها، وظهرت قدرتها على التوغل في المناطق الخاضعة لنفوذ قريش مما أذهلها، وزاد دهشتها وذهولها تلك السرية التامة والدقة المتناهية التي تمت بها العملية، حتى إن جواسيس قريش لم تستطع رصدها ولا معرفة الوجهة التي قصدتها، وكان ذلك ما أراده رسول الله ﷺ وخطط له بابتكاره أسلوب الرسائل المكتوبة للمحافظة على الكتمان وحرمان العدو من الحصول على المعلومات التي تفيده عن حركات المسلمين «والكتمان أهم عامل من عوامل مبدإ (المباغتة) وهي أهم مبدإ من مبادىء الحرب»(٣).

وقد أثبتت هذه السرية بما لايدع مجالاً للشك بأن سرايا النبي ﷺ قوية تندفع للقيام بأصعب الأعباء والمهمات، وتتحلى بمزايا القتال، وقدرتها على إنجاز الواجبات بكل كفاءة واقتدار مما يدل على روحها المعنوية العالية.

وتظهر آثار التربية النبوية في الضبط العسكري الرفيع الذي تميز به قائد السرية وطاعته للأوامر النبوية العليا، دون تردد أو تخاذل، فما أن قرأ الكتاب حتى امتثل فورًا للأمر بحذافيره، معطيًا من نفسه القدوة الحسنة، وباثًا في نفوس جنوده الحماس، وهو يقول لهم:

---

(١) انظر: السرايا والبعوث النبوية (ص ١٠٠).

(٢) انظر: غزوة بدر الكبرى، د. محمد أبو فارس (ص ٢٣).

(٣) انظر: الرسول القائد، خطاب (ص ٩٤).

«فمن كان منكم يريد الشهادة، ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماض لأمر رسول الله ﷺ»[(١)].

٩ ـ من أهداف السرايا:

عندما ندرس حركة السرايا والغزوات، التي قادها رسول الله ﷺ بدقة وعمق وتحليل، نستطيع أن نتلمس كثيرًا من الأهداف، وندرك بعض ما توحي به من دروس وعبر وفوائد، فإذا تأملنا في حركة السرايا التي سُيرت قبل بدر نجد أن أفرادها كلهم من المهاجرين، ليس فيهم واحد من الأنصار، يقول ابن سعد رحمه الله: «والمجتمَع عليه أنهم كانوا جميعًا من المهاجرين» ولم يبعث رسول الله ﷺ أحدًا من الأنصار مبعثًا حتى غزا بهم بدرًا[(٢)]، وقد كان هذا أمرًا مدروسًا له أهدافه ومنها إحياء قضية المهاجرين في أنفسهم أولاً، وإحياؤها على المستوى الخارجي، وإنهاك الاقتصاد القرشي ومحاصرته، واستعادة بعض الحقوق المسلوبة، وإضعاف قريش عسكريًا، وتدريب الصحابة على إتقان فنون القتال، ورصد تحركات قريش، وإرهاب العدو الداخلي في المدينة وما حولها، واختبار قوة العدو[(٣)]، وقد حققت تلك السرايا أهدافها والتي من أهمها:

أ ـ بسط هيبة الدولة في الداخل والخارج:

فقد استطاعت تلك السرايا والغزوات أن تلفت أنظار أعداء الدعوة والدولة الإسلامية إلى قوة المسلمين وقدرتهم على ضرب أية حركة مناوئة سواء في الداخل أو الخارج حتى لا يُحدِّث أحد نفسه بمهاجمة الدولة الإسلامية التي لا يتوقف جيشها ليل نهار، مما أرهب الأفاعي اليهودية، والقبائل الوثنية المحيطة بالمدينة، وجعل الجميع يعمل ألف حساب قبل أن تحدثه نفسه بغزو المدينة، أو مناصرة أحد من الأعداء عليها، والذي نلاحظه في حركة السرايا، الزيادة المستمرة في أعداد قوة تلك الغزوات والسرايا، ومجيئها متتابعة ليس بينها فاصل زمني على الإطلاق، فلا تكاد السرية أو الغزوة تعود، حتى تكون التي بعدها قد خرجت، لتحقيق الهدف نفسه، وهو ضرب مصالح قريش الاقتصادية، وقطع طرق تجارتها، وخصوصًا إلى بلاد الشام مما كلفها زيادة عدد حراس قوافلها، وارتفاع قيمة بضائعها عدا الرعب والخوف الذي يشعر به رجال القوافل القرشية وأصحاب الأموال في مكة على حد سواء[(٤)].

ب ـ كسب بعض القبائل وتحجيم دور الأعراب:

فقد وادع رسول الله ﷺ قبيلة جُهَيْنة وحالفها، وكذلك بعض القبائل الضاربة في تلك

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (ق ١/ ٦٠٢) من رواية ابن إسحاق عن عروة.

(٢) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٦).

(٣) انظر: غزوة بدر الكبرى لأبي فارس (ص ١٤ ـ ٢٤).

(٤) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين (ص ٥٣٢).

المنطقة من أجل تحييدها في الصراع الدائر بين مكة والمدينة، والعمل على كسبها في هذا الصراع وذلك: «لأن الأصل أن هذه القبائل تميل إلى قريش، وتتعاون معها، إذ بينهما مُحالفات تاريخية سماها القرآن الكريم بالإيلاف(١)، سعت قريش من خلالها لتأمين تجارتها مع الشام واليمن»(٢).

وبعد أن اتفقت بعض القبائل مع رسول الله ﷺ وعقدت معه معاهدات، أصبحت تشكل خطرًا على تجارة قريش، وصار المسلمون هم السادة في المنطقة(٣).

وقام النبي ﷺ بتحجيم دور الأعراب كي لا يكون لهم وجود في طرق التجارة، فقد كان الأعراب يُشكلون قوة تهديد للقوافل التجارية، وكان المار في مناطق نفوذهم لا يمر إلا بإتاوة تُدفع إليهم، وحينما قامت الدولة الإسلامية لم يجدوا شيئًا منها، فجربوا مهاجمتها، وتولى هذا كُرْز الفِهْري، ولكنه وجد رسول الله ﷺ يطارده إلى سَفْوان (بالقرب من بدر مسافة تبعد عن المدينة حوالي ١٥٠ كيلو متراً) وقد سمى أهل السير هذه المطاردة (غزوة بدر الصغرى) وتُعد هذه الغزوة درسًا لكل الأعراب، فلم يحصل أن أعرابيًا سولت له نفسه مهاجمة المدينة بعد هذه المطاردة، ومن ثم لم تدفع الأمة الإسلامية إتاوات لقُطّاع الطرق، بل أجبرتهم على الانسحاب والدخول في اتفاقات مع المسلمين فأمنوا شرهم(٤).

جـ - علاقة هذه السرايا بحركة الفتوح الإسلامية:

استمرت حركة السرايا والبعوث وكانت بمثابة تمرينات عسكرية تعبوية، ومناورات حية لجند الإسلام، وكان هذا النشاط المتدفق على شكل موجات متعاقبة من جند الإسلام الأوائل، دلالة قاطعة على أن دولة الإسلام في المدينة، وبقيادة النبي القائد ﷺ كانت مثل خلية النحل، لا تهدأ ولا تَكَلّ، وإن الباحث ليلحظ في حركة السرايا والبعوث، والغزوات الكبرى، في زمن النبي ﷺ حرص الصحابة على المشاركة كقادة وجنود، فكان ﷺ يعدهم لتثبيت دعائم الدولة والاستعداد للفتوحات المرتقبة، والتي ما فتىء عليه الصلاة والسلام يبشر بها أصحابه بين الفينة والأخرى في أوقات الحرب والسلم والخوف والأمن.

إنه بنظرة فاحصة في قوّاد وجنود تلك السرايا والبعوث تطالعنا أسماء لمعت كثيرًا في تاريخ الفتح الإسلامي فيما بعد، مثل قائد فتوحات الشام «أمين الأمة» أبي عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص، صاحب القادسية، وفاتح المدائن، وخالد بن الوليد، سيف الله

(١) انظر: سورة قريش.

(٢) انظر: المجتمع المدني، د. أكرم ضياء العمري (ص ٢٧).

(٣) انظر: دراسات في السيرة (ص ١٩).

(٤) انظر: دراسات في عهد النبوة د. عبد الرحمٰن الشجاع (ص ١٣١).

المسلول، هازم الروم في اليرموك، وعمرو بن العاص، فاتح مصر وليبيا، وغيرهم - ﷺ - لقد التحق خالد وعمرو فيما بعد بحركة السرايا، وقادا بعضها بعد إسلامهما، لقد كانت السرايا والغزوات التي أشرف عليها الحبيب المصطفى ﷺ في حياته تدريبًا حيًّا نابضًا، بل يمكن اعتبارها دورات أركان للقادة الذين فتحوا مشارق الأرض ومغاربها فيما بعد.

المبحث الخامس

استمرارية البناء التربوي والعلمي

كان من أوائل ما نزل من القرآن الكريم في العهد المدني هو مقدمات سورة البقرة التي تحدثت عن صفات أهل الإيمان، وأهل الكفر، وأهل النفاق، ثم إشارة لأهل الكتاب - اليهود والنصارى - وكان التركيز على بيان حقيقة اليهود لأنهم الذي تصدوا للدعوة الإسلامية من أول يوم دخلت فيه المدينة، وتتضمن سورة البقرة جانبًا طويلاً منها لشرح صفة يهود وطباعهم[1].

والملاحظ أن سورة البقرة وهي من أوائل ما نزل في العهد المدني كانت توجه الدعوة للناس أجمعين أن يدخلوا في دين الله، وأن يتوجهوا له بالعبادة قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢١، ٢٢].

وكانت الآيات القرآنية في العهد المدني تحذر المسلمين من الاتصاف بصفات المنافقين، وتوضح خطورة المنافقين على المجتمع الناشىء والدولة الجديدة، ولم تظهر حركة النفاق ضد المجتمع والدولة المسلمة إلا في العهد المدني، لأن المسلمين في مكة «لم يكونوا من القوة والنفوذ في حالة تستدعي وجود فئة من الناس ترهبهم أو ترجو خيرهم، فتتملقهم وتتزلف إليهم في الظاهر، وتتآمر عليهم وتكيد لهم وتمكر بهم في الخفاء، كما كان شأن المنافقين بوجه عام.. والآيات تتضمن أوصاف وأخبار ومواقف المنافقين، والحملات عليهم كثيرة جدًا، حتى لا تكاد تخلو سورة مدنية منها، وخاصة الطويلة والمتوسطة، وهذا يعني أن هذه الحركة ظلت طيلة العهد المدني تقريبًا، وإن كانت أخذت تضعف من بعد نصفه الأول»[2].

واستمر القرآن المدني يتحدث عن عظمة الله وحقيقة الكون والترغيب في الجنة والترهيب من النار ويشرع الأحكام لتربية الأمة، ودعم مقومات الدولة التي ستحمل نشر دعوة الله بين الناس قاطبة، وتجاهد في سبيل الله.

---

(١) انظر: الظلال (١/ ٢٧) ومابعدها.

(٢) انظر: السيرة النبوية، دَرْوَزَة (٢/ ٧٣، ٧٦) نقلاً عن: دراسات في عهد النبوة، د. عبد الرحمٰن الشجاع (ص ١٧٢).

وكانت مسيرة الأمة العلمية تتطور مع تطور مراحل الدعوة وبناء المجتمع، وتأسيس الدولة، وقد أشاد القرآن الكريم بالعلم، والذين يتعلمون، ورويت أحاديث عن تقدير الرسول الله ﷺ للعلم.. وتضمنت كتب الحديث أبوابًا عن العلم.

لقد أيقنت الأمة أن العلم من أهم مقومات التمكين، لأن من المستحيل أن يمكن الله تعالى لأمة جاهلة، متخلفة عن ركاب العلم، وإن الناظر للقرآن الكريم ليتراءى له في وضوح أنه زاخر بالآيات التي ترفع من شأن العلم، وتحث على طلبه وتحصيله، فقد جعل القرآن الكريم العلم مقابلاً للكفر[١] الذي هو الجهل والضلال قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: الآية ٩].

وإن الشيء الوحيد الذي أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يطلب منه الزيادة هو العلم. قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، كما أن أول خاصية ميز الله تعالى بها آدم ـ عليه السلام ـ هي العلم ـ قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣١].

واستمر النبي ﷺ في منهجه التربوي لكي يعلم أصحابه ويذكرهم بالله ﷻ، ويحثهم على مكارم الأخلاق، ويوضح لهم دقائق الشريعة وأحكامها، وكان توجيهه ﷺ لأصحابه أحيانًا فرديًا ومرة جماعيًا، وترك لنا الحبيب المصطفى ثروة هائلة في وسائله التربوية في التعليم وإلقاء الدروس، فقد راعى ﷺ الوسائل التربوية التي تعين على الحفظ وحسن التلقي، وتؤدي إلى استقرار الحديث في نفوس وأفئدة الصحابة الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ ومن هذه الوسائل والمبادىء العظيمة النافعة[٢] في العهد المكي والمدني:

أولاً: أهم هذه الوسائل والمبادىء التربوية:

١ ـ تكرار الحديث وإعادته:

فذلك أسهل في حفظه، وأعون على فهمه، وأدعى لاستيعابه ووعي معانيه، ولذلك حَرَص النبي ﷺ على تكرير الحديث في غالب أحيانه، فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثًا حتى تُفهَم عنه...[٣].

٢ ـ التأني في الكلام والفصل بين الكلمات:

كان ﷺ يتأنّى ولا يستعجل في كلامه، بل يفصل بين كلمة وأخرى حتى يسهل الحفظ، ولا يقع التحريف والتغيير عند النقل، وبلغ من حرص النبي ﷺ ذلك أنه كان يسهِّل على

---

(١) التمكين للأمة الإسلامية (ص ٦٢).

(٢) انظر: مناهج وآداب الصحابة في التعلم والتعليم، د. البر (ص ٥٩، ٦٠).

(٣) البخاري: كتاب العلم، باب من أعاد الحديث ثلاثًا...، ورقمه (٩٥).

السامع أن يعُد كلماته ﷺ لو شاء[١]، فقد روى عروة بن الزبير رحمه الله أن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: ألا يُعْجِبُكَ أبو فلان؟ جاء فجلس إلى جانب حجرتي يُحدِّث عن رسول الله ﷺ يُسْمِعُني ذلك، وكنت أُسبِّح[٢]، فقام قبل أن أقضي سُبْحتي، ولو أدركته لرددت عليه؛ إن رسول الله ﷺ لم يكن يَسْرُدُ الحديث كسردكم»[٣].

٣ ـ الاعتدال وعدم الإملال واختيار الوقت المناسب:

كان ﷺ يقتصد في تعليمه في مقدار ما يلقيه، وفي نوعه، وفي زمانه حتى لا يمل الصحابة، وحتى ينشطوا لحفظه، ويسهل عليهم عقلُه وفهمه، فعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: كان النبي ﷺ يتخوَّلُنا[٤] بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا[٥].

٤ ـ ضرب الأمثال:

للمثل أثر بالغ في إيصال المعنى إلى العقل والقلب، ذلك أنه يقدم المعنويَّ في صورة حسية فيربطه بالواقع ويقربه إلى الذهن، فضلاً عن أن للمثل بمختلف صوره بلاغة تأخذ بمجامع القلوب، وتستهوي العقول، وبخاصة عقول البلغاء، ولذلك استكثر القرآن من ضرب الأمثال، وذكر حكمة ذلك في آيات كثيرة، فقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

إلى غير ذلك من الآيات، وعلى هذا المنهج الكريم سار النبي ﷺ فاستكثر من ضرب الأمثال، فقد قال عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: «حفظت عن رسول الله ﷺ ألف مثل»[٦].

وقد أُلفت كتب متعددة في الأمثال في الحديث النبوي من أقدمها كتاب: (أمثال الحديث) للقاضي أبي محمد الحسن بن عبد الرحمٰن الرَّامَهُرْمُزِيّ (ت ٣٦٠هـ)[٧].

٥ ـ طرح المسائل:

إن طرح السؤال من الوسائل التربوية المهمة في ربط التواصل القوي بين السائل

---

(١) انظر: مناهج آداب الصحابة، د. عبد الرحمٰن البر (ص ٦٢).
(٢) أسبح: أصلي النافلة وهي السُّبحة، وقيل صلاة الضحى.
(٣) البخاري: كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، رقم (٣٥٦٨).
(٤) يتخوَّلنا: يتعهدنا.
(٥) البخاري: كتاب العلم، باب ماكان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة، رقم (٦٨).
(٦) انظر: مناهج وآداب الصحابة (ص ٦٥).
(٧) المصدر نفسه (ص ٦٥)، كل وسائل التعليم النبوية اختصرتها من هذا الكتاب القيم.

والمسؤول، وفتح ذهن المسؤول وتركيز اهتمامه على الإجابة، وإحداث حالة من النشاط الذهني الكامل، ولذلك استخدم النبي ﷺ السؤال في صور متعددة لتعليم الصحابة، مما كان له كبير الأثر في حسن فهمهم وتمام حفظهم، فأحيانًا يوجه النبي ﷺ السؤال لمجرد الإثارة والتشويق ولفت الانتباه، ويكون السؤال عندئذٍ بصيغة التنبيه (ألا) غالبًا، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات» قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: «إسباغُ الوضوء على المكاره، وكثرةُ الخُطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرّباط»[1].

وأحيانًا يسألهم النبي ﷺ عما يعلم أنهم لا علم لهم به، وأنهم سيكلُون علمه إلى الله ورسوله، وإنما يقصد إثارة انتباههم للموضوع، ولفت أنظارهم إليه[2]، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهمَ له ولا متاع. فقال: «إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فَيُعْطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فَنِيَت حسناته قبل أن يُقضَى ما عليه أُخذ من خطاياهم، فطُرحت عليه ثم طُرِح في النار»[3].

وأحيانًا يسأل فيحسن أحد الصحابة الإجابة، فيثني عليه ويمدحه تشجيعًا له، وتحفيزًا لغيره، كما فعل مع أُبيّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا المنذر أتدري أيُّ آية من كتاب الله معك أعظمُ؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «يا أبا المنذر أتدري أيُّ آية مِنْ كتاب الله معك أعظمُ؟» قال: قلت: الله لا إله إلا هو الحي القيوم. قال: فضرب في صدري، وقال: «والله! لِيَهْنِكَ العلمُ[4] أبا المنذر»[5].

فهذا الاستحسان والتشجيع يبعث المتعلم على الشعور بالارتياح والثقة بالنفس، ويدعوه إلى طلب وحفظ المزيد من العلم وتحصيله[6].

٦ ـ إلقاء المعاني الغريبة المثيرة للاهتمام والداعية إلى الاستفسار والسؤال:

ومن ألطف ذلك وأجمله ما رواه جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ مرّ

---

(١) مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء، ورقمه [٤١ـ (٢٥١)].
(٢) انظر: مناهج وآداب الصحابة (ص ٦٧).
(٣) مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، ورقمه (٥٨١).
(٤) أي ليكن العلم هنيئًا لك.
(٥) مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، ورقمه (٨١٠).
(٦) انظر: مناهج وآداب الصحابة (ص ٦٩).

بالسوق، داخلاً من بعض العَاليَة، والناس كَنَفَتَه[(١)]، فمر بِجَدْي أَسَكَّ[(٢)] ميت، فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال: «أيكم يُحب أن هذا له بدرهم؟» قالوا: ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنعُ به؟ قال: «أتحبون أنه لكم؟» قالوا: والله لو كان حيًّا كان عيبًا فيه لأنه أَسَكُّ، فكيف وهو مَيِّت؟ فقال: «فوالله للدُّنيا أهونُ على الله من هذا عليكم»[(٣)].

٧ ـ استخدام الوسائل التوضيحية:

كان النبي ﷺ يستخدم ما يسمى اليوم بالوسائل التوضيحية لتقرير وتأكيد المعنى في نفوس وعقول السامعين، وشغل كل حواسهم بالموضوع، وتركيز انتباههم فيه مما يساعد على تمام وعيه وحسن حفظه بكل ملابساته، ومن هذه الوسائل:

● التعبير بحركة اليد: كتشبيكه ﷺ بين أصابعه وهو يبين طبيعة العلاقة بين المؤمن وأخيه، فعن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبَّك بين أصابعه[(٤)].

● التعبير بالرسم، فكان ﷺ يخطُّ على الأرض خطوطًا توضيحية تسترعي نظر الصحابة، ثم يأخذ في شرح مفردات ذلك التخطيط وبيان المقصود منه، فعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: خطَّ رسول الله ﷺ خطًّا، ثم قال: «هذا سبيل الله» ثم خط خطوطًا عن يمينه، وعن شماله ثم قال: «هذه سُبُلٌ ـ قال يزيد: متفرقة ـ على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه» ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[(٥)] [الأنعام: ١٥٣].

● التعبير برفع وإظهار الشيء موضع الحديث: كما فعل ﷺ عند الحديث عن حكم لبس الحرير والذهب، فعن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: إن نبيَّ الله ﷺ أخذ حريرًا فجعله في يمينه، وأخذ ذهبًا فجعله في شماله ثم قال: «إن هذين حرام على ذكور أمتي»[(٦)] وفي رواية عند النسائي عن أبي موسى: «أُحِل الذهب والحرير لإناث أمتي، وحُرِّم على ذكورها»[(٧)]، فجمع

---

(١) كنفته: يعني عن جانبه، والكنف بالتحريك: الناحية والجانب.

(٢) أَسَكّ: مُصْطَلِمُ الأذنين مقطوعهما، النهاية (٢/ ٣٨٤).

(٣) مسلم: كتاب الزهد والرقائق، ورقمه (٢٩٥٧).

(٤) البخاري: كتاب المظالم، باب نصر المظلوم، رقم (٢٤٤٦).

(٥) مسند الإمام أحمد (١/ ٤٣٥) ورقمه في ط/ الرسالة (٤١٤٢) ـ (جـ/ ٢٠٧، ٢٠٨). وقال محققوه: إسناده حسن، . . . وأخرجه الحاكم (٢/ ٣١٨). قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٦) أبو داود، كتاب اللباس، باب في الحرير للنساء رقم (٤٠٥٧) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

(٧) صحيح سنن النسائي، الألباني، ورقمه (٥١٦٣) وصححه.

النبي ﷺ بين القول وبين رفع الذهب والحرير وإظهارهما حتى يجمع لهما السماع والمشاهدة، فيكون ذلك أوضح وأعون على الحفظ.

● التعليم العملي بفعل الشيء أمام الناس: كما فعل عندما صَعِد ﷺ المنبر فصلَّى بحيث يراه الناس أجمعون، فعن سهل بن سعد الساعدي - رضي الله عنه - قال: ثم رأيت رسول الله ﷺ صلى عليها[١]، وكبر وهو عليها، ثُمَّ ركع وهو عليها، ثم نزل القَهْقَرى[٢] فسجد في أصل المِنْبر، ثم عاد، فلما فرغ أقبل على الناس، فقال: «أيها الناس، إنما صنعت هذا لتَأْتَمُّوا بي، ولتعلَّموا[٣] صلاتي»[٤].

٨ ـ استعمال العبارات اللطيفة والرقيقة:

إن استعمال لطيف الخطاب ورقيق العبارات يؤلف القلوب، ويستميلها إلى الحق، ويدفع المستمعين إلى الوعي والحفظ، فقد كان ﷺ يمهد لكلامه وتوجيهه بعبارة لطيفة رقيقة، وبخاصة إذا كان بصدد تعليمهم ماقد يستحيا من ذكره، كما فعل عند تعليمهم آداب الجلوس لقضاء الحاجة، إذ قدَّم لذلك بأنه مثل الوالد للمؤمنين، يعلمهم شفقة بهم[٥] فقد قال ﷺ: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أُعلِّمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة، ولا يستدبرْها، ولا يَسْتَطِبْ بيمينه»[٦].

لقد راعى المعلم الأول ﷺ جملة من المبادىء التربوية الكريمة كانت غاية في السمو الخلقي والكمال العقلي، وذلك في تعليقه على ما صدر من بعض الصحابة جعلت التوجيه يستقر في قلوبهم، ويبقي ماثلاً أمام بصائرهم لما ارتبط به من معان تربوية كريمة[٧]، وهذا بعض المبادىء الرفيعة التي استعملها النبي ﷺ:

● تشجيع المحسن والثناء عليه:

ليزداد نشاطًا وإقبالاً على العلم والعمل، مثلما فعل مع أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - حين أثنى على قراءته وحسن صوته بالقرآن الكريم، فعن أبي موسى - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ

---

(١) عليها: أي على أعواد المنبر التي صنع منها المنبر.

(٢) القهقرى: المشي إلى خلف، من غير أن يعيد وجهه إلى جهة مشيه.

(٣) أي تتعلموا، فحذف إحدى التائين.

(٤) البخاري: كتاب الجمعة، باب الخُطبة على المنبر، رقم (٩١٧).

(٥) انظر: مناهج وآداب الصحابة في التعلم والتعليم (ص ٧٤).

(٦) أبو داود، كتاب الطهارة، باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة (١/ ٣، رقم ٨) وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

(٧) انظر: مناهج وآداب الصحابة في التعلم والتعليم (ص ٨٥).

قال له: «لو رَأَيْتَني وأنا أستمع لقراءتك البارحة، لقد أوتيتَ مزمارًا من مزامير آل داود»[١].

● **الإشفاق على المخطىء وعدم تعنيفه:**

كان صلوات الله وسلامه عليه يقدر ظروف الناس ويراعي أحوالهم، ويعذرهم بجهلهم، ويتلطف في تصحيح أخطائهم ويترفق في تعليمهم الصواب، ولا شك أن ذلك يملأ قلب المنصوح حبًّا للرسالة وصاحبها، وحرصًا على حفظ الواقعة والتوجيه وتبليغهما، كما يجعل قلوب الحاضرين المعجبة بهذا التصرف والتوجيه الرقيق مهيأة لحفظ الواقعة بكافة ملابساتها[٢]، ومن ذلك ما رواه معاوية بن الحَكَم السُّلَمي ـ رضي الله عنه ـ قال: «بَيْنَا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمُك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثُكْلَ أُمِّيَاهُ[٣] ما شأنكم تنظرون إليّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يُصَمِّتُونَني، لكني سكت، فلما صلى رسول الله ﷺ، فبأبي هو وأمي! ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسنَ تعليمًا منه، فوالله ما كَهَرني[٤]، ولا ضربني، ولا شتمني، قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيحُ والتكبير وقراءةُ القرآن» أو كما قال رسول الله ﷺ[٥].

فانظر ـ رحمك الله ـ إلى هذا الرفق البالغ في التعليم، وانظر أثر هذا الرفق في نفس معاوية بن الحكم السلمي ـ رضي الله عنه ـ وتأثره بحسن تعليمه ﷺ.

● **عدم التصريح والاكتفاء بالتعريض فيما يُذم:**

لما في ذلك من مراعاة شعور المخطىء، والتأكيد على عموم التوجيه ومن ذلك ما حدث مع عبد الله بن اللُّتَبِيَّة ـ رضي الله عنه ـ حين استعمله النبي ﷺ على صدقات بني سُلَيم، فقبل الهدايا من المتصدقين، فعن أبي حُمَيد الساعدي ـ رضي الله عنه ـ قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلاً على صدقات بني سليم يدعى ابن اللُّتَبِيَّة، فلما جاء حاسبه، فقال: هذا مالكم، وهذا هديةٌ. فقال رسول الله ﷺ: «فهلاً جلست في بيت أبيك وأمك حتى تأتيَك هديتك إن كنت صادقًا؟» ثم خطبنا، فحمد الله، وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد، فإني أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولاَّني الله، فيأتي فيقول: هذا مالُكم، وهذا هديةٌ أهديت لي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيَه هديته؟ والله لا يأخذُ أحد منكم شيئًا بغير حقه إلا لقي الله يحمله يوم القيامة،

---

(١) مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن ورقمه [٢٣٦ـ (٧٩٣)].

(٢) انظر: مناهج وآداب الصحابة (ص ٨٦).

(٣) وا: حرف للندبة والحسرة، والثُكل فقدان المرأة ولدها، وأُمِّياه: أي أُمّي، أُلحق بها ألف تلحق المندوب، ثم هاء السكت.

(٤) الكَهر والقهر والنهرُ متقاربة: أي، ما قهرني ولا نهرني.

(٥) مسلم، كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة، ورقمه (٥٣٧).

فلأعرفنَّ أحدًا منكم لقي الله يحمل بَعيرًا له رُغاء أو بقرةً لها خُوار، أو شاة تَيْعَرُ»[١] ثم رفع يديه حتى رُئي بياض إبطه يقول: «اللهم هل بلغت» بَصْرَ عيني وسَمْعَ أذني[٢].

● **الغضب والتعنيف متى كان لذلك دوافع مهمة:**

وذلك كأن يحدث خطأ شرعي من أشخاص لهم حيثية خاصة، أو تجاوز الخطأ حدود الفردية والجزئية، وأخذ يمثل بداية فتنة أو انحراف عن المنهج، على أن هذا الغضب يكون غضبًا توجيهيًا، من غير إسفاف ولا إسراف، بل على قدر الحاجة، ومن ذلك غضبه ﷺ حين أتاه عمر ومعه نسخة من التوراة ليقرأها عليه ﷺ، فعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أتى رسول الله ﷺ بنسخة من التوراة، فقال: يا رسول الله هذه نسخة من التوراة، فسكت فجعل يقرأ ووجه رسول الله يتغير، فقال أبو بكر: ثكلتك الثواكل، ما ترى بوجه رسول الله ﷺ؟ فنظر عمر إلى وجه رسول الله ﷺ فقال: أعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله، رضينا بالله ربًا وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًا. فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم عن سواء السبيل، ولو كان حياً وأدرك نبوتي لاتبعني»[٣].

ومن ذلك غضبه ﷺ من تطويل بعض أصحابه الصلاة وهم أئمة، بعد أن كان ﷺ نهى عن ذلك لما فيه من تعسير ومشقة، ولما يؤدي إليه من فتنة لبعض الضعفاء والمعذورين وذوي الأشغال، فعن أبي مسعود الأنصاري - رضي الله عنه - قال: قال رجل: يا رسول الله لا أكاد أُدرك الصلاة مما يُطوِّل بنا فلانٌ. فما رأيت النبي ﷺ في موعظة أشدَّ غضبًا من يومئذٍ فقال: «أيها الناس، إنكم مُنفِّرون فمن صلى بالناس فليخفف، فإن فيهم المريضَ والضعيف وذا الحاجة»[٤].

ومن ذلك غضبه من اختصام الصحابة وتجادلهم في القدر، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، وهم يختصمون في القَدر، فكأنما يُفقَأُ في وجهه حَبُّ الرمان من الغضب، فقال: «بهذا أُمرتم؟ أو لهذا خُلقتم؟ تَضْرِبون القرآن بعضَه ببعض؟ بهذا هَلكت الأمم قبلَكم»[٥].

---

(١) الرغاء: صوت الإبل عند رفع الأحمال عليها، الخوار: صوت البقر، تيعر: يعني تصيح.

(٢) البخاري: كتاب الحيل، باب احتيال العامل ليُهدى له، رقم (٦٩٧٩).

(٣) مجمع الزوائد: (١/ ١٧٣، ١٧٤)، له شواهد كثيرة تقوي الحديث. روى هذا الحديث أئمة منهم: أحمد (٣/ ٣٨٧) ومواضع أخرى، وأورده الشيخ الألباني في (إرواء الغليل - جـ ٦/ ٣٤) وأورد تقويم العلماء له، ثم قال: «لكن الحديث قوي فإن له شواهد كثيرة» وذكرها فانظرها عنده.

(٤) البخاري: كتاب العلم، باب الغضب في الموعظة والتعليم. . رقم (٩٠).

(٥) ابن ماجه، كتاب المقدمة، باب في القدر، رقم (٨٥)، وقال البوصيري في الزوائد: هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه، ورقمه عنده (٦٩- ٨٤).

ومن ذلك غضبه ﷺ حين يخالف الصحابة أمره، ويصرون على المغالاة في الدين والتشديد على أنفسهم، ظنًا أن ذلك أفضل مما أمروا به، وأقرب إلى الله، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أمرهم من الأعمال بما يُطيقون قالوا: إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله، إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فيغضبُ حتى يُعرفَ الغضبُ في وجهه، ثم يقول: «إن أتقاكُم وأعلمَكم بالله أنا»(١).

ولم يكن غضب النبي ﷺ في تلك المواقف إلا عملاً توجيهيًا وتعليميًا وتحريضًا للصحابة على التيقظ، وتحذيرًا لهم من الوقوع في هذه الأخطاء، فالواعظ «من شأنه أن يكون في صورة الغضبان، لأن مقامه يقتضي تكلف الانزعاج لأنه في صورة المنذر، وكذا المعلم إذا أنكر على من يتعلم منه سوء فهم ونحوه لأنه قد يكون أدعى للقبول منه، وليس ذلك لازمًا في حق كل أحد، بل يختلف باختلاف أحوال المتعلمين»(٢).

● **انتهاز بعض الوقائع لبيان وتعليم معان مناسبة:**

كان ﷺ تحدث أمامه أحداث معينة فينتهز مشابهة ما يرى لمعنى معين يريد تعليمه للصحابة، ومشاكلته لتوجيه مناسب يريد بثه لأصحابه، وعندئذٍ يكون هذا المعنى وذلك التوجيه أوضح مايكون في نفوسهم ـ رضوان الله عليهم ـ ومن ذلك مارواه عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: قَدِمَ على النبي ﷺ سَبْيٌ(٣) فإذا امرأةٌ في السَّبي قد تَحلُبُ ثَدْيَها(٤) تَسْقِي (٥) إذا وجدت صبيًا في السَّبي أخذته فألصقته ببطنها، وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: «أتُرَوْن هذه طارحةً ولدها في النار؟» قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحَه(٦) فقال: «لله أرحمُ بعباده من هذه بولدها»(٧).

فانتهز ﷺ المناسبة القائمة بين يديه مع أصحابه المشهود فيها حنان الأم الفاقدة على رضيعها إذ وجدته، وضرب بها المشاكلة والمشابهة برحمة الله تعالى ليعرف الناس رحمة رب

---

(١) البخاري: كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «أنا أعلمكم بالله» رقم (٢٠).

(٢) فتح الباري (١/١٨٧).

(٣) السَّبْيُ: الأسرى.

(٤) تحلُبُ ثديها، وفي لفظ آخر: تَحَلَّب ثديُها أو ثدياها: أي تهيأ لأن يُحلب.

(٥) هذا لفظ نسخة للصحيح ونسخة لفتح الباري، وفي نسخ أخرى: تسعى: من السعي، وهو المشي بسرعة.

(٦) أي لا تطرحه طائعةً أبدًا.

(٧) البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته رقم (٥٩٩٩)، وقد أورد الإمام ابن حجر في فتح الباري عند الحديث نفسه، ألفاظًا أخرى في متن الحديث، ثبتت لبعض الأئمة الرواة لصحيح البخاري فانظرها هناك.

الناس بعباده»[١].

ثانيًا: من أخلاق الصحابة عند سماعهم للنبي ﷺ:

حَرَص الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ على الالتزام بآداب ومبادىء مهمة، كان لها عظيم الأثر في حسن الحفظ وتمام الضبط وقدرتهم في تبليغ دعوة الله للناس، ومن هذه الآداب والأخلاق:

١ ـ الإنصات التام وحسن الاستماع:

فقد كان رسول الله ﷺ أجل في نفوس الصحابة وأعظم من أن يَلْغَوْا إذا تحدث، أو ينشغلوا عنه إذا تكلم أو يرفعوا أصواتهم بحضرته، وإنما كانوا يلقون إليه أسماعهم ويشهدون عقولهم وقلوبهم، ويحفزون ذاكرتهم، فعن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في الحديث عن سيرته ﷺ في جلسائه قال: «.. وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا. . .»[٢].

قال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله: «أصله: أن الغراب يقع على رأس البعير فيلقط منه القُراد فلا يتحرك البعير حينئذٍ لئلا ينفر عنه الغراب ويبقى القراد في رأس البعير فيؤلمه، فقيل منه: كأن على رؤوسهم الطير»[٣].

وأيًا ما كان أصل المثل فهو يدل على السكون التام، والإنصات الكامل هيبة لرسول الله ﷺ وتعظيمًا له، وإجلالاً لحديثه[٤].

٢ ـ ترك التنازع وعدم مقاطعة المتحدث حتى يفرغ:

وهذا من تمام الأدب، المفضي إلى ارتياح جميع الجالسين، وإقبال بعضهم على بعض، والمعين على سهولة الفهم، والتعلم، ففي حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ السابق في سيرته ﷺ في جلسائه قال: «لا يتنازعون عنده الحديث، ومن تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم عنده حديث أولهم. .»[٥] أي أن من بدأ منهم الحديث والكلام سكتوا حتى

---

(١) الرسول المعلم، عبد الفتاح أبو غدة (ص ١٦٠)، هذا المبحث اختصرته من مناهج وآداب الصحابة في التعلم والتعليم للدكتور عبد الرحمن البر.

(٢) الترمذي في الشمائل المحمدية، باب ماجاء في خلق رسول الله، رقم (٣٣٥)، وانظر تحقيق وتعليق أ. سميح عباس على مختصره للشمائل الذي سماه «أوصاف النبي ﷺ» عند الأحاديث (٧، ٢٢٦، ٣٤٥)، وانظر حديث هند بن أبي هالة، والأخبار التي تشهد له بالصحة في دلائل النبوة للبيهقي، تحقيق د. عبد المعطي قلعجي (جـ ١/ ٢٨٥ ـ ٣٣٢).

(٣) انظر: الرسول المعلم وأساليبه في التعليم (ص ٣٠).

(٤) انظر: مناهج وآداب الصحابة (ص ٧٧).

(٥) الترمذي في الشمائل المحمدية، باب ماجاء في خلق رسول الله، رقم (٣٣٥) وانظر (هـ ٢ ـ ص ٤٦٧) السالف.

يفرغ أولاً من حديثه، ولم يقاطعوه أو ينازعوه وبذلك يبقى المجلس على وقاره وهيبته، ولا تختلط فيه الأصوات ولا يحصل أدنى تشويش(١).

٣ ـ مراجعته ﷺ فيما أشكل عليهم حتى يتبين لهم:

فمع كمال هيبتهم لرسول الله ﷺ وشدة تعظيمهم له لم يكونوا يترددون في مراجعته ﷺ لاستيضاح ما أشكال عليهم فهمه، حتى يسهل حفظه بعد ذلك، ولا شك أن هذه المراجعة تعين على تمام الفهم وحضور الوعي، فمن ذلك حديث حفصة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال النبي ﷺ: «إني لأرجو ألا يدخلَ النار أحد إن شاء الله تعالى ممن شهد بدرًا والحديبية» قالت: قلت: يا رسول الله أليس قد قال الله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١] قال: «ألم تسمعيه يقول: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢] (٢).

ومن ذلك حديث جابر بن عبد الله، عن عبد الله بن أنيس ـ رضي الله عنه ـ الذي رحل جابر إليه فيه، قال ابن أنيس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الله العباد» ـ أو قال: «الناس ـ عراة غُرلاً(٣) بُهْمًا» قال: قلنا: ما بُهْمًا؟ قال: «ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعُد كما يسمعه من قرب: أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار، وعنده مظلمة حتى أُقِصَّه(٤) منه، حتى اللطمة» قال: قلنا: كيف ذا وإنما نأتي الله غرلاً بُهْمًا؟ قال: «بالحسنات والسيئات». قال: وتلا رسول الله ﷺ: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧] (٥).

وهكذا استفهم الصحابة عما خفي عليهم، واستوضحوا ما أشكل عليهم فهمه، وهذه المناقشة والمراجعة كان لها أثر كبير في الفهم والوعي والحفظ(٦).

٤ ـ مذاكرة الحديث:

كان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ إذا سمعوا شيئًا من النبي ﷺ وحملوا عنه علمًا جلسوا فتذاكروه فيما بينهم وتراجعوه على ألسنتهم، تأكيدًا لحفظه، وتقوية لاستيعابه وضبطه والعمل به، فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: «كنا نكون عند النبي ﷺ فنسمع منه الحديث

---

(١) انظر: مناهج وآداب الصحابة (ص ٧٨).

(٢) ابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر البعث، ورقمه (٤٢٨١)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه، ورقمه عنده (٣٤٧٣ـ ٤٣٥٧).

(٣) غُرلاً: جمع أغرَل، وهو الأقلف، والغُرْلة: القُلفة: وهي القطعة التي تقطع من الذكر عند الختان.

(٤) أُقصَّه: أُمكّنه من أخذ القصاص ممن ظلمه.

(٥) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٣٧)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٦) انظر: مناهج وآداب الصحابة (ص ٨٠).

فإذا قمنا تذاكرناه فيما بيننا حتى نحفظه»(١) وقد بقي مبدأ المذاكرة قائمًا بين الصحابة حتى بعد وفاته ﷺ، فعن أبي نضرة المنذر بن مالك بن قطعة رحمه الله قال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا تذاكروا العلم، وقرءُوا سوره»(٢).

وعن أبي سعيد الخدري قال: «تحدثوا وتذاكروا، فإن الحديث يُذكّر بعضهُ بعضًا»(٣).

٥ ـ السؤال بقصد العلم والعمل(٤).

كانت أسئلة الصحابة بقصد العلم والعمل، لا للعبث واللعب فكانت أسئلتهم مشفوعة بهذا القصد لما علموا من كراهة النبي ﷺ للمسائل العبثية التي لا يُحتاج إليها، ولما سمعوا من تحذيره ﷺ من كثرة السؤال، فعن سهل بن سعد الساعدي ـ رضي الله عنه ـ قال: «كره رسول الله ﷺ المسائل وعابَها»(٥).

قال النووي: «المراد: كراهة المسائل التي لا يُحتاج إليها، لا سيما ما كان فيه هتك ستر مسلم، أو إشاعة فاحشة أو شناعة على مسلم أو مسلمة. قال العلماء: أما إذا كانت المسائل مما يُحتاج إليه في أمور الدين وقد وقع، فلا كراهة فيها»(٦).

٦ ـ ترك التنطُع وعدم السؤال عن المتشابه:

وذلك تطبيقًا لتحذير النبي ﷺ من ذلك، وتشديده على المتنطِّعين، ونهيه عن مجالستهم، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [آل عِمرَان: ٧] قالت: قال رسول الله ﷺ: «فإذا رأيتِ الذين يَتَّبِعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم»(٧).

---

(١) أخرجه الخطيب في الجامع (١/ ٣٦٣، ٣٦٤) وفيه يزيد الرقاشي، قال الهيثمي في المجمع (١/ ١٦١): وهو ضعيف.

(٢) أخرجه الخطيب في الجامع (٢/ ٨٦، رقم ١٢٢٩)، والسمعاني في أدب الإملاء والاستملاء (ص ٤٨).

(٣) الجامع لأخلاق الراوي، للخطيب، تحقيق د. محمود الطحان (جـ ١/ ٢٣٧ ورقمه ٤٦٨)، وأورد نحوه الهيثمي عن ابن نضرة عن أبي سعيد في المجمع (١/ ١٦١) وقال: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح.

(٤) انظر: مناهج وآداب الصحابة (ص ٩٦).

(٥) أخرجه أبو خيثمة زهير بن حرب بإسناد صحيح في كتاب العلم (ص ٢٠، رقم ٧٧).

(٦) شرح النووي على مسلم (٣/ ٧٤١) ط/ الشعب.

(٧) البخاري: كتاب التفسير، سورة آل عمران، رقم (٤٥٤٧).

٧ ـ ترك السؤال عما سكت عنه الشارع:

فقد التزموا ـ رضوان الله عليهم ـ بهذا الأدب، فلم يتكلَّفوا السؤال عما سكت عنه الشارع، حتى لا يؤدي السؤال عن ذلك إلى إيجاب ما لم يوجبه الشرع، أو تحريم ما لم يحرمه، فيكون السؤال قد أفضى إلى التضييق على المسلمين، كما قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٌ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [المائدة: ١٠١ ـ ١٠٢].

وحذر الرسول ﷺ من مثل ذلك، فعن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أعظمَ المسلمين جُرماً من سأل عن شيء لم يُحَرَّم، فَحُرِّم من أجل مسألته»(١).

٨ ـ اغتنام خلوة رسول الله ﷺ ومراعاة وقت سؤاله:

كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يراعون الوقت المناسب للسؤال، ومن ذلك اغتنام ساعة خلوته ﷺ، حتى لا يكون في السؤال إثقال أو إرهاق أو نحو ذلك، فعن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان النبي ﷺ إذا صلى الفجر انحرفنا إليه فمنَّا من يسأله عن القرآن، ومنّا من يسأله عن الفرائض، ومنا من يسأله عن الرؤيا»(٢).

٩ ـ مراعاة أحواله ﷺ وعدم الإلحاح عليه بالسؤال:

وبخاصة بعد أن نُهوا عن السؤال، ولذلك كانوا يدفعون الأعراب لسؤاله ﷺ، ويتحينون وينتظرون مجيء العقلاء منهم، ليسألوا رسول الله ﷺ وهم يسمعون، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: «نُهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يُعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقلُ، فيسأله ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد، أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك قال: «صدق»... الحديث(٣).

وهكذا استمر البناء التربوي في المجتمع الجديد من خلال المواقف العملية الواضحة متوافقًا مع غرس فريضة التعلم والتعليم بين أفراد المجتمع المسلم، فكانت تلك التوجيهات تساهم في إعداد الفرد المسلم، والأمة المسلمة، والدولة المسلمة التي أسسها رسول الله ﷺ

---

(١) البخاري، كتاب الاعتصام، باب مايكره من كثرة السؤال.. ورقمه (٧٢٨٩) واللفظ له، ومسلم: كتاب الفضائل ـ باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله... ورقمه (٢٣٥٨).

(٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/١٥٩)، رواه الطبراني في الكبير، وفيه محمد بن عمر الرومي، ضعفه أبو داود وأبو زرعة، ووثقه ابن حبان.

(٣) مسلم: كتاب الإيمان، باب السؤال عن أركان الإسلام، ورقمه [١٠ـ (١٢)].

وهذا جزء من كل، وغيض من فيض، وتذكير وتنبيه لأهمية استمرار البناء التربوي والعلمي في الأمة حتى بعد قيام الدولة.

المبحث السادس

أحداث وتشريعات

أولاً: معالجة الأزمة الاقتصادية:

أدت هجرة المسلمين إلى المدينة إلى زيادة الأعباء الاقتصادية الملقاة على عاتق الدولة الناشئة، وشرع القائد الأعلى ﷺ يَحُلّ هذه الأزمة بطرق عديدة، وأساليب متنوعة، فكان نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وبناء الصُّفة التابعة للمسجد النبوي لاستيعاب أكبر عدد ممكن من فقراء المهاجرين، واهتم ﷺ بدراسة الأوضاع الاقتصادية في المدينة، فرأى أن القوة الاقتصادية بيد اليهود، وأنهم يملكون السوق التجارية في المدينة وأموالها، ويتحكمون في الأسعار والسلع، ويحتكرونها، ويستغلون حاجة الناس، فكان لا بد من بناء سوق للمسلمين لينافسوا اليهود على مصادر الثروة والاقتصاد في المدينة، وتظهر فيها آداب الإسلام وأخلاقه الرفيعة في عالم التجارة.

إن المنهج الرباني عالج المشكلة الاقتصادية عن طريق القصص القرآني لكي يتعظ الناس، ويعتبرون بمن مضى من الأقوام، ولم يترك الجانب التشريعي التعبدي الذي له أثر في البناء التنظيمي التربوي، فقد كان المولى ﷻ يرعى هذه الأمة، وينقل خطاها لكي تكون مؤهلة لحمل الأمانة، وتبليغ الرسالة، ولا فرق في وسط هذه الدولة بين الأمور الصغيرة والأمور الكبيرة، لأنها كلها تعمل لرفع بنائها، ووقوفها شامخة أمام الأعاصير التي تحتمل مواجهتها، ومن هذه الشعائر التعبدية التي فرضت في السنتين الأوليين من الهجرة: الزكاة، وصدقة الفطر، والصيام، ونلاحظ سُنَّة التدرج في بناء المجتمع المسلم، ومراعاته لواقع الناس، والانتقال بهم نحو الأفضل، دون اعتساف أو تعجيل، بل كان كل شيء في وقته(١).

ثانيًا: بعض التشريعات:

١ ـ تشريع فريضة الصيام:

في السنة الثانية للهجرة من شهر شعبان فرض الله تعالى فريضة الصيام وجعله ركنًا من أركان الإسلام، كما فرضه على الأمم السابقة، وفي ذلك تأكيد على أهمية هذه العبادة الجليلة ومكانتها. قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾

---

(١) انظر: دراسات في عصر النبوة للشجاع (ص ١٦٦، ١٦٨).

[البَقَرَة: ١٨٣] .

٢ ـ تشريع صدقة الفطر:

وفي رمضان من العام نفسه شرع الله سبحانه وتعالى زكاة الفطر وهي على كل حُرّ أو عبد، ذكر أو أنثى، صغير أو كبير من المسلمين، والحكمة من فريضة هذه الزكاة وإلزام المسلمين بها ظاهرة وجلية، قال عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طُهْرَةً للصائم من اللغو والرفث وطُعْمَةً للمساكين، من أدّاها قبل الصلاة فهي زكاةٌ مقبولة، ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقةٌ من الصدقات»(١).

٣ ـ صلاة العيد:

وفي هذه السَّنة صلى النبي ﷺ صلاة العيد، فكانت أول صلاة صلاها، وخرج بالناس إلى المصلى يهللون الله، ويكبِّرونه، ويعظِّمونه شكرًا لله على ما أفاء عليهم من النعم المتتالية.

٤ ـ تشريع الزكاة:

وفي السنة الثانية للهجرة شرع الله الزكاة التي هي ركن من أركان الإسلام، وكان ذلك بعد شهر رمضان، لأن تشريع الزكاة العامة كان بعد زكاة الفطر، وزكاة الفطر كانت بعد فرض صيام رمضان قطعًا، يدل على هذا ما رواه الأئمة أحمد وابن خزيمة والنسائي وابن ماجه والحاكم من حديث قَيْس بن سعد بن عبادة قال: «أَمَرَنا رسول الله ﷺ بصدقة الفطر قبل أن تَنْزِل الزكاة، ثم نزلت الزكاةُ، فلم يأمرنا ولم ينهنا ونحن نفعله»(٢). قال الحافظ ابن حجر: إسناده صحيح، وجمهور العلماء سلفًا وخلفًا على أن مشروعية الزكاة إنما كانت بالمدينة في السنة الثانية(٣).

٥ ـ زواجه ﷺ بعائشة رضي الله عنها:

عقد رسول الله ﷺ على عائشة ـ رضي الله عنها ـ في مكة قبل الهجرة وهي ابنة ست سنين بعد وفاة خديجة ـ رضي الله عنها ـ وبنى بها في المدينة وهي ابنة تسع سنين، وذلك في شهر شوال من السنة الأولى للهجرة(٤).

فكانت حركة الدعوة والجهاد والتربية وبناء الدولة مستمرة ولم تتعطل حالات الزواج في

(١) سنن أبي داود، كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر رقم (١٦٠٩) وحسنه الألباني في صحيح أبي داود، بالرقم نفسه.

(٢) صحيح سنن النسائي، للألباني، كتاب الزكاة، باب فرض صدقة الفطر قبل نزول الزكاة، ورقمه (٢٥٠٦) وصححه.

(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١١١).

(٤) انظر: من معين السيرة (ص ١٦٨).

حياة الرسول ﷺ وأصحابه، بل الزواج والإكثار منه كان عاديًا جدًا في حياتهم كالطعام والشراب، وذلك من مظاهر أن الإسلام دين الفطرة والواقع، بل إن الزواج جزء مهم في بناء المجتمع المسلم(١).

وكان رسول الله ﷺ قد بنى بعائشة ـ رضي الله عنها ـ وهو في الرابعة والخمسين من عمره، وحيثما يذكر هذا الرقم يتبادر للذهن الشيب، والضعف، ونفسية أصابتها الشيخوخة، ولا شك أن مرور الأعوام هو مقياس أعمار الناس كقاعدة عامة، ولكن المقياس الحقيقي هو حيوية الإنسان ونشاطه وقدرته على المبادرة والعمل، فقد نجد إنسانًا في الثلاثين يحمل في جسمه ونفسيته أعباء الخمسين، وقد نجد بعض الأحيان إنسان الخمسين فلا نحكم عليه بأكثر من الثلاثين، وشخصية رسول الله ﷺ فذة في هذا الميدان، فهو ـ وهو في الخمسين ـ كان رجلاً في عنفوان شبابه همة وعزمًا وفحولة، إنه في هذا لا يساويه أي إنسان ﷺ.

والفارق في العمر بينه ﷺ وبين عائشة لم يكن ذلك الفارق الكبير من وجهة النظر العملية، فها هو ﷺ يسابق السيدة عائشة، فتسبقه مرة، ويسبقها أخرى فيقول: «هذه بتلك»(٢)، والأمثلة في حياته كثيرة(٣).

ويستطيع كل ذي نظر أن يدرك الحكمة الجليلة التي كانت وراء زواج رسول الله ﷺ من عائشة ـ رضي الله عنها ـ فقد تم هذا الزواج الميمون، في مطلع الحياة في المدينة، ومع بداية المرحلة التشريعية من حياته ﷺ، ومما لا شك فيه أن الإنسان يقضي جزءًا كبيرًا من حياته في بيته ومع أسرته، وكان لا بد من نقل سلوك الرسول الكريم في هذا الجانب من حياته إلى الناس حتى يستطيعوا التأسي به، وكانت تلك مهمة السيدة عائشة على الخصوص، وبقية أمهات المؤمنين ـ رضي الله عنهن ـ فقد استطاعت السيدة عائشة بما وهبها الله من ذكاء وفهم أن تؤدي دورها على خير ما يرام، وإنَّ نظرة عابرة لأي كتاب من كتب السيرة تبين وتؤكد ما ذهبت إليه. وقد ساعدها على ذلك أن الله تعالى كتب لها الحياة ما يقرب من خمسين عامًا بعد وفاة رسول الله ﷺ وساعدتها تلك المدة على أن تُبَلِّغَ ما وعته عن رسول الله ﷺ فرضي الله عنها(٤).

انتهى الجزء الأول
ويليه الجزء الثاني والأخير
ويبدأ بالفصل الثامن «غزوة بدر الكبرى»

---

(١) انظر: الأساس في السنة (١/ ٤٢٠).
(٢) انظر: من معين السيرة (ص ١٧٢).
(٣) المصدر نفسه (ص ١٧٢).
(٤) انظر: من معين السيرة (ص ١٧٣).

الفصل الثامن

غزوة بدر الكبرى

المبحث الأول

مرحلة ما قبل المعركة

بلغ المسلمين تحركُ قافلة تجارية كبيرة من الشام، تحمل أموالاً عظيمة [1] لقريش، يقودها أبو سفيان، ويقوم على حراستها بين ثلاثين وأربعين رجلاً [2] فأرسل الرسول ﷺ بَسْبَس بن عمرو [3]، لجمع المعلومات عن القافلة، فلما عاد بسبس بالخبر اليقين، ندب رسول الله ﷺ أصحابه للخروج وقال لهم: «هذه عِير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعلّ الله يُنْفِلِكُموها» [4]، وكان خروجه من المدينة في اليوم الثاني عشر، من شهر رمضان المبارك من السنة الثانية للهجرة. ومن المؤكد أنه حين خروجه ﷺ من المدينة لم يكن في نيته قتال، وإنما كان قصده عير قريش، وكانت الحالة بين المسلمين وكفار مكة حالة حرب، وفي حالة الحرب تكون أموال العدو ودماؤهم مباحة، فكيف إذا علمنا أن جزءاً من هذه الأموال الموجودة في القوافل القرشية كانت للمهاجرين المسلمين من أهل مكة قد استولى عليها المشركون ظلماً وعدواناً [5].

كلّف رسول الله ﷺ عبد الله بن أم مكتوم بالصلاة بالناس في المدينة، عند خروجه إلى بدر، ثم أعاد أبا لبابة من الروحاء إلى المدينة، وعيّنه أميراً عليها [6].

أرسل النبي ﷺ اثنين من أصحابه [7] إلى بدر طليعةً للتعرف على أخبار القافلة، فرجعا إليه

---

(١) قُدرت قيمة البضائع التي تحملها القافلة بحوالي ١٥٠ ألف دينار. انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (١/ ٢٨٦).

(٢) جوامع السيرة لابن حزم ص (١٠٧).

(٣) ورد الاسم في صحيح مسلم بصيغة التأنيث مصحَّفاً إلى بسبسة وصححه ابن حجر.

(٤) سيرة ابن هشام (٢/ ٦١) بسند صحيح إلى ابن عباس، رضي الله عنهما.

(٥) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول، د. محمد آل عابد (١/ ٤٣).

(٦) البداية والنهاية (٣/ ٢٦٠)، المستدرك للحاكم (٣/ ٦٣٢).

(٧) هما عدي بن الزغباء، وبسبس بن عمرو، الطبقات لابن سعد (٢/ ٢٤).

بخبرها [١]، وقد حصل خلاف بين المصادر الصحيحة حول عدد الصحابة الذين رافقوا النبي ﷺ في غزوته هذه إلى بدر، ففي حين جعلهم البخاري «بضعة عشر وثلاثمائة» [٢]، يذكر مسلم أنهم «ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً» [٣]، في حين ذكرت المصادر أسماء ثلاثمائة وأربعين من الصحابة البدريين [٤]، كانت قوات المسلمين في بدر لا تمثل القدرة العسكرية القصوى للدولة الإسلامية، ذلك أنهم إنما خرجوا لاعتراض قافلة واحتوائها، ولم يكونوا يعلمون أنهم سوف يواجهون قوات قريش وأحلافها، مجتمعة للحرب والتي بلغ تعدادها ألفاً [٥]، معهم مائتا فرس يقودونها إلى جانب جمالهم، ومعهم القيان يضربن بالدفوف، ويغنين بهجاء النبي ﷺ وأصحابه [٦]، في حين لم يكن مع القوات الإسلامية من الخيل إلا فَرَسان، وكان معهم سبعون بعيراً يتعاقبون ركوبها [٧].

أولاً: بعض الحوادث في أثناء المسير إلى بدر:

وقد حدثت بعض الحوادث في أثناء مسير النبي ﷺ وأصحابه، فيها من العبر والمواعظ الشيء الكثير:

١ ـ إرجاع البراء بن عازب وابن عمر لصغرهما:

وبعد خروج النبي ﷺ وأصحابه من المدينة، في طريقهم إلى ملاقاة عير أبي سفيان، وصلوا إلى (بيوت السقيا) خارج المدينة، فعسكر فيها النبي ﷺ واستعرض ﷺ من خرج معه، فردّ من ليس له قدرة على المضي مع جيش المسلمين، وملاقاة من يحتمل نشوب قتال معهم، فرد على هذا الأساس البراء بن عازب، وعبد الله بن عمر لصغرهما، وكانا قد خرجا مع النبي ﷺ راغبين وعازمين على الاشتراك في الجهاد [٨].

٢ ـ ارجع فلن أستعين بمشرك:

وفي أثناء سير النبي ﷺ وصحبه، التحق أحد المشركين راغباً في القتال مع قومه، فردّه الرسول ﷺ وقال: «ارجع فلن أستعين بمشرك» وكرّر الرجل المحاولة فرفض الرسول حتى أسلم الرجل، والتحق بالمسلمين [٩].

---

(١) الطبقات لابن سعد (٢/ ٤٢) بإسناد صحيح.
(٢) فتح الباري: ابن حجر العسقلاني، (٧/ ٢٩٠ ـ ٢٩٢).
(٣) مسلم، شرح النووي، تحقيق أ. محمد تامر (٦/ ٣٤٠)، ط / دار الفجر للتراث.
(٤) البداية والنهاية (٣/ ٣١٤) وكذلك الطبقات، وخليفة بن خياط.
(٥) مسلم، بشرح النووي تحقيق أ. محمد تامر (٦/ ٣٤٠) ط/ دار الفجر للتراث.
(٦) البداية والنهاية (٣/ ٢٦٠).
(٧) المسند (١/ ٤١١)، مجمع الزوائد (٦/ ٦٩)، جوامع السيرة (ص ١٠٨).
(٨) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٢٤).
(٩) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (٢/ ٣٥٥).

٣ ـ مشاركة النبي ﷺ أصحابه في الصعاب:

فعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا يوم بدر كلُّ ثلاثة على بعير، كان أبو لبابة، وعلي بن أبي طالب، زميلَيْ رسول الله ﷺ قال: وكانت عُقبةُ رسول الله ﷺ،قال: فقالا: نحن نمشي عنك، فقال: «ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما» (١).

ثانياً: العزم على ملاقاة المسلمين ببدر:

بلغ أبا سفيان خبرُ مسير النبي ﷺ، بأصحابه من المدينة، بقصد اعتراض قافلته واحتوائها، فبادر إلى تحويل مسارها إلى طريق الساحل، في الوقت نفسه أرسل عمرو بن ضمضم الغفاري إلى قريش يستنفرها، لإنقاذ قافلتها وأموالها (٢)، فقد كان أبو سفيان يقظاً حذراً يتلقط أخبار المسلمين، ويسأل عن تحركاتهم، بل يتحسس أخبارهم بنفسه، فقد تقدم إلى بدر بنفسه وسأل من كان هناك: «هل رأيتم من أحد؟» قالوا: لا. إلا رجلين، قال: أروني مَنَاخ ركابهما، فأروه، فأخذ البعر ففته، فإذا هو فيه النوى. فقال: «هذه والله علائف يثرب» (٣)، فقد استطاع أن يعرف تحركات عدوه، حتى خبر السرية الاستطلاعية عن طريق غذاء دوابها، بفحصه البعر الذي خلفته الإبل، إذ عرف أن الرجلين من المدينة أي من المسلمين، وبالتالي فقافلته في خطر، فأرسل عمرو بن ضمضم إلى قريش وغيَّر طريق القافلة واتجه نحو ساحل البحر (٤).

كان وقع خبر القافلة شديداً على قريش التي اشتاط زعماؤها غضباً؛ لما يرونه من امتهانٍ للكرامة، وتعريض للمصالح الاقتصادية للأخطار، إلى جانب ما ينجم عن ذلك من انحطاط لمكانة قريش بين القبائل العربية الأخرى، ولذلك فقد سعوا إلى الخروج لمجابهة الأمر بأقصى طاقاتهم القتالية (٥).

لقد جاءهم عمرو بن ضمضم الغفاري، بصورة مثيرة جداً، يتأثر بها كل من رآها، أو سمع بها، إذ جاءهم وقد حوّل رحله، وجدع أنف بعيره، وشق قميصه من قُبل، ومن دُبر، ودخل مكة، وهو ينادي بأعلى صوته: يا معشر قريش اللَّطيمة، اللطيمة (٦)، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث، الغوث (٧).

وعندما أمن أبو سفيان على سلامة القافلة أرسل إلى زعماء قريش، وهو بالجحفة برسالة

(١) انظر: المسند (١/ ٤١١)، برقم (٣٩٠١) وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر.

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/ ٢٨٧).

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٣٠).

(٤) انظر: غزوة بدر الكبرى لأبي فارس، (ص ٣٣، ٣٤).

(٥) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/ ٢٨٧).

(٦) اللطيمة: القافلة المحملة بشتى أنواع البضاعة غير الطعام.

(٧) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٢١).

أخبرهم فيها بنجاته والقافلة، وطلب منهم العودة إلى مكة، وذلك أدى إلى حصول انقسام حاد في آراء زعماء قريش، فقد أصرّ أغلبهم على التقدم نحو بدر، من أجل تأديب المسلمين، وتأمين سلامة طريق التجارة القرشية، وإشعار القبائل العربية الأخرى بمدى قوة قريش وسلطانها، وقد انشق بنو زُهرة [١]، وتخلف في الأصل بنو عدّي، فعاد بنو زُهرة إلى مكة، أما غالبية قوات قريش وأحلافهم، فقد تقدمت حتى وصلت بدراً [٢].

ثالثا: مشاورة النبي ﷺ لأصحابه:

لما بلغ النبي ﷺ نجاةُ القافلة، وإصرارُ زعماء مكة على قتال النبي ﷺ، استشار رسول الله ﷺ أصحابه في الأمر [٣]، وأبدى بعض الصحابة عدم ارتياحهم لمسألة المواجهة الحربية مع قريش، حيث إنهم لم يتوقعوا المواجهة ولم يستعدوا لها، وحاولوا إقناع الرسول ﷺ بوجهة نظرهم، وقد صوّر القرآن الكريم موقفهم وأحوال الفئة المؤمنة عموماً في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ [الأنفال: ٥ ـ ٨].

وقد أجمع قادة المهاجرين على تأييد فكرة التقدم لملاقاة العدو [٤]، وكان للمقداد بن الأسود موقفٌ متميزٌ، فقد قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إليَّ مما عُدل به [٥]؛ أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك، فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسَرَّه [٦]. وفي رواية [٧] قال المقداد يوم بدر: يا رسول الله، إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن امضِ ونحن معك، فكأنه سُرِّي عن رسول الله ﷺ.

---

(١) نصحهم الأخنس بن شريق بذلك. انظر: ابن هشام (٢/ ٢٣١).

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/ ٢٨٧).

(٣) صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب «قصة غزوة بدر» (٣/ ٣٩٥٢).

(٤) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/ ٢٨٨).

(٥) المبالغة في عظمة ذلك المشهد، وأنه كان لو خُير بين أن يكون صاحبه وبين أن يحصل له ما يقابل ذلك، لكان حصوله أحب إليه.

(٦) البخاري: كتاب المغازي، باب قصة غزوة بدر (٣/ ٣٩٥٢).

(٧) البخاري: كتاب التفسير (٣/ ٤٦٠٩).

وبعد ذلك عاد رسول الله ﷺ فقال: «أشيروا عليَّ أيها الناس» وكان إنما يقصد الأنصار، لأنهم غالبية جنده، ولأن بيعة العقبة الثانية لم تكن في ظاهرها، ملزمة لهم بحماية الرسول ﷺ خارج المدينة، وقد أدرك الصحابي سعد بن معاذ، وهو حامل لواء الأنصار، مقصد النبي ﷺ من ذلك فنهض قائلاً: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال ﷺ: «أجل»، فقال: قد آمنّا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا البحر فخضته، لخضناه معك، ما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء، لعلّ الله يريك منا ما تقرّ به عينك، فسِرْ على بركة الله» (١).

سُرَّ النبي ﷺ من مقالة سعد بن معاذ، ونشطه ذلك، فقال ﷺ: «سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم» (٢).

كانت كلمات سعد، مشجعة لرسول الله ﷺ وملهبة لمشاعر الصحابة، فقد رفعت معنويات الصحابة وشجعتهم على القتال.

إن حرص النبي ﷺ على استشارة أصحابه في الغزوات يدل على تأكيد أهمية الشورى في الحروب بالذات، ذلك لأن الحروب تقرر مصير الأمم، فإما إلى العلياء، وإما تحت الغبراء (٣).

رابعاً: المسير إلى لقاء العدو، وجمع المعلومات عنه:

نظم النبي ﷺ جنده بعد أن رأى طاعة الصحابة، وشجاعتهم واجتماعهم على القتال، وعقد اللواء الأبيض وسلّمه إلى مصعب بن عمير، وأعطى رايتين سَوداوين إلى سعد بن معاذ، وعلي بن أبي طالب، وجعل على الساقة قيس بن أبي صعصعة (٤).

وقام ﷺ ومعه أبو بكر يستكشف أحوال جيش المشركين، وبينما هما يتجولان في تلك المنطقة لقيا شيخاً من العرب، فسأله رسول الله ﷺ عن جيش قريش، وعن محمد وأصحابه، وما بلغه من أخبارهم. فقال الشيخ: لا أخبركم حتى تخبراني من أنتما. فقال له رسول

---

(١) رواه ابن هشام (٢/ ٦٣، ٦٤) عن ابن إسحاق بدون إسناد، وأورد الإمام الذهبي في مغازيه ـ تحقيق د. عمر تدمري (ص ١٠٧) كلمات قريبة من سيرة ابن هشام، وعنون لها الإمام الذهبي: «ذكر غزوة بدر من مغازي موسى بن عقبة فإنها من أصح المغازي»، وانظر صحيح مسلم: ح رقم (١٧٧٩) كتاب الجهاد ـ باب غزوة بدر.

(٢) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٢٦٢) بإسناد صحيح،المسند (٥/ ٢٥٩) رقم (٣٦٩٨).

(٣) انظر: غزوة بدر الكبرى لأبي فارس، (ص ٣٧).

(٤) انظر: زاد المعاد (٣/ ١٧٢).

الله ﷺ: «إذا أخبرتنا أخبرناك» فقال: أو ذاك بذاك؟ قال: «نعم»، فقال الشيخ: فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني، فهم اليوم بمكان كذا وكذا ـ للمكان الذي به جيش المسلمين ـ وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا ـ للمكان الذي فيه جيش المشركين فعلاً ـ ثم قال الشيخ: لقد أخبرتكما عما أردتما فأخبراني من أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: «نحن من ماء» ثم انصرف النبي ﷺ وأبو بكر عن الشيخ، وبقي هذا الشيخ يقول: ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟ [١].

وفي مساء ذلك اليوم الذي خرج فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر، أرسل ـ عليه الصلاة والسلام ـ عليّ بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه إلى ماء بدر؛ يتسقطون له الأخبار عن جيش قريش، فوجدوا غلامين يستقيان لجيش المشركين فأتوا بهما إلى رسول الله ﷺ فقال لهما: «أخبراني عن قريش». قالا: هم والله وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعُدوة القصوى. فقال لهما رسول الله ﷺ: «كم القوم؟» قالا: كثير. قال: «ما عدّتهم؟» قالا: لا ندري. قال الرسول ﷺ: «كم ينحرون كل يوم؟» قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً، فقال رسول الله ﷺ: «القوم فيما بين التسعمائة والألف» ثم قال لهما: «فمن فيهم من أشراف قريش؟» فذكرا عتبة، وشيبة ابني ربيعة، وأبا جهل، وأمية بن خلف، في آخرين من صناديد قريش، فأقبل رسول الله ﷺ إلى أصحابه قائلاً: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها» [٢].

كان من هدي النبي ﷺ حرصه على معرفة جيش العدو، والوقوف على أهدافه ومقاصده، لأن ذلك يعينه على رسم الخطط الحربية المناسبة لمجابهته وصدّ عدوانه، فقد كانت أساليبه في غزة بدر في جمع المعلومات، تارةً بنفسه وأخرى بغيره، وكان ﷺ يطبق مبدأ الكتمان في حروبه، فقد أرشد القرآن الكريم المسلمين إلى أهمية هذا المبدأ قال تعالى:

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النِّساء: ٨٣].

وقد تحلى رسول الله ﷺ بصفة الكتمان في عامة غزواته، فعن كعب بن مالك رضي الله عنه ـ قال: «ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورّى بغيرها...» [٣]وفي غزوة بدر ظهر هذا الخلق الكريم في الآتي:

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/٢٢٨).
(٢) انظر: المسند (٩٤٨)، ابن هشام (٢/ ٢٢٩ ـ أو ـ ق ١/٦١٦، ٦١٧) واللفظ له.
(٣) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من أراد غزوة فورّى بغيرها (٢/ ٢٩٤٧).

١ ـ سؤاله ﷺ الشيخ الذي لقيه في بدر عن محمد وجيشه، وعن قريش وجيشها

٢ ـ تورية الرسول ﷺ في إجابته عن سؤال الشيخ: من أنتما؟ بقوله ﷺ: «نحن من ماء» وهو جواب يقتضيه المقام، فقد أراد به الرسول ﷺ كتمان أخبار جيش المسلمين عن قريش.

٣ ـ وفي انصرافه فورا استجوابه كتمانٌ ـ أيضاً ـ وهو دليل على ما يتمتع به رسول الله ﷺ من الحكمة، فلو أنه أجاب هذا الشيخ ثم وقف عنده لكان هذا سبباً في طلب الشيخ بيان المقصود من قوله ﷺ «من ماء» (١).

٤ ـ أمره ﷺ قطع الأجراس من الإبل يوم بدر، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ أمر بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل يوم بدر (٢).

٥ ـ كتمانه ﷺ خبر الجهة التي يقصدها عندما أراد الخروج إلى بدر، حيث قال ﷺ: «... إن لنا طلبةً، فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا...» (٣).

وقد استدل الإمام النووي بهذا الحديث على استحباب التورية في الحرب، وأن لا يبين القائد الجهة التي يقصدها لئلا يشيع هذا الخبر، فيحذرهم العدو (٤).

ونلحظ أن التربية الأمنية في المنهاج النبوي مستمرة منذ الفترة السرية، والجهرية بمكة، ولم تنقطع مع بناء الدولة، وأصبحت تنمو مع تطورها، وخصوصاً في غزوات الرسول ﷺ.

خامساً: مشورة الحُباب بن المنذر في بدر:

بعد أن جمع ﷺ معلومات دقيقة عن قوات قريش، سار مسرعاً ومعه أصحابه إلى بدر، ليسبقوا المشركين إلى ماء بدر، وليحولوا بينهم وبين الاستيلاء عليه، فنزل عند أدنى ماء من مياه بدر، وهنا قام الحُباب بن المنذر وقال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة» قال: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل، فانهض يا رسول الله بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم ـ أي جيش المشركين ـ فننزله ونغوِّر ـ نخرب ـ ما وراءه من الآبار، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فأخذ النبي ﷺ برأيِه، ونهض بالجيش حتى أقرب ماء من العدو، فنزل عليه، ثم صنعوا الحياض، وغوروا ما عداها من الآبار (٥)، وهذا يصوِّر مثلاً من حياة الرسول ﷺ مع أصحابه، حيث كان أي فرد من أفراد ذلك المجتمع

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٨).

(٢) انظر: المسند (٦/ ١٥٠)، برقم (٢٥١٦٦).

(٣) مسلم: كتاب الأمارة (٣/ ١٥١٠)، رقم (١٩٠١).

(٤) شرح النووي لصحيح مسلم (١٣/ ٤٥).

(٥) انظر: مرويات غزوة بدر (ص ١٥٧ ـ ١٦٥)، قال مؤلفه ما ملخصه: قصة الحباب تتقوى وترتفع إلى درجة الحسن. ورواه ابن هشام (٢/ ٦٦ ـ أو ق ١/ ٦٢٠) عن ابن إسحاق.

يدلي برأيه، حتى في أخطر القضايا ولا يكون في شعوره احتمال غضب القائد الأعلى، ثم حصول ما يترتب على ذلك الغضب، من تدني سمعة ذلك المشير بخلاف رأي القائد، وتأخره في الرتبة، وتضرره في نفسه أو ماله.

إن هذه الحرية التي ربّى عليها رسول الله ﷺ أصحابه، مكّنت مجتمعهم من الاستفادة من عقول جميع أهل الرأي السديد، والمنطق الرشيد، فالقائد فيهم ينجح نجاحاً باهراً، وإن كان حديث السن لأنه لم يكن يفكر برأيه المجرد، أو آراء عصبة مهيمنة عليه، قد تنظر لمصالحها الخاصة، قبل أن تنظر لمصلحة المسلمين العامة، وإنما يفكر بآراء جميع أفراد جنده، وقد يحصل له الرأي السديد من أقلهم سمعة وأبعدهم منزلة من ذلك القائد، لأنه ليس هناك ما يحول بين أي فرد منهم والوصول برأيه إلى قائد جيشه (١).

ونلحظ عظمة التربية النبوية التي سرت في شخص الحُباب بن المنذر، فجعلته يتأدب أمام رسول الله ﷺ، فتقدم دون أن يُطلب رأيه، ليعرض الخطة التي لديه، لكن هذا تمّ بعد السؤال العظيم الذي قدمه بين يدي الرسول ﷺ: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

إن هذا السؤال ليشي بعظمة هذا الجوهر القيادي الفذ الذي يعرف أين يتكلم ومتى يتكلم بين يدي قائده، فإن كان الوحي الذي اختار هذا المنزل، فلأن يقدم فتقطع عنقه، أحب إليه من أن يلفظ بكلمة واحدة، وإن كان الرأي البشري، فلديه خطة جديدة كاملة باستراتيجية جديدة.

إن هذه النفسية الرفيعة، عرفت أصول المشورة، وأصول إبداء الرأي، وأدركت مفهوم السمع والطاعة، ومفهوم المناقشة، ومفهوم عرض الرأي المعارض، لرأي سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام.

وتبدو عظمة القيادة النبوية في استماعها للخطة الجديدة، وتبنى الخطة الجديدة المطروحة من جندي من جنودها أو قائد من قوادها (٢).

سادساً: الوصف القرآني لخروج المشركين:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧].

ينهى المولى ﷻ المؤمنين عن التشبه بالكافرين الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس.

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١١٠).
(٢) انظر: التربية القيادية (٣/ ٢١).

فقد وصف ـ سبحانه ـ الكافرين في هذه الآية بثلاثة أشياء: **الأول**: البطر، **والثاني**: الرياء، **والثالث**: الصد عن سبيل الله.

ونلحظ أن الله تعالى عبّر عن بطرهم بصيغة الاسم الدال على التمكين والثبوت، وعن صدّهم بصيغة الفعل الدال على التجدد والحدوث [١].

وقد جاء في تفسير هذه الآية عند القرطبي أن المقصود بالآية: «يعني أبا جهل وأصحابه الخارجين يوم بدر، لنصرة العير، خرجوا بالقيان والمغنيات والمعازف فلما وردوا الجحفة بعث خُفَاف الكناني ـ وكان صديقاً لأبي جهل ـ بهدايا إليه مع ابن عم له، وقال: إن شئت أمددتك بالرجال، وإن شئت أمددتك بنفسي، مع ما خف من قومي. فقال أبو جهل: إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد فوالله ما لنا بالله من طاقة. وإن كنا نقاتل الناس فوالله إن بنا على الناس لقوة، والله لا نرجع عن قتال محمد، حتى نرد بدراً فنشرب فيها الخمور، وتعزف علينا القيان، فإن بدراً موسم من مواسم العرب، وسوق من أسواقهم، حتى تسمع العرب بمخرجنا فتهابنا آخر الأبد، فوردوا بدراً ولكن جرى ما جرى من هلاكهم» [٢].

سابعاً: موقف المشركين لمَّا قدموا إلى بدر:

بيّن سبحانه وتعالى موقف المشركين لمَّا قدموا إلى بدر، قال تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩].

روى الإمام أحمد، عن عبد الله بن ثعلبة، أن أبا جهل قال حين التقى القومُ ـ في بدر ـ: اللهم أقطعُنا للرحم، وآتانا بما لا يُعرف، فأَحِنْه ـ أي أهلكه ـ الغداة. فكان المستفتِح [٣].

ولما وصل جيش مكة إلى بدر دبّ فيهم الخلاف، وتزعزعت صفوفهم الداخلية، فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما نزل المسلمون وأقبل المشركون، نظر رسول الله ﷺ إلى عتبة بن ربيعة، وهو على جمل أحمر، فقال: «إن يكن عند أحد من القوم خير فهو عند صاحب الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا» وهو يقول: يا قوم أطيعوني في هؤلاء القوم، فإنكم إن فعلتم لن يزال ذلك في قلوبكم، ينظر كل رجل إلى قاتل أخيه وقاتل أبيه، فاجعلوا حقها برأسي وارجعوا، فقال أبو جهل: انتفخ والله سحره [٤]، حين رأى محمداً وأصحابه، إنما محمد وأصحابه أَكَلَة جزور لو قد التقينا.

---

(١) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول (١/ ٦٥، ٦٦).
(٢) انظر: تفسير القرطبي (٨/ ٢٥).
(٣) المسند (٥/ ٤٣١)، برقم (٢٣٦٦١) وقال محققو ط/ الرسالة: صحيح وهذا إسناد حسن.
(٤) سحرك: رئتك، يقال ذلك للجبان.

فقال عتبة: ستعلم من الجبان المفسد لقومه، أما والله إن لأرى قوماً يضربونكم ضرباً، أما ترون كأن رؤوسهم الأفاعي، وكأن وجههم السيوف . . .[١].

وهذا حكيم بن حزام يحدّثنا عن يوم بدر وكان في صفوف المشركين قبل إسلامه. قال: خرجنا حتى نزلنا العدوة التي ذكرها الله ﷻ، فجئت عتبة بن ربيعة فقلت: يا أبا الوليد هل لك أن تذهب بشرف هذا اليوم ما بقيت؟ قال: افعل ماذا؟

قلت: إنكم لا تطلبون من محمد إلا دم ابن الحضرمي [٢] وهو حليفك فتحمل ديته وترجع بالناس، فقال: أنت وذاك وأنا أتحمل بديته، واذهب إلى ابن الحنظلية [٣] ـ يعني أبا جهل ـ فقل له: هل لك أن ترجع بمن معك عن ابن عمك؟

فجئته فإذا هو في جماعة من بين يديه ومن ورائه، وإذا ابن الحضرمي [٤] واقف على رأسه وهو يقول: قد فسخت عقدي من عبد شمس، وعقدي إلى بني مخزوم. فقلت له: يقول لك عتبة بن ربيعة: هل لك أن ترجع اليوم عن ابن عمك بمن معك؟

قال: أما وجد رسولاً غيرك؟

قلت: لا، ولم أكن لأكون رسولاً لغيره.

قال حكيم: فخرجت مبادراً إلى عتبة لئلا يفوتني من الخبر شيء [٥]، فهذا عتبة بن ربيعة وهو في القيادة من قريش لا يرى داعياً لقتال محمد، وقد دعا قريشاً إلى ترك محمد فإن كان صادقاً فيما يدعو إليه فعزه عز قريش، وملكه ملكها، وستكون أسعد الناس به، وإن كان كاذباً فسيذوب في العرب وتنهيه.

ولكن كبرياء الجاهلية دائماً في كل زمان ومكان لا يمكن أن يترك الحق يتحرك، لأنها تعلم أن انتصاره معناه زوالها من الوجود وبقاؤه مكانها [٦].

وهذا عمير بن وهب الجمحي ترسله قريش ليحرز لهم أصحاب محمد، فاستجال حول العسكر ثم رجع إليهم فقال: ثلاثمائة رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون، ولكن أمهلوني، أنظر للقوم كمين أو مدد، قال: فضرب في الوادي حتى أبعد فلم ير شيئاً، ولكن قد رأيت يا معشر

---

(١) انظر: مجمع الزوائد (٦/ ٧٦)، وقال: رواه البزار ورجاله ثقات.

(٢) تقدم ذكره في سرية عبد الله بن جحش.

(٣) ابن الحنظلية هو أبو جهل وهي أسماء بنت مُخربّة من بني تميم.

(٤) المقصود هنا عامر أخو عمرو المتقدم.

(٥) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٣٤، ٢٣٥).

(٦) انظر: مرويات غزوة بدر، (ص ١٥٥).

قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس لهم منعة إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يُقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك، فَرُوا رأيكم؟ (١).

وهذا أمية بن خلف رفض الخروج من مكة ابتداءً خوفاً من الموت، فأتاه أبو جهل فقال: يا أبا صفوان إنك متى يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادي تخلفوا معك. فلم يزل به أبو جهل حتى قال: أما إذا غلبتني، فوالله لأشترين أجود بعير بمكة.

ثم قال أمية: يا أم صفوان جهزيني.

فقالت له: أبا صفوان وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي؟ تقصد سعد بن معاذ عندما قال له: سمعت رسول الله يقول: إنهم لقاتلوك (٢).

قال: لا. ما أريد أن أجوز معهم إلا قريباً، فلما خرج أمية أخذ لا يترك منزلاً إلا عقل بعيره، فلم يزل بذلك حتى قتله الله ﷻ ببدر (٣).

ومن دهاء أبي جهل لعنه الله أن سلط عقبة بن أبي معيط على أمية بن أبي خلف فأتاه عقبة بمجمرة حتى وضعها بين يديه فقال: إنما أنت من النساء.

فقال: قبّحك الله (٤).

لقد كانت القوة المعنوية لجيش مكة متزعزعة في النفوس، وإن كان مظهره القوة والعزم والثبات إلا أن في مخبره الخوف والجبن والتردد (٥).

وكان لرؤيا عاتكة بنت عبد المطلب أثر على معنويات أهل مكة، فقد رأت في المنام أن رجلا استنفر قريشاً، وألقى بصخرة من رأس جبل أبي قبيس بمكة، فتفتتت ودخلت سائر دور قريش، وقد أثارت الرؤيا خصومة بين العباس وأبي جهل حتى قدم ضمضم وأعلمهم بخبر القافلة فسكنت مكة وتأولت لرؤيا (٦).

كما أن جُهَيم بن الصَّلت بن المطلب بن عبد مناف رأى رؤيا، عندما نزلت قريش الجحفة، فقد رأى رجلاً أقبل على فرس حتى وقف، ومعه بعير له؛ ثم قال: قتل عتبة بن

(١) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٢٦٩).

(٢) انظر: فتح الباري (٧/ ٢٣٨)، المطبعة السلفية، مصر.

(٣) انظر: مرويات غزوة بدر، (ص ١٣٦).

(٤) انظر: مرويات غزوة بدر، (ص ١٣٧).

(٥) المصدر نفسه، (ص ١٣٨).

(٦) انظر: المجتمع المدني في عصر النبوة للعمري، (ص ٤١).

ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأمية بن خلف، وفلان وفلان، فعدد رجالاً ممن قتل يوم بدر من أشراف قريش، ثم رأيته ضرب في لَبَّة بعيره، ثم أرسله في العسكر، فما بقي خباء من أخبية العسكر إلا أصابه نضح [١] من دمه، فلما بلغت أبا جهل هذه الرؤيا، قال: وهذا أيضاً نبي من بني المطلب سيعلم غداً من المقتول إن نحن التقينا [٢]. كانت تلك الرؤى قد ساهمت بتوفيق الله تعالى في إضعاف النفسية القرشية المشركة.

المبحث الثاني

النبي ﷺ والمسلمون في ساحة المعركة

أولاً: بناء عريش القيادة:

بعد نزول النبي والمسلمين معه، على أدنى ماء بدر من المشركين، اقترح سعد بن معاذ على رسول الله ﷺ، بناء عريش له يكون مقراً لقيادته، ويأمن فيه من العدو، وكان مما قاله سعد في اقتراحه: «يا نبي الله، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك أقوام، يا نبي الله، ما نحن بأشدَّ لك حباً منهم، ولو ظنُّوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك، ويجاهدون معك» فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بالخير، ثم بنى المسلمون العريش لرسول الله ﷺ، على تلٍّ مشرف على ساحة القتال، وكان معه فيه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وكانت ثلة من شباب الأنصار بقيادة سعد بن معاذ يحرسون عريش رسول الله ﷺ [٣].

ويُستفاد من بناء العريش أمورٌ، منها:

١ ـ لا بدّ أن يكون مكان القيادة مشرفاً على أرض المعركة، يتمكن القائد فيه من متابعة المعركة وإدارتها.

٢ ـ ينبغي أن يكون مقر القيادة آمناً بتوافر الحراسة الكافية له.

٣ ـ ينبغي الاهتمام بحياة القائد، وصونها من التعرض لأي خطر.

٤ ـ ينبغي أن يكون للقائد قوة احتياطية أخرى تعوض الخسائر التي قد تحدث في المعركة [٤].

---

(١) نضح: لطخ.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٣٠).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٣٣).

(٤) انظر: غزوة بدر الكبرى، (ص ٦٦).

ثانياً: من نعم الله على المسلمين قبل القتال:

من المنن التي منّ الله بها على عباده المؤمنين يوم بدر أنه أنزل عليهم النعاس والمطر وذلك قبل أن يلتحموا مع أعدائهم، قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١] .

قال القرطبي: «وكان هذا النعاس في الليلة التي كان القتال من غدها، فكان النوم عجيباً مع ما كان بين أيديهم من الأمر المهم، وكأن الله ربط جأشهم.

«وعن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: ما كان فينا فارس يوم بدر، غير المقداد على فرس أبلق، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة، يُصلي ويبكي حتى أصبح.

«وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان:

أحدهما: أن قوّاهم بالاستراحة على القتال من الغد.

الثاني: أن أمَّنهم بزوال الرعب من قلوبهم كما يقال: الأمن مُنيم، والخوف مُسْهِر» (١).

وبيّن سبحانه وتعالى أنه أكرم المؤمنين بإنزال المطر عليهم في وقت لم يكن المعتاد فيه نزول الأمطار، وذلك فضلاً منه وكرماً، وإسناد هذا الإنزال إلى الله للتنبيه على أنه أكرمهم به.

قال الإمام الرازي: «وقد علم بالعادة أن المؤمن يكاد يستقذر نفسه إذا كان جنباً، ويغتم إذا لم يتمكن من الاغتسال، ويضطرب قلبه لأجل هذا السبب، فلا جَرَمَ عدَّ تعالى وتقدس تمكينهم من الطهارة من جملة نعمه...» (٢).

وقوله تعالى: ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ فقد روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزل النبي ﷺ ـ يعني حين سار إلى بدر، والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دعْصَة ـ أي كثير مجتمعة ـ فأصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ، فوسوس بينهم تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون مجنبين، فأمطر الله عليهم مطراً شديداً، فشرب المسلمون وتطهروا، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان، وثبت الرمل حين أصابه المطر، ومشى الناس عليه والدواب فساروا إلى القوم (٣).

فقد بيّن سبحانه أنه أنزل على عباده المؤمنين المطر قبل المعركة، فتطهروا به حسياً ومعنوياً، إذ ربط الله به على قلوبهم، وثبت به أقدامهم، وذلك أن الناظر في منطقة بدر يجد في

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ٣٧٢).

(٢) انظر: تفسير الفخر الرازي (١٥/ ١٣٣).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٩/ ١٩٥).

المنطقة رمالاً متحركة لا زالت حتى اليوم، ومن العسير المشي عليها، ولها غبار كبير، فلما نزلت الأمطار تماسكت تلك الرمال، وسهل السير عليها، وانطفأ غبارها، وكل ذلك كان نعمة من الله على عباده (١).

ثالثاً: خطة الرسول ﷺ في المعركة:

ابتكر الرسول ﷺ في قتاله مع المشركين يوم بدر أسلوباً جديداً في مقاتلة أعداء الله تعالى، لم يكن معروفاً من قبل حتى قاتل ﷺ بنظام الصفوف (٢)، وهذا الأسلوب أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصَّف: ٤].

وصفة هذا الأسلوب: أن يكون المقاتلون على هيئة صفوف الصلاة، وتقل هذه الصفوف أو تكثر تبعاً لقلة المقاتلين أو كثرتهم.

وتكون الصفوف الأولى من أصحاب الرماح لصدّ هجمات الفرسان، وتكون الصفوف التي خلفها من أصحاب النبال، لتسديدها من المهاجمين على الأعداء، وكان من فوائد هذا الأسلوب في غزوة بدر:

١ - إرهاب الأعداء ودلالة على حسن وترتيب النظام عند المسلمين.

٢ - جعل في يد القائد الأعلى ﷺ قوة احتياطية، عالج بها المواقف المفاجئة في صد هجوم معاكس، أو ضرب كمين غير متوقع، واستفاد منه في حماية الأجنحة من خطر المشاة والفرسان، ويعد تطبيق هذا الأسلوب لأول مرة في غزوة بدر سبقاً عسكرياً تميّزت به المدرسة العسكرية الإسلامية على غيرها، منذ أربعة عشر قرناً من الزمان (٣).

ويظهر للباحث في السيرة النبوية أن النبي ﷺ كان يباغت خصومه ببعض الأساليب القتالية الجديدة، وخاصة تلك التي لم يعهدها العرب من قبل، على نحو ما قام به النبي ﷺ في يوم بدر، وأحد وغيرهما.

ومن جهة النظرة العسكرية فإن هذه الأساليب تدعو إلى الإعجاب بشخصية النبي ﷺ، وبراعته العسكرية، لأن التعليمات العسكرية التي كان يصدرها خلال تطبيقه لها تطابق تماماً الأصول الحديثة في استخدام الأسلحة (٤).

(١) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول (١/ ٩١).

(٢) انظر: القيادة العسكرية، د. محمد الرشيد (ص ٤٠١).

(٣) انظر: الرسول القائد، خطاب (ص ١١١، ١١٦، ١١٧).

(٤) المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية. د. محمد محفوظ (ص ١٢١).

وتفصيل ذلك فقد اتبع ﷺ أسلوب الدفاع ولم يهاجم قوة قريش، وكانت توجيهاته (التكتيكية) التي نفّذها جنوده بكل دقة سبباً في زعزعة مركز العدو، وإضعاف نفسيته وبذلك تحقق النصر الحاسم بتوفيق الله على العدو برغم تفوقه [١] بنسبة ٣ إلى ١، فقد كان ﷺ يتصرف في كل موقف حسب ما تدعو إليه المصلحة، وذلك لاختلاف مقتضيات الأحوال والظروف. وقد طبّق الرسول ﷺ في الجانب العسكري أسلوب القيادة التوجيهية في مكانها الصحيح، أما أخذه بالأسلوب الإقناعي في غزوة بدر فقد تجلّى في ممارسة فقه الاستشارة في مواضع متعددة، لأنه ﷺ لا يقود جنده بمقتضى السلطة، بل بالكفاءة والثقة، وهو ﷺ أيضاً لا يستبد برأيه، بل يتبع مبدأ الشورى وينزل على الرأي الذي يبدو صوابه، ومارس ﷺ في غزوة بدر أسلوب القيادة التوجيهية، فقد تجلى في أمور منها:

١ ـ الأمر الأول: أمره ﷺ الصحابة برمي الأعداء إذا اقتربوا منهم، لأن الرمي يكون أقرب إلى الإصابة في هذه الحالة «إن دنا القوم منكم فانضحوهم بالنبل» [٢].

٢ ـ الأمر الثاني: نهيه ﷺ عن سل السيوف إلى أن تتداخل الصفوف [٣] «ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم» [٤].

٣ ـ الأمر الثالث: أمره ﷺ الصحابة بالاقتصاد في الرمي [٥] «واسْتَبْقُوا نَبْلَكم» [٦].

وعندما تقارن هذه التعليمات الحربية بالمبادىء الحديثة في الدفاع؛ تجد أن رسول الله ﷺ كان سباقاً إليها، من غير عكوف إلى الدرس، ولا التحاق بالكليات الحربية، فالنبي ﷺ يرمي من وراء تعليماته التي استعرضناها آنفاً إلى تحقيق ما يعرف حديثاً بكبت النيران إلى اللحظة التي يصبح فيها العدو في المدى المؤثر لهذه الأسلحة، وهذا ما قصده ﷺ في قوله: «استبقوا نبلكم».

أ ـ فرصة الاستفادة من الظروف الطبيعية أثناء قتال الأعداء:

ولم يهمل ﷺ فرصة الاستفادة من الظروف الطبيعية أثناء قتال العدو، فقد كان يستفيد من كل الظروف في ميدان المعركة لمصلحة جيشه، ومن الأمثلة على ذلك ما فعله ﷺ قبل بدء القتال يوم بدر، يقول المقريزي: «وأصبح ﷺ ببدر قبل أن تنزل قريش فطلعت الشمس وهو يصفّهم، فاستقبل المغرب وجعل الشمس خلفه فاستقبلوا الشمس» [٧].

---

(١) انظر: مقومات النصر، د. أحمد أبو الشباب (٢/ ١٥٤).

(٢) صحيح السيرة النبوية برواية أخرى ونفس المعنى، (ص ٢٣٩).

(٣) انظر: غزوة بدر الكبرى، ص ٦٣، ٦٤ لأبي فارس.

(٤) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٣٩).

(٥) انظر: غزوة بدر الكبرى لأبي فارس، (ص ٦٣، ٦٤).

(٦) البخاري: كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدراً رقم (٣٩٨٤، ٣٩٨٥).

(٧) انظر: القيادة العسكرية، (ص ٤٥٣).

وهذا التصرف يدل على حسن تدبيره ﷺ واستفادته حتى من الظروف الطبيعية لما يحقق المصلحة لجيشه، وإنما فعل ذلك لأن الشمس إذا كانت في وجه المقاتل تسبب له عَشا (١) البصر فتقل مقاومته ومجابهته لعدوه (٢)، وفيما فعله رسول الله ﷺ يوم بدر إشارة إلى أن الظروف الطبيعية كالشمس والريح والتضاريس الجغرافية وغيرها لها تأثير عظيم على موازين القوى في المعارك، وهي من الأسباب التي طلب الله منا الأخذ بها لتحقيق النصر والصعود إلى المعالي (٣).

ب ـ سَوَاد بن غَزِيَّة في الصفوف:

كان ﷺ في بدر يعدل الصفوف ويقوم بتسويتها لكي تكون مستقيمة متراصة، وبيده سهم لا ريش له يعدل به الصف، فرأى رجلاً اسمه سواد بن غزية وقد خرج من الصف، فطعنه ﷺ في بطنه، وقال له: «استو يا سواد». فقال: يا رسول الله أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل، فأقدني، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال: «استقد»، فاعتنقه فقبّل بطنه، فقال: «ما حملك على هذا يا سواد»، قال: يا رسول الله حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير (٤).

ويُستفاد من قصة سواد ـ رضي الله عنه ـ أمور منها:

١ ـ حرص الإسلام على النظام.

٢ ـ العدل المطلق: فقد أعطى رسول الله ﷺ القود من نفسه.

٣ ـ حب الجندي لقائده.

٤ ـ تذكر الموت والشهادة.

٥ ـ جسد رسول الله ﷺ مبارك، ومسه فيه بركة، ولهذا حرص عليها سواد.

٦ ـ بطن الرجل ليس بعورة، بدليل أن النبي ﷺ كشف عنه، ولو كان عورة لما كشف عنه (٥).

جـ ـ تحريض النبي ﷺ أصحابه على القتال:

كان رسول الله ﷺ يربي أصحابه على أن يكونوا أصحاب إرادات قوية، راسخة ثابتة ثبات

---

(١) سوء البصر بالليل والنهار يكون في الناس والدواب والإبل والطير.

(٢) انظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (٧/ ١٧٥).

(٣) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول، (ص ٤٥٤).

(٤) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٣٦).

(٥) انظر: غزوة بدر الكبرى، لأبي فارس (ص ٥٢).

الشم الرواسي فيملأ قلوبهم شجاعة وجرأة وأملاً في النصر على الأعداء، وكان يسلك في سبيل تكوين هذه الإرادة القوية أسلوب الترغيب والترهيب، الترغيب في أجر المجاهدين الثابتين، والترهيب من التولي يوم الزحف، والفرار من ساحات الوغى، كما كان يحدثهم عن عوامل النصر وأسبابه؛ ليأخذوا بها ويلتزموها، ويحذرهم من أسباب الهزيمة ليقلعوا عنها، وينأوا بأنفسهم عن الاقتراب منها (١).

وكان ﷺ يحثّ أصحابه على القتال ويحرضهم عليه امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥].

وفي غزوة بدر الكبرى قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض»، فقال عمير بن الحُمَام الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: «نعم» قال: بَخٍ بَخٍ (كلمة تعجب).

فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قولك: بَخٍ بَخٍ؟».

قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاءة أن أكون من أهلها. قال: «فإنك من أهلها».

فأخرج تمرات من قَرَنِهِ (جعبة النشاب) فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة. قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قُتل (٢).

وفي رواية قال: قال أنس: فرمى ما كان معه من التمر، وقاتل وهو يقول:

ركضاً إلى الله بغير زادِ إلا التُّقى وعملَ المعادِ
والصبرَ في الله على الجهاد وكلُّ زادٍ عُرْضَةُ النَّفادِ
غيرُ التقى والبرِ والرشادِ

فقاتل رحمه الله حتى استشهد (٣).

ومن صور التعبئة المعنوية أنه ﷺ كان يبشرهم بقتل صناديد المشركين، وزيادة لهم في التطمين كان يحدد مكان قتل كل واحد منهم (٤)، كما كان يبشر المؤمنين بالنصر قبل بدء القتال، فيقول: أبشر أبا بكر. ووقف رسول الله ﷺ يقول للصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فَيُقْتَل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا

---

(١) انظر: المدرسة النبوية العسكرية لأبي فارس، (ص ١٤٠).

(٢) انظر: مختصر صحيح مسلم للمنذري (٢/ ٧٠)، رقم (١١٥٧) ورقمه في الصحيح [١٤٥ ـ (١٩٠١)].

(٣) انظر: صفة الصفوة (١/ ٤٨٨)، زاد المعاد (٣/ ١٨٢)، تاريخ الطبري: (٢/ ٤٤٨).

(٤) انظر: جامع الأصول (٨/ ٢٠٢).

أدخله الله الجنة»[(١)].

وقد أثرت هذه التعبئة المعنوية في نفوس أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ والذين جاءوا من بعدهم بإحسان[(٢)].

وكان ﷺ يطلب من المسلمين أن لا يتقدم أحد إلى شيء حتى يكون دونه، فعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: «... فانطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر وجاء المشركون، فقال رسول الله ﷺ: «لا يقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه»[(٣)]، فدنا المشركون فقال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض»[(٤)].

د ـ دعاؤه ﷺ واستغاثته:

قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

لما نظم ﷺ صفوف جيشه، وأصدر أوامره لهم وحرضهم على القتال، رجع إلى العريش الذي بُني له ومعه صاحبه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وسعد بن معاذ على باب العريش لحراسته وهو شاهر سيفه، واتجه رسول الله ﷺ إلى ربه يدعوه ويناشده النصر الذي وعده، ويقول في دعائه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلِك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض» فما زال ﷺ يدعو ويستغيث حتى سقط رداؤه، فأخذه أبو بكر وردّه على منكبيه وهو يقول: يا رسول الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك[(٥)] فأنزل الله ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ وفي رواية ابن عباس قال: قال النبي ﷺ يوم بدر: «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد» فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك الله، فخرج ﷺ وهو يقول: «سيهزم الجمع ويولون الدبر»[(٦)].

وروى ابن إسحاق أنه ﷺ قال: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني»[(٧)].

وهذا درس رباني مهم لكل قائد أو حاكم أو زعيم، أو فرد في التجرد من النفس وحظها،

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢٣٩).

(٢) المدرسة العسكرية الإسلامية لأبي فارس، (ص ١٤٣).

(٣) انظر: مسلم (٣/ ١٥١٠)، قم (١٩٠١).

(٤) انظر: المنذري، مختصر صحيح مسلم (٢/ ٧٠)، رقم (١١٥٧).

(٥) انظر: مسلم، كتاب الجهاد، باب الإمداد بالملائكة ببدر (٣/ ٣٨٤).

(٦) البخاري: كتاب المغازي، باب قصة بدر (٦/٥)، رقم (٣٩٥٣).

(٧) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٢٦٧).

والخلوص واللجوء لله وحده، والسجود والجثي بين يدي الله سبحانه؛ لكي ينزل نصره، ويبقى مشهد نبيه وقد سقط رداؤه عن كتفه وهو ماد يديه يستغيث بالله، يبقى هذا المشهد محفوراً بقلبه ووجدانه يحاول تنفيذه في مثل هذه الساعات، وفي مثل هذه المواطن حيث تناط به المسؤولية وتلقى عليه أعباء القيادة (١).

هـ ـ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى:

بعد أن دعا ﷺ ربه في العريش، واستغاث به خرج من العريش فأخذ قبضة من التراب، وحصب بها وجوه المشركين وقال: «شاهت الوجوه» ثم أمر ﷺ أصحابه أن يصدقوا الحملة إثرها ففعلوا، فأوصل الله تعالى تلك الحصباء إلى أعين المشركين فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله (٢) ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] . ومعنى الآية: أن الله سبحانه أثبت لرسوله ابتداء الرمي ونفى عنه الإيصال الذي لم يحصل برميته، فالرمي يراد به الحذف والإيصال، فأثبت لنبيه الحذف، ونفى عنه الإيصال (٣)، ونلحظ أن الرسول ﷺ أخذ بالأسباب المادية والمعنوية، وتوكل على الله فكان النصر والتأييد من الله تعالى؛ فقد اجتمع في بدر الأخذ بالأسباب بالقدر الممكن، مع التوفيق الرباني في تهيئة جميع أسباب النصر، متعاونة متكافئة مع التأييدات الربانية الخارقة والغيبية، ففي عالم الأسباب تشكل دراسة الأرض والطقس، ووجود القيادة والثقة بها، والروح المعنوية لبناتٍ أساسيةٍ في صحة القرار العسكري، ولقد كانت الأرض لمصلحة المسلمين وكان الطقس مناسباً للمعركة، والقيادة الرفيعة موجودة والثقة بها كبيرة، والروح المعنوية مرتفعة، وبعض هذه المعاني كان من الله بشكل مباشر وتوفيقه، وبعضها كان من فعل رسول الله ﷺ أخذاً بالأسباب المطلوبة، فتضافر الأخذ بالأسباب مع توفيق الله، وزيد على ذلك التأييدات الغيبية والخارقة فكان ما كان، وذلك نموذج على ما يُعطاه المسلمون بفضل الله إذا ما صلحت النيات عند الجند والقادة، ووجدت الاستقامة على أمر الله، وأخذ المسلمون بالأسباب (٤).

المبحث الثالث

نشوب القتال وهزيمة المشركين

اندلع القتال بين المسلمين والمشركين بالمبارزات الفردية، فخرج من جيش المشركين عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة بن ربيعة، وابنه الوليد، وطلبوا المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار ولكن الرسول ﷺ أرجعهم لأنه أحبَّ أن يبارزهم بعض أهله وذوي قرباه، ولذلك

---

(١) انظر: التربية القيادية (٣/ ٣٦).

(٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٢٥).

(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ١٨٣).

(٤) انظر: الأساس في السنة وفقهها السيرة النبوية (١/ ٤٧٤).

قال ﷺ: «قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة وقم يا علي» وبارز حمزة شيبة فقتله، وبارز عليّ الوليد وقتله، وبارز عبيدة بن الحارث عتبة فضرب كل واحد منهما الآخر بضربة موجعة، فكرّ حمزة وعليٌّ على عتبة فقتلاه، وحملا عبيدة وأتيا به إلى رسول الله ﷺ ولكن ما لبث أن توفى متأثراً من جراحته وقد قال عنه ﷺ: «أشهد أنك شهيد»[1]، وفي هؤلاء الستة نزل قوله تعالى:

﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج: ١٩ ـ ٢٤].

ولما شاهد المشركون قتل الثلاثة الذين خرجوا للمبارزة، استشاطوا غضباً، وهجموا على المسلمين هجوماً عاماً، صمد وثبت له المسلمون وهم واقفون موقف الدفاع، ويرمونهم بالنبل كما أمرهم النبي ﷺ وكان شعار المسلمين: أَحَد.. أَحَد، ثم أمرهم النبي ﷺ بالهجوم المضاد محرضاً لهم على القتال، وقائلاً لهم: «شدوا» وواعداً من يقتل صابراً محتسباً بأن له الجنة، ومما زاد في نشاط المسلمين واندفاعهم في القتال سماعهم قول النبي ﷺ: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥] وعلمهم وإحساسهم بإمداد الملائكة وبتقليلهم في أعين المسلمين وتقليل المسلمين في أعين المشركين[2].

فقد كان ﷺ قد رأى في منامه ليلة اليوم الذي التقى فيه الجيشان، رأى عدد المشركين قليلاً، وقد قص رؤياه على أصحابه فاستبشروا خيراً، قال تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الأنفال: ٤٣].

المعنى أن النبي ﷺ رآهم ـ أي رأى المشركين ـ في منامه قليلاً فقص ذلك على أصحابه؛ فكان ذلك سبباً لثباتهم. قال مجاهد: ولو رآهم في منامه كثيراً لفشلوا وجبنوا عن قتالهم، ولتنازعوا في الأمر: هل يلاقونهم أم لا؟ والمضارع في الآية بمعنى الماضي لأن نزول الآية كان بعد الإراءة في المنام ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي عصمهم من الفشل والتنازع فقللهم في عين رسول الله ﷺ[3]، فقصّ رؤياه على أصحابه فكان في ذلك تثبيت لهم، وتشجيعهم وجرأتهم على عدوهم، وعند لقاء جيش المسلمين مع جيش المشركين رأى كل منهم عدد الآخر قليلاً. قال

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/١٢٦).

(٢) انظر: الرحيق المختوم (ص ١١٦ ـ ١١٨).

(٣) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/١٢٥).

تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الأنفال: ٤٤] وإنما قلّلهم في أعين المسلمين تصديقاً لرؤيا النبي ﷺ، وليعاينوا ما أخبرهم به فيزدادوا يقيناً ويجدُّوا في قتالهم ويثبتوا، وقال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قلت لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة، فأسرنا رجلاً منهم فقلنا له: كم كنتم؟ قال: ألفاً. وقوله تعالى: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ حتى قال قائل من المشركين: إنما هم أَكَلَةَ جَزُور. ووجه الحكمة واللطف بالمسلمين في هذا التقليل، هو أن إراءة المسلمين عدد الكافرين قليلاً ثبتهم ونشطهم، وجرأهم على قتال المشركين، ونزع الخوف ـ من قلوب المسلمين ـ من أعدائهم. ووجه الحكمة في تقليل المسلمين في أعين المشركين؛ هو أنهم إذا رأوهم قليلاً أقدموا على قتالهم غير خائفين ولا مبالين بهم، ولا آخذين الحذر منهم، فلا يقاتلون بجد واستعداد ويقظة وتحرز، ثم إذا ما التحموا بالقتال فعلاً تفجؤهم الكثرة فيبهتون ويهابون، وتكسر شوكتهم حين يرون ما لم يكن في حسابهم وتقديرهم، فيكون ذلك من أسباب خذلانهم وانتصار المسلمين عليهم (١).

أولاً: إمداد الله للمسلمين بالملائكة:

ثبت من نصوص القرآن الكريم، والسنّة النبوية المطهرة، ومرويات عدد من الصحابة البدريين؛ أن الله تعالى ألقى في قلوب الذين كفروا الرعب، قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٢٣ ـ ١٢٦].

وأورد البخاري ومسلم وأحمد بن حنبل وغيرهم عدداً من الأحاديث الصحيحة، التي تشير إلى مشاركة الملائكة في معركة بدر، وقيامهم بضرب المشركين وقتلهم (٢).

فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: بينما رجل من المسلمين يومئذٍ يشتد في أثَر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حَيْزُوم (٣). فنظر إلى المشرك أمامه فخرّ مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو خُطِمَ أنفه (٤)، وشق وجهه كضربة السوط فاخضر

(١) انظر: تفسير الزمخشري (٢/ ٢٢٥)، تفسير ابن كثير (٢/ ٣١٥).
(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (١/ ٢٩١).
(٣) حيزوم: اسم الفرس الذي يركبه الملك.
(٤) خطم: الخطم الأثر على الأنف.

ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال: «صدقت، ذلك مدد من السماء الثالثة» [(١)]، ومن حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أيضاً قال: إن النبي ﷺ قال يوم بدر: «هذا جبريلُ آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب» [(٢)]. ومن حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: فجاء رجل من الأنصار قصير بالعباس بن عبد المطلب أسيراً، فقال العباس: يا رسول الله إن هذا والله ما أسرني، لقد أسرني رجل أجلح [(٣)]، من أحسن الناس وجهاً على فرس أبلق [(٤)] ما أراه في القوم، فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول الله، فقال: «اسكت فقد أيدك الله بملك كريم» [(٥)]، ومن حديث أبي داود المازني قال: «إني لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أنه قتله غيري» [(٦)].

«إن إمداد الله تعالى للمؤمنين بالملائكة أمر قطعي ثابت لا شك فيه، وإن الحكمة من هذا الإمداد تحصيل ما يكون سبباً لانتصار المسلمين، وهذا ما حصل بنزول الملائكة، فقد قاموا بكل ما يمكن أن يكون سبباً لنصر المسلمين، من بشارتهم بالنصر ومن تثبيتهم بما ألقوه في قلوبهم؛ من بواعث الأمل في نصرهم، والنشاط في قتالهم، وبما أظهروه لهم من أنهم مُعانون من الله تعالى، وأيضاً بما قام به بعضهم من الاشتراك الفعلي في القتال، ولا شك أن هذا الاشتراك الفعلي في القتال قوى قلوبهم، وثبتهم في القتال، وهذا ما دلّت عليه الآية، وصرّحت به الأحاديث النبوية» [(٧)].

وقد يسأل سائل: ما الحكمة في إمداد المسلمين بالملائكة مع أن واحداً من الملائكة كجبريل عليه السلام قادر بتوفيق الله على إبادة الكفار؟

وقد أجاب الأستاذ عبد الكريم زيدان على ذلك فقال: لقد مضت سنّة الله بتدافع الحق وأهله مع الباطل وأهله، وأن الغلبة تكون وَفْقاً لسنن الله في الغلبة والانتصار، وأن هذا التدافع يقع في الأصل بين أهل الجانبين: الحق والباطل، ومن ثمرات التمسك بالحق والقيام بمتطلباته أن يحصلوا على عون وتأييد من الله تعالى، بأشكال وأنواع متعددة من التأييد والعون، ولكن تبقى المدافعة والتدافع، يجريان وَفْقاً لسنن الله فيهما، وفي نتيجة هذا التدافع، فالجهة الأقوى بكل معاني القوة اللازمة للغلبة هي التي تغلب، فالإمداد بالملائكة هو بعض ثمرات إيمان تلك العصبة المجاهدة،

---

(١) مسلم ـ الجهاد، باب الإمداد بالملائكة، رقم (١٧٦٣).

(٢) البخاري ـ المغازي، باب شهود الملائكة بدراً، رقم (٣٩٩٥).

(٣) الأجلح: الذي انحسر شعره عن جانبي رأسه.

(٤) الأبلق: الذي ارتفع التحجيل إلى فخذيه.

(٥) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٤٧).

(٦) المصدر نفسه، (ص ٢٤٧).

(٧) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٣١، ١٣٢).

ذلك الإمداد الذي تحقق به ما يستلزم الغلبة على العدو، ولكن بقيت الغلبة موقوفة على ما قدمه أولئك المؤمنون من قتال ومباشرة لأعمال القتال، وتعرضهم للقتل، وصمودهم وثباتهم في الحرب، واستدامة توكلهم على الله، واعتمادهم عليه، وثقتهم به، وهذه معان جعلها الله حسب سننه في الحياة أسباباً للغلبة والنصر، مع الأسباب الأخرى المادية، مثل العُدة والعدد والاستعداد للحرب وتعلم فنونها.. إلخ، ولهذا فإن الإسلام يدعو المسلمين إلى أن يباشروا بأنفسهم إزهاق الباطل وقتال المبطلين، وأن يهيئوا الأسباب المادية والإيمانية للغلبة والانتصار، وبأيديهم، إن شاء الله تعالى، ينال المبطلون ما يستحقونه من العقاب (١)، قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥].

إن نزول الملائكة عليهم السلام من السموات العلى إلى الأرض لنصر المؤمنين؛ حدث عظيم.

إنه قوة عظمى، وثبات راسخ للمؤمنين، حينما يوقنون بأنهم ليسوا وحدهم في الميدان، وأنهم إذا حققوا أسباب النصر واجتنبوا موانعه فإنهم أهل لمدد السماء، وهذا الشعور يعطيهم جرأة في مقابلة الأعداء، وإن كان على سبيل المغامرة، لبُعد التكافؤ المادي بين جيش الكفار الكبير عدداً القوي إعداداً، وجيش المؤمنين القليل عدداً الضعيف إعداداً.

وهو في الوقت نفسه عامل قوي في تحطيم معنوية الكفار، وزعزعة يقينهم، وذلك حينما يشيع في صفوفهم احتمال تكرار نزول الملائكة الذي شاهدهم بعضهم عياناً، إنهم مهما قدروا قوة المسلمين وعددهم؛ فإنه سيبقى في وجدانهم رعب مزلزل من احتمال مشاركة قوى غير منظورة، لا يعلمون عددها ولا يقدِّرون مدى قوتها، وقد رافق هذا الشعور المؤمنين في كل حروبهم التي خاضها الصحابة - رضي الله عنهم - في العهد النبوي، وفي عهد الخلفاء الراشدين، كما رافق بعض المؤمنين بعد ذلك فكان عاملاً قوياً في انتصاراتهم المتكررة الحاسمة مع أعدائهم (٢).

ثانياً: انتصار المسلمين على المشركين وحديث رسول الله ﷺ لأهل القليب:

انتهت معركة بدر بانتصار المسلمين على المشركين، وكان قتلى المشركين سبعين رجلاً، وأسر منهم سبعون، وكان أكثرهم من قادة قريش وزعمائهم، واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلاً، منهم ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، ولما تم الفتح وانهزم المشركون، أرسل ﷺ عبد الله بن رواحة، وزيد بن حارثة، ليبشرا المسلمين في المدينة بنصر الله للمسلمين وهزيمة المشركين (٣).

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٣١، ١٣٢).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي ٤/ ١٤٥.

(٣) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٣٣).

ومكث ﷺ ثلاثة أيام في بدر، فعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: «إنه ﷺ كان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاثة ليال...» [(١)] ولعل الحكمة في ذلك.

١ ـ تصفية الموقف بالقضاء على أية حركة من المقاومة اليائسة، التي يحتمل أن يقوم بها فلول المنهزمين الفارين هرباً إلى الجبال.

٢ ـ دفن من استشهد من جند الله، مما لا تكاد لا تخلو منه معركة، فقد دفن شهداء المسلمين في أرض المعركة، ولم يرد ما يشير إلى الصلاة عليهم، ولم يدفن أحد منهم خارج بدر [(٢)].

٣ ـ جمع الغنائم وحفظها، وإسناد أمرها إلى من يقوم بهذا الحفظ، حتى تؤدى كاملة إلى مستحقيها، وقد أسندت أنفال وغنائم بدر إلى ابن الحارث عبد الله بن كعب الأنصاري أحد بني مازن [(٣)].

٤ ـ إعطاء الجيش الظافر فرصة يستروح فيها، بعد الجهد النفسي والبدني المضني الذي بذله أفراده في ميدان المعركة، ويضمد فيها جراح مجروحيه، ويذكر نعم الله عليه فيما أفاء الله عليه من النصر المؤزر، الذي لم يكن داني القطوف، سهل المنال، ويتذاكر أفراده وجماعاته ما كان من أحداث ومفاجآت في الموقعة، مما كان له أثر فعال في استجلاب النصر، وما كان من فلان في شجاعته وفدائيته، وجرأته على اقتحام المضائق وتفريج الأزمات، وما تكشفت عنه المعركة من دروس عملية في الكر والفر، والتدبير المحكم الذي أخذ به العدو، وما في ذلك من عبر، واستذكار أوامر القيادة العليا، وموقفها في رسم الخطط، ومشاركتها الفعلية في تنفيذها، ليكون من كل ذلك ضياء يمشون في نوره في وقائعهم المستقبلية، ويجعلون منه دعائم لحياتهم في الجهاد الصبور المظفر بالنصر المبين.

٥ ـ مواراة جيف قتلى الأعداء الذين انفرجت المعركة عن قتلهم، والعرف عليهم وعلى مكانتهم في حشودهم، وعلى من بقي منهم مصروعاً بجراحه لم يدركه الموت، للإجهاز على من ترى قيادة جيش الإسلام المصلحة في القضاء عليه، اتقاء شرّه في المستقبل، كالذي كان في أمر الفاسق أبي جهل، فرعون هذه الأمة، والذي كان في شأن رأس الكفر أمية بن خلف وأضرابهما، وقد أمر رسول الله ﷺ بإلقاء هؤلاء الأخباث في رَكِيّ [(٤)] من قُلُب [(٥)] بدر خبيث مُخْبِث، ثم وقف على شفة الركى [(٦)]، وقد ورد أنه ﷺ وقف على القتلى فقال: «بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم، كذبتموني وصدقني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس،

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٥٠).

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/ ٢٩١).

(٣) انظر: محمد رسول الله ﷺ، صادق عرجون (٣/ ٤٥٣).

(٤) رَكِيّ: حافة البئر.

(٥) قُلُب: أبيار ومفرده بئر.

(٦) انظر: محمد رسول الله، محمد الصادق عرجون (٣/ ٤٥٤).

وأخرجتموني وآواني الناس» (١).

ثم أمر بهم، فسُحبوا إلى قليب من قلب بدر، فطرحوا فيه ثم وقف عليهم فقال: «يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، ويا فلان، ويا فلان، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً، فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً» فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله! ما تخاطب من أقوام قد جيَّفوا؟ فقال: «والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» (٢) قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله، توبيخاً، وتصغيراً، ونقمة، وحسرة، وندماً (٣).

إن مناداة الرسول ﷺ لقتلى قريش بيّنت أمراً عظيماً، وهو أنهم بدأوا حياة جديدة، هي حياة البرزخ الخاصة، وهم فيها يسمعون كلام الأحياء، غير أنهم لا يجيبون ولا يتكلمون، والإيمان بهذه الحياة من عقائد المسلمين، ونعيم القبر وعذابه ثابتان في صحاح الأحاديث، حتى أنه ﷺ مرّ بقبرين وقال: «إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير» (٤) وذكر أن سبب تعذيبهما النمُّ بين الناس، وعدم الاستنزاه من البول (٥).

ولا بدّ من التسليم بهذه الحقائق الغيبية بعد أن تحدث عنها الصادق المصدوق، وقطع بها القرآن الكريم في تعذيب آل فرعون قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

وأما الشهداء فقد قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٦٩].

المبحث الرابع

مشاهد وأحداث من المعركة

أولاً: مصارع الطغاة:

أ ـ مصرع أبي جهل بن هشام المخزومي:

قال عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه: بينا أنا واقف في الصف يوم بدر، فنظرت عن يميني وعن شمالي، فإذا أنا بغلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، تمنيت أن أكون بين أضلع منهما (٦)،

---

(١) زاد المعاد (٣/١٨٧).

(٢) البخاري المغازي، باب قتل أبي جهل رقم (٣٩٧٦) ومسلم: ح (٢٨٧٣، ٢٨٧٤).

(٣) الأساس في السنّة وفقهها ـ السيرة النبوية (١/ ٤٧٩).

(٤) انظر: البخاري، كتاب الوضوء، باب «ما جاء في غسل البول» رقم (٢١٨).

(٥) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة، د. محمد فوزي فضل الله، (ص ٦٤).

(٦) أضلع: أقوى وأعظم وأشد.

فغمزني [١] أحدهما، فقال: يا عمِّ هل تعرف أبا جهل؟ قلت: نعم، ما حاجتك إليه يا ابن أخي؟ قال: أُخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ، والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا. فتعجبت لذلك، فغمزني الآخر فقال لي مثلها.

فلم أَنْشَب [٢] أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس قلت: ألا إن هذا صاحبكما الذي سألتماني، فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه، فقال: «أيكما قتله؟» فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، فقال: «هل مسحتما سيفيكما»؟ قالا: لا، فنظر في السيفين، فقال: «كلاكما قتله سَلَبُهُ لمعاذ بن عمرو بن الجموح» وكانا معاذ بن عفراء ومعاذ بن عمرو بن الجَموح [٣]، وفي حديث أنس قال رسول الله ﷺ يوم بدر: «من ينظر ما فعل أبو جهل؟» فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضَرَبَه ابنا عفراء حتى بَرَدَ [٤] فأخذ بلحيته فقال: أنت أبا جهل، قال: وهل فوق رجل قتله قومه. أو قال «قتلتموه» [٥]، وفي حديث عبد الله بن مسعود - ﷺ - فقال: أدركت أبا جهل يوم بدر صريعاً، فقلت: أيْ عدو الله قد أخزاك الله؟

قال: أخزاني؟ من رجل قتلتموه، ومعي سيف لي، فجعلت أضربه ولا يحتك فيه شيء، ومعه سيف له جيد، فضربت يده فوقع السيف من يده فأخذته، ثم كشفت المغفر عن رأسه، فضربت عنقه ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال: «الله الذي لا إله إلا هو؟».

قلت: الله الذي لا إله إلا هو.

قال: فانطلق فاستثبت، فانطلقت وأنا أسعى مثل الطائر، ثم جئت وأنا أسعى مثل الطائر أضحك فأخبرته.

فقال رسول الله ﷺ: «انطلق» فانطلقت معه فأريته، فلما وقف عليه ﷺ قال: «هذا فرعون هذه الأمة» [٦].

كان الدافع من حرص الأنصاريين الشابين على قتل أبي جهل، ما سمعاه من أنه كان يسب رسول الله ﷺ، وهكذا تبلغ محبة شباب الأنصار لرسول ﷺ إلى بذل النفس في سبيل الانتقام ممن تعرض له بالأذى.

وما جرى بين عبد الله بن مسعود - ﷺ - وأبي جهل، وهو في الرمق الأخير من

---

(١) غمزني: قرصني.
(٢) أنشب: ألبث.
(٣) البخاري: فرض الخمس، باب من لم يُخَمِّس الأسلاب رقم (٣١٤١).
(٤) برد: قارب على الموت وكان في النزع الأخير.
(٥) البخاري: كتاب المغازي، باب «قتل أبي جهل» رقم (٣٩٦٣).
(٦) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٤٢).

الحوار، فيه عبرة بليغة، فهذا الطاغية الذي كان شديد الأذى للمسلمين في مكة قد وقع صريعاً بين أيدي من كان يؤذيهم.

ويشاء الله تعالى أن يكون الذي يقضي على آخر رمق من حياته هو أحد المستضعفين، ولقد كان أبو جهل مستكبراً جباراً حتى وهو صريع، وفي آخر لحظات حياته [١]، فقد جاء في رواية لابن إسحاق أنه قال لعبد الله بن مسعود لما أراد أن يحتزَّ رأسه: «لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعي الغنم» [٢].

«فالله تعالى لم يعجِّل لهذا الخبيث أبي جهل بضربات الأبطال من أشبال الأنصار، ولكنه أبقاه مصروعاً في حالة من الإدراك والوعي ـ بعد أن أصابته ضربات أشْفَتْ به على الهلاك الأبدي ـ ليريه بعين بصره ما بلغه من المهانة والذل، والخذلان على يد من كان يستضعفه ويؤذيه، ويضطهده بمكة ـ من رجال الرعيل الأول السابقين إلى مظلَّة الإيمان، وطهر العقيدة، والتعبُّد للّه بشرائعه التي أنزلها رحمة للعالمين ـ عبد الله بن مسعود ـ ﵁ ـ فيعلو على صدره، ويدوسه بقدميه، ويقبض على لحيته تحقيراً له، ويقرِّعه تقريعاً يبلغ من نفسه مجمع غروره واستكباره في الأرض، ويستل منه سيفه إمعاناً في البطش به فيقتله به... ويمعن في إغاظته بإخباره أن النصر عقد بناصية جند الله وكتيبة الإسلام، وأن شنار الهزيمة النكراء وعارها، وخزيها وخذلانها قد رزئت به كتائب الغرور الأجوف في حشود النفير الذي قاده هذا الكفور الخبيث...» [٣].

ب ـ مصرع أمية بن خلف:

قال عبد الرحمن بن عوف ـ ﵁ ـ: كاتبت أمية بن خلف كتاباً بأن يحفظني في صاغيتي [٤] بمكة، وأحفظه في صاغيته بالمدينة، فلما ذكرت (الرحمن) قال: لا أعرف الرحمن، كاتبني باسمك الذي كان في الجاهلية، فكاتبته عبدَ عمرو.

فلما كان في يوم بدر خرجت إلى جبل لأحرزه [٥] حين نام الناس، فأبصره بلال، فخرج حتى وقف على مجلس من الأنصار، فقال: أمية بن خلف! لا نجوتُ إن نجا أمية، فخرج معه فريق من الأنصار في آثارنا، فلما خشيت أن يلحقونا خلَّفت لهم ابنه لأشغلهم فقتلوه ثم أبوا حتى يَتْبَعونا ـ وكان رجلاً ثقيلاً ـ فلما أدركونا قلت له: ابرك، فبرك، فألقيت عليه نفسي لأمنعه،

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/١٥٨ ـ ١٦٠).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/٢٤٧).

(٣) انظر: محمد رسول الله، الصادق عرجون (٣/٤٣١، ٤٣٢).

(٤) الصاغية: صاغية الرجل ما يميل إليه، ويطلق على الأهل والمال.

(٥) أحرزه: أحميه.

فتخللوه [١] بالسيوف من تحتي حتى قتلوه، وأصاب أحدهم رجلي بسيفه، وكان عبد الرحمن بن عوف يرينا ذلك الأثر في ظهر قدمه [٢].

وفي رواية أخرى لعبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ قال: كان أمية بن خلف لي صديقاً بمكة، وكان اسمي عبد عمرو فتسميت حين أسلمت عبد الرحمن، ونحن بمكة، فكان يلقاني إذ نحن بمكة فيقول: يا عبد عمرو أرغبت عن اسم سماك أبوك؟ قال: فأقول: نعم.

قال: فإني لا أعرف الرحمن، فاجعل بيني وبينك شيئاً أدعوك به، أما أنت فلا تجيبني باسمك الأول، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف!

قال: وكان إذا دعاني يا عبد عمرو لم أجبه، قال: فقلت: يا أبا علي اجعل ما شئت، قال: فأنت عبد الإله، قال: قلت: نعم.

قال: فكنت إذا مررت به قال: يا عبد الإله فأجيبه فأتحدث معه، حتى إذا كان يوم بدر مررت به وهو واقف مع ابنه علي وهو آخذ بيده قال: ومعي أدراع قد استلبتها، فأنا أحملها، فلما رآني قال: يا عبد عمرو فلم أجبه، فقال: يا عبد الإله، فقلت: نعم، قال: هل لك فيَّ، فأنا خير لك من هذه الأدراع التي معك؟ قال: قلت: نعم ها للّه؟

قال: فطرحت الأدراع من يدي، وأخذت بيده وبيد ابنه، وهو يقول: ما رأيت كاليوم قطُّ، أما لكم حاجة في اللَّبن؟ ثم خرجت أمشي بهما، قال ابن هشام: يريد باللبن أن من أسرني افتديت منه بإبل كثيرة اللبن [٣].

ونلحظ من الروايات السابقة:

١ ـ ما جرى من بلال ـ رضي الله عنه ـ حينما رأى عدوه اللدود أمية بن خلف ـ الذي كان يسومه أقسى وأعنف أنواع العذاب في مكة ـ في يد عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ـ أسيراً صرخ بأعلى صوته «لا نجوتُ إن نجا».

إنه موقف من مواقف التشفي من أعداء الله، والتشفي من كبار الكفرة الفجار في الحياة الدنيا نعمة يفرِّج الله بها عن المكروبين من المؤمنين الذين ذاقوا الذل والهوان على أيدي أولئك الفجرة الطغاة. قال تعالى: ﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التوبة: ١٤ ـ ١٥].

---

(١) تجللوه: طعنوه وأصابوه.

(٢) البخاري: كتاب الوكالة، باب «إذا وَكَّل المسلم حربياً» رقم (٢٣٠١).

(٣) انظر: صحيح السيرة النبوية للعلي (ص ١٧٨)، وعزاه إلى سيرة ابن هشام (١/ ٦٣١) وقال: سنده صحيح، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث.

٢ ـ إن فيما جرى لأمية بن خلف من قتل مفزع درساً بليغاً للطغاة المتجبرين، وعبرة للمعتبرين الذين يغترون بقوتهم وينخدعون بجاههم ومكانتهم، فيعتدون على الضعفاء، ويسلبونهم حقوقهم، مآلهم إلى عاقبة سيئة ووخيمة في الآخرة، وقد يمكن الله للضعفاء منهم في الدنيا قبل الآخرة، كما حدث لأمية بن خلف وأضرابه من طغاة الكفر [(١)]، قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القَصَص: ٥] .

٣ ـ وفي قول عبد الرحمن بن عوف: «يرحم الله بلالاً، ذهبت أدراعي وفجعني بأسيرَيَّ» [(٢)] مع ما جرى من بلال من معارضة وانتزاع الأسيرين من يده بقوة الأنصار الذين استنجد بهم دليل على قوة الرباط الأخوي بين الصحابة الكرام [(٣)].

٤ ـ موقف لأم صفوان بن أمية: قيل لأم صفوان بن أمية بعد إسلامها، وقد نظرت إلى الحباب بن المنذر بمكة: هذا الذي قطع رجل علي بن أمية يوم بدر، قالت: دعونا من ذكر من قتل على الشرك! قد أهان الله علياً بضربة الحباب بن المنذر، وأكرم الله الحباب بضربة علياً، قد كان على الإسلام حين خرج من هاهنا، فقتل على غير ذلك [(٤)]، وهذا الموقف يدل على قوة إيمانها، ورسوخ يقينها حيث اتضحت لها عقيدة الولاء والبراء، فأصبحت تحب المسلمين وإن كانوا من غير قبيلتها وتكره الكافرين وإن كانوا من أبنائها [(٤)].

وقولها عن ابنها علي: «قد كان على الإسلام حين خرج من ههنا فقتل على غير ذلك» تعني أنه كان ممن عُرف عنهم الإسلام بمكة وخرجوا مع قومهم يوم بدر مكرهين، فلما التقى الصفان فتنوا حينما رأوا قلة المسلمين فقالوا: قد غر هؤلاء دينهم [(٥)]، فنزل فيهم قول الله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩] .

جـ ـ مصرع عُبَيْدة بن سعيد بن العاص على يد الزبير:

قال الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ: لقيت يوم بدر عُبَيْدة بن سعيد بن العاص، وهو مدجج [(٦)] لا يُرى منه إلا عيناه، وهو يُكْنَى أبو [(٧)] ذات الكرش، فقال: أنا أبو ذات الكَرِش، فحملت عليه

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٥٢، ١٥٣).
(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٤٤).
(٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٥٣).
(٤) المصدر نفسه (٤/ ١٥٤).
(٥) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ٢١).
(٦) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٥٤)
(٧) كذا لفظ «أبو» ثابت في متن النسخة الأميرية وفي هامشه «أبا» صحت عند بعض رواة صحيح البخاري، =

بالعنزة فطعنته في عينه فمات، قال هشام: فأُخبرت أن الزبير قال: لقد وضعت رجلي عليه، ثم تمطأت، فكان الجهد أن نزعتها، وقد انثنى طرفاها.

قال عروة: فسأله إياها رسول الله ﷺ فأعطاه، فلما قُبض رسول الله ﷺ أخذها، ثم طلبها أبو بكر فأعطاه فلما قبض أبو بكر سألها إياه عمر، فأعطاه إياها، فلما قبض عمر أخذها، ثم طلبها عثمان منه، فأعطاه إياها، فلما قتل عثمان وقعت عند آل عليٍّ، فطلبها عبد الله بن الزبير، فكانت عنده حتى قُتل [١].

(هذا الخبر يصوّر لنا دقة الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ في إصابة الهدف، حيث استطاع أن يضع الحربة في عين ذلك الرجل مع ضيق ذلك المكان، وكونه قد وزع طاقته بين الهجوم والدفاع، فلقد كانت إصابة ذلك الرجل بعيدة جداً لكونه قد حمى جسمه بالحديد الواقي، لكن الزبير استطاع إصابة إحدى عينيه، فكانت بها نهايته، ولقد كانت الإصابة شديدة العمق مما يدل على قوة الزبير الجسدية، إضافة إلى دقته ومهارته في إصابة الهدف) [٢].

د ـ مصرع الأسود المخزومي:

قال ابن إسحاق: وقد خر الأسود المخزومي، وكان رجلاً شرساً سيء الخلق، فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنَّه، أو لأموتن دونه، فلما خرج، خرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فلما التقيا ضربه حمزة فأطنَّ [٣] قدمه بنصف ساقه، وهو دون الحوض فوقع على ظهره تَشْخُب [٤] رجله دماً نحو أصحابه، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، يريد أن يُبر يمينه، وأتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض [٥].

وقد سأل أمية بن خلف عبد الرحمن بن عوف عن الرجل المُعلم بريشة نعامة في صدره؟ فأجابه عبد الرحمن: ذاك حمزة بن عبد المطلب، قال أمية: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل [٦]، وهذه شهادة من أحد زعماء الكفر، وهذا يعني أنه ـ رضي الله عنه ـ قد أثخن في جيش الأعداء قتلاً وتشريداً [٧].

= وفي نسخة فتح الباري (المطبعة السلفية) «أبا».

(١) انظر: صحيح البخاري، المغازي رقم (٣٩٩٨).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٦٣).

(٣) أطن: أطار.

(٤) تشخب: تسيل بصوت.

(٥) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٣٧).

(٦) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٥١).

(٧) المصدر نفسه، (٤/ ١٥٢).

وكان هذا أول من قُتل من المشركين بيد أسد الله تعالى حمزة بن عبد المطلب - رضي الله عنه - فقد جاء هذا اللئيم الشرس يتحدى المسلمين، فتصدى له بطل الإسلام حمزة فقضى عليه ولقَّن أمثاله من الحاقدين المتكبرين درساً في الصميم [(١)].

ثانياً: من مشاهد العظمة:

أ ـ استشهاد حارثة بن سُراقة:

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام، فجاءت أمه إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يكن في الجنة أصبرْ وأحتسبْ، وإن تك الأخرى ترى ما أصنع؟ فقال: «ويحك، أَوَهَبِلْتِ، أَوَجَنَّةٌ واحدةٌ هي؟ إنها جنانٌ كثيرةٌ، وإنه في جنة الفردوس» [(٢)]، وفي رواية: «يا أم حارثة إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى» [(٣)].

ب ـ استشهاد عوف بن الحارث:

قال ابن إسحاق: حدثني عاصم بن عمرو بن قتادة: أن عوف بن الحارث وهو ابن عفراء [(٤)] قال: يا رسول الله ما يضحك الرب من عبده؟ قال: «غمْسة يده في العدو حاسراً» [(٥)]فنزع درعاً كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل [(٦)].

وهذا الخبر يدل على قوة ارتباط الصحابة الكرام بالآخرة وحرصهم على رضوان الله تعالى، ولذلك انطلق عوف بن الحارث ـ رضي الله عنه ـ كالسهم وهو حاسر غير متدرع، يثخن في الأعداء حتى أكرمه الله بالشهادة، لقد تغيّرت مفاهيم المجتمع الجديد، وتعلّق أفراده بالآخرة، وأصبحوا حريصين على مرضاته بعد أن كان جل همهم أن تتحدث النساء عن بطولاتهم، ويرضى سيد القبيلة عنهم، وتنشد الأشعار في شجاعتهم [(٧)].

جـ ـ استشهاد سعد بن خيثمة ثم أبيه، رضي الله عنهما:

قال الحافظ ابن حجر: قال موسى بن عقبة، عن ابن شهاب: استهم يوم بدر سعد بن خيثمة وأبوه فخرج سهم سعد، فقال له أبوه: يا بني آثرني اليوم، فقال سعد: يا أبت لو كان

---

(١) المصدر السابق نفسه، (٤/ ١٢١).
(٢) البخاري: المغازي، باب فضل من شهد بدراً، رقم (٣٩٨٢).
(٣) الأساس في السنة وفقهها، السيرة النبوية (١/ ٤٧٥).
(٤) عفراء بنت عبيد بن ثعلبة النَّجّاريّة شارك أولادها السبعة في غزوة بدر.
(٥) حاسراً: غير لابس الدرع.
(٦) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٤٥) وانظر: الإصابة لابن حجر، ترجمة عوف بن الحارث برقم (٦١٠٧).
(٧) انظر: التربية القيادية (٢/ ٣١).

غير الجنة فعلت، فخرج سعد إلى بدر فقتل بها، وقتل أبوه خيثمة يوم أحد [(١)].

وهذا الخبر يعطي صورة مشرّفة عن بيوتات الصحابة، في تنافسهم وتسابقهم على الجهاد في سبيل الله تعالى، فهذا سعد بن خيثمة ووالده لا يستطيعان الخروج معاً لاحتياج أسرتهما، وعملهما لبقاء أحدهما، فلم يتنازل أحدهما عن الخروج رغبة في نيل الشهادة، حتى اضطرا إلى الاقتراع بينهما، فكان الخروج من نصيب سعد ـ ﵄ ـ وكان الابن في غاية الأدب مع والده، ولكنه كان مشتاقاً إلى الجنة، فأجاب بهذا الجواب البليغ: «يا أبت لو كان غير الجنة فعلت» [(٢)].

د ـ دعاء النبي ﷺ لأبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة:

عن عائشة ـ ﵂ ـ في حديثها عن طرح قتلى قريش في القليب بعد معركة بدر: قالت: فلما أمر بهم فسحبوا عرف في وجه أبي حذيفة بن عتبة الكراهية، وأبوه يسحب إلى القليب، فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا حذيفة والله لكأنه ساءك ما كان في أبيك؟» فقال: والله يا رسول الله ما شككت في الله وفي رسول الله، ولكن أبي كان حليماً سديداً ذا رأي، فكنت أرجو أن لا يموت حتى يهديه الله ﷻ إلى الإسلام، فلما رأيت أن قد فات ذلك، ووقع حيث وقع أحزنني ذلك، قال: فدعا له رسول الله ﷺ بخير [(٣)].

إن هذا الموقف يبيّن قوة التجاذب بين الإيمان في ذروة اليقين، والعاطفة البشرية في قمة الوفاء النبوي، فالإيمان لا يميت المشاعر البشرية، ولكنه يهذبها، فيحوّلها من عصبية جاهلية إلى وفاء لا ينكره المنهج الرباني في تطبيقه العملي، فإيمان أبي حذيفة ـ ﵁ ـ إيمان لا تهزه زلازل الأحداث، فهو إذ يرى أباه يقتل في أشراف قريش كافراً، ويُلقى معهم في قليب بدر؛ يأخذه أسف العاطفة البشرية وفاء لهذا الأب، ويظل أبو حذيفة مزمّلاً بإيمانه الراسخ رسوخ الأطواد الشامخات، فلا يزيد على أن يعروه الاكتئاب على ما فات أباه من خير يرجوه له بالهداية إلى الإسلام [(٤)]، ولهذا المقصد النبيل الذي أثار حزن أبي حذيفة دعا له رسول الله ﷺ بخير [(٥)].

هـ ـ عمير بن أبي وقاص:

لما سار رسول الله ﷺ إلى بدر وعرض عليه جيش بدر ردَّ عمير بن أبي وقاص؛ فبكى

(١) الإصابة (٢/ ٢٣، ٢٤)، رقم (٣١١٨).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ٨٧).

(٣) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٢٥١، ٢٥٢) ـ أخرجه الحاكم (٣/ ٢٢٤) وقال صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٤) انظر: محمد رسول الله (٣/ ٤٤٦).

(٥) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٧٤).

عمير فأجازه، فعقد عليه حمائل سيفه، ولقد كان عمير يتوارى حتى لا يراه رسول الله ﷺ فقال سعد: رأيت أخي عمير بن أبي وقاص قبل أن يعرضنا رسول الله ﷺ يوم بدر يتوارى، فقلت: مالك يا أخي؟ قال: إني أخاف أن يراني رسول الله ﷺ فيستصغرني ويردني، وأنا أحب الخروج لعلَّ الله أن يرزقني الشهادة (١)، وقد استشهد بالفعل.

المبحث الخامس

الخلاف في الأنفال والأسرى

أولاً: الخلاف في الأنفال:

عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال: خرجنا مع النبي ﷺ فشهدت معه بدراً، فالتقى الناس فهزم الله تبارك وتعالى العدو، فانطلقتْ طائفة في آثارهم يَهزمون ويقتلون، وأكبَّت طائفة على العسكر يَحْوُونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غِرَّة، حتى إذا كان الليل، وفَاءَ الناسُ بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حَوَيْناها وجمعناها، فليس لأحدٍ فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منا، نحن نَفَيْنا عنها العدو وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: لستم بأحق بها منا، نحن أحدقنا برسول الله ﷺ، وخفنا أن يصيبَ العدوُّ منه غِرَّة واشتغلنا به، فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١] فقسمها رسول الله ﷺ على فَواق بين المسلمين (٢).

وفي رواية: قال عبادة بن الصامت عن الأنفال حين سُئل عن سورة الأنفال: فينا، معشر أصحاب بدرٍ، نزلت حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقُنا، فانتزعه الله تبارك وتعالى من أيدينا، وجعله إلى رسول الله ﷺ، فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بَوَاء، يقول: على السواء (٣).

لقد خلّد الله سبحانه وتعالى ذكرى غزوة بدر في سورة الأنفال، وجاءت مفصّلة عن أحداثها وأسبابها ونتائجها، وتعرّضت الآيات الكريمة لعلاج النفس البشرية، وتربيتها على معاني الإيمان العميق، والتكوين الدقيق، فبدأت السورة بتبيان حكم أثر من آثار القتال وهو الغنائم، فبيّنت أن هذه الغنائم للّه وللرسول، فالله هو مالك كل شيء، ورسوله هو خليفته، ثم أمر الله

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس، (ص ٣١٧)، نقل عن صفة الصفوة (١/ ٢٩٤)، والمستدرك (٣/ ١٨٨)، والإصابة (٣/ ٣٥).

(٢) مسند الإمام أحمد (٥/ ٣٢٤)، واللفظ له ورقمه (٢٢٧٦٢) وقال محققو ط/ الرسالة: حسن لغيره. تفسير ابن كثير (٢/ ٢٨٣).

(٣) مسند الإمام أحمد (٥/ ٣٢٢)، ورقمه (٢٢٧٤٧)، وقال محققو ط/ الرسالة: حسن لغيره.

المؤمنين ثلاثة أوامر: بالتقوى، وإصلاح ذات البين، والطاعة للّه والرسول ﷺ. وهي أوامر مهمة جداً في موضوع الجهاد، فالجهاد إذا لم ينشأ عن تقوى فليس جهاداً، والجهاد يحتاج إلى وحدة صف، ومن ثم فلا بدّ من إصلاح ذات البين، والانضباط هو الأساس في الجهاد، إذ لا جهاد بلا انضباط، ثم بيّن الله ﷻ أن الطاعة للّه ولرسوله ﷺ علامة الإيمان.

ثم حدّد الله ﷻ صفات المؤمنين الحقيقيين، وهذا الوصف والتحديد مهمان في موضوع الجهاد الإسلامي، لأن الإيمان الحقيقي هو الذي يقوم به الجهاد الإسلامي، لقد حدّد الله ﷻ صفات المؤمنين بأنهم إذا ذكر الله فزعت قلوبهم وخافت وفرقت، وإذا قرىء عليهم القرآن ازداد إيمانهم ونما، والصفة الثالثة: هي التوكل على الله، فلا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الخلق وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب، والصفة الرابعة: إقامة الصلاة والمحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها، ومن ذلك إسباغ الطهور فيها، وتمام ركوعها وسجودها، وتلاوة القرآن فيها، والتشهد والصلاة على النبي ﷺ. والصفة الخامسة: الإنفاق مما رزقهم الله، وذلك يشمل إخراج الزكاة وسائرالحقوق للعباد من واجب ومستحب، والخلق كلهم عباد الله فأحبُّهم إلى الله أنفعهم لخلقه، ثم بيّن الله ﷻ أن المتصفين بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان، وأن لهم عند الله منازل ومقامات ودرجات في الجنات، وأن الله يغفر لهم السيئات، ويشكر الحسنات، وبهذا تنتهي مقدمة السورة بعد أن رفعت الهمم لكل لوازم الجهاد، ونفت كل عوامل الخذلان من اختلاف على غنائم، أو خلاف بسبب شيء، داعية إلى الطاعة، والارتفاع إلى منازل الإيمان الكامل [1]، قال تعالى:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ① إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ② ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ③ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ١ ـ ٤].

يقول الأستاذ محمد الأمين المصري: لم تذكر الآيات شيئاً من أعمال المؤمنين في بدر، ولكن ذكرت عتاباً أليماً موجعاً، يحمل المؤمنين على الرجوع إلى أنفسهم والاستحياء من ربهم، وهناك نقاط أرسلت الآيات النقاط عليها وبيّنت نواحي الضعف فيه بياناً جليًّا قويًّا، بتصوير ما في النفوس وصفاً دقيقاً رائعاً تشاهد العين فيه الحركات والخلجات، وكل ذلك من شأنه أن ينبه ضمير المؤمن ليلمس المسافة بينه وبين درجات الإيمان، التي يهفو قلبه للوصول إليها. ولقد كانت الآيات من تربية الحكيم العليم. ويشعر الذوق السليم هاهنا روعة الأسلوب في عرض

(١) انظر: الأساس في التفسير (٤/٢١١٣، ٢١١٤).

العتاب بغير عتاب، ولكنه تصوير ما في النفوس تصويراً يوقن معه العادي من الناس أنه ما كان لمؤمن صحيح الإيمان أن يتّصف بها، ولذلك اقترنت الآيات بتقديم خصائص الإيمان العالية وميزاته الرفيعة التي تصوّر الفجوة البعيدة بين المؤمن وبين أي إسفاف: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤] .

ما ذكرت الآيات عتاباً ولكنها ذكرت واقعاً، وكان ذكر الواقع أبلغ من كل عتاب.

لقد استجاب الصحابة الكرام لهذا التوجيه الرباني، ونزلت الآيات تبيّن لرسول الله ﷺ كيف يتصرّف في الأنفال.

بعد أن أصبحت الغنائم للّه ولرسوله، بيَّن المولى ﷻ كيف توزّع هذه الغنائم؟ قال تعالى: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١] .

وهذا بعد ما طهرت قلوبهم من الأخلاط، وأخلصت إلى علام الغيوب في الطاعة، وتمثّلت الآيات؛ فتحققت بمعنى العبودية الخالصة للّه، وهذا الحكم صريح في أن أربعة أخماس ما غنموه مقسوم بينهم، والخمس للّه ولرسوله، وهذا الخمس نفسه مردود فيهم أيضاً، وموزّع على الجهات المذكورة ـ كما ثبت بالسُّنَّة.

إن التوجيه التربوي في إرجاء إنزال السؤال عن الغنائم، يشير إلى أن الأحكام الشرعية ينبغي أن يهيأ لها الجو النفسي الروحي المناسب، لتحتل مكانها اللائق في العقل والضمير، فتثبت وتتمكن، وتؤتي أطيب النتائج، إذ يتجلى فيها أكمل الحلول. وهكذا صرف المولى ـ جلّ شأنه ـ عباده المسلمين عن التعلق بالغير أولاً، وبالغنائم ثانياً، ليكونوا له من المخلصين الجديرين بنصره، وإتمام نعمته، فلما تفرغوا للخالق وأخلصوا في الجهاد، أكرمهم بالنصر من لدنه، وأسبغ عليهم من فضله بأكثر مما كانوا يودون [١]، فعن عبد الله بن عمرو قال: خرج رسول الله ﷺ يوم بدر في ثلاثمائة وخمسة عشر رجلاً من أصحابه، فلما انتهى إليها قال: «اللهم إنهم حفاة فاحملهم، اللهم إنهم عراة فاكْسُهُم اللهم إنهم جياع فأشبعهم»، ففتح الله له يوم بدر، فانقلبوا حين انقلبوا، وما منهم رجل إلا وقد رجع بجمل أو جملين، واكتَسَوا وشبعوا [٢].

---

(١) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة، (ص ٦١، ٦٢).

(٢) سنن أبي داود (٥/ ٥٢٥) حسنه الألباني، صحيح أبي داود ورقمه (٢٧٤٧).

ومن عدل النبي ﷺ في تقسيم الغنائم إعطاؤه من هذه الغنيمة من تخلف بأمر رسول الله، لمهام أوكلها إليهم، فضرب لهم بسهمهم من الغنيمة وبأجرهم، فكانوا كمن حضرها [(١)]، فكان ﷺ يراعي ظروف الجنود التي تمنعهم من المشاركة في القتال، لأن الله تعالى لم يكلف عباده شيئاً فوق طاقاتهم. قال تعالى:

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٦] .

ولذلك كان رسول الله ﷺ لا يكلّف المسلمين فوق طاقتهم، سواء كان ذلك في السلم أو الحرب، وفي غزوة بدر أعفى النبي ﷺ بعض الصحابة؛ لأن ظروفهم الأسرية تتطلب منهم القيام عليها ورعايتها، فقد أعفى عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ من الخروج يوم بدر؛ لأن زوجته رقية كانت مريضة، وبحاجة إلى من يرعى شؤونها، روى البخاري في صحيحه أن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أخبر عن سبب تغيب عثمان ـ رضي الله عنه ـ في غزوة بدر، فقال ـ رضي الله عنه ـ: وأما تَغَيُّبُه عن بدر: فإنه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ، وكانت مريضة، فقال له رسول الله ﷺ: «إن لك أجر رجل ممن شهد بدراً وسهمَه...» [(٢)].

وأمر ﷺ أبا أمامة بالبقاء عند أمه؛ حيث كانت مريضة، وهي بحاجة إليه، فعن أبي أمامة بن ثعلبة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ أخبرهم بالخروج إلى بدر وأجمع الخروج معه، فقال له خاله أبو بردة بن نيَّار: أقِمْ على أمك يا ابن أختي. فقال له أبو أمامة: بل أنت فأقم على أختك، فذكرا ذلك للنبي ﷺ فأمر أبا أمامة بالمقام على أمه، وخرج بأبي بردة، فقدم النبي ﷺ وقد توفيت فصلى عليها [(٣)]. إن هذه الأخلاق الرفيعة ومراعاة شعور الجنود، وأحوالهم العائلية؛ تولّد قوة ترابط بين القيادة والجنود، وتدخل تحت مفهوم فقه التمكين، وقد مارسه الرسول ﷺ في أعلى صوره.

ومن الصحابة الذين كانت لهم مهمات خاصة أو أصيبوا أثناء الطريق فردّهم الرسول ﷺ:

١ ـ أبو لبابة: استخلفه على المدينة.

٢ ـ عاصم بن عدي: أرسله ﷺ في مهمة لأهل العالية في المدينة.

٣ ـ الحارث بن حاطب: أرسله ﷺ في مهمة إلى بني عمرو بن عوف.

٤ ـ الحارث بن الصِمَّة: وقع أثناء الطريق فكسر فردَّ.

٥ ـ خوَّات بن جبير: أصابه في الطريق حجر في ساقه فردّه من الصفراء [(٤)].

---

(١) انظر: معين السيرة، (ص ٢١٤).

(٢) البخاري: كتاب الفضائل، باب «مناقب عثمان» رقم (٣٦٩٩).

(٣) انظر: الطبراني في الكبير ورجاله ثقات. انظر: مجمع الزوائد (٣/ ٣١).

(٤) انظر: معين السيرة، (ص ٢١٥).

وكذلك أعطى لورثة الشهداء وذويهم نصيبهم من الغنائم، وبذلك كان للإسلام السبق في تكريم الشهداء ورعاية أبنائهم وأسرهم من قرابة أربعة عشر قرناً [١].

ثانياً: الأسرى:

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: فلما أسروا الأسارى، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «ما ترون في هؤلاء الأسارى؟» فقال أبو بكر: يا نبي الله هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب؟» قلت: لا والله يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكنّي أرى أن تمكنّا، فنضرب أعناقهم، فتمكن عليًّا من عَقِيلٍ فيضرب عنقه، وتمكنّي من فلان (نسيباً لعمر) فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فَهَوَى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يَهْوِ ما قلت، فما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدَين يبكيان، قلت: يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبُك، فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما؟ فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عَرَضَ عليّ أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عُرِضَ عليّ عذابُهم أدنى من هذه الشجرة» ـ شجرة قريبة من نبي الله ﷺ ـ وأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ [الأنفال: ٦٧] إلى قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا...﴾ [الأنفال: ٦٩] فأحل الله الغنيمة لهم [٢]. وفي رواية عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: لما كان يوم بدر، قال رسول الله ﷺ: «ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟» قال: فقال أبو بكر: يا رسول الله قومُك وأهلك، استبقهم واستأْنِ بهم، لعلّ الله أن يتوب عليهم. قال: وقال عمر: يا رسول الله أخرجوك وكذّبوك، فاضرب أعناقهم، قال: وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله انظر وادياً كثير الحطب، فأدخلهم فيه ثم أضرِم عليهم ناراً، قال: فقال العباسُ: قطعت رحمك، قال: فدخل رسول الله ﷺ ولم يرد عليهم شيئاً، قال: فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة، قال: فخرج رسول الله ﷺ فقال: «إن الله لَيُلينَ قلوب رجالٍ فيه، حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله لَيَشُدُّ قلوب رجال فيه، حتى تكون أشدَّ من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام، قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، وإن مثلك يا عمر كمثل نوح، قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]. وإن مثلك يا عمر كمثل موسى، قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]. «أنتم عالة فلا يَنْفَلِتَنَّ منهم أحد إلا بفداء، أو ضربة عنق».

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/١٧٦).

(٢) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب «الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم» (٣/١٧٦٣).

قال عبد الله بن مسعود: فقلت: يا رسول الله إلا سُهيل بن بيضاء، فإني قد سمعته يذكر الإسلام، قال: فسكت، قال: فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع عليّ حجارة من السماء في ذلك اليوم حتى قال: «إلا سهيل بن بيضاء» قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: الآية ٦٧] الآية [(١)].

وهذه الآية تضع قاعدة هامة في بناء الدولة حينما تكون في مرحلة التكوين والإعداد، وكيف ينبغي ألا تظهر بمظهر اللين، حين تُرهَب من قِبَلِ أعدائها، وفي سبيل هذه الكلية يطرح الاهتمام بالجزئيات حتى ولو كانت الحاجة ملحة إليها [(٢)].

وكان سعد بن معاذ ـ ﷺ ـ لما شرع الصحابة في أسر المشركين كره ذلك، ورأى رسول الله ﷺ الكراهية في وجه سعد لما يصنع الناس، فقال له رسول الله: «والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم» قال: أجل والله يا رسول الله، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان بالقتل أحب إليّ من استبقاء الرجل [(٣)].

كانت معاملة النبي ﷺ للأسرى تحفها الرحمة، والعدل، والحزم والأهداف الدعوية، ولذلك تعدّدت أساليبه، وتنوّعت طرق تعامله عليه الصلاة والسلام، فهناك من قتله، وبعضهم قبل فيهم الفداء، والبعض الآخر منّ عليهم، وآخرون اشترط عليهم تعليم عشرة من أبناء المسلمين مقابل المنِّ عليهم.

أ ـ حفظ رسول الله ﷺ لجوار المُطْعم بن عديّ:

قال رسول الله ﷺ في أسارى بدر: «لو كان مُطْعِم بن عدي حيًّا، ثم كلّمني في هؤلاء النَّتْنَى لأطلقتهم له» [(٤)].

وهذا الحديث تعبير عن الوفاء والاعتراف بالجميل، فقد كان للمطعم مواقف تذكر بخير، فهو الذي دخل الرسول ﷺ في جواره، حينما عاد من الطائف، كما كان من أشد القائمين على نقض الصحيفة يوم حُصِرَ المسلمون وبنو هاشم [(٥)].

وهذا يدل على قمة الوفاء لمواقف الرجال ولو كانوا مشركين [(٦)].

---

(١) مسند الإمام أحمد (١/ ٣٨٣، ٣٨٤)، رقم (٣٦٣٢) وانظر كلام الشيخ أحمد شاكر عليه، تفسير ابن كثير (٢/ ٣٢٥) وأورده صاحب «مرويات غزوة بدر» (ص ٢٨٩ ـ ٢٩١) فانظر كلامه عليه في هامشه.

(٢) انظر: معين السيرة، (ص ٢٠٩).

(٣) انظر: التربية الجهادية للغضبان (١/ ١٤١).

(٤) أبو داود في الجهاد، باب «المن على الأسير» رقم (٢٦٨٩)، وصححه الألباني في موضعه.

(٥) انظر: معين السيرة، (ص ٢٠٨).

(٦) انظر: التربية القيادية (٣/ ٥٤).

ب ـ مقتل عقبة بن أبي مُعَيْط والنضر بن الحارث:

وإذا كان هذا الوفاء لرجل مثل المطعم بن عدي، فلا بدّ من الحزم مع مجرمي الحرب، ورؤوس الفتنة من أمثال: عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث فقد كانا من أكبر دعاة الحرب ضد الإسلام، والمتربصين بالمسلمين الدوائر، فبقاؤهما يعد مصدر خطر كبير على الإسلام، ولا سيما في تلك الظروف الحاسمة التي تمر بها الدعوة الإسلامية، فلو أطلق سراحهما لما تورّعا عن سلوك أي طريق فيه كيد للإسلام وأهله، فَقَتْلُهُمَا في هذا الظرف، ضرورة تقتضيها المصلحة العامة لدعوة الإسلام الفتية [(١)]، ولذلك أمر رسول الله ﷺ بقتلهما عندما وصل إلى الصفراء [(٢)]، أثناء رجوعه للمدينة، فلما سمع عقبة بن أبي معيط بأمر قتله قال: يا ويلي علام أُقتل يا معشر قريش من بين ما هاهنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «العداوتك لله ولرسوله» قال: يا محمد مَنُّك أفضل، فاجعلني كرجل من قومي إن قتلتهم قتلتني، وإن مننت عليهم مننت عليَّ، وإن أخذت منهم الفداء كنت كأحدهم، يا محمد من للصبية؟ قال رسول الله ﷺ: «النار، قدمه يا عاصم فاضرب عنقه» [(٣)]، فقدمه عاصم فضرب عنقه [(٤)].

وأما النضر بن الحارث فقد كان من شياطين قريش، وممن يؤذي رسول الله ﷺ وينصب له العداوة وكان قد قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم واسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً فذكَّر فيه بالله، وحذّر قومه ما أصاب قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه في مجلسه، إذا قام، ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه، فهلم إليَّ فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثاً مني؟ [(٥)].

إن هذا الرجل المتعالي على الله والمتألي عليه، والذي يزعم أنه سينزل أحسن مما أنزل الله، والذي يزعم أنه أحسن حديثاً من محمد؛ لا بدّ لمثل من يمثل هذا التيار ـ وقد أصبح بين يدي رسول رب العالمين ـ لا بدّ أن يُثَأرَ للّه ولرسوله منه، ومن أجل هذا لم يدخله رسول الله ﷺ ضمن نطاق الاستشارة [(٦)]، وأمر رسول الله ﷺ بقتله، فقتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه [(٧)].

---

(١) انظر: غزوة بدر الكبرى، محمد أحمد باشيل، (ص ١٦٢) بتصرف.

(٢) الصَّفراء: واد كثير النخل والزرع والخير.

(٣) انظر: مجمع الزوائد (٦/ ٨٩)، قال فيه: رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله رجال الصحيح، ونصه في مجمع الزوائد عن ابن عباس: .. وقتل عقبة بن أبي معيط قبل الفداء، قام إليه علي بن أبي طالب فقتله صبرا، قال: من للصِبيَة يا رسول الله؟ قال: «النار».

(٤) انظر: التربية القيادية (٣/ ٦٠).

(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤٣٩، ٤٤٠).

(٦) انظر: التربية القيادية (٣/ ٥٧).

(٧) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٥٥).

وبمقتل هذين المجرمين؛ تعلم المسلمون أن بعض الطغاة العتاة المعادين لا مجال للتساهل معهم، فهم زعماء الشر وقادة الضلال، فلا هوادة معهم، لأنهم تجاوزوا حد العفو والصفح (١) بأعمالهم الشنيعة، فقد كان هذان الرجلان من شر عباد الله، وأكثرهم كفراً وعناداً وبغياً وحسداً وهجاءً للإسلام وأهله (٢).

جـ - الوصية بإكرام الأسرى جانب من المنهج النبوي الكريم:

ولما رجع ﷺ إلى المدينة فرق الأسرى بين أصحابه، وقال لهم: «استوصوا بهم خيراً» (٣) وبهذه التوصية النبوية الكريمة ظهر تحقيق قول الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨] . فهذا أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير يحدّثنا عما رأى، قال: كنت في الأسرى يوم بدر فقال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالأسارى خيراً» وكنت في نفر من الأنصار، فكانوا إذا قدّموا غداءهم وعشاءهم أكلوا التمر، وأطعموني البُرَّ لوصية رسول الله ﷺ (٤).

وهذا أبو العاص بن الربيع يحدّثنا قال: كنت في رهط من الأنصار جزاهم الله خيراً، كنا إذا تعشينا أو تغدّينا آثروني بالخبز، وأكلوا التمر، والخبز معهم قليل، والتمر زادهم، حتى إن الرجل لتقع في يده كسرة فيدفعها إليّ، وكان الوليد بن المغيرة يقول مثل ذلك ويزيد. وكانوا يحملوننا ويمشون (٥).

كان هذا الخلق الرحيم الذي وضع أساسه القرآن الكريم في ثنائه على المؤمنين، وذكَّر به النبي ﷺ أصحابه؛ فاتخذوه خُلقاً وكان لهم طبيعة، قد أثر في إسراع مجموعة من أشراف الأسرى وأفاضلهم إلى الإسلام، فأسلم أبو عزيز عقيب بدر، بُعيد وصول الأسرى إلى المدينة، وتنفيذ وصيّة رسول الله ﷺ، وأسلم معه السائب بن عبيد (٦) بعد أن فدى نفسه، فقد سرت دعوة الإسلام إلى قلوبهم وطهرت نفوسهم، وعاد الأسرى إلى بلادهم وأهليهم، يتحدثون عن محمد ﷺ، ومكارم أخلاقه، وعن محبته وسماحته، وعن دعوته وما فيها من البر والتقوى، والإصلاح والخير (٧)، إن هذه المعاملة الكريمة للأسرى شاهد على سمو الإسلام في المجال الأخلاقي، حيث نال أعداء الإسلام من معاملة الصحابة أعلى درجات مكارم الأخلاق، التي

(١) انظر: التربية القيادية (٣/ ٦٠).

(٢) انظر: البداية ولنهاية (٣/ ٣٠٦).

(٣) المصدر نفسه، (٣/ ٣٠٧).

(٤) مجمع الزوائد (٦/ ٨٦)، وقال: رواه الطبراني في الصغير والكبير وإسناده حسن.

(٥) انظر: المغازي للواقدي (١/ ١١٩).

(٦) انظر: محمد رسول الله، محمد الصادق عرجون (٣/ ٤٧٤).

(٧) انظر: محمد رسول الله، عرجون (٣/ ٤٧٣).

تتمثل في خلق الإيثار [١].

د ـ فداء العباس عم النبي ﷺ:

بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ في فداء أسراهم، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا، وقال العباس: يا رسول الله قد كنت مسلماً، فقال رسول الله ﷺ: «الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك، وأما ظاهرك فقد كان علينا، فاقتد نفسك، وابني أخويك نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وعقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب، وحليفك عتبة بن عمرو أخي بن الحارث بن فهر» قال: ما ذاك عندي يا رسول الله. قال: «فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل؟ فقلت لها: إن أصبت في سفري هذا، فهذا المال الذي دفنته لبني الفضل وعبد الله وقثم». قال: والله يا رسول الله إني لأعلم أنك رسول الله إن هذا الشيء ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل، فاحسب لي يا رسول الله ما أصبتم مني عشرين أوقية من مال كان معي. فقال رسول الله ﷺ: «ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك» ففدى نفسه وابنى أخويه وحليفه فأنزل الله ﷻ فيه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠، ٧١].

قال العباس: فأعطاني الله مكان العشرين أوقية في الإسلام عشرين عبداً كلهم في يده مال يضرب به مع ما أرجو من مغفرة الله ﷻ [٢].

هذا والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهذه الآية الكريمة وإن كانت نزلت في العباس إلا أنها عامة في جميع الأسرى [٣].

استأذن بعض الأنصار رسول الله ﷺ فقالوا: ائذن لنا فلنترك لابن أختنا العباس فداءه. فقال: «والله لا تذرون منه درهماً» [٤] أي لا تتركوا للعباس من الفداء شيئاً، ويظهر أدب الأنصار مع رسول الله ﷺ في قولهم لرسول الله: ابن أختنا [٥]، لتكون المنة عليهم في إطلاقه، بخلاف لو قالوا: «عمّك» لكانت المنة عليه ﷺ، وهذا من قوة الذكاء وحسن الأدب في الخطاب، وإنما

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي الحميدي (٤/ ١٧٥، ١٧٦).

(٢) انظر: أخرج الإمام أحمد قريباً من هذه الألفاظ برقم (٣٣١٠) ـ جـ/ ٣٥٣. وقال محققو ط/ الرسالة: حسن، . . . وأوردوا رواية أخرجها الحاكم (٣/ ٣٢٤)، وعنه البيهقي في السنن (٦/ ٣٢٢) وهي أقرب الألفاظ لهذه الرواية، وقالوا: وهذا إسناد حسن.

(٣) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول ﷺ (١/ ١٣٢).

(٤) فتح الباري(٧/ ٣٢١)، نقلاً عن المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٣٥).

(٥) لأن جدة العباس أم عبد المطلب من بني النجار من يثرب.

امتنع النبي ﷺ عن إجابتهم لئلا يكون في الدين نوع محاباة (١).

وهنا يتعلم الأسرى والمسلمون أيضاً درساً بليغاً في عدم محاباة ذوي القربى، بل كان الأمر على خلاف ذلك، فقد أغلا رسول الله الفداء على عمه العباس (٢).

ورجع العباس لمكة، وقد دفع فداءه وابنَيْ أخويه، وأخفى إسلامه وأصبح يقود جهاز استخبارات الدولة الإسلامية بمكة بمهارة فائقة، وقدرة نادرة حتى انتهى دوره في فتح مكة، فأعلن إسلامه قبلها بساعات (٣).

هـ ـ أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت الرسول ﷺ و رضي الله عنها:

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم، بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بن الربيع بمال، وبعثت فيه بقلادة لها، كانت لخديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها، قالت: فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة، وقال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي لها فافعلوا» فقالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوه وردوا عليها الذي لها (٤).

وكان رسول الله ﷺ أخذ عليه، أو وعده، أن يخلي سبيل زينب إليه، وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار فقال: «كونا ببطن يَأْجَج (٥) حتى تمرَّ بكما زينبُ، فتصحباها حتى تأتيا بها» (٦).

إن أبا العاص بن الربيع زوج زينب بنت الرسول ﷺ لم يُعرف عنه قط موقف في مقاومة الدعوة بأي لون من ألوانها، وقد كفّ يده ولسانه عن أصحاب رسول الله، وشغله ماله وتجارته وحياؤه من رسول الله ﷺ؛ عن مواقف الشراسة القرشية في مقاومة الدعوة إلى الله، وفي بدر كان أبو العاص صهر رسول الله ﷺ من بين الأسرى الذين لم يسمع لهم في المعركة صوت، ولم يعرف لهم رأي، ولا شوهدت لهم في قتال جولة، وبعد أن بدأت قريش تفدي أسراها، أرسلت السيدة زينب بنت رسول الله ﷺ وزوجة أبي العاص بمال تفديه به، ومع المال قلادة

---

(١) انظر: سبل الرشاد للصالحي (٤/ ١٣٥).

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٧٦).

(٣) انظر: التربية القيادية (٣/ ٦٨) بتصرف.

(٤) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٦١)، وأخرجه أحمد ورقمه (٦/ ٢٧٦ ـ ٢٦٤٧٢) ط/ قرطبة، والحاكم في المستدرك (٣/ ٢٣) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يتعقبه الذهبي، وانظر المسند: ط/ الرسالة في موضع الحديث رقم (٢٦٣٦٢).

(٥) اسم مكان على ثمانية أميال من مكة.

(٦) أبو داود في الجهاد، باب «في فداء الأسير بالمال» رقم (٢٦٩٢)، صحيح سنن أبي دادو للألباني، وحسنه.

كانت أمها السيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ أهدتها إليها فأدخلتها بها على زوجها لتتحلى بها، فلما رأى رسول الله ﷺ قلادة ابنته رق لها رقة شديدة، إذ كانت هذه القلادة الكريمة مبعث ذكريات أبوية عنده ﷺ، وذكريات زوجية، وذكريات أسرية، وذكريات عاطفية، فالنبي ﷺ أب له من عواطف الأبوة أرفع منازلها في سجل المكارم الإنسانية، وأشرفها في فضائل الحياة، فتواثبت إلى خبايا نفسه الكريمة المكرمة أسمى مشاعر الرحمة، وتزاحمت على فؤاده الأطهر عواطف الحنان والحنين، فتوجه إلى أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ متلطفاً يطلب إليهم في رجاء الأعز الأكرم، رجاء يدفعهم إلى العطاء، ولا يسلبهم حقهم في الفداء، لو أنهم أرادوا الاحتفاظ بهذا الحق، وهو في أيديهم يملكون التصرف فيه، فقال لهم: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي هو لها».

وهذا أسلوب من أبلغ وألطف ما يسري في حنايا النفوس الكريمة، فيطوّعها إلى الاستجابة الراغبة الراضية رضاء ينم عن الغبطة والبهجة [١].

إن هذا الموقف وما يظهر منه من مظاهر الرحمة والعطف منه ﷺ على ابنته يحمل في طياته مقصداً آخر، وهو أنه كان يتألف صهره للإسلام بذلك، لما عرف عنه من العقل السديد والرأي الرشيد، فقد كان ﷺ يثني عليه وهو على شركه بحسن المعاملة [٢].

و ـ أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحي بين الرحمة والحزم النبوي:

كان محتاجاً ذا بنات قال: يا رسول الله، لقد عرفت ما لي من مال، وإني لذو حاجة وذو عيال فامنن عليّ، فمنّ عليه رسول الله ﷺ وأخذ عليه أن لا يظاهر عليه أحداً، فقال أبو عزة يمدح رسول الله ﷺ على ذلك:

مَنْ مُبْلغٌ عني الرسول محمداً ... بأنك حقٌّ والمليكُ حميد
وأنت امرؤٌ بُوِّئتَ فينا مباءةً [٣] ... لها درجاتٌ سهلة وصعود
فإنك من حاربته لمحارَبٌ ... شقيٌّ ومن سالمته لسعيد
ولكن إذا ذكّرتُ بدراً وأهله ... تأوَّبُ ما بي، حسرة وقعود

قال ابن كثير: ثم إن أبا عزة هذا نقض ما كان عاهد الرسول عليه، ولعب المشركون بعقله، فرجع إليهم فلما كان يوم أحد أسر أيضاً، فسأل النبي ﷺ أن يمنّ عليه أيضاً فقال النبي ﷺ: «لا أدعك تمسح عارضيك وتقول خدعت محمداً مرتين» ثم أمر به فضربت عنقه [٤].

---

(١) انظر: محمد رسول الله، محمد الصادق عرجون (٣/ ٤٨٠ ـ ٤٨٧) بتصرف.

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٨٣).

(٣) مباءة: مكانة رفيعة.

(٤) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٣١٣).

فكان النبي ﷺ به رحيماً وعفى عنه، وأطلق سراحه بدون فداء، لما ذكر أبو عزة فقره وما لديه من بنات يعولهن، ولكنه لم يف لرسول الله ﷺ بما عاهده عليه من لزوم السلم، وعدم إثارة الحرب ضده، فوقع أسيراً في معركة أُحد، فكان موقف النبي ﷺ منه الحزم، فأمر بضرب عنقه.

ز ـ سهيل بن عمرو ووقوعه في الأسر، وماذا قالت سودة رضي الله عنها:

قال عبد الرحمن بن أسد بن زرارة ـ رضي الله عنه ـ: «قُدم بالأسارى حين قدم بهم المدينة، وسودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ عند آل عفراء في مناحتهم على عوف ومعوذ ابني عفراء ـ وذلك قبل أن يضرب الحجاب ـ قالت سودة: فوالله إني لعندهم إذ أتينا فقيل: هؤلاء الأسارى قد أتى بهم، فرجعت إلى بيتي ورسول الله ﷺ فيه، فإذا أبو يزيد سهيل بن عمرو في ناحية الحجرة، ويداه مجموعتان إلى عنقه بحبل، فوالله ما ملكت حين رأيت أبا يزيد كذلك أن قلت: أبا يزيد أعطيتم بأيديكم ألا متم كراماً... فما انتبهت إلا بقول رسول الله ﷺ من البيت: «يا سودة أعلى الله ورسوله تحرضين» فقلت: يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه بالحبل أن قلت ما قلت (١).

وفد مكْرَز بن حفص الأَخْيَف في فداء سهيل بن عمرو، فلما فاوض المسلمين وانتهى إلى رضائهم، قالوا: هات الذي لنا، قال لهم مكْرَز بن حفص: اجعلوا رجلي مكان رجله وخلوا سبيله حتى يبعث إليكم بفدائه، فخلوا سبيل سهيل وحبسوا مكرزاً عندهم. وجاء في حديث مرسل أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال لرسول الله ﷺ: دعني أنزع ثَنِيَّة سهيل بن عمرو، يدلع لسانه، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً» (٢) ثم قال رسول الله ﷺ لعمر: «إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمه» (٣).

قال ابن كثير: وهذا هو المقام الذي قامه سهيل بمكة حين مات رسول الله ﷺ وارتد العرب، ونجم النفاق بالمدينة وغيرها، فقام بمكة فخطب في الناس وثبتهم على الدين الحنيف (٤) فقد قال في ذلك: «يا معشر قريش لا تكونوا آخر الناس إسلاماً وأولهم ردة، من رابَنا ضربنا عنقه» (٥).

---

(١) انظر: السيرة النبوية لمحمد الصوياني (٢/ ٢٠٠)، وسنده صحيح، وانظر: مرويات غزوة بدر، وقد عزاه للحاكم (٣/ ٢٢)، وذكر تصحيح الحاكم له وموافقة الذهبي، كما صحح سند ابن إسحاق في روايته للقصة (ص ٢٩٩، ٣٠٠).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٣١١)، وقال ابن كثير مرسل بل معضل.

(٣) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٣١١).

(٤) المصدر نفسه، (٣/ ٣١١).

(٥) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٨١).

فقد أبى رسول الله ﷺ أن ينزع ثنية سهيل، ورأى أن ذلك من باب التمثيل وتشويه خلقة الإنسان، وقال لعمر: «لا أمثل به فيمثل الله بي، وإن كنت نبياً» وهذا نموذج من منهج رسالته ﷺ وضعه ليكون نبراساً لأمته في انتصاراتها على أعدائها (١).

حـ ـ التعليم مقابل الفداء:

قال ابن عباس: كان ناس من الأسارى يوم بدر ليس لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة (٢). وبذلك شرع الأسرى يعلمون غلمان المدينة القراءة والكتابة، وكل من يُعلم عشرة من الغلمان يفدى نفسه (٣)، وقبول النبي ﷺ تعليم القراءة والكتابة بدل الفداء، في ذلك الوقت، الذي كان فيه بأشد الحاجة إلى المال يرينا سمو الإسلام في نظرته إلى العلم والمعرفة، وإزالة الأمية، وليس هذا بعجيب من دين كان أول ما نزل من كتابه الكريم: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ② ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ③ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العَلق: ١ ـ ٤] واستفاضت فيه نصوص القرآن والسنّة في الترغيب في العلم وبيان منزلة العلماء، وبهذا العمل الجليل يعتبر النبي ﷺ أول من وضع حجر الأساس في إزالة الأمية وإشاعة القراءة والكتابة، وأن السبق في هذا للإسلام (٤).

ط ـ حكم الأسرى:

إن حكم الأسرى في الإسلام مفوض إلى رأي الإمام ليختار حكماً من أربعة، وعلى الإمام أن يراعى مصلحة المسلمين العامة، والأحكام الأربعة هي:

١ ـ **القتل**: وقد قتل رسول الله ﷺ عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث.

٢ ـ **المن**: وهو إطلاق الأسير بدون مقابل، وهذا ما فعله رسول الله مع أبي عزة الجمحي.

٣ ـ **الفداء**: إطلاق سراح الأسير مقابل مبلغ من المال، وهذا ما حدث مع العباس عم النبي ﷺ، ونوفل بن الحارث، وعقيل بن أبي طالب وغيرهم.

٤ ـ **الاسترقاق**: وقد حكم سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ في يهود بني قريظة أن يقتل المحاربون، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء (٥)

---

(١) انظر: محمد رسول الله، عرجون (٣/ ٤٧٤).

(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٦١).

(٣) انظر: التربية القيادية (٣/ ٧٤).

(٤) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٦٤، ١٦٥).

(٥) انظر: غزوة بدر الكبرى، (ص ١٠١).

المبحث السادس

نتائج غزوة بدر ومحاولة اغتيال النبي ﷺ

أولاً: نتائج غزوة بدر:

١ - كان من نتائج غزوة بدر أن قويت شوكة المسلمين، وأصبحوا مرهوبين في المدينة وما جاورها، وأصبح من يريد أن يغزو المدينة أو ينال من المسلمين؛ عليه أن يفكر ويفكر قبل أن يقدم على فَعلته، وتعززت مكانة الرسول ﷺ في المدينة، وارتفع نجم الإسلام فيها. ولم يعد المتشككون في الدعوة الجديدة والمشركون في المدينة يتجرءون على إظهار كفرهم وعداوتهم للإسلام، لذا ظهر النفاق والمكر والخداع، فأعلن فريق منهم إسلامهم ظاهراً أمام النبي ﷺ وأصحابه، فدخلوا في عداد المسلمين، وأبقوا على الكفر باطناً، فظلوا في عداد الكفار، فلا هم مسلمون مخلصون في إسلامهم، ولا هم كافرون ظاهرون بكفرهم وعداوتهم للمسلمين، قال تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النِّساء: ١٤٣] . ومن أجل هذا الموقف المتذبذب، شنّع الله عليهم، وسمّع بهم في كثير من آياته، وتوعدهم بأشد أنواع العذاب قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النِّساء: ١٤٥] .

ومن نتائج موقعة بدر: ازدياد ثقة المسلمين بالله سبحانه وتعالى، وبرسوله الكريم ﷺ، واشتداد ساعدهم وقوتهم، ودخول عدد كبير من مشركي قريش في الإسلام، وقد ساعد ذلك على رفع معنويات المسلمين المستضعفين الذين كانوا لا يزالون في مكة، فاغتبطت نفوسهم بنصر الله، واطمأنت قلوبهم إلى أن يوم الفرج قريب، فازدادوا إيماناً على إيمانهم وثباتاً على عقيدتهم.

وإلى جانب ذلك، فقد كسب المسلمون مهارة عسكرية، وأساليب جديدة في الحرب، وشهرة واسعة في داخل الجزيرة العربية وخارجها، إذ أصبحوا قوة يحسب لها حسابها في بلاد العرب، فلا تهدد زعامة قريش وحدها، بل زعامة جميع القبائل العربية المنتشرة في مختلف الأصقاع والأماكن، كما أصبح للدولة الجديدة مصدر للدخل من غنائم الجهاد، وبذلك انتعش حال المسلمين المادي والاقتصادي، بما أفاء الله عليهم من غنائم بعد بؤس وفقر شديدين، داما تسعة عشر شهراً (١).

٢ - أما قريش، فكانت خسارتها فادحة، فإضافة إلى أن مقتل أبي جهل بن هشام، وأمية بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وغيرهم من زعماء الكفر الذين كانوا من أشد القرشيين شجاعة

(١) انظر: التاريخ السياسي والعسكري، د. علي معطي، (ص ٢٧٤، ٢٧٥).

وقوة وبأساً، لم يكن خسارة حربية لقريش فحسب، فإنه كان خسارة معنوية أيضاً، ذلك أن المدينة لم تعد تهدد تجارتها فقط، بل أصبحت تهدد أيضاً سيادتها ونفوذها في الحجاز كله [١]، كان خبر الهزيمة على أهل مكة كالصاعقة، ولم يصدقوا ذلك في بداية الأمر. قال ابن إسحاق رحمه الله: «وكان أول من قدم بمكة بمصاب قريش الحَيْسُمان بن عبد الله الخزاعي فقالوا له: ما وراءك؟

قال: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأمية بن خلف، وزمعة بن الأسود، ونُبيه ومنبِّه ابنا الحجاج، وأبو البَخْتَرِيّ بن هشام، فلما جعل يعدد أشراف قريش، قال صفوان بن أمية: والله إن يعقل هذا؛ فسلوه عنّي؟

فقالوا: ما فعل صفوان بن أمية؟

قال: هو ذاك جالس في الحجر، قد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا» [٢].

وهذا أبو رافع مولى رسول الله ﷺ يقص علينا أثر خبر هزيمة قريش على أبي لهب ـ لعنه الله ـ حيث قال: كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت، وأسلمت أم الفضل وأسلمتُ، وكان العباس يهاب قومه، ويكره أن يخالفهم، وكان يكتم إسلامه، وكان ذا مال كثير متفرق في قومه، وكان أبو لهب ـ عدو الله ـ قد تخلف عن بدر، فبعث مكانه العاصى بن هشام بن المغيرة. . .، فلما جاءه الخبر عن مصاب أصحاب بدر من قريش كَبَتَهُ الله وأخزاه ووجدنا في أنفسنا قوة وعزّة.

قال: كنت رجلاً ضعيفاً، وكنت أعمل القداح وأنحتها في حجرة زمزم، فوالله إني لجالس فيها، أنحت القداح، وعندي أم الفضل (زوجة العباس بن عبد المطلب) جالسة، وقد سرّنا ما جاءنا من الخبر، إذ أقبل الفاسق أبو لهب يجر رجليه بشَرٍّ حتى جلس على طنب الحجرة، فكان ظهره إلى ظهري، فبينما هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم، فقال أبو لهب: هلمّ إليّ فعندك لعمري الخبر، قال: جلس إليه والناس قيام عليه، فقال: يا ابن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس؟ قال: والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقودوننا كيف شاؤوا، ويأسروننا كيف شاؤوا، وأيْمُ الله مع ذلك ما لُمْتُ الناس: لقينا رجالاً بيضاً على خيل بُلق بين السماء والأرض، والله ما تُلِيق [٣] شيئاً، ولا يقوم لها شيء. قال أبو رافع: فرفعت طُنُب الحجرة بيدي، ثم قلت: تلك والله الملائكة، قال: فرفع أبو لهب يده فضرب بها وجهي ضربة شديدة،

---

(١) المصدر السابق نفسه، (ص ٣٧٥، ٣٧٦).

(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٥٧).

(٣) تُلِيق: أي تُبقي.

قال: وثاورته، فاحتملني وضرب بي الأرض، ثم برك عليّ يضربني ـ وكنت رجلاً ضعيفاً ـ فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة فأخذته فضربته به ضربة فَلعتْ [1] في رأسه شجة منكرة، وقالت: استضعفته أن غاب عنه سيده، فقام مولياً ذليلاً، ثم مات بعد سبع ليالٍ بالعَدَسَة [2] فقتلته [3].

وأم الفضل بنت الحارث زوجة العباس بن عبد المطلب، وأخت ميمونة أم المؤمنين، وخالة خالد بن الوليد، وهي أول امرأة أسلمت بعد خديجة [4] رضي الله عنهن.

لقد تركت غزوة بدر في نفوس أهل مكة المشركين كمداً وأحزاناً وآلاماً بسبب هزيمتهم، ومن فُقدوا وأُسروا، فهذا أبو لهب لم يلبث أن أصيب بعلة ومات، وهذا أبو سفيان فقد ابناً له وأُسر له ابن آخر، وما من بيت من بيوت مكة إلا وفيه مناحة، على قتل عزيز أو قريب، أو أسر أسير، فلا عجب أن كانوا صمموا في أنفسهم على الأخذ بالثأر حتى أن بعضهم حرّم على نفسه الاغتسال [5]، حتى يأخذ بالثأر ممن أذلوهم، وقتلوا أشرافهم وصناديدهم، وانتظروا يترقبون الفرصة للقاء المسلمين، والانتصاف منهم، فكان ذلك في أحد [6].

٣ ـ أما اليهود، فقد هالهم أن ينتصر المسلمون في بدر، وأن تقوى شوكتهم فيها، وأن يعزّ الإسلام، ويظهر على دينهم، ويكون لرسوله دونهم الحُظوة والمكانة، فصمموا على نقض العهد الذي عاهدوا عليه النبي ﷺ عندما قدم المدينة، وأظهروا عداوتهم التي كانت كامنة في نفوسهم، وأخذوا يجاهرون بها القول ويعلنون، ثم راحوا يكيدون للإسلام ولرسوله، ويعملون للقضاء عليه بكل الوسائل المتاحة لديهم [7]، وبدأوا يتحرشون بالنبي ﷺ والمسلمين، وما كان النبي ﷺ ليخفى عليه شيء من ذلك، فقد كان يراقبهم عن حذر ويقظة، حتى استخفوا بالمقررات الخلقية، والحرمات التي يعتز بها المسلمون، واستعلنوا بالعداوة، فلم يكن بدّ من حربهم وإجلائهم عن المدينة [8].

ثانياً: محاولة اغتيال النبي ﷺ وإسلام عمير بن وهب (شيطان قريش):

قال عروة بن الزبير: جلس عُمَير بن وهب الجُمَحي مع صفوان بن أمية، بعد مصاب أهل

(١) فَلَعَتْ: فَلَعَ: يعني شَقَّ.

(٢) العدسة: قرحة قاتلة كالطاعون. وقد عدس الرجل: إذا أصابه ذلك.

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/٢٥٨).

(٤) انظر: المرأة في العهد النبوي، د. عصمة الدين كركر، (ص ١٦٢).

(٥) هو أبو سفيان بن حرب نذر ألا يمس رأسه من ماء جنابة حتى يغزو المسلمين.

(٦) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٧١).

(٧) انظر: التاريخ السياسي العسكري، (ص ٢٧٤).

(٨) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٧١).

بدر - في الحِجْر - بيسير، وكان عمير بن وهب شيطاناً من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ وأصحابه، ويلقون منه عناء [١]، وهو بمكة، وكان ابنه وهب بن عمير في أُسارى بدر، فذكر أصحاب القليب ومُصابهم، فقال صفوان: «والله ما في العيش بعدهم خير».

قال له عمير: صدقت والله، أما والله لولا دينٌ عليّ ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة [٢] بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي فيهم علّة [٣]، ابني أسير في أيديهم.

قال: فاغتنمها صفوان بن أمية، فقال: عليَّ دينك، أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم [٤] ما بقوا، لا يسعني شيء، ويعجز عنهم، فقال له عمير: فاكتم عليَّ شأني وشأنك.

قال: أفعل.

قال: ثم أُمِرَ عمير بسيفه، فشُحذ وسُمَّ، ثم انطلق حتى قدم المدينة، فبينما عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله به، وما أراهم في عدوهم، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد متوشحاً السيف، فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب، والله ما جاء إلا لشرٍّ، وهو الذي حرش بيننا، وحَزَرَنا للقوم يوم بدر.

ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله، هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه. قال: «فأدخله عليّ» قال: فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة [٥] سيفه في عنقه فَلَبَّبه [٦] بها، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون.

ثم دخل به على رسول الله ﷺ فلما رآه رسول الله ﷺ وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه؛ قال: «أرسله يا عمر، ادْنُ يا عمير».

فدنا ثم قال: إنْعَمُوا صباحاً، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم، فقال رسول الله ﷺ: «أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام تحية أهل الجنة» [٧].

---

(١) عناء: التعب.
(٢) الضيعة: الضياع والتشتت.
(٣) العلة: السبب.
(٤) أواسيهم: أقوم على أمرهم ومؤونتهم.
(٥) حمالة السيف: ما يربط به السيف على الجسم.
(٦) لببه: قيده.
(٧) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٩).

فقال: أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد.

فقال: «فما جاء بك يا عمير؟» قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه.

قال: «فما بال السف في عنقك؟» قال: قبّحها الله من سيوف! وهل أغنت عنا شيئاً.

قال: «أصدُقْني ما الذي جئت له؟» قال: ما جئت إلا لذلك.

قال: «بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحِجْر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين عليَّ وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمَّل لك صفوان بن أمية بدينك وعيالك، على أن تقتلني له، والله حائلٌ بينك وبين ذلك».

قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذّبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق.

فقال رسول الله ﷺ: «فقهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا أسيره» ففعلوا.

ثم قال: يا رسول الله إني كنت جاهداً على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله ـ ﷻ ـ وأنا أحب أن تأذن لي، فأقدم مكة، فأدعوهم إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ وإلى الإسلام، لعلّ الله يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم كما كنت أوذي أصحابك في دينهم. قال: فأذن له رسول الله ﷺ فلحق بمكة، وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير بن وهب، يقول: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام، تُنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عن الرُّكبان، حتى قدم راكب فأخبره بإسلامه، فحلف أن لا يكلمة أبداً، ولا ينفعه بنفع أبداً (١).

وفي هذه القصة دروس وعبر منها:

١ ـ حِرْص المشركين على التصفية الجسدية للدعاة، فهذا صفوان بن أمية، وعمير بن وهب يتفقان على قتل النبي ﷺ، وهذا يرشدنا إلى أن أعداء الدعوة قد لا يكتفون برفض الدعوة، والتشويش عليها، وصد الناس عنها، بل يريدون اغتيال الدعاة، وتدبير المؤامرات لقتلهم، وقد يستأجرون المجرمين لتنفيذ هذا الغرض الخسيس (٢)، وقد يستغل الأغنياء المترفون من أعداء الدعوة حاجة الفقراء وفقرهم فيوجهونهم لقاء مبلغ من المال إلى خدمة مآربهم، وإن أدى ذلك إلى هلاكهم، فها هو صفوان قد استغل فقر عمير، وقلة ذات يده ودَيْنَه ليرسله إلى هلاكه (٣).

٢ ـ ظهور الحس الأمني الرفيع الذي تميَّز به الصحابة ـ ﷺ ـ فقد انتبه عمر بن الخطاب

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٦٠).

(٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/١٥٩).

(٣) انظر: غزوة بدر الكبرى لأبي فارس، (ص ٨٢).

لمجيء عمير بن وهب وحذّر منه، وأعلن أنه شيطان ما جاء إلا لشر، فقد كان تاريخه معروفاً لدى عمر، فقد كان يؤذي المسلمين في مكة، وهو الذي حرّض على قتال المسلمين في بدر، وعمل على جمع معلومات عن عددهم، ولذلك شرع عمر في أخذ الأسباب لحماية الرسول ﷺ، فمن جهته فقد أمسك بحمالة سيف عمير الذي في عنقه بشدة فعطله عن إمكانية استخدام سيفه للاعتداء على الرسول ﷺ، وأمر نفراً من الصحابة بحراسة النبي ﷺ.

٣ ـ الاعتزاز بتعاليم هذا الدين، فقد رفض ﷺ أن يتعامل بتحية الجاهلية، ولم يرد على تحية عمير حين قال له: إنعَمُوا صباحاً، وأخبره بأنه لا يحيي بتحية أهل الجاهلية لأن الله تعالى أكرم المسلمين بتحية أهل الجنة.

٤ ـ سمو أخلاق النبي ﷺ، فقد أحسن إلى عمير، وتجاوز عنه، وعفا عنه، مع أنه جاء ليقتله (١)، بل أطلق ولده الأسير بعد أن أسلم عمير، وقال لأصحابه: «فقهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره» (٢).

٥ ـ قوة إيمان عمير، فقد قرر أن يواجه مكة كلها بالإسلام، وقد أذن له رسول الله ﷺ وفعل، وواجه وتحدى، وعاد أدراجه إلى المدينة، وأسلم على يديه ناس كثير، وكان حين تُعد الرجال يطرحه عمر ـ رضي الله عنه ـ ممن يزن عنده ألف رجل، وكان أحد الأربعة الذين أمد بهم أمير المؤمنين عمر، عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهم ـ الذين كان كل واحد منهم بألف (٣).

المبحث السابع

بعض الدروس والعبر والفوائد من غزوة بدر

أولاً: حقيقة النصر من الله تعالى:

إن حقيقة النصر في بدر كانت من الله تعالى. فقد بيّن سبحانه وتعالى أن النصر لا يكون إلا من عند الله تعالى في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٦].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفَال: ١٠].

في هاتين الآيتين تأكيد على أن النصر لا يكون إلا من عند الله ﷻ والمعنى: ليس النصر

---

(١) انظر: غزوة بدر الكبرى لأبي فارس، (ص ٨٣).

(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٦٠).

(٣) انظر: التربية القيادية (٣/ ٧٣).

إلا من عند الله دون غيره، و(العزيز) أي: ذو العزة التي لا ترام [(١)]، و(الحكيم) أي: الحكيم فيما شرّعه من قتال الكفار مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم بحوله وقوته سبحانه وتعالى [(٢)].

ويستفاد من هاتين الآيتين: تعليم المؤمنين الاعتماد على الله وحده، وتفويض أمورهم إليه مع التأكيد على أن النصر إنما هو من عند الله وحده، وليس من الملائكة أو غيرهم، فالأسباب يجب أن يأخذ بها المسلمون، لكن يجب أن لا يغتروا بها، وأن يكون اعتمادهم على خالق الأسباب، حتى يمدهم الله بنصره وتوفيقه. ثم بيّن سبحانه مظاهر فضله على المؤمنين، وأن النصر الذي كان في بدر، وقتلهم المشركين، ورمى النبي ﷺ المشركين بالتراب يوم بدر، إنما كان في الحقيقة بتوفيق الله أولاً وبفضله ومعونته.

وبهذه الآية الكريمة يربي القرآن المسلمين، ويعلمهم الاعتماد عليه. قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧].

ولما بيّن سبحانه وتعالى أن النصر كان من عنده، وضح بعض الحكَم من ذلك النصر، قال تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٢٧ ـ ١٢٨].

وأمر سبحانه وتعالى المؤمنين أن يتذكروا دائماً تلك النعمة العظيمة؛ نعمة النصر في بدر، ولا ينسوا من أذهانهم كيف كانت حالتهم قبل النصر، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

ثانياً: يوم الفرقان:

سُمّي يوم بدر يوم الفرقان، ولهذه التسمية أهمية عظيمة في حياة المسلمين، وقد تحدث الأستاذ سيد قطب عن وصف الله تعالى ليوم بدر بأنه يوم الفرقان في قوله تعالى: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

فقال: كانت غزوة بدر ـ التي بدأت وانتهت بتدبير الله وتوجيهه وقيادته ومدده ـ فرقاناً بين الحق والباطل ـ كما يقول المفسرون إجمالاً ـ وفرقاناً بمعنى أشمل وأدق وأوسع وأعمق كثيراً.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤١١).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٠٣)، نقلاً عن حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول ﷺ (١/ ٩٧ ـ ١٠٥).

كانت فرقاناً بين الحق والباطل فعلاً... ولكنه الحق الأصيل الذي قامت عليه السماوات والأرض، وقامت عليه فطرة الأحياء والأشياء... الحق الذي يتمثل في تفرُّد الله سبحانه بالألوهية، والسلطان والتدبير والتقدير، وفي عبودية الكون كله سمائه وأرضه، أشيائه وأحيائه، لهذه الألوهية المتفردة، ولهذا السلطان المتوحد، ولهذا التدبير وهذا التقدير بلا معقب ولا شريك، والباطل الزائف الطارىء الذي كان يعم وجه الأرض إذ ذاك، ويغشى على ذلك الحق الأصيل، ويقيم في الأرض طواغيت تتصرف في حياة عباد الله بما تشاء، وأهواء تصرف أمر الحياة والأحياء، فهذا الفرقان الكبير الذي تمّ يوم بدر، حيث فرق بين ذلك الحق الكبير، وهذا الباطل الطاغي، وزَيَّل بينهما فلم يعودا يلتبسان.

لقد كانت فرقاناً بين الحق والباطل بهذا المدلول الشامل، الواسع الدقيق العميق، على أبعاد وآماد: كانت فرقاناً بين هذا الحق وهذا الباطل في أعماق الضمير.. فرقاناً بين الوحدانية المجردة المطلقة بكل شعبها في الضمير والشعور، وفي الخلق والسلوك، وفي العبادة والعبودية، وبين الشرك في كل صوره، التي تشمل عبودية الضمير لغير الله من الأشخاص، والأهواء والقيم والأوضاع والتقاليد والعادات، وكانت فرقاناً بين هذا الحق وهذا الباطل في الواقع الظاهر كذلك. فرقاناً بين العبودية الواقعية للأشخاص والأهواء، وللقيم والأوضاع، وللشرائع والقوانين، وللتقاليد والعادات... وبين الرجوع في هذا كله للّه الواحد الذي لا إله غيره، ولا حاكم دونه، ولا مشرع إلا إياه، فارتفعت الهامات لا تنحني لغير الله، وتساوت الرؤوس فلا تخضع إلا لحاكميته وشرعه، وتحررت القطعان البشرية التي كانت مستعبدة للطغاة.

وكانت فرقاناً بين عهد في تاريخ الحركة الإسلامية، عهد المصابرة والصبر، والتجمع والانتظار، وعهد القوة والحركة والمبادأة والاندفاع، والإسلام بوصفه تصويراً جديداً للحياة، ومنهجاً جديداً للوجود الإنساني، ونظاماً جديداً للمجتمع، وشكلاً جديداً للدولة، بوصفه إعلاناً عاماً لتحرير الإنسان في الأرض بتقرير ألوهية الله وحده وحاكميته، ومطاردة الطواغيت التي تغتصب ألوهيته (١).

إلى أن قال: وأخيراً فلقد كانت بدر فرقاناً بين الحق والباطل بمدلول آخر، ذلك المدلول الذي يوحى به قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٧ ـ ٨] . لقد كان الذين خرجوا للمعركة من المسلمين إنما خرجوا يريدون عير أبي سفيان واغتنام القافلة، فأراد الله لهم غير ما أرادوا. أراد لهم أن تفلت منهم

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٥٢١، ١٥٢٢).

قافلة أبي سفيان (غير ذات الشوكة) وأن يلاقوا نفير أبي جهل (ذات الشوكة) وأن تكون معركة وقتالاً وقتلاً وأسراً، ولا تكون قافلة وغنيمة ورحلة مريحة، وقد قال الله سبحانه إنه صنع هذا: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ وكانت هذه إشارة لتقرير حقيقة كبيرة.. إن الحق لا يحق وإن الباطل لا يبطل ـ في المجتمع الإنساني ـ بمجرد البيان النظري للحق والباطل، ولا بمجرد الاعتقاد النظري بأن هذا حق وهذا باطل، إن الحق لا يحق، وإن الباطل لا يبطل، ولا يذهب من دنيا الناس، إلا بأن يتحطم سلطان الباطل ويعلو سلطان الحق، وذلك لا يتم إلا بأن يغلب جند الحق ويظهروا، ويهزم جند الباطل ويندحروا... فهذا الدين منهج حركي واقعي، لا مجرد نظرية للمعرفة والجدل أو لمجرد الاعتقاد السلبي!

ولقد حق الحق، وبطل الباطل بالموقعة، وكان هذا النصر العملي فرقاناً واقعياً بين الحق والباطل بهذا الاعتبار، الذي أشار إليه قول الله تعالى في معرض بيان إرادته ـ سبحانه ـ من وراء المعركة، ومن وراء إخراج الرسول ﷺ من بيته بالحق، ومن وراء إفلات القافلة (غير ذات الشوكة) ولقاء الفئة ذات الشوكة.

ولقد كان هذا كله فرقاناً بين منهج هذا الدين ذاته تتضح به طبيعة هذا المنهج وحقيقته في حس المسلمين أنفسهم... وإنه لفرقان ندرك اليوم ضرورته، حينما ننظر إلى ما أصاب مفهومات هذا الدين من تميع في نفوس بعض المسلمين! حتى ليصل هذا التميع إلى مفهومات بعض من يقومون بدعوة الناس إلى هذا الدين.

وهكذا كان يوم بدر ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفَال: ٤١] . بهذه المدلولات المنوعة الشاملة العميقة. «والله على كل شيء قدير».

وفي هذا اليوم مثل من قدرته على كل شيء، مثل لا يجادل فيه مجادل، ولا يماري فيه ممار.. مثل من الواقع المشهود الذي لا سبيل إلى تفسيره إلا بقدرة الله، وأن الله على كل شيء قدير (١).

ثالثاً: الولاء والبراء من فقه الإيمان:

رسمت غزوة بدر لأجيال الأمة صوراً مشرقة في الولاء والبراء، وجعلت خطاً فاصلاً بين الحق والباطل، فكانت الفرقان النفسي والمادي، والمفاصلة التامة بين الإسلام والكفر، وفيها تجسدت هذه المعاني فعاشها الصحابة واقعاً ماديًّا وحقيقة نفسية، وفيها تهاوت القيم الجاهلية، فالتقى الابن بأبيه والأخ بأخيه:

١ ـ كان أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة في صف المسلمين، وكان أبوه عتبة وأخوه الوليد وعمه

(١) انظر: في ظلال القرآن، بتصرف (٣/ ١٥٢٣، ١٥٢٤).

شيبة في صف المشركين، وقد قتلوا جميعاً في المبارزة الأولى.

٢ ـ كان أبو بكر الصديق في صف المسلمين. . . وكان ابنه عبد الرحمن في صف المشركين.

٣ ـ كان مصعب بن عمير حامل لواء المسلمين، وكان أخوه أبو عزيز بن عمير في صف المشركين ثم وقع أسيراً في يد أحد الأنصار، فقال مصعب للأنصاري: شدّ يدك به فإن أمه ذات متاع، فقال أبو عزيز: يا أخي هذه وصيتك بي؟ فقال مصعب: إنه أخي دونك. تلك كانت حقائق وليس مجرد كلمات: إنه أخي دونك [١]، إنها القيم المطروحة لتقوم الإنسانية على أساسها، فإذا العقيدة هي آصرة النسب والقرابة وهي الرباط الاجتماعي [٢].

٤ ـ كان شعار المسلمين في بدر (أَحَد. . . أَحَد) وهذا يعني أن القتال في سبيل عقيدة تتمثل في العبودية للإله الواحد، فلا العصبية ولا القبلية، ولا الأحقاد والضغائن، ولا الثأر هو الباعث والمحرك، ولكنه الإيمان بالله وحده.

ومن هذا المنطلق كانت صور الإيمان مختلفة المظاهر، واحدة في مضمونها [٣]، وللإيمان فقه عظيم، ومن هذا الفقه حينما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، هاجر إليها كل من استطاع ذلك من المسلمين إلى مكة، وحبس من كان مضطهداً ولم يستطع ذلك، فلما كان يوم بدر كان بعض هؤلاء في صف المشركين منهم: عبد الله بن سهيل بن عمرو، والحارث بن زمعة بن الأسود، وأبو قيس بن الفاكه، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن مُنبه.

فأما عبد الله بن سهيل بن عمرو فقد انحاز من صف المشركين إلى رسول الله ﷺ، فشهد المعركة، وكان أحد الصحابة الذين نالوا هذا الشرف العظيم [٤].

وأما الآخرون فلم يفعلوا ذلك، وشهدوا المعركة في صف المشركين وقد أصيبوا جميعاً [٥] فقتلوا تحت راية الكفر، فنزل في حقهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النِّساء: ٩٧].

قال ابن عباس: كان قوم من المسلمين أقاموا بمكة ـ وكانوا يستخفون بالإسلام ـ فأخرجهم

(١) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٣٠٧).
(٢) انظر: معين السيرة، (ص ٢١٣).
(٣) المصدر نفسه، (٢١٣).
(٤) المصدر نفسه، (ص ٢١٧).
(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٥٣).

المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم، فقال المسلمين: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا على الخروج فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ إنهم لم يعذروا إذ كانت إمكانات الانتقال إلى صف المؤمنين متوافرة، ولم يكن الفاصل كبيراً بين الصفين، ولن يعدموا ـ لو أرادوا ـ الفرصة في الانتقال إلى رسول الله ﷺ كما فعل عبد الله بن سهيل (١).

إن للإيمان مستلزمات تعبر عن صدقه وقوته، ومن مستلزماته استعلاؤه على كل القيم مما سواه، فإذا كان كذلك كان لصاحبه الأثر الفعال، والقوة الفاعلة في بناء الحق والخير الذي أراده الله، إن الإيمان يصبغ السلوك، فإذا به يشع من خلال الحركة والجهد، ومن خلال الكلمة والابتسامة، ومن خلال السمت والانفعال، ولذا لم يعذر الذين كانوا في صف المشركين لأن الإيمان الذي ادعوه لم توجد له مستلزمات فلم يؤت ثماره (٢).

ولهذا الفهم العميق لفقه الإيمان ضرب الصحابة الكرام في بدر مُثلاً عليا لصدق الإيمان، التي تدل على أنهم آثروا رضاء الله ورسوله على حب الوالد والولد والأهل والعشيرة، فلا يعجب المسلم من ثناء الله تعالى على هذه المواقف الصادقة في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

رابعاً: المعجزات التي ظهرت في بدر وما حولها:

من المعجزات التي ظهرت على يدي رسول الله ﷺ في بدر، إخباره عن بعض المغيبات، ومن المعلوم أن علم الغيب مختص بالله تعالى وحده، وقد أضافه الله تعالى إلى نفسه الكريمة في غير آية من كتابه العزيز، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: الآية ٦٥].

وقال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ومن المعلوم أن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لا يعلمون الغيب ولا اطلاع لهم على شيء منه، فقد قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

---

(١) انظر: معين السيرة، (ص ٢١٧).

(٢) المصدر نفسه، (ص ٢١٨).

وكما جاءت الأدلة تدل على أن الله تبارك وتعالى قد اختص نفسه بمعرفة علم الغيب، وأنه استأثر به دون خلقه، جاءت أدلة تفيد أن الله تعالى استثنى من خلقه من ارتضاه من الرسل، فأودعهم ما شاء الله من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزة لهم، ودلالة صادقة على نبوتهم، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن ٢٦ ـ ٢٧].

فنخلص من ذلك إلى: أن ما وقع على لسان رسول الله ﷺ من الإخبار بالمغيبات فبوحي من الله تعالى، وهو إعلام الله ﷻ لرسوله ﷺ للدلالة على ثبوت نبوّته وصحة رسالته، وقد اشتهر وانتشر أمره ﷺ باطلاع الله له على المغيبات [١]، وكان لأحداث غزوة بدر نصيب من تلك المعجزات الغيبية، منها:.

١ ـ قتل أمية بن خلف:

فعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: انطلق سعد بن معاذ معتمراً، قال: فنزل على أُمية بن خلف أَبي صفوان، وكان أُمية إذا انطلق إلى الشام فمر بالمدينة نزل على سعد، فقال أمية لسعد: ألا تنتظر حتى إذا انتصف النهار، وغفل الناس انطلقت فطفت؟ فبينا سعد يطوف إذا أبو جهل، فقال: من هذا الذي يطوف بالكعبة؟، فقال سعد: أنا سعد. فقال أبو جهل: تطوف بالكعبة آمناً وقد آويتم محمداً وأصحابه؟ فقال: نعم، فتلاحيا [٢] بينهما. فقال أُمية لسعد: لا ترفع صوتك على أبي الحكم، فإنه سيد أهل الوادي. ثم قال سعد: والله لئن منعتني أن أطوف بالبيت، لأقْطَعَنَّ متجرك بالشام، قال: فجعل أمية يقول لسعد: لا ترفع صوتك، وجعل يُمسكه، فغضب سعد فقال: دعنا عنك، فإني سمعت محمداً ﷺ يزعم أنه قاتلُك. قال: إياي؟ قال: نعم. قال: والله ما يكذب محمد إذا حدّث. فرجع إلى امرأته، فقال: أما تعلمين ما قال لي أخي اليثربي؟ قالت: وما قال؟ قال: زعم أنه سمع محمداً يزعم أنه قاتلي، قالت: فوالله ما يكذب محمد. قال: فلما خرجوا إلى بدر وجاء الصريخ؛ قالت له امرأته: أما ذكرت ما قال لك أخوك اليثربي؟ قال: فأراد أن لا يخرج فقال له أبو جهل: إنك من أشراف الوادي، فسر يوماً أو يومين، فسار معهم فقتله الله [٣].

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/ ٤٥٣).

(٢) تلاحيا: تلاوما وتنازعا. انظر: النهاية (٤/ ٢٤٣).

(٣) البخاري: كتاب المناقب، باب «علامات النبوة في الإسلام» رقم (٣٦٣٢).

٢ ـ مصارع الطغاة:

فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا مع عمر بين مكة والمدينة فتراءينا الهلال، وكنت رجلاً حديد البصر [(١)]، فرأيته وليس أحد يزعم أنه رآه غيري. قال: فجعلت أقول لعمر: أما تراه؟ فجعل لا يراه. قال: يقول عمر: سأراه وأنا مستلق على فراشي. ثم أنشأ يحدثنا عن أهل بدر؛ فقال: إن رسول الله ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس، يقول: «هذا مصرع فلان غداً، إن شاء الله»، قال: فقال عمر: فوالذي بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود التي حد رسول الله ﷺ [(٢)].

٣ ـ إخبار العباس بن عبد المطلب بالمال الذي دفنه، وإعلام عمير بن وهب بالحديث الذي حدث بينه وبين صفوان:

ومن ذلك لما طلب رسول الله ﷺ من عمه دفع الفداء، وأجابه العباس: ما ذاك عندي يا رسول الله، فقال له: «أين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل؟ فقلت لها: إن أصبت في سفري هذا، فهذا المال الذي دفنته لبني الفضل وعبد الله وقثم»، قال: والله يا رسول الله إني لأعلم أنك رسول الله، إن هذا الأمر ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل. وما حدَّث به عمير بن وهب لما جاء متظاهراً بفداء ابنه، وهو يريد قتل النبي ﷺ باتفاق مع صفوان بن أمية، فقد أنبأه نبأ المؤامرة، فكانت سبباً في إسلامه وصدق إيمانه [(٣)].

ومن المعجزات التي ظهرت أيضاً: ما ذكر ابن القيم في زاد المعاد: أن سيف عُكَّاشة بن محصن انقطع يومئذٍ، فأعطاه النبي ﷺ جذلاً من حطب، فقال: «دونك هذا» فلما أخذه عكاشة وهزَّه، عاد في يده سيفاً طويلاً شديداً أبيض، فلم يزل عنده يقاتل به حتى قتل في الردة أيام أبي بكر [(٤)]. وقال رفاعة بن رافع: رُميتُ بسهم يوم بدر، ففقئت عيني فبصق فيها رسول الله ﷺ ودعا لي، فما آذاني منها شيء [(٥)].

قال الدكتور أبو شهبة: وما ينبغي لأحد أن يزعم أن المعجزات الحسية لا ضرورة إليها بعد القرآن، فها هي قد بدت آثارها واضحة جلية في إسلام البعض، وتقوية يقين البعض الآخر، وإثبات أنه نبي يوحى إليه، فقد أخبر بمغيبات انتفى في العلم بها كل احتمال إلا أنه خبر السماء، وغير خفي ما يحدثه من انقلاب عود أو عرجون في يد صاحبه سيفاً بتاراً في إيمانه وتقوية يقينه، وجهاده به جهاداً لا يعرف التردد أو الخور، وحرصه البالغ على أن يخوض

---

(١) حديد البصر: أي نافذ.

(٢) مسلم رقم (٢٨٧٣).

(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٧٨).

(٤) انظر: زاد المعاد (٣/ ١٨٦) وذكر المحقق أن ابن إسحاق ذكرها من غير سند.

(٥) انظر: زاد المعاد (٣/ ١٨٦) والأثر فيه خلاف بين التصحيح والتضعيف.

المعارك بسيف خرقت به العادة، وصار مثلاً وذكرى في الأولين والآخرين (١).

خامساً: حكم الاستعانة بالمشرك:

في غزوة بدر في الأحداث التي سبقتها، أراد مشرك أن يلحق بجيش المسلمين، وطلب من النبي ﷺ الموافقة على قبوله معهم والاشتراك فيما هم ذاهبون إليه، فقال ﷺ: «ارجع فلن أستعين بمشرك» (٢) فالحديث يبيّن أن القاعدة والأصل عدم الاستعانة بغير المسلمين في الأمور العامة، ولهذه القاعدة استثناء، وهو جواز الاستعانة بغير المسلم بشروط معينة وهي: تحقق المصلحة أو رجحانها بهذه الاستعانة، وأن لا يكون ذلك على حساب الدعوة ومعانيها، وأن يتحقق الوثوق الكافي بمن يستعان به، وأن يكون تابعاً للقيادة الإسلامية، لا متبوعاً ومقوداً فيها لا قائداً لها، وأن لا تكون هذه الاستعانة مثار شبهة لأفراد المسلمين، وأن تكون هناك حاجة حقيقية لهذه الاستعانة وبمن يُستعان به، فإذا تحققت هذه الشروط جازت الاستعانة على وجه الاستثناء، وإذا لم تتحقق لم تجز الاستعانة، وفي ضوء هذا الأصل رفض رسول الله ﷺ اشتراك المشرك مع المسلمين في مسيرهم إلى عير قريش، إذ لا حاجة به أصلاً، وفي ضوء الاستثناء وتحقق شروطه استعان النبي ﷺ بالمشرك عبد الله بن أريقط الذي استأجره النبي ﷺ وأبو بكر في هجرتهما إلى المدينة ليدلهما على الطريق إليها.. وهكذا على هذا الاستثناء وتحقق شروطه قبل ﷺ حماية عمه أبي طالب له، كما قبل جوار أو إجارة المطعم بن عدي له عند رجوعه عليه الصلاة والسلام من الطائف، وكذلك قبول الصحابة الكرام جوار من أجارهم من المشركين ليدفع هؤلاء الأذى عمن أجاروهم (٣)، وضبط هذه القاعدة مع فهم شروط الاستثناء في واقع الحياة يحتاج إلى فقه وإيمان عميق.

سادساً: حذيفة بن اليمان، وأسيد بن الحضير ـ رضي الله عنهما ـ:

١ ـ حذيفة بن اليمان ووالده:

قال حذيفة: ما منعنا أن نشهد بدراً إلا أني وأبي أقبلنا نريد رسول الله ﷺ، فأخذنا كفار قريش فقالوا: إنكم تريدون محمداً، فقلنا: ما نريده إنما نريد المدينة، فأخذوا علينا عهد الله وميثاقه لتصيرن إلى المدينة ولا تقاتلوا مع محمد ﷺ، فلما جاوزناهم أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا له ما قالوا وما قلنا لهم فما ترى؟ قال: «نستعين الله عليهم ونفي بعهدهم»، فانطلقنا إلى المدينة، فذاك الذي منعنا أن نشهد بدراً (٤).

هذه صورة مشرقة في حرص النبي ﷺ لحفظ العهود، وتربية أصحابه على تطبيق مكارم

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٧٨).

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ٣٥٥).

(٣) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٤٤، ١٤٥).

(٤) انظر: المستدرك للحاكم (٣/ ٢٠١، ٢٠٢) هذا حديث صحيح الإسناد وأقره الذهبي.

الأخلاق الرفيعة، وإن كان في ذلك إجحاف بالمسلمين ومفوت لهم جهد بعض أفراد المجاهدين.

٢ ـ أسيد بن الحضير:

عندما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة قادماً من بدر لقي بالروحاء رؤوس الناس يهنئونه بما فتح الله عليه، فقال أسيد بن الحضير: يا رسول الله الحمد لله الذي أظفرك وأقر عينك، والله يا رسول الله ما كان تخلفي عن بدر، وأنا أظن أنك تلقى عدواً، ولكن ظننت أنها عير ولو ظننت أنه عدو ما تخلفت، فقال رسول الله ﷺ: «صدقت»[1].

سابعاً: الحرب الإعلامية في بدر:

قال حسان ـ رضي الله عنه ـ:

فما نخشى بحول الله قوماً ... وإن كثروا وأجمعت الزحوف
إذا ما ألبوا جمعاً علينا ... كفانا حدهم رب رؤوف
سمونا يوم بدر بالعوالي ... سراعاً ما تضعفنا الحتوف[2]
فلم تُر عصبة في الناس أنكى ... لمن عادوا إذا لقحت كشوف
ولكنا توكلنا وقُلنا ... مآثرنا ومعلقنا السيوف
لقيناهم بها لما سمونا ... ونحن عصبة وهم ألوف[3]

وقال كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ:

لما حامت فوارسكم ببدر ... ولا صبروا به عند اللقاء
وردناه بنور الله يجلو ... دجى الظلماء عنا والغطاء
رسول الله يقدمنا بأمر ... من أمر الله أُحكم بالقضاء
فما ظفرت فوارسكم ببدرٍ ... وما رجعوا إليكم بالسواء
فلا تعجل أبا سفيان وارقب ... جياد الخيل تطلع من كداء
بنصر الله روحُ القدس فيها ... وميكالٌ، فيا طيب الملاء[4] [5]

كان النبي ﷺ يحث شعراء المسلمين على القيام بواجبهم في الدفاع عن المسلمين، وإخافة الأعداء بشعرهم، فقد كان الشعر يمثل الحملات الإعلامية المؤثرة في دنيا العرب فيرفع أقواماً

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٣٠٥).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٦). الحتوف: جمع حتف وهو الموت.
(٣) هذا محمول على المبالغة لأن جيش قريش ما كان يزيد على الألف.
(٤) أي ما أطيب الملأ الذين يقودهم جبريل وميكائيل عليهما السلام.
(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٠).

ويخفض آخرين، ويشعل الحروب ويطفئها [١]. كانت بوادر الحرب الإعلامية قد اندلعت منذ الهجرة، غير أن ظهورها أكثر بدأ مع حركة السرايا قبيل بدر، لكنها انفجرت انفجاراً ضخماً بعد بدر، لأن الجانب الإعلامي للقبائل المجاورة كان هدفاً مهماً من أهداف الفريقين، ويظهر أن القصائد سرعان ما تطير بها الركبان بين يثرب ومكة، فيأتي الرد من الطرف الآخر، فعند النصر تكثر أشعار الفريق المنتصر بينما تكثر المراثي عند الفريق الثاني، وكان الصف الإسلامي يضم شعراء متخصصين أمثال كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، وكان أشدهم على الكفار حسان [٢].

المبحث الثامن

أهم الأحداث التي وقعت بين غزوتي بدر وأحد

في أعقاب غزوة بدر أخذت الهيبة العسكرية للمسلمين مداها الكبير في دائرة واسعة في الجزيرة العربية، وأحس ضعفاء المشركين بالخطر، وشعر أقوياؤهم بغلبة الإسلام، وبدأت النفوس تتطلع إلى الإيمان فتوسعت دائرة الدخول في الإسلام، ورأى الكثيرون أن يدخلوا في الإسلام نفاقاً أو خديعة، وبهذا كله أصبحت الدولة الجديدة أمام أوضاع جديدة من المكر والتآلب والتحالفات، ولكن تأييد الله تعالى ثم جهاز أمن الدولة المتيقظ أفشل مخططات أعداء الإسلام [٣].

أولاً: الغزوات التي قادها رسول الله ﷺ بعد بدر وقبل أحد:

١ ـ ماء الكدر في بني سليم:

غزا النبي ﷺ بعد سبع ليال من عودته إلى المدينة من غزة بدر، وبلغ ماء الكدر في ديار بني سليم، الذين قصدهم بغزوته هذه، غير أنه لم يلْق حرباً، فأقام ثلاث ليال على الماء ثم رجع إلى المدينة [٤]، وكان سبب تلك الغزوة تجمع أفراد بني سليم لمقاتلة المسلمين والاعتداء عليهم بعد معركة بدر مباشرة، ولكن رسول الله ﷺ فاجأهم بهجوم سريع غير متوقع، فهرب بنو سليم وتفرقوا على رؤوس الجبال، وبقيت إبلهم مع راع لها يدعى يساراً، فاستاق رسول الله ﷺ الإبل مع راعيها، وعند موضع صرار، على ثلاثة أميال من المدينة، قسم النبي ﷺ الإبل التي كان عددها خمسمائة بعير على أصحابه، فأصاب الواحد منهم بعيرين، ونال النبي ﷺ خُمسها،

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٩٩).

(٢) انظر: المنهج الحركي للسيرة النبوية، (ص ٣٥٤، ٣٥٥).

(٣) انظر: الأساس في السنّة وفقهها السيرة النبوية (١/ ٥١٢).

(٤) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/ ٢٩٦).

وكان يسار من نصيبه، ولكنه أعتقه بعد ذلك [(١)].

٢ ـ غزوة السويق:

قدم أبو سفيان بمائتي فارس من مكة وسلك طريق النجدية، حتى نزلوا حي بني النضير ليلاً واستقبلهم سلام بن مشكم سيد بني النضير، فأطعمهم وأسقاهم وكشف لهم عن أسراء المسلمين، وتدارس معهم إحدى الطرق لإيقاع الأذى بالمسلمين، ثم قام أبو سفيان بمهاجمة ناحية العُريض ـ واد بالمدينة من طرف حرة واقم ـ فقتل رجلين وأحرق نخلاً وفر عائداً إلى مكة، فتعقبه رسول الله ﷺ في مائتي رجل من المهاجرين والأنصار، ولكنه لم يتمكن من إدراكهم، لأن أبا سفيان ورجاله قد جدّوا في الهرب، وجعلوا يتخففون من أثقالهم ويلقون السويق [(٢)] التي كانوا يحملونها لغدائهم، وكان المسلمون يمرون بهذه الجرب فيأخذونها حتى رجعوا بسويق كثيرة، لذا سميت هذه الغزوة بغزوة السويق، وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد أن غاب عنها خمسة أيام دون أن يلقى حرباً [(٣)].

٣ ـ غزوة ذي أمر:

جاءت الأخبار من قبل رجال الاستخبارات الإسلامية، تفيد بأن رجال قبيلتي ثعلبة ومحارب تجمعوا بذي أمر بقيادة دُعْثُور بن الحارث المحاربي، يريدون حرب رسول الله ﷺ، والإغارة على المدينة فاستعمل النبي ﷺ على المدينة عثمان بن عفان وخرج في أربعمائة وخمسين من المسلمين بين راكبٍ وراجل، فأصابوا رجلاً بذي القصة يقال له جبّار من بني ثعلبة، كان يحمل أخباراً عن قومه أسرّ بها إلى رسول الله ﷺ، وقد دخل في الإسلام، وانضم إلى بلال ليتفقه في الدين [(٤)]، أما المشركون من بني ثعلبة ومحارب ما لبثوا أن فروا إلى رؤوس الجبال عند سماعهم بمسير المسلمين، وبقي رسول الله ﷺ في نجد مدة تقارب الشهر دون أن يلقى كيداً من أحد وعاد بعدها إلى المدينة [(٥)]، وفي هذه الغزوة أسلم دعثور بن الحارث الذي كان سيداً مطاعاً بعد أن حدثت له معجزة على يدي رسول الله ﷺ. فقد أصاب المسلمون في هذه الغزوة مطر كثير، فابتلت ثياب رسول الله ﷺ فنزل تحت شجرة ونشر ثيابه لتجف، واستطاع دعثور أن ينفرد برسول الله بسيفه، فقال: يا محمد من يمنعك مني اليوم؟ قال: الله. ودفع جبريل في صدره فوقع السيف من يده فأخذه رسول الله ﷺ فقال: «من يمنعك مني؟» قال: لا أحد وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والله لا أكثر عليك جمعاً أبداً.

---

(١) انظر: التاريخ السياسي والعسكري، (ص ٢٧٧).

(٢) السويق: هو أن تحمّص الحنطة والشعير ثم يطحن باللبن والعسل والسمن.

(٣) انظر: السيرة لابن هشام (٣/ ٥١)، التاريخ السياسي والعسكري، (ص ٢٧٨، ٢٧٩).

(٤) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣)، التاريخ السياسي والعسكري، (ص ٢٧٩).

(٥) انظر: التاريخ السياسي والعسكري، (ص ٢٧٩).

فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه فلما رجع إلى أصحابه فقالوا: ويلك، مالك؟ فقال: نظرت إلى رجل طويل فدفع صدري فوقعت لظهري، فعرفت أنه ملك وشهدت أن محمداً رسول الله والله لا أكثر عليه جمعاً، وجعل يدعو قومه إلى الإسلام [١]، ونزل في ذلك قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١].

٤ ـ غزوة بحران [٢]:

كانت هذه الغزوة في شهر جمادي الأولى من السنة الثالثة للهجرة، وقد خرج النبي ﷺ في ثلاثمائة من المسلمين حتى بلغ بحران بين مكة والمدينة، يريد قتال بني سليم فوجدهم قد تفرقوا، فانصرف عنهم، وعاد إلى المدينة بعد أن أمضى خارجها عشر ليال [٣]. ونلحظ في هذه الغزوات قدرة القيادة الإسلامية على رصد تحركات العدو، ومعرفة قوته، وخططه، ومدده لكي تحطم هذه التجمعات المناوئة للدولة الإسلامية الفتية قبل أن يستفحل أمر هذه القبائل، وتصبح خطراً على المدينة.

وهذه الغزوات في هذه الصحراء المترامية الأطراف كانت دورات تدريبية تربوية للصحابة الكرام، وسعدت سرايا الصحابة بقيادة النبي ﷺ لها، فقد كانت تلك الدورات العملية التدريبية القتالية مستمرة، وتمتد من خمسة أيام إلى شهر، تتم فيها الحياة الجماعية، ويتربى جنود الإسلام على السمع والطاعة، والتدريب المتقن، ويكتسبون خبرات جديدة تساعدهم على تحطيم الباطل وتقوية الحق.

لقد كان المنهاج النبوي الكريم يهتم بتربية الصحابة في ميادين النزال، ولا يغفل عن المسجد ودوره في صقل النفوس، وتنوير العقول، وتهذيب الأخلاق، من خلال وجود المربي العظيم ﷺ الذي أصبحت تعاليمه تشع في أوساط المجتمع من خلال القدوة، والعبادة الخاشعة لله ﷻ، فالمنهاج النبوي الكريم جمع بين الدورات المسجدية التربوية، والدورات العسكرية التربوية المكثفة، لكي يقوى المجتمع الجديد، وترص صفوفه، ويكسب الخبرات لكي تقوم بنشر الإسلام في الآفاق [٤].

٥ ـ سرية زيد بن حارثة إلى القَرَدة:

أصبح مشركو مكة بعد هزيمتهم في بدر، يبحثون عن طريق أخرى لتجارتهم للشام، فأشار

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/٣).

(٢) بحران: كتبها بعضهم بفتح الباء (بَحْران) وبعضهم بضمها.

(٣) انظر: المجتمع المدني للعمري، (ص ٦١)، التاريخ السياسي والعسكري، (ص ٢٨٠).

(٤) انظر: التربية القيادية (٣/١١٨، ١١٩).

بعضهم إلى طريق نجد العراق، وقد سلكوها بالفعل، وخرج منهم تجار، فيهم أبو سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وحويطب بن عبد العزى، ومعهم فضة وبضائع كثيرة، بما قيمته مائة ألف درهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ بواسطة أحد أفراد جهاز الأمن الإسلامي يدعى سليط بن النعمان ـ رضي الله عنه ـ [(١)]، فبعث زيد بن حارثة في مائة راكب لاعتراض القافلة، فلقيها زيد عند ماء يقال له القُردة، وهو ماء من مياه نجد، ففرّ رجالها مذعورين، وأصاب المسلمون العير وما عليها، وأسروا دليلها فُرات بن حيّان الذي أسلم بين يد النبي ﷺ، وعادوا إلى المدينة، فخمسها رسول الله ﷺ ووزع الباقي بين أفراد السرية [(٢)].

ثانياً: غزوة بني قينقاع:

ذكر الزهري أنها وقعت في السنة الثانية للهجرة، وذكر الواقدي وابن سعد أنها وقعت يوم السبت للنصف من شوال من السنة الثانية [(٣)]، واتفق معظم من كتب في مغازي رسول الله ﷺ وسيرته على أنها وقعت بعد معركة بدر، إذ لم يلتزم يهود بني قينقاع بالمعاهدة التي أبرمها الرسول ﷺ معهم، ولم يوفوا بالتزاماتهم التي حددتها، ووقفوا من الرسول ﷺ والمسلمين مواقف عدائية، فأظهروا الغضب والحسد عندما انتصر المسلمون في بدر، وجاهروا بعداوتهم للمسلمين [(٤)]، وقد جمعهم النبي ﷺ في سوقهم بالمدينة ونصحهم، ودعاهم إلى الإسلام، وحذّرهم أن يصيبهم ما أصاب قريشاً في بدر [(٥)]، غير أنهم واجهوا النبي ﷺ بالتحدي والتهديد رغم ما يفترض أن يلتزموا به من الطاعة والمتابعة لبنود المعاهدة التي جعلتهم تحت رئاسته، فقد جابهوه بقولهم: يا محمد لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وإنك لم تلق مثلنا [(٦)]، وهكذا بدأت الأزمة تتفاعل إذ لم يكن في جوابهم ما يشير إلى الالتزام والاحترام، بل على العكس فإنهم قد أظهروا روحاً عدائية، وتحدياً واستعلاءً واستعداداً للقتال، فأنزل الله سبحانه وتعالى فيهم قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [آل عمران: ١ ـ ١٣].

(١) انظر: التربية القيادية (٣/ ١٣٢).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٥٦).

(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٩٩).

(٤) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/ ٢٦٩).

(٥) انظر: اليهود في السنّة المطهرة (١/ ٢٧٦).

(٦) المصدر نفسه، (١/ ٢٧٦).

١ ـ الأسباب المباشرة للغزو:

لما انتصر المسلمون في بدر وقال رسول الله ﷺ لليهود ما قال، أضمرت بنو قينقاع نقض العهد الذي بينهم وبين المسلمين، وأخذوا يتحينون الفرصة السانحة لمناوشة المسلمين، حتى جاءتهم فرصتهم الحقيرة الدنيئة عندما جاءت امرأة من العرب قدمت بجَلَب (١) لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا بها فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهودياً، وشدّت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع (٢).

فحين علم رسول الله ﷺ بذلك سار إليهم على رأس جيش من المهاجرين والأنصار، وذلك يوم السبت للنصف من شوال من السنة الثانية للهجرة (٣)، وكان الذي حمل لواء المسلمين يومئذٍ حمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ واستخلف ﷺ على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر العمري (٤)، واسمه بشير، وحين سار إليهم رسول الله ﷺ نبذ إليهم العهد كما أمره تعالى في قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ (٥) [الأنفال: ٥٨].

٢ ـ ضرب الحصار عليهم:

وحين علم اليهود بمقدمه ﷺ، تحصنوا في حصونهم، فحاصرهم النبي ﷺ خمس عشرة ليلة ـ كما ذكر ابن هشام ـ (٦) واستمر الحصار حتى قذف الله في قلوبهم الرعب واضطروا للنزول على حكمه ﷺ، فقد فاجأهم ﷺ بأسلوب الحصار، فأربكهم وأوقعهم في حيرة من أمرهم بعد أن قطع عنهم كل مدد وجمد حركتهم، فعاشوا في سجن مما جعلهم في النهاية ييأسون من المقاومة والصبر، فبعد أن كانوا يهددون رسول الله ﷺ وبأنهم قوم يختلفون بأساً وشدة عن مشركي قريش، إذا بهم يضطرون للنزول على حكم رسول الله ﷺ (٧)، فأمر بهم فربطوا، فكانوا يكتفون أكتافاً، واستعمل رسول الله ﷺ على كتافهم المنذر بن قدامة السلمي

---

(١) الجَلَب: (بتحريك اللام): كل ما يجلب للأسواق ليباع فيها.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٥٤).

(٣) انظر: المغازي للواقدي (١/ ١٧٦)، الطبقات لابن سعد (٢/ ٢٨، ٢٩).

(٤) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٤٨١).

(٥) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٢٧٩).

(٦) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٥٥).

(٧) انظر: الصراع مع اليهود لأبي فارس (١/ ١٤٤).

الأوسي [١].

٣ ـ مصير يهود بني قينقاع:

حاول ابن سلول زعيم المنافقين أن يحل حلفاءه من وثاقهم، فعندما مرّ عليهم قال: حلّوهم. فقال المنذر: أتحلون قوماً ربطهم رسول الله ﷺ؟ والله لا يحلهم رجل إلا ضربت عنقه [٢]، فاضطر عبد الله بن أبي ابن سلول أن يتراجع عن أمره ويلجأ إلى استصدار الأمر من النبي ﷺ بفك أسرهم [٣]، فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، أحسن في موالي ـ وكانوا حلفاء الخزرج ـ قال: فأبطأ عليه رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، أحسن في موالي، قال: فأعرض عنه، فأدخل ابن أبي يده في جيب ودرع رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «أرسلني» وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظللاً [٤]، ثم قال: ويحك أرسلني، قال: لا والله، لا أرسلك حتى تحسن في موالي أربعمائة حاسر، وثلاثمائة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة؟ إني والله امرؤ أخشى الدوائر: فقال رسول الله ﷺ: «هم لك» [٥].

فخلى رسول الله سبيلهم ثم أمر بإجلائهم، وغنم رسول الله ﷺ والمسلمون ما كان لديهم من مال، وقد تولى جمع أموالهم وإحصاءها محمد بن مسلمة رضي الله عنه [٥]، وحاول ابن أبي سلول أن يحدث رسول الله ﷺ في يهود بني قينقاع لكي يُقرهم في ديارهم، فوجد على باب رسول الله ﷺ عُويم بن ساعدة الأنصاري الأوسي، فردّه عويم وقال: لا تدخل حتى يأذن رسول الله ﷺ لك، فدفعه ابن أبي، فغلَّظ عليه عويم حتى جحش وجه ابن أبي الجدار فسال الدم [٦].

ويظهر في هذا الخبر فقه النبي ﷺ السياسي في تعامله مع ابن سلول حيث لبى طلبه، فلعل هذا الموقف يغسل قلبه، ويزيد الغشاوة عنه فتتم هدايته، فقال له: هم لك، ولعل الذين يسيرون وراء زعامة ابن أبي يصلحون بصلاحه فيتماسك الصف، ويلتحم فلا يتأثر من كيد أعداء الإسلام [٧].

وهناك بُعْدٌ آخر حيث حرص ﷺ أن يتفادى حدوث فتنة في مجتمع المؤمنين، حيث أن

---

(١) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٢٨٠).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٥/ ٣٢).

(٣) المصدر نفسه، (٥/ ٣٣).

(٤) ظللاً: جمع ظلة وهي السحابة، استعارة لتغيير الوجه عند الغضب.

(٥) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٢٨١).

(٦) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٥/ ٣٠).

(٧) انظر: المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان (٢٤٧).

بعض الأنصار حديث عهد بالإسلام، ويُخشى أن يؤثر فيهم رأس المنافقين عبد الله بن أبي لسمعته الكبيرة فيهم [(١)]، ولذلك سلك ﷺ معه أسلوب المداراة والصبر عليه وعلى إساءاته تجنباً للفتنة، وإظهاراً لحقيقة الرجل من خلال تصرفاته ومواقفه عند من يجهلها، ومن ثم يفر الناس من حوله ولا يتعاطفون معه، وقد حقق هذا الأسلوب نجاحاً باهراً، فقد ظهرت حقيقة ابن سلول لجميع الناس حتى أقرب الناس إليه، ومنهم ولده عبد الله، فكانوا بعدها إذا تكلم أسكتوه، وتضايقوا من كلامه [(٢)]، بل أرادوا قتله كما سيأتي بإذن الله تعالى.

٤ ـ تبرؤ عبادة بن الصامت منهم:

لما نقضت العهد بنو قينقاع وكان عبادة بن الصامت أحد بني عوف ـ لهم من حلف بني قينقاع مثل الذي لهم من عبد الله بن أُبي ـ مشى لرسول الله ﷺ وخلعهم إليه، وتبرأ إلى الله ﷻ وإلى رسوله ﷺ من حلفهم وقال: يا رسول الله، أتولى الله ورسوله ﷺ والمؤمنين، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم [(٣)]. ولما تقرر جلاء بني قينقاع أمر رسول الله ﷺ عبادة بن الصامت أن يجليهم، فجعلت قينقاع تقول: يا أبا الوليد من بين الأوس والخزرج ـ ونحن مواليك ـ فعلت هذا بنا؟ قال لهم عبادة: لما حاربتم جئت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إني أبرأ إليك منهم ومن حلفهم، وكان ابن أبي وعبادة بن الصامت منهم بمنزلة واحدة في الحلف، فقال عبد الله بن أُبي: إني تبرأت من حلف مواليك؟ ما هذا بيدهم عندك، فذكره مواطن قد أبلوا فيها، فقال عبادة: يا أبا الحباب، تغيرت القلوب، ومحا الإسلام العهود، أما والله إنك لمُعْصمٌ بأمر سنرى غيَّه غداً، فقالت قينقاع: يا محمد، إن لنا ديْناً في الناس، قال النبي ﷺ: «تعجَّلوا وضعوا»، وأخذهم عبادة بالرحيل والإجلاء، وطلبوا التنفس، فقال لهم: ولا ساعة من نهار، لكم ثلاث لا أزيد عليها، هذا أمر رسول الله ﷺ، ولو كنت أنا ما نفستكم، فلما مضت ثلاث، خرج في آثارهم حتى سلكوا إلى الشام وهو يقول: الشرف الأبعد الأقصى فالأقصى، وبلغ خلف الذباب ثم رجع، ولحقوا بأذرعات [(٤)].

وهكذا خرج بنو قينقاع من المدينة صاغرين، قد ألقوا سلاحهم وتركوا أموالهم غنيمة للمسلمين، وهم كانوا من أشجع يهود المدينة وأشدهم بأساً، وأكثرهم عدداً وعدة، ولذلك لاذت القبائل اليهودية بالصمت والهدوء فترة من الزمن بعد هذا العقاب الرادع، وسيطر الرعب على قلوبها وخضدت شوكتها [(٥)].

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٥/ ٣٢).
(٢) انظر: الصراع مع اليهود لأبي فارس (١/ ١٤٨).
(٣) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٢٨٢، ٢٨٣).
(٤) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٢٨٤، ٢٨٥).
(٥) انظر: الصراع مع اليهود لأبي فارس (١/ ١٤٩).

٥ ـ الآيات التي نزلت في موالاة ابن سلول لليهود، وبراءة عبادة بن الصامت منهم:

قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥١ ـ ٥٦].

قال ابن عطية في هذه الآيات: لما انقضت بدر وشجر أمر بني قينقاع، أراد رسول الله ﷺ قتلهم، فقام دونهم عبد الله بن أُبي ابن سلول وكان حليفاً لهم، وكان عبادة بن الصامت من حلفهم مثل ما لعبد الله، فلما رأى عبادة منزع رسول الله ﷺ وما سلكته اليهود من المشاقة للّه ولرسوله، جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني أبرأُ إلى الله من حلف يهود وولائهم، ولا أوالي إلا الله ورسوله، وقال عبد الله بن أُبي: أما أنا فلا أبرأ من ولاء يهود، فإني لا بدّ لي منهم، إني رجل أخاف الدوائر [١].

إن الفرق واضح بين ابن سلول الذي انغمس في النفاق، ومرد عليه، وبين عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ الذي تربى على المنهاج النبوي، فصفت نفسه وتطهر قلبه، وقوي إيمانه، وتنوّر عقله، فتخلص من آثار العصبية الجاهلية، والأهواء، والمصالح الذاتية، وقدم مصلحة الإسلام على كل مصلحة، فكان مثلاً حياً للمسلم الصادق، المخلص لعقيدته [٢].

ثالثاً: تصفية المحرضين على الدولة الإسلامية، مقتل كعب بن الأشرف:

إن خطر المحرضين على الفتنة لا يقل عن خطر الذين يشهرون السيوف لقتال المسلمين، إذ لولا هؤلاء المحرضون لما قامت الفتنة، لذلك أخذ رسول الله ﷺ يتتبع هؤلاء المحرضين ويقتلهم إطفاءً لنار الفتنة، وتمكيناً للحق، وقد قتل منهم خلقاً بعد موقعة بدر [٣]. منهم:

أ ـ عصماء بنت مروان: التي كانت تحرض على النبي وتعيب الإسلام، فقد أقدم عمير بن عدي الخطمي رضي الله عنه على قتلها، وحين سأل النبي ﷺ بعد ذلك عما إذا كان عليه شيء؟ قال له

---

(١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (١/ ٤٧٧، ٤٧٨).

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٠٢).

(٣) انظر: قراءة سياسة للسيرة النبوية، محمد قلعجي (ص ١٣٨).

النبي ﷺ: «نصرت الله ورسوله يا عمير» [١]، ثم قال: «لا ينتطح فيها عنزان» [١]، وقد أسلم نتيجة ذلك عدد من بني خطمة وجهر بالإسلام منهم من كان يستخفي [٢].

ب ـ **مقتل أبي عفك اليهودي:** كان أبو عفك شيخاً كبيراً من بني عمرو بن عوف، وكان يهودياً يحرض على رسول الله ﷺ ويقول الشعر، فقال رسول الله ﷺ: «من لي بهذا الخبيث؟» فخرج له الصحابي سالم بن عمير فقتله [٣].

وأهم حدث في تصفية المحرضين على الدولة ما بين بدر وأُحد هو مقتل كعب بن الأشرف.

جـ ـ **مقتل كعب بن الأشرف:** ينتسب كعب بن الأشرف إلى بني نبهان من قبيلة طيء، كان أبوه قد أصاب دماً في الجاهلية، فقدم المدينة وحالف يهود بني النضير وتزوج عقيلة بنت أبي الحقيق فولدت له كعب [٤]، وكان شاعراً ناصب الإسلام، وقد غاظه انتصار المسلمين على قريش في معركة بدر، فسافر إلى مكة يهجو النبي ﷺ ويحرض قريش على الثأر لقتلاهم الذين كان ينوح عليهم ويبكيهم في شعره، ويدعو إلى القضاء على الرسول والمسلمين [٥]، ومما قاله من الشعر في قتلى بدر من المشركين:

طحنت رحى بدر لمهلك أهله ... ولمثل بدر تستهل وتدمع
قُتلت سُراةُ الناس حول حياضهم ... لا تبعدوا إن الملوك تصرع
كم قد أصيب بها من أبيض ماجدٍ ... ذي بهجة تأوي إليه الضيَّعُ
ويقول أقوم أقوام أذل [٦] بسخطهم ... إن ابن الأشرف ظل كعباً يجزعه
صدقوا، فليت الأرض ساعة قُتلوا ... ظلت تسوخ بأهلها وتصدّع
نبئت أن بني كنانة كلهم ... خشعوا لقول أبي الوليد وجدّعوا [٧]

واستمر كعب بن الأشرف في أذية رسول الله ﷺ بالهجاء وتشجيع قريش لمحاربة المسلمين، واستغواهم على رسول الله ﷺ، فقال له أبو سفيان: أناشدك الله، أدينُنا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه؟ قال: أنتم أهدى منهم سبيلاً [٨]، ثم خرج مقبلاً قد أجمع رأي

---

(١) مجمع الزوائد، كتاب المناقب، رقم (١٤٥٥٧).
(٢) انظر: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (١/ ٢٩٥).
(٣) انظر: نضرة النعيم (١/ ٢٩٦).
(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٥٨).
(٥) انظر: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (١/ ٢٩٨).
(٦) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي، (ص ١٥٨).
(٧) المصدر نفسه، (ص ١٥٨).
(٨) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي، (ص ١٥٨).

المشركين على قتال رسول الله ﷺ معلناً بعداوته وهجائه [(١)].

ولما قدم المدينة أعلن معاداة النبي ﷺ وشرع في هجائه، وبلغت به الوقاحة والصلف أن يمتد لسانه إلى نساء المسلمين وشبب بأم الفضل بنت الحارث ـ رضي الله عنها ـ زوجة العباس عم النبي ﷺ فقال فيها:

أذاهب أنت لم تحلل بمنقبة ... وتارك أنت أم الفضل بالحرم
صفراء رادعة لو تعصر انعصرت ... من ذي القوارير والحنَّاء والكتم [(٢)]
إحدى بني عامر هام الفؤاد بها ... ولو تشاء شفتْ كعباً من السقم
لم أر شمساً بليل قبلها طلعت ... حتى تبدت لنا في ليلة الظُّلم [(٣)]

١ ـ حسان بن ثابت لابن الأشرف بالمرصاد:

كان رسول الله ﷺ يحث حساناً للتصدي لكعب بن الأشرف، فكان ﷺ يعلم حساناً أين نزل ابن الأشرف في مكة، فعندما نزل على المطلب بن أبي وداعة بن ضميرة السهمي وزوجته عاتكة بنت أسيد بن أبي العيص، فأبلغ ﷺ حسان بن ثابت بذلك فهجاهم لإيوائهم ابن الأشرف، فلما بلغ عاتكة بنت أسيد هجاء حسان نبذت رحل اليهودي كعب بن الأشرف وقالت لزوجها: ما لنا ولهذا اليهودي؟ ألا ترى ما يصنع بنا حسان؟ [(٤)].

وتحول كعب إلى أناس آخرين، وكان كلما تحول إلى قوم آخرين دعا رسول الله ﷺ حساناً وأخبره أين نزل ابن الأشرف فيهجو من نزل عندهم فيطردونه، وظل يلاحقه حتى لفظه كل بيت هناك، فعاد إلى المدينة راغماً بعد أن ضاقت في وجهه السبل ينتظر مصيره المحتوم وجزاءه الذي يستحقه [(٥)].

كانت الحرب الإعلامية التي شنها حسان ضد كعب بن الأشرف قد حققت أهدافها، وهذه بعض الأبيات التي قالها حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ في الرد على كعب بن الأشرف:

أَبَكَى لكعب ثم عُلَّ [(٦)] بعبرة ... منه وعاش مجدعاً لا يسمع؟
ولقد رأيت ببطن بدر منهم ... قتلى تسح لها العيون وتدمع
فابك فقد أبكيت عبداً راضعاً ... شبه الكُليب إلى الكُليبة يتْبع

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي، (ص ١٥٨).

(٢) رادعة: أي يفوح منها أثر الطيب والزعفران، والكتم نبت يخلط بالحناء فيخضب به الشعر فيبقى لونه.

(٣) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي، (ص ١٦٠).

(٤) انظر: الصراع مع اليهود لأبي فارس (١/١١١).

(٥) المصدر نفسه، (١/١١١).

(٦) عل: من العلل، وهو الشرب بعد الشرب، يريد البكاء بعد البكاء.

ولقد شفى الرحمان منا سيداً وأهان قوماً قاتلوه وصُرّعوا
ونجا وأفلت منهم من قلبُه شَغَفٌ يظل لخوفه يتصدع [(١)]

٢ ـ جزاء ابن الأشرف:

لقد قام اليهودي ابن الأشرف بجرائم كثيرة، وخيانات عديدة، وإساءات متعددة لرسول الله ﷺ وللمسلمين والمسلمات القانتات العابدات، وكل جريمة من هذه الجرائم تعد نقضاً للعهد تستوجب عقوبة القتل، فكيف إذا اجتمعت هذه الجرائم كلها في هذا اليهودي الشرير؟ [(٢)].

إن ابن الأشرف بهجائه للنبي وإظهاره التعاطف مع أعداء المسلمين، ورثاء قتلاهم وتحريضهم على المسلمين، يكون قد نقض العهد وصار محارباً مهدور الدم، ولذلك [(٣)] أمر النبي ﷺ بقتله. وقد فصل البخاري خبر مقتله، فقد روى في صحيحه بإسناده إلى جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من لكعب بن الأشرف؟ فإنه آذى الله ورسوله» فقام محمد بن مسلمة فقال: يا رسول الله، أتحب أن أقتله؟ قال: «نعم». قال: فأذن لي أن أقول شيئاً. قال: «قل».

فأتاه محمد بن مسلمة [(٤)] فقال: إن هذا الرجل قد سألنا صدقة، وإنه قد عنَّانا، وإني قد أتيتك استسلفك، قال: «وأيضاً والله لتملُّنه» قال: إنا قد اتبعناه فلا تحب أن ندعه، حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه، وقد أردنا أن تسلفنا وَسْقاً أو وَسْقين.

فقال: نعم، ارهنوني.

قالوا: أي شيء تريد؟

قال: ارهنوني نساءكم.

قالوا: كف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟

قال: فأرهنوني أبناءكم.

قالوا: كيف نرهنك أبناءنا، فيُسَب أحدهم فيقال: رهن بِوَسْقٍ أو وَسْقَين، هذا عار علينا، ولكنا نرهنك اللامَةَ. قال سفيان: يعني السلاح.

فواعده أن يأتيه فجاءه ليلاً ومعه أبو نائلة، وهو أخو كعبٍ من الرضاعة، فدعاهم إلى

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٥٩).
(٢) انظر: الصراع مع اليهود (١/١١١).
(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/٣٠٤).
(٤) الذي كتب في السيرة النبوية لابن هشام أن الذي جاء كعب بن الأشرف أبو نائلة واسمه سلكان بن سلامة.

الحصن فنزل إليهم، فقالت له امرأته: أين تخرج هذه الساعة؟

فقال: إنما هو محمد بن مسلمة وأخي أبو نائلة.

قالت: أسمع صوتاً كأنه يقطر منه الدم.

قال: إنما هو أخي محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة، إن الكريم لو دُعي إلى طعنةٍ بليلٍ لأجاب. قال: ويُدخِل محمد بن مسلمة معه رجلين [(١)]، وقال: إذا ما جاء فإني قائل بشعره فأشمه، فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه، فنزل إليهم متوشحاً وهو يَنْفَحُ منه ريح الطيب. فقال: ما رأيت كاليوم ريحاً ـ أي أطيب.

فقال: أتأذن لي أن أشم رأسك؟

قال: نعم فشمّه، ثم أشمَّ أصحابه.

ثم قال: أتأذن لي؟

قال: نعم، فلما استمكن منه قال: دونكم، فقتلوه ثم أتوا النبي ﷺ فأخبروه [(٢)].

وجاء في السيرة النبوية لابن هشام أن محمد بن مسلمة مكث ثلاثة أيام بعد أن استعد لقتل كعب بن الأشرف لا يأكل ولا يشرب إلا ما يُعلق به نفسه، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فدعاه، فقال له: «لم تركت الطعام والشراب؟»

فقال: يا رسول الله قلت لك قولاً لا أدري هل أفينَّ لك به أم لا؟

فقال رسول الله ﷺ: «إنما عليك الجهد».

فقال: لا بدّ لنا من أن نقول. قال: «قولوا ما بدا لكم» [(٣)].

وجاء في السيرة النبوية عن ابن إسحاق بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ مشى معهم إلى بقيع الغرقد ثم وجههم فقال: «انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم» [(٤)].

دروس وعبر:

● إن في مقتل كعب بن الأشرف دروساً وعبراً وفوائد في فقه النبي ﷺ في تعامله مع خصوم الإسلام والدولة الإسلامية، فقد اتضح أن عقوبة الناقض للعهد القتل، وهذا ما حكم به النبي ﷺ، وعقوبة المعاهد الذي يشتم الرسول ﷺ ويؤذيه بهجاء أو غيره هي القتل، وهذا ما

---

(١) وفي كتب السيرة أن الذين قاموا بقتله خمسة نفر هم: محمد بن مسلمة، وسلكان بن سلامة بن وقش وهو أبو نائلة، أحد بني عبد الأشهل، وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة، وعباد بن بشر بن وقش، أحد بني عبد الأشهل، وأبو عَبْس بن جبر أحد بني حارثة، هؤلاء قدموا أبا نائلة ليحدث كعب بن الأشرف.

(٢) البخاري في المغازي: باب «قتل كعب بن الأشرف» رقم (٤٠٣٧).

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٦١).

(٤) المصدر نفسه، (٣/ ٦٢).

كان لابن الأشرف، ويؤخذ من هذا أن شاتم الرسول ﷺ سواء كان معاهداً أو غيره تضرب عنقه عقوبة له، وقد أجاد شيخ الإسلام ابن تيمية في تفصيل هذه الأحكام في كتابه القيّم: الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ.

● يؤخذ من طريقة تنفيذ حكم الرسول ﷺ باليهودي ابن الأشرف، أن الحكم قد تقتضي المصلحة العامة للمسلمين أن ينفذ سراً، ويتأكد هذا إن كان يترتب على تنفيذه بغير هذه الصورة السرية فتنة أو خطر قد يكلف المسلمين ثمناً باهظاً [١]، وقد بيّنت هذه الصورة على أن مواجهة الكفار أعداء الإسلام ومحاربي الدولة الإسلامية لا يقتصر على مواجهتهم في ميدان المعارك، وإنما يتعدى ذلك إلى كل عمل تحصل به النكاية بالأعداء ما لم يكن إثماً، وقد يوفر القضاء على رجل له دوره البارز في حرب المسلمين جهوداً كبيرة وخسائر فادحة يتكبدها المسلمون.

وهذا مشروط بالأمن من الفتنة، وذلك بأن يكون للمسلمين شوكة، وقوة ودولة، بحيث لا يترتب على نوعية هذا العمل فتك بالمسلمين، واجتثاث الدعاة من بلدانهم، وإفساد في مجتمعاتهم [٢]، وقد أخطأ بعض المسلمين في العالم الإسلامي، وتعجلوا الصدام المسلح، واستدلوا على ما ذهبوا إليه بمثل هذه الحادثة، ولا حجة لهم فيها، لأن ذلك كان بالمدينة، وللمسلمين شوكة ودولة، أما هم فليس لهم دولة ولا شوكة، ثم كان ذلك إعزازاً للدين وإرهاباً للكافرين وكانت كلها مصالح لا مفسدة معها، أما ما يحدث في فترات الاستضعاف من هذه الحوادث فإنها يعقبها من الشر والفساد واستباحة دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم ما لا يخفى على بصير [٣].

إن النبي ﷺ لم يقم بمحاولة تصفية لأي أحد من المشركين في مكة، مع القدرة على قتل زعماء الشرك كأبي جهل، وأمية بن خلف، وعتبة، ولو أشار إلى حمزة أو عمر بذلك أو غيرهم من الصحابة، لقاموا بتنفيذ ذلك، ولكن الهدي النبوي الكريم يعلمنا أن فقه قتل زعماء الكفر يحتاج إلى شوكة وقوة، كما أن هذا الفقه يحتاج إلى فتوى صحيحة من أهلها، واستيعاب فقه المصالح والمفاسد، وهذا يحتاج إلى علماء راسخين حيث تتشابك المصالح في عصرنا، وحيث للرأي العام دوره الكبير في قرارات الدول، وحيث احتمالات توسع الأضرار [٤].

● ونلحظ قيمة الكلمة عند الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في موقف محمد بن مسلمة ـ رضي الله عنه ـ بعد

---

(١) انظر: الصراع مع اليهود لأبي فارس (١/ ١١٥).
(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٥/ ٥٤).
(٣) انظر: وقفات تربوية مع السيرة النبوية، (ص ٢٠٥).
(٤) انظر: الأساس في السنة وفقهها، السيرة النبوية (٥٣٧).

أن أعطى كلمة لرسول الله ﷺ يتعهد فيها بقتل اليهودي ابن الأشرف ثم إبطاؤه في ذلك أعيته الحيلة بقيام صعوبات في سبيل تحقيق ما وعد، حيث امتنع عن الطعام والشراب وأصابه الغم والحزن لأنه قال قولاً يخشى أن لا يستطيع الوفاء به، ونلاحظ في مجتمعاتنا المعاصرة أن كثيراً من الناس يعطون عهوداً ومواثيق ولا يقدرون قيمتها ويخفرون ذمتهم، ويتراجعون عن عهودهم ومواثيقهم، وتبقى حبراً على ورق، فهؤلاء ليسوا أصحاب مبادىء ومواقف يبتغي بها وجه الله، بل هم أصحاب مصالح ومنافع يُخشى عليهم أن يعبدوها من دون الله.

إن أصحاب الدعوات يؤثرون أن تندق أعناقهم، وأن تضوى أجسامهم، وتزهق أرواحهم، على أن يتراجعوا عن كلماتهم وعهودهم ومواثيقهم، يستعذبون الموت والعذاب في سبيل عقائدهم وإسلامهم [(١)].

● في قول رسول الله ﷺ: «إنما عليك الجهد» [(٢)] فيه توجيه نبوي كريم أن النصر لا يأتي إلا بعد بذل الجهد والصبر عند الابتلاء قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هُود: ٤٩] . وعلى المسلم أن يفرغ كل ما في وسعه من جهد فكري وطاقة جسمية في سبيل تحقيق ما وعد، ثم يتوكل على الله بعد ذلك في النتائج [(٣)].

● وفي قوله ﷺ: «قولوا ما بدا لكم» [(٤)]، فقه نبوي كريم فقد قالوا كلاماً هو في الأحوال العادية كفر، ومن هنا تعرف أنه من أجل تحقيق المهام العسكرية فلا حدود للكلام الذي يقال، ولكن تأتي هنا مسألة أخرى وهي ما إذا كان النجاح في المهام العسكرية يقتضي أفعالاً لا تجوز أو يقتضي ترك فرائض، فما العمل؟ المعروف أنه ليس هناك من الذنوب أعظم من الكفر والشرك، فإذا جاز التظاهر بالكفر لذلك فمن باب أولى جواز غيره، على أن يتأكد طريقاً للوصول إلى الهدف أو يغلب الظن على ذلك، وعلى أن يقتصر فيه على الحد الذي لا بدّ منه، سواء كانت الوسيلة تأخير فريضة أو ارتكاب محظور، على أن هذا وهذا مقيدان بالفتوى، فهناك محظورات لا يصح فعلها بحال كالزنا واللواط [(٥)].

هناك بعض القضايا تحتاج لأهل الفتوى المؤهلين لأن يفتوا فيها، خصوصاً في الظروف الاستثنائية والحالات الاضطرارية وفي المحاكمات السياسية والعسكرية، لأنها تحتاج إلى الموازنات والفتاوى الاستثنائية التي لا يستطيعها كل إنسان، فالأحكام الأصلية ليست مجهولة،

---

(١) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ١١٩).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٦١).

(٣) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ١٢٠).

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٦١).

(٥) انظر: الأساس في السنة وفقهها، السيرة النبوية (٢/ ٥٣٧، ٥٣٨).

وإنما الأحكام الاستثنائية التي تقتضيها الظروف الاستثنائية تحتاج إلى علماء ربانيين، وفقهاء راسخين لهم القدرة على فهم مقاصد الشريعة، وواقعهم الذي يعيشون فيه [١].

● وفي قوله ﷺ: «قولوا ما بدا لكم» فقه عظيم يوضحه قوله ﷺ: «الحرب خدعة» [٢].

● قوله ﷺ: «انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم» [٣] كان لهذا التذكير بالإخلاص في الجهاد، «انطلقوا على اسم الله» والدعاء لهم بالتوفيق والعون، كل ذلك كان حافزاً على الثبات ورافعاً للمعنويات، فلم يعبأوا بقوة ابن الأشرف ومن حوله من الناس، ، لأنهم استشعروا معية الله لهم ودعاء الرسول ﷺ ربه بإعانتهم وتحقيق مسعاهم، ونلحظ في الهدى النبوي الأخذ بجميع الأسباب المادية، والتخطيط السديد، ولا يُنسى جانب الدعاء النبوي الكريم، فإنهم لم يغفلوا الأسباب الموصولة بهم إلى نجاح مقصودهم لأن المسلم مأمور بالجمع بين التوكل على الله تعالى والأخذ بالأسباب التي شرّعها الله سبحانه [٤]، ولذلك كانت خطة محمد بن مسلمة مع إخوانه محكمة وأتقنوا فقه سنّة الأخذ بالأسباب، فقد كانت الأسباب التي ساعدت على نجاح الخطة كالتالي:

* إن أبا نائلة كان أخاه من الرضاعة وهو يطمئن إليه ولا يتوجّس منه خيفة.

* وفي بعض الروايات، طمأن أبو نائلة كعب بن الأشرف وأدخل الأنس إلى قلبه بمناشدته في الشعر قبل أن يحدّثه عن حاجته.

* ولم يحدث عن حاجته إلى كعب حتى أخرج معب الذي عنده كان من سبل التوفيق، ولو بقي أولئك النفر لربما قد كشفوا حقيقة الأمر وحذروا كعباً من عاقبته، فحديثهم معه على انفراد كان في غاية التوفيق.

* تظاهرهم بالنيل والتبرم والتظلم من الرسول ﷺ طمأن كعب بن الأشرف.

* فكرة رهن السلاح كانت في غاية التوفيق حتى يكون اصطحابهم للسلاح غير مريب ولا يبعث على الريبة، ذلك لأنهم أحضروا ما سيرهنونه إلى كعب، وفي الوقت نفسه يستطيعون أن يستخدموا هذا السلاح في أي وقت التقوا به.

* أخذ الموعد من كعب بن الأشرف كان إحكاماً في الخطة بحيث يتسنى لهم في أي وقت من الليل أن يأتوه ويطرقوا عليه الباب دون أن يشك فيهم وفي نيّتهم.

---

(١) انظر: الأساس في السنة وفقهها، السيرة النبوية (٢/ ٥٣٧، ٥٣٨).

(٢) صحيح مسلم رقم (١٧٤٠).

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٦١).

(٤) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٥/ ٦٥).

* اطمئنان ابن الأشرف إلى أبي نائلة ومحمد بن مسلمة جعله يخرج في وقت لا يخرج فيه الإنسان من بيته عادةً تحسباً لقتال عدو على حين غرة وغفلة [(١)].

* إن خطة إبعاد ابن الأشرف عن بيته إلى مكان يخلو به دون رقيب أو نصير كانت موفّقة.

* استدراج أبي نائلة لابن الأشرف وشمّه طيب رأسه وإمساكه بشعره ليشمّه كان موفّقاً وتقدمة ليمسك بهذا الرأس الخبيث، ويتمكن منه لتكون الفرصة سانحة لتنفيذ حكم الله في هذا اليهودي اللعين [(٢)].

* وتظهر قدرة الصحابة الفائقة في الحفاظ على السرية، وذلك من كتمان هذه الخطة مع كثرة من في المدينة والمنافقين، ومع تأخر تنفيذها، وكون النبي ﷺ عرض هذا الأمر في مشهد من الصحابة، وجرت فيه مشورة، وهذا دليل على قوة إيمان هؤلاء الصحابة وإخلاصهم لدينهم [(٣)].

وقام هؤلاء المغاوير بتنفيذ أدوار الخطة المحكمة التي اتفقوا عليها وأدركوا مقصودهم الأسمى، ورسول الله ﷺ معهم بإحساسه الكبير ومشاعره الفيّاضة، فقد كانوا يقومون بتنفيذ العملية بعقولهم وأجسامهم، ورسول الله ﷺ يتولى قيادتها العليا بالاتصال بالله تعالى ودعائه بالنصر والإعانة [(٤)].

٣ ـ أثر مقتل اليهودي ابن الأشرف على اليهود:

انتشر خبر مقتل ابن الأشرف في المدينة، فأسرع أحبار اليهود إلى رسول الله ﷺ، يشتكون ويحتجون على ما فعله أصحابه، فلم يحفل النبي ﷺ بهم، بل أكّد مقتله الذي كان نتيجة حتمية لموقفه المعادي، وقد أوقعت هذه الحادثة الرعب في نفوس اليهود جميعهم، فلم يعد أحد من عظمائهم يجرؤ على الخروج من حصنه، كما لم يعد أحد من يهود المدينة إلا ويخاف على نفسه من المسلمين [(٥)]، واضطر اليهود لتجديد المعاهدة، وكان لمقتل كعب بن الأشرف أثر عميق في نفوسهم، فمضوا يكيدون للإسلام كما سيتبين من الأحداث، ومن الجدير بالذكر أن الرسول ﷺ لم يؤاخذ بني النضير بجريرة كعب بن الأشرف واكتفى بقتله جزاء غدره وجدد المعاهدة معهم [(٦)]، ومن الفقه النبوي في معاملة اليهود نستفيد أن العلاج الأمثل لليهود هو

---

(١) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ١٢٢).

(٢) المصدر نفسه، (١/ ١٢٢).

(٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٥/ ٥٦).

(٤) المصدر نفسه، (٥/ ٥٧).

(٥) انظر: التاريخ السياسي والعسكري، (ص ١٨٨).

(٦) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٠٤).

زجرهم وإرهابهم وقتل أهل الفتن فيهم ومطاردتهم، لأنهم أهل شرور لا يتخلصون منها ولا يتوقفون عنها [(١)].

رابعاً: بعض المناسبات الاجتماعية:

١ ـ زواج النبي ﷺ بحفصة بنت عمر:

قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: (حين تأيمت [(٢)] حفصة بنت عمر من خنيس بن حذافة السهمي، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ فتوفى بالمدينة، فقال عمر: أتيت عثمان بن عفان فعرضت عليه حفصة، فقال: سأنظر في أمري، فلبثت ليالي، ثم لقيني فقال: قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا.

قال عمر: فلقيت أبا بكر الصديق، فقلت: إن شئت زوّجتك حفصة بنت عمر، فصمت أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ فلم يرجع إليَّ شيئاً، وكنت عليه أوجد مني على عثمان.

فلبثت ليالي، ثم خطبها رسول الله ﷺ فأنكحتها إياه، فلقيني أبو بكر فقال: لعلّك وجدت عليّ حين عرضت عليّ حفصة، فلم أرجع إليك شيئاً؟

قال عمر: قلت نعم، قال: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت عليّ إلا أني كنت علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ ولو تركها رسول الله ﷺ قبلتها) [(٣)].

٢ ـ زواج علي ـ رضي الله عنه ـ بفاطمة ـ رضي الله عنها ـ:

قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: خطبت فاطمة إلى رسول الله ﷺ فقالت مولاة لي: هل علمت أن فاطمة قد خطبت إلى رسول الله ﷺ؟ قلت: لا. قالت: فقد خطبت، فما يمنعك أن تأتي رسول الله ﷺ فيزوّجك. فقلت: وعندي شيء أتزوّج به؟ فقالت: إنك إن جئت رسول الله ﷺ زوّجك.

قال: فوالله ما زالت ترجيني حتى دخلت على رسول الله ﷺ، فلما أن قعدت بين يديه أفحمت، فوالله ما استطعت أن أتكلم جلالة وهيبة.

فقال رسول الله ﷺ: «ما جاء بك؟ ألك حاجة؟» فسكت فقال: «لعلّك جئت تخطب فاطمة؟» فقلت: نعم، فقال: «وهل عندك من شيء ستحلها به؟» فقلت: لا والله يا رسول الله. فقال: «ما فعلت درع سلحتكها؟ فوالذي نفس علي بيده إنها لحطيمة ما قيمتها أربعة دراهم»

---

(١) انظر: الصراع مع اليهود (١/١٢٦).

(٢) تأيمت: مات عنها زوجها.

(٣) البخاري: كتاب النكاح، رقم (٥١٢٢).

فقلت: عندي، فقال: «قد زوّجتكها» فابعث إليها بها فاستحلها بها» فإنها كانت لصداق فاطمة بنت رسول الله ﷺ (١)، وقد جهّز رسول الله ﷺ فاطمة في خميل (٢) وقربة ووسادة أدم (٣)، حشوها إذخر (٤)) (٥).

وهكذا كانت حياتهم في غاية البساطة بعيدة عن التعقيد، وهي إلى شظف العيش أقرب منها إلى رغده (٦)، وهذه القصة تصوّر لنا حال السيدة فاطمة من التعب وموقف رسول الله ﷺ منها عندما طلبت منه أن يعطيها خادماً من السبي، فقد جاء في مسند الإمام أحمد: «قال علي لفاطمة ذات يوم والله لقد سنوت (٧) حتى لقد اشتكيت صدري، قال: وجاء الله أباك بسبي فاذهبي فاستخدميه (٨)، فقالت: أنا والله قد طحنت حتى مجلت يدي» (٩).

فأتيت النبي ﷺ فقال: «ما جاء بك أي بنية» قالت: جئت لأسلم عليك، واستحيت أن تسأله ورجعت. فقال: «ما فعلت؟» قالت: استحييت أن أسأله. فأتينا جميعاً. فقال علي: يا رسول الله والله لقد سنوت حتى اشتكيت صدري، وقالت فاطمة: قد طحنت حتى مجلت يداي، وقد جاءك الله بسبي وسعة فأخدمنا، فقال رسول الله ﷺ: والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تطوى (١٠) بطونهم، لا أجد ما أنفق عليهم، ولكني أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم، فرجعا فأتاهما النبي ﷺ وقد دخلا في قطيفتهما إذا غطت رؤوسهما تكشف أقدامهما وإذا غطيا أقدامهما تكشفت رؤوسهما، فثار، فقال: مكانكما. ثم قال: ألا أخبركما بخير مما سألتماني؟ قالا: بلى. فقال: كلمات علمنيهن جبريل عليه السلام، فقال: تسبحان في دبر كل صلاة عشراً، وتحمدان عشراً، وتكبران عشراً، وإذا أويتما إلى فراشكما فسبحا ثلاثاً وثلاثين واحمدا ثلاثاً وثلاثين وكبرا أربعاً وثلاثين (١١).

وهكذا كان الهدي النبوي في تربية أهل بيته وأقربائه، لقد أخفقت مساعي السيدة فاطمة وعلي رضي الله عنهما للحصول على خادم، لأن السبي يريد ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يبيعه، وينفق ثمنه

---

(١) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ١٦٠) إسناده حسن.
(٢) خميل: القطيفة.
(٣) الأدم: الجلد.
(٤) إذخر: نبات.
(٥) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٦٧).
(٦) انظر: معين السيرة، (ص ٢٥٥).
(٧) سنوت: استقيت.
(٨) أي اسأليه خادماً.
(٩) مجلت يدي: ثخن جلدها وتعجر.
(١٠) تطوى: طوى من الجوع فهو طاو خالي البطن جائع لم يأكل.
(١١) انظر: الفتح الرباني (١٧/ ٢٦٠)، رقم (٩٠).

على أهل الصفة الذين يتلوّون من الجوع، فهم أيضاً من خاصة رسول الله ﷺ مثل علي وفاطمة، والطعام مقدم على الخدمة [(١)]، ولقد تأثر علي - رضي الله عنه - بهذه التربية النبوية، ويمر الزمن بالفتى علي فيصبح خليفة المسلمين، فإذا به من آثار هذه التربية يترفع عن الدنيا وزخارفها وبيده كنوز الأرض وخيراتها، لأن ذكر الله يملأ قلبه ويغمر وجوده، ولقد حافظ على وصية رسول الله له وقد حدّثنا عن ذلك فقال: فوالله ما تركتهن منذ علمنيهن، فسأله أحد أصحابه: ولا ليلة صفين فقال: ولا ليلة صفين [(٢)]، وكان كما وصفه ضرار بن ضمرة في مجلس معاوية: «... يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، كان والله غزير العبرة، طويل الفكرة، يقلب كفه، ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما جشب...» [(٣)].

---

(١) انظر: التربية القيادية (٣/ ١٠٠).

(٢) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (٨/ ١٥٩).

(٣) انظر: صفة الصفوة لابن الجوزي (١/ ٨٤).

الفصل التاسع
غزوة أُحد

المبحث الأول
أحداث ما قبل المعركة

أولاً: أسباب الغزوة:

كانت أسباب غزوة أُحد متعددة منها: الديني، والاجتماعي، والاقتصادي والسياسي.

١ ـ السبب الديني:

فقد أخبر المولى ﷻ أن المشركين ينفقون أموالهم في الصد عن سبيل الله، وإقامة العقبات أمام الدعوة الإسلامية، ومنع الناس في الدخول في الإسلام والسعي للقضاء على الإسلام، والمسلمين ودولتهم الناشئة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

قال الطبري: يصرفون أموالهم وينفقونها، ليمنعوا الناس عن الدخول في الإسلام [١].

وقال ابن كثير: أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع الحق [٢].

وقال الشوكاني: والمعنى أن غرض هؤلاء الكفار في إنفاق أموالهم هو الصد عن سبيل الحق بمحاربة رسول الله ﷺ وجمع الجيوش لذلك [٣].

من هذا يظهر أن أهم أسباب غزوة أحد هو السبب الديني الذي كان من أهداف قريش للصد عن سبيل الله، واتباع طريق الحق، ومنع الناس من الدخول في الإسلام، ومحاربة الرسول ﷺ، والقضاء على الدعوة الإسلامية [٤].

---

(١) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية، محمد بامذحج، (ص ٧١).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤١)، ط/ دار السلام.

(٣) انظر: فتح القدير (٣٠٩).

(٤) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية، (ص ٧١).

٢ ـ السبب الاجتماعي:

كان للهزيمة الكبيرة في بدر، وقتل السادة الأشراف من قريش وقع كبير من الخزي والعار الذي لحق بهم، وجعلهم يشعرون بالمذلة والهزيمة، ولذلك بذلوا قصارى جهدهم في غسل هذه الذلة والمهانة التي لصقت بهم، ولذلك شرعوا في جمع المال لحرب رسول الله ﷺ فور عودتهم من بدر، قال ابن إسحاق: (لما أصيب يوم بدر من كفار قريش أصحاب القليب، ورجع فلُّهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بعيرهم فأوقفها بدار الندوة وكذلك كانوا يصنعون، فلم يحركها ولا فرقها، فطابت أنفس أشرافهم أن يجهزوا منها جيشاً لقتال رسول الله ﷺ، فمشى عبد الله بن ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، والحارث بن هشام، وحويطب بن عبد العزى، وصفوان بن أمية في رجال ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم، وإخوانهم يوم بدر، فكلموا أبا سفيان ومن كانت له في تلك العير تجارة من قريش، فقالوا: إن محمداً قد وتركم، وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا فقال أبو سفيان: أنا أول من أجاب إلى ذلك [(١)].

ودعا جبير بن مطعم غلاماً له حبشياً يقال له: وحشي، يقذف بحربة له قذف الحبشة قلما يخطىء لها فقال: اخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمزة عم محمد بعمي طعيمة بن عدي، فأنت عتيق [(٢)].

٣ ـ السبب الاقتصادي:

كانت حركة السرايا التي تقوم بها الدولة الإسلامية قد أثرت على اقتصاد قريش وفرضت عليهم حصاراً اقتصادياً قوياً، وكان الاقتصاد المكي قائماً على رحلتي الشتاء والصيف؛ رحلة الشتاء إلى اليمن وتحمل إليها بضائع الشام ومحاصيلها، ورحلة الصيف إلى الشام تحمل إليها محاصيل اليمن وبضائعها، وقطع أحد جناحي هاتين الرحلتين ضر للجناح الآخر، لأن تجارتهم إلى الشام قائمة على سلع الشام [(٣)] قال تعالى: ﴿لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ ① إِۦلَـٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ② فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ③ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ④﴾ [سورة قُرَيش] .

ويشير إلى هذا قول صفوان بن أمية: (إن محمداً وأصحابه قد عوّروا علينا متاجرنا، فما ندري كيف نتصنع بأصحابه، وهم لا يبرحون الساحل، قد وادعهم [(٤)]، ودخل عامتهم معه فما

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٦٨).

(٢) المصدر نفسه، (ص ٣/٧٩).

(٣) انظر: غزوة أُحد دراسة دعوية، (ص ٧٤).

(٤) وادعهم: أي صالحهم وسالمهم.

ندري أين نسلك؟ وإن أقمنا نأكل رؤوس أموالنا ونحن في ديارنا هذه مالنا بها بقاء، وإنما نزلناها على التجارة إلى الشام في الصيف وفي الشتاء إلى الحبشة) [١].

٤ ـ السبب السياسي:

فقد أخذت سيادة قريش في الانهيار بعد غزوة بدر وتزعزع مركزها بين القبائل بوصفها زعيمة لها، فلا بدّ من رد الاعتبار والحفاظ على زعامتها مهما كلفها الأمر من جهود ومال وضحايا.

هذه أهم الأسباب التي جعلت قريش تبادر إلى المواجهة العسكرية ضد الدولة الإسلامية بالمدينة [٢].

ثانياً: خروج قريش من مكة إلى المدينة:

استكملت قريش قواها في يوم السبت لسبع خلون من شوال من السنة الثالثة من الهجرة [٣]، وعبأت جيشها المكوّن من ثلاثة آلاف مقاتل مصحبين معهم النساء والعبيد، ومن تبعها من القبائل العربية المجاورة، فخرجت قريش بحدها وحديدها وأحابيشها [٤] ومن تبعها من كنانة وأهل تهامة، وخرجوا بالظعن [٥]، التماس الحفيظة، لئلا يفروا.

فخرج أبو سفيان وهو قائد الناس بهند ابنة عتبة بن ربيعة [٦]، وخرج صفوان بن أمية بن خلف ببرزة ابنة مسعود الثقفية، وخرج عكرمة بن أبي جهل بأم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة، وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة [٧].. فأقبلوا حتى نزلوا ببطن السبخة من قناة على شفير الوادي مما يلي المدينة [٨].

كانت التعبئة القرشية قد سبقتها حملة إعلامية ضخمة تولى كبرها، أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحي، وعمرو بن العاص، وهبيرة المخزومي، وابن الزبعري، وقد حققت نتائج كبيرة [٩]، وبلغت النفقات الحربية لجيش قريش خمسين ألف دينار ذهباً [١٠].

---

(١) انظر: المغازي للواقدي (١/ ١٩٥، ١٩٦).

(٢) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية، (ص ٧٥).

(٣) البداية والنهاية ٤/ ١١، الواقدي: المغازي (١/ ١٩٩).

(٤) الأحابيش: من اجتمع إلى العرب وانضم إليهم.

(٥) الظعن: النساء، واحدتها ظعينة والظعينة المرأة في الهودج.

(٦) انظر: الإصابة ٨/ ٣٤٦، رقم ١١٨٦٠.

(٧) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٧٠).

(٨) انظر: غزوة أُحد دراسة دعوية، (ص ٦٨.

(٩) انظر: غزوة أُحد لأبي فارس، (ص ١٧).

(١٠) المصدر نفسه، (ص ١٦).

ثالثاً: الاستخبارات النبوية تتابع حركة العدو:

كان العباس بن عبد المطلب يرقب حركات قريش واستعداداتها العسكرية، فلما تحرك هذا الجيش بعث العباس رسالة عاجلة إلى النبي ﷺ، ضمنها جميع تفاصيل الجيش، وأسرع رسول العباس بإبلاغ الرسالة، وجدَّ في السير حتى إنه قطع الطريق بين مكة والمدينة ـ التي تبلغ مساحتها خمسمائة كيلومتر ـ في ثلاثة أيام وسلم الرسالة إلى النبي ﷺ وهو في مسجد قباء [(١)].

كان النبي ﷺ يتابع أخبار قريش بدقة بواسطة عمه العباس، قال ابن عبد البر: (وكان ـ ﷺ ـ يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله ﷺ، وكان المسلمون يتقوون به بمكة، وكان يحب أن يقدم على رسول الله، فكتب إليه رسول الله ﷺ أن مقامك في مكة خير) [(٢)].

كانت المعلومات التي قدّمها العباس لرسول الله ﷺ دقيقة فقد جاء في رسالته: (إن قريشاً قد أجمعت المسير إليك، فما كنت صانعاً إذا حلوا بك فاصنعه، وقد توجهوا إليك وهم ثلاثة آلاف وقادوا مائتي فرس وفيهم سبعمائة دارع وثلاثة آلاف بعير وأوعبوا [(٣)] من السلاح) [(٤)].

وقد احتوت هذه الرسالة على أمور مهمة منها:

١ ـ معلومات مؤكدة عن تحرك قوات المشركين نحو المدينة.

٢ ـ حجم الجيش وقدراته القتالية، وهذا يعين على وضع خطة تواجه هذه القوات الزاحفة.

لم يكتف النبي ﷺ بمعلومات المخابرات المكية، بل حرص على أن تكون معلوماته على هذا العدو متجددة مع تلاحق الزمن، وفي هذا إرشاد لقادة المسلمين بأهمية متابعة الأخبار التي يتولد عنها وضع خطط واستراتيجيات نافعة، ولذلك أرسل ﷺ الحباب بن المنذر بن الجموح إلى قريش يستطلع الخبر، فدخل بين جيش مكة وحزر عَدَده وعُدَده ورجع، فسأله رسول الله ﷺ: «ما رأيت؟» قال: رأيت يا رسول الله عدداً، حزرتهم ثلاثة آلاف يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً، والخيل مائتي فرس، ورأيت دروعاً ظاهرة حزرتها سبعمائة درع، قال: «هل رأيت ظعناً؟» قال: رأيت النساء معهن الدفاف والأكبار [(٥)]... فقال رسول الله ﷺ: «أردن أن يحرضن القوم ويذكرنهم قتلى بدر، هكذا جاءني خبرهم لا تذكر من شأنهم حرفاً، حسبنا الله ونعم الوكيل، اللهم بك أجول وبك أصول» [(٦)].

---

(١) انظر: الرحيق المختوم، للمباركفوري (ص ٢٥٠).

(٢) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٢/ ٨١٢).

(٣) أوعبوا: خرجوا بجميع ما عندهم من السلاح.

(٤) انظر: المغازي للواقدي (١/ ٢٠٤).

(٥) الأكبار: جمع كَبَر، والكَبر هو: الطبل الذي له وجه واحد وهو فارس معرب.

(٦) انظر: مغازي الواقدي (١/ ٢٠٧، ٢٠٨).

كما أرسل ﷺ أنساً ومؤنساً ابني فضالة يتنصتان أخبار قريش، فألفياها قد قاربت المدينة، وأرسلت خيلها وإبلها ترعى زروع يثرب المحيطة بها، وعادا فأخبراه بخبر القوم [١].

وبعد أن تأكد من المعلومات حرص ﷺ على حصر تلك المعلومات على المستوى القيادي. خوفاً من أن يؤثر هذا الخبر على معنويات المسلمين قبل إعداد العدة، ولذلك حين قرأ أُبي بن كعب رسالة العباس أمره ﷺ بكتمان الأمر وعاد مسرعاً إلى المدينة، وتبادل الرأي مع قادة المهاجرين والأنصار في كيفية مواجهة الموقف، وكان ﷺ قد أطلع سيد الأنصار سعد بن الربيع على خبر رسالة العباس فقال: والله إني لأرجو أن يكون خيراً، فاستكتمه إياه؛ فلما خرج رسول الله ﷺ من عند سعد، قالت له امرأته: ما قال لك رسول الله؟ فقال لها: لا أم لك، أنت وذاك، فقالت: قد سمعت ما قال لك، فأخبرته بما أسرّ به الرسول ﷺ فاسترجع سعد. وقال: يا رسول الله، إن خفت أن أني يفشو الخبر فترى أني أنا المفشي له وقد استكتمتني إياه، فقال رسول الله ﷺ: «خلِّ عنها» [٢].

وفي هذه الحادثة درس بالغ للعسكريين وتحذيرهم من إطلاع زوجاتهم على أسرارهم العسكرية وخططهم وأوامرهم، وينبغي الحذر من إفشاء مثل هذه الأسرار، لأن إفشاءها يهدد الأمة ومستقبلها بكارثة كبرى.

إن تاريخ الأمم والشعوب في القديم والحديث يحدثنا أن كثيراً من الهزائم والمآسي والآلام قد حلّت بكثير من الأمم نتيجة لتسرب أسرار الجيوش إلى أعدائها عن طريق زوجة خائنة، أو خائن في ثوب صديق، أو قريب في الظاهر، عدو في الحقيقة والواقع [٣].

رابعاً: مشاورته ﷺ لأصحابه:

بعد أن جمع ﷺ المعلومات الكاملة عن جيش كفار قريش جمع أصحابه - ﷺ - وشاورهم في البقاء في المدينة والتحصن فيها أو الخروج لملاقاة المشركين، وكان رأي النبي ﷺ البقاء في المدينة، وقال: «إنا في جُنة حصينة» [٤]، فإن رأيتم أن تقيموا وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن دخلوا علينا قاتلناهم فيها. وكان رأي عبد الله بن أبي بن سلول [٥] مع رأي رسول الله ﷺ إلا أن رجالاً من المسلمين ممن فاتهم بدر قالوا: يا رسول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا.

قال ابن كثير: (وأبى كثير من الناس إلا الخروج إلى العدو ولم يتناهوا إلى قول

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٨٧).
(٢) انظر: السيرة الحلبية (٢/ ٤٨٩).
(٣) انظر: غزوة أُحد لأبي فارس، (ص ٢٢).
(٤) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٦٠).
(٥) انظر: غزوة أُحد دراسة دعوية، (ص ٨٢).

رسول الله ﷺ ورأيه، ولو رضُوا بالذي أمرهم كان ذلك، ولكن غلب القضاء والقدر، وعامة من أشار عليه بالخروج رجال لم يشهدوا بدراً، وقد علموا الذي سبق لأهل بدر من الفضيلة) [١].

وقال ابن إسحاق: فلم يزل الناس برسول الله ﷺ الذي كان من أمرهم حب لقاء القوم. حتى دخل رسول الله ﷺ بيته، فلبس لأمته [٢]، فتلاوم القوم فقالوا: عرض نبي الله ﷺ بأمر وعرضتم بغيره، فاذهب يا حمزة، فقل لنبي الله ﷺ: أمرُنا لأمرك تبع، فأتى حمزة فقال له: (يا نبي الله، إن القوم تلاوموا، فقالوا: أمرنا لأمرك تبع، فقال رسول الله ﷺ: «إنه ليس لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل» [٣].

كان رأي من يرى الخروج إلى خارج المدينة مبنياً على أمور منها:

١ ـ إن الأنصار قد عاهدوا في بيعة العقبة الثانية على نصرة الرسول ﷺ، فكان أغلبهم يرى أن المكوث داخل المدينة، تقاعس عن الوفاء بهذا العهد.

٢ ـ إن الأقلية من المهاجرين كانت ترى أنها أحق من الأنصار في الدفاع عن المدينة، ومهاجمة قريش وصدّها عن زروع الأنصار.

٣ ـ إن الذين فاتتهم غزوة بدر، كانوا يتحرقون شوقاً من أجل ملاقاة الأعداء، طمعاً في حصول الشهادة في سبيل الله.

٤ ـ إن الأكثرين كانوا يرون أن في محاصرة قريش للمدينة ظفراً يجب ألا تحلم به، كما توقعوا أن وقت الحصار سيطول أمده، فيصبح المسلمون مهددين بقطع المؤن عنهم [٤].

أما وجهة نظر من يرى البقاء في المدينة فهو مبني على التخطيط الحربي الآتي:

١ ـ إن جيش مكة لم يكن موحد العناصر وبذلك يستحيل على هذا الجيش البقاء زمناً طويلاً، إذ لا بدّ من ظهور الخلاف بينهم إن عاجلاً أو آجلاً.

٢ ـ أن مهاجمة المدن المصمّمة على الدفاع عن حياضها وقلاعا وبيضتها أمر بعيد المنال، وخصوصاً إذا تشابه السلاح عند كلا الجيشين، وقد كان يوم أحد متشابهاً.

٣ ـ إن المدافعين إذا كانوا بين أهليهم فإنهم يستبسلون في الدفاع عن أبنائهم وحماية نسائهم وبناتهم وأعراضهم.

٤ ـ مشاركة النساء والأبناء في القتال وبذلك يتضاعف عدد المقاتلين.

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٤).

(٢) لأمة الحرب: عدتها.

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٧١).

(٤) انظر: غزوة أُحد لأحمد عز الدين (ص ٥١، ٥٢).

٥ ـ استخدام المدافعين أسلحة لها أثر في صفوف الأعداء مثل الأحجار وغيرها وتكون إصابة المهاجمين في متناولهم [(١)].

من الواضح أن الرسول ﷺ ربّى أصحابه على التصريح بآرائهم عند مشاورته لهم، حتى ولو خالفت رأيه، فهو إنما يشاورهم فيما لا نص فيه، تعويداً لهم على التفكير في الأمور العامة، ومعالجة مشاكل الأمة، فلا فائدة من المشورة إذا لم تقترن بحرية إبداء الرأي، ولم يحدث أن لام الرسول ﷺ أحداً لأنه أخطأ في اجتهاده ولم يوفق في رأيه، وكذلك فإن الأخذ بالشورى ملزم للإمام، فلا بدّ أن يطبق الرسول التوجيه القرآني: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٩] لتعتاد الأمة على ممارسة الشورى، وهنا يظهر الوعي السياسي عند الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فرغم أن لهم إبداء الرأي إلا أنه ليس لهم فرضه على القائد، فحسبهم أن يبينوا رأيهم ويتركوا للقائد حرية اختيار ما يترجح لديه من الآراء، فلما رأوا أنهم ألحوا في الخروج وأن الرسول ﷺ عزم على الخروج بسبب إلحاحهم عادوا فاعتذروا إليه، لكن الرسول الكريم علمهم درساً آخر هو من صفات القيادة الناجحة وهو عدم التردد بعد العزيمة والشروع في التنفيذ، فإن ذلك يزعزع الثقة بها ويغرس الفوضى بين الأتباع [(٢)].

كان النبي ﷺ قد عزم على الخروج وقد أعلن حالة الطوارىء العامة، وتجهز الجميع للقتال، وأمضوا ليلتهم في حذر، كل يصحب سلاحه ولا يفارقه حتى عند نومه، وأمر ﷺ بحراسة المدينة، واختار خمسين من أشداء المسلمين ومحاربيهم بقيادة محمد بن مسلمة، واهتم الصحابة بحراسة رسول الله ﷺ، فبات سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وسعد بن عبادة في عدة من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أجمعين ـ ليلة الجمعة مدججين بالسلاح في باب المسجد يحرسون رسول الله ﷺ [(٣)].

خامساً: خروج جيش المسلمين إلى أُحد:

أ ـ من الأسباب المهمة التي اتخذها ﷺ لملاقاة أعدائه، اختياره لوقت التحرك والطريق التي تناسب خطته، فقد تحرك بعد منتصف الليل، حيث يكون الجو هادئاً والحركة قليلة وفي هذا الوقت بالذات يكون الأعداء غالباً في نوم عميق، لأن الإعياء ومشقة السفر قد أخذا منهم مجهوداً كبيراً.

---

(١) انظر: القيادة العسكرية للرشيد (ص ٣٧٤).

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٨٠).

(٣) انظر: غزوة أُحد لأبي فارس (ص ٣٤، ٣٥).

ومن المعروف أنه من نام بعد تعب يكون ثقيل النوم، فلا يشعر بالأصوات العالية، والحركة الثقيلة.

قال الواقدي رحمه الله: ونام رسول الله ﷺ حتى أدلج، فلما كان في السحر قال: «أين الأدلاء؟» (١) ثم إنه ﷺ اختار الطريق المناسب الذي يسلكه حتى يصل إلى أرض المعركة، وذكر صفة ينبغي أن تتوافر في هذا الطريق وهو السرية، حتى لا يرى الأعداء جيش المسلمين، فقال ﷺ لأصحابه: «من رجلٌ يخرج على القوم من طريق لا يمر بنا عليهم؟» فأبدى أبو خيثمة ـ رضي الله عنه ـ استعداده قائلاً: أنا يا رسول الله، فنفذ به في حرة بني حارثة وبين أموالهم، حتى سلك به في مال لمربع بن قيظي، وكان رجلاً منافقاً ضرير البصر، فلما أحس برسول الله ومن معه من المسلمين، قام يحثي في وجوههم التراب، وهو يقول: إن كنت رسول الله فلا أحل لك أن تدخل حائطي، وقد ذكر أنه أخذ حفنة من تراب بيده، ثم قال: والله لو أعلم أني لا أصيب بها غيرك يا محمد، لضربت بها وجهك، فابتدره القوم ليقتلوه، فقال لهم: لا تقتلوه فهذا الأعمى أعمى القلب، أعمى البصر، وقد بدر إليه سعد بن زيد أخو بني الأشهل (٢) قبل نهي رسول الله عنه، فضربه بالقوس في رأسه فشجه (٣).

ولا شك في أن مروره ﷺ بين الأشجار والبساتين يدلنا على حرصه ﷺ على الأخذ بالاحتياطات الأمنية المناسبة في أثناء السير، لأن الطرق تكشف للأعداء عن مقدار قوات المسلمين، وهذا أمر محذور، فالرسول ﷺ علّم الأمة الأخذ بالسرية من حيث المكان، ومن حيث الزمان، لئلا يستطيع الأعداء معرفة قواتهم فيضعوا الخطط المناسبة لمجابهتها، وبذلك يذهب تنظيم القادة وإعدادهم لجيوشهم في مهب الرياح.

وفي هذا الخبر تطبيق عملي لتقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة إذا تعارضت المصلحتان، فالرسول ﷺ حينما أمر بالجيش في أرض المنافق مربع بن قيظي، وترتب على ذلك إفساد المزرعة لكن فيه مصلحة للجيش باختصار الطريق لهم إلى أحد، فبين ﷺ أن ما يكون به مصلحة للدين مقدم على ما سواه من المصالح الأخرى، فهنا تعارضت مصلحتان، مصلحة عامة، ومصلحة خاصة، ومصلحة الدين في هذا الموقف مصلحة عامة، وهي مقدمة على المصلحة الخاصة، وهي مصلحة المال (٤) وقد رتَّب الشارع الحكيم مقاصد الشرع في تحقيق المنافع لعباده من حفظ دينهم ونفوسهم وعقولهم ونسلهم وأموالهم، طبق ترتيب معين فيما بينها (٥)، فإذا نظرنا إلى كليات الدين الخمس وأهميتها، وجدنا أن هذه الكليات متدرجة حسب الأهمية: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال، فما يكون به حفظ الدين مقدم

(١) انظر: المغازي للواقدي (١/ ٢١٧).

(٢) بنو الأشهل: حي من الأنصار.

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٧٣).

(٤) انظر: غزوة أُحد دراسة دعوية (ص ١٦٨).

(٥) انظر: ضوابط المصلحة، محمد رمضان البوطي (ص ٢٣).

على ما يكون به حفظ النفس عند تعارضهما، وما يكون به حفظ النفس مقدم على ما به يكون حفظ العقل، وما يكون به حفظ النسل مقدم على ما به حفظ المال، والترتيب بهذا الشكل من هذه الكليات يحظى باتفاق العلماء [١].

ب ـ انسحاب المنافق ابن سلول بثلث الجيش:

عندما وصل جيش المسلمين الشواط [٢]، انسحب المنافق ابن سلول بثلاثمائة من المنافقين، بحجة أنه لن يقع قتال مع المشركين، ومعترضاً على قرار القتال خارج المدينة، قائلاً: (أطاع الولدان ومن لا رأي له، أطاعهم وعصاني، علام نقتل أنفسنا) [٣] وكان هدفه الرئيسي من هذا التمرد أن يُحدث بلبلة واضطراباً في الجيش الإسلامي، لتنهار معنوياته، ويتشجع العدو، وتعلو همته، وعمله هذا ينطوي على خيانة عظمى وبغض للإسلام والمسلمين، وقد اقتضت حكمة الله أن يمحص الله الجيش ليظهر الخبيث من الطيب حتى لا يختلط المخلص بالمغرض، والمؤمن بالمنافق [٤]، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عِمرَان: ١٧٩].

فالجبن والنكوص هما اللذان كشفا عن طوية النافقين فافتضحوا أمام أنفسهم وأمام الناس قبل أن يفضحهم القرآن [٥].

جـ ـ موقف عبد الله بن عمرو بن حرام من انخذال المنافقين:

حاول عبد الله بن حرام ـ رضي الله عنه ـ إقناع المنافقين بالعودة فأبوا، فقال: يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم؛ فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكنا لا نرى أن يكون قتال، فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم قال: أبعدكم الله، أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيه [٦]. وفي هؤلاء المنخذلين نزل قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٦٦ ـ ١٦٧].

د ـ بنو سلمة، وبنو حارثة:

ولما رجع ابن أُبي ابن سلول وأصحابه همت بنو سلمة وبنو حارثة أن ترجعا، ولكن الله

---

(١) انظر: المقاصد العامة للشريعة، يوسف حامد العالم (ص ١٦٦).

(٢) الشواط: اسم حائط ـ أي بستان ـ بين المدينة وأحد.

(٣) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٤).

(٤) انظر: غزوة أُحد دراسة دعوية (ص ٨٤).

(٥) انظر: مرويات غزوة أحد، حسين أحمد (ص ٧١).

(٦) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٢٧٧).

ثبتهما وعصمهما. قال جابر بن عبد الله نزلت هذه الآية فينا: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عِمرَان: ١٢٢] بني سلمة، وبني حارثة، وما أحب أنها لم تنزل والله يقول: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [آل عِمرَان: ١٢٢] (١).

لقد أثر موقف المنافقين في نفوس طائفتين من المسلمين ففكروا بالعودة إلى المدينة، ولكنهم غالبوا الضعف الذي ألم بهم، وانتصروا على أنفسهم بعد أن تولاهم الله تعالى فدفع عنهم الوهن، فثبتوا مع المؤمنين.

وقد ظهر رأيان في أوساط الصحابة تجاه موقف ابن سلول، **فالأول**: يرى قتل المنافقين الذين خذلوا المسلمين بعودتهم وانشقاقهم عن الجيش.

والثاني: لا يرى قتلهم، وقد بيّن القرآن الكريم موقف الفريقين (٢) في الآية: ﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النِّسَاء: ٨٨].

هـ ـ الاستعانة بغير المسلمين:

عندما وصل رسول الله ﷺ إلى مكان يدعى الشيخين رأى كتيبة لها صوت وجلبة فقال: «ما هذه؟» فقالوا: هؤلاء حلفاء عبد الله بن أُبي ابن سلول من يهود فقال ﷺ: «لا نستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك» (٣)، وهذا أصل وضعه النبي ﷺ في عدم الركون إلى أعداء الإسلام في الاستنصار بهم (٤).

و ـ رد النبي ﷺ بعض الصحابة لصغر سنهم:

ردّ النبي ﷺ في معسكره بالشيخين جماعة من الفتيان لصغر أعمارهم، إذ كانوا في سن الرابعة عشرة أو دون ذلك منهم عبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، وأسامة بن زيد، وزيد بن أرقم، والبراء بن عازب، وأبو سعيد الخدري، بلغ عددهم أربعة عشر صبياً، وقد ثبت أن ابن عمر كان منهم (٥)، وأجاز منهم رافع بن خديج لما قيل له: إنه رام، فبلغ ذلك سُمرة بن جندب، فذهب إلى زوج أمه مرّى بن سنان بن ثعلبة، عم أبي سعيد الخدري وهو الذي ربّى سمرة في حجره ـ يبكي ويقول له: يا أبت، أجاز رسول الله ﷺ رافعاً وردّني، وأنا أصرع رافعاً، فرجع زوج أمه هذا إلى النبي ﷺ فالتفت النبي ﷺ إلى رافع وسُمرة فقال لهما:

---

(١) البخاري في المغازي: باب «إذ همت طائفتان» (رقم ٤٠٥١).

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٣/ ٣٨٢).

(٣) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٢٧٨).

(٤) انظر: محمد رسول الله، محمد عرجون (٣/ ٥٦١).

(٥) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٨٣).

«تصارعا»، فصرع سُمرة رافعاً، فأجازه كما أجاز رافعاً، وجعلهما من جنده وعسكر كتائبه، ولكل منهما مجاله واختصاصه (١).

ونلحظ أن رسول الله ﷺ أجاز رافعاً وسُمرة لامتياز عسكري امتازا به على أقرانهما، وردّ صغار السن خشية أن لا يكون لهم صبر على ضرب السيوف، ورمي السهام، وطعن الرماح، فيفروا من المعركة إذا حمي الوطيس، فيحدث فرارهم خلخلة في صفوف المسلمين (٢).

ونلحظ أن المجتمع الإسلامي يضج بالحركة ويسعى للشهادة شيباً، وشباباً حتى الصبيان يقبلون على الموت ببسالة ورغبة في الشهادة، تبعث على الدهشة، دون أن يجبرهم قانون التجنيد أو تدفع بهم قيادة إلى ميدان القتال، وهذا يدل على أثر المنهج النبوي الكريم، في تربية شرائح الأمة المتعددة على حب الآخرة والترفع عن أمور الدنيا.

سادساً: خطة الرسول ﷺ لمواجهة كفار مكة:

أ ـ وضع الرسول ﷺ خطة محكمة لمواجهة المشركين من قريش، حيث اختار الموقع المناسب، وانتخب من يصلح للقتال، ورد من لم يكن صالحاً، واختار خمسين منهم للرماية وشدد الوصية عليهم، وقام بتقسيم الجيش إلى ثلاث كتائب، وأعطى اللواء لأحد أفراد الكتيبة، وهذه الكتائب هي:

١ ـ كتيبة المهاجرين، وأعطى لواءها مصعب بن عمير رضي الله عنه .

٢ ـ كتيبة الأوس من الأنصار، وأعطى لواءها أُسيد بن حضير رضي الله عنه .

٣ ـ كتيبة الخزرج من الأنصار، وأعطى لواءها الحُباب بن المنذر رضي الله عنه (٣).

ب ـ وكان ﷺ من هديه أن يُحرّض أصحابه على قتال الأعداء، ويحثهم على التحلي بالصبر في ميادين القتال، لكي تقوى روحهم المعنوية، ويصمدوا عند ملاقاة أعدائهم، ومن ذلك ما فعله يوم أُحد، وفي ذلك يقول الواقدي: (ثم قام رسول الله ﷺ فخطب الناس: يا أيها الناس أوصيكم بما أوصاني الله في كتابه، من العمل بطاعته، والتناهي عن محارمه، ثم إنكم اليوم بمنزل أجر وذُخر؛ لمن ذكر الذي عليه ثم وطّن نفسه له على الصبر واليقين، والجد والنشاط، فإن جهاد العدو شديد كريه، قليل من يصبر عليه، إلا من عزم الله رشده، فإن الله مع من أطاعه، وإن الشيطان مع من عصاه، فافتتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد والتمسوا بذلك ما وعدكم الله، وعليكم بالذي آمركم فإني حريص على رشدكم، فإن الاختلاف والتنازع والتثبيط من أمر العجز، والضعف مما لا يحب الله، ولا يُعطى عليه النصر ولا الظفر) (٤).

---

(١) انظر: محمد رسول الله (٣/ ٥٧١).

(٢) المصدر نفسه، (٣/ ٥٧٢).

(٣) انظر: غزوة أُحد دراسة دعوية (ص ٨٩).

(٤) انظر: مغازي الواقدي (١/ ٢٢١، ٢٢٢).

ويتضح من هذه الخطبة عدة أهداف منها:

١ ـ الحث على الجد والنشاط في ميدان الجهاد.

٢ ـ الحث على الصبر عند قتال الأعداء.

٣ ـ بيان مساوىء الاختلاف والتنازع (١).

إن هذا الهدي المبارك الذي سنّه ﷺ يعلمنا حقائق ثابتة، وهي أن الجيوش مهما عظم تسليحها وتنظيمها فإن ذلك لا يغني شيء إلا إذا حملته نفوس قوية تحرص على الموت أشد من حرصها على الحياة، وهذا يكون بتعبئة الجنود بالموعظة والتوجيه وغرس حب الجهاد والشهادة في نفوسهم.

جـ ـ أدرك الرسول ﷺ أهمية جبل أحد لحماية جيش المسلمين، فعندما وصل جيش المسلمين إلى جبل أُحد، جعل الرسول ﷺ ظهورهم إلى الجبل، ووجوههم إلى المدينة، وانتقى خمسين من الرماة تحت إمرة عبد الله بن جبير (٢)، ووضعهم فوق جبل عيْنَين المقابل لجبل أُحد، وذلك يمنع التفاف جيش المشركين حول جيش المسلمين، وأصدر أوامره إليهم قائلاً: «لا تبرحوا، إنْ رأيتمونا ظهرنا عليهم، فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا، فلا تُعينونا» (٣).

وقال رسول الله ﷺ للجيش: «لا تبرحوا حتى أوذنكم»، وقال: «لا يقاتلن أحد حتى آمره بالقتال».

وقال لأمير الرماة: «انضح الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، وأثبت مكانك إن كانت لنا أو علينا». وقال للرماة: «الزموا مكانكم، لا تبرحوا منه، فإذا رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم، فلا تفارقوا مكانكم، وإن رأيتمونا نقتل، فلا تغيثونا، ولا تدفعوا عنا، وارشقوهم بالنبل، فإن الخيل لا تقدم على النبل، إنا لن نزال غالبين ما مكثتم مكانكم، اللهم إني أُشهدك عليهم» (٤).

سيطر المسلمون على المرتفعات وتركوا الوادي لجيش مكة ليواجه أُحداً وظهره إلى المدينة، وأصبحت مهمة الرماة في النقاط التالية: احتلال الموقع، حماية المسلمين من الخلف، صد الخيل عن المسلمين (٥).

---

(١) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ (ص ٤٦٩).

(٢) انظر: الإصابة (٢/٢٧٨).

(٣) انظر: البخاري في المغازي، باب «غزوة أُحد» رقم (٤٠٤٣).

(٤) انظر: السيرة الحلبية (٢/٤٩٦).

(٥) انظر: غزوة أُحد دراسة دعوية (ص ٩٠).

د ـ تسوية الصفوف، وتنظيم الجيش:

تقدم رسول الله ﷺ وأصحابه وصفّهم على هيئة صفوف الصلاة، وجعل رسول الله ﷺ يمشي على رجليه يُسوي تلك الصفوف، ويبوىء أصحابه للقتال يقول: «تقدم يا فلان، وتأخر يا فلان»، فهو يقوِّمهم... حتى استوت الصفوف (١)، فوضع ﷺ في مقدمة الصفوف الأشداء، لكي يفتحوا الطريق لمن خلفهم، وقد أخذ الرسول ﷺ بهذا الأسلوب لأنه أبلغ في قتال الأعداء (٢).

هـ ـ عدم القتال إلا بأمر من القائد:

قال الطبري: (فجعل ظهره وعسكره إلى أُحد، وقال: «لا يقاتلن أحد حتى نأمره بالقتال» (٣).

وفي هذا التوجيه فائدة مهمة وهي توحيد القيادة والمسؤولية لأنه ﷺ أدرى بالمصلحة.

المبحث الثاني

في قلب المعركة

أولاً: بدء القتال واشتداده وبوادر الانتصار للمسلمين:

في بداية القتال حاول أبو سفيان أن يوجد شرخاً وتصدعاً في جبهة المسلمين المتماسكة، فأرسل إلى الأنصار يقول: خلوا بيننا وبين ابن عمنا، فننصرف عنكم، فلا حاجة بنا إلى قتال فردوا عليه بما يكره (٤).

ولما فشلت المحاولة الأولى لجأت قريش إلى محاولة أخرى عن طريق عميلٍ خائن من أهل المدينة، وهو أبو عامر الراهب حيث حاول أبو عامر الراهب أن يستزل بعض الأنصار، فقال: يا معشر الأوس، أنا أبو عامر، قالوا: فلا أنعم الله بك عيناً يا فاسق، فلما سمع ردهم عليه قال: لقد أصاب قومي بعدي شر، ثم قاتلهم قتالاً شديداً، ورماهم بالحجارة (٥).

وبدأ القتال بمبارزة بين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وطلحة بن عثمان، حامل لواء المشركين يوم أُحد، يقول صاحب السيرة الحلبية: خرج طلحة بن عثمان وكان بيده لواء

---

(١) انظر: الواقدي، المغازي (١/ ٢١٩).

(٢) انظر: العبقرية العسكرية في غزوات الرسول، محمد فرج (ص ٣٥٥، ٣٥٦).

(٣) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٥٠٧).

(٤) انظر: إمتاع الأسماع للمقريزي (١/ ١٢٠).

(٥) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٩٢).

المشركين، وطلب المبارزة مراراً، فلم يخرج إليه أحد فقال: يا أصحاب محمد إنكم تزعمون أن الله تعالى يُعجلنا بسيوفكم إلى النار، ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة فهل أحد منكم يعجلني بسيفه إلى النار أو أعجله بسيفي إلى الجنة؟ فخرج إليه علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فقال له علي ـ رضي الله عنه : والذي نفسي بيده لا أفارقك حتى يعجلك الله بسيفي إلى النار أو يعجلني بسيفك إلى الجنة، فضربه عليٌّ فقطع رجله، فوقع على الأرض، فانكشفت عورته، فقال: يا ابن عمي أنشدك الله والرحم، فرجع عنه ولم يجهز عليه، فكبّر رسول الله وقال لعليٍّ بعض أصحابه: أفلا أجهزت عليه؟ قال: إن ابن عمي ناشدني الرحم حين انكشفت عورته فاستحييت منه [1].

والتحم الجيشان واشتد القتال، وشرع رسول الله ﷺ يشحذ في همم أصحابه، ويعمل على رفع معنوياتهم وأخذ سيفاً وقال: «من يأخذ مني هذا؟» فبسطوا أيديهم، كل إنسان منهم يقول: أنا، أنا، قال: «فمن يأخذه بحقه؟» قال: فأحجم القوم، فقال: سماك بن خَرَشَة أبو دُجَانة: أنا آخذه بحقه، قال: فأخذه ففلق به هام المشركين [2]، وكان رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب ـ أي يمشي مشية المتكبّر ـ وحين رآه رسول الله ﷺ يتبختر بين الصفين قال: «إنها لمشيئة يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن».

وهذا الزبير بن العوام يصف لنا ما فعله أبو دجانة يوم أحد قال: وجدت في نفسي حين سألت رسول الله ﷺ السيف فمنعنيه وأعطاه أبا دجانة وقلت: أنا ابن صفية عمته ومن قريش، وقد قمت إليه وسألته إياه قبله فأعطاه أبا دجانة وتركني، والله لأنظرن ما يصنع فاتبعته فأخرج عصابة حمراء فعصب بها رأسه فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت، وهكذا كانت تقول له إذا تعصب فخرج وهو يقول:

أنا الذي عاهدني خليلي ... ونحن بالسفح لدى النخيل
أنْ لا أقوم الدهر في الكيول؟ [3] ... أضرب بسيف الله والرسول [4]

فجعل لا يلقى أحداً إلا قتله، وكان في المشركين رجل لا يدع جريحاً إلا ذفف [5] عليه، فجعل كل منهما يدنو من صاحبه فدعوت الله أن يجمع بينهما فالتقيا، فاختلفا ضربتين فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته فعضت بسيفه وضربه أبو دجانة فقتله، ثم رأيته قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة ثم عدل السيف عنها فقلت: الله ورسوله أعلم [6]، قال ابن

---

(١) انظر: السيرة الحلبية (٢/ ٤٩٧، ٤٩٨) تفسير الطبري (٧/ ٢١٨).
(٢) مسلم: كتاب فضائل الصحابة، رقم (٢٤٧٠).
(٣) الكيول: مؤخرة الصفوف.
(٤) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٧).
(٥) ذفف: أجهز عليه.
(٦) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٨).

إسحاق: قال أبو دجانة: رأيت إنساناً يحمس الناس حماساً شديداً فصمدت له فلما حملت عليه السيف ولول فإذا امرأة فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة [١].

ثانياً: مخالفة الرماة لأمر الرسول ﷺ:

استبسل المسلمون في مقاتلة المشركين وكان شعارهم: أمت، أمت، واستماتوا في قتال بطولي ملحمي سجّل فيه أبطال الإسلام صوراً رائعةً في البطولة والشجاعة [٢]، وسجّل التاريخ روائع بطولات حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، وأبو دجانة، وأبو طلحة الأنصاري، وسعد بن أبي وقاص، وأمثالهم كثير [٣]، وحقق المسلمون الانتصار في الجولة الأولى من المعركة [٤]، وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٢].

ولما رأى الرماة الهزيمة التي حلت بقريش وأحلافها، ورأوا الغنائم في أرض المعركة جذبهم ذلك إلى ترك مواقعهم ظناً منهم أن المعركة انتهت، فقالوا لأميرهم عبد الله بن جبير: الغنيمة أي قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: والله لنأتين الناس، فلنصيبن من الغنيمة [٥] ثم انطلقوا يجمعون الغنائم ولم يعبأوا بقول أميرهم، ووصف ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ حالة الرماة في ذلك الموقف، فقال: (فلما غنم النبي ﷺ وأباحوا عسكر المشركين، أكب الرماة جميعاً فدخلوا في المعسكر ينهبون، وقد التقت صفوف أصحاب رسول الله ﷺ فهم هكذا ـ وشبك بين أصابع يديه ـ والتبسوا، فلما أخل الرماة تلك الخلّة التي كانوا فيها، دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب النبي ﷺ فضرب بعضهم بعضاً، والتبسوا، وقتل من المسلمين ناس كثير) [٦].

ورأى خالد بن الوليد ـ وكان على خيالة المشركين ـ الفرصة سانحة ليقوم بالالتفاف حول المسلمين، ولما رأى المشركون ذلك عادوا إلى القتال من جديد وأحاطوا بالمسلمين من جهتين، وفقد المسلمون مواقعهم الأولى، وأخذوا يقاتلون بدون تخطيط، فأصبحوا يقاتلون متفرقين، فلا نظام يجمعهم ولا وحدة تشملهم، بل لم يعودوا يميزون بعضهم، فقد قتلوا اليمان ـ والد

---

(١) المصدر السابق نفسه، (٤/١٨).
(٢) انظر: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (١/ ٣٠٣).
(٣) المصدر نفسه، (١/ ٣٠٣).
(٤) المصدر نفسه، (١/ ٣٠٣).
(٥) البخاري: كتاب الجهاد، رقم (٣٠٣٩).
(٦) مسند أحمد (١/ ٢٨٧)، رقم (٢٦٠٨).

حذيفة بن اليمان ـ خطأ، وأخذ المسلمون يتساقطون شهداء في الميدان، وفقدوا اتصالهم بالرسول ﷺ وشاع أنه قتل [(١)]، واختلط الحابل بالنابل واشتدت حرارة القتال، وصار المشركون يقتلون كل من يلقونه من المسلمين، واستطاعوا الخلوص قريباً من النبي ﷺ فرموه بحجر كسر أنفه الشريف ورباعيته [(٢)]، وشجّه [(٣)] في وجهه الكريم فأثقله وتفجر الدم [(٤)] منه ﷺ، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ كسرت رباعيته يوم أُحد، وشج في رأسه، فجعل يسلت الدم عنه، ويقول: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم، وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله؟» فأنزل الله ﷻ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٨] .

وحمل ابن قمئة على مصعب بن عمير ـ رضي الله عنه ـ حيث كان شديد الشبه برسول الله ﷺ فقتله، فقال لقريش: قد قتلت محمداً [(٥)]، وشاع أن محمداً قد قُتل فتفرّق المسلمون، ودخل بعضهم المدينة، وانطلقت طائفة منهم فوق الجبل، واختلطت على الصحابة أحوالهم، فما يدرون كيف يفعلون من هول الفاجعة [(٦)]، ففرّ جمع من المسلمين من ميدان المعركة، وجلس بعضهم إلى جانب ميدان المعركة بدون قتال، وآثر آخرون الشهادة بعد أن ظنوا أن رسول الله ﷺ قد مات، ومن هؤلاء أنس بن النضر الذي كان يأسف لعدم شهوده بدراً والذي قال في ذلك: (والله لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله ﷺ ليرين الله كيف أصنع) وقد صدق في وعده، مرّ يوم أُحد على قوم ممن أذهلتهم الشائعة وألقوا بسلاحهم فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قُتل رسول الله، فقال: يا قوم إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يُقتل، وموتوا على ما مات عليه. وقال: اللهم إني أعتذر إليك مما قال هؤلاء ـ يعني المسلمين ـ وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ـ يعني المشركين ـ ثم لقي سعد بن معاذ فقال: يا سعد إني لأجد ريح الجنة دون أحد، ثم ألقى بنفسه في أتون المعركة، وما زال يقاتل حتى استشهد، فوجد فيه بضع وثمانون ما بين ضربة بسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، فلم تعرفه إلا أخته ببنانه [(٧)]، وفي هذا وأمثاله نزل قول الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣] .

أما أولئك النفر الذين فرّوا لا يلوون على شيء رغم دعوة النبي ﷺ لهم بالصمود والثبات

---

(١) انظر: غزوة أُحد دراسة دعوية، (ص ٩٨).
(٢) الرباعية: إحدى الأسنان الأربع التي تكون بين الثنية والناب.
(٣) الشج: كسر في الرأس.
(٤) انظر: فقه السيرة للغزالي، (ص ٢٩٤).
(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٨١).
(٦) انظر: غزوة أُحد دراسة دعوية، (ص ١٠٠).
(٧) انظر: غزوة أُحد دراسة دعوية، (ص ١٠١).

فقد نزل فيهم قوله تعالى: ﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٣] .

ولقد حكى القرآن الكريم خبر فرار هذه المجموعة من الصحابة الذين ترخصوا في الفرار بعد سماعهم نبأ مقتل النبي ﷺ الذي شاع في ساحة المعركة، وكان أول من علم بنجاة الرسول ﷺ وأنه حي هو الصحابي كعب بن مالك الذي رفع صوته بالبشرى فأمره النبي ﷺ بالسكوت حتى لا يفطن المشركون إلى ذلك [١]. وقد نصّ القرآن الكريم على أن الله تعالى قد عفا عن تلك الفئة التي فرت، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٥] .

ثالثاً: خطة الرسول ﷺ في إعادة شتات الجيش:

عندما ابتدأ الهجوم المعاكس من المشركين خلف المسلمين والهدف الرئيسي فيه شخص النبي ﷺ، لم يتزحزح عليه الصلاة والسلام من موقفه والصحابة يسقطون واحداً تلو الواحد بين يديه، وحوصر رسول الله ﷺ في قلب المشركين، وليس معه إلا تسعة من أصحابه سبعة منهم من الأنصار، وكان الهدف أن يفك هذا الحصار وأن يصعد في الجبل ليمضي إلى جيشه، واستبسل الأنصار في الدفاع عن رسول الله ﷺ واستشهدوا واحداً بعد الآخر [٢]، فعن قيس بن أبي حازم قال: رأيت يد طلحة التي وقى بها النبي ﷺ قد شلّت [٣]، وأراد النبي ﷺ إلى صخرة فلم يستطع، فقعد طلحة تحته حتى استوى على الصخرة، قال الزبير: فسمعت النبي ﷺ يقول: «أوجب طلحة» [٤]، وقاتل سعد بن أبي وقاص بين يدي رسول الله ﷺ وكان يناوله النبال ويقول: «إرم ياسعد فداك أبي وأمي» [٥]، كما قاتل بين يديه أبو طلحة الأنصاري الذي كان من أمهر الرماة، وهو الذي قال عنه النبي ﷺ: «لصوت أبي طلحة في الجيش أشد على المشركين من فئة» [٦]، وقد كان متترساً على رسول الله بحجفة، وكان رامياً شديد النزع [٧]، كسر يومئذٍ قوسين أو ثلاثة، وكان الرجل يمر معه الجعبة [٨] من النبل، فيقول رسول الله ﷺ: «انثرها لأبي طلحة» ثم يشرف إلى القوم فيقول أبو طلحة: يا نبي الله بأبي أنت، لا تشرف

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي (٦/ ١١٢).

(٢) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٠٤).

(٣) البخاري: رقم (٣٧٢٤).

(٤) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٩٦).

(٥) المصدر نفسه، (ص ٢٩٥).

(٦) المسند والفتح الرباني (٢٢/ ٥٨٩) بإسناده رجاله ثقات.

(٧) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٩٦).

(٨) الجعبة: الكنانة التي تجعل فيها السهام.

إلى القوم [١] ألا يصيبك سهم، نحري دون نحرك [٢] [٣].

ووقفت نسيبة بنت كعب تذب عن رسول الله ﷺ بالسيف وترمي بالقوس، وأصيبت بجراح كبيرة، وترس أبو دجانة دون رسول الله ﷺ بنفسه يقع النبل في ظهره وهم مُنْحَنٍ عليه حتى كثر فيه النبل [٤].

والتف حول الرسول ﷺ في تلك اللحظات العصيبة أبو بكر وأبو عبيدة، وقام أبو عبيدة ينزع السهمين من وجه النبي ﷺ بأسنانه، ثم توارد مجموعة من الأبطال المسلمين، حيث بلغوا قرابة الثلاثين يذودون عن رسول الله ﷺ منهم قتادة، وثابت بن الدحداح، وسهل بن حنيف، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام.

واستطاع عمر بن الخطاب أن يرد هجوماً مضاداً قاده خالد ضد المسلمين من عالية الجبل، واستبسل الصحابة الذين كانوا مع عمر في رد الهجوم العنيف، وعاد المسلمون فسيطروا على الموقف من جديد [٥]، ويئس المشركون من إنهاء المعركة بنصر حاسم، وتعبوا من طولها ومن جلادة المسلمين، وانسحب النبي ﷺ بمن معه ومن لحق به من أصحابه إلى أحد شعاب جبل أُحد، وكان المسلمون في حالة من الألم والخوف والغم لما أصاب رسول الله ﷺ وما أصابهم رغم نجاحهم في رد المشركين [٦]، فأنزل الله عليهم النعاس فناموا يسيراً ثم أفاقوا آمنين مطمئنين، قال تعالى:

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٤].

وقد أجمع المفسرون على أن الطائفة التي قد أهمتهم أنفسهم هم المنافقون [٧]. أما قريش فإنها يئست من تحقيق نصر حاسم وأجهد رجالها من طول المعركة، ومن صمود المسلمين

(١) لا تشرف: لا تتطلع.
(٢) نحري دون نحرك: جعل الله نحري أقرب إلى السهام من نحرك لأصاب بها دونك.
(٣) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٩٦).
(٤) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٥، ٣٦).
(٥) انظر: السيرة النبوية لمنير الغضبان، (ص ٤٦٨ ـ ٤٧٠).
(٦) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٠٥).
(٧) المصدر نفسه، (١/ ٣٠٥).

وجلَدَهم، خاصة بعد أن اطمأنوا وأنزل الله عليهم الأمنة والصمود فالتفوا حول النبي ﷺ، ولذلك كفوا عن مطاردة المسلمين وعن محاولة اختراق قواتهم [١].

رابعاً: من شهداء أُحد:

أ ـ حمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ سيد الشهداء عند الله تعالى يوم القيامة:

قاتل أسد الله حمزة قتالاً ضارياً، وأثخن في المشركين قتلاً، وأطاح برؤوس نفر من حملة لواء المشركين من بني عبد الدار، وبينما هو على هذه الحال من الشجاعة والإقدام كَمِنَ له وحشي حتى تمكن منه ثم رماه بحربته، فأصاب منه مقتلاً، ولندع وحشياً يخبرنا عن هذا المشهد المؤلم، قال وحشي: إن حمزة قتل طعيمة بن عدي بن الخيار ببدر، فقال لي مولاي جبير بن مُطْعم: إن قتلت حمزة بعمي فأنت حر، قال: فلما أن خرج الناس عام عَيْنَين ـ وعَيْنَين جبل بجبال أُحد ـ بينه وبين وادٍ ـ خرجت مع الناس إلى القتال، فلما أن اصطفوا للقتال، خرج سِبَاع، فقال: هل من مبارز؟ قال: فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فقال: يا سِبَاع، يا ابن أمّ أَنْمَارٍ مقطِّعة البُظُور، أتحادُّ الله ورسوله ﷺ؟ قال: ثم شدّ عليه، فكان كأمس الذاهب. قال: وكمنتُ لحمزة تحت صخرة، فلما دنا مني رميته بحربتي، فأضعها في ثنته [٢] حتى خرجت من بين وركيه، قال: فكان ذاك العهد به [٣]، فلما رجع الناس رجعت معهم، فأقمت بمكة حتى فشا فيه الإسلام ثم خرجت إلى الطائف، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ رسولاً، فقيل لي: إنه لا يهيج الرُّسُل [٤]، قال: فخرجت، معهم حتى قدمت على رسول الله ﷺ، فلما رآني قال: «أنت وحشيٌّ؟» قلت: نعم، قال: «أنت قتلت حمزة؟» قلت: قد كان من الأمر ما بلغك، قال: «فهل تستطيع أن تُغيب وجهك عني؟» قال: فخرجت فلما قبض رسول الله ﷺ، فخرج مسيلمة الكذاب، قلت: لأخرجن إلى مسيلمة لعلي أقتله، فأكافىء به حمزة، قال: فخرجت مع الناس، فكان من أمره ما كان، قال: فإذا رجل قائم في ثلمة جدار، كأنه جمل أورق [٥]، ثائر الرأس، قال: فرميته بحربتي، فأضعها بين ثدييه حتى خرجت من بين كتفيه، قال: ووثب إليه رجل من الأنصار بالسيف على هامته، قال: قال عبد الله بن الفضل: فأخبرني سليمان بن يسار أنه سمع عبد الله بن عمر يقول: فقالت جارية على ظهر بيت: وا أمير المؤمنين، قتله العبد الأسود [٦].

---

(١) المصدر السابق نفسه، (٣٠٦/١).
(٢) فأضعها في ثنته: أي في عاتقه.
(٣) ذلك العهد به: كناية عن موته.
(٤) لا يهيج الرسل: أي لا ينالهم منه مكروه.
(٥) أورق: لونه كالرماد.
(٦) البخاري: المغازي رقم (٤٠٧٢).

١ ـ سؤال النبي ﷺ عن مقتل حمزة ـ رضي الله عنه ـ:

بعد انتهاء المعركة سأل رسول الله ﷺ أصحابه: «من رأى مقتل حمزة؟» فقال رجل: أنا رأيت مقتله، قال: «فانطلق أرناه» فخرج رسول الله ﷺ حتى وقف على حمزة فرآه وقد شُق بطنه، وقد مُثل به، فقال: يا رسول الله مُثل به والله [١]، وفي رواية (لما بلغ النبي ﷺ قتل حمزة بكى فلما نظر إليه شهق) [٢] ووقف بين ظهراني القتلى فقال: «أنا شهيد على هؤلاء كفنوهم في دمائهم، فإنه ليس جرح يجرح في الله إلا جاء يوم القيامة يدمى، لونه لون الدم، وريحه ريح المسك، قدموا أكثرهم قرآناً فاجعلوه في اللحد» [٣].

وباستشهاد حمزة وأصحاب رسول الله ﷺ في أُحد تحققت رؤيا رسول الله ﷺ، فقد أخبر أصحابه عن رؤياه قبل الخروج إلى أحد فقال: «رأيت في سيفي ذي الفَقَار فَلاً [٤]، فأولته فَلاً يكون فيكم (أي انهزاماً) ورأيت أني مردفٌ كَبْشاً فأولته كبش الكتيبة، ورأيت أني في درع حصينة، فأولتها المدينة، ورأيت بقراً تذبح، فبقرٌ والله خير، فبقر والله خير» فكان الذي قال رسول الله ﷺ [٥].

٢ ـ صبر صفية بنت عبد المطلب على شقيقها حمزة:

قال الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ: إنه لما كان يوم أُحد أقبلت امرأة تسعى حتى كادت تشرف على القتلى، قال: فكره النبي ﷺ أن تراهم فقال: «المرأة المرأة». قال الزبير: فتوسمت أنها صفية قال: فخرجت أسعى إليها، قال: فأدركتها قبل أن تنتهي إلى القتلى، قال: فلدمت [٦] في صدري وكانت امرأة جلدة. قالت: إليك عني لا أرض لك، فقلت: إن رسول الله ﷺ عزم عليك.

قال: فوقفت وأخرجت ثوبين معها فقالت: هذان ثوبان جئت بهما لأخي حمزة فقد بلغني مقتله، فكفنوه فيهما. قال: فجئنا بالثوبين لنكفّن فيهما حمزة فإذا إلى جنبه رجل من الأنصار قتيل فعل به كما فعل بحمزة، قال: فوجدنا غضاضة وحيى أن يكفن حمزة في ثوبين والأنصاري لا كفن له، فقلنا: لحمزة ثوب وللأنصاري ثوب، فقدرناهما فكان أحدهما أكبر من الآخر فأقرعنا بينهما؛ فكفنا كل واحد منهما في الثوب الذي صار له [٧].

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٨٣).
(٢) المصدر نفسه، (ص ٢٨٤).
(٣) المصدر نفسه، (ص ٢٨٣).
(٤) الفَلّ: الثلم في السيف.
(٥) انظر: المسند (١/ ٢٧١)، برقم (٢٤٤٥).
(٦) لدمت: ضربت ودفعت.
(٧) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٨٥).

٣ ـ من شعر صفية في بكاء حمزة:

أسائله أصحاب أُحد مخافةً بناتُ أبي من أعْجم [(١)] وخَيبر
فقال الخبير إن حمزة قد ثوى وزير رسول الله خير وزير
دعاه إله الحق ذو العرش دعوة إلى جنّة يحيا بها وسرور
فذلك ما كنّا نرجّى ونرْتجي لحمزة يوم الحشر خير مصير
فوالله لا أنساك ما هبت الصّبا بكاء وحزناً محضري ومسيري
على أسد الله الذي كان مذرها [(٢)] يذود عن الإسلام كلّ كفور
فيا ليت شلْوي [(٣)] عند ذاك وأعظمي لدى أضبع تعتادني ونسور
أقول وقد أعْلى النعي عشيرتي جزى الله خيراً من أخ ونصير [(٤)]

٤ ـ حمزة لا بواكي له:

لما رجع رسول الله ﷺ من أُحد سمع نساء الأنصار يبكين فقال: «لكن حمزة لا بواكي له» فبلغ ذلك نساء الأنصار فبكين حمزة، فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ وهن يبكين فقال: «يا ويحهن ما زلن يبكين منذ اليوم فليبكين، ولا يبكين على هالك بعد اليوم» [(٥)] وبذلك حرّمت النياحة على الميت.

٥ ـ رسول الله ﷺ يسمي غلاماً للأنصار بحمزة:

قال جابر بن عبد الله: ولد لرجل منا غلام، فقالوا: ما نسميه؟ فقال النبي ﷺ: «سمّوه بأحب الأسماء إليّ، حمزة بن عبد المطلب» [(٦)]، فحمزة متجذر في القلب النبوي، عالق بالذاكرة الكريمة.. ولكن الله سبحانه ينزل على نبيّه ﷺ فيما بعد أحب الأسماء إليه.. فيقولها ﷺ لمن حوله: «إن أحب أسمائكم إلى الله عبد الله وعبد الرحمن» [(٧)].

٦ ـ «هل تستطيع أن تغيب وجهك عني» [(٨)]:

فهذا التوجيه الكريم لا يوجد فيه شيء من المؤاخذة والتأثيم لوحشي، وإنما هو تذكير له

(١) انظر: السيرة لابن هشام (٣٣/ ١٨٥).
(٢) مدرها: الذي يدفع عن القوم.
(٣) الشّلو: البقية، تعتادني: تتعاهدني.
(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٨٥).
(٥) انظر: سنن ابن ماجة، محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب الجنائز، باب «ما جاء في البكاء على الميت» ج ٢، برقم (١٥٩١) وصححه الألباني برقم (١٣٠٣٣).
(٦) رواه الحاكم (٣/ ١٩٦) سنده حسن.
(٧) مسلم، كتاب الأدب رقم (٢١٣٢).
(٨) البخاري: المغازي رقم (٤٠٧٢).

بأن رؤيته إياه تجلب له شيئاً من المتاعب النفسية، وتحرك في نفسه ذكريات حادث القتل وما تبعه من تمثيل شنيع بشع بعمه، فتثير عنده حزازات بشرية ربما لا يكون من المستطاع منعها ومقاومتها إلا بشيء من العسر والعنت الشديد، مما قد يشغل النبي ﷺ ويقلقه [(١)]، فأشار عليه ﷺ بأن يغيب وجهه حتى يفقد مصدر التذكير بتلك المصيبة [(٢)]، وفي رواية صحيحة قال وحشي: أتيت النبي ﷺ فقال لي: «وحشي» قلت: نعم. قال: «قتلت حمزة؟» قلت: نعم، الحمد للّه الذي أكرمه بيدي ولم يهني بيده، فقالت له قريش: أتحبه وهو قاتل حمزة؟ فقلت: يا رسول الله فاستغفر لي، فتفل رسول الله ﷺ في الأرض ثلاثة، ودفع في صدري ثلاثة وقال: «وحشي اخرج فقاتل في سبيل الله، كما قاتلت لتصد عن سبيل الله» [(٣)] فهذا من التوجيه الإرشادي النبوي إلى مكفِّرات ما سلف من الكفر ومحادة الله ورسوله، وذكر القتال في سبيل الله بيان للأمر الأنسب في التكفير، وفيه حضٌّ من النبي ﷺ لإعلاء راية الجهاد، ولعل مخرج وحشي إلى اليمامة وقتله مسيلمة الكذاب كان أثراً من آثار توجيه النبي ﷺ إلى أفضل ما يمحو الخطايا، ويحتُّ الذنوب، ويطهِّر الآثام.

وقد أدرك وحشي ذلك فقال حين قتل مسيلمة الكذاب: قتلت خير الناس يعني سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، وقتلت شر الناس مسيلمة الكذاب [(٤)].

ب ـ مصعب بن عمير ـ رضي الله عنه ـ:

قال خباب ـ رضي الله عنه ـ: هاجرنا مع رسول الله ﷺ ونحن نبتغي وجه الله، فوقع أجرنا على الله، فمنا من مضى في سبيله ولم يأكل من أجره شيئاً، منهم مصعب بن عمير قتل يوم أُحد، ولم يترك إلا نمرة، كنا إذا غطينا رأسه بدت رجلاه، وإذا غطينا رجليه بدا رأسه، فقال رسول الله ﷺ: «غطوا رأسه، واجعلوا على رجليه الأذخر» [(٥)]، ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها [(٦)]، ومن حديث عبد الرحمن بن عوف أنه أُتي بطعام وكان صائماً، فقال: قتل مصعب بن عمير، وكان خيراً مني، فلم يوجد له ما يُكفَّن فيه، إلا بردة. وقُتل حمزة أو رجل آخر خيرٌ مني، فلم يوجد له ما يُكفَّن فيه، إلا بردة، لقد خشيت أن يكون قد عجلت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا، ثم جعل يبكي [(٧)]، ومن حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: إن رسول الله ﷺ

---

(١) انظر: محمد رسول الله، عرجون (٣/٦٠٣).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٥/١٤١).

(٣) رواه الطبراني في الكبير، إسناده حسن (٢٢/١٣٩)، رقم (٣٧٠) نقلاً عن صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٨٦).

(٤) انظر: محمد رسول الله، عرجون (٣/٦٠٢).

(٥) الأذخر: نوع من العشب.

(٦) البخاري في الجنائز رقم (١٢٨٦).

(٧) البخاري في الجنائز رقم (١٢٧٤، ١٢٧٥).

حين انصرف من أحد مرّ على مصعب بن عمير وهو مقتول على طريقه، فوقف عليه، ودعا له، ثم قرأ هذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣] ثم قال رسول الله ﷺ: «أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة، فأتوهم وزوروهم والذي نفسي بيده لا يسلّم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه» [(١)].

جـ ـ سعد بن الربيع ـ رضي الله عنه ـ:

هذا الذي استكتمه رسول الله ﷺ خبر مسير قريش وكان رسول الله ﷺ يحبه، فلما انتهت معركة أُحد قال رسول الله ﷺ: «من رجل ينظر ما فعل سعد بن الربيع أفي الأحياء هو أم في الأموات؟» لأن النبي ﷺ قد رأى الأسنة شرعت إليه، فقال أُبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ: أنا أنظره لك يا رسول الله، فقال له: «إن رأيت سعد بن الربيع فاقرأه مني السلام وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ: كيف يجدك؟» فنظر أُبي فوجده جريحاً به رمق.

فقال له: إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات، فقال: قد طعنت اثنتي عشرة طعنة وقد نفذت إلى مقاتلي [(٢)]، وفي رواية صحيحة قال: على رسول الله وعليك السلام، قل له: يا رسول الله أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم شفر [(٣)] يطرف، قال: وفاضت نفسه رحمه الله [(٤)]، وهذا نصح لله ورسوله في سكرات الموت يدل على قوة الإيمان، والحرص على الوفاء بالبيعة لم يتأثر بالموت ولا آلام القروح.

د ـ عبد الله بن جحش ـ رضي الله عنه ـ:

قال سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ: إن عبد الله بن جحش قال له يوم أُحد: ألا تدعو الله فخلوا في ناحية فدعا سعد، فقال: يا رب إذا لقيت العدو، فلقِّني رجلاً شديداً بأسه، شديداً حرده، أقاتله ويقاتلني، ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتله، وآخذ سلبه، فأمن عبد الله بن جحش، ثم قال: اللهم ارزقني رجلاً شديداً حرده، شديداً بأسه أقاتله فيك ويقاتلني ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غداً، قلت: من جدع أنفك وأذنك، فأقول: فيك وفي رسولك، فتقول: صدقت، قال سعد: يا بني كانت دعوة عبد الله بن جحش خيراً من دعوتي، لقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلقان في خيط [(٥)]، وفي هذا الخبر جواز دعاء الرجل أن يقتل في

---

(١) انظر: المستدرك (٣/ ٢٠٠) صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٢) انظر: السيرة الحلبية (٢/ ٥٣٢).

(٣) شفر: العين.

(٤) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٩٤).

(٥) المصدر نفسه، (٢٩٣).

سبيل الله، وتمنيه ذلك وليس هذا من تمني الموت المنهي عنه [(١)].

هـ ـ حنظلة بن أبي عامر ـ رضي الله عنه ـ (غسيل الملائكة):

لما انكشف المشركون ضرب حنظلة فرس أبي سفيان بن حرب فوقع على الأرض، فصاح وحنظلة يريد ذبحه، فأدركه الأسود بن شداد، ويقال له ابن شعوب، فحمل على حنظلة بالرمح فأنفذه ومشى إليه حنظلة بالرمح وقد أثبته، ثم ضرب الثانية فقتله، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «إني رأيت الملائكة تغسِّله بين السماء والأرض بماء المزن، في صحاف الفضة»، فقال رسول الله ﷺ: «فسلوا أهله ما شأنه؟» فسألوا صاحبته عنه فقالت: خرج وهو جُنُب حين سمع الهاتفة [(٢)]، فقال رسول الله ﷺ: «فلذلك غسَّلته الملائكة» [(٣)].

وفي رواية الواقدي: وكان حنظلة بن أبي عامر تزوّج جميلة بنت عبد الله بن أُبي ابن سلول، فأدخلت عليه في الليلة التي في صبحها قتال أُحد، وكان قد استأذن رسول الله ﷺ أن يبيت عندها فأذن له، فلما صلَّى بالصبح غدا يريد رسول الله ﷺ ولزمته جميلة فعاد فكان معها، فأجنب منها ثم أراد الخروج، وقد أرسلت قبل ذلك إلى أربعة من قومها فأشهدتهم أنه قد دخل بها، فقيل لها بعْدُ: لم أشهدت عليه؟ قالت: رأيت كأن السماء فُرجت فدخل فيها حنظلة ثم أطبقت، فقلت: هذه الشهادة، فأشهدت عليه أنه قد دخل بها. وتَعلَّقَ بعبد الله بن حنظلة ثم تزوجها ثابت بن قيس بعد فولدت له محمد بن ثابت بن قيس [(٤)].

وفي هذا الخبر مواقف وعبر منها:

١ ـ في تعلق جميلة بنت عبد الله بن أبي بحنظلة بن أبي عامر حين رأت له تلك الرؤيا التي فسرتها بالشهادة، فالمظنون في مثل هذه الحال أن تحاول الابتعاد عنه حتى لا تحمل منه فتكون بعد ذلك غير حظيَّة لدى الخطاب، لكنها تعلّقت به رجاء أن تحمل منه فتلد ولداً ينسب لذلك الشهيد الذي بلغ درجات عليا في الصلاح أولاً ثم بما ترجوه من نيله الشهادة. ولقد حصل لها ما أملت به فحملت منه وولدت ولداً ذكراً سمِّي عبد الله، وكان له ذكر بعد ذلك، وكان من أعلى ما يفتخر به أن يقول: أنا ابن غسيل الملائكة.

٢ ـ في حرص حنظلة القوي على مقارعة أعداء الله الذي يتمثل في سرعة خروجه إلى الميدان، الأمر الذي لم يتمكن معه من غسل الجنابة.

٣ ـ شجاعته الفائقة تظهر في تصديه لقائد المشركين أبي سفيان بن حرب والقائد غالباً يكون حوله من يحميه، وهو فارس وحنظلة راجل.

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢١٢).

(٢) أي: سمع منادي رسول الله يدعو للخروج لملاقاة العدو.

(٣) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٨٩).

(٤) انظر: المغازي للواقدي (١/ ٢٧٣).

٤ - تشريف رباني كريم في نزول الملائكة لتغسيل حنظلة بمياه المزن في صحاف الفضة.

٥ - معجزة نبوية في إخبار الصحابة عما قامت به الملائكة من تغسيل، حيث رأى ﷺ الملائكة وهي تغسل ولم ير الصحابة ذلك (١).

٦ - إذا كان الشهيد جنباً غُسل كما غسلت الملائكة حنظلة بن أبي عامر (٢).

و - عبد الله بن عمرو بن حرام - رضي الله عنه -:

أصرّ عبد الله بن عمرو بن حرام على الخروج في غزوة أُحد، فخاطب ابنه جابر بقول: يا جابر. . لا عليك أن تكون في نظاري المدينة حتى تعلم إلى ما يصير أمرنا، فإني والله لولا أني أترك بنات لي بعدي لأحببت أن تقتل بين يدي (٣).

وقال لابنه أيضاً: ما أراني إلا مقتولاً في أول من يقتل من أصحاب النبي ﷺ، وإني لا أترك بعدي أعز عليَّ منك غير نفس رسول الله ﷺ، فإن عليَّ ديناً فاقض واستوص بأخواتك خيراً (٤).

وخرج مع المسلمين ونال وسام الشهادة في سبيل الله، فقد قتل في معركة أحد، وهذا جابر يحدثنا عن ذلك حيث يقول: (لما قتل أبي يوم أُحد جعلت أكشف عن وجهه وأبكي، وجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهونني وهو لا ينهاني، وجعلت عمتي تبكيه، فقال النبي ﷺ: «تبكين أو لا تبكين، ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه» (٥).

وقال رسول الله ﷺ: «يا جابر ما لي أراك منكسراً؟» قال: يا رسول الله، استشهد أبي وترك عيالاً وديناً. قال ﷺ: «أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟» بلى يا رسول الله، قال ﷺ: «ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وكلَّم أباك كفاحاً» فقال: يا عبدي. . تمنَّ عليّ أُعطك، وقال: يا رب! تحييني فأُقتل فيك ثانية، فقال الرب تبارك وتعالى: إنه سبق مني أنهم إليها لا يرجعون، قال: يا رب. . فأبلغ من ورائي (٦)، قال فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٦٩] وقد رأى عبد الله بن عمرو رؤية في منامه قبل أُحد قال: رأيت في النوم قبل أُحد مبشِّر بن عبد المنذر يقول لي: أنت قادم علينا في أيام، فقلت: وأين أنت؟ فقال: في الجنة نسرح فيها كيف نشاء. قلت له: ألم تقتل يوم بدر؟ قال:

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٥/ ١٢٩، ١٣٠).
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢١٤).
(٣) البخاري رقم (٤٠٩٧).
(٤) البخاري رقم (١٣٥١).
(٥) البخاري رقم (١٢٤٤).
(٦) صحيح ابن ماجه الألباني، رقم (١٥٨ - ١٨٩).

بلى ثم أحييتُ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «هذه الشهادة يا أبا جابر»[1]، وقد تحققت تلك الرؤيا بفضل الله ومنّه.

ز ـ خيثمة أبو سعد ـ رضي الله عنه ـ:

قال خيثمة أبو سعد، وكان ابنه استشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر: لقد أخطأتني وقعة بدر، وكنت والله عليها حريصاً حتى ساهمت ابني في الخروج، فخرج سهمه، فرزق الشهادة، وقد رأيت البارحة ابني في النوم في أحسن صورة يسرح في ثمار الجنة وأنهارها، ويقول: الحق بنا ترافقنا في الجنة، فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً، وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته في الجنة، وقد كبرت سنِّي، ورقَّ عظمي، وأحببت لقاء ربي، فادع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة، ومرافقة سعد في الجنة. فدعا له رسول الله ﷺ بذلك فقتل بأحد شهيداً[2].

ح ـ وهب المزني وابن أخيه ـ رضي الله عنهما ـ:

أقبل وهب بن قابوس المزني، ومعه ابن أخيه الحارث بن عقبة بن قابوس، بغنم لهما من جبل مُزينة، فوجدا المدينة خلواً فسألا: أين الناس؟ فقالوا: بأُحد، خرج رسول الله ﷺ يقاتل المشركين من قريش، فقالا: لا نبتغي أثراً بعد عين، فخرجا حتى أتيا النبي ﷺ بأحد فيجدان القوم يقتتلون والدولة لرسول الله ﷺ وأصحابه، فأغارا مع المسلمين في النهب، وجاءت الخيل من وراءهم، خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل، فاختلطوا فقاتلا أشد القتال، فانفرقت فرقة من المشركين فقال رسول الله ﷺ: «من لهذه الفرقة؟» فقال وهب بن قابوس: أنا يا رسول الله. فقام فرماهم بالنبل حتى انصرفوا ثم رجع.

فانفرقت فرقة أخرى فقال رسول الله ﷺ: «من لهذه الكتيبة؟» فقال المزني: أنا يا رسول الله. فقام فذبها بالسيف حتى ولّوا ثم رجع المُزني. ثم طلعت كتيبة أخرى فقال: «من يقوم لهؤلاء؟» فقال المزني: أنا يا رسول الله. فقال: «قم وأبشر بالجنة»، فقام المزني مسروراً يقول: والله لا أقيل ولا أستقيل، فقام فجعل يدخل فيهم فيضرب بالسيف، ورسول الله ﷺ ينظر إلى المسلمين حتى خرج من أقصاهم ورسولُ الله ﷺ يقول: «اللهم ارحمه» ثم يرجع فيهم فما زال كذلك وهم مُحدقون به حتى اشتملت عليه أسيافهم ورماحهم فقتلوه، فوجد به يومئذٍ عشرون طعنة برمح، كلها قد خلصت إلى مقتل، ومثل به أقبح المُثلة يومئذٍ. ثم قام ابن أخيه فقاتل قتاله حتى قتل، فكان عمر بن الخطاب يقول: إن أحبَّ ميتة أموت لَمَا مات عليه المزني[3].

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٠٩).
(٢) المصدر نفسه، (٣/ ٢٠٨).
(٣) انظر: المغازي للواقدي (١/ ٢٧٥).

وكان بلال بن الحارث المزني يُحدث يقول: شهدنا القادسية مع سعد بن أبي وقاص، فلما فتح الله علينا وقُسمت بيننا غنائمنا، فأسقط فتى من آل قابوس من مُزينة [1]، فجئت سعداً حين فرغ من نومه فقال: بلال؟ قلت: بلال! قال: مرحباً بك من هذا معك؟ قلت: رجل من قومي من آل قابوس، قال سعد: ما أنت يا فتى من المزني الذي قتل يوم أُحد؟ قال: ابن أخيه. قال سعد: مرحباً وأهلاً وانعم الله بك عيناً، ذلك الرجل شهدتُ منه يوم أحد مشهداً ما شهدته من أحد، لقد رأيتنا وقد أحدق المشركون بنا من كل ناحية، ورسول الله ﷺ وسطنا والكتائب تطلع من كل ناحية، وإن رسول الله ﷺ ليرمي ببصره في الناس يتوسمهم [1]، يقول: من لهذه الكتيبة، كل ذلك يقول المزني: أنا يا رسول الله! كل ذلك يرده، فما أنسى آخر مرة قامها فقال رسول الله ﷺ: «قم وأبشر بالجنة!» قال سعد: وقمت على أثره، يعلم الله أني أطلب مثلما يطلب يومئذٍ من الشهادة، فخضنا حومتهم حتى رجعنا فيهم الثانية، وأصابوه ح ووددت والله أني كنت أصبت يومئذٍ معه، ولكن أجلي استأخر ثم دعا سعد من ساعته بسهمه فأعطاه وفضله، وقال: اختر في المقام عندنا أو الرجوع إلى أهلك، فقال بلال: إنه يستحب الرجوع فرجعنا.

وقال سعد: أشهدُ لرأيت رسول الله ﷺ واقفاً عليه وهو مقتول، وهو يقول: «رضي الله عنك فإني عنك راض» ثم رأيت رسول الله ﷺ قام على قدميه وقد نال النبي ﷺ من الجراح ما ناله وإني لأعلم أن القيام ليشقُّ عليه على قبره حتى وُضع في لحده، وعليه بردة لها أعلام خضر، فمدّ رسول الله ﷺ البُردة على رأسه فخمّره، وأدرجه فيها طولاً وبلغت نصف ساقيه، وأمرنا فجمعنا الحرمل فجعلناه على رجليه وهو في لحده، ثم انصرف. فما حال أموتُ عليه أحبُّ إليَّ من أن ألقى الله تعالى على حال المُزني [1].

وهكذا يفعل الإيمان بأصحابه فهذا وهب المزني وابن أخيه تركوا الأغنام بالمدينة والتحقوا بصفوف المسلمين وحرصوا على نيل الشهادة، فأكرمهم الله بها، وقد كانت تلك الملحمة التي سطرها المزني محفورة في ذاكرة الصحابة، فهذا سعد بن أبي وقاص يتذكرها بعد مرور ثلاث عشرة سنة تقريباً على غزوة أحد لمجرد سماع اسم رجل من عشيرة المزني، ويتمنى أن يموت ويلقى الله على مثل حالة المزني.

ط ـ عمرو بن الجموح ـ رضي الله عنه ـ:

كان عمرو بن الجموح ـ رضي الله عنه ـ أعرج شديد العرج، وكان له بنون أربعة مثل الأسد يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد، وهم خلاد ومعوّذ ومُعاذ وأبو أيمن، فلما كان يوم أُحد أرادوا حبسه وقالوا: إن الله عز وجل قد عذرك، فأتى رسول الله ﷺ فقال: «إن بنيّ يريدون أن

---

(١) انظر: المغازي للواقدي (١/ ٢٧٥).

يحبسوني عن هذا الوجه وللخروج معك فيه، فوالله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة، فقال له رسول الله ﷺ: «أما أنت فقد عذرك الله تعالى، فلا جهاد عليك» وقال لبنيه: ما عليكم ألا تمنعوه، لعل الله أن يرزقه الشهادة، فخرج وهو يقول مستقبل القبلة: اللهم لا تردني إلى أهلي خائباً، فقتل شهيداً.

وفي رواية أتى عمرو بن الجموح ـ رضي الله عنه ـ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت إن قاتلت في سبيل الله حتى أقتل، أمشي برجلي هذه صحيحة في الجنة ـ وكانت رجله عرجاء ـ فقال رسول الله ﷺ: «نعم» فقتلوه يوم أُحد هو وابن أخيه ومولى لهم، فمر بهم رسول الله ﷺ فجعلوا في قبر واحد [(١)].

وفي هذا الخبر دليل على أن من عذره الله في التخلف عن الجهاد لمرض أو عرج، يجوز له الخروج إليه وإن لم يجب عليه، كما خرج عمرو بن الجموح وهو أعرج [(٢)].

وفيه دليل على شجاعة عمرو بن الجموح ورغبته في نيل الشهادة وصدقه في طلبها، وقد أكرمه الله بذلك.

ي ـ أبو حذيفة بن اليمان وثابت بن قيس ـ رضي الله عنهما ـ:

لما خرج رسول الله ﷺ إلى أُحد رفع حُسيل بن جابر، وهو اليمان أبو حذيفة بن اليمان وثابت بن وقش في الآطام [(٣)]، مع النساء والصبيان، فقال أحدهما لصاحبه وهما شيخان كبيران: لا أبا لك، ما تنتظر؟ فوالله ما بقي لواحد منا من عمره إلاّ ظمء [(٤)] حمار، إنما نحن هامة اليوم أو غد [(٥)]، أفلا نأخذ سيوفنا ثم نلحق برسول الله ﷺ، لعلّ الله يرزقنا شهادة مع رسول الله ﷺ؟

فأخذا أسيافهما ثم خرجا حتى دخلا في الناس ولم يعلم بهما، فأما ثابت بن وقش فقتله المشركون، وأما حسيل بن جابر فاختلفت عليه أسيافُ المسلمين فقتلوه ولا يعرفونه، فقال حذيفة: أبي، فقالوا: والله إن عرفناه، وصدقوا. قال حذيفة: يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، فأراد رسول الله ﷺ أن يديه، فتصدق حذيفة بديته على المسلمين فزاده ذلك عند رسول الله ﷺ [(٦)] خيراً، وفي هذا الخبر يظهر أثر الإيمان في نفوس الشيوخ الكبار الذين عذرهم

---

(١) انظر: المسند (٥/٢٩٩)، رقم (٢٢٥٥٣)، السيرة النبوية لابن هشام (٣/١٠١).
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/٢١٨).
(٣) الآطام: الحصون.
(٤) ظمء حمار: أي مقدار ما بين شربتي حمار.
(٥) أي: نموت اليوم أو غداً.
(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٩٨).

الله في الجهاد وكيف تركوا الحصون وخرجوا إلى ساحات الوغى طلباً للشهادة وحباً وشوقاً للقاء الله تعالى، وفيه موقف عظيم لحذيفة حيث تصدق بدية والده على المسلمين، ودعا لهم بالمغفرة لكونهم قتلوا والده خطأ، وفيه أيضاً: أن المسلمين إذا قتلوا واحداً منهم في الجهاد يظنونه كافراً فعلى الإمام ديته من بيت المال، لأن رسول الله ﷺ أراد أن يدي اليمان أبا حذيفة، فامتنع من أخذ الدية، وتصدّق بها على المسلمين (١).

ك ـ الأمور بخواتيمها:

إن الأمور بخواتيمها، وقد وقع في غزوة أُحد ما يحقق هذه القاعدة المهمة في هذا الدين، فقد وقع حادثان يؤكدان هذا الأمر، وفيهما عظة وعبرة لكل مسلم متعظ ومعتبر (٢).

١ ـ شأن الأصيرم ـ رضي الله عنه ـ:

واسمه عمرو بن ثابت بن وقش، عرض عليه الإسلام فلم يسلم، وروى قصته أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أن الأصيرم كان يأبى الإسلام على قومه، فجاء ذات يوم ورسول الله ﷺ وأصحابه بأحد فقال: أين سعد بن معاذ؟ فقيل: بأُحد، فقال: أين بنو أخيه؟ قيل: بأُحد، فسأل عن قومه فقيل: بأُحد، فبدا له الإسلام فأسلم، وأخذ سيفه، ورمحه، وأخذ لأمته وركب فرسه فعدا حتى دخل في عُرض الناس، فلما رآه المسلمون قالوا: إليك عنا يا عمرو، قال إني قد آمنت. فقاتل حتى أثخنته الجراحة، فبينما رجال من بني عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم في المعركة إذا هم به، فقالوا: والله إن هذا للأصيرم، ما جاء به؟ لقد تركناه وإنه منكر لهذا الحديث، فسألوه: ما جاء بك؟ أحَدبٌ على قومك أم رغبة في الإسلام؟ فقال: بل رغبة في الإسلام، آمنت بالله تعالى ورسوله ﷺ وأسلمت ثم أخذت سيفي فغدوت مع رسول الله ﷺ ثم قاتلت حتى أصابني ما أصابني، وإن مت فأموالي إلى محمد يضعها حيث شاء، فذكروه لرسول الله ﷺ فقال: «إنه من أهل الجنة».

وقيل: مات فدخل الجنة وما صلى من صلاة، فقال النبي ﷺ: «عَمِل قليلاً، وأُجر كثيراً» (٣)، وكان أبو هريرة يقول: حدثوني عن رجل دخل الجنة ولم يُصَلِّ قط، فإذا لم يعرفه الناس سألوه: من هو؟ قال: هو أصيرم بن عبد الأشهل (٤).

٢ ـ شأن مخيريق:

لما كانت غزوة أُحد وخرج رسول الله ﷺ يقاتل المشركين جمع قومه اليهود وقال لهم: يا

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/٢١٨).
(٢) انظر: غزوة أحد لأبي فارس (ص ١١٧).
(٣) انظر: البخاري، الجهاد، رقم (٢٨٠٨).
(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/١٠٠، ١٠١).

معشر يهود، والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لحق، قالوا: إن اليوم يوم السبت، قال: لا سبت لكم.

فأخذ سيفه وعدته، وقال: إن أُصبت فمالي لمحمد يصنع فيه ما شاء، ثم غدا إلى رسول الله ﷺ فقاتل معه حتى قتل، فقال رسول الله ﷺ: «مخيريق خير يهود»[١].

وقد اختلف في إسلامه، فنقل الذهبي في التجريد وابن حجر في الإصابة عن الواقدي[٢] أن مخيريق مات مسلماً، وذكر السهيلي في الروض الأنف أنه مسلم، وذلك حين قال معقباً على رواية ابن إسحاق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مخيريق خير يهود» قال: ومخيريق مسلم، ولا يجوز أن يقال في مسلم هو خير النصارى ولا خير اليهود لأن أفعل من كذا، إذا أضيف فهو بعض ما أضيف إليه، فإن قيل: وكيف جاز هذا؟ قلنا: لأنه قال: خير يهود، ولم يقل خير اليهود، ويهود اسم علم كثمود، يقال: إنهم نسبوا إلى يهوذا بن يعقوب ثم عربت الذال دالاً[٣]، وقد حقق هذه المسألة الدكتور عبدالله الشقاري في كتابه (اليهود في السنّة المطهرة) وذهب إلى أن مخيريق قد أسلم ودفعه ذلك إلى القتال مع المسلمين، وإلى التصدق بماله مع كثرته، ومع ما عرف عن اليهود من حب المال والتكالب عليه[٤].

ل ـ إنما الأعمال بالنيات:

كان ممن قاتل مع المسلمين يوم أُحد رجل يدعى قزمان، كان يعرف بالشجاعة، وكان رسول الله ﷺ يقول ـ إذا ذُكر له ـ: «إنه من أهل النار»، فتأخر يوم أُحد فعيَّرته نساء بني ظفر، فأتى رسول الله ﷺ وهو يسوي الصفوف حتى انتهى إلى الصف الأول، فكان أول من رمى من المسلمين بسهم، فجعل يرسل نبلاً كأنها الرماح ويكتُّ كتيت الجمل ثم فعل بالسيف الأفاعيل حتى قتل سبعة أو تسعة وأصابته جراحة، فوقع فناداه قتادة بن النعمان: يا أبا الغَيْداق هنيئاً لك الشهادة، وجعل رجال من المسلمين يقولون له: والله لقد أبليت اليوم يا قُزمان فأبشر، قال: بماذا؟ فوالله ما قاتلت إلا على أحساب قومي، فلولا ذلك ما قاتلت. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «إنه من أهل النار، إن الله تعالى يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[٥].

وفي هذا الخبر بيان لمكان النية في الجهاد، وأنه من قاتل حمية عن قومه أو ليقال شجاع... ولم تكن أعماله لله تعالى لا يقبل الله منه.

---

(١) انظر: المغازي للواقدي (١/ ٢٦٣)، والسيرة لابن هشام (٣/ ٩٩).
(٢) انظر: تجريد أسماء الصحابة (٣/ ٧٠)، والإصابة (٣/ ٣٩٣).
(٣) انظر: الروض الأنف للسهيلي (٤/ ٤٠٨، ٤٠٩).
(٤) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٣٠٦).
(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٩٩)، غزوة أحد دراسة دعوية، (ص ١١٣).

خامساً: من دلائل النبوة:

١ ـ عين قتادة بن النعمان ـ رضي الله عنه ـ:

أصيبت عين قتادة ـ رضي الله عنه ـ حتى سقطت على وجنتيه فردها رسول الله ﷺ بيده فكانت أحسن عينيه وأحدّهما، وأصبحت لا ترمد إذا رمدت الأخرى [(١)]، وقد قدم ولده على عمر بن عبد العزيز ح فسأله: من أنت؟

فقال له مرتجلاً:

أنا ابن الذي سالت على الخد عينه فردت بكف المصطفى أحسن الرد
فعادت كما كانت لأول أمرها فيا حسنها عيناً ويا حسن ما خد

فقال عمر بن عبد العزيز عند ذلك:

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

ثم وصله فأحسن جائزته [(٢)].

٢ ـ مقتل أُبي بن خلف:

كان أُبي بن خلف يلقى رسول الله بمكة، فيقول: يا محمد إن عندي العوْد، فرساً أعلفه كل يوم، أقتلك عليه، فقال رسول الله ﷺ: «بل أنا أقتلك إن شاء الله» فلما كان يوم أُحد، وأسند رسول الله ﷺ في الشعب أدركه أُبي بن خلف وهو يقول: أي محمد لا نجوتُ إن نجوتَ، فقال القوم: يا رسول الله أيعطف عليه رجل منا؟ فقال رسول الله ﷺ: «دعوه». فلما دنا تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة، فلما أخذها رسول الله ﷺ منه انتفض بها انتفاضة تطاير عنه من حوله تطاير الشعراء [(٣)] عن ظهر البعير إذا انتفض بها، ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ [(٤)] منها عن فرسه مراراً، فلما رجع إلى قريش وقد خدشه في عنقه خدشاً غير كبير، فاحتقن الدم، قال: قتلني والله محمد، قالوا له: ذهب والله فؤادك.. والله إن بك من بأس، قال: إنه قد كان قال لي بمكة: أنا أقتلك، فوالله لو بصق عليّ لقتلني، فمات عدو الله بسرف [(٥)]، وهم قافلون به إلى مكة [(٦)].

وفي هذا الخبر مثل رفيع على شجاعة رسول الله ﷺ، فقد كان أُبي بن خلف مدجج بالسلاح، ومتدرعاً بالحديد الواقي ومع ذلك استطاع رسول الله ﷺ أن يطعنه بالرمح في فرجة صغيرة في عنقه بين الدرع والبيضة، وهذا يدل على قدرة رسول الله القتالية ودقته في إصابة الهدف، وفي هذا الخبر معجزة للنبي فقد أخبر أُبياً بأنه سوف يقتله بمشيئة الله وتمّ ذلك، وفي

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٢٨٨).
(٢) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٥).
(٣) الشُّعراء: ذباب له لدغ.
(٤) تدأدأ: تقلب عن فرسه فجعل يتدحرج.
(٥) سرف: موضع على ستة أميال من مكة.
(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٩٣، ٩٤).

الخبر عبرة في إيمان المشركين بصدق النبي ﷺ، وأنه إذا قال شيئاً وقع، فقد كان أُبي بن خلف على يقين بأنه سيموت من تلك الطعنة، ومع ذلك لم يدخلوا في الإسلام لعنادهم وعبادة أهوائهم [١]. وقد خلد حسان بن ثابت هذه الحادثة في شعره فقال:

لقد ورث الضَّلالة عن أبيه أُبيٌّ يوم بارزه الرسول
أتيت إليه تحمل رِمّ عظم وتوعده وأنت به جهول [٢]

المبحث الثالث

أحداث ما بعد المعركة

أولاً: حوار أبي سفيان مع الرسول ﷺ وأصحابه:

قال البراء ﷺ : وأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا تجيبوه». فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: «لا تجيبوه»، فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء القوم قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا. فلم يملك عمر ـ ﷺ ـ نفسه فقال: كذبت يا عدوّ الله، أبقى الله عليك ما يخزيك. قال أبو سفيان: أعل هُبل [٣]، فقال النبي ﷺ: «أجيبوه». قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: «الله أعلى وأجل»، قال أبو سفيان: لنا العُزّى ولا عزى لكم، فقال النبي ﷺ: «أجيبوه». قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: «الله مولانا ولا مولى لكم». قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، وتجدون مُثلة، لم آمر بها ولم تسؤني [٤]، وفي رواية قال عمر: (لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار) [٥].

كان في سؤال أبي سفيان عن رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر دلالة واضحة على اهتمام المشركين بهؤلاء دون غيرهم، لأنه في علمهم أنهم أهل الإسلام وبه قام صرحه وأركان دولته وأعمدة نظامه، ففي موتهم يعتقد المشركون أنه لا يقوم الإسلام بعدهم.

وكان السكوت عن إجابة أبي سفيان أولاً تصغيراً له حتى إذا انتشى وملأه الكبر أخبروه بحقيقة الأمر وردوا عليه بشجاعة [٥].

وفي هذا يقول ابن القيم في تعليقه على هذا الحوار: فأمرهم بجوابه عند افتخاره بآلهته وبشركه، تعظيماً للتوحيد، وإعلاماً بعزة من عبده المسلمون، وقوة جانبه، وأنه لا يغلب، ونحن

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٥/ ١٦٩).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٩٤).
(٣) أعل هبل: ظهر دينك.
(٤) البخاري: المغازي، رقم (٤٠٤٣)، السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٩٢).
(٥) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٩٢).

حزبه وجنده ولم يأمرهم بإجابته حين قال: أفيكم محمد؟ أفيكم ابن أبي قحافة؟ أفيكم عمر؟ بل روي أنه نهاهم عن إجابته، وقال: «لا تجيبوه»، لأن كلمهم لم يكن برد في طلب القوم، ونار غيظهم بعد متوقدة، فلما قال لأصحابه: أما هؤلاء فقد كفيتموهم، حمي عمر بن الخطاب واشتد غضبه وقال: كذبت يا عدو الله، فكان في هذا الإعلام من الإذلال، والشجاعة وعدم الجبن، والتعرف إلى العدو في تلك الحال ما يؤذيهم بقوة القوم وبسالتهم، وأنهم لم يهنوا ولم يضعفوا، وأنه وقومه جديرون بعدم الخوف منهم، وقد أبقى الله لهم ما يسوؤهم منهم، وكان في الإعلام ببقاء هؤلاء الثلاثة وهلة بعد ظنه وظن قومه أنهم قد أصيبوا من المصلحة، وغيظ العدو وحزبه، والفتِّ في عضده ما ليس في جوابه حين سأل عنهم واحداً واحداً، فكان سؤاله عنهم ونعيهم لقومه آخر سهام العدو وكيده، فصبر له النبي ﷺ حتى استوفى كيده، ثم انتدب له عمر، فرد بسهام كيده عليه، وكان ترك الجواب عليه أحسن، وذكره ثانياً أحسن، وأيضاً فإن في ترك إجابته حين سأله عنهم إهانة له وتصغيراً لشأنه، فلما منته نفسه موتهم، وظن أنهم قد قتلوا، وحصل له بذلك من الكبر والأشر ما حصل، كان في جوابه إهانة له وتحقير وإذلال، ولم يكن هذا مخالفاً لقول النبي ﷺ: «لا تجيبوه» فإنه إنما نهى عن إجابته حين سأل: أفيكم محمد؟ أفيكم فلان؟ ولم ينه عن إجابته حين قال: أما هؤلاء فقد قتلوا، وبكل حال فلا أحسن من ترك إجابته أولاً، ولا أحسن من إجابته ثانياً (١).

ثانياً: تفقد الرسول ﷺ الشهداء:

بعد أن انسحب أبو سفيان من أرض المعركة ذهب الرسول ﷺ ليتفقد أصحابه - ﷺ -، فمر على بعضهم، ومنهم حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، وحنظلة بن أبي عامر، وسعد بن الربيع والأصيرم، وبقية الصحابة ﷺ فلما أشرف عليهم رسول الله ﷺ قال: «أنا شهيد على هؤلاء، إنه ما من جريح يجرح في الله إلا والله بعثه يوم القيامة، يدمي جرحه، اللون لون دم، والريح ريح المسك، انظروا أكثر هؤلاء جمعاً للقرآن، فاجعلوه أمام أصحابه في القبر» (٢).

وقال جابر بن عبد الله في رواية البخاري: (إن النبي ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد ثم يقول: «أيهم أكثر أخذاً للقرآن»، فإذا أشير له إلى أحد قدّمه في اللحد، وقال: «أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة» وأمر بدفنهم بدمائهم، ولم يصلِّ عليهم، ولم يغسلوا) (٣). وعن جابر بن عبد الله: أمر بقتلى أحد أن يردوا إلى مصارعهم وكانوا قد نُقلوا إلى المدينة.

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/٢٠٢، ٢٠٣).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/١٠٩).
(٣) البخاري: كتاب المغازي، رقم (٤٠٧٩).

ولما رأى رسول الله ﷺ حمزة بن عبد المطلب وقد مثل به حزن حزناً شديداً، وبكى حتى نشغ [١] من البكاء [٢]، وقال ﷺ: «لولا أن تحزن صفية، ويكون سنة من بعدي لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم» فلما رأى المسلمون حزن رسول الله ﷺ وغيظه على من فعل بعمه ما فعل، قالوا: والله لئن ظفرنا الله بهم يوماً من الدهر لنمثلن بهم مُثلة لم يمثلها أحد من العرب [٣]، فنزل قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ [النّحل: الآية ١٢٦] لقد ارتكب المشركون صوراً من الوحشية، حيث قاموا بالتمثيل في قتلى المسلمين فبقروا بطون كثير من القتلى وجدعوا أنوفهم، وقطعوا الآذان ومذاكير بعضهم [٤]، ومع ذلك صبر رسول الله ﷺ وأصحابه واستجابوا لتوجيه المولى ﷻ، فعفا وصبر، وكفّر عن يمينه ونهى عن المثلة، روى ابن إسحاق بسنده عن سمرة بن جندب قال: (ما قام رسول الله ﷺ في مقام قط ففارقه، حتى يأمرنا بالصدقة وينهانا عن المثلة) [٥].

ثالثاً: دعاء الرسول ﷺ يوم أحد:

صلى رسول الله ﷺ بأصحابه الظهر قاعداً لكثرة ما نزف من دمه، وصلّى وراءه المسلمون قعوداً، وتوجه النبي ﷺ بعد الصلاة إلى الله بالدعاء والثناء على ما نالهم من الجهد والبلاء، فقال لأصحابه: «استووا حتى أثني على ربي ﷻ»، فصاروا خلفه صفوفاً ثم دعا بهذه الكلمات الدالة على عمق الإيمان [٦]، فقال ﷺ: «اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لما أضللت، ولا مضل لما هديت، ولا معطى لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مبعد لما قرّبت، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسألك النعيم يوم الغلبة، والأمن يوم الخوف، اللهم عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعت، اللهم حبّب إلينا الإيمان وزيّنه في قلوبنا، وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين. اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا نادمين ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الخلق» [٧] ثم ركب فرسه ورجع إلى

---

(١) النشغ: الشهيق حتى يكاد يبلغ به الغشي.
(٢) انظر: مختصر سيرة الرسول، لمحمد عبد الوهاب، (ص ٣٣١).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/١٠٦).
(٤) انظر: غزوة أحد لأبي فارس (ص ١٠٤).
(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/١٠٧).
(٦) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٢١٠).
(٧) انظر: مجمع الزوائد (٦/ ١٢١، ١٢٢)، وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

المدينة [١].

وهذا أمر عظيم شرعه رسول الله ﷺ لأمته لكي يطلبوا النصر والتوفيق من رب العالمين، وبين لأمته أنّ الدعاء مطلوب في ساعة النصر والفتح وفي ساعة الهزيمة لأن الدعاء مخ العبادة، كما أنه من أقوى الأسباب في دفع المكروه، وحصول المطلوب، ويجعل القلوب متعلقة بخالقها، فينزل عليها السكينة والثبات والاطمئنان، ويمدها بقوة روحية عظيمة، فترتفع المعنويات نحو المعالي وتتطلع إلى ما عند الله تعالى.

في أعقاب المعركة، يتخذ النبي ﷺ أُهْبَتَه وينظم المسلمين صفوفاً، لكي يثني على ربّه ﷻ وإنه لموقف عظيم، يجلي إيماناً عميقاً، ويكشف عن العبودية المطلقة لرب العالمين الفعال لما يريد... فهو القابض والباسط والمعطي والمانع، لا راد ولا معقب لحكمه.

إن هذا الموقف من أعظم مواقف العبودية التي تسمو بالعابدين، وتجلّ المعبود، كأعظم ما يكون الإجلال والإكبار، وأبرز ما يكون الحمد والثناء [٢].

رابعاً: معرفة وجهة العدو:

بعد أن انسحب جيش المشركين من أرض المعركة أرسل رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد الغزوة مباشرة، وذلك لمعرفة اتجاه العدو، فقال له: «اخرج في آثار القوم وانظر ماذا يصنعون وما يريدون، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده إن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم»، قال علي: فخرجت في أثرهم ماذا يصنعون فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة [٣] فرجع علي رضي الله عنه، وأخبر رسول الله بخبر القوم.

وفي هذا الخبر عدة دروس وعبر منها: يقظة الرسول ﷺ، ومراقبته الدقيقة لتحركات العدو، وقدرته ﷺ على تقدير الأمور، وظهور قوته المعنوية العالية ويظهر ذلك في استعداده لمقاتلة المشركين لو أرادوا المدينة، وفيه ثقة النبي ﷺ بعلي رضي الله عنه ومعرفته بمعادن الرجال، وفيه شجاعة علي رضي الله عنه، لأن هذا الجيش لو أبصره ما تورع في محاولة قتله [٤]، ونلحظ أن النبي ﷺ أقام في أرض المعركة بعد أن انتهت، تفقّد خلالها الجرحى والشهداء، وأمر بدفنهم، ودعا ربه وأثنى عليه سبحانه، وأرسل علياً ليتتبع خبر القوم، كل ذلك من أجل أن يحافظ على النصر الذي أحرزه المسلمون في غزوة أحد، وهذا من فقه سنن الله تعالى في الحروب والمعارك، فقد

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٩٤).
(٢) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، د. محمد فيض الله، (ص ١٣٢، ١٣٣).
(٣) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٤١).
(٤) انظر: غزوة أحد لأبي فارس، (ص ٩٥، ٩٦).

جعل سبحانه من سننه في خلقه أن جعل للنصر أسباباً، وللهزيمة أسباباً، فمن أخذ بأسباب النصر، وصدق التوكل على الله سبحانه وتعالى حقيقة التوكل نال النصر بإذن الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: الآية ٢٣].

ويتجلى فقه النبي ﷺ في ممارسة سنة الأخذ بالأسباب في غزوة حمراء الأسد.

خامساً: غزوة حمراء الأسد:

نجد في بعض الروايات: أن النبي ﷺ تابع أخبار المشركين بواسطة بعض أتباعه حتى بعد رجوعهم إلى مكة، وبلغه مقالة أبي سفيان يلوم فيها جنده لكونهم لم يشفوا غليلهم من محمد وجنده، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما انصرف أبو سفيان والمشركون من أحد وبلغوا الرّوحاء [١]، قال أبو سفيان: لا محمداً قتلتم ولا الكواعب أردفتم، شر ما صنعتم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ [٢]، وتفيد هذه الرواية خبر استطلاع الرسول ﷺ أعداءه حتى بعد انتهاء المعركة وذلك لكي يطمئن على عدم مباغتتهم له.

وعندما سمع ما كان تعزم عليه قريش من العودة إلى المدينة خرج بمن حضره يوم أحد من المسلمين دون غيرهم إلى حمراء الأسد.

قال ابن إسحاق: كان يوم أُحد يوم السبت للنصف من شوال، فلما كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال أذّن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس بطلب العدو، وأذّن مؤذنه أن لا يخرجن معنا إلا من حضر يومنا بالأمس، فاستأذنه جابر بن عبد الله في الخروج معه فأذن له، وإنما خرج مرهباً للعدو، وليظنوا أن الذي أصابهم لم يوهنهم عن طلب عدوهم [٣]، وقد استجاب أصحاب النبي ﷺ لنداء الجهاد حتى الذين أصيبوا بالجروح، فهذا رجل من بني عبد الأشهل يقول: شهدت أحداً أنا وأخ لي فرجعنا جريحين، فلما أذّن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو قلت لأخي وقال لي: أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ؟ والله ما لنا من دابة نركبها وما منا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول الله، وكنت أيسر جرحاً منه، فكان إذا غلب حملته عقبة [٤] ومشى عقبة حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون [٥].

وسار رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد واقترب بجنوده من جيش المشركين، فأقام فيه ثلاثة

---

(١) الرّوحاء: تبعد عن المدينة ٧٣ كيلومتراً في طريق مكة.

(٢) انظر: مجمع الزوائد للهيثمي (٦/ ١٢١). قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير محمد بن منصور الجوّاز.

(٣) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٥٠).

(٤) عقبة: فترة.

(٥) المصدر نفسه، (٤/ ٥٠).

أيام يتحدى المشركين، فلم يتشجعوا على لقائه ونزاله، وكان رسول الله ﷺ قد أمر بإشعال النيران فكانوا يشعلون في وقت واحد خمسمائة نار [١].

وأقبل معبد بن أبي معبد الخزاعي إلى رسول الله ﷺ فأسلم، فأمره أن يلحق بأبي سفيان، فيخذِّله، فلحقه بالروحاء ولم يعلم بإسلامه، فقال: ما وراءك يا معبد؟ فقال: محمد وأصحابه، فقد تحرقوا عليكم، وخرجوا في جمع لم يخرجوا في مثله، وقد ندم من كان تخلف عنهم من أصحابهم، فقال: ما تقول: فقال: ما أرى أن ترتحل حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة [٢]، فقال أبو سفيان: والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم، قال معبد: فإني أنهاك عن ذلك، والله لقد حملني ما رأيت على أن قلت فيه أبياتاً من شعر:

قال: وما قلت؟ قال: قلت:

كادت تُهدُّ من الأصوات راحلتي ... إذ سالت الأرض بالجرد [٣] الأبابيل
تُردى [٤] بأسد كرام لا تنابلة [٥] ... عند اللقاء ولا ميل [٦] معازيل [٧]
فظلت عدواً أظن الأرض مائلة ... لما سموا برئيس غير مخذول
فقلت: ويلَ ابن حرب من لقائكم ... إذا تغطمطت البطحاء بالجيل [٨]
إني نذير لأهل البَسل ضاحية ... لكل ذي أُربة منهم ومعقول
من جيش أحمد لا وخش [٩] قنابله ... وليس يوصف ما أنذرت بالقيل [١٠]

فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه، وحاول أبو سفيان أن يغطي انسحابه هذا بشن حرب نفسية على المسلمين، لعلّه يرهبهم، فأرسل مع ركب عبد القيس ـ وكانوا يريدون المدينة للميرة ـ رسالة إلى رسول الله ﷺ مفادها أن أبا سفيان وجيشه قد أجمعوا على السير إليه وإلى أصحابه ليستأصلهم من الوجود، وواعد أبو سفيان الركب أن يعطيهم زبيباً عندما يأتونه في سوق عكاظ، ومرّ الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذي قال أبو سفيان، فقال هو والمسلمون حسبنا الله ونعم الوكيل [١١]، واستمر المسلمون في معسكرهم وآثرت قريش السلامة والأوبة، فرجعوا إلى مكة، وبعد ذلك عاد المسلمون إلى المدينة بروح قوية متوثبة، غسلت عار الهزيمة، ومسحت مغبة الفشل، فدخلوها أعزة رفيعي الجانب، عبثوا بانتصار المشركين، وهزوا

---

(١) انظر: غزوة أُحد لأبي فارس، (ص ١٤٤) نقلاً عن الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٤٣).
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٤٥).
(٣) الجرد: جمع أجرد وهو الضرسي قصير الشعر، والأبابيل: الفرق الكثيرة.
(٤) تردي: تسرع.
(٥) تنابلة: جمع تنبال وهو القصير.
(٦) الميل: جمع أميل، وهو الجبان.
(٧) معازيل: جمع معزال وهو من لا رُمح معه.
(٨) تغطمطت: اضطربت وثارت.
(٩) وخش: رديء.
(١٠) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٥١).
(١١) تاريخ الإسلام للذهبي، المغازي (ص ٢٢٦).

أعصابهم، وأحبطوا شماتة المنافقين واليهود في المدينة، وأشار القرآن الكريم إلى هذه الحرب الباردة، وسجّل ظواهرها [1] بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٧٢ ـ ١٧٥].

ووقع في أسر النبي ﷺ قبل رجوعه إلى المدينة أبو عزة الجمحي الشاعر فقتل صبراً لأنه أخلف وعده للرسول ﷺ بأن لا يقاتل ضده عندما منّ عليه ببدر وأطلقه فعاد فقاتل في أحد، وقد حاول أبو عزة أن يتخلص من القتل وقال: يا رسول الله أقلني، فقال رسول الله ﷺ: «لا والله، لا تمسح عارضيك [2] بمكة بعدها وتقول: خدعت محمداً مرتين، اضرب عنقه يا زبير» [3] فضرب عنقه، فقال النبي ﷺ حينئذ: «لا يلدغ المؤمن من حجر واحد مرتين» [4]. فصار هذا الحديث مثلاً ولم يسمع قبل ذلك.

ويعد هذا العمل من قبيل السياسة الشرعية، لأن هذا الشاعر من المفسدين في الأرض، الداعين إلى الفتنة، ولأن في المنّ عليه تمكيناً له من أن يعود حرباً على المسلمين.

ولم يُؤسَر من المشركين سوى أبي عزة الجمحي [5].

وأما عدد القتلى من المسلمين في أحد فقد انجلت المعركة عن سبعين شهيداً من المسلمين ويؤيد هذا تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عِمرَان: ١٦٥] أنها نزلت تسلية للمؤمنين عمن أصيب منهم يوم أُحد، قال ابن عطية ح: وكان المشركون قد قتلوا منهم سبعين نفراً، وكان المسلمون قد قتلوا من المشركين ببدر سبعين وأسروا سبعين [6]، أما عدد الذين قتلوا يوم أُحد من المشركين اثنان وعشرون قتيلاً [7]. كان خروج رسول الله ﷺ لملاحقة المشركين في غزوة حمراء الأسد يهدف لتحقيق مجموعة من المقاصد المهمة منها:

١ ـ أن لا يكون آخر ما تنطوي عليه نفوس الذين خرجوا يوم أحد هو الشعور بالهزيمة.

---

(١) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، (ص ١٤٢).
(٢) عارضيك: هما جانبا الوجه، لسان العرب (٢/ ٧٤٢).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١١٦).
(٤) البخاري: كتاب الأدب، باب «لا يلدغ المرء» (٧/ ١٣٤)، رقم (٦١٣٣).
(٥) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٥٣).
(٦) المحرر الوجيز لابن عطية (٣/ ٤١١).
(٧) مرويات غزوة أحد للباكري، (ص ٣٦٧، ٣٦٩).

٢ - إعلامهم أن لهم الكرة على أعدائهم متى نفضوا عنهم الضعف والفشل واستجابوا لدعوة الله ورسوله.

٣ - تجزئة الصحابة على قتال أعدائهم.

٤ - إعلامهم أن ما أصابهم في ذلك اليوم إنما هو محنة وابتلاء اقتضتهما إرادة الله، وحكمته، وأنهم أقوياء وأن خصومهم الغالبين في الظاهر ضعفاء [(١)].

كما أن في خروج النبي ﷺ إلى حمراء الأسد إشارة نبوية إلى أهمية استعمال الحرب النفسية للتأثير على معنويات الخصوم، حيث خرج ﷺ بجنوده إلى حمراء الأسد ومكث فيها ثلاثة أيام، وأمر بإيقاد النيران فكانت تشاهد من مكان بعيد وملأت الأرجاء بأنوارها، حتى خيل لقريش أن جيش المسلمين ذو عدد كبير لا طاقة لهم به فانصرفوا وقد ملأ الرعب أفئدتهم [(٢)].

قال ابن سعد: (ومضى رسول الله ﷺ بأصحابه حتى عسكروا بحمراء الأسد، وكان المسلمون يوقدون تلك الليالي خمسمائة نار حتى تُرى من المكان البعيد، وذهب صوت معسكرهم ونيرانهم في كل وجه فكبت الله تعالى بذلك عدوهم) [(٣)].

سادساً: مشاركة نساء المسلمين في معركة أُحد:

كانت غزوة أحد أول معركة في الإسلام تشارك فيها نساء المسلمين، وكان لهذا أثر بالغ في سقي المحاربين وتضميد الجرحى، وقد ظهرت بطولات النساء وصدق إيمانهن في هذه المعركة، فقد خرجن لكي يسقين العطشى ويداوين الجرحى، ومنهن من قامت برد ضربات المشركين الموجهة للرسول ﷺ، ومن شاركن في غزوة أحد أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق، وأم عمارة، وحمنة بنت جحش الأسدية، وأم سليط وأم سُليم ونسوة من الأنصار [(٤)]، قال ثعلبة بن أبي مالك رضي الله عنه: (إن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قسم مروطاً بين نساء من نساء المدينة، فبقي منها مرط جيد، فقال له بعض من عنده: يا أمير المؤمنين، أعط هذا بنت رسول الله ﷺ التي عندك، يريدون أم كلثوم بنت علي، فقال عمر رضي الله عنه: أم سَليط أحق به، وأم سليط من نساء الأنصار، ممن بايع رسول الله ﷺ، قال عمر: فإنها كانت تُزفر [(٥)] لنا القرب يوم أُحد [(٦)].

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (١/٥١٩).

(٢) انظر: غزوة أحد لأبي فارس، (ص ٥١).

(٣) انظر: الطبقات لابن سعد (٢/٤٩).

(٤) مسلم، كتاب الجهاد باب «غزو النساء» رقم (١٧٧٩).

(٥) تزفر: تحمل القرب مملوءة بالماء.

(٦) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٠٧١).

١ ـ سقى العطشى من المجاهدين:

عن أنس رضي الله عنه قال: (لما كان يوم أُحد انهزم الناس عن النبي ﷺ قال: ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سُليم، وإنهما لمشمرتان أرى خدم سوقهن تَنْقُزَان[١] القرب ـ وقال غيره: تنقلان القرب على متونهما، ثم تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغانها في أفواه القوم[٢].

وقال كعب بن مالك رضي الله عنه: (رأيت أم سليم بنت ملحان وعائشة على ظهورهما القرب يحملانها يوم أحد، وكانت حمنة بنت جحش تسقي العطشى وتداوي الجرحى، وكانت أم أيمن، تسقي الجرحى[٣].

٢ ـ مداواة الجرحى ومواساة المصابين:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يغزو بأم سليم، ونسوة من أنصار معه إذا غزا، فيسقين الماء ويداوين الجرحى [٤].

وأخرج عبد الرزاق عن الزهري: (كان النساء يشهدون مع النبي ﷺ المشاهد ويسقين المقاتلة ويداوين الجرحى) [٥].

وعن الرُّبيع بنت معوذ قالت: «كنا مع النبي ﷺ نسقي، ونداوي الجرحى، ونرد القتلى إلى المدينة» وفي رواية «كنا نغزو مع النبي ﷺ فنسقي القوم ونخدمهم، ونرد الجرحى والقتلى إلى المدينة» [٦].

وعن أبي حازم أنه سمع سهل بن سعد، رضي الله عنه، وهو يسأل عن جرح رسول الله ﷺ فقال: أما والله إني لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله ﷺ، ومن كان يسكب الماء، وبما دُوي. قال: كانت فاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ تغسله، وعليّ يسكب الماء بالمجنّ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة، أخذت قطعة من حصير فأحرقتها وألصقتها فاستمسك الدم [٧].

---

(١) تنقزان: أي تحملان وتقفزان بها وثباً.
(٢) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب «غزو النساء» رقم (٢٨٨٠).
(٣) انظر: المغازي للواقدي (١/ ٢٤٩).
(٤) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب «غزة النساء مع الرجال» رقم (١٨١٠).
(٥) البخاري: فتح الباري لابن حجر (٦/ ٩٢) عند حديث قم (٢٨٨٠).
(٦) البخاري: كتاب الجهاد والسير، رقم (٢٨٨٢، ٢٨٨٣).
(٧) البخاري: كتاب المغازي، رقم (٤٠٧٥).

٣ ـ الدفاع عن الإسلام ورسوله بالسيف:

لم تقاتل المشركين يوم أحد إلا أم عمارة نسيبة المازنية رضي الله عنها، وهذا ضمرة بن سعيد يحدث عن جدته، وكانت قد شهدت أحداً تسقي الماء قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان، وكان يراها تقاتل يومئذٍ أشد القتال، وإنها لحاجزة ثوبها على وسطها، حتى جرحت ثلاثة عشر جرحاً فلما حضرتها الوفاة كنت فيمن غسلها، فعددت جراحها جرحاً جرحاً فوجدتها ثلاثة عشر جرحاً. وكانت تقول: إني لأنظر إلى ابن قميئة وهو يضربها على عاتقها ـ وكان أعظم جراحها ـ لقد داوته سنة ـ ثم نادى منادِ النبي ﷺ: إلى حمراء الأسد! فشدّت عليها ثيابها فما استطاعت من نزف الدم، ولقد مكثنا ليلنا نكمد الجراح حتى أصبحنا، فلما رجع رسول الله ﷺ من الحمراء، ما وصل إلى بيته حتى أرسل إليها عبد الله بن كعب المازني (١) ـ أخو أم عمارة ـ يسأل عنها، فرجع إليه يخبره بسلامتها، فسر النبي ﷺ بذلك (٢).

وقد علّق الأستاذ حسين الباكري عن مشاركة نسيبة بنت كعب في القتال فقال: وخروج المرأة للقتال مع الرجال لم يثبت في ذلك منه شيء غير قصة نسيبة، وقتال نسيبة إنما كان اضطرارياً حين رأت أن رسول الله أصبح في خطر حين انكشف عنه الناس، فأم عمارة كانت في موقف أصبح حمل السلاح فيه واجباً على من يقدر على حمله رجلاً كان أو امرأة (٣).

وعلّق الدكتور أكرم ضياء العمري على الآثار الدالة في مشاركة النساء في أُحد بقوله: وهذه الآثار تدل على جواز الانتفاع بالنساء عند الضرورة لمداواة الجرحى وخدمتهم إذا أمنت فتنتهن مع لزومهن الستر والصيانة، ولهن أن يدافعن عن أنفسهن بالقتال إذا تعرّض لهن الأعداء، مع أن الجهاد فرض على الرجال وحدهم إلا إذا داهم العدو ديار المسلمين فيجب قتاله من الجميع رجالاً ونساء (٤).

وأما الأستاذ محمد أحمد باشميل فقد قال: وقد كانت معركة أحد أول معركة قاتلت فيها المرأة المسلمة المشركين في الإسلام، ومن الثابت أن امرأة واحدة فقط اشتركت في هذه المعركة، وهي تدافع عن رسول الله ﷺ، كما أنه من الثابت أيضاً أن المرأة التي اشتركت في معركة أحد، لم تخرج بقصد القتال فهي لم تكن مجنّدة فيها كالرجال، وإنما خرجت لتنظر ما يصنع الناس لتقوم بأية مساعدة يمكنها القيام بها للمسلمين كإغاثة الجرحى بالماء وما شابه ذلك، يضاف إلى هذا أن هذه المرأة التي خاضت معركة أحد هي امرأة قد تخطّت سن

---

(١) أخو أم عمارة. انظر: الذهبي سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٧٨).
(٢) المغازي للواقدي (١/ ٢٦٩، ٢٧٠).
(٣) انظر: مرويات غزوة أُحد، (ص ٢٥٤).
(٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٩١).

الشباب، كما أنها لم تخرج إلى المعركة إلا مع زوجها وابنيها الذين كانوا من الجند الذين قاتلوا في المعركة، يضاف إلى هذا الرصيد الهائل الذي لديها من المناعة الخلقية والتربية الدينية، فلا يقاس على هذه الصحابية الجليلة مجنّدات هذا الزمان اللواتي يرتدين لباس الميدان وعنصر الإغراء والفتنة هو أهم عنصر يتميزن به ويحرصن على إظهاره للرجال فأين الثرى من الثريا؟؟

كذلك رجال ذلك العصر لا يقاس عليهم أحد من رجال هذا الزمان من ناحية الشهامة والاستقامة والعفة والرجولة، فكل المحاربين الذين اشتركت معهم امرأة في معركة أحد كانوا صفوة الأمة الإسلامية ورمز نبلها وشهامتها وعنوان رجولتها واستقامتها. . فلا يصح مطلقاً جعل اشتراك تلك المرأة في معركة أحد قاعدة تقاس عليها (من الناحية الشرعية)، إباحة تجنيد المرأة في هذا العصر لتقاتل بجانب الرجل (كعنصر أساسي من عناصر الجيش)، فالقياس في هذه الحالة قياس مع الفارق وهو قياس باطل قطعاً (١).

سابعاً: دروس في الصبر تقدمها صحابيات للأمة.

١ ـ صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها:

لما استشهد أخوها حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه في أحد، وجاءت لتنظر إليه وقد مثل به المشركون فجدعوا أنفه وبقروا بطنه، وقطعوا أذنيه ومذاكيره، فقال رسول الله ﷺ لابنها الزبير بن العوام: «القها فارجعها، لا ترى ما بأخيها، فقال لها: يا أمة إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي، قالت: ولِمَ؟ وقد بلغني أنه قد مثل بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك! لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله.

فلما جاء الزبير بن العوام رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك، قال: خلِّ سبيلها، فأتته، فنظرت إليه، فصلّت عليه واسترجعت (٢)، واستغفرت له (٣).

٢ ـ حمنة بنت جحش رضي الله عنها:

لما فرغ رسول الله ﷺ من دفن أصحابه رضي الله عنهم ركب فرسه وخرج المسلمون حوله راجعين إلى المدينة، فلقيته حمنة بنت جحش، فقال لها رسول الله ﷺ: يا حمنة احتسبي، قالت: من يا رسول الله؟ قال: «خالك حمزة بن عبد المطلب»، قالت: إنا للّه وإنا إليه راجعون، غفر الله له، هنيئاً له الشهادة، ثم قال لها: احتسبي، قالت: من يا رسول الله؟ قال: زوجك مصعب بن عمير، قالت: واحزناه، وصاحت وولولت، فقال رسول الله ﷺ: إن زوج المرأة منها لبمكان،

(١) انظر: غزوة أُحد، محمد باشميل، (ص ١٧١، ١٧٣).
(٢) استرجعت: قالت: إنا للّه وإنا إليه راجعون.
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/١٠٨).

لما رأى من تثبتها على أخيها وخالها، وصياحها على زوجها ثم قال لها: ولِمَ قلت هذا؟ قالت: يا رسول الله، ذكرت يتم بنيه فراعني، فدعا لها رسول الله ﷺ ولولدها أن يحسن الله تعالى عليهم من الخلف (١)، فتزوجت طلحة بن عبيد الله فولدت منه محمداً وعمران (٢)، فكان محمد بن طلحة أوصل الناس لولدها (٣).

٣ ـ المرأة الدينارية رضي الله عنها:

قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: مرّ رسول الله ﷺ بامرأة من بني دينار، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأحد، فلما نعوا لها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قال خيراً يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبّين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فأُشير لها إليه، حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل (٤)، تريد صغيرة وهكذا يفعل الإيمان في نفوس المسلمين.

٤ ـ أم سعد بن معاذ وهي كبشة بنت عبيد الخزرجية رضي الله عنها:

خرجت أم سعد بن معاذ تعدو نحو رسول الله ﷺ، ورسول الله واقف على فرسه، وسعد بن معاذ آخذ بعنان فرسه، فقال سعد: يا رسول الله، أمي، فقال رسول الله: مرحباً بها، فدنت حتى تأملت رسول الله ﷺ، فقالت: أما إذا رأيتك سالماً، فقد أشوت (٥) المصيبة، فعزاها رسول الله ﷺ بعمرو بن معاذ ابنها، ثم قال: يا أم سعد، أبشري وبشري أهليهم أن قتلاهم قد ترافقوا في الجنة جميعاً ـ وهم اثنا عشر رجلاً ـ وقد شفعوا في أهليهم. قالت: رضينا يا رسول الله، ومن يبكي عليهم بعد هذا؟ ثم قالت: ادع يا رسول الله لمن خُلِّفوا. فقال رسول الله ﷺ: اللهم أذهب حزن قلوبهم واجْبُر مصيبتهم، وأحسن الخَلَف على من خُلِّفوا (٦).

المبحث الرابع

بعض الدروس والعبر والفوائد

لقد وصف القرآن الكريم غزوة أحد وصفاً دقيقاً، وكان التصوير القرآني للغزوة أقوى حيوية ووضوحاً من الروايات التي جاءت في الغزوة، كما أن أسلوب الآيات المطمئنة المبشرة واللائمة، والمسكنة والواعظة كان رائعاً وقوياً، فبيّن القرآن الكريم نفوس جيش النبي ﷺ، وهذا

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٧٤)، غزوة أحد دراسة دعوية، (ص ٢٣٦).

(٢) انظر: الإصابة (٨/ ٨٨)، رقم (١١٠٦٠).

(٣) انظر: غزوة أُحد لأبي فارس، (ص ١٠٩).

(٤) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٤٨).

(٥) أشوَت: صارت صغيرة خفيفة.

(٦) انظر: مغازي الواقدي (١/ ٣١٥، ٣١٦).

تميز لحديث القرآن عن الغزوة، ينفرد به عما جاء في كتب السيرة، فسلّط القرآن الكريم الأضواء على خفايا القلوب، التي ما كان المسلمون أنفسهم يعرفون وجودها في قلوبهم والناظر عموماً في منهج القرآن في التعقيب على غزوة أحد يجد الدقة والعمق والشمول.. يقول سيد قطب: الدقة في تناول كل موقف، وكل حركة وكل خالجة، والعمق في التدسس إلى أغوار النفس ومشاعرها الدفينة، والشمول لجوانب النفس وجوانب الحادث.

كما نجد الحيوية في التصوير والإيقاع والإيحاء، بحيث تتماوج المشاعر مع التعبير والتصوير تماوجاً عميقاً عنيفاً، ولا تملك أن تقف جامدة أمام الوصف، أما التعقيب فهو وصف حي، يستحضر المشاهد ـ كما لو كانت تتحرك ـ ويشيع حولها النشاط المؤثر والإشعاع النافذ والإيحاء المثير [١].

إن حركة النبي ﷺ في تربية الأمة، وإقام الدولة، والتمكين لدين الله يعتبر انعكاساً في دنيا الحياة لمفاهيم القرآن الكريم، التي سيطرت على مشاعره وأفكاره وأحاسيسه ﷺ، ولذلك نجد أن النبي ﷺ في علاجه لأثر الهزيمة في أحد تابع للمنهج القرآني الكريم، ونحاول تسليط الأضواء على بعض النقاط المهمة في هذا المنهج.

أولاً: تذكير المؤمنين بالسنن ودعوتهم للعلو الإيماني:

قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمران: ١٣٧ ـ ١٣٩].

إن المتأمل في هذه الآيات الكريمة يجد أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يترك المسلمين لوساوس الشيطان في محنة غزوة أحد، بل خاطبهم بهذه الآيات التي بعث بها الأمل في قلوبهم، وأرشدهم إلى ما يقويهم ويثبتهم، ويمسح بتوجيهاته دموعهم ويخفف عنهم آلامهم [٢].

قال القرطبي: هو تسلية من الله تعالى للمؤمنين [٣].

ففي الآيات السابقة دعوة للتأمل في مصير الأمم السابقة التي كذّبت دعوة الله تعالى، وكيف جرت فيهم سنته على حسب عادته، وهي الإهلاك والدمار بسبب كفرهم وظلمهم وفسوقهم على أمره.

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٥٣٢).

(٢) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ١٩٠).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٤/ ٢١٦).

وجاء التعبير بلفظ كيف الدال على الاستفهام، المقصود به تصوير حالة هؤلاء المكذبين التي تدعو إلى التعجب، وتثير الاستغراب، وتغرس الاعتبار والاتعاظ في قلوب المؤمنين، لأن هؤلاء المكذبين مكّن الله لهم في الأرض ومنحهم الكثير من نعمه... ولكنهم لم يشكروه عليها، فأهلكهم بسبب طغيانهم (١).

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] دعاهم إلى ترك الضعف، ومحاربة الجبن، والتخلص من الوهن، وعدم الحزن، لأنهم هم الأعلون بسبب إيمانهم.

ثانياً: تسلية المؤمنين وبيان حكمة الله فيما وقع يوم أُحد:

قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٠ ـ ١٤٣].

بيَّن الله ﷻ لهم أن الجروح والقتل يجب أن لا تؤثر في جسدهم واجتهادهم في جهاد العدو، وذلك لأنه كما أصابهم ذلك فقد أصاب عدوهم مثله من قبل ذلك، فإذا كانوا مع باطلهم وسوء عاقبتهم لم يفتروا لأجل ذلك في الحرب، فبأن لا يلحقكم الفتور مع حسن العاقبة والتمسك بالحق أولى (٢).

وقال صاحب الكشاف: والمعنى: إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم قبله يوم بدر، ثم لم يضعف ذلك قلوبهم، ولم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال فأنتم أولى أن لا تضعفوا (٣).

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنه كان يوم أحد بيوم بدر، قتل المؤمنون يوم أحد، واتخذ الله منهم شهداء، وغلب رسول الله ﷺ يوم بدر المشركين فجعل الدولة عليهم (٤).

وقد ذكر الله تعالى أربع حكم لما حدث للمؤمنين في غزوة أحد وهي: تحقق علم الله تعالى وإظهاره للمؤمنين، وإكرام بعضهم بالشهادة التي توصل صاحبها إلى أعلى الدرجات، وتطهير المؤمنين، وتخليصهم من ذنوبهم ومن المنافقين، ومحق الكافرين واستئصالهم رويداً رويداً (٥).

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ١٩١).
(٢) انظر: تفسير الرازي (٩/ ١٤).
(٣) انظر: تفسير الكشاف (١/ ٤٦٥).
(٤) انظر: تفسير الرازي (٤/ ١٠٥).
(٥) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ١٩٩).

ثالثاً: كيفية معالجة الأخطاء:

ترفق القرآن الكريم وهو يعقب على ما أصاب المسلمين في (أحد) على عكس ما نزل في بدر من آيات، فكان أسلوب القرآن الكريم في محاسبة المنتصر على أخطائه أشد من حساب المنكسر فقال في غزوة بدر: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: ٦٧ ـ ٦٨].

وقال في أحد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٢].

وفي هذا حكمة عملية، وتربية قرآنية، يحسن أن يلتزمها أهل التربية والقائمون على التوجيه [(١)].

رابعاً: ضرب المثل بالمجاهدين السابقين:

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٤٦ ـ ١٤٨].

قال ابن كثير: عاتب الله بهذه الآيات والتي قبلها من انهزم يوم أحد وتركوا القتال وسمعوا الصائح يصيح «إن محمداً قد قُتل» فَعَذَلَهُم الله على فرارهم وتركهم القتال [(٢)].

وضرب الله لهم مثلاً بإخوانهم المجاهدين السابقين، وهم جماعات كثيرة، ساروا وراء أنبيائهم في درب الجهاد في سبيل الله مجاهدة فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وما ضعفوا عن الجهاد بعد الذي أصابهم منه وما استكانوا للعدو، بل ظلوا صابرين ثابتين في جهادهم، وفي هذا تعريض بالمسلمين الذين أصابهم الوهن والانكسار عند الإرجاف بقتل رسول الله ﷺ، وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين واستكانتهم لهم، وضرب الله مثلاً للمؤمنين لتثبيتهم بأولئك الربانيين وبما قالوه: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٤٧].

وهذا القول هو إضافة الذنوب والإسراف إلى نفوسهم ـ مع كونهم ربانيين ـ هضم لها،

---

(١) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، (ص ١٣٧).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤١٠) بتصرف.

واعتراف منهم بالتقصير، ودعاؤهم بالاستغفار من ذنوبهم مقدّم على طلبهم تثبيت أقدامهم أمام العدو، ليكون طلبهم إلى ربهم النصر عن زكاة وطهارة وخضوع، وفي هذا تعليم للمسلمين إلى أهمية التضرع، والاستغفار وتحقيق التوبة وتظهر أهمية ذلك في إنزال النصر على الأعداء ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١٤٨] أي وبذلك نالوا ثواب الدارين: النصر والغنيمة في الدنيا، والثواب الحسن في الآخرة، جزاء إحسانهم في أدب الدعاء والتوجه إلى الله، وإحسانهم في موقف الجهاد وكانوا بذلك مثلاً يضربه الله للمسلمين المجاهدين، وخص الله تعالى ثواب الآخرة بالحسن دلالة على فضله وتقدمه على ثواب الدنيا وأنه هو المعتمد عنده (١).

خامساً: مخالفة ولي الأمر تسبب الفشل لجنوده:

ويظهر ذلك في مخالفة الرماة لأمر النبي ﷺ، ووقوعهم في الخطأ الفظيع، الذي قلب الموازين، وأدى إلى الخسائر الفادحة التي لحقت بالمسلمين ولكي نعرف أهمية الطاعة لولي الأمر، نلحظ أن انخذال عبد الله بن أبي ومن معه من المنافقين لم يؤثر على المسلمين، بينما الخطأ الذي ارتكبه الرماة الذين أحسن الرسول ﷺ تربيتهم وأسند لكل واحد منهم عملاً، ثم خالفوا أمره ﷺ كان ضرره على المسلمين عامة، حيث سلّط الله عليهم عدوهم، وذلك بسبب عصيان الأوامر، ثم اختلطت أمورهم وتفرّقت كلمتهم، وكاد يُقضى على الدعوة الإسلامية وهي في مهدها.

ونلحظ من خلال أحداث غزوة أحد: أن المسلمين انتصروا في أول الأمر حينما امتثلوا لأوامر الرسول ﷺ، وانقادوا لتعليمات قائدهم وأميرهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه، بينما انهزموا حينما خالفوا أمره ﷺ ونزل الرماة من الجبل لجمع الغنائم مع بقية الصحابة (٢)، رضي الله عنهم، قال تعالى: ﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَـٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

يقول الشيخ محمد بن عثيمين: (ومن آثار عدم الطاعة ما حصل من معصية بعض الصحابة رضي الله عنهم، للنبي ﷺ، وهم يجاهدون في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله... والذي حصل أنه لما كانت الغلبة للمؤمنين، ورأى بعض الرماة أن المشركين انهزموا، تركوا الموضع الذي أمرهم النبي ﷺ ألا يبرحوه، وذهبوا مع الناس، وبهذا كر العدو عليهم من الخلف، وحصل ما حصل من الابتلاء والتمحيص للمؤمنين وقد أشار الله تعالى إلى هذه العلة بقوله تعالى:

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٢٠٤).
(٢) انظر: غزوة أُحد دراسة دعوية، (ص ٢٠٧ ـ ٢٠٩).

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] .

هذه المعصية التي فات بها نصر انعقدت أسبابه، وبدت أوائله، وهي معصية واحدة والرسول عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم، فكيف بالمعاصي الكثيرة؟ ولهذا نقول: إن المعاصي من آثارها أن الله يسلط بعض الظالمين على بعض بما كانوا يكسبون، ويفوتهم من أسباب النصر والعزة بقدر ما ظلموا فيه أنفسهم [١] .

سادساً: خطورة إيثار الدنيا على الآخرة:

وردت نصوص عديدة من آيات وأحاديث تبيِّن منزلة الدنيا عند الله وتصف زخارفها وأثرها على فتنة الإنسان، وتحذر من الحرص عليها قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عِمران: ١٤] .

وقد حذَّر الرسول الكريم ﷺ أمته من الاغترار بالدنيا، والحرص الشديد عليها في أكثر من موضع، وذلك لما لهذا الحرص من أثره السيء على الأمة عامة وعلى من يحملون لواء الدعوة خاصة، ومن ذلك:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء» [٢] ويظهر للباحث أثر الحرص على الدنيا في غزوة أحد.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما هزم الله المشركين يوم أحد، قال الرماة: (أدركوا الناس ونبي الله، لا يسبقوكم إلى الغنائم، فتكون لهم دونكم) وقال بعضهم: (لا نريم [٣] حتى يأذن لنا النبي ﷺ) [٤] فنزلت: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [آل عِمران: ١٥٢] .

قال الطبري: قوله سبحانه: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني الغنيمة، قال ابن مسعود: ما كنت أرى أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى نزل فينا يوم أحد [٥] ﴿مِنكُم مَّن

---

(١) انظر: الطاعة والمعصية وأثرهما في المجتمع، محمد بن العثيمين نقلاً عن غزوة أُحد، (ص ٢١١).
(٢) مسلم، رقم (٢٧٤٢).
(٣) لا نريم: لا نبرح المكان.
(٤) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٤٧٤).
(٥) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٤٧٤).

يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٢] .

إن الذي حدث في أُحد عبرة عظيمة للدعاة وتعليم لهم بأن حب الدنيا قد يتسلل إلى قلوب أهل الإيمان ويخفى عليهم، فيؤثرون الدنيا ومتاعها على الآخرة ومتطلبات الفوز بنعيمها، ويعصون أوامر الشرع الصريحة كما عصى الرماة أوامر الرسول ﷺ الصريحة، بتأويل ساقط يرفعه هوى النفس وحب الدنيا، فيخالفون الشرع وينسون المحكم من أوامره، كل هذا يحدث ويقع من المؤمن وهو غافل عن دوافعه الخفية، وعلى رأسها حب الدنيا، وإيثارها على الآخرة ومتطلبات الإيمان، وهذا يستدعي من الدعاة التفتيش الدائم الدقيق في خبايا نفوسهم واقتلاع حب الدنيا منها، حتى لا تحول بينهم وبين أوامر الشرع، ولا توقعهم في مخالفته بتأويلات ملفوفة بهوى النفس وتلفتها إلى الدنيا ومتاعها [(١)].

سابعاً: التعلق والارتباط بالدين:

قال ابن كثير: لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد، وقُتل من قُتل منهم، نادى الشيطان، ألا إن محمداً قد قتل، ورجع ابن قميئة إلى المشركين فقال لهم: قتلت محمداً، وإنما كان قد ضرب رسول الله ﷺ فشجّه في رأسه، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس واعتقدوا أن رسول الله ﷺ قد قتل، وجوزوا عليه ذلك، كما قد قصّ الله عن كثير من الأنبياء عليهم السلام، فحصل ضعف ووهن وتأخر عن القتال، فأنزل الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٤٤] ، أي له أسوة بهم في الرسالة وفي جواز القتل عليه [(٢)].

وقد جاء في تفسير الآية السابقة: إن الرسل ليست باقية في أقوامها أبداً، فكل نفس ذائقة الموت، ومهمة الرسول تبليغ ما أرسل به وقد فعل، وليس من لوازم رسالته البقاء دائماً مع قومه، فلا خلود لأحد في هذه الدنيا، ثم قال تعالى منكراً على من حصل له ضعف لموت النبي ﷺ أو قتله: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾ [آل عِمرَان: ١٤٤] أي رجعتم القهقرى وقعدتم عن الجهاد، والانقلاب على الأعقاب يعني الإدبار عما كان رسول الله ﷺ يقوم به من أمر الجهاد ومتطلباته، ﴿وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٤٤] الذين لم ينقلبوا أو ظلوا ثابتين على دينهم متبعين رسوله حيا أو ميتاً [(٣)].

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/١٩٧).
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم (١/٤٤١).
(٣) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/٢٠٠).

لقد كان من أسباب البلاء والمصائب التي حدثت للمسلمين يوم أحد أنهم ربطوا إيمانهم وعقيدتهم ودعوتهم إلى الله لإعلاء كلمته بشخص رسول الله، فهذا الربط بين عقيدة الإيمان بالله رباً معبوداً وحده وبين بقاء شخص النبي ﷺ خالد فيهم خالطه الحب المغلوب بالعاطفة، الربط بين الرسالة الخالدة وبين الرسول ﷺ البشر الذي يلحقه الموت كان من أسباب ما نال الصحابة ﷺ من الفوضى والدهشة والاستغراب، ومتابعة الرسول ﷺ أساس وجوب التأسي به في الصبر على المكاره، والعمل الدائب على نشر الرسالة، وتبليغ الدعوة ونصرة الحق، وهذا التأسي هو الجانب الأغر من جوانب منهج رسالة الإسلام، لأنه الدعامة الأولى في بناء مسيرة الدعوة لإعلاء كلمة الله ونشرها في آفاق الأرض وعدم ربط بقاء الدين واستمرار الجهاد في سبيله ببقاء شخص النبي ﷺ في هذه الدنيا [1].

قال ابن القيم: إن غزوة أحد كانت مقدمة وإرهاصاً بين يدي موت رسول الله ﷺ فثبتهم، ووبخهم على انقلابهم على أعقابهم إن مات رسول الله ﷺ، أو قُتل، بل الواجب له عليهم أن يثبتوا على دينه وتوحيده ويموتوا عليه، أو يُقتلوا، فإنهم إنما يعبدون رب محمد، وهو لا يموت، فلو مات محمد أو قُتل لا ينبغي لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه، وما جاء به فكل نفس ذائقة الموت، وما نُعت محمد ﷺ ليخلد، لا هو ولا هم، بل ليموتوا على الإسلام والتوحيد، فإن الموت لا بدّ منه، سواء مات رسول الله ﷺ أو بقي، لهذا وبخهم على رجوع من رجع منهم عن دينه لما صرخ الشيطان: إن محمداً قد قتل، فقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٤٤]، والشاكرون هم الذين عرفوا قدر النعمة، فثبتوا عليها حتى ماتوا أو قتلوا فظهر أثر هذا العتاب، وحكم هذا الخطاب يوم مات رسول الله ﷺ، وارتد من ارتد على عقبيه وثبت الشاكرون على دينهم، فنصرهم الله، وأعزهم وظفرهم بأعدائهم وجعل العاقبة لهم [2].

قال القرطبي: (فهذه الآية من تتمة العتاب مع المنهزمين، أي لم يكن لهم الانهزام وإن قتل محمد، والنبوة لا تدرأ الموت، والأديان لا تزول بموت الأنبياء) [3]، وكلامه رحمه الله نفيس جداً، فالذين ظنوا من قبل أن الإسلام قد انتهى بموت النبي ﷺ، والذين يظنون أن ظهور الإسلام ودعوته متوقف على شخص بعينه، فهؤلاء وأولئك قد أخطأوا ولم يقدروا هذا الدين قدره ولم يوفوه حقه، لأن ظهور هذا الدين وهيمنته على كل الأديان، هو قدر الله ﷻ وسنته، ولن تجد لسنّة الله تبديلاً، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

---

(١) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٣/ ٦١٦).
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٢٤).
(٣) انظر: تفسير القرطبي (٤/ ٢٢٢).

فسبب ظهور هذا الدين أنه حق وأنه هدى [(١)].

في غزوة أحد نزل التشريع الإلهي بالعتاب على ما حدث منهم أثناء أحداث غزوة أحد، وعند موت الرسول ﷺ جاء التطبيق حيث (لما توفي رسول الله ﷺ أقبل أبو بكر الصديق رضي الله عنه على فرس من مسكنه بالسُنُح، حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة، رضي الله عنها، فتيمم [(٢)] رسول الله ﷺ وهو مُغشًى بثوب حِبرَةٍ [(٣)]، فكشف عن وجهه ﷺ ثم أكب عليه، فقبّله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كُتبت عليك فقد مُتها) [(٤)].

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: (إن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر رضي الله عنه فقال أبو بكر رضي الله عنه: أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت. قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وقال: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها. فأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر رضي الله عنه قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر رضي الله عنه تلاها فَعَقِرْت[(٥)]، حتى ما تُقِلُّني رِجْلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبي ﷺ قد مات[(٦)].

ثامناً: معاملة النبي ﷺ للرماة الذين أخطأوا والمنافقين الذين انخذلوا:

١ ـ الرماة:

إن الرماة الذين أخطأوا الاجتهاد في غزوة أحد لم يخرجهم الرسول ﷺ خارج الصف، ولم يقل لهم، إنكم لا تصلحون لشيء من هذا الأمر، بعدما بدا منكم في التجربة من النقص والضعف، بل قَبِل ضعفهم هذا في رحمة وعفو وفي سماحة، ثم شمل سبحانه وتعالى برعايته وعفوه جميع الذين اشتركوا في هذه الغزوة رغم ما وقع من بعضهم من أخطاء جسيمة وما ترتب

---

(١) انظر: مرض النبي ووفاته وأثر ذلك على الأمة، خالد أبو صالح، ص ٢٠ نقلاً عن غزوة أحد دراسة دعوية، (ص ١٩١).

(٢) تيمم: قصد.

(٣) الحبرة: نوع من برود اليمن مخططة غالية الثمن.

(٤) البخاري: كتاب المغازي، باب «مرض النبي ﷺ ووفاته» رقم (٤٤٥٤).

(٥) عقرت: دهشت وتحيرت، وسقطت.

(٦) انظر: البخاري، كتاب المغازي، رقم (٤٤٥٤).

عليه من خسائر فادحة فعفا سبحانه وتعالى عنهم عفواً غسل به خطاياهم ومحا به آثار تلك الخطايا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٢] . وهناك أمر مهم يتصل بهذا العفو قد يترك أثراً في نفوسهم يعوقها بعض الشيء، ذلك هو موقف رسول الله ﷺ مما حدث منهم، أنهم يشعرون أن الرسول ﷺ هو وحده الذي تحمّل نتيجة تلك الأخطاء فلا بدّ أن ينالوا منه عفواً تطيب به نفوسهم، وتتم به نعمة الله عليهم، لهذا أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأن يعفو عنهم وحثّه على الاستغفار لهم، كما أمره أن يأخذ رأيهم والاستماع إلى مشورتهم (١)، ولا يجعل ما حدث صارفاً عن الاستفادة من خبراتهم ومشورتهم. قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٩] .

٢ ـ انخذال ابن سلول المنافق:

كان هدف عبد الله بن سلول بانسحابه بثلاثمائة من المنافقين، أن يحدث بلبلة واضطراباً في الجيش الإسلامي، لتنهار معنوياته ويتشجع العدو، وتعلو همته، وعمله هذا ينطوي على استهانة بمستقبل الإسلام، وغدر به في أحلك الظروف، وقد حاول عبد الله بن حرام أن يمنعهم من ذلك الانخزال إلا أنهم رفضوا دعوته (٢) وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٦٦ ـ ١٦٧] .

فبالرغم من خطورة الموقف وحاجة المسلمين لهذا العدد، لقلة جيش المسلمين وكثرة جيش قريش إلا أن الرسول ﷺ ترك هؤلاء المنافقين وشأنهم، ولم يعرهم أي اهتمام، واكتفى بفضح أمرهم أمام الناس (٣)، وكان لهذا الأسلوب أثره في توبيخ وإهانة ابن سلول عندما رجع رسول الله من غزوته من حمراء الأسد، أراد ابن سلول أن يقوم كعادته لحث الناس على طاعة رسول الله ﷺ، قال الإمام الزهري: كان عبد الله بن أبي له مقام بقومه كل جمعة لا ينكسر له شرفاً في نفسه وفي قومه وكان فيهم شريفاً إذا جلس رسول الله ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام فقال: أيها الناس هذا رسول الله بين أظهركم أكرمكم الله به وأعزكم به فانصروه

(١) انظر: غزوة أُحد.. دراسة دعوية، (ص ٢١٨).
(٢) المصدر نفسه، (ص ٢١٩).
(٣) المصدر نفسه، (ص ٢٢٠).

وعزروه واسمعوا له وأطيعوا، ثم يجلس حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع ورجع الناس قام يفعل ذلك كما كان يفعله فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا: اجلس أي عدو الله، والله لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول: والله لكأنما قلت بُجراً [١]، إن قمت أشدد أمره، فلقيه رجال من الأنصار بباب المسجد فقالوا: ويلك ما لك؟ قال: قمت أشدد أمره فوثب إليَّ رجال من أصحابه يجذبونني ويعنفونني لكأنما قلت بجراً أن قمت أشدد أمره، قالوا: ويلك ارجع يستغفر لك رسول الله. قال: والله ما أبغي أن يستغفر لي [٢].

تاسعاً: أُحد جبل يحبنا ونحبه:

عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ طَلَع له أُحدٌ، فقال: «هذا جبل يحبنا ونحبه» [٣].

وهذا يدل على دقة شعور النبي ﷺ حيث قارن بين ما كسبه المسلمون من منعة التحصن والاحتماء بذلك الجبل، وما أودعه الله تعالى فيه من قابلية لذلك، فعبّر عن ذلك بأرقى وشائج الصلة وهي المحبة، أفلا يُعتبر هذا الوجدان الحي والإحساس المرهف مثلاً على التخلق بخلق الوفاء؟

ألا إن الذي يعترف بفضل الحجارة الصماء ويُضفي عليها من الأخلاق السامية ما لا يتّصف به إلا أفاضل العقلاء، لجدير به أن يعترف بأدنى فضل يكون من بني الإنسان، وإذا كان وفاؤه ﷺ للجماد قد سمى حتى حاز أرقى العبارات وأرقها، فأخلق ببني الإنسان الأوفياء أن ينالوا منه أعظم من ذلك، فضلاً عمن تجمعه بهم الأخوة في الله تعالى [٤].

والحديث النبوي الشريف فيه كثير من المعاني منها ما ذكره الحميدي، ومنها ما قاله الأستاذ صالح الشامي حيث قال: والإنسان كثيراً ما يربط بين المصيبة وبين مكانها أو زمانها. . . وحتى لا تنسحب هذه العادة وتستمر بعد أن جاء الإسلام كان هذا القول الكريم بياناً للحق وابتعاداً عن الطيرة والتشاؤم، وذلك المعنى الذي يبقي الآثار السيئة في نفس الإنسان ولا شك أن المسلمين سيقفون على أحد يتذكرون تلك المعركة فحتى لا يرتبط بفكرهم ذلك المعنى السيء، بيَّن لهم أن المكان والزمان مخلوقان لله لا علاقة لهما ولا أثر بما يحدث فيهما، وإنما الأمور بيد الله تعالى والاستشهاد في سبيل الله كرامة لصاحبه لا مصيبة، وهكذا تتساوى المفاهيم في إطارها الإيماني، وإذاً (أحدٌ) يُكرم ويُحب انطلاقاً من هذا القول الكريم، وكيف لا يكرم وقد اختاره الله ليثوي فيه حمزة وأصحابه ممن اختارهم الله في

---

(١) بُجراً: شراً.

(٢) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٥٣).

(٣) انظر: صحيح البخاري، والمغازي، رقم (٤٠٨٤).

(٤) انظر: التاريخ الإسلامي (٥/ ١٩٨).

ذلك اليوم فجادوا بأنفسهم ابتغاء مرضاته (١).

عاشراً: الملائكة في أُحد:

قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: لقد رأيت يوم أُحد عن يمين رسول الله ﷺ وعن يساره، رجلين عليهما ثياب بيض، يقاتلان عنه كأشد القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد ـ يعني جبريل وميكائيل ـ عليهما السلام (٢).

وهذا خاص بالدفاع عن النبي ﷺ لأن الله تكفّل بعصمته من الناس، ولم يصح أن الملائكة قاتلت في أُحد سوى هذا القتال وذلك لأن الله تعالى وعدهم أن يمدهم، وجعل وعده معلقاً على ثلاثة أمور: الصبر والتقوى وإتيان الأعداء من فورهم، ولم تتحقق هذه الأمور فلم يحصل الإمداد (٣)، قال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٤ ـ ١٢٥].

حادي عشر: قوانين النصر والهزيمة من سورة الأنفال وآل عمران:

تحدّثت سورة الأنفال عن غزوة بدر بشيء من التفصيل، وتحدثت سورة آل عمران عن غزوة أُحد، لكي تتعلم الأمة كثيراً من المفاهيم، تتعلق بمفهوم القضاء والقدر، ومفهوم الحياة والموت، ومفهوم النصر والهزيمة، ومفهوم الربح والخسارة، ومفهوم الإيمان والنفاق، ومفهوم المحنة والمنحة، . . . ومن المفاهيم التي تعلمها الصحابة رضي الله عنهم من خلال أحداث بدر وأحد وسورتي الأنفال وآل عمران، قوانين النصر والهزيمة، وهذه القوانين قد بيّنتها الآيات الكريمة ويمكن تلخيصها في النقاط التالية:

١ ـ النصر ابتداء وانتهاء، بيد الله عز وجل، وليس ملكاً لأحد من الخلق، يهبه الله لمن يشاء ويصرفه عمن يشاء، مثله مثل الرزق، والأجل والعمل: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠].

٢ ـ وحين يقدّر الله تعالى النصر، فلن تستطيع قوى الأرض كلها الحيلولة دونه، وحين يقدر الهزيمة فلن تستطيع قوى الأرض أن تحول بينه وبين الأمة، قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٦٠].

٣ ـ ولكن هذا النصر له نواميس ثابتة عند الله عز وجل، نحن بحاجة إلى فقهها، فلا بدّ أن تكون

---

(١) انظر: معين السيرة النبوية، (ص ٤٢٧).

(٢) مسلم: كتاب الفضائل، باب «في قتال جبريل وميكائيل» (٤/١٨٠٢).

(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/٣٩١).

الراية خالصة لله سبحانه عند الذين يمثلون جنده، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمَّد: ٧] ونصر الله في الاستجابة له، والاستقامة على منهجه والجهاد في سبيله.

٤ ـ ووحدة الصف ووحدة الكلمة أساس في النصر، وتفريق الكلمة والاختلاف في الرأي دمار وهزيمة، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

٥ ـ وطاعة أمر الله تعالى ورسوله وعدم الخروج عليها أساس في النصر، أما المعصية فتقود إلى الهزيمة، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

٦ ـ وحب الدنيا والتهافت عليها يفقد الأمة عون الله ونصره، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ....﴾ آل عِمرَان: ١٥٢].

٧ ـ ونقص العدد والعدة، ليس هو سبب الهزيمة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٣].

٨ ـ ولكن لا بدّ من الإعداد المادي والمعنوي لمواجهة العدو [(١)] قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

٩ ـ والثبات عند المواجهة، والصبر عند اللقاء من العوامل الرئيسية في النصر، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥].

١٠ ـ ولا شيء يعين على الثبات والصبر عند اللقاء، مثل ذكر الله الكثير، باتجاه القلب إلى الله وحده منزل النصر، وطلب العون منه، والتوكل عليه، وعدم الاعتماد على العدد أو العدة أو الذات، والتبرؤ من الحول والقوة، هو عامل أساسي من عوامل النصر [(٢)]. قال

---

(١) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان، (ص ٤٦١، ٤٦٢).

(٢) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان، (ص ٤٦٣).

تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

ثاني عشر: فضل الشهداء وما أعده الله لهم من نعيم مقيم:

قال رسول الله ﷺ: لما أصيب إخوانكم بأُحد، جعل الله أرواحهم في أجواف طيرٍ خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب، فقال ﷻ: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله ﷻ على رسوله ﷺ هذه الآيات (١) قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٦٩ ـ ١٧١].

وقد جاء في تفسير الآيات السابقة ما رواه الواحدي عن سعيد بن جبير أنه قال: لما أصيب حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير يوم أُحد، ورأوا ما رُزقوا من الخير، قالوا: ليت إخواننا يعلمون ما أصابنا من الخير، كي يزدادوا في الجهاد رغبة فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ إلى قوله ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢).

وروى مسلم بسنده عن مسروق، قال: سألنا عبد الله (وهو ابن مسعود) عن هذه الآية ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال: (أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم إطّلاعة، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي! ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا) (٣).

ثالث عشر: الهجوم الإعلامي على المشركين:

كان الإعلام في العهد النبوي يقوم على الشعر، وكان شعراء المشركين في بدر في موقف الدفاع والرثاء، وفي أُحد حاول شعراء قريش أن يضخموا هذا النصر، فجعلوا من الحبة قبة، وأمام هذه الكبرياء المزيفة انبرى حسان بن ثابت وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة للرد على حملات المشركين الإعلامية التي قادها شعراءهم كهبيرة بن أبي وهب، وعبد الله بن الزبعري

(١) انظر: تفسير الطبري (٤/ ١٧٠).
(٢) انظر: أسباب النزول للواحدي، (ص ١٢٥)، تفسير الطبري (٤/ ٢٦٩).
(٣) مسلم كتاب الإمارة، باب «أرواح الشهداء في الجنة» (٣/ ١٨٨٧).

وضرار بن الخطاب وعمرو بن العاص (١).

وكانت قصائد حسان كالقنابل على المشركين، وقد أشاد بشجاعة المسلمين، حيث استطاعوا أن يقتلوا حملة المشركين، ويوبخ المشركين ويصفهم بالجبن، حينما لم يستطيعوا حماية لوائهم حتى كان في النهاية بيد امرأة منهم، وولَّى أشرافهم وتركوه، وفي هذا الهجاء تذكير للمشركين بمواقف الذل والجبن التي تعرضوا لها في بداية المعركة حتى لا يغتروا بما حصل في نهايتها من إصابة المسلمين.

ولقد أصاب حسان من المشركين مقتلاً حينما عيرهم بالتخلي عن اللواء، وإقدام امرأة منهم على حمله، وهذا يتضمن وصفهم بالجبن الشديد حيث أقدمت امرأة على ما نكلوا عنه (٢).

ومما قاله في شأن عمرة بنت علقمة الحارثية ورفعها اللواء:

إذا عَضَلٌ سِيقَتْ إلينا كأنها ... جِدَايَة شِركٍ مُعلماتِ الحواجبِ (٣)
أَقَمْنا لهم طَعناً مُبِيراً منكِّلاً ... وحُزناهم بالضرب من كل جانب (٤)
فلولا لواء الحارثيَّة أصبحوا ... يُباعون في الأسواق بيع الجلائب (٥)

وعندما أخذ اللواء من الحارثية غلام حبشي لبني طلحة، كان لواء المشركين قد أخذه صؤاب من الحارثية، وقاتل به قتالاً عنيفاً قتل على أثره، فرمى حسان بن ثابت أبياته في هذا الموضع فقال:

فَخرتُم باللِّواء وشرُّ فخرٍ ... لواءٌ حين رُدَّ إلى صُؤابِ
جعلتم فخركم فيه بعبْدٍ ... وألأم من يطا عَفَر التراب
ظننتم، والسفيه له ظنون ... وما إن ذاك من أمر الصَّواب (٦)

ومما قاله كعب بن مالك ﷺ في الرد على بعض شعراء قريش قال:

أبلغ قريشاً وخير القول أصدقُه ... والصدقُ عند ذَوِي الألباب مقبول (٧)
أن قد قَتَلنا بقتلانا سَراتَكم ... أهل اللِّواءِ فَفِيما يكثر القيل
ويومَ بدرٍ لقيناكم لنا مددٌ ... فيه مع النَّصر ميكالٌ وجبريل
إنْ تقتُلُونا فدين الحقِ فِطرتُنا ... والقَتل في الحق عند الله تفضيل

(١) انظر: معين السيرة، (ص ٢٥٢، ٢٥٣).
(٢) انظر: التاريخ الإسلامي (٥/ ٢١).
(٣) عضل: اسم قبيلة بن خزيمة، الجداية: الصغير من أولاد الظباء.
(٤) مبيراً: مهلكاً، ومنكلاً: قامعاً لهم ولغيرهم.
(٥) الجلائب: ما يجلب إلى الأسواق ليباع فيها.
(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٨٧).
(٧) الألباب: العقول.

وإن تَرَوا أمرنَا في رأيكم سَفَهاً ... فرأيُ من خالف الإسلام تضليل [(١)]

ومن أعجب ما قرأت في المعركة الإعلامية بين المسلمين والمشركين محاولة ضرار بن الخطاب قبل إسلامه أن يفتخر ببدر على اعتبار النصر كان لرسول الله والمهاجرين، وفي ذلك قوله:

فإن تظفروا في يوم بدر فإنما ... بأحمد أمسى جدُّكم وهو ظاهر
وبالنفر الأخيار هم أولياؤه ... يحامون في اللأواء والموت حاضر
يعد أبو بكر وحمزة فيهم ... ويُدْ عن عليّ وسْط من أنت ذاكر
ويدعى أبو حفص وعثمان منهم ... وسعد إذا ما كان في الحرب حاضر
أولئك لا من نتَّجت من ديارها ... بنو الأوس والنجار حين تفاخر [(٢)]

وهكذا حوّلها إلى لغة قبلية تقوم على مفاهيم جاهلية، ولقد أجابه كعب ﷺ:

وفينا رسول الله والأوس حوله ... له معقل منهم عزيز وناصر
وجمع بني النجار تحت لوائه ... يمسون في المأذى والنقع ثائر

إلى أن قال:

وكان رسول الله قد قال أقبلوا ... فولّوا وقالوا: إنما أنت ساحر
لأمر أراد الله أن يهلكوا به ... وليس لأمر حمَّه النار زاجر

كما أجابه بقوله:

ويوم بدر إذ نرد وجوههم ... جبريل تحت لوائنا ومحمد

وهو أفخر بيت قالته العرب كما قال صاحب العقد الفريد [(٢)].

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ١٦٤.
(٢) انظر: من معين السيرة، ص ٢٥٢.

الفصل العاشر

أهم الأحداث ما بين أحد والخندق

المبحث الأول

محاولات المشركين لزعزعة الدولة الإسلامية

كانت غزوة أُحد مشجعة لأعداء الدولة الإسلامية على مواجهتها، وساد الشعور لدى الأعراب المشركين، بإمكان مناوشة المسلمين والتغلب عليهم، واتجهت أنظار المشركين من الأعراب إلى غزو المدينة لاستئصال شأفتهم، وكسر شوكتهم، فطمعت بنو أسد في الدولة الإسلامية، وشرع خالد بن سفيان الهزلي لجمع الحشود لكي يهاجم بها المدينة، وتجرأت عضل والقارة على خداع المسلمين، وقام عامر بن الطفيل بقتل القراء الدعاة الآمنين، وحاولت يهود بني النضير أن تغتال رسول الله ﷺ، فتصدى لهذه المحاولات الماكرة الحبيب المصطفى بشجاعة فائقة، وسياسة ماهرة، وتخطيط سليم، وتنفيذ دقيق.

أولاً: طمع بني أسد في الدولة الإسلامية:

بلغت النبي ﷺ بواسطة عيونه المنبثة في الجزيرة العربية أخبار الاستعدادت التي قام بها بنو أسد بن خزيمة بقيادة طليحة الأسدي من أجل غزو المدينة، طمعاً في خيراتها وانتصاراً لشركهم، ومظاهرة لقريش في عدوانها على المسلمين، فسارع النبي ﷺ إلى تشكيل سرية في مئة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار، وأمر عليهم أبا سلمة بن عبد الأسد [1] المخزومي، وعقد له لواء، وقال له: «سر حتى تنزل أرض بني أسد، فأغر عليهم قبل أن تتلاقى عليك جموعهم» [2]، فسار إليهم أبو سلمة في المحرم [3]، فأغار على أنعامهم ففروا من وجهه فأخذها، ولم يلق عناء في تشتيت أعداء الإسلام، وعاد إلى المدينة مظفراً، وأبو سلمة يعد من السابقين إلى الإيمان ومن خيرة الرعيل الأول، وقد عاد من هذه الغزوة متعباً، إذ نَغَر جرحه الذي أصابه في «أُحد» فلم يلبث حتى مات [4]، ونلحظ في هذه السرية عدة أمور منها: الدقة في التخطيط الحربي عند

---

(١) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣١٣).

(٢) انظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية، (ص ١٦٢، ١٦٣).

(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٤٣).

(٤) فقه السيرة للغزالي (ص ٢٧٤).

النبي ﷺ حيث فرّق أعداءه قبل أن يجتمعوا، فذهلوا لمجيء سرية أبي سلمة وهم يظنون أن المسلمين قد أضعفتهم وقعة أحد وأذهلتهم عن أنفسهم، فأصيب المشركون بالرعب من المسلمين ووهنت عزيمتهم، وانشغلوا بأنفسهم عن مهاجمة المدينة، وتظهر دقة المسلمين في الرصد الحربي، واختيارهم التوقيت الصحيح والطريق المناسبة حيث وصلوا إلى الأعداء قبل أن يعلموا عنهم أي شيء رغم بعد المسافة، وكان هذا هو أهم عوامل نجاح المسلمين في هذه السرية، وتركت هذه السرية في نفوس الأعداء شعوراً مؤثراً على معنوياتهم، ألا وهو قناعتهم بقدرة المسلمين على الاستخفاء، والقيام بالحروب الخاطفة المفاجئة تجعلهم يمتلئون رعباً منهم ويتوقعون الإغارة في أي وقت، وهذا الشعور حملهم على الاعتراف بقوة المسلمين ومسالمتهم (١).

ثانياً: خالد بن سفيان الهذلي وتصدي عبد الله بن أنيس رضي الله عنه له ـ:

قام خالد بن سفيان الهذلي يجمِّع المقاتلة من هذيل وغيرها في عرفات، وكان يتهيأ لغزو المسلمين في المدينة مظاهرة لقريش، وتقرباً إليها، ودفاعاً عن عقائدهم الفاسدة، وطمعاً في خيرات المدينة، فأرسل رسول الله ﷺ الصحابي عبد الله بن أنيس الجهني إليه بعد أن كلّفه مهمة قتله (٢)، وهذا عبد الله بن أنيس يحدثنا بنفسه قال ـ رضي الله عنه ـ: دعاني رسول الله ﷺ فقال: «إنه قد بلغني أن خالد بن سفيان بن نبيح يجمع لي الناس ليغزوني وهو بعرنة فأته فاقتله»، قال: قلت: يا رسول الله انعته حتى أعرفه، قال: «إذا رأيته وجدت له قشعريرة».

قال: فخرجت متوشحاً بسيفي، حتى وقعت عليه بعرنة مع ظعن يرتاد لهن منزلاً، حين كان وقت العصر، فلما رأيته وجدت ما وصف لي رسول الله من القشعريرة، فأقبلت نحوه، وخشيت أن يكون بيني وبينه محاولة تشغلني عن الصلاة، فصلّيت وأنا أمشي نحوه أومي برأسي الركوع والسجود، فلما انتهيت إليه قال: من الرجل، قلت: رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل فجاءك لهذا، قال: أجل أنا في ذلك، قال: فمشيت معه شيئاً حتى إذا أمكنني حملت عليه السيف حتى قتلته، ثم خرجت وتركت ظعائنه مكبات عليه، فلما قدمت على رسول الله ﷺ فرآني فقال: «أفلح الوجه» قال: قلت: قتلته يا رسول الله، قال: «صدقت» قال: ثم قام معي رسول الله فدخل في بيته فأعطاني عصاه، فقال: «أمسك هذه عندك يا عبد الله بن أنيس».

قال: فخرجت بها على الناس، فقالوا: ما هذه العصا؟ قال: قلت أعطانيها رسول الله ﷺ، وأمرني أن أمسكها، قالوا: أولا ترجع إلى رسول الله ﷺ فتسأله عن ذلك؟ قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله لمَ أعطيتني هذه العصا؟ قال: : «آية بيني وبينك يوم

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ٢٣).
(٢) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣١٣).

القيامة، أن أقل الناس المختصرون [١] يومئذٍ يوم القيامة»، فقرنها عبد الله بسيفه فلم تزل معه حتى إذا مات أمر بها فضمت معه في كفنه، ثم دفنا جميعاً [٢].

وفي هذا الخبر فوائد ودروس وعبر منها:

١ ـ دقة الرصد الحربي:

كان رسول الله ﷺ يعطي للجانب الأمني أهميته، ولذلك كان يتابع تحركات الأعداء، ويعد بعد ذلك الحلول المناسبة للمشكلات والأزمات في وقتها اللائم، ولذلك لم يمهل خالد بن سفيان حتى يكثر جمعه ويشتد ساعده، بل عمل على القضاء على الفتنة وهي في أيامها الأولى بحزم، وبذلك حقق للأمة مكاسب كبيرة وقلّل التضحيات المتوقعة من مجيء خالد بن سفيان بجيش لغزو المدينة، وهذا العمل يحتاج لقدرة في الرصد الحربي، وسرعة في اتخاذ القرار.

٢ ـ فراسة النبي ﷺ في اختيار الرجال:

كان ﷺ يتمتع بفراسة عظيمة في اختيار الرجال ومعرفة كبيرة لذوي الكفاءات من أصحابه، فكان يختار لكل مهمة من يناسبها، فيختار للقيادة من يجمع بين سداد الرأي وحسن التصرف والشجاعة، ويختار للدعوة والتعليم من يجمع بين غزارة العلم ودماثة الخلق والمهارة في اجتذاب الناس، ويختار للوفادة على الملوك والأمراء من يجمع بين حسن المظهر وفصاحة اللسان وسرعة البديهة، وفي الأعمال الفدائية يختار من يجمع بين الشجاعة الفائقة وقوة القلب والمقدرة على التحكم في المشاعر [٣]، فقد كان عبد الله بن أنيس الجهني قوي القلب ثبت الجنان، راسخ اليقين، عظيم الإيمان [٤]، وبجانب هذه الصفات العظيمة التي أهلته لهذه المهمة، فهناك سبب آخر فقد كان يمتاز بمعرفة مواطن تلك القبائل لمجاورتها ديار قومه (جهينة) [٥].

٣ ـ المكافأة على هذا العمل أخروية:

لم تكن المكافأة على هذا العمل العظيم الجريء مادية دنيوية، كما يتمناه الكثير ممن يقوم بالمهمات الشاقة في جيوش العالم قديماً وحديثاً، بل كانت أسمى من تلك وأعظم فهي وسام شرف أخروي قليل من يناله [٦]، فقد كان الصحابة ﷺ ـ وسائر المتقين لا ينتظرون جزاء في

---

(١) المختصرون: أو المتخصرون: والمراد هنا يأتون يوم القيامة ومعهم أعمال صالحة يتكئون عليها.

(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٣١٩).

(٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ٢٧).

(٤) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٤/ ٥٠، ٥١).

(٥) انظر: غزوة أحد، محمد باشميل (ص ٣١).

(٦) انظر: السرايا والبعوث النبوية (ص ١٥٩، ١٦٠).

الدنيا ولو حصلوا على شيء من متاع الدنيا، فإنه لا يعتبر عندهم شيئاً كبيراً، وإنما ينتظرون جزاءهم في الآخرة، ولهذا كانت مكافأة عبد الله بن أنيس تلك العصا التي ستكون علامة بينه وبين رسول الله يوم القيامة وهذا يدل على علو مكانته في الآخرة [١].

٤ ـ بعض الأحكام الفقهية:

تضمن هذا الخبر بعض الأحكام والفوائد منها «صلاة الطالب» قال الخطابي: واختلفوا في صلاة الطالب، فقال عوام أهل العلم: إذا كان مطلوباً كان له أن يصلي إيماءً، وإذا كان طالباً نزل إن كان راكباً وصلى بالأرض راكعاً وساجداً [٢]، وكذلك قال ابن المنذر [٣]، أما الشافعي فشرط شرطاً لم يشترطه غيره، قال: إذا قل الطالبون عن المطلوبين وانقطع الطالبون عن أصحابهم فيخافون عودة المطلوبين عليهم فإذا كان هكذا كان لهم أن يصلوا يومئون إيماء.

قال الخطابي: وبعض هذه المعاني موجودة في قصة عبد الله بن أنيس [٤].

وقد ذكر بدر العيني في عمدة القاري مذاهب الفقهاء في هذا الباب، فعند أبي حنيفة إذا كان الرجل مطلوباً فلا بأس بصلاته سائراً، وإن كان طالباً فلا، وقال مالك وجماعة من أصحابه: هما سواء كل واحد منهما يصلي على دابته.

وقال الأوزاعي والشافعي في آخرين كقول أبي حنيفة، وهو قول عطاء والحسن والثوري، وأحمد وأبي ثور.

وعن الشافعي: إن خاف الطالب فوت المطلوب أومأ وإلا فلا [٥].

٥ ـ جواز الاجتهاد في زمن النبي ﷺ:

يجوز الاجتهاد في زمن النبي ﷺ، فعبد الله بن أنيس ـ رضي الله عنه ـ أداه اجتهاده أن يصلي هذه الصلاة، ولم ينكر عليه ﷺ، مما يدل على جواز الصلاة عند شدة الخوف بالإيماء [٦].

وهذا الاستدلال صحيح لا شك فيه، لأن عبد الله بن أنيس فعل ذلك في حياة النبي وذلك زمن الوحي، ومحال أن النبي ﷺ لم يطلع عليه [٧].

٦ ـ من دلائل النبوة:

فقد وصف رسول الله ﷺ خالد بن سفيان الهذلي لعبد الله بن أنيس وصفاً دقيقاً، دون أن

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/٢٩).
(٢) انظر: السرايا والبعوث النبوية (ص ١٦٠).
(٣) المصدر نفسه، (ص ١٦٠).
(٤) معالم السنن للخطابي (٢/٤٢)، حاشية واحد على سنن أبي دواد.
(٥) انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٦/٢٦٣).
(٦) انظر: السرايا والبعوث، (ص ١٦١).
(٧) انظر: عون المعبود، العظيم آبادي (٤/١٢٩).

يراه، حتى إن ابن أنيس عندما ردّ على رسول الله ﷺ متعجباً كما وقع في رواية الواقدي: (يا رسول الله ما فرِقت من شيء قط، قال له رسول الله ﷺ: «بلى آية ما بيني وبينه أن تجد له قشعريرة إذا رأيته» [(١)]، وقد وجد عبد الله بن أنيس خالد الهذلي على الصفة التي ذكر رسول الله ﷺ، يقول عبد الله: فلما رأيته هبته وفرِقت منه، فقلت: صدق الله ورسوله) [(٢)].

٧ ـ ما قاله عبد الله بن أنيس من الشعر في قتله لخالد الهذلي:

تركت ابن ثور كالحوار وحوله ... نوائح تفري كل جيب مقدّد
تناولته والظعْن خلفي وخلفه ... بأبيض من ماء الحديد المهند
أقول له والسيف يعجم رأسه ... أنا ابن أنيس فارساً غير قُعْدُد
وقلت له خذها بضربة ماجدٍ ... حنيف على دين النبي محمد
وكنت إذا همَّ النبي بكافرٍ ... سبقت إليه باللسان وباليد [(٣)]

ثالثاً: غدر قبيلتي عضل والقارة، وفاجعة الرجيع:

اختلفت مرويات سرية الرجيع فيما بينها كثيراً حول السبب الذي من أجله بعث النبي ﷺ، وفي الوقت الذي يورد البخاري بأنه إنما بعث عيناً لتجمع المعلومات عن العدو [(٤)]، فإن مرويات أخرى بأسانيد صحيحة ورد فيها أنه قدم على رسول الله ﷺ رهط من قبيلتي عَضَل والقارة المُضَريتين إلى المدينة وقالوا: إن فينا إسلاماً فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهونا ويقرئونا القرآن ويعلمونا شرائع الإسلام [(٥)]، ويظهر أن قبيلة هذيل قد سعت للثأر من المسلمين لخالد بن سفيان الهذلي فلجأت إلى الخديعة والغدر، وقد جزم الواقدي [(٦)] بأن السبب هو أن بني لحيان وهم حي من هذيل، مشتْ إلى عضل والقارة وجعلت لهم جُعلاً ليخرجوا إلى رسول الله ﷺ ويطلبوا منه أن يخرج معهم من يدعوهم إلى الإسلام ويفقههم في الدين، فيكمنوا لهم ويأسروهم ويصيبوا بهم ثمناً في مكة [(٧)].

وهكذا بعث الرسول ﷺ هذه السرية التي تتألف من عشرة من الصحابة [(٨)]، وجعل عليهم عاصم بن ثابت بن الأقلح أميراً، حتى إذا كانوا بين عسفان ومكة أغار بنو لحيان ـ وهم قريب من مائتي مقاتل ـ فألجاؤهم إلى تل مرتفع بعد أن أحاطوا بهم من كل جانب، ثم أعطوهم

(١) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٥٣٢).
(٢) انظر: البيهقي دلائل النبوة (٤/ ٤١)، من رواية موسى بن عقبة.
(٣) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٤٣).
(٤) البخاري رقم (٤٠٨٦).
(٥) انظر: مغازي الواقدي (١/ ٣٥٤، ٣٥٥).
(٦) المصدر نفسه، (١/ ٣٥٤، ٣٥٥).
(٧) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣١٤).
(٨) البخاري: رقم (٤٠٨٦).

الأمان من القتل، ولكن قائد السرية أعلن رفضه أن ينزل في ذمة كافر [١]، وقال عاصم بن ثابت: إني نذرت ألا أقبل جوار مشرك أبداً، فجعل عاصم يقاتلهم وهو يقول:

ما عِلَّتي وأنا جلد نابل ... النَّبْلُ والقوس لها بلابل [٢]
تزل عن صفحتها المعابل ... الموت حق والحياة باطل
وكل ما حمّ الإله نازل ... بالمرء والمرء إليه آئلُ
إن لم أقاتلكم فأمّي هابل [٣]

فرماهم بالنبل حتى فنيت نبله، ثم طاعنهم بالرمح حتى كُسر رمحه، وبقي السيف فقال: اللهم حميتُ دينك أول نهاري فاحْم لي لحمي آخره! وكانوا يجرِّدون كل من قتل من أصحابه، فكسر غمد سيفه ثم قاتل حتى قتل، وقد جرح رجلين وقتل واحداً وكان يقول وهو يقاتل:

أنا أبو سليمان ومثلي رامي ... ورثتُ مجداً معشراً كراماً

ثم شرعوا فيه الأسنّة حتى قتلوه، وكانت سُلافة بنت سعد بن الشُّهيد قد قتل زوجها وبنوها أربعة، قد كان عاصم قتل منهم اثنين، الحارث، ومسافعاً، فنذرت لئن أمكنها الله منه أن تشرب في قحف [٤] رأسه الخمر، وجعلت لمن جاء برأس عاصم مائة ناقة، قد علمت بذلك العرب وعلمته بنو لحيان فأرادوا أن يحتزوا رأس عاصم ليذهبوا به إلى سُلافة بنت سعد ليأخذوا منها مائة ناقة، فبعث الله تعالى عليهم الدَّبْر فحمته فلم يدْنُ إليه أحد إلا لدغت وجهه، وجاء منها شيء كثير لا طاقة لأحد به، فقالوا: دعوه إلى الليل، فإنه إذا جاء الليل ذهب عنه الدَّبْر، فلما جاء الليل بعث الله عليه سيلاً ولم يكن في السماء سحاب في وجه من الوجوه، فاحتمله فذهب به فلم يصلوا إليه [٥].

لقد قتل عاصم في سبعة من أفراد السرية بالنبال، ثم أعطى الأعراب الأمان من جديد للثلاثة الباقين، فقبلوا غير أنهم سرعان ما غدروا بهم بعدما تمكنوا منهم وقد قاومهم عبد الله بن طارق فقتلوه، واقتادوا الاثنين إلى مكة وهما خبيب وزيد بن الدثنة فباعوهما لقريش [٦] وكان ذلك في صفر سنة ٤ هـ [٧].

فأما خبيب فقد اشتراه بنو الحارث بن عامر بن نوفل ليقتلوه بالحارث الذي كان خبيب قد

(١) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣١٤).
(٢) بلابل: جمع بلبلة وبلبال، وهو شدة الهم.
(٣) انظر: مغازي الواقدي (١/ ٣٥٥).
(٤) المصدر نفسه، (١/ ٣٥٥).
(٥) انظر: المغازي للواقدي (١/ ٣٥٦).
(٦) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣١٤).
(٧) جوامع السيرة لابن حزم (ص ١٧٦).

قتله يوم بدر، فمكث عندهم أسيراً حتى إذا أجمعوا قتله استعار موسى من بنات الحارث، استحدّ بها فأعارته، وغفلت عن صبي لها فجلس على فخذه، ففزعت المرأة لئلا يقتله انتقاماً منه، فقال خبيب: أتخشين أن أقتله، ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله تعالى، فكانت تقول: ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذٍ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزق رزقه الله، فخرجوا به من الحرم ليقتلوه، فقال: دعوني أصلي ركعتين ثم انصرف إليهم فقال: لولا أن تروا ما بي جزع من الموت لزدت، فكان أول من سنَّ الركعتين عند القتل هو [١]، ثم قال: (اللهم أحصهم عدداً، وقاتلهم بدداً [٢]، ولا تبق منهم أحداً) ثم قال:

لقد أجمع الأحزاب حولي وألّبوا ... قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
وكلهم مبدي العداوة جاهدٌ ... عليَّ لأنّي في وثاق بمضيع
وقد قربوا أبناءهم ونساءهم ... وقُرِّبتُ من جذع طويل مُمَنَّع
إلى الله أشكو غُربتي بعد كُربتي ... وما أرصد الأحزاب لي عند مصرعي
فذا العرش صبرني على ما يُرادُ بي ... فقد بضَّعُوا لحمي وقد ياس [٣] مطمعي
وقد خيروني الكفر، والموت دونه ... فقد ذرفت عيناي من غير مجزع
وما بي حذار الموت إني لميت ... وإن إلى ربي إيابي ومرجعي
ولست أبالي حين أقتل مسلماً ... على أي شقٍّ كان في الله مضجعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلوٍ مُمَزَّع
فلست بمبدٍ للعدو تخشُّعاً ... ولا جزعاً إني إلى الله مرجعي [٤]

فقال له أبو سفيان: أيسرُّك أن محمداً عندنا يُضرب عنقه وإنك في أهلك، فقال: لا والله، ما يسرُّني أني في أهلي، وأن محمداً في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه [٥]، ثم قُتل وصلبوه، ووكّلوا به من يحرس جُثته، فجاء عمرو بن أمية الضمري فاحتمله بجذعه ليلاً، فذهب به ودفنه [٦]، وأما زيد بن الدثنَّة فاشتراه صفوان بن أمية وقتله بأبيه (أمية بن خلف الذي قتل ببدر)، وقد سأله أبو سفيان قبل قتله: أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك؟ فقال: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني جالس في أهلي.

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٩٩).
(٢) أي متفرقين في القتل واحداً بعد واحد من التبديد.
(٣) ياس: لغة في يئس.
(٤) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٤٥).
(٥) المصدر نفسه، (٣/ ٢٤٥).
(٦) المصدر نفسه، (٣/ ٢٤٦).

فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً [(١)].

وقد عرفت هذه الحادثة المفجعة بالرجيع نسبة إلى ماء الرجيع الذي حصلت عنده، وفي هذه الحادثة دروس وعِبَر وفوائد منها:

١ ـ فوائد ذكرها ابن حجر:

وفي الحديث أن للأسير أن يمتنع من قبول الأمان، ولا يمكِّن من نفسه ولو قتل، أنفةً من أن يجري عليه حكم كافر، وهذا إذا أراد الأخذ بالشدة، فإن أراد الأخذ بالرخصة فله أن يستأمن. قال الحسن البصري: لا بأس بذلك، وقال سفيان الثوري: أكره ذلك، وفيه الوفاء للمشركين بالعهد، والتورع عن قتل أولادهم، والتلطّف بمن أريد قتله وإثبات كرامة الأولياء، والدعاء على المشركين بالتعميم، والصلاة عند القتل وفيه إنشاء الشعر، وإنشاده عند القتل دلالة على قوة يقين خبيب وشدّته في دينه.

وفيه أن الله يبتلي عبده المؤمن بما شاء كما سبق في علمه ليثيبه، ولو شاء ربك ما فعلوه، وفيه استجابة دعاء المسلم وإكرامه حياً وميتاً، وغير ذلك من الفوائد مما يظهر بالتأمل، وإنما استجاب الله له من حماية لحمه من المشركين ولم يمنعهم من قتله، لما أراد من إكرامه بالشهادة، ومن كرامته حمايته من هتك حرمته بقطع لحمه [(٢)].

٢ ـ بين التسليم والقتال حتى الموت:

يستدل مما سبق أن للأسير في يد العدو أن يمتنع من قبول الأمان، ولا يمكِّن من نفسه ولو قُتل، ترفعاً عن أن يجري عليه حكم كافر، كما فعل عاصم، فإن أراد الترخص، فله أن يستأمن مترقباً الفرصة مؤملاً الخلاص كما فعل خبيب وزيد، ولكن لو قدر الأسير على الهرب لزمه ذلك في الأصح، وإن أمكنه إظهار دينه بينهم، لأن الأسير في يد الكفار مقهور مهان، فكان من الواجب عليه تخليص نفسه من هوان الأسر ورقه [(٣)].

وهذا الحدث يفتح أمام المسلمين باباً واسعاً في التعامل مع الأحداث في اختيارهم الأسر إذا طلبوا مظلومين، أو اختيارهم القتال حتى الموت، ما دام الطالب لا يطلبهم بعدل وما دامت السلطة غير إسلامية [(٤)].

٣ ـ تعظيم سنّة النبي ﷺ:

وفي الحديث يظهر تعظيم الصحابة لسنّة النبي ﷺ، وكيف أن خبيباً مع أنه في أسر

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٠٠).
(٢) انظر: فتح الباري (٧/ ٤٤٤، ٤٤٥).
(٣) انظر: السيرة للبوطي (ص ١٨٨، ١٨٩).
(٤) انظر: الأساس في السنة لسعيد حوى (٢/ ٦٢٢).

المشركين، ويعلم أنه سيقتل بين عشية أو ضحاها، ومع ذلك كان حريصاً على سنّة الاستحداد، واستعار السكين لذلك، وفي هذا تذكير لمن يستهين بكثير من السنن، بل والواجبات بحجة أن لا ينبغي أن ينشغل المسلمون بذلك للظروف التي تمر بها الأمة، وفي الواقع لا منافاة بين تعظيم السنّة والدخول في شرائع الإسلام كافة (١).

٤ ـ الإسلام ينتزع الغدر والأحقاد:

عندما استعار خبيب موسى من بعض بنات الحارث ليستحد بها فأعارته، قالت المرأة: فغفلت عن صبي لي تدرج إليه حتى أتاه، فوضعه على فخذه فلما رأته فزعت منه فزعة عرف ذلك مني، وفي يده الموسى، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله (٢).

إنه موقف رائع يدل على سمو الروح، وصفاء النفس، والالتزام بالمنهج الإسلامي، فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: الآية ١٦٤].

إنه الوفاء يتعلمه الناس ممن غدر بهم، إن الاستقامة طبيعة سلوك المسلم في حالتي الرخاء والشدّة (٣).

وفي قول خبيب ـ رضي الله عنه ـ: (ما كنت لأفعل إن شاء الله) يشير هذا الأسلوب في البيان العربي إلى أن هذا الفعل غير وارد ولا متصور ولا هو في الحسبان، في هذا الظرف الحاسم، الذي قد يتعلق فيه الاستثناء لموقع الضرورة، وإنقاذ المُهج، لكن المبدأ الأصلي، الوفاء والكف عن البراء، لا تنهض له هذه الاعتبارات الموهومة (٤)، وهذا مثل من عظمة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ حين يطبقون أخلاق الإسلام على أنفسهم مع أعدائهم، وإن كانوا قد ظلموهم، وهذا دليل على وعيهم وكمال إيمانهم (٥).

٥ ـ حب النبي ﷺ عند الصحابة:

إن حظ الصحابة من حبه ﷺ كان أتم وأوفر، ذلك أن المحبة ثمرة المعرفة، وهم بقدره ﷺ ومنزلته أعلم وأعرف من غيرهم، فبالتالي كان حبهم له ﷺ أشد وأكبر (٦).

ففي حادثة الرجيع يظهر هذا الحب في الحوار الهادئ بين أبي سفيان وبين زيد بن الدثنة، إذ قال له أبو سفيان: أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك تضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ فقال زيد: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة، وإني جالس في

---

(١) انظر: وقفات تربوية مع السيرة النبوية، أحمد فريد (ص ٢٣٤).
(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٣٢٠) رواية غريبة.
(٣) انظر: معين السيرة (ص ٢٥٩).
(٤) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة (ص ١٥٣).
(٥) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ٣٨).
(٦) انظر: حقوق النبي على أمته، د. محمد التميمي (١/ ٣١٤).

أهلي [١].

وهذا الحب من الإيمان فقد قال ﷺ: «ثلاثٌ من كن فيه وجد حلاوة الإيمان؛ من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحب عبداً لا يحبه إلا للّه، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يُلقى في النار» [٢].

٦ ـ مما قاله حسان في ذم بني لحيان:

تأثر المسلمون بمقتل أصحاب الرجيع تأثراً بالغاً وكان حسان ـ رضي الله عنه ـ بشعره يعبر عن حال المسلمين، فمن يستحق الهجاء هجاه ومن يستحق المدح مدحه فقال في هجاء بني لحيان:

إن سرّك الغدر صرفاً لا مراج له ... فأت الرجيع فسَلْ عن دار لحيان
قوم تواصوا بأكل الجار بينهم ... فالكلب والقرد والإنسان مثلان
لو ينطق التّيس يوماً قام يخطبهم ... وكان ذا شرفٍ فيهم وذا شان [٣].

رابعاً: طمع عامر بن الطفيل في المسلمين وفاجعة بئر معونة (٤ هـ):

عامر بن الطفيل زعيم من زعماء بني عامر كان متكبراً متغطرساً، طامعاً في الملك، وكان يرى أن النبي ﷺ سوف تكون له الغلبة على الجزيرة العربية، ولذلك جاء هذا المشرك إلى النبي ﷺ وقال له: أخيِّرك بين ثلاث خصال: أن يكون لك أهل السهل، ولي أهل المدر، أو أن أكون خليفتك، أو أغزوك بأهل غطفان بألفٍ وألفٍ [٤]، فرفض ﷺ تلك المطالب الجاهلية، وجاء إلى المدينة ملاعب الأسنة سيد بني عامر عم عامر بن الطفيل وقدّم إلى النبي ﷺ هدية، فعرض عليه النبي ﷺ الإسلام فأبى أن يسلم، فقال النبي ﷺ: «فإني لا أقبل هدية من مشرك» فقال ملاعب الأسنة: فابعث إلى أهل نجد من شئت فأنا لهم جار، فبعث إليهم بقوم فيهم المنذر بن عمرو، وهو الذي يقال له ـ المُعنق ليموت ـ فاستجاش [٥] عليهم عامر بن الطفيل بني عامر فأبوا أن يطيعوه، وأبوا أن يخفروا ملاعب الأسنة، فاستجاش عليهم بني سليم، فأطاعوه، فأتبعهم بقريب من مائة رجل رام فأدركهم ببئر معونة، فقتلوهم إلا عمرو بن أمية [٦]. ومن حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء ناس إلى النبي ﷺ فقالوا: أن ابعث معنا رجالاً يعلمونا القرآن والسنّة، فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار، يقال لهم القُرّاء، فيهم خالي حرام، يقرأون القرآن، ويتدارسون بالليل يتعلمون، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء

(١) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة (ص ١٥٤).
(٢) البخاري: كتاب الإيمان (١/ ٢١).
(٣) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٧٠).
(٤) البخاري رقم (٤٠٩١) يقصد بألفٍ وألفٍ: الخيل.
(٥) استجاش: طلب لهم الجيش وجمعه.
(٦) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٣٢٢).

فيضعونه في المسجد، ويحتطبون فيبيعونه، ويشترون به الطعام لأهل الصفة وللفقراء، فبعثهم النبي ﷺ إليهم فعرضوا لهم فقتلوهم، قبل أن يبلغوا المكان، فقالوا: اللهم بلّغ عنا نبينا، أنَّا قد لقيناك فرضينا عنك، ورضيت عنا، قال: وأتى رجل حراماً، خال أنس، من خلفه فطعنه برمح حتى أنفذه، فقال حرام: فزت ورب الكعبة، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «إن إخوانكم قد قتلوا»، وإنهم قالوا: اللهم بلّغ عنا نبينا أنا قد لقيناك، فرضينا عنك، ورضيت عنا [١].

وفي هذه الحادثة المؤلمة والفاجعة المفجعة دروس وعبر وفوائد منها:

١ ـ لا بدّ للدعوة من تضحيات:

رأينا كيف غدر حلفاء هذيل بأصحاب الرجيع من القُرّاء الذين أرسلهم النبي ﷺ معلمين ومفقهين في غزوة الرجيع، وهاهنا عامر بن الطفيل يغدر بالسبعين قارئ الذين استنفروا للدعوة إلى الله والتفقيه في دين الله، في مجزرة رهيبة دنيئة، وذلك في يوم بئر معونة.

وقد تركت هذه المصائب في نفس رسول الله ﷺ آثاراً غائرة بعيدة الأعماق حتى إنه لبث شهراً يقنت في صلاة الفجر داعياً على قبائل سُلَيم التي عصت الله ورسوله [٢]، فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قنت رسول الله ﷺ شهراً متتابعاً في الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، وصلاة الصبح في دبر كل صلاة، إذا قال: «سمع الله لمن حمده»، من الركعة الأخيرة، يدعو على أحياء من بني سُلَيم على رعلٍ وذَكْوان وعُصيَّة، ويؤمّن من خلفه [٣]، قال أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: وذلك بدء القنوت وما كنا نقنت [٤].

لكن ذلك لم يفتَّ في عضد المسلمين، ولا فتَّر من حميتهم في الدعوة إلى الله، ولا كسر من عزمهم في مواصلة الدعوة وخدمة دين الله، لأن مصلحة الدعوة فوق الأنفس والدماء، بل إن الدعوة لا يكتب لها النصر إذا لم تُبذل في سبيلها الأرواح، ولا شيء يمكن للدعوة في الأرض مثل الصلابة في مواجهة الأحداث والأزمات، واسترخاص التضحيات من أجلها.

إن الدعوات بدون قوى أو تضحيات يوشك أن تكون بمثابة فلسفات وأخيلة، تلفها الكتب، وترويها الأساطير، ثم تطوى مع الزمن.

إن حادثتي الرجيع وبئر معونة تبصرنا بالمسؤولية الضخمة عن دين الله، والدعوة إليه، ووضعت نصب أعيننا نماذج من التضحيات العظيمة التي قدمها الصحابة الكرام من أجل عقيدتهم

---

(١) مسلم في الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد رقم (٦٧٧).
(٢) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة (ص ١٥١).
(٣) انظر: سنن أبي داود في الصلاة، باب «القنوت في الصلوات» (١٤٤٣).
(٤) البخاري، رقم (٤٠٨٨).

ودينهم ومرضاة ربهم.

إن للسعادة ثمناً وإن للراحة ثمناً، وإن للمجد والسلطان ثمناً، وثمن هذه الدعوة: دم زكيٌّ يهراق في سبيل الله من أجل تحقيق شرع الله ونظامه وتثبيت معالم دينه على وجه البسيطة (١).

٢ ـ فزت ورب الكعبة:

صاحب الكلمة حرام بن ملحان ـ رضي الله عنه ـ فعندما اخترق الرمح ظهره حتى خرج من صدره وأصبح يتلقى الدم بيديه، ويمسح به وجهه ورأسه ويقول: (فزت ورب الكعبة) (٢)، إن هذا المشهد يجعل أقسى القلوب وأعظمها تحجراً يتأثر، ويستصغر نفسه أمام هؤلاء العظماء الذين لا تصفُّر وجوههم فزعاً من الموت، وإنما يعلوها البشر والسرور، وتغشاها السكينة والطمأنينة (٣)، وهذا المنظر البديع الرائع الذي لا يتصوره العقل البشري المجرد عن الإيمان جعل جبار بن سلمى وهو الذي طعن حرام بن ملحان يتساءل عن قول حرام: «فزت ورب الكعبة وهذا جبار يحدثنا بنفسه فيقول: إن مما دعاني إلى الإسلام أني طعنت رجلاً منهم يومئذٍ برمح بين كتفيه فنظرت إلى سنان الرمح حين خرج من صدره فسمعته يقول: «فزت ورب الكعبة! فقلت في نفسي: ما فاز؟ ألست قد قتلت الرجل؟ حتى سألت بعد ذلك عن قوله، فقالوا: للشهادة، فقلت: فاز لعمر الله فكان سبباً لإسلامه (٤).

وهذا الموقف الخارق للعادة يدعونا للتساؤل: هل يتعرض الشهيد لألم الموت؟

وتأتينا الإجابة الشافية من رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى في قوله: «ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة» (٥).

فللشهيد منزلة خاصة عند الله، فجزاء الثمن الباهظ الذي يدفعه وهو روحه رخيصة في سبيل الله ﷻ، لم يبخسه أعدل العادلين حقه، فكافأه مكافأة بست جوائز كل واحدة منها تعدل الدنيا وما فيها، فعن المقدام بن معد يكرب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «للشهيد عند الله ست خصال: يُغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويحلَّى حلَّة الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويشفَّع في سبعين إنساناً من أقاربه» (٦).

---

(١) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة (ص ١٥٢).

(٢) البخاري في المغازي رقم (٤٠٩١).

(٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ٥٠).

(٤) انظر: السيرة النبوية الندوي (ص ٢٤٣، ٢٤٤)، وابن هشام (٣/ ٢٠٧).

(٥) انظر: صحيح سنن الترمذي للألباني (٢/ ١٣٣)، رقم (١٦٦٨).

(٦) انظر: صحيح سنن الترمذي للألباني (٢/ ١٢٩).

هذا بالإضافة إلى الوسام المميز المشرف الذي يأتي به يوم القيامة، وجرحه كهيئة يوم جُرِح: اللون لون الدم، والريح ريح مسك [(١)].

كما أن حياة الشهداء لا تنتهي بمجرد موتهم، بل هم أحياء يرزقون ويتنعمون عند ربهم [(٢)]، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عِمران: الآية ١٦٩].

٣ ـ عدم معرفة النبي ﷺ للغيب:

إن حادثتي بئر معونة والرجيع وغيرهما تدل على أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب، كما دلّت على ذلك أدلة أخرى منها قوله ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

فالله ﷻ وحده عالم الغيب، والرسل والملائكة لا يعلمون من الغيب إلا ما علّمهم ربّهم ﷻ [(٣)]: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجنّ: ٢٦].

٤ ـ الوفاء بالعهد:

وقع عمرو بن أمية الضمري ـ رضي الله عنه ـ أسيراً في بئر معونة، ولما علم عامر بن الطفيل أنه من مضر أطلقه، وجزَّ ناصيته، وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه، فلما خرج عمرو قاصداً المدينة نزل في طريقه في ظل والتقى برجلين من بني عامر وكان معهم عقد من رسول الله وجوار لم يعلم به عمرو بن أمية، وقد سألهما حين نزلا: ممن أنتما؟ فقالا: من بني عامر، فأمهلهما حتى ناما، عدا عليهما فقتلهما وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثُؤرة من بني عامر، فيما أصابوا من أصحاب رسول الله ﷺ، فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله فأخبره الخبر، قال رسول الله ﷺ: «لقد قتلت قتيلين لأديَّنهما» [(٤)]، وهذا موقف رفيع، فقد ودى ﷺ ذينك الرجلين العامريين الذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري لكونها يحملان عقداً منه ﷺ، ولم يؤاخذهما بما فعل بعض أفراد قومهما، وهذا يمثل منتهى القمة في الوفاء بالعهود.

قد كان بإمكان النبي ﷺ أن يعتبر عمل عمرو بن أمية جزءاً من الانتقام الذي ينبغي أن يُواجه به المجرمون المعتدون، ولكن ما ذنب الأبرياء حتى يؤاخذوا بجريرة المعتدين من قومهم؟

---

(١) المصدر السابق نفسه، (٢/١٢٨).
(٢) انظر: السرايا والبعوث النبوية (ص ٢٤٥).
(٣) انظر: وقفات تربوية مع السيرة النبوية (ص ٢٣٧).
(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٢٠٦).

إن التوجيهات الإسلامية الرفيعة دفعت بالمسلمين ونبيهم ﷺ إلى الرقي الأخلاقي الذي لا نظير له في دنيا الناس [١].

٥ ـ الصحابي الجليل عامر بن فهيرة ـ رضي الله عنه ـ:

لما قُتل الذين ببئر معونة وأسر عمرو بن أُمية الضَّمري، قال له عامر بن الطُّفيل: من هذا؟ فأشار إلى قتيل، فقال له عمرو بن أمية: هذا عامر بن فُهيرة. فقال: لقد رأيته بعدما قتل رفع إلى السماء، حتى إني لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض، ثم وُضع [٢].

٦ ـ حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ يحرض على قتل عامر بن الطفيل:

كان حسان ـ رضي الله عنه ـ من رجالات المؤسسة الإعلامية، فكان يشن الحرب النفسية على الأعداء وكان بجانبه كعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة ـ رضي الله عنهم ـ فلم يتركوا حدثاً من أحداث السيرة إلا قالوا فيه شعراً، وكل قصيدة للكافرين يردون عليها بقصائد، وقد علمنا ما أحدثه شعر حسان في طرد كعب بن أشرف اليهودي، وكان ﷺ يتعهد شعراء الدولة الإسلامية ويشجعهم على خوض هذا الباب من الجهاد، فعلى المسلمين المعاصرين قادة وزعماء وعلماء وفقهاء وجماعات أن يرعوا شعراءهم ويشجعونهم لخوض هذا الجهاد العظيم [٣].

ولما بلغ حسان خبر أصحاب بئر معونة نظم أبياتاً تناقلتها الركبان يحث فيها ربيعة بن عامر ملاعب الأسنة ويحرِّضه بعامر بن الطفيل بإخفاره ذمة أبي براء:

ألا من مبلغ عني ربيعاً ... فما أحدثت في الحادثان بعدي
أبوك أبو الفعال أبو براء ... وخالك ماجد حكم بن سعد
بني أم البنين ألم يرعكم ... وأنتم من ذوائب أهل نجد
تحكُّم عامر بأبي براءٍ ... ليخفره وما خطأ كعَمْد [٤]

فلما بلغ ربيعة بن أبي براء هذا الشعر، وكان الشعر عندهم أوجع من رشق النبل، وقطع السيوف للرقاب، وطعن النحور بالرماح، قام ربيعة بأخذ ثأر أبيه فضرب عامر بن الطفيل ضربة أشواه بها ـ أي لم تصب منه مقتلاً ـ فوثب عليه قومه، وقالوا لعامر: اقتص، فقال: قد عفوت، وإن عشت فسأرى رأيي فيما أتى إليَّ [٥]، ومما قاله حسان وهو يبكي قتلى بئر معونة، ويخص المنذر بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ:

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ٥٠).
(٢) البخاري في المغازي رقم (٤٠٩٣).
(٣) انظر: السيرة النبوية الأساس في السنة وفقهها (٢/ ٦٥٦).
(٤) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٤/ ٦٤).
(٥) المصدر نفسه، (٤/ ٦٤).

على قتلى معونة فاستهلِّي ... بدمع العين سَحًّا غير نَزْر [1]
على خيل الرسول غداةَ لاقوا ... منايـاهـم ولاقتـهـم بقَـدْر [2]
أصابهم الفناء بعقد قوم ... تُخُوّن عقد حَبْلهم بغَدْر [3]
فيا لهفي لمنذر إذ تولّى ... وأعنَق في منيّته بصَبْر [4]

٧ ـ مصير عامر بن الطفيل العامري:

استجاب الله لدعاء نبيه ﷺ، فقد دعا ﷺ على عامر بن الطفيل قال: «اللهم اكفني عامراً» [5]، فأصيب الطاغية بمرض عضال وصفه ﷺ بقوله: «غدة كغدة البعير» [6]، وسمّاه ﷺ بـ (الطاعون).. وهو وصف دقيق للطاعون الدبلى الذي يتميز (بارتفاع درجة الحرارة وتضخم العقد الليمفاوية في منطقة الأُرب وتحت الإبط، وكذا تضخم الطحال) [7]، وهو ما أصيب به عامر بن الطفيل حتى أصبح حبيساً في بيت امرأة من قومه.

لقد أصيب عامر بن الطفيل وتلاشت أحلامه بالتملك على أهل المدن في الجزيرة العربية، أو خلافة النبي ﷺ، وأما تلك الجيوش التي هدد النبي ﷺ بها، فقد تحوَّلت إلى آلام تحبسه في بيت امرأة قد ولى عنه الناس ونفروا منه خشية العدوى ففقد صوابه، وصرخ بمن بقي حوله فقال: (غدة كغدة البكر في بيت امرأة من بني فلان، ائتوني بفرسي) فركبه فمات على ظهر فرسه [8]، هلك ذلك الجبار العنيد كالمجنون بعد أن تطاير الناس من حوله خوفاً على أنفسهم من العدوى [9].

المبحث الثاني

زواج النبي ﷺ بأم المساكين وأم سلمة وأحداث متفرقة

أولاً: زينب بنت خزيمة أم المساكين ﵂:

هي زينب بنت خزيمة بن الحارث الهلالية، فهي من بني عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة، وكانت تسمى في الجاهلية «أم المساكين» لإطعامها إياهم. تزوّجها رسول الله ﷺ في

---

(١) استهلّي: أسبلي. دمعك: السح. والنزر: القليل.
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٢٠٩).
(٣) تُخُون: تنقضي (بالبناء للمجهول).
(٤) أعنق: أسرع. والعنق: ضرب من السير السريع. ابن هشام (٣/٢٠٩).
(٥) انظر: السيرة النبوية الأساس في السنة وفقهها (٢/٦٣١).
(٦) انظر: السيرة النبوية، محمد الصوباني (ص ١٣٠).
(٧) انظر: تعليق الدكتور قلعجي على الدلائل (٣/٣٤٦).
(٨) انظر: السيرة النبوية للصوياني (ص ١٣١).
(٩) المصدر نفسه، (ص ١٣١).

رمضان على رأس واحد وثلاثين شهراً من الهجرة، فمكثت عنده ثمانية أشهر، وتوفيت في حياته ﷺ في آخر ربيع الأول على رأس تسعة وثلاثين شهراً، ودفنت في مدينة رسول الله ﷺ [١].

كانت زينب بنت خزيمة تحت عبد الله بن جحش بن رئاب الذي قتل في معركة أحد شهيداً في سبيل الله تعالى، فتزوّجها ﷺ إكراماً لها بعد أن فجعت بقتل زوجها في معركة أُحد، ولم يتركها أرملة وحيدة، فكأنه كافأها ﷺ على فضائلها بعد مصاب زوجها [٢].

ثانياً: زواج النبي ﷺ بأم سلمة رضي الله عنها:

هي هند بنت أبي أمية حذافة بن المغيرة القرشية المخزومية، كانت زوجة ابن عمها أبي عبد الله بن عبد الأسد، وزوجها هذا هو ابن عمة الرسول ﷺ، برّة بنت عبد المطلب، وهو أيضاً أخو رسول الله ﷺ من الرضاعة، وقد هاجرت أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ وزوجها أبو سلمة إلى الحبشة فراراً بدينها من المشركين، ثم رجعا إلى مكة، وهاجرا إلى المدينة بعد أن هاجر إليها رسول الله ﷺ والمسلمون [٣].

١ ـ حديث أم سلمة لأبي سلمة ـ رضي الله عنهما ـ:

قالت أم سلمة لأبي سلمة: بلغني أنه ليس امرأة يموت زوجها وهو من أهل الجنة، ثم لم تُزوج إلا جمع الله بينهما في الجنة. فتعال أعاهدك ألا تزوَّج بعدي، ولا أتزوج بعدك. قال: أتطيعينني؟ قالت: نعم، قال: إذا مت تزوجي، اللهم ارزق أم سلمة بعدي رجلاً خيراً مني، لا يُحزنها، ولا يؤذيها. فلما مات قالت: من خير من أبي سلمة؟ فما لبث وجاء رسول الله ﷺ، فقام على الباب فذكر الخطبة إلى ابن أخيها، أو ابنها فقالت: أرد على رسول الله ﷺ، أو أتقدم عليه بعيالي، ثم جاء الغد فخطب [٤].

٢ ـ دعاء أم سلمة لمَّا توفي زوجها:

لمَّا توفي زوجها أبو سلمة من أثر جراحات أصابته في قتاله للمشركين، وكانت تحبه وتجلُّه، فلما مات أبو سلمة جاءت للنبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إن أبا سلمة قد مات قال: «قولي: اللهم اغفر لي وله، وأعقبني [٥] منه عُقبى حسنة» قالت: فقلت: فأعقبني الله من هو خير لي منه، محمداً ﷺ [٦].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٤/ ١٦٦).
(٢) انظر: المفصل في أحكام المرأة، عبد الكريم زيدان (١١/ ٤٦٩).
(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٠٢).
(٤) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٠٣)، وقال المحقق: أخرجه ابن سعد ورجاله ثقات.
(٥) وأعقبني: أي بدّلني وعوّضني منه، أي في مقابلته عقبى حسنة أي بدلاً صالحاً.
(٦) مسلم في الجنائز رقم (٩١٩).

٣ ـ حوار رسول الله ﷺ لأم سلمة عندما خطبها:

قال عمر بن أبي سلمة ـ رضي الله عنه ـ: إن أم سلمة لما انقضت عدّتها خطبها أبو بكر فردته، ثم خطبها عمر فردّته، فبعث إليها رسول الله ﷺ فقالت: مرحباً. أخبر رسول الله أني غيرى (١)، وأني مُصبية (٢) وليس أحد من أوليائي شاهداً.

فبعث إليها: «أما قولك: إني مصبية فإن الله سيكفيك صبيانك، وأما قولك: إني غيرى فسأدعو الله أن يذهب غيرتك، وأما الأولياء فليس أحد منهم إلا سيرضى بي» (٣)، وفي رواية: إني امرأة قد أدبر من سني فكانت إجابة رسول الله ﷺ لها: «وأما السن فأنا أكبر منك» (٤) وقد أحسن إليها ﷺ الجواب، وما كان إلا محسناً (٥).

قالت أم سلمة: يا عمر (أي ابنها) قم فزوِّج رسول الله ﷺ (٦)، قال ابن كثير في تعليقه على قول أم سلمة: قم يا عمر فزوِّج النبي ﷺ: تعني قد رضيت وأذنت، فتوهّم بعض العلماء أنها تقول لابنها عمر بن أبي سلمة وقد كان ذاك صغيراً لا يلي مثله العقد، وقد جمعت في ذلك جزءاً مفرداً بيّنت فيه الصواب في ذلك ولله الحمد والمنة، وإن الذي ولى عقدها عليه ابنها سلمة بن أبي سلمة وهو أكبر (٧) ولدها.

٤ ـ تأثيث رسول الله ﷺ لبيت زينب ومعاملته لها:

فلما وافقت على الزواج قال لها رسول الله ﷺ: «أما أني لا أنقصك مما أعطيت فلانة رحيين وجرتين ووسادة من أدم حشوها ليف» (٨).

وكانت أم سلمة قد ولدت طفلة من زوجها أبي سلمة بعد موته، فعندما تزوّجها ﷺ جعل يأتيها، فإذا جاء أخذت زينب فوضعتها في حجرها لترضعها، وكان ﷺ حيياً كريماً يستحي فيرجع ففعل ذلك مراراً (٩)، ففطن عمار بن ياسر ـ رضي الله عنه ـ وهو أخ لأم سلمة من أمها (سمية) الشهيدة التي قتلها أبو جهل، فأطلق قدميه نحو بيت أخته أم سلمة، فأخذ ابنة أخته ليسترضعها في بيته أو عند أحد النساء، فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أين زناب؟» فقالت: قريبة ابن أبي أمية

---

(١) غيرى: كثيرة الغيرة.
(٢) مصبية: أي ذات صبيان وأولاد صغار.
(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٠٣، ٢٠٤) وإسناده صحيح.
(٤) انظر: الطبقات لابن سعد (٨/ ٩٠) رجاله ثقات، لكنه مرسل.
(٥) انظر: المفصل في أحكام المرأة (١١/ ٤٧٠).
(٦) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٠٤) وإسناده صحيح.
(٧) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٩٢).
(٨) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٠٤).
(٩) المصدر نفسه، (٢/ ٢٠٤).

ـ ووافقها عندها [١] ـ أخذها عمار بن ياسر. فقال ﷺ: «إني آتيكم الليلة».

قالت أم سلمة: فقمت فوضعت ثقالي [٢]، وأخرجت حبات من شعير كانت في جرتي، وأخرجت شحماً فعصدته، ثم بات، ثم أصبح، وقال حين أصبح: إن بك على أهلك كرامة، فإن شئت سبّعت [٣] لك، وإن أسبع لك أسبع لنسائي [٤]، وإن شئت ثلثت ثم درت قالت: ثلّث [٥]، فأقام النبي ﷺ ثلاثة أيام عند أم سلمة ثم قال ﷺ: «للبكر سبع، وللثيب ثلاث» [٦]. . . هي مدة إقامة المتزوج عند زوجته إذا كان عنده غيرها.

أقام ﷺ عند أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ ثلاثة أيام سعيدة ثم رتّب لها يوماً كبقية زوجاته.

٥ ـ تغيير اسم برّة بنت أبي سلمة:

تقول تلك الطفلة اليتيمة ـ رضي الله عنها ـ : أن النبي ﷺ دخل على أم سلمة حين تزوّجها واسمي برة، فسمعها تدعوني برة، فقال: «لا تزكوا أنفسكم، فإن الله هو أعلم بالبرة منكم والفاجرة، سميها زينب».

فقالت أم سلمة: فهي زينب [٧].

وهذا من هدي النبي ﷺ فقد كان يحب الأسماء الجميلة، ولم يكن ﷺ يغير أسماء الأطفال فقط، بل كان للرجال والنساء والعجائز نصيب من ذلك الذوق النبوي الرفيع، فقد ذكر عند رسول الله ﷺ رجل يقال له: شهاب، فقال رسول الله ﷺ: «بل أنت هشام» [٨].

و(كان ﷺ إذا أتاه الرجل وله اسم لا يحبه حوّله) [٩] إلى اسم أجمل وألطف، وكان يفعل ذلك مع العجائز ﷺ، فهذه عائشة ـ رضي الله عنها ـ تقول: جاءت عجوز إلى النبي ﷺ وهو عندي، فقال لها رسول الله ﷺ: من أنت؟ قالت: جثامة المزنية.

فقال: «بل أنت حسانة المزنية كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟».

قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله.

---

(١) أي: توافق مجيء النبي ﷺ مع زيارة تلك المرأة لأم سلمة.

(٢) هو ما يبسط تحت الرحى عند الطحن.

(٣) أي أقمت عندك سبعة أيام.

(٤) حديث حسن رواه ابن سعد (٨/ ٩٣).

(٥) انظر: السيرة النبوية كما جاءت من الأحاديث الصحيحة للصوياني (٣/ ١٣٦).

(٦) حديث صحيح، صحيح الجامع الألباني (٢/ ٩١٩).

(٧) سنده قوي رواه ابن إسحاق ومن طريقه البخاري في الأدب المفرد (٨٢١).

(٨) سنده حسن رواه البخاري في الأدب المفرد (٨٢٥).

(٩) حديث حسن رواه الطبراني (١٧/ ١١٩).

فقُرب إليه لحم، فجعل يناولها، فقلت: يا رسول الله لا تغمر يدك. فلما خرجت قلت: يا رسول الله تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟ فقال: «إنها كانت تأتينا زمن خديجة وإن حسن العهد من الإيمان»(١).

٦ ـ الحكمة في زواج أم سلمة:

والحكمة في هذا الزواج، كما يقول صاحب تفسير المنار: ليس لأجل التمتع المباح له، وإنما كان لفضلها الذي يعرفه المتأمل بجودة رأيها يوم الحديبية، ولتعزيتها ـ أي بوفاة زوجها ـ (٢) ولا ننسى كذلك أن أم سلمة من بني مخزوم أعز بطون قريش، وهي التي كانت تحمل لواء الحرب والمواجهة لرسول الله ﷺ، ووراء هذا الزواج تفتيت حقد هذه القبيلة وتقريب قلوب أبنائها، وتَحَبُبٌ إليهم ليدخلوا في الإسلام بعد أن صاروا أصهار رسول الله ﷺ (٣).

وفي هذا الزواج فقه النبي ﷺ في البناء الداخلي للأمة وتأدية حق الشهداء في زوجاتهن، وحق هذه الزوجات من أن ينهلن من نور النبوة ما يشاء الله أن ينهلن لكي يبلغن عن رسول الله (٤).

وكانت أم سلمة آخر من مات من أمهات المؤمنين، وكانت وفاتها سنة إحدى وستين، وقد روت عن رسول الله أحاديث يبلغ مسندها ثلاث مائة وثمانية وثمانين حديثاً، واتفق البخاري ومسلم على ثلاثة عشر، وانفرد البخاري بثلاثة ومسلم بثلاثة عشر (٥)، لقد ساهمت في نشر العلم والحكمة عن رسول الله، وبموتها انطفأ آخر مصباح من مصابيح أمهات المؤمنين طالما شع النور والهدى والعلم، فرضى الله عنها وأرضاها (٦).

ثالثاً: مولد الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ:

قال الإمام القرطبي ح: ولد الحسن في شعبان من السنة الرابعة، وعلي هذا ولد الحسين قبل تمام السنة من ولادة الحسن، ويؤيده ما ذكره الواقدي أن فاطمة علقت بالحسين بعد مولد الحسن بخمسين ليلة وجزم النووي في التهذيب أن الحسن ولد لخمس خلون من شعبان سنة أربع من الهجرة (٧).

يقول علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: لما ولد الحسن سميته حرباً، فجاء رسول الله ﷺ

---

(١) سنده قوي رواه الحاكم (١/ ٦٢) والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٥١٧).
(٢) انظر: تفسير المنار (٤/ ٣٧٢).
(٣) انظر: التربية القيادية (٣/ ٣٥٦).
(٤) المصدر نفسه، (٣/ ٣٥٧).
(٥) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٠).
(٦) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٢٤٨، ٢٤٩).
(٧) انظر: شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (١/ ١٠).

فقال: أروني ابني.. ما سميتموه؟ قلت: حرباً، قال ﷺ: «بل هو حسن» (١).

وهكذا غيّر ﷺ ذلك الاسم الحاد باسم جميل يدخل السرور والفرحة على القلوب.

فحمل المولود الجديد اسمه الجميل، وحمله ﷺ بين يديه وقلبه، وهذا أبو رافع يخبرنا عن ماذا فعل رسول الله ﷺ يقول: رأيت النبي ﷺ أذّن في أذني الحسن حين ولدته فاطمة بالصلاة (٢).

وحدثنا أبو رافع عن عقيقة الحسن فقال: لما ولدت فاطمة حسناً قالت: ألا أعقّ عن ابني بدم (بكبشين؟) قال ﷺ: «لا ولكن احلقي رأسه وتصدقي بوزن شعره من فضة على المساكين والأوفاض» وكان الأوفاض ناساً من أصحاب النبي ﷺ محتاجين في المسجد أو الصفة ـ ففعلت ذلك (٣).

وأحب ﷺ أن يقدم عقيقة الحسن، فعق عنه كبشين (٤).

وقد قال ﷺ في العقيقة: «الغلام مرتهن بعقيقته، يذبح عنه يوم السابع ويُسمَّى ويُحلق رأسه» (٥).

رابعاً: زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ يتعلم لغة اليهود سنة ٤ هـ:

وفي هذه السنة تعلّم زيد بن ثابت كتابة اليهود، فعن خارجة بن زيد بن ثابت عن زيد بن ثابت: أن رسول الله ﷺ أمره أن يتعلّم كتاب اليهود ليقرأه على النبي ﷺ إذا كتبوا إليه (٦)، فتعلّمه في خمسة عشر يوماً، وفي رواية أخرى أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة ذُهب بزيد إلى رسول الله وقالوا: يا رسول الله، هذا غلام من بني النجار معه مما أنزل الله عليك بضع عشر سورة، فأعجب ذلك رسول الله وقال: «يا زيد تعلّم لي كتاب يهود، فإني والله ما آمن يهود على كتاب» قال زيد: فتعلّمت له كتابهم، ما مرّت خمس عشرة ليلة حتى حذقته، وكنت أقرأ له كتبهم إذا كتبوا إليه، وأجيب عنه إذا كتب (٧).

وبهذا الخبر يتضح أن للترجمان مكانة رفيعة في الدولة، إذ هو الذي يطلع على أسرار

---

(١) البخاري في الأدب (٢٨٦).
(٢) أبو داود رقم (٥١٠٥).
(٣) رواه الطبراني (٣/ ٣٠) بسند حسن.
(٤) انظر: السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة للصوياني (٣/ ١٠٦).
(٥) انظر: صحيح سنن الترمذي، الألباني، رقم (١٥٢٢).
(٦) البخاري، كتاب الأحكام، رقم (٧١٩٥).
(٧) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٢٩).

الدولة وما يأتيها من مراسلات، أو ما ترسله من مخاطبات إذ لا يصح أن يطّلع كل إنسان على تلك الكتب الصادرة والواردة لئلا تختل الدولة وتكشف أسرارها، ولذلك أمر النبي ﷺ زيد بن ثابت بتعلم لغة اليهود (١)، وتعلّم زيد بن ثابت لغة يهود في خمسة عشر يوماً يدل على ذكاء مفرط، وقوة حافظة، وقد كان ـ رضي الله عنه ـ ممن حفظ القرآن كله على عهد رسول الله، ومن أشهر كُتّاب الوحي بين يديه وهو الذي تولى كتابة القرآن وحده في الصحف في عهد الصديق، وكان أحد كاتبي المصاحف في عهد عثمان ـ رضي الله عنه ـ وأمر رسول الله ﷺ زيداً بتعلُّم لغة اليهود وكتابتهم يدل على أن الإسلام يحبب إلى المسلم أن يتعلم لغة غيره وكتابتهم، ويتعرّف على علومهم، ومعارفهم ولا سيما إذا دعت لذلك ضرورة (٢).

المبحث الثالث

إجلاء يهود بني النضير

أصاب يهود المدينة الخوف والرعب طيلة الفترة التي تفصل بين مقتل كعب بن الأشرف، وبين معركة أُحد التي جرت في شوال عام ٣ هـ، ولكن الهزيمة التي حلت بالمسلمين في تلك المعركة أحيت في نفوس المشركين والمنافقين الأمل من جديد بتحقيق مطامعهم وأغراضهم، وأزالت من قلوب اليهود الهلع على المصير، ومما ساهم في تبديد هذا الهلع عندهم مقتل أصحاب الرجيع، وبئر معونة، وبذلك لم يدم خوف اليهود طويلاً وعادوا إلى أساليب الدس والمكر والخداع، وشرعوا في حشد حصونهم بالسلاح والعتاد للانقضاض على المسلمين ودولتهم، ثم صمموا على قتل النبي ﷺ والغدر به (٣).

أولاً: تاريخ الغزوة وأسبابها:

١ ـ تاريخ الغزوة:

يرى المحققون من المؤرخين أن غزوة بني النضير كانت بعد أُحد في ربيع الأول من السنة الرابعة من الهجرة، وقد رد ابن القيم على من زعم أن غزوة بني النضير بعد بدر بستة أشهر بقوله: وزعم محمد بن شهاب الزهري: أن غزوة بني النضير كانت بعد بدر بستة أشهر، وهذا وهم منه أو غلط عليه، بل الذي لا شك فيه أنها بعد أُحد والذي كانت بعد بدر بستة أشهر، هي غزوة بني قينقاع، وقريظة بعد الخندق، وخيبر بعد الحديبية (٤).

---

(١) انظر: زيد بن ثابت، كاتب الوحي وجامع القرآن، صفوان داوودي (ص ٨٠، ٨١).
(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٢٤٩).
(٣) انظر: التاريخ السياسي والعسكري (ص ١٨٨، ١٨٩).
(٤) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٤٩).

وقال ابن العربي: والصحيح أنها بعد أُحد [١]، وإلى هذا الرأي ذهب ابن كثير [٢].

٢ ـ أسباب الغزوة:

هناك مجموعة من الأسباب حملت النبي ﷺ على غزو بني النضير وإجلائهم من أهمها:

أ ـ نقض بني النضير عهودهم التي تحتم عليهم ألا يؤووا عدواً للمسلمين ولم يكتفوا بهذا النقض، بل أرشدوا الأعداء إلى مواطن الضعف في المدينة.

وقد حصل ذلك في غزوة السُويق [٣] حيث نذر أبو سفيان بن حرب حين رجع إلى مكة ـ بعد غزوة بدر ـ نذراً ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو المدينة، فلما خرج في مائتي راكب قاصداً المدينة قام سيد بني النضير سلام بن مشكم بالوقوف معه وضيافته وأبطن له خبر الناس، ولم تكن مخابرات المدينة غافلة عن ذلك [٤].

قال موسى بن عقبة ـ صاحب المغازي ـ (كانت بنو النضير قد دسُّوا إلى قريش وحضُّوهم على قتال رسول الله ﷺ ودلوهم على العورة) [٥].

ب ـ محاولة اغتيال النبي ﷺ:

خرج النبي ﷺ في نفر من أصحابه عن طريق قباء إلى ديار بني النضير يستعينهم في دية القتيلين العامريين، اللذين ذهبا ضحية جهل عمرو بن أمية الضمري بجوار رسول الله ﷺ لهما، وذلك تنفيذاً للعهد الذي كان بين النبي ﷺ وبين بني النضير حول أداء الديات، وإقراراً لما كان يقوم بين بني النضير وبين بني عامر من عقود وأحلاف.

استقبل بنو النضير النبي ﷺ بكثير من البشاشة والكياسة، ثم خلا بعضهم إلى بعض يتشاورون في قتله والغدر به، ويبدو أنهم اتفقوا على إلقاء صخرة عليه ﷺ، من فوق جدار كان يجلس بالقرب منه، ولكن الرسول ﷺ الذي كان برعاية الله وحفظه أدرك مقاصد بني النضير، إذ جاءه الخبر من السماء بما عزموا عليه من شر، فنهض وانطلق بسرعة إلى المدينة ثم تبعه أصحابه بعد قليل [٦].

لم تكن مؤامرة بني النضير التي أفشلها الله سبحانه وتعالى تستهدف شخص النبي ﷺ

(١) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٤/ ١٧٦٥).
(٢) انظر: حديث القرآن عن الغزوات (١/ ٢٥٤).
(٣) غزوة السويق كانت بعد بدر وقد تحدثت عنها ـ ارجع إلى ص ٦٦.
(٤) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٢٨٤).
(٥) انظر: فتح الباري (٧/ ٣٣٢).
(٦) انظر: الواقدي (١/ ٣٦٥)، التاريخ السياسي والعسكري (ص ١٩٠).

فحسب، بل كانت تستهدف كذلك دولة المدينة والدعوة الإسلامية برمّتها، لذا صمّم محمد ﷺ على محاربة بني النضير، الذين نقضوا العهد والمواثيق معه وأمر أصحابه بالتهيؤ لقتالهم والسير إليهم [(١)].

هذه الأسباب وغيرها أدّت إلى غزوة بني النضير وقد ذكر القرآن الكريم المؤمنين بهذه النعمة الجليلة، وكيف نجى الله نبيه ﷺ من مكر يهود بني النضير، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المَائدة: ١١] .

وقد أورد المفسرون في سبب نزول هذه الآية الكريمة روايات منها:

أخرج الطبري عن أبي زياد قال: جاء رسول الله ﷺ بني النضير ليستعينهم في عقل أصحابه، ومعه أبو بكر وعمر وعلي فقال: «أعينوني في عقل أصابني»، فقالوا: نعم يا أبا القاسم قد آن لك أن تأتينا وتسألنا حاجة، اجلس حتى نطعمك ونعطيك الذي تسألنا، فجلس رسول الله ﷺ وأصحابه ينتظرون وجاء رأس القوم، وهو الذي قال لرسول الله ﷺ ما قال، فقال لأصحابه: لا ترون أقرب منه الآن، اطرحوا عليه حجارة فاقتلوه ولا ترون شراً أبداً.

فجاءوا إلى رحى لهم عظيمة ليطرحوها عليه، فأمسك الله عنها أيديهم حتى جاء جبريل عليه السلام فأقامه من ثم، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المَائدة: ١١] فأخبر الله نبيه ﷺ ما أرادوا به [(٢)].

وذكر محمد بن إسحاق ومجاهد وعكرمة وغير واحد [(٣)] أنها نزلت في شأن بني النضير، حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحى لما جاءهم يستعينهم في دية العامريين، ووكلوا عمرو بن جحاش بذلك إن جلس النبي ﷺ تحت الجدار، واجتمعوا عنده أن يلقى الرحى من فوقه، فأطلع الله النبي ﷺ على ما تماروا عليه، فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه فأنزل الله في ذلك هذه الآية [(٤)].

وقد رجح ابن جرير أن تكون الآية قد نزلت بسبب ما أضمره بنو النضير من كيد وسوء للنبي ﷺ وأصحابه فقال: (وأولى الأقوال بالصحة في تأويل ذلك قول من قال: عنى الله بالنعمة التي ذكر في هذه الآية نعمته على المؤمنين به ورسوله، التي أنعم بها عليهم في استنقاذه

---

(١) انظر: التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة (ص ١٩٠).
(٢) انظر: تفسير ابن جرير (٦/ ١٤٤، ١٤٥).
(٣) هذه الآثار وإن كان فيها ضعف إيمان يمكن أن تعضد لتصبح بمجموعها صالحة للاحتجاج بها. انظر: المجتمع المدني في عهد النبوة (ص ١٤٥).
(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٣١).

نبيّهم ﷺ، مما كانت يهود بني النضير همّت به من قتله وقتل من معه، يوم سار إليهم في الدية التي تحملها عن قتيلي عمرو بن أمية، وإنما قلنا أولى بالصحة في تأويل ذلك، لأن الله عقب ذلك برمي اليهود بسوء صنائعها وقبيح فعالها، وخيانتها ربها وأنبياءها) [١].

وقد وافق الدكتور محمد آل عابد ترجيح الطبري وقال: لا مانع أن تكون الآية الكريمة نزلت بعد تلك الحوادث مجتمعة، فقد تعددت الحوادث والمنزل واحد، كما قال العلماء [٢].

ومعنى الآية الكريمة: أي اذكروا نعمة الله عليكم التي من أكبر مظاهرها كفه عنكم أيدي اليهود، الذين هموا أن يمدوا أيديهم بالسوء إلى نبيكم، وشارفوا أن ينفذوا مؤامراتهم الخبيثة، ولكن الله أحبط مكرهم ونجى نبيكم ﷺ من شرورهم.

ثم أمر ـ سبحانه ـ بتقواه والتوكل عليه فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

أي اتقوا الله ـ أيها المؤمنون ـ في رعاية حقوق نعمته، ولا تخلوا بشكرها، فقد أراكم قدرته، وتوكلوا عليه وحده فقد أراكم عنايته بكم، وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون[٣].

ثانياً: إنذار بني النضير بالجلاء وحصارهم:

١ ـ إنذار بني النضير:

سجّلت معظم كتب السيرة النبوية خبر إنذار النبي ﷺ لبني النضير بالجلاء خلال عشرة أيام، وقد أرسل ﷺ محمد بن مسلمة إليهم وقال له: «اذهب إلى يهود بني النضير وقل لهم: إن رسول الله ﷺ أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلادي؛ لقد نقضتم العهد الذي جعلت لكم مما هممتم به من الغدر، وقد أجلتكم عشراً، فمن رُئي بعد منكم ضربت عنقه» [٤] ولم يجدوا جواباً يردون به سوى أن قالوا لمحمد بن مسلمة: يا محمد، ما كنا نظن أن يجيئنا بهذا رجل من الأوس، فقال محمد: تغيرت القلوب، ومحا الإسلام العهود، فقالوا: نتحمل فمكثوا أياماً يعدون العدة للرحيل [٥].

وفي تلك المدة أرسل إليهم عبد الله بن أُبي ابن سلول من يقول لهم: اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم [٦]، ولا تخرجوا فإن معي

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٦/ ١٤٤، ١٤٥).
(٢) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٢٥١).
(٣) المصدر نفسه، (١/ ٢٥٢).
(٤) انظر: طبقات ابن سعد الكبرى (٢/ ٥٧)، مغازي الواقدي (١/ ٣٦٣ ـ ٣٧٠).
(٥) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٥٥٢).
(٦) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٢١٢).

من العرب وممن انضوى إلى قومي ألفين فأقيموا، فهم يدخلون معكم حصونكم ويموتون عن آخرهم قبل أن يصلوا إليكم [(١)].

فعادت لليهود بعض ثقتهم وتشجع كبيرهم «حيي بن أخطب» وأرسل إلى النبي ﷺ جدي بن أخطب يقول له: إنا لن نريم ـ أي لن نبرح ـ دارنا، فاصنع ما بدا لك، فكبّر رسول الله ﷺ وكبّر المسلمون معه، وقال: «حاربت يهود» [(٢)].

٢ ـ ضرب الحصار وإجلاؤهم:

وانقضت الأيام العشرة ولم يخرجوا من ديارهم، فتحركت جيوش المسلمين صوبهم وضربت عليهم الحصار لمدة خمس عشرة ليلة.

وأمر ﷺ بحرق نخيلهم، وقضى بذلك على أسباب تعلقهم بأموالهم وزروعهم، وضعفت حماستهم للقتال وجزعوا وتصايحوا: يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من يفعله، فما بال قطع النخيل وتخريبها؟

وألقى الله في قلوبهم الرعب، وأدرك بنو النضير أن لا مفر من جلائهم، ودب اليأس في قلوبهم وخاصة بعد أن أخلف ابن أبي وعده بنصرهم، وعجز إخوانهم أن يسوقوا إليهم خيراً أو يدفعوا عنهم شراً، فأرسلوا إلى النبي ﷺ يلتمسون منه أن يؤمنهم حتى يخرجوا من ديارهم.

فوافقهم النبي ﷺ على ذلك وقال لهم: «اخرجوا منها ولكم دماؤكم وما حملت الإبل إلا الحلقة» ـ وهي الدروع والسلاح ـ فرضوا بذلك [(٣)].

ونقض اليهود سقف بيوتهم وعمدها وجدرانها لكي لا ينتفع منها المسلمون.

وحملوا معهم كميات كبيرة من الذهب والفضة حتى أن سلام بن أبي الحقيق وحده حمل جلد ثور مملوءاً ذهباً وفضة، وكان يقول: هذا الذي أعددناه لرفع الأرض وخفضها وإن كنا تركنا نخلاً ففي خيبر النخل [(٤)].

وحملوا أمتعتهم على ستمائة بعير، وخرجوا ومعهم الدفوف والمزامير والقيان يعزفن من خلفهم، حتى لا يشمت بهم المسلمون فقصد بعضهم خيبر وسار آخرون إلى أذرعات الشام [(٥)].

---

(١) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٥٥٣).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (٣/ ١٤٦).
(٣) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٢٥٧).
(٤) انظر: السيرة الحلبية (٢/ ٥٦٦).
(٥) انظر: السيرة الحلبية (٢/ ٥٦٥)، حديث القرآن الكريم (١/ ٢٥٧).

وقد تولى عملية إخراجهم من المدينة محمد بن مسلمة بأمر من رسول الله ﷺ (١).

وكان من أشرافهم الذين ساروا إلى خيبر: سلام بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، فلما نزلوها دان لهم أهلها (٢).

ثالثاً: الدروس والعِبَر في هذه الغزوة:

تحدّث القرآن الكريم عن غزوة بني النضير في سورة كاملة، وهي سورة الحشر، وقد سمّى حبر الأمة عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - سورة الحشر بسورة بني النضير، ففي البخاري عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس - رضي الله عنهما - سورة الحشر، قال: سورة النضير (٣).

وقد بيّنت هذه السورة ملابسات هذه الغزوة، وفصلت القول فيها، وبيّنت أحكام الفيء ومن هم المستحقون له؟ وأوضحت موقف المنافقين من اليهود، كما كشفت عن حقائق نفسيات اليهود، وضربت الأمثال لعلاقة المنافقين باليهود، وفي أثناء الحديث عن الغزوة وجه سبحانه خطابه إلى المؤمنين وأمرهم بتقواه وحذّرهم من معصيته، ثم تحدّث سبحانه عن القرآن الكريم وأسمائه وصفاته، وهكذا كان المجتمع يتربّى بالأحداث على التوحيد وتعظيم منهج الله، والاستعداد ليوم القيامة، وبالتأمل في السورة يمكننا استخراج بعض الدروس والعبر من أهمها:

١ - الثناء على الله وتمجيده:

ابتدأت السورة بالثناء على الله وأن الكون كله بجميع ما فيه من مخلوقات من إنسان، وحيوان، ونبات وجماد، ينزّه الله ويمجّده ويشهد بوحدانيته وقدرته وجلاله، وناطق بعظمته وسلطانه (٤).

قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١] .

كان استفتاح هذه السورة بالإخبار أن جميع من في السموات والأرض، تسبّح بحمد ربها، وتنزهه عما لا يليق بجلاله، وتعبده وتخضع لعظمته، لأنه العزيز الذي قهر كل شيء فلا يمتنع عليه شيء ولا يستعصي عليه عسير.

الحكيم في خلقه وأمره فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يشرع ما لا مصلحة فيه، ولا يفعل إلا ما هو مقتض حكمته، ومن ذلك نصره لرسوله ﷺ على الذين كفروا من أهل الكتاب من بني النضير، حين غدروا برسوله فأخرجهم من ديارهم وأوطانهم التي ألفوها وأحبوها (٥).

---

(١) انظر: المغازي للواقدي (١/ ٣٧٤)، اليهود في السنة المطهرة (١/ ٣٢١).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢١٢).
(٣) البخاري: كتاب المغازي، باب «حديث بني النضير» رقم (٤٠٢٩).
(٤) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٣٢٧).
(٥) انظر: تفسير السعدي (٣/ ٣٢٧).

٢ ـ الرعب جند من جند الله:

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٢ ـ ٤].

إن المتأمل في هذه الآيات الكريمة يتبيّن له أن الله هو الذي أخرج يهود بني النضير من ديارهم إلى الشام، حيث أول الحشر في حين أن كل الأسباب المادية معهم حتى اعتقدوا أنه لا أحد يستطيع أن يخرجهم من حصونهم لمتانتها وقوتها.

لكن الله فاجأهم من حيث لم يحتسبوا، جاءهم من قلوبهم التي لم يتوقعوا أنهم يهزمون بها، فقذف فيها الرعب فإذا بهم يهدمون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، وهذا الأسلوب القرآني الفريد يربي الأمة بالأحداث والوقائع، وهو يختلف تماماً عن طريقة أهل السير، ويتمتاز بأنه يكشف الحقائق ويوضح الخفايا، ويربط الأحداث بفاعلها الحقيقي وهو رب العالمين، ومن ذلك أنها بيّنت أن الذي أخرج بني النضير هو الله جلّ جلاله ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

واستمرت الآية الكريمة تبيّن أن يهود بني النضير حسبوا كل شيء وأحاطوا بجميع الأسباب الأرضية، لكن جاءتهم الهزيمة من مكان اطمأنوا إليه وهو أنفسهم، فإذا الرعب يأتي من داخلهم، فإذا بهم ينهارون في أسرع لحظة، لذلك يجب على كل إنسان عاقل أن يعتبر بهذه الغزوة وأن يعرف أن الله هو المتصرف في الأمور، وأنه لا تقف أمام قدرته العظيمة لا الأسباب ولا المسببات فهو القادر على كل شيء، فعلى الناس أن يؤمنوا به تعالى ويصلحوا أمرهم، فإذا اتبعوا أمر الله أصلح الله لهم كل شيء وأخرج أعداءهم من حيث لم يحتسبوا.

إن هذه الغزوة درس للأمة في جميع عصورها، تذكرهم أن طريق النصر قريب، وهو الرجوع إلى الله والاعتماد عليه والتسليم لشريعته، وتقديره حق قدره، فإذا عرف ذلك المؤمنون نصرهم الله ولو كان عدوهم قوياً وكثيراً، فإن الله لا يعجزه شيء وأقرب شاهد واقعي لذلك هو إجلاء بني النضير، وهي عبرة فليُعتبر بها والسعيد من اعتبر بغيره.

ثم أوضح سبحانه أنه لو لم يعاقبهم بالجلاء لعذّبهم في الدنيا بالقتل أما في الآخرة فلهم عذاب النار[١].

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٢٧٠، ٢٧١).

٣ ـ تخريب ممتلكات الأعداء:

لما نزل رسول الله ﷺ بجيشه وحاصر بني النضير، تحصنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخل والتحريق فيها، فنادوه يا محمد: قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه فما بال قطع النخل وتحريقها؟ (١) فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الحشر: ٥] (٢).

وقد توسع الشيخ محمد أبو زهرة في شرح هذه الآية فقال ما ملخصه بعد أن ساق آراء الفقهاء في ذلك:

والذي ننتهي إليه بالنسبة لما يكون في الحرب من هدم وتحريق وتخريب، أنه يستفاد من مصادر الشريعة وأعمال النبي ﷺ في حروبه:

١ ـ أن الأصل هو عدم قطع الشجر وعدم تخريب البناء، لأن الهدف من الحرب ليس إيذاء الرعية، ولكن دفع أذى الراعي الظالم وبذلك وردت الآثار.

٢ ـ أنه إذا تبيّن أن قطع الشجر وهدم البناء توجيه ضرورة حربية لا مناص منها؛ كأن يستتر العدو به ويتخذه وسيلة لإيذاء جيش المؤمنين، فإنها لا مناص من قطع الأشجار، وهدم البناء على أنه ضرورة من ضرورات القتل، كما فعل النبي ﷺ هنا وفي حصن ثقيف.

٣ ـ أن كلام الفقهاء الذين أجازوا الهدم والقلع يجب أن يخرج على أساس هذه الضرورات، لا على أساس إيذاء العدو والإفساد المجرد. فالعدو ليس الشعب إنما العدو هم الذين يحملون السلاح ليقاتلوا (٣).

٤ ـ تطوير السياسة المالية للدولة الإسلامية:

بيّن سبحانه وتعالى حكم الأموال التي أخذها المسلمون من بني النضير بعد أن تم إجلاؤهم فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحشر: ٦].

وبيَّن سبحانه وتعالى أن الأموال التي عادت إلى المسلمين من بني النضير قد تفضل بها عليهم بدون قتال شديد، وذلك لأن المسلمين مشوا إلى أعدائهم ولم يركبوا خيلاً ولا إبلاً، وافتتحها ﷺ صلحاً وأجلاهم وأخذ أموالهم ووضعها حيث أمره الله «فقد كانت أموال بني النضير

---

(١) المصدر السابق نفسه، (١/ ٢٧٤).
(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٨/ ٣٤).
(٣) انظر: خاتم النبيين للشيخ محمد أبو زهرة (٢/ ٢٦٥ ـ ٢٦٩).

مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف عليه المسلمون (١) بخيل ولا ركاب (٢)، فكانت للنبي ﷺ خاصةً، فكان ينفق على أهله نفقة سَنَة وما بقي يجعله في الكُراع (٣) والسلاح عدةً في سبيل الله» (٤).

ثم بيَّن المولى ﷻ أحكام الفيء في قرى الكفار عامة فقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

فكانت هذه الغنيمة خالصة لرسول الله ﷺ، ولهذا تصرف فيه - أي الفيء - كما يشاء، فرده على المسلمين في وجوه البر والمصالح التي ذكرها الله ﷻ في هذه الآيات.

ولما غنم ﷺ أموال بني النضير دعا ثابت بن قيس فقال: «ادع لي قومك» قال ثابت: الخزرج؟ فقال ﷺ: «الأنصار كلها» فدعا له الأوس والخزرج.

فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم ذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين وإنزالهم إياهم في منازلهم وأموالهم، وأثرتهم على أنفسهم ثم قال: «إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله عليَّ من بني النضير، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في منازلكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم».

فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ: يا رسول الله بل نقسم بين المهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا، وقالت الأنصار: رضينا وسلمنا يا رسول الله (٥).

وقسم ما أفاء الله، وأعطى المهاجرين ولم يعط أحداً من الأنصار شيئاً، غير أبيْ دجانة، وسهل بن حنيف لحاجتهما (٦)، ومع أنه ﷺ يعلم الفيء كان خاصاً له إلا أنه جمع الأنصار وسألهم عن قسمة الأموال لتطييب نفوسهم، وهذا من الهدى النبوي الكريم في سياسة الأمور.

وكانت الغاية من هذا التوزيع تخفيف العبء عن الأنصار، وهكذا انتقل المهاجرون إلى دور بني النضير، وأعيدت دور الأنصار إلى أصحابها، واستغنى بعض المهاجرين مما يمكن أن يقال فيه: إن الأزمة بدأت بالانفراج (٧).

---

(١) مما لم يوجف عليه المسلمون: الإيجاف هو الإسراع - أي لم يُعدوا في تحصيله خيلاً.
(٢) الركاب: هي الإبل التي يُسافر عليها، ولا واحد لها من لفظها.
(٣) الكُراع: أي الدواب التي تصلح للحرب.
(٤) مسلم، كتاب الجهاد، باب «حكم الفيء» رقم (١٧٥٧).
(٥) مسلم: كتاب الجهاد، باب «حكم الفيء» (٣/١٣٧٦)، رقم (١٧٥٧).
(٦) انظر: شرح الزرقاني على المواهب (٢/٨٦).
(٧) انظر: السيرة النبوية لصالح الشامي، (ص ٢٢٢).

إن قسمة أموال بني النضير أوجد تطوراً كبيراً في السياسة المالية للدولة الإسلامية. فقد كانت الغنائم الحربية قبل هذه الغزوة تقسم بين المحاربين بعد أن تأخذ الدولة الإسلامية خمسها لتصرف في مصارف معينة حددها القرآن الكريم، وبعد غزوة بني النضير، أصبحت هناك سياسة مالية جديدة فيما يتعلق بالغنائم، وخلاصتها: أن الغنائم الحربية أصبحت حسب السياسة الجديدة على نوعين:

١ - غنائم استولى عليها المجاهدون بحد سيوفهم، وهذه الغنائم تقسم بين المجاهدين بعد أن تأخذ الدولة خمسها لتصرفه في مصارفه الخاصة.

٢ - غنائم يوقعها الله بأيدي المجاهدين دون قتال، وهذا النوع يختص رئيس الدولة الإسلامية بالتصرف فيه حسب ما يرى المصلحة في ذلك، يعالج به الأوضاع الاقتصادية في البلاد؛ فينقذ الفقراء من فقرهم، أو يشتري به سلاحاً أو يبنى به مدينة، أو يصلح به طرقاً أو... وهذا يعني أنه قد أصبح لرئيس الدولة الإسلامية ميزانية خاصة يتصرف فيها تصرفاً سريعاً حسب مقتضيات المصلحة [1]، وقد ذكر سبحانه وتعالى في الآيتين اللتين أوضحتا سياسته عليه الصلاة والسلام في تقسيم فيء بني النضير إذ اختص به أناساً دون آخرين العلة في ذلك في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

أي لكي لا يكون تداول المال محصوراً فيما بين طبقة الأغنياء منكم فقط، والتعليل لهذه الغاية يؤذن بأن سياسة الشريعة الإسلامية في شؤون المال قائمة في جملتها على تحقيق هذا المبدأ. وأن كل ما تفيض به كتب الشريعة الإسلامية من الأحكام المتعلقة بمختلف شؤون الاقتصاد والمال يُبتغى من ورائه إقامة مجتمع عادل تتقارب فيه طبقات الناس وفئاتهم، ويُقضى فيه على أسباب الثغرات التي قد تظهر فيما بينها، والتي قد تؤثر على سير العدالة وتطبيقها.

ولو طبقت أحكام الشريعة الإسلامية وأنظمتها الخاصة بشؤون المال من إحياء لشريعة الزكاة ومنع للربا، وقضاء على مختلف مظاهر الاحتكارات، لعاش الناس كلهم في بحبوحة من العيش، قد يتفاوتون في الرزق ولكنهم جميعاً مكتفون، وليس فيهم كلٌّ على آخر وإن كانوا جميعاً يتعاونون [2]. وبعد بيان العلة في توزيع أموال الفيء عقب سبحانه بأمر المسلمين بأن يأخذوا ما أتى به الرسول ﷺ وأن ينتهوا عمّا نهاهم عنه، وأن هذا من لوازم الإيمان، وأمرهم بالتقوى، فإن عقابه شديد وأليم للعصاة. قال تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ

---

(١) انظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية، محمد قلعجي، (ص ١٦٩).
(٢) انظر: فقه السيرة للبوطي: (ص ١٩٤).

ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

أي: ما أمركم به الرسول ﷺ فافعلوه، وما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمركم بكل خير وصلاح، وينهى عن كل شر وفساد.

وقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ خافوا ربكم بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي فإن عقابه أليم وعذابه شديد لمن عصاه وخالف ما أمره به، قال المفسرون: والآية وإن نزلت في أموال الفيء، إلا أنها عامة في كل ما أمر الله به النبي ﷺ أو نهي عنه من واجب أو مندوب، أو مستحب، أو محرم فيدخل فيها الفيء وغيره [(١)]، وقد جاءت آيات كثيرة تربي الأمة على وجوب الانقياد لحكم الله تعالى، ولحكم رسوله ﷺ وذلك في كل الأمور قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وقال ﷺ: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم، واختلافهم على أنبيائهم» [(٢)].

٥ ـ فضل المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان:

● فضل المهاجرين:

بيّنت الآيات الكريمة في سورة الحشر فضل المهاجرين على غيرهم، فهم لهم الدرجة الأولى، فقد اشتملت الآيات على أوصافهم الجميلة وشهد الله لهم بالصدق قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

● فضل الأنصار:

فقد وضحت الآيات فضل الأنصار وقد وصفهم الله بهذه الصفات قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩].

● فضل التابعين لهم بإحسان:

وهم المتبعون لآثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة، الداعون في السر والعلانية لإخوانهم

---

(١) انظر: تفسير الرازي (٢٩/ ٢٨)، صفوة التفاسير (٣/ ٣٥١).

(٢) مسلم: كتاب الفضائل، باب «توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله» (٤/ ١٨٣٠).

الذين سبقوهم بالإيمان [١] قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾ [الحشر: ١٠].

وهكذا تحدّثت السورة الكريمة عن صور مشرقة للمهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان.

٦ ـ موقف المنافقين في المدينة:

بيّنت الآيات الكريمة حالة المنافقين، ووضّحت موقفهم وتحالفهم مع إخوانهم من اليهود، وكشفت أيضاً موقفهم من المسلمين، وموقف اليهود ونفسياتهم [٢]، قال تعالى: ﴿۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١].

يخبرنا المولى ﷻ عن المنافقين كعبدالله بن أبي وأضرابه حين بعثوا إلى يهود بني النضير يعدونهم بمناصرتهم، وقوله: ﴿لِإِخۡوَٰنِهِمُ﴾ أي الذين بينهم وبينهم أخوة الكفر، وهم يهود بني النضير، وجعلهم إخواناً له لكون الكفر قد جمعهم، وإن اختلف نوع كفرهم، فهم إخوان في الكفر.

٧ ـ تحريم الخمر:

حرمت الخمر ليالي حصار بني النضير [٣] في ربيع الأول من السنة الرابع من الهجرة [٤]، وقد خضع تحريم الخمر لسنة التدرج، وكان ذلك التحريم على مراحل معروفة في تاريخ التشريع الإسلامي حتى نزلت الآيات الحاسمة في النهي عنها من سورة المائدة وفي ختامها ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] قال المؤمنون في قوة وتصميم: قد انتهينا يا رب [٥].

وفي قوله تعالى: ﴿۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

يقول سيد قطب رحمه الله: وهذا النص الذي بين أيدينا كان أول خطوة من خطوات التحريم، فالأشياء والأعمال قد لا تكون شراً خالصاً فالخير يلتبس بالشر، والشر يلتبس بالخير في هذه الأرض، ولكن مدار الحل والحرمة هو غلبة الخير أو غلبة الشر، فإذا كان الإثم في الخمر

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٢٩١).
(٢) المصدر نفسه، (١/ ٢٦٤).
(٣) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٢٥٣).
(٤) انظر: تفسير القرطبي (١٨/ ١٠).
(٥) انظر: الخصائص العامة للإسلام للقرضاوي، (ص ١٨١).

والميسر أكبر من النفع، فتلك علة تحريم ومنع، وإن لم يصرح هنا بالتحريم والمنع.

هنا يبدو لنا طرف من منهج التربية الإسلامية القرآنية الربانية الحكيمة، وهو المنهج الذي يمكن استقراؤه في الكثير من شرائعه وفرائضه وتوجيهاته، ونحن نشير إلى قاعدة من قواعد هذا المنهج بمناسبة الحديث عن الخمر والميسر، عندما يتعلق الأمر أو النهي بقاعدة من قواعد التصور الإيماني أي بمسألة اعتقادية، فإن الإسلام يقضي فيها قضاء حاسماً منذ اللحظة الأولى.

ولكن عندما يتعلق الأمر أو النهي بعبادة وتقليد، أو بوضع اجتماعي معقد، فإن الإسلام يتريث به ويأخذ المسألة باليسر والتدرج، ويهيء الظروف الواقعة التي تيسر التنفيذ والطاعة، فعندما كانت المسألة مسألة التوحيد أو الشرك أمضى أمره منذ اللحظة الأولى في ضربة حازمة جازمة لا تردد فيها ولا تلفت، ولا مجاملة فيها ولا مساومة، ولا لقاء في منتصف الطريق، لأن المسألة هنا مسألة أساسية للتصور، لا يصلح بدونها إيمان ولا يقام إسلام.

فأما الخمر والميسر فقد كان الأمر أمر عادة وألفة، والعادة تحتاج إلى علاج، فبدأ بتحريك الوجدان الديني المنطقي التشريعي في نفوس المسلمين، بأن الإثم في الخمر والميسر أكبر من النفع، وفي هذا إيحاء بأن تركهما هو الأولى، ثم جاءت الخطوة الثانية بآية سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النِّساء: ٤٣].

والصلاة في خمسة أوقات، معظمها متقارب، لا يكفي ما بينها للسكر والإفاقة! وفي هذا تضييق لفرص المزاولة العملية لعادة الشرب، وكسر لعادة الإدمان التي تتعلق بمواعيد التعاطي، إذ المعروف أن المدمن يشعر بالحاجة إلى ما أدمن عليه من مسكر أو مخدر في الموعد الذي اعتاد تناوله، فإذا تجاوز هذا الوقت وتكرر هذا التجاوز فترة حد العادة أمكن التغلب عليها، حتى إذا تمت هاتان الخطوتان جاء النهي الجازم الأخير لتحريم الخمر والميسر [1] ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المَائدة: ٩١].

٨ ـ لا يحيق المكر السيء إلا بأهله:

كان مكر اليهود، وتآمرهم على حياة الرسول ﷺ والدولة الإسلامية في غاية الخسة والوضاعة، وكانوا يريدون من مكرهم وغدرهم عزة ورفعة ومجداً وغلبة، لكن الله سخر منهم،

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (١/ ٢٢٩).

ونجى رسوله والمسلمين من مكرهم وأذلهم وأخزاهم، فزال مجدهم، وكسر غلبتهم، وخرب بيوتهم، ورحلهم عن ديارهم ولم يكلف ذلك المسلمين اصطداماً مسلحاً، ولا قتالاً ضارياً، ولكن الله قذف في قلوبهم الرعب والفزع، فطلبوا النجاة بأرواحهم في ذلة وخزي، مخلفين وراءهم ثروة وملكاً حازه المسلمون غنيمة باردة، وقال تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحَشر: ٢] .

هذه عاقبة المكر السيء والغدر المشين، وانظر بعد ذلك كيف أشار القرآن الكريم إلى مواطن العبرة في هذه الموقعة، وإلى هذا التهديد الذي أعلنه لكل من يسلك سبل المكر المزري، والحقد المستبد [(١)] وقال: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ .

ويظهر لي من الآية الكريمة الاعتبار من وجوه:

١ ـ إن الذي يقف في وجه الحق، ويصد الناس عنه، ويطارد دعاة الحق منهزم لا محالة، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عِمرَان: ١٢] .

٢ ـ الصراع بين الحق والباطل لا يتوقف وباق حتى يرث الله الأرض وما عليها، وستكون للباطل جولات وللحق جولات، ولكن العاقبة لأهل الحق في نهاية المطاف.

٣ ـ الاعتبار يكون بتجنب ما ارتكبه اليهود من خيانة وغدر حتى لا يحدث نفس المصير الذي حدث لهم من الهزيمة والذل والهوان [(٢)].

٩ ـ لا إكراه في الدين:

كان في بني النضير أناس من أبناء الأنصار قد تهودوا بسبب تربيتهم بين ظهراني اليهود، فأراد أهلوهم المسلمون منعهم من الرحيل معهم فأنزل الله ﷻ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦] .

روى أبو داود في سننه عن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كانت المرأة تكون مقلاتاً [(٣)] فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوِّده، فلما أُجليت بنو النضير كان فيهم أبناء الأنصار،

---

(١) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة، (ص ١٦٧، ١٦٨).
(٢) انظر: الصراع مع اليهود لأبي فارس، (ص ١٧٩).
(٣) المُقلاة: التي لا يعيش لها ولد. سنن أبي داود (٣/ ١٣٣).

فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله ﷻ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦][(١)].

المبحث الرابع

غزوة ذات الرقاع

أولاً: تاريخها وأسبابها، ولماذا سميت بذات الرقاع:

اختلف أهل المغازي والسير في تاريخ هذه الغزوة، وقد ذهب البخاري [(٢)] إلى أنها كانت بعد خيبر، وذهب ابن إسحاق [(٣)] إلى أنها بعد غزوة بني النضير، وقيل بعد الخندق سنة أربع، وعند الواقدي [(٤)]، وابن سعد [(٥)] أنها كانت في المحرم سنة خمس.

وقد ذكر البوطي أن تاريخ الغزوة كان في السنة الرابعة للهجرة بعد مرور شهر ونصف تقريباً على إجلاء بني النضير، وقال بأن هذا الرأي ذهب إليه أكثر علماء السير والمغازي [(٦)] وإليه ذهبت.

وأما سبب الغزوة: ما ظهر من الغدر لدى كثير من قبائل نجد بالمسلمين، ذلك الغدر الذي تجلى في مقتل أولئك الدعاة السبعين الذين خرجوا يدعون إلى الله تعالى فخرج عليه الصلاة والسلام قاصداً قبائل محارب وبني ثعلبة [(٧)]، وقد ذكر الدكتور محمد أبو فارس أن قادماً قدم المدينة فأخبر المسلمين أن بني محارب وبني ثعلبة من غطفان قد جمعوا الجموع لحرب رسول الله ﷺ، فما كان منه ﷺ إلا أن سار إليهم في عقر دارهم على رأس أربعمائة مقاتل وقيل سبعمائة مقاتل، ولما وصل رسول الله ﷺ إلى ديارهم خافوا وهربوا إلى رؤوس الجبال، تاركين نساءهم وأطفالهم وأموالهم وحضرت الصلاة فخاف المسلمون أن يغيروا عليهم فصلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف وعاد رسول الله إلى المدينة [(٨)].

وقد حققت هذه الحملة العسكرية أغراضها وتمكنت من تشتيت الحشد الذي قامت به غطفان لغزو المدينة، فأرهب تلك القبائل وألقى عليها درساً بأن المسلمين ليسوا قادرين فقط

---

(١) أبو داود: كتاب الجهاد، «باب الأسير يكره على الإسلام» (٣/ ١٣٢)، قم (٢٦٨٢).
(٢) البخاري: كتاب المغازي، باب «غزوة الرقاع» (٥/ ٦٢)، رقم (٤١٢٨).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٢٥).
(٤) انظر: المغازي للواقدي (١/ ٣٩٥).
(٥) انظر: الطبقات لابن سعد (٢/ ٦١).
(٦) انظر: فقه السيرة النبوية، (ص ١٩٤).
(٧) المصدر نفسه، (ص ١٩٤، ١٩٥).
(٨) انظر: غزوة الأحزاب لأبي فارس، (ص ١٤).

على سحق من تحدثه نفسه بالاقتراب من المدينة، بل قادرين على نقل المعركة إلى أرض العدو نفسه وضربه في عقر داره (١).

وسميت بذات الرقاع لأنهم كانوا يربطون على أرجلهم من الخرق والرقاع اتقاء الحر، وقيل لأنهم رقعوا راياتهم، وقيل لشجرة كان اسمها ذات الرقاع (٢)، وقيل لأن المسلمين نزلوا في أرض كان فيها بقع بيض وسود مختلفة، فسميت لذلك (٣)، والصحيح: لأنهم كانوا يربطون على أرجلهم من الخرق.

فقد روى الشيخان بسنديهما عن أبي موسى الأشعري قال: خرجنا مع النبي ﷺ في غزوة ونحن ستة نفر بيننا بعير نتعقبه، فنقبت أقدامنا، ونقبت قدماي، وسقطت أظفاري، وكنا نُلفُّ على أرجلنا الخِرَق، فسميت غزوة ذاتِ الرقاع، لما كنا نعصب بالخرق على أرجلنا (٤).

ثانياً: صلاة الخوف، وحراسة الثغور:

١ ـ صلاة الخوف:

أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ صلاة الخوف في هذه الغزوة، وبيّن القرآن الكريم صفة الصلاة ساعة مواجهة العدو، قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢].

فقد صلى المسلمون صلاة الخوف، وصفة هذه الصلاة أن طائفة صفت معه، وطائفة في وجه العدو. فصلى بالتي معه ركعة ثم ثبت قائماً، وأتموا لأنفسهم ثم انصرفوا فصفوا وجاه العدو وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت في صلاته، ثم ثبت جالساً وأتموا لأنفسهم ثم سلم بهم (٥).

وفي رواية مسلم: فصلى بطائفةٍ ركعتين، ثم تأخروا، وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين، قال: فكانت لرسول الله ﷺ أربع ركعات، وللقوم ركعتان (٦).

---

(١) انظر: غزوة الأحزاب، محمد أحمد باشميل، (ص ٧٧، ٧٨).
(٢) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/٣٠٩).
(٣) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة، (ص ١٧٠).
(٤) صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب «غزوة ذات الرقاع» رقم (٤١٢٨).
(٥) انظر: السيرة في ضوء المصادر الأصلية، (ص ٤٢٥).
(٦) مسلم، كتاب الصلاة، باب «صلاة الخوف» رقم (٨٤٣).

قال الدكتور البوطي: ووجه التوفيق بين الحديثين أنه عليه الصلاة والسلام صلى بأصحابه صلاة الخوف أكثر من مرة فصلاها مرة على النحو الأول، وصلاها مرة أخرى على النحو التالي.

وكانت هذه الصلاة بمنطقة نخل التي تبعد عن المدينة بيومين [١]، ودلَّ تشريع صلاة الخوف على أهمية الصلاة، فحتى في قلب المعركة لا يمكن التساهل فيها، ولا يمكن التنازل عنها مهما كانت الظروف وبذلك تندمج الصلاة والعبادة بالجهاد وفق المنهاج النبوي في تربية الأمة، الذي استمد من كتاب الله تعالى، فلا يوجد أي انفصال أو انفصام بين العبادة والجهاد [٢].

٢ ـ حراسة الثغور:

عندما رجع الجيش الإسلامي من غزوة ذات الرقاع، سبوا امرأة من المشركين، فنذر زوجها ألا يرجع حتى يهريق دماً في أصحاب محمد ﷺ، فجاء ليلاً وقد جعل الرسول ﷺ رجلين على الحراسة أثناء نومهم، وهما عباد بن بشر، وعمار بن ياسر،فضرب عباداً بسهم وهو قائم يصلي فنزعه، ولم يقطع صلاته حتى رشقه بثلاثة سهام، فلم ينصرف منها حتى سلم، فأيقظ صاحبه فقال: سبحان الله هلا نبهتني، فقال: كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها، فلما تابع علي الرمي ركعت فآذنتك، وأيم الله، لولا أن أضيع ثغراً أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفذها [٣]، ومن هذه الحادثة يمكننا أن نستخلص دروساً وعِبراً منها:

أ ـ اهتمام النبي ﷺ بأمن الجنود، ويظهر ذلك في اختياره رجلين من خيار الصحابة لحراسة الجيش ليلاً.

ب ـ تقسيم الحراسة ونلاحظ أن الرجلين اللذين أنيطت بهما حراسة الجيش قد اقتسما الليل نصفين، نصفاً للراحة ونصفاً للحراسة، إذ لا بدّ من راحة جسم الجندي بعض الوقت.

جـ ـ التعلق بالقرآن الكريم وحب تلاوته؛ فقد كان حبه للتلاوة قد أنساه آلام السهام التي كانت تنغرس في جسمه وتثج الدم منه بغزارة [٤].

د ـ الشعور بمسؤولية الحراسة: فلم يقطع عباد صلاته لألم يشعر به، وإنما قطعها استشعاراً بمسؤولية الحراسة التي كلف بها، وهذا درس بليغ في مفهوم العبادة والجهاد [٥].

---

(١) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي، (ص ٢٠٧).
(٢) انظر: التربية القيادية (٢/٣٠٣، ٣٠٤).
(٣) انظر: السيرة في ضوء المصادر الأصلية، (ص ٤٢٧).
(٤) انظر: غزوة الأحزاب لأبي فارس، (ص ٣٠، ٣١).
(٥) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص ٤٢٨).

هـ ـ استراتيجية مكان الحراسة: اختار النبي ﷺ فم الشعب مكان إقامة الحرس، وكان هذا الاختيار في غاية التوفيق لأنه المكان الذي يتوقع العدو منه لمهاجمة المعسكر.

و ـ قرب مهجع الحرس من الحارس: ولذلك استطاع الحارس أن يوقظ أخاه النائم، ولو كان المهجع بعيداً عن الحارس لما تمكن من إيقاظ أخيه، وبالتالي يحدث ما لا تحمد عقباه (١).

ثالثاً: شجاعة الرسول ﷺ ومعاملته لجابر بن عبد الله:

١ ـ شجاعة الرسول ﷺ:

عندما قفل رسول الله ﷺ من غزوة ذات الرقاع أدركته القافلة في واد كثير العضاة، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون الشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرة علق بها سيفه، قال جابر بن عبد الله: (فنمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، فجئناه فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله ﷺ: «إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتا، فقال لي: من يمنعك مني؟ فقلت له: «الله» فها هو ذا جالس.. لم يعاقبه رسول الله واسم الأعرابي: غورث بن الحارث) (٢).

وقد عاهد غورث رسول الله ﷺ أن لا يقاتله ولا يكون مع قوم يقاتلونه، فخلى سبيله فجاء إلى أصحابه فقال: (جئتكم من عند خير الناس) (٣).

وفي هذه القصة دليل على نبوة محمد ﷺ وفرط شجاعته، وقوة يقينه وصبره على الأذى وحلمه على الجهال، وفيها جواز تفرق العسكر في النزول ونومهم إذا لم يكن هناك ما يخافون منه (٤).

إن هذه القصة ثابتة وصحيحة، وهي تكشف عن مدى رعاية الباري وحفظه لنبيه ﷺ، ثم هي تزيدك يقيناً بالخوارق التي أخضعها الله ﷻ له ﷺ، مما يزيدك تبصراً ويقيناً بشخصيته النبوية، فقد كان من السهل الطبيعي بالنسبة لذلك المشرك وقد أخذ السيف ورفعه فوق النبي ﷺ وهو أعزل غارق في غفلة النوم أن يهوي به عليه فيقتله، وإنك لتلمس من ذلك المشرك هذا الاعتزاز بنفسه والزهو بالفرصة الذهبية التي مكّنته من رسول الله ﷺ في قوله: من يمنعك مني؟ فما الذي طرأ بعد ذلك حتى عاقه عن القتل؟ (٥).

---

(١) انظر: غزوة الأحزاب لأبي فارس، (ص ٣٢).
(٢) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٤٢٦).
(٣) المصدر نفسه، (ص ٤٢٧).
(٤) انظر: فتح الباري ١٥/٣١٧، نقلاً عن السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص ٤٢٧).
(٥) انظر: فقه السيرة للبوطي، (ص ٢٠٠).

ليس لهذا تفسير إلا العناية الإلهية، والإعجاز الإلهي الذي يتخطى العادات والسنن ويتجاوز قوى الناس لنصرة نبيه، والذود عن دعوته [١]، فقد كانت العناية الإلهية كافية لأن تملأ قلب المشرك بالرعب وأن تقذف في ساعديه تياراً من الرجفة، فيسقط من يده السيف ثم يجلس متأدباً مطرقاً بين يدي رسول الله ﷺ، وما حدث مصداقاً لقوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المَائدة: ٦٧].

فليست العصمة المقصودة في الآية أن لا يتعرض الرسول ﷺ لأذى أو محنة من قومه، إذ تلك هي سنّة الله في عباده، كما قد علمت، وإنما المراد من العصمة أن لا تطول إليه أي يد تحاول اغتياله وقتله لتُغتال فيه الدعوة الإسلامية التي بُعث لتبليغها [٢].

٢ ـ معاملته ﷺ لجابر بن عبد الله:

قال جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ: خرجت مع رسول الله ﷺ إلى غزوة ذات الرقاع من نخل على جمل لي ضعيف، فلما قفل رسول الله ﷺ قال: جعلت الرفاق تمضي، وجعلت أتخلف حتى أدركني رسول الله ﷺ فقال: «مالك يا جابر؟» قال: قلت: يا رسول الله أبطأني جملي هذا، قال: «أنخه» فأنخته، وأناخ رسول الله ﷺ ثم قال: «أعطني هذه العصا من يدك، أو اقطع لي عصاً من شجرة» قال: ففعلت. قال: فأخذها رسول الله ﷺ فنخسه بها نخسات، ثم قال: «اركب»، فركبت فخرج ـ والذي بعثه بالحق ـ يواهق ناقته مواهقة (أي يسابقها ويعارضها في المشي لسرعته).

في هذه القصة صورة جميلة ورفيعة لخلق رسول الله ﷺ مع أصحابه من حيث لطف الحديث، والتواضع الرفيع، ورقة الحديث وفكاهة المحاورة ومحبة شديدة لأصحابه، والوقوف على أحوالهم والمواساة في مشكلاتهم الاجتماعية مادياً ومعنوياً، فقد شعر الرسول ﷺ أن سبب تأخر جابر عن الركب هو ضعف جمله الذي لا يملك غيره لبؤس حاله، حيث إن والده مات شهيداً في أُحد وترك له مجموعة من البنات والأولاد ليرعاهم، وهو مقل في الرزق.

المبحث الخامس

غزوة بدر الموعد، ودومة الجندل

أولاً: غزوة بدر الموعد:

تنفيذاً للموعد الذي كان أبو سفيان قد اقترحه في أعقاب معركة أُحد، والتزام الرسول ﷺ

---

(١) انظر: دروس وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة، (ص ١٧٨).
(٢) انظر: فقه السيرة للبوطي، (ص ٢٠٠).

بذلك، فقد خرج النبي ﷺ من المدينة على رأس جيش من أصحابه قوامه ألف وخمسمائة مقاتل بينهم عشرة من الخيالة، وذلك في ذي القعدة سنة ٤ هـ، وحمل لواء الجيش علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فوصلوا بدراً فأقاموا فيها ثمانية أيام بانتظار وصول قوات المشركين من قريش بقيادة أبي سفيان بحسب الموعد بين الطرفين، غير أن أحداً من المشركين لم يصل إلى بدر، وكان أبو سفيان قد جمع قوات قريش وحلفائها التي تألفت من ألفي مقاتل معهم خمسون فرساً، فلما وصلوا إلى مر الظهران نزلوا على مياه مجنة على بعد أربعين ميلاً من مكة، ثم عاد بهم أبو سفيان إلى مكة (١) بعد أن خطب فيهم وقال: يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جدب وإني راجع فارجعوا (٢)، وأقبل مخشي بن عمرو الضمري وهو الذي وادع رسول الله ﷺ على بني ضمرة في غزوة ودّان، فالتقى برسول الله ﷺ في بدر وقال: يا محمد أجئت للقاء قريش على هذا الماء؟ قال: «نعم، يا أخا بني ضمرة، وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك، ثم جالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك»، قال: لا والله يا محمد مالنا بذلك منك من حاجة (٣).

ففي هذا اللقاء أكد رسول الله ﷺ على معنى كبير في إظهار قوة المسلمين، وأن العقد الذي كان بين الفريقين يستمر بعامل قوة المسلمين لا بعامل ضعفهم وبناء على طلب الطرف الثاني، وفي هذا ما فيه من القوة للمسلمين وإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم (٤)، لقد كانت تحركات الجيش الإسلامي من المدينة حتى بدر مناورة رائعة ناجحة أثبت وجوده وأعطى الدليل القاطع لأعداء الإسلام داخل المدينة وخارجها، أنه أصبح أقوى قوة مرهوبة في الجزيرة العربية، من حيث كثرة العدد وقوة التنظيم وجودة التسلح، قد هاب الجيش الإسلامي ونكل عن حربه بعد أن خرج للقائه بموجب ميعاد سابق حدده (في أُحد) قائد عام جيش مكة (٥).

إن الحملة الإعلامية التي قام بها المشركون لإثبات انتصارهم في أُحد وتفوقهم الحربي قد انتكست على رؤوسهم، وأصبحوا مثار السخرية عند العرب، وثبت للناس أن ارتباك المسلمين للمفاجأة في أحد وسقوط القتلى منهم لا يعني انهزامهم ولا ضعفهم العسكري (٦) فقد ساهمت هذه الغزوة في المحافظة على السمعة العسكرية للمسلمين (٧)، وكسبوا انتصاراً معنوياً عظيماً على أعدائهم بدون قتال، وشاركوا في الموسم التجاري ببدر وربحوا في

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/٣١٨، ٣١٩).
(٢) انظر: غزوة الأحزاب، محمد أحمد باشميل، (ص ٨٨).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٣٢).
(٤) انظر: معين السيرة للشامي، (ص ٢٦٤، ٢٦٥).
(٥) انظر: غزوة الأحزاب، باشميل، (ص ٨٨، ٨٩).
(٦) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ٦٦).
(٧) انظر: التربية القيادية (٣/ ٤٦٣).

تجارتهم ربحاً طيباً [(١)].

لقد كان لإخلاف قريش الموعد أثر في تقوية مكانة المسلمين وإعادة هيبتهم [(٢)].

ثانياً: دومة الجندل:

كانت غزوة دومة الجندل من ضمن حركة تثبيت أركان الدولة الإسلامية، فبعد غزوة بدر الموعد تحركت القوات الإسلامية بقيادة رسول الله ﷺ نحو قضاعة التي كانت تنزل شمال قبائل أسد وغطفان، وفي حدود الغساسنة الموالين للدولة الرومية (بيزنطة) ولها إشراف على سوق (دومة الجندل) الشهير (على بعد ٤٥٠ كيلومتراً شمال المدينة) كانت هذه القبيلة أول من احتك بها المسلمون فغزاها رسول الله تلك الغزوة المعروفة بغزوة دومة الجندل (ربيع الأول ٥ هـ - أغسطس ٦٢٦ م) [(٣)] فقد وصلت الأنباء إلى المدينة بتجمع بعض القبائل عند دومة الجندل للإغارة على القوافل التي تمر بهم، والتعرض لمن في القافلة بالأذى والظلم، كما وردت الأنباء بأنهم يفكرون في القرب من المدينة لعجم عودها [(٤)].

إن دومة الجندل تعتبر بلاداً نائية بالنسبة للمدينة المنورة، لأنها تقع على الحدود بين الحجاز والشام، وفي منتصف الطريق بين البحر الأحمر والخليج العربي، وهي على مسير ست عشرة ليلة من المدينة، ولو أن المسلمين أغفلوا أمرها وسكتوا على وجود هذا التجمع فيها ما لامهم أحد ولا ضرهم هذا التجمع في شيء على المدى القريب، ولكن النظرة السياسية البعيدة والعقلية والعسكرية الفذة أوجبت على المسلمين أن يتحركوا لفض هذا التجمع [(٥)] والقضاء عليه قبل أن يستفحل شأنه للأسباب الآتية، وكذلك بغية تحقيق بعض الأهداف:

١ - لأن السكوت على هذا التجمع وما شاكله يؤدي بلا شك إلى تطوره واستفحاله، ثم يؤدي بعد ذلك إلى إضعاف قوة المسلمين وإسقاط هيبتهم، وهو الأمر الذي يجاهدون من أجل استرداده.

٢ - وجود مثل هذا التجمع في الطريق إلى الشام قد يؤثر على الوضع الاقتصادي للمسلمين، فلو أن المسلمين سكتوا على هذا التجمع لتعرضت قوافلهم أو قوافل القبائل التي تحتمي بهم للسلب والنهب، مما يضعف الاقتصاد ويؤدي إلى حالة من التذمر والاضطراب.

٣ - وهناك أمر أهم من الأمرين السابقين وهو فرض نفوذ المسلمين على هذه المنطقة كلها،

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ٦٧).
(٢) انظر: المجتمع المدني في عهد النبوة للعمري، (ص ٩١).
(٣) انظر: دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة للشجاع، (ص ١٤٤).
(٤) انظر: تأملات في سيرة الرسول لمحمد الوكيل، (ص ١٦٩).
(٥) انظر: تأملات في سيرة الرسول، (ص ١٦٩).

وإشعار سكانها بأنهم في حمايتهم وتحت مسؤوليتهم، لذلك فهم يؤمنون لهم الطرق، ويحمون لهم تجارتهم ويحاربون كل إرهاب من شأنه أن يزعجهم أو يعرضهم للخطر [١].

٤ ـ حرمان قريش من أي حليف تجاري قد يمدها بما تحتاج من التجارة، وصرف أنظارهم عن هذه المنطقة التجارية المهمة، لأن ظهور الدولة الإسلامية بهذه القوة يؤثر على نفسية قريش العدو الأول للدولة الإسلامية، ويجعلها تخشى المسلمين على تجارتها [٢].

٥ ـ الحرص على إزالة الرهبة النفسية عند العرب الذين كانوا يحلمون بمواجهة الروم، والتأكيد عملياً للمسلمين بأن رسالتهم عالمية [٣] وليست مقصورة على العرب. ورأى بعض المؤرخين كالذهبي، والواقدي، ومحمد أحمد باشميل، وغيرهم أن من أهداف تلك الغزوة إرهاب الروم الذين تقع المنطقة التي وصل إليها ﷺ بجيشه على حدودهم وعلى مسافة خمس ليال من عاصمة ملكهم الثانية دمشق [٤].

لهذا ندب رسول الله ﷺ المسلمين للخروج وخرج في ألف من أصحابه، وكان يسير الليل، ويكمن بالنهار حتى يخفى مسيره [٥]، ولا تشيع أخباره وتنقل أسراره، وتعقبه عيون الأعداء [٦].

واتخذ له دليلاً من بني عذرة يسمى مذكور، وسار حتى دنا من القوم، عندئذٍ تفرقوا ولم يلق رسول الله ﷺ منهم أحداً فقد ولوا مدبرين، وتركوا نعمهم وماشيتهم غنيمة باردة للمسلمين، وأسر المسلمون رجلاً منهم، وأحضروه إلى الرسول فسأله عنهم فقال: هربوا لما سمعوا بأنك أخذت نعمهم، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام فأسلم وأقام بساحتهم أياماً، وبعث البعوث وبث السرايا، وفرق الجيوش فلم يصب منهم أحد، وعاد المسلمون إلى المدينة، وفي أثناء عودتهم وادع الرسول عيينة بن حصن الفزاري واستأذن عيينة رسول الله في أن ترعى إبله وغنمه في أرض قريبة من المدينة على ستة وثلاثين ميلاً منها.

إن وصول جيوش المسلمين إلى دومة الجندل وهي على هذه المسافة البعيدة من المدينة وموادعة عيينة بن حصن للمسلمين، واستئذانه في أن يرعى بإبله وغنمه في أرض بينها وبين المدينة ستة وثلاثون ميلاً ـ أي ما يقرب من خمسة وستين كيلومتراً ـ لدليل قاطع على ما وصلت

---

(١) انظر: تأملات في سيرة الرسول، (ص ١٦٩).
(٢) انظر: دراسات في عهد النبوة للشجاع، (ص ١٤٤، ١٤٥).
(٣) انظر: دراسات في عهد النبوة، (ص ١٤٤).
(٤) انظر: غزوة الأحزاب، باشميل، (ص ٩٣)، تاريخ المغازي للذهبي، (ص ٢٥٨).
(٥) انظر: تأملات في سيرة الرسول، (ص ١٧٠).
(٦) انظر: غزوة الأحزاب لأبي فارس (ص ٤٠).

إليه قوة المسلمين وعلى شعورهم بالمسؤولية الكاملة تجاه تأمين الحياة للناس في هذه المنطقة، وأن هذه المناطق النائية كانت ضمن الدولة الإسلامية، وأن الدولة أصبحت منيعة ليس في مقدور أحد أن يعتدي عليها، ولو كان ذلك في استطاعة أحد لكان هو عيينة بن حصن الذي كان يغضب لغضبه عشرة آلاف فتى [(١)].

كانت غزوة دومة الجندل بعيدة عن المدينة من جهة الشام، إذ بينها وبين دمشق ما لا يزيد على خمس ليال، وقد كانت بمثابة إعلان عن دعوة الإسلام بين سكان البوادي الشمالية وأطراف الشام الجنوبية، وأحسوا بقوة الإسلام وسطوته، كما كانت لقيصر وجنده، كما أن سير الجيش الإسلامي هذه المسافات الطويلة قد كان فيه تدريب له على السير إلى الجهات النائية، وفي أرض لم يعهدوها من قبل، ولذلك تعتبر هذه الغزوة فاتحة سير الجيوش الإسلامية للفتوحات العظيمة في بلاد آسيا وإفريقية فيما بعد [(٢)].

كانت خطة الرسول ﷺ في هذه الغزوة ترمي إلى أهداف عديدة، فهي غزوة وحرب استطلاعية تمسح الجزيرة العربية، وتتعرف على مراكز القوى فيها، وهي حرب إعلامية تأتي على أعقاب بدر الموعد، وتستثمر انتصاراتها، وهي حرب عسكرية تريد أن تصد هجوماً محتملاً على المسلمين حيث ضوى إليها قوم من العرب كثير يريدون أن يدنوا من المدينة، وهي حرب سياسية تريد أن تجهض من تحركات القبائل المحتمل أن تتحرك بعد أنباء غزوة أحد لتقصد المدينة وتستبيحها [(٣)].

كانت هذه الغزوة دورة تربوية رائعة وقاسية وشاملة يقودها رسول الله ﷺ وبين يديه ألف من أصحابه، فيتلقون فيها كل لحظة دروساً في الطاعة والانضباط، ودروساً في التدريب الجسمي والعسكري والتحمل لمشاق الحياة وصعوباتها، وأحكاماً وفقهاً في الحلال والحرام، وعمليات صهر وتذويب لقواعد الجيش الإسلامي في بوتقة واحدة خارج إطار العشيرة وخارج كيان القبيلة، حيث أخذت تفد إلى المدينة عناصر كثيرة من أبناء القبائل المجاورة، والتخلي عن الأطر القبلية وعصاباتها للانصهار في بوتقة الأمة الواحدة التي تجعل الولاء لله ورسوله، وفوق هذا كله تتيح الفرصة لجيل بدر الرائد أن يقوم بمهمة التربية للوافدين الجدد وتعليمهم وتثقيفهم، كما تتيح الفرصة لكشف ضعاف النفوس، ومن له صلة بمعسكر النفاق من خلال مراقبة تصرفاته وسلوكه. إنها ليست ساعات محدودة وأياماً معدودة بل هي دورة قرابة شهر، لا يمكن إلا أن تبرز فيها كل الطبائع وكل النوازع فيتلقاها عليه الصلاة والسلام ليصوغها على ضوء الإسلام ويعلم الجيل الرائد فن القيادة وعظمة السياسة.

---

(١) انظر: تأملات في سيرة الرسول، (ص ١٧٠).
(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة، (ص ٢٥١، ٢٥٢).
(٣) انظر: التربية القيادية (٣/ ٣٧٢).

كانت معركة صامتة، وتربية هادئة، وكان الجيش مع قائده يقطع ما ينوف عن ألف ميل في هذه الصحراء يتربى ويتثقف ويتدرب، ويمتحن ويقوّم، ليكون هذا استعداداً لمعارك قادمة [١]، وفي غيابه في غزوة دومة الجندل عيّن ﷺ سباع بن عرفطة الغفاري والياً على المدينة في تجربة جديدة، فهو ليس أوسياً ولا خزرجياً ولا قرشياً، بل من غفار التي كانت تعتبر من سراق الحجيج عند العرب، فلا بدّ لهذا الجيل أن يتربّى على الطاعة والانضباط للأمير أيّاً كان شأن هذا الأمير، وهذا يدل على عظمة المنهج النبوي في تربية الأمة والارتقاء بها، وعلى عظمة قيادة النبي وفراسته في أتباعه وثقته فيهم ومعرفته لمواهبهم، فهو ﷺ على معرفة بكفاءة سباع بن عرفطة الغفاري وعبقريته وقدرته على الإدارة الحازمة، فكان ﷺ يربي أصحابه وهو غائب عن المدينة، لكي يهيمن منهج رب العالمين على المسلمين، ويصنع منها أمة واحدة تسمع وتطيع لكتاب ربها وسنة نبيها [٢].

المبحث السادس

غزوة بني المصطلق

أولاً: من هم بنو المصطلق ومتى وقعت الغزوة وأسبابها؟

١ ـ بنو المصطلق:

هم بطن [٣] من خزاعة، والمصطلق [٤] جدهم، وهو جذيمة بن سعد بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر ماء السماء [٥].

٢ ـ تاريخ الغزوة:

اختلف العلماء في ذلك؛ ذهبت طائفة إلى أنها كانت في شعبان من السنة الخامسة، ومن هؤلاء العلماء موسى بن عقبة، وابن سعد، وابن قتيبة، والبلاذري، والذهبي، وابن القيم، وابن حجر العسقلاني، وابن كثير رحمهم الله، ومن المحدثين الخضري بك، والغزالي، والبوطي.

وكانت وفاة سعد بن معاذ في أعقاب غزوة بني قريظة، وغزوة بني قريظة كانت في ذي القعدة من السنة الخامسة على القول الراجح، فيتعين أن تكون غزوة بني المصطلق قبلها [٦].

---

(١) انظر: التربية القيادية (٣/ ٣٧٣).
(٢) المصدر نفسه، (٣/ ٣٧٤).
(٣) فرع.
(٤) المُصطلق: بضم الميم وسكون الصاد وفتح الطاء المهملتين وكسر اللام.
(٥) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول(١/ ٣١١).
(٦) من أراد مزيداً من التفصيل فليرجع إلى مرويات غزوة بني المصطلق، (ص ٩٧).

٣ ـ أسباب هذه الغزوة:

من أهم الأسباب لهذه الغزوة:

أ ـ تأييد هذه القبيلة لقريش واشتراكها معها في معركة أحد ضد المسلمين، ضمن كتلة الأحابيش التي اشتركت في المعركة تأييداً لقريش.

ب ـ سيطرة هذه القبيلة على الخط الرئيسي المؤدي إلى مكة، فكانت حاجزاً منيعاً من نفوذ المسلمين إلى مكة [(١)].

جـ ـ أن الرسول ﷺ بلغه أن بني المصطلق يجمعون له، وكان قائدهم الحارث بن أبي ضرار ينظم جموعهم، فلما سمع بهم خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له: المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل فهزمهم شر هزيمة [(٢)].

٤ ـ أحداث غزوة بني المصطلق:

عندما شعر رسول الله ﷺ بحركة بني المصطلق المريبة أرسل بريدة بن الحصيب الأسلمي للتأكد من نيتهم، وأظهر لهم بريدة أنه جاء لعونهم فتأكد من قصدهم فأخبر الرسول ﷺ بذلك.

وفي يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر شعبان من السنة الخامسة للهجرة خرج الرسول ﷺ من المدينة، في سبعمائة مقاتل [(٣)]، وثلاثين فارساً [(٤)]، متوجهاً إلى بني المصطلق، ولما كان بنو المصطلق ممن بلغتهم دعوة الإسلام، واشتركوا مع الكفار في غزوة أحد، وكانوا يجمعون الجموع لحرب المسلمين، فقد روى البخاري [(٥)] ومسلم [(٦)] «أغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق وهم غارُّون ـ أي غافلون ـ وأنعامهم تُسقى على الماء، فقتل مقَاتِلتهم، وسبى سبيَهُم وأصاب يومئذٍ (قال يحيى: أحسبه قال: جويرية (أو قال: البتّة) ابنة الحارث [(٧)].

ثانياً: زواج رسول الله ﷺ من جويرية بنت الحارث رضي الله عنها:

قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق وكان من بين الأسرى جويرية بنت الحارث وكانت بركة على قومها، ولنسمع قصتها من السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ حيث قالت: «لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في سهم لثابت بن قيس بن

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية للعلي، (ص ٣٣٢).

(٢) حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٣١٥).

(٣) انظر: تاريخ الإسلام، المغازي للذهبي، (ص ٢٥٩).

(٤) انظر: الواقدي (١/ ٤٥٠).

(٥) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص ٤٣٣).

(٦) مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب «جواز الإغارة على الكفار، (٣/ ١٣٥٦)، رقم (١٧٣٠).

(٧) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٤٣٣).

شماس، أو لابن عم له، فكاتبته على نفسها وكانت امرأة حلوة ملحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ لتستعينه في كتابتها.

قالت: فوالله ما هو أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها، وعرفت أنه سيرى منها ما رأيت، فدخلت عليه فقالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن شماس أو لابن عم له فكاتبته على نفسي فجئتك أستعينك على كتابتي.

قال: «فهل لك في خير من ذلك»

قالت: وما هو يا رسول الله؟

قال: «أقض عنك كتابك وأتزوجك»

قالت: نعم يا رسول الله قد فعلت.

قالت: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوّج جويرية بنت الحارث.

فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ فأرسلوا ما بأيديهم.

قالت: فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها (١).

وجاء الحارث بن أبي ضرار ـ بعد الوقعة ـ بفداء ابنته إلى المدينة فدعاه النبي ﷺ إلى الإسلام فأسلم (٢).

تعتبر غزوة بني المريسيع من الغزوات الفريدة المباركة التي أسلمت عقبها قبيلة بأسرها. وكان الحدث الذي أسلمت القبيلة من أجله هو أن الصحابة حرروا وردوا الأسرى الذين أصابوهم إلى ذويهم بعد أن تملكوهم باليمين في قسم الغنائم، واستكثروا على أنفسهم أن يتملكوا أصهار نبيهم عليه الصلاة والسلام، وحيال هذا العتق الجماعي وإزاء هذه الأريحة الفذة دخلت القبيلة كلها في دين الله.

إن مرد هذا الحدث التاريخي وسببه البعيد هو حب الصحابة للنبي ﷺ وتكريمهم إياه وإكبارهم شخصه العظيم، وكذلك يؤتى الحب النبوي هذه الثمار الطيبة، ويصنع هذه المآثر الفريدة في التاريخ.

لقد كان زواج رسول الله ﷺ من جويرية بنت الحارث له أبعاده، وتحققت تلك الأبعاد بإسلام قومها، فقد كان الزواج منها من أهدافه الطمع في إسلام قومها، وبذلك يكثر سواد

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٦٠، ١٦١).
(٢) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٣١٧).

المسلمين، ويعز الإسلام وهذه مصلحة إسلامية بعيدة يسر الله هذا الزواج وباركه، وحقق الأمل البعيد المنشود من ورائه فأسلمت القبيلة كلها بإسلام جويرية، وإسلام أبيها الحارث فقد عاد هذا الزواج على المسلمين بالبركة والقوة، والدعم المادي والأدبي معاً للإسلام والمسلمين [١].

أصبحت جويرية بنت الحارث زوجة لسيد المرسلين وأماً للمؤمنين، فكانت ـ رضي الله عنها ـ عالمة بما تسمع، وعاملة بما تعلم، فقيهة عابدة، تقية ورعة، نقية الفؤاد، مضيئة العقل، مشرقة الروح، تحب الله ورسوله وتحب الخير للمسلمين.

وكانت ـ رضي الله عنها ـ تروي من حديث رسول الله، ناقلة لحقائق الدين من خزائنها عند من تنزلت عليه ﷺ، يرويه عنها سدنة العلم من علماء الصحابة رضي الله عنهم، لينشروه في المجتمع المسلم علماً وعملاً، وفي عامة المجتمع الإنساني دعوة وهداية [٢]، فقد حدث عنها ابن عباس، وعبيد بن السباق، وكريب مولى ابن عباس ومجاهد، وأبو أيوب يحيى بن مالك الأزدي بلغ مسندها في كتاب بقي بن مخلد سبعة أحاديث [٣]، منها أربعة في الكتب الستة، عند البخاري حديث، وعن مسلم حديثان، وقد تضمنت مروياتها أحاديث في الصوم في عدم تخصيص يوم الجمعة بالصوم، وحديث في الدعوات في ثواب التسبيح وفي الزكاة في إباحة الهدية للنبي وإن كان المهدي ملكها بطريق الصدقة، كما روت في العتق، وبسبعة أحاديث شريفة خلدت أم المؤمنين جويرية بنت الحارث ـ رضي الله عنها ـ اسمها في عالم الرواية، لتضيف إلى شرف صحبتها للنبي ﷺ وأمومتها للمسلمين، تبليغها الأمة سنن المصطفى ﷺ ما تيسر لها ذلك [٤].

وكانت أم المؤمنين جويرية بنت الحارث ـ رضي الله عنها ـ من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات، القانتات الصابرات في مجال مناجاة الله تعالى وتحميده وتقديسه وتسبيحه [٥]، فهذه أم المؤمنين جويرية تحدثنا عن ذلك فتقول: إن النبي ﷺ خرج من عندها بكرةً حين صلى الصبح وهي في مسجدها [٦] ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة. فقال: «ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟» قالت: نعم. قال النبي ﷺ: «لقد قلت بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات، لو وُزِنَت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته» [٧].

---

(١) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة، (ص ١٩٩، ٢٠٠).
(٢) انظر: محمد رسول الله، محمد صادق عرجون (٤/ ٢٥٠).
(٣) انظر: دور المرأة في خدمة الحديث، آمال قرداش، (ص ٨٨).
(٤) المصدر نفسه، (ص ٨٨، ٨٩).
(٥) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٤/ ٢٥٠).
(٦) مسجدها: المكان الذي تصلي فيه في بيتها.
(٧) مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب التسبيح أول النهار، رقم (٢٧٢٦).

وقد توفيت ﷺ سنة خمسين، وقيل ست وخمسين [١].

ثالثاً: محاولة المنافقين في هذه الغزوة إثارة الفتنة بين المهاجرين والأنصار:

خرج في غزوة بني المصطلق عدد كبير من المنافقين مع المسلمين وكان يغلب عليهم التخلف في الغزوات السابقة، لكنهم لما رأوا اطراد النصر للمسلمين خرجوا طمعاً في الغنيمة [٢].

وعند ماء المريسيع كشف المنافقون عن الحقد الذي يضمرونه للإسلام والمسلمين، فكلما كسب الإسلام نصراً جديداً ازدادوا غيظاً على غيظهم، وقلوبهم تتطلع إلى اليوم الذي يهزم فيه المسلمون لتشفى من الغل، فلما انتصر المسلمون في المريسيع سعى المنافقون إلى إثارة العصبية بين المهاجرين والأنصار، فلما أخفقت المحاولة سعوا إلى إيذاء الرسول ﷺ في نفسه وأهل بيته، فشنوا حرباً نفسية مريرة من خلال حادثة الإفك التي اختلقوها، ولنترك الصحابي زيد بن أرقم وهو شاهد عيان ومشارك في الحادث الأول يحكي خبر ذلك [٣] قال: (كنت في غزاة [٤] فسمعت عبد الله بن أبي يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا من عنده ليخرجن الأعز منها الأذل، فذكرت ذلك لعمي [٥]، فذكره للنبي ﷺ فدعاني، فحدّثته، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فكذّبني رسول الله ﷺ وصدقه، فأصابني هم لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمي: ما أردت إلى أن كذّبك رسول الله ﷺ ومقتك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] فبعث إلى رسول الله ﷺ فقرأ، فقال: «إن الله قد صدقك يا زيد» [٦].

ويحكي شاهد عيان آخر هو جابر بن عبد الله الأنصاري ما حدث عند ماء المريسيع، وأدى إلى كلام المنافقين لإثارة العصبية وتمزيق وحدة المسلمين، قال: (كنا في غزاة فكسع [٧] رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال الأنصاري: يا للأنصار. وقال المهاجري: يا للمهاجرين. فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «ما بال دعوى الجاهلية؟»

قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال: «دعوها فإنها

---

(١) انظر: الطبقات لابن سعد (٨/ ١٢١)، خليفة بن خياط تاريخه، (ص ٢٣٤).
(٢) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٣١٨).
(٣) انظر: السيرة الصحيحة للعمري (٢/ ٤٠٨).
(٤) غزاة: صرحت الروايات الأخرى بأنها بني المصطلق.
(٥) يريد بعمه سعد بن عبادة وهو رأس الخزرج وليس عمه حقيقة.
(٦) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٠٨).
(٧) كسع: ضربه برجله.

منتنة». فسمع بذلك عبد الله بن أبي فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فبلغ النبي ﷺ فقام عمر فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال النبي ﷺ: «دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه» (١).

وفي رواية قال عمر بن الخطاب: مُر به عباد بن بشر فليقتله، فقال له رسول الله ﷺ: «فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه! لا، ولكن أذن بالرحيل» وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها فارتحل الناس (٢).

وقد مشى عبد الله بن أُبي ابن سلول إلى رسول الله حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمعه منه، فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به، فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه.

فلما سار رسول الله ﷺ لقيه أسيد بن حضير فحياه بتحية النبوة وسلّم عليه ثم قال: يا نبي الله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها، فقال له رسول الله ﷺ: «أوبلغك ما قال صاحبكم؟»

قال: وأي صاحب يا رسول الله؟

قال: «عبد الله بن أبيّ؟»

قال: وما قال؟

قال: «زعم إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل».

قال: فأنت يا رسول الله تخرجه منها إن شئت هو الذليل وأنت العزيز.

ثم قال: يا رسول الله، أرفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه فإنه يرى أنك استلبت ملكه.

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً.

وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس، من حديث عبد الله بن أبي، ونزلت السورة التي ذكر فيها المنافقون في ابن أبيّ ومن كان على مثل أمره، فلما نزلت أخذ رسول الله بأُذن زيد بن أرقم ثم قال: «هذا الذي أوفى الله بأذنه» (٣).

إن هذه الحادثة من السيرة النبوية العطرة مليئة بالدروس والعِبر فمن أهم تلك الدروس:

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/٤٠٩).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٣١٩).

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٣١٩، ٣٢٠).

١ ـ الحفاظ على السمعة السياسية ووحدة الصف الداخلية:

وهذا الدرس يظهر في قوله ﷺ: «فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه» (١).

إنها المحافظة التامة على السمعة السياسية، والفرق كبير جداً بين أن يتحدث الناس عن حب أصحاب محمد محمداً، ويؤكدون على ذلك بلسان قائدهم الأكبر أبي سفيان: ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمدا محمداً (٢). وبين أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه، ولا شك أن وراء ذلك محاولات ضخمة ستتم في محاولة الدخول إلى الصف الداخلي في المدينة من العدو، بينما هم يائسون الآن من قدرتهم على شيء أمام ذلك الحب وتلك التضحيات (٣).

ولم يقف النبي ﷺ موقفاً سلبياً حيال تلك المؤامرة التي تزعمها ابن سلول لتصديع الصف المسلم، وإحياء نعرات الجاهلية في وسطه، بل اتخذ إزاءها الخطوات الإيجابية التالية:

أ - سار الرسول ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم الثاني حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً (٤).

وبهذا التصرف البالغ الغاية في السياسة الرشيدة قضى على الفتنة قضاءً مبرماً، ولم يدع مجالاً للحديث فيما قال ابن أُبيّ.

ب - لم يواجه النبي ﷺ ابن سلول ومؤامراته المدبّرة بالقوة واستعمال السلاح، حرصاً على وحدة الصف المسلم، وذلك لأن لابن أبيّ أتباعاً وشيعة مسلمين مغرورين، ولو فتك به لأرعدت له أنوف، وغضب له رجال متحمسون له، وقد يدفعهم تحمسهم له إلى تقطيع الوحدة المسلمة، وليس في ذلك أي مصلحة للمسلمين ولا للإسلام، وإنها لسياسة شرعية حكيمة رشيدة في معالجة المواقف العصيبة في حزم وقوة أعصاب وبعد نظر (٥)، وهذه البراعة في الحكمة والسياسة وتدبير الأمور متفرعة عن كونه ﷺ نبياً ورسولاً إلى الناس (٦)، لكي تقتدي به الأمة في تصرفاته العظيمة.

ولقد كان لتسامح الرسول مع رأس المنافقين أبعد الآثار فيما بعد، فقد كان ابن أُبيّ ابن

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٠٩).
(٢) انظر: التربية القيادية (٣/ ٤٦٣).
(٣) انظر: التربية القيادية (٣/ ٤٦٣).
(٤) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٢٥٥).
(٥) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة، (ص ٢٠٢).
(٦) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي، (ص ٤٠٩).

سلول كلما أحدث حدثاً كان قومه هم الذين يعاتبونه، ويأخذونه، ويعنفونه، ويعرضون قتله على النبي ﷺ، والرسول يأبى ويصفح، فأراد رسول الله أن يكشف لسيف الحق عن آثار سياسته الحكيمة فقال: «كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي لأرعدت له أنوف لو أمرتها اليوم لقتلته!!» فقال عمر: قد ـ والله ـ علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري (١).

٢ ـ بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا:

كان لابن أُبي ابن سلول ولد مؤمن مخلص يسمى عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول، فلما علم بالأحداث ونزول السورة أتى رسول الله فقال له: يا رسول الله! بلغني أنك تريد قتل أبي ابن سلول فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج، ما كان بها من رجل أبر بوالده مني، وإني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي بين الناس، فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر، فأدخل النار، فقال رسول الله: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا» (٢).

ولما وصل المسلمون مشارف المدينة تصدى عبد الله لأبيه عبد الله بن أبي، وقال له: قف، فوالله لا تدخلها حتى يأذن رسول الله ﷺ في ذلك، فلما جاء رسول الله ﷺ استأذنه في ذلك فأذن له (٣).

٣ ـ مثل أعلى في الإيمان:

جسَّده عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول في موقفه من والده، وتقديمه وإخلاصه للّه ولرسوله، وتقديم محبتهما ومراضيهما على محبة ومراضي الأبوة (٤)، لقد ضرب الابن أروع مثل في الإيمان التضحية بعاطفة الأبوة، فقابله ﷺ صاحب القلب الكبير والخلق العظيم بمثل رفيع في العفو والرحمة وحسن الصحبة (بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا) يا لروعة العفو، ويا لجلال العظمة النبوية (٥)، فقد تلطف النبي ﷺ بهذا الصحابي الجليل وهدأ من روعه، وأذهب هواجسه (٦).

٤ ـ محاربة العصبية الجاهلية:

إن العصبية الممقوتة والتي نصفها بالجاهلية غير مقصورة على العصبية القبلية أي الاشتراك في النسب الواحد، نسب القبيلة التي ينتمون إليها، وإنما الاشتراك في معنى أو وصف معين

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٢٥٧).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٢١).
(٣) انظر: الولاء والبراء في الإسلام، (ص ٢٠٩) للقحطاني.
(٤) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٣/ ١٦٣).
(٥) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٢٥٧).
(٦) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٣/ ١٦٢).

يجعل المشتركين فيه يتعاونون ويتناصرون فيما بينهم بالحق وبالباطل، ويكون ولاؤهم فيما بينهم على أساس هذا المعنى أو الوصف المشترك، فعندما كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، قال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع النبي ﷺ فقال: «ما بال دعوى الجاهلية؟» قالوا: رجل من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار. فقال النبي ﷺ: «دعوها فإنها منتنة»[١]، ووجه الدلالة بهذا الخبر أن النبي ﷺ أنكر هذه المناداة لما تشعره من معنى العصبية، مع أن المنادي استعمل اسماً استعمله القرآن وهو (المهاجرين) و(الأنصار). فالمهاجري استنصر بالمهاجرين مع أنه هو الذي كسع، فكأنه بندائه هذا يريد عونهم لاشتراكه وإياهم بمعنى واحد وهو (المهاجرة)، وكذلك الأنصاري استنصر بالأنصار لأنه منهم ويشترك وإياهم بوصف واحد ومعنى واحد وهو مدلول كلمة (الأنصار). وكان حق الاثنين ـ إذا كان لا بدّ من الاستنصار بالغير ـ أن يكون الاستنصار بالمسلمين جميعاً. وعلى هذا فالمطلوب من الدعاة التأكيد على نبذ العصبية بجميع أنواعها سواء كانت عصبية تقوم على أساس الاشتراك بالقبيلة الواحدة، أو على أي أساس آخر، من بلد أو مذهب، أو حزب، أو عرق، أو لون، أو دم، أو جنس، وأن يكون الولاء والتناصر على أساس الاشتراك بالأخوة الإسلامية التي أقامها وأثبتها واعتبرها الله تعالى بين المسلمين بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرَات: ١٠].

وأن يكون التناصر فيما بينهم تناصراً على الحق لا على الباطل بمعنى أن ينصروا المحق وأن يكونوا معه لا مع المعتدي[٢].

لقد أوضح الرسول ﷺ أن العصبيات هي من دعاوي الجاهلية وقال: «لينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً، إن كان ظالماً فلينهه فإنه له نصر، وإن كان مظلوماً فلينصره»[٣]، فجعل التناصر في طلب الحق والإنصاف وأبطل المفهوم الجاهلي: أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً[٤].

إن مهمة الدعاة وطلاب العلم، والعلماء والفقهاء في التخلص من العصبية، ودعوة المسلمين إلى نبذها، كما أمر بذلك رسول الله ﷺ مهمة صعبة، ولكنها ليست مستحيلة، ولأهميتها الكبيرة علينا أن نبذل ما في وسعنا لقلعها من النفوس[٥].

رابعاً: توجيه القرآن الكريم للمجتمع الإسلامي في أعقاب غزوة بني المصطلق:

نزلت سورة المنافقون في أعقاب غزوة بني المصطلق، حيث كان المسلمون راجعين إلى

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٢٠٩).
(٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة (٢/ ٣٠١، ٣٠٢).
(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٢٠٩).
(٤) المصدر نفسه، (ص ٢/ ٣٠٩).
(٥) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة (٢/ ٣٠٢).

المدينة، وذلك بدليل رواية الإمام الترمذي (فلما أصبحنا قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقون) [١].

فقد تحدّثت السورة بإسهاب عن المنافقين، وأشارت إلى بعض الحوادث والأقوال التي وقعت منهم، ورويت عنهم وفضحت أكاذيبهم، إلا أنها في الختام حذّرت المؤمنين من الانشغال بزينة الدنيا ومتاعها، وحثّت على الإنفاق، ويمكن لدارس هذه السورة أن يلاحظ عدة محاور مهمة منها:

١ ـ تحدّثت السورة الكريمة في البداية عن أخلاق المنافقين، وفضحت كذبهم في أقوالهم ووصفت حالهم [٢]، فابتدأت هذه السورة بإيراد صفات المنافقين التي من أهمها: الكذب في ادعاء الأيمان، وحلف الإيمان الكاذبة، وجبنهم وضعفهم وتآمرهم على النبي ﷺ وعلى المؤمنين، وصدهم الناس عن دين الله [٣] قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: الآيات ١ ـ ٤].

٢ ـ ثم بيّنت الآيات عنادهم وتصميمهم على الباطل، وعصيانهم لمن يدعوهم إلى الحق، وبيّنت مقالاتهم الشنيعة بالتفصيل، خاصة ما قالوه في غزوة بني المصطلق من أنهم سيطردون الرسول والمؤمنين من المدينة وأن العزة لهم إلى غير ذلك من الأقوال الفظيعة [٤].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٦ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: الآيات ٥ ـ ٨].

وهكذا كان المجتمع المدني يتربّى بالأحداث، والقرآن الكريم يقوم بتوجيهه وتعليمه، ورسول الله ﷺ يقوم بالأشراف على ذلك.

---

(١) انظر: سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب «ومن سورة المنافقون» (٥/ ٤١٥).
(٢) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٣٢٧).
(٣) انظر: التفسير المنير، د. وهبة الزحيلي (٢٨/ ٢١٣).
(٤) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٣٢٧).

خامساً: محاولة المنافقين الطعن في عرض النبي ﷺ بالافتراء على السّيدة عائشة رضي الله عنها بما يعرف بحديث الإفك:

حاك المنافقون في هذه الغزوة حادثة الإفك، بعد أن فشل كيدهم في المحاولة الأولى لإثارة النعرة الجاهلية، فقد ألمت بالبيت النبوي هذه النازلة الشديدة والمحنة العظيمة التي كان القصد منها النيل من النبي ﷺ ومن أهل بيته الأطهار.

هذا وقد أجمع أهل المغازي والسير [١] على أن حادثة الإفك كانت في أعقاب غزوة بني المصطلق، وتابعهم في ذلك المفسرون [٢]، والمحدثون [٣].

وقد أخرج البخاري ومسلم حديث الإفك في صحيحيهما وهذا سياق القصة من صحيح البخاري:

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها [٤]، فخرج سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما نزل الحجاب فأنا أُحمل في هَوْدَجي [٥] وأُنزلُ فيه.

فسرّنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك، وقفل ودنونا من المدينة قافلين، آذن ليلةً بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي، فإذا عِقْدٌ من جَزْعِ ظَفَار [٦] قد انقطع، فالتمست عقدي، وحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط [٧] الذين كانوا يرحلون لي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت ركبت، وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلهن اللحم، إنما نأكل العُلقة [٨] من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهَوْدَج حين رفعوه، وكنت جارية حديثة السنّ فبعثوا الجمل، وساروا، فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داعٍ، ولا مجيب، فأممت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إليَّ، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صَفْوَان بنُ المعطَّل السُّلمي [٩] ثم الذَّكواني من وراء الجيش

---

(١) كالواقدي، والذهبي، والطبراني، وابن سعد، وابن حزم.

(٢) كابن كثير، والرازي، والطبري وغيرهم.

(٣) كابن حجر، والنووي.

(٤) هي غزوة بني المصطلق.

(٥) الهَوْدج: محمل له قبة تستر بالثياب يوضع على ظهر البعير تركب فيه النساء.

(٦) جزع ظفار: هو خرز معروف في سواده بياض كالعروق وهي مدينة باليمن.

(٧) الرهط: الجماعة من ثلاثة إلى عشرة.

(٨) العلقة: البلغة من الطعام.

(٩) صحابي جليل كان صاحب ناقة رسول الله ﷺ في غزواته.

فأدلج [١] فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وكان رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه [٢] حين عرفني، فخَمَّرت [٣] وجهي بجلبابي، ووالله ما كلَّمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته فوطىء على يديها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا بعدما نزلوا موغرين [٤] في نحر الظهيرة [٥]، فهلك من هلك، وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أُبي ابن سُلول.

١ ـ انتشار الدعاية بالمدينة:

فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمت شهراً، والناس يُفيضون في قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني [٦] في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل عليَّ رسول الله ﷺ فيسلم، ثم يقول: «كيف تيكم؟» [٧] ثم ينصرف، وذاك الذي يريبني، ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نقهت فخرجت معي أم مسطح قِبلَ المناصع [٨] وهو مُتَبَرَّزُنا، وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف [٩] قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قِبلَ الغائط، فكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مِسْطَح وهي ابنة أَبي رُهْم بن عبد مَنَاف، وأمها بنت صَخْرِ بن عَامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مِسْطَحُ بنُ أُثَاثَة [١٠] فأقبلت أنا وأم مسطح قِبلَ بيتي قد فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح في مِرْطِها [١١] فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت، أتسبين رجلاً شهد بدراً؟ قالت: أي ـ هَنْتَاه [١٢] أولم تسمعي ما قال؟ قالت: قلت: وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً على مرضي، فلما رجعت إلى بيتي، ودخل عليّ رسول الله ﷺ ـ تعني سلّم ـ ثم قال: «كيف تيكم؟» فقلت: أتأذن لي أن آتي أبويَّ؟ قالت: وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قِبَلهما. قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ فجئت أبويّ فقلت لأمي: يا أُمتاه ما يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية هوني عليك، فوالله لقلما كانت

(١) فأدلج بالتشديد، سار آخر الليل.
(٢) أي بقوله: إنا لله وإنا إليه راجعون.
(٣) فخمرت: أي غطيت.
(٤) موغرين: الوغرة شدة الحر.
(٥) نحر الظهر: أولها وهو وقت شدة الحر.
(٦) يريبني: يشككني.
(٧) كيف تيكم: وهي لمؤنث مثل ذاكم للذكر.
(٨) المناصع: المواضع التي يتخلى فيها لقضاء الحاجة.
(٩) الكنف: جمع كنيف، المكان الساتر.
(١٠) مسطح بن أثاثة بن عباد بن عبد المطلب، توفي في خلافة عثمان.
(١١) فعثرت في مرطها: أي وطئته برجلها فسقطت.
(١٢) هنتاه: يا بلهاء كأنها نسبت إليَّ قلّة المعرفة بمكائد الناس وشرورهم.

امرأة قط وضيئة [١] عند رجل يحبها، ولها ضرائر إلا أكثرن عليها [٢]، قالت: فقلت: سبحان الله، أو لقد تحدث الناس بهذا؟

فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع [٣] ولا أكتحل بنوم، حتى أصبحت أبكي.

٢ ـ استشارة رسول الله ﷺ بعض أصحابه عند تأخر نزول الوحي:

فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ حين استلبث [٤] الوحي، يستأمرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود، فقال: يا رسول الله أهلك، ولا نعلم إلا خيراً، وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله، لم يُضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدُقك.

قالت: فدعا رسول الله ﷺ بَرِيرة فقال: «أي بَرِيرَة، هل رأيت من شيء يريبك؟» قالت بريرة: لا، والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً أغمصُه [٥] عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن [٦] فتأكله، فقام رسول الله فاستعذر [٧] يومئذٍ من عبد الله بن أُبي ابن سلول قالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً [٨] ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي» فقام سعد بن مُعاذ الأنصاري فقال: يا رسول الله أنا أعذرك منه إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك.

٣ ـ آثار فتنة الإفك:

قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج ـ وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية [٩] ـ فقال لسعد: كذبت لعمرُ الله لا تقتله، ولا تقدر على قتله، فقام أسيدُ بن حُضَير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعَمْرُ الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن

(١) وضيئة: الوضاءة الحسن والبهجة.
(٢) إلا أكثرن عليها: أي القول في عيبها.
(٣) لا يرقأ لي دمع: لا ينقطع ولا يسكت.
(٤) استلبث: وهو الإبطاء والتأخر.
(٥) أغمصه عليها: أي أعيبها به وأطعن بها عليه.
(٦) الداجن: هي الشاة التي يعلفها الناس في منازلهم.
(٧) فاستعذر: أي قال من يقوم بعذري إن كفأته على سوء صنيعه.
(٨) هو صفوان بن المعطل السلمي.
(٩) احتملته الحمية: أي حملته الأنفة والغضب على الجهل.

المنافقين، فتثاور الحيّان (١) الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت.

قالت: فبكيت يومي ذلك، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، قالت: فأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوماً، لا أكتحل بنوم، ولا يرقأ لي دمع يظنان أن البكاء فالقٌ كبدي، قالت: فبينما هما جالسان عندي، وأنا أبكي فاستأذنت عليّ امرأةٌ من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي، قالت: فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ فسلّم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها.

٤ ـ مفاتحة الرسول ﷺ لعائشة وجوابها له:

ولقد لبث شهراً (٢) لا يوحى إليه في شأني، قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: «أما بعد، يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا (٣) فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنبٍ فاستغفري الله، وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه» قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص (٤) دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب رسول الله ﷺ فيما قال، قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ. قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

قالت: فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن: إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم، وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة، والله يعلم أني بريئة، لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أني منه بريئة، لتصدقنّي، والله ما أجد لكم مثلاً إلا قول أبي يوسف (٥) قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يُوسُف: ١٨] قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا حينئذٍ أعلم أني بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحياً يتلى، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها.

٥ ـ نزول الوحي ببراءة عائشة:

قالت: فوالله ما رام (٦) رسول الله ﷺ ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أُنزل عليه فأخذه

(١) فتثاور الحيان: أي تناهضوا للنزاع والعصبية
(٢) التقيد بالشهر فهو المدة التي أولها إتيان عائشة إلى بيت أبويها.
(٣) كناية عما رميت به من الإفك.
(٤) قلص دمعي: أي ارتفع وذهب.
(٥) هو يعقوب عليه السلام.
(٦) ما رام: ما برح وما فارق مجلسه.

ما كان يأخذه من البُرحَاء [١] حتى أنه ليتحدَّر منه مثل الجُمَانِ [٢] من العرق، وهو في يوم شات من ثقل القول الذي يَنْزل عليه.

قالت: فلما سُرِّي [٣] عن رسول الله ﷺ سُرِّي عنه، وهو يضحك فكانت أول كلمة تكلم بها: «يا عائشة أما الله ﷻ فقد برأك» فقالت أمي: قومي إليه، قالت: فقلت لا والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله ﷻ.

فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النُّور: الآيات ١١ ـ ٢٠].

٦ ـ موقف أبي بكر الصديق ممن تكلم في عائشة ـ رضي الله عنها ـ:

فلما أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وكان ينفق على مِسطح بن أُثاثة لقرابته منه وفقره ـ: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

قال أبو بكر: بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفقه عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً.

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش [٤] عن أمري، فقال: «يا زينب ماذا علمت؟ أو رأيت؟» فقالت: يا رسول الله أحمي [٥] سمعي وبصري، ما علمت إلا خيراً، قالت: وهي التي كانت تساميني [٦] من أزواج رسول الله ﷺ فعصمها . . . .

---

(١) البرحاء: شدة الكرب من ثقل الوحي.

(٢) الجمان: اللؤلؤ الصغار وقيل: حب يتخذ من الفضة أمثال اللؤلؤ.

(٣) سرى: انكشف عنه ما يجده من الهم والثقل.

(٤) هي زينب بنت جحش أم المؤمنين رضي الله عنها وهي بنت عمته رضي الله عنها .

(٥) أحمي سمعي وبصري: أي أمنعهما من العذاب بسبب الكذب.

(٦) تساميني: أي تعاليني وتفاخرني أي تطاولني عنده ﷺ.

الله [(١)] بالورع [(٢)] وطفِقت [(٣)] أختها حَمْنة [(٤)] تحارب لها، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك [(٥)].

كانت قصة الإفك حلقة من سلسلة فنون الإيذاء والمحن التي لقيها رسول الله ﷺ من أعداء الدين، وكان من لطف الله تعالى بنبيه وبالمؤمنين أن كشف الله زيفها وبطلانها، وسجل التاريخ بروايات صحيحة مواقف المؤمنين من هذه الفرية، لا سيما موقف أبي أيوب وأم أيوب، وهي مواقف يتأسى بها المؤمنون عندما تعرض لهم في حياتهم مثل هذه الفرية. فقد انقطع الوحي، وبقيت الدروس لتكون عبرة وعظة للأجيال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها [(٦)].

سادساً: أهم الآداب والأحكام التي تؤخذ من آيات الإفك:

أخذ العلماء من الآيات التي نزلت في حادثة الإفك أحكاماً وآداباً من أهمها ما يأتي:

١ - تبرئة السيدة عائشة - رضي الله عنها - من الإفك بقرآن يتلى إلى آخر الزمان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡ ...﴾.

٢ - إن حكمة الله تعالى اقتضت أن يبزغ الخير من ثنايا الشر، فقد كان ابتلاء أسرة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - بحديث الإفك خيراً لهم حيث كتب لهم الأجر العظيم على صبرهم وقوة إيمانهم قال تعالى: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾.

٣ - الحرص على سمعة المؤمنين، وعلى حسن الظن فيما بينهم قال تعالى: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾.

٤ - تكذيب القائلين بالإفك، قال تعالى: ﴿لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾.

٥ - بيان فضل الله على المؤمنين ورأفته بهم، قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾.

٦ - وجوب التثبت من الأقوال قبل نشرها والتأكد من صحتها، قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ﴾.

---

(١) عصمها: حفظها ومنعها.

(٢) الورع: الكف عن المحارم والتحرج منها.

(٣) طفقت: شرعت.

(٤) حمنة بنت جحش بنت عمته ﷺ وهي أخت زينب رضي الله عنهما.

(٥) البخاري: كتاب التفسير باب «لولا إذ سمعتوه..» رقم (٤٧٥٠).

(٦) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص ٤٤٠).

٧ ـ النهي عن اقتراف مثل هذا الذنب العظيم أو العودة إليه، قال تعالى: ﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين ﴿١٧﴾ ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم﴾ [النور: الآيتان ١٧، ١٨].

٨ ـ النهي عن إشاعة الفاحشة بين المؤمنين، قال تعالى: ﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾].

٩ ـ بيان فضل الله سبحانه على عباده المؤمنين ورأفته بهم، وكرر ذلك تأكيداً له، قال تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم﴾.

١٠ ـ النهي عن تتبع خطوات الشيطان التي تؤدي للهلاك، قال تعالى: ﴿۞ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم﴾ [النور: ٢١].

١١ ـ الحث على النفقة على الأقارب وإن أساءوا [١]، قال تعالى: ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾ [النور: ٢٢].

١٢ ـ غيرة الله تعالى على عباده المؤمنين الصادقين، ودفاعه عنهم وتهديده لمن يرميهم بالفحشاء باللعن في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم ﴿٢٣﴾ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴿٢٤﴾ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾ [النور: ٢٣ ـ ٢٥].

قال صاحب الكشاف عند تفسيره لهذه الآيات: ولو قلّبت القرآن كله وفتشت عما أوعد به العصاة لم تر الله قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة ـ رضوان الله عليها ـ ولا أنزل من الآيات القوارع، المشحونة بالوعيد الشديد، والعقاب البليغ، والزجر العنيف، واستعظام ما ارتكب من ذلك، واستفظاع ما أقدم عليه، ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مفتنة، كل واحد منها كاف في بابه، ولو لم ينزل إلا هذه الآيات الثلاث: ﴿إن الذين يرمون المحصنات﴾ إلى قوله: ﴿هو الحق المبين﴾ [النور: ٢٥]، لكفى بها حديث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعاً وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الذي هم أهله [٢].

(١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٣٨٥، ٣٨٦).
(٢) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٣٨٦)، نقلاً عن تفسير الكشاف (٣/ ٢٢٣).

١٣ ـ بيان سنة من سنن الله الجارية في الكون وهي أن الطيبين يجعلهم الله من نصيب الطيبات، والطيبات يجعلهن من نصيب الطيبين. قال تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[النور: ٢٦].

١٤ ـ والناس عندما رميت الصديقة بنت الصديق بالإفك كانوا على أربعة أقسام [(١)]:

قال فضيلة الشيخ عبد القادر شيبة الحمد ـ عند تعليقه على حديث يتعلق بقصة الإفك ـ: إن الناس عندما رميت الصديقة بنت الصديق بالإفك كانوا أربعة أقسام: قسم وهم أكثر الناس، حموا أسماعهم وألسنتهم فسكتوا ولم ينطقوا إلا بخير ولم يصدقوا ولم يكذبوا، وقسم سارع إلى التكذيب وهم أبو أيوب الأنصاري وأم أيوب ـ رضي الله عنهما ـ فقد وصفوه عند سماعه بأنه إفك وبرؤوا عائشة مما نسب إليها في الحال.

أما القسم الثالث فكانوا جملة من المسلمين لم يصدقوا ولم يكذبوا ولم ينفوا، ولكنهم يتحدثون بما يقول أهل الإفك، وهم يحسبون أن الكلام بذلك أمر هين لا يعرضهم لعقوبة الله، لأن ناقل الكفر ليس بكافر، وحاكي الإفك ليس بقاذف، ومن هؤلاء حمنة بنت جحش وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة.

أما القسم الرابع فهم الذين جاءوا بالإفك وعلى رأس هؤلاء عدو الله عبد الله بن أبيّ ابن سلول رأس المنافقين لعنه الله وهو الذي تولى كبره.

وقد أشار ﷻ إلى فضل القسم الثاني من هذه الأقسام وأنه كان ينبغي لجميع المسلمين أن يقفوا هذا الموقف فقال: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النُّور: ١٢].

أما القسم الثالث فقد أشار الله ﷻ إلى أنه ما كان ينبغي لهم أن يتحدثوا بمثل هذا الحديث حيث يقول: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: الآيتان ١٥، ١٦].

وقد أثبت الله ﷻ لأهل القسم فضائلهم التي عملوها حيث أثبت لمسطح هجرته وإيمانه عندما حلف أبو بكر أنه لن ينفق على مسطح ولن يتصدق عليه، وهو من ذوي قرابته، فقال ﷻ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٣٨٧).

أما القسم الرابع وهو جماعة عبد الله بن أُبيّ الذين جاءوا بالإفك واخترعوا هذا الكذب فقد أشار الله إلى موتهم على الكفر، وأنه لن يقبل منهم توبة، وأنه أنزل عليهم لعنته في الدنيا والآخرة (١) حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النُّور: ٢٣ ـ ٢٥] .

سابعاً: فوائد وأحكام ودروس من حادثة الإفك وغزوة بني المصطلق:

١ ـ بشرية الرسول ﷺ:

جاءت محنة الإفك منطوية على حكمة إلهية استهدفت إبراز شخصية النبي ﷺ، وإظهارها صافية مميزة عن كل ما قد يلتبس بها، فلو كان الوحي أمراً ذاتياً غير منفصل عن شخصية الرسول ﷺ لما عاش الرسول ﷺ تلك المحنة بكل أبعادها شهراً كاملاً. ولكن الحقيقة التي تجلت للناس بهذه المحنة أن ظهرت بشرية الرسول ﷺ ونبوته، فعندما حسم الوحي اللغط الذي دار حول أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ عادت المياه إلى مجاريها بينها وبين الرسول ﷺ، وفرح الجميع بهذه النتيجة بعد تلك المعاناة القاسية، فدل ذلك على حقيقة الوحي، وأن الأمر لو لم يكن من عند الله تعالى لبقيت رواسب المحنة في نفس رسول الله ﷺ بصفة خاصة، ولانعكس ذلك على تصرفاته مع زوجته عائشة ـ رضي الله عنها ـ وهكذا شاء الله أن تكون هذه المحنة دليلاً كبيراً على نبوة محمد ﷺ (٢).

٢ ـ حد القذف وأهميته في المحافظة على أعراض المسلمين:

كان المجتمع الإسلامي يتربى من خلال الأحداث، فعندما وقعت حادثة الإفك أراد المولى ﷻ أن يشرع بعض الأحكام التي تساهم في المحافظة على أعراض المؤمنين، ولذلك نزلت سورة النور، التي تحدثت عن حكم الزاني والزانية، وعن قبح فاحشة الزنا، وعما يجب على الحاكم أن يفعله إذا ما رمى أحد الزوجين صاحبه، وعن العقوبة التي أوجبها الله على الذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء إلى غير ذلك من الأحكام (٣).

إن الإسلام حرم الزنا، وأوجب العقوبة على فاعله، فقد حرم أيضاً كل الأسباب المسببة له، وكل الطرق الموصلة إليه، ومنها إشاعة الفاحشة والقذف بها، لتنزيه المجتمع من أنْ تسري فيه ألفاظ الفاحشة والحديث عنها، لأن كثرة الحديث عن فاحشة الزنا وسهولة قولها في كل وقت يهون أمرها لدى سامعيها، ويجرىء ضعفاء النفوس على ارتكابها، لهذا حرمت الشريعة الإسلامية القذف بالزنا، وأوجبت على من قذف عفيفاً أو عفيفة طاهراً أو طاهرة، بريئاً أو بريئة

(١) انظر: فقه الإسلام شرح بلوغ المرام، لفضيلة الشيخ عبد القادر شيبة الحمد (٩/ ٥).
(٢) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص ٤٤١).
(٣) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٣٥٧).

من الزنا حد القذف وهو الجلد ثمانون جلدة، وعدم قبول شهادته إلا بعد توبته توبة صادقة نصوحاً [١].

هذا وقد أقام رسول الله ﷺ حد القذف على مسطح وحسان وحمنة، وروى محمد بن إسحاق وغيره أن النبي ﷺ جلد في الإفك رجلين وامرأة: مسطحاً وحساناً وحمنة وذكره الترمذي [٢]. قال القرطبي والمشهور من الأخبار والمعروف عند العلماء أن الذي حُدَّ حسان ومسطح وحمنة ولم يُسمَع بحدِّ عبد الله بن أُبي [٣]، وقد وردت آثار ضعيفة تدل على أن عبد الله بن أُبي أقيم عليه الحد ولكنها كلها ضعيفة لا تقوم بها حجة [٤].

وقد ذكر ابن القيم وجه الحكمة في عدم حد عبد الله بن أُبي فقال:

- قيل: لأن الحدود تخفيف عن أهلها وكفارة، والخبيث ليس أهلاً لذلك، وقد وعده الله بالعذاب العظيم في الآخرة ويكفيه عن الحد.

- وقيل: كان يستوشي الحديث ويجمعه ويحكيه ويخرجه في قوالب من لا ينسب إليه.

- وقيل: الحد لا يثبت إلا ببيّنة أو إقرار، وهو لم يقر بالقذف ولا شهد به عليه أحد، فإنه كان يذكره بين أصحابه ولم يشهدوا عليه ولم يكن يذكره بين المؤمنين.

- وقيل: بل ترك حده لمصلحة هي أعظم من إقامته عليه، كما ترك قتله مع ظهور نفاقه وتكلمه بما يوجب قتله مراراً، وهي تأليف قومه وعدم تنفيرهم من الإسلام.

ثم قال - في ختام كلامه: ولعله ترك لهذه الوجوه كلها [٥].

٣ - اعتذار حسان - رضي الله عنه - للسيدة عائشة - رضي الله عنها -:

قد بيّنت الرويات أن من خاض في الإفك قد تاب - ما عدا ابن أُبي - وقد اعتذر حسان رضي الله عنه عما كان منه وقال يمدح عائشة بما هي أهل له [٦]:

رأيتك وليغفر لك الله حرة ... من المحصنات غير ذات غوائل
حصان رزانٌ ما تزن بريبةٍ ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل
وإن الذي قد قيل ليس بلائق ... بك الدهر بل قيل امرىء متناحل

---

(١) انظر: آثار تطبيق الشريعة، د. محمد الزاحم، (ص ١١٧).
(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٢/١٩٧).
(٣) المصدر نفسه، (١٢/٢٠١).
(٤) انظر: مرويات غزوة بني المصطلق، (ص ٢٤٢).
(٥) انظر: زاد المعاد (٣/٢٦٣، ٢٦٤).
(٦) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٢٦٣).

فإن كنت أهجوكم كما بلَّغوكم ... فلا رفعت سوطي إليَّ أناملي
فكيف ووُدّي ما حييت ونصرتي ... لآل رسول الله زين المحافل
وإن لهم عزاً يرى الناس دونه ... قصاراً، وطال العزّ كل التطاول [(١)]

٤ ـ من الأحكام المستنبطة من غزوة بني المصطلق:

جواز الإغارة على من بلغتهم دعوة الإسلام دون إنذار، ومنها صحة جعل العتق صداقاً كما فعل ﷺ مع جويرية بنت الحارث في هذه الغزوة، ومنها مشروعية القرعة بين النساء عند إرادة السفر ببعضهن، ومنها جواز استرقاق العرب كما حدث في الغزوة وهو قول جمهور العلماء [(٢)]، وقد أجمع العلماء قاطبة على أن من سب عائشة ـ رضي الله عنها ـ بعد براءتها براءة قطعية بنص القرآن، ورماها بما اتهمت به فإنه كافر لأنه معاند للقرآن [(٣)]، ومن الأحكام التي عرفت في هذه الغزوة حكم العزل عن النساء حيث سأل الصحابة الرسول ﷺ عنه فأذن به وقال: «ما عليكم ألا تفعلوا، ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا وهي كائنة» [(٤)].

فذهب الجمهور إلى جواز العزل عن الزوجة الحرة بإذنها [(٥)]، ونزلت آية التيمم في هذه الغزوة تنويهاً بشأن الصلاة وتنبيهاً على عظيم شأنها، وأنه لا يحول دون أدائها فقد الماء، وهو وسيلة الطهارة التي هي أعظم شروطها، كما لا يحول الخوف وفقد الأمن من إقامتها [(٦)].

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي، المغازي، (ص ٢٨١).
(٢) انظر: كتاب الأم للشافعي (٤/ ١٨٦).
(٣) شرح صحيح مسلم للنووي (٥/ ٦٤٣).
(٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (٢/ ٤١٥).
(٥) انظر: نيل الأوطار للشوكاني (٦/ ٢٢٢ ـ ٢٢٤).
(٦) صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة، (ص ٢١٠، ٢١١).

الفصل الحادي عشر

غزوة الأحزاب ٥ هـ

المبحث الأول

تاريخ الغزوة، وأسبابها، وأحداثها

أولاً: تاريخ الغزوة وأسبابها:

١ ـ تاريخ الغزوة:

ذهب جمهور أهل السير والمغازي إلى أن غزوة الأحزاب كانت في شهر شوال من السنة الخامسة [١]، وقال الواقدي [٢]: إنها وقعت في يوم الثلاثاء الثامن من ذي القعدة في العام الخامس الهجري، وقال ابن سعد [٣]: إن الله استجاب لدعاء الرسول فهزم الأحزاب يوم الأربعاء من شهر ذي القعدة سنة خمس من مهاجره ﷺ.

ونقل عن الزهري، ومالك بن أنس، وموسى بن عقبة أنها وقعت سنة أربع هجرية [٤].

ويرى العلماء أن القائلين بأنها وقعت سنة أربع كانوا يعدون التاريخ من المحرم الذي وقع بعد الهجرة، ويُلغون الأشهر التي قبل ذلك إلى ربيع الأول وهو مخالف لما عليه الجمهور من جعل التاريخ من المحرم سنة الهجرة [٥]، وجزم ابن حزم [٦]، أنها وقعت سنة أربع لقول ابن عمر أن الرسول ﷺ ردّه يوم أحد ـ وهي في السنة الثالثة باتفاق ـ وهو ابن أربع عشرة سنة [٧]، ولكن البيهقي [٨]، وابن حجر [٩] وغيرهما فسروا ذلك بأن ابن عمر كان يوم أحد في بداية

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص ٤٤٣).

(٢) انظر: المغازي (٢/ ٤٤٠) بدون إسناد.

(٣) الطبقات (٢/ ٦٥، ٧٣) بإسناد متصل.

(٤) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٠٥).

(٥) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص ٤٤٣).

(٦) انظر: جوامع السيرة (ص ١٨٥).

(٧) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص ٤٤٤).

(٨) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٣٩٦).

(٩) انظر: الفتح (٣/ ٣٩٦).

الرابعة عشرة ويوم الخندق في نهاية الخامسة عشرة وهو الموافق لقول الجمهور [١].

وإلى ما ذهب إليه الجمهور وهو الراجح لديَّ، مال ابن القيم حيث قال: وكانت سنة خمس من الهجرة في شوال على أصح القولين، إذ لا خلاف أن أحداً كانت في شوال سنة ثلاث، وواعد المشركون رسول الله ﷺ في العام المقبل وهو سنة أربع، ثم أخلفوه من أجل جدب تلك السنة، فرجعوا فلما كانت سنة خمس جاءوا لحربه [٢].

٢ ـ أسبابها:

إن يهود بني النضير بعد أن خرجوا من المدينة إلى خيبر خرجوا وهم يحملون معهم أحقادهم على المسلمين، فما أن استقروا بخيبر حتى أخذوا يرسمون الخطط للانتقام من المسلمين، فاتفقت كلمتهم على التوجه إلى القبائل العربية المختلفة لتحريضها على حرب المسلمين وكوّنوا لهذا الغرض الخبيث وفداً يتكون من سلام بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس الوائلي وأبي عمار [٣].

وقد نجح الوفد نجاحاً كبيراً في مهمته، حيث وافقت قريش التي شعرت بمرارة الحصار الاقتصادي المضروب عليها من قبل المسلمين، ووافقت غطفان طمعاً في خيرات المدينة وفي السلب والنهب وتابعتهم قبائل أخرى.

وقد قال وفد اليهود لمشركي مكة أن دينكم خير من دين محمد وأنتم أولى بالحق منه [٤]، وعن ذلك يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء: ٥١ ـ ٥٢].

وحول هذه المقالة أشار الأستاذ ولفنسون إلى الخطأ الكبير الذي وقع فيه هؤلاء اليهود بتفضيلهم دين قريش الوثني على دين الإسلام، الذي يدعو إلى عبادة الإله الواحد، فقال: (والذي يؤلم كل مؤمن بإله واحد من اليهود والمسلمين على السواء، إنما هو تلك المحادثة التي جرت بين نفر من اليهود وبين قريش الوثنيين حيث فضّل هؤلاء النفر من اليهود أديان قريش على دين صاحب الرسالة الإسلامية) [٥] ولا ريب فإن قريشاً قد سُرَّت بما سمعت من مدح لدينها، فازدادت حماساً، وأصبحت أكثر تصميماً على حرب المسلمين، ثم أعلنت

---

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص ٤٤٤).
(٢) انظر: زاد المعاد (٢/ ٢٨٨).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٣٧).
(٤) انظر: التاريخ السياسي والعسكري، د. علي معطي، (ص ٣١٠).
(٥) انظر: تاريخ اليهود في بلاد العرب، ولفنسون، (ص ١٤٢).

موافقتها على هذه الدعوة والاشتراك في الحملة التي ستهاجم المدينة، وضربت لها موعداً [١].

وقد أبرم الوفد اليهودي مع زعماء أعراب غطفان اتفاقية الاتحاد العربي الوثني اليهودي العسكري ضد المسلمين، وكان أهم بنود هذا الاتفاق هو:

أ ـ أن تكون قوة غطفان في جيش الاتحاد هذا ستة آلاف مقاتل.

ب ـ أن يدفع اليهود لقبائل غطفان (مقابل ذلك) كل تمر خيبر سنة واحدة [٢].

لقد استطاع وفد اليهود أن يرجع من رحلته إلى المدينة ومعه عشرة آلاف مقاتل، أربعة آلاف من قريش وأحلافها، وستة آلاف من غطفان وأحلافها، وقد نزلت تلك الأعداد الهائلة بالقرب من المدينة.

ثانياً: متابعة المسلمين للأحزاب:

كان جهاز أمن الدولة الإسلامية على حذر تام من أعدائه، لذا فقد كان يتتبع أخبار الأحزاب ويرصد تحركاتهم، ويتابع حركة الوفد اليهودي منذ خرج من خيبر في اتجاه مكة، وكان على علم تام بكل ما يجري بين الوفد اليهودي وبين قريش أولاً، ثم غطفان ثانياً، وبمجرد حصول المدينة على هذه المعلومات عن العدو شرع الرسول ﷺ في اتخاذ الإجراءات الدفاعية اللازمة، ودعا إلى اجتماع عاجل حضره كبار قادة جيش المسلمين من المهاجرين والأنصار، بحث فيه معهم هذا الموقف الخطير الناجم عن مساعي اليهود الخبيثة [٣]، فأدلى سلمان الفارسي رضي الله عنه برأيه الذي يتضمن حفر خندق كبير لصدّ عدوان الأحزاب، فأعجب النبي ﷺ بذلك، قال الواقدي رحمه الله: فقال سلمان: (يا رسول الله، إنا إذا كنا بأرض فارس وتخوفنا الخيل، خندقنا علينا، فهل لك يا رسول الله أن تخندق؟ فأعجب رأي سلمان المسلمين) [٤].

وعندما استقر الرأي ـ بعد المشاورة ـ على حفر الخندق، ذهب النبي ﷺ هو وبعض أصحابه لتحديد مكانه واختار للمسلمين مكاناً تتوافر فيه الحماية للجيش، فقد ذكر الواقدي: أن رسول الله ﷺ ركب فرساً له ومعه نفر من أصحابه من المهاجرين والأنصار، فارتاد موضعاً ينزله فكان أعجب المنازل إليه أن يجعل سلعاً خلف ظهره ويخندق من المذاد إلى ذباب [٥] إلى

---

(١) انظر: تاريخ اليهود في بلاد العرب، ولفنسون، (ص ١٤٢).
(٢) انظر: غزوة الأحزاب، محمد أحمد باشميل، (ص ١٤١).
(٣) المصدر نفسه، (ص ١٤٤، ١٤٥).
(٤) انظر: مغازي الواقدي (٢/٤٤٤)، والطبقات الكبرى (٢/٦٦).
(٥) ذباب: أكمة صغيرة في المدينة يفصل بينها وبين جبل سلع ثنية الوداع.

راتج (١)، وقد استفاد ﷺ من مناعة جبل سلع (٢) في حماية ظهور الصحابة.

كان اختيار تلك المواقع موفقاً، لأن شمال المدينة هو الجانب المكشوف أمام العدو والذي يستطيع منه دخول المدينة وتهديدها، أما الجوانب الأخرى فهي حصينة منيعة، تقف عقبة أمام أي هجوم يقوم به الأعداء، فكانت الدور من ناحية الجنوب متلاصقة عالية كالسور المنيع، وكانت حر واقم (٣) من جهة الشرق، وحرة الوبرة من جهة الغرب، تقومان كحصن طبيعي، وكانت آطام بني قريظة في الجنوب الشرقي كفيلة بتأمين ظهر المسلمين، وكان بين الرسول وبني قريظة عهد ألا يمالئوا عليه أحداً، ولا يناصروا عدواً ضده (٤).

ويستفاد من بحث الرسول ﷺ عن مكان ملائم لنزول الجند أهمية الموقع الذي ينزل فيه الجند، وأنه ينبغي أن يتوافر فيه شرط أساسي وهو الحماية التامة للجند، لأن ذلك له أثر واضح على سير المعركة ونتائجها (٥).

لقد كانت خطة الرسول ﷺ في الخندق متطورة، ومتقدمة حيث شرع بالأخذ بالأساليب الجديدة في القتال، ولم يكن حفر الخندق من الأمور المعروفة لدى العرب في حروبهم، بل كان الأخذ بهذا الأسلوب غريباً عنهم، وبهذا يكون الرسول ﷺ هو أول من استعمل الخندق في الحروب في تاريخ العرب والمسلمين، فقد كان هذا الخندق مفاجأة مذهلة لأعداء الإسلام وأبطل خطتهم التي رسموها، وكان من عوامل تحقيق هذه المفاجأة ما قام به المسلمون من إتقان رفيع لسرية الخطة وسرعة إنجازها، وكان هذا الأسلوب الجديد في القتال له أثر في إضعاف معنويات الأحزاب وتشتيت قواتهم.

ثالثاً: اهتمام النبي ﷺ بالجبهة الداخلية:

١ ـ لما علم النبي ﷺ بقدوم جيش الأحزاب وأراد الخروج إلى الخندق أمر بوضع ذراري المسلمين ونسائهم وصبيانهم، في حصن بني حارثة، حتى يكونوا في مأمن من خطر الأعداء، وقد فعل ذلك ﷺ لأن حماية الذراري والنساء والصبيان لها أثر فعّال على معنويات المقاتلين، لأن الجندي إذا اطمأن على زوجه وأبنائه يكون مرتاح الضمير هادىء الأعصاب، فلا يشغل تفكيره أمر من أمور الحياة، يسخّر كل إمكاناته وقدراته العقلية والجسدية للإبداع في القتال، أما إذا كان الأمر بعكس ذلك فإن أمر الجندي يضطرب ومعنوياته تضعف ويستولي عليه القلق، مما

---

(١) راتج: حصن من حصون المدينة لأناس من اليهود.
(٢) جبل سلع: هو أشهر جبال المدينة. انظر: معجم البلدان (٣/ ٢٣٦).
(٣) هي حرة المدينة الشرقية. انظر: معجم رجال الحجاز (٢/ ٢٨٣، ٢٨٥).
(٤) انظر: العبقرية العسكرية في غزوات الرسول، (ص ٤٤٢).
(٥) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول، (ص ٤٢٦).

يكون له أثره في تراجعه عن القتال بذلك تنزل الكارثة بالجميع (١).

٢ ـ ومن الأمور التي ساهمت في تقوية وتماسك الجبهة الداخلية مشاركة النبي ﷺ جنده أعباء العمل، فقد شارك الرسول ﷺ الصحابة في العمل المضني، فأخذ يعمل بيده الشريفة، في حفر الخندق، فعن ابن إسحاق: قال: سمعت البراء يحدث قال: لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني الغُبارُ جلدة بطنه وكان كثير الشعر (٢).

فعمل رسول الله ﷺ مع الصحابة بهمة عالية لا تعرف الكلل، فأعطى القدوة الحسنة لأصحابه حتى بذلوا ما في وسعهم لإنجاز حفر ذلك الخندق.

٣ ـ وكان ﷺ يشارك الصحابة ﷺ في آلامهم، وآمالهم، بل كان يستأثر بالمصاعب الجمة دونهم، ففي غزوة الأحزاب نجد أنه ﷺ كان يعاني من ألم الجوع كغيره، بل أشد، حيث وصل به الأمر إلى أن يربط حجراً على بطنه الشريف من شدة الجوع (٣)، ثم إنه ﷺ شاركهم في آمالهم، فحين وجد ما يسد رمقه بعد هذا الجوع الذي استمر ثلاثاً، لم يستأثر بذلك دونهم وهذا ما سوف نعرفه بإذن الله عند الحديث عن وليمة جابر بن عبد الله ﷺ.

٤ ـ رفع معنويات الجنود وإدخال السرور عليهم: اقترن حفر الخندق بصعوبات جمة، فقد كان الجو بارداً، والريح شديدة، والحالة المعيشية صعبة، بالإضافة إلى الخوف من قدوم العدو الذي يتوقعونه في كل لحظة، ويضاف إلى ذلك العمل المضني حيث كان الصحابة يحفرون بأيديهم وينقلون التراب على ظهورهم، ولا شك في أن هذا الظرف ـ بطبيعة الحال ـ يحتاج إلى قدر كبير من الحزم والجد، ولكن النبي ﷺ لم ينس في هذا الظرف أن هؤلاء الجند إنما هم بشر كغيرهم، لهم نفوس بحاجة إلى الراحة من عناء العمل، كما أنها بحاجة إلى من يدخل السرور حتى تنسى ذلك الآلام التي تعانيها فوق معاناة العمل الرئيسي، ولهذا نجد أن النبي ﷺ كان يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل التراب:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدّقنا ولا صلينا
فأنزلنْ سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأُلى قد بَغوا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبينا

ثم يمد صوته بآخرها (٤).

---

(١) انظر: غزوة الأحزاب، د. محمد عبد القادر أبو فارس، (ص ٩٨).
(٢) البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الأحزاب، رقم (٤١٠٦).
(٣) غزوة الأحزاب، د. محمد أبو فارس، (ص ١١٦، ١١٧).
(٤) البخاري، كتاب المغازي، باب «غزوة الخندق» رقم (٤١٠٦).

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن أصحاب محمد ﷺ كانوا يقولون يوم الخندق:

نحن الذين بايعوا محمدا ... على الفداء ما بقينا أبدا

أو قال على الجهاد والنبي يقول:

اللهم إن الخير خير الآخرة ... فاغفر للأنصار والمهاجرة (١)

لقد كان لهذا التبسط والمرح في ذلك الوقت أثره في التخفيف عن الصحابة مما يعانونه نتيجة للظروف الصعبة التي يعيشونها، كما كان له أثره في بعث الهمة والنشاط، بإنجاز العمل الذي كُلِّفوا بإتمامه، قبل وصول عدوهم (٢).

٥ ـ تقدير ظروف الجند والإذن بالانصراف عند الحاجة:

كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على قدر كبير من الأدب مع النبي ﷺ، فكانوا يستأذنونه في الانصراف إذا عرضت لهم ضرورة، فيذهبون لقضاء حوائجهم، ثم يرجعون إلى ما كانوا فيه من العمل، رغبة في الخير واحتساباً له فأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النُّور: ٦٢].

ومعنى الآية الكريمة: إذا استأذنك يا محمد الذين لا يذهبون عنك إلا بإذنك في هذه المواطن، لقضاء بعض حاجاتهم التي تعرض لهم، فأذن لمن شئت منهم في الانصراف عنك لقضائها، واستغفر لهم (٣)، فكان النبي ﷺ بالخيار، وإن شاء أذن له إذا رأى ذلك ضرورة للمستأذن ولم ير فيه مضرة على الجماعة، فكان يأذن أو يمنع حسب ما تقتضيه المصلحة ويقتضيه مقام الحال (٤).

٦ ـ تقسيم الصحابة إلى دوريات للحراسة:

قسم النبي ﷺ أصحابه إلى مجموعات للحراسة ومقاومة كل من يريد أن يخترق الخندق، وقام المسلمون بواجبهم في حراسة نبيهم ﷺ، واستطاعوا أن يصدوا كل هجوم حاول المشركون شنه، وكانوا على أهبة الاستعداد جنوداً وقيادة، حتى إنهم استمروا ذات يوم من السحر إلى جوف من الليل في اليوم الثاني، ويفوت المسلمين الصلوات الأربع، ويقضونها لعجزهم عن التوقف لحظة واحدة أثناء الاشتباك المباشر للقتال، واستطاع علي بن أبي طالب مع مجموعة من الصحابة

---

(١) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب «غزوة الأحزاب» (٣/ ١٤٣٢)، رقم (١٢٩).
(٢) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول، (ص ٤٨٢).
(٣) انظر: صفوة التفاسير للصابوني (٢/ ٣٥١).
(٤) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٤١٠).

أن يصدوا محاولة عكرمة بن أبي جهل، بل تصدى علي لبطل قريش عمرو بن عبد ود وقتله [١]، وكانت هناك مجموعة من الأنصار تقوم بحراسة النبي ﷺ في كل ليلة على رأسهم عباد بن بشر ـ رضي الله عنه ـ فالنبي ﷺ هو القائد الأعلى وهو المشرف المباشر على إدارة المعركة فهو الذي يرسم الخطط ويراقب تنفيذها فهو الذي:

أ ـ أمر بحفر الخندق وبعد أن تمت المشاورة في ذلك، فاختار مكاناً مناسباً لذلك، وهو السهول الواسعة شمال المدينة، إذ كانت هي الجهة الوحيدة المكشوفة أمام الأعداء.

ب ـ قسَّم أعمال حفر الخندق بين الصحابة، كل أربعين ذراعاً لعشرة من الصحابة ووكل بكل جانب جماعة يحفرون فيه.

جـ ـ سيطر ﷺ على العمل، فلا يستطيع أحد ترك عمله إلا بإذن منه ﷺ.

د ـ قسَّم ﷺ واجبات احتلال الموضع بنفسه بحيث تستمر الحراسة على كل شبر من الخندق ليلاً ونهاراً، ثم إنه ﷺ كان يقوم بمهمة الإشراف العام على الجند بتشجيعهم ورفع معنوياتهم.

هـ ـ استطاع ﷺ لما يتمتع به من حنكة وبراعة سياسية مستمدة من شخصيته النبوية أن يمسك بزمام الأمور وينقذ المؤمنين من الموقف الحرج، الذي حدث لهم، عندما وصلت الأحزاب إلى المدينة، وأصبح الخطر يهدد المدينة وما حولها [٢]، فقد توحّدت قيادة المسلمين تحت زعامته ﷺ، فكان ذلك من أسباب كسب المعركة والفوز بها.

المبحث الثاني

اشتداد المحنة بالمسلمين

مع أن المسلمِين أخذوا بجميع الاحتياطات في تأمين جبهتهم الداخلية، ومحاولة الدفاع عن الإسلام والمدينة من جيش الأحزاب الزاحفة، إلا أن سنّة الله الماضية لا نصر إلا بعد شدة، ولا منحة إلا بعد محنة، وكلما اقترب النصر زاد البلاء، والامتحان، وقد ازدادت محنة المسلمين في الخندق عندما:

أولاً: نقض اليهود من بني قريظة العهد ومحاولة ضرب المسلمين من الخلف:

كان المسلمون يخشون غدر يهود بني قريظة الذين يسكنون في جنوب المدينة، فيقع المسلمون حينئذٍ بين نارين، اليهود خلف خطوطهم، والأحزاب بأعدادهم الهائلة من أمامهم،

(١) انظر: فقه السيرة لمنير الغضبان، (ص ٥٠٤).
(٢) انظر: القيادة العسكرية في عصر الرسول، (ص ١١).

ونجح اليهودي زعيم بني النضير في استدراج كعب بن أسد زعيم بني قريظة لينضم مع الأحزاب لمحاربة المسلمين.

وسرت الشائعات بين المسلمين بأن قريظة قد نقضت عهدها معهم، وكان الرسول ﷺ يخشى أن تنقض بنو قريظة العهد الذي بينهم وبينه، لأن اليهود قوم لا عهد لهم ولا ذمة، ولذلك انتدب النبي ﷺ الزبير بن العوام (رجل المهمات الصعبة) ليأتيه من أخبارهم، فذهب الزبير، فنظر ثم رجع فقال: يا رسول الله رأيتهم يصلحون حصونهم ويُدربون (١) طرقهم، وقد جمعوا ماشيتهم (٢).

وبعد أن كثرت القرائن الدالة على نقض بني قريظة للعهد، أرسل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبد الله بن رواحة وخوات بن جبير ـ ﷺ ـ وقال لهم: انطلقوا حتى تنظروا أحَقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا، فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً (٣) أعرفه ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس (٤).

فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم قد نقضوا العهد فرجعوا فسلَّموا على النبي ﷺ وقالوا: عضل والقارة (٥)، فعرف النبي ﷺ مرادهم (٦).

واستقبل النبي ﷺ غدر بني قريظة بالثبات والحزم، واستخدم كل الوسائل التي من شأنها أن تقوي روح المؤمنين، وتصدع جبهات المعتدين، فأرسل النبي ﷺ في الوقت نفسه (سلمة بن أسلم) في مائتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل، يحرسون المدينة، ويظهرون التكبير ليرهبوا بني قريظة، وفي هذه الأثناء استعدت بنو قريظة للمشاركة مع الأحزاب، فأرسلت إلى جيوشها عشرين بعيراً كانت محملة تمراً وشعيراً وتيناً لتمدهم بها وتقويهم على البقاء إلا أنها أصبحت غنيمة للمسلمين الذين استطاعوا مصادرتها وأتوا بها إلى النبي ﷺ (٧).

ثانياً: تشديد الحصار على المسلمين وانسحاب المنافقين ونشرهم الأراجيف:

زادت جيوش الأحزاب في تشديد الحصار على المسلمين بعد انضمام بني قريظة إليها، واشتد الكرب على المسلمين وتأزم الموقف، وقد تحدّث القرآن الكريم عن حالة الحرج

---

(١) يُدربون طرقهم: يسهلون طرقهم من أجل السير إلى المسلمين.

(٢) انظر: مغازي الواقدي (٢/٤٥٧).

(٣) لحناً: أي كلام لا يفهمه أحد سواي.

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (٣/١٩٩).

(٥) قبيلتان من هذيل سبق منهما الغدر بأصحاب النبي في ذات الرجيع.

(٦) انظر: البداية والنهاية (٤/٩٥).

(٧) انظر: السيرة الحلبية (٢/٣٢٣).

والتدهور التي أصابت المسلمين ووصف ما وصل إليه المسلمون من جزع وخوف، وفزع في تلك المحنة الرهيبة أصدق وصف حيث قال تعالى:

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

وكان ظن المسلمين بالله قوياً، وقد سجّله القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

أما المنافقون فقد انسحبوا من الجيش وزاد خوفهم حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، وطلب البعض الآخر الإذن لهم بالرجوع إلى بيوتهم بحجة أنها عورة، فقد كان موقفهم يتسم بالجبن والإرجاف وتخذيل المؤمنين، وقد وردت روايات ضعيفة تحكي أقوالهم في السخرية والإرجاف والتخذيل [1]، ولكن القرآن الكريم يتكفل بتصوير ذلك أدق تصوير [2] والآيات هي:

﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ۚ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝١٣ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ۝١٤ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ۝١٥ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٦ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝١٧ ۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٨ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝١٩ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٣ ـ ٢٠].

إن الآيات السابقة أشارت إلى النفاق وما تولد عنه من القلق في النفوس، والجبن في القلوب، وانعدام الثقة بالله عند تعاظم الخطوب، والجرأة على الله تعالى بدل اللجوء إليه عند الامتحان، ولا يقف الأمر عند الاعتقاد بل يتبعه العمل المخذل المرجف، فهم يستأذنون الرسول ﷺ للانصراف عن ميدان العمل والقتال بحجج واهية، زاعمين أن بيوتهم مكشوفة

---

(١) انظر: المعجم الكبير للطبراني (١١/ ٣٧٦)، مجمع الزوائد (٦/ ١٣١).
(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٢٤).

للأعداء، وإنما يقصدون الفرار من الموت لضعف معتقدهم وللخوف المسيطر عليهم، بل ويحثون الآخرين على ترك مواقعهم والرجوع إلى بيوتهم، ولم يراعوا عقد الإيمان وعهود الإسلام [(١)].

وتزايدت محاولات المشركين لاقتحام الخندق، وأصبحت خيل المشركين تطوف بأعداد كبيرة كل ليلة حول الخندق حتى الصباح، وحاول خالد بن الوليد مع مجموعة من فرسان قريش أن يقتحم الخندق في المسلمين في ناحية ضيقة منه، ويأخذهم على حين غرة، لكن أسيد بن حضير في مائتين من الصحابة يرقبون تحركاتهم، وقد حصلت مناوشات استشهد فيها الطفيل بن النعمان والذي قتله وحشي ـ قاتل حمزة يوم أُحد ـ رماه بحربة عبر الخندق فأصابت منه مقتلاً [(٢)]، واستطاع حبان بن العرقة من المشركين أن يرمي سهماً أصاب سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ في أكحله [(٣)] وقال: خذها وأنا ابن العرقة، وقد قال سعد بن معاذ عندما أصيب: اللهم إن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني أجاهدهم فيك، فإنه لا قوم أحب إليَّ أن أجاهد من قوم كذبوا رسولك، وأخرجوه، اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها واجعل موتي فيها [(٤)].

وقد استجاب الله دعوة هذا العبد الصالح وهو الذي سيحكم فيهم، ثم وجه المشركون كتيبة غليظة نحو مقر رسول الله ﷺ، فقاتلهم المسلمون يوماً إلى الليل، فلما حانت صلاة العصر دنت الكتيبة، فلم يقدر النبي ﷺ، ولا أحد من أصحابه الذين كانوا معه أن يصلوا، وشغل بهم النبي ﷺ فلم يصل العصر، ولم تنصرف الكتيبة إلا مع الليل، فقال رسول الله ﷺ: «ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم ناراً كما شغلونا عن صلاة الوسطى حتى غابت الشمس» [(٥)].

ثالثاً: محاولة النبي ﷺ تخفيف حدة الحصار بعقد صلح مع غطفان، وبث الإشاعات في صفوف الأعداء:

١ ـ سياسة النبي ﷺ في المفاوضات مع غطفان:

ظهرت حنكته ﷺ وحسن سياسته، حين اختار قبيلة غطفان بالذات لمصالحتها على مال يدفعه إليها على أن تترك محاربته وترجع إلى بلادها، فهو يعلم ﷺ أن غطفان وقادتها ليس لهم من وراء الاشتراك في هذا الغزو أي هدف سياسي يريدون تحقيقه أو باعث عقائدي يقاتلون تحت رايته، وإنما كان هدفهم الأول والأخير من الاشتراك في هذا الغزو الكبير هو الحصول

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٢٥).
(٢) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (٢/ ٤٢٤).
(٣) الأكحل: عرق في وسط الذراع في كل عضو منه شعبة إذا قطع لم يرقأ الدم.
(٤) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب إخراج اليهود (٣/ ١٣٨٩)، رقم (١٧٦٩).
(٥) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق رقم (٤١١١).

على المال بالاستيلاء عليه من خيرات المدينة عند احتلالها، ولهذا لم يحاول الرسول ﷺ الاتصال بقيادة الأحزاب من اليهود (كحيي بن أخطب، وكنانة بن الربيع) أو قادة قريش كأبي سفيان بن حرب، لأن هدف أولئك الرئيسي، لم يكن المال وإنما كان هدفهم هدفاً سياسياً وعقائدياً يتوقف تحقيقه والوصول إليه على هدم الكيان الإسلامي من الأساس، لذا فقد كان اتصاله (فقط) بقادة غطفان، الذين لم يترددوا (فعلاً) في قبول العرض الذي عرضه عليهم النبي ﷺ (١)، فقد استجاب القائدان الغطفانيان (عيينة بن حصن، والحارث بن عوف) لطلب النبي ﷺ وحضرا مع بعض أعوانهما إلى مقر قيادة النبي ﷺ واجتمعا به وراء الخندق مستخفين دون أن يعلم بهما أحد، وشرع رسول الله ﷺ في مفاوضتهم وكانت تدور حول عرض تقدم به رسول الله ﷺ يدعو فيه إلى عقد صلح منفرد بينه وبين غطفان، وأهم البنود التي جاءت في هذه الاتفاقية المقترحة:

أ - عقد صلح منفرد بين المسلمين وغطفان الموجودة ضمن جيوش الأحزاب.

ب - توادع غطفان المسلمين وتتوقف عن القيام بأي عمل حربي ضدهم (وخاصة في هذه الفترة).

جـ - تفك غطفان الحصار عن المدينة وتنسحب بجيوشها عائدة إلى بلادها.

د - دفع المسلمون لغطفان (مقابل ذلك) ثلث ثمار المدينة كلها من مختلف الأنواع، ويظهر أن ذلك لسنة واحدة (٢)، فقد ذكر الواقدي: أن رسول الله ﷺ قال لقائدي غطفان: أرأيت إن جعلت لكم ثلث تمر المدينة ترجعان بمن معكم وتخذلان بين الأعراب؟ قالا: تعطينا نصف تمر المدينة، فأبى رسول الله ﷺ أن يزيدهما على الثلث، فرضيا بذلك، وجاءا في عشرة من قومهما حين تقارب الأمر (٣).

ويعني قبول قائدي غطفان ما عرضه عليهما رسول الله ﷺ من الوجهة العسكرية، وضوح الهدف الذي خرجت غطفان من أجله، وهو الوقود الذي يشغل نفوس هؤلاء ويحركها في جبهة القتال، ولا شك في أن اختفاء هذا الدافع يعني أن المحارب فقد ثلثي قدرته على القتال، وبذلك تضعف عنده الروح المعنوية التي تدفعه إلى الاستبسال في مواجهة خصمه، وبذلك استطاع ﷺ أن يفتت ويضعف من قوة جبهة الأحزاب (٤).

فقد أبرز ﷺ في هذه المفاوضات جانباً من جوانب منهج النبوة في التحرك لفك الأزمات عند استحكامها وتأزمها، لتكون لأجيال المجتمع المسلم درساً تربوياً من دروس التربية المنهجية

---

(١) انظر: غزوة الأحزاب، محمد باشميل، (ص ٢٠١).
(٢) المصدر نفسه، (ص ٢٠١، ٢٠٢).
(٣) انظر: المغازي للواقدي (٢/ ٤٧٧).
(٤) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول، (ص ٤١٣).

عند اشتداد البلاء [(١)]، وقبل عقد الصلح مع غطفان شاور رسول الله ﷺ الصحابة في هذا الأمر، فكان رأيهم في عدم إعطاء غطفان شيئاً من ثمار المدينة. وقال السعدان سعد بن معاذ وسعد بن عبادة: يا رسول الله أمراً تحبه، فنصنعه، أم شيئاً أمرك الله به لا بدّ لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟ فقال: «بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما»، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة واحدة إلا قرى أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟ مالنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال النبي ﷺ: «أنت وذاك».

فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: ليجهدوا علينا [(٢)]. كان رد زعيمي الأنصار سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة في غاية الاستسلام للّه تعالى والأدب مع النبي ﷺ وطاعته، فقد جعلوا أمر المفاوضة مع غطفان ثلاثة أقسام: الأول أن يكون هذا الأمر من عند الله تعالى فلا مجال لإبداء الرأي بل لا بدّ من التسليم والرضا، والثاني: أن يكون شيئاً يحبه رسول الله ﷺ، باعتباره رأيه الخاص، فرأيه مقدم وله الطاعة في ذلك، الثالث: أن يكون شيئاً عمله الرسول ﷺ لمصلحة المسلمين من باب الإرفاق بهم، فهذا هو الذي يكون مجالاً للرأي.

ولما تبيّن للسعدين من جواب الرسول ﷺ أنه أراد القسم الثالث، أجاب سعد بن معاذ بجواب قوي كبت به زعيمي غطفان حيث بيّن أن الأنصار لم يذلوا لأولئك المعتدين في الجاهلية، فكيف وقد أعزهم الله تعالى بالإسلام، وقد أُعجب النبي ﷺ بجواب سعد وتبيّن له منه ارتفاع معنوية الأنصار واحتفاظهم بالروح المعنوية العالية، فألغى بذلك ما بدا به من الصلح مع غطفان [(٣)].

وفي قوله ﷺ: «إني قد علمت أن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة» [(٤)] دليل على أن رسول الله ﷺ كان يستهدف من عمله ألا يجتمع الأعداء عليه صفاً واحداً، وهذا يرشد المسلمين إلى عدة أمور منها:

* أن يحاول المسلمون التفتيش عن ثغرات القوى المعادية.

---

(١) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون، (ص ٤/ ١٧٦).
(٢) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٠٦).
(٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ١٢٥).
(٤) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٠٦).

* أن يكون الهدف الاستراتيجي للقيادة المسلمة تحييد من تستطيع تحييده، ولا تنسى القيادة الفتوى والشورى والمصلحة الآنية والمستقبلية للإسلام (١).

وفي استشارة رسول الله ﷺ للصحابة يبيّن لنا أسلوبه في القيادة وحرصه على فرض الشورى في كل أمر عسكري يتصل بالجماعة، فالأمر شورى ولا ينفرد به فرد حتى ولو كان هذا الفرد رسول الله ﷺ، ما دام الأمر في دائرة الاجتهاد ولم ينزل به وحي (٢).

إن قبول الرسول ﷺ رأي الصحابة في رفض هذا الصلح يدل على أن القائد الناجح هو الذي يربط بينه وبين جنده رباط الثقة، حيث يعرف قدرهم ويدركون قدره، ويحترم رأيهم ويحترمون رأيه، ومصالحة النبي ﷺ مع قائدي غطفان تعد من باب السياسة الشرعية التي تراعى فيها المصالح والمفاسد حسب ما تراه القيادة الرشيدة للأمة (٣).

إن موقف الصحابة من هذا الصلح يحمل في طياته ثلاثة معان:

أ ـ أنه يؤكد شجاعة المسلمين الأدبية في إبداء الرأي والمشورة في أي أمر يخص الجماعة، إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

ب ـ أنه يكشف عن جوهر المسلمين وعن حقيقة اتصالهم بالله ورسوله وبالإسلام.

جـ ـ أنه يبيّن ما تمتلىء به الروح المعنوية لدى المسلمين من قدرة على مواجهة المواقف الحرجة؛ بالصبر والرغبة القوية في قهر العدو مهما كثر عدده وعتاده، أو تعدد حلفاؤه (٤).

٢ ـ اهتمام الرسول ﷺ ببث الخذلان في صفوف الأعداء:

استخدم النبي ﷺ سلاح التشكيك والدعاية لتمزيق ما بين الأحزاب من ثقة وتضامن، فلقد كان يعلم ﷺ أن هناك تصدعاً خفيفاً بين صفوف الأحزاب، فاجتهد أن يبرزه ويوسع شقته ويستغله في جانبه، فقد سبق أن أطمع غطفان ففكك عزمها، والآن ساق المولى ﷻ نعيم بن مسعود الغطفاني إلى رسول الله ﷺ ليعلن إسلامه وقال له: يا رسول الله، إن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت، فقال له رسول الله ﷺ: «إنما أنت فينا رجل واحد فخذِّل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة» (٥).

فقام نعيم بزرع الشك بين الأطراف المتحالفة من رسول الله ﷺ، فأغرى اليهود بطلب

---

(١) انظر: الأساس في السنة (٢/ ٦٨٧).
(٢) انظر: العبقرية العسكرية في غزوات الرسول، (ص ٤١٤).
(٣) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول، (ص ٤١٤).
(٤) المصدر نفسه، (ص ٤١٥، ٤١٦).
(٥) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١١٣).

رهائن من قريش لئلا تدعهم وتنصرف عن الحصار، وقال لقريش بأن اليهود إنما تطلب الرهائن لتسليمها للمسلمين ثمناً لعودتها إلى صلحهم، لقد اشتهرت قصة نعيم بن مسعود في أنها لا تتنافى مع قواعد السياسة الشرعية، فالحرب خدعة [١].

وقد نجحت دعاية نعيم بن مسعود أيما نجاح، فغرست روح التشكيك، وعدم الثقة بين قادة الأحزاب، ما أدى إلى كسر شوكتهم، وتهبيط عزمهم، وكان من أسباب نجاح مهمة نعيم قيامها على الأسس التالية:

أ - أنه أخفى إسلامه عن كل الأطراف، بحيث وثق كل طرف فيما قدمه له من نصح.

ب - أنه ذكر بني قريظة بمصير بني قينقاع وبني النضير، وبصرهم بالمستقبل الذي ينتظرهم إن هم استمروا في حربهم للرسول ﷺ، فكان هذا الأساس سبباً في تغيير أفكارهم وقلب مخططاتهم العدوانية.

جـ - أنه نجح في إقناع كل الأطراف بأن يكتم كل طرف ما قال له، وفي استمرار هذا الكتمان نجاح في مهمته، فلو انكشف أمره لدى أي طرف من الأطراف لفشلت مهمته.

وهكذا قام نعيم بن مسعود بدور عظيم في غزوة الأحزاب [٢].

المبحث الثالث

مجيء نصر الله والوصف القرآني لغزوة الأحزاب

أولاً: شدة تضرع الرسول ﷺ ونزول النصر:

كان رسول الله ﷺ كثير التضرع والدعاء والاستعانة بالله، وخصوصاً في مغازيه، وعندما اشتد الكرب على المسلمين أكثر مما سبق حتى بلغت القلوب الحناجر وزلزلوا زلزالاً شديداً، فما كان من المسلمين إلا أن توجهوا إلى الرسول ﷺ وقالوا: يا رسول الله هل من شيء نقوله؟ فقد بلغت القلوب الحناجر، فقال: نعم... اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا [٣]. وجاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن أبي أوفى قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: «اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم [٤]»، فاستجاب الله سبحانه دعاء نبيه ﷺ فأقبلت بشائر الفرج، فقد صرفهم الله بحوله وقوته، وزلزل أبدانهم وقلوبهم

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٣٠).

(٢) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول، (ص ٤٧٧).

(٣) مسند الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري (٣/ ٢).

(٤) البخاري: كتاب المغازي: «باب غزوة الأحزاب» (٥/ ٥٩)، رقم (٤١١٤).

وشتت جمعهم بالخلاف، ثم أرسل عليهم الريح الباردة الشديدة، وألقى الرعب في قلوبهم وأنزل جنوداً من عنده سبحانه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩] .

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ وكانت هذه الريح معجزة للنبي ﷺ، لأن النبي ﷺ والمسلمين كانوا قريباً منهم، ولم يكن بينهم إلا عرض الخندق، وكانوا في عافية منها، ولا خبر عندهم لها... وبعث الله عليهم الملائكة فقلعت الأوتاد وقطعت أطناب الفساطيط [١]، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وجالت الخيول بعضها في بعض، وأرسل عليهم الرعب، وكثر تكبير الملائكة في جوانب المعسكر حتى كان سيد كل خباء يقول: يا بني فلان هلم إليّ، فإذا اجتمعوا قال لهم: النجاء النجاء، لما بعث الله عليهم الرعب [٢].

وحرص الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يؤكد لصحبه، ثم للمسلمين في الأرض، أن هذه الأحزاب التي تجاوزت عشرة آلاف مقاتل لم تُهزم بالقتال من المسلمين ـ رغم تضحياتهم ـ ولـم تهزم بعبقرية المواجهة، إنما هزمت بالله وحده: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩] .

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا إله إلا الله وحده، أعز جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده» [٣].

ودعاء رسول الله ﷺ ربه، واعتماده عليه وحده، لا يتناقض أبداً مع التماس الأسباب البشرية للنصر، فقد تعامل ﷺ في هذه الغزوة مع سنّة الأخذ بالأسباب، فبذل جهده لتفريق الأحزاب، وفك الحصار، وغير ذلك من الأمور التي ذكرناها [٤].

إن رسول الله ﷺ يعلمنا سنّة الأخذ بالأسباب وضرورة الالتجاء إلى الله وإخلاص العبودية له، لأنه لا تجدي وسائل القوة كلها إذا لم تتوافر وسيلة التضرع إلى الله والإكثار من الإقبال عليه بالدعاء والاستغاثة، فقد كان الدعاء والتضرع إلى الله من الأعمال المتكررة الدائمة التي فزع إليها رسول الله ﷺ في حياته كلها [٥].

ثانياً: تحري انصراف الأحزاب:

كان رسول الله ﷺ يتابع أمر الأحزاب، وأحب أن يتحرى عما حدث عن قرب فقال: «ألا

(١) الفساطيط: جمع فسطاط، نوع من الأبنية في السفر وهو دون السرادق.
(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٤/ ١٤٤).
(٣) البخاري: كتاب المغازي، باب «غزوة الخندق» رقم (٤١١٤).
(٤) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان، (ص ٥٠٣).
(٥) انظر: فقه السيرة للبوطي: (ص ٢٢٢).

رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة» [١]، فاستعمل ﷺ أسلوب الترغيب وكرره ثلاث مرات، وعندما لم يُجد هذا الأسلوب لجأ إلى أسلوب الجزم والحزم في الأمر، فعيّن واحداً بنفسه فقال: «قم يا حذيفة فائتنا بخبر القوم ولا تَذْعَرْهُم عليّ» [١].

وفي هذا معنى تربوي وهو أن القيادة الناجحة هي التي توجه جنودها إلى أهدافها عن طريق الترغيب والتشجيع، ولا تلجأ إلى الأمر والحزم إلا عند الضرورة.

قال حذيفة ـ رضي الله عنه ـ: فمضيت كأنما أمشي في حمام، فإذا أبو سفيان يصلّي ظهره بالنار فوضعت سهماً في كبد القوس وأردت أن أرميه، ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ: «لا تذعرهم عليّ» ولو رميته لأصبته، فرجعت كأنما أمشي في حمام، فأتيت رسول الله ﷺ وأصابني البرد حين رجعت وقررت، فأخبرت رسول الله ﷺ، وألبسني فضل عباءة كانت عليه يصلّي فيها، فلم أبرح نائماً حتى الصبح، فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ: «قم يا نومان» [٢].

ويؤخذ من قصة حذيفة دروس وعِبَر منها:

١ ـ معرفة رسول الله ﷺ بمعادن الرجال حيث اختار حذيفة ليقوم بمهمة التجسس على الأحزاب، وأن معدن حذيفة معدن ثمين فهو شجاع، ولا يقوم بهذه الأعمال إلا من كان ذا شجاعة نادرة، وهو بالإضافة إلى ذلك لبق ذكي خفيف الحركة، سريع التخلص من المآزق الحرجة.

٢ ـ الانضباط العسكري الذي كان يتحلى به حذيفة: لقد مرت فُرصة سانحة يقتل فيها قائد الأحزاب وهمّ بذلك، ولكنه ذكر أمر الرسول ﷺ ألا يذعرهم وأن مهمته الإتيان بخبرهم، فنزع سهمه من قوسه [٣].

٣ ـ كرامات الأولياء: إن ما حدث لحذيفة بن اليمان عندما سار لمعرفة خبر الأحزاب في جو بارد ماطر شديد الريح، وإذا به لا يشعر بهذا الجو البارد، ويمشي وكأنما يمشي في حمام، وتلازمه هذه الحالة مُدة بقائه بين الأحزاب وحتى عاد إلى معسكر المسلمين، لا شك هذه كرامة يمن الله بها على عباده المؤمنين [٤].

٤ ـ لطف النبي ﷺ مع حذيفة عند رجوعه، فقد كان ﷺ يترفق بأصحابه، ولم تمنعه صلاة الليل وحلاوة المناجاة من التلطف بحذيفة، الذي جاء بأحسن الأنباء وأصدق الأخبار وأهمها، فشمله بكسائه الذي يصلي فيه، ليدفئه، وتركه ملفوفاً به حتى أتم صلاته، بل

---

(١) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب «غزوة الأحزاب» رقم (١٧٨٨).

(٢) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب «غزوة الأحزاب» رقم (١٧٨٨).

(٣) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان، (ص ٥٠٥)، السيرة النبوية لأبي فارس، (ص ٣٦٧).

(٤) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس، (ص ٣٦٧).

حتى بعد أن أفضى إليه بالمهمة، فلما وجبت المكتوبة أيقظه بلطف وخفة ودعابة، قائلاً: «قم يا نومان»، دعابة تقطر حلاوة وتفيض بالحنان، وتسيل رقة، إنها صورة نموذجية للرأفة والرحمة اللتين تحلى بهما فؤاد الرسول ﷺ، وتطبيق فريد رفيع لهما في أصحابه الكرام [١]، وصدق الله العظيم في قوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

٥ ـ وتستوقفنا سرعة البديهة لدى الصحابي الكريم، وقد دخل في القوم كما في رواية الزرقاني، وقال أبو سفيان: ليأخذ كل رجل منكم بيد جليسه، قال حذيفة: فضربت بيدي على يد الذي عن يميني فقلت: من أنت؟ قال: معاوية بن أبي سفيان، ثم ضربت بيدي على يد الذي عن شمالي، فقلت: من أنت؟ قال: عمرو بن العاص [٢].

وهكذا بدرهم بالمسألة حتى لا يتيح لهم فرصة ليسألوه وبهذا تخلص من هذا المأزق الحرج الذي ربما كان أودى بحياته [٣].

ثالثاً: الوصف القرآني لغزوة الأحزاب ونتائجها:

تحدث القرآن الكريم عن غزوة الأحزاب، ورد الأمر كله للّه سبحانه، وقد سجّل القرآن الكريم غزوتي الأحزاب وقريظة، والقرآن كعهدنا به يسجل الخالدات التي تسع الزمان والمكان، فالمسلمون معرضون دائماً لأن يُغزوا في عقر دارهم وفي عواصم بلدانهم، ومعرضون لأن يتكالب عليهم الأعداء جميعاً، فإن يسجل القرآن حادثتي الأحزاب وقريظة فذلك من سمة التكرار على مدى العصور [٤] لكي يستفيد المسلمون من الدروس والعِبَر من الحوادث السابقة التي ذكرت في القرآن الكريم على وجه الخصوص، والذي يتدبر حديث القرآن عن غزوة الأحزاب يراه قد اهتم ببيان أمور من أهمها ما يلي:

١ ـ تذكير المؤمنين بنعم الله عليهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

٢ ـ التصوير البديع لما أصاب المسلمين من هم بسبب إحاطة الأحزاب بالمدينة: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠].

---

(١) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة، (ص ٢٤٦).
(٢) انظر: شرح الزرقاني (٢/ ١٢٠).
(٣) انظر: من معين السيرة، (ص ٢٩٣).
(٤) انظر: الأساس في السنة (٢/ ٦٦٢).

٣ - الكشف عن نوايا المنافقين السيئة، وأخلاقهم الذميمة، وجبنهم الخالع، ومعاذيرهم الباطلة ونقضهم للعهود، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

٤ - حض المؤمنين في كل زمان ومكان على التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله، وجهاده، وكل أحواله استجابة لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

٥ - مدح المؤمنين على مواقفهم النبيلة وهم يواجهون جيوش الأحزاب بإيمان صادق، ووفاء بعهد الله تعالى، قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

٦ - بيان سنة من سنن الله التي لا تتخلف، وهي جعل العاقبة للمؤمنين والهزيمة لأعدائهم، قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

٧ - امتنانه سبحانه على عباده المؤمنين حيث نصرهم على بني قريظة وهم في حصونهم المنيعة بدون قتال يذكر، حيث ألقى سبحانه الرعب في قلوبهم فنزلوا على حكم الله ورسوله [(١)]، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٦، ٢٧].

لقد كانت غزوة الأحزاب من الغزوات الهامة التي خاضها المسلمون ضد أعدائهم وحققوا فيها نتائج مهمة منها:

* انتصار المسلمين، وانهزام أعدائهم وتفرقهم، ورجوعهم مدحورين بغيظهم، قد خابت أمانيهم وآمالهم.
* تغيّر الموقف لصالح المسلمين، فانقلبوا من موقف الدفاع إلى الهجوم، وقد أشار إلى ذلك النبي ﷺ حيث قال: «الآن تغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم» [(٢)].
* كشفت هذه الغزوة حقد يهود بني قريظة على المسلمين وتربص الدوائر بهم، فقد نقضوا عهدهم مع النبي ﷺ في أحلك الظروف وأصعبها.
* كشفت غزوة الأحزاب حقيقة صدق إيمان المسلمين وحقيقة المنافقين وحقيقة يهود

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (٢/ ٤٩٠، ٤٩١).

(٢) البخاري، كتاب المغازي، باب «غزوة الخندق»، رقم (٤١١٠).

بني قريظة، فكان الابتلاء بغزوة الأحزاب تمحيصاً للمسلمين وإظهار حقيقة المنافقين واليهود.

* كانت غزوة بني قريظة نتيجة من نتائج غزوة الأحزاب، حيث تم فيها محاسبة يهود بني قريظة الذين نقضوا العهد مع النبي ﷺ في أحلك الظروف وأقساها [(١)].

رابعاً: التخلص من بني قريظة:

بعد عودة النبي ﷺ من الخندق ووضعه السلاح، أمر الله تعالى نبيه بقتال بني قريظة، فأمر الحبيب ﷺ أصحابه بالتوجه إليهم، وقد أعلمهم بأن الله تعالى قد أرسل جبريل ليزلزل حصونهم ويقذف في قلوبهم الرعب وأوصاهم بأن «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة» [(٢)].

وضرب المسلمون الحصار على بني قريظة خمساً وعشرين ليلة [(٣)]، ولما اشتد الحصار وعظم البلاء على بني قريظة، أرادوا الاستسلام والنزول على أن يحكِّم الرسول ﷺ فيهم سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ ونزلوا على حكمه ورأوا أنه سيرأف بهم بسبب الحلف بينهم وبين قومه الأوس، فجيء بسعد محمولاً لأنه كان قد أصابه سهم في ذراعه يوم الخندق، فقضى أن تُقتل المقاتلة وأن تُسبى النساء والذرية، وأن تُقسم أموالهم، فأقره رسول الله ﷺ وقال: قضيت بحكم الله [(٤)]، ونفذ حكم الإعدام في أربعمائة في سوق المدينة حيث حفرت أخاديد وقتلوا بشكل مجموعات، وقد نجا مجموعة قليلة جداً بسبب وفائها للعهد ودخولها في الإسلام، وقسمت أموالهم وذراريهم على المسلمين.

وهذا جزاء عادل نزل بمن أراد الغدر وتبرأ من حلفه للمسلمين، وكان جزاؤهم من جنس عملهم، حين عرضوا بخيانتهم أرواح المسلمين للقتال وأموالهم للنهب، ونساءهم وذراريهم للسبي، فكان أن عوقبوا بذلك جزاءً وفاقاً [(٥)].

ولم تقتل من نساء بني قريظة إلا واحدة، ونترك السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ تحدثنا عنها قالت السيدة عائشة: لم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة قالت: والله إنها لعندي تتحدث معي تضحك ظهراً وبطناً [(٦)] ورسول الله ﷺ يقتل رجالهم بالسوق إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة؟ قالت: أنا والله، قالت: قلت: ويلك ومالك؟ قالت: أقتل، قلت: ولم؟ قالت: حدثاً

(١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (٢/ ٤٤٢).
(٢) البخاري: كتاب المغازي، باب «مرجع باب النبي ﷺ من الأحزاب» رقم (٤١١٩).
(٣) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٣٧٣).
(٤) البخاري: كتاب المغازي، «مرجع رسول الله من الأحزاب»، رقم (٤١٢١).
(٥) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣١٥ ـ ٣١٧).
(٦) ظهراً وبطناً: لا يبدو على ملامحها أثر الحزن.

أحدثته [١] قالت: فانطلق بها، فضربت عنقها، وكانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تقول: والله ما أنسى عجبي من طيب نفسها، وكثرة ضحكها، وقد عرفت أنها تقتل [٢].

بالقضاء على بني قريظة خلت المدينة تماماً من الوجود اليهودي، وصارت خالصة للمسلمين، وخلت الجبهة الداخلية من عنصر خطر، لديه القدرة على المؤامرة والكيد والمكر، واضمحل حلم قريش لأنها كانت تعوّل وتؤمل في يهود بأن يكون لهم موقف ضد المسلمين، وابتعد خطر اليهود الذي كان يمد المنافقين بأسباب التحريض والقوة [٣].

إن حماية الجبهة الداخلية للدولة الإسلامية من العابثين منهج نبوي كريم رسمه الحبيب المصطفى للأمة المسلمة.

المبحث الرابع

فوائد ودروس وعِبَر

أولاً: المعجزات الحسية لرسول الله ﷺ:

ظهرت خلال مرحلة حفر الخندق معجزات حسية للنبي ﷺ، منها تكثير الطعام الذي أعدّه جابر بن عبد الله، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: إنا يوم الخندق مُحفر [٤] فعرضت كُدْيَة شديدة، فجاؤوا النبي ﷺ، فقالوا: هذه كُدية عرضت في الخندق، فقال: «أنا نازل» ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً، فأخذ النبي ﷺ المعول، فضرب في الكدية فعاد كثيباً أهيل [٥] أو أهيم [٦].

قال جابر: فقلت يا رسول الله، ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي ﷺ شيئاً ما كان في ذلك صبرٌ، فعندك شيء؟ فقالت: عندي شعير وعَناق [٧]، فذبحت العَناق وطحنت الشعير، حتى جعلنا اللحم في البرمة [٨]، ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافي [٩]، وقد كادت أن تنضج، فقلت: طُعَيِّمٌ لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان،

---

(١) طرحت الرحا على خلاد بن سويد فقتلته، فقتلها رسول الله به.
(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٣٧٧).
(٣) انظر: سيرة الرسول،دروزة (٢/ ٧٦) نقلاً عن دراسات في عهد النبوة للشجاع (ص ١٥٣).
(٤) محفر: اسم فاعل من حفّر.
(٥) أهيل: رملاً سائلاً. انظر: النهاية في غريب الحديث (٥/ ٢٨٩).
(٦) أهيم: الرمل الذي لا يتمالك. انظر لسان العرب (٣/ ٨٥٨).
(٧) العناق: الأنثى من أولاد المعز. انظر: النهاية في غريب الحديث (٣/ ٣١٠).
(٨) البرمة: هي القدر مطلقاً. انظر: النهاية في غريب الحديث (١/ ١٢١).
(٩) الأثافي: الحجارة التي تنصب ويجعل القدر عليها. انظر: القاموس المحيط (٣/ ١٢٠).

قال «كم هو؟»فذكرت له، فقال «كثير طيب»، قال: «قل لها: لا تنزع البرمة، ولا الخبز من التنُّور حتى آتي» فقال: «قوموا» فقام المهاجرون والأنصار، فلما دخل على امرأته قال: ويحك جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم، فقال: «ادخلوا ولا تضاغطوا» (١)، فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه، ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع، فلم يزل يكسّر الخبز، ويغرف حتى شبعوا وبقي بقية، قال: «كلي هذا وأهدي، فإن الناس أصابتهم مجاعة» (٢).

وهذه ابنة بشير بن سعد تقول: دعتني أمي عمرة بنت رواحة فأعطتني حفنة من تمر في ثوبي، ثم قالت: أي بُنَيَّة، اذهبي إلى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما، قالت: فأخذتها فانطلقت بها، فمررت برسول الله ﷺ وأنا ألتمس أبي وخالي، فقال: «تعالي يا بنية ما هذا معك؟» فقلت: يا رسول الله، هذا تمر بعثتني به أمي إلى أبي بشير بن سعد وخالي عبد الله بن رواحة يتغديانه، قال: «هاتيه»، قالت: فصببته في كفي رسول الله ﷺ فما ملأتهما، ثم أمر بثوب فبسط له ثم دعا بالتمر عليه فتبدد فوق الثوب، ثم قال لإنسان عنده: «اصرخ في أهل الخندق أن هلمَّ إلى الغداء»، فاجتمع أهل الخندق عليه، فجعلوا يأكلون منه وجعل يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنه ليسقط من أطراف الثوب (٣).

ففي هذين الخبرين معجزات حسية ظاهرة للرسول ﷺ، كما يظهر دور المرأة المسلمة في مشاركة المسلمين في جهادهم، فعندما اشتغل المسلمون بحفر الخندق تركوا أعمالهم، وبعدت عنهم أرزاقهم، وقلّ عنهم القوت، وأصاب الناس جوع وحرمان، حتى كان رسول الله ﷺ والمسلمون معه يشدون على بطونهم الحجارة من شدة الجوع، فكانت المرأة المسلمة تعين المسلمين بإعداد ما قدرت عليه من الطعام (٤).

ومن دلائل النبوة أثناء حفر الخندق: إخباره ﷺ عمار بن ياسر، وهو يحفر معهم الخندق، بأنه ستقتله الفئة الباغية، فقتل في صفين وكان في جيش علي (٥)، وعندما اعترضت صخرة الصحابة وهم يحفرون، ضربها الرسول ﷺ ثلاث ضربات فتفتتت، قال إثر الضربة الأولى: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمراء الساعة»، ثم ضربها الثانية، فقال: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض»، ثم ضرب الثالثة، وقال: «الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من

---

(١) ولا تضاغطوا: أي لا تزاحموا، انظر: لسان العرب (٢/ ٥٣٧).
(٢) البخاري: كتاب المغازي، باب «غزوة الخندق» رقم (٤١٠١).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٤١).
(٤) انظر: المرأة في العهد النبوي، (ص ١٧٥).
(٥) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص ٤٤٨).

مكاني هذه الساعة»[١].

وقد تحققت هذه البشارة التي أخبرت عن اتساع الفتوحات الإسلامية والإخبار عنها، في وقت كان المسلمون فيه محصورين في المدينة، يواجهون المشاق والخوف والجوع والبرد القارس[٢].

ثانياً: بين التصور والواقع:

قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله، أرأيتم رسول الله وصحبتموه؟ قال: نعم يا ابن أخي، قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد، قال: فقال والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض، ولحملناه على أعناقنا، فقال حذيفة: يا ابن أخي والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق[٣]... ثم ذكر حديث تكليفه بمهمة الذهاب إلى معسكر المشركين.

هذا تابعي يلتقي بالصحابي حذيفة، ويتخيل أنه لو وجد مع رسول الله ﷺ لاستطاع أن يفعل ما لم يفعله الصحابة الكرام، والخيال شيء والواقع شيء آخر، والصحابة رضي الله عنهم بشر، لهم طاقات البشر، وقدراتهم، وقد قدموا كل ما يستطيعون، فلم يبخلوا بالأنفس فضلاً عن المال والجهد، وقد وضع ﷺ الأمور في نصابها بقوله: «خير القرون قرني» فبيّن أن عملهم لا يعدله عمل.

إن الذين جاءوا من بعد، فوجدوا سلطان الإسلام ممتداً، وعاشوا في ظل الأمن والرخاء والعدل، بعيدين عن الفتنة والابتلاء، هم بحاجة إلى نقلة بعيدة يستشعرون من خلالها أجواء الماضي، بكل ما فيه من جهالات وضلالات وكفر... وبعد ذلك يمكنهم تقدير الجهد المبذول من الصحابة حتى قام الإسلام في الأرض[٤].

ثالثاً: سلمان منا أهل البيت[٥]:

قال المهاجرون يوم الخندق: سلمان منا، وقالت الأنصار: سلمان منا، فقال رسول الله ﷺ: «سلمان منا أهل البيت»[٦]. وهذا الوسام النبوي الخالد لسلمان يشعر بأن سلمان من المهاجرين لأن أهل البيت من المهاجرين[٧].

---

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص ٤٤٨).
(٢) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٢٥).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٥٥).
(٤) انظر: من معين السيرة للشامي، (ص ٢٩١).
(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٤٧).
(٦) المصدر نفسه، (٣/ ٢٤٧) ضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير.
(٧) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ١٠٨).

رابعاً: الصلاة الوسطى:

قال ﷺ: «ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم ناراً، كما شغلونا عن صلاة الوسطى حتى غابت الشمس» (١).

وقد استدل طائفة من العلماء بهذا الحديث على كون الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، كما هو منصوص عليه، وألزم القاضي الماوردي مذهب الشافعي بهذا لصحة الحديث، وقد استدل طائفة من العلماء بهذا الصنيع على جواز تأخير الصلاة لعذر القتال كما هو مذهب مكحول والأوزاعي (٢).

قال الدكتور البوطي: لقد فاتت النبي ﷺ صلاة العصر كما رأيت في هذه الموقعة، لشدة انشغاله، حتى صلاها قضاء بعدما غربت الشمس، وفي روايات أخرى غير الصحيحين أن الذي فاته أكثر من صلاة واحدة، صلاها تباعاً بعدما خرج وقتها وفرغ لأدائها وهذا يدل على مشروعية قضاء الفائتة، ولا ينقض هذه الدلالة ما ذهب إليه البعض من أن تأخير الصلاة لمثل ذلك الانشغال كان جائزاً إذ ذاك، ثم نسخ حينما شرعت صلاة الخوف للمسلمين؛ رجالاً وركباناً عند التحام القتال بينهم وبين المشركين، إذ النسخ على فرض صحته ليس وارداً على مشروعية القضاء، وإنما هو وارد على صحة تأخير الصلاة بسبب الانشغال، أي أن نسخ صحة التأخير ليس نسخاً لما كان قد ثبت من مشروعية القضاء أيضاً، بل هي مسكوت عنها، فتبقى على مشروعيتها السابقة (٣).

خامساً: الحلال والحرام:

عرضت قريش فداءً مقابل جثة عمرو بن ود، فقال ﷺ: «ادفعوا إليهم جيفته فإنه خبيث الجيفة، خبيث الدية فلم يقبل منهم شيئاً».

حدث هذا والمسلمون في ضنك من العيش، ومع ذلك فالحلال حلال والحرام حرام، إنها مقاييس الإسلام في الحلال والحرام، فأين هذا من بعض المسلمين، الذين يحاولون إيجاد المبررات لأكل الربا وما شابهه (٤).

سادساً: شجاعة صفية عمة الرسول ﷺ:

كان ﷺ قد وضع النساء والأطفال في حصن فارع وهو حصن قوي، حماية لهم، لأن المسلمين في شغل عن حمايتهم لمواجهتهم جيوش الأحزاب، فعندما نقض يهود بني قريظة

---

(١) البخاري: كتاب المغازي، باب «غزوة الخندق» رقم (٤١١١).
(٢) انظر: الأساس في السنة (٢/ ٦٨٢).
(٣) انظر: فقه السيرة النبوية، (ص ٢٢٣).
(٤) انظر: معين السيرة، (ص ٢٩٤).

عهدهم مع رسول الله ﷺ أرسلت يهودياً ليستطلع وضع الحصن الذي فيه نساء المسلمين وأطفالهم، فأبصرته صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ ، فأخذت عموداً ونزلت من الحصن فضربته بالعمود فقتلته، فكان هذا الفعل من صفية رادعاً لليهود من التحرش بهذا الحصن الذي ليس فيه إلا النساء والأطفال، حيث ظنت يهود بني قريظة أنه محمي من قبل الجيش الإسلامي، أو أن فيه على الأقل من يدافع عنه من الرجال [١]، ففي هذا الخبر دليل للمرأة في الدفاع عن نفسها إن لم تجد من يدافع عنها [٢].

سابعاً: عدم صحة ما يروى عن جبن حسان - رضي الله عنه -:

ففي قصة صفية عمة رسول الله ﷺ وقتلها لليهودي جاء في رواية سندها ضعيف [٣] أن صفية - رضي الله عنها - قالت لحسان بن ثابت: إن هذا اليهودي يطيف بالحصن كما ترى، ولا آمنه أن يدل على عورتنا من ورائنا من يهود، وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه فانزل إليه فاقتله. فقال: يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا، قالت صفية: فلما قال ذلك، احتجزت عموداً ثم نزلت من الحصن إليه، فضربته بالعمود حتى قتلته، ثم رجعت الحصن، فقلت: يا حسان انزل فاستلبه، فإنه لم يمنعني أن أستلبه إلا أنه رجل، فقال: مالي بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب [٤].

وهذا الخبر لا يصح لأمور منها:

١ - من حيث الإسناد فالخبر ليس مسنداً وهو ساقط لا يصح، ولا يجوز أن يروى فيساء إلى صحابي من صحابة رسول الله ﷺ كان ينافح عن الدعوة وعن رسول الله ﷺ عمره كله.

٢ - لو كان حسان بن ثابت - رضي الله عنه - معروفاً بالجبن الذي ذكر عنه لهجاه أعداؤه ومبغضوه بهذه الخصلة الذميمة، لا سيما الذين كان يهاجيهم، فلم يسلم من هجاته أحد من زعماء الجاهلية، والرسول ﷺ كان يؤيده ويدعو له، ويشجعه على هجاء زعماء المشركين [٥].

ثامناً: أول مستشفى إسلامي حربي:

أنشأ المسلمون أول مستشفى إسلامي حربي في غزوة الأحزاب، فقد ضرب الرسول صلوات الله وسلامه عليه خيمة في مسجده الشريف في المدينة، عندما دارت رحى غزوة

(١) انظر: الرحيق المختوم، (ص ٢٨٣، ٢٨٤).
(٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدعوة الدعاة (٢/ ٢٤٦).
(٣) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٣٦٥).
(٤) المصدر نفسه، (ص ٣٦٥).
(٥) انظر: غزوة الأحزاب، الدكتور أبو فارس.

الأحزاب، فأمر ﷺ أن تكون رفيدة الأسلمية الأنصارية رئيسة ذلك المستشفى النبوي الحربي، وبذلك أصبحت أول ممرضة عسكرية في الإسلام (١)، وجاء في السيرة النبوية لابن هشام... وكان ﷺ قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم، يقال لها رفيدة، في مسجده، كانت تداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة من به ضيعة من المسلمين، وكان ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق: «اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب...» (٢).

ويفهم من النص السابق أن من أصيب من المسلمين، إن كان له أهل، اعتنى به أهله، وإن لم يكن له أهل، جيء به إلى المسجد حيث ضُربت خيمة فيه لمن كانت به ضيعة من المسلمين، وسعد بن معاذ الأوسي ليس به ضيعة، ولكن لما أراد الرسول ﷺ الاطمئنان عليه باستمرار، جعله في تلك الخيمة التي أعدت لمن به ضيعة وليس له أهل، ذلك أن هؤلاء في رعاية رسول الله ﷺ، وإلا فلِمَ ضُرِبت الخيمة في المسجد، وكان الإمكان ضربها في مكان آخر؟

إن سعد بن معاذ يكرم لمآثره وما بذله في سبيل الله تعالى، فيكون هذا التكريم أن يجعل في خيمة أعدت لمن به ضيعة، وهكذا حينما يرتفع السادة يجعلون مع المغمورين الذين أخلصوا أعمالهم للّه تعالى، فاستحقوا أن يكونوا في رعاية رسول الله ﷺ (٣)، وهذا منهج نبوي كريم أصبح دستوراً للمسلمين على مدى الزمن.

تاسعاً: المسلم يقع في الإثم ولكنه يسارع في التوبة:

أرسل بنو قريظة إلى أبي لبابة بن عبد المنذر ـ وكانوا حلفاؤه ـ فاستشاروه في النزول على حكم رسول الله ﷺ، فأشار إلى حلقه ـ يعني الذبح ـ ثم ندم فتوجه إلى مسجد النبي ﷺ فارتبط به حتى تاب الله عليه، وقد ظل مرتبطاً بالجذع في المسجد ست ليال تأتيه امرأته في وقت كل صلاة فتحله للصلاة، ثم يعود فيرتبط في الجذع (٤)، وقد قال أبو لبابة: لاأبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليّ مما صنعت، قالت أم سلمة: فسمعت رسول الله ﷺ من السحر وهو يضحك فقلت: مما تضحك يا رسول الله؟ أضحك الله سنك. قال: «تيب على أبي لبابة»، قالت: قلت: أفلا أبشره يا رسول الله؟ قال: بلى إن شئت، فقامت على باب حجرتها وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب، فقالت: يا أبا لبابة، أبشر فقد تاب الله عليك، قالت: فثار الناس ليطلقوه فقال: لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يُطلقني بيده. فلما مرّ عليه رسول الله ﷺ خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه (٥) عنه، وذلك في

(١) انظر: المستشفيات الإسلامية، الدكتور عبد الله السعيد، (ص ٤٣).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٦٣).
(٣) انظر: من معين السيرة، (ص ٢٩٤).
(٤) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٢٨٦).
(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٦٢).

الاعتراف بالذنب والتوبة النصوح، وإن موطن العبرة في هذا الموقف يكمن في تصرف أبي لبابة بعدما وقعت منه هذه الزلة التي أفشى بها سراً حربيًا خطيراً، فأبو لبابة لم يحاول التكتم على ما بدر منه والظهور أمام رسول الله ﷺ والمسلمين بمظهر الرجل الذي أدى مهمته بنجاح، وأنه لم يحصل منه شيء من المخالفات، وكان بإمكانه أن يخفي هذا الأمر حيث لم يطَّلع عليه أحد من المسلمين، وأن يستكتم اليهود أمره، ولكنه تذكّر رقابة الله عليه وعلمه بما يُسر ويعلن، وتذكّر حق رسول الله ﷺ العظيم عليه وهو الذي ائتمنه على ذلك السر، ففزع لهذه الزلة فزعاً عظيماً [(١)]، وأقرّ بذنبه واعترف به وبادر إلى العقوبة الذاتية التلقائية، دون انتظار التحقيق وتوقيع العقوبة الواجبة، إنها صورة تطبيقية لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النِّساء: ١٧] .

إنها صورة فريدة لتوقيع التوبة من الإنسان نفسه على نفسه... ولا يفعل ذلك إلا أهل الإيمان، وما ذلك إلا من آثار الإيمان العميق الراسخ، الذي لا يرضى لصاحبه أن يخالطه إثم أو فسوق.

وقد فرح الصحابة وفرح النبي ﷺ نفسه، بتوبة الله على أبي لبابة، وتسابقوا إلى تهنئته، حتى كانت أم سلمة زوجة النبي ﷺ هي التي بادرت بالتهنئة بعد الإذن فبشّرته بقبول الله توبته [(٢)].

وقد أنزل الله تعالى في أبي لبابة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧] .

ونزل في توبته قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢] [(٣)].

عاشراً: من فضائل سعد بن معاذ رضي الله عنه:

ظهرت لسعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ في هذه الغزوة فضائل كثيرة تدل على فضله ومنزلته عند الله ورسوله ﷺ منها:

استجابة الله تعالى لدعائه عندما قال: (اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك ﷺ، وأخرجوه، اللهم فإن بقي من حرب قريش شيء، فأبقني له حتى أجاهدهم فيك)، وقد استجيب دعاؤه فتحجر جرحه وتماثل للشفاء [(٤)] حتى كانت غزوة

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ١٦٥).
(٢) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة (ص ٢٦١).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٦٢).
(٤) انظر: فقه السيرة للبوطي، (ص ٢٢٨).

بني قريظة، وجعل رسول الله ﷺ الحكم فيهم إليه، فحكم فيهم بالحق ولم تأخذه في الله لومة لائم وهذا دليل على تجرد قلبه لله تعالى [(١)].

ومن إكرام رسول الله ﷺ قوله للأنصار عندما جاء سعد للحكم في بني قريظة: «قوموا إلى سيدكم» [(٢)].

وهذا تكريم لسعد، وتقرير لشجاعته، حيث سماه سيداً، وأمر بالقيام له [(٣)].

وعندما نفذ حكم الله في يهود بني قريظة رفع سعد يده يدعو الله ثانية يقول: اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم (يعني قريشاً والمشركين) فإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها واجعل موتي فيها [(٤)]، وقد استجيب دعاؤه فانفجر جرحه تلك الليلة ومات رضي الله عنه [(٥)].

ومن خلال دعائه الأول والثاني: نلحظ هذا الدعاء العجيب، دعاء العظماء الذين يعرفون أن رسالتهم في الحياة ليست الاستشهاد فقط، بل متابعة الجهاد إلى اللحظة الأخيرة، فهو المسؤول عن نصرة الإسلام في قومه وأمته [(٦)].

ونرى من سيرته أنه لو أقسم على الله لأبره، فهو وجيه في السموات والأرض. فقد شاءت إرادة المولى ـ تعالى ـ أن يعيد الأمر في بني قريظة كله إليه، وأن يطلب بنو قريظة أن يكون الحكم فيهم لسعد بن معاذ.

إنه لا يحرص كثيراً على الحياة، بعد انتهاء الجهاد، وانتهاء المسؤولية، وتأدية الأمانة المنوطة به في قيادة قومه لحرب الأحمر والأسود من الناس، فإذا انتهت الحرب ووضعت بين المسلمين وقريش، وشفى غيظ قلبه في الحكم في بني قريظة، وبدأ قطف الثمار للإسلام، فلا ثمرة أشهى عنده من الشهادة (فافجر جرحي واجعل موتي فيه) [(٧)].

وقد تحققت آماله، فقد أصدر حكمه في بني قريظة وشهد مصرع حلفاء الأمس أعداء اليوم، وهاهو جرحه ينفجر [(٨)].

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ١٧٠).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٦٣).
(٣) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة، (ص ٢٦٥).
(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٧٥).
(٥) انظر: فقه السيرة للبوطي، (ص ٢٢٨).
(٦) انظر: التربية القيادية (٣/ ٧٠).
(٧) المصدر نفسه، (٤/ ٧١).
(٨) المصدر نفسه، (٤/ ٧٤).

وعندما انفجر جرحه نقله قومه فاحتملوه إلى بني عبد الأشهل إلى منازلهم، وجاء رسول الله ﷺ فقيل: انطلقوا فخرج وخرج معه الصحابة، وأسرع حتى تقطعت شسوع نعالهم، وسقطت أرديتهم فشكا ذلك إليه أصحابه، فقال: «إني أخاف أن تسبقنا الملائكة فتغسله كما غسلت حنظلة»، فانتهى إلى البيت وهو يُغسل، وأمه تبكيه وتقول:

ويـــل أم ســـعـــداً ســـعـــداً حـــزامـــة وجـــداً

فقال: «كل نائحة تكذب إلا أم سعد»، ثم خرج به، قال: يقول له القوم: ما حملنا يا رسول الله ميتاً أخف علينا منه. قال: «وما يمنعه أن يخف، وقد هبط من الملائكة كذا وكذا، لم يهبطوا قط قبل يومهم قد حملوه معكم»(١).

وقد جاء في النسائي عن ابن عمر - رضي الله عنهما - عدد الملائكة الذين شاركوا في تشييع جنازة سعد فقد قال ﷺ: هذا العبد الصالح الذي تحرك له العرش، وفُتحت أبواب السماء، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة، لم ينزلوا إلى الأرض قبل ذلك، لقد ضُمَّ ضمة ثم أفرج عنه(٢) يعني سعداً.

وها هو رسول الله ﷺ يودع سعداً كما روى عبد الله بن شداد: دخل رسول الله ﷺ وهو يكيد نفسه فقال: «جزاك الله خيراً من سيد قوم. فقد أنجزت ما وعدته، ولينجزك الله ما وعدك»(٣).

لقد أثنى النبي ﷺ على هذا العبد الصالح بعد موته كثيراً أمام الصحابة، ليتعرف الناس على أعماله الصالحة فيتأسوا به(٤)، فقد قال ﷺ: «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ»(٥) وفي حديث البراء بن عازب - رضي الله عنه - قال: أُهديت لرسول الله ﷺ حلة حرير فجعل أصحابه يلمسونها، ويعجبون من لينها، فقال: «أتعجبون من لين هذه؟ لمناديل سعد بن معاذٍ في الجنة خير منها وألين»(٦).

ومع كل المآثر والمحاسن والأعمال الجليلة التي قدمها لخدمة دين الله، فقد تعرض لضمة القبر: لما انتهوا إلى قبر سعد رضي الله عنه نزل فيه أربعة: الحارث بن أوس، وأسيد بن الحضير، وأبو نائلة سلكان بن سلامة، وسلمة بن سلامة بن وقش، ورسول الله ﷺ واقف، فلما وضع في قبره، تغيّر وجه رسول الله ﷺ وسبّح ثلاثاً، فسبّح المسلمون حتى ارتج البقيع، ثم كبّر ثلاثاً،

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٢٨٧) إسناده حسن.
(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٢٩٥) إسناده صحيح، أخرجه النسائي (٤/ ١٠٠) في الجنائز.
(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٢٨٨) رجاله ثقات.
(٤) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ١٧١).
(٥) مسلم، فضائل الصحابة رقم (٢٤٦٦).
(٦) مسلم، فضائل الصحابة، رقم (٢٤٦٨).

وكبّر المسلمون، فسئل عن ذلك فقال: «تضايق على صاحبكم القبر وضم ضمة لو نجا منها أحد لنجا هو، ثم فرّج الله عنه» [(١)].

إن هذا الصحابي الجليل قد استشهد وهو في ريعان شبابه، فقد كان في السابعة والثلاثين من عمره يوم وافته منيته، وهذا يعني أنه قاد قومه إلى الإسلام وهو في الثلاثين من عمره... فقد كانت هذه السيادة في العشرينات من عمره، وقبل أن يكون على مشارف الثلاثين، وإنما تتفجر الطاقات الكامنة والمواهب بعد سن الأربعين، التي هي غاية الأشد قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

فأي طراز هذا الذي حفل تاريخه بهذه المآثر، واستبشر أهل السموات بقدومه، واهتز عرش الرحمن فرحاً لوفاته، من دون خلق الله أجمعين [(٢)]، كان سعد بن معاذ، رجلاً أبيض، طوالاً، جميلاً، حسن الوجه، أعين، حسن اللحية [(٣)]، رحمة الله عليه ورضي عنه وأعلى ذكره في المصلحين.

حادي عشر: مقتل حييّ بن أخطب، وكعب بن أسد:

* مقتل حييّ بن أخطب النضري:

روى عبد الرزاق في مصنفه بالسند إلى سعيد بن المسيب... فذكر بعض خبر الأحزاب وقريظة... إلى أن قال: فلما فض الله جموع الأحزاب، انطلق - يعني حيي - حتى إذا كان بالروحاء ذكر العهد والميثاق الذي أعطاهم، فرجع حتى دخل معهم، فلما أقبلت بنو قريظة أُتي به مكتوفاً بعد، فقال حيي للنبي: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخْذل الله يُخذل، فأمر به النبي ﷺ فضربت عنقه [(٤)].

ثم أنه أقبل على الناس قبل تنفيذ حكم الإعدام وقال لهم: أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل، ثم جلس فضربت عنقه [(٥)].

وفي مقتل حييّ بن أخطب دروس وعِبَر منها:

---

(١) انظر: التربية القيادية (٤/ ٧٧)، نقل عن المسند الإمام أحمد (٦/ ١٤١).
(٢) انظر: القيادة الربانية (٤/ ٧٨).
(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٢٩٠).
(٤) انظر: مصنف عبد الرزاق (٥/ ٣٧١)، رقم (٩٧٢٧).
(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٦٥).

أ ـ لا يحيق المكر السيء إلا بأهله:

فقد ألّب القبائل العربية واليهودية على محاربة الإسلام ونبيه ﷺ، وأقنع بني قريظة بضرورة نقض العهد مع الرسول ﷺ وطعنه من الخلف، فجعل الله كيده في نحره وكبته، وفي النهاية قادته محاولاته إلى حتفه.

إن الله لا يهمل الظالمين، ولكن يمهلهم ويستدرجهم حتى إذا أخذهم، أخذهم أخذ عزيز مقتدر، فكان أخذه أليماً شديداً، قال ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»(١) ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هُود: ١٠٢].

ب ـ التجلد في مواطن الشدة:

لقد تجلّد حييّ وتقدم لتضرب عنقه حتى لا يشمت فيه شامت، وهو يعرف أنه على باطل، ظالم لنفسه، قد أوردها موارد الهلاك، ومع هذا يموت على ذلك، والعزة بالإثم تأخذه إلى جهنم وبئس المصير، لأنه يعبد هواه ولم يعبد ربه، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

جـ ـ من يَخذُل الله يُخذل:

إن الله تعالى إذا خذل أحداً ليس له نصير يمنعه أو يدفع عنه، قال سبحانه: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران: ١٦٠].

كما أن عداوة حيي للرسول ﷺ باعثها الحسد والحقد، ولذلك عبّر حيي صراحة أن الله لم يكن معه يوماً من الأيام، بل كان حيي في شق الشيطان عدواً لأولياء الرحمن، يشاقق الله، فالله خاذله ومسلمه لكل ما يؤذيه ويتعبه، ولا توجد قوة في الأرض ولا في السماء تنصره وتحول بينه وبين الهزيمة، لأن إرادة الله هي النافذة وقدره هو الكائن، لا راد لقضائه، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء(٢). قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

*** مقتل كعب بن أسد القرظي:**

وجيء برئيس بني قريظة كعب بن أسد، وقبل أن يضرب رسول الله ﷺ عنقه جرى بينه وبين كعب الحوار التالي:

قال رسول الله: «كعب بن أسد؟».

---

(١) انظر: الصراع مع اليهود لأبي فارس (٢/ ١١٢).

(٢) المصدر نفسه، (٢/ ١١٣، ١١٤).

قال كعب بن أسد: نعم يا أبا القاسم.

قال رسول الله ﷺ: «ما انتفعتم بنصح ابن خراش لكم، وكان مصدقاً بي، أما أمركم باتباعي، وإن رأيتموني تقرئوني منه السلام؟».

قال كعب: بلى والتوراة يا أبا القاسم، ولولا أن تعيّرني يهود بالجزع من السيف لاتبعتك، ولكني على دين يهود.

فأمر رسول الله ﷺ بضرب عنقه فضربت (١).

ومما ترويه كتب السيرة النبوية عن يهود بني قريظة، أنهم كانوا يرسلون طائفة تلو طائفة لتضرب أعناقهم وقد سألوا زعيمهم كعب بن أسد فقالوا: يا كعب ما تراه يصنع بنا؟ قال: أفي كل موطن لا تعقلون؟ ألا ترون الداعي لا ينزع، وأنه من ذُهب به منكم لا يرجع؟ هو والله القتل (٢).

ونلحظ خبر مقتل كعب بن أسد، أنه كان متعصباً ليهوديته وهو يعلم بطلانها، وأنه على علم بصدق رسالة رسولنا ﷺ، ولكنه لم يؤمن ولم يدخل الإسلام خوفاً من أن تعيّره يهود بأنه جزع من السيف، فعدم إيمانه وبقاؤه على الكفر كان نتيجة ريائه، وحبه للثناء وخوفه من ذمه وتعييره، وهذا دليل على السفه والحمق وخذلان الله لهذا اليهودي المخادع (٣).

ثاني عشر: شفاعة ثابت بن قيس في الزبير بن باطا، وسلمى بنت قيس في رفاعة بن سموأل:

١ ـ شفاعة ثابت بن قيس في الزبير بن باطا:

أقبل ثابت بن قيس بن شماس إلى رسول الله ﷺ فقال: هب لي الزبير اليهودي أجزه فقد كانت له عندي يد يوم بعاث، فأعطاه إياه، فأقبل ثابت حتى أتاه فقال: يا أبا عبد الرحمن، هل تعرفني؟ فقال: نعم، وهل ينكر الرجل أخاه. قال ثابت: أردت أن أجزيك اليوم بيد لك عندي يوم بعاث، قال: فافعل، فإن الكريم يجزي الكريم، قال: قد فعلت، قد سألت رسول الله ﷺ فوهبك لي، فأطلق عنه إساره، فقال الزبير: ليس لي قائد وقد أخذتم امرأتي وابني، فرجع ثابت إلى رسول الله ﷺ فاستوهبه امرأته وبنيه فوهبهم له، فرجع ثابت إلى الزبير فقال: رد إليك رسول الله ﷺ امرأتك وبنيك، فقال الزبير: حائط لي فيه أعذق، وليس لي ولا لأهلي عيش إلا به، فرجع ثابت إلى رسول الله ﷺ فوهبه له، فرجع ثابت إلى الزبير فقال: قد ردّ إليك رسول الله ﷺ أهلك ومالك، فأسلم تسلم، قال: ما فعل الجليسان (٤)؟ وذكر رجال قومه، قال

(١) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٣٦٨).
(٢) المصدر نفسه، (١/ ٣٦٨).
(٣) انظر: الصراع مع اليهود (٢/ ١١٥).
(٤) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٣٧٢).

ثابت: قد قتلوا وفرغ منهم، ولعل الله تبارك وتعالى أن يكون أبقاك لخير، قال الزبير: أسألك بالله يا ثابت وبيدي التي عندك يوم بعاث إلا ألحقتني بهم، فليس في العيش خير بعدهم، فذكر ذلك ثابت لرسول الله ﷺ فأمر بالزبير فقُتل (١).

٢ ـ شفاعة سلمى بنت قيس في رفاعة بن سموأل القرظي:

كانت سلمى بنت قيس وكنيتها أم المنذر أخت سليط بن قيس، وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ، قد صلت معه القبلتين، وبايعته بيعة النساء، سألته رفاعة بن سموأل القرظي، وكان رجلاً قد بلغ، فلاذ بها، وكان يعرفهم قبل ذلك، فقالت: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي هب لي رفاعة، فإنه قد زعم أنه سيصلي ويأكل لحم الجمل، فوهبه لها، فاستحيته (٢).

وفي هذا الخبر دليل على أن الإسلام يكرم المرأة ويعتبر شفاعتها! هذه هي معاملة المرأة في هذا الدين، إنه يكرمها، ويساعدها ويشجعها على فعل الخير (٣).

ثالث عشر: من أدب الخلاف:

في اختلاف الصحابة في فهم كلام رسول الله ﷺ: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة» (٤) فبعضهم فهم منه المراد الاستعجال، فصلى العصر لما دخل وقته، وبعضهم أخذ بالظاهر فلم يصلّ إلا في بني قريظة، ولم يعنف النبي ﷺ أحداً منهم أو عاتبه، ففي ذلك دلالة هامة على أصل من الأصول الشرعية الكبرى، وهو تقرير مبدأ الخلاف في مسائل الفروع، واعتبار كل من المتخالفين معذوراً ومثاباً، كما أن فيه تقريراً لمبدأ الاجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية، وفيه ما يدل على أن استئصال الخلاف في مسائل الفروع التي تنبع من دلالات ظنية أمر لا يمكن أن يتصور أو يتم (٥).

إن السعي في محاولة القضاء على الخلاف في مسائل الفروع معاندة للحكمة الربانية والتدبير الإلهي في تشريعه، عدا أنه ضرب من العبث الباطل، إذ كيف تضمن انتزاع الخلاف في مسألة ما دام دليلها ظنياً محتملاً؟ ولو أمكن ذلك أن يتم في عصرنا لكان أولى العصور به عصر رسول الله ﷺ، ولكان أولى الناس بأن لا يختلفوا هم أصحابه، فما بالهم اختلفوا مع ذلك كما رأيت (٦)، وفي الحديث السابق من الفقه أنه لا يعاب على من أخذ بظاهر حديث نبوي أو آية من كتاب الله، كما لا يعاب من استنبط من النص معنى يخصه. وفيه أيضاً أن المختلفين في

---

(١) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٣٠٢).
(٢) المصدر نفسه (١(٣٧٣).
(٣) انظر: الصراع مع اليهود (٢/ ١١٦).
(٤) البخاري: كتاب المغازي (٥/ ٦٠)، رقم (٤١١٩).
(٥) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي، (ص ٢٢٦).
(٦) انظر: فقه السيرة للبوطي، (ص ٢٢٦).

الفروع من المجتهدين لا إثم على المخطىء فقد قال ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد، ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر» (١).

وحاصل ما وقع أن بعض الصحابة خلوا النهي على حقيقته، ولم يبالوا بخروج الوقت - وقت الصلاة - ترجيحاً لهذا النهي الخاص على النهي العام عن تأخيره الصلاة عن وقتها (٢).

وقد علق الحافظ ابن حجر على هذه القصة فقال: ثم الاستدلال بهذه القصة على أن كل مجتهد مصيب على الإطلاق ليس بواضح، وإنما فيه ترك تعنيف من بذل وسعه واجتهد، فيستفاد منه عدم تأثيمه، وحاصل ما وقع في القصة أن بعض الصحابة حملوا النص على حقيقته، ولم يبالوا بخروج الوقت ترجيحاً للنهي الثاني على النهي الأول، وهو ترك تأخير الصلاة عن وقتها، واستدلوا بجواز التأخير لمن اشتغل بأمر الحرب بنظير ما وقع في تلك الأيام بالخندق، والبعض الآخر حملوا النهي على غير الحقيقة، وأنه كناية على الحث والاستعجال والإسراع إلى بني قريظة، وقد استدل به الجمهور على عدم تأثيم من اجتهد، لأنه ﷺ لم يعنف أحداً من الطائفتين، فلو كان هناك إثم لعنف من أثم (٣).

رابع عشر: توزيع غنائم بني قريظة وإسلام ريحانة بنت عمرو:

١ - جمع صحابة رسول الله ﷺ الغنائم التي خلفها بنو قريظة، فكانت كما يلي: من السيوف ألفاً وخمسمائة سيف، ومن الرماح ألفي رمح، ومن الدروع ثلاثمائة درع، ومن التروس ألفاً وخمسمائة ترس وجحفة، كما تركوا عدداً كبيراً من الشياه والإبل وأثاثاً كثيراً وآنية كثيرة، ووجد المسلمون دناناً من الخمر، فوزعت الغنائم وهي الأموال المنقولة كالسلاح والأثاث وغيرها بين المحاربين من أنصار ومهاجرين ممن شهدوا الغزوة، فأعطى ﷺ أربعة أخماس الغنائم لهم، إذ جعل للفرس سهمين، وللراجل سهماً، فالفارس يأخذ ثلاثة أسهم له ولفرسه، وغير الفارس يأخذ سهماً واحداً له، والخمس المتبقي هو سهم الله ورسوله المقرر في كتابه تعالى (٤).

وأما ما وجده رسول الله ﷺ والمسلمون من الخمر عند بني قريظة فقد أراقوه، ولم يأخذوا منه شيئاً، ولم ينتفعوا به كذلك، وقد أسهم رسول الله ﷺ لسويد بن خلاد الذي قتلته المرأة اليهودية بالرحى وأعطى سهمه لورثته (٥)، ولصحابي آخر مات أثناء حصار بني

---

(١) انظر: البخاري، كتاب الاعتصام، باب «أجر الحاكم إذا اجتهد» رقم (٧٣٥٢).
(٢) المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٢٨٦).
(٣) اختصار من فتح الباري (٧/ ٤٧٣).
(٤) انظر: الصراع مع اليهود (٢/ ٩٦، ٩٧).
(٥) المصدر نفسه، (٢/ ٩٧).

قريظة [١]، كما رضخ رسول الله ﷺ للنساء اللواتي حضرن ولم يسهم لهن، منهن: صفية بنت عبد المطلب، وأم عمارة، وأم سليط، وأم العلاء، والسميراء بنت قيس، وأم سعد بن معاذ [٢]، وأما الأموال غير المنقولة كالأراضي والديار فقد أعطاها رسول الله ﷺ للمهاجرين دون الأنصار، وأمر المهاجرين أن يردوا إلى الأنصار ما أخذوه منهم من نخيل وأرض، وكانت على سبيل العارية، ينتفعون بثمارها [٣]، قال تعالى عن تلك الأراضي والديار: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٧].

قال الأستاذ محمد دروزة: أما عبارة (وأرضاً لم تطأوها) فقد قال المفسرون: إنها أرض خيبر، وإن الجملة بشرى سابقة لفتحها، غير أن الذي تلهم روح الآية ومضمونها على ما يتبادر لنا أنها أرض لبني قريظة بعيدة عن مساكنهم، آلت إلى المسلمين دون حرب أو حصار، ونتيجة للمصير الذي صار إليه أصحابها [٤]؛ هذا وقد أرسل رسول الله ﷺ سعد بن عبادة ـ رضي الله عنه ـ بالخمس من الذرية والنساء إلى الشام فباعها، واشترى بالثمن سلاحاً وخيلاً ليستعين به المسلمون في معاركهم مع الأعداء من يهود ومشركين، وكذلك بعث إلى نجد سعد بن زيد فباع سبياً واشترى سلاحاً [٥].

٢ ـ إسلام ريحانة رضي الله عنها:

وكان من بين السبي ريحانة بنت عمرو بن خنافة إحدى نساء بني عمرو من بني قريظة، قد أراد الرسول ﷺ أن يتزوجها بعد أن تسلم، فترددت، وبقيت وقتاً على دينها، ثم شرح الله صدرها للإسلام فأسلمت، فبعثها إلى بيت أم منذر بنت قيس حتى حاضت ثم طهرت، فجاءها وخيّرها: أيعتقها ويتزوجها أو تكون في ملكه ﷺ؟ فاختارت أن تكون في ملكه رضي الله عنها [٦].

خامس عشر: الإعلام الإسلامي في غزوة الأحزاب:

قام شعراء الصحابة بدورهم الجهادي، فقالوا قصائد رائعة وضّحوا بها موقف المسلمين في غزوة الأحزاب نقتطف منها أبياتاً منها كنماذج لهذه القصائد، فمن ذلك قول كعب بن مالك، أخو بني سلمة:

وسائلة تساءل ما لقينا ... ولو شهدت رأتنا صابرينا

---

(١) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٣٧٥).

(٢) المصدر نفسه، (١/ ٣٧٥).

(٣) انظر: الصراع مع اليهود (٢/ ٩٨).

(٤) انظر: سيرة الرسول لعزة دروزة (٢/ ٢٠٢).

(٥) انظر: الصراع مع اليهود (٢/ ٩٨).

(٦) المصدر نفسه، (٢/ ٩٩).

صبرنا لا نرى للّه عدلاً ... على ما نابنا مُتوكِّلينا
وكان لنا النبي وزير صدق ... به نعلو البريَّة أجمعينا
نقاتل معشراً ظلموا وعقُّوا ... وكانوا بالعداوة مرصدينا (١)
نعالجهم إذا نهضوا إلينا ... بضرب يُعْجِل المتسرعينا
ترانا في فضافِضَ سابغات ... كغُدران الملا متسربلينا (٢)

إلى أن قال:

لنَنْصُر أحمداً والله، حتى ... نكون عباد صدْق مُخلصينا
ويعلم أهل مكة حين ساروا ... وأحزاب أتوا متحزّبينا
بأن الله ليس له شريك ... وأنَّ الله مولى المؤمنينا
فإمّا تقتلوا سعداً سفاهاً ... فإن الله خير القادرينا
سيدخله جناناً طيِّبات ... تكون مقامة للصالحين
كما قد رَدَّكم فلا شريداً ... بغيظكم خزايا خائبينا
خزايا لم تنالوا ثم خيراً ... وكدْتم أن تكونوا دامرينا
بريح عاصف هبّت عليكم ... فكنتم تحتها مُتكمِّهينا (٣)

---

(١) المرصد: المعد للأمر عدته.
(٢) متسربلينا: لابسون الدروع.
(٣) متكمّهينا: العُمي الذين لا يبصرون.

الفصل الثاني عشر
ما بين غزوة الأحزاب والحديبية من أحداث مهمة

المبحث الأول
زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها

ومع استمرار حركة السرايا، وبناء الدولة، وبسط هيبتها في الجزيرة العربية، كانت حركة البناء التشريعي والاجتماعي للأمة الإسلامية تتكامل، فنظام التبني يُهدم، والحجاب يفرض، وأدب الولائم يقرّر، وضرورة الالتزام بطاعة الله ورسوله يُؤكد على وجوبها، وتحارب الأعراف التي تعارض شرع الله تعالى، ففي زواج رسول الله ﷺ بالسيدة زينب بنت جحش حكم ودروس وعِبَر بقيت خالدة على مر العصور وكر الدهور وتوالي الأزمان، وهذه قصة أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها.

أولاً: اسمها ونسبها:

هي زينب بنت جحش بن رئاب بن يعمر الأسدية، أخت عبد الله بن جحش، وحمنة بنت جحش رضي الله عنها.

أمها: أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، عمة رسول الله ﷺ، وأخت حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه [(١)].

يقال كان اسمها: برة، فسمّاها النبي ﷺ زينب، وكانت تكنى أم الحكم [(٢)].

وكانت زينب رضي الله عنها من المهاجرات الأُول، ورعة قوّامة صوّامة، كثيرة الخير والصدقة، فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أسرعكن لحاقاً بي أطولكن يداً، قالت: فكن يتطاولن أيتهن أطول يداً، قالت: فكانت أطولنا يداً زينب لأنها كانت تعمل بيدها وتصدق» [(٣)].

---

(١) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (١/ ٣٧٢).
(٢) المصدر نفسه، (٤/١٨٤٩).
(٣) مسلم في فضائل الصحابة (٤/١٩٠٧)، رقم (٢٤٥٢).

وقد مدحتها السيدة عائشة رضي الله عنها كثيراً، وقالت في حقها: لم أر امرأة قط خيراً في الدين من زينب، وأتقى للّه وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم وأعظم صدقة، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدّق به، وتقرب به إلى الله تعالى، ما عدا سورة من حدَّة كانت فيها تُسرع منها الفيئة (١).

ثانياً: زواجها من زيد بن حارثة رضي الله عنه:

أراد الرسول ﷺ أن يحطم تلك الفوارق الطبقية الموروثة في الأمة المسلمة من عادات الجاهلية، ليكون الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، وكان الموالي ـ وهم الذين جرى عليهم الرق ثم تحرروا ـ طبقة أدنى من طبقة السادة، ومن الموالي كان زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ـ الذي أعتقه ثم تبناه ـ فرأى رسول الله ﷺ أن يزوج زيداً من شريفة أسد وهي ابنة عمته زينب بنت جحش رضي الله عنها، ليبطل تلك الفوارق الطبقية بنفسه في أسرته، وكانت هذه الفوارق من العمق والعنف بحيث لا يحطمها إلا فعل واقعي من رسول الله ﷺ، لتتخذ منه الأمة المسلمة أسوة وقدوة، وتسير البشرية على هداه في هذا الطريق.

وأيضاً لعل من الحكمة في هذا الزواج أنه كان مقدمة لتشريع آخر؛ لا يقل أهمية في حفظ توازن المجتمع، وحماية الأسرة عن الأول، وإن لم تظهر هذه الحكمة في بداية الأمر (٢).

انطلق رسول الله ﷺ ليخطب على فتاة زيد بن حارثة رضي الله عنه، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها فخطبها، فقالت: لست بناكحته، فقال رسول الله ﷺ: «بلى فانكحيه» قالت: يا رسول الله أؤامر في نفسي؟ فبينما هما يتحادثان أنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فقالت: يا رسول الله قد رضيته لي زوجاً؟ قال: نعم، قالت: لا أعصي رسول الله ﷺ، وقد زوّجته نفسي (٣).

وكان زيد بن حارثة إذ ذاك لا يزال يدعى زيد بن محمد، فتزوّجها زيد، وأصدقها في هذا الزواج عشرة دنانير، وستين درهماً، وخماراً، وملحفة، ودرعاً، وخمسين مُداً من طعام، وعشرة أمداد من تمر (٤).

ثالثاً: طلاق زيد لزينب رضي الله عنها:

شاءت حكمة الله تعالى أن لا يتوافق زيد وزينب في زواجهما، وأصبحت حياة الزوجين لا تطاق، وصمم زيد على فراق زوجه زينب، وكان قبل ذلك يشتكي لرسول الله ﷺ من عدم

---

(١) مسلم في فضائل الصحابة (٤/ ١٨٩٢) رقم (٢٤٤٢).
(٢) انظر: قضايا نساء النبي والمؤمنات، حفصة بنت عثمان الخليفي (ص ٢٠٥).
(٣) انظر: جامع البيان للطبري (٢٢/ ١١).
(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٨٩).

استطاعته البقاء مع زينب، ورسول الله يأمره بإمساك زوجه مع تقوى الله في شأنها، حتى آذن الله بالطلاق فطلّقها زيد، وانفصمت العلاقة بينهما بعد أن قضى زيد وطره، وبعد أن مكث معها ما يقرب من سنة، قال ابن كثير: فمكثت عنده قريباً من سنة أو فوقها، ثم وقع بينهما (يعني الخلاف) فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ فجعل رسول الله ﷺ يقول له: «أمسك عليك زوجك واتق الله» (١).

لم يبق لزيد رغبة في إبقاء العلاقة الزوجية معها، لأنه كان كريم النفس، لا يريد أن يبني سعادته وراحته على شقاء الآخرين وتعاستهم، والإضرار بهم، ولهذا صمم على الفراق وعدم الإضرار بها، لأنها كانت تعيش في قلق واضطراب، وانتهى زواج زيد بن حارثة رضي الله عنه بزينب بنت جحش على هذا الوضع، دون أي تدخل خارجي بينهما، ووقع ذلك الطلاق بمحض اختياره وإرادته، وأن رسول الله ﷺ كان ينهاه عن ذلك، ويأمره بتقوى الله وإمساك زوجته (٢)، قال ابن كثير بعد أن ذكر هذا السبب: (ذكر ابن أبي حاتم وابن جرير آثاراً عن بعض السلف رحمهم الله أحببنا أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحتها فلا نوردها) (٣).

رابعاً: الحكمة من زواج رسول الله ﷺ من زينب:

كانت عادة التبني متغلغلة في نفوس الناس ومشاعرهم، وليس من السهل التغلب عليها، وإلغاء الآثار المترتبة عليها، كانت هذه العادة في صدر الإسلام في مكة، وفي أول الهجرة إلى المدينة، ثم شاء الله تعالى فنزلت الآيات في نفي أن يكون الأدعياء أبناء لمن ادعاهم في الحقيقة، وإنما ذلك حسب دعوى المدعي فقط، وذلك لا يغير من الواقع شيئاً، فقال تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤] .

ثم أمر تبارك وتعالى برد نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة، فهذا من العدل والقسط والبر، فقال تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥] .

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن زيد بن حارثة رضي الله عنه ـ مولى رسول الله ﷺ ـ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد، حتى نزل القرآن ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ (٤).

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٨٩).
(٢) انظر: قضايا نساء النبي والمؤمنات (ص ٢٠٩).
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٩١).
(٤) البخاري في التفسير باب ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ (٣/ ٢٧٦) رقم (٤٧٨٢).

ولم يجعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ عدم معرفتهم لآبائهم الحقيقيين مبرراً لإبقاء تبنيهم لهم، بل حرم التبني في هذه الحالة، وأخبر أنهم حينئذٍ إخوانهم ومواليهم، فقال تعالى: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥] ، أي فإن لم تعرفوا آباءهم فليس بينكم وبينهم إلا الأخوة في الدين، والموالاة، وذلك عوضاً عما فاتهم من النسب، فيقال: فلان مولى فلان، أو مولى بني فلان [(١)].

وهذه الأخوة في الدين والموالاة لها أهمية كبرى، فهي ثابتة حتى للذين عرف آباؤهم ولهذا قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة رضي الله عنه : «أنت أخونا ومولانا» [(٢)]، أي: أخونا في الإسلام والولاية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠] .

وجاءت نصوص أخرى تعالج هذا الأمر من جهة أخرى، وهي جهة الابن، فجاء تحريم الانتساب إلى غير الأب الحقيقي ـ والمنتسب يعلم ذلك ـ تحريماً قاطعاً لا شبهة فيه [(٣)]، قال ﷺ: «. . . ومن ادعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً» [(٤)] [(٥)].

وقد جعل الشارع لنشوء النسب سبباً واضحاً، هو الاتصال بالمرأة عن طريق الزواج أو ملك اليمين، وأبطل ما كان يجري عليه أهل الجاهلية من إلحاق الأولاد عن طريق العهر والزنا، قال ﷺ: «الولد للفراش وللعاهر الحجر» [(٦)]، ومعناه أن من يجيء من الأولاد ثمرة لفراش صحيح، قائم على عقد الزواج أو ملك اليمين، يلتحق نسبه بأبيه، وأن العهر والزنا لا يصلح أن يكون سبباً للنسب، وإنما يكون سبباً لشيء آخر هو الرجم والحجارة [(٧)].

ثم إن الله سبحانه وتعالى بعد أن منع وحرَّم دعوة الابن بنسبته إلى من تبناه، وأمر بدعوته منسوباً إلى أبيه الحقيقي إن عرف، أو إلى الأخوة في الدين والموالاة، بعد ذلك بيَّن حكم من أخطأ أو تعمد مخالفة هذا التشريع الإلهي، قال تعالى: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا

---

(١) انظر: تفسير السعدي (٤/ ١٣٦).

(٢) البخاري في الصلح (٢/ ٢٦٧) رقم (٢٦٩٩).

(٣) انظر: قضايا نساء النبي والمؤمنات (ص ١٨٩).

(٤) صرفاً: توبة، وقيل: نافلة، عدلاً: أي فدية وقيل: فريضة.

(٥) مسلم في العتق رقم (١٣٧٠).

(٦) البخاري في الحدود (٤/ ٢٥٤) رقم (٦٨١٨).

(٧) انظر: علاقة الآباء بالأبناء في الشريعة الإسلامية، د. سعاد الصانع (ص ٥٢، ٥٣).

تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥] .

فقد نفى الله سبحانه وتعالى الجُناح (الإثم) عمّن أخطأ في نسبة الابن إلى غير أبيه في الحقيقة، وذلك بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع، أو نسي فنسب الابن إلى غير أبيه بجريان لسانه بذلك، وأثبت الجرح والإثم لمن تعمد الباطل وهو دعوة الرجل لغير أبيه بعد علمه بتحريم ذلك (١).

كانت عادة التبني مستحكمة في نفوس الناس، وقد أخذت أبعادها مع مرور الزمن، فكان زواج النبي ﷺ بالسيدة زينب إلغاء عملياً وليس إلغاء ذهنياً فحسب (٢).

إن الحكمة في زواج رسول الله ﷺ من السيدة زينب حكمة واضحة وظاهرة، وقد بيّنها الله تعالى بقوله ﷻ: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧] .

وقد ذكر المبطلون من الكفار وفروخهم ومقلديهم بما ينعقون به، ويردده الجهال متعلقين بروايات مكذوبة، خلاصتها كما يفترون، أن النبي ﷺ قد هوي زينب بنت جحش بعد أن تزوجت بزيد بن حارثة، فلما علم زيد بذلك أراد طلاقها ليتزوجها النبي ﷺ (٣) . . . فهذا قول باطل. وقد نسف الإمام ابن العربي هذا القول من جذوره فقال: فأما قولكم: إن النبي ﷺ رآها ـ أي رأى زينب بنت جحش ـ فوقعت في قلبه، فباطل؛ فإنه ﷺ كان معها في كل وقت وموضع، ولم يكن حينئذٍ حجاب، فكيف تنشأ معه، وينشأ معها، ويلحظها في كل ساعة، ولا تقع في قلبه، إلا إذا كان لها زوج؟ حاشا لذلك القلب المطهر من هذه العلاقة الفاسدة وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١] والنساء أفتن الزهرات، فيخالف هذا في المطلقات، فكيف في المنكوحات؟ ثم إن قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧] يعني من نكاحك لها وهو الذي أبداه لا سواه أقول: فلو كان الذي أخفاه رسول الله ﷺ هو حبه لها لأبداه الله تعالى وأظهره، فتيقنا أن الذي أخفاه رسول الله من أمر زينب هو نكاحه إياها، وليس ما تخيله المبطلون من حبه لها (٤).

إن الشرع أراد تأكيد إبطال نظام التبني وإبطال كل نتائجه، وتعميق هذا الإبطال في النفوس وتأكيده بالتطليق العملي، والقدوة والتأسي بمن يقتدى به في تطبيق هذه الأحكام الجديدة الناسخة، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ بزواجه بزينب بأمر من الله تعالى العزيز الحكيم (٥).

---

(١) انظر: قضايا نساء النبي والمؤمنات (ص ١٩١، ١٩٢).

(٢) انظر: من معين السيرة (ص ٣١١).

(٣) انظر: المفصل في أحكام المرأة، عبد الكريم زيدان (١١/ ٤٧٤، ٤٧٥).

(٤) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٥٣١، ١٥٣٢).

(٥) انظر: المفصل في أحكام المرأة (١١/ ٤٧٦).

خامساً: قصة زواج رسول الله ﷺ من زينب وما فيها من دروس وعِبَر:

لما انقضت عدة زينب، قال رسول الله ﷺ لزيد: «فاذكرها عليّ»، فانطلق زيد حتى أتاها وهي تخمر عجينها، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري، حتى ما أستطيع أن أنظر إليها أن رسول الله ﷺ ذكرها فولَّيتها ظهري ونكصت على عقبي فقلت: يا زينب أرسل رسول الله ﷺ يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن [1]، وأصدقها أربعمائة درهم، وكان زواجه ﷺ بزينب في السنة الخامسة على المشهور. وقال الحافظ البيهقي: تزوجها بعد بني قريظة [2].

وأَوْلَم الرسول ﷺ في عرس زينب وليمة كبيرة، فأولم بشاة، وقد دُعي إلى الوليمة كل من لقيه أنس رضي الله عنه ؛ بناءً على أمر الرسول ﷺ، فعن أنس رضي الله عنه قال: ما رأيت النبي ﷺ أَوْلَم على أحد من نسائه ما أولم عليها، أولم بشاة [3].

وهكذا تزوج رسول الله ﷺ ـ بأمر ربه ـ زينب بنت جحش رضي الله عنها، بعد طلاق زيد لها وانقضاء عدتها، وفي زاوجه ﷺ بزينب، وما نزل فيه من القرآن وما واكبه من أحداث، عظات وعِبَر [4] وقفنا عند بعضها، ويجدر بنا أن نتأمل في بعض الدروس والعِبَر التي لم نقف عليها منها:

١ ـ كان خاطب زينب للنبي ﷺ هو زوجها الأول زيد بن حارثة رضي الله عنه ، ولعل اختيار رسول الله ﷺ لزيد مقصود لذاته، ليقطع بذلك ألسنة المتقولين وما قد يزعمونه من أن طلاقها وقع بغير اختيار منه، وأنه قد بقي في نفسه من الرغبة فيها شيء، وفي هذا يقول ابن حجر: (هذا من أبلغ ما وقع في ذلك، وهو أن يكون الذي كان زوجها هو الخاطب، لئلا يظن أحد أن ذلك وقع قهراً بغير رضاه، وفيه أيضاً اختبار ما كان عنده منها هل بقي منه شيء أم لا) [5].

وفي هذا من الحكمة أيضاً أن ما يقع بين الزوجين من نفرة وخلاف ثم طلاق، لا يجوز أن يكون مانعاً من نصح أحد الزوجين للآخر، وأن يراعي فيه حقوق الأخوة الإيمانية، فهذا زيد رغم ما وقع بينه وبين زينب، ورغم أن هذا كان بسببها إلا أنه ذهب ليخطبها لرسول الله، بل ويقول لها: (يا زينب أبشري).

٢ ـ في الآية التي نزلت بشأن هذا الزواج عتاب للنبي ﷺ من ربه، إذ كان حين يأتيه زيد يشكو

---

(١) مسلم في النكاح (٢/١٠٤٨) قم (١٤٢٨).
(٢) انظر: البداية والنهاية (٤/١٤٧).
(٣) البخاري في النكاح، باب من أولم على بعض نسائه (٣/ ٣٨٧٠) رقم (٥١٧١).
(٤) انظر: قضايا نساء النبي والمؤمنات (ص ٣١٢).
(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر (٨/ ٥٢٤).

زينب ومعاملتها له، ورغبته في طلاقها يقول: «أمسك عليك زوجك واتق الله»، أي اتق الله ودع طلاقها، أو اتق الله فيما تذكره من سوء عشرتها، ورسول الله ﷺ يخفي في نفسه ما أبلغه الله به أن زيداً سيطلقها، وأنها ستكون زوجة له، ويخشى متى وقع هذا من كلام الناس في قوله: تزوج مطلقة من تبناه وهو زيد بن حارثة.

روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «اتق الله، أمسك عليك زوجك»، قال أنس: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه [(١)].

٣ - في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧] ، منقبة عظيمة لزيد بن حارثة رضي الله عنه ، فقد انفرد بهذا، إذ لم يُسَمِّ القرآن أحداً من الصحابة غيره، قال السهيلي: (كان يقال: زيد بن محمد) حتى نزل: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ ، فقال: أنا زيد بن حارثة، وحرم عليه أن يقول: أنا زيد بن محمد، فلما نُزِع عنه هذا الشرف وهذا الفخر، وعلم الله وحشته من ذلك شرّفه بخصيصة، لم يكن يَخُصّ بها أحداً من أصحاب النبي ﷺ، وهي أنه سمّاه في القرآن، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ يعني من زينب، ومن ذكره الله تعالى باسمه في الذكر الحكيم حتى صار اسمه قرآناً يتلى في المحاريب، نوّه به غاية التنويه، فكان في هذا تأنيس له وعوض من الفخر بأبوّة محمد ﷺ له. ألا ترى إلى قول أُبي بن كعب حين قال له النبي ﷺ: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك سورة كذا»، فبكى وقال: أوذكرت هنالك؟ وكان بكاؤه من الفرح حين أُخبر أن الله تعالى ذكره، فكيف بمن صار اسمه قرآناً يُتلى مخلداً لا يبيد، يتلوه أهل الدنيا إذا قرءوا القرآن، وأهل الجنة أبداً، لا يزال على ألسنة المؤمنين، كما لم يزل مذكوراً على الخصوص عند رب العالمين، إذ القرآن كلام الله القويم وهو باق لا يبيد، فاسم زيد هذا في الصحف المكرمة المرفوعة المطهرة، تذكره في التلاوة السفرة الكرام البررة، وليس ذلك لاسم من أسماء المؤمنين إلا لنبيّ من الأنبياء، ولزيد بن حارثة تعويضاً من الله تعالى له ما نُزع منه [(٢)].

٤ - زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها كان بأمر ربه، وهو الذي زوَّجه إياها قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧] . وفي هذا شرف عظيم ومنقبة جليلة لزينب رضي الله عنها ، كانت تفاخر بها -

---

(١) البخاري في التوحيد (٤/ ٣٨٨) رقم (٧٤٢٠).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٤/ ١٩٤).

وحق لها ذلك ـ فعن أنس رضي الله عنه قال: فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: زوجكن أهاليكن وزوّجني الله تعالى من فوق سبع سموات (١)، وفي رواية أخرى: وكانت تفخرعلى نساء النبي ﷺ، وكانت تقول: إن الله أنكحني في السماء (٢).

ولعلّ هذه المنقبة وهذا الشرف لزينب رضي الله عنها كان جزاء لها، حين أذعنت وخضعت لأمر رسول الله ﷺ حين أمرها بالزواج من مولاه زيد بن حارثة، وكانت لذلك كارهة، ثم لما علمت أن رسول الله ﷺ يأمرها بذلك قبلت الزواج منه (٣).

٥ ـ في وليمته ﷺ على زينب علامة نبوية ودلالة من دلائلها، وهي تكثير الطعام بدعوته، وفي هذه الوليمة أيضاً كان نزول آية حجاب نساء النبي ﷺ، وما شرع من آداب الضيافة (٤).

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: تزوج رسول الله ﷺ فدخل بأهله، قال: فصنعت أمي أم سليم حيساً فجعلته في تور (٥)، فقالت: يا أنس: اذهب بهذا إلى رسول الله ﷺ فَقُلْ: بعثت بهذا إليك أمي، وهي تقرئك السلام وتقول: إن هذا لك منا قليل يا رسول الله! قال: فذهبت بها إلى رسول الله ﷺ، فقلت: إن أمي تقرئك السلام وتقول: إن هذا لك منا قليل يا رسول الله! فقال: «ضعه»، ثم قال: «اذهب فادْعُ لي فلاناً وفلاناً، ومن لقيت»، وسمى رجالاً، قال: فدعوت من سمى ومن لقيت، قال: قلت لأنس: عدد كم كانوا؟ قال: زهاء ثلاثمائة.

وقال لي رسول الله ﷺ: «يا أنس: هات التور»، قال: فدخلوا حتى امتلأت الصفة والحجرة، فقال رسول الله ﷺ: «ليتحلق عشرة عشرة، وليأكل كل إنسان مما يليه» قال: فأكلوا حتى شبعوا، قال: فخرجت طائفة ودخلت طائفة حتى أكلوا كلهم، فقال لي: «يا أنس، ارفع» قال: فرفعت فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت، قال: وجلس طوائف منهم يتحدثون في بيت رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ جالس، وزوجته مولية وجهها إلى الحائط، فثقلوا على رسول الله ﷺ، فخرج رسول الله ﷺ على نسائه ثم رجع، فلما رأوا رسول الله ﷺ قد رجع ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه، قال: فابتدروا الباب فخرجوا كلهم، وجاء رسول الله ﷺ حتى أرخى الستر ودخل، وأنا جالس في الحجرة، فلم يلبث إلا يسيراً حتى خرج عليَّ، وأنزلت هذه الآية، فخرج رسول الله ﷺ وقرأها على الناس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ

---

(١) البخاري في التوحيد، باب، وكان عرشه على الماء (٤/٣٨٨) رقم (٧٤٢٠).
(٢) المصدر نفسه، (٤/٣٨٨) رقم (٧٤٢١).
(٣) انظر: قضايا نساء النبي والمؤمنات (ص ٢١٨).
(٤) المصدر نفسه، (ص ٢١٨).
(٥) تور: الإناء.

﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

قال الجعد (١): قال أنس بن مالك: أنا أحدث الناس عهداً بهذه الآيات، وحُجبن نساءُ النبي ﷺ (٢).

وقد حجب رسول الله ﷺ نساءه لنزول آية الحجاب التي قال المولى ﷻ فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ ...﴾.

وقد كان نزول آية الحجاب من موافقات عمر رضي الله عنه. روى البخاري في صحيحه عن أنس قال: قال عمر رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب (٣).

وبنزول هذه الآية كان تشريع الحجاب، في الإسلام بالنسبة لأزواج النبي ﷺ، والمراد عدم إبداء شيء من أجسامهن للأجانب عنهن، وعدم محادثتهن أو طلب شيء منهن إلا من وراء حجاب، أي ستر يكون بينهن وبين غيرهن، ولما نزلت قال الآباء والأبناء والأقارب لرسول الله ﷺ: ونحن أيضاً نكلمهن من وراء حجاب؟ فأنزل الله قوله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ [الأحزاب: ٥٥].

ونزل أيضاً في شأن نساء النبي في أدب الخطاب والإقامة في البيوت قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٢، ٣٣].

وقد فصّل ﷻ ـ في كتابه الكريم ـ ما يتعلق بالنساء المسلمات، من غض البصر، وحفظ الفروج، وعدم إبداء مواضع الزينة من عنق وساق وعضد وساعد وشعر، ونحوها من العورة

---

(١) الجعد بن دينار، أبو عثمان اليشكري، البصري من أصحاب أنس.

(٢) مسلم كتاب النكاح قم (١٤٢٨).

(٣) البخاري في التفسير (٦/ ٩٢) رقم (٤٧٩٠).

الظاهرة إلا للمحارم [١]. وقد جاء ذلك في سورة النور، وقد بيّنت السنّة النبوية كل ما يتعلق بالنساء من احتجاب وتصون وتعفُّف، وعدم السفور والخلاعة والابتذال بما لا مزيد عليه [٢].

هذه بعض الدروس والعِبَر استخرجت من قصة زواج رسول الله ﷺ من زينب بنت جحش، وما واكب ذلك الزواج من نزول آيات بيّنات في أحكام الحجاب، وما شرع من آداب الضيافة.

هذا وقد توفّيت زينب بنت جحش ﵂ سنة عشرين من الهجرة، وعمرها ثلاث وخمسون سنة، وكانت كما أخبر النبي ﷺ أول نسائه لحاقاً به [٣]، وقد بلغت مروياتها عن النبي ﷺ وفق كتاب بقي بن مخلد أحد عشر حديثاً [٤]، ولها في الكتب الستة خمسة أحاديث [٥]، اتفق لها في البخاري ومسلم عن حديثين [٦]، فقد تركت ذكراً طيباً في تاريخ الأمة الإسلامية [٧].

المبحث الثاني

الآن نغزوهم ولا يغزوننا [٨]

كان ﷺ يحذّر كل القوى المجاورة، ولا يغفل عن أي قوة منها، وقد صرّح بعد غزوة الخندق بأن الخطة القادمة هي غزو قريش، فقد تغيّرت موازين القوى، وأصبح المسلمون لهم القدرة على الهجوم أكثر من قبل، فسعى ﷺ لبسط سيادة الدولة على ما تبقى من قوى حول المدينة، لأن ذلك له صلة بالإعداد لغزو قريش في مرحلة لاحقة، فقد قام ﷺ خلال عام واحد ـ العام السادس ـ بغزوتين وأرسل أربع عشرة سرية، غير ما قام به في نهاية العام الخامس الهجري. . . وهذه الأعمال والتحركات قصد منها المزيد من إنهاك قوى قريش بإحكام الحصار، وتقليم أظفارها من خلال اقتطاع كل ما يمدها بالقوة من حلفائها [٩]، فقد استثمر رسول الله وأصحابه ما حققوه من نجاح في صد الأحزاب وإفشال خططهم، وردهم كيد يهود بني قريظة في نحورهم، فباشروا نشاطاً واسع النطاق ضد خصومهم على جميع الجبهات، فقد ضيّقوا

---

(١) السنة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٣١٢).
(٢) المصدر نفسه، (٢/ ٣١٤).
(٣) انظر: الطبقات الكبرى (٨/ ١١٥).
(٤) انظر: تلقيح الفهوم لابن الجوزي (ص ٣٧٠).
(٥) انظر: تحفة الأشراف للمزي (١١/ ٣٢١ ـ ٣٢٣).
(٦) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ١٢١).
(٧) انظر: دور المرأة في خدمة الحديث (ص ٨٥).
(٨) البخاري في المغازي (٥/ ٥٨) رقم (٤١١٠).
(٩) انظر: دراسات في عهد النبوة للشجاع (ص ١٣٩).

الخناق الاقتصادي على قريش من جديد، كما نفذوا العديد من السرايا لمعاقبة المشركين في الأحزاب من جهة، أو للثأر من القبائل التي كانت قد غدرت بالدعاة أو ناصبت الإسلام العداء. وقد تمثّل النشاط العسكري الإسلامي خلال هذه الفترة فيما يلي:

أولاً: سرية محمد بن مسلمة إلى بني القرطاء:

كانت العشائر النجدية من أجرأ العناصر البدوية الوثنية على المسلمين، لأن النجديين أهل قوة وبأس وعدد غامر، وقد رأينا كيف أن العمود الفقري لقوات الأحزاب الضاربة، كان من هذه القبائل النجدية، حيث كان رجال هذه القبائل الشرسة يشكلون الأغلبية الساحقة من تلك القوة الضاربة، ستة آلاف مقاتل من غطفان وأشجع وأسلم وفزارة وأسد، كانت ضمن الجيوش التي قادها أبو سفيان لحرب المسلمين، فحاصرهم أهل المدينة.

ولهذا فإن أول حملة عسكرية وجهها النبي ﷺ لتأديب خصومه بعد غزوة الأحزاب هي تلك الحملة التي جرّدها على القبائل النجدية من بني بكر بن كلاب الذين كانوا يقطنون القرطاء بناحية ضرية [١]، على مسافة سبع ليال من المدينة، ففي أوائل شهر المحرم عام خمس للهجرة وبعد الانتهاء مباشرة من القضاء على يهود بني قريظة وجّه ﷺ [٢] سرية من ثلاثين من أصحابه عليهم محمد بن مسلمة لشن الغارة على بني القرطاء من قبيلة بكر بن كلاب، وذلك في العاشر من محرم سنة ٦ هـ [٣]، وقد داهموهم على حين غرّة فقتلوا منهم عشرة، وفرّ الباقون، وغنم المسلمون إبلهم وماشيتهم؟ وفي طريق عودتهم أسروا ثمامة بن أثال الحنفي سيد بني حنيفة وهم لا يعرفونه، فقدموا به المدينة وربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ فقال: «ماذا عندك يا ثمامة؟» فقال: عندي خير يا محمد، إن تقتلني تقتل ذا دم وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت، فترك حتى كان الغد فقال: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال: عندي ما قلت لك. إن تنعم تنعم على شاكر فتركه حتى كان بعد الغد فقال: «ما عندك يا ثمامة؟»، فقال: عندي ما قلت لك، فقال: «أطلقوا ثمامة» فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليَّ، والله ما كان دين أبغض إليَّ من دينك فأصبح دينك أحب الدين إليَّ: والله ما كان بلد أبغض إليَّ من بلدك فأصبحت بلدك أحب البلاد إليَّ، وأن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت؟ قال: لا والله ولكني أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى

(١) قرية عامرة قديمة على وجه الدهر في طريق مكة من البصرة من نجد.

(٢) انظر: صلح الحديبية، باشميل (ص ٢٤).

(٣) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي، المغازي (ص ٣٥١).

يأذن فيها النبي ﷺ [(١)]، وقد أبر بقسمه مما دفع وجوه مكة إلى أن يكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة ليخلي لهم حمل الطعام [(٢)]، فاستجاب النبي ﷺ لرجاء قومه بالرغم أنه في حالة حرب معهم، وكتب إلى سيد بني حنيفة ثمامة: «أن خَلِّ بين قومي وبين ميرتهم...» فامتثل ثُمامة أمر نبيه، وسمح لبني حنيفة باستئناف إرسال المحاصيل إلى مكة فارتفع عن أهلها كابوس المجاعة [(٣)]، وفي هذه القصة دروس وعِبَر منها:

١ ـ جواز ربط الكافر في المسجد.

٢ ـ جواز المن على الأسير الكافر، وتعظيم أمر العفو عن المسيء، لأن ثمامة أقسم أن بغضه انقلب حباً في ساعة واحدة، لما أسداه النبي ﷺ إليه من العفو والمنّ بغير مقابل.

٣ ـ الاغتسال عند الإسلام كما فعل ثمامة حين أسلم.

٤ ـ الإحسان يزيل البغض وينبت الحب.

٥ ـ يشرع للكافر إذا أراد عمل خير ثم أسلم أن يستمر في عمل ذلك الخير.

٦ ـ الملاطفة لمن يرجى إسلامه من الأسارى، إذا كان في ذلك مصلحة للإسلام، ولا سيما من يتبعه على إسلامه العدد الكثير من قومه [(٤)].

٧ ـ الإسلام يُغير سلوك المؤمن حين يضع المسلم قدراته تحت إمرة الإسلام والمسلمين، كما فعل ثمامة بعدم إرساله القمح لأهل مكة إلا بإذن من الرسول عليه الصلاة والسلام.

٨ ـ ينبغي أن يخلع المؤمن على عتبة الإيمان ـ وعند تركه للكفر ـ كل علاقاته السابقة، والتزامه بأوامر رب العالمين بعد إيمانه [(٥)].

ثانياً: سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى سيف البحر:

تعتبر سريةِ أبي عبيدة إلى سيف البحر، استمراراً لسياسة النبي ﷺ العسكرية لإضعاف قريش ومحاصرتها اقتصادياً، على المدى الطويل، فقد بعث ﷺ أبا عبيدة بن الجراح في ثلاثمائة راكب قبل الساحل، ليرصدوا عيراً لقريش، وعندما كانوا ببعض الطريق فني الزاد، فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش، فجُمع فكان قدر مزود تمر، يقوتهم منه كل يوم قليلاً، حتى كان أخيراً نصيب الواحد منهم تمرة واحدة، وقد أدرك الجنود صعوبة الموقف فتقبلوا هذا الإجراء بصدور رحبة دون تذمر أو ضجر، بل إنهم ساهموا في خطة قائدهم التقشفية، فصاروا يحاولون الإبقاء

---

(١) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٣٠).

(٢) المصدر نفسه، (١/ ٣٣٠).

(٣) انظر: السيرة الحلبية (٢/ ٢٩٨)؛ الاستيعاب لابن عبد البر ترجمة ثمامة بن أثالة الحنفي.

(٤) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٣٨٦، ٣٨٧).

(٥) المصدر نفسه، (ص ٣٨٧).

على التمرة أكبر وقت ممكن [١]، يقول جابر رضي الله عنه أحد أفراد هذه السرية: (كنا نمصها كما يمص الصبي، ثم نشرب عليها من الماء فتكفينا يومنا إلى الليل) [٢] وقد سأل وهب بن كيسان جابراً رضي الله عنه: ما تغني عنكم تمرة؟ فقال: لقد وجدنا فقدها حين فنيت [٣].

وقد اضطر ذلك الجيش إلى أكل ورق الشجر، قال جابر رضي الله عنه: وكنا نضرب بعصينا الخَبَط [٤]، ثم نبله بالماء فنأكله [٥] (فسمي ذلك الجيش جيش الخَبَط) [٦]، وقد أثر هذا الموقف في قيس بن سعد بن عبادة ـ رضي الله عنهما ـ أحد جنود هذه السرية الشجاعة، وهو رجل من أهل بيت اشتهر بالكرم، فنحر للجيش ثلاث جزائر [٧]، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم إن أبا عبيدة نهاه [٨].

فبينما هم كذلك من الجوع والجهد الشديدين إذ زفر البحر زفرة أخرج فيها حوتاً ضخماً، فألقاه على الشاطىء، ويصف لنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما مقدار ضخامة هذا الحوت العجيب فيقول: وانطلقنا على ساحل البحر، فرُفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم [٩]، فأتيناه فإذا هي دابة تدعى العنبر [١٠]، قال: قال أبو عبيدة: ميتة، ثم قال: لا بل نحن رسل رسول الله ﷺ وفي سبيل الله، وقد اضطررتم فكلوا، قال: فأقمنا عليه شهراً، ونحن ثلاثمائة حتى سمنّا، قال: ولقد رأيتنا نغترف من وقب [١١] عينيه بالقلال [١٢] الدهن. ونقتطع منه الفدر [١٣] كالثور، أو قدر الثور، فلقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم في وقب عينيه، وأخذ ضلعاً من أضلاعه فأقامها، ثم رجل أعظم بعير منا فمر من تحتها [١٤]، وتزودنا من لحمه وشائق، فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ [١٥] فقال: «ما حبسكم؟» قلنا: كنا نتبع

---

(١) انظر: السرايا والبعوث النبوية (ص ١١٨).
(٢) أبو داود كتاب الأطعمة، رقم (٣٨٤٠).
(٣) فتح الباري (٨/ ٧٧).
(٤) الخبط: ضرب الشجر بالعصا ليناثر ورقها، واسم الورق والساقط خَبَط.
(٥) شرح النووي (١٣/ ٨٤).
(٦) فتح الباري (٨/ ٧٨).
(٧) جمع جزور، والجزور: البعير، أو خاص بالناقة.
(٨) فتح الباري (٨/ ٧٨).
(٩) الكثيب: التل من الرمل.
(١٠) العنبر: سمكة كبيرة يتخذ من جلدها التراس.
(١١) الوقب: النقرة التي تكون فيها العين.
(١٢) القلال: الجرة العظيمة.
(١٣) الفدر: جمع فدرة وهي القطعة من اللحم.
(١٤) انظر: السرايا والبعوث النبوية (ص ١٢١).
(١٥) انظر: شرح النووي (١٣/ ٨٥ ـ ٨٧).

عيرات قريش، وذكرنا له من أمر الدابة [(١)]. فقال: «هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا»، قال: فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله [(٢)]. كانت هذه السرية على الأرجح قبل صلح الحديبية، وليس في رجب سنة ثمان كما ذكر ابن سعد [(٣)]، وذلك لسببين: **السبب الأول**: أن الرسول ﷺ لم يغز ولم يبعث سرية في الشهر الحرام، **والثاني**: أن رجب سنة ثمان هو ضمن فترة سريان صلح الحديبية [(٤)].

وذكر ابن سعد والواقدي [(٥)]، أن النبي ﷺ بعثهم إلى حي من جهينة، وقال ابن حجر [(٦)]: إن هذا لا يغاير ظاهره ما في الصحيح، لأنه يمكن الجمع بين كونهم يتلقون عيراً لقريش ويقصدون حياً من جهينة، ويحتمل أن يكون تلقيهم للعير ليس لمحاربتهم، بل لحفظهم من جهينة. ويقوى هذا الجمع ما عند مسلم [(٧)]، أن البعث كان إلى أرض جهينة [(٨)]. وفي هذه القصة دروس وعِبَر منها:

١ ـ حكمة أبي عبيدة رضي الله عنه حيث جمع الأزواد، وسوى بين المجاهدين في التوزيع، ليستطيع تجاوز الأزمة بهم، وذلك درس تعلمه من رسول الله ﷺ عملياً أكثر من مرة.

٢ ـ كرم قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما، في وقت عصيب، ليس بيده يومها ما يخفف عن الناس، ففي رواية الواقدي: (أن قيس بن سعد رضي الله عنه استدان هذه النوق من رجل جهني، وأن أبا عبيدة رضي الله عنه نهاه قائلاً: تريد أن تخفر ذمتك ولا مال لك [(٩)]، فأراد أبو عبيدة الرفق به [(١٠)].

وقد بدأ قيس ينحر حتى نهاه أبو عبيدة، فقال له قيس: يا أبا عبيدة أترى أن أبا ثابت يقضي ديون الناس ويحمل الكل ويطعم في المجاعة، لا يقضي عني تمر القوم مجاهدين في سبيل الله [(١١)]، وقال ذلك قيس لأبي عبيدة، لأنه قد اتفق مع رجل من جهينة على أن يشتري منه نوقاً ينحرها للجيش على أن يعطيه بدل ذلك تمراً بالمدينة، وقد وافق الجهني على تلك الصفقة.

---

(١) صحيح سنن النسائي للألباني (٣/ ٩١٠).
(٢) شرح النووي (١٣/ ٨٧).
(٣) انظر: الطبقات لابن سعد (٢/ ١٣٢)، والذهبي في المغازي (ص ٥١٩).
(٤) انظر: المجتمع المدني للعمري (ص ١٢٥).
(٥) انظر: المغازي (٢/ ٧٧٤)؛ السيرة النبوية على ضوء مصادرها الأصلية (ص ٤٨٠).
(٦) انظر: السيرة النبوية على ضوء مصادرها الأصلية (ص ٤٨٠).
(٧) مسلم (٣/ ١٥٣٧) رقم (١٩٣٥).
(٨) انظر: السيرة النبوية على ضوء مصادرها الأصلية (ص ٤٨٠).
(٩) انظر: معين السيرة (ص ٣٢٣)؛ السرايا والبعوث النبوية (ص ١١٩).
(١٠) انظر: السرايا والبعوث النبوية (ص ١١٩).
(١١) انظر: من معين السيرة (ص ٣٢٣) نقلاً عن الزرقاني في شرحه (٢/ ٢٨٢).

وعندما علم سعد بن عبادة بنهي أبي عبيدة لقيس بحجة أنه لا مال له، وإنما المال لأبيه، وهب ابنه أربعة حوائط أدناها يُجذ منه خمسون وسقاً [١].

٣ ـ الحلال والحرام:

إن المسلمين في هذه السرية بلغ بهم الجوع غايته، فكانت التمرة الواحدة طعام الرجل طوال يوم كامل في سفر ومشقة، ويمرون ـ وهم على تلك الحال من فقد التمر وأكل الخبط على الجهني ـ الذي اشترى منه قيس ـ أو على قومه ـ فما يخطر بفكرهم أن يغيروا عليهم لينتزعوا منهم طعامهم، كما كانت الحال في الجاهلية، لأنهم اليوم ينطلقون بدين الله الذي جاء ليحفظ على الناس أموالهم ـ في جملة ما حفظ ـ وهم اليوم يفرقون بين الحلال والحرام الذي تعلموه من منهج رب العالمين [٢].

٤ ـ جواز أكل ميتة البحر:

وتدل القصة على جواز أكل ميتة البحر، وأنها لم تدخل في قوله ﷻ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المَائدة: ٣].

وقد قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المَائدة: ٩٦].

وقد صح عن أبي بكر الصديق وعبد الله بن عباس وجماعة من الصحابة «أن صيد البحر ما صيد منه، وطعامه ما مات فيه»، وفي السنن عن ابن عمر مرفوعاً موقوفاً: «أحلت لنا ميتتان ودمان: فأما الميتتان فالسمك والجراد، وأما الدمان الكبد والطحال» [حديث حسن].

كما أن في أكل الرسول ﷺ من لحم الحوت الذي تغذى منه المسلمون مدة دليل على مشروعية أكل ميتة البحر [٣].

٥ ـ بعض الأحكام التي ذكرها الإمام النووي:

قال النووي: في هذا الحديث جواز صدِّ أهل الحرب واغتيالهم والخروج لأخذ مالهم واغتنامه، وأن الجيوش لا بدّ لها من أمير يضبطها، وينقادون لأمره ونهيه، وأنه ينبغي أن يكون الأمير أفضلهم، أو من أفضلهم، قالوا: ويستحب للرفقة من الناس ـ وإن قلوا ـ أن يؤمِّروا أحدهم عليهم، وينقادوا له، قال أصحابنا وغيرهم من العلماء: يستحب للرفقة من المسافرين خلط أزوادهم ليكون أبرك، وأحسن في العشرة وأن لا يختص بعضهم بأكل دون بعض والله أعلم [٤].

---

(١) انظر: معين السيرة (ص ٣٢٣).
(٢) المصدر نفسه، (ص ٣٢٤).
(٣) انظر: السيرة في ضوء مصادرها الأصلية (٤٨٠).
(٤) شرح النووي على مسلم (١٣/٨٦).

ثالثاً: سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل:

كانت هذه السرية قد وجهت إلى أبعد مدى وصلت إليه الجيوش النبوية في الجزيرة العربية، ودومة الجندل قريبة من تخوم الشام، فهي أبعد ثلاثة أضعاف عن المدينة بعدها عن دمشق، وهي تقوم في قلب الصحراء العربية واسطة الصلة بين الروم في أرض الشام والعرب في الجزيرة، وسكانها من قبيلة كلب الكبرى، وقد دخلوا في النصرانية، نتيجة جوارهم وتأثرهم بجوار الروم النصارى، وهذه السرية تدخل ضمن مخطط النبي ﷺ في احتكاكه مع الامبراطورية الرومانية.

وأما أمير السرية فهو عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن رجال الرعيل الأول، فقد كان إحدى الدعائم الكبرى للدعوة الإسلامية، منذ دخوله فيها على يد الصديق رضي الله عنه، ومهمة هذه السرية ذات جانبين: مهمة دعوية، ومهمة حربية. لذلك انتدب لها عبد الرحمن بن عوف الذي تربّى على محض الإسلام منذ أيامه الأولى [(١)].

وعن هذه السرية حدّثنا عبد الله بن عمر فقال: دعا رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف فقال: «تجهّز فإني باعثك في سرية في يومك هذا، أو من غد إن شاء الله». قال ابن عمر: فسمعت ذلك فقلت: لأدخلنَّ فلأَصلين مع النبي الغداة، فلأسمعنَّ وصيته لعبد الرحمن بن عوف.

قال: فغدوتُ فصليت فإذا أبو بكر وعمر، وناس من المهاجرين فيهم عبد الرحمن بن عوف، وإذا رسول الله ﷺ قد كان أمره أن يسير من الليل إلى دومة الجندل فيدعوهم إلى الإسلام، فقال رسول الله ﷺ لعبد الرحمن: «ما خلَّفك عن أصحابك؟» قال ابن عمر: وقد مضى أصحابه في السحر، فهم معسكرون بالجُرْف وكانوا سبعمائة رجل، فقال: أحببت يا رسول الله أن يكون آخر عهدي بك، وعليّ ثياب سفري.

قال: فأقعده بين يديه فنقض عمامته بيده، ثم عمّمه بعمامة سوداء، فأرخى بين كتفيه منها، ثم قال: «هكذا فاعتم يا ابن عوف!» قال: وعلى ابن عوف السيف مُتوشِّحه. ثم قال رسول الله ﷺ: «اغزُ باسم الله وفي سبيل الله، فقاتل من كفر بالله، لا تَغُلَّ ولا تغدر ولا تقتل وليداً». قال ابن عمر: ثم بسط يده، فقال: «يا أيها الناس، اتقوا خمساً قبل أن يُحل بكم: ما نقص مكيال قوم إلا أخذهم الله بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يرجعون، وما نكث قوم عهدهم إلا سلّط الله عليهم عدوهم، وما منع قوم الزكاة إلا أمسك الله عليهم قطر السماء، ولولا البهائم لم يُسقطوا، وما ظهرت الفاحشة في قوم إلا سلّط الله عليهم الطاعون، وما حكم قوم بغير آي القرآن إلا ألبسهم الله شيعاً، وأذاق بعضهم بأس بعض».

قال: فخرج عبد الرحمن حتى لحق أصحابه، فسار حتى قدم دُومة الجندل، فلما حلّ بها

---

(١) التربية القيادية (٤/ ١٦٧، ١٦٨).

دعاهم إلى الإسلام، فمكث بها ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، وقد كانوا أول ما قدم يعطونه إلا السيف، فلما كان اليوم الثالث أسلم الأصبغ بن عمرو والكلبي وكان نصرانياً وكان رأسهم. فكتب عبد الرحمن إلى النبي ﷺ يخبره بذلك، وبعث رجلاً من جهينة يقال له: رافع بن مكيث، وكتب يخبر النبي ﷺ أنه قد أراد أن يتزوج فيهم، فكتب إليه النبي ﷺ أن يتزوج بنت الأصبغ تماضر. فتزوجها عبد الرحمن وبنى بها، ثم أقبل بها، وهي أم أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف. وذكر الواقدي أن هذه السرية في شعبان سنة ست (١).

وفي هذه السرية دروس وعِبَر منها:

١ ـ تواضع النبي ﷺ لأصحابه وشفقته عليهم، حيث ألبس عبد الرحمن بن عوف عمامته بيده، وهذا التواضع منه ﷺ يرفع من معنويات الصحابة ﷺ، ويدفعهم إلى بذل المزيد من الطاقة في سبيل خدمة هذا الدين، لأن التلاحم والمودة بين القائد وجنوده من أهم عوامل نجاح العمل وتحقيق الأهداف (٢).

٢ ـ كان جيش عبد الرحمن جيش مبادىء وعقيدة، فتحرك ضارباً في هذه الصحراء المترامية يحمل شرع الله إلى خلقه، وهدي رسوله إلى أمته، مستوعباً لمقاصد الجهاد وأحكامه، فالجهاد ليس باسم محمد ﷺ فهو عبد الله ورسوله، ولا مكان لزعيم، أو أمة، أو قبيلة، أو راية أو وطن، أو جيش، أو قومية بجوار هذه الراية الخفاقة في هذا الوجود راية الله تعالى. «اغزُ باسم الله» فحزب الله تعالى هو الذي يحيي هذه الصحراء الظمأى بغيث العقيدة الخالصة عقيدة التوحيد (٣)، وهدفهم من هذا التحرك في سبيل الله وحده، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

قتالهم لمن كفر بالله وليس القتال على المبدأ الجاهلي.

وأحياناً على بكر أخينا ... إذا ما لم نجد إلا أخانا

أما هذا الجيش القوي الفتي، فهو يمضي في الأرض قدماً ليقاتل من كفر بالله (٤).

٣ ـ ثم نهى رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف عن الغلول ـ وهو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها ـ ونهاه عن الغدر في العهود، وعن قتل الولدان، وتلك نماذج من الأدب الإسلامي في الجهاد، فالقتال نوع من العنف والقسوة، ولكنه بالنسبة للمسلمين الذين

---

(١) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٥٦٠ ـ ٥٦١).
(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ١٨٤).
(٣) انظر: التربية القيادية (٤/ ١٧١).
(٤) المصدر نفسه، (٤/ ١٧٢).

طهّر الله تعالى قلوبهم من الغل والحسد أمر عارض لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، وحماية المحقين من المبطلين، وليس متأصلاً في نفوسهم، ولذلك كان محفوفاً بالآداب السامية التي تجعل الإنسان الواحد جامعاً بين منتهى القوة والبطش ومنتهى الرحمة والعطف (١).

٤ - كان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه سيداً من سادات هذه الأمة، وواحداً من أكبر دعاتها، فهو يملك من الحلم، والحكمة والثقافة، والتجربة والعبقرية، والقدم في الإسلام، والبلاء فيه ما لا يملكه غيره، ولهذا بذل كل طاقاته لتحقيق الهدف الرئيسي الأول، وهو الدخول في الإسلام، وكان متريثاً هادياً خبيراً بالنفوس والقلوب، فشحن كل الإمكانات الفكرية والحركية، لإنجاح هذه المهمة العظمى، وتكلل عمله بفضل الله تعالى بالنجاح الكبير، وخاصة أن الجهد انصب على إقناع الرئيس، حسب توجيهات المصطفى ﷺ.

٥ - إن إسلام سيد بني كلب في دومة الجندل الأصبغ بن عمرو على يد عبد الرحمن بن عوف، يذكرنا بجعفر بن أبي طالب الذي أسلم على يديه النجاشي ملك الحبشة، ومصعب بن عمير بالمدينة، حيث استجاب له سادات الأوس والخزرج وزعامتهم للإسلام، وهذه الشخصيات العظمى الثلاثة هم من الرواد الأوائل، ومن المؤسسين في المدرسة الإسلامية الأولى بمكة المكرمة.

هذا عبد الرحمن بن عوف الذي أصيب بأحد عشر جرحاً أدّت بعضها إلى أن يكون عنده عرج من شدّتها، يصنع ركائز العقيدة الإسلامية بجيشه المظفر شمال الجزيرة العربية، وينضم الكثيرون إلى الإسلام، لتغدو دومة الجندل موقعاً جديداً من المواقع الإسلامية، في هذه الأطراف المتنامية، فلا غنى للمسلمين عن هذه القلعة، وعن هذه الموقعة للمستقبل القريب في المواجهة مع العرب والروم المناوئين للإسلام (٢).

وهذه أول مرة يحكم الإسلام خارج حدوده، ويتعايش المسلمون والنصارى في دولة واحدة، فالذين أسلموا تطبق عليهم أحكام الإسلام، والذين بقوا على نصرانيتهم تؤخذ منهم الجزية، وكان هذا الانفتاح تدريباً جديداً للصحابة على المجتمعات الجديدة، التي سينتقلون إليها فيما بعد، وينساحون في العراق والشام وفي قلب فارس والروم، ليعلموا الناس أن العقيدة تنبني من خلال الحوار لا من خلال السيف، وأن مبادىء الإسلام لها قوتها الذاتية التي تشع أنوارها على المجتمعات التي قد انغمست في الظلام البهيم (٣).

٦ - إن زواج عبد الرحمن بن عوف من ابنة سيد بني كلب زعيم دومة الجندل، يقوي الروابط

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ١٨٤).
(٢) انظر: التربية القيادية (٤/ ١٧٤).
(٣) المصدر نفسه، (٤/ ١٧٥).

بين الزعيم المسلم الجديد بدومة الجندل، وبين دولة الإسلام في المدينة، ويربط مصيره بمصير دولة الإسلام، ومصير الإسلام نفسه حين يشعر أن فلذة كبده مقيمة في العرين الإسلامي الذي أصبح يحن له حنينه لأرضه وبلده [١].

وقد كان ﷺ يحرص على أن يتزوّج هو وقادته ببنات سادة القبائل، لأن ذلك كسب كبير لدعوة الإسلام حيث تكون المصاهرة سبباً في القرب وامتصاص أسباب العداء ثم الدخول في الإسلام[٢].

رابعاً: تأديب الغادرين... غزوة بني لحيان، وغزوة الغابة وغيرهما:

١ ـ بعد رحيل الأحزاب انتقل المسلمون من دور الدفاع إلى دور الهجوم، وأصبحوا يمسكون بأيديهم زمام المبادرة، وحان الوقت لتأديب بني لحيان الذين غدروا بخبيب وأصحابه يوم الرجيع وأخذ ثأر الشهداء، فخرج إليهم النبي ﷺ في مائتي صحابي، في ربيع الأول أو جمادي الأولى سنة ست من الهجرة [٣].

أ ـ تضليل العدو:

كانت أرض بني لحيان من هُذيل تبعد عن المدينة أكثر من مئتين من الأميال، وهي مسافة بعيدة، يلاقي مشاقاً كبيرة كل من يريد قطعها، ولكن النبي ﷺ كان حريصاً على الاقتصاص لأصحابه من الذين استشهدوا (غدراً) على يد هذه القبائل الهمجية التي لا قيمة للعهود عندها.

وكما هي عادة النبي ﷺ في تضليل العدو الذي يريد مهاجمته، اتجه بجيشه نحو الشمال بينما تقع منازل بني لحيان في أقصى الجنوب.

وقد أعلن النبي ﷺ قبل تحركه نحو الشمال: أنه يريد الإغارة على الشام، وحتى أصحابه لم يعلموا أنه يريد بني لحيان إلا عندما انحرف بهم نحو الجنوب، بعد أن اتجه بهم متوغلاً نحو الشمال حوالي عشرين ميلاً. . . في حركة تمويهية على العدو بارعة.

وكان تغيير خط سيره من الشمال إلى الجنوب عند مكان يقال له (البتراء)، ففي ذلك المكان عطف بجيشه نحو الغرب حتى استقام على الجادة منصبًّا نحو الجنوب [٤].

ب ـ فرار اللحيانيين قبل وصول النبي ﷺ:

كانت بنو لحيان على غاية التيقظ والانتباه، فقد بثت الأرصاد والجواسيس في الطرق ليتحسسوا لها ويتجسسوا لذلك، فما كاد النبي ﷺ يقترب بجيشه من منازلهم حتى انسحبوا منها

---

(١) انظر: التربية القيادية (٤/ ١٧٤).
(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ١٨٦).
(٣) انظر: السيرة النبوية في ضوء مصادرها الأصلية (٤٦٨).
(٤) انظر: صلح الحديبية، باشميل (ص ٣٤، ٣٥).

فارين، وهربوا في رؤوس الجبال، وذلك بعد أن نقلت إليهم عيونهم خبر اقتراب جيش المسلمين من ديارهم.

ولما وصل النبي ﷺ بجيشه عسكر في ديارهم ثم بث السرايا من رجاله، ليتعقبوا هؤلاء الغادرين، ويأتوا إليه بمن يقدرون عليه، واستمرت السرايات النبوية في البحث والمطاردة يومين كاملين إلا أنها لم تجد أي أثر لهذه القبائل، التي تمنعت في رؤوس تلك الجبال الشاهقة، وأقام ﷺ في ديارهم يومين لإرهابهم وتحديهم، وليظهر للأعداء مدى قوة المسلمين وثقتهم بأنفسهم، وقدرتهم على الحركة حتى إلى قلب ديار العدو متى شاؤوا [١].

جـ ـ إرهاب المشركين بمكة:

رأى النبي ﷺ أن يغتنم فرصة وجوده بجيشه قريباً من مكة، فقرر أن يقوم بمناورة عسكرية يرهب بها المشركين في مكة، فتحرك بجيشه حتى نزل به وادي عُسفان [٢]، وهناك استدعى أبا بكر الصديق، وأعطاه عشرة فوارس من أصحابه، وأمره بأن يتحرك بهم نحو مكة؛ ليبث الذعر والفزع في نفوسهم. فاتجه الصديق بالفرسان العشرة نحو مكة حتى وصل بهم كُراع الغميم [٣]، وهو مكان قريب جداً من مكة، فسمعت قريش بذلك فظنت أن النبي ﷺ ينوي غزوها فانتابها الخوف والفزع والرعب، وساد صفوفها الذعر، هذا هو الذي هدف إليه النبي ﷺ بهذه الحركة التي كلف الصديق أن يقوم بها.

أما الصديق وفرسانه العشرة فبعد أن وصلوا كُراع الغميم، وعلموا أنهم قد أحدثوا الذعر والفزع في نفوس أهل مكة، عادوا سالمين إلى النبي ﷺ فتحرك بجيشه عائداً إلى المدينة [٤].

د ـ الترحم على الشهداء:

عندما وصل النبي ﷺ إلى بطن (غُران) [٥]، حيث لقي الشهداء من أصحابه مصرعهم على أيدي الخونة من هذيل، ترحّم على هؤلاء الشهداء ودعا لهم [٦].

٢ ـ غزوة الغابة [٧]:

لم تكد تمضي ليال قلائل على عودة رسول الله ﷺ من غزوته لبني لحيان، حتى أغار

---

(١) انظر: صلح الحديبية، باشميل (ص ٣٦).
(٢) عسفان: قرية بين مكة والمدينة على نحو يومين من مكة.
(٣) كراع الغميم: موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة وهو واد.
(٤) انظر: صلح الحديبية (ص ٣٧).
(٥) غران بضم أوله: واد بين ساية ومكة.
(٦) انظر: صلح الحديبية (٣٨).
(٧) الغابة: موضع قرب المدينة من ناحية الشام فيه أموال لأهل المدينة.

عيينة بن حصن الفزاري في خيل لغطفان، كان عددها أربعين على لقاح (الإبل الحوامل ذوات الألبان) لرسول الله ﷺ بالغابة، وقتلوا ذر بن أبي ذر الغفاري، وأسروا زوجته ليلى، واستاقوا الإبل التي كان عددها عشرين، ولما علم الرسول ﷺ بخبر عيينة، خرج في خمسمائة من أصحابه في إثره، بعد أن استخلف سعد بن عبادة في ثلاثمائة من قومه، يحرسون المدينة [(١)].

وعند جبل من ذي قَرَد [(٢)]، أدرك رسول الله ﷺ العدو، فقتل بعض أفراده واستنقذ الإبل [(٣)].

وقد أبدى سلمة بن الأكوع في هذه المعركة بطولة نادرة، وخاصة قبل وصول كتيبة الفرسان النبوية، حيث كان ضمن الرعاة في منطقة الغابة، وظل بمفرده يشاغل المغيرين ويراميهم بالنبل، وكان من أعظم الرماة في عصره، وقد استخلص مجموعة من الإبل المنهوبة قبل قدوم كتيبة الفرسان [(٤)].

أما المرأة التي أسرها المغيرون من غطفان وهي زوجة ابن أبي ذر ـ الذي قتله المشركون أثناء الغارة في الغابة ـ فقد عادت سالمة إلى المدينة بعد أن تمكنت من الإفلات من القوم على ظهر ناقة تابعة لرسول الله ﷺ، وقد نذرت إن نجاها الله ﷻ لتنحرنَّ تلك الناقة، فلما أخبرت النبي ﷺ عن نذرها تبسم وقال: «بئسما جزيتيها» (أي أنها حملتك ونجت بك من الأعداء فيكون جزاؤها النحر)، ثم قال لها ﷺ: «لا نذر في معصية الله، ولا فيما لا تملكين» [(٥)].

وقد عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد أن أمضى خمس ليال خارجها [(٦)].

وهذه الغزوة تعتبر من أكبر الغزوات التأديبية التي قادها رسول الله ﷺ بنفسه ضد أعراب نجد، بعد غزوة الأحزاب وبني قريظة وقبل غزوة خيبر [(٧)]، وتتابعت سرايا رسول الله ﷺ بعد غزوة قَرَد لتأديب المشركين، فنجحت بعض هذه السرايا، وتعثر بعضها الآخر، وكان أبرزها سرية عكاشة بن محصن الأسدي التي عُرفت بسرية الغَمْر [(٨)]، وقد بعثها رسول الله ﷺ في شهر ربيع الأول سنة ست من الهجرة، إلى بني أسد، فوصلت إلى موضع يقال له الغَمْر، فوجدت القوم قد هربوا وتفرقوا في الجبال القريبة، فأغار عكاشة وأصحابه على نعم لهم فغنموا مائتي

---

(١) انظر: عيون الأثر، ابن سيد الناس (٢/ ٧٢، ٧٣).

(٢) ذو قَرَد: ماء على نحو بريد من المدينة مما يلي غطفان.

(٣) انظر: التاريخ السياسي العسكري (ص ٣٢٧).

(٤) انظر: صلح الحديبية (ص ٤٣).

(٥) انظر: صلح الحديبية(ص ٤٥).

(٦) انظر: التاريخ السياسي والعسكري (ص ٣٢٧).

(٧) انظر: صلح الحديبية (ص ٤٥).

(٨) الغمر: ماء لبني أسد على ليلتين من فيد الذي هو قلعة بطريق مكة.

بعير، وعادوا إلى المدينة [(١)].

ومن أبرزها أيضاً سرية محمد بن مسلمة الأنصاري إلى ذي القصة [(٢)] لإرهاب بني ثعلبة وعُوال، ومنعهم من الإغارة على سرح المدينة، وفي شهر ربيع الثاني سنة ست من الهجرة خرج محمد بن مسلمة في عشرة من المسلمين حتى وردوا عليهم ليلاً، فأحدق بهم القوم وهم مائة رجل، فتراموا ساعة من الليل، ثم حملت عليهم الأعراب بالرماح فقتلوهم، ووقع محمد بن مسلمة جريحاً، ولم يتمكن من العودة إلا بعد أن مرّ به رجل من المسلمين، فحمله حتى ورد به المدينة [(٣)].

وعلى الأثر بعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة عامر بن الجراح في أربعين رجلاً إلى منازلهم، فلم يجدوا أحداً، ولكنهم غنموا بعض نعمهم، فساقوها وعادوا بها إلى المدينة [(٤)].

وفي شهر جمادى الأولى من السنة نفسها، كانت سرية زيد بن حارثة الثانية إلى العيص [(٥)] في سبعين ومائة راكب، لاعتراض قافلة لقريش كانت مقبلة من الشام، فأدركها وأخذها وما فيها وأسر بعض أفرادها، كان منهم أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله، وأمّه هالة بنت خويلد أخت خديجة زوجة رسول الله ﷺ، والمغيرة بن معاوية بن أبي العاص [(٦)]. وفي شعبان سنة ست من الهجرة خرجت سرية بقيادة علي بن أبي طالب لتأديب بني سعد بن بكر الذين جمعوا الناس لإمداد يهود خيبر، وقد بعثه رسول الله ﷺ في مائة من المسلمين، فأغار عليهم، وغنم بعض نعمهم وعاد بها إلى المدينة [(٧)].

كانت هذه السرية تأديباً لكل من تسوّل له نفسه مساعدة اليهود في بغيهم المتوقع، حيث علمت تلك القبائل أن عين المدينة يقظة لكل ما يدور حولها، وأن جميع التحركات كانت تحت المراقبة [(٨)]. فقد تميّزت الدولة الإسلامية بدقة رصدها لأعدائها، وهكذا يكون التخطيط الحربي السليم، وذلك بقطع الطريق على تجمع الأعداد الكبيرة حتى بالإمدادات الصغيرة [(٩)].

إن حركة السرايا والبعوث ـ التي كان يقودها رسول الله ﷺ ـ ترشد المسلمين إلى أهمية

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٦٤٠).
(٢) ذو القصة: موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً في طريق الربذة.
(٣) انظر: التاريخ السياسي والعسكري (ص ٣٢٨).
(٤) الواقدي (١/ ٥٥١).
(٥) العيص: بينها وبين المدينة أربع ليال.
(٦) انظر: محمد رسول الله، محمد رضا (ص ٢٤٥، ٢٤٦).
(٧) انظر: التاريخ السياسي والعسكري (٣٣٠).
(٨) انظر: من معين السيرة (ص ٣٢٥).
(٩) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ١٨٩).

متابعة أخبار الأعداء وجمع المعلومات عنهم، فقد كانت المعلومات تتجمع عند رسول الله ﷺ من مصادر متعددة: سراياه الاستطلاعية، المسلمين المتخفين، المتعاطفين مع المسلمين، المعاهدين، الفراسة واستكشاف ما وراء السطور، المهم أن رسول الله ﷺ ما كان يفاجأ بتآمر داخلي أو تهديد خارجي، وهذا يجعل المسلمين في عصرنا أمام قضية يجب أن يعطوها كامل الاعتبار، مع ملاحظة الضوابط الشرعية [(١)].

خامساً: سرية كرز بن جابر الفهري إلى العرنيين:

قدم على رسول الله ﷺ جماعة من عُكَل [(٢)] وعرينة [(٣)]، في شوال من العام السادس الهجري [(٤)]، وتكلموا بالإسلام، فقالوا: يا نبي الله، إنا كنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف، واستوخموا المدينة، فأمر لهم رسول الله ﷺ بذودٍ [(٥)] وراع، وأمرهم أن يخرجوا فيه فيشربوا من ألبانها ويتمسحوا بأبوالها، فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحَرَّة كفروا بعد إسلامهم، وقتلوا راعي النبي ﷺ واستاقوا الذّود. فبلغ النبي ﷺ خبرهم فبعث الطلب في آثارهم [(٦)]، فقبضوا عليهم فأمر بهم فسملوا أعينهم وقطعوا أيديهم وأرجلهم، وتركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم، قال قتادة راوي الحديث: بلغنا أن النبي ﷺ بعد ذلك كان يحث على الصدقة وينهى عن المثلة [(٧)].

وقال أبو قلابة في حديثه: (هؤلاء قوم سرقوا وقتلوا، وكفروا بعد إيمانهم وحاربوا الله ورسوله) [(٨)].

قال الجمهور: إن الآية: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المَائدة: ٣٣] قد نزلت في هؤلاء العرنيين [(٩)] وقيلت أسباب أخرى في نزولها [(١٠)].

(١) انظر: الأساس في السنة (٢/ ٧١٢).
(٢) عكل: قبيلة من تيم الرباب.
(٣) عرينة: حي من بجيلة.
(٤) من رواية الواقدي (٢/ ٥٦٨) معلقة وابن سعد (٢/ ٩٣) معلقة.
(٥) الذود: الإبل ما بين الثلاثة إلى العشرة وقيل ما بين الثنتين إلى التسعة.
(٦) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٤٧٨).
(٧) المصدر نفسه، (ص ٤٧٨).
(٨) المصدر نفسه، (ص ٤٧٨).
(٩) انظر: سبل الهدى والرشاد للشامي (٦/ ١٨١ ـ ١٩٠) فيها تفصيل.
(١٠) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ٢٤٢ ـ ٢٤٤).

وعلى كل حال، فالعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، فهذا الحكم باقٍ حتى يومنا هذا، وأدل دليل على ذلك ما أجمع عليه المسلمون من وجود حكم الحرابة في الإسلام، سواء كانت الآية نزلت في الكفار أم في المسلمين. وهذه الآية نازلة في المشركين كما في البخاري، فدل ذلك على أن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.

وكون المثلثة منسوخة أو منهياً عنها، وأن النبي ﷺ سمل أعين العرنيين، لا يستدل به في هذه القضية لكون العرنيين سملوا أعين الرعاة، فصار سمل النبي ﷺ لهم قصاصاً لا مثلة [١].

إن حادثة العريني ترتب عليها تنفيذ حكم الحرابة، ونزول آيات بيّنات في هذا الحكم، فقد حصر المولى ﷻ جزاء المحاربين في أربعة أمور، وكان ذلك الحصر بأقوى أدوات الحصر.

ثم إنه وصف هؤلاء المحاربين بأوصاف يشمئز منها كل عاقل، ذلك أنه وصفهم بأنهم حرب لله تعالى ولرسوله ﷺ، وأنهم يريدون إفساد الأرض بتخويف سكانها، وتقتيلهم وسلبهم، ونهب ممتلكاتهم ظلماً وجوراً، لا مستند لهم ولا باعث إلا الإفساد والطغيان، فكانت رحمة الله تعالى الرحيم بهم وبغيرهم من خلقه مقتضية الحكم عليهم بواحد من أمور أربعة وهي: القتل والصلب، وقطع الأيدي، والأرجل من خلاف، والإبعاد من مخالطة العامة، وعزلهم عنها بالنفي والتغريب حتى لا تتكرر منهم تلك الجرائم الشنيعة، وحتى يرتدع غيرهم عن ارتكاب مثل هذا الجرم الشنيع، ولكي يطهرهم ما يوقع بهم من عقاب، من الذنوب والآثام إن هم تابوا ورجعوا إلى رشدهم وصوابهم.

ثم إن هؤلاء لهم ذلة ومهانة في الحياة الدنيا لأذيتهم المسلمين، وقد علّل الله تعالى لحوق تلك الرذيلة بهم، مدة الحياة الدنيا، بسبب ما اقترفوه من جريمة الحرابة، وباقية معهم إلى يوم القيامة، لكون الله جلّ وعلا أعد لهؤلاء في الآخرة عذاباً عظيماً.

ثم استثنى جلّ وعلا من هؤلاء من أناب إليه ورجع، في أسلوب حكيم مؤثر داعٍ إلى رجوعهم وتوبتهم من هذه الجريمة المنكرة، فلقد عفا عنهم تعالى إذا ما رجعوا وجاءوا تائبين قبل القدرة عليهم، لكون تلك التوبة مظنة لصدقهم في توبتهم ورجوعهم عن غيهم، لأنهم رجعوا قبل القدرة عليهم، وبتقييد العفو عنهم بتوبتهم قبل القدرة عليهم يفهم أنهم إن قدر عليهم قبل التوبة لا ينالون من العفو ما ينالونه لو تابوا قبل القدرة عليهم، وهذا نوع من العلاج في غاية الدقة والإنصاف، وفيه من الحفز على التقليل من هذه الجريمة وتركها ما لا يخفى على ذي عقل لبيب.

(١) انظر: علاج القرآن الكريم للجريمة، د. عبد الله الشنقيطي (ص ٢٩٧، ٢٩٨).

وكذلك الشأن في جميع أساليب القرآن الكريم العلاجية، كلها توافق الذوق السليم والعقل الراجح المتزن المتمتع بصفاء الفطرة السليمة.

ثم ختم تعالى الآيتين الكريمتين بأنه غفور رحيم لمن تاب منهم وأصلح، فلا يقنط من رحمته الواسعة، ولا يحول بين العبد ورحمة ربه، ومغفرته، عظيم ذنبه، وجسيم خطئه، ما لم يقارف شركاً. وفي الجملة فقد عالجت الآيات القرآنية الحرابة في المجتمع الإسلامي علاجاً لا مزيد عليه وذلك واضح مما يلي:

١ ـ وصف المحارب بأنه محارب لله تعالى ولرسوله ﷺ.

٢ ـ عظم الجزاء المترتب على الحرابة أياً كان هو.

٣ ـ مكانته الدنيئة في الدنيا والآخرة إن لم يتب.

٤ ـ يظهر علاج القرآن الكريم لهذه الجريمة الشنعاء، بفتحه باب التوبة لمتعاطيها على مصراعيه، حتى لا يكون سده في وجهه حافزاً له على التمادي في جرمه والاستمرار في عتوه [(١)].

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤﴾ [المائدة: ٣٣ ـ ٣٤].

وهكذا كانت حركة بناء المجتمع وإقامة الدولة متشابكة في قضاياها العسكرية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية.

المبحث الثالث

تصفية المحرضين على الدولة

أولاً: سرية عبد الله بن عتيك لقتل سلام بن أبي الحقيق:

كان أبو رافع سلام بن أبي الحقيق ـ من يهود بني النضير ـ كثير التحريض على الدولة الإسلامية، حتى إنه جعل لغطفان ومن حولها من قبائل مشركي العرب الجعل العظيم، إن هي قامت لحرب رسول الله ﷺ، وشاع أمر أبي رافع وانتشر، وكان ممن ألب الأحزاب على رسول الله ﷺ، وأصبح تحريضه على دولة الإسلام من الأخطار التي يجب أن يوضع لها الحد [(٢)].

(١) انظر: علاج القرآن الكريم للجريمة (ص ٣١٣ ـ ٣١٥).

(٢) انظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية، محمد قلعجي (ص ٢١٢).

١ ـ توجه السرية إلى خيبر ودخولها:

فبعث رسول الله ﷺ إلى أبي رافع اليهودي رجالاً من الأنصار، فأمَّرَ عليهم عبد الله بن عتيك... وكان أبو رافع في حصن له، فلما دنوا منه وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم، قال عبد الله بن عتيك لأصحابه: اجلسوا مكانكم فإني منطلق ومتلطف للبواب لعلّي أن أدخل، فأقبل حتى دنا من الباب ثم تقنّع بثوبه كأنه يقضي حاجة، وقد دخل الناس، فهتف به البواب: يا عبد الله إن كنت تريد أن تدخل فادخل، فإني أريد أن أغلق الباب، فدخلت، فكمنت، فلما دخل الناس أغلق الباب، ثم علّق الأغاليق على وتد، وقال ابن عتيك: فقمت إلى الأقاليد فأخذتها ففتحت الباب [(١)].

٢ ـ تنفيذ العقوبة بحق أبي رافع:

ودخل أبو عتيك رضي الله عنه ومن معه من أفراد سريته إلى داخل الحصن. وأخذوا ينتظرون الفرصة المناسبة لقتل هذا اليهودي الخبيث أبي رافع.

وقد جاء في البخاري: أن عبد الله بن عتيك أدرك نفراً من أصحاب أبي رافع يسمرون عنده، وكان في علالي له، فكمن حتى ذهب عنه أهل سمرة صعد إليه، وكلما دخل باباً أغلقه عليه، من الداخل حتى لا يحول أحد بينه وبين تنفيذ العقوبة بحق أبي رافع، فانتهى إلى أبي رافع، فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله لا يدري أين هو من البيت، قال ابن عتيك: فقلت: يا أبا رافع.

قال: من هذا؟

قال ابن عتيك: فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش فما أغنيت شيئاً.

وصاح، فخرجت من البيت، فأمكث غير بعيد ثم دخلت إليه.

فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟

قال: لأمك الويل إن رجلاً في البيت ضربني قبلُ بالسيف.

قلت: فأضربه ضربة أثخنته ولم أقتله، ثم وضعت ظبة السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره فعرفت أني قتلته.

فجعلت أفتح الأبواب باباً باباً، حتى انتهيت إلى درجة له، فوضعت رجلي وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض، فوقعت في ليلة مقمرة، فانكسرت ساقي فعصبتها بعمامة، ثم انطلقت حتى جلست على الباب فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته؟، فلما صاح الديك قام الناعي على

---

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٤٦٥).

السور فقال: أنعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلقت إلى أصحابي فقالت: النجاء، فقد قتل الله أبا رافع فانتهيت إلى النبي ﷺ، فحدّثته فقال: «ابسط رجلك»، فبسطت رجلي فمسحها فكأنها لم أشتكها قط [١].

وقد ذكرت كتب السيرة أن امرأة أبي رافع حينما ضُرب بالسيف صاحت فأراد قتلها ثم كفّ عن ذلك، لأن رسول الله ﷺ قد نهاهم عن قتل النساء والصبيان [٢]، وأن ابن عتيك كان يرطن بلغة اليهود وأنه استخدمها مع زوجة أبي رافع اليهودي وأهل بيته.

ويذكر كتاب السيرة أن سرية ابن عتيك كلها شاركت في ضرب أبي رافع، وأن كل واحد منهم ادعى أن ضربته كانت هي القاضية على أبي رافع، فقال رسول الله ﷺ: «عجلوا بأسيافكم» فأتوا بأسيافهم فنظر إليها، ثم قال: «هذا قتله»، وهو سيف عبد الله بن أنيس، هذا أثر الطعام في سيف عبد الله بن أنيس [٣]، وقد يتوهم القارىء الكريم أن هناك تناقضاً بين رواية البخاري ورواية كتب السيرة الأخرى التي تقول إن الضربة القاضية كانت من عبد الله بن أنيس، والحق أنه ليس كذلك، ذلك لأن عبد الله بن عتيك يخبر عن نفسه وأنه غلب على ظنه أنه هو القاتل، وأنه قد حكى عن دوره في ضرب اليهودي أبي رافع، ولا يعني هذا أن غيره لم يشارك في قتله، إذ لم ينف هو مشاركة غيره له في قتل أبي رافع، والروايات يفسر بعضها بعضاً ويشرح بعضها بعضاً، والروايات تذكر أن كل واحد من أفراد السرية كان يدّعي أن ضربته هي القاضية والمميتة لأبي رافع، وقد نظر رسول الله ﷺ في دعواهم وفحص سيوفهم، وحكم بعد ذلك بأن الضربة القاضية كانت بسيف عبد الله بن أنيس رضي الله عنه، لظهور أثر الطعام عليه، أي أن هذا السيف قد دخل جوف أبي رافع ومزق أحشاءه وقطع أمعاءه وخلط غذاءه في جوفه [٤].

وقد ذكرت كتب السيرة أسماء سرية عبد الله بن عتيك وهم: مسعود بن سنان، عبد الله بن أنيس، أبو قتادة الحارث بن ربعي، خزاعي بن أسود [٥].

وفي هذه السرية دروس وعِبَر كثيرة منها:

١ - إن كل أعضاء هذه السرية كانوا من الخزرج فقد حرصوا على أن ينافسوا إخوانهم من الأوس الذين قتلوا كعب بن الأشرف فقد كانوا كفرسي رهان في المسابقة في الخيرات، فهم لا يتنافسون على اغتنام مظاهر الحياة الدنيا من المال والمناصب، وإنما يتسابقون إلى الفوز

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب قتل أبي رافع (٥/ ٣٣) رقم (٤٠٣٩).
(٢) انظر: شرح المواهب اللدنية (٢/ ١٦٨).
(٣) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٩١، ٩٢)، المغازي للواقدي (١/ ٣٩٤)، المغازي النبوية للزهري، (ص ١١٤).
(٤) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ١٨٩).
(٥) انظر: صلح الحديبية، باشميل (ص ٩١).

بمرضاة النبي ﷺ، التي مآلها رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية [١].

قال كعب بن مالك: وكان مما صنع الله تعالى به لرسوله ﷺ أن هذين الحيين من الأنصار، الأوس والخزرج كانا يتصاولان [٢] مع رسول الله ﷺ تصاول الفحلين ـ يعني يتسابقان في خدمته ـ لا يصنع الأوس شيئاً فيه عن رسول الله ﷺ غناء إلا قالت الخزرج: والله لا تذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله ﷺ وفي الإسلام، قال: فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها، وإذا فعلت الخزرج شيئاً قالت الأوس مثل ذلك [٣].

٢ ـ فائدة تعلّم لغة العدو: فقد استطاع عبد الله بن عتيك أن يصعد إلى حصن أبي رافع، وأن يخاطب امرأته وأن يدخل بيته مطمئناً، لأنه خاطبه بلغته لغة اليهود في ذلك الوقت، ويؤخذ من ذلك استحباب تعلم لغة غير المسلمين لا سيما الأعداء منهم وخاصة لأولئك العسكريين الذين يذهبون لمهمات استطلاعية تجمع أخبار العدو وتزوّد القيادة بها، والقيادة ترسم [٤].

٣ ـ عناصر نجاح خطة ابن عتيك في قتل أبي رافع اليهود: ذهابه وحده، فقد قرر أن يذهب وحيداً إلى الحصن ويحاول أن يدخله ومن ثم يفتش عن طريقة يدخل بها أفراد سريته، تصرفه العادي الذي لم يلفت انتباه أحد من الحراس، قدرته على التمويه على الحارس، وإيهامه أنه يقضي حاجته وهذا منع الحارس من النظر إليه وتفحصه وتفرسه في وجهه. مراقبة حركة الحارس الدقيقة بعد دخول الحصن وإغلاقه، فقد كمن في مكان لم يشعر به الحارس وراقب الحارس حتى وضع مفتاح الحصن في مكان معين وتابعه حتى انصرف، وأخذ المفتاح وأصبح يستخدمه كيفما يشاء وفي أي وقت شاء [٥].

٤ ـ عناية الله ﷻ بأوليائه المؤمنين، فهذا الصحابي الجليل استمر بعون من الله تعالى يمشي ويبذل طاقته حتى أن أصيبت رجله، وكأنه لا يشكو من علة، حتى إذا انتهت مهمته تماماً وأصبح غير محتاج لبذل الجهد عاد إليه الألم، وحمله أصحابه، فلما حدث النبي ﷺ خبره قال له: «ابسط رجلك»، قال: فبسطت رجلي فمسحها فكأنها لم أشتكها قط [٦].

٥ ـ فوائد من القصة استخرجها ابن حجر حيث قال: وفي هذا الحديث من الفوائد جواز اغتيال المشرك الذي بلغته الدعوة وأصر، وقتل من أعان على رسول الله ﷺ بيده أو ماله أو لسانه، وجواز التجسس على أهل الحرب وتطلب غرتهم، والأخذ بالشدة في محاربة

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي (٦/ ١٧٧).

(٢) يتصاولان: يتفاخران، إذا فعل أحدهما شيئاً فعل الآخر مثله.

(٣) انظر: السيرة لابن هشام (٦/ ١٧٧).

(٤) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ١٩١).

(٥) المصدر نفسه، (١/ ١٩٢، ١٩٣).

(٦) البخاري، المغازي رقم (٤٠٣٩).

المشركين، وجواز إيهام القول للمصلحة، وتعرض القليل من المسلمين للكثير من المشركين، والحكم بالدليل والعلامة لاستدلال ابن عتيك على أبي رافع بصوته واعتماده على صوت الناعي بموته والله أعلم [١].

٦ ـ وجود عبد الله بن أنيس جندياً في هذه السرية، وليس أميراً فيها له دلالته الكبرى في عملية التربية والتعليم، فهو العقبى البدري، المصلي للقبلتين فهو من السابقين الأولين من الأنصار، وليس عبد الله بن أنيس نكرة في مجال الجهاد والبطولات، فلا بدّ أن نذكر أنه السرية وحده الذي ابتعثه رسول الله إلى اغتيال سفيان بن خالد الهذلي في أطراف مكة، وهو الذي كان يعد العدة لغزو المدينة، وهو الذي نجح نجاحاً باهراً في مهمته تلك، وقتله في فراشه وداخل خيمته، وأعجز قومه هرباً، وعاد منتصراً مظفراً، فهو مليء بالمجد، ومع ذلك فلم يكن أمير المجموعة، إنما كان أحد أفرادها، وهو يحمل هذا التاريخ المشرق في سجلاته عند ربه ﷻ قبل أن يكون عند الناس.

وهو درس تربوي خالد قد استوعبه أصحاب النبي ﷺ، وهذا النوع من التربية لا مثيل له في عالم الأرض، فالذي يحكم في الجيوش تسلسل الرتب، حتى أن الرتبة الواحدة يحكم فيها المتقدم بالمستجد، وعلى المستجد السمع والطاعة للمتقدم ولو بأشهر. وبهذا المنطق لا يجوز أن يتقدم على عبد الله بن أنيس أحد، ولكنها التربية النبوية العظيمة التي خطها النبي ﷺ في أكثر من موقع، لتجعل هذا الجيل يتعلم من سابقه ويتدرب على يديه، فطالما أرسل عليه الصلاة والسلام سرايا فيها أبو بكر وعمر جنديين عاديين، في غمار الجنود [٢].

ثانياً: سرية عبد الله بن رواحة إلى اليُسير بن رِزَام اليهودي:

بلغ رسول الله ﷺ أن اليسير بن رزام أمير اليهود بخيبر بعد سلام بن أبي الحقيق، أخذ في جمع يهود الشمال وتحريضهم على رسول الله ﷺ، ولم يكتف بذلك، بل بدأ بتأليب قبائل غطفان وجمعها لقتال رسول الله ﷺ، وحين علم رسول الله ﷺ ما يبيته اليهود له من الخديعة والمكر، رأى ﷺ أن يتأكد من ذلك قبل أن يقدم على أمر ما، فأرسل عبد الله بن رواحة في نفر من المسلمين رواداً يكتشفون ما تخبئه يهود ومن لف لفها من مشركي العرب [٣].

وقد تأكت المخابرات النبوية من أمر اليُسير بن رِزَام، وكان هذا كافياً لقيام النبي ﷺ ببعث سرية في ثلاثين راكباً عليهم عبد الله بن رواحة، وفيهم عبد الله بن أنيس، فأتوه فقالوا: أرسلنا إليك رسول الله ﷺ ليستعملك على خيبر، فلم يزالوا به حتى تبعهم في ثلاثين رجلاً مع كل رجل منهم رديف من المسلمين، وكان هو رديف عبد الله بن أنيس على بعيره، حتى إذا كانوا

---

(١) فتح الباري (٧/ ٣٤٥).

(٢) انظر: التربية القيادية (٤/ ١٤٨).

(٣) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٣٨٨، ٣٨٩).

بقرقرة ثبار على ستة أميال من خيبر، ندم اليسير على مسيره إلى رسول الله ﷺ فأهوى بيده على سيف رديفه ابن أنيس، ففطن له، فاقتحم به، ثم ضربه بالسيف، فقطع رجله وضربه اليسير بمخْرَش [(١)] في يده من شواحط [(٢)]، فضرب به وجه عبد الله فأمه [(٣)]، ومال كل رجل من المسلمين على رديفه من اليهود فقتله، إلا رجلاً واحداً أفلت على رجليه، فلما قدم ابن أنيس على رسول الله ﷺ تفل على شجنه، فلم تقح ولم تؤذه [(٤)].

وكانت هذه السرية في شوال سنة ست من الهجرة [(٥)].

وفي هذه السرية دروس وعِبَر منها:

١ ـ كانت الخطة النبوية هي محاولة إيقاف نهر الدم بين اليهود والمسلمين ابتداءً، فقد كان دور عبد الله بن رواحة في هذا الاتجاه، غير أن الحقد اليهودي الذي أشرب قلوبهم والسم الذي ينفثونه على المسلمين، هو الذي غلب آخر الأمر، وأفسد الخطة كلها، فقد حاولوا الغدر بالمسلمين فوقعت الدائرة عليهم.

٢ ـ إن البأس في الحرب ما لم يكن غليظاً وشديداً، فلن يحسم المواجهة مع العدو، وسيجعل الحرب تفني كل شيء وتأكل كل شيء، فلا بدّ من بث الرهبة والرعب في قلب العدو، ولا بدّ من الشدّة معه حين لا يجدي الحوار أو المناقشة، ولا بدّ من الغلظة التي تشعر العدو أن من يقاتله لا يخشى في الله لومة لائم.

٣ ـ شهد العام السادس من الهجرة تصعيداً عنيفاً في عمليات المواجهة مع العدو، ولا يكاد يمر شهر دون سرية أو سريتين تضرب في الصحراء، وتفض جمعاً أو تحطم عدواً أو تغتال طاغوتاً، فقد كان شعار المرحلة: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا»، فقد كان حزب الله ينطلق في الآفاق باسم الله، يحمل المبادىء الخالدة، والقيم العليا يقدمها للخلق كافة، ويزيح كل طاغوت يحول دون وصول هذه المبادىء، ونشهد حزب الله في أفراده جميعاً، والذين تلقوا أعلى مستويات التربية الخلقية، والفكرية، والعسكرية، والسياسية، كيف ينفذون هذا المنهج، وكيف يكون واقعهم ترجمة عملية وحية لمبادئهم، وكيف يتقدمون ليتصدروا مرحلة جديدة تبدأ معالمها وملامحها مع صلح الحديبية [(٦)].

---

(١) المخرش: شبه المقرعة، يضرب به، وهي معوجة الرأس.
(٢) الشواحط: شجر ابن النبع، من أشجار الجبال التي يتخذ منها القسي.
(٣) فأمه: أي جرحه في رأسه، والشجة المأمومة هي التي تبلغ أم الرأس.
(٤) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٤٧٧).
(٥) المصدر نفسه، (ص ٤٧٧).
(٦) انظر: التربية القيادية (٤/١٨٩ ـ ١٩٢).

الفصل الثالث عشر

الفتح المبين (صلح الحديبية)

المبحث الأول

تاريخه وأسبابه ومخرج رسول الله ﷺ إلى مكة

أولاً: تاريخه وأسبابه:

في يوم الاثنين من ذي القعدة سنة ٦ هـ [(١)]، خرج الرسول ﷺ من المدينة متوجهاً بأصحابه إلى مكة لأداء العمرة [(٢)]. وسبب هذه الغزوة أن رسول الله ﷺ رأى رؤيا في منامه ـ وهو في المدينة ـ وتتلخص هذه الرؤيا أن النبي ﷺ رأى أنه قد دخل مكة مع أصحابه المسلمين محرماً مؤدياً للعمرة، وقد ساق الهدى معظماً للبيت مقدساً له، فبشر النبي ﷺ أصحابه ففرحوا بها [(٣)] فرحاً عظيماً، فقد طال عهدهم بمكة والكعبة التي رضعوا بلبان حبها ودانوا بتعظيمها، وما زادهم الإسلام إلا ارتباطاً بها وشوقاً إليها، وقد تاقت نفوسهم إلى الطواف حولها، وتطلعت إليها تطلعاً شديداً، وكان المهاجرون أشدهم حنيناً إلى مكة، فقد ولدوا ونشأوا فيها وأحبوها حباً شديداً، وقد حيل بينهم وبينها، فلما أخبرهم رسول الله ﷺ بذلك تهيأوا لتلك الزيارة العظيمة [(٤)]، واستنفر ﷺ أهل البوادي والأعراب ليخرجوا معه، لأنه كان يخشى أن تصده قريش عن البيت الحرام، وكانت استخبارات المدينة قد علمت بأمر التحالف العسكري الذي عقد بين قريش في جنوب المدينة المنورة وخيبر في شمالها، وكان هدف هذا التحالف جعل الدولة الإسلامية بين طرفي الكماشة، ثم إطباق فكيها عليها وإنهاء الوجود الإسلامي فيها، فقد حان الوقت لكسر ذلك التحالف سياسياً، فقد كانت الكعبة في نظر العرب قاطبة ليست ملكاً لقريش، بل هي تراث أبيهم إسماعيل، ولهذا فليس من حق قريش أن تمنع من زيارتها من تشاء وتجيز من تشاء، فإذن من حق محمد وأصحابه زيارة الكعبة [(٥)].

---

(١) أجمع أهل العلم على تاريخها بدون خلاف. انظر: المجموع للنووي (٧/ ٧٨).

(٢) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٣٤).

(٣) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (٢/ ٤٩٥).

(٤) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ٢٧٣).

(٥) قراءة سياسية للسيرة النبوية، (ص ٢١٣، ٢١٤).

وانتشر خبر خروج رسول الله ﷺ بين قبائل العرب، وكان انتشار الخبر له أثر في الرأي العام، وخصوصاً بعدما أكد رسول الله ﷺ بأنه لا يريد حرباً وإنما يريد أن يعتمر ويعظم شعائر الله، وحقق هذا الفعل الكريم مكاسب إعلامية رفيعة المستوى، وقد كان هدف النبي ﷺ معلناً ألا وهو زيارة بيت الله الحرام لأداء العمرة، فتجرد هو وأصحابه من المخيط، ولبسوا ثياب الإحرام وأحرم بالعمرة من ذي الحليفة بعد أن قلد الهدي وأشعره [١].

وقد كان ﷺ على جانب كبير من الحيطة والحذر، فقد أرسل بشر بن سفيان الخزاعي عيناً له [٢]، وقدم بين يديه طليعة استكشافية مكوّنة من عشرين رجلاً وفي ذلك يقول الواقدي: (دعا رسول الله ﷺ عبّاد بن بشر فقدمه أمامه طليعة في خيل المسلمين عشرين فارساً وكان فيها رجال من المهاجرين والأنصار) [٣] وكان هدفه ﷺ من ذلك الاستعداد للطوارىء التي يمكن أن يفاجأ بها ـ وأيضاً ـ فقد كانت مهمة هذه الطليعة استكشاف خبر العدو [٤].

وأخذ ﷺ بمشورة عمر في ذي الحليفة عندما قال له: يا رسول الله تدخل على قوم هم لك حرب بغير سلاح ولا كراع؟ فبعث النبي ﷺ إلى المدينة من يحمل له الكراع والسلاح [٥]، وكان قصده ﷺ من ذلك: الاستعداد لهؤلاء الأعداء، الذين يملكون السلاح والعتاد ما يستطيعون به إلحاق الأذى بالمسلمين والنيل منهم [٦]، وهذا التعامل مع سنّة الأخذ بالأسباب من هديه الكريم الذي جعله لأمته لتقتدي به من بعده ﷺ، لما في ذلك من المصالح الكثيرة، ولما فيه من درء مكايد الأعداء الذين يتربصون بالمسلمين الدوائر [٧].

ثانياً: وصول النبي ﷺ بعسفان:

لمّا وصل رسول الله ﷺ بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي الخزاعي، فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك ومعها العوذ المطافيل [٨]، قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوةً أبداً، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح [٩] قريش لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في

---

(١) أشعره: إشعار البدن أو يشق أحد جنبي سنام البدنة حتى يسيل دمها، مرويات الحديبية، (ص ٥٥).
(٢) انظر: مرويات غزوة الحديبية للحكمي، (ص ٥٨، ٥٩).
(٣) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٩٧٤).
(٤) انظر: صلح الحديبية، محمد باشميل، (ص ٣٠٩).
(٥) تاريخ الطبري (٢/ ٦٢٢).
(٦) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول، (ص ٤٨٩).
(٧) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول (ص ٢٨٩).
(٨) المراد: خرجوا ومعهم النساء والأولاد لئلا يفروا عنهم وهو على الاستعارة.
(٩) يا ويح: كلمة ترحم وتوجع، انظر: لسان العرب (٣/٩٩٦).

الإسلام وهم وافرون [١]، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش؟ والله إني لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله له حتى يظهر الله له أو تنفرد هذه السالفة» [٢].

وقد استشار ﷺ أصحابه لما بلغه خبر استعداد قريش لصده عن دخول البيت الحرام، وعرض ﷺ على الصحابة رضي الله عنهم المشورة في هذا الأمر على رأيين يحملان العزم والتصميم:

١ - الميل إلى عيال وذراري الأحابيش الذين خرجوا لمعاونة قريش على مقاتلة المسلمين وصدهم عن البيت.

٢ - قصد البيت الحرام، فمن صدّه عنه قاتله حتى يتمكن من تحقيق هدفه [٣].

ولمّا عرض ﷺ المشورة في هذا الأمر على الصحابة تقدم أبو بكر الصديق برأيه الذي تدعمه الحجة الواضحة، حيث أشار على رسول الله ﷺ بترك قتالهم والاستمرار على ما خرج له من أداء العمرة حتى يكون بدء القتال منهم، فاستحسن النبي ﷺ هذا الرأي وأخذ به، وأمر الناس أن يمضوا في هذا السبيل [٤]، وعندما اقتربت خيل المشركين من المسلمين صلَّى النبي ﷺ بأصحابه صلاة الخوف بعسفان.

ثالثاً: الرسول ﷺ يغيِّر الطريق وينزل بالحديبية:

ولمّا بلغ رسول الله ﷺ أن قريشاً قد خرجت تعترض طريقه، وتنصب كميناً له ولأصحابه بقيادة خالد بن الوليد، وهو لم يقرر المصادمة، رأى أن يغيِّر طريق الجيش الإسلامي تفادياً للصراع مع المشركين فقال: «من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟» فقال رجل من أسلم: أنا يا رسول الله، فسلك بهم طريقاً وعراً بين شعاب شق على المسلمين السير فيه حتى خرجوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي، وعند ذلك قال رسول الله ﷺ للناس: «قولوا نستغفر الله ونتوب إليه»، فقالوا ذلك.

فقال: «والله إنها الحطة التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها» [٥].

فأمر رسول الله ﷺ الناس أن يسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمش في طريق تخرجه إلى ثنية المرار، مهبط الحديبية من أسفل مكة، فسلك الجيش ذلك الطريق بخفة ودون أن يشعر به أحد، فما نظر خالد إلا وقترة [٦] جيش المسلمين قد ثارت، فعاد مسرعاً هو ومن معه إلى مكة

---

(١) وافرون: جمع وافر هو الذي لم ينقص منه شيء، لسان العرب (٣/ ٩٥٨).
(٢) البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد (٣/ ٢٣٧) رقم (٢٧٣٢).
(٣) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ، (ص ٤٨٩).
(٤) انظر: ملامح الشورى في الدعوة الإسلامية للشيخ عدنان النحوي، (ص ١٦٠).
(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٣٨).
(٦) قترة: غبار.

يحذّر أهلها ويأمرهم بالاستعداد لهذا الحدث المفاجىء [(١)]، وقد أصاب الذعر المشركين وفوجئوا بنزول الجيش الإسلامي بالحديبية حيث تعرضت مكة للخطر وأصبحت مهددة من المسلمين تهديداً مباشراً [(٢)]، يقول اللواء محمود شيت في هذا الدرس الرائع: لم تكن حركة المسلمين على هذا الطريق خوفاً من قوات الجيش، فالذي يخاف من عدوه لا يقترب من قاعدته [(٣)] الأصلية، وهي مركز قواته، بل يحاول الابتعاد عن قاعدة العدو الأصلية حتى يُطيل خط مواصلات العدو، وبذلك يزيد من صعوباته ومشاكله ويجعل فرصة النصر أمامه أقل من حالة الاقتراب من قاعدته الأصلية [(٤)].

وقد جاء في كتاب اقتباس النظام العسكري في عهد الرسول ﷺ، ما يُبين الحكمة من تغيير الطرق ما نصه: ويؤخذ من اتخاذ الأدلة والتحول إلى الطرق الآمنة أن القيادة الواعية البصيرة، تسلك في سيرها بالجيش طرقاً بعيدة عن المخاطر والمهالك، وتتجنب الدروب التي تجعل الجيش خاضعاً تحت تصرفات العدو وهجماته [(٥)].

رابعاً: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»:

وعندما اقترب الرسول ﷺ من الحديبية بركت ناقته القصواء، فقال الصحابة ﭫ: خلأت القصواء [(٦)]، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»، ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها» [(٧)]، ثم زجرها فوثبت، ثم عدل عن دخول مكة وسار حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد - بئر - قليل الماء ما لبثوا أن نزحوه ثم اشتكوا إلى رسول الله العطش، فانتزع سهماً من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فجاش لهم بالري فارتووا جميعاً [(٨)]، وفي رواية أنه جلس على شفة البئر فدعا بماء فمضمض ومج في البئر [(٩)]، ويمكن الجمع بأن يكون الأمران معاً وقعا، كما ذكر ابن حجر [(١٠)] ويؤيده ما ذكره الواقدي [(١١)]، وعروة [(١٢)]، من أن الرسول ﷺ تمضمض في دلو

---

(١) غزوة الحديبية لأبي فارس، (ص ٢٩).
(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس، (ص ٣٧٤).
(٣) المصدر نفسه، (ص ٣٧٤).
(٤) انظر: الرسول القائد، محمود شيت خطاب، (ص ١٨٦ ـ ١٨٧).
(٥) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس، (ص ٣٧٤) نقلاً عن اقتباس النظم العسكرية، (ص ٢٥٨).
(٦) بركت من غير علة ظاهرة، فلم تبرح مكانها.
(٧) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص ٤٨٤).
(٨) المصدر نفسه، (ص ٤٨٤).
(٩) الفتح (١٤/٧٥٨) رقم (٣٥٧٧).
(١٠) الفتح (١١/ ١٦٤) رقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢).
(١١) المغازي (٢/٥٨٨).
(١٢) من رواية أبي الأسود عنه كما ذكر ابن حجر في الفتح (١١/ ١٦٤).

وصبه في البئر ونزع سهماً من كنانته فألقاه فيها ودعا ففارت [(١)]. وفي بروك ناقة رسول الله ﷺ وقسمه بعد ذلك دروس وعِبَر منها:

١ ـ كل شيء في هذا الكون يسير بأمر الله ومشيئته، ولا يخرج في سيره عن مشيئته وإرادته، فتأمل في ناقة رسول الله ﷺ أين بركت، وكيف كره الصحابة بروكها وحاولوا إنهاضها لتستمر في سيرها، فيستمروا في سيرهم إلى البيت العتيق مهما كانت النتائج، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد غير ذلك [(٢)].

٢ ـ وقد استنبط ابن حجر العسقلاني ح فائدة جليلة من قوله ﷺ: «حبسها حابس الفيل» [(٣)]. فقال: وفي هذه القصة جواز التشبيه من الجهة العامة، وإن اختلفت الجهة الخاصة، لأن أصحاب الفيل كانوا على باطل محض، وأصحاب هذه الناقة كانوا على حق محض، لكن جاء التشبيه من جهة إرادة الله منع الحرم مطلقاً، أما من أهل الباطل فواضح، وأما من أهل الحق فللمعنى الذي تقدم ذكره [(٤)].

٣ ـ ومن الفوائد أن المشركين، وأهل البدع والفجور، والبغاة والظلمة، إذا طلبوا أمراً يعظمون فيه حرمة من حرمات الله تعالى، أجيبوا إليه وأعطوه، وأعينوا عليه، وإن منعوا غيره، فيعانون على ما فيه تعظيم حرمات الله تعالى، لا على كفرهم وبغيهم، ويمنعون مما سوى ذلك، فكل من التمس المعاونة على محبوب لله تعالى مُرْضٍ له، أجيب إلى ذلك كائناً من كان، ما لم يترتب على إعانته على ذلك المحبوب مبغوض لله أعظم منه، وهذا من أدق المواضيع وأصعبها، وأشقها على النفوس [(٥)].

٤ ـ إن الله سبحانه وتعالى جلّت قدرته وعزّت عظمته، قضى ألا يكون قتال بين المسلمين والمشركين من أهل مكة في هذه الغزوة بالذات؛ لحكم ظهرت فيما بعد منها:

أ ـ دخول المسلمين بالقوة يعني أن تحدث مذابح، وتزهق أرواح كثيرة، وتسفك دماء غزيرة من الطرفين، وهذا أمر لم يرده البارىء سبحانه، وكان لمصلحة الفريقين المؤمنين والمشركين.

ب ـ إن من المحتمل أن ينال الأذى والقتل والتشريد على أيدي المؤمنين بعض المستضعفين من إخوانهم المسلمين في مكة، وهذا فيه ما فيه من المعرة التي لا يليق بمسلم أن يقع فيها، قال سبحانه: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ

---

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص ٤٨٤).
(٢) انظر: صلح الحديبية لأبي فارس، (ص ٤٣).
(٣) انظر: فتح الباري ابن حجر (٦/ ٢٦٠).
(٤) فتح الباري، ابن حجر (٦/ ٦١).
(٥) انظر: صلح الحديبية لأبي فارس، (ص ٤٧).

ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

جـ - لقد سبق في علم الله ﷻ أن هؤلاء الذي يقفون اليوم صادين رسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم عن المسجد الحرام، هم الذين سيفتح الله قلوبهم إلى الإسلام، وسيفتح الله على أيديهم بلاداً كثيرة، حين يحملون هذه الرسالة للناس، وينيرون ظلمة الطريق للمدلجين (١).

خامساً: السفارة بين الرسول ﷺ وقريش:

بذل رسول الله ﷺ ما في وسعه لإفهام قريش أنه لا يريد حرباً معهم، وإنما يريد زيارة البيت الحرام وتعظيمه وهو حق للمسلمين، كما هو حق لغيرهم، وعندما تأكدت قريش من ذلك أرسلت إليه من يفاوضه ويتعرف على قوة المسلمين ومدى عزمهم على القتال إذا أُلجئوا إليه، وطمعاً في صد المسلمين عن البيت بالطرق السلمية من جهة ثالثة (٢).

١ - ركب من خزاعة بقيادة بُدَيل بن ورقاء:

جاء بُديل بن وَرْقَاء في رجال من خزاعة، وكانت خزاعة عَيْبة (٣) نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، وبينوا أن قريشاً تعتزم صد المسلمين عن دخول مكة، فأوضح لهم الرسول ﷺ سبب مجيئه وذكر لهم الضرر الذي وقع على قريش من استمرار الحرب، واقترح عليهم أن تكون بينهم هدنة إلى وقت معلوم حتى يتضح لهم الأمر، وإن أبوا فلا مناص من الحرب ولو كان في ذلك هلاكه، فنقلوا ذلك إلى قريش، وقالوا لهم: يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد، إن محمداً لم يأت لقتال وإنما جاء زائراً هذا البيت، فاتهموهم وخاطبوهم بما يكرهون، وقالوا: وإن كان إنما جاء لذلك فلا والله لا يدخلها علينا عنوة أبداً، ولا تتحدث بذلك العرب (٤). وقد ظهرت براعة النبي ﷺ السياسية في عرضه على مشركي مكة الهدنة والصلح لأن في ذلك فوائد كثيرة منها:

أ - فالهدنة يضمن حياد قريش ويعزلها عن أي صراع يحدث في الجزيرة العربية، سواء كان هذا الصراع مع القبائل العربية الأخرى، أم مع اليهود ذلك العدو اللئيم الغادر الذي يتربص بالمسلمين الدوائر.

---

(١) انظر: صلح الحديبية لأبي فارس، (ص ٤٥).
(٢) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص ٤٨٥).
(٣) أي خاصته وأصحاب سره.
(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٤٠).

ب ـ حرص الرسول ﷺ على أن يبقى باب الاتصال مفتوحاً بينه وبين قريش ليسمع منهم ويسمعوا منه بواسطة الرسل والسفراء، وفي هذا تقريب للنفوس وتبريد لجو الحرب، وإضعاف لحماسهم نحو القتال.

جـ ـ حرص ﷺ على أن تدرك خزاعة بقيادة بُديل والركب الذي معه، أن حليفهم قوي، فتزداد ثقتهم به وحلفهم له ولبني هاشم من قبل الإسلام، فقد بقي ولم يُلْغَ، وتأكد في صلح الحديبية.

د ـ إن العقلاء الذين يفكرون بعقولهم حين يسمعون كلام الرسول ﷺ وأنه جاء معظماً للبيت والمشركون يردونه، وهو يصر على تعظيمه، وسيقف هؤلاء بجانبه ويتعاطفون معه فيقوى مركزه، ويضعف مركز قريش الإعلامي والديني في نفوس الناس.

هـ ـ إن مشركي مكة لم يطمئنوا إلى كلام بُديل الذي نقله إليهم، ذلك لأنهم يعلمون أن خزاعة كانت عيبة نصح لرسول الله ﷺ ويشعرون بود خزاعة للرسول والمسلمين [١].

و ـ ويؤخذ من جواب رسول الله ﷺ لبُديل بن ورقاء حسن التلطف في الوصول إلى الطاعات، وإن كانت غير واجبة، ما لم يكن ذلك ممنوعاً شرعاً، لأن النبي ﷺ أجاب المشركين لما طلبوا منه، ولم يظهر لهم ما في النفوس من البغض لهم والكراهية فيهم لطفاً منه عليه السلام، فيما يؤمل من البلوغ إلى الطاعة التي خرج إليها [٢].

٢ ـ سفارة عروة بن مسعود الثقفي:

لم تقبل قريش ما نقله بُديل بن ورقاء الخزاعي عن رسول الله ﷺ أنه جاء زائراً للبيت ولم يأت مقاتلاً، واتهمتهم، بل أسمعتهم ما يكرهون، فاقترح عليهم عروة بن مسعود الثقفي أن يقابل الرسول ﷺ ويسمع منه، ثم يأتيهم بالخبر اليقين [٣] وقد ذكر ذلك البخاري في صحيحه فقال: فقام عروة بن مسعود فقال: أيْ قوم، ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ [٤]، فلما بلحوا [٥] عليَّ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى، قال: فإنّ هذا قد عرض لكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني آتيه، قالوا: ائته، فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل [٦]، فقال عروة عند ذلك: أيْ محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل

---

(١) انظر: صلح الحديبية لأبي فارس، (ص ٦٧).
(٢) المصدر نفسه، (ص ٦٧).
(٣) المصدر نفسه، (ص ٦٨).
(٤) اسم سوق من أسواق العرب في الجاهلية في شمال الطائف يعقد كل عام.
(٥) بلحوا عليّ: أبوا، كأنهم أعيوا عن الخروج معه وإعانته.
(٦) البخاري، كتاب الشروط في الجهاد (٣/ ٢٣٦) رقم (٢٧٣٢).

سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى فإني والله لأرى وجوهاً، وإني لأرى أوشاباً [١] من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر: امصص ببظر [٢] اللات، أنحن نفرُّ عنه وندعه [٣]؟ فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر، قال: أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك.

لقد حاول عروة بن مسعود أن يشن على المسلمين حرباً نفسية حتى يهزمهم معنوياً، فاستخدم عنصر الإشاعة، ويظهر ذلك عندما لوّح بقوة قريش العسكرية، معتمداً على المبالغة في تصوير الموقف بأنه سيؤول لصالح قريش لا محالة، وأن يوقع الفتنة والإرباك في صفوف المسلمين وذلك حينما حاول إضعاف الثقة بين القائد وجنوده عندما قال للنبي ﷺ: إني لأرى أوشاباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك، حاول ذلك من أجل التأثير على نفسيات المسلمين ولخدمة أهداف قريش العسكرية والإعلامية، وحاول ـ أيضاً ـ أن يفتعل أزمة عسكرية كبيرة بين النبي ﷺ وجنوده من أجل التأثير على معنوياتهم وتحطيم عزائمهم، وهذا من أقوى أساليب الحرب النفسية التي استخدمت ضد المسلمين أثناء تلك المفاوضات وحاول عروة أن يثير الرعب وذلك بتخويف المسلمين من قوة قريش التي لا تقهر، وتصوير المعركة بأنها في غير صالحهم، لقد مارس عروة بن مسعود في مفاوضاته عناصر الحرب النفسية من إشاعة وافتعال الأزمات وإثارة الرعب [٤]. إلا أن تلك العناصر تحطمت أمام الإيمان العميق والتكوين الدقيق والصف الإسلامي المرصوص. ومن المفارقات الرائعة التي حصلت أثناء المفاوضات مع عروة بن مسعود وهي من عجائب الأحداث التي يستشف منها الدليل القاطع على قوة الإيمان التي كان يتمتع بها أصحاب النبي ﷺ، وعلى قدرة هذا الدين في تحويل الإنسان من شيطان مريد إلى إنسان فاضل نبيل، حيث كان أحد الذين يتولون حراسة النبي ﷺ أثناء محادثاته مع عروة بن مسعود الثقفي في الحديبية هو المغيرة بن شعبة [٥]، ابن أخ عروة بن مسعود نفسه، وكان المغيرة هذا قبل أن يهديه الله للإسلام شاباً فاتكاً سكيراً، قاطعاً للطريق، غير أن دخوله للإسلام حوّله إلى إنسان آخر، وقد أصبح بفضل الله تعالى من الصفوة المؤمنة، وقد وقع عليه الاختيار ليقوم بمهام حراسة النبي ﷺ في ذلك الجو الملبد بغيوم الحرب، وكان من عادة الجاهلية في المفاوضات، أن يمسك المفاوض بلحية الذي يراه نداً له أثناء الحديث، وعلى هذه القاعدة كان عروة بن مسعود يمسك بلحية رسول الله ﷺ أثناء المناقشة، الأمر الذي أغضب المغيرة بن شعبة، الذي كان قائماً على رسول الله ﷺ بالسيف يحرسه، وعلى وجهه المغفر، فانتهر عمه وقرع يده بقائم

---

(١) أوشابا: أي أخلاطاً من قبائل شتى.

(٢) البظر: ما تقطعه الخاتنة من بضع المرأة عند ختانها.

(٣) البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد (٣/ ٢٣٧) رقم (٢٧٣٢).

(٤) انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية، سليم حجازي، (ص ١٣١، ١٣٢).

(٥) أسلم قبل عمرة الحديبية وشهدها وشهد بيعة الرضوان، أصيبت عينه في اليرموك وكان رسول سعد بن أبي وقاص إلى رستم، الإصابة (٣/ ٤٥٢).

السيف قائلاً له: اكفف يدك عن مس لحية رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل إليك، وكان النبي ﷺ يتبسم للذي يجري بين عروة المشرك وبين ابن أخيه المؤمن، ولما أن المغيرة بن شعبة يقف بلباسه الحربي متوشحاً بسيفه ودرعه وعلى وجهه المغفر، فإن عمه عروة لم يكن باستطاعته معرفته، فقال للنبي ﷺ وهو في أشد الغضب: ليت شعري من أنت يا محمد من هذا الذي أرى من بين أصحابك؟ فقال له رسول الله ﷺ: «هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة»، فقال له عمه: وأنت بذلك يا غدر؟ لقد أورثتنا العداوة من ثقيف أبد الدهر، والله ما غسلت غدرتك إلا بالأمس. كان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل وأما المال فلست منه في شيء».

لقد فشل عروة في مفاوضاته ورجع محذراً قريش من أن تدخل في صراع مسلح مع النبي ﷺ وأصحابه، وقال لهم: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى، والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط أطوع فيمن هو بين ظهرانيه من محمد وأصحابه، والله ما يشدون إليه النظر، وما يرفعون عنده الصوت، وما يكفيه إلا أن يشير إلى أمر فيفعل، وما يتنخم وما يبصق إلا وقعت في يدي رجل منهم يمسح بها جلده، وما يتوضأ إلا ازدحموا عليه أيهم يظفر منه بشيء، وقد حزرت القوم واعلموا أنكم إن أردتم السيف، بذلوه لكم، وقد رأيت قوماً ما يبالون ما يُصنعُ بهم، إذا منعوا صاحبهم، والله لقد رأيت نسياتُ معه، إن كنَّ ليسلمنه أبداً على حال، فرّوا رأيكم، وإياكم وإضجاع [1] الرأي فمادوه يا قوم، اقبلوا ما عرض فإني لكم ناصح مع أني أخاف ألا تنصروا عليه؛ رجل أتى هذا البيت معظماً له، معه الهدي، ينحره وينصرف! فقالت قريش: لا تكلم بهذا يا أبا يعفور [2]، لو غيرك تكلم بهذا لَلُمناه ولكن نُردهُ عن البيت في عامنا هذا ويرجع قابل [3].

لقد انتقلت الحرب النفسية وتأثيرها في صفوف المسلمين لتعمل داخل جبهة قريش وفي نفوسهم، فقد كان تصوير عروة لما رآه صادقاً، حيث بيَّن لقريش وضع المسلمين في الحديبية، من طاعتهم لنبيهم الكريم، وحبهم له، وتفانيهم بالدفاع عنه، وبما يتمتعون به من معنويات عالية جداً، واستعداد عسكري ونفسي يفوق الوصف، فكان ذلك بمثابة التحذير الفعلي لقريش بعدم التعجل والدخول في حرب مع النبي ﷺ وأصحابه، مما قد تكون نتائج هذه المعركة لصالح المسلمين، الأمر الذي أسقط في أيدي زعمائها، ولم تكن قريش تتوقعه أبداً في تقويمها للأمور، لقد كان وقع كل كلمة قالها سيد ثقيف كالصاعقة على مسامع نفوس زعماء قريش، لقد كان ﷺ موفقاً من قبل الله تعالى، ولذلك نجد أثره على عروة بن مسعود مما جعل الانشقاق يدب في

---

(١) إضجاع الرأي: أي الوهن في الرأي.
(٢) أبا يعفور: كنية عروة بن مسعود الثقفي.
(٣) انظر: مغازي الواقدي (٢/٥٩٨).

معسكر قريش، وأخذت جبهة قريش تتداعى أمام قوة الحق الصامدة، وكذلك فقد انهارت حجة قريش في جمعها للعرب ضد النبي ﷺ.

لقد نجح النبي ﷺ بحكمته وذكائه نجاحاً عظيماً، باستخدام الأساليب الإعلامية والدبلوماسية المتعددة للحصول على الغاية المنشودة، وهي تفتيت جبهة قريش الداخلية، وإيقاع الهزيمة في نفوسهم، وإبعاد حلفائهم عنهم، وإن هذه النتيجة لتعد بحق نصراً ساحقاً حققه رسول الله ﷺ على الجبهات السياسية والإعلامية والعسكرية (١).

٣ ـ سفارة الحُلس بن علقمة:

ثم بعثوا الحلس بن علقمة الكناني سيد الأحابيش، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هذا من قوم يتألهون، فابعثوا الهدي في وجهه»، وأمر برفع الصوت في التلبية، فلما رأى الحلس الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده، رجع إلى قريش قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ، وذلك إعظاماً لما رأى (٢)، فقد كان الوادي مجدياً لا ماء فيه ولا مرعى، وقد أكل الهدى أوباره من طول الحبس عن محله، ورأى المسلمين وقد استقبلوه رافعين أصواتهم بالتلبية وهم في زي الإحرام، قد شعثوا من طول المكوث على إحرامهم... ولذلك استنكر تصرف قريش بشدة، وانصرف سيد بني كنانة عائداً من حيث أتى دون أن يفاتح النبي ﷺ بشيء، أو أن يفاوضه كما كان مقرراً من قبل، واعتبر عمل قريش عداونياً ضد زوار بيت الله الحرام، ولا يجوز لأحد أن يؤيدها أو أن يناصرها على ذلك (٣)، فرجع محتجاً على قريش التي أعلنت غضبها لصراحة الحلس، وحاولت أن تتلافى هذا الموقف الذي يهدد بانقسام خطير في جبهة قريش العسكرية، ونسف الحلف المعقود بين قريش والأحابيش، وقالوا لزعيم الأحابيش: إنما كل ما رأيت هو مكيدة من محمد وأصحابه، فاكفف عنا حتى نأخذ نفسنا ما نرضى به (٤).

لقد كان النبي ﷺ عالماً ومستوعباً لشخصية الحلس ونفسيته، ويظهر ذلك في قوله ﷺ: «هذا من قوم يتألهون»... فالواضح من هذه المعلومة أن النبي ﷺ كان على معرفة تامة بهذا الرجل، وبحكم هذه المعرفة قد درس شخصيته دراسة موضوعية، وذلك بما كان عنده من حب شديد من التعظيم للحرمات والمقدسات، والعمل على الاستفادة الكاملة من هذا الجانب في كسب المعركة، وعلى هذا الأساس فقد قام ﷺ بوضع خطة محكمة مناسبة تقتضي بوضع الحقائق كاملة، أمام هذا الرجل، وإظهار موقف المسلمين أو على الأقل وقوفه على الحياد في هذا الصراع.

---

(١) انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية (ص ١٤٥).
(٢) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٤٨٨).
(٣) انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية (ص ١٠٨).
(٤) المغازي الواقدي، (٢/ ٦٠٠).

والجدير بالذكر أن الحلس كان يتمتع بسمعة طيبة بين العرب جميعاً، وذلك لما يتميز به من رجاحة العقل، ولما يتمتع به من مركز ممتاز بوصفه زعيماً وقائداً لقوات الأحابيش، كما كان يتمتع باحترام وتقدير من جانب النبي ﷺ وقريش على حد سواء، لهذا فإنه إذا ما تبيّن له أن الحق والعدل في جانب المسلمين، فإنه يستطيع أن يقوم بدور هام في إحلال السلام بين الطرفين المتنازعين، والعمل على كبح جماح قريش، وإقناعها بالعدول عن موقفها العدائي ضد المسلمين، وصدهم عن المسجد الحرام، ومن هنا فقد كانت الدراسة النفسية التي قام بها رسول الله ﷺ لشخصية الحليس تتناسب كلياً مع المبادىء التي يؤمن بها، وعلى ذلك فقد كانت درجة التأثير والاستجابة الناتجة عن هذه العملية إيجابية تماماً [(١)] ومرضية. وهكذا استطاع ﷺ أن يؤثر على عروة بن مسعود والحليس بن علقمة مما جعل الانشقاق يدب في صفوف مشركي مكة؛ يقول الأستاذ العقاد عن قدرة الرسول في توظيف الطاقات وإدارة الصراع: كان لرسول الله ﷺ الخبير بتجنيد بعوث الحرب وبعوث الاستطلاع خبيراً كذلك بتجنيد كل قوة في يده متى وجب القتال؛ إن كانت قوة رأي، أو قوة لسان، أو قوة نفوذ. فما نعرف أن أحداً وجّه قوة الدعوة توجيهاً أشد، ولا أنفع في بلوغ الغاية من توجيهه ﷺ، ثم يضيف الكاتب قائلاً: والدعوة في الحرب ـ كما لا يخفى ـ لها غرضان أصيلان من بين أغراضها العديدة: أحدهما إقناع خصمك والناس بحقك، وثانيهما: إضعافه عن قتالك بإضعاف عزمه وإيقاع الشتات بين صفوفه، ثم يقول: وربما بلغ النبي ﷺ برجلٍ واحدٍ في هذا الغرض ما لم تبلغه الدول بالفرق المنظمة [(٢)].

٤ ـ سفارة مكرزة بن حفص:

وكان من سفراء قريش يوم الحديبية مكرز بن حفص، وقد روى البخاري ذلك فقال: . . . . فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص، فقال النبي ﷺ: «هذا مكرز وهو رجل فاجر»، فجعل يكلم النبي ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو، قال معمر: فأخبرني أيوب عن عكرمة، أنه لما جاء سهيل بن عمرو، قال النبي ﷺ: «لقد سهل لكم من أمركم» [(٣)] ولنا حديث مع سهيل بإذن الله تعالى.

سادساً: الوفود النبوية إلى قريش ووقع بعض الأسرى في يد المسلمين:

رأى النبي ﷺ أن من الضرورة إرسال مبعوث خاص من جانبه إلى قريش، يبلغهم فيها نواياه السلمية بعدم الرغبة في القتال، واحترام المقدسات، ومن ثم أداء مناسك العمرة، والعودة إلى المدينة، فوقع الاختيار على أن يكون مبعوث الرسول ﷺ إلى قريش (خراش بن أمية

---

(١) انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية (ص ١١١).
(٢) انظر: عبقرية محمد ﷺ (ص ٤٩).
(٣) البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد (٣/ ٢٣٩) رقم (٢٧٣٢).

الخزاعي) وحمله على جمل يقال له: (الثعلب)، فلما دخل مكة عقرت به قريش وأرادوا قتل خراش فمنعهم الأحابيش، فعاد خراش بن أمية إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما صنعت قريش، فأراد رسول الله ﷺ أن يرسل سفيراً آخر بتبليغ قريش رسالة رسول الله ﷺ، ووقع اختيار الرسول ﷺ في بداية الأمر على عمر بن الخطاب رضي الله عنه [1]، فاعتذر لرسول الله ﷺ عن عدم الذهاب إليهم، وأشار على رسول الله ﷺ أن يبعث عثمان مكانه [2]، وعرض عمر رضي الله عنه رأيه هذا معززاً بالحجة الواضحة، وهي ضرورة توافر الحماية لمن يخالط هؤلاء الأعداء، وحيث إن هذا الأمر لم يكن متحققاً بالنسبة لعمر رضي الله عنه، فقد أشار على النبي ﷺ بعثمان رضي الله عنه، لأن له قبيلة تحميه من أذى المشركين حتى يبلغ رسالة رسول الله ﷺ [3]، وقال لرسول الله: إني أخاف قريشاً على نفسي، قد عرفت عداوتي لها، وليس بها من بني عدي من يمنعني، وإن أحببت يا رسول الله دخلت عليهم [4]، فلم يقل رسول الله شيئاً، قال عمر: ولكن أدلك يا رسول الله على رجل أعز بمكة مني، وأكثر عشيرة وأمنع، عثمان بن عفان، فدعا رسول الله ﷺ عثمان رضي الله عنه فقال: «اذهب إلى قريش فخبّرهم أنا لم نأت لقتال أحد، وإنما جئنا زواراً لهذا البيت، معظمين لحرمته، معنا الهدي، ننحره وننصرف»، فخرج عثمان بن عفان رضي الله عنه حتى أتى بلدح [5]، فوجد قريشاً هنالك فقالوا: أين تريد؟

قال: بعثني رسول الله ﷺ إليكم، يدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، تدخلون في الدين كافة، فإن الله مظهر دينه ومعز نبيه، وأخرى تكفون ويلي هذا منه غيركم، فإن ظفروا بمحمد فذلك ما أردتم، وإن ظفر محمد كنتم بالخيار أن تدخلوا فيما دخل فيه الناس أو تقاتلوا وأنتم وافرون جامون، إن الحرب قد نهكتكم، وأذهبت بالأماثل منكم... فجعل عثمان يكلمهم فيأتيهم بما لا يريدون ويقولون: قد سمعنا ما تقول ولا كان هذا أبداً، ولا دخلها علينا عنوة، فارجع إلى صاحبك فأخبره أنه لا يصل إلينا.

فقام إليه أبان بن سعد بن العاص فرحّب به وأجاره. وقال: لا تقصر عن حاجتك، ثم نزل عن فرس كان عليه، فحمل عثمان على السرج وردفه وراءه، فدخل عثمان مكة، فأتى أشرافهم رجلاً رجلاً، أبا سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية وغيرهما، منهم من لقي ببلدح، ومنهم من لقي بمكة، فجعلوا يردون عليه: إن محمداً لا يدخلها علينا أبداً [6].

---

(١) انظر: غزوة الحديبية لأبي فارس، (ص ٨٣).
(٢) انظر: المغازي للواقدي (٢/ ٦٠٠).
(٣) انظر: المغازي للواقدي (٢/ ٦٠٠).
(٤) المصدر نفسه، (ص ٢/ ٦٠٠).
(٥) مكان قريب من مكة.
(٦) زاد المعاد (٣/ ٢٩٠)؛ السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٤٤).

وعرض المشركون على عثمان رضي الله عنه أن يطوف بالبيت فأبى [1]، وقام عثمان بتبليغ رسالة رسول الله ﷺ إلى المستضعفين بمكة وبشّرهم بقرب الفرج والمخرج [2]، وأخذ منهم رسالة شفهية إلى رسول الله ﷺ جاء فيها: اقرأ على رسول الله ﷺ منا السلام، إن الذي أنزله بالحديبية لقادر على أن يدخله بطن مكة [3].

واختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصلح، فرمى رجل من أحد الفريقين رجلاً من الفريق الآخر، وكانت معركة، وتراموا بالنبل والحجارة، وصاح الفريقين كلاهما، وارتهن كل واحد من الفريقين بمن فيهم [4] وقد تحدث القرآن الكريم عن ذلك قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤].

وقد روى مسلم سبب نزول الآية السابقة: أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين، يريدون غرة [5] النبي ﷺ وأصحابه، فأخذهم سلماً [6]، فاستحياهم [7]، فأنزل الله عز وجل الآية المذكورة [8].

وهذا سلمة بن الأكوع يحدّثنا عما حدث قال: ثم إن المشركين راسلونا الصلح، حتى مشى بعضنا في بعض، واصطلحنا قال: وكنت تبيعاً [9] لطلحة بن عبيد الله، أسقي فرسه، وأحسه [10]، وأخدمه وآكل من طعامه، وتركت أهلي ومالي، مهاجراً إلى الله ورسوله قال: فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة، واختلط بعضنا ببعض، أتيت شجرة فكسحت شوكها [11]، فاضطجعت في أصلها، قال: فأتاني أربعة من المشركين من أهل مكة، فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ، فأبغضتهم فتحوّلت إلى شجرة أخرى، وعلقوا سلاحهم، واضطجعوا. فبينما هم كذلك إذ نادى مناد من أسفل الوادي: يا للمهاجرين! قتل ابن زنيم! قال: فاخترطت سيفي [12]، ثم شددت على أولئك الأربعة وهم رقود، فأخذت سلاحهم

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٤٤).
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٩٠).
(٣) انظر: غزوة الحديبية لأبي فارس، (ص ٨٥).
(٤) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٩١).
(٥) (غرة)الغرة هي الغفلة: أي يريدون غفلته (شرح النووي ١٢/ ١٨٧).
(٦) سلما: المراد به الاستسلام والإذعان (شرح النووي ١٢/ ١٨٧).
(٧) فاستحياهم: فاستبقهم (المفردات للراغب، ص ١٤٠).
(٨) مسلم، كتاب الجهاد والسير (٣/ ١٤٤٢).
(٩) تبيعاً: خادماً أتبعه (شرح النووي ١٢/ ١٧٦).
(١٠) وأحسه: أي أحك ظهره بالمحسة لأزيل عنه الغبار. (شرح مسلم النووي ١٢/ ١٧٦).
(١١) فكسحت شوكها: أي كنست ما تحتها من الشوك. (شرح مسلم النووي ١٢/ ١٧٦).
(١٢) فاخترطت سيفي: أي سللته. (شرح مسلم النووي ١٢/ ١٧٦).

فجعلته ضغثاً [١] في يدي. قال: ثم قلت: والذي كرّم وجه محمد ما يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه [٢]، قال: ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ قال: وجاء عمي عامر برجل من العبلات [٣] يقال له مكرز يقوده إلى رسول الله ﷺ على فرس مجفف [٤] في سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسول الله ﷺ فقال: «دعوهم، يكن لهم بدء الفجور وثناه» [٥]، فعفا عنهم رسول الله ﷺ وأنزل الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤] [٦].

قال ابن كثير: هذا امتنان من الله تعالى على عباده المؤمنين حيث كفّ أيدي المشركين عنهم، فلم يصل إليهم منهم سوء، وكفّ أيدي المؤمنين عن المشركين، فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلاً من الفريقين وأوجد بينهم صلحاً فيه خيرة للمؤمنين وعافية في الدنيا والآخرة[٧].

سابعاً: بيعة الرضوان:

لما بلغ النبي ﷺ أن عثمان رضي الله عنه قُتل، دعا رسول الله أصحابه إلى مبايعته على قتال المشركين ومناجزتهم، فاستجاب الصحابة وبايعوه على الموت [٨]، سوى الجد بن قيس وذلك لنفاقه [٩]، وفي رواية أن البيعة كانت على الصبر [١٠]، وفي رواية على عدم الفرار [١١]، ولا تعارض في ذلك لأن المبايعة على الموت تعني الصبر وعدم الفرار [١٢].

وكان أول من بايعه على ذلك أبو سنان عبد الله بن وهب الأسدي [١٣] فخرج الناس بعده يبايعون على بيعته [١٤]، وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرات في أول الناس،

---

(١) ضغثاً: الضغث: الحزمة. (شرح مسلم النووي ١٢/١٧٦).
(٢) الذي فيه عيناه: يريد رأسه.
(٣) العبلات: قوم من قريش نسبوا إلى أمهم عبلة بنت عبيد (شرح مسلم النووي (١٢/١٧٧).
(٤) مجفف: أي عليه تجفاف وهو ثوب كالجل يلبسه الفرس ليقيه من السلاح.
(٥) (وثناه) أي عودة ثانية (شرح مسلم للنووي ١٢/١٧٦).
(٦) مسلم، كتاب الجهاد والسير (٣/ ١٤٣٢).
(٧) تفسير ابن كثير (٤/١٩٢).
(٨) البخاري رقم الحديث (٤١٦٩).
(٩) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٤٨٦).
(١٠) البخاري، رقم (٤١٦٩).
(١١) مسلم، رقم (١٨٥٦).
(١٢) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٤٨٦).
(١٣) المصدر نفسه، (ص ٤٨٦).
(١٤) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٤٨٦).

وأوسطهم وآخرهم (١)، وقال النبي ﷺ بيده اليمنى: «هذه يد عثمان» فضرب بها على يده (٢)، وكان عدد الصحابة الذين أخذ منهم الرسول ﷺ المبايعة تحت الشجرة ألف وأربعمائة صحابي (٣) وقد تحدّث القرآن الكريم عن أهل بيعة الرضوان، وورد فضلهم في نصوص كثيرة من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية منها:

ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠] .

وهذ الآية فيها ثناء ومدح عظيم لأهل بيعة الرضوان، فقد جعل الله مبايعتهم لرسوله ﷺ مبايعة له، وفي هذا غاية التشريف والتكريم لهم ﷺ (٤).

وقد ورد الثناء عليهم في السنّة المطهرة في أحاديث كثيرة ومن ذلك ما يلي:

أ ـ من حديث جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: «أنتم اليوم خير أهل الأرض»، وكنا ألفاً وأربعمائة ولو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة (٥).

ب ـ وقال جابر بن عبد الله ﷺ: أخبرتني أم مبشر: أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة: «لا يدخل النار، إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد، الذين بايعوا تحتها» قالت: بلى يا رسول الله، فانتهرها فقالت حفصة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فقال النبي ﷺ: «قد قال الله ـ ﷻ ـ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١ ـ ٧٢] .

قال النووي رحمه الله تعالى: قوله ﷺ: «لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها»، قال العلماء: معناه لا يدخلها أحد منهم قطعاً. . . . وإنما قال إن شاء الله للتبرك لا للشك، وأما قول حفصة بلى وانتهار النبي ﷺ لها فقالت: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فقال النبي ﷺ: وقد قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ فيه دليل للمناظرة والجواب على وجه الاسترشاد وهو مقصود حفصة، لا أنها أرادت رد مقالته ﷺ، والصحيح أن المراد بالورود في الآية المرور على الصراط وهو جسر منصوب على جهنم فيقع فيها أهلها وينجو الآخرون (٦).

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٩١).
(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٤٠٤).
(٣) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٤٨٢).
(٤) انظر: عقيدة أهل السنة في الصحابة، د. ناصر حسن الشيخ (١/ ٢٠٥).
(٥) مسلم (٣/ ١٤٨٥).
(٦) شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/ ٨٥).

وحين نمعن النظر في هذا الجيل الفريد مقارنة مع أهل بدر نلاحظ ارتفاع عدد المهاجرين إلى النصف من الجيش، وهذا الارتفاع الهائل في عدد المهاجرين من ثلاثة وثمانين في بدر إلى ثمانمائة، كان معظمه من القبائل العربية المجاورة وهي قبائل صغيرة، إذا قيست بالقبائل الكبرى، لكن شبابها كانوا يغدون إلى المدينة، ينضوون تحت لواء رسول الله ﷺ، ويتلقون التربية اليومية في المسجد، والتربية العملية في المعارك والغزوات، فيتدربون على الجندية الخالصة ويفقهون دينهم مباشرة من رسول رب العالمين، وينشأون في ظلال القدوة العليا لهم من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، ويتنافسون في الطاعة والامتثال لأمر الله ورسوله، فنالت قبائلهم بذلك شرفاً ربا على القبائل الكبرى التي تخاذلت في الانضمام للإسلام. فقبيلة أسلم وغفار كانت على رأس هذه القبائل، ويعود الفضل ـ بعد الله ـ في ذلك إلى الرعيل الأول منهم، واللبنات الأولى التي انضمت إلى الدعوة؛ إلى أبي ذر الغفاري الذي كان من السابقين في إسلامه بمكة، ومضى داعياً في قومه حتى جاءه سبعون بيتاً من غفار يؤم بهم المدينة بعد أحد، وإلى بريدة بن الحصيب الأسلمي، الذي تلقى رسول الله ﷺ قبل دخوله المدينة، فأسلم ومعه سبعون من قومه كذلك [(١)].

أما القبائل الأخرى من مزينة وجهينة وأشجع وخزاعة، فقد بدأ شبابها يفدون إلى المدينة، لكن بأعداد ضئيلة، وبقي كيان القبيلة على الشرك، وبقي أعرابياً بعيداً عن محضن التربية العظيم داخل المدينة، فلم يتح له هذا الفضل، والاغتراف من رحيق النبوة، ولهذا كانت الآيات ـ التي نزلت في المخلفين من الأعراب ـ كالصواعق على رؤوسهم، لتخلفهم عن الاضمام إلى الجيش الإسلامي الماضي إلى الحديبية [(٢)].

المبحث الثاني

صلح الحديبية وما ترتب عليه من أحداث

أولاً: مفاوضة سهيل بن عمرو لرسول الله ﷺ:

لما بلغ قريشاً أمر بيعة الرضوان، وأدرك زعماؤها تصميم الرسول ﷺ على القتال، أوفدوا سهيل بن عمرو في نفر من رجالهم لمفاوضة النبي ﷺ [(٣)]، ولما رأى رسول الله ﷺ سهيلاً قال: «لقد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل» [(٤)].

---

(١) انظر: التربية القيادية (٤/ ٢١٤).
(٢) انظر: التربية القيادية (٤/ ٢١٦).
(٣) انظر: التاريخ السياسي والعسكري (ص ٣٣٩، ٣٤٠).
(٤) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٦٠٢، ٦٠٤، ٦٠٥).

كان سهيل بن عمرو أحد زعماء قريش البارزين الذين كانوا يُعرفون بالحنكة السياسية والدهاء، فهو خطيب ماهر، ذو عقل راجح، ورزانة، وأصالة في الرأي.

شرع الفريقان المتفاوضان في بحث بنود الصلح، وذلك بعد رجوع عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد استعرض الفريقان النقاط التي يجب أن تتضمنها معاهدة الصلح، واستعرضا في مباحثاتهما مختلف القضايا التي كانت تشكل مثار الخلاف بينهما، هذا وقد اتفق الفريقان من حيث المبدأ على بعض النقاط، واختلفا على البعض الآخر، وقد طال البحث والجدل والأخذ والرد حول هذه البنود، وبعد المراجعات والمفاوضات تقاربت وجهات النظر بين الفريقين، وعند الشروع في وضع الصيغة النهائية للمعاهدة وكتابتها لتكون نافذة المفعول رسمياً، حدث خلاف بين الوفدين على بعض النقاط، كاد أن يعثِّر سير هذه الاتفاقية، فعندما شرع النبي ﷺ في إملاء صيغة المعاهدة المتفق عليها، أمر الكاتب، وهو الإمام علي بن أبي طالب، بأن يبدأ المعاهدة بكلمة: (بسم الله الرحمن الرحيم)، وهنا اعترض رئيس الوفد القرشي سهيل بن عمرو قائلاً: لا أعرف الرحمن، اكتب (باسمك اللهم) فضج الصحابة على هذا الاعتراض، قائلين: هو الرحمن، ولا نكتب إلا الرحمن، ولكن النبي ﷺ تمشياً مع سياسة الحكمة والمرونة والحلم، قال للكاتب: «اكتب باسمك اللهم» (١) واستمر في إملاء صيغة المعاهدة هذه، فأمر الكاتب أن يكتب (هذا ما اصطلح عليه رسول الله)، وقبل أن يكمل الجملة اعترض رئيس الوفد القرشي على كلمة رسول الله قائلاً: لو أعلم أنك رسول الله ما خالفتك، واتبعتك، أفترغب عن اسمك واسم أبيك محمد بن عبد الله؟ اكتب اسمك واسم أبيك (٢).

واعترض المسلمون على ذلك، ولكن رسول الله بحكمته وتسامحه وبُعد نظره، حسم الخلاف، وأمر الكاتب بأن يشطب كلمة رسول الله من الوثيقة، فالتزم الصحابة الصمت والهدوء.

إن النبي ﷺ وافق المشركين على ترك كتابة (بسم الله الرحمن الرحيم) وكتابة (باسمك اللهم) بدلاً عنها، وكذا وافقهم في كتابة محمد بن عبد الله وترك كتابة رسول الله ﷺ، وكذا وافقهم في رد من جاء منهم إلى المسلمين دون من ذهب منهم إليهم، وإنما وافقهم في هذه الأمور للمصلحة المهمة الحاصلة بالصلح، مع أنه لا مفسدة في هذه الأمور، أما البسملة وباسمك اللهم فمعناها واحد، وكذا قوله (محمد بن عبد الله) هو أيضاً رسول الله ﷺ وليس في ترك وصف الله سبحانه وتعالى في هذا الموضع بالرحمن الرحيم ما ينفي ذلك، ولا في ترك وصف النبي ﷺ بالرسالة ما ينفيها، ولا مفسدة فيما طلبوه، وإنما كانت المفسدة تكون لو طلبوا

(١) انظر: مغازي الواقدي، (٢/ ٦١٠).
(٢) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٦١٠).

أن يكتب ما لا يحل من تعظيم آلهتهم ونحو ذلك.

وأما شرط ردّ من جاء منهم وعدم رد من ذهب إليهم، فقد بيّن النبي ﷺ تعليل ذلك والحكمة فيه في هذا الحديث، بقوله: «من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً» ثم كان كما قال ﷺ [1].

وتمّ عقد هذه المعاهدة وكانت صياغتها من عشرة بنود جاءت على الشكل التالي:

١ ـ باسمك اللهم.

٢ ـ هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو.

٣ ـ واصطلحا على وضع الحرب على الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض.

٤ ـ على أنه من قدم مكة من أصحاب محمد حاجاً أو معتمراً أو يبتغي من فضل الله، فهو آمن على دمه وماله، ومن قدم المدينة من قريش مجتازاً إلى مصر أو إلى الشام، يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله.

٥ ـ على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه.

٦ ـ وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا إسلال ولا إغلال. [2]

٧ ـ وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخله، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه (فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش، وعهدهم).

٨ ـ وأنت ترجع عنا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب، السيوف في القرب، ولا تدخلها بغيرها.

٩ ـ وعلى أن هذا الهدى ما جائناه ومحله فلا تقدمه علينا.

١٠ ـ شهد على الصلح رجال من المسلمين ورجال من المشركين:

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة (٢/ ٣٤٢).

(٢) العيبة هنا مثل: والمعنى أن بيننا صدوراً سليمة في المحافظة على العهد الذي عقدناه بيننا، وقد يشبه صدر الإنسان الذي هو مستودع سره، وقوله لا إسلال ولا إغلال: تعني الإسلال من السلة وهي السرقة، والإغلال أي الخيانة والمعنى العام أن بعضنا يأمن بعضاً في نفسه وماله، فلا يتعرض لدمه ولا لماله.

فمن المسلمين: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن سهيل بن عمرو، وسعد بن أبي وقاص، ومحمد بن مسلمة، وعلي بن أبي طالب كاتب المعاهدة ﷺ أجمعين.

ومن المشركين: مكرز بن حفص، وسهيل بن عمرو (١).

تعتبر هذه المعاهدة أساساً للمعاهدات الإسلامية ونموذجاً فريداً للمعاهدات الدولية، بما سبقها من مفاوضات وما حوته من شروط، وما تمثّل بها من خلق النبي ﷺ في النزول عند رضا الطرف الآخر، وفي كيفية الصياغة والالتزام. هذه المعاهدة سبقها مفاوضات من قبل المشركين والمسلمين، وفشل بعض الممثلين في الوصول إلى اتفاق، ودارت مشاورات شتى من الجانبين قبل الوصول إليه، حتى توصل الفريقان إلى اتفاق عن طريق ممثل المشركين (سهيل بن عمرو) ورسول الله ﷺ على ملأ المسلمين.

عقدت هذه المعاهدة في الوقت الذي كان فيه المسلمون بمركز القوة لا الضعف، وكان باستطاعتهم أن لا يقبلوا شروطها التي اغتاظ منها كثير من الصحابة، ولكن ما كان لهم أن يخرجوا عن طوع رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، وقد تمادى رسول قريش على رسول الله في مفاوضته، وكان فرداً بين جيش المسلمين، فلم ينله أذى ولم يتمادى عليه المسلمون بالقتل(لأن السفراء لا تقتل)، ولكن رسول الله يرضيه ويسعه بالحلم واللين، حتى يصل إلى الغاية التي ينشدها الإسلام، وهي حقن الدماء وإحلال السلام ورجاء أن يعقل القوم الحق، وأن يراجعوا المواقف، ويسمعوا كلام الله (٢)، وتدخل الدعوة الإسلامية طوراً جديداً بصور أخرى في الانتشار والاتصال بالناس، عندما نتأمل نصوص المعاهدة التي تمت في الحديبية فإننا نأخذ منها الآتي:

١ ـ إن ديباجة المعاهدات الإسلامية كانت تبدأ باسم الله، أو باسمك اللهم، والقانون الدولي في صياغة المعاهدات. يقول: (تبدأ كتابة المعاهدات بديباجة يتفق عليها طرفا التعاقد).

والذي يجب أن نلاحظه، بأن المعاهدات في الإسلام تستند إلى الله الذي تبدأ باسمه سبحانه، حيث هو الرقيب والحسيب على ما في النوايا والقلوب، واسم الله مقدس في كل قلب يؤمن به، حتى أولئك الذين فسدت عقائدهم، فإنهم لا ينكرون الله، ولكنهم أفسدوا تصورهم لذات الله، وقد جرت أعراف بعض الذين يستهوون قلوب العامة بالشعارات الجوفاء أن يقولوا بدل اسم الله: باسم الشعب، أو باسم الأمة، باعتبار قدسية ما يبدأون به

---

(١) المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي، د. محمد الديك (ص ٢٧٠، ٢٧١).
(٢) انظر: المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي (ص ٢٦٨، ٢٦٩).

كما يزعمون، ولكن الذي يؤمن بالله لا يعدل عن قدسية الله في اعتقاده، ولذلك كانت البداية (باسمك اللهم).

٢ - ذكر في المعاهدة طرفا التعاقد بعد (الديباجة) كما يسميها القانون الدولي، وهذا ما عليه القانون الدولي العام من أنه يذكر بعد الديباجة أسماء الممثلين أو الدول التي هي أطراف في عقد المعاهدة.

٣ - بواعث المعاهدة، فقد جاء في بداية هذه المعاهدة ذكر الصلح؛ لأجل وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض، وهذا ما عليه القانون الدولي العام كذلك.

٤ - الدخول في صلب المعاهدة وشروطها، حيث ذكر رسول الله ﷺ في هذه المعاهدة الشروط المتفق عليها بين الطرفين، وهذا ما عليه القانون الدولي العام.

٥ - في معاهدة صلح الحديبية جواز ابتداء الإمام (رئيس الدولة الإسلامية) بطلب صلح العدو، إذا رأى المصلحة للمسلمين فيه، ولا يتوقف ذلك على أن يكون ابتداء الطلب منهم (١).

٦ - إن مصالحة المشركين ببعض ما فيه ضيم على المسلمين جائز للمصلحة الراجحة ودفع ما هو شر منه، ففيه دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناها (٢).

٧ - إن صلح الحديبية سمّاه الله فتحاً، لأن الفتح في اللغة هو فتح المغلق، والصلح الذي حصل مع المشركين بالحديبية كان مسدوداً مغلقاً ففتحه الله، والصلح كذلك يفتح القلوب المغلقة نحو الطرف الآخر.

لقد كانت الصورة الظاهرة في شروط الحديبية فيها ضيم للمسلمين، وهي في باطنها عز وفتح ونصر، حيث كان رسول الله ﷺ ينظر إلى ما وراء المعاهدة من الفتح العظيم من وراء ستر رقيق، وكان يعطي المشركين كل ما سألوه من الشروط التي لم يحتملها أكثر أصحابه ورؤوسهم، وهو ﷺ يعلم ما في ضمن هذا المكروه من محبوب (٣).

٨ - إن المعاهدة قد تكون مفتوحة لمن يحب أن يدخل فيها من الأطراف أو الدول الأخرى، وهذا ما عليه القانون الدولي حيث أجاز أن تكون المعاهدة مفتوحة لمن يحب الدخول فيها من الأطراف الأخرى، فقد دخلت خزاعة وكنانة في الصلح، الذي أنهى حالة الحرب القائمة بين هاتين القبيلتين، والتي امتدت سنوات عديدة (٤).

---

(١) انظر: زاد المعاد لابن القيم (٣/٣٠٦).

(٢) المصدر نفسه، (٣/٣٠٦).

(٣) انظر: المعاهدات في الشريعة الإسلامية (ص ٢٧٢).

(٤) انظر: صلح الحديبية، باشميل (ص ٢٨٠).

٩ ـ إن المعاهدة لا بدّ لها من توقيع الأطراف والإشهاد عليها، وتوقيع رسول الله ﷺ وإشهاد أصحابه، إنما هو بمثابة التوقيع على المعاهدة والتصديق عليها، كما هو في القانون الدولي العام.

١٠ ـ إن المعاهدة يجوز أن يكون الوسيط فيها طرفاً محايداً، أو طرفاً يقرّب بين وجهات النظر كوساطة سيد الأحابيش (الحليس بن علقمة) حليف قريش الأكبر، طلبت منه قريش أن يكون وسيطاً بينهم وبين المسلمين، وكان الحليس ذا عقل راجح وبصيرة نافذة، وكان سيداً مطاعاً، وكان رسول الله ﷺ يعرفه ويعرف فيه التأله الشديد والتعظيم للحرم.

وعندما اختارته قريش كانت تطمع في أن يكون لمركزه الممتاز بين العرب ـ ولما يتمتع به من تقدير لدى النبي ﷺ ـ تأثير على الرسول وأصحابه (١).

وهذا ما يقره القانون الدولي، حيث إن المعاهدة قد تعقد بوساطة دولة أخرى ليست طرفاً في النزاع، أو أحد المبعوثين الذي لا علاقة له أو لدولته في النزاع القائم بين طرفي التعاقد.

١١ ـ إن المعاهدة تعتبر نافذة المفعول بمجرد الاتفاق عليها وعلى شروطها، حتى وإن لم تكتب ولم يوقع عليها الطرفان، وذلك كما حدث لأبي جندل بن سهيل بن عمرو الذي ردّه الرسول ﷺ بموجب قبوله عليه السلام بالبند الخامس من المعاهدة، والذي يقول: (على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه ردّه عليهم...) فمنذ أعلن رسول الله ﷺ التزامه بهذا الشرط أجراه ولم تكن المعاهدة قد كتبت بعد، ولم يوقّع عليها الطرفان.

١٢ ـ إن المعاهدة تكتب من نسختين، ويأخذ كل طرف نسخة طبق الأصل من المعاهدة، حيث إنه بعد أن تمّت إجراءات الصلح النهائية في الحديبية، أخذ كل من الفريقين نسخة من وثيقة الصلح التاريخية، وانصرف الوفد القرشي راجعاً إلى مكة (٢).

ثانياً: موقف أبي جندل والوفاء بالعهد:

إن من أبلغ دروس صلح الحديبية درس الوفاء بالعهد، والتقيد بما يفرضه شرف الكلمة من الوفاء بالالتزامات التي يقطعها المسلم على نفسه، وقد ضرب رسول الله ﷺ بنفسه أعلى مثل في التاريخ القديم والحديث لاحترام كلمة لم تكتب، واحترام كلمة تكتب كذلك، وفي الجد في عهوده وحبه للصراحة والواقعية، وبغضه التحايل والالتواء والكيد، وذلك حينما كان يفاوض (سهيل بن عمرو) في الحديبية، حيث جاءه ابن سهيل يرسف في الأغلال، وقد فرّ من مشركي مكة، وكان أبوه يتفاوض مع الرسول ﷺ، وكان هذا الابن ممن آمنوا بالإسلام، جاء مستصرخاً

---

(١) انظر: صلح الحديبية، باشميل (ص ١٩٩، ٢٠٠).
(٢) انظر: المعاهدات في الشريعة الإسلامية (ص ٢٧٣).

بالمسلمين، وقد انفلت من أيدي المشركين، فلما رأى سهيل ابنه قام إليه وأخذه بتلابيبه وقال: يا محمد لقد لجت القضية بيني وبينك، أي فرغنا من المناقشة قبل أن يأتيك هذا، فقال رسول الله ﷺ: «صدقت»، فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين أأُرد إلى المشركين يفتنونني في ديني، فلم يغني عنه ذلك شيئاً، وردّه رسول الله ﷺ، وقال لأبي جندل: «إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهداً، وإنا لا نغدر بهم»، غير أن النبي ﷺ إزاء هذه المأساة التي حالت بنود معاهدة الصلح بينه وبين أن يجد مخرجاً منها لأبي جندل المسلم، طمأن أبا جندل وبشّره بقرب الفرج له ولمن على شاكلته من المسلمين وقال له ـ وهو يواسيه ـ: «يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً»[1]. وفي هذه الكلمات النبوية المشرقة العظيمة دلالة ليس فوقها دلالة على مقدار حرص رسول الله ﷺ وتمسكه بفضيلة الوفاء بالعهد، مهما كانت نتائجه وعواقبه، فيما يبدو للناس[2]. لقد كان درس أبي جندل امتحاناً قاسياً ورهيباً لهذا الوفاء بالعهد أثبت فيه الرسول ﷺ والمسلمون نجاحاً عظيماً في كبت عواطفهم وحبس مشاعرهم، وقد صبروا لمنظر أخيهم أبي جندل وتأثروا من ذلك المشهد، عندما كان أبوه يجتذبه من تلابيبه، والدماء تنزف منه، ومما زاد في إيلامهم، حتى أن الكثيرين منهم أخذوا يبكون بمرارة إشفاقاً منهم على أخيهم في العقيدة، وهم ينظرون إلى أبيه المشرك وهو يسحبه بفظاظة الوثني الجلف ليعود به مرةً أخرى إلى سجنه الرهيب في مكة.

وقد صبر أبو جندل واحتسب لمصابه في سبيل دينه وعقيدته وتحقق فيه قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣].

فلم تمر أقل من سنة حتى تمكن مع إخوته المسلمين المستضعفين بمكة من الإفلات من سجون مكة، وأصبحوا قوة صار كفار مكة يخشونها، بعد أن انضموا إلى أبي بصير، وسيطروا على طرق قوافل المشركين الآتية من الشام[3]، وسيأتي تفصيل ذلك لاحقاً بإذن الله تعالى.

ثالثاً: احترام المعارضة النزيهة:

بعد الاتفاق على معاهدة الصلح وقبل تسجيل وثائقها ظهرت بين المسلمين معارضة شديدة، وقوية لهذه الاتفاقية، وخاصة في البندين اللذين يلتزم النبي ﷺ بموجبها بردّ من جاءه من المسلمين لاجئاً، ولا تلتزم قريش بردّ من جاءها من المسلمين مرتداً، والبند الذي يقضي بأن يعود المسلمون من الحديبية إلى المدينة، دون أن يدخلوا مكة ذلك العام، وقد كان أشد الناس

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٤٧).
(٢) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٤/ ٢٧٥).
(٣) انظر: صلح الحديبية، باشميل (ص ٣٢٢ ـ ٣٢٥).

معارضة لهذه الاتفاقية وانتقاداً لها، عمر بن الخطاب، وأسيد بن حضير سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج.

وقد ذكر المؤرخون أن عمر بن الخطاب أتى رسول الله معلناً معارضته لهذه الاتفاقية وقال لرسول الله ﷺ: ألست برسول الله؟ قال: «بلى»، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: «بلى»، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى»، قال: فعلام نعطي الدنيَّة في ديننا؟ قال: «إني رسول الله ولست أعصيه [(١)]»، وفي رواية: «أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني» [(٢)]، قلت: أوليس كنت تحدّثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟» قلت: لا، قال: «فإنك آتيه ومطوف به». قال عمر: فأتيت أبا بكر فقلت له:

يا أبا بكر: أليس برسول الله؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنيَّة في ديننا؟ فقال أبو بكر ـ ناصحاً الفاروق بأن يترك الاحتجاج والمعارضة ـ الزم غرزه، فإني أشهد أنه رسول الله، وأن الحق ما أمر به، ولن يخالف أمر الله ولن يضيعه الله [(٣)].

وبعد حادثة أبي جندل المؤلمة المؤثرة عاد الصحابة إلى تجديد المعارضة للصلح، وذهبت مجموعة منهم إلى رسول الله ﷺ بينهم عمر بن الخطاب لمراجعته، وإعلان معارضتهم مجدداً للصلح، إلا أن النبي ﷺ بما أعطاه الله من صبر وحكمة وحلم وقوة حجة استطاع أن يقنع المعارضين بوجاهة الصلح، وأنه في صالح المسلمين وأنه نصر لهم [(٤)]، وأن الله سيجعل للمستضعفين من أمثال أبي جندل فرجاً ومخرجاً، وقد تحقق ما أخبر به ﷺ.

وبهذا يتبيّن أن الرسول ﷺ وضع قاعدة احترام المعارضة النزيهة حيث قرر ذلك بقوله وفعله، وهو ـ والله أعلم ـ إنما أراد بهذا الفعل إرشاد القادة من بعده إلى احترام المعارضة النزيهة التي تصدر من أتباعهم، وذلك بتشجيع الأتباع على إبداء الآراء السليمة التي تخدم المصلحة العامة [(٥)].

وهذا الهدى النبوي الكريم بيَّن أن حرية الرأي مكفولة في المجتمع الإسلامي، وأن للفرد في المجتمع المسلم الحرية في التعبير عن رأيه، ولو كان هذا الرأي نقداً لموقف حاكم من الحكام أو خليفة من الخلفاء، فمن حق الفرد المسلم أن يبيِّن وجهة نظره في جو من الأمن والأمان دون إرهاب أو تسلط يخنق حرية الكلمة والفكر.

---

(١) انظر: من معين السيرة (ص ٣٣٣).
(٢) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٦٣٤).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٤٦).
(٤) انظر: صلح الحديبية، باشميل، (ص ٢٧٠).
(٥) انظر: القيادة العسكرية في عهد رسول الله (ص ٤٩٥).

ونفهم من معارضة عمر لرسول الله ﷺ أن المعارضة لرئيس الدولة في رأي من الآراء، وموقف من المواقف، ليست جريمة تستوجب العقاب، ويُغَيَّبْ صاحبها في غياهب السجون [(١)].

رابعاً: التحلل من العمرة ومشورة أم سلمة رضي الله عنها:

لمَّا فرغ رسول الله ﷺ من قضية كتابة الصلح قال لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا»... حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلمَّا لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمًّا [(٢)].

وقد حلق رجال يوم الحديبية، وقصر آخرون، فقال رسول الله ﷺ: «يرحم الله المحلقين»، فقالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «يرحم الله المحلقين»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «يرحم الله المحلقين»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «والمقصرين» [(٣)].

وكان في هدي النبي ﷺ في الحديبية جمل لأبي جهل في رأسه برة [(٤)] من فضة، يغيظ بذلك المشركين [(٥)]، وفي هذه الحادثة تستوقفنا أمور فيها دروس وعِبَر منها:

١ ـ كان رأي أم سلمة سديداً ومباركاً حيث فهمت رضي الله عنها عن الصحابة أنه وقع في أنفسهم أن يكون النبي ﷺ أمرهم بالتحلل أخذاً بالرخصة في حقهم، وأنه يستمر على الإحرام أخذاً بالعزيمة، في حق نفسه، فأشارت على النبي ﷺ أن يتحلل لينتفي عنهم هذا الاحتمال، وعرف النبي ﷺ صواب ما أشارت به ففعله، فلما رأى الصحابة ذلك بادروا إلى فعل ما أمرهم به، فلم يبق بعد ذلك غاية تنتظر، فكان ذلك رأياً سديداً ومشورة مباركة، وفي ذلك دليل على استحسان مشاورة المرأة الفاضلة ما دامت ذات فكرة صائبة ورأي سديد [(٦)]. كما أنه لا فرق في الإسلام بين أن تأتي المشورة من رجل أو امرأة طالما أنها مشورة صائبة، وهذا عين التكريم للمرأة التي يزعم أعداء الإسلام أنه غمطها حقها وتجاهل وجودها، وهل هناك اعتراف واحترام لرأي المرأة أكثر من أن تشير على نبي مرسل، ويعمل النبي ﷺ

---

(١) انظر: غزوة الحديبية لأبي فارس (ص ١٣٤، ١٣٥).
(٢) البخاري، كتاب الشروط (٣/ ٢٤٠) رقم (٢٧٣٢).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٣٤٨).
(٤) البرة: حلقة تجعل في أنف البعير ليذل ويرتاض.
(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٣٤٩).
(٦) انظر: ملامح الشورى في الدعوة الإسلامية، (ص ١٦١).

بمشورتها لحل مشكلة اصطدم بها وأغضبته [(١)].

٢ - أهمية القدوة العملية، فقد دعا رسول الله ﷺ إلى أمر وكرّره ثلاث مرات وفيهم كبار الصحابة وشيوخهم، ومع ذلك لم يستجب أحد لدعوته، فلما قدم رسول الله ﷺ على الخطوة العملية التي أشارت بها أم سلمة تحقق المراد، فالقدوة العملية في مثل هذه المواقف أجدى وأنفع [(٢)].

٣ - حكم الإحصار في العمرة والحج: دل عمل الرسول ﷺ بعد الفراغ من أمر الصلح، من التحلل والنحروالحلق، على أن المحصر يجوز له أن يتحلل، وذلك بأن يذبح شاة حيث أحصر أو ما يقوم مقامها، ويحلق ثم ينوي التحلل مما كان قد أهلّ به، سواء كان حجاً أو عمرة، كما دلّ على أن المتحلل لا يلزم بقضاء الحج أو العمرة إذا كان متطوعاً، وخالف الحنفية فرأوا أن القضاء بعد المباشرة واجب. بدليل أن جميع الذين خرجوا معه ﷺ في صلح الحديبية خرجوا معه في عمرة القضاء، إلا من توفي أو استشهد منهم في غزوة خيبر [(٣)].

خامساً: العودة إلى المدينة ونزول سورة الفتح:

ثم انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية قاصداً المدينة، حتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح، قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ [الفتح: ١١].

وقد عبَّر رسول الله ﷺ عن عظيم فرحته بنزولها، وقال: «أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس» [(٤)] ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، فقال أصحاب رسول الله: هنيئاً مريئاً فما لنا؟ فأنزل الله: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الفتح: ٥][(٥)].

وقد أسرع الناس إلى رسول الله ﷺ وهو واقف على راحلته بكراع الغميم فقرأ عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ فقال رجل: يا رسول الله: أفتح هو؟ قال: «نعم والذي نفس محمد بيده إنه لفتح» [(٦)]، فانقلبت كآبة المسلمين وحزنهم إلى فرح غامر، وأدركوا أنهم لا يمكن أن يحيطوا

---

(١) انظر: المعاهدات في الشريعة الإسلامية، (ص ٢٧٣).
(٢) انظر: تأملات في السيرة النبوية لمحمد السيد الوكيل، (ص ٢١١).
(٣) انظر: فقه السيرة للبوطي، (ص ٢٤٣).
(٤) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية (٥/ ٨٠) رقم (٤١٧٧).
(٥) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية (٥/ ٧٨) رقم (٤١٧٢).
(٦) سنن أبي داود، معالم السنن، كتاب الجهاد رقم (٢٧٣٦).

بالأسباب والنتائج، وأن التسليم لأمر الله ورسوله فيه كل الخير لهم ولدعوة الإسلام [(١)].

كان حديث القرآن الكريم عن هذا الحدث العظيم في سورة الفتح، وكان القرآن الكريم له منهجه الخاص في عرضه لغزوة الحديبية، فنجد في حديثه عن هذه الغزوة أنه سمّى الصلح الذي وقع بين الفريقين مع عدم وقوع القتال «فتحاً مبيناً».

إننا بالتأمل في أسباب النزول نجد أن سورة الفتح نزلت بعد انتهاء النبي ﷺ من الصلح وهو عائد إلى المدينة النبوية، وبعد أن خاض النبي ﷺ والمؤمنون تلك التجارب العظيمة من الأمل في العمرة، إلى مواجهة المشركين، إلى بيعة الرضوان، إلى الصلح الذي لم يكن بعض الصحابة راضين عنه، ودارت في أنفسهم أشياء كثيرة حول هذه الأحداث الجسام.

ينزل القرآن الكريم لتزداد ثقة المؤمنين برسول الله ﷺ حين يبشِّره الله على الملأ من الدنيا بأن الله تعالى فتح بالصلح ليغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، كرامة منه سبحانه لرسوله ليزداد المسلمون ثقة واطمئناناً، بأنهم على الصواب، وأن ما فعلوه هو الحق ومآله السعادة، ثم بيَّن سبحانه أن توفيق الله كان مع المؤمنين، فهو الذي وفّقهم للصبر مع رسوله وموافقتهم أخيراً على ما جنح له من أمر الصلح، وأن ذلك كان بسبب إنزال السكينة على قلوبهم حتى على قلوب من أنكر بعض شروط الصلح، واستسلم للأمر على مضض، فلم يحصل رفض لهذا الصلح، بل كلهم نزلوا على أمر رسوله ﷺ بفضل السكينة التي أنزلها عليهم قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤].

فالقرآن الكريم يبيِّن أن الله هو الذي أنزل السكينة عليهم ليتذكروا فضله، ويداوموا على شكره، وهذا الإعلام بإنزال السكينة مما يتميز به حديث القرآن الكريم عن هذه الغزوة، إذ السكينة أمر معنوي لا يعلم نزوله إلا الله، وأشار القرآن الكريم إلى بيعة الرضوان وهي مبايعة الصحابة للنبي على الموت فأثنى الله - ﷻ - على هذه البيعة، وكتب لها الخلود في القرآن، وقرر أنها مبايعة لله ﷻ فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

وبهذا نرى ما يتميز به القرآن الكريم في حديثه عن الغزوات، فهو يبيِّن الحقائق ويصحح العقائد، ويربي النفوس، ويفضح المنافقين، ويبشِّر المسلمين بغنائم قريبة تحققت في خيبر، ويبين أصحاب الأعذار، فليس كل من تخلف عن الجهاد يعاتب، وإنما هناك استثناء وهذا من كمال رحمته الإلهية. ثم لما تمّ صلح الحديبية، عاد المسلمون إلى المدينة ولم يتحقق ما

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/٤٤٩).

قصدوه من دخول مكة، أشار ز إلى الرؤيا التي سبق أن رآها النبي ﷺ وبشّر بها أصحابه وبيّن أنها رؤيا صدق، وأنها ستتحقق قال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧].

ثم اختتمت السورة الجليلة بصفات مدح للنبي ﷺ ولأصحابه الكرام (١).

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٨ ـ ٢٩].

لقد أيقن الصحابة الكرام أن الدعوة قد دخلت في طور جديد وفتح أكيد، وآفاق أوسع، وامتداد أرحب، وأن من طبيعة هذا الدين أن ينمو وينتعش في أجواء السلم والأمن، أكثر منه وقت الحرب، ولمسوا مع الأيام نتائج صلح الحديبية التي كان من أهمها:

١ ـ اعترفت قريش في هذه المعركة بكيان الدولة المسلمة، فالمعاهدة دائماً لا تكون إلا بين نِدَّين، وكان لهذا الاعتراف أثره في نفوس القبائل المتأثرة بموقف قريش الجحودي، حيث كانوا يرون أنها الإمام والقدوة.

٢ ـ دخلت المهابة في قلوب المشركين والمنافقين، وتيقّن الكثير منهم بغلبة الإسلام، وقد تجلّت بعض مظاهر ذلك في مبادرة كثير من صناديد قريش إلى الإسلام، مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، كما تجلّت في مسارعة الأعراب المجاورين للمدينة إلى الاعتذار عن تخلفهم.

٣ ـ أعطت الهدنة فرصة لنشر الإسلام وتعريف الناس به، مما أدّى إلى دخول كثير من القبائل فيه، يقول الإمام الزهري: (فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلّم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثلُ من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر) (١).

وعقب عليه ابن هشام بقوله: والدليل على قول الزهري: أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبد الله، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٥١).

بستين في عشرة آلاف [١].

٤ ـ أمن المسلمون جانب قريش فحولوا ثقلهم على اليهود، ومن كان يناوئهم من القبائل الأخرى، فكانت غزوة خيبر بعد صلح الحديبية.

٥ ـ مفاوضات الصلح جعلت حلفاء قريش يفقهون موقف المسلمين ويميلون إليه، فهذا الحليس بن علقمة عندما رأى المسلمين يلبون، رجع إلى أصحابه قال: لقد رأيت البدن قد قلّدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت.

٦ ـ مكّن صلح الحديبية النبي ﷺ من تجهيز غزوة مؤتة، فكانت خطوة جديدة لنقل الدعوة الإسلامية بأسلوب آخر خارج الجزيرة العربية.

٧ ـ ساعد صلح الحديبية النبي ﷺ على إرسال رسائل إلى ملوك الفرس والروم والقبط يدعوهم إلى الإسلام.

٨ ـ كان صلح الحديبية سبباً ومقدمة لفتح مكة، يقول ابن القيم: كانت الهدنة مقدمة بين يدي الفتح الأعظم، الذي أعزّ الله به رسوله وجنده، ودخل الناس به في دين الله أفواجاً، فكانت هذه الهدنة باباً له ومفتاحاً ومؤذناً بين يديه، وهذه عادة الله في الأمور العظام التي يقضيها قدراً وشرعاً، أن يوطىء بين يديها بمقدّمات وتوطئات تؤذن لها وتدل عليها [٢].

سادساً: أبو بصير في المدينة وقيادته لحرب العصابات:

في أعقاب صلح الحديبية مباشرة استطاع أبو بصير عتبة بن أسيد أن يفرّ بدينه من سجون الشرك في مكة المكرمة، وأن يلتحق برسول الله ﷺ في المدينة، فبعثت قريش في إثره اثنين من رجالها إلى رسول الله ليرجعا به، تنفيذاً لشروط المعاهدة، فقال رسول الله ﷺ لأبي بصير: يا أبا بصير، «إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، فانطلق إلى قومك»، فقال أبو بصير: يا رسول الله، أتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ قال: «يا أبا بصير انطلق فإن الله سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً» [٣] فانطلق معهما، وقد شقّ ذلك على المسلمين وهم ينظرون إلى أخيهم في العقيدة وهو يعود إلى سجنه بمكة بعد أن استطاع أن يفلت من ظلم قريش، ولكن رسول الله ﷺ كان يهتم بالوفاء بالعهود والمواثيق، ولم يكن عنده مجرد نظرية مكتوبة على الورق، ولكنه كان سلوكاً عملياً في حياته وفي علاقته الدولية، فقد أوصى الله سبحانه وتعالى بالوفاء بالعهود، وحذّر من نقض الأيمان بعد توكيدها في كثير من

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٥١، ٣٥٢).
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٠٩).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٥٢).

الآيات القرآنية قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١].

وقال جلّ وعلا: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وبهذا يكون الوفاء بالعهد عند المسلمين قاعدة أصولية من قواعد الدين الإسلامي التي يجب على كل مسلم أن يلتزم بها (١).

لقد التزم رسول الله ﷺ بعهده مع قريش، وسلَّم أبا بصير إليهما وانطلق معهما، فلما كانا بذي الحليفة، قال لأحد صاحبيه: أصارم سيفك هذا يا أخا بني عامر؟ فقال: نعم، قال: أنظر إليه؟ قال: انظر إن شئت، فاستله أبو بصير، ثم علاه به حتى قتله، ففرّ الآخر إلى رسول الله ﷺ فقال: قتل صاحبكم صاحبي، فما لبث أبو بصير أن حضر، متوشحاً السيف، وقال: يا رسول الله وفت ذمتك، وأدّى الله عنك، أسلمتني بيد القوم، وقد امتنعت بديني أن أفتن فيه، أو يعبث بي (٢) فقال النبي ﷺ: «وَيْلُ أُمِّهِ، مِسْعَرَ حَرْبٍ، لو كان له أحد» (٣) فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده عليهما، فخرج حتى أتى سيف البحر (٤)، وقد فهم المستضعفون بمكة من عبارة الرسول ﷺ أن أبا بصير بحاجة إلى الرجال، فأخذوا يفرون من مكة إلى أبي بصير في سيف البحر، فلحق به أبو جندل بن سهيل بن عمرو وغيره، حتى اجتمع عند أبي بصير عصبة قوية، فما يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا طريقها وقتلوا من فيها، وأخذوا الأموال التي كانوا يتجرون بها، فأرسل المشركون إلى النبي ﷺ يناشدونه بالله والرحم، لما أرسل إلى أبي بصير ومن معه، ومن أتاه منهم فهو آمن، وتخلوا في ذلك عن أقسى شروطهم التي صبّوا فيها كؤوس كبريائهم، فذلّت قريش من حيث طلبت العز (٥).

فأرسل إليهم النبي ﷺ (٦) وهم بناحية العيص، فقدموا عليه، وكانوا قريباً من الستين أو السبعين (٧)، فآوى النبي ﷺ تلك العصبة المؤمنة التي أقضت مضاجع قريش، وأرغمتها على إسقاط شرطها التعسفي، فزادت بهم قوة المسلمين، وقويت بهم شوكتهم واشتدّ بأسهم.

غير أن أبا بصير، رأس تلك العصابة ومؤسسها، لم يقدر له أن يكون معها، فقد وافاه كتاب النبي ﷺ بالعودة إلى المدينة، وهو على فراش الموت، فلفظ أنفاسه حيث كان في الثغر،

(١) انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية، (ص ٣٢٩).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٥٣).
(٣) البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد (٣/ ٢٤١) رقم (٤٧٣٢).
(٤) البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد (٣/ ٢٤١) رقم (٤٧٣٢).
(٥) انظر: محمد رسول الله، عرجون (٤/ ٢٨١).
(٦) البخاري، كتاب الشروط (٣/ ٢٤١) رقم (٤٧٣٢).
(٧) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٥١).

وهواه في قلب المجتمع النبوي في المدينة [١].

إن قصة أبي جندل وأبو بصير، وما احتملاه في سبيل العقيدة، وما أبدياه من الثبات والإخلاص والعزيمة والجهاد، حتى مرغوا رؤوس المشركين بالتراب، وجعلوهم يتوسلون بالمسلمين لترك ما اشترطوه عليهم في الحديبية، هذه القصة نموذج يقتدى به في الثبات على العقيدة وبذل الجهد في نصرتها، وفيها ما يشير إلى مبدأ (قد يسع الفرد ما لا يسع الجماعة) فقد ألحق أبو بصير وجماعته الضرر بالمشركين، في وقت كانت فيه دولة الإسلام لا تستطيع ذلك وفاءً بالصلح، لكن أبا بصير وأصحابه خارج سلطة الدولة ـ ولو في ظاهر الحال ـ ولم يكن ما قام به أبو بصير والمستضعفون بمكة مجرد اجتهاد فردي لم يحظ بإقرار الرسول ﷺ أن يأمر أبا بصير بالكف عن قوافل المشركين ابتداء أو بالعودة إلى مكة، لكن ذلك لم يحدث، فكان إقراراً له، إذ كان موقف أبي بصير وأصحابه في غاية الحكمة حيث لم يستكينوا لطغاة مكة يفتنونهم عن دينهم، ويمنعونهم من اللحاق بالمدينة، فاختاروا موقفاً فيه خلاصهم، وإسناد دولتهم بأعمال تضعف اقتصاد مكة وتزعزع إحساسها بالأمن في وقت الصلح، بل يمكن القول بأن اتخاذ هذا الموقف كان بإشارة وتشجيع من النبي ﷺ حين وصف أبا بصير [٢] بأنه «مِسْعَرَ حَرْبٍ لو كان معه أحد» [٣].

سابعاً: امتناع النبي ﷺ عن ردّ المهاجرات:

صممت مجموعة من النساء المستضعفات في مكة على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، وفي مقدمة هؤلاء النساء أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، فقد هاجرت إلى رسول الله ﷺ بعد صلح الحديبية، فأراد كفار مكة أن يردوهن، فأنزل الله تعالى في حقهن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [المُمتحنَة: ١٠].

قال الشيخ محمد الغزالي، (وقد أبى المسلمون عقب صلح الحديبية أن يردوا النسوة المهاجرات بدينهن إلى أوليائهن، أما لأنهم فهموا أن المعاهدة خاصة بالرجال فحسب، أو لأنهم خشوا على النساء اللاتي أسلمن أن يضعفن أمام التعذيب والإهانة، وهن لا يستطعن ضرباً في الأرض، ورداً للكيد، كا فعل أبو جندل وأبو وبصير وأضرابهما، وأياً كان الإمر فإن احتجاز من

---

(١) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة، (ص ٢٩٦).

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٥٢).

(٣) البخاري، كتاب الشروط (٣/ ٢٤١) رقم (٤٧٣٢).

أسلم من النساء تمّ بتعليم القرآن) [(١)].

المبحث الثالث

دروس وعِبَر وفوائد

كانت غزوة الحديبية غنية بالدروس العقائدية والفقهية، والأصولية والتربوية... إلخ وسوف أذكر منها بعض الدروس على سبيل المثال لا الحصر:

أولاً: أحكام تتعلق بالعقيدة:

١ ـ حكم القيام على رأس الكبير وهو جالس:

في قيام المغيرة بن شعبة على رأس النبي ﷺ بالسيف، ولم يكن من عادته أن يقام على رأسه وهو قاعد، سنة يُقتدى بها عند قدوم رسل العدو من إظهار العز والفخر، وتعظيم الإمام وطاعته ووقايته بالنفوس، وهذه هي العادة الجارية عند قدوم رسل المؤمنين على الكافرين، وقدوم رسل الكافرين على المؤمنين، وليس هذا من النوع الذي ذمّه النبي ﷺ بقوله: «من أحب أن يمثل له الرجل قياماً فليتبوأ مقعده من النار» [(٢)].

كما أن الفخر والخيلاء في الحرب ليسا من هذا النوع المذموم في غيره [(٣)]. ويشبه هذا ما فعله أبو دجانة في غزوة أحد، فكل ما يدل على التكبر أو التجبر في المشي ممنوع شرعاً، ولكنه جائز في حالة الحرب بخصوصها، بدليل قوله ﷺ عن مشية أبي دجانة: «إنها مشية يكرهها الله إلا في هذا الموضع» [(٤)].

٢ ـ استحباب الفأل وأنه مغاير للطيرة:

لما جاء سهيل بن عمرو لمفاوضة رسول الله ﷺ قال رسول الله: «سهل أمركم» [(٥)] ففي الحديث استحباب التفاؤل وأنه ليس من الطيرة المكروهة [(٦)].

وقد جاءت أحاديث عن النبي ﷺ تبيّن معنى الفأل، قال رسول الله ﷺ: «لا طيرة وخيرها الفأل» [(٧)]، قالوا: وما الفأل يا رسول الله؟ قال: «الكلمة الصالحة يسمعها

---

(١) انظر: فقه السيرة للغزالي، (ص ٣٦٧).
(٢) أخرجه أبو داود في الأدب باب قيام الرجل للرجل (٥٢٢٩).
(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٠٤).
(٤) انظر: فقه السيرة للبوطي، (ص ٢٤١).
(٥) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٠٥).
(٦) المصدر نفسه، (٣/ ٣٠٥).
(٧) انظر: غزوة الحديبية للحكمي (ص ٣٠٣).

أحدكم[(١)]»، والفرق بين الفأل والطيرة: أن الفأل من طريق حسن الظن بالله والطيرة لا تكون إلا في السوء فلذلك كرهت[(٢)].

وقد ذكرت الطيرة عند النبي ﷺ فقال: «أحسنها الفأل، ولا ترد مسلماً فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع بالسيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك[(٣)]».

٣ ـ بيان كفر من اعتقد أن للكوكب تأثيراً في إيجاد المطر:

قال خالد الجهني رضي الله عنه: صلّى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية ـ على إثر سماء[(٤)] كانت من الليلة ـ فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من قال: بنوء[(٥)] كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب»[(٦)].

وقد حمل العلماء الكفر المذكور في الحديث على أحد نوعيه الاعتقادي أو كفر النعمة بحسب حال القائل.

فمن قال: مطرنا بنوء كذا معتقداً أن للكوكب فاعلية وتأثيراً في إيجاد المطر. . . فهو كافر كفراً مخرجاً من الملة، قال الشافعي: من قال مطرنا بنوء كذا وكذا على ما كان أهل الجاهلية يعنون من إضافة المطر إلى أنه بنوء كذا، فذلك كفر كما قال رسول الله ﷺ لأن النوء وقت، والوقت مخلوق لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً، ومن قال: مطرنا بنوء كذا على معنى مطرنا في وقت كذا فلا يكون كفراً وغيره من الكلام أحب إليَّ منه[(٧)].

فالشافعي يقصد هنا الكفر الاعتقادي[(٨)].

٤ ـ هل يجوز التبرك بفضلات الصالحين وآثارهم:

ففي حديث عروة بن مسعود وهو يصف أصحاب رسول الله ﷺ حوله قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه[(٩)].

---

(١) صحيح البخاري كتاب الطب (٥٧٥٤).
(٢) فتح الباري (١٠/ ٢١٥).
(٣) سنن أبي وداود مع معالم السنن/ كتاب الطب (٣٩١٩).
(٤) إثر سماء: المقصود المطر.
(٥) الأنواء، ثمان وعشرون منزلة ينزل القمر كل ليلة في منزلة.
(٦) البخاري، كتاب الأذان (٨٤٦).
(٧) الأم (١/ ٢٥٢).
(٨) انظر: غزوة الحديبية للحكمي (ص ٣٠٤).
(٩) البخاري، كتاب الشروط (رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢).

وقد علق الشاطبي على هذا الحديث وأحاديث أخرى تماثله فقال: فالظاهر في مثل هذا النوع أن يكون مشروعاً في حق من ثبت ولايته، واتباعه لسنّة رسول الله ﷺ، وأن يتبرك بفضل وضوئه، ويتدلك بنخامته ويستشفي بآثاره كلها، ويرجى نحو مما كان في آثار المتبوع الأصل (١) ﷺ، إلا أنه عارضنا في ذلك أصل مقطوع به في متنه مشكل في تنزيله، وهو أن الصحابة ﷺ بعد موته عليه السلام لم يقع من أحد منهم في شيء من ذلك، بالنسبة إلى من خلفه، إذ لم يترك النبي ﷺ بعد موته أفضل من أبي بكر الصديق رضي الله عنه فهو كان خليفته ولم يفعل به شيء من ذلك، ولا عمر رضي الله عنه، وهو كان أفضل الأمة بعده، ثم كذلك عثمان، ثم علي، ثم سائر الصحابة الذين لا أحد أفضل منهم في الأمة، ثم لم يثبت لواحد منهم من طريق صحيح معروف أن متبركاً تبرك به على أحد تلك الوجوه أو نحوها، بل اقتصروا على الاقتداء بالأفعال والأقوال والسير التي اتبعوا فيها النبي ﷺ، فهو إذاً إجماع منهم على ترك تلك الأشياء (٢).

وقد أخرج ابن وهب في جامعه من حديث يونس بن يزيد عن ابن شهاب قال: حدّثني رجل (٣) من الأنصار أن رسول الله ﷺ كان إذا توضأ أو تنخم ابتدر من حوله من المسلمين وضوءه ونخامته فشربوه ومسحوا به جلودهم، فلما رآهم يصنعون ذلك سألهم «لم تفعلوا هذا؟» قالوا: نلتمس الطهور والبركة بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «من كان منكم يحب أن يحبه الله ورسوله فليصدق الحديث وليؤد الأمانة ولا يؤذ جاره» (٤).

وهذا الحديث أفاد أن الأولى ترك التبرك مع رسول الله ﷺ، ولعل سكوت النبي ﷺ عن ذلك يوم الحديبية ليرى عروة بن مسعود رسول قريش مدى تعلق الصحابة رضوان الله عليهم بالنبي ﷺ وحبهم له، لا سيما وقد قال للنبي ﷺ: وإني لأرى أوشاباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك (٥). هذه بعض المسائل العقائدية.

ثانياً: أحكام فقهية وأصولية:

١ ـ قصة كعب بن عجرة ونزول آية الفدية:

قال كعب بن عجرة رضي الله عنه: وقف عليّ رسول الله ﷺ بالحديبية ورأسي يتهافت (٦) قملاً

---

(١) قال محقق كتاب الاعتصام: يظهر أن الجملة محرفة.

(٢) انظر: غزوة الحديبية للحكمي (ص ٣٠٥).

(٣) هو عبد الرحمن بن أبي قرد رضي الله عنه، الترغيب والترهيب (٣/٥٨٩).

(٤) هذا الحديث قال عنه الألباني: هو حديث ثابت له طرق وشواهد في معجمي الطبراني وغيرها، السلسلة الصحيحة رقم (٢٩٩٨).

(٥) البخاري، كتاب الشروط رقم (٢٧٣٢).

(٦) يتهافت: يتساقط. النهاية (٥/٢٦٦).

فقال: «أيؤذيك هوامك [١]؟» قلت: نعم. قال: «فاحلق رأسك». أو قال: «احلق» قال: فنزلت هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦] فقال النبي ﷺ: «صم ثلاثة أيام، أو تصدّق بفرق بين ستة، أو انسك [٢] بما تيسر [٣]».

وفي رواية مسلم: أن النبي ﷺ مرّ به وهو بالحديبية قبل أن يدخل مكة وهو محرم، وهو يوقد تحت قدر، والقمل يتهافت على وجهه قال: «أيؤذيك هوامك هذا؟» قال: نعم. قال: «فاحلق رأسك وأطعم فرقاً بين ستة مساكين (والفرق ثلاث أصعٍ) أو صم ثلاثة أيام أو انسك نسيكة [٤]»، وآية البقرة المذكورة تبيّن حكم من كان محرماً وبه أذى من رأسه، وهي نزلت في كعب بن عجرة خاصة وأصبح لكل مسلم يمر بنفس الحالة.

٢ ـ مشروعية الصلاة في الرحال:

روى ابن ماجة عن أبي المليح بن أسامة قال: خرجت إلى المسجد في ليلة مطيرة تماماً، فلما رجعت استفتحت فقال أبي [٥]: من هذا؟ قال: أبو المليح. قال: لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية وأصابتنا سماء لم تبل أسافل نعالنا، فنادى منادي رسول الله ﷺ صلوا في رحالكم [٦]، وهذا الحديث صحيح، فسنده متصل برواية الثقات وقد صححه ابن حجر [٧].

٣ ـ انصراف المسلمين من الحديبية ونومهم عن صلاة الصبح:

كانت مدة إقامة المسلمين بالحديبية بضعة عشر يوماً، ويقال: عشرين ليلة على قول الواقدي [٨] وابن سعد [٩].

وعن ابن عائذ: أن رسول الله ﷺ أقام في غزوته هذه شهراً ونصفاً [١٠].

والذي يبدو: أن الواقدي وابن سعد أرادا تحديد مدة إقامته ﷺ في الحديبية، أما ابن عائذ فقصد الزمن الذي استغرقته غيبة النبي ﷺ منذ خروجه من المدينة إلى عودته إليها.

وبعد أن تحلل المسلمون من عمرتهم تلك قفلوا راجعين إلى المدينة، فلما كان من الليل

---

(١) الهوام: جمع هامة وهي ما يدب من الأخشاش والمراد القمل.
(٢) انسك: اذبح. النهاية (٥/ ٤٨).
(٣) صحيح البخاري مع الفتح، كتاب المحصر: (١٨١٥).
(٤) مسلم، كتاب الحج (١٢٠١).
(٥) أسامة بن عمير الهذلي البصري صحابي تفرد ولده عنه.
(٦) سنن ابن ماجة، كتاب إقامة الصلاة (٩٣٦).
(٧) فتح الباري (٢/ ١١٣)، غزوة الحديبية للحكمي (ص ٢٢١).
(٨) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٦١٦).
(٩) انظر: الطبقات الكبرى (٢/ ٩٨).
(١٠) انظر: شرح الزرقاني على المواهب (٢/ ٢١٠).

عدلوا عن الطريق للنوم ووكلوا بلالاً بحراستهم، فنام بلال ولم يوقظهم إلا حر الشمس [١]، كما جاء في حديث عبد الله بن مسعود ﷺ حيث قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ زمن الحديبية فقال رسول الله ﷺ: «من يكلؤنا؟» [٢] فقال بلال: أنا. فناموا حتى طلعت الشمس واستيقظ النبي ﷺ فقال: «افعلوا كما كنتم تفعلون» قال: ففعلنا. قال: «فكذلك فافعلوا لمن نام أو نسي» [٣]. وقد وردت أحاديث أخرى تفيد أن قصة نومهم عن صلاة الصبح وقعت في غير الحديبية وحاول بعض العلماء التوفيق بين هذه النصوص، وذهب الدكتور حافظ الحكمي إلى أن ما ورد من اختلاف بين حديث عبد الله بن مسعود في قصة الحديبية وغيره محمول على تعدد القصة، كما رجح ذلك النووي [٤]، وجنح إليه ابن كثير [٥] وابن حجر [٦]، والزرقاني بل قال السيوطي: لا يجمع إلا بتعدد القصة [٧].

٤ ـ مشروعية الهدنة بين المسلمين وأعدائهم، ومقدار المدة التي تجوز المهادنة عليها:

استدلّ العلماء والأئمة بصلح الحديبية على جواز عقد هدنة بين المسلمين وأهل الحرب من أعدائهم إلى مدة معلومة، سواء أكان ذلك بعوض يأخذونه منهم أم بغير عوض، أما بدون عوض فلأن هدنة المدينة كانت كذلك، وأما بعوض فبقياس الأولى لأنها إذا جازت بدون عوض، فلأن تجوز بعوض أقرب وأوجه.

وأما إذا كانت المصالحة على ما يبذله المسلمون، فهو غير جائز عند جمهور المسلمين، لما فيه من الصغار لهم، ولأنه لم يثبت دليل من الكتاب والسنّة على جواز ذلك، قالوا: إلا إن دعت إليه ضرورة لا محيص عنها، وهو أن يخاف المسلمون الهلاك أو الأسر فيجوز، كما يجوز للأسير فداء نفسه بالمال.

وقد ذهب الشافعي وأحمد رحمهما الله، وكثير من الأئمة إلى أن الصلح لا ينبغي أن يكون إلا إلى مدة معلومة، وأنه لا يجوز أن تزيد المدة على عشر سنوات مهما طالت، لأنها هي المدة التي صالح النبي ﷺ قريشاً عليها عام الحديبية [٨].

---

(١) انظر: غزوة الحديبية (ص ٢٥١).
(٢) يكلؤنا: يحرسنا.
(٣) انظر: سنن أبي داود مع معالم السنن، كتاب الصلاة (٤٤٧).
(٤) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٥/ ١٨١، ١٨٢)؛ غزوة الحديبية، (ص ٢٥٨).
(٥) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢١٣).
(٦) فتح الباري (١/ ٤٤٩)؛ شرح الزرقاني على الموطأ (١/ ٤٧).
(٧) انظر: تنوير الحوالك (١/ ٣٣).
(٨) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي (ص ٢٤٢).

وذهب آخرون إلى جواز الهدنة أكثر من عشر سنين على ما يراه الإمام من المصلحة وهو قول أبي حنيفة [١].

والتحقيق: أن القول الأول هو الراجح لظاهر الحديث، وإن وجدت مصلحة في الزيادة على العشر جدد العقد، كما قال الشافعي [٢].

وقال بعض المتأخرين [٣]: يجوز عقد صلح مؤبد غير مؤقت بمدة معينة واستدل بقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠].

وهذا قول مبني على أن الأصل في علاقة المسلمين بالكفار هي السلم لا الحرب [٤]، وأن الجهاد إنما شرع لمجرد الدفاع عن المسلمين فحسب [٥].

وهذا القول مردود لما يلي:

أ ـ أن صاحب هذا القول قد خرق الاتفاق بعد أن حكاه بنفسه حيث قال: اتفق الفقهاء على أن عقد الصلح مع العدو لا بدّ من أن يكون مقدوراً بمدة معينة، فلا تصح المهادنة مطلقة إلى الأبد من غير تقدير بمدة [٦].

ب ـ الآية التي استدل بها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥] . فقد نقل ذلك ابن جرير [٧] عن عكرمة والحسن وقتادة وابن زيد، وحكاه القرطبي [٨] عن مجاهد. ثم قال: وهو أصح شيء في معنى الآية.

جـ ـ الأصل الذي انبنى عليه هذا القول مردود بآية براءة السابقة وبواقع سيرة الرسول ﷺ، وخلفائه مع أعدائهم.

---

(١) انظر: فتح القدير (٥/٥٤٦)، غزوة الحديبية (ص ٢٩٤).
(٢) انظر: غزوة الحديبية (ص ٢٩٥).
(٣) آثار الحرب في الفقه الإسلامي الدكتور وهبة الزحيلي (ص ٦٨٠).
(٤) انظر: آثارالحرب في الفقه الإسلامي للزحيلي (ص ٦٧٥).
(٥) المصدر السابق، (ص ٦٧٥).
(٦) المصدر السابق، (ص ٦٧٥).
(٧) انظر: تفسير الطبري (٩/٢٤ ـ ٢٦).
(٨) انظر: تفسير القرطبي (٥/٣٠٨).

د ـ أما فكرة أن الجهاد إنما شرع للدفاع عن المسلمين، فهي فكرة دخيلة وقد تصدّى لها سيد قطب رحمه الله [(١)] ففندها، وبيّن أن سبب نشوئها هو الانهزام أمام هجمات المستشرقين، وعدم الفهم لمرحلية الدعوة [(٢)].

٥ ـ المطلق يجري على إطلاقه:

هذه قاعدة أصولية يؤيدها ما رواه ابن هشام عن أبي عبيد أنه قال: إن بعض من كان مع رسول الله ﷺ، قال له لما قدم المدينة: ألم تقل يا رسول الله إنك تدخل مكة آمناً؟ قال: بلى، أفقلت لكم من عامي هذا؟ قالوا: لا، قال: فهو كما قال لي جبريل ـ عليه السلام ـ [(٣)] وفي هذا الأثر، تبشير المؤمنين بفتح مكة، في المستقبل، وإيماء بالوحي الصادق إلى ذلك النصر، ولفت لهم إلى وجوب التسليم لأمره، بإطلاق، كلما ورد مطلقاً، دون تحميله زيادات وقيوداً تصرفه عن إطلاقه [(٤)].

٦ ـ وجوب طاعته ﷺ والانقياد لأمره، وإن خالف ظاهر ذلك القياس أو كرهته النفوس:

جاء في قصة الحديبية أن عمر بن الخطاب وبعض الصحابة رضي الله عنهم كرهوا الصلح مع قريش [(٥)]، لما رأوا في شروطها من الظلم والإجحاف في حقهم، لكنهم ندموا بعد ذلك على صنيعهم، ورأوا أنهم وقعوا في حرج، إذ كيف يكرهون شيئاً رضيه رسول الله ﷺ، وظلت تلك الحادثة درساً لهم فيما استقبلوا من حياتهم، وكانوا يحذرون غيرهم من الوقوع فيما وقعوا فيه من الاعتماد على الرأي [(٦)]، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «أيها الناس اتهموا الرأي على الدين، فلقد رأيتني أرد أمر رسول الله ﷺ برأيٍ اجتهاداً فوالله ما آلو عن الحق وذلك يوم أبي جندل [(٧)].

وكان سهل بن حنيف رضي الله عنه يقول: اتهموا رأيكم، رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله ﷺ لرددته [(٨)].

ولقد بقي عمر بن الخطاب رضي الله عنه برهة من الزمن متخوفاً أن ينزل الله به عقاباً للذي صنع يوم الحديبية.

---

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٤٣٣) وما بعدها.
(٢) انظر: غزوة الحديبية للحكمي (ص ٢٩٦).
(٣) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة (ص ٢٩٧).
(٤) انظر: غزوة الحديبية للحكمي (ص ٣١٣).
(٥) المصدر السابق، (ص ٣١٣).
(٦) المصدر نفسه، (ص ٣١٣).
(٧) المصدر نفسه، (ص ١٧٩).
(٨) المصدر نفسه، (ص ٣١٣).

فكان ﷺ يتحدث عن قصته تلك ويقول: فما زلت أصوم وأتصدق وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذٍ حتى رجوت أن يكون خيراً [١].

قال ابن الديبع الشيباني تعليقاً على هذه الحادثة: قال العلماء: لا يخفى ما في هذه القصة من وجوب طاعته ﷺ والانقياد لأمره، وإن خالف ظاهر ذلك مقتضى القياس أو كرهته النفوس، فيجب على كل مكلف أن يعتقد أن الخير فيما أمر به، وأنه عين الصلاح المتضمن لسعادة الدنيا والآخرة، وأنه جاء على أتم الوجوه وأكملها غير أن أكثر العقول قصرت عن إدراك غايته وعاقبة أمره [٢].

ثالثاً: أنموذج من التربية النبوية:

في قول رسول الله ﷺ: «من يصعد الثنية ثنية المرار، فإنه يحط عنه ما حطّ عن بني إسرائيل» [٣].

يظهر في هذا الحديث جانب عظيم من جوانب التربية النبوية يستحق التأمل والتدبّر، فرسول الله ﷺ يشجع أصحابه على صعود الثنية، ثم يخبرهم أن الذي يجتازها سينال مغفرة من الله تعالى، وحين نتأمل هذا الحديث تبرز لنا معان عظيمة منها:

١ ـ أن رسول الله ﷺ يريد أن يربط قلوب أصحابه باليوم الآخر في كل لحظة من لحظات حياتهم.

٢ ـ أنه يريد لفت أنظارهم إلى أن كل حركة يتحركونها، وكل عمل يقومون به ـ حتى ما يرون أنه من العادات أو من دواعي الغريزة ـ يجب استغلاله للتزود لذلك اليوم، وكان ﷺ يسعى دائماً لترسيخ تلك المعاني في نفوس الصحابة، فنزاه يقول في موطن آخر: «وفي بضع أحدكم صدقة» قالوا: يا رسول الله! أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر» [٤].

ويقول في موطن ثالث: «وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة، حتى اللقمة التي ترفعها إلى فيّ امرأتك» [٥].

إن تلك المعاني ـ إذا تمكنت في قلب المسلم ـ لكفيلة بأن تصبغ حياته كلها بصبغة العبودية للّه وحده، وإذا شملت العبادة كل نواحي حياة المسلم، فإن لهذا الشمول آثاراً مباركة

---

(١) انظر: حدائق الأنوار ومطالع الأسوار (٢/ ٦٢٢).

(٢) انظر: مرويات غزوة الحديبية (ص ٣١٥).

(٣) مسلم، كتاب صفات المنافقين (رقم ٢٧٨٠).

(٤) مسلم، كتاب الزكاة (٥٣).

(٥) البخاري، مع الفتح، كتاب الوصايا (٢٧٤٢).

سوف يشعر بها الفرد في نفسه ثم يلمسها فيمن حوله (١).

ومن أبرز تلك الآثار أمران:

أ - أن يصبغ حياة المسلم وأعماله بالصبغة الربانية، ويجعله مشدوداً إلى الله في كل ما يؤديه، فهو يقوم به بنية العابد الخاشع، وروح القانت المخبت، وهذا يدفعه إلى الاستكثار من كل عمل نافع وكل إنتاج صالح، وكل ما ييسر له ولأبناء نوعه الانتفاع بالحياة، على أمثل وجوهها، فإن ذلك يزيد رصيده من الحسنات والقربات عند الله تعالى، كما يدعوه هذا المعنى إلى إحسان عمله الدنيوي وتجويده وإتقانه، ما دام يقدمه إلى ربه سبحانه ابتغاء رضوانه وحسن مثوبته.

ب - أنه يمنح المسلم وحدة الوجهة ووحدة الغاية في حياته كلها، فهو يرضى رباً واحداً في كل ما يأتي ويدع، ويتجه إلى هذا الرب بسعيه كله الديني والدنيوي، لا انقسام ولا صراع، ولا ازدواج في شخصيته ولا في حياته (٢).

ولقد عاش الصحابة الكرام تلك المعاني وحولوها إلى حقائق ملموسة في حياتهم كلها، وما حفظ الله سيرتهم إلا لكي نقتدي بهم في حياتنا، وتكون حجة على كل من جاء بعدهم (٣).

(١) انظر: مرويات غزوة الحديبية للحكمي (ص ٣١٥).
(٢) انظر: العبادة في الإسلام للقرضاوي (ص ٦٦).
(٣) انظر: مرويات غزوة الحديبية للحكمي (ص ٣١٦) لقد استفدت في فصل غزوة الحديبية استفادة كبيرة من كتاب مرويات غزوة الحديبية، للحكمي، وصلح الحديبية، باشميل، وغزوة الحديبية لأبي فارس. وكانت هذه الكتب هي العمدة في هذا الفصل كما استفدت من غيرها كمراجع ومصادر.

الفصل الرابع عشر

أهم الأحداث ما بين الحديبية وفتح مكة

المبحث الأول

غزوة خيبر

أولاً: تاريخها وأسبابها:

ذكر ابن إسحاق [١] أنها كانت في المحرم من السنة السابعة للهجرة، وذكر الواقدي [٢] أنها كانت في صفر أو ربيع الأول من السنة السابعة للهجرة، بعد العودة من غزوة الحديبية، وذهب ابن سعد [٣] إلى أنها في جمادى الأولى سنة سبع، وقال الإمامان الزهري ومالك: إنها في محرم من السنة السادسة [٤]، وقد رجّح ابن حجر [٥] قول ابن إسحاق على قول الواقدي [٦].

لم يُظهر يهود خيبر العداء للمسلمين حتى نزل فيهم زعماء بني النضير، الذي حزّ في نفوسهم إجلاؤهم عن ديارهم، ولم يكن الإجلاء كافياً لكسر شوكتهم، فقد غادروا المدينة ومعهم النساء والأبناء والأموال، وخلفهم القيان يضربن الدفوف والمزامير بزهاء وفخر ما رئي مثله في حي من الناس في زمانهم [٧].

وكان من أبرز زعماء بني النضير الذين نزلوا في خيبر سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب فلما نزلوا دان لهم أهلها [٨].

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٤٥٥) ـ معلقاً.

(٢) انظر: المغازي (٢/ ٦٣٤).

(٣) انظر: الطبقات لابن سعد (٢/ ١٠٦).

(٤) انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (١/ ٣٣).

(٥) انظر: الفتح (١٦/ ٤١)، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٥٠٠).

(٦) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٥٠٠).

(٧) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣١٩).

(٨) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣١٩).

وكان تزعم هؤلاء يهود خيبر كافياً في جرها إلى الصراع والتصدي والانتقام من المسلمين، فقد كان يدفعهم حقد دفين، ورغبة قوية في العودة إلى ديارهم داخل المدينة، وكان أول تحرك قوي ما حدث في غزوة الأحزاب حيث كان لخيبر، وعلى رأسها زعماء بني النضير، دور كبير في حشد قريش والأعراب ضد المسلمين، وتسخير أموالهم في ذلك، ثم سعيهم في إقناع بني قريظة بالغدر والتعاون مع الأحزاب [١]، بل إنهم أنفقوا أموالهم واستغلوا علاقاتهم مع يهود بني قريظة من أجل نصرة الأحزاب وطعن المسلمين في ظهورهم [٢]، وهكذا أصبحت خيبر مصدر خطر كبير على المسلمين ودولتهم النامية.

تفرغ المسلمون بعد صلح الحديبية لتصفية خطر يهود خيبر الذي أصبح يهدد أمن المسلمين، ولقد تضمنت سورة الفتح التي نزلت بعد الحديبية وعداً إلهياً بفتح خيبر وحيازة أموالها غنيمة [٣] قال تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢٠ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الفتح: ٢٠، ٢١].

ثانياً: مسير الجيش الإسلامي إلى خيبر:

سار الجيش إلى خيبر بروح إيمانية عالية، على الرغم من علمهم بمنعة حصون خيبر، وشدة بأس رجالها وعتادها الحربي، وكانوا يكبرون ويهللون بأصوات مرتفعة، فطلب منهم النبي ﷺ أن يرفقوا بأنفسهم قائلاً: «أيها الناس اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ولكن تدعون سميعاً بصيراً» [٤].

وكان سيره ﷺ بالجنود ليلاً، فقد قال سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلاً [٥] وكان عامر بن الأكوع يحدو بالقوم ويقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا
فاغفر فداء لك ما أبقينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا
وألقين سكينة علينا ... إنا إذا صيح بنا أبينا
وبالصياح عولوا علينا [٦]

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/٣١٩).
(٢) انظر: نضرة النعيم (١/٣٤٩).
(٣) المصدر السابق، (١/٣٤٩).
(٤) البخاري، كتاب الدعوات رقم (٦٣٨٤).
(٥) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤١٩٦).
(٦) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤١٩٦).

فقال رسول الله ﷺ: «من هذا السائق؟» قالوا: عامر بن الأكوع.

قال: «يرحمه الله».

قال رجل (وهو عمر بن الخطاب) [١]من القوم: وجبت يا نبي الله، لولا أمتعتنا به [٢].

وعندما وصل الجيش الإسلامي بالصهباء ـ وهي من أدنى خيبر ـ صلّى العصر، ثم دعا بالأزواد، فلم يؤت إلا السويق، فأمر به فثرى، فأكل وأكل معه الصحابة، ثم قام إلى المغرب فمضمض ثم صلّى بالصحابة ولم يتوضأ [٣].

وكان ﷺ قد بعث عباد بن بشر رضي الله عنه في سرية استطلاعية، يتلقط أخبار العدو،ويستطلع إن كان هناك كمائن، فلقي في الطريق عيناً لليهود من أشجع، فقال: من أنت؟ قال: باغ ابتغى أبعرة ضلت لي، أنا على إثرها. قال عباد: ألك علم بخيبر؟ قال: عهدي بها حديث، فيم تسألني عنه؟ قال: عن اليهود؟ قال: نعم، كان كنانة بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس ساروا في حلفائهم من غطفان، فاستنفروهم وجعلوا لهم ثمر خيبر سنة، فجاءوا معدين مؤيدين بالكراع والسلاح يقودهم عتبة بن بدر، ودخلوا معهم في حصونهم، وفيهم عشرة آلاف مقاتل، وهم أهل الحصون التي لا ترام، وسلاح وطعام كثير لو حصروا لسنين لكفاهم، وماء واتٍ يشربون في حصونهم، ما أرى لأحد بهم طاقة، فرفع عباد بن بشر السوط فضربه ضربات، وقال: ما أنت إلا عين لهم، أصدقني وإلا ضربت عنقك! فقال الأعرابي: القوم مرعوبون منكم خائفون، وجلون لما صنعتم بمن كان بيثرب من اليهود... وقال لي كنانة: اذهب معترضاً للطريق فإنهم لا يستنكرون مكانك، واحزرهم لنا، وادن منهم كالسائل لهم ما تقوى به، ثم ألق إليهم كثرة عددنا ومادتنا، فإنهم لن يدعوا سؤلك، وعجل الرجعة إلينا بخبرهم [٤].

وعندما وصل جيش المسلمين إلى مشارف خيبر، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قفوا»، ثم قال: «اللهم رب السموات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرّها وشر أهلها، وشر ما فيها، أقدموا باسم الله»، وكان يقولها لكل قرية دخلها [٥].

ولما أدرك رسول الله ﷺ الليل أمر الجيش بالنوم على مشارف خيبر، ثم استيقظوا مبكرين، وضربوا خيامهم ومعسكرهم بوادي الرجيع، وهو وادٍ يقع بين خيبر وغطفان، حتى يقطعوا المدد عن يهود خيبر من قبيلة عطفان [٦].

---

(١) انظر: فتح الباري (٧/ ٤٦٦).

(٢) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤١٩٦).

(٣) انظر: الصراع مع اليهود (٢/ ٣٠).

(٤) انظر: المغازي للواقدي (٢/ ٦٤٠ ـ ٦٤١).

(٥) انظر: المستدرك (٢/ ١٠٠) قال الحاكم: حديث صحيح الإسناد وأقره الذهبي.

(٦) انظر: الصراع مع اليهود (٢/ ٤٥).

ولما أصبح الصبح خرجت اليهود بمساحيهم (١) ومكاتلهم (٢)، فلما رأوا جيش المسلمين قالوا: محمد والله، محمد والخميس، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، خربت خيبر، أنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين» (٣).

ثالثاً: وصف تساقط حصون خيبر:

هرب اليهود إلى حصونهم وحاصرهم المسلمون، وأخذوا في فتح حصونهم واحداً تلو الآخر، وكان أول ما سقط من حصونهم ناعم، والصعب بمنطقة النطاة، وأبي النزار بمنطقة الشق، وكانت هاتان المنطقتان في الشمال الشرقي من خيبر، ثم حصن القموص المنيع في منطقة الكتيبة، وهو حصن ابن أبي الحقيق، ثم أسقطوا حصني منطقة الوطيح والسلالم (٤).

وقد واجه المسلمين مقاومة شديدة وصعوبة كبيرة عند فتح بعض هذه الحصون، منها حصن ناعم الذي استشهد تحته محمود بن مسلمة الأنصاري، حيث ألقى عليه مرحب رحى من أعلى الحصن (٥)، والذي استغرق فتحه عشرة أيام (٦)، فقد حمل راية المسلمين عند حصاره أبو بكر الصديق، ولم يفتح الله عليه، وعندما جهد الناس، قال رسول الله ﷺ إنه: «سيدفع اللواء غداً إلى رجل يحبه الله ورسوله، ويحب الله ورسوله، لا يرجع حتى تفتح له». فطابت نفوس المسلمين، فلما صلّى فجر اليوم الثالث دعا علي بن أبي طالب رضي الله عنه ودفع إليه اللواء فحمله فتم فتح الحصن على يديه (٧)، وكان علي يشتكي من رمد في عينيه - عندما دعاه الرسول ﷺ - فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له، فبرأ (٨)، ولقد أوصى الرسول ﷺ علياً بأن يدعو اليهود إلى الإسلام قبل أن يداهمهم، وقال له: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم» (٩)، وعندما سأله علي: يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟ قال: «قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» (١٠).

وعندما حاصرالمسلمون هذا الحصن برز لهم سيده وبطلهم مرحب، وكان سبباً في

---

(١) المساحي: جمع ومفردها مسحاة، والمسحاة المجرفة من الحديد.

(٢) المكاتل: جمع مكتل، وهو المقطف الكبير.

(٣) البخاري، كتاب الأذان رقم (٦١٠).

(٤) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص ٥٠١).

(٥) المصدر السابق، (ص ٥٠١).

(٦) انظر: الواقدي (٢/ ٦٥٧).

(٧) انظر: المستدرك (٣/ ٣٧)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٨) مسلم (٤/ ١٨٧٢) رقم (٢٤٠٦).

(٩) مسلم (٢/ ١٨٧١) رقم (٢٤٠٦).

(١٠) مسلم (٢/ ١٨٧٢) رقم ٢٤٠٥).

استشهاد عامر بن الأكوع، ثم بارزه علي فقتله (١) وقيل قتله محمد بن مسلمة، مما أثر سلبياً في معنويات اليهود ومن ثم هزيمتهم (٢).

ووردت مجموعة من روايات تخبر بأن علياً رضي الله عنه تترس بباب عظيم، كان عند حصن ناعم، بعد أن أسقط يهودي ترسه من يده، وكلها روايات ضعيفة (٣)، وعدم الاعتماد عليها لا ينفي قوة علي وشجاعته، فيكفيه ما ثبت في ذلك وهو كثير (٤).

توجه المسلمون إلى حصن الصعب بن معاذ بعد فتح حصن ناعم، وأبلى حامل رايتهم الحباب بن المنذر بلاء حسناً حتى افتتحوه بعد ثلاثة أيام، ووجدوا فيه الكثير من الطعام والمتاع، يوم كانوا في ضائقة من قلة الطعام، ثم توجهوا بعده إلى حصن قلعة الزبير ـ الذي اجتمع فيه الفارُّون من حصن ناعم والصعب وبقية ما فتح من حصن يهود ـ فحاصروه وقطعوا عنه مجرى الماء الذي يغذيه، فاضطروهم إلى النزول للقتال، فهزموهم بعد ثلاثة أيام، وبذلك تمت السيطرة على آخر حصون منطقة النطاة التي كان فيها أشد اليهود، ثم توجهوا إلى حصون منطقة الشق، وبدأوا بحصن أُبي، فاقتحموه، وأفلت بعض مقاتلته إلى حصن نزار، وتوجه إليهم المسلمون فحاصروهم ثم افتتحوا الحصن، وفرّ بقية أهل الشق من حصونهم وتجمعوا في حصن القَمُوص المنيع، وحصن الوطيح، وحصن السُّلاَلم، فحاصرهم المسلمون لمدة أربعة عشر يوماً حتى طلبوا الصلح (٥).

وهكذا فتحت خيبر عنوة (٦)، استناداً إلى النظر في مجريات الأحداث التي سقناها، وما روى البخاري(٧)، ومسلم (٨)، وأبو داود (٩) من أن رسول الله ﷺ غزا خيبر وافتتحها عنوة (١٠).

وبذلك سقطت سائر خيبر بيد المسلمين، وسارع أهل فدك في شمال خيبر إلى طلب الصلح، وأن يسيرهم ويحقن دماءهم، وبذلوا له الأموال فوافق على طلبهم (١١)، فكانت فدك

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (٥٠٢).
(٢) المصدر السابق (ص ٥٠٢).
(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٢٤).
(٤) المصدر السابق، (١/ ٣٤).
(٥) انظر: الواقدي (٢/ ٦٥٨ ـ ٦٧١).
(٦) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٥٠٤).
(٧) المصدر السابق، (ص ٥٠٤).
(٨) مسلم (٣/ ١٤٢٧) رقم (١٣٦٥).
(٩) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٥٠٤).
(١٠) المصدر السابق، (ص ٥٠٤).
(١١) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٦٩٩).

خالصة لرسول الله ﷺ لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب، وحاصر المسلمون وادي القرى، وهي مجموعة قرى بين خيبر وتيماء ليالي (١)، ثم استسلمت، فغنم المسلمون أموالاً كثيرة وتركوا الأرض والنخل بيد اليهود وعاملهم عليها مثل خيبر وصالحت تيماء على مثل صلح خيبر ووادي القرى (٢).

وبذلك تساقطت سائر الحصون اليهودية أمام قوات المسلمين، وقد بلغ قتلى اليهود في معارك خيبر ثلاثة وتسعين رجلاً (٣) وسبيت النساء والذراري، منهن صفية بنت حيي بن أحطب فأعتقها رسول الله ﷺ وتزوجها (٤).

واستشهد من المسلمين عشرون رجلاً فيما ذكر ابن إسحاق (٥)، وخمسة عشر فيما ذكر الواقدي (٦).

رابعاً: الأعرابي الشهيد، والراعي الأسود، وبطل إلى النار:

١ ـ الأعرابي الشهيد:

جاء رجل من الأعراب إلى النبي ﷺ فآمن به، واتبعه فقال: أهاجر معك؟ فأوصى به بعض أصحابه، فلما كانت غزوة خيبر، غنم رسول الله ﷺ شيئاً فقسمه، وقسم للأعرابي، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهورهم، فلما جاء دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك رسول الله ﷺ فأخذه فجاء به للنبي ﷺ فقال: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «قسم قسمته لك»، قال: ما على هذا اتبعك، ولكن اتبعتك على أن أُرمى هاهنا، وأشار إلى حلقه، بسهم، فأموت فأدخل الجنة، فقال: «إن تصدق الله يَصْدُقْكَ»، ثم نهض إلى قتال العدو، فأتى به إلى النبي ﷺ، وهو مقتول، فقال: «أهو هو»؟ قالوا: نعم.

قال: «صدق الله فصدقه».

فكفّنه النبي ﷺ في جبّته، ثم قدمه، فصلّى عليه، وكان من دعائه له: «اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك، قتل شهيداً، وأنا عليه شهيد» (٧).

٢ ـ الراعي الأسود:

وجاء عبد أسود حبشي من أهل خيبر، كان في غنم لسيده، فلما رأى أهل خيبر قد أخذوا

---

(١) انظر: تاريخ خليفة ٨٥ نقلاً عن ابن إسحاق.

(٢) زاد المعاد (٣/ ٣٥٤، ٣٥٥).

(٣) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٥٠٤).

(٤) مسلم، كتاب النكاح (٢/ ١٠٤٥).

(٥) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٢٧).

(٦) انظر: المغازي (٢/ ٧٠٠).

(٧) أخرجه النسائي (٤/ ٦٠)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٢٩١)، والحاكم (٣/ ٥٩٥)، والبيهقي (٤/ ١٥، ١٦)، وإسناده صحيح نقلاً عن زاد المعاد (٣/ ٣٢٤).

السلاح، سألهم: ما تريدون؟ قالوا: نقاتل هذا الذي يزعم أنه نبي، فوقع في نفسه ذكر النبي، فأقبل بغنمه إلى رسول الله ﷺ فقال: ماذا تقول؟ وما تدعو إليه؟ قال: «أدعو إلى الإسلام، وأن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وألا تعبد إلا الله»، قال العبد: فمالي إن شهدت وآمنت بالله ﷻ، قال: «لك الجنة إن مت على ذلك».

فأسلم ثم قال: يا نبي الله، إن هذه الغنم عندي أمانة، فقال رسول الله ﷺ: «أخرجها من عندك وارمها بـ (الحصباء) فإن الله سيؤدي عنك أمانتك»، ففعل، فرجعت الغنم إلى سيدها، فعلم اليهودي أن غلامه قد أسلم، فقام رسول الله ﷺ في الناس، فوعظهم وحضّهم على الجهاد، فلما التقى المسلمون واليهود قتل ـ فيمن قتل ـ العبد الأسود، واحتمله المسلمون إلى معسكرهم، فأدخل في الفسطاط، فزعموا أن رسول الله ﷺ اطلع في الفسطاط، ثم أقبل على أصحابه، وقال: «لقد أكرم الله هذا العبد، وساقه إلى خيبر، ولقد رأيت عند رأسه اثنتين من الحور العين، ولم يصلّ لله سجدة قط» (١).

٣ ـ بطل لكنه إلى النار:

كان في جيش المسلمين بخيبر رجل لا يدع للمشركين شاذة ولا فاذة (٢) إلا أتبعها يضربها بسيفه، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه من أهل النار»، فقالوا: أينا من أهل الجنة إن كان من أهل النار؟ فقال رجل: والله لا يموت على هذه الحال أبداً، فاتبعه حتى جرح، فاشتدّت جراحته واستعجل الموت، فوضع سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل عليه فقتل نفسه، فجاء رجل إلى رسول الله فقال: أشهد أنك رسول الله، قال: «وما ذاك؟» فأخبره، فقال النبي ﷺ: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وإنه لمن أهل النار، ويعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة» (٣).

خامساً: قدوم جعفر بن أبي طالب ومن معه من الحبشة:

قدم جعفر بن أبي طالب وصحبه من مهاجري الحبشة على رسول الله يوم فتح خيبر، فقبّل رسول الله ﷺ بين عينيه والتزمه، وقال: «ما أدري بأيهما أنا أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر»، وكان ﷺ قد أرسل في طلبهم من النجاشي، عمرو بن أمية الضمري، فحملهم في سفينتين ووافق قدومهم عليه يوم فتح خيبر، وقد رافق جعفر في قدومه أبو موسى الأشعري ومن كان بصحبته من الأشعريين (٤)، فعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: بلغنا مخرج النبي ﷺ ونحن

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٢٣، ٣٢٤)، السيرة الحلبية (٣/ ٣٩).

(٢) الشاذ: الذي يفارق الجماعة، الفاذ: الذي لم يختلط بالجماعة.

(٣) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر رقم (٤٢٠٧).

(٤) انظر: معين السيرة (ص ٣٥٣).

باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لي أنا أصغرهم أحدهما أبو بردة، والآخر أبو رهم، إما قال: في بضع، وإما قال في ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي، فركبنا السفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب، فأقمنا جميعاً، فوافقنا النبي ﷺ حين افتتح خيبر [١].

لقد مكث جعفر وإخوانه في الحبشة بضعة عشر عاماً، نزل خلالها قرآن كثير، ودارت معارك شتى مع الكفار، وتقلّب المسلمون قبل الهجرة العامة، وبعدها في أطوار متباينة، حتى ظن البعض أن مهاجري الحبشة ـ وقد فاتهم هذا كله ـ أقل قدراً من غيرهم [٢].

فعن أبي موسى:....... كان أناس يقولون لنا سبقناهم بالهجرة، ودخلت أسماء بنت عميس على حفصة زوج النبي زائرة ـ وكانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر ـ فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها، فقال حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت: أسماء ابنة عميس، قال عمر: الحبشية هذه؟ البحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم! قال عمر: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله منكم! فغضبت وقالت: كلا والله، كنتم مع رسول الله يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم، وكنا في أرض البعداء البغضاء بالحبشة! وذلك في الله وفي رسول الله، وأيم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله وأسأله، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه. فلما جاءت النبي ﷺ قالت: كذا وكذا، قال: «ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم ـ أهل السفينة ـ هجرتان» [٣].

فأخذت أسماء هذا الوسام ووزعته على جميع أعضاء الوفد حيث كانوا [٤]، كما قالت: يأتوني أرسالاً يسألوني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في نفوسهم مما قال لهم النبي ﷺ [٥].

وقد أشركهم النبي ﷺ في مغانم خيبر بعد أن استأذن من الصحابة ﷺ الذين شاركوا في فتحها [٦].

سادساً: تقسيم الغنائم:

١ ـ كانت غزوة خيبر من أكثر غزوات الرسول ﷺ غنيمة، من حيث الأراضي والنخيل والثياب والأطعمة وغير ذلك، ومن خلال وصف كتب السيرة نلاحظ أن الغنائم تتكوّن من:

---

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر رقم (٤٢٣٠).
(٢) انظر: فقه السيرة للغزالي (ص ٣٥٠).
(٣) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر رقم (٤٢٣١).
(٤) انظر: فقه السيرة للغضبان (ص ٥٣٥).
(٥) مسلم، فضل الصحابة، رقم (٢٥٠٢، ٢٥٠٣).
(٦) انظر: الصراع مع اليهود لأبي فارس (٣/٩٦).

أ ـ الطعام: فقد غنم المسلمون كثيراً من الأطعمة من حصون خيبر، فقد وجدوا فيها الشحم والزيت والعسل والسمن، وغير ذلك، فأباح رسول الله ﷺ الأكل من تلك الأطعمة، ولم يخمسها (١).

ب ـ الثياب والأثاث والإبل والبقر والغنم، لقد أخذ رسول الله ﷺ خمساً ووضعه فيما وضعه الله فيه، ووزع أربعة أخماسها على المحاربين.

ج ـ السبي: لقد سبى رسول الله ﷺ كثيراً من نساء اليهود، ووزّع السبي على المسلمين، فهو غنيمة ويأخذ حكم الغنيمة.

د ـ أما الأراضي والنخيل فقد قسّمها النبي إلى ستة وثلاثين سهماً، جمع لكل سهم مائة سهم، فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم، فكان لرسول الله ﷺ وللمسلمين النصف من ذلك، وهو ألف وثمانمائة سهم، ووزع النصف الآخر، وهو ألف وثمانمائة سهم لنوائبه وما ينزل به من أمور المسلمين (٢).

هـ ـ وكان من بين ما غنم المسلمون من يهود خيبر عدة صحف من التوراة، فطلب اليهود ردّها، فأمر ﷺ بتسليمها إليهم، ولم يصنع ﷺ ما صنع الرومان حينما فتحوا أورشليم وأحرقوا الكتب المقدسة، وداسوها بأرجلهم، ولا ما صنع النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس حين أحرقوا كذلك صحف التوراة (٣).

وقد أبقى رسول الله ﷺ يهود خيبر فيها على أن يعملوا في زراعتها، وينفقوا عليها من أموالهم ولهم نصف ثمارها، على أن للمسلمين حق إخراجهم منها متى أرادوا، وكان اليهود قد بادروا بعرض ذلك على النبي ﷺ وقالوا: نحن أعلم بالأرض منكم فوافق على ذلك بعد أن همّ بإخراجهم منها (٤).

وقد اشترط عليهم أن يجليهم عنها متى شاء، وهنا تظهر براعة سياسيّة جديدة في عقد الشروط، فإن بقاء اليهود في الأرض يفلحونها يوفر للمسلمين الجنود المجاهدين في سبيل الله، ومن جهة أخرى فإن اليهود هم أصحاب الأرض، وهم أدرى بفلاحتها من غيرهم، فبقاؤهم فيها يعطي ثمرة أكثر وأجود، وبخاصة أنهم لن يأخذوا أجراً ولكنهم سيأخذون نصف ما يخرج من الأرض قلّ أو كثر.

وقد ضمن الرسول ـ بشرط إجلائهم متى شاء المسلمون ـ إخضاعهم وكسر شوكتهم،

---

(١) انظر: الصراع مع اليهود لأبي فارس (٣/ ١٤٠).
(٢) المصدر السابق، (٣/١٤١، ١٤٢).
(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤١٩).
(٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٢٨).

لأنهم يعلمون إذا فعلوا شيئاً يضر بالمسلمين سيطردونهم منها، ولا يعودون إليها أبداً.

وقد حدث ذلك فعلاً في عهد سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ، حيث اعتدوا على عبد الله بن عمر، ففدعوا يديه من المرفقين، وكانوا قبل ذلك في عهد الرسول ﷺ اعتدوا على عبد الله بن سهل فقتلوه، فلما تحقق عمر من غدرهم وخيانتهم أمر بإجلائهم [١].

وحاول يهود خيبر أن يخفوا الفضة والذهب، وغيبوا مسكاً [٢] لحيي بن أخطب، وكان قد قتل مع بني قريظة، وكان احتمله معه يوم بني النضير حين أجليت النضير، فسأل رسول الله ﷺ سعية عم حيي بن أخطب: «أين مسك حيي بن أخطب؟»

قال: أذهبته الحرب والنفقات [٣].

فقال رسول الله ﷺ: «العهد قريب والمال أكثر من ذلك»، فدفعه رسول الله ﷺ إلى الزبير بن العوام فمسه بعذاب، وقد كان حُيِيُّ قبل ذلك دخل خربة، فقال عمه: قد رأيت حُيِيًّا يطوف في خربة هاهنا، فذهبوا فطافوا فوجدوا المسك في الخربة [٤]، وبعد الاتفاق الذي تم بين رسول الله ﷺ ويهود خيبر على إصلاح الأرض جعل رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة، يأتيهم كل عام فيخرصها عليهم، ثم يضمّنهم الشرط، فشكوا إلى رسول الله ﷺ شدة خرصه [٥]، وأرادوا أن يُرْشُوه فقال: يا أعداء الله تطعموني السُّحت؟ والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إليَّ، ولأنتم أبغض الناس إليَّ من عدتكم من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه على أن لا أعدل عليكم، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض [٦].

لقد أصبحت خيبر ملكاً للمسلمين وصارت مورداً مهماً لهم، قال ابن عمر ﷺ: ما شبعنا حتى فتحنا خيبر [٧]، وقد تحسن الوضع الاقتصادي بعد خيبر، ورد المهاجرون المنائح التي أعطاهم إياها الأنصار [٨] من النخل.

سابعاً: زواج رسول الله من صفية بنت حيي بن أخطب:

لما فتح المسلمون القموص ـ حصن بني أبي الحقيق ـ كانت صفية في السبي، فأعطاها

(١) انظر: تأملات في سيرة الرسول، لمحمد سيد الوكيل (ص ٢٢٨، ٢٢٩).
(٢) المسك: الجلد عامة أو جلد السلخة خاصة (السلخة ولد الشاة).
(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/٣٢٦).
(٤) تاريخ الإسلام للذهبي؛ المغازي (ص ٤٢٤).
(٥) الخرص: الحَزْرَ والحدس والتخمين، وخرَّص العدد: قدره تقديراً بظن لا إحاطة.
(٦) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي؛ المغازي (ص ٤٢٤).
(٧) البخاري، كتاب المغازي، غزوة خيبر رقم (٤٢٤٣).
(٨) انظر: معين السيرة (ص ٣٥٢).

دحية الكلبي، فجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أعطيت دحية صفية بنت حيي سيدة قومها، وهي ما تصلح إلا لك، فاستحسن النبي ﷺ ما أشار به الرجل، وقال لدحية: «خذ جارية من السبي غيرها» (١)، ثم أخذها رسول الله ﷺ وأعتقها وجعل عتقها صداقها (٢)، ثم تزوجها بعد أن طهرت من حيضتها (٣) وبعد أن أسلمت.

ولم يخرج النبي ﷺ من خيبر، حتى طهرت صفية من حيضها، فحملها وراءه، فلما صار إلى منزل على ستة أميال من خيبر مال يريد أن يعرّس بها فأبت عليه، فوجد في نفسه، فلما كان بالصهباء نزل بها هناك فمشطتها أم سليم، وعطرتها، وزفتها إلى النبي ﷺ وبنى بها، فسألها: «ما حملك على الامتناع من النزول أولاً» فقالت: خشيت عليك من قرب اليهود، فعظمت في نفسه، ومكث رسول الله بالصهباء ثلاثة أيام، وأولم عليها ودعا المسلمين، وما كان فيها من لحم، وإنما التمر والأقط والسمن، فقال المسلمون: إحدى أمهات المؤمنين، أو ما ملكت يمينه، فلما ارتحل وطأ له خلفه ومدّ عليها الحجاب، فأيقنوا إنها إحدى أمهات المؤمنين (٤).

وقد كانت أم المؤمنين صفية بنت حيي قد رأت رؤية، فقد روى البيهقي - رحمه الله - بإسناد صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما في حديث طويل قال: ورأى رسول الله ﷺ بعين صفية خضرة، فقال: يا صفية ما هذه الخضرة؟ فقالت: كانت رأسي في حجر ابن حقيق، وأنا نائمة، فرأيت كأن قمراً وقع في حجري، فأخبرته بذلك فلطمني، وقال: تمنين ملك يثرب (٥).

وهكذا صدق الله رؤيا صفية رضي الله عنها، وأكرمها بالزواج من رسوله ﷺ، وأعتقها من النار، وجعلها أماً للمؤمنين، وزوجاً في الجنة لخاتم الأنبياء والمرسلين (٦). وقد أكرمها رسول الله ﷺ غاية الإكرام، وكان يجلس عند بعيره فيضع ركبته لتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب، وقد بلغ من أدبها أنها كانت تأبى أن تضع رجلها على ركبته، فكانت تضع ركبتها على ركبته وتركب (٧).

وهذه صفية رضي الله عنها تحدّثنا عن خلق رسول الله ﷺ فتقول: ما رأيت أحداً قط أحسن خلقاً من رسول الله ﷺ، لقد رأيته ركب بي في خيبر، وأنا على عجز ناقته ليلاً، فجعلت أنعس،

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٣٨٣).
(٢) المصدر السابق، (٢/ ٣٨٣).
(٣) انظر: الصراع مع اليهود (٣/ ١٠١).
(٤) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٣٨٤).
(٥) انظر: السنن الكبرى (٩/ ١٣٨) نقلاً عن الصراع مع اليهود (٣/ ١٠٣).
(٦) انظر: الصراع مع اليهود (٣/ ١٢٢).
(٧) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٣٨٤).

فتضرب رأسي مؤخرة الرحل، فيمسني بيده، ويقول: «يا هذه مهلاً [(١)]»، وعن صفية رضي الله عنها أنها بلغها عن عائشة وحفصة أنهما قالتا: نحن أكرم على رسول الله ﷺ من صفية، نحن أزواجه وبنات عمه، فدخل عليها ﷺ فأخبرته، فقال: «ألا قلت وكيف تكونان خيراً مني، وزوجي محمد، وأبي هارون، وعمي موسى» [(٢)].

لقد تأثرت صفية بأخلاق رسول الله ﷺ، وأصبح ﷺ أحب إليها من أبيها وزوجها والناس أجمعين، بل أصبحت أحب إليها من نفسها، تفديه بكل ما تملك حتى نفسها، وإذا ألم به مرض تمنت أن يكون فيها، وأن يكون رسول الله ﷺ سليماً معافى، فقد أخرج ابن سعد ـ رحمه الله ـ بإسناد حسن عن زيد بن أسلم رضي الله عنه قال: اجتمع نساؤه ﷺ في مرضه الذي توفى فيه، فقالت صفية رضي الله عنها: إني والله يا نبي الله لوددت أن الذي بك بي، فغمز بها أزواجه، فأبصرهن رسول الله ﷺ فقال: «مضمضن»، فقلن: من أي شيء؟ فقال: «من تغامزكن بها، والله إنها لصادقة» [(٣)]. ومما له صلة بزواج رسول الله ﷺ بصفية بنت حيي، حراسة أبي أيوب الأنصاري لرسول الله يوم أن دخل بصفية، فعن ابن إسحاق أنه قال: ولما أعرس رسول الله ﷺ بصفية بخيبر، أو ببعض الطريق... فبات بها رسول الله في قبة له، وبات أبو أيوب خالد بن زيد، أخو بني النجار متوشحاً سيفه، يحرس رسول الله ﷺ ويطيف بالقبة، حتى أصبح رسول الله ﷺ فلما رأى مكانه، قال: «مالك يا أبا أيوب؟» قال: يا رسول الله، خفت عليك من هذه المرأة، وكانت امرأة قد قتلت أباها وزوجها وقومها، وكانت حديثة عهد بكفر، فخفتها عليك [(٤)]، فسُرَّ رسول الله ﷺ بعمله الذي ينبىء على غاية الحب، والإيمان، وقال: «اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحرسني» [(٥)] وكان زواج رسول الله ﷺ بصفية فيه حكمة عظيمة فهو لم يرد بزواجه منها قضاء شهوة، أو إشباعاً للغريزة ـ كما يزعم الأفاكون ـ وإنما أراد إعزازها وتكريمها، وصيانتها من أن تفترش لرجل لا يعرف لها شرفها ونسبها في قومها، وهذا إلى ما فيه من العزاء لها، فقد قُتل أبوها من قبل وزوجها وكثير من قومها، ولم يكن هناك أجمل مما صنعه الرسول ﷺ معها، كما أن فيه رباط المصاهرة بين النبي واليهود، عسى أن يكون هذا ما يخفف من عدائهم للإسلام والانضواء تحت لوائه، والحد من كرهم وسعيهم بالفساد [(٦)]. وكانت أم المؤمنين صفية عاقلة وحليمة وصادقة، يروى أن جارية لها أتت عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالت: إن صفية تحب السبت، وتصل اليهود، فبعث إليها فسألها عن ذلك، فقالت: أما السبت فإني لم أحبه منذ أبدلني الله به الجمعة وأما اليهود فإن لي فيهم رحماً أصلها، فقبل منها، ثم قالت للجارية: ما حملك على هذا؟ قالت: الشيطان، فقالت لها: اذهبي فأنت حرة.

---

(١) انظر: السيرة الحلبية (٣/ ٤٥).
(٢) انظر: شرح المواهب اللدنية (٢/ ٢٣٣).
(٣) المصدر السابق، (٢/ ٢٣٣).
(٤) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٢٨).
(٥) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٣٨٥).
(٦) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٣٨٥).

وكانت وفاتها في رمضان سنة خمسين للهجرة في زمن معاوية، وقيل سنة اثنتين وخمسين، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأرضاها (١).

ثامناً: محاولة أثيمة لليهود... الشاة المسمومة:

قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لما فتحت خيبر، أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم، فقال رسول الله ﷺ: «اجمعوا لي من كان هاهنا من اليهود»، فجُمِعُوا له، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقي عنه؟»

فقالوا: نعم يا أبا القاسم.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أبوكم؟».

قالوا: فلان.

فقال رسول الله ﷺ: «كذبتم بل أبوكم فلان».

قالوا: صدقت.

قال: «أنتم صادقي عن شيء إن سألت عنه؟».

فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أهل النار؟».

فقالوا: نكون فيها يسيرا ثم تخلفونا.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «اخسئوا فيها والله لا نخلفكم فيها أبدا».

ثم قال: «أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟».

فقالوا: نعم.

قال: «هل جعلتم في هذه الشاة سُمًّا».

فقالوا: نعم.

قال: «ما حملكم على ذلك؟».

قالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريح وإن كنت نبياً لم يضرك (٢).

قال صاحب بلوغ الأماني من الشاة المسمومة: أهدتها إليه زينب بنت الحارث اليهودية امرأة سلام بن مشكم، وكانت سألت أي عضو من الشاة أحب إليه؟ فقيل: الذراع، فأكثرت فيها من السم، فلما تناول الذراع لاك منها مضغة، ولم يسغها، وأكل منها معه بشر بن البراء فأساغ لقمة ومات منها (٣).

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٣٨٥).

(٢) البخاري، كتاب الجهاد والسير (٤/ ٧٩) رقم (٣١٦٩).

(٣) انظر: بلوغ الأماني بحاشية الفتح الرباني (٢١/ ١٢٣).

وفي مغازي عروة: فتناول الذراع فانتهش منها، وتناول بشر عظماً آخر، فانتهش منه، فلما أرغم رسول الله ﷺ، أرغم بشر ما في فيه، فقال رسول الله: «ارفعوا أيديكم، فإن كتف الشاة تخبرني أني قد بغيت فيها»، فقال بشر بن البراء: والذي أكرمك لقد وجدت ذلك في أكلتي التي أكلت، ولم يمنعني أن ألفظها إلا أني كرهت أن أنغص طعامك، فلما أكلت ما في فيك لم أرغب بنفسي عن نفسك، ورجوت أن لا تكون رغمتها وفيها بغي (١).

وقال ابن القيم: وجيء بالمرأة إلى رسول الله، فقالت: أردت قتلك، فقال: «ما كان الله ليسلطك عليَّ»، قالوا: ألا تقتلها؟ قال: «لا»، ولم يتعرض لها، ولم يعاقبها، واحتجم على الكاهل، وأمر من أكل منها فاحتجم، فمات بعضهم (٢).

وقد اختلف في قتل المرأة، والصحيح أنه لما مات بشر قتلها (٣). ولقد كان السم الذي وضعته اليهودية قوياً جداً، إذ مات بشر بن البراء فوراً وبقي رسول الله ﷺ يعاوده ألم السم حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن بلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة وتركها على المحجَّة البيضاء ليلها كنهارها (٤)، وقد روى الإمام البخاري ح في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يقول في مرض موته الذي مات فيه: «يا عائشة، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري (٥) من ذلك السم» (٦).

تاسعاً: الحجاج بن علاط السلمي وإرجاع أمواله من مكة:

عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: لما افتتح رسول الله ﷺ خيبر، قال الحجاج بن علاط: يا رسول الله إن لي بمكة مالاً وإن لي بها أهلاً، وإني أريد أن أكتبهم، فأنا في حل إن أنا نلت منك، وقلت شيئاً؟ فأذن له رسول الله ﷺ أن يقول ما يشاء، فأتى امرأته حين قدم، فقال: اجمعي لي ما كان عندك، فإني أريد أن أشتري من غنائم محمد وأصحابه، فإنهم قد استبيحوا، أو أصبت أموالهم، قال: ففشا ذلك في مكة فانقمع المسلمون، وأظهر المشركون فرحاً وسروراً، قال: وبلغ الخبر العباس رضي الله عنه فقعد، وجعل لا يستطيع أن يقوم.

قال معمر: فأخبرني عثمان الجزري عن مقسم قال: فأخذ ابناً له يشبه رسول الله ﷺ يقال له، قثم، فاستلقى فوضعه على صدره وهو يقول:

---

(١) انظر: مغازي رسول الله، لعروة بن الزبير، (ص ١٩٨).
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٣٦).
(٣) المصدر السابق، (٣/ ٣٣٦).
(٤) انظر: الصراع مع اليهود (٣/ ١٢١).
(٥) أبهري: عرق مستبطن بالظهر متصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه.
(٦) صحيح البخاري بشرح فتح الباري (٩/ ١٥٩ ـ ١٩٦) طبعة الحلبي.

حـبَّـى قـثـم، حـبَّـى قـثـم شـبـيـه ذي الأنـف الأشـم
نـبـي رب ذي الـنـعـم بـرغـم أنـف مـن رغـم

قال ثابت بن أنس: ثم أرسل غلاماً له إلى الحجاج فقال: ويلك ما جئت به؟ وماذا تقول؟ فما وعد الله خيراً مما جئت به، قال: فقال الحجاج بن علاط لغلامه: اقرأ على أبي الفضل السلام،وقل له: فيخل لي في بعض بيوته لآتيه، فإن الخبر على ما يسره، فجاءه غلامه، فلما بلغ باب الدار قال: أبشر يا أبا الفضل، قال: فوثب العباس فرحاً، حتى قبّل بين عينيه، فأخبره بما قال الحجاج، فأعتقه، قال: ثم جاء الحجاج فأخبره أن رسول الله ﷺ قد افتتح خيبر، وغنم أموالهم، وجرت سهام الله في أموالهم، واصطفى رسول الله ﷺ صفية بنت حيي، فأخذها لنفسه وخيرها أن يعتقها، وتكون زوجته [(١)]، ولكني جئت لمالي، وإني استأذنت النبي ﷺ فأذن لي، فأخف عليّ يا أبا الفضل ثلاثاً، ثم أذكُر ما شئت [(٢)]. فجمعت امرأته ما كان عندها من حلي ومتاع فجمعه، فدفعته إليه ثم انشمر به، فلما كان بعد ثلاث أتى العباس امرأة الحجاج، فقال: ما فعل زوجك؟ فأخبرته أنه ذهب يوم كذا وكذا، وقالت: لا يخزيك الله يا أبا الفضل، لقد شق علينا الذي بلغك، قال: أجل، لا يخزيني الله، ولم يكن بحمد الله إلا ما أحببنا، فتح الله خيبر على رسول الله ﷺ، وجرت فيها سهام الله، واصطفى رسول الله ﷺ صفية بنت حيي لنفسه، فإن كانت لك حاجة في زوجك فالحقي به، قالت: أظنك والله صادقاً، قال: فإني صادق، الأمر على ما أخبرتك فقال: ثم ذهب حتى أتى مجالس قريش، وهم يقولون إذ مر بهم: لا يصيبك إلا خير يا أبا الفضل، قال لهم: لم يصبني إلا خير بحمد الله، قد أخبرني الحجاج بن علاط أن خيبر قد فتحها الله على رسوله ﷺ، وجرت فيها سهام الله، واصطفى صفية لنفسه وقد سألني أن أخفي عليه ثلاثاً، وإنما جاء ليأخذ ماله، وما كان له من شيء هاهنا، ثم يذهب، قال: فردّ الله الكآبة التي كانت بالمسلمين على المشركين، وخرج المسلمون ومن كان دخل بيته مكتئباً حتى أتوا العباس، فأخبرهم الخبر فسُرَّ المسلمون، وردّ الله ـ تبارك وتعالى ـ ما كان من كآبة أو غيظ أو حزن على المشركين [(٣)]. وفي هذا الخبر فقه غزير منه: جواز كذب الإنسان على نفسه وعلى غيره، إذا لم يتضمن ضرر ذلك الغير، إذا كان يُتوصل بالكذب إلى حقه، كما كذب

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٤٥٩).

(٢) انظر: تاريخ الذهبي، المغازي (ص ٤٣٩).

(٣) أخرجه أحمد في المسند: (٣/١٣٨ ـ ١٣٩)، عبد الرزاق في المصنف رقم (٩٧٧١)، وأبو يعلى برقم (٣٤٧٩)، والبيهقي في السنن (٩/١٥١)، والدلائل (٤/٥٢٦٦ ـ ٥٢٦٧) وقال الهيثمي في المجمع (٦/١٥٤ ـ ١٥٥)، رواه أحمد، وأبو يعلى، والبزار والطبراني، ورجاله رجال الصحيح، وقال ابن كثير في البداية (٤/٢٣) عن سند أحمد: وهذا الإسناد على شرط الشيخين، نقلاً عن صحيح السيرة النبوية (ص ٤٦٠).

الحجاج بن علاط على المسلمين، حتى أخذ ماله من مكة من غير مضرة لحقت المسلمين من ذلك الكذب، وأما ما نال من بمكة من المسلمين من الأذى والحزن، بمفسدة فيسير في جنب المصلحة التي حصلت بالكذب، ولا سيما تكميل الفرح والسرور، وزيادة الإيمان الذي حصل بالخبر الصادق بعد هذا الكذب، فكان الكذب سبباً في حصول هذه المصلحة الراجحة.

عاشراً: بعض الأحكام الفقهية المتعلقة بالغزوة:

وردت في غزوة خيبر أحكام شرعية كثيرة منها:

١ ـ تحريم أكل لحوم الحمر الأنسية:

عن ابن عمر ﵄: أن رسول الله ﷺ نهى يوم خيبر عن أكل الثوم، وعن لحوم الحمر الأهلية [١].

٢ ـ حرمة وطء السبايا الحوامل:

قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسق ماءه زرع غيره» [٢].

٣ ـ حرمة وطء السبايا غير الحوامل قبل استبراء الرحم:

قال رسول الله ﷺ: «ولا يحل لامرىءٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقع على امرأة من السبي حتى يستبرئها» [٣].

والاستبراء إنما يكون بأن تطهر من حيضة واحدة فقط ولا تجب عليها العدة، وإن كانت متزوجة من كافر سواء مات أو بقي حياً، لأن العدة وفاء للزوج الميت وحداد عليه، ولا يحد على الكافر كما علمت [٤].

٤ ـ حرمة ربا الفضل:

عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة ﵄: أن رسول الله ﷺ استعمل رجلاً على خيبر، فجاءه بتمر جنيب، فقال رسول الله ﷺ: «أَكُلُّ تمر خيبر هكذا؟» فقال: لا والله يا رسول الله، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين والثلاثة، فقال: «لا تفعل، بِعْ الجمع بالدراهم، ثم ابتع بالدراهم جنيباً» [٥].

فالتفاضل مع اتحاد الجنس هو ربا الفضل، إذ اشترى صاعاً بأكثر من صاع، فالزيادة هنا

---

(١) انظر: زاد المعاد (٤/ ١٢٢ ـ ١٢٣) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٢١٥).
(٢) انظر: الطبقات (٢/ ١١٣).
(٣) انظر: الروض الأنف (٤/ ٤١) ورواه أبو داود رقم (٢١٥٨).
(٤) انظر: الصراع مع اليهود (٣/ ١٣٤).
(٥) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٢٤٤).

هي الربا، وهذا محرم كما رأيت، إذ نهى النبي ﷺ عن ذلك، وأرشد إلى الحل السليم بأن يبيع ما لديه من تمر، ثم يشتري بما لديه من نقود ما يشتهي من تمر، لأن الحاجة قد تدفع صاحبها إلى قبول الربا [١].

٥ ـ حرمة بيع الذهب بالذهب العين، وتبر الفضة بالورق العين:

روي عن عبادة بن الصامت، أنه قال: نهانا رسول الله يوم خيبر أن نبيع أو نبتاع تبر الذهب بالذهب العين، وتبر الفضة بالورق العين، وقال: «ابتاعوا تبر الذهب بالورق والعين، وتبر الفضة بالذهب والعين» [٢].

والمراد من الحديث أن يباع الذهب بالذهب مثلاً بمثل، والفضة بالفضة مثلاً بمثل، بلا زيادة ولا نقص، وعندما يقابل الذهب بالفضة لا تشترك المماثلة، كما هو معلوم، وثابت في الصحاح [٣].

٦ ـ مشروعية المساقاة والمزارعة:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أعطى النبي ﷺ خيبر اليهود أن يعملوها ويزرعوها، ولهم شطر ما يخرج منها [٤].

وقد تساءل بعض الباحثين: لِمَ جاءت أحكام هذه البيوع في خيبر وما الحكمة من ذلك؟

وأجاب الشيخ محمد أبو زهرة على هذا فقال: إن فتح خيبر كان فتحاً جديداً بالنسبة للعلاقات المالية التي يجري في ظلها التبادل المالي، فكانت فيها شرعية المزارعة والمساقاة، ولم تكن تجري كثيراً في يثرب [٥].

٧ ـ حل أكل لحوم الخيل:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية، ورخَّص في الخيل [٦].

٨ ـ تحريم المتعة:

عن علي رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم

---

(١) انظر: الصراع مع اليهود (٣/ ١٣٤).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام مع الروض الأنف (٤/ ٤١).
(٣) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة، (ص ٣٢١).
(٤) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٢٤٨).
(٥) انظر: خاتم النبيين (٢/ ١١٠٤)، الصراع مع اليهود (٣/ ١٣٦).
(٦) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٢١٩).

الحمر الأنسية [١].

٩ ـ مشاركة المرأة في غزوة خيبر:

روت أمية بنت أبي الصلت عن امرأة من بني غفار قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نسوة من بني غفار فقلن: يا رسول الله قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا ـ وهو السير إلى خيبر ـ فنداوي الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا، فقال: على بركة الله، قالت: فخرجنا معه، قالت: فوالله لنزل رسول الله ﷺ إلى الصبح ونزلت عن حقيبة رحله، قالت: وإذا بها دم منيّ ـ وكانت أول حيضة حضتها ـ قالت: فتقبضت إلى الناقة واستحييت، فلما رأى رسول الله ﷺ ما بي ورأى الدم، قال: «مالكِ؟ لعلك نفستِ؟» قالت: قلت: نعم، قال: «فأصلحي من نفسك ثم خذي إناء من ماء فاطرحي فيه ملحاً ثم اغسلي ما أصاب الحقيبة من الدم، ثم عودي لمركبك»، قالت: فلما فتح الله خيبر رضخ لنا من الفيء وأخذ هذه القلادة التي ترين في عنقي فأعطانيها وعلقها بيده في عنقي، فوالله لا تفارقني أبداً [٢]، وكانت في عنقها حتى ماتت، ثم أوصت أن تدفن معها. قالت: وكانت لا تطهر من حيضها إلا جعلت في طهرها ملحاً، وأوصت به أن يجعل في غسلها حين ماتت [٣].

وهي صورة حية أمام كل فتاة مسلمة، تحرص على أن تشارك في أجر الجهاد مع المسلمين [٤].

وهكذا كانت حياة الرسول ﷺ تعليماً وتربية للأمة في السلم والحرب، على معاني العقيدة، وحقيقة العبادة، وهذا غيض من فيض، وجزء من كل.

هذا وقد أحدث فتح خيبر وفدك ووادي القرى وتيماء دوياً هائلاً في الجزيرة العربية، بين مختلف القبائل، وقد أصيبت قريش بالغيظ والكآبة، إذ لم تكن تتوقع ذلك، وهي تعلم مدى حصانة قلاع يهود خيبر، وكثرة مقاتليهم ووفرة سلاحهم ومؤونتهم ومتاعهم [٥]، أما القبائل العربية الأخرى المناصرة لقريش فقد أدهشها خبر هزيمة يهود خيبر وخذلها انتصار المسلمين الساحق، ولذلك فإنها جنحت إلى مسالمة المسلمين وموادعتهم، بعد أن أدركت عدم جدوى استمرارها في عدائهم، مما فتح الباب واسعاً لنشر الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية، بعد أن تعززت مكانة المسلمين في أعين أعدائهم، إلى جانب ما تحقق لهم من خير وتعزيز لوضعهم الاقتصادي [٦].

---

(١) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٢١٦).
(٢) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٠٥).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٧٢، ٣٧٣).
(٤) انظر: فقه السيرة لمنير الغضبان (ص ٥٣٤).
(٥) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٥٣).
(٦) المصدر السابق، (١/ ٣٥٣).

واستمرت حركة السرايا بعد خيبر، وكانت كثيرة، وأمَّر عليها ﷺ كبار الصحابة، وكان في بعضها قتال، ولم يكن في بعضها قتال [(١)].

المبحث الثاني

دعوة الملوك والأمراء

أولاً: كان صلح الحديبية إيذاناً ببداية المد الإسلامي:

فقد انساح هذا المد إلى أطراف الجزيرة العربية بل تجاوزها إلى ما وراء حدود الجزيرة العربية، فمنذ (أن عقد الرسول ﷺ صلح الحديبية مع قريش، وما تلا ذلك من إخضاع يهود شمال الحجاز في خيبر ووادي القرى وتيماء وفدك، إلى سيادة الإسلام، فإن الرسول ﷺ لم يأل جهداً لنشر الإسلام خارج حدود الحجاز وكذلك خارج حدود الجزيرة العربية، وقد عبّر عليه الصلاة والسلام ـ عن هذا المنهج قولاً وعملاً من خلال إرساله عدداً من الرسل والمبعوثين إلى أمراء أطراف الجزيرة العربية، وإلى ملوك العالم المعاصر خارج الجزيرة العربية.

وتُعَدُّ هذه الخطوة نقطة تحول هامة في تاريخ العرب والإسلام، ليس لأن الرسول سوف يوحد عرب الجزيرة العربية تحت راية الإسلام فحسب، ولكن لأن هؤلاء العرب بعد أن اعتنقوا الإسلام وتمثلوا رسالة السماء، أنيط بهم حمل الدعوة الإسلامية إلى البشرية كافة) [(٢)].

ويشير المنهج النبوي في دعوة الزعماء والملوك إلى ما يجب أن تكون عليه وسائل الدعوة، فإلى جانب دعوة الأمراء والشعوب، اختار الرسول ﷺ أسلوباً جديداً من أساليب الدعوة؛ وهو مراسلة الملوك ورؤساء القبائل، وكان لأسلوب إرسال الرسائل إلى الملوك والأمراء أثر بارز في دخول بعضهم الإسلام وإظهار الود من البعض الآخر، كما كشفت هذه الرسائل مواقف بعض الملوك والأمراء من الدعوة الإسلامية ودولتها في المدينة، وبذلك حققت هذه الرسائل نتائج كثيرة، واستطاعت الدولة الإسلامية من خلال ردود الفعل المختلفة تجاه الرسائل أن تنتهج نهجاً سياسياً وعسكرياً واضحاً ومتميزاً [(٣)] وإليك أهم هذه الرسائل:

١ ـ فقد وردت رواية صحيحة [(٤)]، تضمّنت نص كتاب النبي ﷺ الذي بعثه مع دحية الكلبي إلى هرقل عظيم الروم [(٥)] وذلك في مدة هدنة الحديبية وهو كما يلي:

---

(١) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ٢٢١).
(٢) انظر: السفارات النبوية، د. محمد العقيلي (ص ١٥).
(٣) انظر: العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية، د. سعيد المهجر (ص ١١٢).
(٤) مسلم، (٣/١٣٩٣ ـ ١٣٩٧) قم (١٧٧٣).
(٥) انظر: نضرة النعيم (١/٣٤٤) اعتمدت عليه في توثيق مصادر الرسائل.

(بسم الله الرحمٰن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى: أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾[1] [آل عِمرَان: ٦٤].

ولقد تسلَّم هرقل رسالة النبي ﷺ ودقق في الأمر، كما في الحديث الطويل المشهور بين أبي سفيان وهرقل المروي في الصحيحين حين سأله عن أحوال النبي، وقال بعد ذلك لأبي سفيان: (إن كان ما تقول فيه حقاً فإنه نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه منكم، ولو أني أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه) [2].

٢ ـ أرسل النبي ﷺ بكتاب إلى كسرى ملك الامبراطورية الفارسية، مع عبد الله بن حذافة السهمي، (أمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين [3]، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزقه، فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يُمَزَّقُوا كُلَّ ممزق) [4]، ونص الرسالة كما أورده الطبري كالتالي:

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلى الناس كافة، لينذر من كان حياً، أسلم تسلم، فإن أبيت عليك إثم المجوس) [5].

٣ ـ أما كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة فقد أرسله مع عمرو بن أمية الضمري، وقد جاء في الكتاب:

(بسم الله الرحمٰن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى النجاشي ملك الحبشة، أسلم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت به، فخلقه من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة عن طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله ـ ﷻ ـ وقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى) [6].

---

(١) مسلم شرح النووي، كتاب الجهاد، كتب النبي (١٢/١٠٧).
(٢) مسلم (٣/١٣٩٣) رقم (١٧٧٣).
(٣) شرح المواهب اللدنية (٣/٣٤١).
(٤) البخاري مع فتح الباري (٨/٢٦) رقم (٤٤٢٤)، وكانت الرسالة في محرم سنة ٧ هـ كما في زاد المعاد.
(٥) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٦٥٤ ـ ٦٥٥).
(٦) انظر: نصب الراية للزيلعي (٤/ ٤٢١) نقلاً عن نضرة النعيم (١/ ٣٤٦).

٤ - أما كتاب النبي ﷺ إلى المقوقس حاكم مصر [١]، وكذلك رد المقوقس إليه [٢]، فلم تثبت من طرق صحيحة، ولا يعني ذلك نفي إرسال الكتاب إليه، كما أن ذلك لا يعني الطعن بصحة النصوص من الناحية التاريخية، فربما تكون صحيحة من حيث الشكل والمضمون غير أنها لا يمكن أن يحتج بها في السياسة الشرعية [٣]، فلقد أورد محمد بن سعد في طبقاته [٤] أن النبي ﷺ بعث إلى المقوقس (جُريح بن مينا) ملك الإسكندرية وعظيم القبط، كتاباً مع حاطب بن أبي بلتعة اللخمي، وأنه قال خيراً وقارب الأمر، غير أنه لم يسلم وأهدى إلى النبي ﷺ عدة هدايا كان بينها مارية القبطية، وأنه لما ورد جواب المقوقس إلى النبي ﷺ قال: «ضنَّ الخبيث بملكه، ولا بقاء لملكه» [٥].

٥ - وبعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب، أخا بني أسد بن خزيمة، برسالة إلى المنذر بن الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق [٦]، حين عودته والمسلمين من الحديبية، وقد تضمن نص الرسالة قوله: «سلام على من اتبع الهدى، وآمن به، إني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك به يُبقى لك ملكك» [٧].

٦ - وأرسل رسول الله ﷺ سليط بن عمرو العامري بكتاب إلى هوذة بن علي الحنفي [٨] عند مقدمه من الحديبية، وقد اشترط هوذة الحنفي على الرسول ﷺ بعد قراءته رسالته إليه أن يجعل له بعض الأمر معه، فرفض النبي ﷺ أن يقبل ذلك [٩].

٧ - وأرسل ﷺ أبا العلاء الحضرمي [١٠] بكتابه إلى المنذر بن ساوى العبدي، أمير البحرين بعد انصرافه من الحديبية، ونقلت المصادر التاريخية أن المنذر قد استجاب لكتاب النبي ﷺ فأسلم وأسلم معه جميع العرب بالبحرين، فأما أهل البلاد من اليهود والمجوس فإنهم صالحوا العلاء والمنذر على الجزية من كل حالم دينار [١١]، ونقل أبو عبيد القاسم بن سلام نص كتاب النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوى برواية عروة بن الزبير، وجاء فيه:

---

(١) انظر: نضرة النعيم (١/٣٤٦).
(٢) المصدر السابق، (١/٣٤٦).
(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/٤٥٩).
(٤) انظر: الطبقات الكبرى (١/٢٦٠ ـ ٢٦١).
(٥) البداية والنهاية (٥/٣٤٠).
(٦) انظر: تاريخ الطبري (٢/٦٥٢).
(٧) المصدر السابق، (٢/٦٥٢).
(٨) كان صاحب اليمامة، ومات بعد فتح مكة بقليل.
(٩) انظر: نصب الراية (٤/٤٢٥)؛ إعلام السائلين، ابن طولون (ص ١٠٥، ١٠٧).
(١٠) انظر: صبح الأعشى القلقشندي (٦/٣٦٨).
(١١) الزيلعي تخريج أحاديث الهداية (٤/٤١٩ ـ ٤٢٠).

(سلام أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإن من صلّى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله، وذمة الرسول، فمن أحب ذلك من المجوس فإنه آمن ومن أبى فإن الجزية عليه) (١).

وفي ذي القعدة سنة ٨ هـ بعث النبي ﷺ عمرو بن العاص بكتابه إلى جيَفْر، وعبد ابني الجلندي الأزديين بعمان (٢). وجاء فيه: (من محمد النبي رسول الله لعباد الله الأسبذيين ملوك عمان، وأسد عمان، ومن كان منهم بالبحرين إنهم إن آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطاعوا الله ورسوله، وأعطوا حق النبي ﷺ، ونسكوا نسك المؤمنين، فإنهم آمنون وإن لهم ما أسلموا عليه، غير أن مال بيت النار ثنياً للّه ورسوله، وأن عشور التمر صدقة، ونصف عشور الحب، وأن للمسلمين نصرهم ونصحهم، وأن لهم على المسلمين مثل ذلك، وأن لهم أرحاءهم يطحنون بها ما شاءوا) (٣).

وأوردت المصادر بعد ذلك عدداً كبيراً من المرويات عن رسائل أخرى لم تثبت من الناحية الحديثية (٤).

ثانياً: دروس وعِبَر وفوائد:

١ ـ الأريسيون:

وردت كلمة «الأريسيين» أو «اليريسيين» ـ على اختلاف الروايات ـ في الكتاب الذي وجّه إلى (هرقل) وحده، ولم ترد في كتاب من الكتب التي أرسلت إلى غيره، واختلف علماء الحديث واللغة في مدلول هذه الكلمة، فالقول المشهور أن «الأريسيين» جمع «أريسي» وهم الخول، والخدم والأكارون (٥).

وذهب العلامة أبو الحسن الندوي إلى أن المراد بالأريسيين هم أتباع «أريوس» المصري، وهو مؤسس فرقة مسيحية كان لها دور كبير في تاريخ العقائد المسيحية والإصلاح الديني، وقد شغلت الدولة البيزنطية والكنيسة المسيحية زمناً طويلاً، و«أريوس» هو الذي نادى بالتوحيد، والتمييز بين الخالق والمخلوق والأب والابن ـ على حد تعبير المسيحيين ـ لعدة قرون (٦).

ودامت عقيدة «أريوس» ودعوته تصارعان الدعوة المكشوفة إلى تأليه المسيح وتسويته بالإله الواحد الصمد، وكانت الحرب سجالاً، وقد دان بهذه العقيدة عدد كبير من النصارى في الولايات الشرقية من المملكة البيزنطية إلى أن عقد تيوسورس الكبير مجمعاً مسيحياً في القسطنطينية، قضى بألوهية المسيح وأبنيته، وقضى هذا الإعلان على العقيدة التي دعا إليها

---

(١) الأموال لأبي عبيد (ص ٢٨).
(٢) انظر: صبح الأعشى (٦/ ٣٧٦).
(٣) انظر: الأموال لأبي عبيد (ص ٢٨، ٢٩).
(٤) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٤٨).
(٥) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ٣٠٤).
(٦) المصدر السابق، (ص ٣٠٥).

«أريوس» واختفت، ولكنها عاشت بعد ذلك، ودانت بها طائفة من النصارى، اشتهرت بالفرقة الأريسية أو الأريسيين، فمن المرجح المعقول أن النبي ﷺ إنما عنى هذه الفرقة بقوله: (فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين) فإنها هي القائمة بالتوحيد النسبي في العالم المسيحي الذي تتزعمه الدولة البيزنطية العظمى، التي كان على رأسها (هرقل) (١).

وقد تحدث الإمام أبو جعفر الطحاوي عن هذه الفرقة فقال: وقد ذكر بعض أهل المعرفة بهذه المعاني أن في رهط هرقل فرقة تعرف بالأروسية، توحد الله، وتعترف بعبودية المسيح له ﷺ ولا تقول شيئاً مما يقول النصارى في ربوبيته وتؤمن بنبوته، فإنها تمسك بدين المسيح مؤمنة بما في إنجيله جاحدة لما يقوله النصارى سوى ذلك، وإذا كان ذلك كذلك جاز أن يقال لهذه الفرقة «الأريسيون» في الرفع و«الأريسيين» في النصب والجر، كما ذهب إليه أصحاب الحديث (٢).

٢ ـ اعتبارات حكيمة خاصة بالملوك:

في رسائل رسول الله ﷺ للملوك فوارق دقيقة مؤسسة على حكمة الدعوة، روعي فيها ما يمتاز به هؤلاء الملوك في العقائد التي يدينون بها، (والخلفيات) التي يمتازون بها، فلما كان هرقل والمقوقس يدينان بألوهية المسيح كلياً أو جزئياً، وكونه ابن الله، جاءت في الكتابين اللذين وجّها إليهما كلمة (عبد الله) مع اسم النبي ﷺ صاحب هاتين الرسالتين، فيبتدىء الكتابان بعد التسمية بقوله: (من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم) وبقوله: (من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط) بخلاف ما جاء في كتابه ﷺ إلى كسرى أبرويز، فاكتفى بقوله: (من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم الفرس) وجاءت كذلك آية: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: ٦٤] في هذين الكتابين، وما جاءت في كتابه إلى كسرى أبرويز لأن الآية تخاطب أهل الكتاب الذين دانوا بألوهية المسيح، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم، وقد كان هرقل امبراطور الدولة البيزنطية والمقوقس حاكم مصر قائدين سياسيين، وزعيمين دينيين كبيرين للعالم المسيحي، مع اختلاف يسير في الاعتقاد في المسيح هل له طبيعة أم طبيعتان (٣).

ولما كان كسرى أبرويز وقومه يعبدون الشمس والنار، ويدينون بوجود إلهين، أحدهما

---

(١) وقد ذهب إلى ما ذهب إليه العلامة الندوي، الدكتور معروف الدواليبي في الأريسيين، يؤيد ما قاله الندوي أن النبي ﷺ إنما عنى بقوله: «فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين» أتباع أريوس الفرق المسيحية الوحيدة القائلة ببشرية المسيح النافية لألوهيته وقد جاء هذا البحث القيم في رسالة: نظرات إسلامية، (ص ٦٨ ـ ٨٣). انظر: السيرة للندوي، (ص ٣٠٧) س.

(٢) انظر: مشكل الآثار (٣/٣٩٩).

(٣) انظر: ماذا خسر العالم للندوي، (ص ٣٨ ـ ٣٩).

يمثل الخير وهو يزدان، والثاني يمثل الشر وهو اهرمن، وكانا بعيدين عن مفهوم النبوة والتصور الصحيح للرسالة السماوية، جاءت في الكتاب الذي وجه إلى الامبراطور الإيراني عبارة: (وأني رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حياً) (١).

وقد كان تلقي الملوك لهذه الرسائل يختلف، فأما هرقل والنجاشي والمقوقس فتأدبوا، وتلطفوا في جوابهم وأكرم (النجاشي والمقوقس رسل رسول الله ﷺ، وأرسل المقوقس هدايا منها جاريتان إحداهما مارية أم إبراهيم ابن رسول الله، وأما كسرى أبرويز فلما قُرِىء عليه الكتاب مزقه، وقال: (يكتب إليَّ هذا وهو عبدي؟) فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «مزق الله ملكه» (٢).

وأمر كسرى باذان وهو حاكمه على اليمن بإحضاره، فأرسل بأبويه يقول له: إن ملك الملوك قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك، وقد بعثني إليك لتنطلق معي، فأخبره رسول الله ﷺ بأن الله سلّط على كسرى ابنه شرويه فقتله (٣).

وقد تحقق ما أنبأ به رسول الله بكل دقة، فقد استولى على عرشه ابنه (قباذ) الملقب بـ (شرويه) وقتل كسرى ذليلاً مهاناً بإيعاز منه سنة ٦٢٨ م، وقد تمزّق ملكه بعد وفاته وأصبح لعبة في أيدي أبناء الأسرة الحاكمة، فلم يعش (شرويه) إلا ستة أشهر، وتوالى على عرشه مدة أربع سنوات عشرة ملوك، واضطرب حبل الدولة إلى أن اجتمع الناس على (يزدجرد) وهو آخر ملوك بني ساسان، وهو الذي واجه الزحف الإسلامي الذي أدّى إلى انقراض الدولة الساسانية، التي دامت وازدهرت أكثر من أربعة قرون انقراضاً كلياً، وكان ذلك في سنة ٦٣٧ م، وهكذا تحققت هذه النبوءة في ظرف ثماني سنين (٤).

٣ ـ الوصف العام لرسائل الرسول:

ويلاحظ الباحث أن الوصف العام لكتب الرسول إلى الملوك والأمراء يكاد يكون واحداً، ويمكننا أن نستخرج منها الأمور التالية:

أ ـ نلاحظ أن جميع كتب الرسول ﷺ التي أرسلها إلى الملوك والرؤساء يفتتحها ﷺ بالبسملة، والبسملة آية من كتاب الله تبارك وتعالى، وفي تصدير الكتاب بها أمور مهمة؛ كاستحباب بدء الكتب بـ «بسم الله الرحمٰن الرحيم» اقتداءً برسولنا محمد ﷺ، فقد واظب عليها في كتبه ﷺ، كما فيها جواز كتابة آية من القرآن الكريم في كتاب، وإن كان هذا الكتاب موجهاً إلى الكافرين، وفيها جواز قراءة الكافر لآية أو أكثر من القرآن الكريم، لأن كتب رسول الله ﷺ

(١) انظر: السيرة النبوية للندوي، (ص ٢٩٠).
(٢) انظر: تاريخ الطبري (٣/ ٩٠).
(٣) المصدر السابق، (٣/ ٩٠ ـ ٩١).
(٤) انظر: السيرة النبوية للندوي، (ص ٣٠٠).

تضمّنت البسملة وغيرها، وفيها جواز قراءة الجنب لآية أو أكثر من القرآن الكريم لأن هذا الكافر الذي أرسلت إليه الرسالة وتضمّنت البسملة وغيرها لا يحترز من الجنابة والنجاسة فيقرأ الرسالة التي اشتملت على آيات من القرآن الكريم وهو جنب.

ب ـ ونستنبط من رسائل رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء الآتي:

- مشروعية إرسال السفراء المسلمين إلى زعماء الكفر، لأن كل كتاب يكتبه الرسول ﷺ يكلف رجلاً من المسلمين يحمله إلى المرسل.

- مشروعية الكتابة إلى الكفار في أمر الدين والدنيا.

- ينبغي أن يكتب في الكتاب اسم المرسل والمرسل إليه، وموضوع الكتاب وهو واحد في جميع الكتب ويتلخص في دعوتهم إلى الإسلام.

- عدم بدء الكافر بتحية الإسلام، وهي السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ذلك لأن النبي ﷺ لم يطرح السلام في كتبه على ملك من الملوك، بل كان يصدر كتبه بقوله: السلام على من اتبع الهدى، أي آمن بالإسلام ويؤخذ من هذا عدم جواز مخاطبة الكافر بتحية الإسلام.

- اتخذ الخاتم: فقد كان رسول الله ﷺ يختم رسائله بعد كتابته بخاتمه، وقد كتب عليه ثلاث كلمات، [نقش بهذا الشكل]:

الـــلَّــــه

رســـــول

مـــحـــمـــد[1]

فعن أنس رضي الله عنه قال: لما أراد النبي ﷺ أن يكتب إلى الروم قيل له: إنهم لا يقرؤون كتاباً إلا أن يكون مختوماً، فاتخذ خاتماً من فضة، فكأني أنظر إلى بياضه في يده، ونقش فيه: محمد رسول الله [2].

٤ ـ تقدير الرجال:

لما أسلم باذان بن ساسان وكان أميراً على اليمن، لم يعزله رسول الله ﷺ بل أبقاه أميراً عليها بعد إسلامه، حيث رأى فيه الإداري الناجح والحاكم المناسب، مما يدلل على أن الرسول ﷺ يقدر الكفاءات في الرجال ويضع الرجل المناسب في المكان المناسب، ومن الجدير

---

(١) انظر: غزوة الحديبية لأبي فارس، (ص٢٣٩، ٢٤٠).

(٢) البخاري، باب دعوة اليهود والنصارى ـ فتح الباري (٦/١٠٨).

بالذكر أن الرسول ﷺ قد ولّى ولده شهراً أميراً على اليمن بعد موته [١].

٥ ـ جواز أخذ الجزية من المجوس:

وهذا الحكم استخرج من كتاب النبي ﷺ الذي أرسله إلى المنذر بن ساوى يحدد فيه الموقف من اليهود والمجوس، إذ ورد فيه: «ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية» [٢].

وقد ذهب ابن القيم مع طائفة من العلماء إلى جواز أخذ الجزية من كل إنسان يبذلها، سواء أكان كتابياً أم غير كتابي، كعبدة الأوثان من العرب وغيرهم، فقد جاء في زاد المعاد: (وقد قالت طائفة في الأمم كلها إذا بذلوا الجزية، قبلت منهم؛ أهل الكتابين بالقرآن، والمجوس بالسنّة، ومن عداهم ملحق بهم، لأن المجوس أهل شرك لا كتاب لهم، فأخذها منهم دليل على أخذها من جميع المشركين، وإنما لم يأخذها ﷺ من عبدة الأوثان من العرب لأنهم أسلموا قبل نزوله آية الجزية، فإنها نزلت بعد تبوك) [٣].

٦ ـ جواز أخذ هدية الكافر:

فقد أرسل المقوقس عظيم القبط حاكم مصر مع سفير رسول الله حاطب بن أبي بلتعة وهو كافر، هدية تشتمل على جاريتين وكسوة للرسول ﷺ وبغلة يركبها، فقبلها رسول الله ﷺ، وإحدى هاتين الجاريتين مارية القبطية [٤].

٧ ـ من نتائج إرسال الكتب إلى الملوك والأمراء:

أظهر الرسول ﷺ في سياسته الخارجية دراسة سياسية فاقت التصور، وأصبحت مثالاً لمن جاء بعده من الخلفاء، كما أظهر ﷺ قوة وشجاعة فائقتين، فلو كان غير رسول الله ﷺ لخشي عاقبة ذلك الأمر، لا سيما أن بعض هذه الكتب قد أرسلت إلى ملوك أقوياء على تخوم بلاده كهرقل وكسرى والمقوقس، ولكن حرص رسول الله وعزيمته على إبلاغ دعوة الله، وإيمانه المطلق بتأييد الله سبحانه وتعالى، كل ذلك دفعه لأن يقدم على ما أقدم عليه، وقد حققت هذه السياسة النتائج الآتية:

أ ـ وطّد الرسول ﷺ بهذه السياسة أسلوباً جديداً في التعامل الدولي لم تكن تعرفه البشرية من قبل.

---

(١) غزوة الحديبية لأبي فارس، (ص ٢٤٢).

(٢) غزوة الحديبية، (ص ٢٤٢).

(٣) انظر: زاد المعاد (٥/ ٩١).

(٤) انظر: غزوة الحديبية لأبي فارس، (ص ٢٤٣).

ب - أصبحت الدولة الإسلامية لها مكانتها وقوتها وفرضت وجودها على الخارطة الدولية لذلك الزمان.

جـ - كشفت للرسول ﷺ نوايا الملوك والأمراء وسياستهم نحوه وحكمهم على دعوته.

د - كانت مكاتبة الملوك خارج جزيرة العرب تعبيراً عملياً على عالمية الدعوة الإسلامية، تلك العالمية التي أوضحتها آيات نزلت في العهد المكي مثل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وهكذا، فإن رسائل النبي ﷺ إلى أمراء العرب والملوك المجاورين لبلاده، تعتبر نقطة تحول في سياسة دولة الرسول الخارجية، فعظم شأنها، وأصبحت لها مكانة دينية وسياسية بين الدول، وذلك قبل فتح مكة، كما أن هذه السياسة مهّدت لتوحيد الرسول ﷺ لسائر أنحاء بلاد العرب في عام الوفود [(١)].

المبحث الثالث

عمرة القضاء

وفي ذي القعدة في السنة السابعة من الهجرة، خرج الرسول ﷺ إلى مكة قاصداً العمرة، كما اتفق مع قريش في صلح الحديبية، وقد بلغ عدد من شهد عمرة القضاء ألفين سوى النساء والصبيان، ولم يتخلف من أهل الحديبية إلا من استشهد في خيبر أو مات قبل عمرة القضاء [(٢)].

وقد اتجه رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام من المدينة باتجاه مكة المكرمة، في موكب مهيب يشق طريقه عبر القرى والبوادي، وكان كلما مرّ الموكب النبوي بمنازل قوم من الذين يسكنون على جانبي الطريق بين مكة والمدينة خرجوا وشاهدوا منظراً لم يألفوه من قبل، حيث المسلمين بزي واحد من الإحرام وهم يرفعون أصواتهم بالتلبية ويسوقون هديهم في علاماته وقلائده، في مظهر بهي لم تشهد المنطقة له مثيلاً [(٣)].

أولاً: الحيطة والحذر من غدر قريش:

اصطحب النبي ﷺ معه السلاح الكامل، ولم يقتصر على السيوف، تحسباً لكل طارىء قد يقع، خاصة أن المشركين في الغالب لا يحافظون على عهد قطعوه، ولا عقد عقدوه [(٤)].

---

(١) انظر: التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة، (ص ٣٥١).

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (ص ٤٦٤).

(٣) انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية (ص ٣١٠).

(٤) صلح الحديبية لأبي فارس، (ص ٢٦٧).

وما أن وصل خبر مسير النبي ﷺ ومعه هذا العدد الضخم، وهذه الأسلحة المتنوعة، وفي مقدمة القافلة مائتا فارس بقيادة محمد بن مسلمة حتى أرسلت إلى رسول الله ﷺ مكرز بن حفص في نفر من قريش، ليستوضحوا حقيقة الأمر، فقابلوه في بطن يأجج [(١)] بمر الظهران فقالوا له: يا محمد؛ والله ما عرفناك صغيراً ولا كبيراً بالغدر! تدخل بالسلاح الحرم على قومك، وقد شرطت ألا تدخل إلا على العهد، وأنه لن يدخل الحرم غير السيوف في أغمادها، فقال رسول الله ﷺ: «لا ندخلها إلا كذلك»، ثم رجع مكرز مسرعاً بأصحابه إلى مكة فقال: إن محمداً لا يدخل بسلاح وهو على الشرط الذي شرط لكم [(٢)].

ووضع رسول الله ﷺ السلاح خارج الحرم قريباً منه تحسباً لكل طارىء، وأبقى عنده مائتي فارس بقيادة محمد بن مسلمة يحرسونه وينتظرون أمر الرسول ليتحركوا في أي جهة وينفذوا أي أمر ويقاتلوا متى دعت الضرورة لذلك [(٣)].

إن النبي ﷺ لم يأمن غدر مشركي قريش وخيانتهم، فقد تسوّل لهم أنفسهم أن ينصبوا كميناً أو أكثر للمسلمين ويشنوا عليهم هجوماً مباغتاً، ولذلك احتاط وأخذ الحذر ووفى بعهده ووعده لقريش وعلّم الأمة لكي تحذر من أعدائها [(٤)]، وفي بقاء كوكبة من الصحابة في حراسة الأسلحة والعتاد، لكي يراقبوا الموقف بدقة وتحفز معنى من معاني العبادة في هذا الدين [(٥)].

ثانياً: دخول مكة والطواف والسعي:

ومن بطن يأجج تابع رسول الله ﷺ سيره نحو مكة على راحلته القصواء، فدخلها من الثنية التي تطلعه على الحجون، والمسلمون حوله متوشحون سيوفهم، محدقون به كل جانب، يسترونه من المشركين مخافة أن يؤذوه بشيء، وأصواتهم تعجّ بالتلبية للّه العلي الكبير [(٦)].

هذه التلبية الجماعية التي تعج أصوات المسلمين بها، والتي لم تنقطع منذ أن أحرموا، واستمرت حتى دخلوا مكة، فقد كان للتلبية مغزى ومعنى، فهي تعلن التوحيد وترفع شعاره، وتعني إبطال الشرك وإسقاط رايته، وتعلن الحمد والثناء على الله الذي مكّنهم من أداء هذا النسك [(٧)]... فهذه بعض معاني تلبية المسلم بقوله: لبيك اللهم لبيك... لبيك لا شريك لك لبيك... إن الحمد والنعمة لك والملك... لا شريك لك.

---

(١) موضع قرب مكة على ثمانية أميال منها.
(٢) انظر: مغازي الواقدي (٣/ ٧٣٤)؛ طبقات ابن سعد (٢/ ١٢١).
(٣) انظر: صلح الحديبية لأبي فارس، (ص ٢٦٨).
(٤) المصدر السابق، (ص ٢٧٥).
(٥) المصدر السابق، (ص ٢٧٧).
(٦) انظر: التاريخ السياسي والعسكري (ص ٣٥٣).
(٧) انظر: صلح الحديبية (ص ٢٧٧).

وكان عبد الله بن رواحة آخذاً بزمام راحلته وهو يرتجز بشعره:

خلوا بني الكفار عن سبيله ... خلوا فكلُّ الخير في رسوله
يا رب إني مؤمن بقيله ... أعرف حق الله في قبوله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله (١)

وكان مظهراً دعوياً مؤثراً عندما بدأ الموكب النبوي الكريم يقترب من بيوت مكة المكرمة وأبنيتها، شاقاً طريقه باتجاه الكعبة المشرفة وهم في مظهرهم المهيب، وأصواتهم تشق عنان السماء بالتلبية، فقد ذكرت معظم كتب السير والمغازي أن قسماً من أهالي مكة خرج إلى رؤوس الجبال لينظر إلى المسلمين من الأماكن العالية، والقسم الأكبر وقف عند دار الندوة المجاورة للكعبة الشريفة آنذاك، ليشاهدوا رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام أثناء دخولهم مكة المكرمة وبيت الله الحرام (٢).

وكان المشركون قد أطلقوا شائعة ضد المسلمين مفادها أنهم وهنتهم (٣) حُمَّى يثرب فأمر النبي ﷺ أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين (٤)، لكي يرى المشركون قوتهم، ودخل رسول الله ﷺ البيت الحرام واضطبع (٥) بردائه فأخرج عضده اليمنى وشرع في الطواف وأصحابه يتابعونه ويقتدون به، ولما رأى المشركون ذلك قالوا: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم، هؤلاء أجلد من كذا وكذا (٦).

وقد قصد رسول الله ﷺ بهذه الطريقة التي فعلها عند دخوله المسجد الحرام، وهي الاضطباع، والهرولة، ورفع الأصوات بالتلبية، أن يرهب قريشاً، وأن يظهر لها قوة المسلمين وعزيمتهم وتمسكهم بدينهم، ومناعة جبهتهم، وقد أثر هذا الأسلوب في نفوس المشركين (٧)، وبهذا الأسلوب النبوي الكريم أغاظ الرسول ﷺ المشركين وكايدهم، فقد كان ﷺ يتقرب إلى الله بمكايدتهم وإغاظتهم، ففي غزوة أحد أذن ﷺ لأبي دجانة أن يمشي متبختراً أمام المشركين لإظهار عزة المؤمن، ولأن ذلك يغيظ المشركين، وزيادة في إغاظتهم كان يلبس العصابة الحمراء دون أن ينكر الرسول ﷺ ذلك.... وفي غزوة الحديبية ساق رسول الله ﷺ في الهدى جمل أبي جهل الذي غنمه في بدر، ليراه المشركون فيزدادوا غيظاً حين يذكرون مصارع قتلاهم وذل

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٤٨١).
(٢) انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية (ص ٣١٤).
(٣) أضعفتهم.
(٤) البخاري، كتاب المغازي (٥/ ٦) رقم (٤٢٥٦).
(٥) الاضطباع: هو أن يدخل بعض ردائه تحت عضده اليمنى ويجعل طرفه على منكبه.
(٦) صحيح السيرة النبوية (ص ٤٨١).
(٧) انظر: منهج الإعلام الإسلامي (ص ٣١٥).

أسراهم، وها هو ذا ﷺ يأمر المسلمين في عمرة القضاء بإظهار التجلد والهرولة لإغاظتهم ومكايدتهم ورد كيدهم في نحورهم [(١)]، وقد ذكر ابن القيم: (بأن رسول الله ﷺ كان يكيد المشركين بكل ما يستطيع) [(٢)].

فهذه حرب نفسية شنّها رسول الله ﷺ على المشركين وقد أتت أكلها، ولقد أقام الرسول ﷺ في مكة ثلاثة أيام، ومعه المسلمون يرفعون راية التوحيد، ويطوفون بالبيت العتيق، ويرفعون الأذان ويقيمون الصلاة، ويصلّي بهم رسول الله ﷺ الصلوات الخمس في جماعة، وكان بلال بن رباح بصوته الندي يرفع الأذان من فوق ظهر الكعبة، فكان وقعه على المشركين كالصاعقة [(٣)].

ولم ينس ﷺ مجموعة الحراس التي كانت تحرس الأسلحة والعتاد بأن يرسل من يقوم بمهمتهم ممن طاف وسعى مكانهم، ويأتي هؤلاء ليؤدوا النسك، فقد كان ﷺ يتعامل مع نفوس يدرك حقيقة شوقها لبيت الله الحرام، وما جاءت للمرة الثانية وقطعت هذه المسافة الشاسعة إلا لتنال هذا الشرف، وتبل هذا الظمأ، فتطوف مع الطائفين وتسعى مع الساعين، فعمل ﷺ على مراعاة النفوس، وساعدها ولبى مطالبها من أجل إصلاحها والرقي بها؛ إنه من منهج النبوة في التربية [(٤)].

ثالثاً: زواجه ﷺ من أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها:

كانت ميمونة، أخت أم الفضل، زوجة العباس بن عبد المطلب، فتاة في السادسة والعشرين، قد جعلت أمر زواجها بعد وفاة زوجها أبو رهم بن عبد العزى إلى أختها أم الفضل، فجعلته أم الفضل إلى زوجها العباس، فزوجها العباس من ابن أخيه النبي ﷺ، وأصدقها عنه أربعمائة درهم [(٥)]، وهي خالة عبد الله بن عباس، وخالد بن الوليد، ولمَّا انقضت الثلاثة أيام، التي نص عليها عهد الحديبية، أراد النبي ﷺ أن يتخذ من زواجه من ميمونة وسيلة لزيادة التفاهم بينه وبين قريش، فجاءه سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، موفدين من نفر من قريش فقالوا: إنه قد انقضى أجلك، فاخرج عنا، فقال النبي ﷺ كما ذكر ابن إسحاق: «وما عليكم لو تركتموني، فأعرس بين أظهركم، وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه؟»

قالوا: لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنا [(٦)].

---

(١) انظر: صلح الحديبية لأبي فارس، (ص ٢٨٢).
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٧١).
(٣) انظر: صلح الحديبية لأبي فارس، (ص ٢٧٠).
(٤) المصدر السابق، (ص ٢٧٧).
(٥) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة (ص ٣٢٦).
(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٩).

فخرج، وخلف أبا رافع مولاه على ميمونة، حتى أتاه بها بسرف (موضع قرب التنعيم) فبنى بها هناك [(١)]، وهي آخر من تزوج الرسول ﷺ من نسائه، وآخر من مات من نسائه بعده، وأنها ماتت ودفنت بسرف، فمكان عرسها هو مكان دفنها، فرضي الله عنها وأرضاها [(٢)].

وفي زواج رسول الله ﷺ بميمونة مسألة فقهية اختلف الفقهاء فيها، وهي: هل تزوج ﷺ بميمونة وهو محرم (عقد نكاحها عليها فقط) أو عقد عليها بعد التحلل [(٣)]؟ وقد أجاد الفقهاء في تفصيلها.

رابعاً: التحاق بنت حمزة بن عبد المطلب بركب المسلمين:

لقد تغيّرت النفوس والعقول بتأثير الإسلام تغيراً عظيماً، فعادت البنت ـ التي كان يتعيّر بها أشراف العرب، وجرت عادة وأدها في بعض القبائل فراراً من العار، وزهداً في البنات ـ حبيبة يتنافس في تربيتها المسلمون، وكانوا سواسية، لا يرجع بعضهم على بعض إلا بفضل أو حق [(٤)]، فلما أراد النبي ﷺ الخروج من مكة، تبعته ابنة حمزة تنادي: يا عم! يا عم! فتناولها علي، فأخذ بيدها وقال لفاطمة رضي الله عنها: دونك ابنة عمك، فاختصم فيها علي وزيد وجعفر.

قال علي: أنا أخذتها وهي بنت عمي، وقال جعفر: هي ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيد: ابنة أخي، فقضى بها النبي ﷺ لخالتها وقال: «الخالة بمنزلة الأم»، وقال لعلي: «أنت مني وأنا منك»، وقال لجعفر: «أشبهت خَلْقي وخُلُقي»، وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا». وقال علي لزيد: ألا تتزوج بنت حمزة. قال: إنها ابنة أخي من الرضاعة [(٥)].

وفي هذه القصة دروس وعِبَر وأحكام وفوائد منها:

١ ـ الخالة بمنزلة الأم.

٢ ـ الخالة تقدم على غيرها في الحضانة إذ لم يوجد الأبوان.

٣ ـ تزكية رسول الله ﷺ لجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ووصفه له بقوله: «أشبهت خُلقي وخَلْقي».

٤ ـ منقبة علي: تأمل قوله ﷺ: «أنت مني وأنا منك»، والمعنى: أنت مني، وأنا منك في النسب والصهر، والسابقة والمحبة.

٥ ـ منقبة زيد بن حارثة: يقول له الرسول: «أنت أخونا ومولانا»، لأنه كان أخاً لحمزة بن عبد المطلب، فقد آخى الرسول ﷺ بينهما، وهو باجتهاده يريد أن يكون عليه ما على الأخ

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، (١٩/٤).
(٢) انظر: هذا الحبيب محمد يا محب، للجزائري (ص ٣٧٥).
(٣) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي (ص ٢٥٨).
(٤) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ٣٢١).
(٥) البخاري، كتاب المغازي (٥/ ١٠٠) رقم (٤٢٥١).

الشقيق من واجبات، والواجب هنا أن يكون ولياً على بنت حمزة رضي الله عنه.

٦ ـ الخالة تقدم على العمة في الحضانة: لقد حكم النبي ﷺ إلى زوجة جعفر بالحضانة وعمتها صفية بنت عبد المطلب حية موجودة.

٧ ـ زواج المرأة لا يسقط حقها في الحضانة: فقد حكم الرسول ﷺ بالحضانة لخالة بنت حمزة وهي متزوجة من جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه.

٨ ـ لا بد من موافقة الزوج على حضانة زوجته لابنة أختها، لأن الزوجة محتسبة لمصلحته ومنفعته، والحضانة قد تفوت هذه المصلحة جزئياً، فلا بدّ من استئذانه، ونلاحظ هنا أن جعفر بن أبي طالب قد طالب بحضانة بنت عمه حمزة لخالتها وهي زوجة له، فدل على رضاه بذلك.

٩ ـ إن الطفل إذا رضع مع عمه يصبح أخاً له في الرضاعة، وتصبح بناته كلهن بنات أخيه في الرضاعة، فيحرم عليه نكاحهن [1].

خامساً: أثر عمرة القضاء على الجزيرة وإسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة:

لقد كان تأثير هذه العمرة على قريش وعلى عرب الجزيرة تأثيراً بالغاً، فقد حملت في مضمونها مهمة دعوية عظيمة، ولقد تأثر أهل مكة من هذه العمرة السليمة.

يقول اللواء محمود شيت خطاب: (أثرت عمرة القضاء في هذه الفترة على معنويات قريش تأثيراً كبيراً، فقد وقف الكثير من قريش عند دار الندوة بمكة، كما عسكر آخرون فوق الهضاب المحيطة بها ليشهدوا دخول الرسول ﷺ وأصحابه، فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد اضطجع بردائه وأخرج عضده اليمنى، ثم قال: «رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة»)، ثم استلم الركن وأخذ يهرول وأصحابه معه. فلم يكد يترك الرسول ﷺ مكة، حتى وقف خالد بن الوليد يقول في جمع من قريش: لقد استبان لكل ذي عقل أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر وأن كلامه من كلام رب العالمين، فحق لكل ذي لب أن يتبعه، وسمع أبو سفيان بما كان من قول خالد بن الوليد، فبعث في طلبه، وسأله عن صحة ما سمع فأكّد له خالد صحته فاندفع أبو سفيان إلى خالد في غضبه، فحجز عنه عكرمة، وكان حاضراً، وقال: مهلاً يا أبا سفيان، فوالله خفتُ للذي خفت أن أقول مثل ما قال خالد وأكون على دينه، أنتم تقتلون خالداً على رأي رآه، وهذه قريش كلها تبايعت عليه، والله لقد خفت ألا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم. وأسلم من بعد خالد بن الوليد عمرو بن العاص، وحارس الكعبة نفسها عثمان بن طلحة؛ بل ظهر الإسلام في كل بيت من قريش سراً وعلانية، وبهذه النتيجة

---

(١) انظر: زاد المعاد فيه تفصيل كثير (٣/ ٣٧٤، ٣٧٥)، صلح الحديبية لأبي فارس، (ص ٢٨٦، ٢٨٧).

الطيبة يمكننا القول بأن عمرة القضاء هذه فتحت أبواب قلوب أهل مكة قبل أن يفتح المسلمون أبواب مكة نفسها) (١).

ويقول الأستاذ محمود العقاد: (.... وحسبك أن عمرة القضاء هذه قد جمعت في آثارها من أسباب الإقناع بالدعوة المحمدية ما أقنع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وهما في رجاحة العقل والخلق مثلان متكافئان يحتذى بهما) (٢).

١ - إسلام عمرو بن العاص رضي الله عنه:

ونترك عمرو بن العاص يحدثنا عن إسلامه حيث قال: لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعت رجالاً من قريش، كانوا يرون رأيي ويسمعون مني، فقلت لهم: تعلمون والله إني أرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً، وإني قد رأيت أمراً، فما ترون فيه؟ قالوا: وماذا رأيت؟ قال: رأيت أن نلحق بالنجاشي، فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي، فإنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد، وإن ظهر قومنا، فنحن من قد عرفوا، فلن يأتينا منهم إلا خير، قالوا: إن هذا الرأي، قلت: فاجمعوا لنا ما نهديه له، وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم (٣)، فجمعنا له أدماً كثيراً ثم خرجنا حتى قدمنا عليه، فوالله إنا لعنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضمري، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه، قال: فدخل عليه، ثم خرج من عنده، قال: فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية الضمري، لو دخلت على النجاشي، وسألته إياه فأعطانيه، فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أني أجزأت عنها (٤)، حيث قتلت رسول محمد، قال: فدخلت عليه، فسجدت له كما كنت أصنع، فقال: مرحباً صديقي، أهديت إليّ من بلادك شيئاً؟ قال: قلت: نعم، أيها الملك، قد أهديت إليك أدماً كثيراً، قال: ثم قرّبته إليه فأعجبه واشتهاه ثم قلت له: أيها الملك إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رسول رجل عدو لنا، فأعطنيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارتنا، قال: فغضب، ثم مدّ يده، فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره، فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها فرقاً منه، ثم قلت له: أيها الملك، والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه، قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله، قال: قلت: أيها الملك، أكذلك هو؟ قال: ويحك يا عمرو أطعني واتبعه، فإنه والله لعلى الحق، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، قال: قلت: أفتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم، فبسط يده فبايعته على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابي، وقد حال

(١) انظر: الرسول القائد (ص ٢٠٩، ٢١٠).
(٢) انظر: عبقرية محمد (ص ٦٩).
(٣) الأدم: الجلد.
(٤) أجزأت عنها: كفيتها.

رأيي عما كان عليه، وكتمت على أصحابي إسلامي ثم خرجت عامداً إلى رسول الله لأسلم، فلقيت خالد بن الوليد، وذلك قبيل الفتح، وهو مقبل من مكة، فقلت: أين يا أبا سليمان؟ قال: والله لقد استقام المنسم [(١)]، وإن الرجل لنبي، أذهب والله فأسلم، فحتى متى؟ قال: قلت: والله ما جئت إلا لأسلم. قال: فقدمنا المدينة على رسول الله ﷺ، فتقدم خالد بن الوليد، فأسلم، وبايع، ثم دنوت، فقلت: يا رسول الله ﷺ، إني أبايعك على أن يُغفر لي ما تقدم من ذنبي، ولا أذكر ما تأخر. قال: فقال رسول الله ﷺ: «يا عمرو، بايع، فإن الإسلام يجبّ ما كان قبله، وإن الهجرة تجبّ ما كان قبلها»، قال: فبايعته ثم انصرفت [(٢)]. وفي رواية قال: .... لما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فأبايعك. فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي، قال: «مالك يا عمرو؟» قال: قلت: أردت أن أشترط. قال: «تشترط بماذا؟» قلت: أن يُغفر لي. قال: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟»....) [(٣)].

٢ ـ إسلام خالد بن الوليد رضي الله عنه:

وهذا خالد بن الوليد يحدثنا عن قصة إسلامه فيقول: (.... لما أراد الله بي من الخير ما أراد قذف في قلبي حُبّ الإسلام وحضرني رشدي، وقلت: قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد، فليس موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى في نفسي أني مُوضع في غير شيء، وأن محمداً سيظهر، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية خرجت في خيل المشركين فلقيت رسول الله ﷺ في أصحابه بعُسْفان، فقمت بإزائه وتعرضت له، فصلّى بأصحابه الظهر آمناً منا، فهممنا أن نغير عليه، ثم لم يُعزَم لنا ـ وكانت فيه خيرة ـ فاطلع على ما في أنفسنا من الهمّ به فصلّى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف، فوقع ذلك مني موقعاً وقلت: الرجل مَمنوع! وافترقنا وعدل عن سَنَن خلينا وأخذ ذات اليمين، فلما صالح قريشاً بالحديبية ودافعته قريش بالرّواح قلت في نفسي: أي شيء بقي؟ أين المذهب إلى النجاشي؟ قد اتبع محمداً، وأصحابه آمنون عنده، فأخرج إلى هرقل؟ فأخرج من ديني إلى نصرانية أو يهودية، فأقيم مع عجم تابعاً، أو أقيم في داري فيمن بقي؟ فأنا على ذلك إذ دخل رسول الله ﷺ عُمرة القضيَّة، فتغيَّبت فلم أشهد دخوله، وكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النبي ﷺ في عُمرة القضية، فطلبني فلم يجدني فكتب إليَّ كتاباً فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فإني لم أرَ أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام، وعَقْلُك عَقْلُكَ! ومثل الإسلام جَهله أحد؟ وقد سألني رسول الله ﷺ عنك فقال: «أين خالد؟» فقلت: يأتي الله به؟ فقال: «ما مثله يجهل الإسلام! ولو كان جعل

---

(١) استقام المنسم: تبين الطريق ووضح.
(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٤٩٤).
(٣) مسلم، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله رقم (١٢١).

نكايته وجدَّه مع المسلمين على المشركين، لكان خيراً له، ولقدمناه على غيره، فاستدرك يا أخي ما فاتك، فقد فاتتك مواطن صالحة».

قال: فلما جاءني كتابه نشطت للخروج، وزادني رغبة في الإسلام وسرني مقالة رسول الله. قال خالد: وأرى في النوم كأني في بلاد ضيقة جديبة، فخرجت إلى بلد أخضر واسع، فقلت: إن هذه لرؤيا. . . . فلما قدمت المدينة قلت: لأذكرنَّها لأبي بكر. قال: فذكرتها فقال: هو مخرجك الذي هداك الله للإسلام، والضيق الذي كنت فيه من الشرك، فلما أجمعت للخروج إلى رسول الله قلت: من أصاحب إلى رسول الله؟ فلقيت صفوان بن أمية فقلت: يا أبا وهب، أما ترى ما نحن فيه؟ إنما نحن أَكَلَةُ رأس [١]، وقد ظهر محمد على العرب والعجم، فلو قدمنا على محمد فاتبعناه فإن شرف محمد على العرب، فأبى أشدَّ الإباء وقال: لو لم يبق غيري من قريش ما اتبعته أبداً فافترقنا، وقلت: هذا رجل موتور يطلب وتراً، قد قُتل أبوه وأخوه ببدر، فلقيت عكرمة بن أبي جهل فقلت له مثل الذي قلت لصفوان، فقال لي مثل ما قال صفوان، قلت: فاطو ما ذكرت قال: لا أذكره. فخرجت إلى منزلي، فأمرت براحلتي، فخرجت بها إلى أن لقيت عثمان بن طلحة، فقلت: إن هذا لي صديق فلو ذكرت له ما أرجو، ثمّ ذكرت من قُتل من آبائه فكرهتُ أن أذكِّره، ثم قلت: وما عليَّ وأما راحل من ساعتي، فذكرت له ما صار الأمر إليه فقلت: إنما نحن بمنزلة ثعلب في حجر، لو صُبَّ عليه ذَنوب [٢] من ماء لخرج، قال: وقلت له نحو مما قلت لصاحبيه، فأسرع في الإجابة وقال: لقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو، وهذه راحلتي بفجّ مناخة، قال: فاتعدت أنا وهو بيأجج، إن سبقني أقام وإن سبقته أقمت عليه، قال: فأدلجنا سحراً فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجج، فغدونا حتى انتهينا إلى الهَدَّة، فنجد عمرو بن العاص بها فقال: مرحباً بالقوم فقلنا: وبك! قال: مسيركم؟ قلنا: ما أخرجك؟ قال: فما الذي أخرجكم؟ قلنا: الدخول في الإسلام واتباع محمد ﷺ، قال: وذلك الذي أقدمني.

قال: فاصطحبْنا جميعاً حتى قدمنا المدينة فأنخنا بظاهر الحرّة ركابنا، فأُخبر بنا رسول الله ﷺ فسُرَّ بنا، فلبست من صالح ثيابي، ثم عمدت إلى رسول الله ﷺ، فلقيني أخي فقال: أسرع فإن رسول الله ﷺ قد أخبر بك فسُرَّ بقدومك وهو ينتظركم، فأسرعت المشي فطلعت عليه، فما زال يتبسم إليّ حتى وقفت عليه، فسلمت عليه بالنبوة فرد عليَّ السلام بوجه طلق، فقلت: إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال: «الحمد للّه الذي هداك! قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلا إلى الخير»، قلت: يا رسول الله قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً عن الحق فادعُ الله أن يغفرها لي، فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام يجبُّ ما كان قبله»، قلت: يا رسول الله، على ذلك؟ فقال: «اللهم اغفر لخالد كل ما أوضع فيه من صدٍّ عن

(١) أي هم قليل يشبعهم رأس واحد، وهو جمع آكل.
(٢) الذنوب: الدلو العظيمة.

سبيلك»، قال خالد: وتقدم عمرو، وعثمان، فبايعا رسول الله ﷺ، وكان قدومنا في صفر سنة ثمان، فوالله ما كان رسول الله ﷺ من يوم أسلمت يعدل لي أحداً من أصحابه فيما حَزَبه [١]. وفي إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد رضي الله عنهما دروس ولطائف وعِبَر منها:

أ ـ غضبة النجاشي تدل على صدق إيمانه وحبه لرسول الله ﷺ وحبه للمسلمين، وصدق النجاشي كان له أثر في إيمان عمرو بن العاص ودخوله في الإسلام، وبذلك نال النجاشي أجراً عظيماً حيث جذب إلى الإسلام رجلاً من عظماء قريش [٢].

ب ـ كان إسلام عمرو بن العاص نصراً كبيراً للإسلام والمسلمين، فلقد سخّر عقله الكبير ودهاءه العظيم لصالح دعوة الإسلام، وخسر الكفار بإسلامه خسارة كبيرة لأنهم كانوا يعدونه لعظائم الأمور التي تحتاج إلى دهاء ومقدرة على التأثير، وخاصة فيما يتعلق بعدائهم مع المسلمين [٣].

جـ ـ أدرك خالد بن الوليد أن العاقبة لرسول الله ﷺ وتأمل قوله: لقد شهدت هذه المواطن كلها على محمد، فليس موطن أشهده إلا انصرف وأنا أرى في نفسي أني موضع في غير شيء، وأن محمداً سيظهر [٤]، وفي هذا عبرة لكل الذين يحاربون الإسلام [٥].

د ـ الاهتمام بالبشر طريق من طرق التأثير عليهم وكسبهم إلى الصف المؤمن ولذلك قال رسول الله للوليد بن الوليد: «ما مثل خالد يجهل الإسلام، ولو كان جعل نكايته وجده مع المسلمين على المشركين لكان خيراً له ولقدمناه على غيره» [٦]، فكانت لهذه الكلمات البليغة أعظم الأثر في تحول قلب خالد وتوجهه نحو الإسلام، وقد كان رسول الله ﷺ عليماً في مخاطبة النفوس والتأثير عليها، فلقد أدرك مواهب خالد في القيادة والزعامة فوعد بتمكينه من ذلك وتقديمه على غيره في هذا المضمار، ومدح ﷺ سداد رأيه ورجاحة عقله، ونضج فكره، فانتزع ﷺ بهذه الكلمات كل الجوانب التي تجعل خالداً يظل على الشرك الذي لم يكن مقتنعاً به إلا بمقدار ما حصل له فيه من قيادة وتصدر، فلما كان ما هيأه له إذا دخل في الإسلام، واطمأن بأنه لو أسلم لن يكون في آخر القائمة ولن يكون مهملاً، شجعه ذلك على التغلب على وساوس إبليس ورجح ما اطمأنت إليه نفسه من الميل إلى الإسلام فعزم على

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٣٩، ٢٤٠)، التاريخ الإسلامي (٧/ ٩٥).
(٢) انظر: التاريخ الإسلامي (٧/ ٩٠).
(٣) المصدر السابق، (٧/ ٩١).
(٤) انظر: صلح الحديبية لأبي فارس، (ص ٢٦٣).
(٥) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ٩٥).
(٦) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ٩٥).

الدخول فيه، لقد كان إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد قوة للإسلام وضعفاً للشرك، وكتب الله على أيديهما صفحات مشرقة من تاريخ المسلمين الجهادي، أصبحت باقية في ذاكرة الأمة وتاريخها المجيد على مرّ الدهور وكرّ العصور وتوالي الأزمان [(١)].

المبحث الرابع

سرية مؤتة (٨ هـ)

أولاً: أسبابها وتاريخها:

أشعل عرب الشام فتيل الصراع بين المسلمين والبيزنطيين، فقد دأبت قبيلة كلب من قضاعة التي كانت تنزل على دومة الجندل على مضايقة المسلمين، وحاولت أن تفرض عليهم نوعاً من الحصار الاقتصادي عن طريق إيذائها للتجار الذين كانوا يحملون السلع الضرورية من الشام إلى المدينة، ولذلك غزا رسول الله ﷺ قبيلة كلب بدومة الجندل سنة (٥ هـ)، لكنه وجدهم قد تفرقوا، كما أن رجالاً من جُذام ولخم قطعوا الطريق على دحية بن خليفة الكلبي عند مروره بحسمي بعد إنجازه لمهمة أناطها به رسول الله ﷺ واستلبوا كل ما معه، فكانت سرية زيد بن حارثة إلى حسمي في سنة ٦ هـ، ويضاف إلى ذلك أيضاً ما قامت به قبيلتنا مذحج وقضاعة من اعتداء على زيد بن حارثة وصحبه في العام المذكور (٦ هـ) وذلك عندما ذهبوا إلى وادي القرى في بعثة بغرض الدعوة إلى الله، وبعد صلح الحديبية أخذ هذا المسلك العدواني يأخذ منحنى أكثر خطورة [(٢)]، بعد مقتل الحارث بن عمير الأزدي رسول رسول الله إلى حاكم (بصرى) التابع لحاكم الروم، فقد قام شرحبيل بن عمرو الغساني بضرب عنق رسول رسول الله ولم تجر العادة بقتل الرسل والسفراء، كما أن الحارث بن أبي شمر الغساني حاكم دمشق أساء استقبال مبعوث رسول الله وهدد بإعلان الحرب على المدينة، ثم حدث بعد ذلك بما يزيد قليلاً عن العام أن بعث رسول الله سرية بقيادة عمرو بن كعب الغفاري ليدعو إلى الإسلام في مكان يقال له: (ذات اطلاع) فلم يستجب أهل المنطقة إلى الإسلام وأحاطوا بالدعاة من كل مكان وقاتلوهم حتى قتلوهم جميعاً إلا أميرهم، كان جريحاً فتحامل على جرحه حتى وصل إلى المدينة فأخبر رسول الله ﷺ [(٣)]، وقد قام نصارى الشام بزعامة الامبراطورية الرومانية بالاعتداءات على من يعتنق الإسلام أو يفكر بذلك، فقد قتلوا والي مَعَان حين أسلم، وقتل والي الشام من أسلم من

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي، (٧ / ٩٥).

(٢) انظر: المسلمون والروم في عصر النبوة، عبد الرحمن أحمد سالم (ص ٨٧).

(٣) انظر: تاريخ الطبري (٣/ ١٠٣).

عرب الشام [١].

كانت هذه الأحداث المؤلمة ـ وبخاصة مقتل سفير رسول الله الحارث بن عمير الأزدي ـ محركة لنفوس المسلمين، وباعثاً لهم ليضعوا حدًّا لهذه التصرفات النصرانية العدوانية، ويثأروا لإخوانهم في العقيدة الذين سفكت دماؤهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ونبينا محمد رسول الله [٢]، كما أن تأديب عرب الشام التابعين للدولة الرومانية والذين دأبوا على استفزاز المسلمين وتحديهم وارتكاب الجرائم ضد دعاتهم أصبح هدفاً مهماً، لأن تحقيق هذا الهدف معناه فرض هيبة الدولة الإسلامية في تلك المناطق بحيث لا تتكرر مثل هذه الجرائم في المستقبل، وبحيث يأمن الدعاة المسلمون على أنفسهم، ويأمن التجار المترددون بين الشام والمدينة من كل أذى يحول دون وصول السلع الضرورية إلى المدينة [٣].

وفي سنة ٨ هـ أمر رسول الله ﷺ المسلمين بالتجهيز للقتال، فاستجابوا للأمر النبوي وحشدوا حشوداً لم يحشدوها من قبل، إذ بلغ عدد المقاتلين في هذه السرية ثلاثة آلاف مقاتل، واختار النبي ﷺ للقيادة ثلاثة أمراء على التوالي: زيد بن حارثة، ثم جعفر بن أبي طالب، ثم عبد الله بن رواحة [٤]، فقد روى البخاري في صحيحه بإسناده إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: أمّر رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة فقال رسول الله ﷺ: «إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة» [٥].

وقد أمر رسول الله ﷺ الجيش الإسلامي أن يأتوا المكان الذي قتل فيه الحارث بن عمير الأزدي رضي الله عنه وأن يدعوا من كان هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا فبها ونعمت، وإن أبوا استعينوا بالله عليهم وقاتلوهم [٦].

وقد زوّد الرسول ﷺ الجيش في هذه السرية وغيرها من السرايا بوصايا تتضمن آداب القتال في الإسلام [٧]، فقد أوصى رسول الله ﷺ أصحابه بقوله: «أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً، اغزوا باسم الله، في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تقتلوا وليداً، ولا امرأة، ولا كبيراً فانياً، ولا منعزلاً بصومعة، ولا تقربوا نخلاً، ولا تقطعوا شجراً، ولا تهدموا بناءً، وإذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوهم إلى إحدى ثلاث: فإما الإسلام، وإما الجزية،

---

(١) انظر: خاتم النبيين (٢/ ١١٣٩) نقلاً عن الصراع مع الصليبيين لأبي فارس، (ص ٢٠).
(٢) انظر: الصراع مع الصليبيين لأبي فارس، (ص ٢٠).
(٣) انظر: المسلمون والروم في عصر النبوة (ص ٨٩).
(٤) انظر: الصراع مع الصليبيين (ص ٢٠).
(٥) البخاري، كتاب المغازي (٥/ ١٠٢) رقم (٤٢٦١).
(٦) انظر: السيرة الحلبية (٢/ ٧٨٧).
(٧) انظر: الصراع مع الصليبيين (ص ٢١).

وإما الحرب....»[(١)].

ثانياً: وداع الجيش الإسلامي:

لمَّا تجهَّز الجيش الإسلامي، وأتمَّ استعداده توجّه رسول الله ﷺ والمسلمون يودِّعون الجيش ويرفعون أكف الضراعة لله ـ ﷻ ـ أن ينصر إخوانهم المجاهدين، لقد سلموا عليهم وودعوهم بهذا الدعاء: دفع الله عنكم وردّكم صالحين غانمين[(٢)].

ولمَّا ودّع الناس عبد الله بن رواحة وسلّموا عليه بكى وانهمرت الدموع من عينيه ساخنة غزيرة، فتعجب الناس من ذلك وقالوا: ما يبكيك يا ابن رواحة؟ فقال: والله ما بي حب الدنيا وصبابة، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١] ، فلست أدري كيف بي بالصدر بعد الورود، فقال لهم المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم، وردّكم إلينا صالحين، فقال عبد الله بن رواحة:

لكنني أسأل الرحمٰن مغفرة ... وضربة ذات فراغ تقذف الزبدا
أو طعنة بيدي حران مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقولوا إذا مروا على جدثي ... أرشده الله من غازٍ وقد رشدا[(٣)]

وودّع رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة فقال ابن رواحة يخاطب رسول الله ﷺ:

يثبت الله ما آتاك من حسن ... تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا
إني تفرّست فيك الخير نافلة ... فراسة خالفتهم في الذي نظروا
أنت الرسول فمن يحرم نوافله ... والوجه منه فقد أزرى به القدر[(٤)]

ثالثاً: الجيش يصل إلى معان واستشهاد الأمراء الثلاثة:

لمَّا وصل الجيش الإسلامي إلى معان من أرض الشام ـ وهي الآن محافظة من محافظات الأردن ـ بلغه أن النصارى الصليبيين من عرب وعجم قد حشدوا حشوداً ضخمة لقتالهم، إذ حشدت القبائل العربية مائة ألف صليبي من لخم وجذام وبهراء وبلى، وعيّنت لهم قائداً هو مالك بن رافلة، وحشد هرقل مائة ألف نصراني صليبي من الروم فبلغ جيشهم مائتي ألف مقاتل، مزوّدين بالسلاح الكافي يرفلون في الديباج، لينبهر المسلمون بهم وبقوتهم[(٥)]، ولقد قام المسلمون في معان يومين يتشاورون في التصدي لهذا الحشد الضخم فقال بعضهم: نرسل إلى

---

(١) انظر: المغازي (٢/ ٧٥٧، ٧٥٨).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٢١).
(٣) المصدر السابق (٤/ ٢١)
(٤) انظر: مغازي رسول الله لعروة بن الزبير (ص ٢٠٤، ٢٠٥).
(٥) انظر: شرح المواهب اللدنية (٢/ ٢٧١).

رسول الله ﷺ في المدينة نخبره بحشود العدو فإن شاء أمدنا بالمدد وإن شاء أمرنا بالقتال (١)، وقال بعضهم لزيد بن حارثة قائد الجيش: وقد وطئت البلاد وأخفت أهلها، فانصرف، فإنه لا يعدل العافية شيء (٢) ولكن عبد الله بن رواحة حسم الموقف بقوله: (يا قوم، والله إن الذي تكرهون للذي خرجتم تطلبون الشهادة! وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة؛ ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا؛ فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور، وإما شهادة، فألهبت كلماته مشاعر المجاهدين واندفع زيد بن حارثة بالناس إلى منطقة مؤتة جنوب الكرك يسير حيث آثر الاصطدام بالروم هناك، فكانت ملحمة سجّل فيها القادة الثلاثة بطولة عظيمة انتهت باستشهادهم (٣)، فقد استبسل زيد بن حارثة وتوغل في صفوف الأعداء وهو يحمل راية رسول الله ﷺ حتى شاط في رماح القوم (٤).

ثم أخذ الراية جعفر وانبرى يتصدى لجموع المشركين الصليبيين، فكثفوا حملاتهم عليه، وأحاطوا به إحاطة السور بالمعصم، فلم تلن له قناة، ولم تهن له عزيمة، بل استمر في القتال، وزيادة في الإقدام نزل عن فرسه وعقرها، وأخذ ينشد:

يا حبذا الجنة واقترابُها ... طيبة وبارداً شرابُها
والروم روم قد دنا عذابُها ... كافرة بعيدة أنسابُها
عليَّ إذ لاقيتها ضرابها (٥)

لقد أخذ رضي الله عنه اللواء بيده اليمنى فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه وانحنى عليه حتى استشهد وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، ولقد أُثخن رضي الله عنه بالجراح إذ بلغ عدد جراحه تسعين بين طعنة برمح أو ضربة بسيف أو رمية بسهم وليس من بينها جرح في ظهره بل كلها في صدره (٦).

روى الإمام البخاري ـ ح ـ في صحيحه بإسناده إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: كنت في تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين من طعنة أو رمية (٧).

ولقد عوّض الله ـ تبارك وتعالى ـ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وأكرمه على شجاعته وتضحيته

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٨٢).
(٢) انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (١/ ٣٩٦).
(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٦٨).
(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٢٥).
(٥) المصدر السابق، (٤/ ٢٦).
(٦) انظر: الصراع مع الصليبيين (ص ٥٨).
(٧) البخاري، كتاب المغازي (٥/ ١٠٢) رقم (٤٢٦١).

بأن جعل له جناحين يطير بهما في الجنة حيث يشاء، فقد روى البخاري في صحيحه بإسناده إلى عامر قال: كان ابن عمر إذا حيا ابن جعفر قال: السلام عليك يا ابن ذي الجناحين [١].

وبعد استشهاد جعفر بن أبي طالب، تسلّم الراية عبد الله بن رواحة الأنصاري رضي الله عنه وامتطى جواده، وهو يقول:

أقسمت يا نفس لتنزلنه ... لتنزلن أو لتكرهنه
إن أجلبَ [٢] الناسُ وشدوا الرَّنَّة [٣] ... مالي أراك تكرهين الجنة
قد طال ما قد كنت مطمئنة ... هل أنت إلا نطفة في شنة
يا نفس ألا تُقتلي تموتي ... هذا حمام الموت قد صَليتِ
وما تمنيت فقد أعطيت ... إن تفعلي فِعْلهما هُديت [٤]

ويذكر أن ابن عم لعبد الله بن رواحة قد قدم له قطعة من الحم، وقال له: شد بهذا صلبك، فإنك لقيت في أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده ثم انتهس منه نهسة، ثم سمع جلبة وزحاماً في جبهة القتال، فقال يخاطب نفسه: وأنت في الدنيا! ثم ألقى قطعة اللحم من يده وتقدم يقاتل العدو حتى استشهد رضي الله عنه وكان ذلك في آخر النهار [٥].

رابعاً: المسلمون يختارون خالد بن الوليد قائداً:

ولما استشهد عبد الله بن رواحة رضي الله عنه وسقطت الراية من يده فالتقطها ثابت بن أقرم بن تعلبة بن عدي بن العجلان البلوي الأنصاري وقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد [٦]، وجاء في إمتاع الأسماع أن ثابت بن أقرم نظر إلى خالد بن الوليد فقال: خذ اللواء يا أبا سليمان، فقال: لا آخذه، أنت أحق به، أنت رجل لك سن، فقد شهدت بدراً، فقال ثابت: خذه أيها الرجل فوالله ما أخذته إلا لك، فأخذه خالد بن الوليد رضي الله عنه [٧]، وأصبحت الخطة الأساسية المنوطة بخالد، في تلك الساعة العصيبة من القتال، أن ينقذ المسلمين من الهلاك الجماعي، فبعد أن قدر الموقف واحتمالاته المختلفة قدراً دقيقاً، ودرس ظروف المعركة درساً وافياً وتوقع نتائجها، اقتنع بأن الانسحاب بأقل خسارة ممكنة هو الحل الأفضل، فقوة العدو تبلغ (٦٦) ضعفاً لقوة

(١) البخاري، كتاب المغازي (٥/١٠٣) رقم (٤٢٦٤).
(٢) إن أجْلبَ الناس: صاحوا واجتمعوا.
(٣) الرنة: صوت ترجيع شبه البكاء.
(٤) انظر: السيرة النبويّة لابن هشام (٤/٢٦، ٢٧).
(٥) انظر: الصراع مع الصليبيين (ص ٦١).
(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/٢٧).
(٧) انظر: إمتاع الأسماع (١/٣٤٨، ٣٤٩).

المسلمين، فلم يبق أمام هؤلاء إلا الانسحاب المنظم وعلى هذا الأساس وضع خالد الخطة التالية:

أ - الحؤول بين جيش الروم وجيش المسلمين، ليضمن لهذا الأخير سلامة الانسحاب.

ب - لبلوغ هذا الهدف، لا بدّ من تضليل العدو بإيهامه أن مدداً قد ورد إلى جيش المسلمين، فيخفف من ضغطه وهجماته ويتمكن المسلمون من الانسحاب، وصمد خالد حتى المساء عملاً بهذه الخطة، وغيّر، في ظلام الليل، مراكز المقاتلين في جيشه، فاستبدل الميمنة بالميسرة، ومقدمة القلب بالمؤخرة. وفي أثناء عملية الاستبدال اصطنع ضجة صاخبة وجلبة قوية، ثم حمل على العدو، عند الفجر، بهجمات سريعة متتالية وقوية ليُدخل في روعه أن إمدادات كثيرة وصلت إلى المسلمين (١).

ونجحت الخطة، إذ بدا للعدو صباحاً أن الوجوه والرايات التي تواجهه جديدة لم يرها من قبل، وأن المسلمين يقومون بهجمات عنيفة، فأيقن أنهم تلقوا إمدادات، وأن جيشاً جديداً نزل إلى الميدان، وكان البلاء الحسن الذي أبلاه المسلمون قد فتَّ في عضد الروم وحلفائهم، فأدركوا أن إحراز نصر حاسم ونهائي على المسلمين أمر مستحيل، فتخاذلوا وتقاعسوا عن متابعة الهجوم، وضعف نشاطهم واندفاعهم، فخف الضغط عن جيش المسلمين، وانتهز خالد الفرصة فباشر الانسحاب وكانت عملية التراجع التي قام بها خالد في أثناء معركة (مؤتة) من أكثر العمليات في التاريخ العسكري مهارة ونجاحاً، بل إنها تتفق وتتلاءم مع التكتيك الحديث للانسحاب، فقد عمد خالد إلى سحب الجناحين بحماية القلب، ولما أصبح الجناحين بمنأى عن العدو، وفي مأمن منه، عمد إلى سحب القلب بحماية الجناحان، إلى أن تمكن وضمن سلامة الانسحاب كلياً (٢)، ويقول المؤرخون إن خسارة المسلمين لم تتعد الاثني عشر قتيلاً في هذه المعركة، وإن خالداً قال: (لقد دق في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، وصبرت في يدي صفيحة لي يمانية) (٣).

ويمكن القول إن خالداً بخطته تلك، قد أنقذ الله المسلمين به من هزيمة ماحقة، وقتل محقق، وأن انسحابه كان قمة النصر بالنسبة إلى ظروف المعركة، حيث يكون الانسحاب، في ظروف مماثلة، أصعب حركات القتال، بل أجداها وأنفعها (٤).

خامساً: معجزة الرسول ﷺ وموقف أهل المدينة من الجيش:

ظهرت معجزة للرسول ﷺ في أمر هذه السرية فقد نعى للمسلمين في المدينة زيداً وجعفر

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ٢٤٧)؛ الواقدي (٢/ ٧٦٤).

(٢) انظر: معارك خالد بن الوليد، د. ياسين سويد (ص ١٧٣).

(٣) البخاري، كتاب المغازي (٥/ ١٠٣) رقم (٤٢٦٦).

(٤) انظر: معارك خالد بن الوليد (ص ١٧٥).

وابن أبي رواحة قبل أن يصل إليه خبرهم، وحزن رسول الله ﷺ لما وقع للسرية وذرفت عيناه الدموع، ثم أخبرهم بتسلم خالد الراية، وبشّرهم بالفتح على يديه وأسماه سيف الله (١)، وبعد ذلك قدم من أخبرهم بأخبار السرية، ولم يزد عما أخبرهم به النبي ﷺ (٢).

ولما دنا الجيش من حول المدينة، تلقاهم رسول الله ﷺ والمسلمون ولقيهم الصبيان يشتدون، ورسول الله ﷺ مقبل مع القوم على دابة فقال: «خذوا الصبيان واحملوهم، وأعطوني ابن جعفر»، فأتي بعبد الله، فأخذه، فحمله على يديه، وجعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون: يا فُرّار أفررتم في سبيل الله، ويقول رسول الله ﷺ: «ليسوا بالفرار، ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى» (٣).

وإن الإنسان ليعجب من هذه التربية النبوية التي صنعت من الأطفال الصغار، رجالاً وأبطالاً يرون العودة من المعركة دون شهادة في سبيل الله، فراراً من سبيل الله، لا يكافأون عليه إلا بحثو التراب في وجوههم، فأين شبابنا المتسكعون في الشوارع، من هذه النماذج الرفيعة من الرجولة الفذة المبكرة؟ ولن تستطيع الأمة أن ترتفع إلى هذه الأهداف النبيلة والقمم الشوامخ إلا بالتربية الإسلامية الجادة القائمة على المنهاج النبوي الكريم (٤).

سادساً: دروس وعِبَر وفوائد:

ففي هذه الغزوة دروس وعِبَر كثيرة منها:

١ ـ أهمية هذه المعركة:

تعتبر هذه المعركة من أهم المعارك التي وقعت بين المسلمين وبين النصارى الصليبيين من عرب وعجم، لأنها أول صدام مسلح ذي بال بين الفريقين، وأثرت تلك المعركة على مستقبل الدولة الرومانية، فقد كانت مقدمة لفتح بلاد الشام وتحريرها من الرومان. ونستطيع أن نقول إن تلك الغزوة هي خطوة عملية قام بها النبي ﷺ للقضاء على دولة الروم المتجبرة في بلاد الشام، فقد هز هيبتها من قلوب العرب وأعطت فكرة عن الروح المعنوية العالية عند المسلمين، كما أظهرت ضعف الروح المعنوية في القتال عند الجندي الصليبي النصراني (٥)، وأعطت فرصة للمسلمين للتعرف على حقيقة قوات الروم، ومعرفة أساليبهم في القتال.

٢ ـ حب الشهادة باعث للتضحية:

إن الصبر والثبات والتضحية التي تجلت في كل واحد من الأمراء الثلاثة وسائر الجند، كان

---

(١) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٦٠).
(٢) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٥٥).
(٣) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ٣٢٨) تاريخ الذهبي (ص ٤٩١).
(٤) انظر: دروس وعِبَر من الجهاد النبوي (ص ٣٥٨).
(٥) انظر: الصراع مع الصليبيين (ص ٦٤).

مبعثها الحرص على ثواب المجاهدين والرغبة في نيل الشهادة، لكي يكرِّمهم الله برفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ويدخلوا جنات الله الواسعة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

٣ ـ تميز هذه المعركة عن سائر المعارك:

فهي الوحيدة التي جاء خبرها من السماء، إذ نعى النبي ﷺ استشهاد الأبطال الثلاثة قبل أن يصل الخبر من أرض المعركة، بل أخبر النبي ﷺ عن أحداثها، وتمتاز أيضاً عن غيرها بأنها الوقعة الوحيدة التي اختار النبي ﷺ لها ثلاثة أمراء على الترتيب: زيد بن حارثة، جعفر بن أبي طالب، عبد الله بن رواحة [١].

٤ ـ إكرام النبي ﷺ لآل جعفر:

لما أصيب جعفر دخل رسول الله ﷺ على أسماء بنت عميس فقال: «ائتني بني جعفر»، فأتت بهم فشمهم وقبّلهم وذرفت عيناه، فقالت أسماء: أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: «نعم، أصيبوا هذا اليوم»، فجعلت تصيح وتولول فقال النبي ﷺ: «لا تغفلوا عن آل جعفر أن تصنعوا لهم طعاماً، فإنهم قد شُغلوا بأمر صاحبهم» [٢]، ونلحظ في هذا الخبر عدة أمور منها:

أ ـ جواز بكاء المرأة على زوجها المتوفى:

أخذ هذا من فعل أسماء بنت عميس رضي الله عنها حينما نعى النبي ﷺ زوجها ومن معه، فبكت وصاحت، فلم ينكر عليها النبي ﷺ، ولم ينهها عن ذلك، ولو كان ممنوعاً لنهاها عن ذلك، والبكاء الذي نهى عنه الإسلام هو ما كان سائداً عند أهل الجاهلية من النواح واللطم وشق الجيوب، والتبرم بقضاء الله وقدره، وما إلى ذلك مما يكون سبباً في معصية الخالق سبحانه.

ب ـ استحباب صنع الطعام لأهل الميت:

وقد ندب الرسول ﷺ الناس أن يصنعوا طعاماً لآل جعفر، وهذا فيه مواساة لأهل المتوفى وتخفيف مصابهم، وفي الوقت نفسه تكافل بينهم، وهذه السنّة خالفتها بعض الشعوب الإسلامية وأصبح أهل الميت يصنعون الطعام للقادمين، وهذا أمر قبيح ينبغي أن يبتعد عنه المسلمون [٣].

هذا وقد نهى رسول الله ﷺ عن البكاء بعد ثلاثة، فقد دخل على أسماء وقال لها: «لا تبكوا على أخي بعد اليوم، ادعوا لي بني أخي» فجيء بهم كأنهم أفرخ، فدعا بالحلاق فحلق

---

(١) انظر: الصراع مع الصليبيين ص ٦٦).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/٢٨).
(٣) انظر: الصراع مع الصليبيين، (ص ٦٨).

لهم رؤوسهم، ثم قال: «أما محمد فشبيه عمنا أبي طالب وأما عبد الله فشبيه خَلْقي وخُلُقي» ثم أخذ بيمين عبد الله وقال: «اللهم اخلُف جعفراً في أهله، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه» قالها ثلاثاً [١]. ولما ذكرت له أمهم يتمهم وضعفهم قال لها: «العيلة تخافين عليهم، وأنا وليهم في الدنيا والآخرة» [٢]. وهذا منهج نبوي كريم خطه رسول الله ﷺ لرعاية وتكريم أبناء الشهداء لكي تسير الأمة على نهجه الميمون [٣].

ج ـ زواج أبي بكر الصديق من أسماء بنت عميس:

وبعد أن انقضت عدة أسماء بنت عميس خطبها أبو بكر الصديق رضي الله عنه فتزوجها، وولدت له محمد بن أبي بكر وبعدما توفي الصديق تزوجها بعده علي بن أبي طالب وولدت له أولاداً رضي الله عنها وعنهم أجمعين [٤].

وقد ذكر ابن كثير أن أسماء بنت عميس رثت زوجها جعفر بن أبي طالب بقصيدة تقول فيها:

فآليت لا تنفك نفسي حزينة ... عليك ولا ينفكُّ جلدي أغبرا
فلله عينا من رأى مثله فتى ... أكر وأحمر في الهياج وأصبرا [٥]

٥ ـ من فقه القيادة:

إنه درس عظيم يقدمه لنا الصحابي الجليل ثابت بن أقرم العجلاني، عندما أخذ اللواء بعد استشهاد عبد الله بن رواحة آخر الأمراء، وذلك أداء منه للواجب، لأن وقوع الراية معناه هزيمة الجيش، ثم نادى المسلمين أن يختاروا لهم قائداً، وفي زحمة الأحداث قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل.... فاصطلح الناس على خالد.

وفي رواية أن ثابتاً مشى باللواء إلى خالد فقال خالد: لا آخذه منك، أنت أحق به، فقال: والله ما أخذته إلا لك.

إن مضمون كلتا الروايتين واحد، أن ثابتاً جمع المسلمين أولاً وأعطى القوس باريها فأعطى الراية أبا سليمان خالد بن الوليد [٦]، ولم يقبل قول المسلمين: أنت أميرنا. ذلك أنه يرى فيهم من هو أكفأ منه لهذا العمل، وحينما يتولى العمل من ليس له بأهل، فإن الفساد متوقع، والعمل حينما يكون لله تعالى، لا يكون فيه أثر لحب الشهرة، أو حظ النفس.

إن ثابتاً لم يكن عاجزاً عن قيادة المسلمين ـ وهو ممن حضر بدراً ـ ولكنه رأى من الظلم أن يتولى عملاً وفي المسلمين من هو أجدر به منه، حتى ولو لم يمض على إسلامه أكثر من

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٥٢).
(٢) المصدر السابق، (٤/ ٢٥٢).
(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٣٠).
(٤) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٥٣).
(٥) المصدر السابق، (٤/ ٣٥٢).
(٦) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ١٢٤).

ثلاثة أشهر؛ لأن الغاية هي السعي لتنفيذ أوامر الله على الوجه الأحسن والطريقة الأمثل [١].

إن كثيراً ممّن يتزعمون قيادة الدعوة الإسلامية اليوم يضعون العراقيل أمام الطاقات الجديدة، والقدرات الفذة خوفاً على مكانتهم القيادية، وامتيازاتهم الشخصية، وأطماعهم الدنيوية، فعلى أولئك القادة أن يتَّعظوا من هذا الدرس البليغ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

٦ ـ درس نبوي في احترام القيادة:

قال عوف بن مالك الأشجعي ﷺ . . . . : خرجت مع زيد بن حارثة في غزوة مؤتة ورافقني مَدَديّ من اليمن [٢]. . . . ومضينا فلقينا جموع الروم، فيهم رجل على فرس له أشقر عليه سرج مذهّب وله سلاح مذهب، فجعل الرومي يضرب بالمسلمين، فقعد له المددي خلف صخرة فمرّ به الرومي فعرقب فرسه بسيفه، وفرّ الروميّ، فعلاه بسيفه فقتله وحاز فرسه وسلاحه، فلما فتح الله للمسلمين، بعث إليه خالد بن الوليد فأخذ منه بعض السلب، قال عوف: فأتيت خالداً، وقلت له: أما علمت أن رسول الله ﷺ قضى بالسلب للقاتل؟ قال: بلى، ولكني استكثرته، قلت: لتردنها إليه أو لأعرفنكها عند رسول الله ﷺ، فأبى أن يرد عليه.

قال عوف: فاجتمعنا عند رسول الله ﷺ فقصصت عليه قصة المددي وما فعل خالد، فقال رسول الله ﷺ: «يا خالد ما حملك على ما صنعت؟» قال: استكثرته، فقال: «رد عليه الذي أخذت منه».

قال عوف: فقلت: دونكها يا خالد، ألم أوف لك؟ فقال رسول الله ﷺ: «وما ذلك؟» فأخبرته قال: فغضب رسول الله ﷺ قال: «يا خالد لا ترد عليه، هل أنتم تاركون لي أمرائي، لكم صفوة أمرهم وعليهم كدره» [٣].

هذا موقف عظيم من النبي ﷺ في حماية القادة والأمراء من أن يتعرضوا للإهانة بسبب الأخطاء التي قد تقع منهم، فهم بشر معرضون للخطأ، فينبغي السعي في إصلاح خطئهم من غير تنقُّص ولا إهانة، فخالد حين يمنع ذلك المجاهد سلبه لم يقصد الإساءة إليه وإنما اجتهد فغلَّب جانب المصلحة العامة، حيث استكثر ذلك السلب على فرد واحد، ورأى أنه إذا دخل في الغنيمة العامة نفع عدداً أكبر من المجاهدين، وعوف بن مالك أدى مهمته في الإنكار على خالد، ثم رفع الأمر إلى رسول الله ﷺ حينما لم يقبل خالد قوله، وكان المفترض أن تكون مهمته قد انتهت بذلك لأنه ـ والحال هذه ـ قد دخل في أمر من أوامر الإصلاح، وقد تم الإصلاح على يده، ولكنه تجاوز هذه المهمة حيث حوَّل القضية من قضية إصلاحية إلى قضية شخصية، فأظهر

---

(١) انظر: من معين السيرة للشامي (ص ٣٧٦).

(٢) مدديّ أي جاء مدداً. وفي رواية: رجل من حمير.

(٣) أبو داود، كتاب الجهاد، رقم (٢٧١٩).

شيئاً من التشفي من خالد، ولم يقره النبي ﷺ على ذلك، بل أنكر عليه إنكاراً شديداً وبيّن حق الولاة على جنودهم، وكون النبي ﷺ أمر خالداً بعدم رد السلب على صاحبه لا يعني أن حق ذلك المجاهد قد ضاع، لأنه لا يمكن أن يأخذ رسول الله ﷺ إنساناً بجريرة غيره، فلا بدّ أن ذلك المجاهد قد حصل منه الرضا، إما بتعويض عن ذلك السلب أو يتنازل منه أو غير ذلك فيما لم يذكر تفصيله في الخبر [(١)].

إن الأمة التي لا تقدِّر رجالها ولا تحترمهم لا يمكن أن يقوم فيها نظام، إن التربية النبوية استطاعت بناء هذه الأمة بناءً سليماً، ما أحرى المسلمين اليوم أن يكون كل إنسان في مكانه وأن يحترم ويقدَّر، بمقدار ما يقدم لهذا الدين، ويبقى الجميع بعد ذلك في الأطار العام الذي وصف الله به المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وفي قوله ﷺ: «هل أنتم تاركون لي أمرائي» وسام آخر يضاف إلى خالد ﷺ، حيث عُدَّ من أمراء الرسول ﷺ، وهذا من المنهاج النبوي الكريم في تقدير الرجال [(٢)].

٧ ـ مقاييس الإيمان وأثرها في المعارك:

توقف الجيش الإسلامي في معان يناقش كثرة جيش العدو، وكانت المقاييس المادية لا تشجّعهم على خوض المعركة، ومع ذلك تابعوا طريقهم ودخلوا بمقاييس إيمانية، فهم خرجوا يطلبون الشهادة فلماذا إذن يفرون مما خرجوا لطلبه.

قال زيد بن أرقم: كنت يتيماً لعبد الله بن رواحة في حجره، فخرج بي في سفره ذلك مُردفي على حقيبة رحله، فوالله إنه ليسير ليلة إذ سمعته ينشد أبياتاً منها:

وجاء المسلمون وغادروني ... بأرض الشام مُشتهى الثَّواء

فلما سمعتها منه بكيت. قال: فخفقني بالدرة وقال: وما عليك يا لُكَعُ أن يرزقني الله الشهادة وترجع بين شعبتي الرَّحل [(٣)].

إن التأمل بعمق في غزوة مؤتة يساعدنا في معالجة الهزيمة النفسية والروحية التي تمر بها الأمة، وإقامة الحجة على القائلين بأن سبب هزيمتنا التفوق التكنولوجي لدى الأعداء، لقد سجّل ابن كثير رأيه في هذه المعركة وقال: (.... هذا عظيم جداً أن يقاتل جيشان متعاديان في الدين؛ أحدهما وهو الفئة التي تقاتل في سبيل الله، عدّتها ثلاثة آلاف، وأخرى كافرة

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ١٣٠).
(٢) انظر: معين السيرة (ص ٣٧٨).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٢٤، ٢٥).

وعدّتها مائتا ألف مقاتل، من الروم مائة ألف، ومن نصارى العرب مائة ألف، يتبارزون ويتصاولون، ثم مع هذا كله لا يُقتل من المسلمين إلا اثنا عشر رجلاً، وقد قتل من المشركين خلق كثير، هذا خالد وحده يقول: لقد اندقَّت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية، فماذا ترى قد قتل بهذه الأسياف كلها؟ دع غيره من الأبطال والشجعان من حملة القرآن، وقد تحكموا في عبدة الصلبان عليهم لعائن الرحمٰن في ذلك الزمان وفي كل أوان. . . .)[١].

٨ ـ من شعر كعب بن مالك في بكاء قتلى مؤتة:

حيث قال:

في ليلة وردت عليَّ همومها ... طوراً أحنُّ[٢] وتارة أتململ[٣]
واعتادني حُزنٌ فبت كأنني ... بينَاتِ نعشٍ والسِّماك موكَّل[٤]
وكأنما بين الجوانح والحَشَى ... مما تأوَّبني شهاب مُدْخل[٥]
وجْداً على النَّفَر الذين تَتَابعُوا ... يوماً بمؤتة أسندوا لم يُنقلوا
صلّى الإله عليهم من فتية ... وسقى عظامهم الغمام المسبل[٦]
صبروا بمؤتة للإله نفوسهم ... حذر الردى ومخافة أن يَنْكُلُوا[٧]
فمضوا أمام المسلمين كأنهم ... فُنُقٌ عليهن الحديد المُرْفَلُ[٨]
إذ يهتدون بجعفر ولوائه ... قُدَّام أوَّلِهم فنعم الأوّل
حتى تفرّجت الصفوف وجعفر ... حيث التقى وغثُ الصفوف مَجدّل
فتغير القمر المنير لفقده ... والشمس قد كَسفت وكادت تأفِل[٩]

هذه بعض الأبيات التي بكى بها كعب بن مالك شهداء مؤتة ولم يتغيب حسان بن ثابت ﷺ عن نظم القصائد في بكاء قتلى مؤتة، وبكاء جعفر بن أبي طالب، وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة، فقد كانت المؤسسة الإعلامية تقوم بدورها بتفوق وجدارة، وتتعبد المولى ﷻ بما أخصها به من ملكات ومواهب شعرية فذة.

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٥٩).
(٢) أحن: من الحنين وفي رواية أخن: صوت يخرج من الأنف عند البكاء.
(٣) أتململ: أتقلب متبرماً بمضجعي.
(٤) يريد أنه بات يرعى النجوم طول ليله من طول السهاد.
(٥) المدخل: النافذ إلى الداخل.
(٦) المسبل: الممطر.
(٧) صبروا نفوسهم: حبسوها على ما يريدون. ينكلوا: يرجعوا هائبين.
(٨) فُنُقٌ: الفحول من الإبل والمُرفل: الذي تنجر أطرافه على الأرض، يريد أن دروعهم سابغة.
(٩) تأفل: تغيب، السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٣٣، ٣٤).

المبحث الخامس
سرية ذات السلاسل

لم تمض سوى أيام على عودة الجيش من مؤتة إلى المدينة، حتى جهز النبي ﷺ جيشاً بقيادة عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل، وذلك لتأديب قضاعة التي غرّها ما حدث في مؤتة التي اشتركت إلى جانب الروم، فتجمعت تريد الدنو من المدينة، فتقدم عمرو بن العاص في ديارها ومعه ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار، ولما وصل إلى مكان تجمع الأعداء بلغه أن لهم جموعاً كثيرة، فأرسل إلى رسول الله ﷺ يطلب المدد فجاءه مدداً بقيادة أبي عبيدة بن الجراح [١]، وقاتل المسلمين الكفار وتوغل عمرو في ديار قضاعة التي هربت وتفرقت وانهزمت، ونجح عمرو في إرجاع هيبة الإسلام لأطراف الشام، وإرجاع أحلاف المسلمين لصداقتهم الأولى، ودخول قبائل أخرى في حلف المسلمين، وإسلام الكثيرين من بني عبس، وبني مرة، وبني ذبيان، وكذلك فزارة وسيدها عيينة بن حصن في حلف مع المسلمين، وتبعها بنو سُلَيم، وعلى رأسهم العباس بن مرداس، وبنو أشجع وأصبح المسلمون هم الأقوى في شمال بلاد العرب، وإن لم يكن في بلاد العرب جميعها [٢].

دروس وعِبَر وحكم:

وفي هذه السرية دروس وعِبَر وحكم منها:

١ ـ إخلاص عمرو بن العاص رضي الله عنه:

قال عمرو بن العاص: بعث إليَّ رسول الله ﷺ فقال: «خذ عليك ثيابك، وسلاحك، ثم ائتني»، فأتيته، وهو يتوضأ، فصعَّد فيَّ النظر، ثم طأطأ، فقال: «إني أريد أن أبعثك على جيش [٣]، فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك في المال رغبة صالحة»، قال: قلت: يا رسول الله ما أسلمت من أجل المال، ولكني أسلمت رغبة في الإسلام، وأن أكون مع رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «يا عمرو نعم المال الصالح للمرء الصالح» [٤].

فهذا الموقف يدل على قوة إيمان وصدق وإخلاص عمرو بن العاص للإسلام وحرصه على ملازمة رسول الله ﷺ، وقد بيَّن له رسول الله ﷺ أن المال الحلال نعمة إذا وقع بيد الرجل الصالح، لأنه يبتغي به وجه الله ويصرفه في وجوه الخير ويُعفُّ به نفسه وأسرته [٥].

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٧١).
(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٣٢).
(٣) جيش سرية ذات السلاسل.
(٤) رواه ابن حبان كما في الموارد (٢٢٧٧)؛ صحيح السيرة (ص ٥٠٨). صححه الألباني صحيح الأدب المفرد.
(٥) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ١٣٣).

٢ ـ الاتحاد قوة والتنازع ضعف:

عندما وصل المدد الذي بعثه رسول الله ﷺ بقيادة أبي عبيدة بن الجراح لجيش عمرو في ذات السلاسل، أراد أبو عبيدة أن يؤم الناس ويتقدم عمرو، فقال له عمرو: إنما قدمت عليَّ مدداً لي، وليس لك أن تؤمني، وأنا الأمير، وإنما أرسلك النبي ﷺ إليَّ مدداً، فقال المهاجرون: كلا، بل أنت أمير أصحابك وهو أمير أصحابه، فقال عمرو: لا، بل أنتم مدد لنا، فلما رأى أبو عبيدة الاختلاف وكان حسن الخلق، لين الطبع قال: لتطمئن يا عمرو وتعلمن أن آخر ما عهد إليَّ رسول الله أن قال: «إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا» وإنك والله إن عصيتني، لأطيعنَّك، فأطاع أبو عبيدة، فكان عمرو يصلّي بالناس [١].

لقد أدرك أبو عبيدة رضي الله عنه أن أي اختلاف بين المسلمين في سرية ذات السلاسل يؤدي إلى الفشل، ومن ثم تغلب العدو عليهم، ولهذا سارع إلى قطع النزاع وانضم جندياً تحت إمرة عمرو بن العاص امتثالاً لأمر الرسول ﷺ: «لا تختلفا» [٢].

٣ ـ حرص عمرو بن العاص على سلامة قواته:

ظهرت عبقرية عمرو العسكرية في ذات السلاسل في حرصه على وحدة الصف وفي حرصه على سلامة قوته ويتجلى ذلك في عدة صور منها:

أ ـ أنه كان يسير ليلًا ويختفي نهاراً:

كان عمرو يدرك بثاقب بصره وبعد نظره أن العدو يمكن أن يسعى إلى معرفة أخباره قبل اللقاء بينهما، فيستعد للقاء جيش المسلمين، ولهذا رأى عمرو رضي الله عنه أن السير ليلاً والاختفاء نهاراً هو أفضل أسلوب للمحافظة على قواته وحقق بذلك أمرين مهمين:

- إخفاء تحركاته عن عدوه وبذلك يضمن سلامة قواته.
- حماية الجند من شدة الحرّ وحتى يبقى لهم نشاطهم، فيصلون إلى مكان المواجهة، وهم أقوياء على مجابهة أعدائهم.

ب ـ عدم السماح للجند بإيقاد النار:

عندما طلب الجنود من عمرو أن يسمح لهم بإيقاد النار لحاجتهم الماسة إلى التدفئة، منعهم من ذلك معتمداً في ذلك على خبرته الحربية وعمق فكره العسكري وخوفاً من وقوع مفسدة أعظم من تلك المصلحة، وهي أن يمتد الضوء فيكشف المسلمين ـ وهم قلة ـ لأعدائهم فيهجموا عليهم، ويتجلى هذا الفقه في حزمه الشديد، مع أصحابه عندما كلّمه أبو بكر في ذلك

(١) انظر: مغازي رسول الله لعروة (ص ٢٠٧) وأسانيدها ضعيفة.
(٢) انظر: غزوة الحديبية لأبي فارس (ص ٢٠٩).

فقال: لا يوقد أحد منهم ناراً إلا قذفته فيها، فلما رجعوا إلى المدينة ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فسأله رسول الله ﷺ فقال: كرهت أن آذن لهم أن يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قلّتهم (١)، فأقرّه النبي ﷺ على فعله.

جـ ـ منع الجند من مطاردة أعدائهم:

عندما هزم المسلمون أعداءهم طمعوا فيهم، فأرادوا مطاردتهم وتتبع فلولهم، ولكن قائد السرية منع جنده من ذلك لئلا يترتب على هذه المطاردة مفسدة أعظم منها وهي أن يقع المسلمون في كمين، ويتجلى هذا الفقه في قول عمرو بن العاص رضي الله عنه للرسول ﷺ: وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد (٢)، فأقرّه النبي ﷺ على هذا التصرف الحكيم الذي حقق للجيش الأمن والحماية (٣).

٤ ـ من فقه عمرو بن العاص رضي الله عنه:

قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيممت، ثم صلّيت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟» فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال وقلت: إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النِّساء: ٢٩]. فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً (٤)، وقد استُنبط بعض الأحكام من هذه القصة:

أ ـ التيمم يقوم مقام الغسل بالنسبة للجنب مع وجود الماء إذا خشي أن يؤدي استخدام الماء إلى الضرر، فلقد تيمم عمرو بن العاص لما أصبح جنباً مع وجود الماء عنده وصلّى وأقره الرسول ﷺ ولم ينكر عليه.

ب ـ يجوز الاجتهاد في عهده ﷺ: فقد اجتهد عمرو بن العاص فتوضأ واغتسل وصلّى وقد احتلم في تلك الليلة الباردة اعتماداً على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النِّساء: ٢٩] فلم ينكر عليه الرسول ﷺ اجتهاده بل أقرّه على أمرين: الأول: جواز الاجتهاد، والثاني: تصحيح اجتهاده.

جـ ـ من الأسباب المبيحة للتيمم تعذر استخدام الماء وإن وجد كالبرد الشديد.

د ـ تجوز إمامة المتيمم بالمتوضىء: فقد صلّى عمرو بن العاص، وهو متيمّم إماماً بخمسمائة صحابي قد توضأوا، وأقره الرسول على ذلك ولم ينكر عليه.

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٥٠٩).
(٢) المصدر السابق، (ص ٥٠٩).
(٣) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول (ص ٥٤٠).
(٤) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٥٠٩) قال إبراهيم العلي: الحديث إسناده صحيح.

هـ ـ اجتهاد عمرو بن العاص يدل على فقهه ووفور عقله، ودقة استنباطه الحكم من دليله (١)؛ ولئن وقف الفقهاء عند هذه الحادثة يفرعون عليها الأحكام فإن الذي يستوقفنا (٢) في السيرة منها تلك السرعة في أخذ عمرو للقرآن وصلته به حتى بات قادراً على فقه الأمور من خلال الآيات وهو لم يمض على إسلامه أربعة أشهر، إنه الحرص على الفقه في دين الله، وقد يكون عمرو ـ وهذا احتمال وارد ـ على صلة القرآن قبل إسلامه يتتبع ما يستطيع الوصول إليه، وحينئذٍ نكون أمام مثال آخر من عظمة هذا القرآن الذي لوى أعناق الكافرين، وجعلهم وهم في أشد حالات العداوة لهذا الدين يحاولون استماع هذا القرآن، كما رأينا ذلك في العهد المكي، ويؤيد هذا ما رأيناه من معرفته بالقرآن حينما طلب من النجاشي أن يسأل مهاجري الحبشة عن رأيهم في عيسى (عليه السلام (٣)).

٥ ـ من نتائج سرايا رسول الله ﷺ في الشمال:

اتجهت حملات المسلمين العسكرية بعد صلح الحديبية نحو الشمال وأصبح غرب الجزيرة وجنوبها الغربي حيث تقبع مكة آمنة في ظلال الصلح (٤)، وحققت سرايا رسول الله ﷺ أهدافها ومقاصدها في شمال الجزيرة، فوصلت إلى حدود الروم، فأمنت حدود الدولة الإسلامية، وبسطت هيبتها وأفشلت محاولات الإغارة على المدينة وبذلك حققت سياسة النبي ﷺ في حركة السرايا هدفين عظيمين هما:

١ ـ تأمين حماية الدين الإسلامي في الداخل.

٢ ـ حمايته في الخارج (٥).

وما من شك أن المتتبع لأحداث السيرة النبوية الشريفة والمطَّلع على تفاصيلها ودقائقها بإمعان، يجد بحق أن صلح الحديبية هو من أهم المكاسب السياسية، والعسكرية، والإعلامية، بل هو حصيلة كسب لأعظم معركة دارت بين الإسلام والوثنية في العهد النبوي، من حيث النتائج الإيجابية التي رسخت دعائم الإسلام، من جهة وصدعت بفعلها قواعد الشرك والوثنية من جهة أخرى. وما حدث في خيبر من فتوح، وفي مؤتة من نصر، وفي ذات السلاسل من توسيع هيبة الدولة الإسلامية إلا نتائج تابعة لصلح الحديبية (٦)، وبسبب القدرة الفائقة في تعامل النبي ﷺ مع سنن الله في المجتمعات والشعوب وبناء الدول.

---

(١) انظر: غزوة الحديبية لأبي فارس، (ص ٢١٠).
(٢) القائل هو صالح أحمد الشامي صاحب معين السيرة (ص ٣٨١).
(٣) انظر: معين السيرة (ص ٣٨١).
(٤) انظر: المجتمع المدني للعمري (ص ١٧٠).
(٥) الإعلام في صدر الإسلام، د. عبد اللطيف حمزة (ص ١٧٣).
(٦) انظر: منهج الإعلام الإسلامي، (ص ٣٣٧).

الفصل الخامس عشر

غزوة فتح مكة (٨ هـ)

المبحث الأول

أسبابها، والاستعداد للخروج والشروع فيه

أولاً: أسبابها:

١ ـ ارتكبت قريش خطأً فادحاً عندما أعانت حلفاءها بني بكر على خزاعة حليفة المسلمين بالخيل والسلاح والرجال، وهاجم بنو بكر وحلفاؤهم قبيلة خزاعة عند ماء يقال له الوتير، وقتلوا أكثر من عشرين من رجالها (١)، ولما لجأت خزاعة إلى الحرم الآمن، ولم تكن متجهزة للقتال، لتمنع بني بكر منه، قالت لقائدهم: يا نوفل؛ إنا قد دخلنا حرم إلهك! فقال نوفل: لا إله اليوم، يا بني بكر أصيبوا ثأركم (٢)، عندئذٍ خرج عمرو بن سالم الخزاعي، في أربعين من خزاعة، حتى قدموا على رسول الله ﷺ في المدينة، وأخبروه بما كان من بني بكر، وبمن أصيب منهم، وبمناصرة قريش بني بكر عليهم، ووقف عمرو بن سالم على رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس فقال:

يا رب إني ناشد محمداً ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتم وُلداً، وكنا والداً ... ثُمت أسلمنا فلم ننزع يدا (٣)
فانصر هداك الله نصراً أعتدا ... وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا ... إن سيم خسفاً وجهه تربدا
في فيلق كالبحر يجري مُزبدا ... إن قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا ... وجعلوا لي في (كَدَاءٍ) رُصَّدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا ... وهم أذل وأقل عدداً
هم بيتونا بالوتير هجّدا ... وقتلونا ركَّعاً وسجدا

---

(١) انظر: الواقدي (٢/ ٧٨١ ـ ٧٨٤).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٣٩).

(٣) يريد أن أم عبد مناف وأم قصير خزاعيتان.

فقال النبي ﷺ: «نُصرت يا عمرو بن سالم [١]! لا نصرني الله إن لم أنصر بني كعب». ولما عرض السحاب من السماء قال: «إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب» [٢].

وجاء في رواية: أن رسول الله ﷺ بعد أن سمع وتأكد من الخبر أرسل إلى قريش فقال لهم: «أما بعد فإنكم إن تبرؤوا من حلف بني بكر، أَتْدوا خزاعة [٣]، وإلا أوذنكم بحرب». فقال قرظة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف صهر معاوية: إن بني بكر قوم مشائيم، فلا ندى ما قتلوا لنا سبَد ولا لَبَد [٤]، ولا نبرأ من حلفهم فلم يبق على ديننا أحد غيرهم، ولكن نؤذيه بحرب [٥]، وفي هذا دليل على أن رسول الله ﷺ لم يفاجىء قريشاً بالحرب وإنما خيّرهم بين هذه الخصال الثلاث فاختاروا الحرب [٦].

٢ ـ أبو سفيان يحاول تلافي حماقة قريش:

بعثت قريش أبا سفيان إلى المدينة لتمكين الصلح وإطالة أمده، وعندما وصل إلى المدينة ودخل على رسول الله ﷺ يعرض حاجته، أعرض عنه النبي ﷺ ولم يجبه، فاستعان بكبار الصحابة أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ حتى يتوسطوا بينه وبين رسول الله، فأبوا جميعاً، فعاد أبو سفيان إلى مكة من غير أن يحظى بأي اتفاق أو عهد [٧]، ومما يذكر عند نزوله في المدينة أنه لما دخل على ابنته أم حبيبة ـ أم المؤمنين ـ وأراد أن يجلس على فراش رسول الله طوته عنه؛ فقال: يا بنية! ما أدري، أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ قالت: بل هذا فراش رسول الله، وأنت مشرك نجس، قال: والله لقد أصابك بعدي شر [٨].

وهذا الموقف لا يستغرب من أم حبيبة، فهي ممن هاجر الهجرتين وقد قطعت صلاتها بالجاهلية منذ أمد بعيد، إنها لم تر أباها منذ ست عشرة سنة، فلما رأته لم تر فيه الوالد الذي ينبغي أن يُقدَّر ويُحترم، وإنما رأت فيه رأس الكفر الذي وقف في وجه الإسلام وحارب رسوله تلك السنوات الطويلة [٩]، وهذا ما كان يتصف به الصحابة ﷺ من تطبيق أحكام الإسلام في الولاء والبراء وإعزاز الإسلام والمسلمين، وفي مخاطبة أم حبيبة لأبيها بهذا الأسلوب مع كونه أباها ومع مكانته العالية في قومه وعند العرب دليل على قوة إيمانها ورسوخ يقينها، لقد كان في

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٤٤).
(٢) المصدر السابق، (٤/ ٤٤)؛ البداية والنهاية (٤/ ٢٧٨).
(٣) أي تدفعوا دية قتلاهم.
(٤) السَّبد: الشعر، واللَّبد: الصوف، يعني إن فعلنا ذلك لم يبق لنا شيء.
(٥) انظر: المطالب العالية (٤/ ٢٤٣) رقم (٤٣٦١). قال ابن حجر: مرسل صحيح الإسناد.
(٦) انظر: التاريخ الإسلامي (٧/ ١٦٤).
(٧) انظر: التاريخ السياسي والعسكري، د. علي معطي (ص ٣٦٥).
(٨) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٤٧٩).
(٩) انظر: معين السيرة (ص ٣٩٥).

سلوك أم حبيبة مظهر من اجتهاد الصحابة البالغ في إظهار أمر له أهميته البالغة في المحافظة على شخصية المسلم ودفع معنويته إلى النماء والحيوية [(١)].

وأمام نقض قريش للعهود والمواثيق مع المسلمين فقد عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة وتأديب كفارها، وقد ساعده على ذلك العزم بعد توفيق الله عدة أسباب منها:

أ ـ قوة جبهة المسلمين الداخلية في المدينة وتماسكها، فقد تخلصت الدولة الإسلامية من غدر اليهود وتم القضاء على يهود بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، ويهود خيبر.

ب ـ ضعف جبهة الأعداء في الداخل: وفي مقدمة هؤلاء المنافقون الذين فقدوا الركن الركين لهم، وهو يهود المدينة فهم أساتذتهم الذين يوجِّهونهم ويشيرون عليهم.

جـ ـ اهتم رسول الله ﷺ بتطوير القوة العسكرية، وإرسال السرايا في فترة الصلح وبذلك أصبحت متفوقة على قوة مشركي قريش من حيث العدد والعدة والروح المعنوية.

د ـ كانت الغزوة بعد أن ضعفت قريش اقتصادياً وبعد أن قويت الدولة الإسلامية اقتصادياً، فقد فتح المسلمون خيبر وغنموا منها أموالًا كثيرة.

هـ ـ انتشار الإسلام في القبائل المجاورة للمدينة وهذا يطمئن القيادة حين تتخذ قرارها العسكري بنقل قواتها ومهاجمة أعدائها.

و ـ قيام السبب الجوهري والقانوني لغزو مكة وهو نقض قريش للعهد والعقد [(٢)]، ونلحظ أن النبي ﷺ لم يضيع قانون الفرصة وتعامل معه بحكمة بالغة، فكان فتح خيبر وذلك بعد صلح الحديبية، والآن تتاح فرصة أخرى بعد أن نقضت قريش عهدها، وتغيّرت موازين القوى في المنطقة، فكان لا بد من الاستفادة من المعطيات الجديدة، فأعد ﷺ جيشاً لم تشهد له الحجاز مثيلًا من قبل، فقد وصل عدته إلى عشرة آلاف رجل [(٣)].

ثانياً: الاستعداد للخروج:

إن حركة النبي ﷺ في بناء الدولة وتربية المجتمع وإرسال السرايا، وخروجه في الغزوات تعلمنا كيفية التعامل مع سنّة الأخذ بالأسباب، سواءً كانت تلك الأسباب مادية أو معنوية، ففي

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي (٧/ ١٧٠، ١٧١).
(٢) انظر: السيرة لأبي فارس، (ص ٤٠١).
(٣) انظر: الكامل في التاريخ (٢/ ٢٤٤)، التاريخ السياسي والعسكري (ص ٣٦٦).

غزوة الفتح نلاحظ هذه السنّة واضحة في هديه ﷺ، فعندما قرر ﷺ السير لفتح مكة، حرص على كتمان هذا الأمر حتى لا يصل الخبر إلى قريش فتعد العدة لمجابهته وتصده قبل أن يبدأ في تنفيذ هدفه وشرع في الأخذ بالأسباب الآتية لتحقيق مبدأ المباغتة:

١ ـ أنه كتم أمره حتى عن أقرب الناس إليه:

فقد أخذ النبي ﷺ بمبدأ السرية المطلقة والكتمان الشديد، حتى عن أقرب الناس إليه وهو أبو بكر رضي الله عنه أقرب أصحابه إلى نفسه، وزوجته عائشة رضي الله عنها أحب نسائه إليه، فلم يعرف أحد شيئاً عن أهدافه الحقيقية ولا باتجاه حركته ولا بالعدو الذي ينوي قتاله، بدليل أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه عندما سأل ابنته عائشة رضي الله عنها عن مقصد الرسول ﷺ قالت له: ما سمى لنا شيئاً وكانت أحياناً تصمت. وكلا الأمرين يدل على أنها لم تعلم شيئاً عن مقصده ﷺ [١].

ويستنبط من هذا المنهج النبوي الحكيم أنه ينبغي للقادة العسكريين أن يخفوا خططهم عن زوجاتهم، لأنهن ربما يذعن شيئاً من هذه الأسرار عن حسن نية فتتنقلها الألسن حتى تصير سبباً في حدوث كارثة عظيمة [٢].

٢ ـ أنه بعث سرية بقيادة أبي قتادة إلى بطن إضم:

بعث النبي ﷺ قبل مسيره إلى مكة سرية مكونة من ثمانية رجال وذلك لإسدال الستار على نياته الحقيقية، وفي ذلك يقول ابن سعد: لما همّ رسول الله ﷺ بغزو أهل مكة بعث أبا قتادة بن ربعي في ثمانية نفر سرية إلى بطن إضَم [٣]، ليظن ظان أن رسول الله ﷺ توجه إلى تلك الناحية ولأن تذهب بذلك الأخبار. . . فمضوا ولم يلقوا جمعاً، فانصرفوا حتى انتهوا إلى ذي خُشُب [٤]، فبلغهم أن رسول الله قد توجه إلى مكة، فأخذوا على (بيبين) حتى لقوا النبي ﷺ بالسُّقيا [٥] [٦].

وهذا منهج نبوي حكيم في توجيه القادة من بعده إلى وجوب أخذ الحذر وسلوك ما يمكن من أساليب التضليل على الأعداء والإيهام التي من شأنها صرف أنظار الناس عن معرفة مقاصد الجيوش الإسلامية التي تخرج من أجل الجهاد في سبيل الله حتى تحقق أهدافها وتسلم من كيد أعدائها [٧].

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٨٢)؛ الرسول القائد، شيت خطاب (ص ٣٣٣، ٣٣٤).
(٢) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول (ص ٣٩٥، ٣٩٦).
(٣) بطن إضم: وادي المدينة الذي تجتمع فيه الوديان الثلاثة، بطحان وقناة والعقيق.
(٤) ذوي خشب: هو موضع على مرحلة من المدينة إلى الشام يبعد عن المدينة ٣٥ ميلاً.
(٥) السُّقيا: موضع يقع في وادي القرى. معجم البلدان (٣/ ٢٨٨).
(٦) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ١٣٢).
(٧) انظر: القيادة العسكرية (ص ٤٩٨).

٣ ـ أنه بعث العيون لمنع وصول المعلومات إلى الأعداء:

بث ﷺ رجال استخبارات الدولة الإسلامية داخل المدينة وخارجها حتى لا تنتقل أخباره إلى قريش: وأخذ رسول الله ﷺ بالأنقاب [(١)]، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطوف على الأنقاب قيماً بهم فيقول: لا تدعوا أحداً يمرّ بكم تنكرونه إلا رددتموه... إلا من سلك إلى مكة فإنه يتحفظ به ويسأل عنه أو ناحية مكة [(٢)].

إن جمع المعلومات سلاح ذو حدين، وقد استفاد الرسول ﷺ من حدّه النافع لصالح المسلمين وأبطل مفعول الحد الآخر باتباعه السرية واتخاذها أساساً لتحركاته واستعداداته، ليحرم عدوه من الحصول على المعلومات التي تفيده في الاستعداد لمجابهة هذا الجيش بالقوة المناسبة [(٣)].

٤ ـ دعاؤه ﷺ بأخذ العيون والأخبار عن قريش:

وبعد أن أخذ رسول الله ﷺ بالأسباب البشرية التي في استطاعته توجه إلى الله ـ عز وجل ـ بالدعاء والتضرع قائلاً: «اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يَرَونا إلا بغتة ولا يسمعون بنا إلا فجأة» [(٤)].

وهذا شأن النبي ﷺ في أموره يأخذ بجميع الأسباب البشرية، ولا ينسى التضرع والدعاء لرب البرية ليستمد منه التوفيق والسداد.

٥ ـ إحباط محاولة تجسس حاطب لصالح قريش:

عندما أكمل النبي ﷺ استعداده للسير إلى فتح مكة، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى أهل مكة يخبرهم فيه نبأ تحرك النبي ﷺ إليهم، ولكن الله سبحانه وتعالى أطلع نبيه ﷺ عن طريق الوحي على هذه الرسالة، فقضى ﷺ على هذه المحاولة وهي في مهدها، فأرسل النبي ﷺ علياً والمقداد فأمسكوا بالمرأة في روضة خاخ على بعد اثني عشر ميلاً من المدينة، وهددوها أن يفتشوها إن لم تخرج الكتاب فسلّمته لهم، ثم استدعى حاطب رضي الله عنه للتحقيق فقال: يا رسول الله، لا تعجل عليّ، إني كنت امرأ ملصقاً في قريش ـ يقول: كنت حليفاً ـ ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين من له قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتي، ولم

---

(١) الأنقاب: جمع نقب، وهو كالعريف على القوم.

(٢) التحفظ: هو الاحتراز والتيقظ، مغازي الواقدي (ص / ٧٩٧).

(٣) انظر: القيادة العسكرية (ص ٣٦٥).

(٤) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٨٢).

أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه قد صدقكم».

فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال ﷺ: «إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[(١)]، فأنزل الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المُمتَحنَة: ١].

يقول الأستاذ سيد قطب: على الرغم من كل ما ذاق المهاجرون من العنت والأذى من قريش، فقد ظلت بعض النفوس تود لو وقعت بينهم وبين أهل مكة المحاسنة والمودة، وأن لو انتهت هذه الخصومة القاسية التي تكلفهم قتال أهليهم وذوي قرابتهم، وتقطع ما بينهم وبينهم من صلات، وكأن الله يريد استقصاء هذه النفوس واستخلاصها من كل هذه الوشائج، وتجريدها لدينه وعقيدته ومنهجه... فكان يأخذهم يوماً بعد يوم بعلاجه الناجع البالغ، بالأحداث والتعقيب على الأحداث، ليكون العلاج على مسرح الأحداث وليكون الطرق والحديد ساخن[(٢)].

ثالثاً: الشروع في الخروج وأحداث في الطريق:

١ ـ خرج رسول الله ﷺ قاصداً مكة في العاشر من رمضان من العام الثامن للهجرة[(٣)]، واستخلف على المدينة أبا رهم، كلثوم بن حصين بن عتبة بن خلف الغفاري[(٤)]، ومعه عشرة آلاف، وذلك على رأس ثمان سنين ونصف من مقدمه المدينة، فسار هو ومن معه من المسلمين إلى مكة يصوم ويصومون حتى بلغ الكدين وهو ماء بين عُسفان وقديد أفطر وأفطروا[(٥)]، وفي الجحفة لقيه العباس بن عبد المطلب عمه وقد خرج مهاجراً بعياله، فسرّ ﷺ[(٦)]، وفي خروج العباس بأهله وأولاده من مكة، وكان بها بمثابة المراسل العسكري أو مدير الاستخبارات هناك يشير إلى أن مهمته فيها قد انتهت، وخاصة، إذا لاحظنا أن بقاءه في مكة كان بأمر الرسول ﷺ[(٧)].

---

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح (٥/ ١٠٥) رقم (٤٢٧٤).
(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٥٨).
(٣) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٥٦٠، ٥٦١).
(٤) المصدر نفسه (ص ٥٦١).
(٥) البخاري، كتاب المغازي (٥/ ١٠٦) رقم (٤٢٧٦).
(٦) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٨٦)؛ السيرة النبوية لأبي فارس، (ص ٤٠٦).
(٧) انظر: تأملات في السيرة النبوية، محمد السيد الوكيل (ص ٢٥٤).

٢ ـ إسلام أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أمية:

خرج أبو سفيان بن الحارث وعبد الله بن أمية بن المغيرة من مكة فلقيا رسول الله بثنية العقاب فيما بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه، فكلمته أم سلمة فقالت: يا رسول الله ابن عمك، وابن عمتك، وصهرك، فقال: «لا حاجة لي فيهما أما ابن عمي، فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال» فلما خرج الخبر إليهما بذلك ومع أبي سفيان بن الحارث ابن له فقال: والله ليأذنن رسول الله ﷺ، أو لآخذن بيد ابني هذا، ثم لنذهب في الأرض حتى نموت عطشاً أو جوعاً، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رقّ لهما، فدخلا عليه، فأنشده أبو سفيان قوله في إسلامه واعتذاره مما كان مضى فيه فقال:

لعمرك إني يوم أحمل راية ... لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليله ... فهذا أوان الحق أهدى وأهتدي
فقل لثقيف لا أريد قتالكم ... وقل لثقيف تلك عندي فأوعدي
هداني هاد غير نفسي ودلّني ... على الله من طرّدت كل مطرد
أفر سريعاً جاهداً عن محمدٍ ... وأدعى وإن لمن أنتسب لمحمد
هُمُ عصبة من لم يقل بهواهم ... وإن كان ذا رأيٍ يُلَم ويفند
أريد لأرضيهم ولست بلائط ... مع القوم ما لم أهد في كل مقعد
فما كنت في الجيش الذي نال عامراً ... وما كان عن غير لساني ولا يدي
قبائل جاءت من بلاد بعيدة ... توابع جاءت من سهام وسردد
وإن الذي أخرجتم وشتمتم ... سيسعى لكم امرؤ غير مقدد [١]

قال: فلما أنشد رسول الله ﷺ: على الله من طردت كل مطرد، ضرب رسول الله ﷺ في صدره، فقال: «أنت طردتني كل مطرد» [٢].

كان أبو سفيان بن الحارث يهجو بشعره رسول الله ﷺ كثيراً، وأما عبد الله بن أمية فقد قال لرسول الله ﷺ: فوالله لا أؤمن بك حتى تتخذ إلى السماء سلّماً ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيهما، ثم تأتي بصكّ معه أربعة من الملائكة يشهدون لك كما تقول، ثم وأيم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك [٣].

ومع فداحة جرمهما فإن النبي ﷺ عفا عنهما وقبل عذرهما، وهذا مثال عال في الرحمة والعفو والتسامح، ولقد كفّر أبو سفيان بن الحارث عن أشعاره السابقة بهذه القصيدة البليغة التي قالها في مدح النبي ﷺ وبيان اهتدائه به، ولقد حسن إسلامه وكان له موقف مشرّف في الجهاد

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٥١٧)، وسيرة ابن هشام.
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٤٣ ـ ٤٥)؛ ومجمع الزوائد (٦/ ١٦٤ ـ ١٦٧).
(٣) انظر: ابن هشام (١/ ٢٩٥ ـ ٣٠٠).

مع رسول الله في معركة حنين [١].

٣ ـ النزول بمر الظهران وإسلام أبي سفيان بن حرب سيد قريش:

وتابع رسول الله ﷺ سيره حتى أتى مر الظهران [٢]، فنزل فيه عشاء، فأمر الجيش فأوقدوا النيران، فأوقدت عشرة آلاف نار، وجعل رسول الله على الحرس عمر بن الخطاب [٣].

قال العباس: فقلت: واصباح قريش، والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه، إنها لهلاك قريش إلى آخر الدهر، وركب بغلة رسول الله وخرج يلتمس من يوصل الخبر إلى مكة ليخرجوا إلى رسول الله فيستأمنوه قبل أن يدخلها عنوة، وكان أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء خرجوا يلتمسون الأخبار، فلما رأوا النيران قال أبو سفيان: ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً، فقال بديل: هذه والله خزاعة حمشتها [٤] الحرب، فقال أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانهاوعسكرها.... وسمع العباس أصواتهم فعرفهم فقال: يا أبا حنظلة، فقال أبو الفضل: قلت: نعم. قال: مالك، فداك أبي وأمي، قال العباس: قلت: ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله ﷺ في الناس واصباح قريش والله، قال: فما الحيلة؟ فداك أبي وأمي، قال: قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله فأستأمنه لك، قال: فركب خلفي ورجع صاحباه، فجئت به، كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا: عم رسول الله على بغلته، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال: من هذا؟ وقام إليّ فلمَّا رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان عدو الله، الحمد للّه الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد. ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ ودخل عليه عمر فقال:

يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فلأضرب عنقه، قال: قلت: يا رسول الله إني قد أجرته.... فلمَّا أكثر عمر في شأنه قلت: مهلاً يا عمر، فوالله أن لو كان من بني عدي ما قلت هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف. فقال: مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم، فقال ﷺ: «اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به»، فلما أصبح غدوت به فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟» قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني بعد، قال:

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي (٧/ ١٨٢).
(٢) مر الظهران: واد من أودية الحجاز شمال مكة بـ ٢٢ كلم.
(٣) انظر: معين السيرة (ص ٣٨٧)؛ الطبقات لابن سعد (٢/ ١٣٥).
(٤) حمشتها الحرب: أحرقتها.

«ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟» قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً. فقال له العباس: ويحك أسلم قبل أن نضرب عنقك. قال: فشهد شهادة الحق فأسلم، قال العباس: قلت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً، قال: نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فلما ذهب لينصرف قال رسول الله: «يا عباس؛ احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها». قال: فخرجت حتى حبسته حيث أمرني رسول الله ﷺ ومرّت القبائل على راياتها، كلما مرّت قبيلة قال: يا عباس من هذه؟ فأقول: سُليم، فيقول: مالي وسُليم، ثم تمرّ به القبيلة، فيقول: يا عباس من هؤلاء؟ فأقول: مزينة، فيقول: مالي ولمزينة... حتى مرّ به رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، قال: سبحان الله يا عباس، من هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، ثم قال: والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً قال: قلت: يا أبا سفيان: إنها النبوة، قال: فنعم إذن، قال: قلت: النجاء إلى قومك (١).

إن في هذه القصة دروساً وعِبراً وحكماً في كيفية [تعامل] رسول الله ﷺ [مع] النفوس البشرية، ومن أهم هذه الدروس:

١ ـ عندما أصبح أبو سفيان رهينة بيد المسلمين، وأصبح رهن إشارة النبي ﷺ، وهمّ به عمر، وأجاره العباس، ثم جاء في صبيحة اليوم الثاني ليمثل بين يدي رسول الله ﷺ، وكانت المفاجأة الصاعقة له بدل التوبيخ والتهديد والإذلال أن يُدعى إلى الإسلام، فتأثر بهذا الموقف واهتز كيانه فلم يملك إلا أن يقول: بأبي أنت وأمي يا محمد، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك (٢)، وعندما قال العباس للنبي ﷺ: إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً فقال النبي ﷺ: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن».... ففي تخصيص بيت أبي سفيان شيئاً يشبع ما تتطلع إليه نفس أبي سفيان، وفي هذا تثبيت له على الإسلام وتقوية لإيمانه (٣)، وكان هذا الأسلوب النبوي الكريم عاملاً على امتصاص الحقد من قلب أبي سفيان وبرهن له بأن المكانة التي كانت له عند قريش، لن تنتقص شيئاً في الإسلام إن هو أخلص له وبذل في سبيله (٤). وهذا منهج نبوي كريم، على العلماء والدعاة إلى الله أن يستوعبوه ويعملوا به في تعاملهم مع الناس.

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٥١٨ ـ ٥٢٠).
(٢) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان (ص ٥٦٤).
(٣) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/٤٠٣).
(٤) انظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية، محمد رواس (ص ٢٤٥).

٢ - وفي قول رسول الله ﷺ لعمّه العباس عن أبي سفيان: «احبسه بمضيق الوادي، حتى تمرّ به جنود الله فيراها» [(١)]، ففعل العباس، وكان ﷺ يريد أن يشن حرباً نفسية للتأثير على معنويات قريش حتى يتسنَّى له القضاء على روح المقاومة عند زعيم مكة، وحتى يرى أبو سفيان بعيني رأسه مدى قوة ما وصل إليه الجيش الإسلامي من تسليح وتنظيم وحسن طاعة وانضباط، وبذلك تتحطم أي فكرة في نفوس المكيين يمكن أن تحملهم على مقاومة هذا الجيش المبارك، إذا دخل مكة لتحريرها من براثن الشرك والوثنية [(٢)]، وبالفعل تمّ ما رسمه رسول الله ﷺ وأدرك أبو سفيان قوة المسلمين وأنه لا قبل لقريش بهم، حتى إذا مرّت به كتيبة المهاجرين والأنصار، (قال أبو سفيان: سبحان الله! يا عباس من هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة، والله يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً، قال: قلت: يا أبا سفيان، إنها النبوة قال: فنعم إذاً. . . .) [(٣)].

إنها النبوة، تلك هي الكلمة التي أدارتها الحكمة الإلهية على لسان العباس، حتى تصبح الردَّ الباقي إلى يوم القيامة على كل من يتوهم أو يوهم أن دعوة النبي ﷺ إنما كانت ابتغاء ملك أو زعامة، أو إحياء قومية أو عصبية، وهي كلمة جاءت عنواناً لحياة رسول الله ﷺ من أولها إلى آخرها، فقد كانت ساعات عمره ومراحلها كلها دليلاً ناطقاً على أنه بعث لتبليغ رسالة الله إلى الناس، لا لإشادة ملك لنفسه في الأرض [(٤)].

لقد تعمد النبي ﷺ شنّ الحرب النفسية على أعدائه أثناء سيره لفتح مكة، حيث أمر رسول الله ﷺ بإيقاد النيران، فأوقدوا عشرة آلاف نار في ليلة واحدة حتى ملأت الأفق فكان لمعسكرهم منظر مهيب، كادت تنخلع قلوب القريشيين من شدة هوله [(٥)]، وقد قصد النبي ﷺ من ذلك تحطيم نفسيات أعدائه والقضاء على معنوياتهم، حتى لا يفكروا في أية مقاومة، وإجبارهم على الاستسلام لكي يتم له تحقيق هدفه دون إراقة دماء، وبتطبيق هذا الأسلوب، تمّ له ﷺ ما أراد، ولقد كان اهتمام النبي ﷺ بمعنويات المقاتل ونفسيته سبقاً عسكرياً، بدليل أن المدارس العسكرية التي جاءت فيما بعد جعلت هذا الأمر موضع العناية والاهتمام من الناحية العسكرية [(٦)].

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٥٢).

(٢) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول (ص ٤٤٧).

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٥٢).

(٤) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي (ص ٢٧٥).

(٥) انظر: الطبقات لابن سعد (٢/ ١٣٥).

(٦) انظر: العبقرية العسكرية وغزوات الرسول، للّواء محمد فرج (ص ٥٦٥).

المبحث الثاني
خطة النبي ﷺ لدخول مكة وفتحها

أولاً: توزيع المهام بين قادة الصحابة:

عندما وصل النبي ﷺ إلى ذي طوى [(١)] وزّع المهام، فجعل خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى، وجعل الزبير على المجنبة اليسرى، وجعل أبا عبيدة على البياذقة [(٢)]، وبطن الوادي، فقال: «يا أبا هريرة ادع لي الأنصار» فدعاهم فجاؤوا يهرولون، فقال: «يا معشر الأنصار، هل ترون أوباش قريش» قالوا: نعم. قال: «انظروا إذا لقيتموهم غداً أن تحصدوهم حصداً»، وأخفى بيده ووضع يمينه على شماله وقال: «موعدكم الصفا» [(٣)].

وبعث رسول الله ﷺ الزبير بن العوام على المهاجرين وخيلهم، وأمره أن يدخل من كداء من أعلى مكة، وأمره أن يغرز رايته بالحجون، ولا يبرح حتى يأتيه، وبعث خالد بن الوليد في قبائل قضاعة وسليم وغيرهم، وأمره أن يدخل من أسفل مكة وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت، وبعث سعد بن عبادة في كتيبة الأنصار في مقدمة رسول الله ﷺ، وأمرهم أن يكفوا أيديهم ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم [(٤)]، وبهذا كانت المسؤوليات واضحة، وكل قد عرف ما أسند إليه من مهام والطريق الذي ينبغي أن يسير فيه [(٥)].

ودخلت قوات المسلمين مكة من جهاتها الأربع في آن واحد، ولم تلق تلك القوات مقاومة. وكان في دخول جيش المسلمين من الجهات الأربع ضربة قاضية لفلول المشركين حيث عجزت عن التجمع وضاعت منها فرصة المقاومة، وهذا من التدابير الحربية الحكيمة التي لجأ إليها رسول الله ﷺ عندما أصبح في مركز القوة في العدد والعتاد، ونجحت خطة الرسول ﷺ، فلم يستطع المشركون المقاومة ولا الصمود أمام الجيش الزاحف إلى أم القرى، فاحتل كل فيلق منطقته التي وجّه إليها، في سلم واستسلام؛ إلا ما كان من المنطقة التي توجه إليها خالد [(٦)]، فقد تجمع متطرِّفو قريش ومنهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو وغيرهم، مع بعض حلفائهم في مكان اسمه (الخندمة) وتصدوا للقوات المتقدمة بالسهام وصمموا على القتال؛ فأصدر خالد بن الوليد أوامره بالانقضاض عليهم وما هي إلا لحظات حتى قضى على تلك القوة الضعيفة وشتت شمل أفرادها، وبذلك أكمل الجيش السيطرة على مكة

---

(١) انظر: معين السيرة (ص ٣٨٩).
(٢) البياذقة: الرجالة.
(٣) مسلم، باب فتح مكة رقم (١٧٨٠).
(٤) انظر: معين السيرة (ص ٣٩٠).
(٥) المصدر السابق، (ص ٣٩٠).
(٦) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة (ص ٣٩٧).

المكرمة [(١)]، وقد حدثتنا كتب السيرة والتاريخ عن قصة حماس بن خالد من قبيلة بني بكر، فقد أعد سلاحاً لمقاتلة المسلمين وكانت امرأته إذا رأته يصلحه ويتعهده تسأله: لماذا تعدُّ ما أرى؟ فيقول: لمحمد وأصحابه، وقالت امرأته له يوماً: والله ما أرى أنه يقوم لمحمد وصحبه شيء! فقال: إني والله لأرجو أن أخدمك بعضهم... ثم قال:

إن يقبلوا اليوم فمالي علة — هذا سلاح كامل وألَّة [(٢)]
وذو غرارين سريع السَّلة

فلما جاء يوم الفتح ناوش حماس هذا شيئاً من قتال مع رجال عكرمة، ثم أحس بالمشركين يتطايرون من حوله أمام جيش خالد، فخرج منهزماً حتى بلغ بيته فقال لامرأته: أغلقي عليَّ الباب....

فقالت المرأة لفارسها المعلَم: فأين ما كنت تقول؟

فقال يعتذر لها:

إنك لو شهدت يوم الخندمة — إذ فرَّ صفوان وفرَّ عكرمة
وأبو يزيد قائم كالمؤتمة [(٣)] — واستقبلتهم بالسيوف المسلمة
يقطعن كل ساعد وجمجمة — ضرباً فلا تسمع إلا غمغمة
لهم نهيت [(٤)] خلفنا وهمهمة — لم تنطقي باللوم أدنى كلمة [(٥)]

لقد أعلن في مكة قبيل دخول جيش المسلمين أسلوب منع التجول، لكي يتمكنوا من دخول مكة، بأقل قدر من الاشتباكات والاستفزازات، وإراقة الدماء، وكان الشعار المرفوع: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، وجعل ﷺ لدار أبي سفيان مكانة خاصة كي يكون أبو سفيان ساعده في إقناع المكيين بالسلم والهدوء، ويستخدمه كمفتاح أمان يفتتح أمامه الطريق إلى مكة دون إراقة دماء ويشبع في نفسه عاطفة الفخر، التي يحبها أبو سفيان حتى يتمكن الإيمان في قلبه [(٦)].

لقد دخل أبو سفيان إلى مكة مسرعاً ونادى بأعلى صوته:

يا معشر قريش، هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو

---

(١) انظر: قيادة الرسول ﷺ السياسية والعسكرية (ص ١٢٢، ١٢٣).
(٢) ألة: حربة.
(٣) المؤتمة: الأسطوانة، وأبو يزيد: سهيل بن عمرو.
(٤) النهيت: صوت الصدر.
(٥) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٩٥).
(٦) انظر: دراسة في السيرة، د. عماد الدين خليل (ص ٢٤٥).

آمن. فقامت إليه هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الحميث الدسم الأحمس ـ تشبهه بالزق لسمنه ـ قبح من طليعة قوم. قال: ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله، وما تغني عنا دارك، قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. وتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد [١].

وحرص النبي ﷺ أن يدخل الكداء التي بأعلى مكة [٢] تحقيقاً لقول صاحبه الشاعر المبدع حسان بن ثابت حين هجا قريش وأخبرهم بأن خيل الله تعالى ستدخل من كداء، وتعتبر هذه القصيدة من أروع ما قال حسان، حيث قال:

عدمنا خيلنا إن لم تروها ... تثير النقع [٣] موعدها كداء
ينازعن الأعنة مصعدات ... على أكتافها الأسل الظماء
تظل جيادنا متمطرات ... يلطمهن بالخمر النساء
فإما تعرضوا عنا اعتمرنا ... وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلا فاصبروا لجلاد يوم ... يعز [٤] الله فيه من يشاء
وجبريل رسول الله فينا ... وروح القدس ليس له كفاء
وقال الله قد أرسلت عبداً ... يقول الحق إن نفع البلاء
شهدت به فقوموا صدقوه ... فقلتم لا نقوم ولا نشاء
وقال الله قد سيرت جنداً ... هم الأنصار عرضتها اللقاء
لنا في كل يوم من معد ... سباب أو قتال أو هجاء
فنحكم بالقوافي من هجانا ... ونضرب حين تختلط الدماء
ألا أبلغ أبا سفيان عني ... مغلغلة [٥] فقد برح الخفاء
بأن سيوفنا تركتك عبداً ... وعبد الدار سادتها الإماء
هجوت محمداً فأجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفءٍ ... فشرُّكما لخير كما الفداء
هجوت مباركاً براً حنيفاً ... أمين الله شيمته الوفاء
فمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٩٠).
(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٥٢٤).
(٣) النقع: موضع قرب مكة أو الغبار.
(٤) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٠٩).
(٥) مغلغلة: رسالة محمولة من بلد إلى بلد.

فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء
لساني صارم لا عيب فيه وبحري لا تكدره الدلاء [(١)]

ومما يؤيد حرص النبي ﷺ على دخوله من كداء، ما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما دخل رسول الله ﷺ عام الفتح رأى النساء يلطمن وجوه الخيل بالخمر [(٢)]، فتبسم إلى أبي بكر فقال: «يا أبا بكر كيف قال حسان»، فأنشده قوله:

تظل جيادنا متمطِّرات تلطمهن بالخمر النساء [(٣)]

ثانياً: دخول خاشع متواضع، لا دخول فاتح متعال:

دخل رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وعليه عمامة سوداء بغير إحرام [(٤)]، وهو واضع رأسه تواضعاً للّه، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى أن ذقنه ليكاد يمس واسطة الرحل، ودخل وهو يقرأ سورة الفتح، مستشعراً بنعمة الفتح وغفران الذنوب، وإفاضة النصر العزيز [(٥)]، وعندما دخل مكة فاتحاً - وهي قلب جزيرة العرب ومركزها الروحي والسياسي - رفع كل شعار من شعائر العدل والمساواة، والتواضع والخضوع، فأردف أسامة بن زيد، وهو ابن مولى رسول الله ﷺ ولم يردف أحداً من أبناء بني هاشم وأبناء أشراف قريش وهم كثير، وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين ليلة خلت من رمضان، سنة ثمان من الهجرة [(٦)].

يقول محمد الغزالي في وصف دخول النبي ﷺ مكة:

على حين كان الجيش الزاحف يتقدم، ورسول الله ﷺ على ناقته تتوج هامته عمامة دسماء، ورأسه خفيض من شدة التخشع للّه، لقد انحنى على رحله وبدا عليه التواضع الجمّ... إن الموكب الفخم المهيب الذي ينساب به حثيثاً إلى جوف الحرم، والفيلق الدارع الذي يحف به ينتظر إشارة منه فلا يبقى بمكة شيء آمن، إن هذا الفتح المبين ليذكره بماض طويل الفصول كيف خرج مطارداً؟ وكيف يعود اليوم منصوراً مؤيداً؟ وأي كرامة عظمى حفّه الله بها هذا الصباح الميمون؟ وكلما استشعر هذه النعماء ازداد للّه على راحلته خشوعاً وانحناء... [(٧)].

هذا وقد حرص النبي ﷺ على تأمين الجبهة الداخلية في مكة عند دخوله يوم الفتح ولذلك عندما بلغه مقولة سعد بن عبادة لأبي سفيان: اليوم يوم الملحمة، اليوم نستحل الكعبة، قال ﷺ:

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٠٩).
(٢) الخمر جمع خمار، مأخوذ من الخمر وهو الستر وهو ما تستر به النساء وجوههن.
(٣) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٨٣١).
(٤) مسلم رقم (١٣٥٨).
(٥) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة (ص ٣٩٦).
(٦) انظر: السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي (ص ٣٣٧).
(٧) انظر: فقه السيرة للغزالي (ص ٣٧٩، ٣٨٠).

«هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة»، وأخذ الراية من سعد بن عبادة وسلّمها لابنه قيس بن سعد، وبهذا التصرف الحكيم حال دون أي احتمال لمعركة جانبية هم في غنى عنها، وفي نفس الوقت لم يُثره، ولا أثار الأنصار وسلّمها لابنه، ومن طبيعة البشر أن لا يرضى الإنسان بأن يكون أحد أفضل منه إلا ابنه [(١)].

ولما نزل رسول الله ﷺ بمكة واطمأن الناس خرج حتى جاء البيت فطاف به، وفي يده قوس، وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يطعنها بالقوس، ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩] والأصنام تتساقط على وجوهها [(٢)]، وإنه لمظهر رائع لنصر الله وعظيم تأييده لرسوله، إذ كان يطعن تلك الآلهة الزائفة المنثورة حول الكعبة بعصا معه، فما يكاد يطعن الواحد منها بعصاه حتى ينكفىء على وجهه أو ينقلب على ظهره جذاذاً [(٣)]، ورأى في الكعبة الصور والتماثيل، فأمر بالصور وبالتماثيل فكسرت [(٤)]، وأبى أن يدخل جوف الكعبة حتى أخرجت الصور، وكان فيها صورة يزعمون أنها صورة إبراهيم وإسماعيل وفي يديهما من الأزلام، فقال النبي ﷺ: «قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما بها قط...» [(٥)].

ثم دخل البيت وكبّر في نواحيه ثم صلّى، فقد روى ابن عمر أن رسول الله ﷺ دخل الكعبة هو وأسامة وبلال وعثمان بن طلحة، فأغلقها عليه ثم مكث فيها قال ابن عمر: فسألت بلالاً حين خرج ما صنع رسول الله؟ قال: جعل عمودين عن يساره وعموداً عن يمينه وثلاثة أعمدة وراءه وكان البيت يومئذٍ على ستة أعمدة ثم صلّى [(٦)].

وكان مفتاح الكعبة مع عثمان بن طلحة، قبل أن يسلم؛ فأراد علي رضي الله عنه أن يكون المفتاح له مع السقاية؛ لكن النبي ﷺ دفعه إلى عثمان بعد أن خرج من الكعبة، وردّه إليه قائلاً: «اليوم يوم بر ووفاء» [(٧)]، وكان ﷺ قد طلب من عثمان بن طلحة المفتاح قبل أن يهاجر إلى المدينة، فأغلظ له القول ونال منه، فحلم عنه، وقال: «يا عثمان؛ لعلك ترى هذا المفتاح يوماً بيدي، أضعه حيث شئت»، فقال: لقد هلكت قريش يومئذٍ وذلّت، فقال: «بل عمرت وعزّت يومئذٍ، ووقعت كلمته من عثمان بن طلحة موقعاً، وظن أن الأمر سيصير إلى ما قال [(٨)]، ولقد أعطى له

---

(١) انظر: قيادة الرسول ﷺ السياسية والعسكرية (ص ١٩٦).
(٢) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ٣٣٩).
(٣) انظر: فقه السيرة للبوطي (ص ٢٨٢).
(٤) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ٣٣٩).
(٥) البخاري، كتاب المغازي (٥/ ١١٠) رقم (٤٢٨٨).
(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٦١، ٦٢).
(٧) المصدر السابق (٤/ ٦١).
(٨) انظر: المغازي (٢/ ٨٣٨).

رسول الله ﷺ مفاتيح الكعبة قائلاً له: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء (١)، خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم» (٢)، وهكذا لم يشأ النبي ﷺ أن يستبد بمفتاح الكعبة، بل لم يشأ أن يضعه في يد أحد من بني هاشم، وقد تطاول لأخذه رجال منهم، لما في ذلك من الإثارة أولاً، ولما به من مظاهر السيطرة وبسط النفوذ، وليست هذه من مهام النبوة بإطلاق.... هذا مفهوم الفتح الأعظم في شرعة رسول الله ﷺ البر والوفاء، حتى للذين غدروا ومكروا، وتطاولوا (٣).

هذا وقد أمر النبي ﷺ بلالاً أن يصعد فوق ظهر الكعبة، فيؤذن للصلاة، فصعد بلال وأذّن للصلاة وأنصت أهل مكة للنداء الجديد على آذانهم كأنهم في حلم، إن هذه الكلمات تقصف في الجو فتقذف بالرعب في أفئدة الشياطين، فلا يملكون أمام دويِّها إلا أن يولوا هاربين، أو يعودوا مؤمنين.

الله أكبر الله أكبر الله أكبر (٤).

ذلك الصوت الذي كان يهمس يوماً ما تحت أسواط العذاب: أحد، أحد، أحد، ها هو اليوم يجلجل فوق كعبة الله تعالى قائلاً: لا إله إلا الله محمد رسول الله، والكل خاشع منصت خاضع (٥).

ثالثاً: إعلان العفو العام:

١ ـ نال أهل مكة عفواً عاماً، رغم أنواع الأذى التي ألحقوها بالرسول ﷺ ودعوته، ورغم قدرة الجيش الإسلامي على إبادتهم، وقد جاء إعلان العفو عنهم وهم مجتمعون قرب الكعبة ينتظرون حكم الرسول ﷺ فيهم فقال: «ما تظنون أني فاعل بكم؟» فقالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم. فقال: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم» (٦).

وقد ترتب على هذا العفو العام حفظ الأنفس من القتل أو السبي، وإبقاء الأموال المنقولة والأراضي بيد أصحابها، وعدم فرض الخراج عليها، فلم تعامل مكة كما عوملت المناطق الأخرى المفتوحة عنوة لقدسيتها وحرمتها، فإنها دار النسك ومتعبد الخلق وحرم الرب تعالى، لذلك ذهب جمهور الأئمة من السلف والخلف إلى أنه لا يجوز بيع أراضي مكة ولا إجارة بيوتها

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٦٢).
(٢) انظر: المغازي (٢/ ٨٣٨).
(٣) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة (ص ٤٠١).
(٤) انظر: فقه السيرة للغزالي (ص ٣٨٣).
(٥) انظر: فقه السيرة للبوطي (ص ٢٦٩).
(٦) انظر: المجتمع المدني للعمري (ص ١٧٩).

فهي مناخ لمن سبق، يسكن أهلها فيما يحتاجون إلى سكناه من دورها، وما فضل عن حاجتهم فهو لإقامة الحجاج والمعتمرين والعباد القاصدين، وذهب آخرون إلى جواز بيع أراضي مكة وإجارة بيوتها، وأدلتهم قوية في حين أن أدلة المانعين مرسلة موقوفة (١).

٢ ـ إهدار النبي ﷺ لبعض الدماء:

إلى جانب ذلك الصفح الجميل كان هناك الحزم الأصيل الذي لا بدّ أن تتصف به القيادة الحكيمة الرشيدة، ولذلك استثنى قرار العفو الشامل بضعة عشر رجلاً أمر بقتلهم، وإن وجدوا متعلِّقين بأستار الكعبة، لأنه عظمت جرائمهم في حق الله ورسوله، وحق الإسلام، ولما كان يخشاه منهم من إثارة الفتنة بين الناس بعد الفتح (٢).

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: وقد جمعت أسماءهم من متفرقات الأخبار، وهم: عبد العزى بن خطل، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، والحويرث بن نقيد ـ مصغراً ـ ومقيس بن حبابة، وهبّار بن الأسود، وقينتان كانتا لابن خطل: فرتني وقريبة، وسارة مولاة بني عبد المطلب، وذكر أبو معشر فيمن أهدر دمه الحارث بن طلال الخزاعي، وذكر الحاكم أنه فيمن أهدر دمه كعب بن زهير، ووحشي بن حرب، وهند بنت عتبة (٣).

ومن هؤلاء من قتل، ومنهم من جاء مسلماً تائباً فعفا عنه الرسول، وحسن إسلامه (٤).

٣ ـ خطبة النبي ﷺ غداة الفتح وإسلام أهل مكة:

وفي غداة الفتح بلغ النبي ﷺ أن خزاعة ـ حلفاءه ـ عدت على رجل من هذيل فقتلوه وهو مشرك برجل قتل في الجاهلية، فغضب وقام بين الناس خطيباً فقال: «يا أيها الناس إن الله قد حرَّم مكة يوم خلق السمٰوات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرىءٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً، ولا يعضد ـ يقطع ـ فيها شجراً، لم تحل لأحد كان قبلي، ولا تحل لأحد يكون بعدي، ولم تحل لي إلا هذه الساعة غضباً على أهلها، ثم قد رجعت كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فمن قال لكم: إن رسول الله ﷺ قد قاتل فيها، فقولوا: إن الله أحلّها لرسوله ولم يحلها لكم.

يا معشر خزاعة: ارفعوا أيديكم عن القتل فلقد كثر إن نفع، لقد قتلتم قتيلاً لأدينّه، فمن قتل بعد مقامي هذا، فأهله بخير النظرين، إن شاؤوا قُدِّم قاتله، وإن شاؤوا فعقله (٥)».

---

(١) انظر: المجتمع المدني للعمري، (ص ١٨٠).
(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٥١)؛ تأملات في السيرة (ص ٢٦٢).
(٣) فتح الباري (٧/ ٩).
(٤) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٥١).
(٥) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٥١) وعقله: ديته.

كان من أثر عفو النبي ﷺ الشامل عن أهل مكة، والعفو عن بعض من أهدر دماءهم أن دخل أهل مكة رجالاً ونساءً وأحراراً وموالي في دين الله طواعية واختياراً، وبدخول مكة تحت راية الإسلام دخل الناس في دين الله أفواجاً، وتمت النعمة، ووجب الشكر [١]، وبايع رسول الله ﷺ الناس جميعاً الرجال والنساء، والكبار والصغار وبدأ بمبايعة الرجال، فقد جلس لهم على الصفا، فأخذ عليهم البيعة على الإسلام والسمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا، وجاء مجاشع بن مسعود بأخيه مجالد بعد يوم الفتح فقال لرسول الله ﷺ: جئتك بأخي لتبايعه على الهجرة، فقال عليه الصلاة والسلام: «ذهب أهل الهجرة بما فيها»، فقال: على أي شيء تبايعه؟ قال: «أبايعه على الإسلام والإيمان والجهاد» [٢].

وقد روى البخاري: أن رسول الله ﷺ قال يوم الفتح: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية [٣]، وإذا استنفرتم فانفروا»، والمراد أن الهجرة التي كانت واجبة من مكة قد انتهت بفتح مكة، فقد عزّ الإسلام، وثبت أركانه ودعائمه، ودخل الناس فيه أفواجاً، أما الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، أو من بلد لا يستطيع أن يقيم فيه دينه ويظهر شعائره إلى بلد يتمكن فيه من ذلك، فهي باقية إلى يوم القيامة، ولكن هذا دون تلك، فقد تكون واجبة، وقد تكون غير واجبة، كما أن الجهاد والإنفاق في سبيل الله مشروع وباق إلى يوم القيامة ولكنه ليس كالإنفاق ولا الجهاد قبل فتح مكة قال عزّ شأنه [٤]: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

ولما فرغ رسول الله ﷺ من بيعة الرجال بايع النساء، وفيهن هند بنت عتبة متنقبة متنكرة، على أن لا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصين في معروف، ولما قال النبي: «ولا يسرقن» قالت هند: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني ويكفي بنيَّ، فهل عليّ من حرج إذا أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال لها ﷺ: «خذي من ماله ما يكفيك وبنيك بالمعروف». ولما قال: «ولا يزنين»، قالت هند: وهل تزني الحرة؟ ولما عرفها رسول الله قال لها: «وإنك لهند بنت عتبة؟» قالت: نعم، فاعف عما سلف عفا الله عنك.

وقد بايعن رسول الله ﷺ من غير مصافحة، فقد كان لا يصافح النساء ولا يمس يد امرأة إلا امرأة أحلها الله له أو ذات محرم منه، وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (لا

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة، (٢/ ٤٥٦).
(٢) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٣٠٥) (٥/ ١١٤).
(٣) البخاري، كتاب الجهاد والسير رقم (٢٧٨٣).
(٤) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٢٥٧).

والله، ما مست يد رسول الله يد امرأة قط) وفي رواية: (ما كان يبايعهن إلا كلاماً ويقول: «إنما قولي لامرأة واحدة كقولي لمائة امرأة» [١].

رابعاً: بعث خالد بن الوليد إلى بني جذيمة:

بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة داعياً إلى الإسلام، وكان ذلك في شهر شوال من السنة الثامنة للهجرة [٢] قبل حنين، ومعه جنود من بني سليم ومدلج والأنصار والمهاجرين، كان تعدادهم حولي ثلاثمائة وخمسين رجلاً فلما رأى بنو جذيمة الجيش بقيادة خالد أخذوا السلاح، فقال لهم خالد: ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا، فقام رجل منهم يسمى: جحدراً، فقال: ويلكم يا بني جذيمة إنه خالد؛ والله ما بعد وضع السلاح إلا الإسار، وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق، والله لا أضع سلاحي أبداً فلم يزالوا به حتى وضع سلاحه، فلما وُضع السلاح أمر بهم خالد فكتّفوا، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا، وخالد يأخذ فيهم أسراً وقتلاً، فأنكر عليه بعض أصحابه ذلك، ثم دفع الأسرى إلى من كان معه، حتى إذا أصبح يوماً أمر خالد أن يقتل كل واحد أسيره، فامتثل البعض، وامتنع عبد الله بن عمر وامتنع معه آخرون من قتل أسراهم، فلما قدموا على رسول الله ﷺ أخبروه، فغضب ورفع يديه إلى السماء قائلاً: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد» [٣].

ودار كلام بين خالد وعبد الرحمٰن بن عوف حول هذا الموضوع حتى كان بينهم شر، فقد خشي ابن عوف أن يكون ما صدر عن خالد ثأراً لعمه الفاكه بن المغيرة ـ الذي قتلته جذيمة في الجاهلية ـ ولعل هذا الذي وقع بينهم هو ما أشار إليه الحديث المروي عند مسلم وغيره: كان بين ابن الوليد وعبد الرحمٰن بن عوف شيء، فسبّه خالد، فقال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أحداً من أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه» [٤]. وبعث رسول الله ﷺ علياً فودى لهم قتلاهم وزادهم فيها تطييباً لنفوسهم وبراءة من دمائهم [٥]، وبهذا التصرف النبوي الحكيم واسى النبي ﷺ بني جذيمة، وأزال ما في نفوسهم من أسى وحزن [٦]، وكان قتل خالد لبني جذيمة تأولاً منه واجتهاداً خاطئاً، وذلك بدليل أن الرسول ﷺ لم يعاقبه على فعله [٧].

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣١٩).
(٢) انظر: السرايا والبعوث النبوية (ص ٢٤٨).
(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٦٤).
(٤) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٥٧٩).
(٥) في إسناد ضعف. السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٥٧٩).
(٦) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٦٥).
(٧) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٥٧٩).

خامساً: هدم بيوت الأوثان:

بعد أن طهر البيت الحرام من الأوثان التي كانت فيه، كان لا بدّ من هدم البيوت التي أقيمت للأوثان، فكانت معالم الجاهلية ردحاً طويلاً من الزمن [١]، فكانت سرايا رسول الله تترى لتطهير الجزيرة منها.

١ ـ سرية خالد بن الوليد إلى العزى:

توجهت سرية قوّتها ثلاثون فارساً بقيادة خالد بن الوليد إلى الطاغوت الأعظم منزلة ومكانة عند قريش وسائر العرب (العزى) لإزالته من الوجود نهائياً، وعندما وصلت السرية إلى العزى بمنطقة نخلة قام إليها خالد؛ فقطع السمرات وهدم البيت الذي كان عليه [٢]، وهو يردد: كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك [٣]، ثم رجع خالد وأصحابه إلى رسول الله ﷺ وقدم تقريره بإنجاز المهمة، ولكن النبي ﷺ استدرك على قائد السرية وقال له: «هل رأيت شيئاً؟» قال: لا [٤] فقال: «ارجع فإنك لم تصنع شيئاً» [٥]، فرجع خالد وهو مغيظ حنق على عدم إنهاء مهمته على الوجه المطلوب، فلما وصل إليها ونظرت السدنة إليه عرفوا أنه جاء هذه المرة ليكمل ما فاته في المرة السابقة، فهربوا إلى الجبل وهم يصيحون: يا عزى خبليه، يا عزى عوريه، فأتاه خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحثو التراب على رأسها، فتقدم إليها خالد رضي الله عنه بشجاعته المعروفة وضربها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك فقال: «تلك هي العزى» [٦].

٢ ـ سرية سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة:

مناة اسم صنم كانت على ساحل البحر الأحمر مما يلي قديداً [٧] في منطقة تعرف بالمشلل [٨]، وكانت للأوس والخزرج وغسان ومن دان بدينهم، يعبدونها ويعظمونها في الجاهلية ويهلون منها للحج وقد بلغ من تعظيمهم إياها أنهم كانوا لا يطوفون بين الصفا والمروة وتحرجاً وتعظيماً لها حيث كان ذلك سنة في آبائهم، من أحرم لمناة لم يطف بين الصفا والمروة [٩] ولم تزل هذه عادتهم حتى أسلموا، فلما قدموا مع النبي ﷺ للحج ذكروا له ذلك فأنزل الله تعالى هذه الآية [١٠]، قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: ١٥٨].

---

(١) انظر: معين السيرة (ص ٣٩٤).
(٢) انظر: السرايا والبعوث النبوية (ص ٢٨٢).
(٣) المصدر السابق، (ص ٢٨٢).
(٤) انظر: المغازي (٢/ ٨٧٤).
(٥) انظر: السرايا والبعوث النبوية (ص ٢٨٢).
(٦) المصدر السابق، (ص ٢٨٣).
(٧) ما بين مكة والمدينة.
(٨) المشلل من قديد وبالمشلل كانت مناة.
(٩) انظر: السرايا والبعوث النبوية (ص ٢٨٦).
(١٠) شرح النووي على مسلم (٩/ ٢٢).

وقد كان أول من نصبها لهم مؤسس الشرك في الجزيرة العربية ومبتدع الأوثان ومحرف الحنفية دين إبراهيم عليه السلام عمرو بن لحي الخزاعي (١)، فلما فتح الله على المسلمين مكة بعث رسول الله إلى مناة رجلاً من أهلها سابقاً الذين كانوا يعظمونها في الجاهلية وهو سعد بن زيد الأشهلي رضي الله عنه على رأس سرية قوتها عشرون فارساً، وكان واجب السرية هو إزالة مناة من الوجود نهائياً (٢).

انطلق زيد ومن معه في مسير اقترابي سريع لإنجاز المهمة المحددة حتى وصل إليها، فقابله سادنها متسائلاً: ما تريد؟ قال: هدم مناة، قال: أنت وذاك، فأقبل سعد يمشي إليها، وتخرج إليه امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها (٣).

فصاح بها السادن صيحة الواثق: مناة دونك بعض عصاتك (٤)، ولكن صيحته ذهبت أدراج الرياح، فلم يأبه سعد رضي الله عنه بكل ذلك وضربها ضربة قاتلة قضت عليها ثم أقبل مع أصحابه على الصنم فهدموه ولم يجدوا في خزانتها شيئاً، وانصرف راجعاً إلى رسول الله ﷺ (٥).

٣ ـ سرية عمرو بن العاص إلى سواع:

قال تعالى مخبراً عن قوم نوح: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

وسواع المذكور ضمن هذه الأصنام: هو اسم صنم كان لقوم نوح عليه السلام، ثم صار بعد ذلك لقبيلة هذيل المضرية (٦)، وظل هذا الوثن منصوباً تعبده هذيل وتعظمه حتى إنهم كانوا يحجون إليه (٧)، حتى فتحت مكة ودخلت هذيل فيمن دخل في دين الله أفواجاً، فبعث رسول الله ﷺ سرية بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه لتحطيم سواع، ويحدثنا قائد السرية عن مهمته، فيقول: (فانتهيت إليه وعنده السادن، فقال: ما تريد؟ قلت: أمرني رسول الله ﷺ أن

---

(١) انظر: السرايا والبعوث النبوية (ص ٢٨٧).
(٢) المصدر السابق، (ص ٢٨٧).
(٣) انظر: الطبقات (٢/١٤٦).
(٤) المصدر السابق، (٢/١٤٦).
(٥) انظر: السرايا والبعوث النبوية (ص ٢٨٨). قال مؤلف الكتاب الدكتور بريك أبو مايلة: الخبر ضعيف من الناحية الحديثية ويمكن الاستئناس به تاريخياً، حيث ذكر أهل المغازي أن رسول الله أرسل بعض السرايا لتحطيم الأصنام في الجزيرة العربية، ولا يمكن استثناء مناة من ذلك، لكونها أحد أكبر الطواغيت في الجزيرة. ولقد اعتمدت في دراسة السرايا والبعوث على هذه الرسالة العلمية التي أشرف عليها الدكتور أكرم العمري.
(٦) انظر: السرايا والبعوث النبوية (ص ٢٩٢).
(٧) انظر: سبل الرشاد للشامي (٦/٣٠٣).

أهدمه، قال: لا تقدر على ذلك، قلت: لِمَ؟ قال: تُمنع، قلت: حتى الآن أنت في الباطل، ويحك هل يسمع أو يبصر، قال: فدنوت منه فكسرته وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانته، فلم يجدوا شيئاً ثم قلت للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمت لله [(١)].

ونستفيد من حركة السرايا التي أرسلها رسول الله ﷺ للقضاء على الأصنام والأوثان أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوماً واحداً، فإنها شعائر الكفر والشرك، وهي أعظم المنكرات، فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة البتة.

وهذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت أوثاناً وطواغيت تعبد من دون الله، والأحجار التي تقصد للتعظيم والتبرك والنذر والتقبيل، لا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالتها، وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، أو أعظم شركاً عندها وبها [(٢)].

المبحث الثالث

دروس وعِبَر وفوائد

أولاً: مواقف دعوية وقدرة رفيعة في التعامل مع النفوس:

١ ـ إسلام سهيل بن عمرو:

قال سهيل بن عمرو: لما دخل رسول الله ﷺ مكة وظهر، انقحمت [(٣)] بيتي وأغلقت عليّ بابي، وأرسلت إلى ابني عبد الله بن سهيل: أن اطلب لي جواراً من محمد، وإني لا آمن من أن أقتل. وجعلت أتذكر أثري عند محمد وأصحابه فليس أحد أسوأ أثراً مني، وإني لقيت رسول الله ﷺ يوم الحديبية بما لم يلحقه أحد، وكنت الذي كاتبته، مع حضوري بدراً وأُحداً، وكلما تحركت قريش كنت فيها، فذهب عبد الله بن سهيل إلى رسول الله فقال: يا رسول الله تؤمنه؟ فقال: «نعم، هو آمن بأمان الله، فليظهر!» ثم قال رسول الله ﷺ لمن حوله: «من لقي سهيلاً بن عمرو فلا يشد النظر إليه، فليخرج فلعمري إن سهيلاً له عقل وشرف وما مثل سِهيل جهل الإسلام، ولقد رأى ما كان يُوضع فيه أنه لم يكن له بنافع!» فخرج عبد الله إلى أبيه، فقال سُهيل: كان والله براً، صغيراً وكبيراً! فكان سهيل يقبل ويدبر، وخرج إلى حنين مع النبي ﷺ وهو على شركه حتى أسلم بالجعرّانة [(٤)].

---

(١) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٨٧٠).

(٢) انظر: السرايا والبعوث النبوية (ص ٣٠٢).

(٣) أي رميت بنفسي.

(٤) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٨٤٦ ـ ٨٤٧)، المستدرك للحاكم (٣/ ٣٨١).

لقد كانت لهذه الكلمات التربوية الأثر الكبير على سهيل بن عمرو حيث أثنى على رسول الله ﷺ بالبر طوال عمره، ثم دخل في الإسلام بعد ذلك، وقد حسن إسلامه، وكان مكثراً من الأعمال الصالحة [(١)]، يقول الزبير بن بكار: كان سهيل بعدُ كثير الصلاة والصوم والصدقة، خرج بجماعته إلى الشام مجاهداً، ويقال: إنه صام وتهجد حتى شحب لونه وتغير، وكان كثير البكاء إذا سمع القرآن، وكان أميراً على كردوس [(٢)] يوم اليرموك [(٣)].

٢ ـ إسلام صفوان بن أمية:

قال عبد الله بن الزبير رضي الله عنه: .... وأما صفوان بن أمية فهرب حتى أتى الشُّعَيبة [(٤)]. وجعل يقول لغلامه يسار وليس معه غيره: وَيْحَك انظر من ترى، قال: هذا عمير بن وهب. قال صفوان: ما أصنع بعمير؟ والله ما جاء إلا يريد قتلي، قد ظاهر محمداً عليّ. فلحقه فقال: يا عمير، ما كفاك ما صنعت بي؟ حملتني دينك وعيالك، ثم جئت تريد قتلي! قال: أبا وهب جُعلتُ فداك! جئتك من عند أبر الناس وأوصل الناس. وقد كان عُمير قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، سيد قومي خرج هارباً ليقذف نفسه في البحر، وخاف ألا تُؤمّنه فداك أبي وأمي! قال رسول الله ﷺ: «قد أمنته»، فخرج في أثره فقال: إن رسول الله ﷺ قد أمنك. فقال صفوان: لا والله، لا أرجع معك حتى تأتيني بعلامة أعرفها، فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، جئت صفوان هارباً يريد أن يقتل نفسه فأخبرته بما أمنته فقال: لا أرجع حتى تأتي بعلامة أعرفها، فقال رسول الله ﷺ: «خذ عمامتي».

قال: فرجع عمير إليه بها، وهو البرد الذي دخل فيه رسول الله ﷺ يومئذٍ مُعتجراً [(٥)] به، بُرد حَبَرة [(٦)]. فخرج عمير في طلبه الثاني حتى جاء بالبُرد فقال: أبا وهب جئتك من عند خير الناس، وأوصل الناس، وأبر الناس، وأحلم الناس، مَجْده مَجْدك، وعزه عزك، ومُلكه مُلكك، ابن أمك وأبيك. أذكر الله في نفسك. قال له: أخاف أن أُقتل. قال: قد دعاك إلى أن تدخل في الإسلام، فإن رضيت وإلا سيرك شهرين، فهو أوفى الناس وأبرّهم وقد بعث إليك بُبُرده الذي دخل فيه معتجراً، تعرفه؟ قال: نعم. فأخرجه، فقال: نعم، هو هو! فرجع صفوان حتى انتهى إلى رسول الله، ورسول الله ﷺ يُصلّي بالمسلمين العصر بالمسجد، فوقفا فقال صفوان: كم

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ٢١٦، ٢١٧).

(٢) كردوس: فرقة كبيرة.

(٣) انظر: سيرة أعلام النبلاء (٢/ ١٩٥).

(٤) الشعيبة: مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز، وهو كان مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدة، معجم البلدان (٥/ ٢٧٦).

(٥) الاعتجاز بالعمامة: هو أن يلفها على رأسه ويرد طرفها على وجهه ولا يعمل منها شيئاً تحت ذقنه (النهاية: ٣/ ٦٩).

(٦) الحبرة: ضرب من ثياب اليمن.

تُصلُّون في اليوم والليلة؟ قال: خمس صلوات، قال: يُصلي بهم محمد؟ قال: نعم. فلما سلّم صاح صفوان: يا محمد، إن عمير بن وهب جاءني ببُردك، وزعم أنك دعوتني إلى القدوم عليك، فإن رضيت أمراً وإلا سيرتني شهرين. قال: «انزل أبا وهب». قال: لا والله، حتى تبيّن لي، قال: بل تُسيَّر أربعة أشهر، فنزل صفوان.

وخرج رسول الله ﷺ قبل هوازن، وخرج معه صفوان وهو كافر، وأرسل إليه يستعيره سلاحه، فأعاره سلاحه مائة درع بأداتها، فقال: طوعاً أو كرهاً؟ قال رسول الله ﷺ: «عارية مُؤَداة»، فأعاره، فأمره رسول الله ﷺ فحملها إلى حنين، فشهد حنيناً، والطائف ثم رجع رسول الله ﷺ إلى الجعرانة، فبينما رسول الله ﷺ يسير في الغنائم ينظر إليها، ومعه صفوان بن أمية، جعل صفوان ينظر إلى شِعَب مُلىءَ نَعَماً وشاءً ورعاءً فأدام إليه النظر ورسول الله ﷺ يرمقه فقال: «أبا وهب، يعجبك هذا الشِّعب؟» قال: نعم. قال: هو لك وما فيه. فقال صفوان عند ذلك: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأسلم مكانه [1].

ونلاحظ في هذا الخبر أن النبي ﷺ حاول أن يتألف صفوان بن أمية إلى الإسلام حتى أسلم، وذلك بإعطائه الأمان ثم بتخييره في الأمر أربعة أشهر، ثم بإعطائه من مال العطايا الكبيرة التي لا تصدر من إنسان عادي، فأعطاه أولاً مائة من الإبل مع عدد من زعماء مكة ثم أعطاه ما في أحد الشعاب من الإبل والغنم، فقال: ما طابت نفس أحد بهذا إلا نفس نبي ثم أسلم مكانه [2]، وقد وصف لنا صفوان بن أمية عطاء النبي ﷺ فقال: والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إليّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ [3].

٣ ـ إسلام عكرمة بن أبي جهل:

قال عبد الله بن الزبير رضي الله عنه: قالت أم حكيم امرأة عكرمة بن أبي جهل: يا رسول الله، قد هرب عكرمة منك إلى اليمن، وخاف أن تقتله فأمِّنه، فقال رسول الله ﷺ «هو آمن»، فخرجت أم حكيم في طلبه ومعها غلام لها روميّ، فراودها عن نفسها، فجعلت تمنيه حتى قدمت على حيٍّ من عَكٍّ [4]، فاستغاثتهم عليه فأوثقوه رباطاً، وأدركت عكرمة وقد انتهى إلى ساحل من سواحل تهامة فركب البحر، فجعل نُوتيَّ السفينة يقول له: أخلص! فقال: أي شيء أقول؟ قال: قل لا إله إلا الله. قال عكرمة: ما هربت إلا من هذا، فجاءت أم حكيم على هذا الكلام، فجعلت تلح عليه وتقول: يا ابن عم، جئتك من عند أوصل الناس وأبرّ الناس وخير الناس، لا

---

(١) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٨٥٣ ـ ٨٥٥).
(٢) انظر: التاريخ الإسلامي (٧/ ٢٢٠).
(٣) مسلم، كتاب الفضائل رقم (٢٣١٣، ص ١٨٠٦).
(٤) علك: مخلاف من مخاليف مكة التهامية، معجم ما استعجم، (ص ٢٢٣).

تُهلك نفسك. فوقف لها حتى أدركته فقالت: إني استأمنت لك محمداً رسول الله ﷺ قال: أنت فعلت؟ قالت: نعم، أنا كلمته فأمّنك فرجع معها وقال: ما لقيت من غلامك الرومي؟ فخبرته خبره فقتله عكرمة، وهو يومئذٍ لم يُسلم، فلما دنا من مكة قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمناً مهاجراً، فلا تَسُبّوا أباه فإن سبّ الميت يؤذي الحي، ولا يبلغ الميت».

قال: وجعل عكرمة يطلب امرأته يُجامعها، فتأبى عليه وتقول: إنك كافر، وأنا مسلمة. فيقول: إن أمراً منعك مني لأمر كبير، فلما رأى النبي ﷺ عكرمة وثب إليه ـ وما على النبي ﷺ رداء ـ فرحاً بعكرمة، ثم جلس رسول الله ﷺ فوقف بين يديه، وزوجته مُتنقبة، فقال: يا محمد إن هذه أخبرتني أنك أمّنتني. فقال رسول الله ﷺ: «صدقت، فأنت آمن!» فقال عكرمة: فإلام تدعو يا محمد؟ قال: «أدعوك إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة... وتفعل، وتفعل»، حتى عدّ خصال الإسلام. فقال عكرمة: والله ما دعوت إلا إلى الحق وأمر حسن جميل، قد كنت والله فينا قبل أن تدعو إلى ما دعوت إليه وأنت أصدقنا حديثاً وأبرُّنا برًّا. ثم قال عكرمة: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. فسُرّ بذلك رسول الله ﷺ، ثم قال: يا رسول الله علّمني خير شيء أقوله. قال: «تقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله». قال عكرمة: ثم ماذا؟ قال رسول الله ﷺ: «تقول أشهد الله وأشهد من حضر أني مسلم مهاجر ومجاهد». فقال عكرمة ذلك.

فقال رسول الله: «لا تسألني شيئاً أعطيه أحداً إلا أعطيته»، فقال عكرمة: فإني أسألك أن تستغفر لي كل عداوة عاديتكها، أو مسير وضعت فيه، أو مقام لقيتك فيه، أو كلام قلته في وجهك أو وأنت غائب عنه، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اغفر له كل عداوة عادانيها، وكل مسير سار فيه إلى موضع يريد بذلك المسير إطفاء نورك، فاغفر له ما نال منّي من عرض، في وجهي أو أنا غائب عنه!» فقال عكرمة: رضيت يا رسول الله، لا أدع نفقة كنت أنفقها في صدٍّ عن سبيل إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قتالاً كنت أقاتل في صدٍّ عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله، ثم اجتهد في القتال حتى قتل شهيدا [1].

وبعد أن أسلم ردّ رسول الله ﷺ امرأته له بذلك النكاح الأول [2].

كان سلوك النبي ﷺ في تعامله مع عكرمة لطيفاً حانياً، يكفي وحده لاجتذابه إلى الإسلام، فقد أعجل نفسه عن لبس ردائه، وابتسم له ورحّب به. وفي رواية قال له: «مرحباً بالراكب المهاجر» [3]، فتأثر عكرمة من ذلك الموقف فاهتزت مشاعره وتحركت أحاسيسه، فأسلم، كما

---

(١) يعني يوم اليرموك.

(٢) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٨٥١ ـ ٨٥٣).

(٣) انظر: مجمع الزوائد (٩/ ٣٨٥) مرسل ورجاله رجال الصحيح في إحدى سنديه وأما الإسناد الآخر من رواية الطبراني: رجاله رجال الصحيح إلا مصعب بن سعد لم يسمع من عكرمة.

كان لموقف أم حكيم بنت الحارث بن هشام أثر في إسلام زوجها، فقد أخذت له الأمان من رسول الله ﷺ وغامرت بنفسها تبحث عنه لعل الله يهديه إلى الإسلام كما هداها إليه، وعندما أرادها زوجها امتنعت عنه وعلّلت ذلك بأنه كافر وهي مسلمة، فعظم الإسلام في عينه وأدرك أنه أمام دين عظيم، وهكذا خطت أم حكيم في فكر عكرمة بداية التفكير في الإسلام ثم تُوِّج بإسلامه بين يدي رسول الله ﷺ، وكان صادقاً في إسلامه فلم يطلب من رسول الله ﷺ دنيا وإنما سأله أن يغفر الله تعالى له كل ما وقع فيه من ذنوب ماضية، ثم أقسم أمام النبي ﷺ بأن يحمل نفسه على الإنفاق في سبيل الله تعالى بضعف ما كان ينفق في الجاهلية، وأن يُبلى في الجهاد في سبيل الله بضعف ما كان يبذله في الجاهلية، ولقد برّ بوعده فكان من أشجع المجاهدين والقادة في سبيل الله تعالى في حروب الردة ثم في فتوح الشام حتى وقع شهيداً في معركة اليرموك بعد أن بذل نفسه وماله في سبيل الله (١).

٤ ـ مثل من تواضع النبي ﷺ، إسلام والد أبي بكر:

قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق ﵄: لما دخل رسول الله ﷺ مكة ودخل المسجد، أتى أبو بكر بأبيه يقوده، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه؟» قال أبو بكر: يا رسول الله، هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت، قالت: فأجلسه بين يديه، ثم مسح صدره، ثم قال له: «أسلم»، فأسلم، قالت: فدخل به أبو بكر وكان رأسه ثغامة، فقال رسول الله ﷺ: «غيّروا هذا من شعره» (٢)، ويروى أن رسول الله ﷺ هنأ أبا بكر بإسلام أبيه (٣).

وفي هذا الخبر منهج نبوي كريم سنّه النبي ﷺ في توقير كبار السن واحترامهم، ويؤكد ذلك قوله ﷺ: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقّر كبيرنا» (٤).

وفي قوله ﷺ: «إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم» (٥)، كما أنه ﷺ سنّ إكرام أقارب ذوي البلاء، والبذل والعطاء والسبق في الإسلام، تقديراً لهم على ما بذلوه من خدمة للإسلام والمسلمين ونصر دعوة الله تعالى (٦).

٥ ـ مثل عفو النبي ﷺ وحلمه، إسلام فضالة بن عمير:

أراد فضالة بن عمير بن الملوح الليثي قتل النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي (٧/ ٢٢٣ ـ ٢٢٥).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٥٤، ٥٥).
(٣) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٥٥٧).
(٤) انظر: سنن الترمذي، كتاب البر (باب ١٥ رقم ١٩٨٦).
(٥) انظر: سنن أبي داود، كتاب الأدب (باب ٢٠ قم ٤٨٤٣).
(٦) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ١٩٥).

منه، قال رسول الله ﷺ: «أفضالة؟» قال: نعم فضالة يا رسول الله، قال: «ماذا كنت تحدث به نفسك؟» قال: لا شيء، كنت أذكر الله، قال: فضحك النبي ﷺ، ثم قال: «استغفر الله»، ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما منْ خلق الله شيء أحبُّ إليَّ منه. قال فضالة: فرجعت إلى أهلي، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها، فقالت: هَلمَّ إلى الحديث، فقلت: لا، وانبعث فضالة يقول:

قالت هَلُمَّ إلى الحديث فقلت لا ... يأبى عليك الله والإسلامُ
لوما رأيت محمداً وقبيله ... بالفتح يوم تكسَّر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بَيِّناً ... والشرك يغشى وجهه الإظلام (١)

ثانياً: أتكلمني في حد من حدود الله؟

قال عروة بن الزبير: أن امرأة سرقت في عهد رسول الله ﷺ في غزوة الفتح، ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعونه، قال عروة: فلما كلمه أسامة فيها تلوّن وجه رسول الله. فلما كان العشيُّ قام رسول الله خطيباً فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد... فإنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها». ثم أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة فقطعت يدها.

فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت. قالت عائشة: فكانت تأتيني بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ (٢).

وهكذا يستمر البناء التربوي للأمة ونرى العدل في إقامة شرع الله على القريب والبعيد على حد سواء، ووجدت قريش نفسها أمام تشريع رباني لا يفرّق بين الناس، فهم كلهم أمام رب العالمين سواء، وأصبحت معايير الشرف هي الالتزام بأوامر الله تعالى، وفي هذا الموقف الذي أثار غضب رسول الله الشديد واهتمامه الكبير لعبرة للمسلمين حتى لا يتهاونوا في تنفيذ أحكام الله تعالى، أو يشفعوا لدى الحاكم من أجل تعطيل الحدود الإسلامية (٣).

ثالثاً: أجرنا من أجرتِ يا أم هانىء:

قالت أم هانىء بنت أبي طالب: لما نزل رسول الله ﷺ بأعلى مكة فرّ إليَّ رجلان من أحمائي، من بني مخزوم، وكانت عند هُبيرة بن أبي وهب المخزومي، قالت: فدخل عليَّ

(١) انظر: التاريخ الإسلامي (٧/ ٢١٣).
(٢) البخاري، المغازي (رقم ٤٣٠٤).
(٣) انظر: معين السيرة (ص ٤٠٢)، التاريخ الإسلامي (٧/ ٢٣٣).

عليٌّ بن أبي طالب أخي، فقال: والله لأقتلنهما، فأغلقت عليهما باب بيتي، ثم جئت رسول الله ﷺ وهو بأعلى مكة، فوجدته يغتسل من جفنة إن فيها لأثر العجين، وفاطمة ابنته تستره بثوبه فلما اغتسل أخذ ثوبه، فتوشح به، ثم صلّى ثماني ركعات من الضحى، ثم انصرف إليَّ فقال: «مرحباً وأهلاً يا أم هانىء ما جاء بك؟» فأخبرته خبر الرجلين وخبر عليّ؛ فقال: «قد أجرنا من أجرتِ وأمنا من أمنت فلا يقتلهما» (١).

رابعاً: إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة أعين:

كان عبد الله بن سعد بن أبي السرح قد أسلم وكتب الوحي ثم ارتد، فلما دخل رسول الله ﷺ مكة وقد أهدر دمه إلى عثمان وكان أخاه من الرضاعة، فلما جاء به ليستأمن له صمت عنه رسول الله ﷺ طويلاً ثم قال: «نعم»، فلما انصرف مع عثمان قال رسول الله ﷺ لمن حوله: أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني قد صمتُّ فيقتله. فقالوا: يا رسول الله هلا أومأت إلينا؟ فقال: «إن النبي لا يقتل بإشارة» (٢)، وفي رواية إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة أعين (٣).

قال ابن هشام: وقد حسن إسلامه بعد ذلك وولاه عمر بعض أعماله ثم ولاه عثمان (٤).

وقال ابن كثير: ومات وهو ساجد في صلاة الصبح أو بعد انقضاء صلاته في بيته (٥).

خامساً: المحيا محياكم والممات مماتكم:

قال أبو هريرة: . . . . أتى رسول الله ﷺ الصفا، فعلاه حيث ينظر إلى البيت، فرفع يديه، فجعل يذكر الله بما شاء أن يذكره، ويدعوه، قال: والأنصار تحته، قال: يقول بعضهم لبعض أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته، قال أبو هريرة: وجاء الوحي، وكان إذا جاء لم يخف علينا فليس أحد من الناس يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى يقضي، قال: فلما قضى الوحي رفع رأسه ثم قال: «يا معشر الأنصار قلتم: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته؟» قالوا: قلنا ذلك يا رسول الله، قال: «فما أسمى إذاً؟ كلا، إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم، والممات مماتكم»، قال: فأقبلوا إليه يبكون، ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الظن بالله ورسوله، قال: فقال رسول الله ﷺ: «فإن الله ورسوله ليصدقانكم ويعذرانكم» (٦).

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/٥٩، ٦٠)؛ صحيح السيرة، ص ٥٢٧).
(٢) انظر: البداية والنهاية (٤/٢٩٦).
(٣) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٥٢٨).
(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/٥٨).
(٥) انظر: البداية والنهاية (٤/٢٩٦).
(٦) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٥٢٩، ٥٣٠).

سادساً: إسلام عبد الله الزبعري شاعر قريش:

لما فتحت مكة فرّ عبد الله الزبعري السهمي إلى نجران، فلحقته قوافي حسان، فقد كان خصماً عنيداً للإسلام، فراح يعيّره الجبن والفرار فقال له:

لا تـعـدمـن رجـلاً أحَـلـك بُـغـضُـهُ نـجـران مـن عـيـش أحـذّلـيـم (١)

أي فليبق الله لنا محمداً ﷺ هذا الرجل العظيم الذي أحللك بغضه ديار نجران، وليدُم الله عليك ابن الزبعري عيشاً ذليلاً مهيناً أشأم.

ثم راح حسان يستنزل غضب الله ومقته على ابن الزبعري وعلى نجله، ويسأل الله تعالى أن يخلده في سوء العذاب وأليمه (٢):

غـضـب الإلـه عـلـى الـزبـعـري وابـنـه وعـذاب سـوء فـي الـحـيـاة مـقـيـم

فتطايرت تلك الأبيات ووصلت إلى ابن الزبعري، فقام وقعد وقلب أموره ثم أراد الله به الخير، فعزم على الدخول في الإسلام، ثم توجه إلى مكة وقصد رسول الله ﷺ وأعلن إسلامه وطلب من رسول الله ﷺ أن يستغفر له كل عداوة له وللإسلام، فقال له رسول الله: «إن الإسلام يجبُّ ما قبله» (٣). ثم أدناه رسول الله منه وآنسه، ثم خلع عليه حلة (٤)، وقد أجمع الرواة أن ابن الزبعري رضي الله عنه، قال بعد إسلامه شعراً كثيراً حسناً يعتذر فيه إلى رسول الله ﷺ (٥)، قال ابن عبد البر رحمه الله: وله ـ ابن الزبعري ـ في مدح النبي ﷺ أشعار كثيرة، ينسخ بها ما قد مضى من شعره في كفره (٦).

وكذا نص ابن حجر في الإصابة: ثم أسلم، ومدح النبي ﷺ فأمر له بحلة (٧).

وقال القرطبي: (وكان شاعراً مجيداً، وله في مدح النبي ﷺ أشعار كثيرة، ينسخ بها ما قد مضى في كفره (٨)....) وقال ابن كثير: كان من أكبر أعداء الإسلام ومن الشعراء الذين استعملوا قواهم في هجاء المسلمين، ثم منَّ الله عليه بالتوبة والإنابة والرجوع إلى الإسلام والقيام بنصره والذب عنه (٩).

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٠٧).
(٢) الصحابي الشاعر عبد الله الزبعري، محمد كابتي (ص ٩٢).
(٣) المغازي (٢/ ٨٤٨).
(٤) الأعلام الزركلي (٤/ ٨٤)؛ الإصابة لابن حجر (٢/ ٣٠٨) نقلاً عن المرجع الذي بعده.
(٥) انظر: الصحابي الشاعر عبد الله بن الزبعري (ص ٩٧).
(٦) انظر: الاستيعاب لابن عبد البر (٢/ ٣١٠).
(٧) انظر: الإصابة (٢/ ٣٠٨).
(٨) انظر: تفسير القرطبي (٦/ ٤٠٧).
(٩) البداية والنهاية (٤/ ٣٠٨).

ومن القصائد الرائعة التي قالها في مدح النبي ﷺ وندمه على محاربة الإسلام وتأخره في الدخول فيه حيث قال:

منع الرقادَ بلابلٌ وهموم ... والليل معتلج [١] الرِّواق [٢] يهيم [٣]
مما أتاني أن أحمد لامني ... فيه فبت كأنني محموم
يا خير من حملت على أوصالها ... عيرانه [٤] سرح اليدين غشوم [٥]
إني لمعتذر إليك من الذي ... أسديت إذ أنا في الضلال أهيم
أيام تأمرني بأغوى خطةٍ ... سهمٌ وتأمرني بها مخزوم
وأمدُّ أسبابَ الردى ويقُودني ... أمر الغواة وأمرهم مشؤوم
فاليوم آمن بالنبي محمد ... قلبي ومخطىء هذه محروم
مضت العداوة وانقضت أسبابُها ... ودعت أواصر بيننا وحلوم
فاغفر فدىً لك والديّ كلاهما ... زللي فإنك راحم مرحوم
وعليك من علم المليك علامة ... نور أغرُّ وخاتم مختوم
أعطاك بعد محبةٍ برهانه ... شرَفاً وبرهان الإله عظيم
ولقد شهدت بأن دينك صادق ... حق وأنك في العباد جسيم
والله يشهد أن أحمد مصطفى ... مستقبل في الصالحين كريم
قرمٌ علا بنيانه من هاشمٍ ... فرعٌ تمكَّن في الذرى وأروم [٦]

سابعاً: من الأحكام الشرعية التي تؤخذ من الغزوة، ومكان نزول الرسول ﷺ بمكة:

١ ـ اتضح كثير من الأحكام الشرعية خلال فتح مكة منها:

أ ـ جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية حيث صام الرسول في مسيرة الجيش من المدينة حتى بلغ كديدا فأفطر [٧].

ب ـ صلّى النبي ﷺ صلاة الضحى ثماني ركعات خفيفة [٨]، واستدل قوم بهذا على أنها سنّة مؤكدة [٩].

---

(١) معتلج: ملتطم.
(٢) الرّواق: مقدم الليل.
(٣) بهيم: لا ضوء فيه إلى الصباح.
(٤) عيرانة: راحلة.
(٥) غشوم: شجاع لا يثنيه أمر عن عزمه.
(٦) انظر: البداية والنهاية (٤/٣٠٧، ٣٠٨) أروم: أصل.
(٧) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٥٧٤).
(٨) المصدر السابق (ص ٥٧٤).
(٩) المصدر السابق (ص ٥٧٤).

جـ - قصر الصلاة الرباعية للمسافر، فقد أقام النبي بمكة تسعة عشر يوماً يقصرالصلاة [١].

د - تحريم نكاح المتعة إلى الأبد بعد إباحته لمدة ثلاثة أيام [٢]، ويرى الإمام النووي [٣]، أنه وقع تحريمه وإباحته مرتين، إذ كان حلالاً قبل غزوة خيبر، فحرم يومها، ثم أبيح يوم الفتح، ثم حرم للمرة الثانية إلى الأبد ويرى ابن القيم [٤] أن المتعة لم تحرم يوم خيبر، وإنما كان تحريمها فقط يوم الفتح، وله في هذا مناقشة طويلة عند كلامه عن الأحكام الفقهية المستنبطة من أحداث غزوة خيبر وغزوة الفتح، والمتفق عليه أنها حرمت إلى الأبد بعد الفتح [٥].

هـ - قرر الرسول ﷺ أن الولد للفراش وللعاهر الحجر، كما جاء ذلك في حديث ابن وليدة بن زمعة، فقد تنازع فيه سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن زمعة، فقضى فيه رسول الله لعبد الله بن زمعة لأنه ولد على فراش أبيه.

و - عدم جواز الوصية بأكثر من ثلث المال، كما في قصة سعد بن أبي وقاص حين مرضه بمكة واستشارة الرسول ﷺ في أن يوصي بأكثر من الثلث [٦].

هذه بعض الأحكام الفقهية المستنبطة من أحداث الغزوة والفتح العظيم.

٢ - مكان نزول الرسول ﷺ بمكة:

نزل رسول الله ﷺ بالحجون في المكان الذي تعاقدت فيه قريش على مقاطعة بني هاشم والمسلمين، وقال عندما سأله أسامة بن زيد إن كان سينزل في بيته: «وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور؟» مبيناً أنه لا يرث المسلم الكافر [٧]، وكان عقيل قد ورث أبا طالب هو وطالب أخوه وباع الدور كلها، وأما عليّ وجعفر فلم يرثاه لأنهما مسلمان وأبو طالب مات كافراً [٨].

ثامناً: من نتائج فتح مكة:

كان لفتح مكة نتائج كثيرة منها:

(١) انظر: المجتمع المدني (ص ١٨٥).
(٢) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٥٧٥).
(٣) النووي على شرح مسلم (٩/ ١٨١). اعتمدت على فقه الأحكام على ما استخرجه الدكتور العمري في المجتمع المدني، والدكتور مهدي رزق الله في السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية.
(٤) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٤٣ - ٣٤٥،و٤٥٩ - ٤٦٤).
(٥) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٥٧٥).
(٦) المجتمع المدني للعمري (ص ١٨٦)، سنن الترمذي (٣/ ٢٩١).
(٧) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (٢/ ٤٨٢).
(٨) المصدر السابق (٢/ ٤٨٢).

١ - دخلت مكة تحت نفوذ المسلمين وزالت دولة الكفر منها، وحانت الفرصة للقضاء على جيوب الشرك في حنين والطائف ومن ثم إلى العالم أجمع.

٢ - أصبح المسلمون قوة عظمى في جزيرة العرب: وبعد فتح مكة، تحققت أمنية الرسول ﷺ بدخول قريش في الإسلام، وبرزت قوة كبرى في الجزيرة العربية لا يستطيع أي تجمع قبلي الوقوف في وجهها، وهي مؤهلة لتوحيد العرب تحت راية الإسلام ثم الانطلاق إلى الأقطار المجاورة، لإزالة حكومات الظلم والطغيان، وتأمين الحرية لخلق الله لكي يدخلوا في دين الله، ويعبدوه وحده من دون سواه [١].

٣ - كان لهذا الفتح آثار عظيمة دينية وسياسية واجتماعية، وقد بدأت هذه الآثار بصورة يلمسها كل من يمعن النظر في هذا الفتح المبارك، فأما الآثار الاجتماعية فتمثلت في رفقه ﷺ وحرصه على الأخذ بأيديهم ليعيد إليهم ثقتهم بأنفسهم، وبالوضع الجديد الذي سيطر على بلدهم وتعيين من يعلمهم، ويفقههم في دينهم، فقد أبقى معاذ بن جبل رضي الله عنه في مكة بعد انصرافه عنها ليصلي بالناس، ويفقههم في دينهم، وأما الآثار السياسية فقد عيّن عتاب بن أسيد أميراً على مكة، يحكم في الناس بكتاب الله، فيأخذ لضعيفهم، وينتصر للمظلوم من الظالم [٢]، وأما الآثار الدينية فإن فتح مكة، وخضوعها لسلطان الإسلام قد أقنع العرب جميعاً بأن الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله لعباده فدخلوا فيه أفواجاً[٣].

٤ - تحقق وعد الله بالتمكين للمؤمنين الصادقين، بعدما ضحوا بالغالي والنفيس، وحققوا شروط التمكين وأخذوا بأسبابه وقطعوا مراحله، وتعاملوا مع سننه كسنّة الابتلاء، والتدافع، والتدرج، وتغيير النفوس، والأخذ بالأسباب، ولا ننسى تلك الصورة الرائعة وهي وقوف بلال فوق الكعبة مؤذناً للصلاة بعد أن عذب في بطحاء مكة وهو يردد: أحد أحد في أغلاله وحديده، ها هو اليوم قد صعد فوق الكعبة ويرفع صوته الجميل بالأذان وهو في نشوة الإيمان.

---

(١) انظر: قيادة الرسول ﷺ السياسية والعسكرية، أحمد عرموش (ص ١٢٩).

(٢) انظر: تأملات في سيرة الرسول (ص ٢٦٦).

(٣) المصدر السابق (ص ٢٦٧).

الفصل السادس عشر
غزوة حنين والطائف (٨ هـ)

المبحث الأول

أسبابها وأحداث المعركة

لما فتح الله مكة على رسوله والمؤمنين، وخضعت له قريش خافت هوازن وثقيف وقالوا: قد فرغ محمد لقتالنا، فلنغزه قبل أن يغزونا، وأجمعوا أمرهم على هذا، وولّوا عليهم مالك بن عوف النَّصري، فاجتمع إليه هوازن، وثقيف وبني هلال، ولم يحضرها من هوازن كعب وكلاب وكان معهم دريد بن الصمَّة، وكان معروفاً بشدة البأس في الحرب وأصالة الرأي، إلا أنه كان كبيراً فلم يكن له إلا الرأي والمشورة.

وكان رأي مالك بن عوف أن يخرجوا وراءهم النساء والذراري والأموال حتى لا يفروا، فلما علم بذلك دريد سأله: لمَ ذلك؟ فقال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم، فقال دريد: راعي ضأن والله، وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك!! ولكنه لم يستمع لمشورته [١].

أولاً: أهم أحداث غزوة حنين:

تحرك المسلمون باتجاه حنين في اليوم الخامس من شوال، ووصلوا حنين في مساء العاشر من شوال [٢]، وقد استخلف الرسول ﷺ عتاب بن أسيد على مكة عند خروجه، وكان عدد جيش المسلمين اثني عشر ألفاً من المسلمين، أما عدد هوازن وثقيف، فكانوا ضعف عدد المسلمين أو أكثر، ولما رأى بعض الطلقاء جيش المسلمين قالوا: لن نغلب اليوم من قلة ودخل الإعجاب في النفوس [٣].

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٦٧)، السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٨٨).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٢/ ١٥٠).

(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٩٧).

أ ـ التعبئة التي اتخذها مالك بن عوف زعيم هوازن وثقيف:

اتخذ مالك بن عوف زعيم قبائل هوازن وثقيف تعبئة عالية مرت بمراحل:

١ ـ الروح المعنوية لدى جنوده:

وقف مالك خطيباً في جيشه وحثهم على الثبات والاستبسال، ومما قال في هذا الجمع الحاشد: إن محمداً لم يقاتل قط قبل هذه المرة، وإنما كان يلقى قوماً أغماراً (١)، لا علم لهم بالحرب فيُنصر عليهم (٢).

٢ ـ ذراري المقاتلين وأموالهم خلف الجيش:

أمر قائد هوازن بحشد نساء المقاتلين وأطفالهم وأموالهم خلفهم، وقد قصد من وراء هذا التصرف، دفع المقاتلين إلى الاستبسال والثبات أمام أعدائهم، لأن المقاتل ـ من وجهة نظره ـ إذا شعر أن أعزّ ما يملك وراءه في المعركة صعب عليه أن يلوذ بالفرار، مخلفاً ما وراءه في ميدان المعركة، عن أنس بن مالك ﷺ قال: افتتحنا مكة، ثم غزونا حنيناً، فجاء المشركون بأحسن صفوف رأيت، قال: فصفت الخيل ثم صفّت المقاتلة، ثم صفّت النساء من وراء ذلك ثم صفّت الغنم ثم صفت النعم (٣).

٣ ـ تجريد السيوف وكسر أجفانها:

جرت عادة العرب في حروبهم أن يكسروا أجفان سيوفهم قبل بدء القتال، وهذا التصرف يؤذن بإصرار المقاتل على الثبات أمام الخصم حتى النصر أو الموت، وقد أمر مالك جنده بذلك تحقيقاً لهذا، بدليل قولهم: إذا أنتم رأيتم القوم فاكسروا جفون سيوفكم وشدوا شدة رجل واحد عليهم (٤).

٤ ـ وضع الكمائن لمباغتة جيش المسلمين والانقضاض عليهم:

كانت عند مالك بن عوف النصري معلومات وافية عن الأرض التي ستدور عليها المعركة، ولهذا رأى أن يستغل هذه الظروف الطبيعية لصالح جيشه، فعمل بمشورة الفارس المحنك دريد بن الصمة في نصب الكمائن لجيوش المسلمين، وقد كادت هذه الخطة أن تقضي على قوات المسلمين لولا لطف الله ﷻ وعنايته.

٥ ـ الأخذ بزمام المبادرة في الهجوم على المسلمين:

كان ضمن الخطة التي رسمها القائد الهوازني الأخذ بزمام المبادرة ومهاجمة المسلمين،

---

(١) أغمار: جمع غُمر، بضم الغين وإسكان الميم وهو الذي لم يجرب الأمور.
(٢) انظر: مغازي الواقدي (٣/ ٨٩٣).
(٣) مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم (٢/ ٧٣٦ رقم ١٠٥٩).
(٤) انظر: مجمع الزوائد (٦/ ١٧٩، ١٨٠) المستدرك للحاكم (٣/ ٤٨، ٤٩) صحيح الإسناد.

لأن النصر في الغالب يكون للمهاجم، أما المدافع فغالباً ما يكون في مركز الضعف، ولهذا آتت هذه الخطة ثمارها بعض الوقت، ثم انقلبت موازين القوى ـ بفضل الله تعالى ـ ثم بثبات رسول الله ﷺ حيث كسب المسلمون الجولة وانتصروا على أعدائهم (١).

٦ ـ شن الحرب النفسية ضد المسلمين:

كان من ضمن بنود الخطة الحربية التي رسمها القائد مالك بن عوف الهوازني استعمال سلاح معنوي له تأثير كبير في النفوس، فقد شنَّ الحرب النفسية ضد المسلمين من أجل إلقاء الخوف في نفوسهم، وذلك بأن عمد إلى عشرات الآلاف من الجمال التي صحبها معه في الميدان فجعلها وراء جيشه ثم أركب عليها النساء، فكان ذلك المشهد منظر مهيب يحسب من يراه أن هذا الجيش مائة ألف مقاتل، وهو ليس كذلك (٢).

ب ـ خطوات الرسول ﷺ لصد هذه الحشود:

لما بلغ النبي ﷺ عزم هوازن على حربه بعد أن تم له فتح مكة ـ شرّفها الله ـ قام بالآتي:

١ ـ أرسل عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي حتى يوافيه بخبر هوزان:

فذهب ﷺ ومكث بينهم يوماً أو يومين، ثم عاد وأخبر النبي ﷺ بما رأى (٣).

ولقد ذهب عبد الله إلى حيث أمره الرسول ﷺ، وعاد على وجه السرعة بخبر هؤلاء الأعداء، إلا أنه قصَّر ﷺ في أداء هذا الواجب، حيث لم يختلط بهوازن اختلاطاً كاملاً بحيث يسمع ويرى ما يُدبر ضد المسلمين هناك، وكان من أهم ما يجب أن يعنى به معرفة مواقع المشركين التي احتلوها، وقد فوجيء المسلمون باختفاء تلك الكمائن التي نصبها الأعداء في منحنيات الوادي، حتى استطاعوا أن يمطروا المسلمين بوابل من سهامهم فانهزموا في الجولة الأولى، فكان الجهل بهذه الكمائن أحد الأسباب الرئيسية وراء هزيمة المسلمين في أول المعركة، وما حدث نتيجة لهذا الخطأ لا يقدح في العصمة الثابتة لرسول الله ﷺ لأن هذا الأمر ليس وحياً من الله ﷻ، وإنما هو من باب الاجتهاد في الأمور العسكرية، وقد بذل النبي ﷺ جهده في سبيل الحصول على أدق المعلومات وأوفاها لكي يضع على ضوئها الخطة العسكرية المناسبة لمجابهة العدو (٤).

٢ ـ عدة الجيش واستعارة الدروع والرماح:

أعدّ رسول الله ﷺ جيشاً قوامه عشرة آلاف، وهم من خرجوا معه من المدينة، وألفان من

(١) انظر: القيادة العسكرية على عهد رسول الله (ص ٢٥٢).
(٢) انظر: غزوة حنين للشيخ محمد أحمد باشميل (ص ١٢٨ ـ ١٣١).
(٣) انظر: تاريخ الطبري (٣/ ٧٣).
(٤) انظر: القيادة العسكرية على عهد رسول الله (ص ٣٦٩).

مسلمة الفتح، فكان عدد من خرج في تلك الغزوة اثنا عشر ألفاً، عن أنس بن ملك رضي الله عنه قال: لما كان يوم حنين أقبلت هوازن وغطفان بذراريهم ونَعمهم ومع النبي يومئذٍ عشرة آلاف ومعه الطلقاء [1] وهم ألفان، وسعى ﷺ لتأمين عدة الجيش، فطلب من ابن عمه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح إعارة، وطلب من صفوان بن أمية دروعا وتكفل ﷺ بالضمان، وكان نوفل وصفوان لا يزالان على شركهما، عن صفوان بن يعلى بن أمية عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «إذا أتتك رسلي فأعطهم ـ أو قال فادفع إليهم ـ ثلاثين درعاً، وثلاثين بعيراً، أو أقل من ذلك»، فقال له: العارية مؤداة يا رسول الله، قال: فقال النبي ﷺ «نعم» [2]، وفي رواية: أن رسول الله ﷺ استعار منه يوم حنين دروعاً فقال: أغصباً يا محمد؟ قال: «لا، بل عارية مضمونة»، قال: فضاع بعضها فعرض عليه رسول الله ﷺ أن يضعها له، فقال: أنا اليوم يا رسول الله في الإسلام أرغب [3]. قال أبو داود: وكان أعاره قبل أن يسلم ثم أسلم.

٣ ـ ثباته ﷺ وأثره في كسب المعركة:

سبقت هوازن المسلمين إلى وادي حنين، واختاروا مواقعهم وبثوا كتائبهم في شعابه، ومنعطفاته وأشجاره، وكانت خطتهم تتمثل في مباغتة المسلمين بالسهام أثناء تقدمهم في وادي حنين المنحدر.

لقد باغت المشركون المسلمين وأمطرهم الأعداء من جميع الجهات، فاضطربت صفوفهم وماج بعضهم في بعض، ونتيجة لهول هذا الموقف انهزم معظم الجيش ولاذوا بالفرار، كل يطلب النجاة لنفسه، وبقي الرسول ﷺ ونفر قليل في الميدان يتصدون لهجمات المشركين، ونترك العباس عمّ الرسول ﷺ يصف لنا ذلك المشهد المهيب حيث يقول: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث رسول الله ﷺ فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء، فلما التقى المسلمون والكفار ولَّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قِبَل الكفار، قال العباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفها إرادة أن لا تسرع فقال رسول الله ﷺ: «أي عباس؛ ناد أصحاب السَمُرَة» [4]، فقال العباس ـ وكان رجلاً صيتاً ـ فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السَّمُرة؟ قال: فوالله، لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك يا لبيك! قال: فاقتلوا الكفار، والدعوة في الأنصار، يقولون: يا معشر الأنصار! يا معشر الأنصار! قال: ثم قصرت الدعوة على بني الحارث من الخزرج، فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته، كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال

(١) الطلقاء: هم الذين أطلقهم النبي ﷺ بعد فتح مكة وخلّى سبيلهم.
(٢) انظر: مسند الشاميين للإمام أحمد.
(٣) رواه الإمام أحمد في المسند.
(٤) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين (٣/١٣٩٨) رقم (١٧٧٥).

رسول الله ﷺ: «هذا حين حمي الوطيس» [١].

لقد أيّد الله نبيه ﷺ يوم حنين بأمور منها:

* نزول الملائكة من السماء.
* سلاح الرعب [٢].
* تأثير قبضتي الحصى والتراب في أعين الأعداء.

من الأسلحة المادية التي أيّد الله بها رسوله ﷺ يوم حنين تأثير قبضتي الحصى والتراب اللتين رمى بهما وجوه المشركين، حيث دخل في أعينهم كلهم من ذلك الحصى والتراب، فصار كل واحد يجد لها في عينيه أثراً، فكان من أسباب هزيمتهم [٣]. قال العباس رضي الله عنه: ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهنّ وجوه الكفار. ثم قال: انهزموا وربِّ محمد، قال: فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئة فيما أرى قال: فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته، فما زلت أرى حدّهم كليلاً وأمرهم مدبراً [٤].

ثانياً: مطاردة فلول الفارين إلى أوطاس والطائف:

أ ـ قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه:

لما فرغ النبي ﷺ من حنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس، فلقي دُريد بن الصمة، فقتل دريد، وهزم الله أصحابه. قال أبو موسى: وبعثني مع أبي عامر، فرُمي أبو عامر في ركبته، رماه جُشميٌّ بسهم فأثبته في رُكبته. فانتهيت إليه فقلت: يا عم من رماك؟ فأشار إلى أبي موسى فقال: ذاك قاتلي الذي رماني، فقصدت له، فلحقته، فلما رآني وَلَّى، فأتبعته وجعلت أقول له: ألا تستحي، ألا تثبت فكفَّ. فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلته، ثم قلت لأبي عامر: قتل الله صاحبك. قال: فانزع هذا السهم، فنزعته فنزا منه الماء.

قال: يا ابن أخي، أقرىء النبي ﷺ السلام وقل له: استغفر لي. واستخلفني أبو عامر على الناس فمكث يسيراً ثم مات. فرجعت فدخلت على النبي ﷺ في بيته على سرير مُرمل [٥]، وعليه فراش قد أثر رمال السرير بظهره وجنبيه، فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر وقال: قل له استغفر لي، فدعا بماء فتوضأ، ثم رفع يديه فقال: «اللهم اغفر لعُبيد أبي عامر»، ورأيت بياض إبطيه. ثم قال: «اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس»، فقلت: ولي فاستغفر،

---

(١) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين (٣/ ١٣٩٩) رقم (١٧٧٢).
(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٥٩٩).
(٣) انظر: القيادة العسكرية في عهد رسول الله (ص ٢٥٩).
(٤) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة حنين (٣/ ١٣٩٩) رقم (١٧٧٥).
(٥) أي معمول بالرمال وهي حبال الحصى.

فقال: «اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً».

قال أبو بردة [(١)]: إحداهما لأبي عامر، والأخرى لأبي موسى [(٢)].

ب ـ محاصرة الفارّين إلى الطائف:

حاصر رسول الله ﷺ أهل الطائف واستخدم أساليب متنوعة في القتال والحصار ومارس الشورى، واختار المكان المناسب عند الحصار، واستخدم الحرب النفسية والدعاية في صفوف الأعداء، ومن هذه الأساليب:

١ ـ استخدم ﷺ أسلوباً جديداً في القتال:

استعمل النبي ﷺ في حصاره للطائف أسلحة جديدة لم يسبق له أن استعملها من قبل وهذه الأسلحة هي:

ـ المنجنيق:

فقد ثبت أن الرسول ﷺ استعمل هذا السلاح عند حصاره لحصن ثقيف بالطائف. فعن مكحول ﵀ أن النبي ﷺ نصب المنجنيق على أهل الطائف [(٣)]. والمنجنيق من أسلحة الحصار الثقيلة ذات التأثير الفعال على من وُجّهت إليه، فبحجارته تُهدم الحصون والأبراج، وبقنابله تُحرق الدور والمعسكرات، وهذا النوع يحتاج إلى عدد من الجنود في إدارته واستخدامه عند القتال [(٤)].

ـ الدبابة:

ومن أسلحة الحصار الثقيلة التي استعملها الرسول ﷺ لأول مرة في حصار الطائف: الدبابة، والدبابة على شكل بيت صغير تعمل من الخشب وتتخذ للوقاية من سهام الأعداء، عندما يُراد نقض جدار الحصن بحيث إذا دخلها الجنود كان سقفها حرزاً لهم من الرمي [(٥)].

ـ الحسك الشائك:

من الأسلحة الجديدة التي استعملها الرسول ﷺ في حصاره لأهل الطائف الحسك الشائك وهو من وسائل الدفاع الثابتة، ويعمل من خشبتين تسمّران على هيئة الصليب، حتى تتألف منها أربعة شعب مدببة، وإذا رُمي في الأرض بقيت شعبة منه بارزة تتعثَّر بها أقدام الخيل والمشاة،

---

(١) أبو بردة هو ابن موسى الأشعري راوي الحديث عن أبيه.
(٢) البخاري، المغازي (٥/ ١٢٠) رقم (٤٣٢٣).
(٣) الترمذي، باب الاستئذان والآداب، رقم (٢٩١٢).
(٤) انظر: المدرسة العسكرية الإسلامية، اللواء محمد فرج (ص ٤٠٧).
(٥) انظر: القيادة في عهد الرسول (ص ٤٠٥).

فتعطل حركة السير السريعة المطلوبة في ميدان القتال [١].

وقد ذكر أصحاب المغازي والسِّير أن الرسول ﷺ استعمل هذا السلاح في حصاره لأهل الطائف، حيث أمر جنده بنشر الحسك الشائك حول حصن ثقيف [٢]. وفي هذا إشارة إلى قادة الأمة خصوصاً، والمسلمين عموماً أن لا يعطلوا عقولهم وتفكيرهم من أجل الاستفادة من النافع والجديد، الذي يحقق للأمة مصلحة الدارين، ويدفع عنها شرور أعدائها.

٢ ـ اختيار رسول الله ﷺ مكاناً مناسباً عند القتال:

نزل الجيش في مكان مكشوف قريب من الحصن، وما كاد الجنود يضعون رحالهم حتى أمطرهم الأعداء بوابل من السهام، فأصيب من جراء ذلك أناس كثيرون، وحينئذٍ عرض الحباب بن المنذر على الرسول ﷺ فكرة التحول من هذا الموقع إلى مكان آمن من سهام أهل الطائف، فقبل ﷺ هذه المشورة وكلَّف الحباب لكونه من ذوي الخبرات الحربية الواسعة في هذا المجال بالبحث عن موقع ملائم لنزول الجند، فذهب رضي الله عنه ثم حدد المكان المناسب وعاد فأخبر النبي ﷺ بذلك، فأمر النبي ﷺ جيشه بالتحول إلى المكان الجديد. وهذا شاهد عيان يحدثنا عما رأى، قال عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه: لقد أطلع علينا من نبلهم ساعة نزلنا شيء الله به عليم كأنه رجل جراد وترسنا لهم حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة، ودعا رسول الله ﷺ الحباب فقال: «انظر مكاناً مرتفعاً مستأخراً عن القوم»، فخرج الحباب حتى انتهى إلى موضع مسجد الطائف [٣] خارج من القرية، فجاء إلى النبي ﷺ فأخبره، فأمر النبي ﷺ أن يتحولوا [٤].

٣ ـ استخدام الحرب النفسية والدعاية:

لما اشتدت مقاومة أهل الطائف وقتلوا مجموعة من المسلمين، أمر النبي ﷺ بتحريق بساتين العنب والنخل في ضواحي الطائف للضغط على ثقيف، ثم أوقف هذا العمل بعد أثره في معنوياتهم وإضعافه روح المقاومة، وبعد أن ناشدته ثقيف بالله وبالرحم أن يترك هذا العمل، ووجّه النبي ﷺ نداء لعبيد الطائف أن من ينزل من الحصن ويخرج إلى المسلمين فهو حر، فخرج ثلاثة وعشرون من العبيد منهم أبو بكرة الثقفي فأسلموا، فأعتقهم ولم يعدهم إلى ثقيف بعد إسلامهم [٥].

---

(١) انظر: الفن الحربي في صدر الإسلام، اللواء عبد الرؤوف عون (ص ١٩٥).
(٢) انظر: الطبقات الكبرى (٢/ ٢١٤).
(٣) مسجد الطائف: وهو المسجد المعروف الآن بمسجد ابن عباس.
(٤) انظر: مغازي الواقدي (١/ ٤١٦).
(٥) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥١٠).

٤ ـ الحكمة من رفع الحصار:

كانت حكمة رسول الله ﷺ في رفع الحصار واضحة، فالمنطقة المحيطة بها لم تعد تابعة لها، بل صارت ضمن سيادة الدولة الإسلامية، ولم تعد تستمد قوتها إلا من امتناع حصونها، فحصارها ورفعه سواء أمام القائد المحنك، وقد استشار رسول الله ﷺ من حوله في عملية الحصار [١] فقال نوفل بن معاوية الديلي: ثعلب في جحر إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك، فأمر رسول الله ﷺ ابن الخطاب فأذن في الناس بالرحيل، فضج الناس من ذلك، وقالوا: نرحل، ولم يفتح علينا الطائف؟ فقال رسول الله ﷺ: «فاغدوا على القتال» فغدوا فأصابت المسلمين جراحات، فقال رسول الله ﷺ: «إنا قافلون غداً إن شاء الله»، فسُرُّوا بذلك وأذعنوا، وجعلوا يرحلون، ورسول الله ﷺ يضحك [٢]، فلما ارتحلوا واستقلُّوا، قال: «قولوا: آيبون، تائبون، عابدون لربنا حامدون» [٣]، وقيل: يا رسول الله؛ ادع الله على ثقيف فقال: «اللهم اهدِ ثقيفاً وائت بهم» [٤].

المبحث الثاني

فقه الرسول ﷺ في التعامل مع النفوس

ويظهر هذا الفقه في عدة مواقف من هذه الغزوة منها:

أ ـ لا رجعة للوثنية:

خرج مع رسول الله ﷺ إلى حنين بعض حديثي العهد بالجاهلية، وكانت لبعض القبائل شجرة عظيمة خضراء يقال لها: ذات أنواط يأتونها كل سنة، فيعلقون أسلحتهم عليها، ويذبحون عندها، ويعكفون عليها يوماً، وبينما هم يسيرون مع رسول الله ﷺ إذ وقع بصرهم على الشجرة، فتحلبت أفواههم على أعياد الجاهلية التي هجروها، ومشاهدها التي طال عهدهم بها، فقالوا: يا رسول الله؛ اجعل لنا «ذات أنواط» كما لهم «ذات أنواط»، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر! قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨] لتركبن سنن من كان قبلكم» [٥].

وهذا يعبر عن عدم وضوح تصورهم للتوحيد الخالص رغم إسلامهم، ولكن النبي ﷺ

(١) انظر: دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة للشجاع (ص ٢٠٦).
(٢) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة حنين (٣/ ١٤٠٣) رقم (١٧٧٨).
(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٩٧).
(٤) انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٩٧)؛ صحيح السيرة النبوية (ص ٥٦٦).
(٥) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ٣٤٩).

أوضح لهم ما في طلبهم من معاني الشرك، وحذرهم من ذلك ولم يعاقبهم أو يعنفهم، لعلمه بحداثة عهدهم بالإسلام (١)، وقد سمح لهم الرسول ﷺ بالمشاركة في الجهاد لأنه لا يشترط فيمن يخرج للجهاد أن يكون قد صحح اعتقاده تماماً من غبش الجاهلية، وإنما الجهاد عمل صالح يثاب عليه فاعله، وإن قصر في بعض أمور الدين الأخرى، بل الجهاد مدرسة تربوية تعليمية يتعلم فيها المجاهدون كثيراً من العقائد والأحكام والأخلاق، وذلك لما يتضمنه من السفر وكثرة اللقاءات التي يحصل فيها تجاذب الأحاديث، وتلاقح الأفكار (٢).

ب ـ الإعجاب بالكثرة يحجب نصر الله:

الإعجاب بالكثرة حجب عن المسلمين النصر في بداية المعركة، وقد عبّر القرآن الكريم عن ذلك بقوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

وقد نبّه إلى هذا رسول الله ﷺ حينما أوضح أنه لا حول ولا قوة إلا بالله فيقول: «اللهم بك أحول وبك أصول، وبك أقاتل» (٣).

وهكذا أخذ الرسول ﷺ يراقب المسلمين ويقوّم ما يظهر من انحرافات في التصور والسلوك حتى في أخطر ظروف المواجهة مع خصومه العتاة (٤).

ومع الرغم من الهزيمة التي لحقت بالمسلمين في بداية غزوة حنين وفرار معظم المسلمين في ميدان المعركة، لأنهم فوجئوا بما لم يتوقعوه، إلا أن رسول الله ﷺ لم يعنّف أحداً ممن فرّ عنه حتى حينما طالبه بعض المسلمين أن يقتل الطلقاء لأنهم فرّوا ولم يوافق على هذا (٥).

جـ ـ الغنائم وسيلة لتأليف القلوب:

رأى ﷺ أن يتألف الطلقاء والأعراب بالغنائم تأليفاً لقلوبهم، لحداثة عهدهم بالإسلام فأعطى لزعماء قريش، وغطفان وتميم عطاءً عظيماً، إذ كانت عطية الواحد منهم مائة من الإبل ومن هؤلاء: أبو سفيان بن حرب، وسهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام، وصفوان بن أمية، وعيينة بن حصن الفزاري، والأقرع بن حابس، ومعاوية ويزيد ابنا أبي سفيان، وقيس بن عدي (٦)، وكان الهدف من هذا العطاء المجزي هو تحويل قلوبهم من حب الدنيا إلى حب

---

(١) انظر: السيرة الصحيحة (٢/ ٤٩٧).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٨/ ٦٢).

(٣) المسند للإمام أحمد (٤/ ٣٣٣).

(٤) انظر: المجتمع المدني في عهد النبوة للعمري (ص ١٩٩).

(٥) المصدر السابق (ص ٢٠٤، ٢٠٥).

(٦) انظر: معين السيرة (٤٢١).

الإسلام، أو كما قال أنس بن مالك: إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها [(١)]، وعبّر عن هذا صفوان بن أمية: لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إليَّ فما برح يعطيني حتى أنه لأحب الناس إليَّ [(٢)].

وقد تأثر حدثاء الأنصار من هذا العطاء بحكم طبيعتهم البشرية وترددت بينهم مقالة فراعى ﷺ هذا الاعتراض وعمل على إزالة التوتر وبيَّن لهم الحكمة في تقسيم الغنائم، وخاطب الأنصار خطاباً إيمانياً عقلياً عاطفياً وجدانياً ما يملك القارىء المسلم على مر الدهور وكرّ العصور وتوالي الزمان إلا البكاء عندما يمر بهذا الحدث العظيم، فعندما دخل سعد على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحيِّ من الأنصار منها شيء. قال: «فأين أنت من ذلك يا سعد» قال: يا رسول الله! ما أنا إلا من قومي. قال: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة؟» قال: فجاء رجال من المهاجرين، فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا، أتى سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحيُّ من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «يا معشر الأنصار ما مقالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها في أنفسكم، ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وأعداء فألّف الله بين قلوبكم؟» قالوا: الله ورسوله أمنّ وأفضل. ثم قال: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله، ولرسوله المن والفضل. قال: «أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصُدِّقتم: أتيتنا مكذَّباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك،وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك، أوجدتم عليَّ يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشّاء [(٣)] والبعير، وترجعون برسول الله إلى رحالكم، فوالذي نفس محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به، ولولا الهجرة، لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً ووادياً، وسلكت الأنصار شِعْباً ووادياً لسلكت شعب الأنصار وواديها، الأنصار شعار والناس دثار [(٤)]، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار». قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسماً وحظاً، ثم انصرف رسول الله وتفرقوا [(٥)]، وفي رواية: «إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا

(١) مسلم، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله شيء قط (٤/ ١٨٠٦) رقم (٢٣١٢).
(٢) مسلم، كتاب الفضائل (٤/ ١٨٠٦) رقم (٢٣١٣).
(٣) بالشاء: أي الشياه وهي الأغنام.
(٤) دثار: هو الثوب الذي يكون فوق الشعار.
(٥) انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٧٤).

حتى تلقوني على الحوض»(١).

ومما ينبغي الإشارة إليه في هذا المقام أن هذه المقالة لم تصدر من الأنصار كلهم، وإنما قالها حديثو السن منهم بدليل ما ورد في الصحيحين، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن ناساً من الأنصار قالوا يوم حنين: أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء، فطفق رسول الله ﷺ يعطي رجالاً من قريش المائة من الإبل، فقالوا: يغفر الله لرسول الله، يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم. قال أنس بن مالك: فحُدِّث رسول الله ﷺ من قولهم، فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبة من أدم فلما اجتمعوا، جاءهم رسول الله ﷺ فقال: «ما حديث بلغني عنكم؟» فقال له فقهاء الأنصار: أما ذووا رأينا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً، وأما أناس منا حديثة أسنانهم قالوا: يغفر الله لرسوله يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم. فقال رسول الله ﷺ: «فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بالكفر أتألفهم»(٢).

ويرى الإمام ابن القيم ـ استدلالاً بهذه الحادثة ـ أنه قد يتعيّن على الإمام أن يتألف أعداءه لاستجلابهم إليه ودفع شرهم عن المسلمين، فيقول: الإمام نائب عن الإسلام والذبّ عن حوزته واستجلاب رؤوس أعدائه إليه، ليأمن المسلمون شرّهم، ساغ له ذلك، بل تعيّن عليه... فإنه وإن كان في الحرمان مفسدة، فالمفسدة المتوقعة من فوات تأليف هذا العدو أعظم، ومبنى الشريعة على دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناهما، وتحصيل أكمل المصلحتين بتفويت أدناهما، بل بناء مصالح الدنيا والدين على هذين الأصلين(٣).

والتأليف لهذه الطائفة إنما هو من قبيل الإغراء والتشجيع في أول الأمر، حتى يخالط الإيمان بشاشة القلب، ويتذوّق حلاوته.

ويوضح الشيخ محمد الغزالي حقيقة هذا الأمر في مثال محسوس فيقول: ... إن في الدنيا أقواماً كثيرين يقادون إلى الحق من بطونهم لا من عقولهم، فكما تهدى الدواب إلى طريقها بحزمة برسيم تظل تمدُّ إليه فمها، حتى تدخل حظيرتها آمنة، فكذلك هذه الأصناف من البشر تحتاج إلى فنون الإغراء حتى تستأنس بالإيمان وتهش له(٤).

إن النبي ﷺ ضرب للأنصار صورة مؤثرة: قوم يبشرون بالإيمان يقابلهم قوم يبشّرون بالجمال، وقوم يصحبهم رسول الله يقابلهم قوم يصحبهم الشاه والبعير، لقد أيقظتهم تلك الصور وأدركوا أنهم وقعوا في خطأ ما كان لأمثالهم أن يقعوا فيه، فانطلقت حناجرهم بالبكاء ومآقيهم

---

(١) مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم (٢/ ٧٣٨) رقم (١٠٦١).
(٢) مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم (٢/ ٧٣٤) رقم (١٥٠٩).
(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٨٦).
(٤) انظر: فقه السيرة (ص ٤٢٧).

بالدموع وألسنتهم بالرضا، وبذلك طابت نفوسهم واطمأنت قلوبهم بفضل سياسة النبي ﷺ الحكيمة في مخاطبة الأنصار [١].

د ـ الصبر على جفاء الأعراب:

لقد ظهر من رسول الله ﷺ الكثير من الصبر على جفاء الأعراب، وطمعهم في الأموال وحرصهم على المكاسب، فكان مثالاً للمربي الذي يدرك أحوالهم وما جبلتهم عليه بيئتهم وطبيعة حياتهم من القساوة والفظاظة والروح الفردية، كان يبيِّن لهم ويطمئنهم على مصالحهم ويعاملهم على قدر عقولهم، فكان بهم رحيماً، ولهم مربياً ومصلحاً، فلم يسلك معهم مسلك ملوك عصره مع رعاياهم الذين كانوا ينحنون أمامهم أو يسجدون، وكانوا دونهم محجوبين، وإذا خاطبوهم التزموا بعبارات التعظيم والإجلال كما يفعل العبد مع ربه، أما الرسول ﷺ فكان كأحدهم يخاطبونه ويعاتبونه، ولا يحتجب عنهم قط، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يراعون التأدب بحضرته ويخاطبونه بصوت خفيض، ويكنون له في أنفسهم المحبة العظيمة، وأما جفاة الأعراب فقد عنّفهم القرآن على سوء أدبهم وجفائهم وارتفاع أصواتهم وجرأتهم في طبيعة مخاطبتهم للرسول ﷺ [٢]، وهذه مواقف تدل على حسن معاملة رسول الله ﷺ للأعراب:

الأعرابي الذي رفض البشرى:

قال أبو موسى الأشعري: كنت عند النبي ﷺ وهو نازل بالجعرانة بين مكة والمدينة ومعه بلال، فأتى النبي ﷺ أعرابي فقال: ألا تنجز لي ما وعدتني؟ فقال له: «أبشر»، فقال: قد أكثرت عليَّ من أبشر. فأقبل على أبي موسى وبلال كهيئة الغضبان، فقال: «رد البشرى، فاقبلا أنتما»، قالا: قبلنا. ثم دعا بقدح فيه ماء فغسل يديه ووجهه فيه، ومج فيه ثم قال: «اشربا منه، وأفرغا على وجوهكما ونحوركما وأبشرا»، فأخذا القدح ففعلا، فنادت أم سلمة من وراء الستر أن أفضلا لأمكما، فأفضلا لها منه طائفة [٣].

مقولة الأعرابي ما أريد بهذه القسمة وجه الله:

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: .... فلما كان يوم حنين آثر رسول الله ﷺ ناساً في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناساً من أشراف العرب، وآثرهم يومئذٍ في القسمة. فقال رجل: والله إن هذه القسمة ما عدل فيها، وما أريد فيها وجه الله. قال: فقلت: والله، لأخبرن رسول الله ﷺ. قال: فأتيته، فأخبرته بما قال،

---

(١) انظر: المجتمع المدني في عهد النبوة (ص ٢١٩).
(٢) المصدر السابق، (ص ٢١٩).
(٣) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٣٢٨).

قال: فتغيّر وجهه حتى كان كالصرف. ثم قال: «فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله»، قال: ثم قال: «يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر»، قال: قلت: لا جرم لا أرفع إليه بعدها حديثاً [(١)].

تعامله مع هوازن لما أسلمت:

جاء وفد هوازن لرسول الله بالجعرانة وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول الله إنا أصل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك فامنن علينا منَّ الله عليك، وقام خطيبهم زهير بن صرد أبو صرد فقال: يا رسول الله إنما في الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك ولو أنا ملحنا لابن أبي شمر أو النعمان بن المنذر [(٢)] ثم أصابنا منها مثل الذي أصابنا منك رجونا عائدتهما وعطفهما، وأنت رسول الله خير المكفولين ثم أنشأ يقول:

امْنُنْ علينا رسول الله في كرم ... فإنك المرءُ نرجوه وننتظر [(٣)]

إلى أن قال:

امنن على نسوة قد كنت ترضعها ... إذ فوك يملؤه من محضها دَرَرُ

امنن على نسوة قد كنت ترضعها ... وإذ يزينك ما تأتي وما تذر

فكان هذا سبب إعتاقهم عن بكرة أبيهم، فعادت فواضله ﷺ عليهم قديماً وحديثاً وخصوصاً وعموماً [(٤)].

فلما سمع رسول الله ﷺ من الوفد قال لهم: «نساؤكم وأبناؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟» فقالوا... يا رسول الله خيّرتنا بين أحسابنا وأموالنا؟ بل أبناؤنا ونساؤنا أحب إلينا، فقال رسول الله: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا أنا صلّيت بالناس فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله ﷺ في أبنائنا ونسائنا، فإني سأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم»، فلما صلّى رسول الله ﷺ بالناس الظهر قاموا فقالوا ما أمرهم به رسول الله ﷺ فقال: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم»، فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. وقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة: أما أنا وبنو فزارة فلا، وقال العباس بن مرداس السلمي: أما أنا وبنو سليم فلا، فقالت بنو سليم: بل ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، قال عباس بن مرداس لبني سليم: وهنتموني؟ فقال رسول الله ﷺ: «من أمسك منكم بحقه فله بكل إنسان ستة فرائض من

---

(١) مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم، حديث (١٠٦٢).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٥٢).

(٣) المصدر السابق، (٤/ ٣٥٢).

(٤) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٦٣، ٣٦٤).

أول فيء نصيبه فردوا إلى الناس نساءهم وأبناءهم» (١)، وفي رواية: .... فخطب رسول الله ﷺ في المؤمنين فقال: «إن إخوانكم هؤلاء جاؤونا تائبين، وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل»، فقال الناس: قد طيبنا ذلك يا رسول الله. فقال لهم: «إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم»، فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلى النبي ﷺ فأخبروه أنهم طيبوا وأذنوا (٢). وقد سُرَّ الرسول ﷺ بإسلام هوازن وسألهم عن زعيمهم مالك بن عوف النصري، فأخبروه أنه في الطائف مع ثقيف، فوعدهم برد أهله وأمواله عليه، وإكرامه بمائة من الإبل إن قدم عليه مسلماً، فجاء مالك مسلماً فأكرمه وأمّره على قومه وبعض القبائل المجاورة، لقد تأثر مالك بن عوف وجادت قريحته لمدح النبي ﷺ فقال:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله ... في الناس كلهم بمثل محمد
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى ... ومتى تشاء يخبر عمّا في غد
وإذا الكتيبة عرّدت (٣) أنيابها ... بالسمهري وضرب كل مهند
فكأنه ليث على أشباله ... وسط الهباءة (٤) خادر (٥) في مرصد (٦)

لقد كانت سياسته ﷺ مع خصومه مرنة إلى أبعد الحدود، وبهذه السياسة الحكيمة استطاع ﷺ أن يكسب هوازن وحلفاءها إلى صف الإسلام، واتخذ من هذه القبيلة القوية رأس حربةٍ يضرب بها قوى الوثنية في المنطقة ويقودها زعيمهم مالك بن عوف الذي قاتل ثقيفاً في الطائف حتى ضيّق عليهم، وقد فكر زعماء ثقيف في الخلاص من المأزق بعد أن أحاط الإسلام بالطائف من كل مكان، فلا تستطيع تحركاً ولا تجارة، فمال بعض زعماء ثقيف إلى الإسلام مثل عروة بن مسعود الثقفي الذي سارع إلى اللحاق برسول الله ﷺ وهو في طريقه إلى المدينة بعد أن قسم غنائم حنين واعتمر من الجعرانة، فالتقى به قبل أن يصل إلى المدينة، وأعلن إسلامه، وعاد إلى الطائف، وكان من زعماء ثقيف، محبوباً عندهم، فدعاهم إلى الإسلام وأذَّن في أعلى منزله فرماه بعضهم بسهام فأصابوه، فطلب من قومه أن يدفنوه مع شهداء المسلمين في حصار الطائف (٧).

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٥٢، ٣٥٣).
(٢) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٣١٩).
(٣) عرّدت: اشتدت وضربت، في القاموس المحيط (١/ ٣١٣).
(٤) الهباءة: غبار الحرب في مختار الصحاح (ص ٦٨٩).
(٥) الخادر: المقيم في عرينه، والخدر ستر يمد للجارية من ناحية البيت.
(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٤٤).
(٧) المصدر السابق، (٤/ ١٩٢).

إن الإنسان ليعجب من فقه النبي ﷺ في معاملة النفوس وفي سعيه الحثيث لتمكين دين الله تعالى، لقد استطاع ﷺ أن يزيل معالم الوثنية، وبيوتات العبادة الكفرية من مكة وما حولها، ورتّب ﷺ الأمور التنظيمية للأراضي التي أضيفت للدولة الإسلامية، فعيّن عتاب بن أسيد أميراً على مكة، وجعل معاذ بن جبل مرشداً وموجهاً ومعلماً ومربياً [(١)]، وعيّن على هوازن مالك بن عوف قائداً ومجاهداً ثم اعتمر ورجع إلى المدينة ﷺ.

المبحث الثالث

دروس وعِبَر وفوائد

أولاً: تفسير الآيات التي نزلت في غزوة حنين:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٥ ـ ٢٧].

إن غزوة حنين سُجلت في القرآن الكريم لكي تبقى درساً للأمة في كل زمان ومكان، ولقد عرضت في القرآن الكريم على منهجية ربانية كان من أهم معالمها الآتي [(٢)]:

أ - بيّن القرآن الكريم أن المسلمين أصابهم الإعجاب بكثرة عددهم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ...﴾ ثم بيّن القرآن أن هذ الكثرة لا تفيد ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا...﴾.

ب - بيّن القرآن الكريم أن المسلمين انهزموا وهربوا ما عدا النبي ﷺ ونفر يسير من أصحابه. قال تعالى: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾.

جـ - بيّن القرآن الكريم أن الله نصر رسوله ﷺ في هذه المعركة وأكرمه بإنزال السكينة عليه وعلى المؤمنين فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

د - بيّن القرآن الكريم أن الله أمدّ نبيّه محمداً ﷺ بالملائكة في حنين قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، (٤/ ١٥٣).

(٢) انظر: حديث القرآن (٢/ ٦٠٢، ٦٠٣).

وأكّد ـ سبحانه ـ على أنه يقبل التوبة من عباده ويوفق من شاء إليها، قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ثانياً: أسباب الهزيمة وعوامل النصر في حنين:

أ ـ أسباب الهزيمة:

أسباب الهزيمة في الجولة الأولى لعدة أسباب منها:

١ ـ أن شيئاً من العجب تسرب إلى قلوب المسلمين لما رأوا عددهم، فقد قال رجل منهم: لن نغلب اليوم من قلة، فشق ذلك على النبي ﷺ فكانت الهزيمة.

٢ ـ خروج شبان ليس لديهم سلاح أو سلاح كاف، وإنما عندهم حماس وتسرع.

٣ ـ أن عدد المشركين كان كثيراً بلغ أكثر من ضعفي عدد المسلمين.

٤ ـ أن مالك بن عوف سبق بجيشه إلى حنين، فتهيأ هنالك ووضع الكمائن والرماة في مضايق الوادي وعلى جوانبه، وفاجأوا المسلمين برميهم بالنبال وبالهجوم المباغت.

٥ ـ كان العدو مهيأً ومنظماً ومستعداً للقتال حال مواجهته لجيش المسلمين، فقد جاء المشركون بأحسن صفوف رُئيت: صف الخيل ثم المقاتلة ثم النساء من وراء ذلك، ثم الغنم ثم النعم.

٦ ـ وجود ضعاف الإيمان الذين أسلموا حديثاً في مكة، ففروا فانقلبت أولاهم على أخراهم، فكان ذلك سبباً لوقوع الخللِ وهزيمة غيرهم (١).

ب ـ عوامل النصر:

كانت عوامل النصر في حنين لعدة أسباب منها:

١ ـ ثبات الرسول في القتال وعدم تراجعه: مما جعل الجنود يثبتون ويستجيبون لنداء القائد الثابت.

٢ ـ شجاعة القائد: فالرسول القائد لم يثبت في مكانه فحسب بل تقدم نحو عدوه راكباً بغلته، فطفق يركض ببغلته قبل الكفار والعباس آخذ بلجام البغلة يكفها أن لا تسرع.

٣ ـ ثبات قلة من المسلمين معه وحوله: حتى جاء الذين تولوا وأكملوا المسيرة؛ مسيرة الثبات والبر والقتال حتى النصر.

٤ ـ سرعة استجابة الفارين والتحاقهم بالقتال.

٥ ـ وقوع الجيش المعادي في خطأ عسكري قاتلٍ: وهو عدم الاستمرار في مطاردة الجيش

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/٤٠٩).

الإسلامي بعد فراره، مما أعطى فرصة ثمينة للجيش الإسلامي ليلتقط أنفاسه، ويعود إلى ساحة القتال ويستأنف القتال من جديد بقيادة القائد الثابت الشجاع رسول الله ﷺ.

٦ - رمية الحصى: فقد أخذ النبي ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال: «انهزموا ورب محمد»(١).

٧ - الاستعانة والاستغاثة بالله ﷻ: فقد كان الرسول يلح على الله في الدعاء بالنصر على الأعداء.

٨ - إنزال الملائكة في الغزوة ومشاركتها فيها، وقد سجّل الله هذه المشاركة في كتابه الكريم وفي سورة التوبة(٢): ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٦].

ثالثاً: الأحكام المستنبطة من غزوة حنين والطائف:

١ - نزول الآية الكريمة: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] في يوم أوطاس لبيان حكم المسبيات المتزوجات، وقد فرّق السبي بينهن وبين أزواجهن، فأوضحت الآية جواز وطئهن إذا انقضت عدتهن، لأن الفرقة تقع بينهن وبين أزواجهن الكفار بالسبي، وتنقضي العدة بالوضع للحامل وبالحيض لغير الحامل(٣).

٢ - منع المخنثين خلقة من الدخول على النساء الأجنبيات: وكان ذلك مباحاً إذ لا حاجة للمخنث بالنساء، وكان سبب المنع ما رواه البخاري عن زينب بنت أبي سلمة عن أمها أم سلمة، دخل عليَّ النبي ﷺ وعندي مخنث فسمعته يقول لعبد الله بن أبي أمية: يا عبد الله أرأيت إن فتح الله عليكم الطائف غداً، فعليك بابنة غيلان فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان، وقال النبي ﷺ: «لا يدخلن هؤلاء عليكن»(٤).

وفي هذا المنع حرص النبي ﷺ على سلامة أخلاق المجتمع الإسلامي.

٣ - النهي عن قصد قتل النساء والأطفال والشيوخ: وكذلك الأجراء ممن لا يشتركون في القتل ضد المسلمين، وقد ذكر ابن كثير: أن رسول الله مرّ يوم حنين بامرأة قتلها خالد بن الوليد والناس متقصفون(٥) عليها فقال رسول الله ﷺ: «ما كانت هذه لتقاتل» وقال لأحدهم: «الحق خالداً فقل له لا يقتلن ذرية ولا عسيفاً»(٦)، وفي رواية فقال له: إن رسول الله ينهاك أن تقتل

---

(١) مسلم بشرح النووي (١٢/١١٦، ١١٧).
(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ٤٢٣).
(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/٥٢٠).
(٤) البخاري، كتاب المغازي (٥/١٢٠) رقم (٤٣٢٤).
(٥) متقصفون: مجتمعون.
(٦) انظر: البداية والنهاية (٤/٣٣٦).

وليداً أو امرأة أو عسيفاً [1].

٤ ـ تشريع العمرة من الجعرانة: أحرم النبي ﷺ بعمرة من الجعرانة وكان داخلاً إلى مكة وهذه هي السنّة لمن دخلها من طريق الطائف وما يليه، وأما ما يفعله كثير مما لا علم عندهم من الخروج من مكة إلى الجعرانة ليحرم منها بعمرة ثم يرجع إليها، فهذا لم يفعله رسول الله ﷺ ولا استحبه أحد من أهل العلم، وإنما يفعله عوام الناس زعموا أنه اقتداء بالنبي وغلطوا، فإنه إنما أحرم منها داخلاً إلى مكة، ولم يخرج منها إلى الجعرانة ليحرم منها [2].

٥ ـ إرشاده للأعرابي بأن يصنع في العمرة ما يصنع في الحج: قال يعلى بن منبه: جاء رجل إلى النبي ﷺ وهو بالجعرانة وعليه جبة وعليها خلوق [3]، أو قال: أثر صفرة، فقال: كيف تأمرني أصنع في عمرتي؟ قال: وأُنزل على النبي ﷺ الوحي، فستر بثوب، وكان يعلى يقول: وددت أني أرى النبي ﷺ، وقد أنزل الوحي عليه، قال: فرفع عمر طرف الثوب عنه، فنظرت إليه فإذا له غطيط (قال) فلما سرى عنه قال: «أين السائل عن العمرة؟ اغسل عنك الصفرة، أو قال: أثر الخلوق، واخلع عنك جبتك، واصنع في عمرتك ما أنت صانع في حجتك» [4].

٦ ـ من قتل قتيلًا فله سلبه: قال أبو قتادة: لما كان يوم حنين نظرت إلى رجل من المسلمين يقاتل رجلاً من المشركين، وآخر من المشركين يختله من ورائه ليقتله، فأسرعت إلى الذي يختله فرفع ليضربني وأضرب يده فقطعتها ثم أخذني فضمّني ضمّاً شديداً حتى تخوّفت ثم ترك فتحلل ودفعته ثم قتلته، وانهزم المسلمون وانهزمت معهم، فإذا بعمر بن الخطاب في الناس، فقلت له: ما شأن الناس؟ قال: أمرُ الله ثم تراجع الناس إلى رسول الله، فقال رسول الله: «من أقام بيّنة على قتيل قتله، فله سلبه»، فقمت لألتمس بيّنة قتيلي فلم أرَ أحداً يشهد لي، فجلست ثم بدا لي، فذكرت أمره لرسول الله ﷺ فقال رجل من جلسائه: سلاح هذا القتيل الذي يذكر عندي، فأرضه منه، فقال أبو بكر: كلا لا يعطه [5] أصيبغ من قريش ويدع [6] أسداً من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله ﷺ، قال: فقام رسول الله ﷺ فأدّاه إليّ فاشتريت منه خرافاً [7] فكان أوّل ما تأثّلتُهُ في الإسلام [8].

---

(١) انظر: البداية والنهاية، (٤/ ٣٣٥).
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥٠٤).
(٣) خلوق: طيب.
(٤) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٥٧٨).
(٥) لا يعطه: أي لا يعطي رسول الله ﷺ، وقوله أصيبغ: نوع من الطيور شبه له لعجزه وضعفه.
(٦) يدع: يترك.
(٧) خرافاً: أي بستاناً أقام الثمر مقام الأصل.
(٨) البخاري، كتاب المغازي (٥/ ١١٩) رقم (٤٣٢٢).

ونلحظ في هذا الخبر أن أبا قتادة الأنصاري رضي الله عنه حرص على سلامة أخيه المسلم، وقتل ذلك الكافر بعد جهد عظيم، كما أن موقف الصديق رضي الله عنه فيه دلالة على حرصه على إحقاق الحق والدفاع عنه، ودليل على رسوخ إيمانه وعمق يقينه وتقديره لرابطة الأخوة الإسلامية وأنها بمنزلة رفيعة بالنسبة له (١).

٧ ـ **النهي عن الغلول:** أخذ النبي ﷺ يوم حنين وبرة من سنام بعير من الغنائم، فجعلها بين أصبعيه ثم قال: «أيها الناس إنه لا يحل لي مما أفاء الله عليكم قدر هذه إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدُّوا الخياط والمخيط وإياكم والغلول، فإن الغلول عار، وشنار على أهله في الدنيا والآخرة» (٢).

ولما سمع الناس هذا الزجر بما فيه من وعيد من رسول الله ﷺ أشفقوا على أنفسهم وخافوا خوفاً شديداً، فجاء أنصاري بكبة خيط من خيوط شعر، فقال: يا رسول الله، أخذت هذه الوبرة لأخيط بها برذعة بعير لي دبر، فقال له ﷺ: «أما حقِّي منها، وما كان لبني عبد المطلب فهو لك». فقال الأنصاري: أما إذا بلغ الأمر فيها ذلك فلا حاجة لي بها فرمى من يده (٣).

وأما عقيل بن أبي طالب فقد دخل على امرأته فاطمة بنت شيبة يوم حنين، وسيفه ملطّخ دماً، فقال لها: دونك هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك، فدفعها إليها فسمع المنادي يقول: من أخذ شيئاً فليرده، حتى الخياط والمخيط، فرجع عقيل فأخذ الإبرة من امرأته، فألقاها في الغنائم (٤).

وهذا التشديد في النهي عن الغلول، وتبشيعه بهذه الصورة الشائهة المرعبة، ولو كان في شيء تافه لا يلتفت إليه، يمثل مَعْلماً من أهم معالم المنهج النبوي في تربية الأفراد على ما ينبغي أن يكون عليه الفرد المسلم في حياته العملية؛ إيماناً وأمانة، وفي التزام الأفراد بهذا التوجيه يتطهر المجتمع المسلم من رذيلة الخيانة، لأن التساهل في صغيرها يقود إلى كبيرها، والخيانة من أرذل الأخلاق الإنسانية التي لا تليق بالمجتمع المسلم (٥).

٨ ـ **وفاء نذر كان في الجاهلية:** قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: لما قفلنا من حنين سأل عمر النبي ﷺ عن نذر كان نذره في الجاهلية اعتكافاً فأمره النبي ﷺ بوفائه (٦).

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٨/٢٦).
(٢) انظر: البداية والنهاية (٤/٣٥٣).
(٣) انظر: البداية والنهاية (٤/٣٥٣).
(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/١٤٥).
(٥) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٤/٣٨٧، ٣٨٨).
(٦) البخاري، كتاب المغازي (٥/١١٨)، رقم (٤٣٢٠).

رابعاً: مواقف لبعض الصحابة والصحابيات:

١ ـ أنس بن أبي مرثد الغنوي وحراسة المسلمين:

قال رسول الله ﷺ قبل اندلاع معركة حنين: «من يحرسنا الليلة». فقال أنس بن أبي مرثد: أنا يا رسول الله، قال ﷺ: «فاركب»، فركب ابن أبي مرثد فرساً له، وجاء إلى رسول الله ﷺ، فقال له ﷺ: «استقبل هذا الشِّعْب حتى تكون في أعلاه وُنُغْرَنَّ من قبلك الليلة».

قال سهيل بن الحنظلية: فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلى مصلاَّه، فركع ركعتين، ثم قال: «هل أحسنتم فارسكم؟» قالوا: ما أحسناه، فثوّب بالصلاة، فجعل ﷺ يصلي، وهو يلتفت إلى الشِّعب، حتى إذا قضى صلاته، قال: «أبشروا فقد جاءكم فارسكم» فجعل ينظر إلى خلال الشجر في الشِّعب فإذا هو قد جاء حتى وقف عليه فقال: إني انطلقت حتى إذا كنت في أعلى الشِّعب حيث أمرني ﷺ، فلما أصبحت طلعت الشعبين كليهما فنظرت فلم أر أحداً، فقال ﷺ: «هل نزلت الليلة؟» فقال: لا، إلا مصلياً أو قاضي حاجة، فقال له ﷺ: »قد أوجبت، فلا عليك أن تعمل بعدها» [(١)]، وفي هذا الخبر يظهر لنا المنهج النبوي الكريم في الاهتمام بالأفراد، فقد ظهر اهتمام النبي ﷺ بطليعة القوم حتى جعل يلتفت في صلاته، وما كان ذلك ليحدث إلا لأمر هام، ثم إنه ﷺ قال: »أبشروا فقد جاء فارسكم». إنها الكلمة التي يستعملها ﷺ في إخبارهم بما يسرهم من الأمور العظيمة، تلك هي أهمية الفرد في المجتمع الإسلامي، إنه ليس كماً مهملاً، ولا رقماً في سجل، ولا بزالاً في آلة، يستغنى عنه عند الضرورة، ليؤتى بغيره. إنها بعض التفسير للمنهج الإلهي [(٢)] في قوله: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

كما أن في هذه القصة معلماً من معالم المنهج النبوي الكريم في وجوب اليقظة وتعرف أحوال العدو، ومراقبة حركاته، ومعرفة ما عنده من القوة عدداً وعدّة، وما رسمه من خطط حربية، وهي سياسة مهمة بالنسبة للقادة الذين يسعون لإعلاء كلمة الله في الأرض [(٣)].

وأما قول الرسول ﷺ: «قد أوجبت فلا عليك أن تعمل بعدها» فهذا محمول على النوافل التي يكفر الله بها السيئات، ويرفع بها الدرجات، والمقصود أنه عمل عملاً صالحاً كبيراً يكفي لتكفير ما قد يقع منه من سيئات في المستقبل، ويرفع الله به درجات في الجنة، وليس المقصود أن هذا العمل يكفيه عن أداء الواجبات [(٤)].

---

(١) أبو داود في الجهاد رقم (٢٥٠١)؛ صحيح السيرة النبوية (ص ٥٥٠).

(٢) انظر: معين السيرة، (ص ٤٢٩).

(٣) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٤/ ٣٦٦).

(٤) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ١٤).

٢ ـ شجاعة أم سليم يوم حنين:

قال أنس ﷺ: إن أم سليم اتخذت يوم حنين خنجراً [(١)]، فكان معها فرآها أبو طلحة، فقال: يا رسول الله هذه أم سليم معها خنجر، فقال لها رسول الله ﷺ: «ما هذا الخنجر؟» قالت: اتخذته إن دنا مني أحد من المشركين بقرت به بطنه. فجعل رسول الله ﷺ يضحك. قالت: يا رسول الله اقتل من بعدنا [(٢)] من الطلقاء [(٣)] انهزموا بك [(٤)] فقال رسول الله: «يا أم سليم إن الله قد كفى وأحسن» [(٥)].

٣ ـ الشيماء بنت الحارث أخت النبي ﷺ من الرضاعة:

كان المسلمون قد ساقوا فيمن ساقوه إلى رسول الله الشيماء بنت الحارث، وبنت حليمة السعدية، أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة، وعنفوا عليها في السوق، وهم لا يدرون فقالت للمسلمين: تعلمون والله أني لأخت صاحبكم من الرضاعة، فلم يصدقوها حتى أتوا بها رسول الله ولما انتهت الشيماء إلى رسول الله ﷺ قالت: يا رسول الله إني أختك من الرضاعة، قال: «ما علامة ذلك؟» قالت: عضة عضضتها في ظهري، وأنا متوركتك [(٦)]، وعرف رسول الله ﷺ العلامة، وبسط لها رداءه وأجلسها عليه، وخيرها، وقال: «إن أحببت فعندي محببة مكرمة، وإن أحببت أن أمتعك وترجعي إلى قومي فعلت»، فقالت: بل تمتعني وتردني إلى قومي [(٧)]، ومتعها رسول الله ﷺ فأسلمت، وأعطاها رسول الله ﷺ ثلاثة أعبد وجارية ونعماء وشاء [(٨)].

خامساً: إسلام كعب بن زهير ـ الشاعر ـ والهيمنة الإعلامية على الجزيرة:

لمَّا قدم رسول الله ﷺ من الطائف، جاءه كعب بن زهير ـ الشاعر ابن الشاعر ـ وكان قد هجا رسول الله ﷺ ثم ضاقت به الأرض، وضاقت عليه نفسه، وحثه أخوه (بجير) على أن يأتي رسول الله ﷺ تائباً مسلماً، وحذره من سوء العاقبة إن لم يفعل ذلك، فقال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله ﷺ والتي اشتهرت بـ (قصيدة بانت سعاد) فقدم المدينة، وغدا إلى رسول الله ﷺ حين صلّى الصبح، ثم جلس إليه، ووضع يده في يده، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه، فقال لرسول ﷺ: إن كعب بن زهير جاء يستأمنك تائباً مسلماً، فهل أنت قابل منه؟ فوثب عليه رجل

---

(١) خنجراً: سكين كبير ذو حدين.

(٢) من بعدنا: من سوانا.

(٣) الطلقاء: هم الذين أسلموا يوم الفتح وكانوا سبب الانهزام في المرة الأولى.

(٤) انهزموا بك: انهزموا عنك.

(٥) مسلم (قم ١٨٠٩)، صحيح السيرة النبوية (٥٦٣).

(٦) متوركتك: يعني حاملتك على وركي.

(٧) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٦٣)؛ السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥٠٦).

(٨) انظر: السيرة النبوية للندوي، (ص ٣٥٨).

من الأنصار، فقال: يا رسول الله دعني وعدو الله، أضرب عنقه، فقال رسول الله: دعه عنك فقد جاء تائباً نازعاً، وأنشد كعب قصيدته اللامية التي قال فيها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم إثرها لم يُفْدَ مكبول [1]
وما سعاد غداة الطرف إذ رحلوا ... إلا أغنُّ قرير العين مكحول [2]

ومنها:

إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول
في عصبة من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسلموا زولوا
شُمُّ العرانين أبطال لبوسُهم ... من نسج داود في الهيجا سرابيل [3]

ويقال إنه لما أنشد رسول الله قصيدته أعطاه بردته، وهي التي صارت إلى الخلفاء [4]، قال ابن كثير: هذا من الأمور المشهورة جداً، ولكن لم أر ذلك في شيء من هذه الكتب المشهورة بإسناد أرتضيه فالله أعلم [5].

ويقال إن الرسول ﷺ قال له بعد ذلك: «لولا ذكرت الأنصار بخير، فإن الأنصار لذلك أهل» [6] فقال:

من سرّه كرمُ الحياة فلا يزل ... من مِقْنَب من صالحي الأنصار [7]
ورثوا المكارم كابراً عن كابرٍ ... إن الخيار هم بنو الأخيار
المُكرهين السَّمْهريَّ بأذرع ... كسوالف الهندي غير قصار [8]
والناظرين بأعين محمرة ... كالجمر غير كليلة الأبصار
والبائعين نفوسهم لنبيهم ... للموت يوم تعانق وكرار
والقائدين [9] الناس عن أديانهم ... بالمشرفيِّ وبالقنا الخطَّار [10]
يتطهرون يرونه نُسكاً لهم ... بدماءِ من علقوا من الكفار

---

(١) متبول: مغرم، مكبول: مقيد.
(٢) أغن: صفة للغزال الذي في صوته غنة.
(٣) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٦٩ ـ ٣٧١).
(٤) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٨٧).
(٥) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٧٣).
(٦) المصدر السابق، (٤/ ٣٧٣).
(٧) المِقْنَب: الجماعة من الخيل. يريد به القوم على ظهور جيادهم.
(٨) السمهري: الرمح، سوالف الهندي: حواشي السيف.
(٩) القائدين: المانعين الناس.
(١٠) المشرفي: السيف، والقنا: الرماح جمع قناة، والخطار: المهتز.

إلى أن قال:

لو يعلم الأقوام علمي كلَّه ... فيهم لصدَّقني الذي أماري [(١)]
قوم إذا خَوتِ النجوم فإنهم ... للطارقين [(٢)] النَّازلين مقارى [(٣)]

وبإسلام كعب بن زهير نستطيع القول بأن الشعراء المعارضين للدعوة الإسلامية قد انتهى دورهم، فقد أسلم ضرار بن الخطاب وعبد الله بن الزبعري، وأبو سفيان بن الحارث، والحارث بن هشام، والعباس بن مرداس، وتحولوا إلى الصف الإسلامي واستظلوا بلوائه عن قناعة وإيمان، ولم يكتف بعضهم بأن تكون كلمته في الدفاع عن الإسلام بل كان سيفه إلى جانب كلمته، وهذا من بركات فتح مكة [(٤)].

سادساً: من نتائج غزوة حنين والطائف:

١ ـ انتصار المسلمين على قبيلتي هوازن وثقيف في هذه الغزوة.

٢ ـ كانت غزوة حنين والطائف آخر غزوات النبي ﷺ لمشركي العرب.

٣ ـ رجوع كثير من أهل مكة والأعراب بغنائم إلى مواطنهم تأليفاً لهم لدخول الإسلام، وحصول الأنصار على وسام عظيم وهو شهادة رسول الله لهم بالإيمان والدعاء لهم، ولأبنائهم وأحفادهم ورجوعهم برسول الله ﷺ إلى المدينة.

٤ ـ انضمام كوكبة مباركة من قيادة أهل مكة وهوازن إلى الإسلام وأصبحوا حرباً ضروساً على الأوثان والأصنام والمعابد الجاهلية في الجزيرة العربية، كما كان لقبيلة هوازن دور كبير في مجاهدات أهل الطائف والتضييق عليهم حتى أسلموا.

٥ ـ توسعت الدولة الإسلامية وامتدّ نفوذها، وأصبح لرسول الله ﷺ أمراء بمكة، وعلى قبيلة هوازن، وصارت تلك الأماكن جزءاً من الدولة الإسلامية التي عاصمتها المدينة النبوية، وأصبح بالإمكان أن يرسل رسول الله بعوثاً دعوية بدون خوف أو وجل من أحد، وصارت المدينة بعد الفتح تستقبل وفود المستجيبين، وأخذت حركة السرايا تستهدف الأوثان والأصنام لتهديمها، فقد أصبح استئصال وجودها من الجزيرة سهلاً، ونظم رسول الله فريضة الزكاة فكلّف من يقوم على جمعها من القبائل التابعة للدولة [(٥)].

---

(١) أماري: أجادل.
(٢) خوت النجوم: أي سقطت، الطارقون الذين يأتون بالليل.
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٦٧، ١٦٨).
(٤) انظر: معين السيرة (ص ٤٣١ ـ ٤٣٣).
(٥) انظر: الأساس في السنّة وفقهها في السيرة النبوية (٢/ ٩٦١).

المبحث الرابع

أهم الأحداث ما بين حنين وتبوك

أولاً: ترتيب استيفاء الصدقات:

شرع رسول الله ﷺ بعد عودته إلى المدينة ـ في أواخر ذي القعدة ـ في تنظيم الإدارة والجباية، وكان ﷺ قد استخلف عتاب بن أسيد على مكة حين انتهى من أداء العمرة، وخلف معه معاذ بن جبل يفقّه الناس ويعلّمهم القرآن، وكان هدى النبي ﷺ عندما تدخل القبائل في الإسلام يحرص على تعليمها وتربيتها ويعيّن من يشرف على ذلك، لأن النفوس تحتاج إلى العناية، والاهتمام وغرس العقائد الصحيحة، والتصورات السليمة فيها. وفي مطل المحرم من العام التاسع وجّه الرسول ﷺ عماله إلى المناطق المختلفة، فبعث بريدة بن الحصيب إلى أسلم وغفار، وعباد بن بشر الأشهلي إلى سُليم ومزينة، ورافع بن مكيث إلى جهينة، وعمرو بن العاص إلى فزارة، والضحاك بن شعبان الكلابي إلى بني كلاب، وبسر بن سفيان الكعبي إلى بني كعب، وابن اللُّتبيَّة الأزدي إلى بني ذبيان، ورجلاً من بني سعد بن هذيم إلى بني هذيم [(١)]، والمهاجر بن أبي أمية إلى صنعاء، وزياد بن لبيد إلى حضرموت، والزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم إلى بني سعد [(٢)]، والعلاء بن الحضرمي إلى البحرين، وعلي بن أبي طالب إلى نجران ليجمع صدقاتهم، ويقدم عليه بجزيتهم [(٣)].

وكان ﷺ يستوفي الحساب على العمال، يحاسبهم على المستخرج والمصروف، كما فعل مع عامله ابن اللُّتبيَّة بن الأزد حيث حاسبه عندما قال الرجل [(٤)]: هذا لكم، وهذا أهدي لي، فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: «ما بال عامل أبعثه فيقول: هذا لكم، وهذا أهدى لي، أفلا قعد في بيت أبيه أو بيت أمه حتى ينظر أيهدى إليه أم لا، والذي نفس محمد بيده لا ينال أحد منكم منها شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه، إن كان بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر» ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه ثم قال: «اللهم هل بلغت مرتين» [(٥)]، وكان يقول أيضاً: «أيما عامل استعملناه وفرضنا له رزقاً فما أصاب بعد رزقه فهو غلول» [(٦)].

ثانياً: أهم السرايا في هذه المرحلة.

أ ـ سرية الطُّفيل بن عمرو إلى ذي الكفلين:

كان النبي ﷺ قد بعث الطفيل بن عمرو من مقرّه في حنين وقبل أن يسير إلى الطائف،

---

(١) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٨٤).
(٢) المصدر السابق، (١/ ٣٨٤).
(٣) المصدر نفسه، (١/ ٣٨٤).
(٤) انظر: الدولة العربية الإسلامية، منصور الحرابي (ص ٤٣).
(٥) مسلم، باب محاسبة الإمام عماله رقم (١٨٣٢)؛ صحيح السيرة (ص ٥٧٩).
(٦) انظر: التراتيب الإدارية للكتاني (١/ ٢٦٥).

وأمره بأن يهدم (ذي الكفلين) صنم عمرو بن حُمَمَه الدوسي، ثم يستمد قومه ويوافيه مع المدد إلى الطائف، وقد نفَّذ الطفيل بن عمرو أوامر النبي ﷺ فهدم ذي الكفلين وحرقه، وقاد أربعمائة من قومه ومعهم دبابة ومنجنيق مدداً لرسول الله ﷺ، فوصلوا إليه بعد مقدمه الطائف بأربعة أيام (١).

ب ـ سرية عبد الله بن حذافة السهمي ويقال إنها سرية الأنصار:

قال علي بن أبي طالب: بعث النبي ﷺ سرية فاستعمل عليها رجلاً من الأنصار وأمرهم أن يطيعوه، فغضب فقال: أليس أمركم النبي ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: فاجمعوا لي حطباً فجمعوا فقال: أوقدوا ناراً فأوقدوها، فقال: ادخلوها، فهموا وجعل بعضهم يمسك بعضاً ويقولون: فررنا إلى النبي ﷺ من النار فما زالوا حتى خمدت النار فسكن غضبه، فبلغ النبي ﷺ فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة؛ الطاعة في المعروف» (٢).

ج ـ سرية علي بن أبي طالب لهدم صنم الفُلس في بلاد طيء:

وفي ربيع الآخر خرجت سرية علي بن أبي طالب إلى الفُلس ـ صنم لطيء ـ ليهدمه، وكان تعدادها خمسين ومائة رجل من الأنصار، على مائة بعير وخمسين فرساً، ومعه راية سوداء، ولواء أبيض، فشنّوا الغارة على محلة آل حاتم ـ حاتم الطائي الذي ضُرب المثل بجوده ـ مع الفجر فهدموا الفُلس وخربوه، وملأوا أيديهم من السَّبي والنَّعَم والشَّاء، وفي السبي أخت عدي بن حاتم، وهرب عدي إلى الشام (٣).

د ـ سرية جرير بن عبد الله البجلي إلى ذي الخُلصة:

قال جرير بن عبد الله: قال لي رسول الله ﷺ: «ألا تريحني من ذي الخلصة؟» فقلت: بلى، فانطلقت في خمسين ومائة فارس من أحمس وكانوا أصحاب خيل، وكنت لا أثبتُ على الخيل، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فضرب يده على صدري حتى رأيت أثر يده في صدري فقال: «اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً». قال: فما وقعت عن فرسي بعد، قال: وكان ذو الخلصة بيتاً باليمن لخشعم وبجلية، فيه نصب يقال له: الكعبة، قال: فأتاها فحرقها بالنار وكسرها، قال: ولما قدم جرير اليمن كان بها رجل يستقسم بالأزلام فقيل له: إن رسول رسول الله ﷺ هاهنا فإن قدر عليك ضرب عنقك، قال: فبينما هو يضرب بها إذ وقف عليه جرير فقال: لتكسرنها ولتشهدوا أن لا إله إلا الله ولأضربن عنقك قال: فكسرها وشهد، ثم بعث جرير رجُلاً من أحمس يُكنى أبا أرطأة إلى النبي ﷺ يبشّره بذلك فلما أتى النبي ﷺ فبرّك النبي ﷺ على خيل

---

(١) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٨٥).

(٢) البخاري، كتاب المغازي (٥/ ١٢٦) رقم (٤٣٤٠).

(٣) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي، المغازي (ص ٦٢٤).

أحمس ورجالها خمس مرات [١].

ثالثاً: إسلام عدي بن حاتم:

عندما وقعت أخت عدي بن حاتم في أسر المسلمين عاملها رسول الله ﷺ معاملة كريمة، وبقيت معززة مكرمة ثم كساها النبي ﷺ وأعطاها ما تتبلغ به في سفرها، وعندما وصلت إلى أخيها في الشام شجعته على الذهاب لرسول الله ﷺ، فتأثر بنصيحتها وقدم على المدينة [٢]، ونترك أبو عبيدة بن حذيفة يحدّثنا عن قصة إسلام عدي:

قال أبو عبيدة بن حذيفة: كنت أحدَّثُ عن عدي بن حاتم فقلت: هذا عدي في ناحية الكوفة، فلو أتيته، فكنت أنا الذي أسمع منه، فأتيته فقلت: إني كنت أحدث عنك حديثاً، فأردت أن أكون أنا الذي أسمعه منك. قال: لما بعث الله ﷻ النبي ﷺ فررت منه حتى كنت في أقصى أرض المسلمين مما يلي الروم.

قالت: فكرهت مكاني الذي أنا فيه حتى كنت له أشد كراهية له مني من حيث جئت، قال: قلت: لآتين هذا الرجل فوالله إن كان صادقاً فلأسمعن منه، وإن كان كاذباً ما هو بضائري.

قال: فأتيته واستشرفني الناس وقالوا: عدي بن حاتم، عدي بن حاتم، قال: أظنه قال ثلاث مرات، قال: فقال لي: «يا عدي بن حاتم أسلم تسلم»، قال: قلت: إني من أهل دين. قال: «يا عدي بن حاتم أسلم تسلم»، قال: قلت: إني من أهل دين، قالها ثلاثاً. قال: «أنا أعلم بدينك منك». قال: قلت: أنت أعلم بديني مني؟ قال: «نعم»، قال: «أليس ترأس قومك؟» قال: قلت: بلى. قال: فذكر محمد الركوسية [٣] قال: كلمة التمسها يقيمها فتركها قال: «فإنه لا يحل في دينك المرباع [٤]».

قال: فلما قالها، تواضعت لها. قال: «وإني قد أرى أن مما يمنعك خصاصة تراها ممن حولي، وأن الناس علينا إلباً واحداً هل تعرف مكان الحيرة؟» قال: قلت: قد سمعت بها ولم آتها. قال: «لتوشكن الظعينة أن تخرج منها بغير جوار حتى تطوف بالكعبة، ولتوشكن كنوز كسرى بن هرمز تفتح»، قال: قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «كسرى بن هرمز» ثلاث مرات، «وليوشكن أن يبتغي من قبل ماله منه صدقة فلا يجد»، قال: فلقد رأيت اثنتين، قد رأيت الظعينة تخرج من الحيرة بغير جوار حتى تطوف بالكعبة وكنت في الخيل التي أغارت على

---

(١) البخاري، المغازي (٥/ ١٣٢) رقم (٤٣٥٧).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ٨١).

(٣) قوم لهم دين بين النصارى والصابئة، النهاية (٢/ ٢٥٩).

(٤) المرباع: هو ربع الغنيمة يأخذه سيد القوم قبل القسمة.

المدائن، وأيم الله لتكونن الثالثة إنه لحديث رسول الله ﷺ حدثنيه [(١)]. وفي رواية جاء فيها. . . فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدخلت عليه، وهو في مسجده، فسلمت عليه، فقال: «من الرجل؟» فقلت: عدي بن حاتم، فقام رسول الله ﷺ فانطلق بي إلى بيته، فوالله إنه لعامد بي إليه، إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة، فاستوقفته، فوقف لها طويلاً تكلّمه في حاجتها، قال: قلت في نفسي: والله ما هذا بملك، قال: ثم مضى بي رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بي بيته تناول وسادة من أدم [(٢)]، محشوة ليفاً، فقذفها إليَّ، فقال: «اجلس على هذه»، قال: قلت: بل أنت فاجلس عليها، فقال: «بل أنت»، فجلست عليها، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض قال: قلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك [(٣)]. وفي هذه القصة دروس وعِبَر كثيرة منها:

١ ـ كان عدي وهو مقبل على رسول الله يحمل في تصوره أنه أحد رجلين إما نبي، أو ملك، فلما رأى وقوف رسول الله مع المرأة الضعيفة الكبيرة مدة طويلة شعر بخلق التواضع وانسلخ من ذهنه عامل الملك، واستقر في تصوره عامل النبوة.

٢ ـ كان النبي ﷺ موفقاً حينما انتقد عدياً في مخالفته للدين الذي يعتنقه، حيث حصل لعدي اليقين بنبوة رسول الله ﷺ الذي يعلم من دينه ما لا يعلمه الناس من حوله.

٣ ـ لما ظهر للنبي أن عدياً قد أيقن بنبوته تحدث عن العوائق التي تحول بين بعض الناس واتباع الحق حتى مع معرفتهم بأنه حق، ومنها ضعف المسلمين وعدم اتساع دولتهم، وما هم فيه من الفقر، فأبان له النبي ﷺ بأن الأمن سيشمل البلاد حتى تخرج المرأة من العراق إلى مكة من غير أن تحتاج إلى حماية أحد، وأن دولة الفرس ستقع تحت سلطان المسلمين، وأن المال سيفيض حتى لا يقبله أحد، فلما زالت عن عدي هذه المعوقات أسلم.

٤ ـ كان النبي ﷺ موفقاً في دعوته حيث كان خبيراً بأدواء النفوس ودوائها، ومواطن الضعف فيها وأزمَّة قيادها، فكان يلائم كل إنسان بما يلائم علمه وفكره، وما ينسجم مع مشاعره وأحاسيسه، ولذلك أثر في زعماء القبائل ودخل الناس في دين الله أفواجاً [(٤)].

٥ ـ وجد عدي سمات النبوة الصادقة في مظهر معيشته ﷺ وحياته، ووجد هذه السمات أيضاً في لون حديثه وكلامه، ووجد مصداق ذلك فيما بعد، في وقائع الزمن والتاريخ، فكان ذلك سبباً في إسلامه وزيادة يقينه وانخلاعه عن زخارف الحياة الدنيا ومظاهر الأبهة والترف

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٥٨٠).
(٢) أدم: هو بفتحتين، الجلد.
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٢٣٦).
(٤) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ٥٨، ٨٦).

التي كان قد أسبغها عليه قومه (١).

رابعاً: أحداث متفرقة في سنة ثمان:

قال ابن كثير نقلاً عن الواقدي: . . . . وفي هذه السنة بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى جيفر وعمرو ابن الجلندي من الأزد، وأخذت الجزية من مجوس بلدها ومن حولها من الأعراب، وفيها تزوج رسول الله فاطمة بنت الضحاك بن سفيان الكلابي في ذي القعدة، فاستعاذت منه ﷺ ففارقها، وفي ذي الحجة منها ولد إبراهيم ابن رسول الله من مارية القبطية فاشتدت غيرة أمهات المؤمنين منها حين رزقت ولداً ذكراً (٢).

وفي عام ٨ هـ توفيت السيدة زينب بنت رسول الله وزوج أبي العاص بن الربيع، ولدت قبل المبعث بعشر سنين وكانت أكبر بناته ﷺ - تليها رقية ثم أم كلثوم، ثم فاطمة رضي الله عنهن - ، كان رسول الله محباً لها، أسلمت قديماً ثم هاجرت قبل إسلام زوجها بست سنين، وكانت قد أجهضت في هجرتها ثم نزفت، وصار المرض يعاودها حتى توفيت، ولما ماتت قال رسول الله ﷺ: «اغسلنها وِتراً: ثلاثاً، أو خمساً، واجعلن في الآخرة كافوراً» (٣).

---

(١) انظر: فقه السيرة للبوطي، (ص ٣٢١).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٧٤).

(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٩٠). الكافور: نبات طيب الرائحة وهو فضلاً عن كونه يطيب الميت يجفف جسمه ويجعله صلباً متماسكاً، ويمنع إسراع الفساد إليه.

الفصل السابع عشر
غزوة تبوك (٩ هـ) وهي غزوة العسرة

المبحث الأول

تاريخ الغزوة، وأسماؤها وأسبابها

أولاً: تاريخها وأسماؤها:

خرج رسول الله ﷺ لهذه الغزوة في رجب من العام التاسع الهجري [(١)]، بعد العودة من حصار الطائف بنحو ستة أشهر [(٢)].

واشتهرت هذه الغزوة باسم غزة تبوك، نسبة إلى مكان هو عين تبوك التي انتهى إليها الجيش الإسلامي، وأصل هذه التسمية جاء في صحيح مسلم، فقد روى بسنده إلى معاذ أن رسول الله ﷺ قال: «ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتي» [(٣)].

وللغزوة اسم آخر وهو غزوة العسرة، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم حينما تحدث عن هذه الغزوة في سورة التوبة، قال تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧] وقد روى البخاري بسنده إلى أبي موسى الأشعري، قال: أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أسأله الحملان لهم، إذ هم معه في جيش العسرة، وهي غزوة تبوك....، وعنون البخاري لهذه الغزوة بقوله: باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة [(٤)].

لقد سميت بهذا الاسم لشدة ما لاقى المسلمون فيها من الضنك، فقد كان الجو شديد الحرارة، والمسافة بعيدة، والسفر شاقاً لقلة المؤونة، وقلة الدواب التي تحمل المجاهدين إلى

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٥٤٠ ـ ٥٤٢)؛ السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص ٦١٤).

(٢) انظر: فتح الباري (١٦/ ٢٣٧).

(٣) صحيح مسلم (٤/ ١٧٨٤) رقم (٧٠٦).

(٤) البخاري (٥/ ١٥٠) رقم (٤٤١٥).

أرض المعركة، وقلة الماء في هذا السفر الطويل والحر الشديد، وكذلك قلة المال الذي يجهز به الجيش وينفق عليه [١]، ففي تفسير عبد الرزاق عن معمر بن عقيل قال: خرجوا في قلة من الظهر وفي حر شديد حتى كانوا ينحرون البعير فيشربون ما في كرشه من الماء، فكان ذلك عسرة من الماء [٢]، وهذا الفاروق عمر بن الخطاب يحدثنا عن مدى ما بلغ العطش من المسلمين فيقول: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع حتى إن كان أحدنا يذهب يلتمس الخلاء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته تنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرشه فيشربه ويضعه على بطنه [٣].

وللغزوة اسم ثالث هو: الفاضحة ذكره الزرقاني - رحمه الله - في كتابه شرح المواهب اللدنية [٤]، وسميت بهذا الاسم لأن هذه الغزوة كشفت عن حقيقة المنافقين وهتكت أستارهم، وفضحت أساليبهم العدائية الماكرة، وأحقادهم الدفينة، ونفوسهم الخبيثة وجرائمهم البشعة بحق رسول الله والمسلمين [٥].

وأما موقع تبوك فيقع شمال الحجاز، يبعد عن المدينة ٧٧٨ ميلاً حسب الطريق المعبدة في الوقت الحاضر، وكانت من ديار قضاعة الخاضعة لسلطان الروم آنذاك [٦].

ثانياً: أسبابها:

ذكر المؤرخون أسباب هذه الغزوة فقالوا: وصلت الأنباء للنبي ﷺ من الأنباط الذين يأتون بالزيت من الشام إلى المدينة؛ أن الروم جمعت جموعاً وأجلبت معهم لخم وجذام وغيرهم من مستنصرة العرب وجاءت في مقدمتهم إلى البلقاء [٧]، فأراد النبي ﷺ أن يغزوهم قبل أن يغزوه [٨].

ويرى ابن كثير: أن سبب الغزوة هو استجابة طبيعية لفريضة الجهاد ولذلك عزم رسول الله ﷺ على قتال الروم، لأنهم أقرب الناس إليه، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ

---

(١) انظر: الصراع مع الصليبيين لأبي فارس (ص ٨٣).
(٢) فتح الباري (٩/ ١٧٤).
(٣) انظر: مجمع الزوائد (٦/ ١٩٤).
(٤) انظر: شرح المواهب اللدنية (٣/ ٦٢).
(٥) انظر: الصراع مع الصليبيين (ص ٨٤).
(٦) انظر: المجتمع الإسلامي للعمري (ص ٢٢٩).
(٧) البلقاء: هي كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى عاصمتها عمّان.
(٨) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ١٦٥).

فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

والذي قاله ابن كثير هو الأقرب للصواب، إضافة إلى أن الأمر الذي استقر عليه حكم الجهاد هو قتال المشركين كافة، بمن فيهم أهل الكتاب الذين وقفوا في طريق الدعوة وظهر تحرشهم بالمسلمين كما روى أهل السير (١).

ولا يمنع ما ذكره المؤرخون بأن سبب الخروج هو عزم الروم على غزو المسلمين في عقر دارهم، أن يكون هذا حافزاً للخروج إليهم، لأن أصل الخروج كان وارداً.

لقد كان المسلمون على حذر من مجيء غسان إليهم من الشام، ويظهر ذلك جلياً مما وقع لعمر بن الخطاب، فقد كان النبي ﷺ آلى من نسائه شهراً فهجرهن، ففي صحيح البخاري: وكنا تحدثنا أن آل غسان تنعل النعال لغزونا فنزل صاحبي يوم نوبته، فرجع عشاء فضرب بابي ضرباً شديداً وقال: أثمَّ هو؟ ففزعت، فخرج إليه، وقال: حدث أمر عظيم، فقلت: ما هو؟ أجاءت غسان؟ قال: لا بل أعظم منه وأطول، طلق رسول الله ﷺ نساءه .... (٢).

ثالثاً: الإنفاق في هذه الغزوة وحرص المؤمنين على الجهاد:

حثَّ رسول الله ﷺ الصحابة على الإنفاق في هذه الغزوة، لبعدها، وكثرة المشركين فيها، ووعد المنفقين بالأجر العظيم من الله، فأنفق كل حسب مقدرته، وكان عثمان رضي الله عنه صاحب القدح المعلى في الإنفاق في هذه الغزوة (٣)، فهذا عبد الرحمٰن بن خُباب يحدثنا عن نفقة عثمان حيث قال: شهدت النبي ﷺ وهو يحث على جيش العسرة، فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حضّ على الجيش فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله عليَّ مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حضّ على الجيش، فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله عليَّ ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، فأنا رأيت رسول الله ينزل عن المنبر وهو يقول: «ما على عثمان ما عمل بعد هذه، ما على عثمان ما عمل بعد هذه» (٤)، وعن عبد الرحمٰن بن سمرة رضي الله عنهما قال: جاء عثمان بن عفان إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي ﷺ جيش العسرة، قال: فجعل النبي ﷺ يقلبها بيده ويقول: «ما ضرّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم» يرددها مراراً (٥).

وأما عمر فقد تصدق بنصف ماله وظن أنه سيسبق أبا بكر بذلك، وهذا الفاروق يحدثنا

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٥/ ٣).
(٢) البخاري، كتاب النكاح، باب موعظة الرجل ابنته (٦/ ١٨٠) رقم (٥١٩١).
(٣) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٦١٥).
(٤) سنن الترمذي، مناقب (٥/ ٦٢٥، ٦٢٦) رقم (٣٧٠٠).
(٥) مسند أحمد (٥/ ٦٣).

بنفسه عن ذلك حيث قال: أمرنا رسول الله ﷺ يوماً أن نتصدق، فوافق ذلك مالاً عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» قلت: مثله، قال: وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» قال: أبقيت لهم الله ورسوله قلت: لا أسابقك إلى شيء أبداً (١).

وروى أن عبد الرحمٰن بن عوف أنفق ألفي درهم، وهي نصف أمواله لتجهيز جيش العسرة (٢).

وكانت لبعض الصحابة نفقات عظيمة، كالعباس بن عبد المطلب، وطلحة بن عبيد الله، ومحمد بن مسلمة، وعاصم بن عدي رضي الله عنهم (٣).

وهكذا يفهم المسلمون أن المال وسيلة، واستطاع أغنياء الصحابة أن يبرهنوا أن مالهم في خدمة هذا الدين، يدفعونه عن طواعية ورغبة، وإن تاريخ الأغنياء المسلمين تاريخ مشرّف، لأنه تاريخ المال في يد الرجال، لا تاريخ الرجال تحت سيطرة المال، وكما كان الجهاد بالنفس، فكذلك هو بالمال، وإن الذين ربوا على أن يقوموا أنفسهم، تهون عليهم أموالهم في سبيل الله تعالى (٤).

إن في مسارعة الموسرين من الصحابة إلى البذل والإنفاق دليلاً على ما يفعله الإيمان في نفوس المؤمنين من مسارعة إلى فعل الخير ومقاومة لأهواء النفس وغرائزها مما تحتاج إليه كل أمة لضمان النصر على أعدائها، وخير ما يفعله المصلحون وزعماء النهضات هو غرس الدين في نفوس الناس غرساً كريما (٥).

وقدم فقراء المسلمين جهدهم من النفقة على استحياء، ولذلك تعرضوا لسخرية وغمز ولمز المنافقين، فقد جاء أبو عُقيل بنصف صاع تمر وجاء آخر بأكثر منه، فلمزوهما قائلين: إن الله لغني عن صدقة هذا!! وما فعل هذا الآخر إلا رياء، فنزلت الآية ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾ [التوبة: ٧٩] (٦).

وقالوا: ما أعطى بن عوف هذا إلا رياء، فكانوا يتهمون الأغنياء بالرياء، ويسخرون من صدقة الفقراء (٧).

---

(١) سنن أبي داود، الزكاة (٢/ ٣١٢، ٣١٣) رقم (١٦٧٨).
(٢) انظر: السيرة في ضوء المصادر الأصلية (ص ٦١٦).
(٣) انظر: مغازي الواقدي (٣/ ٣٩١).
(٤) انظر: معين السيرة (ص ٤٤٩).
(٥) انظر: السيرة النبوية دروس وعِبَر للسباعي (ص ١٦١).
(٦) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٦١٦).
(٧) المصدر السابق، (ص ٦١٧).

لقد حزن الفقراء من المؤمنين لأنهم لا يملكون نفقة الخروج إلى الجهاد؛ فهذا عُلَبة بن زيد أحد البكائين صلّى من الليل وبكى، وقال: اللهم إنك قد أمرت بالجهاد، ورغبت فيه، ولم تجعل عندي ما أتقوى به مع رسولك، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابتني في جسد أو عرض، فأخبره النبي ﷺ أنه قد غفر له [(١)].

وفي هذه القصة وما جرى فيها آيات من الإخلاص، وحب الجهاد لنصرة دين الله وبث دعوته في الآفاق، وفيها من لطف الله بضعفاء المؤمنين الذين يعيشون في حياتهم عيشة عملية [(٢)].

وهذا واثلة بن الأسقع نتركه يحدثنا عن قصته: . . . . عندما نادى رسول الله في غزوة تبوك، خرجت إلى أهلي، فأقبلت ـ وقد خرج أول صحابة رسول الله ـ فطفقت في المدينة أنادي: ألا من يحمل رجلاً له سهمه، فإذا شيخ من الأنصار، فقال: لنا سهمه على أن نحمله [(٣)] عقبة، وطعامه معنا؟ فقلت: نعم، فسر على بركة الله، فخرجت مع خير صاحب حتى أفاء الله علينا [(٤)]، فأصابني قلائص [(٥)]، فسقتهن حتى أتيته، فخرج، فقعد على حقيبة من حقائب إبله، ثم قال: سقهن مدبرات، ثم قال: سقهن مقبلات، فقال: ما أرى قلائصك إلا كراماً، إنما هي غنيمتك التي شرطت لك، قال: خذ قلائصك يا ابن أخي، فغيّر سهمك أردنا [(٦)].

وهكذا تنازل واثلة في بداية الأمر عن غنيمته ليكسب الغنيمة الأخروية، أجراً وثواباً يجده عند الله يوم لقائه، وتنازل الأنصاري عن قسم كبير من راحته ليتعاقب وواثلة على راحلته، ويقدم له الطعام مقابل سهم آخر هو الأجر والثواب.

إنها مفاهيم تنبع من المجتمع الذي تربى على كتاب الله وسنّة رسوله، لها نفس الخاصية في الإضاءة وتحمل نفس البريق، متمم بعضها لبعضها الآخر [(٧)].

وجاء الأشعريون يتقدمهم أبو موسى الأشعري يطلبون من النبي ﷺ أن يحملهم على إبل ليتمكنوا من الخروج للجهاد، فلم يجد ما يحملهم عليه حتى مضى بعض الوقت فحصل لهم على ثلاثة من الإبل [(٨)].

---

(١) وردت من طرق ضعيفة ولها شاهد صحيح وهي بالجملة تصلح للشاهد التاريخي، انظر: المجتمع المدني للعمري (ص ٢٣٥).
(٢) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٤/ ٤٤٣).
(٣) عقبة: أي بالتعاقب.
(٤) كان واثلة بن الأسقع أحد أفراد سرية خالد بن الوليد في دومة الجندل.
(٥) قلائص: إبل.
(٦) انظر: جامع الأصول رقم (٦١٨٨) معين السيرة (ص ٤٥٣).
(٧) انظر: معين السيرة (ص ٤٥٣).
(٨) انظر: المجتمع المدني (ص ٢٣٦).

وبلغ الأمر بالضعفاء والعجزة ممن أقعدهم المرض أو النفقة عن الخروج إلى حد البكاء شوقاً للجهاد وتحرجاً من القعود حتى نزل فيهم قرآن: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩١، ٩٢].

إنها صورة مؤثرة للرغبة الصحيحة في الجهاد على عهد رسول الله، وما كان يحسه صادقو الإيمان من ألم إذا ما حالت ظروفهم المادية بينهم وبين القيام بواجباتهم، وكان هؤلاء المعوزون، وغيرهم ممن عذر الله لمرض أو كبر سن أو غيرهما يسيرون بقلوبهم مع المجاهدين [(١)]، وهم الذين عناهم رسول الله ﷺ عندما قال:

«إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم»، قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة حبسهم العذر» [(٢)].

رابعاً: موقف المنافقين من غزوة تبوك:

عندما أعلن الرسول ﷺ النفير ودعا إلى الإنفاق في تجهيز هذه الغزوة، أخذ المنافقون في تثبيط همم الناس، قائلين لهم: لا تنفروا في الحر، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨١، ٨٢].

وقال رسول الله ﷺ ـ وهو في جهازه لتبوك ـ للجد بن قيس: «يا جد؛ هل لك العام في جلاد بني الأصفر؟» فقال: يا رسول الله أوتأذن لي ولا تفتني؟ فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل أشد عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «قد أذنت لك» ففيه نزلت الآية: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩]. وذهب بعضهم إلى النبي ﷺ مبدين أعذاراً كاذبة ليأذن لهم بالتخلف، فأذن لهم، فعاتبه الله بقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣].

وبلغ رسول الله ﷺ أن ناساً منهم يجتمعون في بيت سويلم اليهودي يثبطون الناس عن رسول الله ﷺ، فأرسل إليهم من أحرق عليهم بيت سويلم [(٣)].

---

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٦١٨).
(٢) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٤٢٣).
(٣) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٦١٨).

وهذا يدل على مراقبة المسلمين الدقيقة ومعرفتهم بأحوال المنافقين واليهود، فقد كانت عيون المسلمين يقظة تراقب تحركات اليهود والمنافقين واجتماعاتهم وأوكارهم، بل كانوا يطَّلعون فيها على أدق أسرارهم واجتماعاتهم، وما يدور فيها من حبك المؤامرات وابتكار أساليب التثبيط واختلاق الأسباب الكاذبة، لإقناع الناس بعدم الخروج للقتال، وقد كان علاج رسول الله لدعاة الفتنة وأوكارها حازماً حاسماً، إذ أمر بحرق البيت على من فيه من المنافقين، وأرسل من أصحابه من ينفِّذه، ونفذ بحزم، وهذا منهج نبوي كريم يتعلم منه كل مسؤول في كل زمان ومكان، كيف يقف من دعاة الفتنة ومراكز الإشعاعات المضللة التي تلحق الضرر بالأفراد والمجتمعات والدول، لأن التردد في مثل هذه الأمور يعرض الأمن والأمان إلى الخطر وينذر بزوالها [1].

لقد تحدث القرآن الكريم عن موقف المنافقين قبل الغزوة وأثناءها وبعدها، ومما جاء من حديث القرآن الكريم عن موقف المنافقين قبل غزوة تبوك ما يتضمن استئذانهم، وتخلفهم عن الخروج وكان ممن تخلف عبد الله بن أبي ابن سلول وقد تحدث القرآن عنهم فقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤٢]، فقد بيَّن ـ ﷻ ـ موقف المنافقين وأنهم تخلفوا بسبب بعد المسافة وشدتها، وأنه لو كان الذي دعوتهم إليه يا محمد عرضاً من أعراض الدنيا ونعيمها، وكان السفر سهلاً لاتبعوك في الخروج ولكنهم تخلفوا ولم يخرجوا، فالآية تشرح وتوضح ملابسات موقفهم قبل الخروج إلى الغزوة وأسباب هذا الموقف، ثم حكى ـ سبحانه ـ ما سيقوله هؤلاء المنافقون بعد عودة المؤمنين من هذه الغزوة ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

كان نزول هذه الآية قبل رجوعه ﷺ من تبوك.

والمعنى: وسيحلف هؤلاء المنافقون بالله ـ كذباً وزوراً ـ قائلين: لو استطعنا أيها المؤمنون أن نخرج معكم للجهاد في تبوك لخرجنا، فإننا لم نتخلف عن الخروج معكم إلا مضطرين، فقد كانت لنا أعذارنا القاهرة التي حملتنا على التخلف [2].

وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

قال ابن عاشور: أي يحلفون مهلكين أنفسهم ـ أي موقعينها في الهلك ـ والهلك: الفناء والموت، ويطلق على الأضرار الجسيمة وهوالمناسب هنا ـ أي يتسببون في ضر أنفسهم بالإيمان الكاذبة، وهو ضر الدنيا وعذاب الآخرة، وفي هذه الآية دلالة على أن تعمُّد اليمين الفاجرة

---

(١) انظر: الصراع مع الصليبيين (ص ١٢١).

(٢) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٤٧).

يفضي إلى الهلاك (١).

ثم عاتب الله ـ تعالى ـ نبينا محمداً ﷺ بقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣].

قال مجاهد (٢): نزلت هذه الآية في أناس قالوا: استأذنوا رسول الله ﷺ، فإن أذن لكم فاقعدوا وإن لم يأذن لكم فاقعدوا، وهؤلاء هم فريق من المنافقين، منهم عبد الله بن أبي ابن سلول، والجد بن قيس، ورفاعة بن التابوت، وكانوا تسعة وثلاثين واعتذروا بأعذار كاذبة (٣).

والآية الكريمة عتاب لطيف من اللطيف الخبير ـ سبحانه ـ لحبيبه ﷺ على ترك الأولى، وهو التوقف عن الإذن إلى انجلاء الأمر وانكشاف الحال (٤)، ثم قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: الآيتان ٤٤، ٤٥].

هذه الآيات أول ما نزل في التفرقة بين المنافقين والمؤمنين في القتال (٥)، فبيَّن سبحانه أنه ليس من شأن المؤمنين بالله واليوم الآخر الاستئذان وترك الجهاد في سبيل الله، وإنما هذا من صفات المنافقين الذين يستأذنون من غير عذر، وصفهم ـ سبحانه ـ بقوله: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: شكت في صحة ما جئتهم به، وقوله: ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي: يتحيرون يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى، وليست لهم قدم ثابتة في شيء (٦).

لقد كانت غزوة تبوك منذ بداية الإعداد لها مناسبة للتمييز بين المؤمنين والمنافقين، وضحت فيها الحواجز بين الطرفين، ولم يعد هناك أي مجال للتستر على المنافقين أو مجاملتهم، بل أصبحت مجابهتهم أمراً ملحاً بعد أن عملوا كل مافي وسعهم لمجابهة الرسول والدعوة، وتثبيط المسلمين عن الاستجابة للنفير الذي أعلنه الله تعالى ورسوله ﷺ، والذي نزل به القرآن الكريم، بل وأصبح الكشف عن نفاق المنافقين، وإيقافهم عند حدهم واجباً شرعياً (٧).

---

(١) انظر: تفسير التحرير والتنوير (١٠/ ٢٠٩).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٠).
(٣) انظر: التحرير والتنوير (١٠/ ٢١٠).
(٤) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/).
(٥) انظر: تفسير المراغي (٤/ ١٢٧).
(٦) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦١).
(٧) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٨٩).

خامساً: إعلان النفير وتعبئة الجيش:

أعلن النفير العام للخروج لغزوة تبوك، حتى بلغ عدد من خرج مع النبي ﷺ إلى تبوك ثلاثين ألفاً، وقد عاتب القرآن الكريم الذين تباطأوا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وقد طالبهم القرآن الكريم بأن ينفروا شباناً وشيوخاً وأغنياء وفقراء بقوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

لقد استطاع رسول الله ﷺ أن يحشد ثلاثين ألف مقاتل (١)، من المهاجرين والأنصار وأهل مكة والقبائل العربية الأخرى، ولقد أعلن رسول الله ﷺ على غير عادته في غزواته هدفه ووجهته في القتال، إذ أعلن صراحة أنه يريد قتال بني الأصفر (الروم)، علماً بأن هديه في معظم غزواته أن يورى فيها (٢)، ولا يصرح بهدفه ووجهته وقصده حفاظاً على سرية الحركة ومباغتة العدو (٣).

وقد استدل بعض العلماء بهذا الفعل على جواز التصريح لجهة الغزو، إذا لم تقتض المصلحة ستره، وقد صرح ﷺ في هذه الغزوة ـ على غير العادة ـ بالجهة التي يريد غزوها، وجلّى هذا الأمر للمسلمين، لأسباب منها:

١ ـ بعد المسافة، فقد كان رسول الله ﷺ يدرك أن السير إلى بلاد الروم يُعدُّ أمراً صعباً، لأن التحرك سيتم في منطقة صحراوية ممتدة، قليلة الماء والنبات، ولا بدّ حينئذٍ من إكمال المؤنة ووسائل النقل للمجاهدين قبل بدء الحركة، حتى لا يؤدي نقص هذه الأمور إلى الإخفاق في تحقيق الهدف المنشود.

٢ ـ كثرة عدد الروم بالإضافة إلى أن مواجهتهم تتطلب إعداداً خاصاً، فهم عدو يختلف في طبيعته عن الأعداء الذين واجههم النبي ﷺ من قبل، فأسلحتهم كثيرة، ودرايتهم بالحرب كبيرة وقدرتهم القتالية فائقة (٤).

٣ ـ شدة الزمان، وذلك لكي يقف كل امرىءٍ على ظروفه، ويعدّ النفقة اللازمة له في هذا السفر الطويل لمن يعول وراءه (٥).

٤ ـ أنه لم يعد مجال للكتمان في هذا الوقت،حيث لم يبق في جزيرة العرب قوة معادية لها

---

(١) انظر: الصراع مع الصليبيين (ص ٩٧).
(٢) المصدر السابق، (ص ٩٧).
(٣) المصدر السابق، (ص ٩٧).
(٤) انظر: الرسول القائد (ص ٣٩٨).
(٥) انظر: البداية والنهاية (٥/ ٤).

خطرها، تستدعي هذا الحشد الضخم سوى الرومان ونصارى العرب الموالين لهم في منطقة تبوك ودومة الجندل والعقبة [١].

لقد شرع رسول الله ﷺ لنا الأخذ بمبدأ المرونة عند رسم الخطط الحربية، ومراعاة المصلحة العامة في حالتي الكتمان والتصريح ويعرف ذلك من مقتضيات الأحوال [٢].

ولما علم المسلمون بجهة الغزوة سارعوا إلى الخروج إليها، وحثّ الرسول ﷺ على النفقة قائلاً: «من جهز جيش العسرة فله الجنة» [٣].

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري، وخلّف علي بن أبي طالب على أهله، فأرجف به المنافقون، وقالوا: ما خلَّفه إلا استثقالاً وتخففاً منه، فأخذ علي رضي الله عنه سلاحه، ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ وهو نازل بالجرف [٤]، فقال: يا نبي الله؛ زعم المنافقون أنك إنما خلفتني لأنك استثقلتني وتخففت مني، فقال: «كذبوا، ولكني خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى أن تكون منِّي بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبي بعدي» [٥] فرجع عليٌّ إلى المدينة [٦].

وكان استخلاف علي - رضي الله عنه - في أهله باعتبار قرابته ومصاهرته، فكان استخلافه في أمر خاص، وهو القيام بشأن أهله، وكان استخلاف محمد بن مسلمة الأنصاري في الغزوة نفسها استخلافاً عاماً، فتعلق بعض الناس بأن استخلاف علي يشير إلى خلافته من بعده، ولا صحة لهذا القول، لأن خلافته كانت في أهله خاصة [٧].

وعندما تجمع المسلمون عند ثنية الوداع بقيادة رسول الله، اختار الأمراء والقادة وعقد الألوية والرايات لهم، فأعطى اللواء الأعظم إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ورايته العظمى إلى الزبير بن العوام رضي الله عنه، ودفع راية الأوس إلى أسيد بن حضير، وراية الخزرج إلى أبي دجانة، وأمر كل بطن من الأنصار أن يتخذ لواءً [٨]، واستعمل رسول الله ﷺ على حراسة تبوك من يوم قدم إلى أن رحل منها عباد بن بشر، فكان رضي الله عنه يطوف في أصحابه على العسكر [٩]، وكان

---

(١) انظر: غزوة تبوك محمد أحمد باشميل (ص ٥٧).
(٢) انظر: القيادة في عهد الرسول ﷺ (ص ٥١٠).
(٣) البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب عثمان (٤/ ٢٤٣).
(٤) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥٢٩).
(٥) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٥٨٩) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٤١٦).
(٦) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥٣٠).
(٧) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة (ص ٤٦٦، ٤٦٧).
(٨) انظر: المغازي (٣/ ٩٩٦)؛ الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ١٦٦).
(٩) انظر: سبل الهدى والرشاد (٥/ ٦٥٢)؛ الصراع مع الصليبيين (ص ٩٩).

دليل رسول الله في هذه الغزوة علقمة بن الفغواء الخزاعي، فقد كان من أصحاب الخبرة والكفاءة في معرفة طريق تبوك (١).

وقد انفرد الواقدي بالمعلومات عن طريق الجيش وتوزيع الرايات، وهو متروك، ولكنه غزير المعلومات في السيرة، وأخذ مثل هذه المعلومات منه لا يضر (٢).

ويلاحظ الباحث التطور السريع لعدد المقاتلين بشكل عام، ولسلاح الفرسان بشكل خاص: إن الذي يدرس تاريخ الدعوة الإسلامية، ونشوء الدولة الإسلامية ومؤسساتها العامة، وفي مقدمة هذه المؤسسات الجيش الإسلامي القوة الضاربة للدولة، يلاحظ أن هناك تطوراً سريعاً جداً في مجال القوة العسكرية، إذ بلغ عدد المقاتلين في غزوة بدر الكبرى ثلاثمائة وثلاثة عشر مقاتلا، وفي غزوة أحد بلغ سبعمائة مقاتل تقريباً، وفي غزوة الأحزاب ثلاثة آلاف مقاتل، وفي غزوة فتح مكة عشرة آلاف، وفي غزوة حنين بلغ العدد اثني عشر ألف مقاتل، وأخيراً بلغ عدد المقاتلين في تبوك ثلاثين ألف مقاتل أو يزيد.

وإن الدارس يلاحظ هذا التطور السريع اللافت للنظر في مجال سلاح الفرسان، ففي غزوة بدر كان عدد الفرسان فارسين في بعض الروايات، وفي غزوة أحد لم يتجاوز عدد الفرسان ما كان في بدر، ويقفز العدد بعد ست سنوات فقط إلى عشرة آلاف فارس، وهذا يعود إلى انتشار الإسلام في الجزيرة العربية وبخاصة في البادية، لأن أهلها يهتمون باقتناءالخيول وتربيتها أكثر من أبناء المدن (٣).

المبحث الثاني

أحداث في الطريق والوصول إلى تبوك

وبعد تعبئة الجيش وتوزيع المهام والألوية والرايات، توجه الجيش الإسلامي بقيادة رسول الله ﷺ إلى تبوك، ولم ينتظر أحداً قد تأخر، وقد تأخر نفر من المسلمين يظن فيهم خيراً، وكلما ذكر لرسول الله اسم رجل تأخر قال ﷺ: «دعوه إن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه» (٤).

أولاً: قصة أبي ذر الغفاري:

قال ابن إسحاق: ثم مضى رسول الله ﷺ سائراً، فجعل يتخلف عنه الرجل، فيقولون: يا رسول الله تخلف فلان، فيقول: «دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يك غير

---

(١) انظر: إمتاع الأسماع (١/ ٤٥١)؛ شرح المواهب اللدنية (٣/ ٧٢).

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥٣٢).

(٣) انظر: الصراع مع الصليبيين (ص ١٠٠).

(٤) انظر: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء للكلاعي (٢/ ٢٧٦).

ذلك فقد أراحكم الله منه»، حتى قيل: يا رسول الله، قد تخلف أبو ذر، وأبطأ به بعيره.

فقال: «دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه»، وتلوّم [(١)] أبو ذر على بعيره، فلما أبطأ عليه، أخذ متاعه فحمله على ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً، ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازله، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله، إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا ذر» [(٢)]. فلما تأمّله القوم قالوا: يا رسول الله، هو والله أبو ذر، فقال رسول الله ﷺ: «رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده» [(٣)]، ومضى الزمان وجاء عصر عثمان، ثم حدثت بعض الأمور وسُيِّر أبو ذر إلى الربذة، فلما حضره الموت أوصى امرأته وغلامه: إذا مت فاغسلاني وكفناني ثم احملاني فضعاني على قارعة الطريق فأول ركب يمرون بكم فقولوا: هذا أبو ذر، فلما مات فعلوا به كذلك فطلع ركب فما علموا به حتى كادت ركائبهم تطأ سريره، فإذا ابن مسعود في رهط من أهل الكوفة، فقال: ما هذا؟ فقيل: جنازة أبي ذر، فاستهل ابن مسعود يبكي، فقال: صدق رسول الله ﷺ: «يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»، فنزل فوليه بنفسه حتى دفنه [(٤)]، وفي هذه القصة دروس وعِبَر منها:

١ ـ ما تعرض له أبو ذر الغفاري رضي الله عنه من الصعوبات والمخاطر، التي نجّاه الله منها وقوّاه بالصبر عليها، لقد بذل جهداً كبيراً في المشي على قدميه وهو يحمل متاعه على ظهره، حتى لحق بالنبي ﷺ والمسلمين، لكي ينال شرف الجهاد في سبيل الله [(٥)].

٢ ـ وفي قوله ﷺ: «رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده» دلالة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار على صدق نبوة الرسول ﷺ، إذ الإخبار بأمور لم تقع ثم تقع بعد الإخبار يدل على معجزة وتكريم من الله لهذا الرسول ﷺ، وهذه الوسيلة من إثبات النبوة كثيرة في السيرة النبوية الشريفة [(٦)].

٣ ـ كما أن في القصة دلالة على علم ابن مسعود رضي الله عنه وقوة ذاكرته وسرعة استحضاره لما حفظ، حيث تذكر بعد سنوات عديدة حديث رسول الله ﷺ عما سيؤول إليه أمر أبي ذر في آخر حياته رضي الله عنه [(٧)].

---

(١) تلوم على بعيره: تمهل.
(٢) كن أبا ذر: لفظ الأمر ومعناه الدعاء أرجو الله أن تكون أبا ذر.
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٧٨).
(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٧٨).
(٥) انظر: الصراع مع الصليبيين (ص ١٢٩)، التاريخ الإسلامي للحميدي (٨/ ١١٤).
(٦) انظر: الصراع مع الصليبيين (ص ١٢٩).
(٧) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ١١٤).

ثانياً: قصة أبي خيثمة:

قال ابن إسحاق: . . . . ثم إن أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله ﷺ أياماً إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه [(١)]، قد رشّت كل واحدة منهما عريشها، وبردت له فيه ماء، وهيأت له فيه طعاماً فلما دخل قام على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له، فقال: رسول الله ﷺ في الضح [(٢)]، والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وطعام مهيأ وامرأة حسناء في ماله مقيم، ما هذا بالنَّصَف! ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ، فهيئا لي زاداً، ففعلتا ثم قدم ناضحه [(٣)] فارتحله، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك، وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجمحي في الطريق، يطلب رسول الله ﷺ، فترافقا، حتى إذا دنوا من تبوك، قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: إن لي ذنباً، فلا عليك أن تخلف عني حتى آتى رسول الله ﷺ، ففعل، حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك، قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة»، فقالوا: يا رسول الله والله أبو خيثمة، فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «أولى لك يا أبا خيثمة» [(٤)]. ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر، فقال له رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بالخير [(٥)].

وقال ابن هشام: وقالو أبو خيثمة في ذلك شعراً، واسمه مالك بن قيس:

لما رأيت الناس في الدين نافقوا ... أتيت التي كانت أعف وأكرما
وبايعت باليمنى يدي لمحمد ... فلم أكتسب إثماً ولم أغش محرما
تركت خضيباً [(٦)] في العريش وصرمة [(٧)] ... صفايا [(٨)] كراماً يُسْرُها قد تحمَّما [(٩)]
وكنت إذا شك المنافق أسمحت [(١٠)] ... إلى الدين نفسي شطره حيث يمما [(١١)].

وفي هذه القصة دروس وعِبَر منها:

١ ـ المسلم صاحب ضمير حي:

فقد رأى أبو خيثمة ﷺ ما أعدت له زوجتاه من الماء البارد، والطعام مع الظل المبرد والإقامة، فتذكر رسول الله ﷺ وما هو فيه من التعرض للشمس والريح والحر، فأبصر وتذكر

(١) حائطه: أي بستانه.
(٢) الضح: أي في الشمس.
(٣) ناضحه: أي جمله.
(٤) أجدر بك.
(٥) انظر: البداية والنهاية (٥/٨).
(٦) خضيباً: مخضوبة وهي المرأة.
(٧) صرمة: جماعة النخل.
(٨) صفايا: كثيرة الثمر.
(٩) تحمماً: أخذ في الإرطاب فاسود.
(١٠) أسمحت: انقادت.
(١١) انظر: البداية والنهاية (٥/٨).

وتيقظ ضميره وحاسب نفسه، ثم عزم على الخروج، وخرج وحده يقطع الفيافي والقفار حتى التقى بعمير بن وهب الجمحي، ولعله كان قادماً من مكة، فهذه الصورة تبيّن لنا مثلاً من سلوك المتقين الذين تمر عليهم لحظات ضعف، يعودون بعدها أقوى إيماناً مما كانوا عليه إذا تذكروا وراجعوا أنفسهم، وفي بيان ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وقد تذكر سريعاً وخرج لعله يدرك ما فاته، وظل يشعر بالذنب حتى وصل إلى النبي ﷺ في تبوك وحصل على رضاه وسروره [١].

٢ ـ معرفة الرسول بأصحابه وبمعادنهم:

إن قول الرسول ﷺ حينما قال له أصحابه: هذا راكب على الطريق مقبل: «كن أبا خيثمة»، فلما اقترب وعرفوه قالوا: يا رسول الله هو والله أبو خيثمة، يدل على معرفة رسول الله ﷺ بأصحابه، وأنه أعرفهم بمعادن رجاله، يعرف المستجيب من غيره، ويعرف التائب النائب إلى ربه إذا زل قدمه بسرعة رجوعه، ومعرفة خصال الرجال ومعادنهم تدل على معرفة واسعة، وخبرة مستوعبة فاحصة نتيجة التعامل والاحتكاك في ميادين الحياة المختلفة، فقد كان يخالط الجميع، يسمع منهم ويسمعهم، ويسيرون معه، ويجاهدون تحت رايته [٢].

٣ ـ حزم أبي خيثمة وصبره ونفاذ عزيمته:

تأمل هذا القرار الذي اتخذه أبو خيثمة رضي الله عنه أن يلحق برسول الله ﷺ وحده، في هذه الرحلة المضنية، في هذه الصحراء قليلة الماء ذات الحر اللافح، لقد اتخذ هذا القرار الحازم ونفّذه بدقة، فدلّ على قوة عزيمته وعنفوان إرادته وعلى جلده وصبره [٣].

٤ ـ عتاب القائد للجندي له أثره:

وصل أبو خيثمة معترفاً بذنبه، يطرح السلام على رسول الله ﷺ فعاتبه ﷺ معاتبة تحمل في طياتها اللوم والتأنيب والتهديد، إذ قال له رسول الله ﷺ: «أولى لك يا أبا خيثمة»، فهي كلمة فيها معنى التهديد، ومعناها دنوت من الهلكة.

إنه مما لا شكّ فيه أن هذا الكلام كان له وقعه في نفس الجندي، إذ أوقفه على حقيقة ما ارتكب من الذنب.

وهذا منهج نبوي كريم في تعليم القادة عدم السكوت على أخطاء الجنود، لأن ذلك

(١) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/١١١، ١١٢).
(٢) انظر: الصراع مع الصليبيين (ص ١٣٣).
(٣) المصدر السابق، (ص ١٣٣، ١٣٤).

يضرهم ويلحق الضرر بغيرهم، بل عليهم أن يسعوا إلى تصويب الخطأ، ومحاسبة مرتكبه وتقويمه، وبذلك يكونون معلمين ومرشدين ومربين [(١)].

ثالثاً: الوصول إلى تبوك:

عندما وصل النبي ﷺ لم يجد أثراً للحشود الرومانية ولا القبائل العربية، وبالرغم من أن الجيش مكث عشرين ليلة في تبوك، لم تفكر القيادة الرومانية مطلقاً في الدخول مع المسلمين في قتال، حتى القبائل العربية المتنصرة آثرت السكون، أما حكَّام المدن في أطراف الشام فقد آثروا الصلح ودفع الجزية، فقد أرسل ملك أيلة للنبي ﷺ هدية وهي بغلة بيضاء وبُرد، فصالحه على الجزية، وأرسل خالد بن الوليد رضي الله عنه على رأس سرية من الفرسان بلغ عددها أربعمائة وعشرين فارساً إلى دومة الجندل، واستطاع خالد بن الوليد أن يأسر أكيدر بن عبد الملك الكندي ـ ملكها ـ وهو في الصيد خارجها [(٢)]، فصالحه النبي ﷺ على الجزية [(٣)]، وقد تعجب المسلمون من قباء كان أكيدر يلبسه، فقال الرسول ﷺ: «أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا» [(٤)]، وقد ورد أن غنائم خالد من أكيدر كانت ثمانمائة من السبي وألف بعير وأربعمائة درع وأربعمائة رمح [(٥)]، وقد وصلت إلى تبوك هدية ملك أيلة للنبي ﷺ وهي بغلة بيضاء وبرد، فصالحه على الجزية [(٦)]، وكتب رسول الله ﷺ معاهدات لكل من أهل جرباء وأذرح [(٧)]، ولأهل مقنا [(٨)]، يؤدي بموجبها هؤلاء الناس من نصارى العرب الجزية كل عام، وتخضع لسلطان المسلمين، لقد انفرد رسول الله ﷺ بالإمارات الواقعة في شمال الجزيرة وعقد معها معاهدات، وبذلك أمن حدود الدولة الإسلامية الشمالية [(٩)]، وبهذه المعاهدات قصّ ﷺ أجنحة الروم، فقد كانت هذه القبائل تابعة للروم ودخلوا في النصرانية، فإقدام من أقدم منها على مصالحة رسول الله والتزامها بالجزية يعتبر قصاً لهذه الأجنحة، وبتراً لحبال تبعيتهم للروم، وتحرير لها من هذه التبعية التي كانت تذلهم وتخضعهم لسلطان الروم، لينالوا من تساقط فتاتهم شيئاً يعيشون به، وخوفاً من ظلمهم لقوتهم الباطشة، وقد وفوا بعهد الصلح والتزموا أداء الجزية، فأعطوها عن

(١) انظر: الصراع مع الصليبيين (ص ١٣٤).
(٢) انظر: الإصابة (١/ ٤١٢ ـ ٤١٥) من طريق ابن إسحاق بإسناد حسن.
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٨٠).
(٤) المصدر السابق، (٤/ ١٨٠) بإسناد حسن.
(٥) انظر: البداية والنهاية (٥/ ١٧) وفي إسناده ابن لهيعة عن أبي الأسود، وابن لهيعة ضعيف فضلاً عن إرسال عروة.
(٦) انظر: المجتمع المدني للعمري (ص ٢٤١).
(٧) المغازي (٣/ ١٠٣٢).
(٨) انظر: الوثائق السياسية في عهد النبوة والخلافة الراشدة (ص ١١٩ ـ ١٢٤).
(٩) انظر: الصراع مع الصليبيين (ص ٢١٧).

يد وهم صاغرون [(١)]، وهذه سياسة نبوية حكيمة اختطها رسول الله في بناء الدولة ودعوة الناس لدين الله، فقد استطاع أن يفصل بين المسلمين وبين الروم بإمارات تدين للرسول بالطاعة، وتخضع لحكم المسلمين وأصبحت في زمن الخلفاء الراشدين نقاط ارتكاز سهلت مهمة الفتح الإسلامي في عهدهم، فمنها انطلقت قوات المسلمين إلى الشمال، وعليها ارتكزت لتحقيق هدفها العظيم [(٢)].

رابعاً: وصايا رسول الله ﷺ بالجيش عند مروره بحجر ثمود:

قال أبو كبشة الأنصاري رضي الله عنه: لما كان في غزوة تبوك تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنادى في الناس: «الصلاة جامعة»، قال: فأتيت رسول الله ﷺ وهو ممسك بعيره، وهو يقول: «ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم»، فناداه رجل منهم: نعجب منهم يا رسول الله، قال: «أفلا أنذركم بأعجب من ذلك؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وما هو كائن بعدكم، فاستقيموا وسددوا، فإن الله عز وجل لا يعبأ بعذابكم شيئاً، وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً» [(٣)] وقال ابن عمر رضي الله عنهما: إن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ أرض ثمود، الحجر، واستقوا من بئرها، واعتجنوا به، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا من بئرها، وأن يعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة [(٤)]، وقال رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين حذراً أن يصيبكم مثل ما أصابهم»، ثم زجر [(٥)] فأسرع حتى خلفها [(٦)]، وهذا منهج نبوي كريم في توجيه رسول الله ﷺ صحابته إلى الاعتبار بديار ثمود، وأن يتذكروا بها غضب الله على الذين كذبوا رسوله، وأن لا يغفلوا عن مواطن العظة برسومها الدارسة، وأطلالها القديمة، ونهاهم عن الانتفاع بشيء مما في ربوعها، حتى الماء، لكيلا تفوت بذلك العبرة، وتخف الموعظة، بل أمرهم بالبكاء وبالتباكي، تحقيقاً للتأثر بعذاب الله، ولو أنهم مروا بها كما نمر نحن بآثار السابقين، لتعرضوا لسخط الله، فإن الغابرين شهدوا المعجزات ودلائل النبوات، وعاينوا العجائب، لكن قست قلوبهم، فاستهانوا بها، وحق عليهم العذاب، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون، من نقمة الله وغضبه.

إن الله ـ عز وجل ـ ما قصّ علينا من أنباء الأمم الخالية، إلا لكي نأخذ منها العظة والاعتبار، فإذا شهدنا بأعيننا ديارهم التي نزل فيها سخط المولى عز وجل وعذابه الأليم، وجب أن تكون

---

(١) محمد الصادق عرجون (٤/ ٤٧٩).
(٢) انظر: الصراع مع الصليبيين (ص ٢٢١).
(٣) انظر: الفتح الرباني (٢١/ ١٩٥).
(٤) البخاري، كتاب الأنبياء رقم (٣٣٧٩).
(٥) زجر: أي زجر ناقته ومعناه: ساقها سوقاً شديداً حتى خلفها أي جاوز المساكن.
(٦) البخاري، كتاب الأنبياء رقم (٣٣٨١).

الموعظة أشد، والاعتبار أعمق، والخوف من سخط المولى ـ سبحانه ـ أبلغ. ولهذا تسجى النبي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بثوبه لما مرّ بالديار الملعونة المسخوطة، واستحث خطا راحلته [(١)] وقال لأصحابه: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، حذراً أن يصيبكم ما أصابهم» [(٢)].

خامساً: وفاة الصحابي عبد الله ذو البجادين [(٣)] ﷺ:

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: قمت من جوف الليل، وأنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، قال: فرأيت شعلة من نار في ناحية العسكر، قال: فأتبعتها، أنظر إليها، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وإذا عبد الله ذو البجادين المزني قد مات، وإذا هم قد حفروا له، ورسول الله ﷺ في حضرته، وأبو بكر وعمر يدليانه إليه، وهو يقول: «أدنيا إليَّ أخاكما، فدلياه إليه، فلما هيّأه بشقه، قال: اللهم إني أمسيت راضياً عنه، فارض عنه». قال (الراوي عن ابن مسعود) قال عبد الله بن مسعود: يا ليتني كنت صاحب الحفرة [(٤)].

قال ابن هشام: وإنما سمي ذو البجادين، لأنه كان ينازع إلى الإسلام فيمنعه قومه من ذلك ويضيّقون عليه، حتى تركوه في بجاد، ليس عليه غيره فهرب منهم إلى رسول الله ﷺ فلما كان قريباً منه، شقّ بجادة باثنين، فاتزر بواحد واشتمل بالآخر، ثم أتى رسول الله ﷺ فقيل له: ذو البجادين، لذلك [(٥)].

وفي هذه القصة دروس وحكم وفوائد منها:

١ ـ تكريم النبي ﷺ لجنوده أحياء وأمواتاً:

فهذا الفعل مع ذي البجادين يدل على حرص النبي ﷺ على تكريم أصحابه حتى في حالة الوفاة، لأنهم قدموا أنفسهم للجهاد في سبيل الله، تاركين وراءهم أعزّ ما يملكون، فكانت تلك الدعاية مظهراً من مظاهر تكريمهم في الدنيا، حيث لم يترك جثثهم تتناوشها الذئاب، وغيرها من دواب الأرض، لكي يكون هذا التكريم من الأسباب التي تدفع غيرهم إلى الاستبسال والإقدام في ميادين الجهاد. ومن الجدير بالذكر أن هذا المبدأ لم يجد من يدعو إلى تطبيقه إلا في العصر الحديث. وبهذا يمكن أن يقال: إن رعاية القائد المسلم لشؤون جنده تعد سبقاً عسكرياً لم تعرفه النظم والدساتير الوضعية إلا بعد قرون طويلة من بزوغ الإسلام [(٦)].

---

(١) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة (ص ٤٨٠).
(٢) البخاري، كتاب الأنبياء رقم (٣٣٨١).
(٣) البجاد: الكساء الغليظ الجافي.
(٤) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٥٩٨).
(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٨٢).
(٦) انظر: المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية (ص ٢٩٩).

فهذه صورة من البر والتكريم فريدة يتيمة، لن تجد في تاريخ الملوك والحكام، من يبر ويتواضع إلى هذا المستوى، إلى حيث يوسد الحاكم فرداً من رعيته بيده في مثواه الأخير، ثم يلتمس له المرضاة من رب العالمين، أما هو فقد أعلن أنه أمسى راضياً عنه (١).

٢ ـ جواز الدفن في الليل والغبطة مشروعة في الخير:

فقد دفن رسول الله ﷺ ذا البجادين ليلاً، والسنّة أن يعجّل في دفن الميت، كما أن الغبطة وهي أن تتمنى حصول الخير لك كما حصل لغيرك من إخوانك، وهذا عكس الحسد، إذ الحسد تمني زوال النعمة عن غيرك، والحسد كله شر كما ترى، أما الغبطة فلا تكون إلا في الخير (٢)، تأمل قول عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ حينما سمع رسول الله ﷺ يقول بحق ذي البجادين: «اللهم إني أمسيت عنه راضياً فارض عنه»، فقال ابن مسعود: يا ليتني كنت صاحب اللحد (٣)، إنها كلمة كل مؤمن آمن بالله واليوم الآخر، ووقف موقفه ذاك فقد عرفوا أين تكون ميادين التنافس (٤).

سادساً: بعض المعجزات التي حدثت في الغزوة:

ظهرت في غزوة تبوك معجزات منها:

١ ـ الله تعالى يرسل السحاب لدعاء نبيه بالسقيا:

لما جاوز النبي ﷺ حجر ثمود، أصبح الناس ولا ماء لهم، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فدعا رسول الله ﷺ ربه، واستسقى لمن معه من المسلمين، فأرسل الله ـ ﷻ ـ سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس، واحتملوا حاجتهم من الماء، فتحدث ابن إسحاق عمن قال لمحمود بن لبيد: هل كان الناس يعرفون النفاق فيهم؟ قال: نعم والله! إن كان الرجل ليعرفه من أخيه، ومن أبيه، ومن عمه، وفي عشيرته، ثم يلبس بعضهم بعضاً على ذلك. ثم قال محمود: لقد أخبرني رجال من قومي، عن رجل من المنافقين معروف نفاقه، كان يسير مع رسول الله ﷺ حيث سار، فلما كان من أمر الناس بالحجر ما كان، ودعا رسول الله ﷺ حين دعا، فأرسل الله السحابة، فأمطرت حتى ارتوى الناس، قالوا: أقبلنا عليه ونقول: ويحك! هل بعد هذا الشيء؟ قال: سحابة مارة (٥).

٢ ـ خبر وفاة رسول الله ﷺ:

لما كان رسول الله ﷺ سائراً في طريقه إلى تبوك، ضلّت ناقته، فخرج أصحابه، في

(١) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة (ص ٤٧٢).
(٢) انظر: الصراع مع الصليبيين (ص ١٦٣، ١٦٤).
(٣) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٥٩٨).
(٤) انظر: معين السيرة (ص ٤٥٢).
(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/١٧٦)، صور وعِبَر من الجهاد النبوي (ص ٤٧٣).

طلبها، وعند رسول الله ﷺ رجل من أصحابه، يقال له: عُمارة بن حزم وكان عقبياً بدرياً، وهو عم بني عمرو بن حزم، وكان في رحله زيد بن اللصيت القينقاعي، وكان منافقاً.

قال زيد بن اللصيت وهو في رحل عمارة عند رسول الله ﷺ: أليس محمد يزعم أنه نبي، ويخبركم عن السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟

فقال رسول الله ﷺ وعُمارة عنده: «إن رجلاً قال: هذا محمد يزعم أنه يخبركم بأمر السماء ولا يدري أين ناقته؟ وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلّني الله عليها، وهي في هذا الوادي، في شعب كذا وكذا، قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتوني بها»، فذهبوا فجاؤوا بها، فرجع عمارة بن حزم إلى رحله، فقال: والله لعجب من شيء حدثناه رسول الله ﷺ آنفاً، عن مقالة قائل، أخبره الله عنه بكذا وكذا، للذي قال زيد بن اللصيت. فقال رجل ممن كان في رحل عمارة، ولم يحضر رسول الله ﷺ: زيد، والله، قال هذه المقالة قبل أن تأتي، فأقبل عمارة على زيد، يجأ في عنقه (يطعنه فيه) ويقول: إليَّ عباد الله، إن في رحلي لداهية، وما أشعر، أخرج أي عدو الله [(١)] من رحلي فلا تصحبني. قال ابن إسحاق: فزعم بعض الناس أن زيداً تاب بعد ذلك، وقال بعض الناس: لم يزل متهماً بشر حتى هلك [(٢)].

٣ ـ الإخبار بهبوب ريح شديدة والتحذير منها:

أخبر رسول الله ﷺ أصحابه في تبوك بأن ريحاً شديدة ستهب، وأمرهم بأن يحتاطوا لأنفسهم ودوابهم فلا يخرجوا حتى لا تؤذيهم، وليربطوا دوابهم حتى لا تؤذى، وتحقق ما أخبر به رسول الله ﷺ فهبّت الريح الشديدة، وحملت من قام فيها إلى مكان بعيد [(٣)]، فقد روى مسلم في صحيحه بإسناده إلى أبي حميد قال: وانطلقنا حتى قدمنا تبوك فقال رسول الله ﷺ: «ستهب عليكم الليلة ريح شديدة، فلا يقم فيها أحد منكم، فمن كان له بعير فليشد عقاله»، فهبّت ريح شديدة فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبل طيئ [(٤)].

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم معقباً على هذا الحديث: هذا الحديث فيه هذه المعجزة الظاهرة من أخباره ﷺ بالمغيب، وخوف الضرر من القيام وقت الريح [(٥)].

٤ ـ تكثير ماء عين تبوك والإخبار بما ستكون عليه من خصب:

قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك،

---

(١) انظر: إعلام النبوة للماوردي (ص ١٠٠)؛ السيرة النبوية لابن هشام (١٧٧/٤).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١٧٧/٤).
(٣) انظر: الصراع مع الصليبيين (ص ١٤١).
(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (٤٢/١٥)؛ مختصر مسلم رقم (١٥٤٣).
(٥) شرح النووي على صحيح مسلم (٤٢/١٥).

وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتي»، فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان، والعين مثل الشراك [(١)]، تنبض [(٢)] بشيء من ماء، فسألهما رسول الله ﷺ : «هل مسستما من مائها شيئاً؟» قالا: نعم، فسبّهما النبي ﷺ وقال لهما ما شاء الله أن يقول، ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شيء، وغسل رسول الله ﷺ فيه يده ووجهه، ثم أعاده فيها فجرت العين بماء منهمر حتى استقى الناس [(٣)].

وقد قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل: «يوشك يا معاذ إن آلت بك حياة أن ترى ما هاهنا قد مليء جناناً» [(٤)]، لقد كانت منطقة تبوك والوادي الذي كانت فيه العين منطقة جرداء لقلة الماء، ولكن الله ـ ﷻ ـ أجرى على يد رسوله ﷺ بركة تكثير هذا الماء حتى أصبح يسيل بغزارة، ولم يكن هذا آتياً لسد حاجة الجيش، بل أخبر رسول الله ﷺ بأنه سيستمر وستكون هناك جنان وبساتين مملوءة بالأشجار المثمرة، ولقد تحقق ما أخبر به الرسول ﷺ بعد فترة قليلة من الزمن، ولا زالت تبوك حتى اليوم تمتاز بجنانها وبساتينها ونخيلها وتمورها، تنطق بصدق نبوة الرسول، وتشهد بأن الرسول لا يتكلم إلا صدقاً ولا يخبر إلا حقاً ولا ينبىء بشيء إلا ويتحقّق [(٥)].

٥ ـ تكثير الطعام:

قال أبو سعيد الخدري ؓ : لما كانت غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة، فقالوا: يا رسول الله لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا [(٦)] فأكلنا وأدمنا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «افعلوا» فجاء عمر فقال: يا رسول الله إنهم إن فعلوا قل الظهر [(٧)]، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع لهم بالبركة، لعلّ الله أن يجعل في ذلك، فدعا رسول الله ﷺ بنطع [(٨)] فبسطه، ثم دعاهم بفضل أزوادهم فجعل الرجل يجيء بكف الذرة، والآخر بكف التمر، والآخر بالكسرة حتى اجتمع على النطع في ذلك شيء يسير، ثم دعا عليه بالبركة، ثم قال لهم: خذوا في أوعيتكم، فأخذوا من أوعيتهم حتى ما تركوا من المعسكر وعاء إلا ملأوه، وأكلوا حتى شبعوا، وفضلت منه فضلة، فقال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فتحجب عنه الجنة» [(٩)].

---

(١) الشراك: هو سير النعل ومعناه ماء قليل جداً.
(٢) تنبض: بفتح التاء وكسر الموحدة وتشديد الضاد ومعناه: تسيل.
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/٤١)؛ مختصر مسلم رقم (١٥٣٠).
(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/٤١)؛ الفتح الرباني (٢١/١٩٦).
(٥) انظر: الصراع مع الصليبيين (ص ١٤٢).
(٦) نواضحنا: جمع ناضح وهي الإبل التي يسقى عليها.
(٧) الظهر: ما يحمل عليه من الإبل.
(٨) النطع: بساط من الجلد.
(٩) الفتح الرباني (٢١/١٩٦ ـ ١٩٨).

هذه بعض المعجزات والكرامات التي أظهرها الله على يد رسول الله ﷺ في غزوة تبوك تدل على صدق نبوّته ورسالته، وتدل على رفعة منزلته وتكريمه عند ربه [١].

سابعاً: حديث القرآن الكريم عن مواقف المنافقين أثناء الغزوة:

أ ـ قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يوماً: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، لا أرغب بطونا ولا أكذب ألسنة، ولا أجبن عند اللقاء... فقال رجل في المجلس: كذبت ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، ونزل القرآن. قال عبد الله: فأنا رأيته متعلقاً بحقب [٢] ناقة رسول الله والحجارة تنكبه [٣]، وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، والرسول ﷺ يقول: «أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟»

وفي رواية قتادة قال: بينما رسول الله ﷺ في غزوته إلى تبوك وبين يديه أناس من المنافقين، فقالوا: يرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها؟ هيهات هيهات...!!، فأطلع الله نبيّه على ذلك فقال نبي الله ﷺ: «احبسوا على هؤلاء الركب». فأتاهم فقال: «قلتم كذا قلتم كذا، قالوا: يا نبيَّ الله إنّما كنّا نخوض ونلعب، فأنزل الله فيهم ما تسمعون [٤]. فأنزل الله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: الآيتان ٦٤، ٦٥].

والاستفهام في قوله: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ استفهام إنكاري.

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء موبخاً ومنكراً: ألم تجدوا ما تستهزئون به في مزاحكم ولعبكم ـ كما تزعمون ـ سوى فرائض الله وأحكامه وآياته ورسوله الذي جاء لهدايتكم وإخراجكم من الظلمات إلى النور؟

ثم بيَّن سبحانه أن استهزاءهم هذا أدى بهم إلى الكفر فقال: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٦].

ومعنى الآية: أي لا تذكروا هذا العذر لدفع هذا الجرم، لأن الإقدام على الكفر لأجل اللعب لا ينبغي أن يكون، فاعتذاركم إقرار بذنبكم فهو كما يقال: عذر أقبح من ذنب [٥].

---

(١) انظر: الصراع مع الصليبيين (ص ١٤١).

(٢) الحقب: حبل يشد به الرحل في بطن البعير.

(٣) الحجارة تنكبه: تصيبه وتؤذيه.

(٤) انظر: الدر المنثور للسيوطي (٤/ ٢٣٠).

(٥) انظر: تفسير المراغي (٤/ ١٥٣).

وقوله: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ أي: إن نعف عن بعضكم لتوبتهم وإنابتهم إلى ربهم ـ كمخشن بن حمير ـ نعذب بعضاً آخر لإجرامهم وإصرارهم عليه [(١)].

ب ـ إيذاء الرسول والمؤمنين ومحاولة اغتيال رسول الله:

وقد نزل في هؤلاء المنافقين قول الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ٧٤].

وقد قال ابن كثير أن الضحاك قال: إن نفراً من المنافقين همّوا بالفتك بالنبي ﷺ، وهو في غزوة تبوك في بعض الليالي في حال السير، وكانوا بضعة عشر رجلاً نزلت فيهم هذه الآية [(٢)]. وفي رواية الواحدي عن الضحاك: خرج المنافقون مع رسول الله ﷺ إلى تبوك، فكانوا إذا خلا بعضهم إلى بعض سبوا رسول الله ﷺ وأصحابه وطعنوا في الدين، فنقل ما قالوا حذيفة إلى رسول الله ﷺ، فقال لهم رسول الله: «يا أهل النفاق ما هذا الذي بلغني عنكم؟» فحلفوا ما قالوا شيئاً من ذلك، فأنزل الله هذه الآية إكذاباً لهم [(٣)].

والمعنى الإجمالي للآية: «يحلفون بالله أنهم ما قالوا تلك الكلمة التي نسبت إليهم، والله يكذبهم ويثبت أنهم قد قالوا كلمة الكفر التي رويت عنهم، ولم يذكر القرآن هذه الكلمة لأنه لا ينبغي ذكرها...» [(٤)].

المبحث الثالث

العودة من تبوك إلى المدينة وحديث القرآن الكريم في المخلفين عن الغزوة وعن مسجد الضرار

عاد النبي ﷺ إلى المدينة بعد أن مكث في تبوك عشرين ليلة [(٥)]، وقد أمر النبي ﷺ بهدم مسجد الضرار الذي بناه المنافقون، وهو راجع إلى المدينة، ولما اقترب من المدينة خرج الصبيان إلى ثنية الوداع يتلقونه ودخل المدينة، فصلّى في مسجده ركعتين ثم جلس للناس، وجاء

(١) انظر: تفسير المراغي، (٤/١٥٣).
(٢) تفسير ابن كثير (٢/٣٧٢).
(٣) انظر: أسباب النزول للواحدي، (ص ٢٥١).
(٤) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٦٥).
(٥) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٦٠٣).

المخلفون لرسول الله ﷺ يقدمون له الاعتذار، وكانوا أربعة أصناف: فمنهم من له أعذار شرعية وعذرهم الله ز، ومنهم من ليس له أعذار شرعية وتاب الله عليهم، ومنهم من منافقي الأعراب الذين يسكنون حول المدينة، ومنهم من منافقي المدينة.

أولاً: المخلفون الذين لهم أعذار شرعية وعذرهم الله ﷻ:

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة: ٩١ ـ ٩٢].

بيّنت هذه الآيات الكريمة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وكان لهم عذر شرعي، بأنه ليس عليهم حرج وليس عليهم إثم في هذا التخلف، ذلك لأن لهم عذراً شرعياً منعهم من الخروج، وفي المراد بالضعفاء: أنهم الزمن والمشايخ الكبار، وقيل الصغار وقيل المجانين، سموا ضعافاً لضعف عقولهم، ذكر القولين الماوردي، والصحيح أنهم الذين يضعفون لزمانة أو عمى، أو سن، أو ضعف في الجسم. والمرضى: الذين بهم أعلال مانعة من الخروج للقتال [(١)].

وقوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾.

أي: ليس على الذين لا يجدون نفقة تبلغهم إلى الغزو حرج أي إثم ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي إذا عرفوا الحق، وأحبوا أولياءه وأبغضوا أعداءه [(٢)].

وقوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾. قال الطبري: يقول تعالى: ليس على من أحسن فنصح للّه في تخلفه عن رسول الله ورسوله عن الجهاد معه، لعذر يعذر به طريق يتطرق عليه فيعاقب من قبله ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

يقول تعالى: والله ساتر على ذنوب المحسنين، يتغمدها بعفوه لهم عنها، رحيم بهم أن يعاقبهم عليها [(٣)].

وقال القرطبي: أصل في سقوط التكليف عن العاجز، من جهة القوة أو العجز من جهة المال [(٤)].

وقوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ...﴾ معطوف على ما قبله، من عطف الخاص على العام، اعتناءً بشأنهم وجعلهم كأنهم لتميزهم

---

(١) انظر: زاد المسير (٤/ ٤٨٥).
(٢) انظر: تفسير القرطبي (٨/ ٢٢٦).
(٣) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ٢١١).
(٤) انظر: تفسير القرطبي (٨/ ٢٢٦).

جنس آخر، مع أنهم مندرجون مع الذين وصفهم الله قبل ذلك ﴿أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ .

أي: لا حرج ولا إثم على الضعفاء ولا على المرضى، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون، إذا ما تخلفوا عن الجهاد، وكذلك لا حرج ولا إثم ـ أيضاً ـ على فقراء المؤمنين ﴿الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ على الرواحل التي يركبونها لكي يخرجوا معك إلى هذا السفر الطويل ﴿قُلْتَ﴾ لهم يا محمد [١] ﴿لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ وقوله: ﴿تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ أي انصرفوا وأعينهم تسيل بالدموع من شدة الحزن، لأنهم لا يجدون المال الذي ينفقونه في مطالب الجهاد، ولا الرواحل التي يركبونها في حال سفرهم إلى تبوك [٢].

ثانياً: المخلفون الذين ليس لهم أعذار شرعية وتاب الله عليهم:

جاءت ثلاث آيات تتحدث عن هؤلاء المخلفين وهي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢] .

ومعنى الآية الكريمة: أن هؤلاء الجماعة تخلفوا عن الغزو لغير عذر مسوغ للتخلف، ثم ندموا على ذلك، ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة، كما اعتذر المنافقون، بل تابوا واعترفوا بالذنب، ورجَوا أن يتوب الله عليهم، والمراد بالعمل الصالح: ما تقدم من إسلامهم، وقيامهم بشرائع الإسلام وخروجهم إلى الجهاد في سائر المواطن، والمراد بالعمل السيء: هو تخلفهم عن هذه الغزوة. وقد ابْتَغُوا هذا العمل السيء عملاً صالحاً وهو الاعتراف به والتوبة عنه.

وأصل الاعتراف الإقرار بالشيء. ومجرد الإقرار لا يكون توبة إلا إذا اقترن به الندم على الماضي، والعزم على تركه في الحال والاستقبال، وقد وقع منهم ما يفيد هذا. ومعنى الخلط أنهم خلطوا كل واحد منهما بالآخر، كقولك: خلطت الماء باللبن واللبن بالماء.

وفي قوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ دليل على أنه قد وقع منهم مع الاعتراف ما يفيد التوبة، أو مقدمة التوبة وهي الاعتراف ويقوم مقام التوبة، وحرف الترجي وهو عسى؛ هو في كلام الله سبحانه يفيد تحقق الوقوع، لأن الإطماع من الله سبحانه إيجاب؛ لكونه: أكرم الأكرمين، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي يغفر الذنوب ويتفضل على عباده [٣].

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٧٢).

(٢) المصدر السابق، (٢/ ٦٧٣).

(٣) انظر: تفسير الشوكاني (٢/ ٣٣٩).

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التّوبَة: ١٠٦].

والمراد بهؤلاء المرجَون كما في الصحيحين هلال بن أمية، وكعب بن مالك، ومرارة بن الربيع... وكانوا قد تخلفوا عن رسول الله ﷺ لأمر ما، مع الهم باللحاق به عليه الصلاة والسلام، فلم يتيسر لهم، ولم يكن تخلفهم عن نفاق، وحاشاهم فقد كانوا من المخلصين، فلما قدم النبي ﷺ وكان ما كان من المتخلفين، قالوا: لا عذر لنا إلا الخطيئة ولم يعتذروا له ﷺ، ولم يفعلوا كما فعل أهل السواري (١) وأمر رسول الله باجتنابهم وشدّد الأمر عليهم كما سنعلمه إن شاء الله تعالى، وقد وقف أمرهم خمسين ليلة لا يدرون ما الله تعالى فاعل بهم (٢).

٣ ـ قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التّوبَة: ١١٨].

والمراد بهؤلاء الثلاثة هم هلال بن أمية، وكعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وفيهم نزلت هذه الآية (٣)، وسوف نتحدث عن هذه القصة بإذن الله بنوع من التفصيل لما فيها من الدروس والعِبَر والحكم.

ثالثاً: المخلفون من منافقي الأعراب الذي يسكنون حول المدينة:

هؤلاء المخلفون من منافقي الأعراب نزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التّوبَة: ٩٠].

رابعاً: المخلفون من منافقي المدينة:

قال تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [التّوبَة: ٨١ ـ ٨٣].

هذا وقد لاحظت اختلاف سياسة الرسول ﷺ في معاملته للمنافقين عندما اعتذروا له، عن

---

(١) أي الذين ربطوا أنفسهم في سواري المسجد كأبي لبابة وأصحابه.
(٢) انظر: تفسير الآلوسي (١١/ ١٧).
(٣) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٧٧).

المسلمين الصادقين، حيث إنه ﷺ عامل المنافقين باللين والصفح، واختار للمسلمين الصادقين الشدة والعقوبة! ولا شك أن الشدة والقسوة في هذا المقام مع المسلمين مظهر للإكرام والتشريف، وهو ما لا يستحقه المنافقون، وكيف يستحق المنافقون أن تنزل آيات في توبتهم - على أي حال - إنهم كفرة، ولن ينشلهم شيء مما يتظاهرون به في الدنيا، من الدرك الأسفل من النار يوم القيامة، وقد أمر الشارع جل جلاله أن ندعهم لما تظاهروا به، ونجري الأحكام الدنيوية حسب ظواهرهم، ففيم التحقيق عن بواطن أعذارهم وحقيقة أقوالهم؟ وفيم معاقبتهم في الدنيا على ما قد يصدر عنهم من كذب؟ ونحن إنما نعطيهم الظاهر فقط من المعاملة والأحكام، كما يُبدون لنا هم أيضاً، الظاهر فقط من أحوالهم وعقائدهم، قال ابن القيم: وهكذا يفعل الرب سبحانه بعباده في عقوبات جرائمهم، فيؤدب عبده المؤمن الذي يحبه وهو كريم عنده، بأدنى زلة وهفوة، فلا يزال مستيقظاً حذراً، وأما من سقط من عين الله وهان عليه، فإنه يخلي بينه وبين معاصيه، وكلما أحدث ذنباً أحدث له نعمة (١).

خامساً: مسجد ضرار:

في أثناء عودة النبي ﷺ إلى المدينة راجعاً من تبوك نزلت عليه الآيات الآتية: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: الآيتان ١٠٧، ١٠٨].

وسبب نزول هذه الآيات الكريمات: أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج، يقال له أبو عامر الراهب، وكان قد تنصر في الجاهلية، وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية، وله شرف في الخزرج كبير، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر، شرق اللعين أبو عامر بريقه، وبارز بالعداوة وظاهر بها، وخرج فارًّا إلى كفار مكة من مشركي قريش، يمالئهم عن حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا بمن وافقهم في أحياء العرب، فكان من أمر المسلمين ما كان وامتحنهم الله ﷻ، وكانت العاقبة للمتقين، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين، فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ وأصيب ذلك اليوم، فجرح وكسرت رُبَاعِيَّته اليمنى والسفلى، وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه. وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم، واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه، قالوا: لا أنعم الله بك عيناً، يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبوه، فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدي شر، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه القرآن، فأبى أن يسلم

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥٧٨).

وتمرّد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً، فنالته هذه الدعوة، وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد، ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ، فوعده ومناه وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه، ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم؛ فيصلّي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم بنوه للضعفاء منهم، وأهل العلة في الليلة الشاتية فعصمه الله من الصلاة فيه، فقال: «إنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله»، فلما قفل ﷺ راجعاً إلى المدينة من تبوك، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه جبريل بخبر مسجد ضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم، مسجد قباء الذي أسس من أول يوم على التقوى، فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة [١]... هذا ما ذكره ابن كثير في سبب النزول.

أما معنى الآيات الكريمة: أخبر الله سبحانه أن الباعث لهم على بناء المسجد أربعة أمور:

١ ـ الضرار لغيرهم، هو المضارة.

٢ ـ الكفر بالله، والمباهاة لأهل الإسلام، لأنهم أرادوا ببنائه تقوية أهل النفاق.

٣ ـ التفريق بين المؤمنين، لأنهم أرادوا أن لا يحضروا مسجد قباء، فتقل جماعة المسلمين، وفي ذلك من اختلاف الكلمة وبطلان الألفة ما لا يخفى.

٤ ـ الإرصاد لمن حارب الله ورسوله، أي الإعداد لأجل من حارب الله ورسوله [٢]...

وقد خيب الله تعالى مسعاهم، وأبطل كيدهم، بأن أمر نبيّه ﷺ بهدمه وإزالته.

وقوله: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ ذم لهم على أيمانهم الفاجرة، وأقوالهم الكاذبة لذلك قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

ثم نهى الله ـ تعالى ـ رسوله والمؤمنين عن الصلاة في هذا المسجد نهياً مؤكداً، فقال ـ سبحانه ـ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٨٨).

(٢) انظر: تفسير الشوكاني (٢/ ٤٠٣).

قال ابن عاشور: وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ المراد بالقيام الصلاة، لأن أولها قيام، ووجه النهي عن الصلاة فيه أن صلاة النبي ﷺ فيه تكسبه يمناً وبركة؛ فلا يرى المسلمون لمسجد قباء مزية عليه، ولذلك أمر رسول الله ﷺ عمار بن ياسر، ومالك بن الدخشم مع بعض أصحابه، وقال لهم: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم وأهله فاهدموه وحرقوه» ففعلوا (١). وقوله: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ احتراس مما يستلزمه النهي عن الصلاة فيه من إضاعة عبادة في الوقت الذي رغبوه للصلاة فيه، فأمر الله بأن يصلي في ذلك الوقت الذي دعوه فيه للصلاة في مسجد الضرار أن يصلّي في مسجده، أو مسجد قباء، لئلا يكون لامتناعه من الصلاة من حظوظ الشيطان أن يكون صرفه عن صلاة وقت دعي للصلاة فيه، وهذا أدب نفساني عظيم (٢).

وفيه أيضاً دفع مكيدة المنافقين أن يطعنوا في الرسول ﷺ، بأنه دعي إلى الصلاة في مسجدهم فامتنع، فقوله: ﴿أَحَقُّ﴾ وإن كان اسم تفضيل، فهو مسلوب المفاضلة لأن النهي عن صلاته في مسجد الضرار أزال كونه حقيقاً بصلاته فيه أصلاً.

ولعل نكته الإتيان باسم التفضيل أنه تهكم على المنافقين، لمجازاتهم ظاهراً في دعوتهم النبي ﷺ للصلاة فيه بأنه وإن كان حقيقاً بصلاته بمسجد أسس على التقوى أحق منه، فيعرف من وصفه بأنه ﴿أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ﴾ أن هذا أسس على ضدها (٣).

وقد رأى ابن عاشور أن المراد بالمسجد الذي أسس على التقوى أنه مسجد هذا صفته، لا مسجداً واحداً معيناً، فيكون هذا الوصف كليًّا انحصر في فردين: المسجد النبوي ومسجد قباء (٤).

قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ روى ابن ماجه أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار إن الله قد أثنى عليكم في الطهور فما طهوركم»؟ قالوا: نتوضأ لصلاة ونغتسل من الجنابة ونستنجي بالماء. قال: «فهو ذاك فعليكموه» (٥)، وفي قصة مسجد ضرار دروس وعِبَر وفوائد منها:

١ ـ الكفر ملة واحدة:

وقد تبيّن هذا في موقف أبي عامر الراهب من الإسلام ومن المسلمين، إذ غضب غضباً شديداً، وتألم لهزيمة المشركين في بدر، فأعلن عداءه للرسول وتوجه إلى عاصمة الشرك مكة يحث أهلها على قتال المسلمين وخرج مقاتلاً معهم في أحد، وحاول تفتيت الصف

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٨٤).
(٢) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٦١).
(٣) انظر: التحرير والتنوير (١١/ ٣١).
(٤) المصدر السابق، (١١/ ٣٢).
(٥) سنن ابن ماجه، كتاب الطهارة، باب الاستنجاء بالماء (١/ ١٢٧).

الإسلامي [(١)] وصدق الله عندما قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣] .

٢ ـ محاولة التدليس على المسلمين:

حاول المنافقون أن يضيفوا الشرعية على هذا البناء، وأنه مسجد بنوه لأسباب مقنعة في الظاهر، ولكن لا حقيقة لها في نفوس أصحابها، فقد جاءوا يطلبون من الرسول ﷺ الصلاة في هذا البناء ليكون مسجداً قد باركه رسول الله ﷺ بالصلاة فيه، فإذا حدث هذا فقد استقر قرارهم في تحقيق أهدافهم، وهذا أسلوب ماكر خبيث قد ينطلي على كثير من الناس [(٢)].

٣ ـ فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين:

إن الباحث ليلاحظ مدى العناية الإلهية بالنبي ﷺ، فقد أطلعه الله ﷻ على أسرار هؤلاء المنافقين وما أرادوه من تأسيس هذا المسجد، فلولا إعلام الله لرسوله لما أدرك رسول الله حقيقة نواياهم،ولصلّى في البناء، فأضفى عليه الشرعية وأقبل الناس يصلون فيه لأن رسول الله ﷺ صلّى فيه، وبذلك يحدث الاختلاط بين المنافقين وضعاف المسلمين فينفردون بهم وقد يؤثرون عليهم بالإشاعات [(٣)].

٤ ـ العلاج النبوي الحاسم:

إن ما قام به الرسول ﷺ من الأمر بهدم مسجد الضرار هو التصرف الأمثل، وهذا منهج نبوي كريم سنّه لقادة الأمة في القضاء على أي عمل يراد منه الإضرار بالمسلمين وتفريق كلمتهم، فالداء العضال لا يعالج بتسكينه والتخفيف منه، وإنما يعالج بحسمه وإزالة آثاره، حتى لا يتجدد ظهوره بصورة أخرى، وإن الثمار العملية، التي لمسها المسلمون على إثر تطبيق الأمر النبوي الحازم لتدلنا على أن هذه المنهجية التي نهجها رسول الله ﷺ مع هذا المكر الخبيث هي الطريقة المثلى لقمع حركة النفاق في المجتمع المسلم، فقد أصبح أمرهم بعد ذلك يتلاشى شيئاً فشيئاً حتى لم يبق منهم بعد لحاق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى إلا عدد قليل، ولم يعرف عنهم بعد تدمير مسجد ضرار أن قاموا بأعمال تخدم الهدف نفسه لعلمهم بنتائج العمل بعد انكشافهم [(٤)].

٥ ـ ما يلحق بحكم مسجد الضرار:

ذكر المفسرون ما يلحق بمسجد الضرار في الحكم، فهذه بعض أقوالهم:

---

(١) انظر: الصراع مع الصليبيين (ص ١٧٩).
(٢) المصدر السابق (ص ١٨١).
(٣) المصدر نفسه، (ص ١٨١).
(٤) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ١٣٠).

أ ـ قال الزمخشري: . . . . وقيل كل مسجد بني مباهاة أو رياء وسمعة أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله، أو بمال غير طيب فهو لاحق بمسجد الضرار [١].

علّق الدكتور عبد الكريم زيدان على قول الزمخشري فقال: ولكن هل يلحق بمسجد الضرار فيهدم، كما هدم مسجد الضرار الذي بناه المنافقون في المدينة، وأمر النبي ﷺ بهدمه؟ لا أرى ذلك، وإنما يمكن أن يقال إن المسجد الذي لهذه الأعراض يلحق بمسجد الضرار من جهة عدم ابتنائه على التقوى، والإخلاص الكامل للّه تعالى [٢].

ب ـ قال القرطبي في تفسيره: قال علماؤنا: وكل مسجد بني على ضرار أو رياء وسمعة فهو في حكم مسجد الضرار لا تجوز الصلاة فيه [٣].

جـ ـ وقال سيد قطب في تفسيره: هذا المسجد ـ مسجد الضرار ـ الذي اتخذ على عهد رسول الله ﷺ مكيدة للإسلام والمسلمين. . . هذا المسجد ما يزال يتخذ في صور شتى، يتخذ في صورة نشاط ظاهره الإسلام وباطنه لسحق الإسلام أو تشويهه. . . . وتتخذ في صورة أوضاع ترفع لافتة الدين عليها لتتترس وراءها، وهي ترمي هذا الدين، وتتخذ في صورة تشكيلات وتنظيمات وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام، لتخدر القلقين الذين يرون الإسلام يذبح ويمحق، فتخدرهم هذه التشكيلات وتلك الكتب بما توحيه لهم من أن الإسلام بخير، وأن لا داعي للخوف أو القلق عليه [٤].

٦ ـ قاعدة لمعرفة ما يلحق بالمسجد الضرار:

قال الدكتور عبد الكريم زيدان: كل ما يتخذ مما هو في ظاهره مشروع، ويريد متخذوه تحقيق غرض غير مشروع، فهو ملحق بالمسجد الضرار لأنه يحمل روحه وعناصره [٥]، وإذا أردنا الإيجاز قلنا في هذه القاعدة: كل ما كان ظاهره مشروعاً ويريد متخذوه الإضرار بالمؤمنين فهو ملحق بالمسجد الضرار [٦].

وبناء على هذه القاعدة يخرج من نطاق مسجد الضرار وما يلحق به، ما ذكره الإمام ابن القيم من مشاهد الشرك، ومن أماكن المعاصي والفسوق كالحانات وبيوت الخمر والمنكرات ونحو ذلك، لأن هذه المنكرات ظاهرها غير مشروع فلا تلحق به، وإن استحقت الإزالة كسمجد

---

(١) انظر: تفسير الزمخشري (٢/ ٣١٠).
(٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٥٠٤).
(٣) انظر: تفسير القرطبي (٨/ ٢٥٤).
(٤) في ظلال القرآن (٣/ ١٧١٠، ١٧١١).
(٥) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٥٠٦).
(٦) انظر: المستفاد في قصص القرآن، (٢/ ٥٠٧).

الضرار باعتبارها منكرات ظاهراً وباطناً [(١)].

٧ ـ مساجد الضرار في بلاد المسلمين:

لا يزال أعداء الإسلام من المنافقين والملحدين والمبشرين والمستعمرين، يقيمون أماكن باسم العبادة وما هي لها، وإنما المراد بها الطعن في الإسلام وتشكيك المسلمين في معتقداتهم وآدابهم، وكذلك يقيمون مدارس باسم الدرس والتعليم ليتوصلوا بها إلى بث سمومهم بين أبناء المسلمين، وصرفهم عن دينهم، وكذلك يقيمون المنتديات باسم الثقافة، والغرض منها خلخلة العقيدة السليمة في القلوب والقيم الخلقية في النفوس، ومستشفيات باسم المحافظة على الصحة والخدمة الإنسانية والغرض منها التأثير على المرضى والضعفاء وصرفهم عن دينهم، وقد اتخذوا من البيئات الجاهلة والفقيرة لا سيما في بلاد إفريقيا ذريعة للتوصل إلى أغراضهم الدنيئة التي لا يقرها عقل ولا شرع ولا قانون [(٢)].

إن مسجد الضرار ليس حادثة في المجتمع الإسلامي الأول وانقضت، بل هي فكرة باقية، يخطط لها باختيار الأهداف العميقة، وتختار الوسائل الدقيقة لتنفيذها، وخططها تصب في التآمر على الإسلام وأهله بالتشويه وقلب الحقائق والتشكيك، وزرع بذور الفتن لإبعاد الناس عن دينهم وإشغالهم بما يضرهم ويدمر مصيرهم الأخروي [(٣)].

المبحث الرابع

قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا

وردت قصة الثلاثة الذين خلِّفوا على لسان كعب بن مالك رضي الله عنه في كتب السيرة والحديث والتفسير بروايات متقاربة في ألفاظها، ولقيت عناية فائقة في الشرح والتدريس، وكان صحيح البخاري من أكثر الكتب دقة وتفصيلاً لهذه القصة [(٤)].

ونترك كعب بن مالك رضي الله عنه يحدثنا فيقول: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحداً تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة [(٥)] حين تواثقنا على الإسلام، وما أحبُّ أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها، كان من خبري أني لم أكن أقوى ولا أيسر حين

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن، (٢/ ٥٠٧).

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٥٠٨).

(٣) انظر: الصراع مع الصليبيين (ص ١٨٢).

(٤) انظر: الصراع مع الصليبيين (ص ١٨٧).

(٥) ليلة العقبة: الليلة التي بايع رسول الله ﷺ الأنصار على الإسلام.

تخلفت عنه في تلك الغزاة. والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قطُّ حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حرّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً، ومفازاً، وعدواً كثيراً، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ ـ يريد الديوان ـ قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أنه سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحيُ الله.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حيث طابت الثمار والظلال، وتجهّز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادرٌ عليه. فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجدُّ، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً. فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئاً. ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقض شيئاً. فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو [١]، وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتني فعلت، فلم يقدر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس ـ بعد خروج رسول الله ﷺ ـ فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب؟» فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه برداه، ونظره في عطفه [٢]. فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله! ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ، فبينما هو على ذلك رأى رجلاً مبيضاً [٣] يزول به السراب [٤]، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة»، فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري، وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه [٥] المنافقون، قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجه قافلاً [٦] حضرني همي، وطفقت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخطه غداً؟ واستعنت على ذلك، بكل ذي رأي من أهلي. فلما قيل لي: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً [٧] زاح [٨] عني الباطل، وعرفت أني لن أنجو منه بشيء أبداً، فأجمعت صدقه [٩]،

(١) تفارط الغزو: تقدم الغزاة وسبقوا وفاتوا.
(٢) والنظر في عطفيه: أي جانبيه وهو إشارة إلى إعجابه بنفسه ولباسه.
(٣) مبيضاً: لابس البياض.
(٤) يزول به السراب: يتحرك وينهض، والسراب ما يظهر للإنسان.
(٥) لمزه المنافقون: عابوه واحتقروه.
(٦) توجه قافلاً: راجعاً.
(٧) أظل قادماً: أقبل ودنا قدومه، كأنه أبقى على ظله.
(٨) زاح: أزال.
(٩) أجمعت صدقه: عزمت على صدقه.

وأصبح رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سفر، بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، فجئت، فلما سلمت، تبسم تبسم المغضب ثم قال: «تعال» فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: «ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟» قلت: بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً [1]، ولكني والله! لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن [2] الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليّ فيه [3] إني لأرجو فيه عقبى الله [4] لا والله ما كان لي عذر، والله! ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك فقمت»، وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني. فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا. ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المخلفون. فقد كان كافيك ذنبك، استغفار رسول الله ﷺ لك. قال: فوالله! ما زالوا يؤنبونني [5] حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذّب نفسي.

ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي من أحد؟ قالوا: نعم، رجلان، قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك. قال: قلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً، فيهما أسوة.

فمضيت حين ذكروهما لي. ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيُّها الثلاثة من بين من تخلف عنه. فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض. فما هي التي أعرف. فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحباي فاستكانا [6] وقعدا في بيوتهما يبكيان. وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم [7]، فكنت أخرج، فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد. وآتي رسول الله ﷺ، فأسلّم عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة مع المسلمين فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام عليّ أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليّ، وإذا التفت نحوه أعرض عني حتى إذا طال ذلك عليّ من جفوة الناس،

---

(١) أعطيت جدلاً: فصاحة وقوة في الكلام وبراعة.
(٢) ليوشكن: ليسرعن.
(٣) تجد عليّ فيه: تغضب.
(٤) إني لأرجو عقبي الله: يعقبني خيراً ويثيبني عليه.
(٥) يؤنبوني: يلومونني أشد اللوم.
(٦) استكانا: خضعا.
(٧) أشب القوم وأجلدهم: أي أصغرهم سناً وأقواهم.

مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي، وأحب الناس إليَّ. فسلّمت عليه فوالله ما ردّ عليَّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة أنشدك بالله [١] هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فكست. فعدت فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته. فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار، فبينا أنا أمشي في سوق المدينة، إذا نبطي من نبط أهل الشام [٢]، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون له. حتى جاءني دفع إليَّ كتاباً من ملك غسان. فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة [٣]، فالحق بنا نواسك. فقلت حين قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء فتيمّمت [٤] بها التنور، فسجرته [٥] بها، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها لا تقربنها. وأرسل إلى صاحبيَّ مثل ذلك.

قال: فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله، فقالت: يا رسول الله! إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا ولكن لا يقربنك، قالت: إنه والله! ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك؟ كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه. قال: فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدريني ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب. قال: فلبثت بعد ذلك عشر ليال، حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نَهَى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلمّا صليّت صلاة الفجر صُبْحَ حمسينَ ليلة، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله ﷻ منا، قد ضاقت عليَّ نفسي، وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على سَلْعٍ [٦]، يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر. قال: فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء فرج، وآذن [٧] رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، وذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبيَّ مبشرون، وركض إليّ رجل فرساً، وسعى ساعٍ من أسلم، فأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشّرني، نزعت له ثوبيَّ فكسوته إياهما ببشراه، والله! ما أملك غيرهما

(١) أنشدك بالله: أسألك بالله.
(٢) نبط أهل الشام: فلاحو العجم.
(٣) مضيعة: يعني أنك لست بأرض يضيع فيها حقك.
(٤) فتيامت: تيمت: قصدت.
(٥) فسجرتها: أحرقتها.
(٦) أوفى على سلع: صعده وارتفع عليه، وسلع جبل بالمدينة معروف.
(٧) فآذن الناس: أي أعلمهم.

يومئذٍ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فيتلقاني الناس فوجاً فوجاً (١)، يهنوني بالتوبة ويقولون: لِتَهنئك توبة الله عليك، قال كعب: حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنّاني، والله! ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره. ولا أنساها له، قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك»، قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله، أم من عند الله قال: رلا بل من عند الله»، وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه. قال: فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع (٢) من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك»، قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر. فقلت: يا رسول الله: إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت، فوالله! ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه (٣) الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، أحسن مما أبلاني. ما تعمدت كذبة منذ قلت لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي. قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ حتى بلغ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧ ـ ١١٩].

قال كعب: والله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد إذ هداني للإسلام، أعظم في نفسي، من صدقي لرسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا الله حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، قال الله: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥، ٩٦]

قال كعب: وكنا تخلفنا أيُّها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ

---

(١) فوجاً فوجاً: الفوج الجماعة.
(٢) أنخلع من مالي: أتصدق به.
(٣) أبلاه الله: أنعم عليه.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨] . وليس الذي ذكر الله مما خُلِّفنا عن الغزو، إنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا [١]، عمّن حلف له واعتذر إليه فقبل منه [٢].

وفي هذه القصة دروس وعِبَر وفوائد كثيرة نذكر منها:

١ ـ الأسلوب الجميل والبيان الرائع والأدب الرفيع:

لقد تمت صياغة هذا الحديث بأسلوب جميل، وبيان رائع، وأدب رفيع، وإنه ليعتبر مع أمثاله كحديث صلح الحديبية وحديث الإفك نماذج عالية للأدب العربي الرفيع، وليت القائمين على وضع المناهج الدراسية يختاورن هذه الأحاديث وأمثالها لتنمية مدارك الطلاب وتكوين الملكة الأدبية والثروة اللغوية العالية، انظر مثلاً إلى قول كعب في هذا الحديث: فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظلَّ قادماً زاح عني الباطل وعرفت أني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب فأجمعت صدقه [٣].

٢ ـ الصدق سفينة النجاة:

لقد أدرك كعب، وهلال، ومرارة ﷺ خطورة الكذب فعزموا على سلوك طريق الصراحة والصدق، وإن عرّضهم ذلك للتعب والمضايقات، ولكن كان أملهم بالله تعالى كبيراً في أن يقبل توبتهم ثم يعودون إلى الصف الإسلامي أقوى مما كانوا عليه [٤]، وما أجمل ختم رب العالمين توبته على كعب ومن معه بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] .

٣ ـ الهجر التربوي وأثره في المجتمع:

إن الهجر التربوي له منافعه العظيمة في تربية المجتمع المسلم على الاستقامة، ومنع أفراده من التورط في المخالفات التي تكون إما بترك شيء من الواجبات، أو فعل شيء من المحرمات، لأن من توقع أنه إذا وقع في شيء من ذلك سيكون مهجوراً من جميع أفراد المجتمع فإنه لا يفكر في الإقدام على ذلك.

ولا يغيب عن البال أن تطبيق هذا الحكم يجب أن يتم في الظروف المشابهة لحياة المسلمين في العهد النبوي المدني، حيث توجد الدولة المهيمنة والمجتمع القوي، مع أمن الوقوع في الفتنة لمن طبق عليه هذا الحكم.

---

(١) إرجاؤه أمرنا: تأخيره أمرنا.

(٢) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٤١٨)؛ صحيح السيرة النبوية، (ص ٦١٤).

(٣) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ١٣٧).

(٤) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ١٣٨).

وهذا الهجر التربوي يختلف عن الهجر الذي يكون بين المسلمين على أمور الدنيا، فهذا دنيوي وذاك ديني، فالهجر الديني مطلب شرعي يثاب عليه فاعله، أما الهجر الدنيوي فإنه مكروه إلا إذا زاد عن ثلاثة أيام فإنه يكون محرماً [(١)]، لقول رسول الله ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام» [(٢)]، ولقوله ﷺ: «من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه» [(٣)].

٤ ـ تنفيذ أوامر القيادة في المجتمع المسلم:

استجاب المجتمع المسلم كله لتنفيذ أمر المقاطعة والهجر الذي صدر من القائد الأعلى ﷺ، وامتنعوا جميعاً عن الحديث مع هؤلاء الثلاثة ووصف كعب لنا ذلك فقال: .... فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا، حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد [(٤)].... وقد أطلق كعب السلام على ابن عمه أبي قتادة فلم يرد عليه السلام وناشده بالله مراراً: هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، مع أنه من أحب الناس إليه، لقد كان أبو قتادة في هذا الموقف موزَّع الفكر بين إجابة رجل حبيب إليه عزيز عليه، وبين تنفيذ أمر النبي ﷺ بتطبيق الهجر التربوي، ولكن ليس هناك تردد بين الأمرين، فالذي أوحى به إيمان أبي قتادة هو تنفيذ أمر النبي ﷺ فظهر ذلك على سلوكه [(٥)].

وقد بلغ الالتزام بالأمر النبوي في الهجر التربوي ذروته حين أمر رسول الله ﷺ الثلاثة الذين خلفوا باعتزال زوجاتهم حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، فالتزم الجميع بذلك، واستأذنت زوج هلال بن أمية ـ وكان شيخاً طاعناً في السن لا يجد من يخدمه ـ فطلبت من الرسول ﷺ أن يأذن لها أن تخدمه فأذن لها النبي ﷺ بذلك شريطة ألا يقربها فالتزمت ﵂ [(٦)].

٥ ـ الولاء التام لله ورسوله:

كان العدو الصليبي يراقب ويرصد ويستغل الفرصة السانحة لكي يمزق الجبهة الداخلية، ويشعل نار الفتنة بين المسلمين ليوهن البنيان ويقوّض الأركان، ولذلك استغل ملك غسان فرصة هجران المسلمين لكعب بن مالك ﵁ وعقوبة رسول الله ﷺ له بأن يرسل سفيره لكعب برسالة خاصة منه إليه يغريه فيها، تأمل قوله: قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار

(١) انظر: التاريخ الإسلامي، (٨/ ١٣٩).
(٢) مسلم، كتاب البر، رقم (٢٥٦٠، ص ١٩٨٤).
(٣) مسند أحمد (٤/ ٢٢٠).
(٤) انظر: الصراع مع الصليبيين، (ص ١٩٥).
(٥) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ١٤٠).
(٦) انظر: الصراع مع الصليبيين (ص ١٩٦).

هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك [١]، فكان تعليق كعب على هذه الرسالة: وهذا من البلاء أيضاً! قد بلغ مني ما وقعت فيه أن أطمع فيَّ رجال من أهل الشرك! ثم أحرق الرسالة [٢]، وهذا الموقف يدل على شدة ولاء كعب لله ورسوله وقوة إيمانه وعظمة نفسه، فقد أدرك أنها محنة جديدة أقسى من الأولى، فلا يرضيه أن يجيب ملك غسان بالسلب، أو يرمي بالكتاب ويمزقه، ولكنه رمى به في التنور ليصير رماداً، ويصير كل ما به دخاناً يتبدد في الهواء، وخرج الرجل من محنته وهو أقوى ما يكون إيماناً، وأصفى ما يكون روحاً، وأكرم ما يكون أخلاقاً، فيا لعظمة هذه النفوس المؤمنة الكبيرة [٣]، لقد مرّ كعب من فوق هذا الاختبار والابتلاء عزيزاً قوياً بإسلامه، لم يتأثر به ولا انزلق فيه [٤].

٦ ـ توبة الله على العبد قيمة دينية يتطلّع إليها الصادقون:

عندما نزلت الآيات الكريمة التي بيَّنت توبة الله على هؤلاء الثلاثة، كان ذلك اليوم من الأيام العظيمة عند المسلمين، ظهرت فيه الفرحة على وجه رسول الله ﷺ حتى استنار كأنه قطعة قمر، وظهرت الفرحة على وجوه الصحابة ﷺ حتى صاروا يتلقون كعباً وصاحبيه أفواجاً يهنئونهم بما تفضل الله به عليهم من التوبة، وجاء كعب إلى النبي ﷺ ووجهه يبرق من السرور فقال له: «أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك»، وهذا يعني مقام التوبة وأنها أعظم من الدخول في الإسلام.

إن التوبة تعنى عودة العبد إلى الدخول تحت رضوان الله تعالى الذي هو أعلى هدف ينشده المسلم، وبالتالي فإنه يحظى بحفظه جلّ وعلا في الدنيا وتكريمه في الآخرة، لقد كانت توبة كعب عظيمة عبّر عنها بنزع ثوبيه اللذين لا يملك يومئذٍ غيرهما وإهدائهما لمن بشّره [٥]، وعدم نسيان كعب لطلحة بن عبيد الله مصافحته وتهنئته له [٦]، وكذلك كانت فرحة صاحبيه عظيمة غير أن كعباً لم يذكر في هذا الخبر إلا ما جرى له [٧]، وقد جاء في رواية الواقدي: وكان الذي بشّر هلال بن أمية بتوبته سعيد بن زيد، قال: وخرجت إلى بني واقف فبشّرته فسجد، قال سعيد: فما ظننته يرفع رأسه حتى تخرج نفسه [٨].

٧ ـ تشرع أنواع من العبادات شكراً لله عند النعمة:

كانت فرحة كعب بن مالك بتوبة الله ـ ﷻ ـ عليه، لا تحدها حدود ولا يصورها مثل، وقد تفنّن هو ـ ﵁ ـ في التعبير عنها بجملة من العبادات منها:

---

(١) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٤١٨).
(٢) المغازي (٣/ ١٠٥١، ١٠٥٢).
(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٥١٧).
(٤) انظر: فقه السيرة للبوطي (ص ٣٠٧).
(٥) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ١٤١).
(٦) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٥١٨).
(٧) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ١٤٢).
(٨) المغازي للواقدي (٣/ ١٠٥٤).

أ ـ سجود الشكر:

حينما سمع كعب البشارة بتوبة الله عليه خرّ ساجداً من فوره شكراً للّه ـ تبارك وتعالى ـ فقد كان من عادة الصحابة ـ ﷺ ـ أن يسجدوا شكراً للّه تعالى كلما تجددت لهم نعمة أو انصرفت عنهم نقمة، وقد تعلموا ذلك من رسول الله ﷺ [(١)].

ب ـ مكافأة الذي يحمل البشرى:

فقد نزع كعب ثوبيه اللذين كان يلبسهما، كساهما الذي سمع صوته بالبشرى، وما كان يملك وقتئذٍ غيرهما، ثم استعار ثوبين، فلبسهما، ولا شك أن هذا ضرب من الهبة المشروعة، فإن كان المبشّر غنياً كان له هدية، وإن كان فقيراً كان له صدقة، وكلاهما إخراج المال شكراً للّه تعالى، على إنزاله الفرج [(٢)].

جـ ـ التصدق بالمال:

فقد جعل كعب من توبته أن ينخلع من ماله صدقه للّه تعالى لكن ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يتقبّل منه التصدق بجميع ماله، وقال له: «أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك»، وكأنه يستشيره بذلك، فكانت المشورة بإمساك بعض ماله [(٣)]، وقد ثار الخلاف الفقهي فيمن نذر التصدق بجميع ماله، والصدقة مستحبة والنذر واجب الوفاء، ولم يذهب كعب إلى النذر وإنما استشار في الصدقة بكل المال، فأشار رسول الله ﷺ عليه بإمساك بعض ماله.

المبحث الخامس

دروس وعِبَر وفوائد

أولاً: معالم من المنهج القرآني في الحديث عن غزوة تبوك:

إن الآيات التي أنزلها الله في كتابه المتعلقة بغزوة العسرة هي أطول ما نزل في قتال المسلمين وخصومهم وقد بدأت باستنهاض الهمم لرد هجوم المسيحية، وإشعارهم بأن الله لا يقبل ذرة تفريط في حماية دينه ونصرة نبيه، وإن التراجع أمام الصعوبات الحائلة دون قتال الروم يعتبر مزلقة إلى الردة والنفاق [(٤)]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا

---

(١) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي، (ص ٤٩٣).

(٢) المصدر نفسه، (ص ٤٩٣)؛ الصراع مع الصليبيين (ص ٢٠٢).

(٣) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي (ص ٤٩٣).

(٤) انظر: فقه السيرة للغزالي (ص ٤٠٤).

تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: الآيتان ٣٨، ٣٩].

وعند التأمل في سورة التوبة يلاحظ القارىء أن لها معالم في عرضها لغزوة تبوك منها:

١ ـ عاتب القرآن الكريم من تخلف عتاباً شديداً، وتميزت غزوة تبوك عن سائر الغزوات بأن الله حثّ على الخروج فيها وعاتب من تخلف عنها والآيات الكريمة جاءت بذلك كقوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

وقد ختمت الغزوات النبوية بهذه الغزوة وقد كان تطبيقاً عملياً لوضع النص القرآني في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣]، موضع التنفيذ [١].

٢ ـ ميّز القرآن الكريم هذه الغزوة عن غيرها فسمّاها الله تعالى ساعة العسرة، قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾، فقد كانت غزوة عسرة بمعنى الكلمة.

٣ ـ من معالم منهج القرآن في عرضه لهذه الغزوة العظيمة أن الله ردّ على المنافقين لمزهم فقراء الصحابة عندما جاء أحدهم بنصف صاع وتصدق به فقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، وما فعل هذا إلا رياء، فنزلت الآية: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

٤ ـ بيّن القرآن الكريم أن المؤمنين الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ وعددهم يزيد عن الثلاثين ألفاً، وقد كتب الله لهم الأجر العظيم [٢]. قال تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢].

ثانياً: تطبيق مبدأ الشورى في هذه الغزوة:

قام رسول الله ﷺ في هذه الغزوة بتطبيق مبدأ الشورى وقبل مشورة الصديق والفاروق في بعض النوازل التي حدثت في الغزوة، ومن هذه النوازل:.

أ ـ قبول مشورة عمر بن الخطاب في ترك نحر الإبل حين أصابت الجيش مجاعة:

أصابت جيش العسرة مجاعة أثناء سيرهم إلى تبوك، فاستأذنوا النبي ﷺ في نحر إبلهم حتى

(١) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٧٠٢).
(٢) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٧٠٣).

يسدّوا جوعتهم، فلما أذن لهم النبي ﷺ في ذلك جاءه عمر رضي الله عنه فأبدى مشورته في هذه المسألة، وهي أن الجند إن فعلوا ذلك نفدت رواحلهم وهم أحوج ما يكونوا إليها في هذا الطريق الطويل، ثم ذكر رضي الله عنه حلاً لهذه المشكلة المعضلة وهو: جمع أزواد القوم ثم الدعاء لهم بالبركة فيها، فعمل ﷺ بهذه المشورة حتى صدر القوم عن بقية من هذا الطعام، بعد أن ملؤوا أوعيتهم منه وأكلوا حتى شبعوا.

ب ـ قبول مشورة عمر رضي الله عنه في ترك اجتياز حدود الشام والعودة إلى المدينة:

عندما وصل النبي ﷺ إلى منطقة تبوك وجد أن الروم فرّوا خوفاً من جيش المسلمين، فاستشار أصحابه في اجتياز حدود الشام فأشار عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأن يرجع بالجيش إلى المدينة وعلّل رأيه بقوله: إن للروم جموعاً كثيرة، وليس بها أحد من أهل الإسلام، ولقد كانت مشورة مباركة فإن القتال داخل بلاد الرومان يعد أمراً صعباً، إذ أنه يتطلب تكتيكاً خاصاً، لأن الحرب في الصحراء تختلف في طبيعتها عن الحرب في المدن، بالإضافة إلى أن عدد الرومان في الشام يقرب من مائتين وخمسين ألفاً، ولا شك في أن تجمع هذا العدد الكبير في تحصّنه داخل المدن يعرّض جيش المسلمين للخطر [(١)].

إن تطبيق الشورى في حياة الأمة في كافة شؤونها السياسية والعسكرية والاجتماعية... إلخ، منهج تربوي كريم سار عليه الحبيب المصطفى ﷺ في حياته.

ثالثاً: التدريب العملي العنيف:

كان خروج الرسول ﷺ بأصحابه إلى تبوك فيه فوائد كثيرة منها: تدريبهم تدريباً عنيفاً، فقطع بهم ﷺ مسافة طويلة في ظروف جويّة صعبة، حيث كانت حرارة الصيف اللاّهب، بالإضافة إلى الظروف المعيشية التي كانوا يعانون منها، فقد كان هناك قلة في الماء حتى كادوا يهلكون من شدة العطش، وأيضاً كان هناك قلة في الزاد والظهر، ولا شك في أن هذه الأمور تعد تدريباً عنيفاً لا يتحمله إلا الأقوياء من الرجال، وفي هذا الدرس يقول الأستاذ محمود شيت خطاب: تعمل الجيوش الحديثة على تدريب جنودها تدريباً عنيفاً كاجتياز مواقع وعراقيل صعبة جداً، وقطع مسافات طويلة في ظروف جوية مختلفة، وحرمان من الطعام والماء بعض الوقت، وذلك لإعداد هؤلاء الجنود لتحمل أصعب المواقف المحتمل مصادفتها في الحرب، لقد تحمل جيش العسرة مشقات لا تقل صعوبة عن مشقات هذا التدريب العنيف، إن لم تكن أصعب منها بكثير، لقد تركوا المدينة في موسم نضج ثمارها وقطعوا مسافات طويلة شاقة في صحراء الجزيرة العربية صيفاً وتحملوا الجوع والعطش مدة طويلة.

إن غزوة تبوك تدريب عنيف للمسلمين، كان غرض الرسول ﷺ منه إعدادهم لتحمل رسالة

---

(١) انظر: غزوة تبوك، باشميل (ص ١٧٦، ١٧٧).

حماية حرية نشر الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية، . . . . فقد كانت هذه الغزوة آخر غزوات الرسول ﷺ، فلا بدّ من الاطمئنان إلى كفاءة جنوده قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى [(١)]، وقد ساعد هذا التدريب العملي الصحابة في عصر الخلفاء، فقاموا بفتح بلاد الشام وبلاد الفرس بقوة إيمانهم وثقتهم بخالقهم وساعدهم على ذلك لياقتهم البدنية العالية، ومعرفتهم العملية لاستخدام السيوف والرماح، وأنواع الأسلحة في زمانهم.

رابعاً: أهم نتائج الغزوة:

أ ـ يمكن للباحث أن يلاحظ أهم نتائج هذه الغزوة وهي:

١ ـ إسقاط هيبة الروم من نفوس العرب جميعاً؛ مسلمهم وكافرهم على السواء، لأن قوة الروم كانت في حساب العرب لا تُقاوم ولا تُغلب، ومن ثم فقد فزعوا من ذكر الروم وغزوهم، ولعل الهزيمة التي لحقت بالمسلمين في غزوة (مؤتة) كانت مؤكدة على ما ترسخ في ذهن العربي في جاهليته من أن الروم قوة لا تقهر، فكان لا بدّ من هذا النفير العام لإزاحة هذه الهزيمة النفسية من نفوس العرب.

٢ ـ إظهار قوة الدولة الإسلامية كقوة وحيدة في المنطقة قادرة على تحدي القوى العظمى عالمياً ـ حينذاك ـ ليس بدافع عصبي أو عرقي، أو تحقيق أطماع زعامات معاصرة، وإنما بدافع تحريري حيث تدعو الإنسانية إلى تحرير نفسها من عبودية العباد إلى عبودية رب العباد، ولقد حققت هذه الغزوة الغرض المرجو منها بالرغم من عدم الاشتباك الحربي مع الروم الذين آثروا الفرار شمالاً فحققوا انتصاراً للمسلمين دون قتال، حيث أخلوا مواقعهم للدولة الإسلامية، وترتب على ذلك خضوع النصرانية التي كانت تمت بصلة الولاء لدولة الروم مثل إمارة دومة الجندل، وإمارة أيلة (مدينة العقبة حالياً على خليج العقبة) وكتب رسول الله ﷺ بينه وبينهم كتاباً يحدد ما لهم وما عليهم، [(٢)] وأصبحت القبائل العربية الشامية الأخرى التي لم تخضع للسيطرة الإسلامية في تبوك تتعرض بشدة للتأثير الإسلامي، وبدأ الكثير من هذه القبائل يراجع موقفه ويقارن بين جدوى الاستمرار في الولاء للدولة البيزنطية أو تحويل هذا الولاء إلى الدولة الإسلامية الناشئة، ويعد ما حدث في تبوك نقطة البداية العملية للفتح الإسلامي لبلاد الشام [(٣)]، وإن كانت هناك محاولات قبلها ولكنها لم تكن في قوة التأثير كغزوة تبوك، فقد كانت هذه الغزوة بمثابة المؤشر لبداية عمليات متواصلة لفتح البلدان والتي واصلها خلفاء رسول الله ﷺ من بعده، ومما يؤكد هذا أن الرسول ﷺ قبل موته جهّز جيشاً بقيادة

---

(١) انظر: الرسول القائد (ص ٢٨١، ٢٨٢).

(٢) انظر: دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة للشجاع (ص ٢٠٩).

(٣) انظر: المسلمون والروم في عصر النبوة، عبد الرحمن أحمد (ص ١٠٢).

أسامة بن زيد بن حارثة ليكون رأس حربة موجَّهاً صوب الروم، وطليعة لجيش الفتح، ضم هذا الجيش جُلَّ صحابة رسول الله، ولكنه لم يقم بمهمته إلا بعد وفاته ﷺ، ومع هذا فقد حقق الهدف المطلوب منه كما سيأتي [(١)] بإذن الله عند الحديث في سيرة الصديق رضي الله عنه.

لقد وضع رسول الله ﷺ الأسس الأولى والخطوات المثلى لفتح بلاد الشام والفتوحات الإسلامية.

٣ ـ توحيد الجزيرة العربية تحت حكم الرسول:.

تأثر موقف القبائل العربية من الرسول ﷺ والدعوة الإسلامية بمؤثرات متداخلة كفتح مكة، وخيبر وغزوة تبوك، فبادر كل قوم بإسلامهم بعدما امتد سلطان المسلمين إلى خطوط التماس مع الروم ثم مصالحة نجران في الأطراف الجنوبية على أن يدفعوا الجزية، فلم يعد أمام القبائل العربية إلا المبادرة الشاملة إلى اعتناق الإسلام والالتحاق بركب النبوة بالسمع والطاعة، ونظراً لكثرة وفود القبائل العربية التي قدمت إلى المدينة من أنحاء الجزيرة العربية بعد عودة النبي ﷺ من غزوة تبوك لتعلن إسلامها هي ومن وراءها فقد سُمِّي العام التاسع للهجرة في المصادر الإسلامية بعام الوفود [(٢)].

وبهذه الغزوة المباركة ينتهي الحديث عن غزوات النبي ﷺ التي قادها بنفسه، فقد كانت حياته المباركة غنية بالدروس والعِبَر التي تتربى عليها أمته في أجيالها المقبلة [(٣)] ومليئة بالدروس والعِبَر في تربية الأمة وإقامة الدولة التي تحكم بشرع الله.

* * *

المبحث السادس

أهم الأحداث ما بين غزوة تبوك وحجة الوداع

أولاً: وفد ثقيف وإسلامهم:

لما انصرف الرسول ﷺ عن الطائف اتبع أثره عروة بن مسعود الثقفي حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة فأسلم، ورجع إلى قومه، فدعاهم إلى الإسلام، فرموه بالنبل، فأصابه سهم فقتله ثم إنهم رأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب الذين أسلموا، فأجمعوا على أن يرسلوا رجالاً إلى رسول الله ﷺ، فقدم عليه ستة منهم في رمضان بعد رجوعه من تبوك سنة تسع [(٤)].

---

(١) انظر: دراسات في عهد النبوة، للشجاع (ص ٢٠٩).

(٢) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٩٥، ٣٩٦).

(٣) انظر: محمد رسول الله، الصادق عرجون (٤/ ٤٦٠).

(٤) انظر: رسالة الأنبياء، عمر أحمد عمر (ص ١٩٩).

وكان الوفد يتكون من ستة من كبار بني مالك والأحلاف، ثلاثة لكل منهما وعلى رأسهم جميعاً عبد ياليل بن عمرو [١]، وتكوين هذا الوفد على هذا النحو يدل على فكر سياسي عميق؛ ذلك لأن ثقيف تأمل في أن يتدخل المهاجرون من بني أمية للتوسط في إقرار الصلح مع الرسول ﷺ بسبب علاقة بني أمية التاريخية بالأحلاف [٢].

كان الصحابة يعرفون اهتمام الرسول ﷺ بإسلام ثقيف، ولذلك ما أن ظهر وفد ثقيف قرب المدينة، حتى تنافس كل من أبي بكر والمغيرة على أن يكون هو البشير بقدوم الوفد للرسول ﷺ، وتنازل المغيرة لأبي بكر [٣].

واستقبل الرسول الوفد راضياً وبنى لهم خياماً لكي يسمعوا القرآن ويروا الناس إذا صلوا، وكانت ضيافتهم على رسول الله ﷺ، وكانوا يفدون على رسول الله ﷺ كل يوم، ويخلفون عثمان بن أبي العاص على رحالهم، فكان عثمان، كلما رجعوا وقالوا بالهاجرة، عمد إلى رسول الله ﷺ فسأله عن الدِّين واستقرأه القرآن، حتى فقه في الدين وعلم، وكان إذا وجد رسول الله ﷺ نائماً عمد إلى أبي بكر، وكان يكتم ذلك من أصحابه، فأعجب ذلك رسول الله ﷺ وعجب منه وأحبه [٤].

فمكث الوفد أياماً يختلفون إلى النبي ﷺ، والنبي ﷺ يدعوهم إلى الإسلام، فقال له عبد ياليل: هل أنت مقاضينا حتى نرجع إلى أهلنا وقومنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم إن أنتم أقررتم بالإسلام قاضيتكم وإلا فلا قضيَّة ولا صلح بيني وبينكم».

قال عبد ياليل: أرأيت الزنى؟ فإنا قوم عُزَّاب بغَرْب [٥]، لا بد لنا منه، ولا يصبر أحدنا على العُزْبة، قال: «هو مما حرّم الله على المسلمين» يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] .

قال: أرأيت الربا؟ قال: «الربا حرام!» قال: فإن أموالنا كلها ربا قال: «لكم رؤوس أموالكم»، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٨] .

قال: أفرأيت الخمر؟ فإنها عصيرُ أعنابنا، لا بد لنا منها.

قال: «فإنّ الله قد حرمها!» ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٩٣).
(٢) انظر: رجال الإدارة في الدولة الإسلامية د. حسين محمد (ص ٧٦).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٩٣).
(٤) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي، المغازي (ص ٦٧٠).
(٥) أي نذهب إلى بلاد بعيدة.

وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠] .

فارتفع القوم، وخلا بعضهم ببعض، فقال عبد ياليل: ويحكم! نرجع إلى قومنا بتحريم هذه الخصال الثلاث! والله، والله لا تصبر ثقيف عن الخمر أبداً، ولا عن الزنا أبداً.

قال سفيان بن عبد الله: أيها الرجل، إن يرد الله بها خيراً تصبر عنها! قد كان هؤلاء الذين معه على مثل هذا، فصبروا وتركوا ما كانوا عليه، مع أنا نخاف هذا الرجل، قد أوطأ الأرض غلبة ونحن في حصن في ناحية من الأرض والإسلام حولنا فاش. والله لو قام على حصننا شهراً لمتنا جوعاً، وما أرى إلا الإسلام، وأنا أخاف يوماً مثل يوم مكة.

وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله ﷺ حتى كتبوا الكتاب، كان خالد هو الذي كتبه، وكان رسول الله ﷺ يرسل إليهم الطعام، فلا يأكلون منه شيئاً حتى يأكل منه رسول الله ﷺ حتى أسلموا.

قالوا: أرأيت الرَّبَّة، ما ترى فيها؟ قال: «هدمها».

قالوا: هيهات! لو تعلم الرَّبَّة أنا أوضعنا هدمها (١) قتلت أهلنا. قال عمر بن الخطاب ﷺ: ويحك يا عبد ياليل! إن الرَّبَّة حجر لا يدري من عبده ممن لا يعبده. قال عبد ياليل: إنا لم نأتك يا عمر. فأسلموا، وكمل الصلح، وكتب ذلك الكتاب خالد بن سعيد، فلما كمُل الصُلح كلَّموا النبي ﷺ يدع الرَّبَّة ثلاث سنين لا يهدمها، فأبى قالوا سنتين! فأبى. قالوا: سنة! فأبى. قالوا: شهراً واحداً! فأبى أن يوقِّت لهم وقتاً وإنما يريدون بترك الرَّبَّة لما يخافون من سفهائهم والنساء والصبيان، وكرهوا أن يُروِّعوا قومهم بهدمها، فسألوا النبي ﷺ أن يعفيهم من هدمها (٢)، فوافق رسول الله ﷺ على طلبهم ذلك. وسألوا النبي ﷺ أن يعفيهم من الصلاة، فقال رسول الله ﷺ: «لا خير في دين لا صلاة فيه» (٣).

لقد طلب وفد ثقيف أن يعفيهم رسول الله ﷺ من بعض الفرائض، وأن يحلل لهم بعض المحرمات إلا أنهم فشلوا في طلباتهم وخضعوا للأمر الواقع (٤).

وقد أكرم رسول الله ﷺ وفادتهم وأحسن ضيافتهم في قدومهم وإقامتهم وعند سفرهم، وأمَّر ﷺ عثمان بن أبي العاص على الطائف، فقد كان أحرصهم على تعلم القرآن والتفقه في الدين، وكان أصغرهم سناً (٥). ولقد تأثر الوفد من معاملة النبي ﷺ ومن اختلاطهم بالمسلمين

---

(١) أي أسرعنا السير في السفر.
(٢) انظر: المغازي للواقدي (٣/ ٩٦٨).
(٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٨/ ٥٠)؛ المغازي للواقدي (٣/ ٩٦٨).
(٤) انظر: المجتمع المدني في عهد النبوة (ص ٢٢١ ـ ٢٢٣).
(٥) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥١٩).

حتى أنهم صاموا ما بقي عليهم من شهر ومكثوا في المدينة خمسة عشر يوماً ثم رجعوا إلى الطائف [١]، وبعد رجوعهم جهّز رسول الله ﷺ سرية بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه، ومشاركة المغيرة بن شعبة رضي الله عنه [٢]، وأبي سفيان بن حرب رضي الله عنه [٣] وبعثهم في أثر الوفد [٤].

وبينما نجحت مساعي الوفد في إقناع ثقيف بالدخول في الإسلام وأخبروهم بمصير اللات، وإذا بالسرية قد وصلت إلى الطائف ودخل المغيرة بن شعبة في بضعة عشر رجلاً، يهدمون الربة [٥]، وكان ذلك تحت حراسة مشددة من قومه بني معتب الذين قاموا دونه خشية أن يرمى أو يصاب كما أصيب عروة بن مسعود [٦]، وخرجت ثقيف عن بكرة أبيها؛ رجالها ونساؤها وصبيانها حتى الأبكار من خدورهن، وكانوا لقرب عهدهم بالشرك لا ترى عامة ثقيف أنها مهدومة ويظنون أنها ممتنعة [٧].

وكان المغيرة رجلاً فيه دعابة وظرف فقال لأصحابه: والله لأضحكنكم من ثقيف، فضرب بالفأس ثم سقط يركض، فارتج أهل الطائف بصيحة واحدة، وقالوا: أبعد الله المغيرة فقد قتلته الربة، وفرحوا حين رأوه ساقطاً [٨]. وقالوا مخاطبين أفراد السرية: من شاء منكم فليقترب وليجتهد على هدمها فوالله لا تستطاع أبداً، فوثب المغيرة بن شعبة، وقال: قبحكم الله يا معشر ثقيف إنما هي لكاع [٩] حجارة ومدر، فاقبلوا عافية الله واعبدوه [١٠].

أكمل المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ومن معه هدم الطاغية حتى سووها بالأرض، وكان سادنها واقفاً على أحر من الجمر ينتظر نقمة الرَّبَّة وغضبها على هؤلاء العصاة [١١]، فما أن وصلوا إلى أساسها حتى صاح قائلاً: سترون إذا انتهى أساسها يغضب الأساس غضباً يخسف بهم، [١٢] فلما سمع المغيرة رضي الله عنه بذلك السخف قال لقائد السرية: دعني أحفر أساسها، فحفره حتى أخرجوا ترابها وانتزعوا حليتها، وأخذوا ثيابها، فبهتت ثقيف [١٣]. وأدركت الواقع الذي كانت تحجبه غشاوة على أعينهم [١٤].

وأقبل الوفد حتى دخلوا على رسول الله ﷺ بحليتها وكسوتها، فقسمه رسول الله ﷺ من يومه، وحمدوا الله على نصرة نبيه وإعزازه دينه [١٥].

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة، (٢/ ٥١٩، ٥٢٠).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٩٥).
(٣) المصدر نفسه، (٤/ ١٩٥).
(٤) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٥/ ٣٠٣، ٣٠٤).
(٥) المغازي (٣/ ٦٧١).
(٦) انظر: دلائل النبوة (٥/ ٣٠٤).
(٧) انظر: السرايا والبعوث (ص ٣٠٠).
(٨) المصدر نفسه، (ص ٣٠٠).
(٩) لكاع عند العرب: العبد ثم استعمل في الحمق والذم.
(١٠) دلائل النبوة (٥/ ٣٠٣).
(١١) انظر: السرايا والبعوث (ص ٣٠٠).
(١٢) انظر: المغازي (٣/ ٩٧٢).
(١٣) انظر: دلائل النبوة (٥/ ٣٠٣).
(١٤) انظر: السرايا والبعوث (ص ٣٠١).
(١٥) انظر: تاريخ ابن شيبة (٢/ ٥٠٧) نقلاً عن السرايا والبعوث (ص ٣٠١).

وتمّ القضاء على ثاني أكبر طواغيت الشرك في الجزيرة العربية، وحل محلها بيت من بيوت الله ﷻ، يوحّد فيه الربُّ الذي لا إله إلا هو، وذلك بتوجيه كريم من رسول الله ﷺ إلى عثمان بن أبي العاص ﵁ (١) عامله على الطائف حيث أمره «بأن يجعل مسجد الطائف حيث كان طاغيتهم» (٢).

ثانياً: وفاة زعيم المنافقين (عبد الله ابن سلول):

مرض عبد الله بن أبي ابن سلول، رأس المنافقين، في ليال بقين من شوال ومات في ذي القعدة من السنة التاسعة (٣).

قال أسامة بن زيد: دخلت مع رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبي في مرضه نعوده، فقال له النبي ﷺ: «قد كنت أنهاك عن حب يهود»، فقال عبد الله: فقد أبغضهم سعد بن زرارة فمات (٤).

ولمَّا توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفّن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر، فأخذ بثوب رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، تصلي عليه، وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنما خيّرني فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠] . وسأزيده على سبعين»، قال: إنه منافق، قال: فصلّى عليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله ﷻ آية: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤] (٥).

وإنما صلى عليه رسول الله ﷺ إجراء له على حكم الظاهر وهو الإسلام، ولما فيه من إكرام ولده عبد الله ـ وكان من خيار الصحابة وفضلائهم ـ وهو الذي عرض على النبي ﷺ أن يقتل أباه لما قال مقالته يوم غزوة بني المصطلق كما بينا، ولما فيه من مصلحة شرعية، وهو تأليف قلوب قومه وتابعيه، فقد كان يدين له بالولاء فئة كبيرة من المنافقين، فعسى أن يتأثروا ويرجعوا عن نفاقهم ويعتبروا ويخلصوا لله ولرسوله، ولو لم يجب ابنه وترك الصلاة عليه قبل ورود النهي الصريح لكان سببه وعاراً على ابنه وقومه، فالرسول الكريم اتبع أحسن الأمرين في السياسة إلى أن نُهي فانتهى (٦).

---

(١) انظر: السرايا والبعوث (ص ٣٠١).
(٢) انظر: دلائل النبوة (٥/ ٢٩٩ ـ ٣٠٣)؛ المغازي (٣/ ٩٧٠ ـ ٩٧٢).
(٣) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي، المغازي، (ص ٦٥٩).
(٤) أبو داود، كتاب الجنائز، باب في العيادة رقم (٣٠٩٤).
(٥) البخاري، كتاب تفسير القرآن رقم (٤٦٧٠).
(٦) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٥٣٣، ٥٣٤).

وإما إعطاؤه ﷺ القميص فلأن الغنى به بخل بالكرم، وقد كان من خلق رسول الله ﷺ أن لا يرد طالب حاجة قط، على أنه كان مكافأة له على إعطائه العباس عم الرسول قميصه لما جيء به أسيراً يوم بدر، وكان من خلق رسول الله ﷺ وآل بيته رد الجميل بخير منه (١).

وبموت عبد الله ابن سلول تراجعت حركة النفاق في المدينة حتى أننا لم نجد لهم حضوراً بارزاً في العام العاشر للهجرة، ولم يبق إلا العدد غير المعروف إلا لصاحب سر رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان (٢)، وكان عمر فيما بعد لا يصلي على جنازة من جهل حاله حتى يصلي عليه حذيفة بن اليمان لأنه كان يعلم أعيان المنافقين، وقد أخبره رسول الله بهم (٣).

كان العام التاسع حاسماً لحركة النفاق في المجتمع الإسلامي، فقد وصل النظام الإسلامي إلى قوته، ومن ثم لا بدّ من تحديد إطار التعامل مع كل القوى بوضوح (٤)، ولهذا عبر الإمام ابن القيم عن خطة الإسلام أمام المنافقين، فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم، ويكل سرائرهم إلى الله، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة، وأمر أن يعرض عنهم ويغلظ عليهم، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم، ونهى أن يصلي عليهم، وأن يقوم على قبورهم، وأخبر إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم (٥).

وجاءت هذه الخطة وفق النصوص القرآنية التي احتوتها سورة التوبة (براءة) (الفاضحة) حيث يستغرق الحديث عن المنافقين أكثر من نصف السورة، فيفضح نواياهم وأعمالهم ووصف أحوالهم النفسية والقلبية، وموقفهم في غزوة تبوك وقبلها وفي أثنائها وما تلاها، وكشف حقيقة حيلهم ومعاذيرهم في التخلف عن الجهاد، وبث الضعف والفتنة والفرقة في الصفوف، وإيذاء رسول الله ﷺ بالقول والفعل (٦).

ومن أهم الأحكام التي برزت في هذه المرحلة ضد المنافقين:

١ ـ عدم الصلاة على من مات منهم، ودمغهم بالكفر:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: الآيتان ٨٤، ٨٥].

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٦٢١، ٦٢٢)؛ السيرة لأبي شهبة (٢٨٥٣٤).
(٢) انظر: دراسات في عهد النبوة للشجاع (ص ٢٢١).
(٣) انظر: معين السيرة النبوية (ص ٤٦٤).
(٤) انظر: دراسات في عهد النبوة (ص ٢١٩).
(٥) زاد المعاد (٢/ ٩١).
(٦) انظر: المنافقون، محمد جميل غازي (ص ٩٢، ٩٣).

٢ ـ تهديم مسجدهم الذي بنوه للإضرار بين المسلمين، وهو مسجد الضرار وقد تحدثت عنه فيما مضى بنوع من التفصيل.

٣ ـ إصدار الأمر بمجاهدة المنافقين كمجاهدة الكافرين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]، وسواء أكان الجهاد بالقتال أم في المعاملة والمواجهة والكشف والفضح، فإن طريقة التعامل مع المنافقين بعد سورة براءة، غير المعاملة قبلها.

٤ ـ الكشف عن صفاتهم وأعمالهم بوضوح كما جاء في سورة التوبة أيضاً فهم الذين قالوا تثبيطاً للمسلمين: ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١]، وهم الذين يلمزون المطوعين في الصدقات ويؤذون رسول الله ﷺ في القول والفعل [(١)]... إلخ... هذه معالم المنهج النبوي في التعامل مع حركة النفاق في المجتمع الإسلامي في العام التاسع الهجري.

ثالثاً: تخيير النبي ﷺ لزوجاته (دروس في بيوتات الرسول ﷺ):

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب: الآيتان ٢٨، ٢٩].

وقد دلّت الأحاديث الصحيحة على أن نزول هاتين الآيتين كان بعد اعتزال النبي ﷺ لنسائه، بعد أن أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً، فاعتزلهن في مشربة له، وهي القصة المعروفة بقصة إيلائه [(٢)] من نسائه، وكان تاريخ نزول هذه الآيات في العام التاسع للهجرة [(٣)].

وأما سبب نزولها هو طلب زوجاته ﷺ التوسعة عليهن في النفقة، فقد أخرج مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ، فوجد الناس جلوساً ببابه لم يؤذن لأحد منهم، قال: فأذن لأبي بكر فدخل، ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له، فوجد النبي ﷺ جالساً حوله نساؤه واجما [(٤)] ساكتاً، قال: فقال: لأقولن شيئاً أضحك النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله: لو رأيت بنت خارجة [(٥)] سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها [(٦)]، فضحك رسول الله ﷺ

---

(١) انظر: دراسات في عهد النبوة للشجاع (ص ٢٢٠).
(٢) الإيلاء: الحلف، قضايا نساء النبي والمؤمنات (ص ٥١).
(٣) انظر: قضايا نساء النبي والمؤمنات، (ص ٦٨).
(٤) واجماً: هو الذي اشتد حزنه حتى أمسك عن الكلام.
(٥) بنت زيد امرأة عمر جميلة بنت ثابت نسبها عمر إلى أحد أجدادها.
(٦) فوجأت عنقها: بمعنى طعنت عنقها.

وقال: «هنّ حولي كما ترى يسألنني النفقة». فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، فقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها، كلاهما يقول: أتسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده، فقلن: والله! لا نسأل رسول الله شيئاً أبداً ليس عنده، ثم اعتزلهن شهراً أو تسعاً وعشرين، ثم نزلت عليه هذه الآية [١].

كانت الحياة المعيشية في بيوت رسول الله ﷺ تجري على وتيرة واحدة، بالرغم من إمكانية التوسع في بعض الأحيان، ونساء الرسول ﷺ من البشر، يرغبن بما يرغب به الناس، ويشتهين ما يشتهيه الناس [٢]، فقد كانت مساكنهن متواضعة بسيطة غاية البساطة، فقد وصفها الدكتور أبو شهبة فقال: إن الرسول ﷺ بنى حجراً حول مسجده الشريف لتكون مساكن له ولأهله ولم تكن الحجر كبيوت الملوك والأكاسرة والقياصرة، بل كانت بيوت من ترفَّع عن الدنيا وزخرفها، وابتغى الدار الآخرة، فقد كانت كمسجده مبنية من اللبن والطين وبعض الحجارة، وسقوفها من جذوع النخل والجريد، قريبة الفناء، قصيرة البناء، ينالها الغلام الفارع بيده. قال الحسن البصري ـ وكان غلاماً مع أمه خيرة مولاة أم سلمة ـ: قد كنت أنال أطول سقف في حجر النبي ﷺ بيدي، وكان لكل حجرة بابان: خارجي وداخلي من المسجد، ليسهل دخول النبي ﷺ إليه [٣].

وأما الإضاءة: فلم يكن هناك مصباح يستضاء به، يدل على ذلك ما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أنام بين يدي رسول الله ﷺ ورجلاي في قبلته، فإذا سجد غمزني فقبضت رجليّ،فإذا قام بسطتهما، قالت: والبيوت يومئذٍ ليس فيها مصابيح [٤].

أما الفراش، الذي يأوي إليه النبي عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، فهو عبارة عن رمال حصير، ليس بينه وبينه فراش، قد أثر الرمال بجنبه، متكىء على وسادة من أدم حشوها ليف [٥]، فقد كانت معيشته ﷺ تدل على الشدة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ما أعلم النبي ﷺ رأى رغيفاً مرققاً [٦] حتى لحق بالله، ولا أرى شاة سميطاً [٧] بعينه قط [٨]، وعن عائشة قالت: إن كنا لننظر إلى الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقدت في أبيات

(١) مسلم في الطلاق (٢/ ١١٠٤).
(٢) انظر: معين السيرة (ص ٤٦٥).
(٣) انظر: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة (٢/ ٣٥، ٣٦).
(٤) البخاري، كتاب الصلاة رقم (٥١٣).
(٥) البخاري، كتاب المظالم والغضب، (ك ٢٤٦٨).
(٦) مرققاً: رقيقاً ضد الغليظ.
(٧) سميط: الذي أزيل شعره بالماء المسخن وشوى.
(٨) البخاري في الرقائق رقم (٦٤٥٧).

رسول الله ﷺ نار، فقال لها عروة بن الزبير: ما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء [(١)]، هذا وقد فتح الله على المسلمين بعد خيبر وفتح مكة، وغزوة تبوك وقد قرأت زوجات النبي ﷺ آيات في كتاب الله تبيح التمتع بنعم الله دون إسراف، فرغبن أن ينالهن حظ من ذلك كما قوله تعالى: ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وحض على أكل الطيبات من الرزق قال سبحانه: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

ودعا إلى التوسط في الإنفاق والاعتدال فيه فقال تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]. إلا أن هناك جانباً آخر يتعلق به ﷺ ونمط من المعيشة اختاره بتوجيه من ربه ﷻ، فلم يلتفت لشيء من هذا، كما أدّبه ربّه ﷺ بقوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]. وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]. ولذلك جاءت آيات التخيير، فوقف زوجاته ﷺ من قضية التخيير موقفاً حاسماً لا تردد فيه، فإنهن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، فقد كن يطلبن منه ﷺ التوسعة في النفقة، وكن يدافعن عن ذلك ما استطعن، فلما وصل الأمر إلى وضعهن أمام خيارين: الحياة الدنيا وزينتها، أو الله ورسوله والدار الآخرة لم يترددن لحظة واحدة في سلوك الخيار الثاني، بل قلن جميعهن بصوت واحد: نريد الله ورسوله والدار الآخرة [(٢)].

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما أمر رسول الله ﷺ بتخيير أزواجه بدأ بي فقال: إني ذاكر لك أمراً فلا عليك أن تعجلي حتى تستأمري أبويك، قالت: وقد علم أن أبويَّ لم يكونا يأمراني بفراقه، قالت: ثم قال: «إن الله جلّ ثناؤه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾» [الأحزاب: ٢٨، ٢٩]. قالت: فقلت: ففي أيّ هذا أستأمر أبويَّ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، قالت: ثم فعل أزواج رسول الله ﷺ مثل ما فعلت [(٣)].

وهكذا تتجلى في موقفهن - رضي الله عنهنّ - صورة ناصعة لقوة الإيمان، واختبار حقيقي للإخلاص والصدق مع الله تعالى، فإن قوله تعالى في الآية الأولى من آيتي التخيير: ﴿إِن كُنتُنَّ

---

(١) البخاري في الرقائق رقم (٦٤٥٩).

(٢) انظر: قضايا نساء النبي ﷺ والمؤمنات في سورة الأحزاب (ص ٧٧).

(٣) البخاري، كتاب التفسير رقم (٤٧٨٦).

تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ﴾، كالوعد بحصولهن على مبتغاهن في الحياة الدنيا وزينتها إن اخترن ذلك ولكنهن رفضن هذا، واخترن الله ورسوله والدار الآخرة، وفي قوله تعالى في الآية الثانية: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، إشارة إلى أن ما يَنَلْنَه من الأجر سببه كونهم محسنات، ومن ذلك اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة، إذ لا يكفي لحصولهن على هذا الأجر كونهن زوجات للرسول ﷺ (١).

وتنكير الأجر ثم وصفه بأنه عظيم، فيه ترغيب لهن بالكف عن التطلع إلى الحياة الدنيا وزينتها، فهذا الأجر لا يقدر قدره إلا الله، وهو شامل لخيري الدنيا والآخرة (٢).

ولقد اعتبر الخلفاء الراشدون قصة التخيير تلك معلماً من معالم الإسلام ومنهجاً نبوياً كريماً ينبغي أن يسلكه بيت القيادة في الأمة. وإن النظرة الفاحصة في التاريخ لتبين أن هذا الجانب يعد معياراً دقيقاً به يعرف القرب من الاستقامة أو البعد عنها، وقد فهم قادة الأمة المؤمنون ـ حينما وجدوا ـ على امتداد تاريخ الإسلام، أهمية هذا الجانب فرعوه حق رعايته، وإن الأمثلة العملية من تاريخ الخلافة الراشدة هي من الوفرة والكثرة بمكان بحيث لا يتعب الباحث في التفتيش (٣) عنها.

إن قيادة الأمة تكليف ومغرم وليست مغنماً، ولا بدّ للذين يتولونها أن يحسبوا أهمية التعالي على حطام الدنيا، والشوق إلى الله والدار الآخرة (٤).

رابعاً: حج أبي بكر رضي الله عنه بالناس:

كانت تربية المجتمع وبناء الدولة في عصر النبي ﷺ مستمرة على كل الأصعدة والمجالات العقائدية والاقتصادية والاجتماعية، والسياسية والعسكرية والتعبدية، وكانت فريضة الحج لم تمارس في السنوات الماضية، فحجة عام ٨ هـ بعد الفتح كُلِّف بها عتّاب بن أسيد، ولم تكن قد تميَّزت حجة المسلمين عن حجة المشركين (٥)، فلما حل موسم الحج أراد ﷺ الحج ولكنه قال: «إنه يحضر البيت عراة مشركون يطوفون بالبيت، فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك» فأرسل ﷺ الصدِّيق أميراً على الحج سنة تسع (٦)، فخرج أبو بكر ومعه عدد كبير من الصحابة، وساقوا معهم الهدى (٧)، فلما خرج الصديق بركب الحجيج نزلت سورة براءة، فدعا النبي ﷺ علياً رضي الله عنه وأمره أن يلحق بأبي بكر الصديق، فخرج على ناقة رسول الله ﷺ العضباء حتى أدرك

---

(١) انظر: قضايا نساء النبي والمؤمنات في سورة الأحزاب (ص ٧٩).
(٢) انظر: تفسير السعدي (٤/ ١٤٨).
(٣) انظر: البداية والنهاية (٧/ ١٣٦).
(٤) انظر: معين السيرة (ص ٤٧٥).
(٥) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٥٣٦)؛ دراسات في عهد النبوة (ص ٢٢٢).
(٦) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٩٨)؛ الطبقات الكبرى (٢/ ١٦٨).
(٧) انظر: فتح الباري (٨/ ٨٢).

الصديق أبا بكر بذي الحليفة، فلمّا رآه الصديق قال له: أمير أم مأمور؟ فقال: بل مأمور، ثم سارا، فأقام أبو بكر للناس الحج على منازلهم التي كانوا عليها في الجاهلية، وكان الحج في هذا العام في ذي الحجّة كما دلّت على ذلك الروايات الصحيحة لا في شهر ذي القعدة كما قيل، وقد خطب الصديق قبل التروية، ويوم عرفة، ويوم النحر، ويوم النفر الأول، فكان يعرف الناس مناسكهم: في وقوفهم وإفاضتهم، ونحرهم، ونفرهم، ورميهم للجمرات.... إلخ وعليٌّ يخلفه في كل موقف من هذه المواقف، فيقرأ على الناس صدر سورة براءة ثم ينادي في الناس بهذه الأمور الأربعة: لا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فعهده إلى مدته، ولا يحج بعد العام مشرك [(١)].

وقد أمر الصدِّيق أبا هريرة في رهط آخر من الصحابة لمساعدة علي بن أبي طالب في إنجاز مهمته [(٢)].

إن نزول صدر سورة براءة يمثل مفاصلة نهائية مع الوثنية، وأتباعها، حيث منعت حجهم وأعلنت الحرب عليهم [(٣)].

قال تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ① فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ② وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ١ ـ ٣].

وقد أمهل المعاهدون لأجل معلوم منهم إلى انتهاء مدتهم فقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤].

كما أمهل من لا عهد له من المشركين إلى انسلاخ الأشهر الحرم، حيث يصبحون بعدها في حالة حرب مع المسلمين قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

وقد كلّف النبي ﷺ علياً بإعلان نقض العهود على مسامع المشركين في موسم الحج، مراعاة لما تعارف عليه العرب فيما بينهم في عقد العهود ونقضها. أن لا يتولى ذلك إلا سيد القبيلة أو رجل من رهطه، وهذا العرف ليس فيه منافاة للإسلام، فلذلك تدارك النبي ﷺ الأمر

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٦٢٥).

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٥٣٧).

(٣) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٩٩).

وأرسل علياً بذلك، فهذا هو السبب في تكليف عليّ بتبليغ صدر سورة براءة لا ما زعمته الرافضة من أن ذلك للإشارة إلى أن علياً أحق بالخلافة من أبي بكر، وقد علّق على ذلك الدكتور محمد أبو شهبة فقال: ولا أدري كيف غفلوا عن قول الصديق له: أمير أم مأمور [(١)]؟ وكيف يكون المأمور أحق بالخلافة من الأمير [(٢)].

وقد كانت هذه الحجة بمثابة التوطئة للحجة الكبرى وهي حجة الوداع [(٣)]، لقد أعلن في حجة أبي بكر أن عهد الأصنام قد انقضى، وأن مرحلة جديدة قد بدأت، وما على الناس إلا أن يستجيبوا لشرع الله تعالى، فبعد هذا الإعلان الذي انتشر بين قبائل العرب في الجزيرة، أيقنت تلك القبائل أن الأمر جد، وأن عهد الوثنية قد انقضى فعلاً فأخذت ترسل وفودها معلنة إسلامها ودخولها في التوحيد [(٤)].

خامساً: عام الوفود (٩ هـ):

لمَّا افتتح رسول الله ﷺ مكة، وفرغ من تبوك وأسلمت ثقيف وبايعت، وضرب رسول الله ﷺ أمد أربعة أشهر لقبائل العرب المشركين؛ لكي يقرروا مصيرهم بأنفسهم قبل أن تتخذ الدولة الإسلامية منهم موقفاً معيناً، ضربت إليه وفود العرب آباط الإبل من كل وجه معلنة إيمانها وولاءها [(٥)]، وقد اختلف العلماء في تاريخ مقدم الوفود على رسول الله ﷺ وفي عددها، حيث أشارت المصادر الحديثية والتاريخية إلى قدوم بعض الوفود إلى المدينة في تاريخ مبكر عن السنة التاسعة، ولعل ذلك ما أدى إلى الاختلاف في تحديد عدد الوفود بين ما يزيد عن ستين وفداً عند البعض، وليرتفع فيبلغ أكثر من مائة وفد عند آخرين، ولعل البعض قد اقتصر على ذكر المشهور منهم [(٦)]، فقد أورد محمد بن إسحاق أنه: لما فتح رسول الله ﷺ مكة المكرمة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه [(٧)].

وقد استقصى ابن سعد في جمع المعلومات عن الوفود، كما فصل كثيراً وقدم ترجمات وافية عن رجال الوفود، ومن كانت له صحبة منهم، وما ورد عن طريقهم من آثار، ولا تخلو أسانيد ابن سعد أحياناً من المطاعن، كما أن فيها أسانيد من الثقات أيضاً [(٨)]، ولا شك في أن الأخبار التي أوردها المؤرخون ليست ثابتة بالنقل الصحيح المعتمد وفق أساليب المحدثين، رغم أن عدداً كبيراً من المرويات عن تلك الوفود ثابتة وصحيحة [(٩)]، فقد أورد البخاري معلومات عن وفد قبيلة تميم وقدومه إلى النبي ﷺ ووفود أخرى مثل: عبد القيس وبني حنيفة، ووفد نجران،

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٦٢٤).
(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٥٤٠).
(٣) المصدر نفسه، (٢/ ٥٤٠).
(٤) انظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية (ص ٢٨٣).
(٥) المصدر نفسه، (ص ٢٨٤).
(٦) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٩٦).
(٧) انظر: البداية والنهاية (٥/ ٤٦، ٤٧).
(٨) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٩٧).
(٩) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥٤٢).

ووفد الأشعريين وأهل اليمن، ووفد دوس [١]، وتعززت أخبار هذه الوفود بمعلومات إضافية وردت في مصادر تاريخية إلى جانب ما ورد عنها في كتب السير والمغازي .[٢] وقد أورد مسلم أخباراً عن أغلب الوفود المذكورة آنفاً [٣] كما أوردت بقية الكتب الستة معلومات أوسع شملت عدداً كبيراً من الوفود [٤].

إن قصص الوفود وأخبارها وكيفية تعامل رسول الله ﷺ معها من الأهمية بالمكان الكبير [٥]. وتبقى مسألة الحاجة الماسة إلى نقد تاريخي لمتون الأخبار المفصلة التي وصلتنا عن الوفود، [٦] لقد تركت لنا تلك الأخبار والقصص منهجاً نبوياً كريماً في تعامله ﷺ مع الوفود يمكننا الاستفادة من هديه ﷺ في تعامله مع النفسية البشرية وتربيته ودقته وتنظيمه، ففيها ثروة هائلة من الفقه الذي يدخل في دوائر التعليم والتربية والتثقيف وبعد النظر وجمع القلوب على الغاية وربط أفراد بأعيانهم بالمركز، بحيث تبقى في كل الظروف والأحوال مرتكزات قوية إلى الإسلام، إلى غير ذلك من مظاهر العظمة للعاملين في كل الحقول نفسياً واجتماعياً واقتصادياً وإدارياً وسياسياً وعسكرياً، تعطى لكل عامل في جانب من هذه الجوانب دروساً تكفيه وتغنيه [٧]، هذا وقد تميّز العام التاسع بتوافد العرب إلى المدينة وقد استعدت الدول الإسلامية لاستقبالهم وتهيئة المناخ التربوي لهم، وقد تمثل هذا الاستقبال، بتهيئة مكان إقامة لهم وكانت هناك دار للضيافة [٨]، ينزل فيها الوافدون، وهناك مسجد رسول الله ﷺ الذي كان ساحة للاستقبال، ثم كان هناك تطوع أو تكليف رسول الله ﷺ لأحد الصحابة باستضافة بعض القادمين [٩]، واهتم ﷺ بتلك الوفود وحرص على تعليمها وتربيتها، وقد كانت تلك الوفود حريصة على فهم الإسلام وتعلم شرائعه وأحكامه وآدابه ونظمه في الحياة، وتطبيق ما تعلّموه تطبيقاً عملياً، جعلهم نماذج حياة لفضائله، وقد كان لكثير منهم سؤالات عن أشياء كانت شائعة بينهم ابتغاء معرفة حلالها وحرامها، وكان النبي ﷺ حريصاً أشد الحرص على تفقيههم في الدين، وبيان ما سألوه عنه، وكان ﷺ يدني منهم من يعلم منه زيادة حرص على القرآن العظيم وحفظ آياته تفقهاً فيه ويقول لأصحابه: «فقّهوا إخوانكم»، [١٠]، وكان ﷺ يسأل عمن يعرف من شرفائهم، فإذا رغبوا في

---

(١) البخاري، كتاب المغازي، رقم ٤٣٦٥، ٤٣٦٨، ٤٣٧٢، ٤٣٩٢.
(٢) انظر: البداية والنهاية (٥/ ٤٠ ـ ٩٨).
(٣) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٩٨).
(٤) المصدر نفسه، (١/ ٣٩٨).
(٥) انظر: السيرة النبوية الأساس في السنّة (٢/ ١٠١٤).
(٦) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥٤٤).
(٧) انظر: الأساس في السنّة (٢/ ١٠١٤).
(٨) انظر: المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدي، محمد شُرّاب (٢/ ٤٠٠).
(٩) انظر: دراسات في عهد النبوة للشجاع (ص ٢٢١).
(١٠) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٤/ ٥٢٠).

الرحيل إلى بلادهم أوصاهم بلزوم الحق، وحثَّهم على الاعتصام بالصبر، ثم يجزيهم بالجوائز الحسان، ويسوِّي بينهم، فإذا رجعوا إلى أقوامهم رجعوا هُداة دعاة، مشرقة قلوبهم بنور الإيمان، يعلمونهم مما عُلِّموا، ويحدثونهم بما سمعوا، ويذكرون لهم مكارم النبي وبرّه وبشره واستنارة وجهه سروراً بمقدمهم عليه، ويذكرون لهم ما شاهدوه من حال أصحابه في تآخيهم وتحاببهم ومواساة بعضهم بعضاً ليثيروا في أنفسهم الشوق إلى لقاء رسول الله ﷺ، ولقاء أصحابه، ويحببوا إليهم التأسي بهم في سلوكهم ومكارم أخلاقهم [١]، واختارت بعض الوفود البقاء على نصرانيتها كوفد نصارى نجران ووافقت على دفع الجزية، ونحاول أن نتحدث عن بعض الوفود لما في ذلك من الفقه والدروس والعِبَر، كوفد عبد قيس، وبني سعد بن بكر، ووفد نصارى نجران:

أ ـ وفد عبد قيس:

وقد تحدث ابن عباس رضي الله عنهما عن قدومهم قال:

إن وفد عبد القيس أتوا رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «من الوافد؟ أو من القوم؟» قالوا: ربيعة قال: «مرحباً بالقوم [٢]، أو بالوفد غير خزايا ولا ندامى» [٣].

قال: فقالوا: يا رسول الله: إنا نأتيك من شقة بعيدة [٤]، وإن بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، وإنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر حرام، فمرنا بأمر فصل [٥] نخبر به من وراءنا، ندخل به الجنة، قال: فأمرهم بأربع، ونهاهم عن أربع. قال: أمرهم بالإيمان بالله وحده، قال: «هل تدرون ما الإيمان بالله؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة وصوم رمضان، وأن تؤدوا خمساً من المغنم» ونهاهم عن الدباء [٦]، والحنتم [٧]، والمزفت [٨]، وربما قال النقير [٩]، أو المقير، وقال: «احفظوهن وأخبروا بهن من وراءكم» [١٠]، وفي رواية: أن الأشج بن عبد قيس تخلف في الركاب حتى أناخها، وجمع متاع القوم، ثم جاء يمشي حتى أخذ بيد رسول الله ﷺ فقبّلها،

---

(١) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون، (٤/ ٥٢١).

(٢) مرحباً بالقوم: صادفت رحباً وسعة.

(٣) غير خزايا ولا ندامى: معناه لم يكن منكم تأخر عن الإسلام ولا عناد.

(٤) شقة بعيدة: السفر البعيد، وقيل: المسافة البعيدة.

(٥) الأمر الفصل: اللين الواضح الذي ينفصل به المراد.

(٦) الدباء: القرع اليابس أي الوعاء فيه.

(٧) الحنتم: أصح الأقوال فيها: الجرار الخضر وهي جرار كانت يحمل فيها الخمر.

(٨) المزفت: الأوعية التي فيها الزفت.

(٩) النقير: جذع ينقر وسطه ثم ينبذ فيها الرطب والبسر.

(١٠) البخاري، كتاب الإيمان رقم (٥٣).

فقال له النبي ﷺ: «إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله»، فقال: جبل جبلت عليه أم تخلقاً مني؟ قال: «بل جبل»، قال: الحمد لله الذي جبلني على ما يحب الله ورسوله [١].

وقد انشغل رسول الله ﷺ بمقدمهم وأخر صلاة السنة البعدية بعد الظهر وصلاها بعد العصر [٢].

ب ـ وفد ضمامة بن ثعلبة عن قومه بني سعد بن بكر:

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم علقه، ثم قال لهم: أيكم محمد ـ والنبي ﷺ متكىء بين ظهرانيهم ـ فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكىء، فقال له الرجل: ابن عبد المطلب. فقال له النبي ﷺ: «قد أجبتك»، فقال الرجل للنبي ﷺ: إني أسألك فمشدد عليك في المسألة، فلا تجد [٣] عليَّ في نفسك فقال: «سل عما بدا لك».

فقال: أسألك بربك ورب من قبلك، آللّه أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: «اللهم نعم».

قال: أنشدك بالله، آللّه أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: «اللهم نعم».

قال: أنشدك بالله، آللّه أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: «اللهم نعم».

قال: أنشدك بالله، آللّه أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النبي ﷺ: «اللهم نعم».

فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائي من قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر [٤].

وفي رواية ابن عباس: .... حتى إذا فرغ قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ وسأؤدي هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتني عنه، ثم لا أزيد ولا أنقص.

قال: ثم انصرف راجعاً إلى بعيره، فقال رسول الله ﷺ حين ولى: «إن يصدق ذو العقيصتين [٥] يدخل الجنة»، قال: فأتى إلى بعيره، فأطلق عقاله ثم خرج حتى قدم على قومه فاجتمعوا إليه، فكان أول ما تكلم به أن قال: بئست اللات والعزى، قالوا: صه يا ضمام اتق

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٦٣١).

(٢) المصدر نفسه، (ص ٦٣٥).

(٣) تجد: تحقد وتحمل البغضاء.

(٤) البخاري، كتاب العلم رقم (٦٣).

(٥) لأنه فرق شعره فرقتين.

البرص والجذام، اتق الجنون، قال: ويلكم إنهما والله لا يضران ولا ينفعان، إن الله ﷻ قد بعث رسولاً، وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه. وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، إني قد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه، قال فوالله ما أمسى من ذلك اليوم وفي حاضرة رجل ولا امرأة إلا مسلماً، قال: يقول ابن عباس ﵄ : فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة (١).

وتدل قصة إسلامه على مدى انتشار تعاليم الإسلام في وسط القبائل العربية، حتى جاء ضمام لا ليسأل عنها، ولكن جاء ليستوثق منها، معدداً لها الواحدة تلو الأخرى، مما يدل على استيعابه لها قبل مجيئه إلى الرسول ﷺ (٢).

جـ ـ وفد نصارى نجران:

كتب رسول الله ﷺ إلى نجران (٣) كتاباً قال فيه: «أما بعد، فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتم فالجزية. فإن أبيتم آذنتكم بحرب. والسلام» (٤).

فلما أتى الأسقف الكتاب، جمع الناس وقرأه عليهم، وسألهم عن الرأي فيه؟ فقرروا أن يرسلوا إليه وفداً يتكوَّن من أربعة عشر من أشرافهم، وقيل ستين راكباً، منهم ثلاثة نفر يؤول إليهم أمرهم: العاقب، وهو أميرهم وصاحب مشورتهم والذين يصدرون عن رأيه، والسيد وهو صاحب رحلتهم، وأبو الحارث أسقفهم، وحبرهم وصاحب مدارسهم، فقدموا على النبي ﷺ فدخلوا المسجد عليهم ثياب الحِبرَة، وأردية مكفوفة بالحرير، وفي أيديهم خواتيم الذهب، فقاموا يصلُّون في المسجد نحو المشرق، فقال رسول الله ﷺ: «دعوهم»، ثم أتوا النبي ﷺ فأعرض عنهم، ولم يكلمهم، فقال لهم عثمان: من أجل زيِّكم هذا، فانصرفوا يومهم هذا، ثم غَدوا عليه بزي الرهبان فسلّموا عليه، فردّ عليهم ودعاهم إلى الإسلام، فأبوا وقالوا: كنا مسلمين قبلكم، فقال النبي ﷺ: «يمنعكم من الإسلام ثلاث:

عبادتكم الصليب، وأكلكم لحم الخنزير، وزعمكم أن للّه ولداً (٥)، وكثر الجدال والحجاج بينه وبينهم»، والنبي يتلو عليهم القرآن ويقرع باطلهم بالحجة. وكان مما قالوه لرسول الله ﷺ: مالك تشتم صاحبنا وتقول إنه عبد الله، فقال: «أجل، إنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراءالبتول»، فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنساناً قط من غير أب فإن

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٦٣٠) مسند أحمد (١/ ٢٦٤).
(٢) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٦٥٠).
(٣) نجران بلد كبير على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن.
(٤) انظر: البداية والنهاية (٥/ ٤٨).
(٥) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٥٤٧).

كنت صادقاً فأرنا مثله؟ فأنزل الله في الرد عليهم قوله سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: الآيتان ٥٩، ٦٠].

فكانت حجة دامغة شبه فيها الغريب بما هو أغرب منه [1]، فلما لم تُجد معهم المجادلة بالحكمة والموعظة الحسنة دعاهم إلى المباهلة [2]، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

وخرج النبي ﷺ ومعه علي، والحسن، والحسين، وفاطمة وقال: «وإذا أنا دعوت فأمِّنوا» [3] فائتمروا فيما بينهم، فخافوا الهلاك لعلمهم أنه نبي حقاً، وأنه ما باهل قوم نبياً إلا هلكوا، فأبوا أن يلاعنوه وقالوا: احكم علينا بما أحببت، فصالحهم على ألفي حلة، ألف في رجب، وألف في صفر [4]، ولما عزموا على الرجوع إلى بلادهم قالوا للنبي ﷺ: ابعث معنا رجلاً أميناً ليقبض منهم مال الصلح، فقال لهم: «لأبعثنَّ معكم رجلاً أميناً حق أمين»، فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجراح»، فلما قام قال: «هذا أمين هذه الأمة» [5].

سادساً: بعوث رسول الله لتعليم مبادىء الإسلام وترتيب أمور الإدارة والمال:

كانت الوفود تسعى إلى المدينة لتعلن إسلامها وتنضوي تحت سيادة الدولة الإسلامية، ويتعلموا ما شاء الله أن يتعلموه في المدينة قبل رجوعهم إلى موطنهم، وكان ﷺ يرسل معهم من يعلمهم دينهم، وشرع ﷺ يبعث دعاته في شتى الجهات واهتم بجنوب الجزيرة حيث قبائل اليمن لتعليمها مبادىء الإسلام وأحكامه، فقد انتشر أمر الإسلام في الجزيرة ومختلف أطرافها، وأصبحت الحاجة داعية إلى معلمين ودعاة ومرشدين يشرحون للناس حقائق الإسلام [6]، لكي تتطهر قلوبهم وتشفي صدورهم من أمراض الجاهلية وأدرانها الخبيثة، وامتنعت قبيلة الحارث بن كعب عن الدخول في الإسلام، فأرسل إليهم رسول الله ﷺ خالداً في سرية دعوية جهادية.

أ ـ بعث خالد إلى بني الحارث بن كعب (١٠ هـ):

كان بنو الحارث بن كعب يسكنون بنجران ولم يقبل منهم أحد الإسلام، فبعث

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٦٣٣)؛ السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٥٤٧).
(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٥٤٧).
(٣) المصدر نفسه، (ص ٢/ ٥٤٧).
(٤) المصدر السابق (٢/ ٥٤٧).
(٥) البخاري، كتاب فضائل الصحابة رقم (٣٧٤٥).
(٦) انظر: فقه السيرة للبوطي (ص ٣٢٢).

رسول الله ﷺ إليهم خالد بن الوليد في شهر ربيع الآخر أو جمادي سنة عشر، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً، فإن استجابوا قبل منهم، وإن لم يفعلوا قاتلهم، فخرج خالد حتى قدم عليهم فبعث الركبان في كل وجه يدعون إلى الإسلام، فأسلم الناس ودخلوا فيما دعوا إليه، فأقام فيهم خالد يعلمهم الإسلام وكتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ، كما أمره رسول الله ﷺ، ثم كتب خالد إلى رسول الله ﷺ يعلمه بإسلامهم وأنه مقيم فيهم حتى يكتب إليه رسول الله ﷺ، فجاءه كتاب رسول الله ﷺ يأمره بأن يقبل إلى المدينة ومعه وفد منهم ففعل، فلما قدموا أمَّر عليهم قيس بن الحصين، وبعث إليهم بعد ذلك عمرو بن حزم ليفقههم في الدين ويعلمهم السنّة، ومعالم الإسلام .(١) وفي رواية: أنه ﷺ أرسل علياً بدلاً من خالد وعندما وصل إلى قبائل همدان قرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ فأسلمت همدان جميعاً، فكتب عليٌّ إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم فلما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خرّ ساجداً، ثم رفع رأسه فقال: «السلام على همدان، السلام على همدان». كان رسول الله ﷺ حريصاً على الجبهة الجنوبية للدولة وأن تدخل قبائل اليمن في الإسلام، وظهر هذا الاهتمام في النتائج الباهرة التي حققتها الدعوة في كثرة عدد الوفود التي كانت تنساب من كل أطراف اليمن متجهة إلى المدينة، مما يدل على أن نشاط المبعوثين إلى اليمن كان متصلاً وبعيد المدى، وكانت سرايا رسول الله ﷺ تساند هذا النشاط الدعوي السلمي، حيث بعث خالد بن الوليد ثم علي بن أبي طالب رضي الله عنهما في هذا السياق (٢).

إن الوثائق التي عقدها النبي ﷺ مع قبائل اليمن وحضرموت قد بلغت عدداً كبيراً ضمّنها محمد حميد الله رحمه الله في كتابه (مجموعة الوثائق السياسية) (٣).

إن التركيز على مفاصل القوى، ومراكز التأثير في المجتمعات وبناء الدول منهج نبوي كريم حرص النبي ﷺ على ممارسته في حياته.

ب ـ بعث معاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري إلى اليمن رضي الله عنهما:

١ ـ بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل الأنصاري أعلم الصحابة في علم الحلال والحرام إلى اليمن قاضياً ومفقِّهاً، وأميراً، ومصدِّقاً (٤)، وجعله على أحد مخْلافيها (٥) وهو الأعلى. ولما خرج معاذ قاصداً اليمن خرج معه رسول الله ﷺ يودعه ويوصيه، ومعاذ راكب، ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته، فأوصاه بوصايا كثيرة ورسم له منهجاً دعوياً عظيماً

(١) انظر: السيرة لابن هشام(٤/ ٢٥٠).
(٢) انظر: الفقه السياسي للوثائق النبوية (ص ٢٣١).
(٣) انظر: الوثائق السياسية، حميد الله رقم (١١١ ص ٢٣٠).
(٤) المصدِّق: آخذ الزكاة.
(٥) المخلاف: الإقليم والكورة والرستاق.

حيث قال له: «إنك ستأتي قوماً من أهل الكتاب، فإذا جئتهم فادعُهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فإن هم طاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم طاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم طاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب [(١)]». وفي هذا الحديث إرشاد من النبي ﷺ للدعاة إلى الله بالتدرج والبدء بالأهم فالأهم، فالدعوة تكون بترسيخ الإيمان بالله تعالى ورسوله إيماناً يثبت في القلوب ويهيمن على الأفكار والسلوك، ثم تكون الدعوة بعد ذلك إلى تطبيق أركان الإسلام العملية التي ترسخ هذا الإيمان وتنميه، ثم يأتي بعد ذلك الأمر بالواجبات والنهي عن المحرمات، فيتقبل الناس تكاليف الإسلام التي قد تكون مخالفة لهوى النفس لأن قلوبهم قد عمرت بالإيمان واليقين قبل ذلك[(٢)].

وهذا منهج نبوي كريم رسمه ﷺ لمعاذ ولمن يريد أن يسير على هدى الصحابة الكرام، وما أحوج الذين نذروا أنفسهم للدعوة إلى الله إلى الوقوف أمام هذا الهدى النبوي يترسمون خطاه، ويستوعبونه فهماً ووعياً، وتطبيقاً، وحينئذٍ تكون خطاهم في الطريق الصحيح [(٣)] ولما فرغ رسول الله ﷺ من وصاياه لمعاذ قال له: «يا معاذ، إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري» [(٤)]. فبكى معاذ خَشَعاً لفراق الرسول ﷺ، وكذلك وقع الأمر كما أشار الرسول، فقد أقام معاذ باليمن ولم يقدم إلا بعد وفاة الرسول ﷺ [(٥)].

٢ - وبعث رسول الله ﷺ أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل إلى اليمن، وبعث كل واحد منهما على مخلاف، قال: «واليمن مخلافان»، ثم قال: «يسِّرا ولا تعسرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا» [(٦)].

وهذا منهج نبوي كريم أرشد إليه رسول الله معاذاً وأبا موسى بأن يأخذا بالتيسير على الناس ونهاهما عن التعسير عليهم، وأمرهما بالتبشير ونهاهما عن التنفير [(٧)].

جـ - ترتيب أمور الإدارة والمال:

إن النظام جزء من هذا الدين،وداخل في كل أموره، لأن النظام يجمع الأشتات، وتحقق به الأهداف والغايات، فالنظام سمة يتميّز بها الإسلام منذ اللحظة الأولى حيث يدخل في جميع جوانب الإسلام التصورية والشعائرية والتعبدية وفي الشرائع الحياتية كلها، فكان ﷺ يضع من

---

(١) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٣٤٧).
(٢) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ١٨٧).
(٣) انظر: معين السيرة (ص ٤٨٦).
(٤) انظر: صحيح السيرة (ص ٦٥٤).
(٥) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٥٥٩).
(٦) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٣٤٢).
(٧) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٨/ ١٨٦).

يدير المدينة في حالة غيبته عنها، وكلما فتح منطقة وضع عليها أميراً، وكانت الوفود تأتي إلى رسول الله ﷺ فيعين عليها أميراً من قبله، ثم يترك لهم من يعلمهم دينهم ويرسل إليهم من يجمع صدقاتهم (١)، وكان يختار عمّاله من الصالحين وأولي العلم والدين، ومن المنظور إليهم من العرب وذوي الشخصيات المؤثرة في قبائلهم، فقد كان عامله على مكة عتاب بن أسيد وعلى الطائف عثمان بن العاص، وبعث علياً وأبا موسى إلى اليمن، وأقر الرسول في بعض الحالات أمراء وملوك القبائل التي أسلمت أو قبلت الجزية ومنهم باذان بن ساسان ولد بهرام الذي أقرّه الرسول ﷺ على اليمن بعد إسلامه، ولما بلغه موته قسم عمله على جماعة من الصحابة، فولّى على صنعاء شمر بن باذان، وعلى مأرب أبا موسى الأشعري، وعلى الجند يعلى بن أمية، وعلى همذان عامر بن شمر الهمذاني، وعلى ما بين نجران وزمع وزبيد خالد بن سعيد بن العاص، وعلى نجران عمرو بن حزام، وعلى بلاد حضرموت زياد بن لبيد البياضي، وعلى السكاسك والسكون عكاشة بن ثور (٢)، وكان ﷺ يستوفي الحساب على العمال، يحاسبهم على المستخرج والمصروف، وحدّد ﷺ لبعض عماله رواتب، منهم عتاب بن أسيد والي مكة درهماً كل يوم (٣)، ولما استعمل عليه الصلاة والسلام قيس بن مالك على قومه همذان خصص له قطعة من الأرض يأخذ خراجها، وكانت رواتب عماله تتغير بتغير أحوال المعيشة فهي ليست ثابتة (٤)، قال رسول الله ﷺ: «من ولى لنا ولاية ولم يكن له بيت فليتخذ بيتاً أو لم تكن له زوجة فليتخذ زوجة، أو لم تكن له دابة فليتخذ دابة» (٥). وهذه هي الحاجات الرئيسية لولي الأمر في ذلك الوقت منعاً لأخذ الرشوة، وهذه قاعدة قانونية جاء بها الإسلام قبل أن تثبتها القوانين الوضعية الحديثة في بنودها وهي أن الهدية للحاكم رشوة صريحة (٦).

المبحث السابع

حجة الوداع (١٠ هـ)

الحج أحد الأركان الخمسة، وقد فرض في العام العاشر، وهذا ما ذهب إليه ابن القيم (٧) واستدل بأدلة قوية وهو اللائق بهديه ﷺ في عدم تأخير ما هو فرض، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ﴾ [آل عِمرَان: ٩٧] . وقد نزلت عام الوفود،

(١) انظر: دراسات في عهد النبوة للشجاع (ص ٢٢١).
(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر (٢/ ٥٩).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٥٣).
(٤) انظر: الدولة العربية الإسلامية، منصور الحرابي (ص ٤٤).
(٥) انظر: الدولة العربية الإسلامية (ص ٤٤) التراتيب الإدارية للكتاني (١/ ٢٢٧).
(٦) انظر: الدولة العربية الإسلامية (ص ٤٤).
(٧) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥٩٥).

أواخر سنة تسع [(١)].

لم يحج النبي ﷺ من المدينة غير حجته التي كانت في العام العاشر، وعرفت هذه الحجة بحجة البلاغ، وحجة الإسلام، وحجة الوداع، لأنه ﷺ ودّع الناس فيها ولم يحج بعدها، وحجة البلاغ، لأنه ﷺ بلغ الناس شرع الله في الحج قولاً وعملاً، ولم يكن بقي من دعائم الإسلام وقواعده شيء إلا وقد بيّنه، فلما بيّن لهم شريعة الحج ووضحه وشرحه أنزل الله عليه بعرفة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المَائدة: ٣] ولما نزلت هذه الآية بكى بعض الصحابة ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكأنهم فهموا منها الإشارة إلى قرب أجل الرسول ﷺ، ولما قيل لسيدنا عمر: ما يبكيك؟ قال: إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان [(٢)]، وكان عدد الذي مع رسول الله أكثر من مائة ألف [(٣)].

أولاً: كيف حج النبي ﷺ؟:

عزم رسول الله ﷺ على الحج، وأعلم الناس أنه حاج، فتجهزوا، وذلك في شهر ذي القعدة سنة عشر للخروج معه، وسمع بذلك من حول المدينة، فقدموا يريدون الحج مع الرسول ﷺ ووافاه في الطريق خلائق لا يحصون، فكانوا من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، مد البصر، وخرج من المدينة نهاراً بعد الظهر لخمس بقين من ذي القعدة يوم السبت، بعد أن صلّى الظهر بها أربعاً [(٤)].

وخطبهم قبل ذلك خطبة علّمهم فيها الإحرام وواجباته وسننه ثم سار وهو يلبّي، ويقول: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك» [(٥)] والناس معه يزيدون وينقصون، وهو يقرهم،ولا ينكر عليهم، ولزم تلبيته ثم مضى حتى نزل بـ (العرج) ثم سار حتى أتى (الأبواء) فوادي (عسفان) في (سرف) ثم نهض إلى أن نزل بـ (ذي طوى) فبات بها ليلة الأحد، لأربع خلون من ذي الحجة، وصلّى بها الصبح، ثم اغتسل من يومه، ونهض إلى مكة فدخلها نهاراً من أعلاها، ثم سار، حتى دخل المسجد، وذلك ضحى [(٦)]، فاستلم الركن [(٧)] فرمل ثلاثاً [(٨)]، ومشى أربعاً ثم نفذ إلى مقام إبراهيم [(٩)] عليه السلام

---

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٦٨٠)، زاد المعاد (٣/ ٥٩٥).
(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٥٧٥).
(٣) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ٣٨٦).
(٤) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٦٦٤)، السيرة النبوية للندوي، (ص ٣٨٦).
(٥) البخاري، كتاب الحج، باب التلبية (رقم ١٥٤٩).
(٦) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ٣٨٧).
(٧) مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ (رقم ١٢٢٧).
(٨) الرمل: إسراع المشي مع تقارب الخطا.
(٩) نفذ إلى مقام إبراهيم: أي بلغه ماضياً في زحام.

فقرأ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البَقَرَة: ١٢٥] . فجعل المقام بينه وبين البيت، وكان يقرأ في الركعتين قل هو الله أحد وقل يا أيها الكافرون، ثم رجع إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من الباب إلى الصفا، فلما دنا من الصفا قرأ: ﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: ١٥٨] وأبدأ بما بدأ الله به فبدأ بالصفا. فرقى عليه، حتى إذا رأى البيت فاستقبل القبلة فوحد الله وكبّره. وقال «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»، ثم دعا بين ذلك، قال مثل هذه ثلاث مرات، ثم نزل إلى المروة، حتى إذا انصبت (١) قدماه في بطن الوادي سعى، حتى إذا صعدتا (٢) مشى أتى المروة، ففعل على المروة كما فعل على الصفا، حتى إذا كان آخر طوافه على المروة فقال: «لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أَسُق الهدي، وجعلتها عمرة، فمن كان منكم ليس معه هدي فليحل، وليجعلها عمرة» (٣).

فقام سراقة بن مالك بن جعشم فقال: يا رسول الله! ألعامنا هذا أم لأبد؟ فشبَّك رسول الله ﷺ أصابعه واحدة في الأخرى. وقال: «دخلت العمرة في الحج» مرتين «لا بل لأبد أبد» (٤) وأقام بمكة أربعة أيام: يوم الأحد، والإثنين، والثلاثاء، والأربعاء. فلما كان يوم الخميس ضحى، توجّه رسول الله ﷺ بمن معه من المسلمين إلى منى ونزل بها، فصلى بها الظهر والعصر، والمغرب والعشاء والفجر ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس، وأمر بقبة من شعر تضرب له بنمرة (٥)، فسار رسول الله ﷺ ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام (٦)، كما كانت قريش تصنع في الجاهلية، فأجاز (٧) رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة، فوجد القبة ضربت له بنمرة: فنزل بها، حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء، فَرُحلت له، فأتى بطن الوادي (٨)، فخطب الناس وقال: «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضعاً في بني

---

(١) انصبت قدماه: انحدرت.

(٢) صعدتا: ارتفعت قدماه عن بطن الوادي.

(٣) مسلم،كتاب الحج، باب حجة النبي (رقم ١٢١٨).

(٤) مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي (رقم ١٢١٨)، صحيح السيرة النبوية (ص ٦٥٩).

(٥) نمرة: موضع بجنب عرفات وليست من عرفات.

(٦) المشعر الحرام: جبل بمزدلفة كانت قريش تقف عليه، ولا تقف مع العرب في عرفات، ولكن رسول الله ﷺ وقف في عرفات.

(٧) فأجاز: جاوز المزدلفة ولم يقف بها، وإنما توجه إلى عرفات.

(٨) بطن الوادي: وادي عرنة، وليست عرنة من أرض عرفات عند العلماء إلا مالكاً قال من عرفات.

سعد فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا، ربا العباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله، فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يُوطئن فرشكم أحداً تكرهونه (١)، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح (٢)، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله، وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها (٣)، إلى الناس: «اللهم اشهد، اللهم اشهد»، ثلاث مرات (٤)، ثم أذن ثم أقام فصلّى الظهر، ثم أقام فصلّى العصر، ولم يصلِّ بينهما شيئاً، ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات (٥) وجعل حبل المشاة بين يديه (٦)، واستقبل القبلة، فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس، وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص (٧)، وذكر أبو الحسن الندوي: لما فرغ رسول الله ﷺ من صلاته والتضرع والابتهال إلى غروب الشمس، وكان في دعائه رافعاً يديه إلى صدره، كاستطعام المسكين، يقول فيه: «اللهم إنك تسمع كلامي، وترى مكاني، وتعلم سري وعلانيتي، لا يخفى عليك شيء من أمري، أنا البائس الفقير، المستغيث المستجير، والوجل المشفق، المقر المعترف بذنوبي، أسألك مسألة المسكين وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، من خضعت لك رقبته وفاضت لك عيناه، وذل جسده، ورغم أنفه لك، اللهم لا تجعلني بدعائك رب شقيا، وكن بي رؤوفاً رحيما، يا خير المسؤولين، ويا خير المعطين» (٨).

وهنالك أنزلت عليه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المَائدة: ٣] . فلما غربت الشمس أفاض من عرفة، وأردف أسامة بن زيد خلفه، ودفع رسول الله ﷺ وقد شنق للقصواء زمام ناقته، حتى أن رأسها ليصيب طرف رحله، وهو يقول: «أيها الناس عليكم السكينة» (٩)، وكان يلبي في مسيره ذلك، لا يقطع التلبية حتى أتى المزدلفة، وأمر المؤذن بالأذان فأذن، ثم أقام، فصلى المغرب قبل حط الرحال وتبريك الجمال، فلما حطوا رحالهم، أمر فأقيمت

---

(١) أي لا يجوز للمرأة أن تدخل أحداً إلى بيت زوجها من قريب أو بعيد أو امرأة إلا من يرضى عنه زوجها.

(٢) الضرب المبرح: الشديد الشاق.

(٣) ينكتها: يقلبها ويردها إلى الناس مشيراً إليهم.

(٤) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٦٦١)، مسلم كتاب الحج، (رقم ١٢١٨).

(٥) الصخرات: صخرات في أسفل جبل الرحمة، وهو الجبل الذي بوسط أرض عرفات.

(٦) جبل المشاة: مجتمعهم. وقيل: جبل المشاة: ومعناه طريقهم حيث تسلك الرجالة.

(٧) حتى غاب قرص الشمس: حتى غابت الشمس وذهبت الصفرة.

(٨) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ٣٨٩).

(٩) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٦٦٢).

الصلاة ثم صلى العشاء، ثم نام حتى أصبح، فلما طلع الفجر صلاها في أول الوقت، ثم ركب حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، وأخذ في الدعاء والتضرع، والتكبير والتهليل والذكر، حتى أسفر جدا، وذلك قبل طلوع الشمس، ثم سار من مزدلفة، مردفاً للفضل بن عباس، وهو يلبي في مسيره، وأمر ابن عباس أن يلتقط له حصى الجمار سبع حصيات، فلما أتى بطن محسر، حرك ناقته، وأسرع السير [١]، فإن هنالك أصاب الفيل العذاب، حتى أتى منى، فأتى جمرة العقبة، فرماها راكباً بعد طلوع الشمس، وقطع التلبية [٢]، ثم رجع إلى منى، فخطب الناس خطبة بليغة، أعلمهم فيها بحرمة يوم النحر وتحريمه، وفضله عند الله، وحرمة مكة على جميع البلاد، وأمر بالسمع والطاعة لمن قادهم بكتاب الله، وأمر الناس بأخذ مناسكهم عنه، وأمر الناس ألا يرجعوا بعده كفاراً، يضرب بعضهم رقاب بعض وأمر بالتبليغ عنه [٣]، وقد جاء في هذه الخطبة: «أتدرون أي يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أن سيسميه بغير اسمه فقال: «أليس ذو الحجة؟» قلنا: بلى، قال: «أي بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليست بالبلدة الحرام؟» قلنا: بلى، قال: «فإن دماءكم وأموالكم ـ وفي رواية أعراضكم ـ عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا إلى يوم تلقون ربكم، ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم، قال: «اللهم اشهد فليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلَّغ أوعى من سامع، فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» [٤].

ثم انصرف إلى المنحر بمنى، فنحر ثلاثاً وستين بدنة بيده، وكان عدد هذا الذي نحره عدد سنين عمره، ثم أمسك وأمر علياً أن ينحر ما بقي من المائة، فلما أكمل ﷺ نحره استدعى الحلاق، فحلق رأسه، وقسم شعره بين من يليه، ثم أفاض إلى مكة راكباً، وطاف طواف الإفاضة [٥]، فصلى بمكة الظهر، فأتى بني عبد المطلب يسقون على زمزم، فقال: «انزعوا بني عبد المطلب، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم»، فناولوه دلواً فشرب منه [٦]، ثم رجع إلى منى من يومه ذلك، فبات بها، فلما أصبح انتظر زوال الشمس، فلما زالت مشى من رحله إلى الجمار، فبدأ بالجمرة الأولى ثم الوسطى، ثم الجمرة الثالثة، وهي جمرة العقبة، وخطب الناس بمنى خطبتين: خطبة يوم النحر، وخطبة ثانية في ثاني يوم النحر [٧]، وهو يوم النفر الأول، وهي تأكيد لبعض ما جاء في خطبتي عرفة، ويوم النحر بمنى، والواقع أن تكرار

---

(١) انظر: صحيح السيرة (ص ٦٦٢)، السيرة النبوية للندوي (ص ٣٨٩).
(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية للندوي (ص ٣٨٩).
(٣) انظر: صحيح السيرة النبوية للندوي (ص ٣٩٠).
(٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥٥٠)، السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٥٧٨).
(٥) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ٣٩٠).
(٦) مسلم، كتاب الحج (رقم ١٢١٨)، صحيح السيرة النبوية (ص ٦٦٣).
(٧) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ٣٩٠).

الخطب في حجة الوداع كان أمراً لا بدّ منه لحاجة المسلمين، فهي الحجة الوحيدة التي حجها الرسول ﷺ، وقد عزّ فيها الإسلام والمسلمون، وأصبحت كلمتهم هي النافذة في الجزيرة كلها، كما كانت الوداع الأخير، فما أشد حاجة المسلمين في هذا المشهد العظيم إلى التذكير والنصح والتوصية، وإلى تكرار القول والتأكيد عليه حتى يعوه ويحفظوه ولا ينسوه، وإلى تقريرهم بإبلاغ الرسالة وأداء الأمانة (١).

هذا وقد تأخر رسول الله ﷺ حتى أكمل رمي أيام التشريق الثلاثة، ثم نهض إلى مكة، فطاف للوداع ليلاً سحراً، وأمر الناس بالرحيل، وتوجه إلى المدينة (٢). وفي طريق العودة من حجة الوداع خطب الرسول ﷺ في غدير خُمّ قريباً من الجحفة في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة، وقد جاء في هذه الخطبة: «أما بعد، ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين، أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به»، فحثّ على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال: «وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي» (٣)، وفي رواية: .... أخذ بيد علي رضي الله عنه وقال: «من كنت وليه، فهذا وليه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه» (٤)، وفي رواية: «من كنت مولاه فعلي مولاه» (٥)، وكان علي قد أقبل من اليمن وشهد حجة الوداع (٦)، وقد اشتكى بعض الجند علياً وأنه اشتد في معاملتهم وكان قد استرجع منهم حللاً وزعها عليهم نائبه مكانه، فأوضح لهم النبي ﷺ في غدير ضم مكانة عليٍّ ونبّه على فضله لينتهوا عن الشكوى (٧)، فقد كان الحق مع علي في إرجاع ما أعطاهم نائبه في غيبته لأنها أموال صدقات وخمس (٨).

ولما أتى رسول الله ﷺ ذا الحليفة بات بها، فلما رأى المدينة كبّر ثلاث مرات، وقال: «لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيءٍ قدير، آيبون تائبون، عابدون، ساجدون، لربنا حامدون، صدق الله وعده، نصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»، ثم دخلها نهاراً (٩).

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٥٧٩)، المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٥١٥).
(٢) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ٣٩٠).
(٣) مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل علي بن أبي طالب (رقم ٢٠٤٨).
(٤) النسائي في خصائص علي، ص ٢١، صحيح السيرة النبوية (ص ٦٨٨).
(٥) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥٥٠).
(٦) انظر: البداية والنهاية (٥/ ٢٠٩).
(٧) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥٥١).
(٨) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٥٨١).
(٩) انظر: السيرة النبوية للندوي، ص ٣٩١ نقلاً عن زاد المعاد (١/ ٢٤٩).

ثانياً: الدروس والعِبَر والفوائد:

١ ـ مرحلة النضج التي وصلت إليها الأمة:

وصلت الأمة الإسلامية في السنة العاشرة مرحلة من النضج متقدمة وكان ذلك يقتضي لمسات أخيرة، فوسّع ﷺ في العام التاسع والعاشر من الهجرة دائرة التلقي المباشر من خلال استقباله الوفود ومن خلال رحلة الحج، فأوجد قاعدة عريضة تحمل دعوته وقد تلقت عنه مباشرة، وكان لذلك أكبر الأثر في أن تبقى رحى الإسلام دائرة إلى الأبد (١)، ففي حجة الوداع كانت اللمسات الأخيرة في تربية الأفراد والمجتمع على كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ.

٢ ـ تربية الأفراد على قطع الصلة بالجاهلية والابتعاد عن الذنوب:

أ ـ فقد أشار ﷺ إلى أهمية قطع المسلم علاقته بالجاهلية أوثانها، وثاراتها، ورباها، وغير ذلك، ولم يكن حديثه ﷺ مجرد توصية بل كان قراراً أعلن عنه للملأ كله لأولئك الذين كانوا من حوله، والأمم التي ستأتي من بعده وهذه هي صيغة القرار: «ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية، تحت قدمي موضوع»، دماء الجاهلية موضوعة.... وربا الجاهلية موضوع (٢)، لأن الحياة الجديدة التي يحياها المسلم بعد إسلامه حياة لا صلة لها برجس الماضي وأدرانه (٣).

ب ـ وقد حذّر ﷺ من الذنوب والخطايا والآثام، ما ظهر منها وما بطن، لأن الذنوب والخطايا تفعل بالفرد ما لا يفعله العدو بعدوه فهي سبب مصائبه في الدنيا: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠] فترديه في نار جهنم في الآخرة، وتفعل في المجتمعات ما لا يفعله السيف، وأعلن رسول الله ﷺ أنه لا يقصد بالخطايا العودة إلى عبادة الأصنام، لأن العقول التي تفتحت على التوحيد ترفض أن تعود إلى الشرك الظاهر، ولكن الشيطان لا ييأس من أن يجد طريقه إليها من ثغرات الخطايا والذنوب، حتى تردى صاحبها في المهاوي (٤).

٣ ـ تربية المجتمع على مبادىء أساسية:

أ ـ الأخوة في الله هي العروة الوثقى التي تربط بين جميع المسلمين ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرَات: ١٠] فقد قال ﷺ: «أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة فلا يحل لامرىءٍ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم». وقال: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم، كحرمة

---

(١) انظر: الأساس في السنة (٢/ ١٠٥٤).

(٢) انظر: فقه السيرة للبوطي (ص ٣٣١).

(٣) انظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية، محمد قلعجي (ص ٣٠٣).

(٤) انظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية (ص ٣٠٣).

يومكم هذا في بلدكم هذا حتى تلقوا ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض».

ب - الوقوف بجانب الضعيف حتى لا يكون هذا الضعف ثغرة في البناء الاجتماعي، فأوصى ﷺ في خطبته بالمرأة والرقيق على أنهما نموذجان عن الضعفاء [(١)]، فقد شدّد ﷺ في وصيته على الإحسان إلى الضعفاء [(٢)]، وأوصى خيراً بالنساء، وأكد في كلمة مختصرة جامعة القضاء على الظلم البائد للمرأة في الجاهلية، وتثبيت ضمانات حقوقها وكرامتها الإنسانية التي تضمنتها أحكام الشريعة الإسلامية [(٣)].

جـ - التعاون مع الدولة الإسلامية على تطبيق أحكام الإسلام، والالتزام بشرع الله، ولو كان الحاكم عبداً حبشياً، فإن في ذلك الصلاح والفلاح والنجاة في الدنيا والآخرة [(٤)]، فقد بيّن ﷺ العلاقة بين الحاكم والمحكوم بأنها تعتمد على السمع والطاعة ما دام الرئيس يحكم بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، فإذا مال عنهما فلا سمع ولا طاعة، فالحاكم أمين من قبل المسلمين على تنفيذ حكم الله تعالى [(٥)].

د - المساواة بين البشر: فقد قال ﷺ: «لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى، الناس من آدم وآدم من تراب»، حيث حدد أن أساس التفاضل لا عبرة فيه لجنس، ولا لون، ولا وطن، ولا قومية، .... وإنما أساس التفاضل قيمة خلقية راقية ترفع مكانة الإنسان إلى مقامات رفيعة جداً [(٦)].

هـ - تحديد مصدر التلقي: وقد حدّد ﷺ مصدر التلقي والطريقة المثلى لحل مشاكل المسلمين التي قد تعترض طريقهم في الرجوع إلى مصدرين لا ثالث لهما، ضمن لهم بعد الاعتصام بهما، الأمان من كل شقاء وضلال، وهما: كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وإنك لتجده يتقدم بهذا التعهد والضمان إلى جميع الأجيال المتعاقبة من بعده، ليبيّن للناس أن صلاحية التمسك بهذين الدليلين ليست وقفاً على عصر دون آخر، وأنه لا ينبغي أن يكون لأي تطور حضاري أو عرف زمني أي سلطان أو تغلب عليهما [(٧)].

---

(١) انظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية (ص ٣٠٤).
(٢) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين (ص ٥٧٥).
(٣) انظر: فقه السيرة للبوطي (ص ٣٣٢).
(٤) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين (ص ٥٧٦).
(٥) انظر: فقه السيرة للبوطي (ص ٣٣٣).
(٦) انظر الموسوعة في سماحة الإسلام، عرجون (٢/ ٨٧٦).
(٧) انظر: فقه السيرة للبوطي (ص ٣٣٣).

لقد وصف ﷺ الداء والدواء ووضع العلاج لكل المشكلات بالالتزام التام بما جاء من أحكام في كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله وسنتي». هذا هو العلاج الدائم، وقد كرّر ﷺ نداءه للبشرية عامة عبر الأزمنة والأمكنة بوجوب الاهتداء بالكتاب والسنّة في حل جميع المشكلات التي تواجه البشرية، فإن الاعتصام بهما يجنب الناس من الضلال، ويهديهم إلى التي هي أقوم في الحاضر والمستقبل. لقد اجتازت تعاليم رسول الله ﷺ وهديه حدود الجزيرة، واخترقت حواجز الزمن وأسوار القرون، وظل يتردد صداها حتى يوم الناس هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فلم يكن يخاطب سامعيه فيقول لهم: أيها المؤمنون، أيها المسلمون، أيها الحجاج بل كان يقول لهم «يا أيها الناس» وقد كرّر نداءه إلى الناس كافة مرات متعددة دون أن يخصصه بجنس أو بزمان أو مكان أو لون، فقد بعثه الله للناس كافة وأرسله رحمة للعالمين (١).

٤ ـ الأساليب التعليمية من خطب حجة الوداع:

أ ـ التعليم بمباشرة ما يراد تعليمه:

علّم رسول الله ﷺ صحابته الكرام مناسك الحج بصورة عملية، بأن قام بها وباشرها فعلاً، ولم يكتف بأن يعلمها لهم قولاً، ولذلك قال لهم: «خذوا عني مناسككم» (٢)، وعلى هذا فيستحسن من الدعاة وهم يعلّمون الناس معاني الإسلام أن يعلموهم هذه المعاني، والمطلوبات الشرعية، أو بعضها في الأقل بصورة عملية كالوضوء، والصلاة، وتعليم قراءة القرآن بصورة سليمة (٣).

ب ـ تكرار الخطب:

لاحظنا أن النبي ﷺ كرّر خطبه، فقد خطب في عرفة، وفي منى مرتين، كما كرّر معاني بعض هذه الخطب، فعلى الدعاة أن يقتدوا برسول الله ﷺ، فيكرروا خطبهم، ويكرروا بعض معانيها التي يرون حاجة لتكرارها، حتى يستوعبها السامعون ويحفظوها، لأن القصد من خطب الخطيب إفادة السامعين بما يقول، فإذا كانت الفائدة لا تحصل أو تتم إلا بتكرار الخطب من حيث عددها، أو بتكرارها من حيث تكرار معانيها، فليكررها الداعية، ولا يكون حرصه على أن يأتي بجديد في خطبة ما دام يرى الحاجة في ترسيخ معانٍ معينة في أذهان السامعين. إن الداعية همّه أن يفيد السامعين وليس همه أن يظهر براعته في الخطب، وفي تنوع معانيها دون نظر ولا اعتبار إلى ما يحتاجه السامعون، ودون اعتبار لفهمهم هذه المعاني واستيعابهم لها (٤).

---

(١) انظر: الجانب السياسي في حياة الرسول، (ص ١٣١)، أحمد محمد باشميل.
(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/٥٤٩)، مسلم (٢/٩٤٢ رقم ١٢٩٧).
(٣) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/٥١٨).
(٤) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/٥١٧، ٥١٨).

ج ـ فليبلغ الشاهد الغائب:

وفي هذا توجيه نبوي كريم لكي تعم الفائدة أكبر عدد ممكن من الناس، فهذا من باب التعاون على الخير، لأن الغائب قد يكون أوعى للعلم، وأكثر فهماً له من الحاضر الذي سمع، وعلى الدعاة والعلماء عندما يلقون درساً أو محاضرة لإخوانهم أو لعامة الناس، فمن المستحسن أن يقولوا للحاضرين: فليبلغ الحاضر منكم الغائب بما سمعه.

د ـ جلب انتباه الحاضر لما يقوله الخطيب:

ويستفاد من سؤال النبي ﷺ الحاضرين عن اسم اليوم الذي هم فيه، وكذا عن الشهر والبلد ـ وهم يعرفونها ـ مما يجلب انتباههم إلى ما قد عسى أن يريده بطرح هذه الأسئلة فيصغون إليه إصغاء تاماً، قال القرطبي: سؤال النبي ﷺ عن الثلاثة: أي عن اليوم والشهر والبلد، وسكوته بعد كل سؤال منها كان لاستحضار فهومهم، وليقبلوا عليه بكليتهم، وليستشعروا عظمة ما يخبرهم عنه.... فعلى العلماء والدعاة أن يقدموا بين يدي ما يقولونه ما يدعو إلى جلب انتباه السامعين ويشدهم إلى كلامهم [(١)].

٥ ـ بعض الأحكام الفقهية المستنبطة من حجة الوداع:

جاءت حجة الوداع حافلة بالأحكام الشرعية وخاصة ما يتعلق بالحج وبالوصايا والأحكام التي وردت في خطبة عرفات، لذلك اهتم العلماء بحجة الوداع اهتماماً كبيراً واستنبطوا منها الكثير من أحكام المناسك وغيرها، مما تحفل به كتب الفقه وكتب شروح الحديث وخصص بعضهم مؤلفات مستقلة في حجة الوداع [(٢)].

ونشير إلى بعض هذه الأحكام باختصار شديد، فمن هذه الأحكام:

أ ـ إفطار الحاج يوم عرفة:

قالت ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها زوج النبي ﷺ: إن الناس شكوا في صيام رسول الله ﷺ يوم عرفة، فأرسلت إليه بحلاب [(٣)]، وهو واقف في الموقف فشرب منه، والناس ينظرون [(٤)].

ب ـ كيف يفعل بمن تُوفي محرما؟

قال ابن عباس رضي الله عنهما: بينما رجل واقف مع رسول الله ﷺ بعرفة إذ وقع عن راحلته، فوقصته أو قال فأوقصته [(٥)]، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «اغسلوه بماء وسدر وكفّنوه في ثوبين،

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن، (٢/ ٥١٨).

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥٤٩)، ما ألفه الألباني «حجة النبي» وغيره.

(٣) الإناء الذي يحلب فيه.

(٤) البخاري، كتاب الصوم، باب صوم يوم عرفة وحديث (رقم ١٩٨٩).

(٥) فوقصته: قتلته في الحال.

ولا تحنطوه [١]، ولا تخمروا [٢] رأسه فإنه يبعث يوم القيامة ملبياً» [٣].

ج ـ هل يجوز الحج عن الغير؟

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان الفضل رديف رسول الله ﷺ، فجاءت امرأة من خشعم، فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه، وجعل النبي ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر، فقالت: يا رسول الله إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يثبت على الراحلة. أفأحج عنه؟ قال: «نعم». وذلك في حجة الوداع [٤].

د ـ منهج التيسير: لا حرج، لا حرج:

قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: إن رسول الله ﷺ وقف في حجة الوداع بمنى للناس يسألونه فجاءه رجل فقال: لم أشعر فحلقت قبل أن أذبح، فقال: «اذبح ولا حرج»، فجاء آخر فقال: لم أشعر فنحرت قبل أن أرمي قال: «ارم ولا حرج»، فما سُئل النبي ﷺ عن شيء قُدم ولا أُخر إلا قال: «افعل ولا حرج».

هذه بعض الأحكام المختصرة ومن أراد المزيد فليراجع ما كتبه الألباني عن حجة الوداع، فقد لخص الحجة في اثنتين وسبعين مسألة [٥]، وكتاب (الوصية النبوية للأمة الإسلامية) للدكتور فاروق حمادة فقد جمع من المصادر الأدبية والحديثية وكتب أهل السير ثمانية وثلاثين بنداً ثم قام بتحليلها وتخريجها وتوثيق نصوصها بميزان الجرح والتعديل الذي اعتمده أئمة المسلمين منذ الصدر الأول لأن الأمر دين وشرع كما قال، وقد أجاد وأفاد [٦].

٦ ـ فوائد في تسمية أيام الحج:

كان يقال لليوم السابع من ذي الحجة يوم الزينة، لأنه يزين فيه البُدن التي تهدى بالجلال وغيرها، واليوم الثامن يقال له: يوم التروية لأنهم كانوا يروون فيه إبلهم من الماء ويحملون منه ما يحتاجون إليه حال الوقوف وما بعده، لأن هذه الأماكن لم يكن فيها يومئذٍ آبار ولا عيون، أما الآن ففيها الماء الكثير والحمد لله، واليوم التاسع: يوم عرفة للوقوف فيه بها. واليوم العاشر: يوم النحر ويوم الأضحى ويوم الحج الأكبر، واليوم الحادي عشر: يوم القر لأنهم يقرون فيه، ويقال له: يوم الرؤوس لأنهم يأكلون فيه رؤوس الأضاحي، وهو أول يوم التشريق. وثاني أيام

---

(١) لا تحنطوه: لا تضعوا عليه من الطيب شيئاً.

(٢) لا تخمروا: لا تغطوا رأسه.

(٣) البخاري، كتاب الجنائز، باب الكفن في ثوبين (رقم ١٢٦٥). ملبياً: يحشر يوم القيامة على الهيئة التي مات عليها.

(٤) البخاري في الحج، باب وجوب الحج وفضله (رقم ١٥١٣).

(٥) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٦٨٣).

(٦) المصدر نفسه، (ص ٦٨١).

التشريق يقال له: يوم النفر الأول لجواز الخروج فيه إلى مكة لمن يريد التعجيل، وثالث أيام التشريق يقال له: يوم النفر الثاني [(١)] قال عزّ شأنه: ﴿۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٣].

* * *

المبحث الثامن

مرض رسول الله ﷺ ووفاته

إن الأرواح الشفافة الصافية القوية لتدرك بعض ما يكون مخبوءاً وراء حجب الغيب بقدرة الله تعالى، والقلوب الطاهرة المطمئنة لتحدث صاحبها بما عسى أن يحدث له فيما يستقبل من الزمان، والعقول الذكية المستنيرة بنور الإيمان لتدرك ما وراء الألفاظ والأحداث من إشارات وتلميحات، ولنبينا محمد ﷺ من هذه الصفات الحظ الأوفر، وهو منها بالمحل الأرفع الذي لا يُسامَى ولا يُطاوَل [(٢)].

وقد جاءت بعض الآيات القرآنية مؤكدة على حقيقة بشرية النبي ﷺ، وأنه كغيره من البشر سوف يذوق الموت ويعاني سكراته، كما ذاقه من قبل إخوانه من الأنبياء، ولقد فهم ﷺ من بعض الآيات اقتراب أجله، وقد أشار ﷺ في طائفة من الأحاديث الصحيحة إلى اقتراب وفاته، منها ما هو صريح الدلالة على الوفاة ومنها ما ليس كذلك، حيث لم يشعر ذلك منها إلا الآحاد من كبار الصحابة الأجلاء كأبي بكر والعباس ومعاذ ﷺ [(٣)].

أولاً: الآيات والأحاديث التي أشارت إلى وفاته ﷺ:

١ ـ الآيات:

أ ـ قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٤٤].

قال القرطبي: فأعلم الله تعالى في هذه الآية أن الرسل ليست بباقية في قومها أبداً، وأنه يجب التمسك بما أتت به الرسل، وإن فقد الرسل بموت أو قتل [(٤)].

ب ـ قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزُّمَر: ٣٠].

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/٥٧٩).
(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/٥٨٧).
(٣) انظر: مرض النبي ووفاته، خالد أبو صالح (ص ٣٣).
(٤) انظر: تفسير القرطبي (٤/٢٢٢).

قال ابن كثير: هذه الآية من الآيات التي استشهد بها الصديق رضي الله عنه عند موت الرسول ﷺ حتى تحقق الناس موته [١].

جـ ـ قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] . ثم أعقب ذلك ببيان أن الموت حتم لازم وقدر سابق فقال ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] . فهذه الآيات صريحة ونصت على وفاته ﷺ، وهناك بعض الآيات أشارت إلى ذلك وإن لم تصرح منها:

ـ قال تعالى: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: الآيتان ٤، ٥] .

ـ قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرَّحمٰن: ٢٦ ـ ٢٧] .

ـ قال تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القَصَص: ٨٨] . فهذه الآيات تبيّن أن جميع أهل الأرض ستمضي فيهم سنّة الله في موت خلقه، لن يتخلف منهم أحداً أبداً.

د ـ قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المَائدة: ٣] .

وقد بكى عمر بن الخطاب حين نزلت الآية فقيل: ما يبكيك؟ فقال: إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان!! وكأنه استشعر وفاة النبي ﷺ [٢].

هـ ـ قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: الآيات ١ ـ ٣] .

فقد سأل عمر رضي الله عنه ابن عباس عن هذه الآية: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ .

فقال: أجل رسول الله ﷺ أعلمه إياه، فقال: ما أعلم منها إلا ما تعلم [٣]، وفي رواية الطبراني قال ابن عباس: نعيت إلى رسول الله ﷺ نفسه حين نزلت فأخذ بأشد ما كان قط اجتهاداً في أمر الآخرة [٤].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/٥٣).
(٢) انظر: البداية والنهاية (٥/١٨٩).
(٣) البخاري، كتاب المغازي (رقم ٤٤٣٠).
(٤) مجمع الزوائد (٩/٢٦) رواه الطبراني في الكبير والأوسط وأحد أسانيده رجاله ثقات.

٢ ـ أما الأحاديث التي أشارت إلى ذلك:

أ ـ قالت عائشة رضي الله عنها: اجتمع نساء رسول الله ﷺ عنده، لم يغادر منهن امرأة، فجاءت فاطمة تمشي لا تخطىء مشيتها مشية أبيها فقال: «مرحباً يا بنيتي»، فأقعدها يمينه أو شماله، ثم سارَّها فبكت، ثم سارّها فضحكت. فقلت لها: خصك رسول الله بالسرار وأنت تبكين؟ فلما أن قامت قلت لها: أخبريني ما سارَّك؟ فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ فلما توفي قلت لها: أسألك لما لي عليك من الحق لما أخبرتيني. قالت: أما الآن فنعم، قالت: سارني في الأول قال لي: «إن جبريل كان يعارضني في القرآن كل سنة مرة، وقد عارضني في هذا العام مرتين، ولا أرى ذلك الأجل إلا قد اقترب، فاتقي الله واصبري، فإني نعم السلف أنا لك»، فبكيت بكائي الذي رأيت فلما رأى جزعي سارّني قال: «يا فاطمة أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة» (١).

وفي هذا الحديث دليل قاطع وإشارة واضحة إلى اقتراب أجل رسول الله ﷺ، وأن ساعة الفراق قد بانت قريبة إلا أن النبي ﷺ قد اختص ابنته فاطمة رضي الله عنها بعلم ذلك، ولم يعلم به المسلمون إلا بعد وفاة رسول الله ﷺ (٢).

ب ـ قال جابر رضي الله عنه: رأيت النبي ﷺ يرمي على راحلته يوم النحر ويقول: «لتأخذوا مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه» (٣).

قال النووي: فيه إشارة إلى توديعهم وإعلامهم بقرب وفاته ﷺ، وحثهم على الاعتناء بالأخذ عنه وانتهاز الفرصة من ملازمته وتعلم أمور الدين، وبهذا سميت حجة الوداع (٤).

وقال ابن رجب: وما زال ﷺ يعرض باقتراب أجله في آخر عمره، فإنه لما خطب في حجة الوداع قال للناس: «خذوا عني مناسككم فلعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا»، فطفق يودع الناس فقالوا: هذه حجة الوداع (٥).

جـ ـ قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: خطب رسول الله ﷺ الناس وقال: «إن الله خيَّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ذلك العبد ما عند الله» قال: فبكى أبو بكر فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خُيِّر، فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر وكان أبو بكر

---

(١) البخاري، كتاب الاستئذان (رقم ٦٢٨٥، ٦٢٨٦).
(٢) انظر: مرض النبي ﷺ ووفاته (ص ٣٥).
(٣) مسلم، كتاب الحج (رقم ١٢٩٧).
(٤) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٩/ ٤٥).
(٥) انظر: لطائف المعارف (ص ١٠٥).

أعلمنا [١].

قال الحافظ ابن حجر: وكأن أبا بكر ﷺ فهم الرمز الذي أشار به النبي ﷺ من قرينه، ذكره ذلك في مرض موته فاستشعر منه أنه أراد نفسه، فلذلك بكى [٢].

د ـ قال العباس بن عبد المطلب ﷺ: رأيت في المنام كأن الأرض تنزع إلى السماء [٣] بأشطان [٤] شداد فقصصت ذلك على النبي ﷺ فقال: «ذاك وفاة ابن أخيك» [٥]، وفي هذا الحديث إخبار النبي ﷺ بقرب وفاته، وفيه صدق رؤيا المؤمن، واستشعار بعض الصحابة وفاته عليه الصلاة والسلام [٦].

هـ ـ وعن معاذ أن النبي ﷺ لما بعثه إلى اليمن خرج راكباً والنبي ﷺ يمشي تحت راحلته فقال: «يا معاذ عسى إنك لا تلقاني بعد عامي هذا، فتمر بقبري ومسجدي» فبكى معاذ لفراقه ﷺ. فقال: «لا تبك يا معاذ فإن البكاء من الشيطان» [٧].

وفي الحديث إخبار النبي ﷺ معاذ بن جبل باقتراب أجله، وأنه يمكن ألا يلقاه بعد عامه هذا، وفيه شدة محبة الصحابة للنبي ﷺ وبكائهم إذا ذكروا فراقه [٨].

ثانياً: مرض الرسول ﷺ:

١ ـ بدء الشكوى:

رجع رسول الله ﷺ من حجة الوداع في ذي الحجة، فأقام بالمدينة بقيته والمحرم وصفراً، من العام العاشر فبدأ بتجهيز جيش أسامة وأمر عليهم أسامة بن زيد بن حارثة، وأمره أن يتوجه نحو البلقاء وفلسطين، فتجهز الناس وفيهم المهاجرون والأنصار، وكان منهم أبو بكر وعمر، وكان أسامة بن زيد ابن ثماني عشرة سنة، وتكلم البعض في تأميره وهو مولى وصغير السن على كبار المهاجرين والأنصار، فلم يقبل الرسول ﷺ طعنهم في إمارة أسامة [٩]، فقال ﷺ: «إن تطعنوا في إمرته فقد كنتم تطعنون في إمرة أبيه من قبل وأيم الله إن كان لخليقاً للإمرة، وإن كان لمن أحب الناس إليَّ وإن ابنه هذا لمن أحب الناس إليَّ بعده» [١٠]، وبينما الناس يستعدون

---

(١) البخاري، كتاب فضائل الصحابة (رقم ٣٦٥٤).
(٢) فتح الباري (٧/ ١٦).
(٣) تنزع إلى السماء: أي تجذب. وأصل النزع: الجذب والقلع.
(٤) بأشطان شداد: الأشطان جمع شطن وهو الحبل.
(٥) البزار (١/ ٣٩٧)، كشف الأستار (رقم ٨٤٤) مجمع الزوائد (٩/ ٢٤) رجاله ثقات.
(٦) انظر: مرض النبي ووفاته (ص ٣٧).
(٧) مجمع الزوائد (٩/ ٢٢) صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم ٢٤٩٧).
(٨) انظر: مرض النبي ووفاته (ص ٣٨).
(٩) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥٥٢).
(١٠) البخاري، كتاب فضائل الصحابة (٤/ ٢١٣).

للجهاد في جيش أسامة ابتدأ رسول الله ﷺ شكواه الذي قبضه الله فيه، وقد حدثت حوادث ما بين مرضه ووفاته منها:

أ ـ النبي في البقيع وزيارته قتلى أحد وصلاته عليهم:

عن أبي مويهبة مولى رسول الله ﷺ قال: بعثني رسول الله ﷺ من جوف الليل فقال: «يا أبا مويهبة إني قد أُمرت أن أستغفر لأهل البقيع فانطلق معي»، فانطلقت معه فلما وقف بين أظهرهم قال: «السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهنأ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى» [(١)]، ثم أقبل عليَّ فقال: «يا أبا مويهبة، إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخيِّرت وبين ذلك بين لقاء ربي والجنة». قال: فقلت: بأبي أنت وأمي فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، قال: «لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة». ثم استغفر لأهل البقيع، ثم انصرف، فبدأ برسول الله ﷺ وجعه الذي قبضه الله فيه [(٢)]، ومن حديث عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه قال: أن النبي ﷺ خرج يوماً فصلى على أهل أحد صلاته على الميت ثم انصرف إلى المنبر فقال: «إني فرط لكم وأنا شهيد عليكم وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، أو مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها» [(٣)].

ب ـ استئذانه ﷺ أن يمرض في بيت عائشة وشدة المرض الذي نزل به:

قالت عائشة رضي الله عنها: لما ثقل رسول الله ﷺ واشتد به وجعه، استأذن أزواجه في أن يمرَّض في بيتي، فأذنَّ له فخرج النبي ﷺ بين رجلين، تخط رجلاه في الأرض، بين عباس ورجل آخر [(٤)]، ولما دخل بيته اشتد وجعه. قال: «هريقوا عليَّ من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن [(٥)]، لعلي أعهد إلى الناس»، وأجلس في مخضب [(٦)]، لحفصة زوج النبي ﷺ، ثم طفقنا نصب عليه تلك القرب، حتى طفق يشير إلينا بيده أن قد فعلتن، ثم خرج إلى الناس [(٧)]، وقالت عائشة رضي الله عنها ما رأيت رجلاً اشتد عليه الوجع من رسول الله ﷺ [(٨)]، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أتيت النبي ﷺ في مرضه وهو يوعك وعكاً شديداً وقلت: إنك لتوعك وعكاً

---

(١) أي الفتن الآخرة.

(٢) الحاكم في المستدرك (٣/ ٥٥، ٥٦)، صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي.

(٣) البخاري، كتاب الجنائز، باب الصلاة على الشهيد (رقم ١٣٤٤).

(٤) قال ابن عباس: الرجل الآخر هو علي بن أبي طالب.

(٥) جمع الوكاء، وهو ما يشد به رأس القربة.

(٦) مخضب: بكسر الميم وهي الإجانة التي تغسل فيها الثياب.

(٧) البخاري، كتاب الوضوء (رقم ١٩٨).

(٨) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٦٩٥).

شديداً، قلت: إن ذاك بأن لك أجرين؟ قال: «أجل ما من مسلم يصيبه أذى إلا حات الله عنه خطاياه كما تحات ورق الشجر» [١].

ثالثاً: من وصايا رسول الله في أيامه الأخيرة:

١ ـ وصيته ﷺ بالأنصار:

مرّ العباس ﷺ بقوم من الأنصار يبكون حين اشتد برسول الله ﷺ وجعه فقال لهم: ما يبكيكم؟ قالوا: ذكرنا مجلسنا من رسول الله ﷺ، فدخل العباس عليه ﷺ فأخبره فعُصِّب بعصابة دسماء [٢]، أو قال: بحاشية برد، وخرج وصعد المنبر ولم يصعد بعد ذلك اليوم، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشي [٣] وعيبتي [٤] وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم» [٥]. وفي الحديث شدة محبة الأنصار لرسول الله ﷺ، وبكاؤهم لمرضه وحرمانهم من مجلسه [٦].

٢ ـ إخراج المشركين من جزيرة العرب وإجازة الوفد:

لقد ازدادت شدة المرض على رسول الله، بحيث كان يغمى عليه في اليوم الواحد مرات عديدة، ومع ذلك كله أحب ﷺ أن يفارق الدنيا وهو مطمئن على أمته أن تضل من بعده، فأراد أن يكتب لهم كتاباً مفصلاً ليجتمعوا عليه ولا يتنازعوا فلما اختلفوا عنده ﷺ عدل عن كتابة ذلك الكتاب وأوصاهم بأمور ثلاثة ذكر الراوي منها اثنين:

ـ أخرجوا المشركين من جزيرة العرب.

ـ وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم به [٧].

٣ ـ النهي عن اتخاذ قبره مسجداً:

كان من آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ قوله: «قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» [٨].

---

(١) البخاري، كتاب المرض، باب شدة المرض (رقم ٥٦٤٧).
(٢) بعصابة دسماء: أي سوداء.
(٣) كرشي وعيبتي: أراد بهم بطانته وموضوع سره وأمانته، والذي يعتمد عليهم في أموره واستعار الكرش والعيبة لذلك.
(٤) العيبة: ما يحرز فيه الرجل نفيس ما عنده.
(٥) البخاري، كتاب مناقب الأنصار (رقم ٣٧٩٩).
(٦) انظر: مرض النبي ووفاته (ص ٦٥).
(٧) البخاري، كتاب الجهاد والسير (رقم ٣٠٣٥).
(٨) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٧١٢) البخاري، كتاب الصلاة (رقم ٤٣٥).

٤ ـ إحسان الظن بالله:

قال جابر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث:

«أحسنوا الظن بالله عز وجل»[١].

٥ ـ الوصية بالصلاة وما ملكت أيمانكم:

قال أنس رضي الله عنه: كانت وصية رسول الله ﷺ حين حضره الموت: الصلاة وما ملكت أيمانكم، حتى جعل رسول الله ﷺ يغرغر بها صدره، وما يكاد يفيض بها لسانه[٢].

٦ ـ لم يبق من مبشرات النبوة إلى الرؤيا:

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: كشف رسول الله ﷺ الستر، ورسول الله ﷺ معصوب في مرضه الذي مات فيه، فقال: «اللهم بلغت» ثلاث مرات، إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلاّ الرؤيا، يراها العبد الصالح أو ترى له، ألا وإني قد نهيت عن القراءة في الركوع والسجود، فإذا ركعتم فعظموا الله، وإذا سجدتم فاجتهدوا في الدعاء، فإنه قَمِنٌ[٣] أن يستجاب لكم»[٤].

رابعاً: أبو بكر يصلّي بالمسلمين:

ولما اشتد المرض بالنبي ﷺ وحضرت الصلاة، فأذّن بلال، قال النبي ﷺ: «مروا أبا بكر فليصل»، فقيل: إن أبا بكر رجل أسيف[٥]، إن يقم مقامك يبكي فلا يقدر على القراءة، وأعاد فأعادوا له، فأعاد الثالثة فقال: «إنكن صواحب يوسف[٦]، مروا أبا بكر فليصل بالناس»، فخرج أبو بكر، فوجد النبي ﷺ في نفسه خفة فخرج يهادي بين رجلين، كأني أنظر إليه يخط برجليه الأرض، فلما رآه أبو بكر، ذهب يتأخر فأشار إليه أن صلِّ فتأخر أبو بكر رضي الله عنه وقعد النبي ﷺ إلى جنبه وأبو بكر يسمع الناس التكبير[٧].

خامساً: الساعات الأخيرة من حياة المصطفى:

١ ـ كان أبو بكر يصلّي بالمسلمين، حتى إذا كان يوم الاثنين، وهم صفوف في صلاة الفجر، كشف النبي ﷺ ستر الحجرة، ينظر إلى المسلمين، وهم وقوف أمام ربهم، ورأى كيف

---

(١) مسلم، كتاب الوصية (رقم ١٦٣٧).
(٢) رواه الإمام أحمد في المسند.
(٣) قمن: أي جدير وحقيق.
(٤) مسلم (١/٣٤٨) كتاب الصلاة (رقم ٢٠٧).
(٥) أسيف: من الأسف وهو شدة الحزن والمراد أنه رقيق القلب.
(٦) والمراد أنهن مثل صواحب يوسف في إظهار خلاف ما في الباطن.
(٧) البخاري، كتاب الأذان (رقم ٧١٢).

أثمر غرس دعوته وجهاده، وكيف نشأت أمة تحافظ على الصلاة، وتواظب عليها بحضرة نبيها وغيبته، وقد قرّت عينه بهذا المنظر البهيج، وبهذا النجاح الذي لم يقدر لنبي أو داع قبله، واطمأن أن صلة هذه الأمة بهذا الدين وعبادة الله تعالى، صلة دائمة، لا تقطعها وفاة نبيها، فملىء من السرور ما الله به عليم واستنار وجهه وهو منير [(١)]، ويقول الصحابة ـ ﷺ ـ: كشف النبي ﷺ ستر حجرة عائشة ينظر إلينا وهو قائم، كأن وجهه ورقة مصحف، ثم تبسم يضحك، فهممنا أن نفتتن من الفرح، وظننا أن النبي ﷺ خارج إلى الصلاة، فأشار إلينا أن أتموا صلاتكم، ودخل الحجرة، وأرخى الستر وانصرف بعض الصحابة إلى أعمالهم، ودخل أبو بكر على ابنته عائشة وقال: ما أرى رسول الله إلا قد أقلع عنه الوجع، وهذا يوم بنت خارجة ـ إحدى زوجتيه ـ وكانت تسكن بالسُّنح [(٢)]، فركب على فرسه وذهب إلى منزله [(٣)].

٢ ـ في الرفيق الأعلى:

واشتدت سكرات الموت بالنبي ﷺ، ودخل عليه أسامة بن زيد وقد صمت فلا يقدر على الكلام، فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعها على أسامة، فعرف أنه يدعو له، وأخذت السيدة عائشة رسول الله وأوسدته إلى صدرها بين سحرها [(٤)] ونحرها، فدخل عبد الرحمٰن بن أبي بكر وبيده سواك، فجعل رسول الله ينظر إليه، فقالت عائشة: آخذه لك، فأشار برأسه نعم، فأخذته من أخيها ثم مضغته وليَّنته وناولته إياه فاستاك به كأحسن ما يكون الاستياك، وكل ذلك وهو لا ينفك عن قوله: «في الرفيق الأعلى»، وكان ﷺ يدخل يده في ركوة ماء أو علبة فيها ماء، فيمسح بها وجهه ويقول: «لا إله إلا الله.... إن للموت سكرات» ثم نصب يده فجعل يقول: «في الرفيق الأعلى»... حتى قبض ومالت يده، وفي لفظ أن النبي ﷺ كان يقول: «اللهم أعني على سكرات الموت» [(٥)].

وفي رواية: أن عائشة سمعت النبي ﷺ وأصغت إليه قبل أن يموت وهو مسند ظهره يقول: «اللهم اغفر لي، وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى» [(٦)].

وقد ورد أن فاطمة ﷺ قالت: واكرب أباه. فقال لها: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم». فلما مات قالت: يا أبتاه... أجاب رباً دعاه، يا أبتاه... من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه... إلى جبريل ننعاه، فلما دفن ﷺ قالت فاطمة عليها السلام: يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا على

---

(١) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ٤٠١).

(٢) السنح: موضع خارج المدينة كان للصديق مال فيه وبيت.

(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٥٩٣).

(٤) السحر: الرئة. النحر: الثغرة التي في أسفل العنق.

(٥) الترمذي، كتاب الجنائز (رقم ٩٧٨).

(٦) البخاري، كتاب المغازي (رقم ٤٤٤٠).

رسول الله ﷺ التراب [(١)].

٣ ـ كيف فارق رسول الله الدنيا؟

فارق رسول الله ﷺ الدنيا وهو يحكم جزيرة العرب، ويرهبه ملوك الدنيا، ويفديه أصحابه بنفوسهم وأولادهم وأموالهم، وما ترك عند موته ديناراً ولا درهماً، ولا عبداً، ولا أمة، ولا شيئاً، إلا بغلته البيضاء، وسلاحه وأرضاً جعلها صدقة. وتوفي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعير [(٢)].

وكان ذلك يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١ للهجرة بعد الزوال [(٣)]، وله ﷺ ثلاث وستون سنة، وكان أشد الأيام سواداً ووحشة ومصاباً على المسلمين، ومحنة كبرى للبشرية، كما كان يوم ولدته أسعد يوم طلعت فيه الشمس [(٤)].

يقول أنس رضي الله عنه: كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، وبكت أم أيمن فقيل لها: ما يبكيك على النبي؟ قالت: إني قد علمت أن رسول الله ﷺ سيموت ولكن إنما أبكي على الوحي الذي رفع عنا.

٤ ـ هول الفاجعة وموقف أبي بكر منها:

قال ابن رجب: ولما توفي رسول الله ﷺ اضطرب المسلمون، فمنهم من دهش فخولط، ومنهم من أقعد فلم يُطق القيام، ومنهم من اعتقل لسانه فلم يطق الكلام، ومنهم من أنكر موته بالكلية [(٥)].

قال القرطبي مبيناً عظم هذه المصيبة وما ترتب عليها من أمور:

من أعظم المصائب المصيبة في الدين... قال رسول الله ﷺ: «إذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصابه بي فإنها أعظم المصائب» [(٦)]، وصدق رسول الله ﷺ، لأن المصيبة به أعظم من كل مصيبة يصاب بها المسلم بعده إلى يوم القيامة، انقطع الوحي، وماتت النبوة، وكان أول ظهور الشر بارتداد العرب وغير ذلك، وكان أول انقطاع الخير وأول نقصانه [(٧)].

---

(١) البخاري، كتاب المغازي (رقم ٤٤٦٢).
(٢) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ٤٠٣).
(٣) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٢٣).
(٤) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ٤٠٤).
(٥) انظر: لطائف المعارف (ص ١١٤).
(٦) انظر: السلسلة الصحيحة للألباني (قم ١١٠٦).
(٧) انظر: تفسير القرطبي (٢/ ١٧٦).

لقد أذهل نبأ الوفاة عمر رضي الله عنه فصار يتوعد وينذر من يزعم أن النبي مات، ويقول: ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم والله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنه مات (١).

ولما سمع أبو بكر الخبر أقبل على فرس من مسكنه بالسنح، حتى نزل، فدخل المسجد فلم يكلم الناس، حتى دخل على عائشة فتيمم رسول الله ﷺ وهو مغشى بثوب حبرة فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه فقبّله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي عليك فقد متها (٢)، وخرج أبو بكر وعمر يتكلم فقال: اجلس يا عمر، وهو ماض في كلامه، وفي ثورة غضبه، فقام أبو بكر في الناس خطيباً بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

أما بعد، فإن من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٤٤].

قال عمر: فوالله ما إن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبي ﷺ قد مات (٣).

قال القرطبي: هذه الآية دليل على شجاعة الصديق وجراءته، فإن الشجاعة والجرأة حدهما ثبوت القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظم من موت النبي ﷺ فظهرت شجاعته وعلمه، قال الناس: لم يمت رسول الله ﷺ، منهم عمر، وخرس عثمان، واستخفى علي، واضطرب الأمر، فكشفه الصديق بهذه الآية حين قدومه من مسكنه بالسنح (٤).

فرحم الله الصديق الأكبر، كم من مصيبة درأها عن الأمة، وكم من فتنة كان المخرج على يديه، وكم من مشكلة ومعضلة كشفها بشهب الأدلة من القرآن والسنّة، التي خفيت على مثل عمر رضي الله عنه، فاعرفوا للصديق حقه، واقدروا له قدره، وأحبوا حبيب رسول الله ﷺ، فحبه إيمان وبغضه نفاق (٥).

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٥٩٤).
(٢) البخاري، كتاب المغازي (رقم ٤٤٥٢).
(٣) البخاري، كتاب المغازي (رقم ٤٤٥٤).
(٤) انظر: تفسير القرطبي (٤/ ٢٢٢).
(٥) انظر: مرض النبي ووفاته (ص ٢٤).

٥ ـ بيعة أبي بكر بالخلافة:

وبايع المسلمون أبا بكر بالخلافة، في سقيفة بني ساعدة، حتى لا يجد الشيطان سبيلاً إلى تفريق كلمتهم، وتمزيق شملهم، ولا تلعب الأهواء بقلوبهم، وليفارق رسول الله ﷺ هذه الدنيا وكلمة المسلمين واحدة، وشملهم منتظم، وعليهم أمير يتولى أمورهم، ومنها تجهيز رسول الله ﷺ ودفنه (١)، والحديث عن بيعة أبي بكر سنتكلم عنه بالتفصيل عند الدخول في عصر الخلفاء الراشدين إن شاء الله تعالى.

٦ ـ غسل رسول الله ﷺ وكفنه، والصلاة عليه:

قالت عائشة رضي الله عنها: لما أرادوا غسل النبي ﷺ قالوا: ما ندري أنجرده من ثيابه كما نجرد موتانا، أو نغسله وعليه ثيابه،فلما اختلفوا ألقى الله عليهم النوم حتى ما منهم رجل إلا وذقنه في صدره فكلمهم مكلم من ناحية البيت لا يدرون من هو!! أن اغسلوا رسول الله ﷺ وعليه ثيابه، فغسلوه وعليه قميصه، يصبون الماء فوق القميص، ويدلكون بالقميص دون أيديهم. قالت عائشة: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسله إلا نساؤه (٢).

وكفّن ﷺ في ثلاث أثواب سحولية، من ثياب سحول ـ بلدة باليمن ـ ليس فيها قميص ولا عمامة (٣)، وقد صلَّى عليه المسلمون، قال ابن عباس: لما مات رسول الله ﷺ أدخل الرجال، فصلّوا عليه بغير إمام أرسالاً، حتى فرغوا، ثم أدخل النساء فصلين عليه، ثم أدخل الصبيان فصلّوا عليه، ثم أدخل العبيد فصلوا عليه أرسالاً، لم يؤمهم على رسول الله ﷺ أحد (٤).

قال ابن كثير: وهذا الصنيع، وهو صلاتهم عليه فرادى لم يؤمهم أحد عليه، أمر مجمع عليه لا خلاف فيه (٥).

٧ ـ موقع دفنه وصفة قبره، ومن باشر دفنه؟ ومتى دفن؟

اختلف المسلمون في موقع دفنه فقال بعضهم: يدفن عند المنبر، وقال آخرون: بالبقيع، وقال قائل في مصلاه (٦)، فجاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فحسم مادة هذا الخلاف أيضاً بما

---

(١) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ٤٠٦).

(٢) المستدرك للحاكم (٣/ ٥٩، ٦٠) وقال: صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه ابن حبان.

(٣) انظر: مختصر سيرة الرسول (ص ٣٧)، تهذيب الأسماء للندوي (ص ٢٣)، مسلم (٢/ ٦٥٠) كتاب الجنائز (رقم ٤٥).

(٤) انظر: دلائل النبوة (٧/ ٢٥٠) وسنن ابن ماجة (رقم ١٦٢٨) والحديث فيه ضعف.

(٥) انظر: البداية والنهاية (٥/ ٢٣٢).

(٦) الموطأ (رقم ٥٤٥)، ابن سعد (٢/ ٢٩٣).

سمعه من رسول الله ﷺ. قالت عائشة وابن عباس: لما قبض رسول الله ﷺ وغسل اختلفوا في دفنه فقال أبو بكر: ما نسيت ما سمعت من رسول الله ﷺ يقول: «ما قبض الله نبياً إلا في الموضع الذي يجب أن يدفن فيه»، ادفنوه في موضع فراشه (١)، وهذا الحديث وإن كان مختلف في صحته إلا أن دفن النبي ﷺ في موضعه الذي توفي فيه أمر مجمع عليه (٢).

وقال ابن كثير: قد علم بالتواتر أنه عليه الصلاة والسلام دفن في حجرة عائشة التي كانت، تختص بها، شرقي مسجده في الزاوية الغربية القبلية من الحجرة، ثم دفن فيها أبو بكر ثم عمر رضي الله عنهما (٣).

وقد لحد (٤) قبر رسول الله ﷺ، وقد أجمع العلماء على أن اللحد والشق (٥)، جائزان، لكن إذا كانت الأرض صلبة لا ينهار ترابها فاللحد أفضل، وإن كانت رخوة تنهار فالشق أفضل (٦).

وقد قال الألباني رحمه الله: ويجوز في القبر اللحد والشق لجريان العمل عليهما في عهد النبي ﷺ، ولكن الأول أفضل (٧)، لأن الله تعالى لا يختار لنبيه إلا الأفضل (٨)، وأما صفة قبره فقد كان مُسَنَّماً (٩)، أي مرتفعاً، وذهب جمهور العلماء إلى أن المستحب في بناء القبور هو التسنيم وأنه من التسطيح (١٠)، وفي المسألة خلاف طويل ليس هذا محله، وقد قرب ابن القيم رحمه الله بين المذهبين فقال: وكانت قبور أصحابه لا مشرفة، ولا لائطة، وهكذا كان قبره الكريم، وقبر صاحبيه، فقبره ﷺ مسنم مبطوح ببطحاء العرصة الحمراء، لا مبني ولا مطين، وهكذا قبر صاحبيه (١١)، وقد كان قبره ﷺ مرتفعاً قليلاً عن سطح الأرض (١٢).

وأما الذين باشروا دفنه ﷺ، قال ابن إسحاق: وكان الذين نزلوا في قبر رسول الله ﷺ

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٧٢٧).
(٢) انظر: مرض النبي ووفاته، (ص ١٦٠).
(٣) انظر: البداية والنهاية (٥/ ٢٣٨).
(٤) اللحد: الشق الذي يعمل في جانب القبر لموضع الميت.
(٥) والشق: أي يحفر في وسط الأرض.
(٦) انظر: المجموع للنووي (٥/ ٢٨٧).
(٧) انظر: أحكام الجنائز (ص ١٤٤).
(٨) انظر: مرض النبي ووفاته (ص ١٦٠) وقد استفدت من هذا الكتاب فائدة كبرى في مبحث مرض ووفاة الرسول.
(٩) البخاري، كتاب الجنائز (رقم ١٣٩٠).
(١٠) انظر: مرض النبي ووفاته (ص ١٦٤).
(١١) انظر: زاد المعاد (١/ ٥٢٤).
(١٢) انظر: تهذيب السنن لابن القيم (٤/ ٣٣٨).

علي بن أبي طالب، والفضل بن عباس، وقُثَم بن عباس، وشقران مولى رسول الله ﷺ [١]، وزاد النووي [٢]، والمقدسي: [٣] العباس، قال النووي: ويقال: كان أسامة بن زيد وأوس بن خَوْلى [٤] معهم. ودفن في اللحد، وبنى عليه ﷺ في لحده اللبن، يقال إنها تسع لبنات، ثم أهالوا التراب [٥]، وأما وقت دفنه، فقد ذهب كثير من العلماء إلى أنه دفن ليلة الأربعاء قال ابن كثير: والمشهور عن الجمهور ما أسلفناه من أنه ﷺ توفي يوم الاثنين ودفن ليلة الأربعاء [٦].

لقد كان لوفاة رسول الله ﷺ أثر على الصحابة الكرام، فقد قال أنس رضي الله عنه: .... وما نفضنا عن النبي ﷺ الأيدي ـ إنا لفي دفنه ـ حتى أنكرنا قلوبنا [٧].

سادساً: بعض ما قيل من المراثي في وفاة رسول الله ﷺ:

١ ـ ما قاله حسان رضي الله عنه في موت رسول الله:

لقد نافح حسان بن ثابت عن رسول الله ﷺ في حياته، ودافع عن الإسلام والمسلمين بقصائده الرائعة التي هزت عرب الجزيرة وفعلت فيهم الأفاعيل، ولقد تأثر بموت حبيبنا ﷺ فرثاه بقصائد مبكية حزينة، حفظها لنا التاريخ ولم تهملها الليالي ولم تفصلها عنا حواجز الزمن ولا أسوار القرون فمما قاله يبكي رسول الله ﷺ:

ما بال عينك لا تنام كأنها ... كُحِلَت مآقيها[٨] بكحل الأرمد [٩]
جزعا على المهدي أصبح ثاويا ... يا خير من وطىء الحصى لا تبعد
وجهي يقيك الترب لهفي ليتني ... غُيِّبْتُ قبلك في بقيع الغرقد [١٠]
بأبي وأمي من شهدت وفاته ... في يوم الاثنين النبي المهتدي
فظللت بعد وفاته متلبداً ... متلدّداً [١١] يا ليتني لم أولد
أأقيم بعدك بالمدينة بينهم ... يا ليتني صُبِّحتُ [١٢] سَمّ الأسود [١٣]
أو حل أمر الله فينا عاجلاً ... في روحة من يومنا أو في غد
فتقوم ساعتنا فنلقى طيباً ... محضا ضرائبه [١٤] كريم المحتد [١٥]

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٣٢١).
(٢) انظر: تهذيب الأسماء (ص ٢٣).
(٣) انظر: مختصر السيرة (ص ٣٥).
(٤) انظر: مرض النبي ووفاته (ص ١٧٣).
(٥) انظر: تهذيب الأسماء للنووي (ص ٢٣).
(٦) انظر: البداية والنهاية (٥/ ٢٣٧)، صحيح السيرة النبوية (ص ٧٢٨).
(٧) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٧٢٩).
(٨) المآقي: جمع مأق ومؤق وهي مجاري الدمع من العين.
(٩) الأرمد: الذي يشتكي وجع العين.
(١٠) بقيع الغرقد: المكان الذي يدفن فيه أهل المدينة موتاهم.
(١١) متلدد: متحير.
(١٢) صبحت: سقيت صبحا.
(١٣) الأسود: ضرب من الحيات.
(١٤) الضرائب: الطبائع.
(١٥) المحتد: الأصل.

يا بكر آمنة المبارك بكرها ... ولدته محصنة بسعد الأسعد
نوراً أضاء على البرية كلها ... من يهد للنور المبارك يهتدي
يا رب فاجمعنا معاً ونبينا ... في جنة تُثني [(١)] عيون الحُسَّد
في جنة الفردوس فاكتبها لنا ... يا ذا الجلال وذا العلا والسؤدد
والله أسمع ما بقيت بهالك ... إلا بكيت على النبي محمد
يا ويح أنصار النبي ورهطه ... بعد المغيب في سواء الملْحد [(٢)]
ضاقت بالأنصار البلاد فأصبحوا ... سوداً وجوههم كلون الإثمد [(٣)]
ولقد ولدناه [(٤)] وفينا قبره ... وفضول نعمته بنا لم تجحد
والله أكرمنا به وهدى به ... أنصاره في كل ساعة مشهد
صلى الإله ومن يحفُّ بعرشه ... والطيبون على المبارك أحمد [(٥)]

وقال أيضاً:

تالله ما حملت أنثى ولا وضعت ... مثل الرسول نبي الأمة الهادي
ولا يرى الله خلقاً من بريته ... أوفى بذمة جار أو بميعاد
من الذي كان فينا يستضاء به ... مبارك الأمر ذا عدل وإرشاد

إلى أن قال:

يا أفضل الناس إني كنت في نهر ... أصبحت منه كمثل المفرد الصادي [(٦)]

٢ ـ ومما قاله أبو بكر الصديق يبكي النبي ﷺ:

لما رأيت نبينا متجندلا ... ضاقت عليَّ بعرضهن الدور
فارتاع قلبي عند ذاك لموته ... والعظم مني ما حييت كسير
أعتيق ويحك!!! إن خِلَّك قد ثوى ... والصبر عندك ما بقيت يسير
يا ليتني من قبل مهلك صاحبي ... غُيِّبت في لحد عليه صخور
فلتحدثن بدائع من بعده ... تعيا لهن جوانح وصدور [(٧)]

٣ ـ وقال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم يبكي رسول الله ﷺ:

(١) تثني عيون الحسد: تصرفها وتدفعها.
(٢) سواء الملحد: وسطه.
(٣) الأثمد: كحل أسود.
(٤) أي بني النجار أخوال النبي ﷺ من قبل آبائه.
(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/٣٢٨).
(٦) الصادي: العاطش، السيرة النبوية لابن هشام (٤/٣٢٩).
(٧) انظر: المستطرف الأبشيهي، (ص ٣٦٦)، ديوان أبي بكر الصديق، طبع حديثاً حققه وشرحه راجي الأسمر، (ص ٣٢، ٣٣).

أرقتُ فبات ليلي لا يزول ... وليل أخي المصيبة فيه طول
وأسعدني البكاء وذاك فيما ... أصيب المسلمون به قليل
لقد عظمت مصيبتنا وجَلَّت ... عشية قيل: قد قبض الرسول
وأضحت أرضنا مما عراها ... تكاد بنا جوانبها تميل
فقدنا الوحي والتنزيل فينا ... يروح به ويغدو جبرائيل
وذاك أحق ما سالت عليه ... نفوس الناس أو كادت تسيل
نبي كان يجلو الشك عنا ... بما يوحى إليه وما يقول
ويهدينا فلا نخشى ملاما ... علينا والرسول لنا دليل
أفاطمُ إن جزعت فذاك عذر ... وإن لم تجزعي فهو السبيل
فقبر أبيك سيد كل قبر ... وفيه سيد الناس الرسول (١)

٤ ـ وقالت صفية بنت عبد المطلب تبكي رسول الله ﷺ:

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا ... وكنت بنا براً ولم تك جافيا
وكنت رحيماً هادياً ومعلما ... ليبكِ عليك اليوم من كان باكيا
لعمرك ما أبكى النبي لفقده ... ولكن لما أخشى من الهرج (٢) آتيا
كأن على قلبي لذكر محمد ... وما خفت من بعد النبي المكاويا
أفاطمُ صلى الله ربُّ محمد ... على جدث أمسى بيثرب ثاويا
فدىً لرسول الله أمي وخالتي ... وعمي وآبائي ونفسي وماليا
صدقتَ وبلغتَ الرسَالة صادقاً ... ومتّ صليبَ العود أبلج صافيا
فلو أن ربَّ الناس أبقى نبينا ... سعدنا ولكن أمره كان ماضيا
عليك من الله السلام تحيةً ... وأُدخلت جناتٍ من العدن راضيا (٣)

(١) انظر: الاكتفاء للكلاعي (٢/ ٤٥٦).
(٢) الهرج والفتن.
(٣) انظر: تفسير القرطبي (٤/ ٢١٩، ٢٢٠).

الخاتمة

وبعد، فهذا ما يسره الله لي من جمع وترتيب وتحليل تضمنتها فصول هذا الكتاب، فيما يتعلق (بالسيرة النبوية... عرض حقائق وتحليل أحداث) فما كان فيه من صواب فهو محض فضل الله عليَّ، فله الحمد والمنّة، وما كان فيه من خطأ فأستغفر الله تعالى وأتوب إليه، والله ورسوله بريء منه، وحسبي أني كنت حريصاً أن لا أقع في الخطأ وعسى أن لا أُحرم من الأجر.

وأدعو الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب إخواني المسلمين، وأن يذكرني من يقرأه في دعائه، فإن دعوة الأخ لأخيه في ظهر الغيب مستجابة إن شاء الله تعالى، وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وبقول الشاعر:

إلهي أنت للإحسان أهل ... ومنك الجود والفضل الجزيل
إلهي بات قلبي في هموم ... وحالي لا يُسرُّ به خليل
إلهي تُبْ وجُدْ وارحمْ عُبيداً ... من الأوزار مدمعُهُ يسيل
إلهي ثوبُ جسمي دنّسته ... ذنوبٌ حملها أبداً ثقيل
إلهي جُدْ بعفوك لي فإني ... على الأبواب منكسرٌ ذليل
إلهي خانَني جلدي وصبري ... وجاء الشيب واقترب الرحيل
إلهي داوِني بدواء عفو ... به يُشفى فؤادي والغليلُ
إلهي ذاب قلبي من ذنوبي ... ومن فعل القبيح أنا القتيل
إلهي قلت ادعوني أُجِبْكُم ... فهاك العبد يدعو يا وكيل
إلهي هذه الأوقات تمضي ... بأعمار لنا وبها تزول

وبقول الشاعر:

اطلب العلم ولا تكسل فما ... أبعد الخير على أهل الكسل
احتفل للفقه في الدين ولا ... تشتغل عنه بمالٍ وخَوَلْ
واهجر النوم وحصِّله فمن ... يعرف المطلوب يحقر ما بذل
لا تقل قد ذهبت أربابه ... كل من سار على الدرب وصل

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك).

المصادر والمراجع

(أ)

١ - **آثار الحرب في الفقه الإسلامي**: د.وهبة الزحيلي، دراسة مقارنة دار الفكر، ط (٣) ١٤٠١ - ١٩٨١ م.

٢ - **آثار تطبيق الشريعة**: د.محمد عبد الله الزاحم، دار المنار - ط ١ - ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م.

٣ - **آفات على الطريق**: د.السيد محمد نوح، دار الوفاء، المنصورة، مصر - ط ٥ - ١٤٠٠هـ ١٩٩٠ م.

٤ - **أسد الغابة في معرفة الصحابة**: علي بن أبي الكرم ابن الأثير.

٥ - **الأم**: محمد بن إدريس الشافعي، طبعة دار الفكر، بيروت - لبنان، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠ م.

٦ - **الإتقان في علوم القرآن**: عبد الرحمٰن السيوطي، المكتبة الثقافية، بيروت - لبنان، (ب - ت).

٧ - **الإدارة الإسلامية في عصر عمر بن الخطاب**: د.فاروق مجدلاوي، دار مجدلاوي، عمان - ط ٢ - ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٨ - **الإصابة في تمييز الصحابة**: أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق علي محمد البجاوي، دار النهضة مصر.

٩ - **الاعتصام**: الإمام الشاطبي، دار الفكر، مكتبة الرياض الحديثة بالرياض.

١٠ - **الإعلام في صدر الإسلام**: د.عبد اللطيف حمزة، دار الفكر.

١١ - **إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع**: للشيخ أحمد بن علي المقريزي، صححه وشرحه محمود محمد شاكر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة بالقاهرة ١٩٤١م.

١٢ - **الأحاديث الواردة في فضائل المدينة**: صالح الرفاعي، دار الخضيري، المدينة، ط٣ - ١٤١٨هـ.

١٣ - **أحكام الجنائز وبدعها**: الألباني - المكتب الإسلامي - بيروت.

١٤ - **أحكام السوق في الإسلام**: أحمد الدريوش، دار عالم لكتب، ط١ - ٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

١٥ - **أحكام القرآن**: أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي، تحقيق. محمد عبد القادر

عطاء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ـ ١٤٠٨هـ.

١٦ ـ **الأخلاق الإسلامية وأسسها**: عبد الرحمٰن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق.

١٧ ـ **الأخوات المسلمات وبناء الأسرة القرآنية**: محمود محمد الجوهري.

١٨ ـ **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**: محمد ناصر الدين الألباني ـ إشراف زهير الشاويش.

١٩ ـ **الأساس في السنّة وفقهها ـ السيرة النبوية**: سعيد حوى، دار السلام بمصر ـ ط١ ـ ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

٢٠ ـ **الأساس في السنة**: سعيد حوى، دار السلام، مصر.

٢١ ـ **أساليب التشويق والتعزيز في القرآن الكريم**: د.الحسين جرنو محمود جلو، مؤسسة الرسالة، دار العلوم الإنسانية ـ ط١ ـ ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

٢٢ ـ **أسباب النزول**: أبو الحسن الواحدي النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١ ـ ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

٢٣ ـ **أسباب هلاك الأمم السالفة**: سعيد محمد بابا سيلا، سلسلة الحكمة البريطانية، ط١ ـ ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

٢٤ ـ **الاستخبارات العسكرية في الإسلام**: عبد الله علي السلامة مناصرة، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان ـ ط٢ ـ ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

٢٥ ـ **الإسلام في خندق**: مصطفى محمود، دار أخبار اليوم القاهرة، مصر، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

٢٦ ـ **أصول الفكر السياسي في القرآن المكي**: التجاني عبد القادر حامد، دار البشير، عمان ـ الأردن ط١ ـ ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

٢٧ ـ **أضواء على الهجرة**: توفيق محمد سبع، مطبعة الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية مصر، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

٢٨ ـ **أعلام النبوة**: الماوردي ـ الكليات الأزهرية.

٢٩ ـ **إغاثة اللهفان عن مصائد الشيطان**: ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية بيروت، ط١ ـ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٩٨م.

٣٠ ـ **الاكتفاء بما تضمنه من مغازي الرسول والثلاثة الخلفاء**: تأليف أبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي، عالم الكتب، ط١ ـ ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

٣١ ـ **الأموال**: أبو عبيد القاسم بن سلام، مؤسسة ناصر الثقافية، بيروت.

٣٢ ـ **الانحرافات العقدية والعلمية**: علي بن نجيب الزهراني، دار طيبة، ط٢ ـ ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

٣٣ ـ **أنساب الأشراف**: البلاذُرِيّ ـ تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف. مصر ـ (ب ـ ت).

٣٤ - **الأنساب**: أبوسعيد عبد الكريم بن محمد السمعاني، تحقيق عبد الرحمٰن المعلمي اليماني، نشر مجلس دائرة المعارف العثمانية - الهند، ١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م.

٣٥ - **أهمية الجهاد في نشر الدعوة**: د.علي العلياني، دار طيبة ط١ - ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٣٦ - **الإيمان والحياة**: يوسف القرضاوي مؤسسة الرسالة، بيروت ط١٠ - ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.

(ب)

٣٧ - **البحر الرائق في الزهد والرقائق**: أحمد فريد، دار البخاري، القصيم بالسعودية،ط ١ - ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٣٨ - **بدائع السالك في طبائع الملك**: أبو عبد الله بن الأزرق، تحقيق وتعليق علي سامي النشار، منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية.

٣٩ - **البداية والنهاية**: ابن كثير - دار الريان للتراث، مصر - ط١ - ١٤٠٨هـ - ١٩٩٠ م، ط٤ - ١٤١٩هـ - ١٩٩٨ م، بعناية وتوثيق عبد الرحمٰن اللاذقي، ومحمد غازي بيضون - دار المعرفة - لبنان.

٤٠ - **بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب**: محمود شكري الآلوسي، تحقيق محمد بهجة الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت - ط٢ (ب - ت).

٤١ - **بناء المجتمع الإسلامي في عصر النبوة**: محمد توفيق رمضان، دار ابن كثير دمشق، ط١ - ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٤٢ - **بهجة المحافل وبغية الأماثل في تلخيص المعجزات والسير والشمائل**: شرح جمال الدين محمد الأشخر اليمني، دار صادر - بيروت.

(ت)

٤٣ - **تأملات في سورة الكهف**: أبو الحسن الندوي، دار القلم.

٤٤ - **تأملات في سيرة الرسول ﷺ**: د.محمد السيد الوكيل، دار المجتمع، ط١ - ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

٤٥ - **تاريخ الإسلام للذهبي (المغازي)**: تحقيق عمر بن عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط٢ - ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٤٦ - **التاريخ الإسلامي مواقف وعِبَر**: د.عبد العزيز الحميدي، دار الدعوة الإسكندرية، مصر - ط ١ - ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٤٧ - **التاريخ السياسي والحضاري**: د.السيد عبد العزيز سالم.

٤٨ - **التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة في عهد الرسول ﷺ، استراتجية الرسول السياسية والعسكرية**: د.علي معطي، مؤسسة المعارف بيروت، لبنان ط١ - ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٤٩ - **تاريخ الطبري**: أبو جعفر محمد بن جرير، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان -

بيروت، لبنان، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

٥٠ - **تاريخ اليهود في بلاد العرب**: ولفنسون، القاهرة، ط - ١٩٢٧م.

٥١ - **تاريخ خليفة بن خياط**: تحقيق أكرم ضياء العمري، مطبعة الآداب،النجف - العراق - ١٩٦٧م.

٥٢ - **تاريخ دولة الإسلام الأولى**: فايد حمّاد عاشور، سليمان أبو عزب، دار قطري ابن الفجاءة، الدوحة، قطر،ط ١ - ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٥٣ - **تاريخ صدر الإسلام**: عبد الرحمٰن بن عبد الولي شجاع، دار الفكر المعاصر، صنعاء، ط١ - ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٥٤ - **التحالف السياسي في الإسلام**: منير محمد الغضبان، دار السلام، ط٢ - ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٥٥ - **التحرير والتنوير (تفسير)**: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور - دار الكتب الشرقية، تونس.

٥٦ - **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**: محمد بن عبد الرحمٰن المباركفوري، تصحيح عبد الرحمٰن محمد عثمان، مطبعة الاعتماد، نشر محمد عبد المحسن الكتبي.

٥٧ - **تحفة الأشراف**: أبو الحجاج يوسف المزي، الدار القيمة - ١٣٨٤هـ.

٥٨ - **التربية القيادية**: منير الغضبان، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ط١ - ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٥٩ - **تفسير ابن أبي حاتم (تفسير القرآن العظيم)**: ابن أبي حاتم - تحقيق أسعد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز - السعودية - ط٢ - ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٦٠ - **(تفسير أبي السعود) المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**: أبو السعود محمد العمادي الحنفي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض - مطبعة السعادة - القاهرة.

٦١ - **تفسير ابن كثير**: ابن كثير القرشي، دار الفكر ودار القلم، بيروت - لبنان، ط٢.

٦٢ - **(تفسير الآلوسي) المسمى روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**: محمود الآلوسي البغدادي، إدارة الطباعة المصطفانية بالهند (ب - ت).

٦٣ - **(تفسير البغوي) المسمى معالم التنزيل**: الإمام الفراء البغوي، دار المعرفة، بيروت - لبنان.

٦٤ - **(تفسير البيضاوي) المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل**: الإمام ناصر الدين البيضاوي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط - ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٦٥ - **تفسير الرازي**: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣.

٦٦ - **(تفسير الزمخشري) المسمى بالكشاف**: دار المعرفة، ط - ١٩٦٧م.

٦٧ - **(تفسير السعدي) المسمى تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان**: عبد الرحمٰن ناصر السعدي، المؤسسة السعدية بالرياض، ١٩٧٧م.

٦٨ ـ **تفسير القرطبي**: أبو عبد الله القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ١٩٦٥م.

٦٩ ـ **(تفسير المراغي)**: أحمد مصطفى المراغي، دار الفكر ـ بيروت ـ ط٣ ـ ١٣٩٤هـ.

٧٠ ـ **تفسير المنار**: محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.

٧١ ـ **التفسير المنير**: د.وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط١ ـ ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

٧٢ ـ **(تفسير النسفي) المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل**: الإمام النسفي (ت ـ ٧١٠هـ) الناشر: دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٧٣ ـ **(تفسير ابن عطية) المسمى المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**: أبو محمد عبد الحق بن عطية، من مطبوعات رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر، ط١ ـ ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

٧٤ ـ **تفسير سورة فصلت**: د.محمد صالح علي مصطفى، دار النفائس، ط١ ـ ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

٧٥ ـ **تلقيح فهوم أهل الأثر**: ابن الجوزي، مكتبة الآداب، القاهرة، دون ذكر الطبعة.

٧٦ ـ **التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم**: محمد السيد حمد يوسف، دار السلام، مصر، ط١ ـ ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

٧٧ ـ **تنظيمات الرسول الإدارية في المدينة**: صالح أحمد العلي، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد السابع عشر، بغداد ـ ١٩٦٩م.

٧٨ ـ **تنوير الحوالك شرح موطأ مالك**: جلال الدين السيوطي، دار إحياء الكتب.

٧٩ ـ **تهذيب مدارج السالكين**، لابن القيم: هذبه عبد المنعم صالح العلي العزي، مؤسسة الرسالة، ط٣ ـ ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

(ج)

٨٠ ـ **جامع الأصول**: ابن الأثير (ت ـ ٦٠٦هـ) ـ تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة الحلواني سورية ١٣٩٢هـ. ط٢ ـ دار الفكر ـ لبنان (١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣ م). ط١ ـ دار الكتب العلمية ـ لبنان ـ تحقيق أيمن صالح شعبان ـ (١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨ م).

٨١ ـ **جامع العلوم والحكم**: ابن رجب الحنبلي، دار الفكر، بيروت.

٨٢ ـ **الجامع لأخلاق الراوي، وآداب السامع**: الخطيب البغدادي، مكتبة المعارف بالرياض، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٨٣ ـ **الجهاد والقتال في السياسة الشرعية**: محمد خير هيكل، دار البيارق، عمان ـ بيروت، ط١ ـ ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

٨٤ ـ **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**: ابن تيمية، مطابع المجد.

٨٥ - جوامع السيرة: ابن حزم (ت - ٤٥٦هـ)، تحقيق الدكتور إحسان عباس، والدكتور ناصر الدين الأسد، ط - دار إحياء السنة، باكستان.

٨٦ - جيل النصر المنشود: د.يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة - مصر، ط٦ - ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(ح)

٨٧ - حاشية ابن عابدين: مطابع مصطفى البابي وأولاده.

٨٨ - حدائق الأنوار ومطالع الأسرار: لابن الدَّيْبَع الشيباني، تحقيق عبد الله إبراهيم الأنصاري، مطابع محمد هاشم الكتبي - دمشق، على نفقة الشيخ خليفة آل ثاني أمير دولة قطر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩ م.

٨٩ - حديث القرآن عن غزوات الرسول ﷺ: د.محمد بكر آل عابد، دار الغرب الإسلامي، ط - ١.

٩٠ - الحرب النفسية ضد الإسلام في عهد الرسول ﷺ في مكة: د.عبد الوهاب كحيل، عالم الكتب بيروت، ط١ - ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٩١ - الحركة السنوسية في ليبيا: علي محمد الصَّلابيّ، دار البيارق، عمان ط١ - ١٩٩٩م.

٩٢ - حقوق النبي ﷺ على أمته: د.محمد بن خليفة التميمي، دار أضواء السلف، ط١ - ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٩٣ - الحكم والتحاكم في خطاب الوحي: عبد العزيز مصطفى كامل، دار طيبة، ط١ - ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٩٤ - الحكومة الإسلامية: أبو الأعلى المودودي - ترجمة أحمد إدريس - المختار الإسلامي للطباعة والنشر - القاهرة - ط١ - ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

٩٥ - حلية الأولياء: أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٥١م.

٩٦ - حوار الرسول مع اليهود: د.محسن الناظر، دار الوفاء مصر، ط٢ - ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

(خ)

٩٧ - خاتم النبيين ﷺ: الشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر، بيروت، ط١ - ١٩٧٢م.

٩٨ - الخصائص العامة للإسلام: د.يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط٤ - ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٩٩ - الخصائص الكبرى: عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان.

(د)

١٠٠ - دائرة المعارف الكاثوليكية، مقال التثليث.

١٠١ - الدر المنثور في التفسير بالمأثور: الإمام السيوطي، الناشر محمد أمين دمج، بيروت - لبنان.

١٠٢ - دراسات في السيرة النبوية: د.عماد الدين خليل، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط١١ -

١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

١٠٣ ـ **دراسات في عهد النبوة**: د.عبد الرحمٰن الشجاع، دار الفكر المعاصر ـ صنعاء، اليمن، ط١ ـ ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

١٠٤ ـ **دراسات قرآنية**: محمد قطب، دار الشروق، ط٥ ـ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١٠٥ ـ **دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ**: د.محمد رواس قلعجي، دار النفائس، ط١ ـ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١٠٦ ـ **الدرر في اختصار المغازي والسير**: يوسف بن عبد البر، لجنة إحياء التراث، وزارة الأوقاف، القاهرة، مصر، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٤م.

١٠٧ ـ **دروس في الكتمان**: محمود شيت خطاب، مكتبة النهضة، بغداد، ط١٠ ـ ١٩٨٨م.

١٠٨ ـ **دستور للأمة من القرآن والسنة**: د.عبد الناصر العطار، مؤسسة علوم القرآن، الشارقة، دولة الإمارات، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط١ ـ ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

١٠٩ ـ **الدعوة الإسلامية**: عبد الغفار عزيز.

١١٠ ـ **دعوة الله بين التكوين والتمكين**: د.علي جريشة، مكتبة وهبة، مصر، ط١ ـ ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

١١١ ـ **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**: الحافظ أبو بكر أحمد البيهقي، تحقيق د.عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١ ـ ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

١١٢ ـ **دور المرأة في خدمة الحديث**: آمال قرداش، كتاب الأمة، الدوحة قطر، ط١ ـ ١٤٢٠هـ.

١١٣ ـ **دولة الرسول ﷺ من التكوين إلى التمكين**: د.كامل سلامة الدقس، دار عمار، عمّان، الأردن، ط١ ـ ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

١١٤ ـ **الدولة العربية الإسلامية**: منصور الحرابي، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، ليبيا، ط٢ ـ ١٩٨٣م.

١١٥ ـ **ديوان أبي بكر الصديق**: حققه وشرحه راجي الأسمر، دار صادر بيروت، ط١ ـ ١٩٩٧م.

١١٦ ـ **ديوان حسان بن ثابت**: دار الشرق العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ ط١٩٩١م.

١١٧ ـ **ديوان حسان بن ثابت**: دار صادر ـ لبنان، بدون تاريخ.

١١٨ ـ **ديوان شوقي، الأعمال الشعرية الكاملة**: دار العودة، بيروت، ط ـ ١٩٨٦م.

١١٩ ـ **ديوان عنترة**: فاروق الطباع، دار القلم، بيروت ـ لبنان.

(ر)

١٢٠ ـ **الرؤى والأحلام في النصوص الشرعية**: أسامة عبد القادر.

١٢١ ـ **الرؤيا ضوابطها وتفسيرها**: هشام الحمصي، دار الكلم الطيب، دمشق ـ بيروت، ط٢ ـ ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

١٢٢ ـ رجال الإدارة في الدولة الإسلامية: د.حسين محمد سليمان، دار الإصلاح، الدمام بالسعودية.

١٢٣ ـ الرحيق المختوم: صفي الرحمٰن المباركفوري، مؤسسة الرسالة ـ لبنان، ط١ ـ ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

١٢٤ ـ الرحيق المختوم (أيضاً): صفي الرحمٰن المباركفوري. دار الوفاء ـ المنصورة، مصر، ط١ ـ ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

١٢٥ ـ رسالة الأنبياء: عمر أحمد عمر، دار الحكمة دمشق، ط١ ـ ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

١٢٦ ـ الرسول القائد: محمود شيت خطاب ـ دار مكتبة الحياة، ومكتبة النهضة بغداد، ط٢ ـ ١٩٦٠م.

١٢٧ ـ الرسول المبلغ: د.صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط١ ـ ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

١٢٨ ـ الرسول المعلم وأساليبه في التعليم: الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، دار مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب ـ ط١ ـ ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

١٢٩ ـ الروض الأُنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام: أبو القاسم السهيلي، تحقيق عبد الرحمٰن الوكيل، دار الكتب الحديثة، ط ـ ١٣٨٧هـ.

(ز)

١٣٠ ـ زاد المسير في علم التفسير: أبو الفرج ابن الجوزي، المكتب الإسلامي، ط١ ـ ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٥م.

١٣١ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد: أبو عبد الله بن القيم، حققه: شعيب الأرناؤوط، وعبد القادر، مؤسسة الرسالة، ط١ ـ ١٣٩٩هـ.

١٣٢ ـ زاد المعاد (أيضاً): ابن القيم، المطبعة المصرية ومكتبتها ـ القاهرة (ب ـ ت).

١٣٣ ـ زاد اليقين: لاشين أبو شنب، دار البشير، طنطا ـ مصر، ط ـ ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

١٣٤ ـ الزهد: أحمد بن حنبل، دار الريان للتراث، القاهرة، مصر، ط٢ ـ ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

١٣٥ ـ زيد بن ثابت، كاتب الوحي، وجامع القرآن: صفوان داوودي، دار القلم، دمشق، ط١ ـ ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

(س)

١٣٦ ـ سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد: محمد بن يوسف الصالحي، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

١٣٧ ـ السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة: د.بريك أبو مايلة، دار ابن الجوزي، ط١ ـ ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

١٣٨ ـ **السفارات النبوية**: د.محمد العقيلي، دار إحياء العلوم ـ بيروت، ط١ ـ ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

١٣٩ ـ **سفراء النبي ﷺ**: محمود شيت خطاب، مؤسسة الريان، دار الأندلس الخضراء، ط١ ـ ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

١٤٠ ـ **سنن الدَّارقطْني**: علي بن عمر الدارقطني، وبذيله التعليق المغني لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي ـ عالم الكتب ـ لبنان ـ بدون تاريخ.

١٤١ ـ **سنن أبي داود**: الإمام أبو داود، تحقيق وتعليق عزت الدعاس، سورية، ١٣٩١هـ.

١٤٢ ـ **سنن ابن ماجة**: الحافظ أبو عبد الله محمد بن زيد القزويني، دار الفكر.

١٤٣ ـ **سنن الترمذي**: الإمام أبو عيسى الترمذي، دار الفكر، ١٣٩٨هـ.

١٤٤ ـ **سنن النسائي**: أبو عبد الرحمٰن أحمد شعيب النسائي، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، ١٩٦٤م.

١٤٥ ـ **سير أعلام النبلاء**: الإمام الذهبي، مؤسسة الرسالة، ط١ ـ ١٤٠٣هـ.

١٤٦ ـ **السير والمغازي لابن إسحاق**: تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، ط١ ـ ١٩٧٨م.

١٤٧ ـ **السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون**: علي بن برهان الدين الحلبي، دار المعرفة.

١٤٨ ـ **سيرة الرسول ﷺ، صور مقتبسة من القرآن الكريم**: الأستاذ محمد عزة دروزة، عني بها الأستاذ عبد الله إبراهيم الأنصاري، المؤتمر العالمي للسيرة النبوية ـ الدوحة قطر ـ ١٤٠٠هـ.

١٤٩ ـ **السيرة النبوية**: أبو الحسن الندوي: دار الشروق ـ جدة، طبعة أخرى توزيع دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة ـ ط٧ ـ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م.

١٥٠ ـ **السيرة النبوية، دراسة تحليلية**: محمد أبو فارس، دار الفرقان، عمان، ط١ ـ ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

١٥١ ـ **السيرة النبوية**: الإمام الذهبي تحقيق حسام الدين القدسي، مكتبة هلال بيروت.

١٥٢ ـ **السيرة النبوية الصحيحة**: د.أكرم العمري، مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة، ط١ ـ ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

١٥٣ ـ **السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة**: صالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي، ط١ ـ ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

١٥٤ ـ **السيرة النبوية دروس وعِبَر**: د.مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي بيروت، لبنان، ط٩ ـ ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

١٥٥ ـ **السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنّة**: د.محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٣ ـ ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

١٥٦ ـ **السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية**: د.مهدي رزق الله أحمد، مركز الملك فيصل

للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط١ ـ ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

١٥٧ ـ **السيرة النبوية**: أبو حاتم البستي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١ ـ ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

١٥٨ ـ **السيرة النبوية**: أبو محمد بن عبد الملك بن هشام، دار الفكر، (ب ـ ت).

١٥٩ ـ **السيرة النبوية**: لابن هشام مع شرح أبي ذر الخشني.

١٦٠ ـ **السيرة النبوية**: ابن هشام تحقيق وضبط: مصطفى السقا، إبراهيم الإيباري، عبد الحفيظ شلبي ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر ط٢ ـ ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م.

١٦١ ـ **السيرة النبوية**: ابن كثير، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار الفكر بيروت ـ لبنان، ط٢ ـ ١٣٩٨هـ.

١٦٢ ـ **السيرة النبوية**: محمد الصويّاني، مؤسسة الريان، ط١ ـ ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

(ش)

١٦٣ ـ **شذرات الذهب**: عبد الحي بن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٦٤ ـ **شرح ديوان حسان بن ثابت**: ضبطه وصححه عبد الرحمٰن البرقوقي ـ دار الأندلس، بيروت (ب ـ ت)، وذكر البرقوقي في مقدمته لشرح ديوان المتنبي أنه أنجز شرح ديوان سيدنا حسان سنة (١٣٤٨هـ ـ ١٩٢٩م).

١٦٥ ـ **شرح السنّة**: أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، القاهرة، ط١ ـ ١٩٩٥م.

١٦٦ ـ **شرح الشفا**: نور الدين مُلاً علي قاري ـ تحقيق حسنين مخلوف، مطبعة المدني ـ القاهرة، ١٣٩٨هـ.

١٦٧ ـ **شرح العقيدة الطحاوية**: ابن أبي العز الحنفي، تحقيق وتعليق د.عبد الله بن عبد المحسن التركي، وشعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٤ ـ ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

١٦٨ ـ **شرح المعلقات**: الحسين الزوزني، تحقيق يوسف علي بدوي، دار ابن كثير، دمشق، ط١ ـ ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.

١٦٩ ـ **شرح المواهب اللدنية للقسطلاني**: محمد بن عبد الباقي الزرقاني، دار المعرفة، بيروت.

١٧٠ ـ **شرح النووي على صحيح مسلم**: للإمام النووي (ت ٦٧٦هـ) ـ ط ـ ١ المطبعة المصرية ومكتبتها ـ القاهرة ـ ١٣٤٧هـ ـ ١٩٢٩م.

١٧١ ـ **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**: الإمام القاضي عياض، استانبول، عثمانية.

(ص)

١٧٢ ـ **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**: أحمد بن علي القلقشندي، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ـ ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

١٧٣ ـ **الصحابي الشاعر عبد الله بن الزِّبَعْرَي**: تأليف محمد علي كابتي، دار القلم، دمشق، سورية، ط١ ـ ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

١٧٤ ـ **صحيح البخاري**: محمد بن إسماعيل البخاري، دار الفكر، ط١ ـ ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

١٧٥ ـ **صحيح الجامع الصغير وزيادته**: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت ـ لبنان، ط٣ ـ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١٧٦ ـ **صحيح السيرة النبوية، المسماة السيرة الذهبية**: محمد بن رزق الطرهوني، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط١ ـ ١٤١٤هـ.

١٧٧ ـ **صحيح السيرة النبوية**: إبراهيم العلي، دار النفائس، ط٣ ـ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٩٨م.

١٧٨ ـ **صحيح سنن ابن ماجة**: ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربي لدول الخليج الرياض، ط٣ ـ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١٧٩ ـ **صحيح مسلم**: تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ط٢ ـ ١٩٧٢م.

١٨٠ ـ **الصراع مع الصليبيين**: د.محمد عبد القادر أبو فارس، دار البشير، طنطا، ط ـ ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

١٨١ ـ **الصراع مع اليهود**: د.محمد أبو فارس، دار الفرقان، ط١ ـ ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

١٨٢ ـ **صفة الصفوة**: ابن الجوزي، تحقيق: محمود فاخوري، ومحمد رواس قلعجي، دار المعرفة، بيروت ط٢ ـ ١٣٩٩هـ.

١٨٣ ـ **صفة الغرباء**: سلمان العودة، دار ابن الجوزي، ط٢ ـ ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

١٨٤ ـ **صفوة التفاسير**: محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، ط١ ـ ١٤٠١هـ.

١٨٥ ـ **صلاح الدين الأيوبي**: عبد الله علوان.

١٨٦ ـ **صلح الحديبية**: محمد أحمد باشميل، دار الفكر، ط٣ ـ ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

١٨٧ ـ **صور من حياة الرسول ﷺ**: أمين دويدار، دار المعارف، القاهرة، ط٤ ـ (ب ـ ت).

١٨٨ ـ **صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة**: د.محمد فوزي فيض الله، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت ط١ ـ ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

(ض)

١٨٩ ـ **ضوابط المصلحة**: د.محمد سعيد رمضان البوطي، مؤسسة الرسالة، ط٤ ـ ١٤٠٢هـ.

(ط)

١٩٠ ـ **الطاعة والمعصية وأثرهما في المجتمع**: محمد بن العثيمين، غزوة أحد.

١٩١ ـ **طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين**: محمد بن سلاَّم الجُمَحي، بدون معلومات نشر.

١٩٢ ـ **طبقات ابن سعد الكبرى**: محمد بن سعد الزهري، دار صادر، ودار بيروت للطباعة

والنشر، ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م.

١٩٣ ـ **طريق النبوة والرسالة**: د.حسين مؤنس، دار الرشاد، ط٢ ـ ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

١٩٤ ـ **الطريق إلى المدائن**: أحمد عادل كمال، دار النفائس، بيروت لبنان، ط٥ ـ ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

١٩٥ ـ **الطريق إلى المدينة**: محمد العبده، دار الجوهرة، عمان ط٢ ـ ١٩٩٩م.

١٩٦ ـ **الطريق إلى جماعة المسلمين**: حسين بن محسن بن عي جابر، دار الوفاء بالمنصورة ـ مصر ـ ط٥ ـ ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

(ظ)

١٩٧ ـ **ظاهرة الإرجاء**: سفر الحوالي، مكتبة الطيب، القاهرة ـ مصر ـ ط١ ـ ١٤١٧هـ.

(ع)

١٩٨ ـ **العبادة في الإسلام**: يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٢ ـ ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

١٩٩ ـ **عبد الله بن مسعود**: عبد الستار الشيخ، دار القلم، دمشق، ط٢ ـ ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

٢٠٠ ـ **العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ**: محمد فرج، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣ ١٩٧٧م.

٢٠١ ـ **عقيدة أهل السنة في الصحابة**: د.ناصر حسن الشيخ، مكتبة الرشد، ط١ ـ ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

٢٠٢ ـ **علاج القرآن الكريم للجريمة**: د.عبد الله الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط١ ١٤١٣هـ.

٢٠٣ ـ **العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية**: د.سعيد عبد الله حارب المهيري، مؤسسة الرسالة ط١ ـ ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

٢٠٤ ـ **علاقة الآباء بالأبناء في الشريعة الإسلامية**: د.سعاد الصالح، الناشر تهامة جدة، ط١ ١٤٠١هـ.

٢٠٥ ـ **عمدة التفسير (مختصر ابن كثير)**: الشيخ أحمد شاكر ـ مكتبة التراث الإسلامي ـ مصر، ـ ١٩٩١م.

٢٠٦ ـ **عمدة القاري، شرح صحيح البخاري**: بدر الدين العيني.

٢٠٧ ـ **العهد والميثاق في القرآن الكريم**: د.ناصر العمر، دار العاصمة ط١ ـ ١٤١٣هـ.

٢٠٨ ـ **عون المعبود، شرح سنن أبي داود**: محمد شمس الحق العظيم آبادي تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر ـ بيروت.

٢٠٩ ـ **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**: ابن سيد الناس، دار المعرفة، بيروت.

(غ)

٢١٠ ـ الغرباء الأولون: سلمان العودة، دار ابن الجوزي، الدمام السعودية، ط٣ ـ ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

٢١١ ـ غزوة أحد: أحمد عز الدين.

٢١٢ ـ غزوة أحد دراسة دعوية: محمد عيظة بن سعيد بن مذحج، دار أشبيليا، ط١ ـ ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

٢١٣ ـ غزوة أُحد: د. محمد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، عمان ـ الأردن، ط١ ـ ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

٢١٤ ـ غزوة الأحزاب: د. محمد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، عمان، ط١ ـ ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٢١٥ ـ غزوة الأحزاب: محمد أحمد باشميل، دار الفكر ط٥ ـ ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.

٢١٦ ـ غزوة بدر الكبرى الحاسمة: محمود خطاب.

٢١٧ ـ غزوة بدر الكبرى: د. محمد أبو فارس، دار الفرقان ط١ ـ ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

٢١٨ ـ غزوة بدر الكبرى: محمد أحمد باشميل، دار الفكر ط٦ ـ ١٣٩٤هـ.

٢١٩ ـ غزوة تبوك: محمد أحمد باشميل، دار الفكر، بيروت.

(ف)

٢٢٠ ـ فتح الباري: ابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.

٢٢١ ـ الفتح الرباني، في ترتيب مسند الإمام أحمد: أحمد عبد الرحمٰن البنا ـ الشهير (الساعاتي)، مطبعة الفتح الرباني بالقاهرة، ط١، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ ط٢ ـ (ب ـ ت). مصورة عن الطبعة التي تمت في حياة المؤلف قبل ١٩٥٨م.

٢٢٢ ـ فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: محمد بن علي الشوكاني، دار الفكر.

٢٢٣ ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل: لابن حزم، مكتبة السلام العالمية.

٢٢٤ ـ فصول في السيرة النبوية: عبد المنعم السيد.

٢٢٥ ـ فقه الإسلام، شرح بلوغ المرام: فضيلة الشيخ عبد القادر شيبة الحمد، مطابع الرشيد، المدينة المنورة، ط١ ـ ١٤٠٣هـ.

٢٢٦ ـ فقه الابتلاء: محمد أبو صعيليك، دار البيارق، عمان ـ بيروت، ط١ ـ ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

٢٢٧ ـ فقه التمكين في القرآن الكريم: د. علي محمد الصلاَّبي، دار البيارق، عمَّان ط١ ـ ١٩٩٩م.

٢٢٨ ـ **فقه الدعوة إلى الله**: د.علي عبد الحليم محمود، دار الوفاء، ط١ ـ ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

٢٢٩ ـ **فقه الدعوة الفردية**: د.السيد محمد نوح، دار اقرأ، صنعاء.

٢٣٠ ـ **فقه الزكاة**: د.القرضاوي، مكتبة وهبة، ط٢١ ـ ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

٢٣١ ـ **الفقه السياسي للوثائق النبوية**: خالد الفهداوي، دار عمار ط١ ـ ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٢٣٢ ـ **فقه السيرة النبوية**: منير الغضبان، مهد البحوث العلمية وإحياء التراث، مكة المكرمة.

٢٣٣ ـ **فقه السيرة**: د.محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق ـ سورية، ط١١، ط٦ ـ دار السلام ـ القاهرة ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩.

٢٣٤ ـ **فقه السيرة**: الغزالي، دار القلم، دمشق ـ سورية ط٤ ـ ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

٢٣٥ ـ **فلسفة التربية الإسلامية**: ماجد عرسان الكيلاني، مكتبة هادي، مكة المكرمة، ط ـ ١٤٠٩هـ.

٢٣٦ ـ **الفوائد**: محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، دار الريان للتراث، القاهرة مصر، ط١ ـ ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٢٣٧ ـ **في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية**: د.إبراهيم علي محمد، وزارة الأوقاف بدولة قطر، ط١ ـ رجب ١٤١٧هـ.

٢٣٨ ـ **في ظلال السيرة النبوية، الهجرة النبوية**: د.محمد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، عمان ـ الأردن ط٢ ـ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٢٣٩ ـ **في ظلال القرآن**: سيد قطب، دار الشروق ط٩ ـ ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

(ق)

٢٤٠ ـ **القاموس المحيط**: مجد الدين محمد الفيروزآبادي، مطبعة مصطفى البابي وأولاده، بمصر، ط٢ ـ ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م.

٢٤١ ـ **قراءة سياسة للسيرة النبوية**: محمد قلعجي، دار النفائس بيروت، لبنان، ط١ ـ ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

٢٤٢ ـ **قصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير وأثرها في التراث العربي**: د.السيد إبراهيم محمد، المكتب الإسلامي، ط١ ـ ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٢٤٣ ـ **قضايا في المنهج**: سلمان العودة، دار مكتبة القدس، ط٣ ـ ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

٢٤٤ ـ **قضايا نساء النبي ﷺ والمؤمنات**: حفصة بنت عثمان الخليفي، دار المسلم ط١ ـ ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

٢٤٥ ـ **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**: عز الدين بن عبد السلام السلمي (ت ـ ٦٦٠هـ)، المكتبة الحسينية المصرية، بجوار الأزهر، ط١ ـ ١٣٥٣هـ ـ ١٩٣٤م.

٢٤٦ ـ **القول المبين في سيرة سيد المرسلين**: د.محمد الطيب النجار، دار اللواء، الرياض،

١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

٢٤٧ ـ **قيادة الرسول السياسة والعسكرية**: أحمد راتب عرموش، دار النفائس، ط١ ـ ١٤١٩هـ ـ ١٩٨٩م.

٢٤٨ ـ **القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ**: دار القلم ط١ ـ ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

(ك)

٢٤٩ ـ **الكامل في التاريخ**: لابن الأثير، دار صادر ـ بيروت.

(ل)

٢٥٠ ـ **لسان العرب**: محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت.

٢٥١ ـ **لقاء المؤمنين**: عدنان النحوي، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض ـ السعودية ط٣ ـ ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

(م)

٢٥٢ ـ **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**: أبو الحسن الندوي، ط٧ ـ دار المعارف، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٢٥٣ ـ **المال في القرآن الكريم**: سليمان الحصين، دار المعراج الدولية، ط١ ـ ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٢٥٤ ـ **مباحث في إعجاز القرآن**: مصطفى مسلم، دار المسلم، الرياض، ط٢ ـ ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

٢٥٥ ـ **مباحث في التفسير الموضوعي**: مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق ـ سورية.

٢٥٦ ـ **مباحث في علوم القرآن**: مناع القطان، مكتبة المعارف، الرياض، ط٨ ـ ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

٢٥٧ ـ **مبادىء علم الإدارة**: محمد نور الدين عبد الرزاق، مكتبة الخدمات الحديثة، جدة ـ السعودية، ط١ ـ (ب ـ ت).

٢٥٨ ـ **مبادىء نظام الحكم في الإسلام**: عبد الحميد متولي، دار المعارف ط١.

٢٥٩ ـ **المبسوط**: شمس الدين السَّرْخسِيّ، مطبعة السعادة، مصر، ط١.

٢٦٠ ـ **المجتمع المدني في عهد النبوة**: د.أكرم العمري ط١ ـ ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

٢٦١ ـ **مجلة المجتمع الكويتية**: عدد رقم ٢٤٨، ١٧ صفر ١٣٩٩هـ.

٢٦٢ ـ **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**: نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، بتحرير الحافظين العراقي وابن حجر، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣ ـ ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

٢٦٣ ـ **مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية**: جمع عبد الرحمٰن بن محمد قاسم العاصمي النجدي، المكتب التعليمي السعودي بالمغرب.

٢٦٤ ـ **مجموعة الوثائق السياسية**: لمحمد حميد الله، دار النفائس ط٥ ـ ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٢٦٥ ـ **محاسن التأويل**: (تفسير)، محمد جمال الدين القاسمي، دار الفكر، بيروت.

٢٦٦ ـ **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية)**: أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي، تحقيق المجلس العلمي بفاس، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، ط١٣٩٥هـ.

٢٦٧ ـ **محمد رسول الله ﷺ**: محمد الصادق عرجون، دار القلم، ط٢ ـ ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٢٦٨ ـ **محمد رسول الله ﷺ**: محمد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٥م.

٢٦٩ ـ **محنة المسلمين في العهد المكي**: د.سليمان السويكت، مكتبة التوبة، الرياض ط١ ـ ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

٢٧٠ ـ **المختار من كنوز السنة**: محمد عبد الله دراز، دار الأنصار القاهرة، ط٢ ـ ١٩٧٨م.

٢٧١ ـ **مختصر الصواعق المرسلة على الجمهية والمعطلة**: لابن قيم الجوزية، اختصره محمد الموصلي، مكتبة الرياض الحديثة.

٢٧٢ ـ **مختصر سيرة الرسول ﷺ**: الشيخ محمد بن عبد الوهاب، جامعة الإمام محمد بن سعود.

٢٧٣ ـ **مختصر صحيح مسلم**: الحافظ زكي الدين المنذري، تحقيق محمد ناصر الألباني، المكتب الإسلامي ـ دمشق، ط٣ ـ ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.

٢٧٤ ـ **. المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية**: محمد جمال الدين علي محفوظ، مطابع الهيئة المصرية للكتاب بالقاهرة.

٢٧٥ ـ **مدخل لفهم السيرة**: د.يحيى اليحيى، أخذها المؤلف من صاحبها قبل أن يطبعها.

٢٧٦ ـ **المدرسة النبوية العسكرية**: د.أبو فارس، دار الفرقان، عمان.

٢٧٧ ـ **المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدي**: محمد حسن شراب، دار القلم، دمشق، الدار الشامية بيروت، ط١ ـ ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

٢٧٨ ـ **المرأة في العهد النبوي**: د.عصمة الدين كركر، دار الغرب الإسلامي، ط١ ـ بيروت، ١٩٩٣م.

٢٧٩ ـ **مرض النبي ﷺ ووفاته وأثره على الأمة**: خالد أبو صالح، دار الوطن، ط١ ـ ١٤١٤هـ.

٢٨٠ ـ **مرويات غزوة أحد**: حسين أحمد الباكري، رسالة ماجستير نوقشت في الجامعة الإسلامية، إشراف د.أكرم العمري عام ١٣٩٩هـ.

٢٨١ ـ **مرويات غزوة الحديبية**: د.حافظ الحكمي، دار ابن القيم، ط١ ـ ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

٢٨٢ ـ **مرويات غزوة بدر**: أحمد باوزير، مكتبة طيبة، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

٢٨٣ ـ **مرويات غزوة بني المصطلق**: إبراهيم القريبي، طبع المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط١ ـ عام ١٤٠٢هـ.

٢٨٤ ـ **مساجد القاهرة ومدارسها**: أحمد فكري، طالإسكندرية ١٩٦١م.

٢٨٥ ـ **المستدرك على الصحيحين**: الإمام أبي عبد الله الحاكم النيسابوري، وبذيله التلخيص للذهبي، نشر مكتب المطبوعات الإسلامية، ط ـ ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م.

٢٨٦ ـ **المستدرك على الصحيحين (أيضاً)**: الحاكم مع التلخيص للذهبي، الناشر مكتبة النصر الحديثة، الرياض ط. ب. ت، تصوير عن ط ـ دائرة المعارف النظامية بحيدرآباد الدكن، الهند ١٣٤١هـ.

٢٨٧ ـ **المستشفيات الإسلامية**: د.عبد الله عبد الرزاق مسعود العيد، دار الضياء للنشر والتوزيع. عمان، الأردن، ط١ ـ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م.

٢٨٨ ـ **المستطرف في كل فن مستظرف**: شهاب الدين الإبشيهي، مكتبة الحياة ـ بيروت.

٢٨٩ ـ **المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة**: د.عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، ط١ ـ ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

٢٩٠ ـ **المسلمون والروم في عصر النبوة**: عبد الرحمٰن أحمد سالم، دار الفكر العربي، ط ـ ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

٢٩١ ـ **مسند أبي يعلى الموصلي**: الحافظ أحمد بن علي التميمي، تحقيق حسين سليم أسد ـ دار المأمون للتراث، دمشق، بيروت ـ ط١ ـ ١٤٠٤ ـ ١٤٠٩هـ= ١٩٨٤ ـ ١٩٨٨م.

٢٩٢ ـ **المسند**: أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي، بيروت.

٢٩٣ ـ **المسند**: الإمام أحمد، أشرف على تحقيقه: شعيب الأرناؤوط مؤسسة الرسالة ـ لبنان، ط١ ـ ١٤١٢هـ ـ ١٤٢٢هـ= ١٩٩٢ ـ ٢٠٠١م.

٢٩٤ ـ **المسند**: الإمام أحمد، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر (ج ١ ـ ١٥) دار المعارف ـ مصر ط٣ ـ ١٣٦٨هـ ـ ١٩٧٥م.

٢٩٥ ـ **المسند**: الإمام أحمد، (من المجلد الثالث إلى السادس) تحقيق طائفة من المخرجين بعناية أبي عاصم حسن عباس قطب ـ مؤسسة قرطبة ـ القاهرة ـ مصر ط١ ـ ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

٢٩٦ ـ **المشروع الإسلامي لنهضة الأمة، قراءة في فكر الإمام حسن البنا**: لمجموعة من الباحثين لم تطبع حتى كتابة هذا البحث [١].

٢٩٧ ـ **مشكاة المصابيح**: الخطيب التبريزي ـ تحقيق محمد ناصر الدين الألباني المكتب الإسلامي، دمشق ط١ ـ ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١، ط٣ ـ ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٢٩٨ ـ **مصعب بن عمير، الداعية المجاهد**: محمد حسن بريغش، دار القلم ـ دمشق، ط٤ ـ

---

(١) طبع فيما بعد بعنوان: حول أساسيات المشروع الإسلامي لنهضة الأمة ـ قراءة في فكر الإمام الشهيد حسن البنا ـ المركز الإسلامي للدراسات والبحوث ـ إعداد: أ. د. عبد الحميد الغزالي.

١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٢٩٩ ـ **مصنف عبد الرزاق**: أبو بكر عبد الرزاق بن همّام الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمٰن الأعظمي، ط١.

٣٠٠ ـ **المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية**: ابن حجر العسقلاني، تحقيق: حبيب الرحمٰن الأعظمي.

٣٠١ ـ **معارك خالد بن الوليد**: د.ياسين سويد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٤ ـ ١٩٨٩م.

٣٠٢ ـ **معالم قرآنية في الصراع مع اليهود**: د.مصطفى مسلم محمد، دار المسلم، الرياض، ط١ ـ ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

٣٠٣ ـ **المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي**: د.محمد الديك، دار الفرقان للنشر والتوزيع، ط٢ ـ ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

٣٠٤ ـ **معجم البلدان**: ياقوت الحموي، دار صادر، ودار بيروت، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

٣٠٥ ـ **معجم الطبراني (المعجم الكبير)**: سليمان بن أحمد الطبراني، دار العربية، بغداد، ١٣٩٨هـ.

٣٠٦ ـ **المعجم الكبير**: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، (م: ٢٦٠هـ ت: ٣٦٠ م) دار مكتبة العلوم والحكم، القاهرة ط٢ ـ ١٤٠٦هـ ١٩٨٥ م، مكتبة ابن تيمية بتحقيق حمدي السلفي ط٢ ـ ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٣م.

٣٠٧ ـ **معركة الوجود بين القرآن والتلمود**: د.عبد الستار فتح الله سعيد، دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٣٠٨ ـ **المعوقون للدعوة الإسلامية في عهد النبوة وموقف الإسلام منها**: د.سميرة محمد جمجوم، دار المجتمع جدة، ط١ ـ ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٣٠٩ ـ **المغازي النبوية**: تحقيق سهيل زكار، للزهري، دار الفكر، دمشق ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

٣١٠ ـ **مغازي رسول الله ﷺ**: عروة بن الزبير، تحقيق د.محمد الأعظمي، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ط١ ـ ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

٣١١ ـ **المغازي**: محمد عمر الواقدي (ت: ٢٠٧هـ) تحقيق د.مارسدن جونس، عالم الكتب، بيروت ط٣ ـ ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

٣١٢ ـ **مفاهيم ينبغي أن تصحح**: محمد قطب، دار الشروق ـ القاهرة، ط٨ ـ ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

٣١٣ ـ **المفصل في أحكام النساء**: د.عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، ط١ ـ ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

٣١٤ ـ **مقاصد الشريعة الإسلامية**: د.محمد سعد اليوبي، دار الهجرة، الرياض ط١ ـ ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

٣١٥ ـ **المقاصد العامة للشريعة الإسلامية**: يوسف حامد العالم، الدار العلمية للكتاب الإسلامي الرياض، ط٢ ـ ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٣م.

٣١٦ ـ **مقدمة ابن الصلاح**: أبو عمرو ابن الصلاح، وشرحها للحافظ العراقي، ط ـ دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.

٣١٧ ـ **مقدمة ابن خلدون**: عبد الرحمٰن بن خلدون، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ط(ب ـ ت).

٣١٨ ـ **مقومات الداعية الناجح**: د.علي بادحدح، دار الأندلس الخضراء، جدة ط١ ـ ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

٣١٩ ـ **مقومات السفراء في الإسلام**: حسن فتح الباب، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ـ ١٩٧٠م.

٣٢٠ ـ **مقومات النصر**: د.أحمد أبو الشباب، المكتبة العصرية، لبنان ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

٣٢١ ـ **مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول**: للأستاذ أحمد الشريف.

٣٢٢ ـ **ملامح الشورى في الدعوة الإسلامية**: عدنان النحوي، ط٢.

٣٢٣ ـ **من معين السيرة**: صالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي، ط٢ ـ ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

٣٢٤ ـ **من هدي سورة الأنفال**: محمد أمين المصري ـ مكتبة دار الأرقم ـ الكويت.

٣٢٥ ـ **المنافقون**: محمد جميل غازي، مكتبة المدني ومطبعتها جدة ـ السعودية ١٩٧٢م.

٣٢٦ ـ **منامات الرسول ﷺ**: عبد القادر الشيخ إبراهيم، دار القلم العربي بحلب ط١ ـ ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

٣٢٧ ـ **مناهج وآداب الصحابة في التعلم والتعليم**: د.عبد الرحمٰن البر، دار اليقين المنصورة، ط١ ـ ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

٣٢٨ ـ **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**: أبو الفرج ابن الجوزي، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.

٣٢٩ ـ **منهاج السنة النبوية**: ابن تيمية، مؤسسة قرطبة للطباعة والنشر والتوزيع ط١ ـ ١٤١٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٣٣٠ ـ **المنهاج القرآني في التشريع**: عبد الستار فتح الله سعيد، دار التوزيع والنشر الإسلامية ـ ط١ ـ ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

٣٣١ ـ **منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية**: سليم حجازي، دار المنارة، ط١ ـ ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٣٣٢ ـ **منهج الإسلام في تزكية النفس**: د.أنس أحمد كرزون، دار نور المكتبات، دار ابن حزم ـ ط٢ ـ ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

٣٣٣ ـ **المنهج التربوي للسيرة النبوية ـ التربية الجهادية**: منير الغضبان، مكتبة المنار ط١ ـ ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

٣٣٤ ـ **منهج التربية الإسلامية**: محمد قطب، دار الشروق ط٥ ـ ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٣٣٥ ـ **المنهج الحركي للسيرة النبوية**: منير الغضبان، مكتبة المنار ـ الأردن ـ ط٣ ـ ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

٣٣٦ ـ **منهج الرسول في غرس الروح الجهادية في نفوس أصحابه**: د.السيد محمد نوح، جامعة الإمارات العربية المتحدة ـ ط١ ـ ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

٣٣٧ ـ **الموازنة بين ذوق السماع وذوق الصلاة والقرآن**: الإمام ابن قيم الجوزية، تحقيق: مجدي فتحي السيد.

٣٣٨ ـ **الموافقات في أصول الشريعة**: لأبي إسحاق إبراهيم موسى اللخمي الشهير بالشاطبي، دار الفكر ـ ١٣٤١هـ.

٣٣٩ ـ **الموسوعة في سماحة الإسلام**: محمد الصادق عرجون، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، ط٢ ـ ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

(ن)

٣٤٠ ـ **نشأة الدولة الإسلامية**: د.عون الشريف قاسم، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢ ـ ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

٣٤١ ـ **نصب الراية في أحاديث الهداية ـ بحاشية بغية الألمعي في تخريج الزيلعي**: عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي ـ المكتب الإسلامي ـ دمشق، ١٣٩٣هـ.

٣٤٢ ـ **نظام الحكم، في الشريعة والتاريخ الإسلامي**: ظافر القاسمي، دار النفائس ط٦ ـ ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

٣٤٣ ـ **نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية**: محمد عبد الحي الكتاني، دار الأرقم، بيروت ـ لبنان، ط٢.

٣٤٤ ـ **النظام السياسي في الإسلام**: د.محمد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان ط٢ ـ ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م.

٣٤٥ ـ **نظرات في رسالة التعاليم**: محمد بن عبد الله الخطيب، محمد عبد الحليم حامد ـ دار التوزيع والنشر الإسلامية ـ مصر ١٩٩٥م.

٣٤٦ ـ **نظرات في السيرة**: الإمام حسن البنا، سجلها وأعدها للنشر أحمد عيسى عاشور مكتبة الاعتصام، القاهرة، ط١ ـ ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

٣٤٧ ـ **نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم**: إعداد مجموعة من المختصين بإشراف صالح بن حميد، دار الوسيلة ط١ ـ ١٤١٨هـ.

٣٤٨ ـ **نفوس ودروس في إطار التصوير القرآن**: توفيق محمد سبع، مجمع البحوث الإسلامية القاهرة ط١ ـ (ب ـ ت).

٣٤٩ ـ **النكت والعيون**: (تفسير الماوردي)، أبو الحسن علي بن حبيب الماوردي، تحقيق خضر

محمد خضر ـ وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والتراث الإسلامي بالكويت.

٣٥٠ ـ **النهاية في غريب الحديث**: لابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، ط ـ المكتبة الإسلامية. لصاحبها رياض الشيخ (١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥ م).

٣٥١ ـ **نور اليقين**: محمد الخضري، دار القلم، دمشق.

٣٥٢ ـ **نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار**: محمد بن علي الشوكاني، دار الحديث، القاهرة.

(هـ)

٣٥٣ ـ **الهجرة الأولى في الإسلام**: د.سليمان العودة، دار طيبة للنشر،الرياض، ط١ ـ ١٤١٩هـ.

٣٥٤ ـ **هجرة الرسول وصحابته في القرآن والسنة**: أحمد عبد الغني النجولي الجمل،دار الوفاء، مصر ط١ ـ ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

٣٥٥ ـ **الهجرة النبوية المباركة**: د.عبد الرحمٰن البر، دار الكلمة، المنصورة ـ مصر، ط١ ـ ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

٣٥٦ ـ **الهجرة النبوية**: د.محمد أبو فارس.

٣٥٧ ـ **الهجرة في القرآن الكريم**: أحزمي سامعون جزولي، مكتبة الرشد الرياض، ط١ ـ ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

٣٥٨ ـ **هذا الحبيب محمد ﷺ يا محب**: أبو بكر الجزائري، مكتبة لينة.

٣٥٩ ـ **هذا الدين**: سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٤ ـ ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

(و)

٣٦٠ ـ **واقعنا المعاصر**: محمد قطب، مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر، جدة، ط٢ ـ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م.

٣٦١ ـ **الوحي والرسالة**: د.يحيى اليحيى، أخذت من المؤلف صورة قبل الطبع.

٣٦٢ ـ **الوسطية في القرآن الكريم**: د.علي محمد الصلاّبي، دار النفائس، دار البيارق، ط١ ـ ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

٣٦٣ ـ **وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى**: أبو الحسن بن عبد الله السمهودي، دار المصطفى، القاهرة ط ـ ١٣٢٦هـ.

٣٦٤ ـ **الوفود في العهد المكي وأثره الإعلامي**: علي رضوان أحمد الأسطل، دار المنار ـ الأردن، ط١ ـ ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

٣٦٥ ـ **وقفات تربوية مع السيرة النبوية**: أحمد فريد، دار طيبة، الرياض، ط٣ ـ ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

٣٦٦ ـ **وقفات تربوية من السيرة النبوية**: عبد الحميد البلالي، المنار، الكويت، ط٣ـ ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

٣٦٧ ـ **الولاء والبراء في الإسلام**: محمد سعيد القحطان، دار طيبة الرياض، ط٦ ـ ١٤١٣هـ.

٣٦٨ ـ **ولاية الشرطة في الإسلام**: نمر محمد الحميداني، دار عالم الكتب، ط٢ ـ ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

(ي)

٣٦٩ ـ **يقظة أولي الاعتبار ما ورد في ذكر الجنة والنار**: لصديق حسن.

٣٧٠ ـ **اليهود في السُنة المطهرة**: د.عبد الله الشقاري، دار طيبة، الرياض ط١ ـ ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

٣٧١ ـ **اليوم الآخر في الجنة والنار**: د.عمر الأشقر، مكتبة الفلاح، الكويت، ط٢ ـ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

فهرس الموضوعات

المقدمة: ٥

الفصل الأول
أهم الأحداث التاريخية قبل البعثة حتى نزول الوحي

المبحث الأول: الحضارات السائدة قبل البعثة ودياناتها ١٣
أولاً: الإمبراطورية الرومانية ١٣
ثانيًا: الإمبراطورية الفارسية ١٤
ثالثًا: الهند ١٤
رابعًا: أحوال العالم الدينية قبل البعثة المحمدية ١٥

المبحث الثاني: أصول العرب وحضارتهم ١٩
أولاً: أصول العرب ١٩
ثانيًا: حضارات الجزيرة العربية ٢١

المبحث الثالث: الأحوال الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية عند العرب ... ٢٢
أولاً: الحالة الدينية ٢٢
ثانيًا: الحالة السياسية ٢٤
ثالثًا: الحالة الاقتصادية ٢٥
رابعًا: الحالة الاجتماعية ٢٧
خامسًا: الحالة الأخلاقية ٣٢

المبحث الرابع: أهم الأحداث قبل مولد الحبيب المصطفى ﷺ ٣٧
أولاً: قصة حفر عبد المطلب جد النبي ﷺ لزمزم ٣٧
ثانيًا: قصة أصحاب الفيل ٣٩

المبحث الخامس: من المولد النبوي الكريم إلى حلف الفضول ٤٤
أولاً: نسب النبي ﷺ ٤٤
ثانيًا: زواج عبد الله بن عبد المطلب من آمنة بنت وهب ورؤيا آمنة أم النبي ﷺ ٤٦
ثالثًا: ميلاد الحبيب المصطفى ٤٧

رابعًا: مرضعاته عليه الصلاة والسلام ٤٨
خامسًا: وفاة أمه وكفالة جده ثم عمه ٥٣
سادسًا: عمله ﷺ في الرعي ٥٤
سابعًا: حفظ الله تعالى لنبيه قبل البعثة ٥٦
ثامنًا: لقاء الراهب بحيرا بالرسول وهو غلام ٥٧
تاسعاً: حرب الفجار ٥٩
عاشرًا: حلف الفضول ٥٩

المبحث السادس: تجارته لخديجة وزواجه منها وأهم الأحداث إلى البعثة ٦٢
أولاً: تجارته ﷺ لخديجة وزواجه منها ٦٢
ثانيًا: اشتراكه ﷺ في بناء الكعبة الشريفة ٦٤
ثالثًا: تهيئة الناس لاستقبال نبوة محمد ﷺ ٦٦
١ ـ بشارات الأنبياء بمحمد ﷺ ٦٦
٢ ـ بشارات علماء أهل الكتاب بنبوته ﷺ ٦٩
٣ ـ الحالة العامة التي وصل إليها الناس ٧٠
٤ ـ إرهاصات نبوته ﷺ ٧٠

الفصل الثاني
نزول الوحي والدعوة السرية

المبحث الأول: نزول الوحي على سيد الخلق أجمعين ﷺ ٧٢
أولاً: الرؤيا الصالحة ٧٣
ثانيًا: ثم حبب إليه الخلاء ٧٤
ثالثًا: حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ٧٥
رابعًا: الشدة التي تعرض لها النبي ﷺ ووصف ظاهرة الوحي ٧٦
خامسًا: أنواع الوحي ٨٧
سادسًا: أثر المرأة الصالحة في خدمة الدعوة ٧٩
سابعًا: وفاء النبي ﷺ للسيدة خديجة ﵂ ٨٢
ثامنًا: سنة تكذيب المرسلين ٨٣
تاسعًا: قوله: (وفتر الوحي) ٨٤

المبحث الثاني: الدعوة السرية ٨٤
أولاً: الأمر الرباني بتبليغ الرسالة ٨٤
ثانيًا: بدء الدعوة السرية ٨٦
ثالثًا: استمرار النبي ﷺ في الدعوة ٩٣
١ ـ الحس الأمني ٩٣
٢ ـ دار الأرقم بن أبي الأرقم (مقر القيادة) ٩٥

رابعًا: أهم خصائص الجماعة الأولى التي تربت على يدي رسول الله ﷺ ٩٥
خامسًا: شخصية النبي ﷺ وأثرها في صناعة القادة ٩٧
سادسًا: المادة الدراسية في دار الأرقم ٩٨
سابعًا: الأسباب في اختيار دار الأرقم ٩٩
ثامنًا: من صفات الرعيل الأول ٩٩
تاسعًا: انتشار الدعوة في بطون قريش وعالميتها ١٠٢

المبحث الثالث: البناء العقدي في العهد المكي ١٠٣
أولاً: فقه النبي ﷺ في التعامل مع السنن ١٠٣
ثانيًا: سنة التغيير وعلاقتها بالبناء العقدي ١٠٦
ثالثًا: تصحيح الجانب العقدي لدى الصحابة ١٠٧
رابعًا: وصف الجنة في القرآن الكريم وأثره على الصحابة ١٠٨
خامسًا: وصف النار في القرآن الكريم وأثره في نفوس الصحابة ١٠٨
سادسًا: مفهوم القضاء والقدر وأثره في نفوس الصحابة ١٠٩
سابعًا: معرفة الصحابة لحقيقة الإنسان ١١٠
ثامنًا: تصور الصحابة لقصة الشيطان مع آدم عليه السلام ١١٠
تاسعًا: نظرة الصحابة إلى الكون والحياة وبعض المخلوقات ١١٠

المبحث الرابع: البناء التعبدي والأخلاقي في العهد المكي ١١١
أولاً: تزكية أرواح الرعيل الأول بأنواع العبادات ١١١
ثانيًا: التربية العقلية ١١٣
ثالثًا: التربية الجسدية ١١٣
رابعًا: تربية الصحابة على مكارم الأخلاق، وتنقيتهم من الرذائل ١١٤
خامسًا: تربية الصحابة على مكارم الأخلاق من خلال القصص القرآني ١١٥

الفصل الثالث
الجهر بالدعوة وأساليب المشركين في محاربتها

المبحث الأول: الجهر بالدعوة ١٢٠
- أهم اعتراضات المشركين ١٢٢

المبحث الثاني: سنة الابتلاء ١٢٨
- حكمة الابتلاء وفوائده ١٢٨

المبحث الثالث: أساليب المشركين في محاربة الدعوة ١٣٠
أولاً: محاولة قريش لإبعاد أبي طالب عن مناصرة وحماية رسول الله ﷺ ١٣١
ثانيًا: محاولة تشويه دعوة الرسول ﷺ ١٣٣
ثالثًا: ما تعرض له رسول الله ﷺ من الأذى والتعذيب ١٤٣

رابعًا: ما تعرض له أصحاب رسول الله ﷺ من الأذى والتعذيب ١٤٧
خامسًا: حكمة الكف عن القتال في مكة واهتمام النبي ﷺ بالبناء الداخلي ١٦٢
سادسًا: أثر القرآن الكريم في رفع معنويات الصحابة ١٦٧
سابعًا: أسلوب المفاوضات ١٧٠
ثامنًا: أسلوب المجادلة ومحاولة التعجيز ١٧٥
تاسعًا: دور اليهود في العهد المكي واستعانة مشركي مكة بهم ١٨٠
عاشرًا: الحصار الاقتصادي والاجتماعي في آخر العام السابع من البعثة ١٨٢

الفصل الرابع
هجرة الحبشة، ومحنة الطائف ومنحة الإسراء

المبحث الأول: تعامل النبي ﷺ مع سنة الأخذ بالأسباب ١٨٨

المبحث الثاني: الهجرة إلى الحبشة ١٩٠
أولاً: الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة ١٩٠
ثانيًا: هجرة المسلمين الثانية إلى الحبشة ١٩٦

المبحث الثالث: عام الحزن ومحنة الطائف ٢٠٩
أولاً: عام الحزن ٢٠٩
ثانيًا: رحلة الرسول ﷺ إلى الطائف ٢١٠

المبحث الرابع: الإسراء والمعراج.. ذروة التكريم ٢٢٢
أولاً: قصة الإسراء والمعراج كما جاءت في بعض الأحاديث ٢٢٣
ثانيًا: فوائد ودروس وعبر ٢٢٦

الفصل الخامس
الطواف على القبائل، وهجرة الصحابة إلى المدينة

المبحث الأول: الطواف على القبائل طلبًا للنصرة ٢٣١
أولاً: من أساليب النبي ﷺ في الرد على مكائد أبي جهل والمشركين أثناء الطواف على القبائل ٢٣٢
ثانيًا: المفاوضات مع بني عامر ٢٣٣
ثالثًا: المفاوضات مع بني شيبان ٢٣٣
رابعًا: فوائد ودروس وعبر ٢٣٤

المبحث الثاني: مواكب الخير وطلائع النور ٢٣٦
أولاً: الاتصالات الأولى بالأنصار في مواسم الحج والعمرة ٢٣٧
ثانيًا: بدء إسلام الأنصار ٢٣٧
ثالثًا: بيعة العقبة الأولى ٢٣٩

رابعًا: قصة إسلام أسيد بن حضير وسعد بن معاذ رضي الله عنهما ٢٤٠
خامسًا: فوائد ودروس وعبر ٢٤٢

المبحث الثالث: بيعة العقبة الثانية ٢٤٤

المبحث الرابع: الهجرة إلى المدينة ٢٥١
أولاً: التمهيد والإعداد لها ٢٥١
ثانيًا: طلائع المهاجرين ٢٥٢
ثالثًا: من أساليب قريش في محاربة المهاجرين ومن مشاهد العظمة في الهجرة ٢٥٣
رابعًا: البيوتات الحاضنة وأثرها في النفوس ٢٦٠
خامسًا: لماذا اختيرت المدينة كعاصمة للدولة الإسلامية؟ ٢٦٣

الفصل السادس
هجرة النبي ﷺ وصاحبه الصديق رضي الله عنه

المبحث الأول: فشل خطة المشركين، والترتيب النبوي الرفيع للهجرة ٢٦٨
أولاً: فشل خطة المشركين لاغتيال النبي ﷺ ٢٦٨
ثانيًا: الترتيب النبوي للهجرة ٢٦٩
ثالثًا: خروج الرسول ﷺ ووصوله إلى الغار ٢٧٠
رابعًا: رقة النبي ﷺ عند خروجه من مكة ٢٧١
خامسًا: عناية الله سبحانه وتعالى ورعايته لرسوله ﷺ ٢٧١
سادسًا: خيمة أم معبد في طريق الهجرة ٢٧٢
سابعًا: سراقة بن مالك يلاحق رسول الله ﷺ ٢٧٥
ثامنًا: سبحان مقلب القلوب ٢٧٦
تاسعًا: استقبال الأنصار لرسول الله ﷺ ٢٧٧
عاشرًا: فوائد ودروس وعبر ٢٧٩

المبحث الثاني: الثناء على المهاجرين بأوصاف حميدة والوعد لمن هاجر منهم والوعيد لمن تخلف ٢٩٣
أولاً: الثناء على المهاجرين بأوصاف حميدة ٢٩٣
ثانيًا: الوعد للمهاجرين ٢٩٦
ثالثًا: الوعيد للمتخلفين عن الهجرة ٢٩٧

الفصل السابع
دعائم دولة الإسلام في المدينة

المبحث الأول: الدعامة الأولى: بناء المسجد الأعظم بالمدينة ٢٩٩
أولاً: بيوتات النبي ﷺ التابعة للمسجد ٣٠٠
ثانيًا: الأذان في المدينة ٣٠١

ثالثًا: أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة ٣٠٢
رابعًا: الصُّفة التابعة للمسجد النبوي ٣٠٢
خامسًا: فوائد ودروس وعبر ٣٠٦

المبحث الثاني: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ٣١٢
أولاً: المؤاخاة في المدينة ٣١٤
ثانيًا: الدروس والعبر والفوائد ٣١٥

المبحث الثالث: الوثيقة أو الصحيفة ٣٢٣
أولاً: كتابه ﷺ بين المهاجرين والأنصار واليهود ٣٢٤
ثانيًا: دروس وعبر وفوائد من الوثيقة ٣٢٧
ثالثًا: موقف اليهود في المدينة ٣٣٤
رابعًا: إِن الله لا يصلح عمل المفسدين ٣٥٢

المبحث الرابع: سنة التدافع وحركة السرايا ٣٥٥
أولاً: سنة التدافع ٣٥٥
ثانيًا: من أهداف الجهاد في سبيل الله تعالى ٣٥٨
ثالثًا: أهم السرايا والبعوث التي سبقت غزوة بدر الكبرى ٣٦١
رابعًا: فوائد ودروس وعبر ٣٦٥

المبحث الخامس: استمرارية البناء التربوي والعلمي ٣٧٥
أولاً: أهم هذه الوسائل والمبادىء التربوية ٣٧٦
ثانيًا: من أخلاق الصحابة عند سماعهم للنبي ﷺ ٣٨٤

المبحث السادس: أحداث وتشريعات ٣٨٨
أولاً: معالجة الأزمة الاقتصادية ٣٨٨
ثانيًا: بعض التشريعات ٣٨٨

الفصل الثامن
غزوة بدر الكبرى

المبحث الأول: مرحلة ما قبل المعركة ٣٩١
أولًا: بعض الحوادث في أثناء المسير إلى بدر ٣٩٢
ثانياً: العزم على ملاقاة المسلمين ببدر ٣٩٣
ثالثاً: مشاورة النبي ﷺ لأصحابه ٣٩٤
رابعاً: المسير إلى لقاء العدو وجمع المعلومات عنه ٣٩٥
خامساً: مشورة الحباب بن المنذر في بدر ٣٩٧
سادساً: الوصف القرآني لخروج المشركين ٣٩٨
سابعاً: موقف المشركين لما قدموا إلى بدر ٣٩٩

المبحث الثاني: النبي ﷺ والمسلمون في ساحة المعركة ٤٠٢
أولًا: بناء عريش القيادة ٤٠٢
ثانياً: من نعم الله على المسلمين قبل القتال ٤٠٣
ثالثاً: خطة الرسول ﷺ في المعركة ٤٠٤

المبحث الثالث: نشوب القتال وهزيمة المشركين ٤٠٩
أولًا: إمداد الله للمسلمين بالملائكة ٤١١
ثانياً: انتصار المسلمين على المشركين وحديث رسول الله ﷺ لأهل القليب ٤١٣

المبحث الرابع: مشاهد وأحداث من المعركة ٤١٥
أولًا: مصارع الطغاة ٤١٥
ثانياً: من مشاهد العظمة ٤٢١

المبحث الخامس: الخلاف في الأنفال والأسرى ٤٢٣
أولًا: الخلاف في الأنفال ٤٢٣
ثانياً: الأسرى ٤٢٧

المبحث السادس: نتائج غزوة بدر ومحاولة اغتيال النبي ﷺ ٤٣٦
أولًا: نتائج غزوة بدر ٤٣٦
ثانياً: محاولة اغتيال النبي ﷺ وإسلام عمير بن وهب (شيطان قريش) ٤٣٨

المبحث السابع: بعض الدروس والعبر والفوائد من غزوة بدر ٤٤١
أولًا: حقيقة النصر من الله تعالى ٤٤١
ثانياً: يوم الفرقان ٤٤٢
ثالثاً: الولاء والبراء من فقه الإيمان ٤٤٤
رابعاً: المعجزات التي ظهرت في بدر وما حولها ٤٤٦
خامساً: حكم الاستعانة بالمشرك ٤٤٩
سادساً: حذيفة بن اليمان وأسيد بن الحضير رضي الله عنهما ٤٤٩
سابعاً: الحرب الإعلامية في بدر ٤٥٠

المبحث الثامن: أهم الأحداث التي وقعت بين غزوتي بدر وأحد ٤٥١
أولًا: الغزوات التي قادها رسول الله ﷺ بعد بدر وقبل أحد ٤٥١
ثانياً: غزوة بني قينقاع ٤٥٤
ثالثاً: تصفية المحرضين على الدولة الإسلامية: مقتل كعب بن الأشرف ٤٥٨
رابعاً: بعض المناسبات الاجتماعية ٤٦٧

الفصل التاسع
غزوة أحد

المبحث الأول: أحداث ما قبل المعركة ٤٧٠

أولًا: أسباب الغزوة ٤٧٠
ثانياً: خروج قريش من مكة إلى المدينة ٤٧٢
ثالثاً: الاستخبارات النبوية تتابع حركة العدو ٤٧٣
رابعاً: مشاورته ﷺ لأصحابه ٤٧٤
خامساً: خروج جيش المسلمين إلى أحد ٤٧٦
سادساً: خطة الرسول ﷺ لمواجهة كفار مكة ٤٨٠

المبحث الثاني: في قلب المعركة ٤٨٢
أولًا: بدء القتال واشتداده، وبوادر الانتصار للمسلمين ٤٨٢
ثانياً: مخالفة الرماة لأمر الرسول ﷺ ٤٨٤
ثالثاً: خطة الرسول في إعادة شتات الجيش ٤٨٦
رابعاً: من شهداء أحد ٤٨٨
خامساً: من دلائل النبوة ٥٠٠

المبحث الثالث: أحداث ما بعد المعركة ٥٠١
أولًا: حوار أبي سفيان مع الرسول ﷺ وأصحابه ٥٠١
ثانياً: تفقد الرسول ﷺ الشهداء ٥٠٢
ثالثاً: دعاء الرسول ﷺ يوم أحد ٥٠٣
رابعاً: معرفة وجهة العدو ٥٠٤
خامساً: غزوة حمراء الأسد ٥٠٥
سادساً: مشاركة نساء المسلمين في معركة أحد ٥٠٨
سابعاً: دروس في الصبر تقدمها صحابيات للأمة ٥١١

المبحث الرابع: بعض الدروس والعبر والفوائد ٥١٢
أولًا: تذكير المؤمنين بالسنن ودعوتهم للعلو الإيماني ٥١٣
ثانياً: تسلية المؤمنين وبيان حكمة الله فيما وقع يوم أحد ٥١٤
ثالثاً: كيفية معالجة الأخطاء ٥١٥
رابعاً: ضرب المثل بالمجاهدين السابقين ٥١٥
خامساً: مخالفة ولي الأمر تسبب الفشل لجنوده ٥١٦
سادساً: خطورة إيثار الدنيا على الآخرة ٥١٧
سابعاً: التعلق والارتباط بالدين ٥١٨
ثامناً: معاملة النبي ﷺ للرماة الذين أخطأوا والمنافقين الذين انخذلوا ٥٢٠
تاسعاً: أحد. . . جبل يحبنا ونحبه ٥٢٢
عاشراً: الملائكة في أحد ٥٢٣
حادي عشر: قوانين النصر والهزيمة من سورة الأنفال وآل عمران ٥٢٣
ثاني عشر: فضل الشهداء وما أعده الله لهم من نعيم مقيم ٥٢٥
ثالث عشر: الهجوم الإعلامي على المشركين ٥٢٥

الفصل العاشر
أهم الأحداث ما بين أحد والخندق

المبحث الأول: محاولات المشركين لزعزعة الدولة الإسلامية ٥٢٨
أولًا: طمع بني أسد في الدولة الإسلامية ٥٢٨
ثانياً: خالد بن سفيان الهذلي وتصدي عبد الله بن أنيس ـ رضي الله عنه ـ له ٥٢٩
ثالثاً: غدر قبيلتي عضل والقارة، وفاجعة الرجيع ٥٣٢
رابعاً: طمع عامر بن الطفيل في المسلمين وفاجعة بئر معونة (٤هـ) ٥٣٧

المبحث الثاني: زواج النبي ﷺ بأم المساكين، وأم سلمة، وأحداث متفرقة ٥٤٢
أولًا: زينب بنت خزيمة أم المساكين رضي الله عنها ٥٤٢
ثانياً: زواج النبي ﷺ بأم سلمة رضي الله عنها ٥٤٣
ثالثاً: مولد الحسن بن علي رضي الله عنهما ٥٤٦
رابعاً: زيد بن ثابت رضي الله عنه يتعلم لغة اليهود سنة ٤هـ ٥٤٧

المبحث الثالث: إجلاء يهود بني النضير ٥٤٨
أولًا: تاريخ الغزوة وأسبابها ٥٤٨
ثانياً: إنذار بني النضير بالجلاء وحصارهم ٥٥١
ثالثاً: الدروس والعبر في هذه الغزوة ٥٥٣

المبحث الرابع: غزوة ذات الرقاع ٥٦٢
أولًا: تاريخها وأسبابها ولماذا سميت بذات الرقاع؟ ٥٦٢
ثانياً: صلاة الخوف، وحراسة الثغور ٥٦٣
ثالثاً: شجاعة الرسول ﷺ ومعاملته لجابر بن عبد الله ٥٦٥

المبحث الخامس: غزوة بدر الموعد ودومة الجندل ٥٦٦
أولًا: غزوة بدر الموعد ٥٦٦
ثانياً: دومة الجندل ٥٦٨

المبحث السادس: غزوة بني المصطلق ٥٧١
أولًا: من هم بنو المصطلق، . ومتى وقعت الغزوة وأسبابها؟ ٥٧١
ثانياً: زواج رسول الله ﷺ من جويرية بنت الحارث رضي الله عنها ٥٧٢
ثالثاً: محاولة المنافقين في هذه الغزوة إثارة الفتنة بين المهاجرين والأنصار ٥٧٥
رابعاً: توجيه القرآن الكريم للمجتمع الإسلامي في أعقاب غزوة بني المصطلق ٥٧٩
خامساً: محاولة المنافقين الطعن في عرض النبي ﷺ بالافتراء على السيّدة
عائشة رضي الله عنها بما يعرف بحديث الإفك ٥٨١
سادساً: أهم الآداب والأحكام التي تؤخذ من آيات الإفك ٥٨٦
سابعاً: فوائد وأحكام ودروس من حادثة الإفك وغزوة بني المصطلق ٥٨٩

الفصل الحادي عشر
غزوة الأحزاب ٥هـ

المبحث الأول: تاريخ الغزوة، وأسبابها، وأحداثها ٥٩٢
أولًا: تاريخ الغزوة وأسبابها ٥٩٢
ثانياً: متابعة المسلمين للأحزاب ٥٩٤
ثالثاً: اهتمام النبي ﷺ بالجبهة الداخلية ٥٩٥

المبحث الثاني: اشتداد المحنة بالمسلمين ٥٩٨
أولًا: نقض اليهود من بني قريظة العهد ومحاولة ضرب المسلمين من الخلف ٥٩٨
ثانياً: تشديد الحصار على المسلمين وانسحاب المنافقين ونشرهم الأراجيف ٥٩٩
ثالثاً: محاولة النبي ﷺ تخفيف حدة الحصار بعقد صلح مع غطفان، وبث الإشاعات في صفوف الأعداء ٦٠١

المبحث الثالث: مجيء نصر الله والوصف القرآني لغزوة الأحزاب ٦٠٥
أولًا: شدة تضرع الرسول ﷺ ونزول النصر ٦٠٥
ثانياً: تحري انصراف الأحزاب ٦٠٦
ثالثاً: الوصف القرآني لغزوة الأحزاب ونتائجها ٦٠٨
رابعاً: التخلص من بني قريظة ٦١٠

المبحث الرابع: فوائد ودروس وعِبَر ٦١١
أولًا: المعجزات الحسية لرسول الله ﷺ ٦١١
ثانياً: بين التصور والواقع ٦١٣
ثالثاً: سلمان منا أهل البيت ٦١٣
رابعاً: الصلاة الوسطى ٦١٤
خامساً: الحلال والحرام ٦١٤
سادساً: شجاعة صفية عمة الرسول ﷺ ٦١٤
سابعاً: عدم صحة ما يروى عن جبن حسان رضي الله عنه ٦١٥
ثامناً: أول مستشفى إسلامي حربي ٦١٥
تاسعاً: المسلم يقع في الإثم ولكنه يسارع في التوبة ٦١٦
عاشراً: من فضائل سعد بن معاذ رضي الله عنه ٦١٦
حادي عشر: مقتل حيي بن أخطب، وكعب بن أسد ٦٢٠
ثاني عشر: شفاعة ثابت بن قيس في الزبير بن باطا اليهودي وسلمى بنت قيس في رفاعة بن سموأل ٦٢٢
ثالث عشر: من أدب الخلاف ٦٢٣
رابع عشر: توزيع غنائم بني قريظة وإسلام ريحانة بنت عمرو ٦٢٤
خامس عشر: الإعلام الإسلامي في غزوة الأحزاب ٦٢٥

الفصل الثاني عشر
ما بين غزوة الأحزاب والحديبية من أحداث مهمة

المبحث الأول: زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها ٦٢٧
أولًا: اسمها ونسبها ٦٢٧
ثانياً: زواجها من زيد بن حارثة رضي الله عنه ٦٢٨
ثالثاً: طلاق زيد لزينب رضي الله عنها ٦٢٨
رابعاً: الحكمة من زواج رسول الله ﷺ من زينب ٦٢٩
خامساً: قصة زواج رسول الله ﷺ من زينب وما فيها من دروس وعِبَر ٦٣٢

المبحث الثاني: الآن نغزوهم ولا يغزوننا ٦٣٦
أولًا: سرية محمد بن مسلمة إلى بني القرطاء ٦٣٧
ثانياً: سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى سيف البحر ٦٣٨
ثالثاً: سرية عبد الرحمٰن بن عوف إلى دومة الجندل ٦٤٢
رابعاً: تأديب الغادرين: غزوة بني لحيان، وغزوة الغابة وغيرهما ٦٤٥
خامساً: سرية كرز بن جابر الفهري إلى العرنيين ٦٤٩

المبحث الثالث: تصفية المحرضين على الدولة ٦٥١
أولًا: سرية عبد الله بن عتيك لقتل سلام بن أبي الحقيق ٦٥١
ثانياً: سرية عبد الله بن رواحة إلى اليُسير بن رزام اليهودي ٦٥٥

الفصل الثالث عشر
الفتح المبين (صلح الحديبية)

المبحث الأول: تاريخه وأسبابه ومخرج رسول الله ﷺ إلى مكة ٦٥٧
أولًا: تاريخه وأسبابه ٦٥٧
ثانياً: وصول النبي ﷺ بعسفان ٦٥٨
ثالثاً: الرسول ﷺ يغير الطريق وينزل الحديبية ٦٥٩
رابعاً: ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل ٦٦٠
خامساً: السفارة بين الرسول ﷺ وقريش ٦٦٢
سادساً: الوفود النبوية إلى قريش ووقوع بعض الأسرى في يد المسلمين ٦٦٧
سابعاً: بيعة الرضوان ٦٧٠

المبحث الثاني: صلح الحديبية وما ترتب عليه من أحداث ٦٧٢
أولًا: مفاوضة سهيل بن عمرو لرسول الله ﷺ ٦٧٢
ثانياً: موقف أبي جندل والوفاء بالعهد ٦٧٧
ثالثاً: احترام المعارضة النزيهة ٦٧٨
رابعاً: التحلل من العمرة ومشورة أم سلمة رضي الله عنها ٦٨٠

خامساً: العودة إلى المدينة ونزول سورة الفتح ٦٨١
سادساً: أبو بصير في المدينة وقيادته لحرب العصابات ٦٨٤
سابعاً: امتناع النبي ﷺ عن رد المهاجرات ٦٨٦
المبحث الثالث: دروس وعِبَر وفوائد ٦٨٧
أولًا: أحكام تتعلق بالعقيدة ٦٨٧
ثانياً: أحكام فقهية وأصولية ٦٨٩
ثالثاً: أنموذج من التربية النبوية ٦٩٤

الفصل الرابع عشر
أهم الأحداث ما بين الحديبية وفتح مكة

المبحث الأول: غزوة خيبر ٦٩٦
أولًا: تاريخها وأسبابها ٦٩٦
ثانياً: مسير الجيش الإسلامي إلى خيبر ٦٩٧
ثالثاً: وصف تساقط حصون خيبر ٦٩٩
رابعاً: الأعرابي الشهيد، والراعي الأسود، وبطل إلى النار ٧٠١
خامساً: قدوم جعفر بن أبي طالب ومن معه من الحبشة ٧٠٢
سادساً: تقسيم الغنائم ٧٠٣
سابعاً: زواج رسول الله ﷺ من صفية بنت حيي بن أخطب ٧٠٥
ثامناً: محاولة أثيمة لليهود... الشاة المسمومة ٧٠٨
تاسعاً: الحجاج بن علاط السلمي وإرجاع أمواله من مكة ٧٠٩
عاشراً: بعض الأحكام الفقهية المتعلقة بالغزوة ٧١١
المبحث الثاني: دعوة الملوك والأمراء ٧١٤
أولًا: كان صلح الحديبية إيذاناً ببداية المد الإسلامي ٧١٤
ثانياً: دروس وعِبَر وفوائد ٧١٧
المبحث الثالث: عمرة القضاء ٧٢٢
أولًا: الحيطة والحذر من غدر قريش ٧٢٢
ثانياً: دخول مكة والطواف والسعي ٧٢٣
ثالثاً: زواجه ﷺ من أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث ﵂ ٧٢٥
رابعاً: التحاق بنت حمزة بن عبد المطلب بركب المسلمين ٧٢٦
خامساً: أثر عمرة القضاء على الجزيرة، وإسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة ٧٢٧
المبحث الرابع: سرية مؤتة (٨هـ) ٧٣٢
أولًا: أسبابها وتاريخها ٧٣٢

ثانياً: وداع الجيش الإسلامي ٧٣٤
ثالثاً: الجيش يصل إلى معان واستشهاد الأمراء الثلاثة ٧٣٤
رابعاً: المسلمون يختاون خالد بن الوليد قائداً ٧٣٦
خامساً: معجزة الرسول ﷺ وموقف أهل المدينة من الجيش ٧٣٧
سادساً: دروس وعِبَر وفوائد ٧٣٨

المبحث الخامس: سرية ذات السلاسل ٧٤٤

الفصل الخامس عشر
غزوة فتح مكة (٨هـ)

المبحث الأول: أسبابها والاستعداد للخروج والشروع فيه ٧٤٨
أولًا: أسبابها ٧٤٨
ثانياً: الاستعداد للخروج ٧٥٠
ثالثاً: الشروع في الخروج وأحداث في الطريق ٧٥٣

المبحث الثاني: خطة النبي ﷺ لدخول مكة وفتحها ٧٥٨
أولًا: توزيع المهام بين قادة الصحابة ٧٥٨
ثانياً: دخول خاشع متواضع، لا دخول فاتح متعال ٧٦١
ثالثاً: إعلان العفو العام ٧٦٣
رابعاً: بعث خالد بن الوليد إلى بني جذيمة ٧٦٦
خامساً: هدم بيوت الأوثان ٧٦٧

المبحث الثالث: دروس وعِبَر وفوائد ٧٦٩
أولًا: مواقف دعوية وقدرة رفيعة في التعامل مع النفوس ٧٦٩
ثانياً: أتكلمني في حد من حدود الله؟ ٧٧٤
ثالثاً: أجرنا من أجرتِ يا أم هانىء ٧٧٤
رابعاً: إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة أعين ٧٧٥
خامساً: المحيا محياكم والممات مماتكم ٧٧٥
سادساً: إسلام عبد الله الزبعري شاعر قريش ٧٧٦
سابعاً: من الأحكام الشرعية التي تؤخذ من الغزوة ومكان نزول الرسول ﷺ بمكة .. ٧٧٧
ثامناً: من نتائج فتح مكة ٧٧٨

الفصل السادس عشر
غزوة حنين والطائف (٨هـ)

المبحث الأول: أسبابها وأحداث المعركة ٧٨٠
أولًا: أهم أحداث غزوة حنين ٧٨٠
ثانياً: مطاردة فلول الفارين إلى أوطاس والطائف ٧٨٤

المبحث الثاني: فقه الرسول ﷺ في التعامل مع النفوس ٧٨٧

المبحث الثالث: دروس وعِبَر وفوائد ٧٩٤
أولًا: تفسير الآيات التي نزلت في غزوة حنين ٧٩٤
ثانياً: أسباب الهزيمة وعوامل النصر في حنين ٧٩٥
ثالثاً: الأحكام المستنبطة من غزوة حنين والطائف ٧٩٦
رابعاً: مواقف لبعض الصحابة والصحابيات ٧٩٩
خامساً: إسلام كعب بن زهير ـ الشاعر ـ والهيمنة الإعلامية على الجزيرة ٨٠٠
سادساً: من نتائج غزوة حنين والطائف ٨٠٢

المبحث الرابع: أهم الأحداث ما بين حنين وتبوك ٨٠٣
أولًا: ترتيب استيفاء الصدقات ٨٠٣
ثانياً: أهم السرايا في هذه المرحلة ٨٠٣
ثالثاً: إسلام عدي بن حاتم ٨٠٥
رابعاً: أحداث متفرقة في سنة ثمان ٨٠٧

الفصل السابع عشر
غزوة تبوك (٩هـ) وهي غزوة العسرة

المبحث الأول: تاريخ الغزوة، وأسماؤها وأسبابها ٨٠٨
أولًا: تاريخها وأسماؤها ٨٠٨
ثانياً: أسبابها ٨٠٩
ثالثاً: الإنفاق في هذه الغزوة وحرص المؤمنين على الجهاد ٨١٠
رابعاً: موقف المنافقين من غزوة تبوك ٨١٣
خامساً: إعلان النفير وتعبئة الجيش ٨١٦

المبحث الثاني: أحداث في الطريق والوصول إلى تبوك ٨١٨
أولًا: قصة أبي ذر الغفاري ٨١٨
ثانياً: قصة أبي خيثمة ٨٢٠
ثالثاً: الوصول إلى تبوك ٨٢٢
رابعاً: وصايا رسول الله ﷺ بالجيش عند مروره بحجر ثمود ٨٢٣
خامساً: وفاة الصحابي عبد الله ذو البجادين رضي الله عنه ٨٢٤
سادساً: بعض المعجزات التي حدثت في الغزوة ٨٢٥
سابعاً: حديث القرآن الكريم عن مواقف المنافقين أثناء الغزوة ٨٢٨

المبحث الثالث: العودة من تبوك إلى المدينة وحديث القرآن الكريم في المخلفين عن الغزوة
وعن مسجد الضرار ٨٢٩
أولًا: المخلفون الذين لهم أعذار شرعية وعذرهم الله ﷻ ٨٣٠

ثانياً: المخلفون الذين ليس لهم أعذار شرعية وتاب الله عليهم ٨٣١
ثالثاً: المخلفون من منافقي الأعراب الذين يسكنون حول المدينة ٨٣٢
رابعاً: المخلفون من منافقي المدينة ٨٣٢
خامساً: مسجد ضرار ٨٣٣

المبحث الرابع: قصة الثلاثة الذين خلفوا ٨٣٨

المبحث الخامس: دروس وعِبَر وفوائد ٨٤٦
أولًا: معالم من المنهج القرآني في الحديث عن غزوة تبوك ٨٤٦
ثانياً: تطبيق مبدأ الشورى في هذه الغزوة ٨٤٧
ثالثاً: التدريب العملي العنيف ٨٤٨
رابعاً: أهم نتائج الغزوة ٨٤٩

المبحث السادس: أهم الأحداث ما بين غزوة تبوك وحجة الوداع ٨٥٠
أولًا: وفد ثقيف وإسلامهم ٨٥٠
ثانياً: وفاة زعيم المنافقين (عبد الله ابن سلول) ٨٥٤
ثالثاً: تخيير النبي ﷺ لزوجاته ٨٥٦
رابعاً: حج أبي بكر ـ ﷺ ـ بالناس ٨٥٩
خامساً: عام الوفود (٩هـ) ٨٦١
سادساً: بعوث رسول الله ﷺ لتعليم مبادىء الإسلام وترتيب أمور الإدارة والمال .. ٨٦٦

المبحث السابع: حجة الوداع (١٠هـ) ٨٦٩
أولًا: كيف حج النبي ﷺ؟ ٨٧٠
ثانياً: الدروس والعِبَر والفوائد ٨٧٥

المبحث الثامن: مرض رسول الله ﷺ ووفاته ٨٨٠
أولًا: الآيات والأحاديث التي أشارت إلى وفاته ﷺ ٨٨٠
ثانياً: مرض الرسول ﷺ ٨٨٣
ثالثاً: من وصايا رسول الله ﷺ في أيامه الأخيرة ٨٨٥
رابعاً: أبو بكر يصلي بالمسلمين ٨٨٦
خامساً: الساعات الأخيرة من حياة المصطفى ٨٨٦
سادساً: بعض ما قيل من المراثي في وفاة الرسول ﷺ ٨٩٢

الخاتمة ٨٩٥

المراجع ٨٩٧

الفهرس ٩١٩

المؤلف في سطور
علي محمد محمد الصَّلَّابيّ

- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام (1383هـ/ 1963م).
- حصل على درجة الإجازة العالية «الليسانس» من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة بتقدير ممتاز. وكان ترتيبه الأول على دفعته عام (1413هـ - 1414هـ/ 1992م - 1993م).
- نال درجة الماجستير من جامعة أم درمان الإسلامية. كلية الأصول. قسم التفسير وعلوم القرآن. عام (1417هـ/ 1996م).
- نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بجامعة أم درمان الإسلامية في السودان عام 1999م. وكانت الرسالة العلمية: فقه التمكين في القرآن الكريم.
- البريد الإلكتروني abumohamad2@maktoob.com

كتب صدرت للمؤلف من إصداراتنا:

1 - السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.
2 - سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه. شخصيّته وعصره.
3 - سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب رضي الله عنه. شخصيّته وعصره.
4 - سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفّان رضي الله عنه. شخصيّته وعصره.
5 - سيرة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. شخصيّته وعصره.
6 - سيرة أمير المؤمنين الحسن بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. شخصيّته وعصره.
7 - الدولة العثمانيّة: عوامل النهوض والسقوط.
8 - فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم.
9 - تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.
10 - تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.
11 - عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.
12 - الوسطية في القرآن الكريم.
13 - الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.
14 - معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره - الدولة السفيانية.
15 - عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.